تذکرة الاولیاء

شیخ فریدالدین عطار نیشابوری

مصحح: احمد آرام

بسم الله الرحمن الرحيم
وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد وآله وصحبه أجمعين

مساكين أهل العشق حتى قبورهم　　　عليها تراب الذُلّ بين المقابر

هذا هو العشق، فما بالك بمن فني في عشقه وتلاشى[١]، ففني بفنائه الزمان والمكان حتى غدا ظنًا ورجمًا بالغيب، لا يُعلم عنه شيء، ولا يدرى عنه إلاّ تخمين وحدس.

كذا هو فريد الدين العطار أحبّ فمحا الحبُّ نفسه، ولم يُبق منه إلاّ أثرًا مكتوبًا شاهدًا على لحظة وجوده، دالاً على مروره، مذكّرًا أولياءه: هنا يرقد العطار، فرحم الله من رحم، وغفر الرحمن لمن شهد.

إنه فريد الدين أوراق مبعثرة، وأشعار ومداد، ونثر وكلام، جمعها حبٌّ للواحد الأحد الفرد الصمد، حتى قال فيه جلال الدين الرومي:

طوّفَ العطارُ مدنَ العشق السبعة

ولا نزال في مُنعطف جادّةٍ واحدة

تصدير عام:

كانت خراسان ـ ومعناها البلاد الشرقية ـ تقسم إلى أربعة أرباع، ينسب كلُّ ربع منها إلى إحدى المدن الأربع التي كانت عواصم للأقاليم، وهي: نيسابور (ويقال: نيشابور)، ومرو، وهراة، وبلخ. وتقع نيسابور في أقصى الأرباع غربًا، ويُنسب بناؤها إلى سابور الأول بن أردشير، وذكر ياقوت إن أهل نيسابور

---

(١) العشق عند العطار سبب الأشياء كلها، حتى قال:

فإن تقرأ علوم الناس ألفا　　　بلا عشق فما حصّلتَ حرفا

كانو يسمّونها (نشاور)، وبيَّنَ أنّها بعد أن أصابها الخرابُ في زلزال سنة ٥٤٠هـ نهبتها قبائل الغُزُّ.

تاريخ نيسابور خلال حياة العطار: حَكَمَ ناصر الدين سنجر ما يُقارب من اثنتين وستين سنة، فمن سنة ٤٩٠ حتى ٥١١هـ كان أميرًا، لقَّبه أخواه بركيارق ومحمد ملكاً على خراسان وما وراء النهر، ومن سنة ٥١١ حتى ٥٥٢هـ، ملكًا على كلِّ الممالك السلجوقية ملقَّبًا بمعز الدين وسلطان السلاطين وملك المشرق، فكان آخرَ السلاجقة العظام. وفي أيام إمارته فتح ترمذ وطخارستان، وبسط سلطانه علي ما وراء النهر، وفتح غزنة. فلمّا أصبح ملكًا بسطَ نفوذه على طبرستان وكرمان وسجستان وأصفهان وهمذان والرَّيِّ وأذربيجان وأرمينية والعراق وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين.

وفي حدود سنة ٥١٩هـ ظهرت طائفة من الجنس الأصفر باسم القراختائيين (نسبة إلى بلاد الخطا، وهي أرض الصين الشمالية)، وأسسوا دولةً جديدة.

وأسس قطب الدين محمد، وهو أمير حبشي كان مأمورًا من قبل بركيارق بإمارات خراسان، السلسلة الخوارزمشاهية، إذ كان قد تلقّبَ بخوارزمشاه، سنة ٤٩٠هـ.

فكان لكلٍّ من هاتين الدولتين أثرٌ مهم في توجيه التاريخ في القرن السادس الهجري.

وازداد نفوذ القراختائيين في البلاد المجاورة لهم، وأغاروا على العالم الإسلامي سنة ٥٣١هـ، فأُصيب المسلمون بالذعر، فاستنجدوا بسنجر، فتقدَّم نحو ما وراء النهر، فخافوا بأسَه، فاعتذروا، فرفض اعتذارهم، والتحموا معه في معركة قرب سمرقند في ٥٣٦هـ. فهزموه، وقوي شأنهم، فاستولوا على ما وراء النهر، ودام حكمهم حتى قضى عليهم علاء الدين خوارزمشاه سنة ٦٠٩هـ.

وأبدى الخوارزميون الولاء للسلاجقة في بادئ أمرهم، فولى سنجر علاء

الدين أتسز ولاية خوارزم، غير أنه بعد أن قوي شأنه تمرّد عليه، فحاربه سنجر وغلبه سنة ٥٣٣هـ.

وثار أتسز مرة أخرى، وتَسمّى بالملك، وامتدَّ نفوذه إلى حدود جند، وشط نهر سيحون. فتهيأ سنجر للانتقام سنة ٥٣٨هـ فحاصر أتسز في خوارزم، فاعتذر لسنجر، فتصالحا، وحارب سنجر أتسز وصالحه عدة مرات، وفي ٥٤٣هـ تمَّ الأمر لأتسز على خوارزم، وسار أمر سنجر إلى الاضمحلال.

وفي سنة ٥٤٨هـ أغارت قبائل الغُزّ على نيسابور، فقتلوا ـ كما يروي ياقوت ـ كلَّ من وجدوا، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يُعرف، وخرَّبوها وأحرقوها، ثم اختلفوا، فهلكوا، فاستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر، فنقلَ الناس إلى محلَّةٍ منها يُقال لها الشاذياخ.

وحبس الغز سنجر عندهم أربع سنين، حتى هرب، فذهب إلى مرو، فتأثّر غاية التأثر، إذ رأى ما قد حلَّ بها من خراب. ومات وهو في الثانية والسبعين سنة ٥٥٢هـ.

وبعد أتسز حكم ابنه أيل أرسلان من ٥٥١ـ ٥٦٧هـ. وانقطع أيل أرسلان عن دفع الخراج إلى القراختائيين، وكان أبوه يدفعُهُ لهم، فحملوا عليه، وتغلّبوا على عسكره على ضفاف جيحون، وتُوفّي بعد هذه الموقعة سنة ٥٦٧هـ. فملك بعده ابنه الصغير جلال الدين محمود سلطان شاه، غير أنَّ الولد الكبير علاء الدين تكش لم يرضخْ لحكم أخيه، وقوي شأنه، إذ دفع الخراج للقراختائيين، فطَرد هو وأمُّه تركان خاتون أخاه الصغير من خوارزم، وتولّى الملك مكانه سنة ٥٦٨هـ. فحكم حتى ٥٩٦هـ. واستطاع أن يُضيف الريَّ وأصفهان إلى المملكة الخوارزمية، وتلاه علاء الدين محمد، فحكم حتى ٦١٧هـ. وهو أشهر الملوك الخوارزميين، وقد استطاع بعد سلسلةٍ من الحروب مع الغوريين في خراسان أن يُخضعَ القسم الأكبر من إيران، وفتح بخارى وسمرقند، وحمل على ممالك كورخان القراختائي، واحتل عاصمته، وفي سنة ٦١٤هـ استولى على أفغانستان وغزنين، وحبًا بالعلويين صمَّمَ على أن يقضي على الخلافة العباسية في بغداد،

غير أنَّ حملة المغول المفاجئة صرفته عن ذلك، وهربَ أمام سيلهم الجارف، وأخيرًا أسلم الروح في إحدى جزائر مازندران سنة ٦١٧هـ.

الخلافات المذهبية:

وكانت الخلافات المذهبية على أشدِّها في العالم الإسلامي كلِّه منذ القرن الخامس الهجري ولاسيما في إيران، فالخلاف بين السنة والشيعة كان قد اشتدَّ حتى استحال إلى معارك دموية في بغداد، وكان السَّلاجقة وخلفاءُ بغداد حماةً للسنة، وكان الفاطميون في مصر والإسماعيليون في إيران قد رفعوا أعلام تشيعهم، وكانت الدعوةُ الفاطمية في خراسان نفسها قويةً، وكان النزاعُ بين السنة والشيعة على أشدِّه، وكانت النصارى الصليبيون أعداءً لكلا الفريقين من المسلمين.

اشتدَّ النزاعُ بين تلك الفرق في القرن السادس الهجري، ولنا من شعر العطار على ذلك أكبرُ شاهدٍ، فقد رأيناه في «منطق الطير» و«أسرار نامه» و«مصيبت نامه» يعقد فصولاً في ذمِّ التعصب، ويُوجِّه الكلام فيها جميعًا إلى الشيعة.

ومن الطبيعي أن ينتج من تلك الخصومات الدينية قلقٌ واضطراب وهلع، وقتلٌ وتشريد وجوع، فتشتَّتِ القلوبُ، وعمَّ الناسَ الخوفُ على ما لديهم من مصالح، فشاعَ عند ذاك النِّفاقُ بين ضعاف النفوس.

التصوف: منذ العصر السلجوقي أخذ التصوف في الانتشار، وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب؛ فإن اضطرابَ الحياة السياسية، وتفرّقَ الناس في مذاهبهم شيعًا وأحزابًا، وجنوح كلِّ فريقٍ إلى التعصب، وضعف النفوس، وفساد الأخلاق، واستخدام العلوم والفلسفة استعمالاً غير صحيح في نصرة الفريق المتعصّبِ، كلُّ ذلك يشيعُ في الناس اليأس والقنوط، فلا يجدون ملجأً حينئذ غير التصوف، فراجت سوقه، وكثر أتباعه، واهتمَّ به وبأهله حتى الأمراء والسلاطين.

وظهر في هذا العصر جماعةٌ من كبار الصوفية في العالم الإسلامي عامة،

وفي إيران خاصة مثل: حمّاد الدبّاس، وعدي بن مسافر، وعبد القادر الكيلاني، وأبي النجيب السُّهروردي، وأحمد الرفاعي، وعين القضاة الهمذاني، وأبي مدين المغربي، وأبي مدين البغدادي، وروزبهان البقلي، ومجد الدين البغدادي، ونجم الدِّين الكُبْرى، وقطب الدين حيدر، وشيخنا فريد الدين العطار.

وكانت مدينة نيسابور في عصر العطار من أهم مراكز العلم والثقافة ورحماً أنجب كبار الزهاد[1]، وكان فيها للشافعية والحنفية مدارس كثيرة، وكانت المباحثات والمناظرات تجري في هذه المدارس وفي الخانقاهات والزوايا. ولما هاجم الغُزُّ هذه المدينة كان من العمارات المهمة التي هُدّمت مسجدُ العقلاء، كانت فيه مكتبة عظيمةٌ تحتوي على خمسة آلاف مجلد في أنواع العلوم المختلفة، وقد أُحرقت هذه المكتبة، وهُدمت ثماني مدارس حنفية، وسبع عشرة مدرسة شافعية، وأحرقت خمس مكتبات أخرى، ونُهبت سبع مكتبات، وبيعت كتبها بسعر الورق.

وكان من المدارس المهمة في ذلك الوقت نظامية نيسابور، وكان التدريس فيها منوطًا من الخواجة نظام الملك بإمام الحرمين أبي المعالي الجُويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ وكان أُستاذَ الغزالي، وأكبرَ علماء الشافعية في عهده. وكان فيها من المعيدين أبو نصر السراج المتوفى سنة ٥١٨هـ، وأبو الحسن الكياهراسي زميل الغزالي في الدراسة المتوفى سنة ٥٠٤هـ، ودرّس فيها الغزالي، ثم تلميذه محيي الدين محمد بن يحيى المتوفى سنة ٥٤٨هـ.

أما الحياة الأدبية في عصر العطار فتكاد تكون أخصب العصور أدبًا، فمن شعراء ذلك العصر: الخيام المتوفى سنة ٥٢٧هـ، وسنائي المتوفى سنة

---

(١) كانت خراسان منشأ لكثير من المتصوفة مثل: إبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض، وأبي يزيد البسطامي، وحاتم الأصم، وأبي حفص الحداد، وأبي عثمان الحيري، والقشيري، والغزالي، وأبي سعيد بن أبي الخير، والعطار، وجلال الدين الرومي.

٥٤٥هـ، وصابر الترمذي المتوفى سنة ٥٤٦هـ، وجمال الدين الأصفهاني المتوفى ٥٨٨هـ.

فريد الدين العطار:

ما رأيت شخصيةً الشكُّ فيها أقرب إلى اليقين، واليقين أقرب إلى الشكِّ من شخصية فريد الدين العطار، فلا تكاد تسلمُ له قضية، ولا يصحُّ له أمر، فالناس قد تقاسموه، وانتهبوا ميراثه.

وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

وشخصية العطار ليست وليدة علوٍّ في أفكارها، أو سموٍّ في اتجاهها ونظرتها فقط، وإنما انقسم الناس حولها حبًّا بها وإعجابًا، وتناحرًا في لمِّها إلى جماعتهم، ومحاربة في ضمِّها إلى مذهبهم ومشربهم، ولا أعني هذا إلا المذهبية عندما تصبح أداة قتل وتدمير، وسرقة كل شيء حتى التراث والإبداع والإنسان.

ولا أستطيع في هذه العجالة إلاّ أن أقدّم دراسةً عامة لن تشفي غليلاً أو تروي صاديًا، كما أنها لن تقرّ عين باحثٍ متخصص، وما ذاك إلا لتجاوز أبحاث لن أخرج منها بيقين وقرار، بل سأنتهي إلى رجم وظنون، واستعراضٍ لأقوال حائرة، ما تلبث أن تغدو سرابًا.

وكأني بالعطار قد ترجم لنفسه دون أن يقصد[1]:

قلتُ: صف لي على الطريق منارًا ... قال: ما في طريقنا من منار
إنّه من وضوحِهِ في ظلامٍ ... ويُرى من خفائِهِ كالنَّهارِ

هذا هو العطار الذي قال عنه الدكتور عبد الوهاب عزام: فلمّا وقعتُ في بحر هذا الشاعر راعني لجُّهُ، وهالني موجه، فجهدت حتى رجعت إلى الساحل، وقنعتُ بأن أصفَ سعةَ الماء واضطرابه، وتتابع أمواجه، وعراكها

(١) التصوف وفريد الدين العطار صفحة ٢.

الدائم، وما يقذف الموج حينًا من جواهره أو حيوانه، لم أستطع ركوب أثباجه إلى مجاهله، ولا الغوص في لُجَجِهِ إلى قاعه[١].

ـ هو أبو حامد[٢] ـ وقيل أبو طالب[٣] ـ محمد بن أبي بكر بن إسحاق الملقب بفريد الدين العطار.

ـ ولد في قرية كدكن من أعمال نيسابور[٤] في عهد السلطان سنجر بن ملكشاه[٥].

ـ كان والده صالحًا تقيًا يعمل بالعِطارة[٦]، وورث عنه فريد الدين هذه المهنة إضافة إلى الصلاح والتقى، وكذا كانت أُمُّهُ ورعةً صالحة، وصفها في كتابه «خسرو وكل» بقوله:

لم يكن لي أنسٌ إلاّ بأمي

وقد ذهبتْ.

كم شدّتْ أزري هذه الضعيفة التي كانتْ خليفةً من مملكة الدين.

لقد كانتْ ضعيفةً كالعنكبوت.

---

(١) التصوف وفريد الدين العطار صفحة ٤.

(٢) اقتداءً بأبي حامد محمد بن محمد الغزالي. وكلا الرجلين لم ينجب حامدًا.

(٣) نُحلت له هذه الكنية اقتداءً بأبي طالب أبي علي كرّم الله وجهه لإثبات ميله لآل البيت، بل تشيّعه.

(٤) اختلف في مكان ولادته؛ فمنهم من يقول في كدكن، ومنهم من يقول في شادياخ. ويرجّح الدكتور أحمد ناجي القيسي ولادته في مدينة نيسابور نفسها في كتابه: عطار نامه صفحة ٦٩.

(٥) لا نستطيع أن نحدد تاريخ ميلاد العطار تحديدًا دقيقًا جازمًا؛ لأن أقدم مصدر سجل لنا تاريخ ميلاده هو كتاب دولتشاه الذي بينه وبين العطار ثلاثة قرون تقريبًا، والتاريخ الذي ذكره هو استنتاج واجتهاد. وقد ذكر لولادته ست عشرة رواية أولها بحدود سنة ٥١٢هـ، وآخرها سنة ٥٥٥ هـ. ورجّح الدكتور القيسي ولادته بين سنة ٥٢٨ و٥٣٦هـ.

(٦) العطارة مصطلح يشمل الطب وبيع الدواء، ويتضمن معرفة العقاقير المختلفة والأشربة والعطور، وكيفية المحافظة عليها، وكيفية خلطها وتحضيرها، والمعالجة بها.

ولكنَّها كانت لي حصنًا ودرعًا.

كانت رابعة الثانية؛ بل أتقى من رابعة.

بقيت تسعةً وعشرين عامًا تلبسُ حقيرَ الثياب وخشنها.

وكانت تقوم الليل دعاءً وبكاءً.

وبذا فقد نشأ الشاعر بين أبوين صالحين، فلا غرو أن يكبر وينمو في قلبه حبُّ الصلاح والدين والورع، وحب التصوف والصوفية.

ـ مارس فريد الدين العطار مهنة أبيه. وكان يتردَّدُ عليه كلَّ يومٍ خمس مئة مريض، فيفحصهم ويعطيهم الدواء، كان يعمل ليلاً ونهارًا حتى وقت اعتكافه في زاويته، فجعله ذلك ميسور الحال غنيًا، بل ثريًا.

ـ لم يذكر أحد شيئًا عن أسرة العطار، وكل ما ذهبوا إليه هو استنتاجٌ من أشعاره. ويحوم الشك حول زواجه، هل تزوج أم مات عزبًا؟ ويَستنتج من جعله ربًا لأسرةٍ متزوّجًا أنه رزق بمولود أسماه يوسف ضياء الدين، وقد توفي وهو في الثانية والثلاثين، ورُزِيء فريد الدين العطار بموت زوجته أمِّ ولده بعده، ثم لحقتهما أُمُّهُ الحنون المعطاء.

ولا يستند الفريقان ـ مَنْ جعله أبًا، ومَنْ رأى أنه لم يتزوج أصلاً ـ إلى خبرٍ يقينٍ، بل كما أسلفت إلى جملة من أشعاره، وتأويلٍ لنصوصه النثرية.

بقي في نيسابور ثلاثة عشر عامًا يعمل بمهنة العطارة كدًّا وتعبًا، لكنه لم ينس نصيبه من العلم، فراح يجمع الكتب ويطالع فيها قراءة وتدبرًا. نما في قلبه حبُّ التصوف والصوفية منذ الطفولة، فسار في طريقها متدرجًا، سيرة طبيعية أساسها الدراسةُ لأحوال القوم وأخبارهم وأقوالهم، وسَنَدُها تذوُّقُه لهذا المشرب، وملاءَمة مزاجه لهذا المسلك، وحاضِنتُها بيئةٌ طيبة متدينة: أبٌ ورع، وأم معطاء تقية.

جلس في صيدليته يبيع الدواء ويداوي المرضى، ويغتنم ساعاته في تأليف

مثنوياته، وكتب في صيدليته كتابيه: «مصيبت نامه» و«أسرار نامه».

أما الحدث الذي غيَّر مجرى حياته، وبدَّل سلوك ذاته، وجعله صوفيًا زاهدًا سالكًا لطريق القوم تاركًا الدنيا وأشغالها، فهو ما ذكره عبد الرحمن جامي في كتابه «نفحات الأنس» ص ٧٩٣ قال: كان سببُ توبته أنه كان يومًا في دكان العطار مشغولاً ومشغوفًا بالمعاملة، فجاء فقير، فسأله مرارًا: لله شيء. وما التفتَ إلى الفقير، فقال: يا خواجه، كيف تموت أنت؟ قال الشيخ العطار: كما أنت تموت. قال الفقير: أنت تقدر تموت كما أنا أموت؟ قال العطار: نعم. وكان للفقير قدحٌ، فوضعه تحت رأسه، وقال: الله، ومات. فتغيَّر حال الشيخ فريد الدين، وتصدّق بما كان في ملكه، ودخل طريق الصوفية[١].

لقد كانت هذه الحادثة سبباً لتحرر ذاته من إسار ذاتها، وتوجهها إلى فضاء المحبة والقرب من الله.

شيوخ العطار: لمَّا تمَّت توبته ـ بعد موت الفقير بين يديه ـ ذهب إلى شيخ شيوخ نيسابور ركنِ الدين عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكّاف، وانشغل بالمجاهدة والمعاملة، فلازمه عدة سنين في حلقات الذكر، وخرج عن كلِّ ما كان له في سبيل الله، واتّصل بخدمة مولاه الذي كان من عرفاء العصر علمًا وفنًا وقربًا[٢].

ـ الشيخ قطب الدين حيدر: صاحب رياضة، كان من الأبدال، مجذوبًا

---

(١) يشكك أغلب الباحثين ـ ومنهم: عبد الوهاب عزام، وأحمد ناجي القيسي، وبراون ـ بصدق هذه الرواية التي يهواها العامة وأشباه العامة ممن يؤمن بالحوادث الظاهرة المفاجئة أكثر من إيمانهم بالتأمل الخفي المديد.

(٢) يقول الدكتور القيسي: إن وفاة الأكاف كانت سنة ٥٤٩هـ، فإن كانت ولادة العطار ما بين سنة ٥٢٨ـ ٥٣٦هـ فقد كان عمره عند وفاة الأكاف بين سن ١٣ـ ٢١ سنة؛ فكيف تاب على يديه، على حين أنه أشار في كتابه «خسرو نامه» إلى أنه ابتدأ تأليف «مصيبت نامه» و«إلهي نامه» وهو في الصيدلية، وكان عمره لا يقل عن ستين سنة. وتوبته كانت بعد خروجه من الصيدلية.

مطلقًا، مُعْتَقَدًا به، صاحب كرامات ومقامات، وقد توفي سنة ٥٩٧ أو ٦٠٢ للهجرة، وكان العطار وأبوه من مريديه[١].

ـ الشيخ مجد الدين البغدادي: شيخ الشيوخ ومعدن الفضل، كان في طبّ الأبدان مسيح الزمان، ونادرةَ الدنيا، التقاه العطار، وقيل أخذ منه الخرقة[٢].

ـ نجم الدين الكُبْرى: العالم الفاضل المجاهد، وأول من ذكر صلة العطار به الخواجه كلان البلخي في كتابه «ينابيع المودة» الذي ألّفه سنة ١٢٩١هـ، ولم يرد اسم نجم الدين الكبرى في أي أثر من آثار العطار، فكأن هذا من تأليف كلان نفسه.

ـ الشيخ ابن الربيب: كان عالمًا بالفقه والأصول والقرآن، عابدًا زاهدًا، شافعيًا، اعتزل الناس واشتغل بالعبادة. مدحه العطار في مثنوية «خسرو نامه». وقد بنى بعض الباحثين على مدحه لابن الربيب أنه كان مريدًا له، وهذا أمر يحتاج إلى دليلٍ آخر.

ـ الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير: المتوفى سنة ٤٤٠هـ (انظر ترجمة العطار له في كتاب التذكرة صفحة (٧٤٩) وهي من أطول التراجم) وقد ذكره في جلّ كتبه[٣]، وبيّن أن ما وصل إليه إنّما كان مستمدًا من روحانية هذا الشيخ. وأخلص له، حتى قال في ديوانه:

إنني أدرك أن كلَّ حظٍّ أجده في هذا الزمان من أنفاس أبي سعيد.

---

(١) ينكر الدكتور القيسي أن يكون العطار مريدًا لقطب الدين لأنه الصوفي الوحيد الشيعي بين متصوفة إيران. وشرط الصوفية أن يلبس المريد الخرقة من يد شيخ سنّي عالم بالشريعة والطريقة، وقطب الدين لم تتوفر فيه هذه الشروط. وقد بلغ الحال بأصحاب حيدر أن جعلوا للعطار كتابًا نظمه مدحًا لهذا الشيخ هو: «حيدر نامه».

(٢) كذلك ينكر الدكتور القيسي أن يكون العطار مريدًا له، فمجرد اللقيا لا تعني التتلمذ، أما حديث الخرقة، فخبرٌ مشكوك فيه.

(٣) لقد أكثر العطار من مديح الشيخ أبي سعيد اعترافًا بفضله وروحانيته، فذكره في تسع حكايات بمصيبة نامه، وفي خمس حكايات بإلهي نامه، وفي ثلاث حكايات بمنطق الطير، وفي حكاية واحدة بأسرار نامه.

كما أنني أحظى في كل لحظة بنصيب وافر من سبل مدده.

ـ وكان من مشايخه الذين تأثر بهم دون أن يراهم الإمام الغزالي؛ فقد كان ملهمًا ومرشدًا له في أجلّ أعماله وأعظمها أثرًا «منطق الطير»، إذ أخذ أصولها عن مؤلف الغزالي «رسالة الطير».

وبناء على ما مرّ يصحُّ في هذا الشأن ما نقل الجامي من أن العطار كان أُويسيًا (أي إنه حصل على التربية الصوفية، وقطع مراحل السلوك بلا شيخٍ، كما تربى أُويس القرني في حجر النبوة، ولم يكن له تشرُّفٌ برؤية النبي ﷺ).

لقد ارتقى ووصل وحده دون الاستعانة بشيخ يحدوه لهذه المرتبة التي وصلها، ولذلك النَّفَسِ الطاهر الطيب. نشأةٌ في بيئةٍ عطرةٍ صالحةٍ، وحبٌّ لأولياء الله ملأَ كيانه، وتذوّقٌ لكلماتهم وحكاياتهم. أضف إلى هذا نفسيةً شاعرة رقيقة محبة عاطفية، وجدت في التصوف ما افتقدته في كل ما رأته من مدارس ومذاهب.

أسفار العطار: ترك فريد الدين العطارة، وبقي في نيسابور ما يقرب من ثلاث عشرة سنة بين حلقات الذكر ومجالس رجالات القرب، ثم سافر في طلب المشايخ والأولياء، وساح في الرَّيِّ والكوفة ومصر ودمشق ومكة والهند وتركستان، ثم ألقى عصا التسيار في نيسابور.

ولكن الدكتور القيسي يشكك في هذه الرواية أيضًا في كتابه «عطار نامه»، معتمدًا على سِنِّ العطار؛ فقد بلغ من العمر عتيًا، ولا يمكن لرجل في مثل سِنِّه ظهره كالقوس، ولا يصلح لعملٍ أن يتجشَّم عناء هذا السفر الطويل، ذكر هذا الحال من الضعف العطار نفسه في كتبه.

نعم، قد ذُكرت هذه الأسفار في أشعاره؛ ولكن هل كانت هذه الرحلات حسيّةً أم معنوية؟ فليس هناك دليل قاطع عليها.

وفاة العطار: ما أعجب حال العطار! لقد حجبته عنا سحبٌ كثيفة من الأساطير والخرافات، فلم نتبيَّنْ شيئًا يُذْكر من جوانب حياته على وجه

التحقيق. وحاله وهو يفارق الدنيا ويتوارى عنها كحاله يوم ولد، وكحاله في عمره المديد. على أن تلك الأساطير والخرافات لم تفارقه حتى مات، بل حتى بعد أن مات، وكلّما مرَّ الزمان ازداد شيخنا احتجابًا خلف تلك الأساطير والخرافات، والظنون والأوهام.

ذكرت المصادر استشهاده على يد التتار عندما دخلوا نيسابور سنة ٦٠٧هـ، وقال الجامي مؤرِّخًا في «النفحات» إنها كانت سنة ٦٢٧، وكان سبب استشهاده أن مغوليًا استطاع أسره، فجاءه مريدٌ للشيخ، وقال: أعطيك فداءه ألف درهم ـ وقيل: جاءه ثلاثة طلاب من طلاب الشيخ، وقالوا: نعطيك وزنه ذهبًا ـ فأراد المغولي أن يتركه. فقال له الشيخ: لا تبعني، فسيفتدونني بأفضل من هذا الثمن. فقال شخص آخر: لا تقتل هذا الشيخ؛ فإني أعطيك كيسَ تبنٍ ثمنًا له. فقال الشيخ فريد الدين: بعني؛ فإني لا أُساوي أحسنَ من هذا. فما كان من المغولي إلا أن سلَّ سيفه مغضَبًا، وقتل الشيخ.

قيل: إن العطار بعد قتله أمسك برأس نفسه بين يديه، وجرى مقدار نصف فرسخ ـ حيث مرقده الحالي ـ وهو ينظم كتاب «بيسر نامه» أي مقطوع الرأس.

كذا ذكرت مصادر ترجمة العطار قصة موته، ولكن سنة ٦٢٧هـ التي قيل إنها سنة استشهاده أو سنة ٦١٧هـ لا تلائم وقائع زمان جنكيز خان التي كانت قبلها، ولا وقائع زمان هولاكو التي حدثت بعد ذلك.

إن عدم إشارة العطار إلى حروب خوارزم شاه وحوادث خراسان المهمة بين سنة ٦٠٦ و٦١٦ تزيد من اليقين بأن العطار لم يكن حيًا في تلك الحقبة.

جمع الدكتور القيسي ثمانية وعشرين تأريخًا الوفاة العطار، ينزل أقدمها إلى سنة ٥١٠هـ ويصعد أحدثها إلى سنة ٧٢٧هـ.

وهكذا فإن المؤرخين لم يختلفوا في تعيين تاريخ وفاة رجلٍ من الرجال اختلافهم في تعيين تاريخ وفاة العطار.

وأنسب ما يُذكر عن عمر العطار ما أورده مؤلف كتاب «مجمل فصيحي»: سنة ٦٠٧ للهجرة. وبه يكون العطار قد عُمِّر نحواً من سبعين سنة، وهذا استنتاج من أشعاره أيضاً، فهو يقول محدثًا نفسه:

إن كنت قد قضيت سبعين عامًا

فليس هذا بعجيب

ولكن العجيب أنَّ نفسَكَ تزداد سوءًا في كل لحظة.

ولا يعني هذا أنه قالها وهو على فراش الموت؛ ولكن استئناسًا واستنتاجًا لتقديره عمره، إذ لم يذكر بعد هذه الأعوام أعوامًا أخرى، وقال أيضًا:

لقد جثم الموت أمام مدخل الوادي مئة مرة

والآن تخطّى عمرُكَ الستين

ووصل إلى ما بعد السبعين ببضع سنين.

وحتى هذا التاريخ لا يزال بحاجه إلى قرائن وأدلة تقوّي احتمال صحّته.

وكما اختلفوا في سنة وفاته، اختلفوا أيضًا في مكان قبره، حتى ذهب الباحث برتليس إلى أن قبره في مكة شرّفها الله، وقد بنى رأيه على كذبةٍ وفرية تقول: إن أهل السنة نفوه عن نيسابور بعد أن أظهر تشيّعة.

أخلاق العطار ومذهبه: العطار رجلٌ عابد زاهد، سلك سبيل مجاهدة النفس وتصفيتها، ولا شك أن من يسلك هذا السبيل لا بدَّ أن يكون قد بلغ أسمى درجات الكمال، إنها أخلاق الصوفي الحقِّ المتمسّك بمحاسنها، البعيد عن مساوئها، المحبّ لجميع ما خلق الله، العاطف عليهم.

والعطار مبغضٌ للتعصب، آية ذلك أنه عقد فصولاً في كتبه لذمِّ التعصب المذهبي المقيت، مترضيًا عن الصحابة أجمعين، معتبرهم مصابيحَ الوجود، قال العطار في «أسرار نامه»:

لقد جلستَ في كلِّ عمرك في هذه المحنة

فلستُ أدري متى تعبد الله.

كان سنيًا متسامحًا، أحبَّ أبا بكر وعمر وعليًا والأئمة، حبًا مبنيًا على حقيقة الإيمان القائم على صحة الاعتقاد.

ولكن هل هو كما قيل: إن العطار يبدو في أمهات آثاره سنيًا إذ يمدح الخلفاء الراشدين، ولكنَّه في أواخر حياته أظهر تشيّعه عندما ألف كتابَيْه «مظهر العجائب»[(١)]، و«لسان الغيب»[(٢)] وهما كتابان تفوح منهما رائحة التشيُّع. مدح فيهما عليًا كرم الله وجهه والشيعة. فهو شيعي أخذ بالتقِيَّة، وكان تشيّعُهُ سببًا في ثورة أهل السنة عليه واضطهادهم له، حتى كبسوا داره، ونهبوا أمتعته، وهدّدوا حياته؛ بل أحرقوا كتبه. هذا ما قاله الباحثون الشرقيون، وأغلب المستشرقين.

لقد اعتمد هؤلاء في رأيهم هذا على مدحه آل البيت رضوان الله عليهم والأئمة الأبرار لإظهار حجتهم، ولكنهم نسوا أن حبَّ آل البيت عند أهل السنة والجماعة من الإيمان، ونسوا أيضاً أنَّ العطار صوفي. ولا ينكر حبَّ الصوفية لآل البيت والأئمة إلا كلُّ معاند جاحد.

لقد ورد في أشعاره ما يقدح هذا، فهو يروي أن أبا بكر الشبلي قال: من جملة فِرق العالم التي خالفَتْ، ليس أحدٌ أكثر دناءة من الرافضي والخارجي.

وقد ذم التعصبَ الشيعي، وكُرْهَ الصحابة في كتبه: «منطق الطير» و«مصيبت نامه» و«أسرار نامه». ولو كان العطار شيعيًا لذمّ تعصب أهل السنة للخلفاء الثلاثة الأُول وللصحابة.

---

(١) يرجح الدكتور محمد جمعة في مقدمة كتاب منطق الطير صفحة ٢٦ أن كتاب ينابيع المودة ـ المدسوس على العطار الذي لم يسنده أحد مطلقًا إلى العطار قبل عام ١٢٩١هـ ـ هو كتاب «مظهر العجائب» نفسه.

(٢) وهذان الكتابان يجزم أكثر الباحثين بنحلهما على فريد الدين العطار.

إن العطار يُنكر على التعصب والمتعصبين في مقدمة «منطق الطير»، حتى إنه يَعُدُّ المتعصبَ جاهلاً، فهو يقول:

يا من وقعت أسير التعصب

وظللت أبدًا أسير البغض والحب

إن كنت تفخر بالعقل والحكمة، فكيف وقعت أسير التعصب؟

فيا جاهلاً، لا رغبةَ في الخلافة

إذًا كيف تتأتى الرغبةُ لأبي بكر وعمر!؟

وفي المقابل أثنى العطار على كثيرٍ من كبار أهل السنة من أمثال: أبي سعيد بن أبي الخير، وأحمد الغزالي، وابن الربيب، والأكّاف، ونظام الملك وغيرهم. فإذا كانت التقية سببًا لثنائه على الأحياء، فأي سبب يدعوه إلى الثناء على الأموات منهم؟!

وأهل السنة ليسوا أعداءً لأهل البيت، بل يحبونهم ويبجّلونهم، ويزورون قبورهم ويحترمونها، وعقلاء الإيرانيين لا ينكرون هذه الحقيقة. يقول الأستاذ سعيد نفيسي: إن أتباع السنة في إيران لم يتشدّدوا في شأن الأئمة الإثني عشر قط، وإن التفاوت الواضح الذي بين تَسنُّن إيران وتسنن البلاد الإسلامية الأخرى هو في هذا الأمر نفسه. وشيعة إيران أيضًا، حتى ما قبل العهد الصفوي لم يسيئوا القول بشأن الخلفاء الثلاثة والصحابة والتابعين.

ولم ينتظمِ الشيعةُ في سلك التصوف في إيران إلاّ في وقتٍ متأخر. وحتى القرن السادس كان كبار الصوفية في إيران أحنافًا، وكان نجم الدين الكُبرى شافعيًا، ولم يظهر التشيّعُ في الفرق الصوفية إلا في القرن الثامن.

يقول الأستاذ نفيسي: إن العطار سنّي شافعي.

أما الدكتور عبد الوهاب عزام فيقول في كتابه: «التصوف وفريد الدين العطار» صفحة ١٢٢: إن العطار سنّي متشدّد.

أما دوتاسي في مقدمة ترجمته الفرنسية لمنطق الطير، ونيكلسون فيريان العطارَ كاتبًا سنيًا.

وينبغي ألا ننسىٰ أنه ألّف آخر كتبه «تذكرة الأولياء» في تمجيد الزهاد والصالحين من أهل السنة، ولو كان شيعيًا لما فعل هذا البتة. وهل يُعقل ما قيل عنه إنه ألّف هذا الكتاب تقية أيضًا؟ ولو افترضنا أنه أخذ بها حرصًا على نشر مثنوياته، فما الذي يجبره على أن يؤلف كتابًا كاملاً ضمّنه الثناء على سبعة وتسعين وليًا سنيًا.

ثقافة العطار: كان العطار صاحب ثقافة موسوعية شاملة، فهو لكثرة ما درس ووعى وتمثّلَ من ثقافات متشعّبة الفروع متنوّعة الفنون غدا مكتبةً حيّةً ودائرةَ معارف تدرج على الأرض، فهو عارف بالتاريخ القديم، مُطّلع على أساطيره، ملمٌّ بالأديان القديمة، مستوعب لقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي مثنوياته تجد الكثير من الإشارات إلى التاريخ الإسلامي عامة، وإلى تاريخ إيران خاصة.

أما عن ثقافته الإسلامية (القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمصطلح، والعلوم الدينية) فحدّث ولا حرج.

وأما معرفته بالتصوف فذلك لا يحتاج إلى دليل، بل يمكن أن تُعدَّ مؤلفات العطار دائرة معارف للتصوف؛ إذ لم يغادر جزئيةً من التصوف إلاّ شرحها، ولا مصطلحًا إلا ذكره ووضّحه.

وقد تضلّع العطار من اللغة الفارسية، واستوعب أدبها شعرًا ونثرًا، بل حفظًا وتمثلاً.

أما معرفة العطار بالعربية وآدابها فلا تحتاج إلى دليل أيضًا، أَوَلَيْسَ هو مؤلف «تذكرة الأولياء» الذي هو ترجمة لأقوال سبعة وتسعين صوفيًا، لغتهم التي نطقوا بها وحكمهم ومواعظهم كانت في معظمها باللغة العربية.

وينبغي أن نذكر أن مقدمة الكتاب كتبها باللغة العربية بأسلوب فصيح مشرق.

ومن البديهيات التي لا تحتاج لبرهان ثقافة العطار الطبية والعشبية.

لقد عرف الجغرافية وعلم الفلك والموسيقا والفلسفة، وكان على ثقافة عالية شاملة كاملة، وإلمام كبير بأغلب فنون الثقافة في عصره؛ فشاعر عظيم، ومفكر كبير كالعطار لم يكن ليرضى أن يترك فنًا من فنون الثقافة في عصره دون أن يطلع عليه، ويأخذ بنصيب وافر منه.

غير أننا لا نستطيع بعد أن سكت التاريخ أن نتبيَّنَ على مَنْ درس علومه، ومَنْ كانت شيوخه.

منزلة العطار: إن المقام العظيم الذي تبوَّأه العطار في الأدب الفارسي جعل المؤلفين يجلّونه ويذكرونه ذكرًا جميلاً مقرونًا بالإكرام مشفوعًا بالاحترام، ولو رحنا نعدّد ما قالوه لسوّدنا الصفحات بذكر مآثره البيضاء:

قال دولتشاه في كتاب «تذكرة الشعراء»: هو سلطان العارفين، فريد الملة والدين، مرتبته عالية، ومشربه صافٍ، وكلامه يُدعى سوط أهل السلوك. وقد كان وحيدًا في الشريعة والطريقة، وهو شمعُ الزمان في الشوق والتضرع والاحتراق والفناء المستغرق في بحر العرفان، الغوّاص في بحر الإتقان.

وقال شفق في كتابه «تاريخ أدبيات إيران» ص١٢٣: هو أحد عظماء مذهب العرفان وأئمته وشعرائه.

كرامات العطار: إن احترام الناس للعطار، ونظرة الإكبار والإجلال والتقديس له جعلتهم ينسبون إليه الكرامات، كما نسبوها لغيره من عظماء الصوفية، وقد ذُكر ما لا يُحصى كثرةً من الأقاصيص المتعاضة في كراماته، وهم يتجاوزون فيها حدود بشريته، ويذكرون عنه أشياء لا تصدق، نكتفي بذكر أكثرها غرابة، (ذكرت قبل) وهي: لما قطع المغولي رأس الشيخ عن جسده بالسيف، أمسك الشيخ المقتول رأسه بكلتا يديه، وجرى نصف فرسخ،

فشملت القاتل الحيرة، فجرى في أثره، وطوى مسافة نصف فرسخ حتى وصل إليه، فأمسك بجسد الشيخ، فسقط الجسم بلا رأس ميتًا على الأرض.

ولم يكتفوا بهذا، بل قالوا: إنه ـ وهو على هذه الحال ـ نظم كتاب «بيسر نامه» أي كتاب مقطوعِ الرأس.

آثار العطار الأدبية: لم يتفق البحاثة والنقاد على عدد مؤلفات فريد الدين، فقد ذكر دولتشاه أنه ألف أربعين كتابًا، والقاضي الشوشتري جعل مؤلفاته بعدد سور القرآن أربعة عشر ومئة كتاب، أما رضا قلي خان هدايت فقد جعلها مئة وتسعين كتابًا. وقد أوصل جولبنار لي التركي وريتر الألماني مؤلفات العطار إلى ثلاثين كتابًا، وقام الأستاذ سعيد نفيسي بعمل إحصاء لجميع أسماء الكتب التي قيلت إنها من تأليف العطار فوصل العدد إلى ستة وستين كتابًا.

ولن نستطيل بذكر مؤلفاته وما قيل عنها، ولنكتف بما ذكره هو عن كتبه في كتبه: «خسرو نامه»، و«مختار نامه»، و«تذكرة الأولياء» ما دامت صحيحة النسب إليه، وأول مؤلفاته المنسوبة إليه يقينًا:

١ـ **الديوان**: وقد جمعه هو بنفسه، ولم يرتبه بحسب الأنواع الشعرية، ولا بحسب الحروف الأبجدية، ولا بحسب البحور الشعرية. يشتمل على أكثر من مئة قصيدة، وأكثر من ألف غزلية وقطعة. أما المطبوع من ديوانه، فهو أقل من هذا العدد.

ومعاني التصوف غالبة على ديوانه، أما غزلياته فتندرج تحت ثلاثة أنواع:

الأول: الغزل الحسي الذي يتناول وصف الزلف والخط والخال وسائر أعضاء المعشوق، وللمتأول أن يقول: إنه قصد غير ما يُتوهَّم من هذا الشعر الظاهر.

الثاني: العرفاني، وهو يتناول الموضوعات الصوفية من فناء وبقاء، ووحدة وجود، وما يتعلق بالحب الإلهي.

الثالث: القلندريات[1]: وهي تدور حول تخريب الظاهر، وتحصيل سوء السمعة، والعمل بما يخالف العادات.

أما قصائده فجارية مجرى الغزليات، فمنها ما يشتمل على معانٍ صوفية، ومنها ما يشتمل على وصفٍ لأحوال النفس، ومنها ما يشتمل على معانٍ في الزهد، وتأسُّفٍ على العمر، ومنها ما يشتمل على وصف ذاته في آخر عمره من انحناء الظهر، والشيب والضعف، ومنها ما يشتمل على غزل حسي.

٢ـ مختار نامه: وهي أقدم مجموعة مرتبة وصلت إلينا من الرباعيات في الأدب الفارسي، كان العطار قد نظم ثلاثة آلاف رباعية (أي ستة آلاف بيت) ثم غسل منها ـ على حدِّ قوله ـ ما يقرب من خمس مئة رباعية، أي نحو ألف بيت، فأطلق على الرباعيات الألفين والخمس مئة الباقية اسم «مختار نامه».

وقد قسّم العطار ما انتخبه إلى خمسين بابًا، يمكن تقسيمها إلى سبعة أقسام: التصوف، الدين (مدح الرسول ﷺ والصحابة)، العشق، الغزل المادي، ما يتعلق بشخصه، وصف الطبيعة، القلندريات، والخمريات.

وعلى الرغم من تكرار المعاني، فإن القارئ لمختار نامه لا يشعر أنه يقرأ رباعيات لا صلة لإحداها بالأخرى، فإنَّ تدفّق المعاني وتسلسلها وتقاربها تجعل الكتاب وكأنه قصيدة واحدة طويلة.

٣ـ خسرو نامه: يتألف هذا المثنوي من (٨٣٦٥) بيتًا، وقد نظمه العطار من بحر الهزج، وهي قصة شعبية تروي قصة خسرو ابن قيصر الروم، ومجيئه إلى فارس، وعشقه. وقد ضمّن العطار هذه القصة الغرامية كثيرًا من المعاني العرفانية، وشفع حوادثها بالاستنتاجات الأخلاقية، وملأها بالنصائح الكثيرة من البعد عن الطمع وهوى النفس، ودروس في التحمّل والصبر، وفوائد الصدق والتوكل، وترك العلائق الدنيوية.

(١) القلندرية: طريقة صوفية ظهرت في خراسان، تقوم على الرضا واحتقار العالم الزائل والامتناع عن كل بهرج خارجي، وقد تأثرت بالمعتقدات الهندوسية والبوذية. انظر نفحات الأنس صفحة ٢١.

٤ـ **إلهي نامه**: (الأسرار المشهودة) يحتوى هذا المثنوي على (٧٢٩٢) بيتًا، والكتاب لا يعدو حوارًا يقع بين خليفة وأولاده الستة، يجلسهم الأب أمامه، ويسألهم واحدًا واحدًا: ماذا تطلب من هذا العالم حتى أساعدك على نيل مرادك؟. كلٌّ واحدٍ منهم يطلب طلبًا حسيًّا (زواج ـ ماء الحياة ـ السحر. . .) فيوضح له الأب الخليفة حقيقةَ الأمر والفناء، وينتظم الحوار مجموعةٌ كبيرة من الحكايات، يغلب عليها الطول والجانب الديني (الزهد، وترك الدنيا، ولقاء الموت. .).

٥ـ **مصيبت نامه**: (حسرة العالم): مثنوي يحتوي على (٧٥٣٩) بيتًا من بحر الرمل المسدس المقصور، وبعد مقدمته يقسّم العطار كتابه إلى أربعين مقالة تبتدأ بسفر السالك إلى جبرائيل، وعندما يصل إليه يسأله عن الطريق، فيجيبه أنه لا يعرف ، ولا يستطيع إرشاده، فيمضي السالك إلى الملائكة والشمس والكواكب والتراب والماء والوحوش والجن والإنس والأنبياء فلا يجد عند أحدٍ منهم ما يطلب، ويعود إلى شيخه، فينصحه أن يذهب إلى محمد ﷺ، فيتظلم إليه، فيبيّن له ﷺ أن الطريق إنما يبدأ من القلب، وأن مقامات الطريق أو منازله خمسة هي: الحسّ، فالخيال، فالعقل، فالقلب، فالروح أخيرًا، فيرجع السالك إلى شيخه، فيعرض عليه ما رأى وما سمع، فيبين له أن الفقر المحض يجعل الإنسان في جوار الله تعالى، وينتهي سفر السالك في نفسه بوصوله إلى مقام الروح. ويتخلّلُ الكتاب حكايات كثيرة يوضح فيها العطار أفكاره.

ولكن؛ لماذا سمى العطار كتابه بمصيبت نامه؟ يُجيب فروزانفر عن هذا السؤال معللاً بشيئين:

الأول: إن هذا السالك يعرض مشكلته على كلِّ شخصٍ، فلا يحلّها أحدٌ، وأية مصيبة أكبر من أن يعرض المرء مشكلة على كل الموجودات الحسية والغيبية والملائكة والأنبياء فلا يشفي غلّته أحد.

الثاني: أفصح عنها العطار نفسه إذ بيّن أنه تحمّل جهدًا عظيمًا في ترتيب معاني كتابه وتنسيق ألفاظه.

إن تسمية كتابه بمصيبة نامه هي نعي وعويل على البشرية كافة التي لم تتعرف على رسول الرحمة. البشرية التي اتّبعتِ السُبل فتفرّقت بهم عن سبيله، فأنّى اتّجهتْ، وحيثما سلكتْ فالمصيبة آتية ما لم تلجأ لدليل الحائرين، وسراجِ العالمين محمد الأمين ﷺ.

٦ـ **أسرار نامه**: مثنوي يتألف من (٣٣٠٥) أبيات من بحر الهزج المسدس المحذوف، ويتألف من اثنتين وعشرين مقالة في موضوعات صوفية مختلفة لا يبدو عليها ترتيب منطقي، وهي أشبه بالخواطر.

وطريقة العطار في هذا الكتاب أنه يعرض فكرة موضوعه في أول كلّ مقالةٍ، ثم يوضّح تلك الفكرة بحكايات يناسب أول كل منها نهاية ما قبلها.

وقد كان لكتاب «أسرار نامه» عناية خاصة من سالكي طريق التصوف، وهو من الكتب التي كان لها تأثير كبير على مولانا جلال الدين الرومي.

٧ـ **منطق الطير**: أهم مثنويات فريد الدين، وهو من أوضح كتب التصوف التي تصور فكرة وحدة الوجود[١]، وقد نظمه من بحر الرمل المسدس المقصور، ويرى فروزانفر أن مقصود العطار في تسمية منطق الطير هو لسان الاستعداد، وظهور المرتبة والمقام عند سالكي طريق الحقيقة.

واقتبس العطار اسم كتابه من قوله تعالى في سورة النمل الآية (١٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ. . .﴾.

ولم يقتصر التأثير القرآني على اختيار العطار لاصطلاح منطق الطير[٢]، بل تعدّاه في ظلّ هذا التأثير إلى اختياره الهدهد دليلاً للطيور الثلاثين في سفرها

---

(١) يقول الدكتور بديع محمد جمعة: إن العطار يصور وحدة الشهود لا وحدة الوجود. انظر مقدمة منطق الطير صفحة ١١٧.

(٢) ولا ننسى ـ كما ذكرت قبل ـ أن العطار أخذ أصول كتابه «منطق الطير» عن مؤلف الإمام الغزالي «رسالة الطير».

الطويل خلال الوديان السبعة[١] بحثًا عن السيمرغ[٢]، وفي نهاية المطاف تصل إلى السيمرغ، فتجد نفسها هي السيمرغ، والسيمرغ هو هي، ثم أضاءت شمس القرب محرقةً كلَّ روح، فرأين السيمرغ حينئذٍ، وما أعجبَ ما رأين! كن إذا نظرن إلى السيمرغ رأين سي مرغ (ثلاثين طائرًا) وإذا نظرن إلى سي مرغ (الثلاثين طائرًا) رأين السيمرغ. وإذا نظرن إلى أنفسهن والسيمرغ معًا رأين السيمرغ وحده، فأخذتهن الحيرة، وسألن، فقيل لهن: إنّ هذه الحضرة مرآةٌ، فمن جاء لا يرى إلاّ نفسه.

جئتن سي مرغ (ثلاثين طائرًا) فرأيتن السيمرغ، كيف تدركنا الأبصار، كيف تنال الثريا عينُ النملة؟ ليس الأمر كما رأيتن وعلمتن، ولا كما قلتن أو سمعتن، ولكن قد خرجتن من أنفسكن، فهاهنا مكانكن، فامّحين، وضاع الظلُّ في الشمس.

فلمّا مضى مئات الآلاف من القرون ـ القرون التي لا زمان لها ـ أُرجعت الطير الفانية إلى أنفسها، فلمّا رجعت إلى أنفسها بغير أنفسها رجعت إلى البقاء بعد الفناء[٣].

أما عدد أبيات منطق الطير فيقع بين (٤٣٠٠ و٤٦٠٠) بيتٍ، وسبب الاختلاف هو اختلاف نسخ الكتاب الخطية.

---

(١) الوديان السبعة هي: وادي الطلب، العشق، المعرفة، الاستغناء، التوحيد، الحيرة، الفقر والغنى.

(٢) يقول الدكتور أحمد ناجي القيسي في عطار نامه ٢/ ٥٤٥: والسيمرغ كلمة مؤلفة من (مرغ) وهي الطائر و(سي) طائر كبير من الكواسر لعلّه النسر.

أما الدكتور جمعة فيقول: إنه طائر وهمي لا جود له.

وقال الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه التصوف وفريد الدين العطار: (سي مُرغ) بالفارسية تعني ثلاثين طائرًا (سي) تعني ثلاثين و(مرغ) تعني طائرًا.

(٣) التصوف وفريد الدين العطار صفحة ١١١ـ ١١٢. وقد ترجم الدكتور عبد الوهاب عزام بيتًا للعطار صفحة ٨١ يلخص فكرة الكتاب:

وما الوجه إلا واحد غير أنّه ... إذا أنت عدّدْتَ المرايا تعدّدا

والكتاب يتألف من مقدمة مدح فيها الرسول ﷺ، ثم مدح الخلفاء الأربعة، وذم التعصب بين السنة والشيعة، ثم يبدأ بسرد القصة، ويقسمها إلى خمس وأربعين مقالة، تضمنت حكايات وقصصًا بلغ عددها ١٨٠ حكاية تختلف طولاً وقصرًا، ثم الخاتمة.

وقد لخّص الشاعر الصوفي الهندي محمد أفضل اللاهوري المتوفى سنة ١١٢٧هـ الكتاب وفكرته في رباعية واحدة:

فتحت الطيور الثلاثون أجنحتها من الشوق
وطوت الهواء بحثًا عن السيمرغ
فلمّا عدَّتْ نفسها في آخر الأمر
رأت أنها كانت هي نفسها السيمرغ

إن فكرة الكتاب هي العروج والسفر إلى العالم الآخر بحثًا عن الله.

***

آثار العطاء النثرية:

للعطار أعمال نثرية صحيحة النسبة إليه، ذكرها في كتابه «تذكرة الأولياء»، ولكنها مفقودة، لذا لا يمكننا أن نذكر إلا عنواناتها وأماكن ورودها:

١ـ كتاب شرح القلب. (ذكره في التذكرة ص ٢٠، ٦٢٨).

٢ـ معرفة النفس والرب. (ذكره في التذكرة ص٢٠).

٣ـ كشف الأسرار. (ذكره في التذكرة ص٢٠).

٤ـ تذكرة الأولياء:

لم يذكر العطار هذا الكتاب «التذكرة» فيما ذكر من كتبه لا في مقدمة «مختار نامه» ولا في «خسرو نامه» وهذا يدل على أن العطار ألف «تذكرة

الأولياء»[١] بعد الانتهاء من تأليف كتبه المنظومة كلها.

وقد حصر العطار أسباب تأليفه هذا الكتاب فيما يأتي[٢]:

الأول: رغبة إخوانه في الدين أن يؤلف لهم كتاباً عن الصالحين.

الثاني: أن يبقى هذا الكتاب ذكرى منه، فيذكره من يقرؤه بالدعاء.

الثالث: الاستفادةُ من كلام المشايخ.

الرابع: كلامُ الأولياء جندُ الله، فذكر كلامهم، وإيراد قصصهم يقوّي قلب المريد.

الخامس: أنَّ أرواحهم مددٌ له.

السادس: أنَّ كلامهم أعلى كلامٍ بعد القرآن الكريم والحديث الشريف.

السابع: أنَّ كلامهم شرحٌ للقرآن والحديث، يغني الناس عن اللغة والنحو والصرف.

الثامن: أنَّ كلام الحقِّ يؤثِّرُ في القلب.

التاسع: أنَّ قلبه ما كان يستطيع أن يقول أو يسمع غير هذا الكلام، فألَّفه حتى يشاركَهُ في ذلك أهل الزمان.

العاشر: أنه منذ صغره كان قلبه يموجُ بحبِّ هذه الطائفة.

الحادي عشر: أنَّ أشرار الناس قد نسوا أخيار الناس، فألَّف كتابه تذكرةً لهم.

الثاني عشر: أن تكون له به الشفاعةُ يومَ القيامة.

ويقول العطار: إن كتابه ليس في الدنيا أحسن منه... وإنه يجعل المُخنَّثين

---

(١) هذا هو العنوان الذي اختاره العطار وارتضاه، وأجمعت المصادر عليه سوى المستشرق بلوشيه، فإنه انفرد بتسميته: «تذكرة الأولياء وتبصرة الأصفياء»، وأغلب الظن أن كلمة (وتبصرة الأصفياء) جاءت زيادة من أحد نسّاخ الكتاب.

(٢) انظر مقدمة التذكرة صفحة (٢٥).

رجالاً، والرجال شجعانًا، والشجعان أفرادًا، والأفراد عين الألم...

يبدأ العطار كتابه بمقدمة عربية فصيحة تُناسب عقيدةَ الصوفية في الفناء ووحدة الوجود، ويؤكّد مضمونُها نسبتَها إليه حقًّا، إنه يقول فيها: الحمد لله الجواد بأفضل أنواع النعماء.. وتتلو هذه المقدمة مقدمةٌ أخرى بالفارسية يبيّن فيها سببَ تأليفه الكتاب، ويختمها بفهرست فصوله.

وتتألف «تذكرة الأولياء» من سبعة وتسعين فصلاً، يخصّ كلَّ فصلٍ واحدًا من كبار الأولياء، وقد بدأ العطار الكتاب بترجمة الإمام جعفر الصادق، وختمه بالإمام محمد الباقر تبرُّكًا.

ويبدو أنّ العطار كان قد عقد النية في بادئ أمره على أن يترجم لاثنين وسبعين وليًا فقط، وعلى هذا الأساس جعل فهرسته في آخر المقدمة مشتملةً على أسماء أولئك، مُبتدئًا بالإمام الصادقُ منتهيا بالحلاج. فلمّا أتمّ تأليف المجلد الثاني الذي جعله في «ذكر المتأخرين من المشايخ الكبار» مشتملاً على خمسةٍ وعشرين ترجمة نسي أن يكملَ الفهرست الذي وضعه في آخر مقدمة المجلد الأول من الكتاب.

ولهذا السبب صار بعض الباحثين يَشكّون في نسبة المجلد الثاني من «تذكرة الأولياء» إلى العطار.

ولعلّ أولَ من أثار هذه المسألة هو ويلهلم بيرسج مؤلف «فهرست المخطوطات الفارسية في برلين» سنة ١٨٨٨م. فإنه وجد النسخة ذات الرقم ٥٨١ في فهرسته، المؤلفة من مجلدين لكتاب التذكرة؛ الأول تأليف العطار، أما الثاني فقد كُتب عليه تحت عنوان المجلد الثاني: «ذكر متأخران ان مشايخ كبار رحمة الله عليهم أجمعين» على يد أضعف الخلائق وأحقرهم الراجي إلى عفو الله تعالى وغفرانه محمود بن أبي القاسم بن عيسى بن حسين بن أبي القاسم الكفربابي العتيقي. فظنّ أن من المحتمل أن يكون محمود هذا هو مؤلف هذا الجزء من الكتاب.

ويُبين نيكلسون أن الملحق كالأصل يبدو أنه من تأليف شيخ سنّي، وأن المجلدين مُتشابهان في الطريقة والأسلوب، ويقول: إن جهل حاجي خليفة مؤلف كتاب كشف الظنون بملحق الكتاب(١) لا يقدّم مُبررًا في الشك في أصالة نسبته إلى العطار، ويرى أنه من الممكن أن النسخة التي أَلّفها العطار قد أُجريت عليها بعض التغييرات؛ بأن زيدت عليها بعض الترجمات، وعوّضتْ بعض مادته القديمة، أو وسّعت بمادةٍ جديدة.

يمكن القول إذن: إن المجلد الثاني من «تذكرة الأولياء» أيضًا من تأليف العطار، وهو يبدأ بترجمة إبراهيم الخواص، وينتهي بمحمد الباقر.

وظني أن الكتاب ظهر على يد مؤلفه مرتين متباينتين زماناً وبياناً وعددَ تراجم، فظهر أول مرّة وعدد تراجمه بضع وسبعون ترجمة، ولمّا نظر العطار به ثانية ـ بعد أن سار الكتاب، وتلقته الأمة ـ أضاف تَراجمَ أُخر إلى الأصل دون أن يُشير إلى استدراكه(٢)، فأوقع الناس بحيص بيص، فمن وصله الكتاب بصورته الأولى نقله وكتب عنه ما وجده، ومن وصله الكتاب بنسخته المعدلة مع استدراك مؤلفه وصف ما وجده بين يديه.

وفي كلا الأمرين حدث اضطراب وفوضى في التوصيف والإحصاء.

وطريقة العطار في تأليفه هذا الكتاب أنه يبدأ كلَّ ترجمةٍ بعدَّةِ جُملٍ مسجّعةٍ في مدح المترجم، وجملٍ تبيّن مكانته بين رجال التصوف، ثم يبدأ بذكر بعضِ أخباره، ثم يسردُ ما نُسب إليه من أقوال، ثم ينتقل إلى الحديث عن وفاته

---

(١) كشف الظنون ٣٨٥، وعبارته فيه: تذكرة الأولياء... ذكر فيه سبعين شيخاً من كبار المشايخ.

(٢) كاد يقع هذا مع عبد الرؤوف المناوي عندما سار كتابه «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» وهو «الطبقات الكبرى» ووجد بعد مراجعته أنه لم يذكر تراجم أهل اليمن والروم والشام والعجم، فأراد أن يلحقهم بكتابه؛ لكنه خشي أن يقع الناس في الوهم، فتختلف النسخ وتضطرب، فأفرد ما أراد استدراكه بمؤلف قائم بذاته: «إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن» أو الطبقات الصغرى.

وكراماته عند الموت، ثم الدعاء له بالمغفرة والرحمة.

ويرى فروزانفر أن العطار في بدايات تراجمه إنما هو مقلّد لأبي نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء»، وللهجويري في «كشف المحجوب» فقد سبقاه إلى هذا في ذينك الكتابين.

وقد أحصى فروزانفر ما في الكتاب من حكايات وأقوال، فإذا هي (٩٨٨) ثمان وثمانون وتسع مئة حكاية، و(٢٨٦٤) أربعة وستون وثمان مئة وألفا قول.

ولم يكن غرض العطار من تأليف كتابه أن يؤرّخ لمن ترجم لهم من الأولياء؛ بل كان غرضه منه التعليم والهداية، تعليم الناس التصوف بإطلاعهم على سير أعلامه وأقوالهم، وهداية الناس إلى طريق الله بذلك.

وإذا لم يكن العطار مؤرخًا في هذا الكتاب، لا ينبغي أن نطالبه بما نطالب به المؤرخ من التدقيق في نقل الأخبار، وتوخّي الصحة فيما يروي من حوداث ووقائع، ولهذا السبب نجد كتابه ـ كما يقول محمد بن عبد الوهاب القزويني ـ لا يخلو من التسامح في ضبط الوقائع وصحّة المطالب، وفيه الكثير من المطالب الضعيفة والمشكوك فيها، والمكذوبة وغير المطابقة للواقع، والأحاديث الموضوعة والأمور الغريبة ـ عدا الكرامات وخوارق العادات، والأغلاط التاريخية.

ولم يكن العطار أول من ألّف في موضوعه، فقد سبقه في اللغة الفارسية اثنان: أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري الغزنوي المتوفى سنة ٤٦٥هـ في «كشف المحجوب لأرباب القلوب»، وأبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ في ترجمته الهروية لكتاب السلمي: «طبقات الصوفية»، مع إضافة بعض التراجم إليه.

غير أن فروزانفر يرجّح كتاب العطار على كتب أولئك جميعًا.

تأثر العطار وهو يجمع مادة كتابه من مصادره العربية باللغة الأصل (العربية)، فراح يزين كتابه (تبرّكًا وإعجابًا) بجملٍ وتعابير عربية محضة؛ إن

كانت أحاديث شريفة أو أقوالاً مأثورة، أو حتى بعض الأشعار، مما حدا الباحث بهار إلى إحصاء نسبة الكلمات العربية إلى الكلمات الفارسية، فوجدها تشكل حوالي ١١٪ من مجمل مفردات الكتاب.

لقد تولّدت شهرة كتاب تذكرة الأولياء من ثلاثة أسباب:

١ـ أسباب شخصية: فالكتاب من تأليف فريد الدين العطار، وهو مَن هو.

٢ـ أسباب تاريخية: فهو من أوائل الكتب الفارسية التي تحدّثت عن رجال التصوف وفكرهم.

٣ـ أسباب فنية: بلغ العطار الغاية في كتابه هذا لغة وبيانًا واستيعابًا حتى عُدَّ كتابه من أفضل ما أُلِّفَ في بابه. إذن فلا غرو أن يترجَم الكتاب إلى كثير من اللغات، نذكر ما وصل إلينا منها:

١ـ اللغة العربية: ترجم قديمًا إلى العربية، وسنذكر هذه الترجمات عند ذكر المخطوطتين اللتين اعتمدنا عليهما.

وترجم عبد الرحمن بدوي الفصل الخاص من الكتاب برابعة العدوية في كتابه، «شهيدة العشق الإلهي» عن الترجمة الفرنسية التي قام بها دي كورتي.

وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد في المخطوطة ذات الرقم (٤٨٨٥) فصل مترجم إلى اللغة العربية، من كتاب التذكرة هو: (مناقب الحلاج) لم يُذكر اسم مترجمه، ولا سنة الترجمة[1].

ـ ثم أصدرت الدكتورة منال اليمني عبد العزيز سنة ٢٠٠٦ ترجمة كتاب التذكرة ـ عن النسخة الفارسية التي تولّى نشرها نيكلسون سنة ١٩٠٥، وينتهي الجزء الأول بترجمة منصور بن عمار، ولمّا يصدر الجزء الثاني بعد ـ وقد قامت بجهد طيب، ولا يعتبر عملنا تكرارًا لعملها، ولا عملها تكرارًا لعملنا، لا لغة ولا أسلوبًا؛ فإن الأعمال العظيمة قد يكون لها أكثر من عشر ترجمات لكل ترجمة

(١) ولأهمية الدراسات المقارنة، وتسهيلاً على الدارسين ذكرتُ هاتين الترجمتين (رابعة، والحلاج) ضمن ملحق خاص، انظر الصفحة (٨٤٧).

أسلوبها ولغتها تثري العمل، وتضيء جوانب جديدة. ومما تميزت به طبعتنا تلك الحواشي التي ذيلها مترجم الكتاب على النص الأصلي شرحًا وتعليقًا.

٢ـ اللغة التركية: التركية القديمة، والتركية الشرقية، والتركية العثمانية، والتركية الشرقية ـ الأوزبكية.

٣ـ اللغة الأوردية: ترجمة عطاء الرحمن صديقي، نشرت في لاهور سنة ١٩٢٥.

٤ـ اللغة الفرنسية: ترجمة دي كورتي، نشرت عام ١٨٩٠م.

٥ـ اللغة السويدية: ترجمة الباروك أيرك هيرملين، نشرت في استكهولم ١٩٣١م.

٦ـ اللغة الألمانية: (ترجمة الحلاج) ترجمة ثولوك، نشرت في برلين سنة ١٨٢٥م.

٧ـ اللغة الإنكليزية: ترجمة مارجريت سميث، نشرت في لندن ١٩٣٢م.

ـ وترجمه أيضًا إلى الإنكليزية آربري، نشرت في لندن سنة ١٩٦٦م.

وقد نظمت «تذكرة الأولياء» شعرًا في اللغة الفارسية، وأطلق عليها اسم «ولي نامه» نظمها شاعر متصوف لم يعرف عنه إلا اسمه، وهو حافظ العلاف بناءً على طلب أبي الفتح إبراهيم السلطان بن شاهرخ، وقصر همّته على نظم المجلد الأول منه من ترجمة الإمام جعفر الصادق حتى الحلاج، فأتمه في المسجد الجامع العتيق في (٢٤٠٠٠) أربعة وعشرين ألف بيت، وصرف ست سنوات من عمره لإنجازه، وقدّمه لذلك السلطان سنة ٨٢١هـ.

تميّز أسلوب العطار في كتاب التذكرة بالبساطة والسلاسة والبعد عن التكلف، فجاء هذا الأسلوب مناسبًا للغرض الذي صنَّفَ الكتاب من أجله وهو نصح الأمة وإرشادها، وتسويغ مصطلحات القوم وكلماتهم.

كذلك وفّق العطار في الإتيان بالحكايات في ثنايا كتابه، لأن هذه الحكايات ساهمت في إيصال رسالة العطار في النصح والإرشاد إلى العامة والخاصة.

النسخ الخطية التي اعتمدت عليها في إخراج الكتاب:

للكتاب كما انتهى إليه علمي مخطوطة ظاهرة جلية، ذكرها كلٌّ من تكلم عن مؤلفات العطار، وأخرى خزائنية مجهولة لم يعرفها إلا القلّة من الناس.

أ ـ مخطوطة جامعة طهران ذات الرقم ٣٣٧، وتقع في ١٦٩ ورقة، في كل صفحة منها (٣١) سطرًا، كتبت بخط نسخي عادي، قليلة الضبط؛ بل تكاد تكون خالية الضبط إلاّ في القليل النادر. وقد رمزت إلى هذه النسخة بحرف (ب)، أوّلُها مخرومة، تبدأ بنهاية ترجمة الإمام الصادق صفحة (٤٠) وقد جاء في نهايتها صفحة (٨١٧) أنها نسخت في ذي الحجة سنة ٨٦٩ هـ على يد محمود بن إسماعيل بن إبراهيم.

قال الدكتور أحمد ناجي القيسي: وقد وقعتْ هذه النسخة سنة ١٩٤٣ بيد محمد بن عبد الوهاب القزويني، فكتب بعض الملاحظات عليها في ورقةٍ ضُمَّت إلى الكتاب، استنتج فيها من وجود اسم سراج الدين عمر بن علي بن عمر القزويني في الورقة الأولى منها (المتوفى بقول السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ للذهبي سنة ٧٧٥هـ ويقول محشي هذا الكتاب: سنة ٧٤٨هـ ويقول مؤلف الأعلام: سنة ٧٢٠هـ) أن ترجمة «تذكرة الأولياء» هذه تمت بعد سنة ٧٤٨ أو ٧٧٥هـ. ولم يذكر القزويني، ولا ع. منزوي ـ مؤلف فهرست كتابخانة اهدائي مشكواة به دانشكاه تهراه، الذي عقد فصلاً لهذه المخطوطة في فهرسته ـ تاريخ المخطوطة. وقد وجدت في هامش الصفحة الرابعة بعد الثلاث مئة هذا السطر: «اين كتاب را درشب ٣١ دلو ٨٨٠ خط كردم وابن خط براى ياد كاري است» إذن أستطيع أن أقول: إن ترجمة الكتاب كانت بين سنة ٧٤٨ و٨٨٠هـ. يقول القزويني: إن المترجم أسقط من ترجمته بعض أقوال الصوفية، ومال إلى الاختصار.. ويقول المنزوي: إن المترجم حافظَ على الترتيب، في التراجم، في القسم الأول من الكتاب، وقدّم وأخرّ في باقيه، وأسقط من القسم الأول ثلاث تراجم، ومن الذيل ترجمتين. وإن تلك التراجم

المحذوفة هي: ترجمة محمد بن الفضل، والبوشنجي، والحلاج، وأبي الفضل الحسن، والإمام محمد الباقر. اهـ

ب ـ المخطوطة الخزائنية: وتقع في (١١٣) ورقة، وكل صفحة تحتوي على (٣٤) سطرًا وقد كتبت بخط نسخي عادي، كثيرة الضبط التزييني الذي يُربك القارئ، ويتعب الباحث، وقد نسخت سنة ٩٩٥ للهجرة على يد حاجي محمد حاجي عبد الله السلوبي النامراد، وتمتاز هذه النسخة بتمام بدايتها، وبذا ترفو ما أخلت به نسخة (ب)، فهي تذكر اسم مترجمها محمد بن محمد شمس الدين الأصيلي الوسطاني الشافعي[١].

وثمة منقبة أخرى لهذه النسخة وهي أنها تُرجِمَتْ للسلطان الكامل أبي المكارم الخليل بن الملك السعيد أبي المحاسن أحمد بن السلطان العادل أبي المفاخر سليمان الأيوبي[٢].

وبذا حُدِّد تاريخ ترجمتها بين سنة ٨٣٦ ـ ٨٥٢ للهجرة تقريباً خلال حكم السلطان خليل، وبه ينتهي اختلاف العلماء حول سنة ترجمتها.

وبهذه النسخة بقع بيضاء طمست الكلام عمداً، فجاءت النسختان ترفو إحداهما الأخرى. وتنتهي بترجمة عبد الله المغربي (صفحة ٦٥٥ من المطبوع)

وقد صورتُ هذه النسخة من مكتبة المرحوم الأستاذ محمد رياض المالح[٣]. ورمزت إليها بحرف (أ).

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٢) هو خليل بن أحمد بن سليمان بن غازي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن توران شاه الملك الصالح ثم الكامل أبو المكارم بن الأشرف أبي المحامد بن العادل أبي المفاخر الأيوبي من أهل الفضل والإحسان، كان محبًا للعلماء خصوصًا الشافعية، استقرَّ في مملكة حصن كيفا بعد قتل والده سنة ٨٣٦هـ، وسار في بلاده سيرة حسنة، ونشر العدل، واستمرَّ في المملكة حتى وثب عليه ابنه فقتله صبرًا في ربيع الأول سنة ٨٥٦هـ. الضوء اللامع ١٩١/٣.

(٣) كان رحمه الله كريمًا جوادًا سخيًا، قد جعل من مكتبته وقفًا عامًا، أراد وجه الله، فجزاه الله خيرًا.

ولا بدّ لي من الحديث عن ترجمة الكتاب والسمات العامة لمترجمه محمد الأصيلي: فأول سمة من سماته أنه لم يكتف بنقل النصّ؛ بل كان له مشاركة واضحة في شرح مغلقه، وتسهيل حزنه، وتذليل صعبه. فجلا غامضه، وكشف مستوره، وكان له تعليل لأقوال الأئمة وخصوصًا إن اشتمّ منها رائحة شطح أو شطط، ولا يدع مسألة أو قولاً أو مصطلحًا إلا تكلّم عنه وفسّره مُؤيّداً قوله بآية قرآنية، أو حديثٍ نبوي، أو قول صحابي أو تابعي ليوافق الكتاب والسنة. وقد أثراها باختيار أبيات شعر تناسب المقام، وجعل شروحه وأقواله هذه ضمن متن الكتاب، وميّز بدايتها بلفظ (أقول) ونهايتها بقوله: (والله أعلم).

عملي في الكتاب:

حاولت المستطاع أن يكون العمل إلى التمام أقرب: مضاهاةً وضبطًا وتخريجًا وشرحًا للغريب من اللغة وتعريفاً بالأعلام.

وقد جعلت ما أضافه المترجم محمد الوسطاني من أقوالٍ بحرف أسود تمييزًا له عن متن الكتاب.

وقد أسقط المترجم رحمه الله من الكتاب خمس تراجم، هي:

١ـ محمد بن الفضل.

٢ـ أبو الحسن البوشنجي.

٣ـ الحسين بن منصور الحلاج.

٤ـ أبو الفضل بن حسن.

٥ـ الإمام محمد الباقر.

وقد استدرك الأستاذ يوسف الهادي أبو أزهر هذه التراجم الخمس، اعتمادًا على طبعة نكيلسون (١٣٢١هـ ١٩٠٥)، وجعلتُها في ملحق أول في آخر الكتاب.

وإتمامًا للفائدة، وخدمة للباحثين ضممت ترجمتين من تراجم الكتاب في ملحق ثانٍ، وقد أخذتهما من مصدرين متباعدين:

١ ـ مخطوطة مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد ذات الرقم (٤٨٨٥) بها سيرة للحسين بن منصور الحلاج، كان قد ضمها الدكتور أحمد ناجي القيسي إلى كتابه «عطار نامه» ١/ ٤٥٨. وقد تُرجمت من كتاب «التذكرة»، ولم يذكر الدكتور القيسي اسم المترجم ولا زمن الترجمة.

٢ ـ كتاب «شهيدة العشق الإلهي» تأليف عبد الرحمن بدوي، وقد ترجم المؤلف سيرة رابعة العدوية نقلاً عن الترجمة الفرنسية لكتاب «التذكرة» الذي قام به أ. بافيه دي كورتي.

تركت الترجمة كما هي، وفيها الكثير من أخطاء اللغة من صرفٍ ونحو وأسلوب، فكنت أشير إلى الخطأ مرة في الحاشية، وأترك الإشارة مرات.

ومن أمثلة ذلك:

ـ العابرين الطريق. صفحة ١١٦.

ـ كانوا فارسين [أي فرسانًا]. صفحة ٦٤.

ـ ثلاث حجب. صفحة ١٣٧.

ـ ثلاثة خصال. صفحة ٢١٥.

ـ فصار القضيب في الحال شجرتان. صفحة ١٩٨.

ـ امرأة عجوزة. صفحة ١٩٨.

ـ امرأتي حاملة. صفحة ٢٣١.

ـ كان عاشقًا على جارية. صفحة ٢٢٨.

ـ لكن هو أغلق الباب. صفحة ٣٠٩.

ولقد أبقيت على رسم كثير من الكلمات كما جاءت مثل: أن لا. صفحة ٦٥، ٦٦، ١٠٩...

ولا يفوتني إلا أن أقول لأخي وصديقي الأستاذ أبي يوسف مروان البواب: جزاك الله خيراً، فقد تجشم عناء قراءته ـ رغم ازدحام وقته بكثير من الأعمال،

واختلاف وجهة نظره في إخراج كتب القوم ـ فصحّحَ خطأً وسوّى ملتوياً.

ـ ولا بدّ لي من شكر الأستاذ المحقق **يوسف الهادي أبي أزهر** على ترجمته للنصوص الناقصة من الأصل العربي.

ـ أما **أبو الحسن ياسر علوان** فله كلّ الامتنان ليس على تنضيد الكتاب وإخراجه فحسب؛ بل على صبره عليَّ، فكم من تجارب الطبع أجريتُ، حتى بعد الإخراج النهائي، ولا أجده إلا مبتسماً صابراً محتسباً.

هذه رحلتي مع هذا الكتاب الذي أردت العمل به منذ عشر سنوات أو أكثر، ولم يتهيّأ لي إلّا الآن بفضلٍ من الله ورحمة.

فأسأل الله أن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم(١).

دمشق

صفر ١٤٢٩/ شباط ٢٠٠٨م



محمد أديب الجادر

(١) المراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذه المقدمة: كتاب «عطار نامه» تأليف الدكتور أحمد ناجي القيسي، وكتاب «التصوف وفريد الدين العطار» تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام، ومقدمة كتاب «تذكرة الأولياء» بقلم منال اليمني عبد العزيز.

صور من المخطوطتين المعتمدتين

كتاب تذكرة الأولياء بخط ... باللغة الفارسية، للشيخ فريد الدين العطار النيسابوري، رحمه الله تعالى، تعريبه الشيخ الإمام العالم العامل الفاضل الكامل القدوة المحقق العلامة أوحد الدهر فريد الدهر الجامع بين المنقول والمعقول مولانا شمس الملة والدين الأصيلي الوسطاني أدام الله تعالى إفضاله، وختم بالصالحات أعماله، ... برسم خزانة مولانا السلطان الأعظم الأعدل الأكرم المؤيد المظفر المنصور الملك الكامل أبي المكارم سيف الدنيا والآخرة ... الأيوبي خلد الله تعالى سلطانه وملكه، آمين يا رب العالمين

صورة غلاف النسخة (أ)

صورة الصفحة الأولى من نسخة (أ)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة (أ)

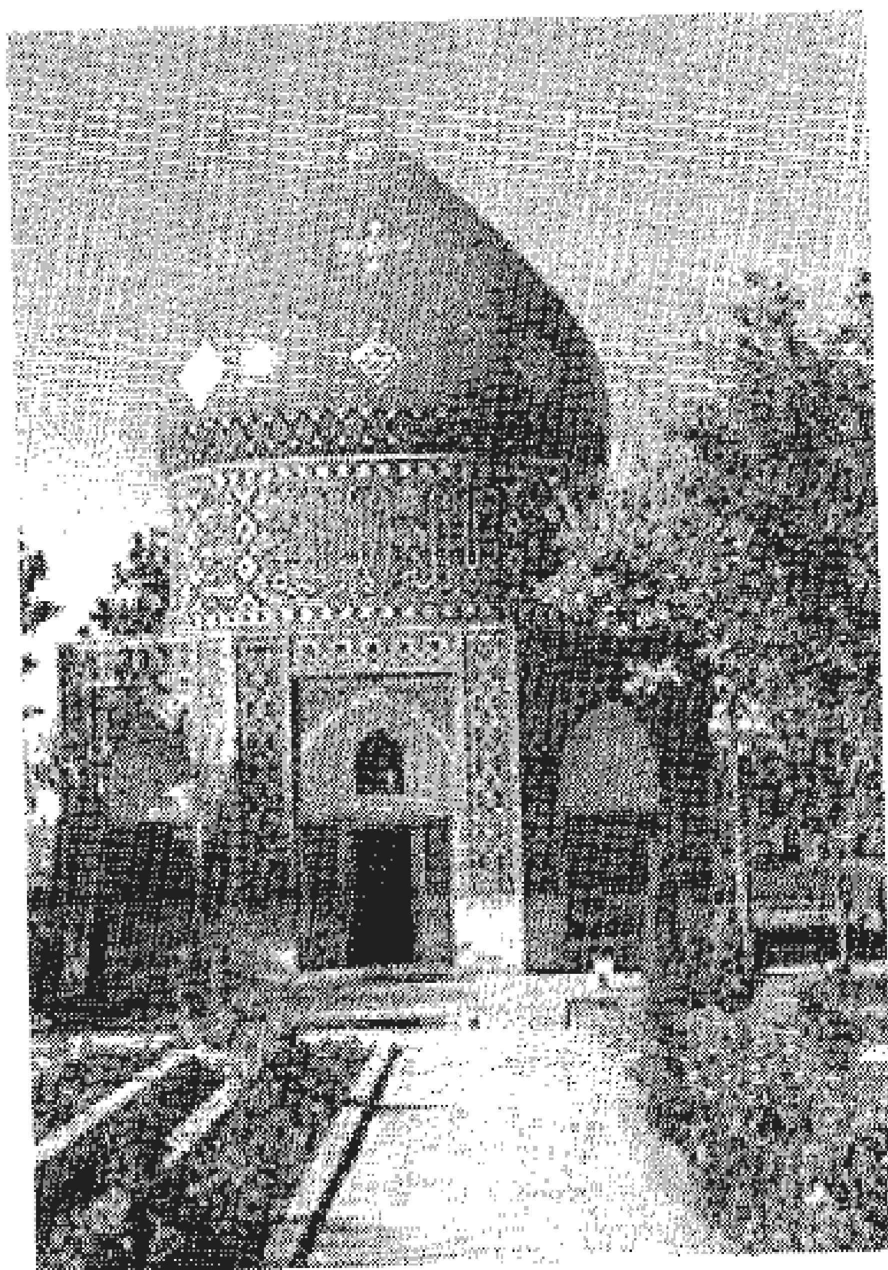
اويس القرني

صورة الصفحة الأولى من نسخة (ب)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة (ب)



صورة للنصب التذكاري لفريد الدين العطار



ضريح فريد الدين العطار

تذكرة الأولياء

تأليف

فريد الدين العطار

كان حيًّا سنة: ٦٠٧هـ

ترجمة

محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي

كان حيًّا سنة ٨٣٦هـ

تحقيق

محمد أديب الجادر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[صفحة الغلاف]

بسم الله الرّحمن الرّحيم(١)

كتاب تذكرة الأولياء جمعه باللغة الفارسية الشيخ فريد الدين العطار النيسابوري رحمه الله تعالى، ثم عرَّبه الشيخُ الإمام العالم العامل الفاضل الكامل القدوة المحقّقُ العلاّمة أوحدُ العصر فريدُ الدهر الجامع بين المنقول والمعقول مولانا شمسُ الملّةِ والدين، الأصيلي الوسطاني(٢)، أدام الله تعالى إفضاله، وختم بالصالحات أعماله، وخدمَ به خزانة مولانا السلطان الأعظم الأعدل الأكرم المؤيد المظفر المنصور الملك الكامل أبي المكارم سيف الدنيا والآخرة خليل الأيوبي(٣)، خلّد اللهُ تعالى سلطانه وملكه. آمين يا رب العالمين(٤).

* * *

(١) صفحة غلاف النسخة (أ).

(٢) لم أجد له ترجمةً في المصادر التي بين يدي.

(٣) تقدّمت ترجمته في المقدمة صفحة (34).

(٤) جاء في (أ) عقيبه ما نصُّه:

بسمه تعالى وتقدّس

الحمد لواقف نيات أعمال العباد، والصلاة والسلام على محمد النبي الشافي المسمع يوم التناد، وعلى آله وأصحابه أصحاب السداد والرشاد.

قد وقفت الكتاب وقفًا صحيحًا مؤبدًا، وحبستُهُ حبسًا شرعيًا ابتغاءً لمرضاة الملك، وامتثالاً لحديث سيد الأبرار: «الكيّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت».

وشرطت التولية لي مع الاستعمال لي ما دمت حيًا، ثم لابني صبغة الله حفظه الله ووقاه، ثم لأولادنا الذكور، ومن ثم لعلماء آمد في مكان محفوظ إن لم أعيّن مكانًا في حياتي ولا فيها، وألاّ يخرج إلا بالموافقة.

[مقدمة المترجم]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي أبدعَ الكائنات بقدرته الباهرة، واخترعَ الموجودات على مقتضى حكمته الزاهرة، واختار منها نوع الإنسان، فاختصّه بالتكريم والإحسان، ثم انتخبَ منه أهلَ الإيمان، ومنهم أولو العلم والبيان، ثم منهم أربابُ الكشف والعيان، فنظرَ إليهم وزكّاهم، وعن كدور البشرية صفّاهم، وبنورِ محبّته غطّاهم، وبسرِّ معرفته خلاّهم، ثم إلى ذروةِ القُرب رقّاهم، ومِنْ شُربِ أُنسِهِ سقاهم، فأفناهم عنهم ثم به أبقاهم، واصطفى منهم الرُّسلَ والأنبياء، واجتبى منهم الحبيبَ سيدَ أهلِ الأرض والسماء، وخصَّه بأجزلِ العطاء وأجلِّ النعماء، محمد المبعوث رحمةً للعالمين، المنعوت بكونه نبيًّا وآدمُ بين الماءِ والطين[1]، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وعترته الطاهرين، وصحبه أجمعين.

وبعد، فيقول الفقيرُ إلى الله الغنيِّ القدير ابنُ محمد محمدُ المَدعو شمسًا الأَصيلي الوسطاني الشافعي هداه الله سواءَ الطريق، وأذاقَهُ حلاوةَ التَّحقيق: إنَّ الولايةَ[2] مرتبةٌ سنية، ومنقبةٌ عليةٌ، لا كمالَ بعد النبوةِ منها أكمل، ولا فضيلةَ أجلُّ منها وأفضل، فبدايتُها للمعرفةِ نهاية، ونهايتُها للنبوَّة بداية، والأولياءُ هم الذين جاهدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ فاجتباهم، بعد أنِ امتحنهم وابتلاهم، ومن

(١) هو حديث يجري على الألسنة بلفظ: «كنت نبيًا وأدم بين الماء والطين». قال الزركشي: لا أصل له بهذا اللفظ. وقال السخاوي: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انظر كشف الخفا ٢/ ١٨٧ (٢٠٠٧) بلفظ: «كنت أول النبيين..».

(٢) في (أ): إن ولاية.

القيود جرّدهم وأنجاهم، وقرّبهم إليه فناجاهم، ونادى في سرّ محبٌ في مفازة الحُبّ هنالك: أبشرْ ولا تحزن، فأنتَ لي وأنا لك. ثم إنّهم ما نظروا إلى الدنيا إلاّ بالاعتبار، فلا جرمَ أنّهم فرّوا منها أشدَّ الفرار، ولم يلتفتوا إلى الآخرة وإنْ كانت هي دارَ القرار، فرفضوهما ونبذوهما وراءهم ظهريًا، ونفضوا أذيالهم عنهما وجعلوهما نسيًا منسيًا، فلم ينظروا إلى ما سواه، ولم يطلبوا منه إلا إياه.

وهم على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم على قسمين:

١ـ فمنهم: من أخفاه اللهُ عن الخلق غيرةً عليه، وإجلالاً له، فلا يعرفُهُ مخلوقٌ ولا يعلم حاله، ونعم ما قيل فيهم[١]:

لله تحـتَ قبـابِ العـزِّ طـائفـةٌ أخفاهمُ عن عيونِ الخلقِ إجلالا
هـمُ السّـلاطيـنُ فـي أطمـارِ مَسْكَنـةٍ استعبـدوا مـن ملـوكِ الأرض أقيـالا
غُبْرٌ مَـلابسُهـم فطـسٌ مَعـاطسُهـم جـرُّوا علـى قلـلِ الأفـلاكِ أذيـالا[٢]

٢ـ ومنهم: من أظهرَهُ إرشادًا لغيره وله تحكيمًا[٣]؛ ليتّبعوا أفعاله ويقتفوا أحواله وتكميلاً، فشرّف بذكرهم الألسنةَ والخواطر، والأقلامَ والدفاتر، وشوّقَ إلى كلماتهم الصالحين، وعطّش إلى معاملاتهم المُتّقين، فاجتهدوا بأنوارهم في طلبهم فوجدوهم، واسترشدوا بهم فأرشدوهم، حتى اهتدوا بأنوارهم ذرة[٤] فالتزموا اقتفاءَ آثارهم، فطوبى لهم وحسنُ مآب، إذ لا خوفٌ عليهم ـ إن شاء الله ـ ولا هم يحزنون.

٣ـ وقوم أبغضَهُم وأنكرنا عليهم أحوالَهم، فصارت فعالُهم أفعَى لهم، فخبثٌ لهم وشرُّ مآب، وخسرَ هنالك المُبطلون.

ثمّ اللهُ جلَّتْ قدرتُهُ، وعلَتْ كلمته مَنَّ على العالمين عمومًا وعلى المؤمنين خصوصًا بوجودِ سلطانٍ عادلٍ كريم، على المؤمنين شفيق وبهم رحيم، جُبل

(١) ذكر الأبيات ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٨/ ٢٤ من غير عزو.
(٢) النجوم الزاهرة: شمٌّ معاطسهم. جرّوا على فلك الخضراء أذيالا.
(٣) وتقرأ: وله تحليمًا.
(٤) كذا في الأصل، ولعلها: ذِرْوَة.

طبعُه الشريف على العدلِ والإنصاف، ونزّه قلبُه النظيف عن الجورِ والاعتساف، ترى شموس رأفته مشرقةً على الأنام، وبدور معدلته طالعةً في الليالي والأيام، وموائد جوده مبسوطةً لدى الخواصّ والعوام، فكم ذي قلّةٍ أغناه الله عن الناس، وذي خلّةٍ قضى به ربُّه[1] فنجا عن الباس، وذي علّةٍ من مضض الزمان أراحه في ظلّه، وذي غلّةٍ إلى بغيةٍ أمطر عليه وابلَ إحسانه لا طلّه، فأحيت شمائم أخلاقه في الآفاق، فعشقته قلوبُ أرباب القلوب قبل مشاهدة تلك الأخلاق، فما ظنُّكَ بمن هو ملحوظٌ بنظر ألطافه محظوظٌ كلٌّ لحظةٍ من أعطافه مشرقٌ بالتلاق، اخضرّت برؤيته أغصانُ الآمال بعد الذبول، وأينعَتْ بتربيته ثمارُها فحصل المأمول، جُمعَ له إلى السلطنة العلمُ والمعرفة والإخلاص، ليقضي به السعادة الأخروية فنعم الاقتناصُ، وهو السلطان الكامل الجليل سيفُ الدنيا والدين أبو المكارم الخليلُ بنُ الملك السعيد الأسعد، والسلطان الرشيد الأمجد، السلطان أبي المحاسن شرف الملّة والدين أحمد بن السلطان الماضي العادل الواصل إلى رحمةِ اللهِ المنّان أبي المفاخر سليمان الأيوبي أدام الله تعالى سلطنته، وأبّدَ سعادته بالنبيِّ وعترته. ومن أخلاقه الشريفة أنه ذو شغفٍ عظيمٍ بمحبّةِ العلماء، وذو شغفٍ شديد بمودّة الصلحاء والأتقياء، ولا شكَّ أن مودّةَ الطائفتَيْنِ مستوجبةٌ للنجاة، ومستجلبةٌ للفلاح، ولذا تراه ـ أيّده الله لما يُحبّه ويرضاه ـ يصرفُ أكثر أوقاته النفيسة ـ بعد تدبير مهمات الأنام، وإسعافِ حاجات الخواصّ والعوام ـ إلى مطالعة الكتب المصنّفة في الدين، ومذاكرة حكايات الأولياء والصالحين.

وكان ـ أطال الله بقاءه ـ طالبًا لكتابٍ جامعٍ لحكايات المشاهدين[2] من الأولياء، وذكر أحوالهم في الابتداء، ومقاماتهم في الانتهاء، وبيان معاملاتهم ومجاهداتهم وكراماتهم لجمعه وتأليفه الشيخ الواصل، المرشد الكامل، بقية السلف، قدوة الخلف، كاشف الحقائق، مظهر الدقائق، مخزن الأسرار، فريد الملة والدين النيسابوري العطار، نوّرَ اللهُ تربته، وأعلى في العلّيين رتبته، فإنه

---

(١) في الهامش: (إربه) في نسخة.

(٢) كذا في (أ)، ولعلّه يقصد أنهم أصحاب الشهود، وربما هي: لحكايات المشاهير.

كتابٌ مرغوب، وافٍ بأكثر المطلوب، فإنه رحمه الله جمعَ فيه من اتّفقتِ الأمّةُ على ولايتهم، وشهدوا بكرامتهم، واجتمعت الأئمة على علوِّ شانهم، وأطبقت على كمال علومهم وعرفانهم، تجد كتبَ التفاسير مشحونةً بأقاويلهم ونكاتهم وذلك كالحسن البصري، والإمام جعفر الصادق، والإمام أبي حنيفة، والإمام الشافعي، والجُنيد، وحاتم الأصم، وبشر الحافي، وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وترى العلومَ الشرعية ـ ولا سيما الأحكام الفقهية[1] ـ مستنبطةً باجتهادهم، وذلك كالمذكورين، والإمام أحمد بن حنبل، والحارث المحاسبي، و[أبي] عبد الله ابن الخفيف، وداود الطائي، وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

فإن بعضَ هؤلاء مشهورٌ بذلك[2].

وذكر الإمامُ محيي الدينَ النووي في منتخبه لكتاب «طبقات العلماء» رحمهم الله تعالى الشيخ الجُنيد، والحارث المُحاسبي، و[أبي] عبد الله بن الخفيف من العلماء المجتهدين.

وصنَّف العلماءُ في مناقبهم وأحوالهم رسائلَ كتصانيف الإمام العالي أبي حامد الغزالي، وأبي طالب المكي، والإمام أبي القاسم القشيري رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) في (أ): أحكام الفقهية.

(٢) جاء في هامش الصفحة ما نصُّه:

اعلم أن الناس إما أن يكون ناقصًا، أو كاملاً، أو خاليًا عن الوصفين.

أما الناقص: فإما أن يكون ناقصًا في نفسه وذاته، ولا يبتغي في تنقيص غيره، وهو الضّال. أو يكون ساعيًا في تنقيص غيره، وهو الضّال المضلُّ.

والكامل: إما [أن يكون] قادرًا على تكميل غيره، وهو النبي، أو لا يكون وهو الولي.

وإذا كانت مراتبُ الكمال غير متناهية، لا جرم فمراتب الولاية والنبوة غير متناهية، وأكملها نبوّةُ محمد ﷺ، فلا جرم قبل ظهوره مُلىء العالمُ كفرًا وشركًا، فصار بقدومه إسلامًا وإيمانًا، فصارت قوة روحه في الأرواح كقوة الشمس في الكواكب. وانظر الصفحة ٨١٠.

وبالجملة فالمذكورون[١] في كتاب «تذكرة الأولياء» هم أعلام الإسلام، باتفاقٍ من الأئمة وإطباقٍ من الأئمة الأعلام، ثم المصنِّفُ فريدُ الدين العطار رحمه الله ذكر في كتابه[٢] ما صحَّ عنده من أخبارهم وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وما ظهر من كراماتهم وثبت وفياتهم، وصدر عنهم عند وفاتهم، وسلك في ذلك طريق الاقتصار؛ لأن الإيجاز مخلٌّ، والإطنابَ مملٌّ؛ لكنه كان باللغة الفارسية، والعبارة العجمية، فالتمسَ أدام الله دولته من المحبِّ الفقير أن أنقلَهُ إلى العربية، وأذكرَ ما فيه بالعبارة السنية، ولم يسعني مخالفته، ولم يرافقني إلاّ موافقته، إذ كنتُ غريقًا في بحار جوده وإحسانه، رهينًا بلطفه وكرمه وامتنانه، مستريحًا في ظلِّ رأفته، مُستميحًا[٣] فوائد نعمتِهِ، فاستعنت بالله، واشتغلتُ بذلك مع الاعتراف بقلَّة البضاعة في جميع المسالك، إذِ المطيع ما هلك، والسخيُّ بما ملك، فنقلته بتوفيق الله إلى لغةِ العرب حسبما تيسَّر إذ ما من أحدٍ إلاّ عمله ميسرٌ له، وضممتُ إليه أثناء النسخِ أشياء مهمة خلا الكتاب عنها، فكان لا بدَّ منها كتواريخ وفيات الأكثر، وشيء من الإخوان[٤] المنقولة عنهم، وما خطر بالبال، وكان صالحًا لأن يكونَ كالشرح لبعضِ ما استشكل من عباراتهم، أو أعضلَ من مقالاتهم، وذلك في غيرِ رجوعٍ إلى كتابٍ إلا نادرًا، فإنه وإن لم يكن لائقًا بأن يدرجَ في أثناء كلماتهم، ويذكر شرحًا لشيءٍ من إشاراتهم؛ لكن لم يكن خاليًا عن فائدةٍ هي دفعُ طعنِ المنكرين، وذكرتُ في أول الضميمِ لفظَ (أقول)، وفي آخرها (والله أعلم)، للامتياز.

فجاء بحمدِ الله ومنِّه كتابًا نافعًا في الدين، مفيدًا للمسلمين، لو كانَ يُمكنني والله يرزقني لكنتُ أكتبُهُ بالدُّرِّ والذهب نفعه الله ـ دامت دولته ـ به وإيّانا وجميع المسلمين.

---

(١) في (أ): فالمذكرون.

(٢) في (أ): ذكره في كتابه.

(٣) في (أ): مستريحًا فوائد.

(٤) كذا في (أ)، ولعلها: من الأخبار.

فالمرجو من لطفه الشامل، وكرمه الكامل أن يشتغلَ أكثرَ الأوقات بمطالعة هذا الكتاب؛ فإنّه غنيمةٌ لأولي الألباب، إذ لا يخفى أنَّ الملوكَ الخالية، في الأزمنة الماضية بعضُهم كان يصرفُ المالَ؛ بل يفنيها على الشعراء مادحين لهم، إمّا صدقًا أو كذبًا

ومنهم من يُربّي العلماء، ويُنفق عليهم شيئًا لا يُعدُّ ولا يُحصى ليصنّفوا باسمه كتابًا، أو فصلاً أو بابًا، حرصًا منهم على بقاء اسمٍ بعدهم أو رسمٍ، وأن لا يَصيروا كجَديس وطَسْم[1]، فأيُّ سعادة أجلُّ وأعظمُ؟! وأيُّ مرتبةٍ أفضلُ وأتمُّ؟! وأيُّ منقبةٍ أكملُ وأفخم من أنَّ السُّلطان الكامل المشار إليه في ذكر ديباجة «تذكرة الأولياء»، الذي ببركتهم قيامُ الأرض والسماء، فهم الذين لا يَخيبُ أَنيسُهُم، ولا يشقى جليسُهم، ولا شكَّ أن جنابَهُ الكريم عارفٌ لا تَخفى عليه قدرُ هذه النعمة العظيمة، والموهبة الجسيمة، فلنسألِ الله تعالى مُستشفعين بهؤلاء الأولياء إليه أنْ يَحشرَهُ في زمرتهم، ويعدَّه من جملتهم، كما جعله مذكورًا في أول تذكرتهم، إنه كريم تواب رحيم وهاب

ولنذكر المشروع المقصود.

* * *

(١) جَديس بن لاوذ جدٌّ جاهلي قديم من العرب العاربة. وكذلك أخوه طَسْم بن لاوذ.

مقدمة مُشتملة على فوائد

منها: أن لفظ الولي مُشتقٌّ من الولي بمعنى القرب، وهو فَعيل للمُبالغة، إما للفاعل كالعليم بمعنى العالم، ومعنى الوليِّ على هذا من تقاربَتْ طاعتُهُ، وتولّتْ من غيرِ تخلّل معصيتُهُ، وإما للمفعول كالقتيل بمعنى المقتول، وعلى هذا فالولي هو الذي يتولّى الحقُّ سبحانه وتعالى حفظَهُ وحراسته على الدوام والتوالي، فلا يلحقه الخذلان الذي هو القدرة على العصيان؛ بل يُديم توفيقَه الذي هو القدرة على الطاعة، قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال بعضهم: الوليُّ هو العارفُ بالله وصفاته حسبما أمكنَ، المواظبُ على الطاعات، المُجنِّبُ عن المعاصي، المُعرضُ عن الانهماك ـ أي: الجدّ ـ في الشهوات واللذّات

ومنها: أن الكرامَة عبارةٌ عن ظهور أمرٍ خارق للعادة، أي ناقض لها من قبله، غير مقارن لدعوى النبوة؛ بل مقارن للاعتقاد الصحيح، والعملِ الصالح، ولزومِ متابعة النبيِّ ﷺ، فبعدم المقارنة لدعوى النبوة امتازَتْ عن المعجزة؛ لأن المعجزةَ أمرٌ خارق للعادة، مُقارنٌ لدعوى النبوة، وبالمقارنةِ للاعتقاد الصحيح، وما ذكر بعده امتازتْ عن السحر والشعوذة، وعن مؤكدات تكذيب الكاذبين، كما رُويَ أنَّ مُسيلمةَ الكذاب ـ لعنةُ اللهُ عليه ـ دعا لأعورَ أن تصيرَ عينُ العوراء صحيحةً، فصارت صحيحةً عوراء.

وقد يظهرُ شيءٌ من الخوارق من قبل عوام المسلمين كالخلاص من المحن والمكاره، وتُسمّى معونةً، فصارتِ الخوارقُ ـ غير السحر والشعوذة ـ أربعةَ أنواع:

١ـ معجزة للنبيِّ.

٢ـ وكرامة للولي.

٣ـ ومعونة لشخصٍ من المسلمين.

٤ـ وإهانة لتأكيد تكذيب كافر كذاب

ومنها: أنه ذهبَ جمهورُ المسلمين من أهل السُّنة والجماعة إلى جوازِ كرامة الأولياء، وقالوا: هي كإجابة دعوةٍ، وإظهارِ طعامٍ بلا سبب ظاهر، أو ماءٍ في زمان عطشٍ، أو قطعِ مسافةٍ بعيدةٍ في مدَّةٍ قليلة، أو تخليصٍ من عدو، أو سماعِ خطاب من هاتفٍ، وغير ذلك من الأفعال الناقضة.

ثم ذهب بعضُهم إلى أنّه لا يَجوزُ إظهارُ الكرامة، حتى لو ادّعى الولاية، واعتقدَ لنفسه الكرامة لا يجوز ذلك؛ بل ربّما يسقطُ بذلك عن مرتبة الولاية.

وبعضُهم ذهب إلى امتناع كون الكرامة من جنس معجزة النبيِّ ﷺ كانفلاق البحر، وانقلابِ العصا حيّةً، وإحياء الموتى، وغير ذلك ليمتازَ النبيُّ عن الولي، والمعجزةُ من الكرامة، والحقُّ جواز صدور خوارق العادات في معرض الكرامات، والامتياز عن المعجزة إنما هو لخلوِّها عن دعوى النبوة، حتى لو ادّعى الوليُّ النبوة فصار بذلك عدوًّا لله، ولا يستحقُّ الكرامة؛ بل يستحقُّ العقوبةَ والإهانة.

والدليلُ على جواز الكرامة ما ذُكر في إمكان المعجزة من أن خارق العادة أمرٌ مُمكنٌ في نفسه، وقدرةُ الله تعالى شاملةٌ لجميع الممكنات على ما ثبتَ في علم أصول الدين، وحصولُ ذلك الأمر يُؤدّي إلى دفع أصلٍ من أصول الدين، فيكون وقوعه جائزًا.

والحقُّ أنَّ ما نُقل من الكرامات من الأولياء كمريم، والخضر، وآصف بن برخيا، وبعض أصحاب النبيِّ ﷺ، والتابعين، وما ذكر في هذا الكتاب وغيره يُغني عن الاحتياج من الدليل، والمُخالفُ مُكابرٌ، فلا يُلتفت إليه

ومنها: أنَّ الكرامةَ من الوليِّ معجزةٌ من النبيِّ الذي كان من أمته، لأنّه

لا يَصير وليًا إلاّ وأن يكون مخفيًا في عمله، مُصيبًا في اعتقاده، ولا شكَّ أن هذا موقوف على صدق النبيّ في نبوّته، فإذا بلغَ واحدٌ منهم من أُمّته إلى رتبةِ الولاية، فببركة متابعته، ولزوم سُنّته، ومواظبة طريقته، فتصير كرامتُهُ معجزةً لنبيِّه؛ لأنّها تدل على صدقِهِ في دعواه.

ومنها: أنَّ إنكارَ الكرامة من أهل البدع والأهواء ليس بعجيبٍ، فإنّهم لم يشاهدوا الكرامة من أنفسهم قطُّ ولا من رؤَسائهم الذين اقتدوا بهم، مع أنّهم كانوا يزعمون أنّهم على شيءٍ، ويجتهدون في أمرِ العبادات، والاجتناب عن المنهيات، فوقعوا في أولياء الله أصحابِ الكرامات يمزّقون أَديمهم، ويَمضغون لحومَهم، ولا يُسمّونهم إلاّ باسم الجهلة، ولا يعدّونهم إلاّ في أعداد المبتدعة، ولم يعرفوا أن مبنى هذا الأمر على صفاءِ العقيدة، ونقاءِ السريرة، واقتفاء الطريقة، واصطفاء الحقيقية.

وإنما من بعض فقهاءِ أهل السنة حيثُ قال، لمّا رُوي عنده عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنَّهم رأوه بالبصرة يومَ التروية، وهو يوم الثامن من ذي الحجة، ثم رأوه في ذلك اليوم بمكّة شرّفها الله: إنّ من اعتقد جوازَ ذلك كفر.

والإنصافُ ما ذكره بعضُ الأئمة حينَ سُئل عمّا يُحكى أنَّ الكعبةَ كانت تزورُ أحدًا من الأولياء[١]، هل يجوزُ القولُ به، أم لا؟ فقال: نقضُ العادة على سبيلِ الكرامة جائزٌ عند أهل السنة، كذا في «شرح المقاصد» للعلاّمة التفتازاني نوّر الله قبره.

ومنها: أنّ الكرامة تنال بالكسب أم لا؟ قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته»[٢]: حُكي عن سهل بن عبد الله التُّستري نوَّرَ اللهُ مضجعه أنّه قال[٣]: من زهدَ في الدنيا أربعين صباحًا صادقًا عن قلبه، مُخلصًا في ذلك لربِّه، تظهر له الكرامات[٤]، ومن لم تظهر له، فلعدم الصدقِ في

(١) انظر صفحة (٩٨) وذهاب الكعبة لاستقبال رابعة.
(٢) الرسالة القشيرية ٤٩٥ (كرامات الأولياء).
(٣) في (أ): أنه من قال.
(٤) في (أ): من الكرمات، والمثبت من الرسالة.

زهده، فقيل له: كيف تظهر [له] الكرامة؟ فقال: يأخذُ ما شاء، كما يشاء، من حيث شاء

أقول: ولا شكَّ أن زهد في الصدق والإخلاص فيه، بل الزُّهد أيضًا إنّما هو يكون بتوفيق الله وعنايته ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤] والأولياء لا التفات لهم إلى الكرامة، إذِ النظر إليها ربّما يُؤدّي إلى الاغترار المُسقطِ عن درجة الولاية

قيل لأبي يَزيد رحمه الله: فلانٌ يمَشي في ليلةٍ إلى مكة! فقال رحمه الله: فالشيطانُ يمشي في ساعةٍ من المشرق إلى المغرب في لعنة الله.

قيل: فلانٌ يَمشي على الماء! فقال: الطيرُ يطيرُ في الهواء، والسمك يمرُّ في الماء[١].

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: أكبرُ الكرامات أن تبدِّلَ خلقًا مَذمومًا من أخلاقك.

وكان رجلٌ اسمه عبد الرحمن بن أحمد يصحبُ سهلَ بنَ عبد الله، فقال له يومًا: ربّما أتوضّأُ للصلاة، فيسيلُ بين يديَّ قضبانُ الذهب والفضة. فقال سهل رحمه الله: إن الصِّبيان إذا بكوا يُعطون خشاشةً يشتغلون بها[٢].

ومنها: أنَّ أهل الحقِّ اختلفوا في أنَّ الوليَّ هل يجوزُ أن يعلمَ أنّه وليٌّ أم لا؟ فذهب الإمام أبو بكر بن فُورك[٣] رحمه الله إلى أنّه لا يجوز ذلك؛ لأنّه يسلبُهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٩٩ (كرامات الأولياء).

(٢) الرسالة القشيرية ٥٠٠ (كرامات الأولياء). وفيه: يعطون خشخاشة. وفسّرها محقق الرسالة: الخشاش بفتح أوله نبات، واحدته خشخاشة، وهو نبت ثمرته حمراء. أقول: هي آلة لعب للأطفال، إذا حرّكت أصدرت صوت خشخشةٍ، يتلهّى بها الطفل.

(٣) هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني أبو بكر، واعظ عالم بالأصول من فقهاء الشافعية حدث في نيسابور، وبنى فيها مدرسة. قال ابن عساكر: بلغت تصانيفه في أصول الدين، وأصول الفقه، ومعاني القرآن قريبًا من المئة. توفي سنة ٤٠٦ للهجرة.

الخوفَ، ويُوجبُ الأمنَ، لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه اللهُ يقول بجوازه، وهو المختار، ولكنَّ هذا ليس بمطَّرِدٍ في جميع الأولياء؛ بل منهم من لا يعلمُ أنّه وليٌّ، ومنهم من يعلم، ومعرفة ذلك كرامة.

وأمّا ما احتجَّ به الإمام أبو بكر من أنَّ العلمَ بالولاية يُوجبُ الأمن فيمن دفعه بأن لا يلزم من علم الوليِّ بالولاية في الحال علمه بالولاية في المآل، حاصله أنه، وإن علمَ أنّه وليٌّ في الحال، لكن لا يقطع بثبوت ولايته ودوامها بناءً على جواز تغيّر الولاية وسلبها، فعلى هذا يجوز أن يعلمَ ولايته، ولا يأمن مكرَ الله؛ لاحتمال تغيّر ولايته وزوالها.

قال الشيخ[1] السَّريُّ: لو أنَّ أحدًا دخل بستانًا فيه أشجارٌ كثيرة، وعلى [كلِّ] شجرةٍ طيرٌ يقولُ [له] بلسانٍ فصيحٍ: السلام عليك يا وليَّ الله، فلو لم يخَفْ من المكر، فهو مغرورٌ بحاله، ممكورٌ[2].

وقصة بلعام[3] وإسلابه من الولاية مؤيِّدًا[4] لما ذكرنا.

ومنها: أنَّ الوليَّ لا يبلغُ درجةَ النبيِّ ﷺ مع ما له من شرف الولاية، أيضًا معصومٌ عن المعاصي، مسلوم من سوء العاقبة، مُشرّفٌ بالوحي ومشاهدة الملك، مبعوثٌ لإصلاح العالم ونظام أمر المعاش والمعاد إلى غير ذلك.

ومنها: أنّ الوليَّ إذا بلغ الغايةَ في المحبّةِ وصفاء القلب وكمال الإخلاص

---

(١) في (أ): قال السَّريُّ ذاك الشيخ السري لو.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٨٩ (كرامات الأولياء)، وما بين معقوفين مستدرك منه.

(٣) هو بلعام بن باعورا من علماء بني إسرائيل، كان يعرف الاسم الأعظم، أنزل الله تعالى فيه قوله في سورة الأعراف: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٤) كذا في الأصل. وسيمرُّ أخوات مثلها كثر.

لا يسقط التكاليفَ الشرعية من الأمرِ والنهي ما دامَ عاقلاً، وذلك لعموم الخطابات الواردة في التكاليف، ولأنَّ أكملَ الناسِ في المحبّة والإخلاص هم الأنبياءُ عليهم السلام؛ سيّما حبيب الله ﷺ، مع أنّ التكاليفَ في حقِّهم أتمُّ وأكمل، وعباداتِهم إلى آخرِ أعمارهم أوثقُ وأشدُّ حتى أنّهم كانوا يُعاتبون بأدنى زلَّةٍ؛ بل بترك الأفضل.

نعم، حُكيَ عن بعض الأولياء رضوان الله عليهم أجمعين أنّه استعفى الله تعالى عن التكاليف، وسأله الإعتاقَ عن ظواهر العبادات، فأجابه اللهُ تعالى بأن سلبَهُ عقلَه الذي هو مناطُ التكاليف، فصار مَجنونًا في الظاهر، ومع ذلك من علوِّ المرتبة على ما كان عليه، كذا في «شرح المقاصد».

وليعلمْ أنّ العارفَ بالله تعالى لا يسأمُ من العبادة، ولا يفترُ في الطاعة، ولا يسألُ الهبوطَ من أوج الكمال إلى حضيض النقصان، والنزولَ من معارج الملك إلى منازل الحيوانات؛ بل ربّما حصل الانجذابُ إلى عالم القدس والاستغراق في ملاحظة جناب الحقِّ جلَّ جلاله، بحيث يذهلُ عن هذا العالم، ويخلُّ بالتكاليف من غير تأثُّمٍ في ذلك، لكونه في حكم غيرِ المُكلّف عن النائم، وذلك يُعجزه عن مراعاة الأمرين، ومُلاحظة الجانبين؛ أعني الاستغراق في ملاحظة جمال الله، والاشتغال بظواهر العبادات، وربّما يسألُ دوامَ تلك الحالة، وعدمَ العود إلى عالم الظاهر، وهذا الذهول هو الجنون ذكر بالعجمي بيت:

ديوانكك خود را ميكرد در سلاسل   برحاله عاقلي بودا بخادم ازجنون زدّ حاصل

معناه: لما أرادَ الحبيبُ[١] أن يقيِّدَ مجانين عشقه بسلاسل أزلافه[٢] وأصداغه، فادعى الجنون من كان هنالك من العقلاء.

ومنها: الغالبُ على الوليِّ أوانَ صحوه هو الصدقُ في أداء حقوقه سبحانه، ثم الرفقُ والشفقة على الخلق، والانبساطُ بالرحمة بكافتهم، ودوامُ تحمُّله

---

(١) في (أ): لما أراد الله الحبيب.

(٢) كذا في (أ). وكأنها بسلاسل أسلافه، والسالف الشعر المتدلي على الصدغ.

عنهم بجميلِ الخُلق، وابتداؤه بطلب الإحسان من الله إليهم، من غيرِ التماسٍ منهم، وتعليقُ الهمَّة بنجاتهم، وتركُ الانتقام منهم، والتوقّي من استثارِ حقدٍ عليهم، وقصرُ اليد عن أموالهم، وتركُ الطَّمعِ بكلِّ وجهٍ فيهم، وإمساكُ اللِّسان بالسُّوء عنهم، وغضُّ البصرِ عن شهود مساوئهم، ولا يكون خصيمًا لأحدٍ في الدنيا ولا في الآخرة:

فاسمعْ بأذنِكَ حالَ القوم تعرفهم واسلكْ طريقَهُمْ تسلمْ كما سلموا

وأما اليوم فترى هذه الحديقة بستانًا يبست أشجارُها، وانتثرت أزهارُها، واندرست آثارُها، ولا ترى أحدًا من الشيوخ المهتدين، ولا شبان الذين كانوا بهم مُقتدين، فغُلّقَ بابُ الورع وطُوي بساطُه، وانفتح طريقُ الفسادِ واشتدَّ رباطُه، ظهرت ناسٌ تركوا آداب الشريعة، وجعلوا الإباحةَ والشيطنة لهم ذريعة، لا يميّزون بين الحلال والحرام، ولا يُبالون بترك الصلاة والصيام، تراكمتْ غفلاتُهم، وتوالت شهواتُهم، يباهون باعتقاد الجهلة فيهم والنسوان، ويزيِّنون لهم ما يُزيِّنُ لهم الشيطان، ومع ذلك دعوتُهم أنّهم بلغوا من الولاية إلى ذُراها، وسلكوا هذه الطريقةِ إلى أعلاها، والحالُ أنّهم لم يسمعوا من الولاية إلاّ الاسم، بل ربّما لم يسَمعوا الاسم أيضًا ولا شاهدوا الرسم، والذي يقضي منهم العجب حال من يدّعي العقلَ والإدراك، ثم يَعتقدُهم؛ بل يحبُّهم حتى يأتيه فيه ويتحسَّرَ عليهم، ويصيرَ مبذِّرًا بسببهم، وهو غافلٌ عن قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

قال النبيُّ ﷺ: «فإيّاكم وإيّاهم أن تضلّوا وأن تفتنوا» أعاذنا الله من غضبِهِ وقهره، ومن عملِ الشيطان ومكره، فهو حسبُنا ونعم الوكيل.

* * *

[مقدمة المؤلف]

قال الشيخُ المصنف فريدُ الملّة والدين العطار قدس الله سرَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الحمدُ للهِ الجَواد بأفضل أنواعِ النَّعماء، المنّان بأشرفِ أصناف العطاء، المحمودِ في أعالي ذُرَا العزّة والكبرياء، المعبودِ بأحسنِ أجناس العبادات في أعماق الأرض وأطباق السّماء، ذي العظمةِ والجبروت والبهاء، والجلالةِ والملكوت والسناء، الّذي علا فَاحتَجَبَ بأنوارِ المَجدِ والقُدس والثّناء، عن أعيُنِ النّاظرين وأبصار البُصراء، ودنا فاقتربَ من بصائر المحترقين في وَهجِ العناء، وربط طَرَفَ بقاء المُنغمسين في لُجَج بحارِ توحيده بالفناء، وخلطَ شَرَفَ فناء المتغلغلين في قعر قربة البهاء بمحض البقاء، وأغناهم بعزّة الفقر إليه عن ذلّ الرُّكونِ إلى الأشياء، وأولاهم التّوفيق لِلْحَمْد عمّا هو في خزانة الآلاء، وأغناهم بالفناء عن البقاء، وبالبقاء عن الفناء، فصاروا بنور فناء الفناء مُخلّصين عن هوى الأهواء، وحطّوا رحالَ الأُنس بِفناء القُدس مودّعين بفناء الفناء، وانقطعوا بالنُّورِ الحقيقي التّامِّ عن تخاييلِ الأظلال وتماثيل الأفياء، الّتي هي أعيان الدهماء وأشخاص الإنشاء(٢).

نحمده على أن كفانا كَيدَ من عادانا فيه، ودفع عنّا شرَّ من ناوأنا بقلبه وآذانا بفيه، وشَغَلَ عنّا كلَّ شاغلٍ عنه، وألّف بيننا وبين كلِّ مؤلّفٍ بيننا وبينه، وجعلنا خَدَمًا وعبّادًا له، وأكرمنا بشريفِ خطابه، وكريم كتابه، وجعلنا متبعين لحبيبه ثمّ من جملة أحبابه، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يُوازيه،

---

(١) مقدمة الطبعة الفارسية.

(٢) كذا، ولعلّها: وأشخاص الأشياء.

ولا نظيرَ له يضاهيه، فإن نظرنا إلى الأوصاف الألوهيّة فلا إلهَ إلاّ هو، وإن تأمّلنا الوجود فلا هو إلاّ هو.

ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه ونبيُّه وصفيّه أرسله بالحقِّ، إلى كافّة الخلقِ، فحلّ برفيع محلّه عِقدَ أهل الزّيغ والضّلال، وفلّ بحدّه عدد زُمَر الخِزي والنّكال، وأطفأ بنوره نارَ الغواية، وبوّأ أنصارَهُ دارَ الهداية، وأضاء قلوبَ المهتدين بهديه بأنوار جواهر الدّين، ووفّقهم لاقتناءِ مفاخرِ ذخائرِ اليقين، وبصّرهم بغوامض سرائرِ النبيّين، وخصّ الأصفياء والأتقياء من أتباعهم الذين نفضوا أيديهم عن الكونَيْنِ، ورفضوا عن قلوبهم الالتفاتَ إلى نعيم الدّارَيْنِ، من شواهد الغيبِ المكنون، بما لا تُبصره لواحظ العيون، ولا تستشرف له طوالعُ العقول ونواجم[1] الظّنون، وبلّغ قلوبَهم بما كاشفها به من نهاياتِ المطالبِ وغايات الهِمَمِ، واقتنع عن أسرارهم ممّا طالعها به من أقاصي المقاصد وغايات الغمم، واستصفى أرواحهم بما يَستملكُهُ من أنوار الجلايا القدسية عن شوائب الأنوار وكدورات الظُّلَم.

صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذرّ شارق، لُطف من مشرق فضلٍ وما وقب غاسق، بعد من أُفُق طرد بعدة[2] ما ابتُلِيَ بالبُعد العاشق، وما أومض بارق، هداية من سحاب عناية وما لفظ ناطق صِدقٍ بكلمة عِشق، وما تقلقل قدمُ شوقٍ في بادية ذوق. وسلّم تسليمًا كثيرًا[3].

لمّا لم يكن بعدَ كلامِ الله تعالى وأحاديثِ الأنبياء عليهم السلام كلامٌ أعزُّ وأعلا، وأجلُّ وأولى من كلامِ المشايخ رحمهم الله؛ فإنّ أقوالَهم نتائجُ العمل والحال، لا ثمرةُ الخلاف والقال، وهي من العيان، لا من البيان، ومن الأسرار، لا من التكرار، ومن العلم اللَّدُنّيّ لا من الكسبي، ومن عالم «أدّبني

(١) كذا الأصل، ولعلها: ورواجم الظنون.

(٢) قوله (بعدة) ليست في المطبوع المترجم.

(٣) حتى هنا كتب المؤلف فريد الدين العطار رحمه الله كلامه بالعربية، ثم يأتي النص الفارسي.

ربّي»[١]، لا من مقام علّمني أبي، فإنهم الأولياء ورثةُ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

وكانت لجماعةٍ من المحبِّين رغبةٌ إلى ذكر أقوالهم وأفعالهم، وكان لي أيضًا ميلٌ شديدٌ إلى هذا المعنى، أردتُ أن أجمعَ شيئًا من ذلك، فانتخبْتُ لنفسي ولأصحابي من أخبارِهم وأحوالهم الكتابَ، إذ لو كنتُ أذكرُ جميعَ ذلك لأدّى إلى الإطناب، وإنْ أرادَ أحدٌ شرحَ كلماتهم وذكرَ أحوالهم فعليه بكتابنا المُسمّى بـ«شرح القلب»[٢] وكتاب «كشف الأسرار» وكتاب «معرفة النفس والرَّب» فإنّي لو شرحتُ عباراتِهم شرحًا وافيًا لكتبتُ مجلداتٍ، لكنِ المُستحسن هو الاختصار، ولذا افتخرَ النبي ﷺ به حيث قال: «أُوتيتُ جوامعَ الكلمِ[٣]»

أقول: قيل ما قلَّ لفظُه ودلَّ معناه، والله أعلم

قال المصنِّفُ رحمه الله: وتركتُ الأسانيدَ لذلك ـ أي الاختصار ـ وأيضًا لم أتعرَّضْ في هذا الكتاب لشرحِ أحوالِهم رعايةً للأدب إلاّ في مواضع محصورة للضرورة، أو لشدَّةِ الاحتياج، وأيضًا لأنَّ شرحَها يُفهم ويُعلم من مطالعة مقالاتهم، وأيضًا لأنَّ الأولياء مُختلفةٌ أحوالُهم ومشاربُهم، فبعضُهم أهلُ المعرفة، وبعضُهم أهلُ المعاملة، وبعضُهم أهلُ المحبّة، وبعضُهم أهلُ التوحيد، وبعضهم جامع الكلِّ، وكلامُ كلٍّ يُوافقُ مشربه، والتميز بين ذلك ممّا يُخرج الكتابَ من الاختصار المشروط، ولم أذكرْ في هذا الكتاب قصصَ الأنبياء، وأحوالَ الصحابة؛ أمّا أولاً فلأنّي ما أليق بذكرهم، وأما ثانيًا فلأنَّهم مَذكورون في القرآن والحديث، نعمْ إنْ أخَّرَ الله في الأجلِ أُصنِّفُ كتابًا في ذكرِ

---

(١) قال صاحب كتاب «الآلىء»: حديث معناه صحيح، ولكن لم يأت من طريق صحيح. قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. وذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهيه، فقال: لا يصح، ففي إسناده ضعفاء. انظر كشف الخفا (١/ ٧٢ (١٦٤).

(٢) ذكره صاحب كشف الظنون ٢/ ١٠٤٢ تحت عنوان: شرح القلوب.

(٣) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٠ عن أبي هريرة، وإسناده صحيح.

الأنبياء، وآخرَ في ذكر الصحابة.

وأمّا في جمعِ هذا الكتاب فوائدُ باعثةٌ على جمعه:

الأولى: إسعافُ حاجة الإخوان في الدِّينِ حيث التمسوا ذلك.

وأخرى: أنّي قصدتُ أن يبقى تذكارًا لهذا الفقير بين الإخوان؛ لعلَّ مَنِ انتفع به يدعو لي بالرحمة.

وأيضًا: يمكن أن أنتفعَ بمجرَّد انتفاعه

نقل عن الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله صاحبُ «منازل السائرين»[1] أنه رأى يحيى بن معاذ الرازي رحمةُ الله عليه بعد موته في المنام، وقال: ما فعلَ الله بك؟ قال: قال الله: يا يحيى، كان لي معك شأنٌ عظيم، لكنَّكَ كنتَ يومًا في مجلسِ الوعظ تُثني عليَّ وتحمدني، فمرَّ هنالك شخصٌ من أوليائي، فسمعَ ثناءَكَ عليَّ، وطابَ وقتُهُ، فإنّي عفوتُ عنك لأجله، وإلاّ كنتَ ترى حالك.

والباعثُ الآخر: أنه سُئل عن الأستاذ[2] أبي عليّ الدَّقاق رحمه الله أنّه قال: من يسمعُ من كلمات المشايخ ومقالات الأولياء ولا يطيقُ أن يعملَ مثلَ أعمالهم، فهل له في الاستماع فائدة؟ قال: نعم، فيه فائدتان: الأولى أنه

---

(١) «منازل السائرين إلى الحق المبين» كتاب في أحوال السلوك ألفه الأنصاري حين سأله جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين إلى الحق من أهل هراة، فأجاب، ورتب لهم فصولاً وأبوابًا، فجعله مئة مقام، مقسومة على عشرة أقسام، كل منها يحتوي على عشر مقامات، وجميع هذه المقامات يجمعها رتبٌ ثلاثة: الأولى أخذ القاصي [القاصد] في السير. الثانية: دخوله في الغربة، الثالثة: حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد. كشف الظنون ١٨٢٨.

قال الإمام الذهبي بالسير ١٨/ ٥٠٩: فيه أشياء مطربةٌ، وفيه أشياء مشكلة... وفيه إشارات إلى المحو والفناء، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة عن شهود السِّوى، ولم يرد محو السوى في الخارج، وقد شرح الأشياء المشكلة في هذا الكتاب العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» وانتقدها.

(٢) كذا في الأصل وهو إسلوب سيدرج عليه المترجم، فبدل سئل فلان. يقول: سئل عن فلان.

يُقوّي[١] الهمَّةَ، ويرغّبُ الطالب في طلبه، والثانية أنه إذا كان السامعُ مُعجبًا بأعماله يزولُ عنه العُجْبُ، وتنتفي دعواه، لأنه يعلمُ أنَّه لا يُساويهم في العلم؛ بل لا يُقاربهم، وذلك كما قال الشيخُ المحفوظ رحمه الله: لا تزنِ الخلقَ بميزانك؛ ولكنْ زنْ نفسَكَ بميزان المُحسنين الموقنين لتعلمَ فضلَهم وإفلاسَك.

والباعث الآخر: أنه سُئل الجُنيد رحمه الله وقيل: ما الفائدة للمريدِ في استماع هذا الحكايات والروايات؟ فقال: كلام هذه الطائفة عسكرٌ من عساكر الحقِّ جلَّ جلاله، فإنْ وجدَ قلبًا مُنهزمًا منكسرًا قوّاه ونصره، والدليلُ على هذا ما قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٢] [هود: ١٢٠].

وأيضًا لقوله عليه السلام: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة[٣].

فإذا وضع إنسانٌ مائدةً تنزلُ عليه الرحمة، فهو لا يبقى محرومًا من تلك الرحمة ألبتة، ولا يرجعُ بلا شيءٍ وفائدةٍ.

والباعث الآخر: لعلَّ اللهَ يمدُّني من بركة أرواحهم المقدَّسة بفيضٍ، ويدخلني قبل الموتِ في ولايتهم.

والباعث الآخر: أنّي رأيتُ خيرَ الكلام، وأحسنَ المقال [بعد] كلامِ الله وكلامِ الرسولِ كلامَ المشايخ؛ فإنّه في الحقيقة شرحٌ للبِّ القرآن والحديث، فعلمتُ أن الاشتغالَ بجمع كلماتهم، وشرحِ حالاتهم نوعٌ من السعادة.

وأيضًا لا بدَّ للشارعِ في علمِ القرآن والحديث من العربية كاللُّغةِ والصرف

---

(١) الأصل: الأول أن.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ٣٠٩ (الإرادة).

(٣) أثر ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٤٠٨ من قول محمد بن منصور الطوسي، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٨٥ من قول سفيان بن عيينة.
قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٩١ (١٧٧٢): قال الحافظ ابن حجر: لا أصل له.
وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: ليس له أصل في المرفوع.

والنحو وغيرها، ولا يصير محفوظًا من فهم القرآن والحديث إلاّ من كان ماهرًا في المقدمات المذكورة

أقول: بل في علمِ الكلام والمعاني والبيان أيضًا. قال الإمامُ الرازي روّحَ الله روحه في «تفسيره الكَبير»(١): من أرادَ أن يشرعَ في شيءٍ من تفسير كلامِ الله، وهو غيرُ ماهرٍ في علم العربية والكلام، فهو في غايةِ البُعد من الله عزَّ وجل.

وقال السَّكاكي صاحبُ كتاب «المفتاح» فيه(٢): الويلُ كلّ الويل لمن يَتعاطى التفسيرَ وهو فيهما راجل ـ أي في المعاني والبيان ـ والله أعلم

والحال أنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون شيئًا من العلومِ المذكورة، وكلامُ المشايخ كما قُلنا: شرحٌ للقرآن والحديث، فجمعتُ ذلكَ لينتفعَ به الخواصُّ والعوام، ولذا ما كانَ منه بلغة العربِ نقلتُهُ إلى الفارسية؛ ليعمَّ نفعُهُ للعجم أيضًا

والباعث الآخر: هو أنّي رأيتُ الناسَ يُؤثِّرُ فيهم القولُ الباطل مثلَ ما إذا شُتمَ إنسانٌ، أو قيل له كلامٌ على خلاف مراده، فيتأثّر منه، ويسعى في إيذاء القائل، وإن لم يقدر يُضمرُ الحقد مدّةً، فإذا كان تأثيرُ الباطل بهذا الحيثية، فلا بُعْدَ في أن يكون الحقُّ مؤثرًا فيهم، وإن لم يُدركوا تأثيره

نُقل عن الإمام عبد الرحمن الإسكافي رحمه الله حين سُئل عمَّن يقرأُ القرآن ولا يفَهم معناه، هل له فائدةٌ من قراءته؟ أنه قال: ما تقولون في مريضٍ شربَ الدواء ولا يعلمُ أنّه دواءٌ، فهل ينفعُهُ ذلك أم لا؟ قالوا: نعم، ينفع. قال: فهذا أيضًا مثله؛ بل ربّما كان انتفاعُهُ بالقرآن في هذه الحالة أكثرَ من شرب الدواء

الباعث الآخر: هو أنَّ لي قلبًا لا يَميلُ بعد كلامِ الله وحديثِ الرسول إلى غيرِ كلامِ المشايخ، ولا أُريدُ تعاطي غيره؛ لأنَّ كلماتِهم مملوءةٌ من ذكر الحبيبِ ونعوته وأوصافه، والإرشاد إليه، والإخبار عنه، والمُحبُّ لا يُريد سوى هذا.

---

(١) لم أجد قوله هذا في المطبوع من كتاب مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للرازي.

(٢) مفتاح العلوم ٢٤٩ (علم البيان).

كما نُقل عن أبي عليّ الأسود أنه يقول: ما لي أُمنيةٌ إلاّ [أن] أسمعَ حديثًا من أحاديث الحبيب، أو أرى أحدًا من أهله

أقول: ونعمَ ما قالَ ذلك العاشقُ الهائم، والصبُّ التائه في بيداء الهوى، المُبتلى بضرِّ النوى، حيث قَرُبَ من قصر مهويّتِهِ، ولم يجدْ إليها طريقًا، أو كان في يَمِّ الاشتياقِ غريقًا، وبنار الفراق حريقًا، وازدادَ التياعُهُ وشوقُه، ولذا قيل:

وأبـرحُ مـا يكـونُ الشَّـوقُ يـومًـا إذا دنـتِ الخيـامُ مـن الخيـامِ[1]

مُخاطبًا للحمامة التي تراها المهوية، وتسمع صوتها بهذا الشعر:

حمامةَ جَرْعا حَومةِ الجَنْدلِ اسجعي فأنتِ بمرأى من سُعاد ومَسْمَعِ[2]

أي: اسجعي ولا تشتكي، فأنت بموضع تراك سعادُ، وتسمعُ صوتك، وأنا أراكِ وأسمعُ صوتك، وأقنعُ من الحبيبة بهذا القدر من القرب.

الجرعا: تأنيث الأجرع، قصرَها للضرورة، وهي أرضٌ ذاتُ رملٍ.

والحومة: معظمُ الشيءِ.

والجندل: أرضٌ ذاتُ حجارةٍ.

خاطب حمامةً هي في أرضٍ ذات رملٍ، في أرضٍ ذات حجارة، والله أعلم.

ثم قال أبو علي الأسود رحمه الله: أنا رجلٌ أمّيٌّ، لا أُحسن أن أكتبَ ولا أقرأَ، فأريدُ من يُخبرني عنه ـ أي من الحبيب ـ لأسمعَ، أو أخبر أنا وهو يسمع، فإنّي بريء من جنَّةٍ لا يتعاطى فيها كلام الحبيب والحديث عنه.

والباعث الآخر: ما سئل عن الإمام أبي يوسف الهمذاني رحمه الله: ما تقولُ إذا لم ترَ من هذه الطائفة أحدًا لتواريهم في التراب، ففيما ذا تكون

(١) بيت ذكره ابن أبي حجلة في كتابه ديوان الصبابة ٢٤ من غير عزو، وفيه: وأعظم ما يكون العشق.

(٢) بيت لابن بابك، ذكره ابن الأثير في المثل السائر ١/ ١٤٠٧، والعباسي في معاهد التنصيص ١/ ٥٩.

السلامة حينئذ؟ فقال: اقرؤوا كلَّ يومٍ أوراقًا من كلماتهم، واجعلوها وِردًا لكم، ولا شكَّ أنَّ هذا البساط انطوى، وصاحبُ العرفان في زاوية الاحتجاب انزوى، تُرى هذه الطريقةُ قد عُطِّلتْ مشاهدُها ومواردها، وسُدَّت مصادرها ومعاهدها، خلت ديارُها ومراسمها، وعفَتْ أطلالُها ومعالمها، والمُدّعى متلبّسًا بذاك اللباس، فارتفعَ الامتياز ووقع الالتماس، وحلَّ لذلك بالناس المكروه والباس.

قال الجُنيد للشبلي رحمهما الله: إذا وجدتَ من يُوافُقكَ على كلمةٍ ممَّا تقول فتمسَّكْ به.

والباعث الاخر: هو أن يحكم قوله إلا خير شرٌّ ظهرت الأشرار ونسوا الأخيار[1].

فأردتُ جمع هذا الكتاب ليكونَ تذكرةً للأخيار بين الأشرار، إذ ربّما يكون فقيرٌ في زاويةٍ مشتاقًا إليهم وإلى أحاديثهم، فيشتغل بهذا الكتاب ويتذاكرُهم، ويستفيدُ منهم، على أنّ الكتاب لا يخلو عن فوائد:

الأول: أنّه يُبرّد الدنيا على قلب القائل.

الثاني: أنّه يذكّر الآخرة.

والثالث: أنّه يورّثُ في قلوب القابلة محبّة الحقّ جلَّ جلاله.

الرابع: يرشدُ الناسَ إلى التزوُّد ليومِ المعاد.

ويمكن أن يقال: يجعلُ هذا الكتابُ ـ بتوفيقِ الله ـ المخنَّثَ رجلاً، والرجلَ أسدًا شجاعًا، فمن يُطالعه يطَّلعُ على شيءٍ من أسرار أهلِ الطريقة والمعرفة، وعلى رياضاتهم ومقاماتهم ومُجاهداتهم ومقاساتهم.

ولا شكَّ أنَّ ذلك مُحرِّكٌ للسامع على الطاعة، وأيضًا لأكونَ لهم كالكلبِ لأصحاب الكهف، لعلّي أنجو ببركتهم يوم الفزعِ الأكبر.

---

(١) كذا الأصل، وفي المطبوع من الترجمة صفحة ١٩١: سبب آخر: هو إنني مثلما أرى، فقد حلَّ زمان الخير فيه شر، ونسي فيه أشرار الناس أخيار الناس فأعددت...

نقل: أن جمالاً الموصلي رحمه الله سعى سعيًا بليغًا، وصرف مالاً كثيرًا حتى حصل في محاذاة مرقد النبيِّ ﷺ موضعَ قبرٍ له، ثم أوصى أن يُكتبَ على قبره بعد موته: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

فنقول: إلهنا ومولانا، إنَّ كلبًا من الكلابِ خطى خطواتٍ خلفَ بعضِ الأولياء، فصارَ معدودًا منهم، ومذكورًا في جملتهم، وأنا العبدُ الفقير المُذنب العاصي أدّعي محبّة أنبيائك وأوليائك وأصفيائك؛ فإنّي وإنْ لم أكن شيئًا أُذكر ولكنّي مُحبٌّ لمحبّك[1]؛ بل ترابٌ لأقدام المُحبّين لهم، فأَستشفعُ إلى جنابك المقدّس بجميع الأنبياء والأولياء، والعلماء والزهاد والعباد والأصفياء أن ترزقنا توبةً نصوحًا، وأعمالاً صالحةً، وتحفظَ ديننا وإيماننا من غضبك وقهرك، ومن شرِّ الشيطان، وأن تغفرَ لنا خطايانا وذنوبنا، وأن تعفو عنّي ما وقع لي من سهوٍ أو خطأ في هذا الكتاب، وأن تحشرنا مع جميع أحبّتنا في زمرة نبيّك محمد ﷺ، وألاّ تحرمنا شفاعتَه، وأن تنظرَ إلينا بنظرِ القبول، وتجعلَ بيننا وبين مكاره الدنيا وأهوالِ القبر والآخرة حجابًا وسدًّا، إنّك كريم رحيم، عفوٌّ غفور، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) الأصل: محب لمحبتك.

ذكر أسامي المشايخ المذكورة رضوان الله عليهم أجمعين

١ـ الإمام جعفر الصادق
٢ـ أويس القرني
٣ـ الحسن البصري
٤ـ مالك بن دينار
٥ـ محمد بن واسع
٦ـ حبيب العجمي
٧ـ أبو حازم المكي
٨ـ عتبة الغلام
٩ـ رابعة العدوية
١٠ـ الفضيل بن عياض
١١ـ إبراهيم بن أدهم
١٢ـ بشر بن الحارث الحافي
١٣ـ ذو النون المصري
١٤ـ أبو يزيد البسطامي
١٥ـ عبد الله بن المبارك
١٦ـ سفيان الثوري
١٧ـ شقيق البلخي
١٨ـ أبو حنيفة
١٩ـ الشافعي
٢٠ـ أحمد بن حنبل
٢١ـ داود الطائي
٢٢ـ الحارث المحاسبي
٢٣ـ أبو سليمان الداراني
٢٤ـ محمد [بن] السماك
٢٥ـ محمد بن أسلم
٢٦ـ أحمد بن حرب
٢٧ـ حاتم الأصم
٢٨ـ سهل بن عبد الله
٢٩ـ معروف الكرخي
٣٠ـ السري السقطي
٣١ـ فتح الموصلي
٣٢ـ أحمد [بن أبي] الحواري
٣٣ـ أحمد بن خضرويه
٣٤ـ أبو تراب النخشبي
٣٥ـ يحيى بن معاذ
٣٦ـ شاه بن شجاع

٣٧ـ يوسف بن حسين
٣٨ـ أبو حفص الحداد
٣٩ـ حمدون قصار
٤٠ـ منصور بن عمار
٤١ـ أحمد بن عاصم(١)
٤٢ـ عبد الله بن خبيق
٤٣ـ الجنيد البغدادي
٤٤ـ عمرو بن عثمان
٤٥ـ أبو سعيد الخراز
٤٦ـ أبو الحسين النوري
٤٧ـ أبو عثمان الحيري
٤٨ـ [أبو] عبد الله بن الجلاء
٤٩ـ أبو محمد بن رويم
٥٠ـ ابن عطاء(٢)
٥١ـ سمنون المحب
٥٢ـ أبو محمد المرتعش
٥٣ـ خير النساج
٥٤ـ أبو بكر الكتاني
٥٥ـ إبراهيم الخواص
٥٦ـ ممشاد الدينوري
٥٧ـ أبو بكر الشبلي
٥٨ـ أبو نصر السراج
٥٩ـ أبو العباس القصاب
٦٠ـ أبو علي الدقاق
٦١ـ أبو الحسن الخرقاني
٦٢ـ إبراهيم الرقي
٦٣ـ يوسف بن أسباط
٦٤ـ أبو يعقوب النهرجوري
٦٥ـ محمد بن علي الحكيم
٦٦ـ أبو بكر الوراق
٦٧ـ عبد الله بن منازل
٦٨ـ علي بن سهل
٦٩ـ أبو الخير الأقطع
٧٠ـ أبو حمزة الخراساني
٧١ـ أحمد بن مسروق
٧٢ـ عبد الله المغربي
٧٣ـ عبد الله التروغبذي
٧٤ـ أبو علي الجرجاني
٧٥ـ أبو عبد الله محمد [بن] الخفيف
٧٦ـ أبو محمد الجريري

(١) الأصل: بن العاص.
(٢) الأصل: ابن العطار.

٧٧ـ إبراهيم بن شيبان القرميسيني
٧٨ـ أبو بكر الصيدلاني
٧٩ـ أبو حمزة البغدادي
٨٠ـ أبو عمرو بن نجيد
٨١ـ أبو الحسن الصايغ الدينوري
٨٢ـ أبو بكر الواسطي
٨٣ـ أبو علي الثقفي
٨٤ـ جعفر الخلدي(١)
٨٥ـ أبو علي [الروذباري]
٨٦ـ علي الحصري
٨٧ـ أبو إسحاق الكازروني
٨٨ـ أبو العباس [السياري]
٨٩ـ أبو عثمان المغربي
٩٠ـ أبو القاسم [النصراباذي]
٩١ـ أبو العباس [النهاوندي]
٩٢ـ أبو سعيد بن أبي الخير(٢)



(١) في (أ) و (ب): أبو علي الفارمذي، وكذلك عندما ساق ترجمته صفحة (٧٠٨)، وهو خطأ. فالأخبار فيه إنما هي لجعفر الخلدي، وفي المطبوع الفارسي جاء اسمه صواباً مطابقاً لترجمته.

(٢) في مطبوعة نيكلسون الفارسية خمس تراجم لم ترد في مخطوطة الترجمة العربية، ترجمها الأستاذ يوسف الهادي، وجعلتُها ملحقة بالكتاب، والتراجم هي:

١ـ محمد بن الفضل.
٢ـ أبو الحسن البوشنجي.
٣ـ الحسين بن منصور الحلاج.
٤ـ أبو الفضل بن الحسن.
٥ـ الإمام محمد الباقر.

(١) جعفر الصادق(١)

ذكر أبي عبد الله جعفر الصادق:

ذلك الإمام الذي هو إمامُ الملّة المصطفوية، وبرهان الطريقة النبوية، العالم العامل الصدّيق، المُقتدى بالتحقيق، العارف العاشق، أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه وعن أبيه الكرام.

ذكرنا في صدر هذا الكتاب(٢) أن هذا الكتاب مُشتملٌ على ذكرِ الصوفية، وشرح أحوالهم ومقاماتهم دون الأنبياء والصحابة وأهل البيت، فإنّ قصصهم وحكاياتهم مذكورةٌ في الكتب مشهورة، وابتدأنا بذكر الإمام جعفر الصادق تبرُّكًا، ولأنّه قدوةُ المشايخ ورأسُهم ورئيسهم، والكلُّ ينتمون إليه، وإن كان هو من أهل البيت أيضًا، ولكن نذكر من مناقبه، وطرفًا من مقاماته، وشيئًا من مقالاته، إذِ العبارة قاصرةٌ عن جميع أوصافه وكمالاته، فإنّه رضي الله عنه كان إمامًا في العلوم الإسلامية، مُعتمَدًا عليه في الطريق الصوفية، شيخًا لأهل الحقّ، مَشهورًا بالصواب والصدق، مُقدّمًا في العباد، مكرمًا بين الزهاد، صاحبَ تصانيف شريفة(٣)، ومحقّقَ تحقيقات لطيفة، كاشفًا لرموز التنزيل، موفّقًا في أسرار التأويل.

---

(١) طبقات خليفة ٢٦٩، التاريخ الكبير ٢/ ١٩٨، الجرح والتعديل ٢/ ٤٨٧، الثقات لابن حبان ٦/ ١٣١، المعارف ٢١٥، حلية الأولياء ٣/ ١٩٢، صفة الصفوة ٢/ ١٦٨، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٣٩، وفيات الأعيان ١/ ٣٢٧، تهذيب الكمال ٥/ ٧٤، سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥٥، ميزان الاعتدال ١/ ٤١٤، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٦، مرآة الجنان ١/ ٣٠٤، الوافي بالوفيات ١١/ ١٢٦، البداية والنهاية ١٠/ ١٠٥، غاية النهاية ١/ ١٩٦، تهذيب التهذيب ٢/ ١٠٣، النجوم الزاهرة ٢/ ٨، طبقات الشعراني ١/ ٣٢، الكواكب الدرية ١/ ٢٤٩، شذرات الذهب ١/ ٢٢٠.

(٢) صفحة ٢٠ ـ ٢١.

(٣) له رضي الله عنه جملة مؤلفات، ورد ذكرها في كشف الظنون هي: كتاب تفسير الرؤيا =

وأتعجَّبُ من قوم لا يحبُّون أهلَ البيت، ويظنُّون أن طريقتهم لا توافق لأهل السنة والجماعة ويكون مخالفةً، ولا يعرفون بأنَّ السُّنة طريقتُهم، ومتابعة الجماعة عادتهم؛ بل هم الجماعةُ المأمور بمتابعتهم، وإنَّ مَنْ آمن بالنبيِّ محمّدٍ ﷺ ولا يُحبُّ عترته[1] وذرّيتَهُ وأولاده وأحفاده رضوان الله عليهم أجمعين، كيف يكون إيمانُه صحيحًا؟.

ورُوي عن الإمامِ الشافعي المُطّلبي رضي الله عنه أنَّه أحبَّ أهلَ البيت رضوان الله عليهم أجمعين وكان يُظهرُ حبَّهم، حتّى نسبوه إلى الرَّفضِ، وحبسوه لأجلِ ذلك، وهو أنشأ في هذا المعنى[2] شعرًا:

إنْ كـانَ رفضًـا حـبُّ آلِ محمَّـد فليشهـدِ الثّقَـلانِ أنّـي رافضـي

ولو لم يكن الاعتقاد في آلِ الرَّسول وأصحابه رضوان الله عليهم من أصول الإيمان، كيف تكون هذه البدع التي أظهرها أهل الأهواء من أصوله؟ بل هي هادمةٌ لقواعد الدين، مُخالفةٌ لعقائد الإيمان[3].

ولكن الإنصافَ في أنَّك إذا اعتقدتَ أنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ سلطانُ أهلِ الدنيا والآخرة، ووسيلةٌ في وصول الرحمة العامَّةِ والخاصَّة إلى البرايا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فلا بدَّ وأن تعتقدَ أنَّ له ﷺ وزراءَ وجلساءَ وأصحابًا كانوا يُصاحبونه ويجالسونه ويوافقونه وعترةً وأولادًا، ولا بدَّ من تعظيمِ كلٍّ حسب مرتبته، وتبجيلِهِ مقدار منقبته وقربه من النبي ﷺ حتى تكون سُنّيًا صافيًا.

سئل الإمامُ الأعظمُ أبو حنيفة رضي الله عنه: من الأفضل من أصحاب

= صفحة ٤٦٦، وكتاب في الجفر منسوب إليه صفحة ٥٧٧، ومجموعة رسائل صفحة ٩٠١.

(١) الأصل: من لا يحبُّ عترته.

(٢) ديوان الشافعي صفحة ٧٧.

(٣) كذا الأصل وفي المطبوع من الترجمة صفحة ١٩٦: ولو أنَّ معرفة آل الرسول وأصحابه ليست من أصول الدين، فإن كثرة الفضول الذي لا يفيد لا بأس به ـ كما تعلم ـ إن علمته أيضًا بل إنَّ الإنصاف.

رسول الله ﷺ؟ فقال: من المشايخ الصدّيق والفاروق، ومن الشُّبان عثمان وعلي، ومن النساء عائشة، ومن البنات فاطمة، رضي الله عنهم أجمعين

أقول: لا شكَّ في أنَّ محبّةَ أصحابه ﷺ واجبةٌ لمحبَّته، وبهذا وردت السنة، وعليه جرت الجماعة، قال رسول الله ﷺ في أصحابه: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا من بعدي، فمن أحبَّهم فبمحبَّتي أحبَّهم، ومن أبغضهم فبِبغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، فيوشك اللهُ أن يأخذه»(١).

وكذلك يجبُ محبّةُ آلِ محمد ﷺ لأجله، ذكر صاحب «الكشاف»(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] أنه قال ﷺ: «من ماتَ على حبِّ آل محمدٍ ماتَ شهيدًا، ألا ومَنْ ماتَ على حبِّ آل محمدٍ مات مَغفورًا له، ألا ومَنْ ماتَ على حبِّ آل محمدٍ مات تائبًا، ألا ومن ماتَ على حبِّ آل محمدٍ مات مؤمنًا مُستكملَ الإيمان، ألا ومَنْ ماتَ على حبِّ آل محمد بشَّره مَلَكُ الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمد يُزفُّ إلى الجنة كما تُزفُّ العروسُ إلى بيت زوجها، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَنْ ماتَ على حبِّ آل محمد جعلَ اللهُ قبرَهُ مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَنْ مات على حبِّ آل محمد ماتَ على السُّنة والجماعة، ألا ومن مات على بُغضِ آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمدٍ مات كافرًا، ألا ومن مات على بُغضِ آل محمد لم يشمَّ رائحةَ الجنة» وتأويل هذا الحديث وأمثاله أنَّ من أبغضَ آل محمد لكونهم آلَ محمد ﷺ يكفر، ثم يترتَّبُ عليه الوعيد المذكور ألبتة.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة (٤)، وأحمد في المسند ٤/ ٨٧، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٨٧، والترمذي في المناقب (٣٨٦٢)، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٢٤٤ عن عبد الله بن المغفل. وإسناد الحديث ضعيف.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٧.

وعنه ﷺ: «حُرِّمت الجنةُ على من ظلمَ أهل بيتي وآذاني في عترتي، ومن صنعَ إلى أحدٍ من ولد عبد المُطّلب صنيعةً ولم يجازه عليها، فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقيني يوم القيامة»(١).

ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه: شكوتُ إلى رسولِ الله ﷺ حَسَدَ الناس لي، فقال: «أما تَرضى أن تكونَ رابعَ أربعةٍ من أوّلِ من يدخل الجنة، أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا»(٢) وكفاهم شرفًا وعزًّا ومنقبة.

قال بعضُ المفسّرين في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]: إنه تعالى أراد محمدًا عليه الصلاةُ والسلام [والله أعلم].

نقل: عن الخليفة المنصور أنّه أمرَ ليلةً وزيرَه بإحضارِ جعفر الصادق، وأراد قتله، فقال الوزير: يا أميرَ المؤمنين، من اعتزلَ الناس ومخالطتهم ومجالستَهم، واختارَ عبادةَ الله تعالى، وقطع قصدَهُ عن طلب الرئاسة، وما وصل إلى حضرةِ أمير المؤمنين منه أذيّةٌ أو غدرٌ، فلا فائدةَ في قتله، ولا مصلحةَ في ذلك، وبالغ الوزير في الدفع، ولم ينفع، ولم يقبل المنصورُ كلامَه، فجاء إليه الوزير يطلبه، وقال الخليفة لبعض غلمانه: إذا رفعتُ العمامةَ عن رأسي، اقصدوا إلى قتله. فلمّا أحضره الوزير في مجلس الخليفة، وسلّمَ جعفرٌ على الخليفة، قام له الخليفة، واستقبله وصدَّرَهُ، وقعد بين يديه على الرُّكبتين في غاية الأدب والتواضع، وتعجّبَ الحاضرون من هذه الحالة، وقال: مُرني بقضاء حاجتك. قال: حاجتي إليك ألاّ تَصدعني، ولا تطلبني عندك. فأشار إليه الخليفة بالرَّواحِ، وأعزّه وأكرمه غاية الإعزاز والإكرام، ولمّا خرجَ الإمامُ أخذتِ المنصورَ رجفةٌ، وأُغمي عليه حتى فاتته ثلاثُ صلوات،

(١) الحديث بتمامه ذكره القرطبي في تفسيره: ١٦/ ٣٣. ومن قوله: «ومن صنع..» رواه الطبراني في الأوسط ٢/ ١٢٠ (١٤٤٦).

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة ٢/ ٦٢٤، والطبراني في الكبير ١/ ٣١٩ عن أبي رافع. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٤: وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي، وهو ضعيف.

وقيل إلى ثلاثة أيام، وحين أفاقَ سألَهُ الوزيرُ عن حاله، قال: لمّا دخل عليَّ الإمامُ دخلتْ معه حيّةٌ كبيرةٌ، وفتحت فاها، كأنّها تُريد أن تبلع البيت مع ما فيها، فما بقي لي سوى الاعتذار والإكرام، وقد عاهدتُ الله تعالى أن لا أُعادي أحدًا من أولاد الرسول.

ونقل: أنّه جاءَ إليه داودُ الطائي، وقال: يا بنَ رسول الله، عظني؛ فإنَّ قلبي قد اسودَّ. فقال له: يا أبا سليمان، لا حاجةَ لك إلى وعظي، وأنت زاهدُ زمانك. فقال داود: يا بن رسول الله، لكم فضلٌ على جميع الناس، وكلامُكم مَقبولٌ، والعملُ به لازم. فقال: يا أبا سليمان، إنّي لأخاف من أن يُعاتبني جدّي ويقول: ما أدّيتَ حقَّ مُتابعتي، يا أبا سليمان، هذا ما يتمُّ بالنسبِ الصحيح، بل إنَّما يتمُّ بحسن المعاملة.

أقول: أيْ مع الله ومع النفس والخلق، والله أعلم.

فبكى داود، وقال: إلهي، هذا حالُ من عُجنت طينتُهُ بماء النبوة، وركّبت صورتُهُ من أهل البرهان والحجّةِ، جدُّه الرّسول وجدّتُهُ البتول، فمن داود؟ وما اسمه؟ حتى يعجبَ بعمله ومعاملته.

ونقل: أنه كان جالسًا مع أصحابه ومواليه، فقال: تعالوا حتّى نتبايع ونتعاهد على أن من يكونَ منّا ناجيًا يوم القيامة يشفعُ للباقين. فقالوا: يا بن رسول الله، كيف تكونُ لك حاجة إلى شفاعتنا، وجدُّك شفيعٌ لجميع الأنام!؟ فقال رضي الله عنه: إنّي لأستحيي من جدّي أن أنظرَ إليه يوم القيامة مع هذه الأعمال.

ونقل عنه رضي الله عنه: [أنّه] اختار الخلوةَ والعزلة من الخلق، فجاء سفيان الثوري رحمه الله إلى باب داره، فقال: يا إمام المسلمين، قد حُرِمَ الناسُ من فوائد أنفاسك، ولِمَ اعتزلت عنهم؟ فقال الصادق: لأنّي أشمُّ رائحة فسادِ الزمان، وتغيّر الإخوان، وأنشد البيتين[1]:

---

(١) البيتان في ديوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٢٣.

ذهبَ الوفاءُ ذهابَ أمسِ الدَّابر والنَّاسُ بين مُخايلٍ ومُحارب[١]
يفشون بينَهُمُ المودَّةَ والوفا[٢] وقلـوبُهـم مَحشـوَّةٌ بعقـاربِ

نقل: أنه رآه بعضُ الناس، وقد لبس ثوبًا فاخرًا نفيسًا، فقال له: يا بنَ رسول الله، ليس هذا من زِيِّ أهل بيتك ولباسهم. فأمسك رضي الله عنه بيده، وأدخلها تحتَ الثَّوبِ، فإذا على جسده الشريف كساءٌ غليظٌ تتأذّى منه بشرته، فقال: يا فلان، هذا للحقِّ، وهذا للخلق.

ونقل أنه: قيل له: اجتمع فيك الخصالُ الحميدةُ من الزهد والكرم والمعرفة، وأنت قرَّةُ عينِ أهلِ البيت، إلاّ أنك متكبِّرٌ. قال: مالي وللكبر؛ لكنّي لمّا تركتُ الكِبْرَ جاءَ كِبْرُ من له الكبرياءُ، وتمكّن في مكان كبري، فأنا أتكبَّرُ بكبريائه لا بكبري.

ونقل أنه: سأل أبا حنيفة: من العاقل؟ فقال أبو حنيفة: العاقلُ من ميَّزَ بين الخيرِ والشر. فقال الصادق: البهائمُ أيضًا تُفرّقُ بين الخير والشرّ، فإنها تميِّزُ بين أن تضرب وبين أن تُعلف. فقال أبو حنيفة: من العاقلُ عندك؟ قال: من ميَّزَ بين الخيرينِ فاختار خيرَهما، وكذا ميَّزَ بين الشرَّيْنِ واجتنبهما جميعًا، وإن كان لا بدَّ فاعلاً يفعلُ خيرَ الشرَّيْنِ.

ونقل أنه: سُرق من شخصٍ صُرَّةٌ مملوءةٌ من الدنانير، فتعلّقَ بالصادق، واتَّهمه بالسرقة، وما كان يعرفه، فقال له الصادق: كم كانت دنانيرك؟ قال: ألفًا. فذهبَ به إلى البيت، وأعطاه ألف دينار. وبَعْدَهُ قد وجدَ الشخصُ دنانيرَهُ، وجاء بدنانير الصادق إليه، واعتذر إليه، وقال: أخطأتُ في ظنّي. فلم يقبلِ الصادقُ، فقال: لا نرجعُ إلى ما أعطينا، ولا نستردُّ ما بذلنا. فسأل ذلك الشخصُ من بعض الحاضرين: من هذا؟ فقالوا: جعفر الصادق. فخجل ذلك الشخص، ومضى لطريقه.

(١) الديوان: أمس الذاهب... وموارب.
(٢) الديوان: المودة والصفا.

ونقل أنه: في بعض الأيام كان يسير في الصحراء، ويقول: الله الله ما لي ثوب، الله ليس لي قباء، الله... ففي الحالِ حضر عنده دستُ ثوبٍ نفيس، وكان خلفه شخصٌ من الفقراء، فقال: يا إمامَ المؤمنين، كنتُ شريكًا معك في قول (الله)، فشاركني في التشريف، وأعطني العتيق. فأعطاه رضي الله عنه.

ونقل أنه جاء إليه شخصٌ، فقال: أرني الله. قال الصادق رضي الله عنه: أوما سمعتَ أنه قيل لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؟ [الأعراف: ١٤٣]، قال: نعم، ولكنَّ ذلك في دين موسى عليه السلام، وأما في هذه الملّة فمن قائلٍ: رأى قلبي ربّي، ومن آخر: لا أعبدُ ربًا لم أره. فقال الصادق للحاضرين: ارموه في دجلة. فرموه، فاستغاث به، وقال: يا بن رسول الله، الغياثَ. فلم يلتفتْ إليه حتى كادَ أن يغرقَ ويهلك، وما كان يستغيث به رضي الله عنه، ولمّا اضطُرَّ الشخصُ، وعلمَ أن لا ملجأ منه إلاَّ إليه، وأيس من الخلق كلِّهم، قال: إلهي إلهي، الغياثَ الغياثَ. قال الصادق رضي الله عنه: أخرجوه. ومضى عليه ساعةٌ حتى استقرَّ عقلُه وأفاق، قال له: رأيتَ الحقَّ وعرفته؟ قال الشخص: نعم، لمّا كنتُ أَستغيثُ بغيره، وأتعلَّقُ بغيره كنتُ محجوبًا، فلمّا توجَّهتُ إليه بالكلّية، فُتِحَ لي بابٌ، نظرتُ من ذلك الباب، وجدتُ ما كنتُ طالبًا له. قال الصادق: لما كنتَ تقولُ: يا صادق يا صادق كنتَ كاذبًا، فلمّا نظرتَ من بابِ القلب رأيتَ فيه عالمًا آخر، وحصلَ المرامُ، فلا تتركِ الملاحظةَ من ذلك الباب، والدُّعاءَ زمانَ الاضطرار ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال: من يقول: إنَّ الله من شيءٍ، أو في شيءٍ، أو على شيءٍ يصيرُ مشركًا؛ لأنه تعالى لو كانَ من شيءٍ لكان مَحدودًا مُتناهيًا، ولو كان في شيءٍ لكان مُحدثًا لا قديمًا، ولو كان على شيءٍ لكان محمولاً، وهذه الصفاتُ الثلاثةُ غيرُ مُمكنةٍ له تعالى.

وقال: كلُّ معصيةٍ أوّله خوفٌ وآخره عذرٌ يكون مُقرّبًا للعبد إلى الله، وكلُّ طاعةٍ أوّلهُ أمنٌ وآخره عُجْبٌ يكون مُبعدًا للعبد من الله تعالى، فإنَّ المُطيعَ مع العُجْبِ عاصٍ، والعاصي مع العُذرِ مُطيع.

وقال: العبادة لا تصحُّ إلاّ بالتوبة، فإنَّ الله تعالى قدَّمَ التوبةَ على العبادة في قوله: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

أقول: والمعنى أنّه لا بدَّ من التوبةِ أولاً من الكفر، وثانيًا من المعاصي، وثالثًا من الرِّياء، ثم الاشتغال بالعبادة، فأولاً بالإسلام، ثم بعبادات الدين، ثم بالإخلاص، والله أعلم

وقال: ذكرُ التوبة عند ذكرِ الله غفلةٌ عن ذكر الله؛ لأنَّ ذكرَ الله حقيقةً لا يَصيرُ إلاّ بنسيان ما سوى الله.

وقال رضوان الله عليه في قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ١٠٥]: أشعر لفظ ﴿يختص﴾ بأنّه أخرجَ الوسائط من الوسط، ليكون محضَ عطاء.

وقال: المؤمنُ من يقومُ مع نفسه، والعارف من يقومُ مع الله.

[أقول]: **أي مع رضاه، والله أعلم.**

وقال: من جاهدَ مع نفسه يصلُ إليه.

[أقول]: **أي وصول قربٍ معنويٍّ لا صوريٍّ، والله أعلم.**

وقال: الإلهام من أوصاف المقبولين.

و: مكرُ الله في عبده أخفى من دبيب نملةٍ سوداء، على صخرةٍ ملساء، في ليلةٍ ظلماء.

وقال: العشقُ جنونٌ إلهيٌّ غيرُ محدودٍ ولا مذموم.

وقال: سرُّ المُعاينة ما انكشفَ لي إلاّ بعد أن رُقِمَ عليَّ باسم الجنون.

ومن كلامه: من سعادة المرءِ أن يكون خصمُه من العقلاء.

ومنه: اجتنبوا من مصاحبة خمسةٍ: الأول: الكذاب، فأنتَ تكون معه في غرورٍ. الثاني: الأحمق، فإنّه وإنْ أرادَ نفعك يضرُّك ولا يدري. الثالث: البخيل، فإنّه ينقطعُ منك في أول زمانِ الوصلة. الرابع: الجبان، فإنّه يُضيِّعُك

في وقت الحاجةِ. الخامسُ: الفاسق، فإنه يبيعك بأدنى شيء، ويطيع بأدنى شيء[١].

ومنه: لله تعالى في هذه الدُّنيا جنةٌ وجهنم، أمّا الجنة في الدنيا العافية، وأمّا الجهنم فيها فالبلاء، فالعافيةُ تفويضُ الأُمورِ إلى الله، والبلاءُ الاستقلال في الرأي، وعدمُ التسليم إليه تعالى.

ومنه: مَنْ لم يكن له شرٌّ فهو مضر.

[أقول]: أيْ: من لم يكن له شرٌّ بلا خيرٍ، فهو مُضر، والله أعلم.

ومنه: لو كان صحبةُ الأعداء مُضرّةً للأولياء في الدِّين لتضرَّرت آسيةُ من فرعون، ولو كان صحبةُ الأولياء تنفعُ الأعداء لانتفعت امرأةُ نوحٍ وامرأةُ لوطٍ منهما.

سُئل رضي الله عنه: أن الفقيرَ الصابر أفضلُ، أو الغنيَّ الشاكر؟ فقال: الفقيرُ الصابر؛ لأنَّ قلب الفقير مشغولٌ بالله، وقلبَ الغنيِّ بالمال.

قال الشيخُ رحمه الله: اكتفينا بهذا القدر من ذكر كمالاته وكلماته، وإلاّ فهما أكثر من أن يضبطا في هذا الكتاب.

أقول: وهذا الإمام الجليلُ القدر، الحميدُ الذكر ـ أعني أبا عبد الله جعفر الصادق سلامٌ على نبيِّنا وعليه، وعلى آبائه الطاهرين ـ هو إمام الأنام، مُقتدى أئمة الإسلام، فإنّك إذا نظرتَ في الأئمة الأربعة قادةِ الجمهور في هذه الأعصار: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة أرباب المذاهب المُقتدى بهم رضوان الله عليهم أجمعين فلم ترَ أحدًا منهم إلاّ وهو إمّا تلميذُ جعفر الصادق، أو تلميذُ تلميذه على قدر زمانهم ومكانهم.

هذا الإمام المُقتدى المُقدّم أبو حنيفة نعمان بن الثابت الكوفي يقول في

(١) في المطبوع من الترجمة صفحة ٢٠١: خامسًا الفاسق الذي يبيعك بلقمة، وبأقلّ منها. قالوا: وما أقلّ منها؟ قال: الطمع فيها.

«مسنده» الذي رواه عنه الحسنُ بن زياد اللؤلؤي وغيره: أخبرنا أبو حنيفة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ بن أبي طالب قال: حدُّ المملوك إذا قَذَفَ نصفُ حدِّ الحرّ[١].

وهذا الإمامُ المعظَّم أبو عبد الله مالكُ بنُ أنس بن مالك الأصبحي المدني يقولُ في كتابه «الموطأ» الذي قرأه عليه الشافعيُّ، والإمامُ أبو يوسف القاضي، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الكوفيان على اختلاف رواياتهم منه: أخبرنا جعفر بن محمد، عن أبيه، في كثيرٍ من المواضع.

وهذا الإمام[٢] المكرّم أبو عبد الله محمد إدريس الشافعي المكي يقول في «مسنده» ما لا يحصى كثرةً: أخبرنا مالك.

وهذا الإمام المفخَّم أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني الذهلي المروزي البغدادي يروي كثيرًا عن الشافعيِّ في «مسنده» وجه الاستدلال إسناد تلمذة[٣] هؤلاء الأئمة متصلاً بالإمام الأعظم أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق كما ترى.

وهذا خلاصة ما ذكره الإمامُ العلامة سراج الملة والدين أبو حفص عمر بن علي بن عمر القزويني الواسطي[٤] منشأً، البغداديُّ دارًا عليه الرحمة، صنف في هذا المعنى كتابًا. والله أعلم.

* * *

(١) لم أجد الحديث في المطبوع من مسند أبي حنيفة.

(٢) من هنا يبدأ المخطوط (ب).

(٣) في (ب): أن تلمذة هؤلاء.

(٤) هو عمر بن علي القزويني (٦٨٣ـ ٧٥٠) محدّث العراق في عصره، ولد بقزوين، ونشأ بواسط، وتوفي ببغداد، له تصانيف منها «الفهرست».

(٢) أويس القرني(١)

ذكر أويس القَرَني

هو أسوة التابعين، وقدوة الأربعين(٢)، الموصوف بالعرفان، المخصوص بما قاله ﷺ: «إنّي لأجدُ نَفَس الرحمن»(٣) العبد اليمني أويس القرني رضوان الله عليه.

قال النبيُّ عليه السلام: «أويس القرني خير التابعين»(٤)

ورُوي أنّه ﷺ [كان] يتوجَّهُ إلى جانب اليمن، ويقول: «إني لأجدُ نَفَسَ الرحمن من قِبَلِ اليمن»(٥) يعني: لأجدُ نسيمَ آثار رحمة الله من جانب اليمن.

ورُوي أنّه قال ﷺ: «يخلقُ اللهُ تعالى ألفَ ملكٍ على صورةِ أُويس، ويدخل أويس معهم في العرصات، ثم يدخلون الجنة حتى لا يطّلعَ أحدٌ عليه ولا يعرفه

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١٦١، طبقات خليفة ١٤٦، الزهد للإمام أحمد ٣٤١، الجرح والتعديل ٢/ ٣٢٦، ثقات ابن حبان ٤/ ٥٢، حلية الأولياء ٢/ ٧٩، صفة الصفوة ٣/ ٤٣، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٤١٨، أسد الغابة ١/ ١٥١، مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٧٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩، تاريخ الإسلام ٢/ ١٧٣، الوافي بالوفيات ٩/ ٤٥٦، طبقات الخواص ٤١، الإصابة ١/ ١١٨، تهذيب التهذيب ١/ ٣٨٦، لسان الميزان ١/ ٤٧١، طبقات الشعراني ١/ ٢٧، الكواكب الدرية ١/ ٢١٠.

القَرَني: نسبة إلى قَرَن بن رَدْمان بن ناجية بن مُراد أحد أجداده. القاموس.

(٢) الأربعون: هم الأبدال؛ أربعون رجلاً وأربعون امرأة، كلّما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة، وهم اثنان وعشرون في الشام، وثمانية عشر بالعراق، انظر الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٦، ٢٢١.

(٣) قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٥١ (٦٥٩): قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٤) رواه أحمد في المسند: ٣/ ٤٨٠، وابن سعد في الطبقات ٦/ ١٦٣، والحاكم ٣/ ٤٠٢.

(٥) قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٥١ (٦٥٩): قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

إلاّ مَنْ شاء الله» لأنّه في الدنيا قد عبدَ الله تعالى مُختفيًا عن الناس، مُتواريًا منهم، فأراد الله تعالى أن يَستُرَهُ في الآخرة عن أعين الأغيار، إذ ورد عنه رضي الله عنه فيما رُوي عنه تعالى: «أوليائي تحت قبابي لا يَعرفهم غيري»(١).

وقد جاء في خبرٍ غريبٍ أنه ﷺ يخرج في بعض الأوقات من منزلِهِ في الجنة، وينظرُ يمينًا وشمالاً كمن يطلبُ شخصًا، فيُوحي اللهُ تعالى إليه ﷺ: ماذا تطلب؟ يقول: أويسًا. فينادى: لا تُكلّفْ نفسَكَ رؤيته؛ فإنّك ما رأيتَهُ في الدنيا، وكذلك ما تراه في الجنة. فيقول ﷺ: فأين هو؟ يُقال: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] فيقول النبيُّ عليه السلام: وهو لا يُريد أن يراني؟ فيوحي الله تعالى إليه: من يراني لا حاجة له إلى رؤيتك(٢).

أقول: لا أعلم صحة هذا، والله أعلم.

نقل عنه ﷺ أنّه قال: «في أُمّتي من يُشفّعُهُ اللهُ تعالى يومَ القيامة في مقدارِ أصوافِ أغنام(٣) ربيعة ومضر» قال الصحابة رضي الله عنهم: من هو يا رسول الله؟ فقال: «عبد من عباد الله» قالوا: ما اسمه؟ قال: «أويس». قالوا: أين هو؟ قال ﷺ: «بقرن». قالوا: عجيب، إنّه ما تشرّف(٤) بصحبة النبيِّ عليه السلام. قال ﷺ: «منعه أمران؛ الأول غلبةُ الحال، والثاني تعظيم الشرع، إذ له أمٌّ مؤمنةٌ ضعيفةٌ اختلّتْ عيناها، وشُلّتْ يداها ورجلاها، وهو بالنهار يرعى الإبل بالأجرةِ، ويَصرفها عليه وعلى أمه». قالوا: يا رسول الله، هل نراه نحن أم لا؟ قال ﷺ: «أبو بكر لا يراه، ويراه عمر وعلي، وهو رجلٌ كثيرُ الشعر،

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/٣٥٧ في كتاب المحبة والشوق، بيان جملة من حكايات المحبين، ولم يعلّق عليه الحافظ العراقي.

(٢) جاء في هامش (أ): هذا مردود، لا أصل له نعوذ بالله تعالى؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] فكيف يُريد رسول الله ﷺ رؤيته، ولم يره!؟.

(٣) في (ب): أصواف غنم أغنام.

(٤) في (أ): قالوا: عجبًا من أنه ما تشرّف.

على أحد جنبيه، وفي راحة كفّيه[١] بياضٌ مقدارُ دينار، وليس ذاك من البرص، فإذا التقيتم به سلّموا منّي عليه، والتمسوا منه الدُّعاء لأُمّتي».

وروي أنّه قال ﷺ: «أحبُّ العبادِ إلى الله تعالى الأتقياءُ الأخفياء». قال بعضهم: يا رسول الله، ليس هذا فينا؟ قال: «هو راعي إبلٍ في اليمن».

ونُقل عنه أنّه لمّا جاء وقتُ وفاةِ النبيِّ عليه السلام قالوا: يا رسول الله، مَنْ نُعطي مرقعتك؟ قال ﷺ: «أويسًا القرني».

ثم بعد وفاته ﷺ جاءَ عمرُ وعليٌّ رضي الله عنهما[٢]، فكان عمر رضي الله عنه يَخطبُ في بعض أيامه، فقال في أثناء الخطبة: يا أهل نجد، قوموا. فقالوا: سمعنا وأطعنا. قال: هل بينكم أحد من قَرَنٍ؟ قالوا: نعم. ثم جاء قومٌ منهم إلى عمر رضي الله عنه، واستخبرَ منهم عن أُويس، فقالوا: لا نعرفه. قال عمر رضي الله عنه: لا يَكونُ كلامُ صاحبِ الشرعِ جزافًا. قال بعضهم: يا أمير المؤمنين، هو أحقرُ من أن تطلبَهُ، إذ هو مجنونٌ وحشي. قال: لا أطلبُ منكم غيرَه، أين هو؟ قالوا: هو في وادي عُرَنة[٣] يحمي الإبل إلى المساء، ثم نعطيه عشاءه، وهو لا يدخل العمرانَ، ولا يُصاحبُ أحدًا، ولا يأكل مما يأكلُهُ الناس، ولا يفرح كما يفرح الناس؛ بل يبكي إذا الناسُ يضحكون، ويضحك إذا هم يبكون. قال عمر رضي الله عنه: عرِّفوني لأمضي إليه. فعرّفوه، فمضى عمر وعلي رضي الله عنهما إليه، إذ هو يُصلّي، فلمّا أحسَّ بهما خفَّفَ الصلاة وسلّم، ثم سلّم عليه عمر رضي الله عنه، وقال: ما اسمك؟ قال: عبد الله. قال عمر رضي الله عنه: كلُّنا عبادُ الله، ما اسمك المخصوصُ بك؟ قال: أويس. فقال عمر رضي الله عنه: أرني يدَكَ اليُمنى، فإذا فيها البياضُ الذي ذكره النبيُّ ﷺ، فعرفه عمر رضي الله عنه، وقال: النبيُّ يُسلّمُ عليك، ووصّاك

---

(١) في (أ): جنبيه، وفي إحدى كفّيه بياض.

(٢) في (ب): رضي الله عنهما الكوفةَ. وهو خطأ انظر تتمة الخبر (وادي عرنة).

(٣) وادي عرنة: واد بحذاء عرفات. معجم البلدان.

بالدعاء[١]. فقال: أنت أولى بالدعاء لجميع المُسلمين؛ لأنَّكَ أفضلُ مَنْ في الأرض. قال عمر رضي الله عنه: أنا أدعو للمؤمنين، لكن ينبغي لك امتثالُ وصية النبيِّ ﷺ. قال: يا عمر، الشخصُ غيري. قال عمر رضي الله عنه: الرسولُ ﷺ قد أعلمنا، والعلامةُ التي ذكرها النبيُّ ﷺ إنّما تُوجدُ فيك. قال: فناولني مَرقعةَ النبيِّ ﷺ، فناولها إيّاه، وأمرَهُ أن يلبسَ، فأخذ المرقعة، وبَعُدَ منهما، وأبطأ، فذهبا إليه، فإذا هو يتمرَّغُ في التراب ساجدًا، ويقول: يا إلهي، حبيبُكَ محمد ﷺ أحالَ هذا الأمرَ عليَّ، ووصّاني بالدعاء، إلهي اغفرْ لأمّـة محمد ﷺ.

وحين رآه عمرُ في كساءٍ غليظٍ من صوف الإبل وغنيٍّ عن العالمين، قال: ليت أحدًا اشترى منّي هذه الخلافة برغيفِ خبزٍ. قال أويس: يا عمر، لا يشتري منك إلاّ من لا عقلَ له، اطرحها، ليأخذها من أراد، إذ لا يسعُ في هذا المقام البيع والشراء. فقال بعضُ من كان معه من الأصحاب: إنّما قبلتَ يا أميرَ المؤمنين هذا الأمرَ من الصدّيق، وإن تركته يضيعُ كثيرٌ من المسلمين، وعدلُكَ في ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنين لغيرك. ثم قال لي الفاروق: يا أُويس، لِمَ لم تجيء إلى النبيِّ ﷺ؟ قال: أنتم رأيتم النبيَّ ﷺ، هل كان مُتّصلَ الحاجبين، أم لا؟ والعجب أنتم ما نظرتم إلى وجهِ النبيِّ ﷺ لمهابته واستحياءً منه ﷺ، حتى تعرفوا اتصال حاجبيه وعدمه، ثم قال لهما: أنتما من مُحبّي محمدٍ ﷺ، فهل كسرتم شيئًا من أسنانكم كما كُسر سنُّه عليه السلام؟ قالا: لا. فقال: إنّي قد كسرتُ بعضَ أسناني موافقةً له. ثم قال له عمر رضي الله عنه: ادع لي. قال: يا عمر، إنّي أقول في كلِّ صلاةٍ: اللهم اغفرْ للمؤمنين والمؤمنات، فإن كانت خاتمتك على الخير، فيلحقك هذا الدعاء، وإلاّ فلا تُضيّعْ أوقاتي. ثم قال الفاروق رضي الله عنه: أوصني يا أويس. فقال: أتعرف الله تعالى؟ قال: نعم. قال: فلو لم تعرفْ معه غيره لكان خيرًا. فقال عمر رضي الله عنه: زدني. قال

(١) في (أ): بالدعاء لي.

له: إنّ الله يعلّمك، فلو لم يعلّمك غيره لكان خيرًا، ثم قال لهما: انصرفا، فإنّ القيامة قريب، وسنلتقي فيها ولا نفترق، وإنّي الآن مشغولٌ بتحصيل زادها.

ولمّا علم أهلُ قرن أنّ لأويس اعتبارًا وقدرًا ومحلاً، فارقهم، وذهب إلى الكوفة، وما رآه بعد ذلك إلا هَرِمُ بنُ حَيَّان[1]، فإنه قال: سمعتُ أن شفاعته مقبولة، قصدته، إذ غلب عليَّ الاشتياقُ دخلتُ إلى الكوفة وطلبته، فما وجدتُهُ حتى التقيتُ به في شاطئ الفرات يتوضأُ، فعرفته بالعلامة، فرحتُ إليه، وسلّمتُ عليه، فردَّ الجواب، ونظرَ إليَّ، فأردتُ تقبيلَ يده، فمنعني، فقلت: رحمكَ اللهُ يا أويس وغفرَ لك، كيف حالُك؟ وغلبني البكاء رقّةً عليه لِمَا رأيتُ من ضعفه، فبكى هو أيضًا، وقال: يا هرم بن حيان، من دلَّكَ عليَّ؟ قلت: كيف عرفتَ اسمي واسم أبي؟ قال نبّأني العليمُ الخبير، وعرّف روحي روحَكَ؛ فإنَّ بين أرواح المؤمنين تعارفًا. فقال له هرم: حدّثني عن رسول الله ﷺ حديثًا. قال: ما صاحبتُ النبيَّ ﷺ، ولكنْ سمعتُ بعضَ أخبارِهِ من غيره ﷺ، ولا أُحبُّ أن أفتحَ عليَّ بابَ الإفتاء والتذكير؛ فإنَّ لي شغلاً قد شغلني عن ذلك. فقال: قلتُ: أحبُّ أن أسمعَ منكَ آيةً من القرآن. فأمسكَ بيدي، وقال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، وبكى بكاءً عظيمًا، ثم قالَ: يقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٣٨ـ ٤٢] ثم شهق شهقةً، ما أدري أنّه هل بقي عقلُهُ أم لا؟ ثم قال: يا هرمِ بن حيان، لِمَ جئتَ إليَّ؟ قلت: لأستأنسَ بك وأستريح. قال: لا أدري، أنّ مَنْ عرفَ اللهَ تعالى كيف يستأنسُ بغيره، وكيف يستريحُ مع غيره؟ قال: قلت: أوصني. قال: اجعلِ الموتَ تحت رأسك،

---

(١) هو هَرِم بن حَيَّان العبدي الأزدي، من بني عبد القيس، قائد فاتح، من كبار النسّاك من التابعين، ولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان بأرض فارس، مات سنة ٢٦ للهجرة في إحدى غزواته. وجعله الجاحظ من النسّاك الزهاد من أهل البيان.

وعند رأسك، ولا تتوقَّعِ الحياة بعده، ولا تنظرْ إلى صغرِ الذنب؛ ولكنِ انظر إلى كبر عصيان الله تعالى، فإنْ صغَّرتَ الذنب فقد صغَّرتَ مُخالفةَ الله تعالى.
قال هرم: فقلت: ماذا تأمرني؟ في أي موضع أقيم؟ قال: في الشام. قلت: كيف يحصلُ لي وجهُ المعيشة في الشام؟ قال: أفٍّ لهذه القلوب، قد خالطها الشكُّ، لا تنفعها الموعظة. قال هرم: فقلت: أوصني. قال: مات أبوك حيان، ومات آدم وحواء، ونوح وإبراهيم، ومات موسى بن عُمران، ومات محمد المصطفى ﷺ وعلى جميع الأنبياء أجمعين، ومات أبو بكر الصدّيق خليفةُ رسول الله ﷺ، ومات صديقي وأخي عمرُ رضي الله عنه، واعمراه واعمراه.
قلتُ: رحمك الله، ما تُوفّي عمر. قال: بلى، قد ألهمني اللهُ تعالى وفاتَهُ، ثم قال: يا هرم، أنا وأنت من جُملة الأموات، ثم صلّى على النبيِّ عليه السلام، ودعا دعاءً خفيفًا، وقال: وصيّتي لك أن تَسلكَ طريقَ الشرعِ وطريقَ أهلِ الصلاح، ولا تغفلْ عن ذكر الله ساعة، وإذا وصلتَ إلى قومكَ أن تنصحَهُم وتعظَهم، ولا تقطعْ نصيحتك عن خلق الله، ولا تتأخَّرْ عن موافقة الأئمة قدمًا[١] حتى لا يخرجَ عنك الإيمان، وأنت لا تدري وتقع في النار، ثم قال: يا هرم بن حيان، لا تراني بعد هذا ولا أراك، ولا تنساني من الدعاء، ثم ودّعني، وقال: اذهبْ حتى أذهب، وما تركني لحظةً أُخرى عنده، وبكى وبكيتُ، ثم ذهبَ، وأنا أنظرُ إليه حتى صعد الجبل، وبَعْدَ ذلك ما علمتُ حالَه ولا رأيتُه. قال هرم: أكثر ما حدّثني كان من الفاروق والمرتضى رضي الله عنهما.

قال الربيع[٢]: طلبتُ أويسًا، فوجدتُهُ في صلاة الصبح، فلمّا فرغَ أردتُ أن أُحدّثَه، فاشتغلَ بالأوراد، ثم بصلاة الضُّحى، وما قامَ من موضعه إلى الظهرِ، ثم صلّى الظُّهر، ثم اشتغلَ بالعبادة إلى العصر، ثم كذلك إلى المغرب، وهكذا

---

(١) في (ب): ولا تتأخرْ عن موافقة الأئمة الأمة قدمًا.

(٢) هو الربيع بن خُثيم: زاهد مُتعبّد تابعي، انتهى إليه الزهد. قال له عبد الله بن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبّك. توفي قريبًا من سنة ٧٠ للهجرة. طبقات الصوفية للمُناوي ١/ ٢٨٠.

إلى ثلاثة أيام، وفي هذه المدّة ما نامَ ولا أكلَ[١] حتى في الليلة الرابعة نَعَسَ قليلاً، فتنبَّهَ وناجى ربَّه، وقال: اللهم، إنّي أعوذُ بك من العينِ الكثيرةِ النوم، ومن البطنِ الكثيرة الأكل. قلتُ في نفسي: هذا يكفيني، ولا أُشوّشه، فذهبت وتركته.

نقل: أنه كان ما نامَ في جميع عمره، بل كان يقول: هذه ليلةُ القيام، وفي ليلة أُخرى: هذه ليلةُ الركوع، وفي أخرى: هذه ليلة السجود، وكلُّ ليلةٍ يشتغلُ بنوعٍ من العبادة، قيل له: يا أُويس، كيف تُطيقُ سجدةً في ليلةٍ!؟ قال: أقول في سجدةٍ: سبحان ربّي الأعلى مرّةً، فيطلع الصبح. قيل له: ما الخضوعُ في الصلاة؟ قال: لو طُعِنَ برمحٍ ما أحسَّ. قيل له: كيف أنت؟ قال: كيف يكونُ من يُصبح ولا يَدري أنّه يعيشُ إلى المساء أم لا؟ قيل له: كيف الشغل؟ قال: وا قلّة زاداه، وا طول طريقاه[٢]، آه من طول السفرِ، وقلّة الزاد.

وقال: إن عبدتَ الله تعالى ملءَ السمواتِ وملء الأرض، لا يقبلُ حتى تصدِّقَهُ. قيل: وكيف تُصدِّقُه؟ قال: تأمنُ بما تكفَّلَ لك، ويصيرُ قلبُك فارغًا، حتى لا تشتغلَ بغير عبادته.

وقال: من أحبَّ ثلاثةَ أشياء صارتْ جهنَّمُ أقربَ إليه من حبلِ الوريد: الطعامَ اللذيذ، والملابس النفيسة، والمجالسة مع الأغنياء.

قيل لأُويس: في جوارك رجلٌ قد حفر قبرًا منذ ثلاثين سنة، وتقلّدَ بكفنٍ، وقعدَ على شفيرِ القبر، ولا قرار له ليلاً ولا نهارًا. فقال: اذهبوا بي إليه. فلمّا رآه قال: يا ناحلاً جسده، مُصفرًا وجهه، باكية عيناه. قال: شغلك القبرُ عن الله[٣]. فاستنارَ قلبُ الرجل ببركة أويس، وصاح صيحةً؛ لأنّه قد كُشف

---

(١) جاء في هامش (أ): وهذا صوم الوصال، وهو مكروه في السُّنة، ونهى النبي ﷺ عنه، كذا في البخاري، ولم يصدر عن الأويس رضي الله عنه.

(٢) في (ب): واطول طريقًا.

(٣) في (ب): شغلك الغير عن الله.

عليه الأمر، ووقع في القبر ميتًا. فإذا كان القبرُ والكفن حجابًا عن الله، فما ظنُّك بغيرهما؟!

نقل: أنه ما أكل طعامًا ثلاثة أيام، فخرج في اليوم الرابع من المسكن، فرأى دينارًا مَطروحًا على الأرض، فقال: لعلّهُ يكونُ لشخصٍ، فأعرض عنه، واشتغلَ بأكل شيءٍ من العلف، فجاء إليه غنمٌ برغيفٍ أمسكه بالأسنان، فوضع عنده، قال: لعلّه أُخذَ من مُلكِ إنسانٍ. وأعرض عنه، فأنطقَ اللهُ الغنمَ، فقال: يا أويس، أنا عبدٌ لمن أنت عبده، لِمَ لا تأخذ من عبد الله ما رزقك الله؟! فمددتُ يدي لآخذه، وجدتُ الرغيف في يدي، وغاب الغنم.

ونقل عن الشيخ أبي القاسم الكركاني[1] رحمه الله أنَّ ذكره[2] في ابتداء حاله كان: (أويسَ، [أويس]).

إنّمـــا يعـــرفُ ذا الفضـــــــلِ مـــن النـــاسِ ذووه[3]

من كلامه:

من عرفَ اللهَ لا يخفى عليه شيءٌ. يعني إذا عرف الأصل سهل عليه الفرع[4].

السلامةُ في الوحدة. يعني: لا يكونُ في القلب غيرُ ذكرِ المحبوب، وتكره الوحدة بحبِّ الصورة، فربّما يكون الشخص مُنزويًا مُعتزلاً عن الناس، وقلبُهُ مملوءٌ من حبِّ الناس، وحبِّ الدنيا فكأنّه معهم، فالحاصلُ السلامة في الوحدة، بحسب السيرة، لا بحسب الصورة.

ومنه: عليك بقلبك. يعني: أن تُغلقَ أبوابَه حتى لا يدخلَهُ الأغيار.

ومنه: طلبتُ الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الرياسةَ فوجدتُها في

---

(١) هو أبو القاسم علي الجرجاني ستأتي ترجمته برقم (٧٣).

(٢) في (ب): أنه ذكره.

(٣) بيت لأبي العتاهية. الديوان صفحة ٤٢٣، وفيه: إنما يُعرف بالفضل.

(٤) هذا الخبر ليس في (ب).

نصيحةِ الخلق، وطلبتُ الفخر فوجدتُهُ في الفقر، وطلبتُ السُّنة فوجدتها في التقوى، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة، وطلبت الراحة فوجدتُها في الزهد.

ونُقل عن بعض جيرانه: أنه قال: كنا نظنُّ أنَّ أويسًا مجنون، وكان يمضي عليه سنون ولا يكون له شيءٌ من الدنيا، وكان يصومُ، وما يكون له شيءٌ يُفطر عليه، وإن وجدَ تمرًا كان يفطر عليه، وإنْ وجدَ كان يتصدَّقُ به، وقد جمع من المزابلِ خرقًا وغسلها وخاطها، وجعل شيئًا يسيرًا يستر عورتَهُ وجسدَه، فيا عجبًا نَفَسُ الرحمن تفوحُ من بين هذه الأشياء.

وكان يخرجُ إلى الصحراء بعد صلاةِ الصُّبح ويرجع بعد صلاة العشاء.

وإذا رأى الصبيان في المحلّة يضربونه بحصيّاتٍ، وكان يقول: إن ساقي دقيق، إن ترموني ارموا بالحصيّات الصغار؛ لئلا ينكسر ساقي، ولا يُدمى ويمنعني(١) من الصلاة، إذ لا مبالاةَ لي بالساق؛ بل بالصلاة.

وحُكي أنّه ظهرَ على أعضائه في آخرِ عُمره بياضٌ، وهو في تلك الحال، وحضرَ وقعة صفين، ووافق عليًا، وحارب موافقةً له حتى استُشهد رضي الله عنه.

واعلم أنَّ بعضًا من الأولياء يسمى أويسًا(٢)، ومعناه لا حاجةَ له إلى الإرشاد من مرشد، فإنه يُربّى بالفيض الإلهي، وبركة النور النبوي. وهذا مقامٌ عالٍ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

* * *

---

(١) في (ب) يضربونه بالحصيات الصغار.. لم ترموني، ارموا.. ساقي ولا يدي ويمنعني.

(٢) كذا في الأصلين، وفي المطبوع من الترجمة صفحة ٢١٢: اعلم أن هناك قومًا يُسمّون أويسيين، ولا حاجة لهم بشيخ؛ لأن النبوّة تربّيهم.

(٣) الحسن البصري(١)

ذكر الحسن البصري رحمه الله ورضي عنه:

مقوي النبوة، ومربّي الفتوة، منبعُ العمل والعلم، مجمعُ الورع والحلم، معدنيُّ العلم الاكتسابي والصدري، الشيخ المقدّم الحسن البصري روّح الله روحه.

مناقبُهُ كثيرة، ومنقبتُهُ غزيرة(٢) كان صاحب علمٍ ومعاملة دائمة، ذا خوفٍ وحزنٍ(٣)، وقد غشيه الحقُّ من جوانبه.

وكانت أمُّه من موالي أم سَلَمة رضي الله عنها، وإذا كانت أمُّه مشغولةً ببعض الأشغال، وهو رضيعٌ، فيبكي، فتلقمه أمُّ سلمة ثديها، وتنزل قطراتُ اللبن في جوفه، ولذا يقال: إنه مُربّى ببيت الرسولِ ﷺ، وما ظهر فيه من الخيرِ والبركةِ والعملِ والعلم ما كان إلاَّ ببركةِ لبنِ أُمِّ سلمة رضي الله عنها(٤).

---

(١) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/ ١٥٦، طبقات خليفة ٢١٠، تاريخ خليفة (انظر الفهرس)، الزهد لأحمد ٢٥٨، التاريخ الكبير ٢/ ٢٨٩، المعارف ٤٤٠، أخبار القضاة ٢/ ٣، الجرح والتعديل ٣/ ٤٠، الثقات لابن حبان ٤/ ١٢٢، مشاهير علماء الأمصار ترجمة ٦٤٢، حلية الأولياء ٢/ ١٣١، أخبار أصفهان ١/ ٢٥٤، طبقات الفقهاء ٨٧، صفة الصفوة ٣/ ٢٣٣، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٨٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٦١، وفيات الأعيان ٢/ ٦٩، تهذيب الكمال ٦/ ٩٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣، تاريخ الإسلام ٤/ ٩٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٧١، ميزان الاعتدال ١/ ٥٢٧، معرفة القراء ١/ ٢١، الوافي بالوفيات ١٢/ ٣٠٦، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٦، غاية النهاية ترجمة ١٠٧٤، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣، النجوم الزاهرة ١/ ٢٦٧، الكواكب الدرية ١/ ٢٥٤، شذرات الذهب ١/ ١٣٦.

(٢) في (أ): ومناقبه عزيرة، ولعلّها نسبةً إلى عُزَيرٍ عليه السلام.

(٣) في (ب): ذا خوفٍ وحذر.

(٤) كانت أم الحسن مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وكانت أم سلمة تبعث أم الحسن في =

ونقل: أنّه شربَ من كوز النبيِّ عليه السلام[١] في بيت أم سلمة رضي الله عنها، فسأل النبيُّ ﷺ: «مَنْ شربَ هذا الماء؟» قالوا: هذا الطفل. فقال ﷺ: «يَسري فيه من علمي مقدارُ ما شرب من هذا الماء».

وحُكي أنه جاء النبيُّ ﷺ إلى بيتِ أمِّ سلمة رضي الله عنها، فوضعوا الحسنَ في حجره عليه السلام، فدعا له ﷺ، فمن ذلك وجد ما وجد.

ونقل: أنه حين ولد ذهبوا به إلى عمر رضي الله عنه قال: سمّوه حسنًا؛ فإنه حسنُ الوجه.

وأمُّ سلمة رضي الله عنها كانت تربّيه وتُشفقُ عليه، وبسبب شفقتها حصل لها لبنٌ حتى أرضعته كما مرّ.

وكانت رضي الله عنها تقول: اللهم، اجعله مقتدى الخلائق.

وقد صاحب مئةً وثلاثين من أصحاب الرسول ﷺ، وخدم سبعينَ من المشايخ، وصحب عليًا رضي الله عنه، وحصل له منه فتوحٌ كثيرة.

وسببُ توبته وحاله في أول الأمر على ما قيل: إنه كان رجلاً جوهريًا، ويقال له حسن اللآلىء، ويتّجِرُ إلى الروم، ويعامل أمراءَ الروم ورؤساءهم، فذهب في بعض أسفاره إلى الروم، وعرض له حاجةٌ إلى الوزير، فاجتمع به، وتحدّث معه، فقال له الوزير: نذهب إلى موضعٍ، هل توافقنا؟ قال: نعم. فأمر له بفرسٍ مسرجٍ، فركبوا، وذهبوا، قال الحسن رضي الله عنه: فإذا نحن بخيمةٍ مضروبةٍ في الصحراء، مصنوعةٍ من الديباج، وأطنابها من الحرير، وأوتارها من الذهب، وجاء جماعةٌ من الأجناد ملبسةً بلباس الحرير والحرب وآلاتها، وطافوا بالخيمة، وتكلّموا بكلامٍ ما فهمت معناه، وذهبوا[٢]، ثم جاءت من

= الحاجة، فيبكي وهو صبي، فتسكته بثديها. انظر أخبار القضاة لوكيع ٢/ ٤، ٥، وتهذيب الكمال ٦/ ١٠٣.

(١) في (أ): من كف النبي ﷺ.

(٢) في (ب): وتكلموا بشيء، وذهبوا.

الفلاسفة والأحبار قريبًا من أربع مئة، وكذلك طافوا بها وتكلّموا بشيءٍ، وجاءتْ جماعةٌ من الشيوخ، وطافوا حولها وتكلّموا وذهبوا، وجاءت جماعةٌ من الجواري الحسان الصباح الوجوه، أكثر من مئتين، ومع كل واحدةٍ صفحةٌ من الذهب والفضة، والجواهر والآلىء، وطافت بالخيمة، وتكلّمت وذهبت، ثم جاء قيصرُ ملك الروم والوزيرُ الكبير معه، ودخلا الخيمة وخرجا، قال الحسن: وأنا مُتعجّبٌ مُتحيّر في هذا الأمر، فسألتُ الوزير عن هذا الحال، قال كان لملك الروم ابنٌ صاحبُ جمالٍ وكياسةٍ وعلم، لا يُوجد في الدُّنيا نظيرُه، وكان له شجاعةٌ وسخاوةٌ ولطفٌ وكرم، وكان أبوه يُحبُّه محبّةً شديدةً، فعرضَ له مرضٌ عجز الأطباءُ والحكماءُ عن معالجته، ولم ينفعْهُ شيءٌ من المعالجة والمداواة.

أقولُ: كما قيل[1]:

وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

والله أعلم.

ثم تُوفّي، ودُفن في هذا المكان[2]، والملكُ يأتي لزيارته في كلِّ سنةٍ مرّةً مع هذه الطوائف، ويقول: كلٌّ بابنِ الملك، لو قُبل فيكَ فداءٌ لفديناك بأنفسنا وأجسادنا، ولو حصلَ المقصودُ بالشفاعة لشفعنا، أو بالمحاربة لحاربنا، أو بالمال والجواري لأعطينا، ولو نفعَ العلمُ والحكمةُ والفلسفة لعملنا[3]، لكنْ قد أماتَكَ من لا يمكن المعارضةُ معه، ولا تَنفعُ الحيلةُ، ولا تُفيد المبارزةُ والمحاربة، ثم يدخل الملك في الخيمةِ ويقول: يا ولدي، ويا قرّة عَيني، ويا ثمرةَ فؤادي، ويا فلذة كبدي، جئتُ بالأجناد الملبّسة، والعساكر المسلّحة، والشيوخ المكرمة، والجواري المنعّمة، والأموال المجتمعة، والحكماء

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. انظر المفضليات ٤٢٢ القصيدة (١٢٦).

(٢) في (أ): وفي نسخة: في هذه الخيمة.

(٣) في (أ): لعلمنا.

المفخمة، ولا ينفعُ فيك حيلةٌ ولا تدبير، والسلامُ عليك إلى سنةٍ أُخرى، ويرجع.

فلمّا سمعَ الحسنُ هذا الكلام من الوزير، وعرف هذا المعنى وأثّرَ في قلبه تأثيرًا بليغًا، فعزم في الحالِ على الرجوع، ورجع إلى البصرة، وحلف أن لا يضحكَ في الدنيا حتّى يتحقَّقَ عاقبةَ أمره، واجتهد في العبادةِ، واشتغلَ بالمجاهدة إلى حدٍّ لم يمكن فوقه لم يتيسَّرْ لأحدٍ مثلُهُ، حتى حُكي أنه ما نقضَ الوضوءَ[١] إلاّ في الخلاءِ سبعين سنة، وبالغَ في العُزلة عن الخلق حتى قطعَ آمالَهُ عنهم، لا جرم فاق الجميع.

وحُكي أنَّ رجلاً قام في مجمعٍ وقال: لِمَ تفوَّقَ علينا الحسنُ، وارتفع شأنُهُ؟ وكان واحدٌ من الأكابرِ حاضرًا هناك، فقال: لاحتياجِ الكلِّ إلى علمه، وهو لا يَحتاجُ إلى أحدٍ مقدار شعيرة، والكلُّ مُحتاجٌ إليه في الدين، وهو فارغٌ من دنياهم؛ لأجلِ هذا صارَ مُقتدًى للجميع.

نقل: أنّه كان يَعظُ الناسَ في أسبوعٍ مرةً، فلو أنّه حضرَ المجلسَ للميعاد، ولم تكن رابعةُ العدويةُ حاضرةً لتركَ الوَعظ، فقيل له: يا شيخ، كم يحضرُ من الأكابر والأشراف! ولا تشتغلُ بالوعظ لهم، وتشتغلُ به لأجلِ امرأةٍ مُقنّعة! فقال: لأنّا نحصّل شرابًا للفيل، فكيف نصبُّهُ في حوصلة البغاث[٢]؟!

وقيل: إنّه حين يشتدُّ الحالُ على الحاضرين بحيثُ تكادُ أفئدتُهم تحترقُ، وأعينُهم تفيضُ دموعًا كان يتوجَّهُ إلى رابعة، ويقول: يا مقنَّعة، هذا من جمراتِ قلبك.

قيل له: ما الإسلام؟ ومن المُسلم؟ قال: الإسلام الذي ذكروه في الكُتب الفقهية، والمسلمون تحت التراب.

---

(١) في (أ): حتى ما كان ينقض الوضوء.

(٢) كذا في الأصلين، وفي المطبوع المترجم صفحة ٢١٦: يقول: إننا لا نستطيع صبَّ الحساء ـ التي نكون قد أعددناها من أجل حوصلةِ الأفيال ـ في صدور النمل.

والبغاث: طير ضعيف صغير.

أقول: كأنّه أشارَ إلى ضعف إسلام الحاضرين، وأنَّ المسلمين الكاملين هم المدَفونون، يعني القرن السابق، يُؤيّدُهُ قولُه ﷺ: «خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم...»[١] الحديث، والله أعلم.

وسئل أيضًا: ما أصل الدين؟ قال: الورع. فقيل: وما يُفسد الورع؟ قال: الطمع.

وقيل له: ما جناتُ عدن؟ قال: غرفةٌ من ذهبٍ، لا طريق فيها إلاّ لرسولٍ أو صدّيقٍ، أو شهيد، أو سلطانٍ عادلٍ.

وقيل له: إذا مرضَ الطبيب، فكيف يُعالجُ غيره؟ قال: عليه أن يعالجَ نفسَه أولاً، ثم غيره.

وقال: استمعوا إلى كلامي؛ فإنَّ علمي يَنفعُكُم، وعملي لا يضرُّكم[٢].

وقيل له: يا شيخ، قلوبُ الحاضرين نائمةٌ، ولذا لا تؤثّر فيها كلماتُك. قال: ليتها كانت نائمة، إذ لو كانت نائمةً لتنبّهتْ بأدنى تحريك؛ ولكنها ميتةٌ، لا تتنبّهُ بالتحريك.

وقيل له: بيننا أقوامٌ يخوّفوننا بالموعظة حتى تكاد قلوبُنا تنقطعُ، وأكبادُنا تتفتّتُ، فهذا يجوزُ أم لا؟ قال: مُصاحبتُكم مع قومٍ يخوّفونكم اليومَ حتى تأمنوا غدًا خيرٌ من مُصاحبتكم مع أقوامٍ يؤمّنونكم اليومَ فتخافون غدًا.

قيل له: يحضرُ في مجلسٍ وعظك مَنْ يحفظُ كلامَكَ ليعترضَ عليه. قال: مَنْ عرفَ نفسه، وطمعَ في الفردوس الأعلى، ومجاروةِ ربِّه سبحانه وتعالى لا يَطمعُ أبدًا في سلامتِهِ من ألسنةِ الناس؛ فإنَّ الله تعالى لم يقطعِ الألسنةَ عنه تبارك وتعالى.

---

(١) حديث رواه البخاري (٢٦٥٢) في الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة زور، ومسلم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، والترمذي (٣٨٥٨).

(٢) وكأن الكلام ترجمة لبيت الخليل بن أحمد في عيون الأخبار ٢/ ١٢٥:

اعمـل بعلمـي ولا تنظـر إلـى عملـي ينفعْك قولي ولا يضررك تقصيري

أقول: وفي هذا المعنى أنشد شعرًا:

قيـــل إنَّ الإلــــهَ ذو ولــــدٍ وقيـل إنَّ الـرسـولَ قـد كَهَنـا
مـا نجـا اللهُ والـرسـولُ معًـا من لسانِ الوَرى فكيف أنا[1]

[والله أعلم].

وقيل له: لا يبلغُ أحدٌ درجةَ دعوةِ الخلق، ومقامَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر إلاّ بعد تطهيرِ نفسه عن الأخلاق الردية، وتهذيبها عن الصفات الذميمة. قال: لا يتمنّى الشيطانُ إلاّ أن يعمل عملاً ينسدُّ به بابُ الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر.

وقيل: كان رجلٌ كلَّما سمعَ آيةً من القرآن يُصعق، ويُلقي جسده على الأرض، فقال له الحسن: إن قدرت على أن لا تفعل هذا فقد أحرقْتَ معاملتك، وإن لم تقدر على أن لا تفعلَ فقد ألقيتنا وراءك بعشرة منازل. ثم قال: الصعقةُ من الشيطان، فهو قد أشار في هذا الكلام إلى أن الاضطرابَ عند سماعِ كلام الله وذكره وغير ذلك إنْ كان اختياريًا حرام وتصنّع، وإلاّ فجائزٌ لا محالة.

أقول: ويدلُّ على الجواز عند الاضطرار قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والله أعلم.

نقل: أنّه كان مُشتغلاً في بعض الأيام بالوعظِ، إذ دخلَ عليه الحجّاجُ بمَهابته وحشمته وحدّةِ طبعه، فلم يتغيّرِ الحسنُ، ولم يتنزّلْ من كلماته حتى أتمَّ المجلس، ثم قامَ الحجّاجُ وذهب إليه، وأخذَ بعَضُدِهِ، وقال: انظروا إلى هذا الرجل.

حُكي أنَّ الحجّاج رُئي في المنام بعد أن أدركه الحمامُ كأنَّه في عرصاتِ القيامة، وقيل له: ماذا تطلب؟ فقال: ما يطلبه الموحّدون.

(١) ديوان علي بن أبي طالب ٤٨٣.

قال بعضُهم: إنّما قال هذا لأنَّه قالَ عند النزع: إلهي، أظهرْ آثارَ الكرم، وافتحْ أبوابَ المغفرة؛ فإنَّك أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرّاحمين، وقد اتّفقتْ آراءُ الناس، واجتمعتْ ظنونُهم على أنَّكَ لا تغفرُ لي، وأنك فعّالٌ لما تُريد، فاغفرْ لي على خلافِ اعتقادهم. فبلغَ الحسنَ هذا الكلامُ، فقال: ذهب بالآخرةِ أيضًا ذلك الخبيثُ بالشطارة.

نقل أنَّ عليًّا المُرتضى كرمَ الله وجهه دخلَ البصرة، وفي يده زمامُ مطيّته، ووقف فيها ثلاثة، ومنعَ جميعَ المذكّرين، ثم جاءَ مجلسَ الحسن، وقال: أنت عالمٌ أو مُتعلّم؟ قال الحسن: لا ذاك ولا هذا؛ ولكنّي بلغني أحاديثُ من رسولِ الله ﷺ أَرويها وأذكرُها للمسلمين. فلم يمنعْهُ عليٌّ رضي الله عنه، وقال: يليق بهذا الشاب أن يتكلّمَ. وذهب، فعرفه الحسنُ بالفِراسة، فنزل من المنبر، وسعى خلفه، فلمّا لحقَهُ، تشبّثَ بأذياله، وقال: يا أمير المؤمنين، أسألُكَ بالله أَنْ تُعلّمني الوضوءَ. فطلبَ ماءً، وعلّمهُ الوضوء.

وحُكي أنّه انقطعَ المطرُ من البصرة، وأجدبتِ الأرضُ، وخرجَ الناس للاستسقاءِ في كثرةٍ عظيمةٍ، والحسنُ معهم، فالتمسوا منه أن يصعدَ المنبر، ويدعوَ لهم، فقال: يا قوم، تطلبون المطر؟ فقالوا: نعم. قال، انفوا الحسنَ من المدينة حتّى يسقيَكُم اللهُ؛ فإن انقطاع الأمواه إنّما هو سببه.

(١ وحكي أنه ما رُئي مبتسمًا قطُّ؛ لغلبة الخوف عليه.

وروي أنه كان يُحدِّثُ بهذا الحديث: «آخرُ مَنْ يخرجُ من النار رجلٌ يُقالُ له هنّاد»[1] فقال: ليتني أكون الرجلَ؛ فإنَّ له رجاءَ الخروج من النار.

أقول: إنما قال كذلك لخوف الخاتمة. والله أعلم.

روي عن بعض أصحابه باتَ عنده ليلةً، وكان يَئِنُّ ويبكي ولا يسكنُ، فقال

(١) روى الخطيب قوله ﷺ: «آخر من يدخل الجنة رجل يقال له جهينة، فيقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين» وحكى السُّهيلي أنه جاء أن اسمه هناد. انظر «كشف الخفاء» ١/ ١٤ (١٦).

له صاحبُ البيت: لِمَ هذا الأنينُ والبكاءُ يا شيخ؟ وأحوالُك مضبوطةٌ، وجميعُ أعمالِكَ بالعبادة مربوطة. قال: أخافُ أنّي خطوتُ بغير قصدٍ واختيارٍ خطوةً في غير رضا الله، فيقال للحسن: ما بقي لك عند الله مقدارٌ ولا وزنٌ واعتبار! ثم يُردُّ الأمرُ بالردِّ وعدم القبول١)(١).

وحكي أنَّ رجلاً كان عند باب صومعته، وهو رحمه الله على السطحِ يُصلّي ويبكي في السجدة، حتى سالَ الدّمعُ من الميزاب، وتقاطرَ على ذلك الرجل، فدقَّ الرجلُ البابَ، وقال: يا أهل البيت، هذا الماء المُتقاطرُ نجسٌ أم لا؟ فسمعَ الحسنُ، فقال: اغسله؛ فإنه دمعُ عينِ العاصي، لا تجوزُ الصلاة به.

حكي أنّه رحمه الله شيَّعَ جنازةً إلى القبرِ، فلمّا وضع الميتُ في القبر، جلسَ الحسنُ على شفيره، وبكى حتى صارَ التُّرابُ طينًا، ثم قال: أيُّها الناس، انظروا إلى هذا القبر، فإنَّه آخرُ منزلٍ من منازل الدنيا، وأولُ منزلٍ من منازل الآخرة، فلا تغترّوا بدارٍ يكون آخره هذا، وكيف لا تخافون من دارٍ يكون هذا أوله؟ فأصلحوا حالَ أوَّلكم وآخركم. فبكى كلُّ من حضرَ هناك بكاءً عظيمًا.

وقيل: عبرَ يومًا في بعض المقابر، وقال: في هذه المقابرِ أُناسٌ لا يلتفتونَ إلى الجنَّة، لكنِ امتزجَ بترابهم حسراتٌ لو عُرِضت على أهلِ السموات والأرض لتناثرت أعضاؤها على الأرض.

نقل عنه أنّه جرى عليه في حال طفولته معصيةٌ، فكلّما خيط له قميصٌ، كان يتذكَّرُ من تلك المعصية، ثم يشقُّ جيبَهُ، ويبكي حتى يُغشى عليه(٢).

وروي أنَّ عمر بن عبد العزيز كتبَ إلى الحسن، وطلبَ منه نصيحةً مُختصرةً يحفظُها ويتذكَّرُها دائمًا، ويعمل بها، فكتب الحسنُ على ظهر الكتاب: يا أمير المؤمنين، إذا كان اللهُ معك، فأنت ترجو من غيره؟!

---

(١) بين الهلالين ليس في (ب).
(٢) في المطبوع المترجم صفحة ٢٢٠: وكان كلّما يحيك قميصًا جديدًا، كان يكتب تلك المعصية على تلابيبه، ثم يبكي طويلاً حتى يفقد وعيه.

وكتبَ إلى عمر رضي الله عنه نوبةً أخرى: احسبْ في نفسك أنّه قد أتاكَ يومٌ، تقول فيه: ما كانتِ الدنيا قطُّ.

وكتب ثابت البُناني رحمه الله إلى الحسنِ، وطلبَ منه أن يأذنَ له في الحضور إليه، قال الحسن رحمه الله: اتركنا نعش في سترِ الله تعالى؛ فإنَّ في المصاحبة يَطَّلِعُ كلٌّ منّا على عيب صاحبه، ويصير سببًا للتفرقة والبغض.

روي أنّه نصحَ سعيدَ بنَ جبير، فقال له: لا تعملْ ثلاث خصال أبدًا: لا تقربْ من السُّلطان وإن كان محضَ الشفقة على خلقِ الله، ولا تخلو بامرأةٍ أبدًا، وإن كانت رابعة العدوية، وأنت تعلّمُها كتابَ الله تعالى، والثالث: ولا تجالس الأغنياء.

قال مالك بن دينار رحمه الله: سألتُ الحسنَ رحمه الله عن عقوبة العالم، قال: هي موتُ القلب. قلت: وما موت القلب؟ قال: طلبُ الدنيا.

قال عبد الله[1]: قصدتُ يومًا أن أصلّي صلاةَ الصبح في مسجد الحسن بالجماعة، فلمّا أتيتُ إلى باب المسجد وجدتُهُ مَردودًا مُغلقًا، والحسنُ يدعو، وقومٌ خلفه يقولون: آمين، قلت: عسى أصحابُ الحسن قد جاؤوا إليه، صبرتُ حتى طلع الفجر، أردتُ أن أدخلَ المسجد، فإذا البابُ مفتوح، فدخلتُ، فما وجدتُ فيه غيرَ الحسن، فتحيَّرتُ إذ ما رأيتُ هناك الجماعةَ الذين يقولون آمين، فلمّا صلّينا الصلاةَ حكيتُ الحكاية، وأقسمتُ بالله أن يُطلعني على هذا السرِّ، فقال رحمه الله: يأتي إليَّ كلَّ ليلةٍ طائفةٌ من جنٍّ نَصِيبين، ويلتمسونَ منّي أن أدعوَ لهم، وهم يُؤَمِّنون، أي يقولون آمين، ثم استكتمني هذا الحال.

قال رجلٌ من أكابر الدين: سافرتُ في جماعةٍ مع الحسن رحمه الله للحجِّ، ووصلنا إلى بئرٍ، وما كان هناك دلوٌ ولا حبلٌ. وفزعنا من التلف، فقال الحسن رحمه الله: لا تحزنوا، أنا أشتغلُ بالصلاة، وأنتم استقوا الماءَ من البئر. فلمّا

(١) في المطبوع المترجم ٢٢١: قال شيخٌ: ذهبتُ..

شرعَ في الصلاة امتلأتِ البئرُ من الماء حتى وصل الماءُ إلى رأسها، فاستقينا الماء، وشربنا، وملأنا الأوعية، ولمّا عبرنا من ذلك المكان وجدَ الحسنُ رحمه الله تمرةً في الطريق، أخذها وقسمها علينا، وكان نواته ذهبًا، بعناهُ في المدينة، واشترينا بثمنه طعامًا، وأطعمنا الفقراء.

حكي أن أبا عمرو[١] الذي هو إمامٌ في علم القرآن، وعلم القراءةِ كان يتردَّدُ إليه صبيٌّ صبيحُ الوجه لأجل تعلّم القرآن[٢]، فحسَّنه إبليسُ في عينه، وسوّلَ إليه، فاختلّى به أبو عمرو[٣] في بعض الأيام، وقصد أن يقبّلَهُ، فلمّا همَّ به أنساه اللهُ تعالى جميعَ القرآن من أوّله إلى آخره، فندمَ أبو عمروٍ رحمه الله من ذلك القصد، ووقعت في فؤاده نارٌ، واضطربَتْ أحوالُهُ، فجاء إلى الحسنِ رحمه الله، وبكى كثيرًا، وقصَّ عليه الحكاية، واستدعى منه أن يدعو له في ذلك، فحزنَ الحسنُ من ذلك، وقال: هذا موسم الحجِّ، سافرْ مع الحجّاج، وحجَّ البيت، وبعد الفراغ اذهبْ إلى مسجدِ الخيف تر هناك شيخًا جالسًا في المحراب، لا تشوّشْ عليه الحال؛ بل اصبرْ حتى يفرغ[٤]، ثم تقرّب إليه، والتمسْ منه أن يدعو لك، فإن دعاءَه عند الله مُستجاب. فامتثلَ أبو عمرو، وذهب إلى مكّة شرّفها الله، وبعد الفراغ من أعمال الحجِّ قصدَ مسجد الخيف، ورأى الشيخَ الذي وصّاه الحسنُ به جالسًا في محراب المسجد، وحوله جماعةٌ، جلس أبو عمرو في ناحيةٍ من المسجد، إذ دخل عليه رجلٌ، وعليه ثيابٌ بيضٌ نظيفة، قام الشيخُ والأصحاب كلُّهم فاستقبلوه، وسلّموا عليه، ومكثوا إلى وقت الصلاة، فقام الرجلُ وصلّى إمامهم، واقتدى به الشيخُ مع الأصحاب، ولمّا قضوا الصلاة، وتفرّقَ الجماعةُ، وصار المسجدُ خاليًا، وبقي

---

(١) هو زبّان بن عمّار التميمي المازني البصري أبو عمرو، ويلقّبُ أبوه بالعلاء (٧٠_١٥٤هـ) من أئمة اللغة والأدب، وأحد القرّاء السبعة.

(٢) في (ب): تعلم القراءة.

(٣) في الأصلين: فتخلّى به أبو عمرو.

(٤) في (أ): حتى يخلص.

الشيخُ وحده، قام إليه أبو عمروٍ وسلّم عليه، وقال: اللهَ الله يا شيخ، ادعُ اللهَ لي، وحكاهُ الحكايةَ، فاغتمَّ له الشيخ، ونظرَ بطرفِ العينِ إلى السماء، وما ارتدَّ إليه نظرُهُ، إذ تذكّر أبو عمرو جميعَ القرآن ببركة دعائه، قال أبو عمرو رحمه الله: تمرَّغتُ بين يديه على التراب من غايةِ الفرح، وقبّلتُ رجله، قال الشيخ: من دلّكَ عليَّ، وأرشدكَ إليَّ؟ قال أبو عمرو: الحسن البصري. فتبسّمَ الشيخُ، وقال: فضحني الحسن، وأنا أيضًا أفضحُهُ، ثم قال لي الشيخُ: إن الرجلَ الذي جاء إلينا، وأكرمناه وصلّينا معه الصلاةَ كان هو الحسنُ، يجيء إلينا كلَّ يومٍ، ويُصلّي بنا الظهرَ، ثم يُصلّي العصرَ بالبصرة، ثم قال الشيخ: من كان له إمامٌ مثل الحسن كيف يحتاجُ إلى غيره، ولا يستدعي منه؟!

حكي أن رجلاً في زمانه كان له فرس قد قَرُبَ من الهلاك، وصار الرجل عاجزًا مُتحيِّرًا في شأنه، فذهب صاحبُ الفرس إلى الحسن البصري رضي الله عنه، وشرحَ عنده الحال، فاشترى الحسن ذلك الفرسَ منه بأربع مئة درهم، وسلّم الثمن إليه، فلّما جنَّ عليه الليلُ رأى الرجلُ في منامه فرسَهُ يرعى في مرجٍ من مروج الجنة، ومعه أربعة أمهرة[1] سمان شهب، قال: لمن هذا؟ قالوا: للحسن البصري، ولكن كانت لك قبله. فانتبه، وجاءَ من الغد إلى الحسن البصري، واستقالَ منه البيع، وأظهرَ فيه ندمَهُ، قال له الحسن: اذهب، فالذي رأيتَهُ أنت البارحة، فأنا رأيتُه بارحة أمس. فاغتمَّ الرجلُ ورجع، ثم رأى الحسنُ في ليلته غُرفًا ومناظرَ عاليةً في الجنة، فسأل: لمن هذه؟ قالوا: لمن أقالَ بيعَ نادم. فطلبَ الحسنُ رضي الله عنه في اليوم الثاني ذلك الرجل، وفسخ العقد، وأقال البيع.

نقل: أنّه كان جيرانُ الحسن[2] مجوسيًا اسمه شمعون، قد عبدَ النارَ سبعين سنة، ثم لمّا حضرته الوفاةُ أخبر الحسنَ عن حاله، قام إليه أداءً لحقِّ المجاورة،

(١) في (أ): ومعه أربع مئة مهر.
(٢) كذا الأصلين، ولعلّها: أنه كان جار من جيران الحسن مجوسيًا.

فرآه قد أسودَّ ظاهرُهُ وباطنه من النار التي عبدها، قال: خفْ من الله تعالى؛ فإنَّ عمرَكَ الذي كان رأسَ مالك قد انقضى في النار والدخان، وأغضبتَ الله تعالى عليك، وما عملتَ برضاه أصلاً، فاليومُ يومُ الندم والتوبة والإسلام والاستغفار، عسى الله أن يتوبَ عليك ويرحمَكَ. قال المجوسيُّ: يمنعني عن الإسلامِ ثلاثةُ أشياء، الأول أنَّ أهلَ الإسلام يذمّونَ الدُّنيا ليلاً ونهارًا، ثم يطلبونها سرًّا وجهرًا. الثاني: أنَّهم يقولون ويعلمون أنَّ الموتَ حقٌّ، ثم لا يتهيؤون له ولا يعدّون أسبابها. الثالث: أنهم يعتقدون أنَّهم سيرون الله تعالى في القيامة، ثم لا يَعملون برضاه. قال الحسنُ رحمه الله في نفسه: إنّ هذا ليس من كلامِ المُنكرين، ثم قال له: المؤمنون يعملون ما ذكرت؛ ولكنّهم مُقرّون بوحدانية الله تعالى، لا يصرفون أعمارَهم في عبادة النار مثلكم، وليس للنار وفاءٌ أصلاً؛ فإنّكَ عبدتها سبعين سنة، وتقرَّبتَ إليها، وأنا ما عبدتُها قطعًا، تعالَ ندخل فيها، ثم ننظر أنها: هل تَحرقني أم تحرقُكَ؟ بل تحرقنا جميعًا، إلاّ إذا منعها اللهُ تعالى عن الإحراق، فإنّها لا تقدرُ على إحراق شعرةٍ على جسد موحِّدٍ. ثم أدخلَ الحسنُ يدَهُ في النار، وقال للمجوسيِّ: وافقني، وأدخل يدَكَ أيضًا فيها. فما قدرَ المجوسيُّ على ذلك، ولم تحرقِ النارُ بقدرةِ الله تعالى شعرةً من يدِ الحسن[1]، وما وصلَ إليها ألمٌ، فلمّا رأى المجوسيُّ المشركُ ذلك تحيَّرَ وتعجَّبَ منه، وصُبْحُ العرفان آخذٌ في الطلوع، وليلُ النُّكران شرعَ في الرجوع، قال للحسن: بعد أن عبدتُ النارَ سبعين سنةً، وما بقي من عمري إلاّ أنفاسٌ معدودة لا تسعُ إلاّ شيئًا قليلاً، فماذا أعملُ، وما التدبيرُ والحيلة؟ قال الشيخ: التدبيرُ أن تُؤمنَ بالله. قال المشركُ: فإن أعطيتني خطًّا كتبتَهُ بيدك، وتصيرُ لي ضامنًا بالرحمة والعفو وترك العقاب أنا أؤمن، وأدخلُ في زمرة المؤمنين، وإن لم تُعطني خطَّ يدك فلا. فكتبَ الحسنُ رحمه الله كتابًا بهذا المعنى، وأعطاه إياه، قال المُشركُ: اشهدْ على ذلك جماعةً من عدول البصرة؛ فإنّي خائفٌ من الله تعالى غايةَ الخوف. ففعلَ

(١) في (ب): شعرة من جسد الحسن.

ما قالَ، فأخذ المُشركُ المجوسيُّ ذلك الكتاب، وبكى كثيرًا، وآمن بالله وكُتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، ووصّى الحسنَ، وقال: أُريد أن تغسّلني بيدك، وتضعَ الخطَّ في يدي ليكون حجّةً لي عند الله، وتدفنني في مقابر المسلمين. فلمّا أتمَّ الوصيةَ خرجتْ روحُهُ، وتولّى الحسن ما وصّاه به، وصلّى عليه في ناسٍ كثيرٍ من المسلمين، ثم وقعَ اضطرابٌ في قلبِ الحسن من هذا الفعل، وصيرورته ضامنًا له، وما نامَ تلك الليلة من هذا الفكر[١]، وكان يُصلّي ويقول في نفسه: ماذا فعلتُ، أنا أعطيتُ خطًّا على جهلٍ، واستجريتُ على هذا الجهل العظيم، والخطب الجسيم[٢] إذ ليست رحمة الله في تصرّفي، وأنا غريقٌ في بحرٍ موّاجٍ، كيف أَقدرُ على تخليص غيري؟ وكان في هذا الفكر، إذ أخذه النعاس في السحر، فرأى شمعون في المنام، وله وجهٌ وضيءٌ أضوَأ ما يكون، وعلى رأسه تاجٌ، وعليه حلّةٌ، وهو يتبسّمُ ويطوف في رياض الجنة في غاية البشاشة والفرح والسرور، قال له: يا شمعون، كيف حالك؟ فقال: أتسألُ عن حالي وأنت تشاهدني وتنظرُ إليّ! إنّ الله تَبارك وتعالى رحمني، وأنزلني في دار كرامته، وغمرني بأنواع نعمته، وشرّفني برؤيته، وما فعل معي من اللطف والإحسان لا تُحصيها العبارة، ولا يحويه التقرير[٣]، وأنت يا شيخ قد خرجتَ من الضمان، خذْ كتابَكَ؛ إذْ لا حاجةَ لي بعدُ إليه. فأخذَ الشيخُ الكتابَ، وانتبه من النوم، والكتابُ في يده، فبكى حتى غسل المكتوبَ بدموعه، وقال: إلهنا ومولانا، علمنا أن لطفَكَ وإحسانك لا يحصل بعلّةٍ، وإنّما هو محضُ تفضُّلٍ وامتنان، من ذا الذي يصيرُ خاسرًا لديك، وأنت تَرحمُ مَجوسيًا عبدَ النارَ طولَ عمره وأيام دهره.

نقل: أنّه كان فيه ـ رحمه الله ـ من الانكسارِ والتواضع ما لا يوصف، حتى إنه ما كان ينظر شخصًا من الأشخاص إلاّ ويعدُّه أشرفَ من نفسه وأفضلَ، فاتّفقَ

---

(١) في (ب): من هذا الفعل.

(٢) في (أ): والخطر الجسيم.

(٣) في (ب): ولا يحويه التقدير.

له يومًا من الأيام مسيرٌ إلى ساحل دجلة، رأى رجلاً أسودَ، وعنده امرأةٌ وقارورةٌ، وكان يتجرَّعُ من القارورة، ففكَّرَ الحسنُ: أنَّ هذا الرجل، هل هو خيرٌ مني؟ ثم قال في نفسه: لا شكَّ أنَّه خيرٌ منّي، إلاّ أنه بظاهر الشرع جالسٌ مع امرأةٍ، ويشربُ الخمرَ، فما تمَّ هذا الخاطرُ في باله إذ طلعَ مركبٌ على الشطِّ، وفيه حملٌ ثقيل، وجماعةٌ من الناس، ومالَ إلى جانبٍ وغرق، وكان فيه سبعةُ أشخاصٍ، فغرقوا، فالأسودُ المذكورُ نزعَ ثيابَه في الحال، ورمى نفسَه في الماء، وأمسك منهم اثنين بيديه، واثنين برجليه، واثنين بضرسه، وأخرجهم من الماء، ثم صاح إلى الحسن، وقال: يا حسن، أنا أنجيتُ بتوفيق الله ستَّةً منهم، فخلّصْ أنت هذا الواحد الباقي من الغرق، ثم قال: يا حسن، اعلمْ أن هذه المرأةَ والدتي، والقارورةَ فيها ماءٌ، قصدتُ امتحانك، حتى نعلمَ أنَّك بصيرٌ أم أعمى؟ فتعجَّبَ الحسن، واعتذر، وتحقَّقَ أنّه كان مبعوثًا لامتحانه من الله تعالى، ثم قال له الحسن: للهِ كما صرتَ سببًا لنجاة هؤلاء الغرقى، فأنجني؛ فإنّي غريقٌ في بحر العُجْب. قال الأسود: أقرَّ اللهُ عينك. فصارَ الحسنُ بعده إلى حيث ما كان يرى نفسَه خيرًا من أحدٍ أصلاً، حتى رُوِيَ أنّه رأى كلبًا، قال: إلهي، اجعلني مُساويًا لهذا الكلب. فقيل له في ذلك، فقال: إنّي إن قفزتُ عن هذه الورطة فلا شكَّ أنا خيرٌ منه، وإن بقيتُ في هذه الورطة والحالةِ فهو خيرٌ منّي بعزّة الله تعالى.

نقل عنه رضي الله عنه أنه قال: أعجبني أربعُ كلمات سمعتُها من أربعةِ أشخاص:

الأولى: سمعتُ مخنثًا قد عيّرتُ عليه، قال: يا شيخ، لا تتنفّر عنّي، ولا تطوِ ذيلك منّي، فالأمرُ في ثاني الحال، ولا شكَّ أنَّه مخفيٌّ علينا، والله أعلم بالعاقبة.

والثانية: رأيتُ رجلاً سكران وقعَ في ماءٍ وطينٍ، يمشي ويتمايلُ من الجانبين، يقومُ مرّةً ويقعُ مرّةً أُخرى، قلت له: ثبّتْ قدميك يا مسكين حتى لا تزلَّ. قال السكران: أنت يا شيخ ثبّتْ قدميك حتّى لا تزلَّ مع هذه الدعوى؛

فإنّك إنْ وقعتَ لا تقومُ أبدًا، وإنّي إنْ وقعتُ وتلطَّخَ ثوبي بطينٍ وأنا رجلٌ سكران فأغسله والأمرُ هيّنٌ. فهذا الكلامُ قد أثَّرَ في قلبي تأثيرًا عظيمًا.

الثالثة: رأيتُ صبيًّا معه ضوءٌ، قلت له: من أين جئت بهذا الضوء؟ فنفخ فيه، وأطفأه، وقال: قل يا شيخُ أينَ ذهبَ حتى أنا أقولُ من أين جاء.

أقول: لعلَّ الإشارةَ فيه أنه انعدم، وذهبَ إلى العدم، كما أنّه جاءَ من العدم، وأشار الصبيُّ بذلك إلى أنَّ الإنسان أوجده الله تعالى من العدم، ثم يعودُ ثانيًا إلى الفناء، ومن هذا يظهر سرُّ المبدأ والمعاد، وينكشف كثيرٌ من أسرار العلم والعمل. والله أعلم.

والرابعة قال: رأيتُ امرأةً ذات جمالٍ، منكشفةَ الوجه، مُغتاظةً من الزوج، خرجَتْ من البيت تشتكي من زوجها، فلمّا وصلتْ إليَّ قلتُ: يا فلانة، أولاً استري وجهَكِ ثم تكلّمي. قالت: يا شيخ، واللهِ، إنّي غرقتُ في محبّةِ مخلوقٍ إلى حيث ما بقي لي إدراكٌ ولا شعور بأنَّ وجهي مكشوفٌ أم لا، فإنّك لو لم تُخبرني بذلك ما كنتُ أعلمُهُ، وأدخلُ السوقَ على هذا الحال، ولكَ دعوى عظيمةٌ في محبّة الله تعالى مع هذا كيف رأيتَ وجهي؟! فلستَ مشغولاً بحبيبك.

نقل عنه أنّه قال لأصحابه: ما أشبهكم بأصحابِ رسول الله ﷺ. والظاهرُ منه أنّه استهزاءٌ منه بهم؛ لأنّه قال بعده: فإنّكم لو رأيتموهم لقلتُم: إنهم مجانين، وإنّهم لو رأوكم لقالوا: ما شَممتُمْ رائحةَ الإسلام، فإنهم كانوا فارسين على الجياد، وتركوا الدنيا، واشتغلوا بالدين واليقين، وأمّا نحن فمشغولون بجيفةِ الدنيا وحطامها كبعضِ الطيورالواقع[١] على الجيف.

نقل عنه أنّه جاء إليه أعرابيٌّ، وسأل عن الصبر، فقال رحمه الله: هو على قسمين: الأول الصبرُ على البلاء والمصائب[٢]. والثاني الصبرُ عمّا نهى الله

(١) في (ب): الطيور الواقف.
(٢) في (ب): البلاء، أي المصائب.

عنه. قال الأعرابيُّ: ما رأيتُ أزهدَ منك، ولا أصبرَ منك! قال رحمه الله: أما زهدي فللرجاء، وأما صبري فللجزاء، فطوبى لمن يكونُ زهدُه وصبرُه للحقِّ لا لشيءٍ آخر. قال الأعرابيُّ: اشرح لي هذا الكلام، إذ شوّشتَ عليَّ اعتقادي. فقال رحمه الله: زهدي في الدنيا للرَّغبة في الآخرة، وهذا عينُ نصيبِ النفس، وصبري على البلايا والطاعات لرجاءِ الأمن من عذاب النار.

ومن كلامه أنه قال: لا بدَّ للمؤمن[١] من علمٍ نافع، وعملٍ كاملٍ مع الإخلاص، وقناعةٍ مشبعة مع الصبر، ثم بعد حصول هذه الأمور لا أعلم ماذا يُفعل به.

وقال: الشاةُ أكثرُ تنبُّهًا من الإنسان، فإنها تتركُ الرعيَ عند صياح الراعي، والناسُ لا ينزجرون عن المعاصي باستماع كلام الله تعالى.

وقال: القرينُ السُّوء يورث الظنَّ السوء بالجياد.

وقال: الطلب إلى الخمر أحبُّ إليَّ من الطلب إلى الدنيا.

وقال: المعرفةُ أن لا تجدَ في نفسك مثقالَ ذرَّةٍ من الخصومة.

وقال: أولُ ما يدخل أهلُ الجنة فيها يُغشى عليهم ثمانية آلاف سنة؛ لأنَّ الله تعالى يتجلّى لهم، فإن نظروا إلى جلاله يسكرونَ من هيبته، وإن نظروا إلى جماله يغرقون في بحر الحيرة[٢].

وقال: الفكرةُ مرآةٌ تُريك الحسنات والسيئات.

وقال: من لا يكون كلامُه عن الحكمة فهو عين الآفة، ومن لا يكون سكونه عن الفكرةِ فكلُّه سهوٌ وغفلة، وكلُّ نَفَسٍ[٣] ليس على وجه العبرةِ فهو زلَّةٌ ولهو.

وقال: مكتوبٌ في التوراة: مَنْ قنعَ لا يحتاج إلى أحدٍ، ومن اعتزلَ عن

(١) في (أ): لا بدّ للمرءِ من علمٍ.

(٢) في (أ): في بحر حيرته.

(٣) في (أ): وكلُّ نظرٍ.

الخلقِ سَلِمَ، ومن وضعَ الشهوةَ تحت رجله عُتق، وإذا تركَ الحسدَ ظهرتِ المروءة، ومن صبرَ أيامًا معدودةً قليلةً عاش دهرًا لا آخرَ له.

وقال: للورع ثلاثُ مقامات:

المقام الأول: أن لا يتكلَّمَ العبدُ إلاّ بالحق، سواءً كان في الغضب أو في الرضا.

الثاني: أن يحفظ أعضاءَه عمّا لا يرضى الله به.

الثالث: أن لا يقصدَ إلاّ شيئًا يرضى الله تعالى به.

وقال: ذرةٌ من الورع خيرٌ من مثقالٍ من الصوم والصلاة

وقال: أفضلُ الطاعات كلِّها الفكرُ والورع.

وقال: لو علمتُ أنَّ ليس في نفسي نفاقٌ لكانتِ النفسُ أحبَّ إليَّ من جميع الأرض وما عليها

وقال: اختلافُ الظاهر والباطن واللسان والقلب من النفاق

وقال: المؤمنُ من يكون ليِّنًا ساكنًا، لا يعمل ما يقدر عليه، ولا يقولُ ما يخطر

وقال: لا غيبةَ لثلاثة أشخاص: لصاحبِ الهوى، وللفاسق، والإمام الظالم

وقال: مسكينٌ ابنُ آدم؛ رضي بدارٍ حلالُها حساب، وحرامُها عذاب

وقال: نفس ابن آدم لا تُفارقُ الدنيا إلاّ بثلاث حسرات: الأول ما شبعَ ممّا جمع، والثانية ما حصلتْ له آماله، الثالثة ما حَصّلَ زادًا، وبين يديه مسافةٌ بعيدة.

قيل: فلان في تعبٍ ومشقّةٍ من سكرات الموت. قال: لا، بل كان في التعبِ منذ سبعين سنة، واليوم يستريح من هذا التعب والنصب، لا ندري كيف يكون حالهُ بعد هذا.

وقال: نجا من حمل خفيفًا، وهلكَ من حملَ ثقيلاً كما قال ﷺ: «نجا المخففون، وهلك المثقلون»(١).

وقال: رحمَ اللهُ امرأً تكون عنده وديعةٌ، فيسلّمها إلى صاحبها، ثم يسافرُ خفيفَ الحمل.

وقال: العاقل الكيّسُ رجلٌ خرّبَ الدنيا، وأسّسَ على ذلك الخراب الآخرة.

وقال: ليس دابةٌ أولى باللِّجامِ من النفس.

وقال: إن أردتَ أن تعرفَ الدُّنيا بعدك، فانظر إلى الدنيا بعد غيرك.

وقال: الرجلُ الذكيُّ الفطنِ من خرّبَ الدنيا، وبنى الآخرة على ذلك الأُسّ.

وقال: عرفَ من كان قبلكم من المسلمين قدرَ الكتاب الذي أنزلَ اللهُ عليهم؛ فبالليل تأمّلوا في معناه، وبالنهار اشتغلوا بالعمل بما فهموا منه، وأنتم اكتفيتم منه بالمُدارسةِ وتصحيحِ حروفه وإعرابه، وتركتم العملَ، وجعلتموه وسيلةً إلى الدنيا.

وقال: واللهِ ما أعزَّ أحدٌ الذهبَ والفضة إلاّ أذلَّه الله تعالى.

وقال: إنْ أردتَ أن تأمرَ أحدًا بشيءٍ فلا بدَّ أن تعملَ به أنت أولاً، ثم تأمره به.

وقال: من جاءَ بكلامِ الناس إليك، يمشي بكلامِك إلى الناس. يعني من أفشى سرَّ الناس عندك يُفشي سرّك عند الناس(٢).

وقال: الإخوان أعزُّ إلينا من الأهلِ والعيال؛ فإنَّ الأخَ الصالح(٣) يُعينك على الدين، والأهلُ والعيال خصمُك في الدين؛ لأنهم يُفسدون عليك أمورَ دينك.

---

(١) ذكره العجلي في كشف الخفا ٢/ ١١٠ من قول أويس، وسيذكر المؤلف رحمه الله هذا القول صفحة (٧٥) من أقوال مالك بن دينار.

(٢) هو من قولهم: من نمَّ لك نمَّ عليك.

(٣) في (ب): فإن الرجل الصالح.

وقال: ما أنفق الشخصُ على نفسهِ وعلى عياله وعلى أبويه فعليه حسابُه إلاّ ما أنفقَ على صديقٍ في الدين أو أطعمه، فليس له حساب.

وقال: صلاةُ شخصٍ لا يكون قلبُهُ حاضرًا إلى العقوبة أقرب.

وقيل له: إنَّ في جوارك شخصٌ اعتزل عن الناس، وما صلّى الصلاة في الجماعة منذ عشرين سنة، فمضى إليه الحسن رحمه الله وقال: يا فلان، لِمَ لا تخالط الناس، ولا تُصلّي بالجماعة؟ قال: لأنّي معذورٌ مشغول بما يمنعني من ذلك. قال: وماذا؟ قال: لا يصعدُ منّي نَفَسٌ إلاّ وله عليَّ نعمةٌ، ويصدر منّي معصيةٌ، فأشتغلُ بشكر إنعاماته وعذر عصياناتي. قال الحسن: كنْ على ما أنت عليه؛ فإنك خيرٌ منّي.

وقيل له: طابَ لك وقتٌ في الدنيا؟ قال: نعم، كنت يومًا من الأيام على سطح بيتي، سمعت امرأةَ جارٍ لي تقول لزوجها: منذ خمسين سنة أنا امرأتك وفي بيتك، وكنتُ راضيةً منك بالقليل والكثير، قانعةً بالجليل والحقير، ما أفشيتُ لك سرًّا، ولا توانيتُ في خدمةٍ، ولا طلبتُ منك زيادةً في النفقة، ولا اشتكيتُ منك إلى أحدٍ، وأنا راضيةٌ منك بكلِّ ما تعملُ معي، ولكن لا أرضى بخصلةٍ واحدةٍ، ولا أصبرُ عليها. قال: وماذا؟ قالت: إنّي عملتُ معك كذا وكذا لأنظر إليك، وأنت تَنظرُ إلى غيري، وأميلُ إليك، وأنت تميلُ إلى غيري. كأنّها تشتكي من نظرِ الزوج إلى ضرَّتها. قال الشيخ رحمه الله: فطابَ وقتي، وجرى الدَّمعُ على خدّي، ثم طلبتُ من كلامِ الله تعالى نظيرَ كلامِ المرأة، فوجدت قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

حكي أنه رحمه الله مرَّ بقومٍ في عيدٍ كانوا يَضحكون ويلعبون، قال: أتعجَّبُ منهم، يضحكون ويلعبون، ولا يعلمونَ عاقبةَ أمرِهم وأحوالهم!

قيل له: كيف حالك؟ قال: كيف يكون حالُ من كان في سفينةٍ فانكسرتْ، وأخذ كلٌّ لوحًا واستمسكَ به؟ قالوا: حالٌ صعب. قال: حالي كذلك

وحُكي أنّه رأى رجلاً يأكل الطعام في بعض المقابر، فقال: إنه منافق. قيل: لِمَ؟ قال: من تتحرّكُ شهوتُهُ للطعام بين هذه الموتى، فكأنّه لا يؤمن بالموت واليوم الآخر، وهذا علامة النفاق

وحكي أنه رحمه الله كان يقول في بعض مناجاته: إلهي، أَنعمتَ عليَّ وما شكرتُك، وأنزلتَ عليَّ بلياتٍ وما صبرتُ، وعلى هذا فما قطعتَ عنّي نعمك، وما أدمتَ عليَّ البلاء، فأنت كريمٌ لطيف، لا يظهرُ منك إلاّ الكرمُ واللطف.

قيل: لمّا حضرته الوفاة، تبسَّمَ وقال: أيُّ ذنبٍ؟ وتوفّي رحمه الله تعالى مع أنَّه ما تبسَّمَ في حال حياته قطُّ، فرآه بعضُ الصالحين في المنام، وقال له: ما رأيناك مُتبسّمًا في حياتك قطُّ، فما كان سببُ تبسُّمك عند الموت؟ وما معنى قولُك حينئذٍ: أيُّ ذنبٍ؟ قال: سمعتُ صوتًا يقول: يا ملكَ الموت، شدّدْ عليه، فقد بقي عليه ذنبٌ، فتبسَّمْتُ فرحًا من أنه بقي عليَّ ذنبٌ واحد، ثم قلت: أيُّ ذنب هو ذلك؟ وخرجتُ من الدنيا.

ورأى رجلٌ من الصالحين أنَّ أبوابَ السماء قد فُتحَتْ، وينادي منادٍ ويقول: وصلَ الحسُن إلى ربّه وهو عنه راضٍ، رضي الله عنه

* * *

(٤) مالك بن دينار(١)

ذكر مالك بن دينار رحمه الله:

السالك الطيّار، مالك بن دينار رحمه الله، صاحبُ الحسن البصري رحمه الله، وكان من أكابر الطائفة، وله كراماتٌ مشهورة، ورياضاتٌ مذكورة، وكان اسمُ أبيه دينارًا، وكان أبوه دينارٌ رقيقًا، وقد ولد وهو في حال رقِّ أبيه، فهو وإن كان من أبناء المماليك؛ لكن كان من الأحرار في الدارين.

وقال بعضُهم: ركبَ مالك السفينة في بعض الأيام، فلمّا سارتِ السفينةُ طلب الملاّحُ منه أجرةَ الرُّكوب، فما كان واجدًا لشيءٍ يُعطي الملاح من جهة الأجرة، فضربه الملاحُ حتى غُشي عليه، فلمّا أفاقَ طلبَ منه ثانيًا، وضربَهُ كذلك، ثم لمّا أفاقَ طلب منه وضربه، فلمّا أفاقَ أمسكَ برجله ليُلقيَهُ في البحر، فطلع من البحر حيتانٌ كثيرة، وفي فم كلِّ واحدٍ منها ديناران من الذهب، فمدَّ مالك يدَه وأخذَ من واحدٍ منها دينارين، وأعطاهما للملاّح، فلما رأى أهلُ السفينة هذه الحال، ندموا وتابوا، واعتذروا ممّا فعلوا، ولذلك سُمّي مالك بن دينار لا أنَّ أباه كان اسمه دينارًا. تم كلامه.

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤٣، تاريخ خليفة ٢١٥، التاريخ الكبير ٧/ ٣٠٩، التاريخ الصغير ١/ ٣١٦، الجرح والتعديل ٨/ ٢٠٨، ثقات ابن حبان ٥/ ٤٨٣، حلية الأولياء ٢/ ٣٥٧، صفة الصفوة ٣/ ٢٧٣، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢٧١، كتاب التوابين ٢٠٢، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٨٠، وفيات الأعيان ٤/ ١٣٩، مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٥، تهذيب الكمال ٢٧/ ١٣٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢، تاريخ الإسلام ٥/ ١٢٨، ٣١٥، المغني في الضعفاء ٢/ ٥٣٨، ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٦، روض الرياحين ٢٣٢ الحكاية (١٥١)، تهذيب التهذيب ١٠/ ١٤، طبقات الشعراني ١/ ٣٧، الكوكب الدرية ١/ ٤١٢، شذرات الذهب ١/ ١٧٣.

قيل: سببُ توبته أنَّه كان صاحبَ جمالٍ وصباحةٍ، وكان محبًّا للدنيا والمال، وكان ساكنًا بدمشق، والمسجد الذي بناه معاوية رضي الله عنه، ووقف عليه موقوفات كثيرة، طمعَ في أن يُسلِّمَ إليه توليته، فاعتكف فيه سنةً كاملةً، وبسطَ في زاويةٍ منه سجادةً، واشتغل بالعبادة والطاعة لذلك الطمع، [ليراه] مَنْ يلتقي به في المسجد، كان يقول في نفسه: كأن هذا منافقٌ، يُصلّي ويعبدُ الله تعالى طمعًا في التولية، وكان يخرجُ من المسجد بالليل، ويشتغلُ باللهو والطرب، حتى كان في ليلةٍ مَشغولاً باللهو كما كان شيمتُهُ، فقام أصحابُه، وكان يضربُ بالعود، إذ سمعَ منه: يا مالكُ، مالَكَ، ألا تتوب(١)؟ فتركه في الحال، ودخل المسجدَ مُتحيِّرًا متفكِّرًا في أنه: قد عبد[ت] الله سنةً على رياءٍ ونفاق، ولم يحصل مقصودي، فالأَوْلى أن أعبدَ الله تعالى بإخلاصٍ وأستحيي عمّا أفعلُ، وندم على ما عمل، وشرط على نفسه أنه إن ولّوه التوليةَ لا يقبلها، فأخلصَ نيّتَهُ، وصفّى سرَّه، واشتغل بالعبادة في تلك الليلة بقلبٍ صافٍ وإخلاصِ نيّةٍ، فلمّا أصبحَ، دخلَ المسجدَ قومٌ وقالوا: قد ظهر في هذا المسجدِ أنواعٌ من الخلل، ولا بدَّ له من متولٍّ صالحٍ يقومُ بعمارته وإصلاحه، ثم اتّفقوا على مالك، وعلى أنّه ليس شخصٌ آخر أَوْلى منه، فجاؤوا إليه، وهو كان في الصلاة، فصبروا إلى أن فرغَ منها، وقالوا: جئنا إليك شافعين عندك لتقبلَ توليةَ هذا الجامع. فقال مالكُ في سرِّه ومناجاته: إلهي، عبدتك سنةً لأجلِ هذه التولية، فما حصلتْ، فعبدتُكَ بعضَ هذه الليلة بإخلاصٍ، بعثت إليَّ عشرين رجلاً يشفعون في قبول التولية، فبعزَّتِكِ لا أُريدُ هذه التولية ولا أقبلُها، وخرج من المسجد، واشتغلَ بالمجاهدة والرياضة والطاعةِ والعبادة حتى صاحبَ الحسنَ البصري، وصارَ حميدَ الفعال، رضيَّ الخصال، مرضي الأحوال.

قيل: كان في البصرة رجلٌ ذو مال، وكانت له بنتٌ صاحبةُ جمالٍ، فتوفّي، وجاءتِ البنت إلى ثابت البُناني رحمه الله، وطلبت منه أن يزوّجَها من مالك بن

---

(١) في (ب): يا مالكُ، مالَكَ، آن لك أن لا تتوب.

دينار ليكون لها عونًا على طاعة الله تعالى، فعرض ثابتٌ على مالكٍ، قال مالك: إنّي طلّقتُ الدُّنيا ثلاثًا، والمطلّقةُ ثلاثًا لا تعود، وهي من الدنيا المطلقة، ولم ينكحها.

نقل: أنه كان نائمًا في ظلِّ شجرةٍ، وكانت عنده حيّةٌ، وفي فمها نرجسٌ تروّح مالكًا به ليستريح مالك.

قال: كنتُ متمنّيًا للغزو مدةً طويلةً، فلمّا اتّفقَ لي أن حضرتُ الوقعةَ، حصل لي حُمَّى إلى أن أعجزتني عن المحاربة، فدخلتُ الخيمة، واضطجعتُ في حزنٍ وكربٍ عظيم، قائلاً في نفسي: لو كان لي عند اللهِ مقدارٌ ومنزلةٌ لَمَا رزقني الحمّى في هذا اليوم، فأخذتني سِنَةٌ من النوم، فسمعتُ هاتفًا يقول: يا مالك، لو تركناك تحاربُ لصرتَ أسيرًا في أيدي الكفار، ولأطعموك لحمَ الخنزير، ولصار مآل حالك والعياذُ بالله إلى الكفرِ، فكان في هذه الحُمّى لطفٌ عظيمُ الحكمة إليك. فلمّا انتبه شكرَ الله تعالى، وفوّضَ إليه أمورَه بالكلّية.

نقل: أنه وقع له مناظرةٌ[1] مع دَهْريٍّ، وطال بينهما النزاعُ والجدال والكلام، وكلٌّ منهما كان يقول: أنا على حقٍّ، ثم اتّفقوا على أن يشدُّوا أرجلهما، ويرميان في النار، فمن لا يحترقُ منهما فهو على الحقِّ، والآخرُ على الباطل، فشدّوهما، وألقوهما في النار، فلم يحترقْ منهما شيءٌ أصلاً - يعني لا من مالكٍ ولا من الدَّهْريِّ - فحزن مالك، وذهب إلى بيته، وتضرّعَ، وتضجّرَ عظيمًا، ووضع وجهَهُ على الأرض، وأخذ في المُناجاة، وقال: إلهي، عبدتُكَ في الإسلام سبعين سنة، فساويتني بالآخرة مع كافرٍ دهريٍّ! فسمعَ قائلاً يقول: أنتَ حميتَ الدهريَّ ووقيته من النار، فلو أُلقي الدَّهْريُّ وحده في النار لرأيتَ حالَه.

نقل: أنه قال: مرضتُ مرضًا شديدًا إلى الغاية إلى أن انقطعَ الرَّجاء[2] عن العيش، ثم رزقني اللهُ الصحة والعافية، فعرضَ لي حاجةٌ إلى السوق، ولم يكن

---

(١) في (ب): وقع له معارضة.

(٢) في (أ): إلى أن قطع الرجاء.

لي مَنْ يقضيها، فدخلتُ السُّوقَ بتعبٍ عظيم لأجله، والتقيتُ بحاكم البلد فيه، ومعه ناسٌ كثيرٌ من غلمانه وأجناده، فصاح رجلٌ منهم عليَّ وأمرني بالخروج عن الطريق، ولم يكن لي طاقةُ الخروج عنه مُسرعًا، فضربني بمقرعةٍ، فقلتُ: قطعَ الله يدك، فرأيتُهُ في اليوم الثاني قد قُطعت يده.

وحكي أنّه كان له جارٌ مُفسدٌ قَبيحُ الخصال، ومالك كان يتأذّى منه ويتضرَّرُ، ولكن كان يَصبرُ ولا يُظهر من ذلك شيئًا حتى ظهرَتْ حالُه، واشتكى الناس منه لسوءِ سيرته وقبحِ معاشرته، وكان رجلاً جبَّارًا متمرِّدًا، فذهب إليه مالك رحمه الله ليأمرَهُ بالمعروف، وينهاه عن المنكر، فلمّا سمعَ الرجلُ مقالةَ الشيخ، قال: أنا من المُقرَّبين في حضرةِ السلطان[1]، ومن يستجري أن يقولَ في وجهي شيئًا من هذا القبيل؟ قال الشيخ: نعرضُ أحوالك على السلطان. قال الرجل: السلطان لا يطلب مُخالفتي. قال الشيخ رحمه الله: نشتكي منك إلى الله تعالى. قال: فإن اللهَ أكرمُ من أن يُؤاخذني بزلاّتي. فخرج مالك من عنده، ومضت أيامٌ، وهو أفرطَ في الشرِّ والفساد والبغي والعناد، فجاء الجيرانُ إلى مالكٍ يشتكون منه، فذهب إليه مالكٌ مرةً ثانيةً للنصيحة، فسمع قائلاً يقول: اقصرْ يدك يا مالك من صديقنا ولا تُؤذيه. فتعجَّب مالك من هذه الحال، وذهب إلى الرجل، فقال له الرجل: لمَ جئتَ؟ قال الشيخ: ما جئتك زاجرًا، وحكى له الحكايةَ، فلمّا سمعَ الرجلُ الخبر قال: فالأَوْلى أن أتركَ الدُّنيا، فتركها واشتغلَ بطاعة الله تعالى، وشرعَ في السفر والسياحة. قال مالك: رأيته بعد مدّةٍ في مكّة، كأنه صار خلالاً[2] من الضعف، وما بقي منه إلاّ رمقٌ، فلمّا رآني قال: لما قال الحبيبُ: أنا صديقُهُ، فها أنا ذاهبٌ إليه، وغمض عينيه، وراح إلى رحمة الله تعالى.

وحُكي: أنه اكترى دارًا بقرب دارِ يهوديٍّ، ومحرابُ داره إلى باب اليهودي، فحفر اليهودي هناك جُبًّا حتى جعله مَبرزًا، على قصدِ إيذاء مالك،

---

(١) في (أ): من المقربين عند السلطان.

(٢) الخِلال: العود الذي تخلَّلُ به الأسنان، والدبُوس.

ولا يخفى أن الحال كيف كانت، ومالكٌ ما كان يشتكي إلى أحدٍ، ولا يُظهر ضجرًا، حتى اضطر اليهوديُّ، وقال له يومًا: يا فلان، كيف لا تتأذّى من هذا؟ قال: أتأذّى، ولكن قد حصَّلتُ زنبيلاً ومجرفةً، وأكنس كلَّ يومٍ ما يحصل في الحفرة من الزبل. قال اليهوديُّ: ألا يحصلُ لك غيظ؟ قال: بلى، ولكن أكظمُهُ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فلمّا سمعَ اليهوديُّ ندمَ وأسلم على يد مالك.

نقل: أنه مضتْ أعوامٌ وسنون، وكان لا يأكلُ حلوًا ولا حامضًا، وكان إذا أراد الإفطار يشتري من الخباز خبزًا، ويُفطر عليه، وكان إدامُهُ أنَّ خبزَهُ في بعض الأوقات كان لبنًا، وحصلَ له وجعٌ، فاشتهى لحمًا، صبر عشرة أيام، فاضطرَّ في ذلك، وانتفى صبرُه، وذهب إلى دكان روّاسٍ، فاشترى كراعين، وأمسكَهُ في كُمّه ورجع، والروّاسُ كان عارفًا بحاله، فأرسل عقبه غلامًا ليرى ماذا يفعل، فجاءه الغلام يبكي، وأخبر أنّه جلسَ في مكان خالٍ، وأخرج كراعًا من كمّه وشمّه، وقال: يا نفسُ، يكفيك هذا القدر، ثم خرجَ، وأعطاهما للفقراء، ثم قال: يا جسدُ، لا تظنَّنَّ أنّي كلّفتك بهذه المشقّة والتكليفات الشديدة في الدنيا بعداوتي إياك؛ إذ ليسَ في الدنيا شيءٌ أعزُّ وأحبُّ إليَّ منك، ولكن أعملُ معك مثلَ هذه الأفعال الشاقة، وأحمّلكَ فوق طاقتك بغاية المحبة معك حتى تستريح غدًا ولا تحترق، اصبرْ أيامًا قليلة، فإنها تمضي وتمرُّ عن قريب، ثم يرزقُكَ الله تعالى نعيمًا لا يزول، ومُلكًا لا يفنى.

وقال: أسمعُ الناسَ يقولون: من لم يأكل اللحم أربعين يومًا ينقصُ عقله، وأنا ما أكلتُهُ عشرين سنة، وما نقصَ عقلي؛ بل ازداد بمنّه تعالى.

ونقل: أنّه أقامَ بالبصرة أربعين سنة، وما أكل من الرُّطبِ قطُّ، وكلّما تنقضي أيامُ الرُّطب، كان يقول لمن أكلَ الرطب: هذا بطني ما انتقص منه شيءٌ، مع أنّي ما أكلتُ شيئًا من الرُّطب، وهذه بطونُكم، وأنتم أكلتموه[1]،

---

(١) في (ب): وأنتم أكلتموهم.

والحال أنّه ما ازداد فيها شيءٌ أصلاً، فبعد أربعين سنة اشتهى الرُّطبَ اشتهاءً شديدًا، وكلَّما [أراد] أن يصبر ازدادتْ شهوتُه إليه، حتّى فنِيَ صبرُه، وكان يمنعُ النفسَ عن أكله، ويُمنّيها إلى أن عجزَ عن طلب النفس، وكان يقول: يا نَفْسُ، لا آكلِ الرُّطب، فإن شئتِ الموتَ فشأنك وإياه، وإن أردتِ الهلاكَ فاهلكي، حتى سمع هاتفًا يقول: لا بدَّ لك من أكلِ الرُّطب وإراحةِ النفس، فلمّا سمعَ الكلامَ، وحصل للنفس رخصةٌ في أكله، قال مالك: يا نفسُ، إن أردتِ أُطعمك، فصومي أسبوعًا كاملاً، ثم أُطعمُك، ولكن أريد ألا نفطر في الليل بشيءٍ قطعًا، وتُحيي الليلَ كلَّه في هذا الأسبوع بالقيام، فرضيتْ نفسُه بذلك، ووفّت بالعهد، ثم ذهب مالك إلى السوق، واشترى الرُّطبَ، ودخل مسجدًا ليأكلَ، فصاح صبيٌّ يهودي من السطح إيّاه، وقال: يا أبت، شخصٌ يهوديٌّ اشترى شيئًا من الرطب، ودخل هذا المسجدَ ليأكل. فقال أبوه اليهوديُّ: كيف يدخلُ المسجد؟ فجاء إلى ذلك الشخصِ ليكشفَ الحال، فرأى مالكًا، فوقع بين يديه، وتمرَّغَ في التراب، فقال مالك: ماذا قالَ الصبيُّ؟ قال اليهوديُّ: هو صبيٌّ معذور، ما عرفك، والحالُ أن في محلّتنا وجيراننا ناسًا من اليهود يصومون ولا يأكلون بالنهار شيئًا، فظنَّ الصبيُّ أنّك منهم، وتعجَّبَ من اشتغالك بأكلِ الرُّطب، فاعفُ عنه يا شيخ؛ فإنه لم يتكلّمْ بهذه الكلام إلاّ من الجهل. فالتهبتْ نارٌ في فؤاد مالك، وعلم أنّه كان من الغيب، فقال: يا ربَّ العالمين، ما أكلتُ بعدُ شيئًا من الرُّطب وسمّيتني يهوديًا بلا جُرم ولا ذنب؛ فإن أكلتُ منه شيئًا كيف يكون حالي؟ بعزّتك وكبريائك لا آكلُ من الرُّطب أبدًا. وما أكل.

ونقل: أنه وقع حريقٌ في البصرة، فأخذ مالكٌ نعليه وعصاه، وصعد الجبل، ومنه ينظر إليهم، فبعضهم كان يحترقُ، وبعضُهم يهربُ، وبعضهم ينقلُ أثقاله ويحمل أحمالَهُ، وهو كان يقول: نجا المُخفّفون وهلك المثقلون[1]، وهكذا يكون يوم القيامة.

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة (٦٧).

ونقل: أنه ذهب إلى عيادة مريض، وقد احتضرَهُ الموت، فكلَّما لقَّنه الشهادة، كان يقول: عشر، أحد عشر، وما تكلّم بالشهادة، ثم قال: يا شيخ، بين يدي جبلٌ من النار، كلّما أقصدُ أتكلَّمُ بكلمةِ الشهادة النارُ تحملُ عليَّ وتقصدني، ثم سأل عن صنعته، قيل: كان يعامل الناسَ بالسلف، ومكيالُه كان ناقصًا.

قال جعفر بن سليمان: كنتُ مع مالك في سفر الحج[١]، فلمّا أحرمنا بالحج، وقال: لبَّيك، خرَّ على وجهه مغشيًا، فلمّا أفاقَ سألتُه عن ذلك، قال: حين قلتُ لبّيك، فزعتُ أن يُقالَ: لا لبّيك ولا سعديك.

ونقل: أنّه حين يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] كان يبكي ويقول: لو لم تكن هذه آيةً من كتاب الله تعالى، وما أمر اللهُ بتلاوتها ما كنت أقرؤها أبدًا، لأنّا نقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والحالُ أنّا نعبدُ أنفسنا - أي نطيعها - ونقول: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومنك نطلب العون، ونذهب إلى باب السلطان والقاضي، ونشكرُ من الناس ونشكوا.

ونقل: أنه رحمه الله كان يُحيي الليلَ كلَّه بالطاعة والعبادة، وكانت له بنتٌ، قالتْ: يا أبتِ، نم لحظةً واسترح. قال: يا بنتي، إنّي أخافُ من أن يتوجّه إليَّ في الليل سعادةٌ، وتصادفني نائمًا.

قيل له: كيف أنت؟ قال: كيف حالُ شخصٍ يأكلُ رزقَ الرحمن، ويُطيعُ الشيطان.

قال: لو نادى مُنادٍ على باب المسجد، ويقول: ليخرجْ شرُّ الناس، لا يخرجُ أحدٌ من المسجد قبلي. وكان شرفُ مالكٍ من هذا.

وممّا يدلُّ على كمالِ تواضعه وذلّته في نفسه أنّه نادته امرأةٌ باسمٍ قبيحٍ كريه، فأجاب مالك وقال: مذ عشرين سنة ما سمّاني أحدٌ باسمي، ولكنْ أنتِ عرفتِ اسمي وعرفتني.

---

(١) في (ب): في السفر من الحج.

وقال: منذ عرفتُ الخلقَ لا أُبالي من أن يمدحني شخصٌ أو يذمّني؛ لأنَّ الناس يُفرطون في المدح والذم.

وقال: كلُّ أخٍ وصديقٍ وصاحبٍ لا ينفعُكَ في الدِّين[1] فاتركه وراء ظهرك.

قال: وجدتُ إخوانَ هذا الزمان مثلَ طعامِ السوق؛ بريحٍ طيب وطعمٍ كريه.

وقال: احذروا من هذا السحّارة ـ يعني الدنيا[2] ـ فإنها جعلتْ قلوبَ الأولياء والعلماء مُسخّرةً في طاعتها..

وقال: من لا يكون التحدُّثُ مع الله تعالى في المناجاة أحبَّ إليه من المُحادثة مع الناس، فعلمُهُ قليلٌ، وقلبُه ضرير، وعمرُه ضائع.

وقال: أحبُّ الأعمال إليَّ الإخلاصُ في العمل.

قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أنِ اتّخذْ لك نعلين من الحديد، والبسهما، وخذْ عكّازةً من الحديد، ودر في العالم، واعتبرْ، وافتكرْ في عجائب مصنوعاتي ومبدعاتي إلى أن ينقطعَ النعلان، وتنكسرَ العكّازة، ثم قال: معنى هذا الكلام: أنَّ الدينَ متينٌ، فأوغلْ عليه برفقٍ ـ أي ادخل في غَورِه ونهايةِ بعده برفق.

وقال: قرأتُ في التوراة أنَّ الله تعالى يقول: اشتقتُ إليكم، ولا تَشتاقون إليَّ!

وقال: ورد في بعض الكتبِ المنزلة: أنَّ الله تعالى منَّ على أُمّةِ محمدٍ ﷺ بشيئين ما أعطاهما جبريل ولا ميكائيلٍ، الأول قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] والثاني قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال: قرأتُ في التوراة: أن الله تعالى قال: أيُّها الصدّيقون، تنعَّموا في الدُّنيا بذكري، فإنّه في الدنيا نعمةٌ عظيمة، وفي الآخرة جزاءٌ جزيل.

---

(١) في (ب): لا ينفعك في الدنيا.

(٢) في (ب): السحارة ـ أي إلى الدنيا ـ.

وقال: رأيتُ في بعضِ الكتب المنزلة: أنّ جزاءَ عالمٍ أحبَّ الدنيا أن أُذهِبَ حلاوةَ ذكري من قلبه.

وقال: من غلب عليه شهوةُ الدنيا يَصيرُ الشيطانُ فارغًا من طلبه.

قيل: طلبَ منه شخصٌ في آخر عمره وصيةً، فقال: كن راضيًا في جميعِ الأوقات بمُدَبِّرٍ يُدبِّرُ أمورَك، ويعلمُ أحوالك.

حُكي أنّه رُئي في المنام بعد الموت، وقيل له: ما فعلَ الله بك؟ قال: حضرتُ عنده جلَّ وعلا بذنوبٍ كثيرةٍ، ولكن محا كلَّها بحُسْنِ ظنٍّ كان لي.

ورآه شخصٌ آخرُ: كأنَّ القيامةَ قد قامت، والناسُ يدخلون الجنَّة، فجاء مالكُ بنُ دينار ومحمدُ بنُ واسع رحمهما الله تعالى ليدخلا الجنة، قال: أنتظرهما حتى أرى أيُّهما يسبق الآخر في الدخول[1]؟ فسبق مالك، فقلت: يا عجبًا، محمد بن واسع كان أعلمَ وأفقه؟ قالوا: نعم، ولكن كان لمحمدٍ في الدنيا قميصان، ولمالكٍ واحد.

فالتفاوتُ لأجلِ هذا، فلا يكون قميصان مثلَ قميصٍ؛ فإنَّ صاحبَ القميصين يبقى للحساب أكثر من قميصٍ واحد. والله أعلم.

* * *

---

(١) في (ب): انتظرهما، أيُّهما يدخل أولاً.

(٥) محمد بن واسع[١]

ذكر محمد بن واسع رحمه الله:

كان في وقته عديمَ النظير، وقد خدمَ كثيرًا من التابعين، وتشرّف بصحبةِ طائفةٍ عظيمة من المشايخ رضي الله عنهم، وكان له في الشريعة والطريقة حظٌّ وافر، وكان في الرياضة بحيثُ يبلُّ الخبزَ بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا يصير[٢] غنيًا عن الخلق.

وقال في بعض مناجاته: إلهي، تجعلني جائعًا عاريًا كالمُحبّين، فبم وصلتُ إلى هذا المقام؟ وبمَ أدركتُ هذا الحال حتى يكونَ حالي مثلَ حالِ محبّيك؟

وكان في بعض الأيام يأتي إلى الحسن البصري رضي الله عنه مع بعض الأصحاب من غاية الجوع، وما يجدُهُ هناك يأكلُه[٣]، وحين يأتي إليهم الحسنُ البصري، ويراهم يأكلونَ من الطعام في بيته يفرحُ.

ومن كلامه أنه كان يقول: طوبى لمن يصبح جائعًا، ويُمسي جائعًا، وكان مع هذا راضيًا من الله تعالى.

وقيل: استوصاه شيخٌ، فقال: أوصيك بوصيةٍ[٤] تكون بها سلطانًا في الدنيا

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤١، طبقات خليفة ٢١٥، تاريخ خليفة ٣٧٨، التاريخ الكبير ١/ ٢٥٥، التاريخ الصغير ١/ ٣٥٤، الجرح والتعديل ٨/ ١١٣، ثقات ابن حبان ٧/ ٣٦٦، حلية الأولياء ٢/ ٣٤٥، صفة الصفوة ٣/ ٣٦٦، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٦٩، مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٨٦، تهذيب الكمال ٢٦/ ٥٧٦، سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٩، العبر ١/ ٢٩٠، تاريخ الإسلام ٥/ ١٥٩، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٥٨، الوافي بالوفيات ٥/ ١٧٢، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٩٩، طبقات الشعراني ١/ ٣٦، الكواكب الدرية ١/ ٤٣٠، شذرات الذهب ١/ ١٦١.

(٢) في (أ): من رضي بهذا يصير.

(٣) في (أ): وما يجدوه هناك يأكله.

(٤) في (ب): أوصيك بوصيتين.

والآخرة. فقال: كيف يكون ذلك؟ قال: ازهد في الدنيا، فإذا زهدتَ فيها ترى نفسك غنيةً عن الخلق، وتراهم يحتاجون إليك، وهذا هي السلطنة في الدنيا، وإذ حصلتْ لك هذه السلطنة في الدنيا ترجو أن تصير سببًا لحصول السلطنة في الآخرة.

وقال لمالك [بن دينار] رحمه الله: حفظُ اللّسان أصعبُ على الناس من حفظ الدرهم والدينار.

وقيل: دخل على قتيبةَ بنِ مسلم[١] وعليه جبَّةُ صوفٍ، قال له قتيبة: لِمَ لبستَ الصوف؟ فسكت وما تكلّم، ثم سأله ثانيًا، فلم ينطق، قال: لِمَ لا تتكلّم؟ قال: وما أقول؟ فإنّي وإن تكلّمتُ في ذلك يكون كلامي إمّا ثناءً على زهدي، وإمّا شكايةً من الله تعالى على الفقر

ورأى ابنًا له في بعض الأيام يَمشي ويتبخترُ في مشيه، فدعاهُ إليه، وقال: هل تعرف من أنت؟ اشتريتُ أمّك بمئتي درهم، وأبوك من ليسَ بين الناس أحدٌ أذلَّ وأنقص منه، فهذا التبختر من أين لك؟

قيل له: كيف أنت؟ قال: كيف يكونُ من يُنتقصُ عمرُه، وتزدادُ ذنوبُهُ.

وكان في المعرفة راسخًا.

ومن كلامه أنه قال: ما رأيتُ شيئًا إلاّ ورأيتُ الله فيه[٢].

وقيل له: تعرف الله؟ فسكت ساعةً، وأطرق رأسَه، ثم رفع رأسه، وقال: من عرفَهُ عزَّ وجل قلَّ كلامُه، وكثرُ تحيُّره.

وقال: من عرفَ اللهَ تعالى وعزَّتْ به معرفته حقَّ عليه أن لا ينظر إلى غيرِه، ولا يختار عليه شيئًا، والله أعلم.

* * *

---

(١) هو قتيبة بن مسلم الباهلي، أبو حفص (٤٩ـ٩٦هـ) أمير فاتح، من مفاخر العرب.

(٢) في هامش (أ) جاء ما نصُّه: نعوذ بالله من هذا الكلام المخالف لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ... ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٣].

أقول: والكلام قد بُني على حذفٍ، أي: ورأيت صنعَ ـ أو قدرةَ ـ الله فيه.

(٦) حبيب العجمي(١)

ذكر حبيب العجمي رضيَ الله عنه:

قيل: كان صاحبَ صدقٍ وهمَّةٍ، وكراماتٍ عالية، ورياضاتٍ كاملة، وكان في الابتداء له مالٌ كثير، وكان آكلاً للرِّبا، وكان ساكنًا بالبصرة.

وكان شغلُه في جميع الأيام أن يدورَ على الجماعة المديونين، ويتقاضى منهم الدَّينَ، فمن كان واجدًا لشيءٍ كان يأخذُه من قِبَلِ الدَّين، ومن لم يكن واجدًا لشيءٍ يطلبُ منه شيئًا عن المجيء إليه، ويصرفُ ذلك الحاصلَ في نفقته وأهله، فذهب بعض الأيام إلى باب غريمٍ له، فما وجده في بيته، فطلب من امرأته عادتَهُ، قالت: ليس زوجي في البيت حاضرًا، وما لنا في البيت شيءٌ غير رقبةٍ بقيت من لحم ضأن ذبحناه. قال: هاتيه. فأخذ الرقبةَ منها، وراح إلى دارِ غريمٍ آخر، وحصَّل حطبًا، وإلى آخر وأخذ مِلحًا، ومن آخر خبزًا، وذهب بالجميعِ إلى بيته، وقال لامرأته: اطبخي الرقبةَ لنأكل. فطبختها المرأة، فلمّا فتحتْ عن رأس القدرِ جاء سائلٌ، فصاح عليه حبيب، وقال: لنا شيءٌ قليلٌ من الطعام، إن أعطيناك نبقى بلا عشاءٍ، وأنت تدورُ على أبواب الناس، ويحصل لك ما يكفيك. فرجع السائل مَحرومًا، فنظرتِ المرأةُ في القدر، فإذا ما فيه صارَ دمًا أسود، فجاءت المرأة إلى حبيب، وأمسكت بيده، وذهبت به إلى

(١) ترجمته في: التاريخ الكبير ٢/ ٣٢٦، الجرح والتعديل ٣/ ١١٢، مشاهير علماء الأمصار ١٥٢، حلية الأولياء ٦/ ١٤٩، الأنساب ٨/ ٤٠١، صفة الصفوة ٣/ ٣١٥، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٥٦، مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٨٥، تهذيب الكمال ٥/ ٣٨٩، سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، ميزان الاعتدال ١/ ٤٥٧، تاريخ الإسلام ٥/ ٢٣٣، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٩٩، طبقات الأولياء ١٨٢، تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩، النجوم الزاهرة ١/ ٢٨٣، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٢٦٣، ٥٩٣.

القدر، وأرته ما في القدر، وقالت: ليس هذا إلاّ من شؤم أفعالك، ولؤم خصالك؛ تأكلُ الرِّبا، وتنهرُ السائل، فلا جرمَ يكون حالُ طعامنا[١] مثلَ ما ترى، ولا نعلم أن الحال في المآل كيف يكون. فلمّا رأى حبيبٌ حالَ القدر، وتفكّر في حالِهِ، وقبحِ فعله، اشتعلتْ نارُ الخوف في صدره بحيث ما انطفأت أبدًا، وقال: يا امرأتي، إنّي تُبتُ إلى الله تعالى. وما طلع ذلك اليوم من بيته، وكان متفكّرًا مُتحيِّرًا إلى الغد، وفي الغد خرجَ من البيت على نيّةٍ أن يجمعَ أموالَه، ولا يُعطي بعده شيئًا بالرِّبا، فالتقى بجماعةٍ من الصبيان يلعبون، قال بعضهم لبعض: جاء حبيبٌ آكلُ الربا، تنحّوا عن طريقه لئلا يصلَ إليكم غبارُه[٢] وتكونون أشقياءَ مثله. فسمع حبيبٌ كلامَ الصبيان، وتأثّر في قلبه تأثُّرًا عظيمًا، فتوجَّه إلى مجلس الحسن البصري رحمه الله، فحين دخلَ المجلس جَرى على لسان الحسن شيءٌ سلبَ عقلَ حبيب، وغُشي عليه، فلمّا أفاقَ تابَ على يدِ الشيخ رحمه الله، وندم على ما فات، وخرج، فإذا هو بغريم رآه، وأرادَ أن يهربَ منه، صاح حبيبٌ خلفه وقال: لا تهرب، إلى اليوم أنت كنتَ هاربًا منّي، واليوم أنا أهربُ منك. وجاء إلى البيت، فالتقى بالقيان المعهودين، وهم على ما كانوا من اللعب واللهو، فلمّا أحسُّوا به قالوا: طرِّقوا لحبيبِ التائب ليعبرَ، ولا يصل إليه منّا أذًى، فنصير عصاةً لله تعالى. قال حبيب: إلهي وسيِّدي ومولاي، صالحتُ معك يومًا؛ بل لحظةً تدقّ لي طبولَ القبول في القلوب، وأُذكرُ بالخير، فكيف إن أبقى على هذا الحال وأستمرُّ؟ ثم أمرَ مُناديًا ينادي: ألاَ مَنْ له على حبيبٍ حقٌّ فليحضر ويأخذْ منه. فحضر خلقٌ كثيرٌ ممّن عاملهم بالرِّبا، وأخذوا منه حقوقَهم، ولم يبق شيء أصلاً، فجاء آخرُ وادّعى عليه شيئًا،

---

(١) في (ب): حال طعامك.

(٢) روى أبو داود (٣٣٣١) في البيوع، باب في اجتناب الشبهات، والنسائي ٧/ ٢٤٣ في البيوع، باب اجتناب الشبهات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من بخاره» قال ابن عيسى شيخ أبي داود: «أصابه من غُباره».

فأعطاه ملحفةَ امرأته، وجاء آخرُ فخلع قميصه وأعطاه، وبقي عريانًا، فذهب إلى ساحلِ الفرات، وبنى صومعةً هناك، واشتغل بالعبادةِ ليلاً ونهارًا، وكان يأتي إلى الحسن البصري رضي الله عنه في بعض الأوقات ويتعلَّمُ منه القرآن، وكان بليدًا؛ ولذا سُمّي بالعجمي، فلمّا مضى عليه زمانٌ من الدهر صارَ فقيرًا في غاية الفقر والفاقة، وامرأتُهُ كانت تطلب النفقة، واضطربَتْ أحوالُه، وانقطعت عن الدنيا آماله، فخرج من بيته مُتوجِّها إلى صومعته، واشتغلَ بالعبادة إلى الليل، ثم رجع إلى البيت، فقالت المرأة: أين كنت؟ وبأيِّ شيءٍ اشتغلت؟ قال: أعمل لشخص عملاً. قالت: وأين الأجرة؟ قال: الذي أعملُ له كريمٌ استحييتُ أن أطلبَ منه الأجرة، إلاّ أنه سيعطينا دفعةً واحدة، وسمعتُ أنه يُعطي في كلِّ عشرة أيام. وكذلك كان يتردَّدُ إلى صومعته، ويشتغلُ بالعبادة حتى تمّتِ العشرةُ، وقعَ في اليوم العاشر بعد الظهر في باله: أنا في هذه الليلة بأيِّ شيءٍ أذهبُ إلى البيت؟ وماذا أقول لهم؟ وكيف أعتذر لديهم؟ وغرقَ في بحر الفكر متوجّهًا إلى الله تعالى، إذ جاء في تلك الساعةِ جماعةٌ إلى باب داره، ومع كلِّ واحدٍ شيءٌ من أسباب النفقة من الدقيق واللحم، والسمن والعسل، وما لا بدَّ منه، ويُحتاجُ إليه من جهة المعاش، ومعهم شابٌّ صبيحُ الوجه، كأنَّ وجهَهُ القمر، ومعه صُرَّةٌ من الدراهم، ودقَّ الباب، فجاءتِ امرأةُ الحبيب إلى الباب، فقال لها الشاب: بعث لكم هذه الأشياء الكريمُ الذي يعملُ له حبيبٌ كلَّ يوم، ويقول: قولي لحبيب: زدْ أنت في العمل، ونحن نزيدُ لك في الأجرة، فكلَّما تزيدُ نزيد. وحطُّوا أحمالَهم ومضوا، ثم حبيب صبر في الصومعة إلى أن جنَّ عليه الليل، فقام متفكِّرًا خجلاً، وقصد البيتَ يُقدِّمُ رِجلاً ويؤخِّرُ أُخرى، قائلاً في نفسه: ماذا أقول لأهلي؟ وكيف أعتذر عندهم؟ فلمّا بلغَ باب البيتِ اشتمَّ من الداخل رائحةَ الطعام المطبوخ، فدقَّ الباب، واستقبلته امرأتُهُ في غايةِ الفرح والسرور، وقالت: إنَّ الكريم الذي تعمل له أكرمَكَ وأحسنَ إلينا، وبعث لنا كذا وكذا، وقال: قولي لحبيب: كلَّما تزيدُ في العمل، نحن نزيدُ في أجرك. فتحيَّر حبيبٌ وتعجَّبَ من ذلك، وقال: ما عملت عشرة أيام، فإنّه تعالى قد

أحسنَ إليَّ زيادةً على عملي، فإنَّا إن نقطعَ عن غيره، ونعملَ له ما بقي من العمر، ونجتهد على طاعته فلا بدَّ أننا ما نخيب عن رحمته. فأعرضَ عن الدُّنيا بكلِّيته، واشتغلَ جميعَ عمره بعد ذلك في العبادة والإخلاص والزهد والورع حتى صارَ من الأولياء، وصار مستجابَ الدعوة بحيث يحتاجُ الناسُ من الأكابر وغيرهم إلى دعائه.

حكي أنه جاءت إليه امرأة عجوزٌ باكية متضرِّعة، وقالت: إنَّ لي ابنًا قد غاب عن عيني[1] زمانًا، وأنا مُشتاقةٌ إليه، وما بقي لي طاقةٌ على فراقه، وأُريدُ أن تدعو الله تعالى عسى أن يردَّه إليَّ ببركة دعائك. قال حبيب: هل لك شيءٌ من الدراهم والدنانير؟ قالت: نعم، فأمرها بالتصدُّقِ، ثم دعا لها، وقال: إن الله تعالى يُوصلُه إليك الساعةَ إن شاء الله تعالى. فما وصلتِ العجوزةُ إلى باب بيتها إلاّ وقد رأت ابنها جائيًا إليها، فصاحت العجوزةُ، وأخذت الابنَ وجاءت به إلى حبيب مسرورةً شاكرةً لله تعالى، فسأله حبيب، وقال: كيف جئت؟ قال: كنتُ في كَرْمان[2] خادمًا لشخصٍ، فبعثني إلى السوق في طلب لحمٍ لأشتري له، فاشتريت له لحمًا، ورجعت إليه، فهبَّتْ ريحٌ وحملتني، وسمعت قائلاً يقول: يا ريحُ، إلى أمِّه. وكان ذلك ببركة دعاءِ حبيب رحمه الله، وصدقةِ والدته

وحُكي أنه رُئي يومَ التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجّة في البصرة، ويومَ عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجّة بمكة في عرفات.

ووقع في البصرةِ قحطٌ عظيم، وحصل للفقراء ضررٌ ومحنةٌ، فاشترى حبيبٌ طعامًا كثيرًا نسيئةً، وفرَّقه على الفقراء، وخاط خريطةً، ووضعها تحت رأسه، فلما جاءَ إليه أربابُ الديون للتقاضي أخرجَ الصُرّةَ، فإذا هي مملوءةٌ من الدراهم، فوفّى منها الديون.

وكان له فروةٌ عتيقة يلبسُها صيفًا وشتاء، فتركَها مرّةً على بعض الطرق في

(١) في (ب): قد غاب عنّي زمانًا.

(٢) كَرْمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلادٍ وقرى ومدن واسعة، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان.

البصرة، وذهب لقضاءِ الحاجةِ، فجاء الحسن البصري رحمه الله، ورأى الفروةَ مطروحةً على الطريق، وعرفها أنها لحبيب، فوقفَ هناك لئلا تضيعَ، حتى جاء حبيب، فقال الحسن له: يا عجمي، أما علمتَ أنَّ الفروةَ لا تُطرح على الطريق عسى أن تضيع، فعلى من كان اعتمادك؟ قال: على الذي أرسلَ مثلَ الحسن البصري ليحميها ويحفظها.

حُكي أن الحسن رحمه الله جاءَ إلى الحبيب في بعض الأيام ليزورَه، فقدّمَ حبيبٌ إليه رغيفين من الشعير وقليلاً من الملح، فلمّا شرعَ الحسنُ في الأكل جاء سائلٌ إلى الباب، فأخذ حبيبٌ الرغيفين وأعطاهما للسائل، فقال الحسن له: أنت رجلٌ عابدٌ؛ ولكنْ لو كان لك علمٌ لكان أحسنَ، أما تعلمُ أنَّ الطعامَ الموضوع عند الضيفِ هو أوْلى به من الغير، ولا يُرفع إلاّ بعد أن يأكلَ منه شيئًا؟ فسكت حبيبٌ، إذ جاء بعد لحظةٍ غلامٌ، وعلى رأسه طبقٌ وعليه سخلةٌ مشوية، وحلوٌ وخبزٌ رقاق، ومعه خمسُ مئة درهم، ووضع ذلك عند حبيب، فلمّا اشتغلا بالأكل قال حبيب: يا شيخ، أنت رجلٌ جيّدٌ وعالم؛ لكن لو كان لك شيءٌ من اليقين لكان أحسن.

حكي أنَّ الحسن كان مارًّا على باب صومعة حبيب، وقد أُذِّنَ للمغرب، واشتغل حبيبٌ بصلاة المغرب، فدخلَ الحسنُ، وأراد أن يَقتدي به، فسمعَ أنَّه قرأَ: (الهمد لله) مقام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم يقتدِ به، وصلّى مُنفردًا[1]، فرأى في تلك الليلة اللهَ تعالى في المنام، قال: يا ربّ، في أيِّ شيءٍ رضاك؟ قال الله: يا حسن، قد وجدتَ رضائي، وما عرفتَ قدره. قال: كيف يا ربُّ؟ قال الله تعالى: لو صلّيتَ خلف حبيب لأدركتَ رضائي، وكانت تلك الصلاةُ خيرًا لك من صلواتك في عمرك، لكن سقم عبادتك منفكّةٌ عن صحّة النية، فبين تقويمِ اللسان وتصحيحِ نيّةِ القلب تفاوتٌ كبير[2].

حُكي أن جماعةً من غلمان الحَجّاج كانوا يطلبون الحسنَ، ويدعونه إلى

---

(١) في (أ): وصلى وحده.

(٢) جاء في هامش (أ): هذا أيضًا: مخالف للشريعة، وافتراء على الحسن رضي الله عنه.

الحجّاج، والحالُ أنّه كان في صومعةِ حبيب، فسألوا حبيبًا عنه، قال: هو في الصومعة. فدخلوا الصومعة وطلبوه، فلم يجدوه، فخرجوا منها، وقالوا: الذي يصنعُ معكم الحجّاجُ هو أقلُّ جزائكم؛ فإنّكم قومٌ كذّابون، قلتَ هو في الصومعة، وليس هو فيها. قال حبيب: هو داخلُ الصومعة بحضوري، فإن كنتم لا ترونَهُ فلا عليَّ. فدخلوها مرّةً أُخرى وما وجدوه، فتركوه ومضوا، ثم خرجَ الحسن منها، وقال: يا حبيبُ، ما راعيت حقوقَ التعليم والتعلُّمِ، وسعيتَ بي إلى الظلمة. قال: يا أستاذ، لا تعترضَ عليَّ، فإنَّك ما نجوتَ منهم إلاّ بواسطة صدقي في هذا المقال، فإنّي لو كذبتُ وكتمتُك لهلكتُ أنا وأنت. قال الحسن: ماذا صنعتَ حتى ما رأوني؟ قال: قرأتُ آيةَ الكرسي تسعَ مرات و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ . . . ﴾ [البقرة: ٢٨٢] تسعًا و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تسعًا، وقلتُ مرّةً واحدة: يا ربّ، استودعتك الحسن، فاحفظه. قال الحسن: وضع بعضُهم يدَه عليَّ سبعَ مرات وما رآني.

نقل أنَّ الحسن رحمه الله أراد يومًا أن يذهب إلى موضعٍ، وجاء إلى جنب دجلة، ووقف متفكّرًا، إذ جاء حبيب وقال: يا إمام، لمَ وقفت هنا؟ قال: أريد العبور، ولا أجد زورقًا أركب عليه. قال: يا أستاذ، مالك لا تقدرُ أن تعبرَ على الماءِ، وأنا من أقلِّ تلاميذك، وأنت شيخي! أخرجِ الحسدَ من قلبك، وبرّدِ الدنيا على فؤادك ـ يعني اترك محبّتها ـ واغتنمِ البلاء، واعلمْ أن الأمور كلَّها من الله تعالى، ثم ضعْ رجلَكَ على الماء واعبر. قال: وحطَّ رجلَه على الماء، وعبرَ دجلة، والحسنُ ينظر إليه حتى خرَّ مَغشيًا عليه، فلمّا أفاقَ قال حبيب: مالك يا إمام المسلمين؟ قال: أنت من تلاميذي ولُمتني الساعةَ، وعبرتَ دجلةَ، وأنا بقيتُ اليوم في هذا الطرف متحيّرًا، فأنت تعبرُ غدًا على الصراط، وأنا أبقي كذلك مُتحيّرًا، كيف يكون حالي؟ ثم قال: يا حبيب، بمَ أدركت هذه المنزلةَ والدرجة؟ قال: لأنّي أبيّضُ الباطن، وأنت تُسوِّدُ الكاغد. قال: يا عجبًا، أعلمي نفعَ غيري، ولم ينفعني[1].

ولا يتوهَّم أحدٌ أنَّ مقامَ حبيبٍ كان أعلى من مقام الحسن، إذ ليس عند الله

(١) انظر خبر عتبة الغلام مع الحسن صفحة ٩١.

تعالى عبادةٌ أعلى من العلم، ولذا أمرَ اللهُ تعالى بطلب زيادة العلم حيث قال: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] وقال امتنانًا على آدم عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] وقد وردَ في كلام بعضِ المشايخ[١]: أنَّ الكرامةَ واقعةٌ في الدرجة الرابعة عشرة من الطريقة، والعلمَ في الدرجة الثمانية منها[٢]، وذلك لأنَّ الكرامة من كثرةِ العبادة، والعلمَ من كثرة التفكُّر، والثاني أفضلُ من الأول، والحسن رحمه الله كان من كبارِ العلماء التابعين، وأدركَ صُحبةَ كثيرٍ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

أقول: والسرُّ في ذلك أنَّ أحوالَ الأولياء متفاوتةٌ في الأوقات والأزمان بحسب تفاوتها قبضًا وبسطًا، وحدة وكثرةً، والدليلُ عليه ما رُوي عن يعقوب عليه السلام أنه وجدَ ريحَ قميصِ يوسف عليه السلام لمَّا خرجَ به بنيامين من مصر مع بُعدِ المسافة، وحين كان يوسفُ عليه السلام في الجبِّ ما اشتمَّ رائحةً منه مع قربه، ولهذا لا تكون أحوالُ الوليِّ كلُّها على طريقةٍ واحدة، وهذا ممّا لا سترة به، والله أعلم.

نقل أنَّ الشافعيَّ وأحمد بن حنبل رحمهما الله كانا جالسين في مكانٍ، إذ طلع حبيبٌ، وتوجَّه إليهما، فقال أحمد: أُريدُ أن أسألَ منه مسألةً. قال الشافعي رحمه الله: لا تسألْه؛ فإنه من قومٍ لا يَخفى عليهم بتوفيق الله تعالى شيءٌ. قال: لا غنًى عن السؤال. فلمّا جلسَ حبيب، قال أحمد: ماذا تقول في شخص تركَ صلاةً واحدةً من الخمس، ولا يدري أيَّ صلاةٍ هي[٣]، كيف يفعل؟ قال حبيب: هذا قلبٌ غفل عن الله، فليؤدَّبْ، وليؤمر بقضاءِ الصلوات الخمس. فتحيَّرَ أحمد من جوابه، قال الشافعي رحمه الله: أما قلتُ لا تسأل منهم؟.

نقل عن حبيب أنّه كان بيده إبرةٌ في ليلةٍ مظلمة، فضاعت عنه، فأُضيءَ البيتُ في الحالِ حتى وجدها، فغمضَ عينيه، وقال: لا، لا، لا أُطيقُ أن أجدَ غير الله.

(١) في (أ): وقد ورد عن بعض المشايخ.
(٢) كذا الأصلين، وفي (أ) تحت كلمة (الثمانية) كُتب: (الثمانين).
(٣) في (أ): أي الصلوات هي.

ونقل أنه كان له جاريةٌ ثلاثين سنة، وهو ما نظرَ إليها، وما كان يعرفُها، حتى في بعض الأيام رآها واقفةً، قال: يا فلانة، ادعي لي جاريتي. قالت: ها أنا جاريتُك! قال حبيب: يا عجبًا، ما نظرتُ إلى غيرِ الله في مدة ثلاثين سنة، فكيف أعرفك؟

ونقل أنه رحمه الله كان يجلسُ في زاويةِ بيتٍ، ويقولُ مُناجيًا: من لا يطيبُ قلبُه بك لا يطيب قلبُه أبدًا، ومن لا تقرُّ عينه بك لا تقرُّ عينه أبدًا، ومن لا يستأنسُ بك لا يكون له أنيسٌ أبدًا.

وسئل: فيم يكون الرضا؟ قال: في قلبٍ لا يُوجد فيه من النِّفاق غبار.

ونقل أنه متى كان يُقرأُ عنده[1] شيءٌ من القرآن، كان يبكي بكاءً شديدًا، فقيل له: أنت عجميٌّ، والقرآن عربيٌّ، فكيف تفهمَ حتى تبكي؟ فكان يقول: لساني عجمي، وقلبي عربي.

قال بعض الصالحين: رأيتُ حبيبًا في المُكاشفة في مرتبةٍ عالية، قلت: أليسَ هذا عجميًا، من أين له هذه المرتبة[2]؟ فسمعتُ صوتًا، ولم أر شخصًا: هو وإن كان عجميًا لكنه حبيبٌ.

ونقل أنه صُلبَ شابٌّ بجريمة، فرُئي في تلك الليلة في المنام أنه يطوفُ في رياضِ الجنة، وعليه حلّةٌ خضراء، وهو في غاية الاستراحة، قيل له: يا فلان، بم نلتَ هذه السعادة، ووصلت إلى هذه المنزلة؟ قال: لمّا كنتُ مَصلوبًا مرَّ عليَّ حبيبٌ، ونظرَ إليَّ بطرفِ عينه، فوصلتُ إلى هذه المنزلة بنظرة.

فنقول: إلهنا ومولانا، نرجو من كرمك وإحسانك ولطفك وامتنانك أن تنظرَ إلينا نظرة رحمةٍ نستغني بها عن الكائنات، فأنت خالقُ الأرضِ والسموات، ومُبدعُ الأجرام العلويات والأجسام السُّفليات، والله أعلم بالصواب.

* * *

(١) في (أ): قرأ عليه شيء.
(٢) في (أ): أين له هذه الكرامة.

(٧) أبو حازم المكّي[١]

ذكر أبي حازم المكي رحمه الله:

كان من كبار المشايخ، ومقتدى كثيرٍ منهم رحمهم الله، وكلامه مقبول في القلوب، ومفتاح للغيوب. وله تصانيفُ، وكلماتُهُ مضبوطةٌ في الكتب، لكن نذكر شيئًا منها على سبيل التبرُّك، فإنّا لو اشتغلنا بنقلِ كلماته وشرحها لطالَ الكتاب، فرأينا الاختصارَ أَوْلى، وكفاه شرفًا وفضلاً أنَّه كان من المشايخ التابعين، وأدرك كثيرًا من الصحابة رضوان الله عليهم كأنس بن مالك، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

سأله هشام بن عبد الملك: ما الذي ننجو به في هذا الشغل؟

أقول: أي في شغل الدين، أو في شغل السفر إلى القيامة، أو في شغل الإمارة والحكومة على الناس، وهذا هو الأظهر، والله أعلم

قال: إن أردتَ أن تأخذ درهمًا، فخذْ من موضعٍ يجوزُ لك الأخذُ منه، واصرفْه في موضعٍ يحلُّ لك الصرفُ فيه. قال هشام: مَن الذي يُطيق ذلك؟ قال الشيخ رضي الله عنه: من كان هاربًا من النار، طالبًا للجنة.

(١) هو سلمة بن دينار الأعرج، وترجمته في:

طبقات ابن سعد ٣٣٢ (القسم المتمم)، طبقات خليفة ٢٦٤، التاريخ الكبير ٤/٧٨، الجرح والتعديل ٤/١٥٩، ثقات ابن حبان ٤/٣١٦، حلية الأولياء ٣/٢٢٩، الأنساب ١/٣١١، صفة الصفوة ٢/١٥٦، المختار من مناقب الأخيار ٣/١٤، جامع الأصول ١٤/٢٤١، مختصر تاريخ دمشق ١٠/٦٥، تهذيب الكمال ١١/٢٧٢، سير أعلام النبلاء ٦/٩٦، تاريخ الإسلام ٥/٢٥٧، تذكرة الحفاظ ١/١٣٣، الوافي بالوفيات ١٥/ ترجمة ٤٤٩، تهذيب التهذيب ٤/١٤٣، طبقات الصوفية للمُناوي، ١/٢١٩، شذرات الذهب ١/٢٠٨.

ومن كلامه: عليكم بالاحتراز عن الدنيا؛ فإنه قد بلغني أنه يؤتى يوم القيامة آمنا بها وصدّقنا برجلٍ[١]، ويُرفع به على رؤوس الخلائق كلِّهم، ثم ينادي منادٍ: انظروا إليه، فإنّه شخصٌ قد عظَّم شيئًا حقّره الله، وأحبَّ شيئًا أبغضَهُ الله، وأمسك شيئًا طرده الله تعالى.

وقال: ليس في الدنيا شيءٌ يُفرحُ به إلاّ وتحته شيءٌ يُغتمُّ به، إذ لم يَخلق مسرّةً صافية.

وقال: وجدتُ الدنيا في شيئين: مالي، وما ليس لي، فالذي هو لي وإن هربتُ منه، فإنه يجيءُ إليَّ، والذي ليس لي وإنِ اجتهدتُ في طلبه لا يحصل.

وقال: إنّي إن حُرمت من الدُّعاء كان صعبًا، وأصعبُ منه إذا حُرمتُ من الإجابة.

وقال مخاطبًا: إذا وقعتَ في زمانٍ يقنعون بالقول فيه عن الفعل، والعلمِ عن العمل، فإذن أنت في شرِّ الزمان، وبين شرِّ الناس.

وقيل له: ما مالُكَ؟ قال: مالي هو رضا الله تعالى، والاستغناءُ عن الخلق.

قال شخصٌ من الأكابر: ذهبتُ إلى أبي حازم وهو نائمٌ، فوقفتُ إلى أن انتبه، قلتُ[٢]: رأيتُ النبيَّ عليه السلام الساعةَ في المنام، وقد بعثني إليك برسالةٍ، وقال ﷺ: احفظ حقوقَ أُمّك، فإنّه خيرٌ لك من الحجِّ، فارجعْ واطلب رضاها. قال: فرجعَ من ذلك المكان، ولم يدخل مكّة. والله أعلم.

* * *

(١) كذا في الأصلين، وفي الترجمة المطبوعة صفحة ٢٥٣: فقد ثبتَ لي أن العبدَ الذي كان قد عظَّم الدنيا يُركلُ يوم القيامة أمام الجميع، ثم ينادي: انظروا...

(٢) كذا في الأصلين، وفي المطبوع من الترجمة صفحة ٢٥٤: قال: رأيت.

(٨) عتبة الغلام(١)

ذِكر عتبة الغلام رحمة الله عليه:

كان مقبولاً حميدَ الخصال، وكان من تلاميذ الحسن البصري رحمه الله، وكان يمرُّ مع الحسنِ في بعض الأوقات في ساحل دجلة، فشرعَ يمشي على الماء، وقال للحسن: يا شيخُ، أنت تعملُ بما أمرَ الله منذ ثلاثين سنة، وأنا أعملُ بما رضي الله به في هذه المدة.

وهو إشارةٌ إلى مقام التسليم والرضا(٢).

قيل: كان سببُ توبته أنّه مرَّ بامرأةٍ في ابتداء حاله، فأحبَّها، وبعثَ إليها، وأخبرها عن الحال، قالت: أيَّ عضوٍ من أعضائي استحسنت؟ قال: العينين. فقلعتِ المرأةُ عينيها في الحال، ووضعتهما في طبقٍ، وبعثَتْ بهما إلى عتبة، وقالت: ما نظرتَ إليه، فانظرِ الآن إليه. فحين رأى عتبةُ الحالَ استيقظَ من الغفلة، وتاب إلى الله تعالى، ولازم مجلس الحسن البصري رحمه الله.

وكان يكتسبُ لأجلِ سدِّ الجوعِ، وسترِ العورة، وكان يشتري شيئًا من الشعيرِ ويطحنه، ويندّيه بالماء ويُنشّفه بالشمس، وكان يأكلُ منه في كلِّ أسبوعٍ قدرًا يُقيم ظهره، ويشتغلُ بعبادة الله تعالى، وكان لا يتناولُ غيرَه أبدًا.

وقال: أستحيي من الكرام الكاتبين أن أدخل المبرزَ في الأسبوعِ أكثر من مرة

حُكي أنه رُئي عُتبةُ واقفًا في مكانٍ، ويتصبَّبُ منه العرق، قيل: كيف

(١) مشاهير علماء الأمصار ١٥٢، الثقات لابن حبان ٧/ ٢٧٠، حلية الأولياء ٦/ ٢٢٦، صفة الصفوة ٣/ ٣٧٠، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٦٢، روض الرياحين ١٠٣ (الحكاية ٢٩)، طبقات الشعراني ١/ ٤٧، طبقات الصوفية ١/ ٣٦٤.

(٢) انظر الحاشية(١) صفحة ٨٦، والخبر فيها.

حالك؟ قال: في الابتداء جاءَ إليَّ ناسٌ أضياف، وأطعمتُهم ما رزقَ الله تعالى، ثم أخذتُ قليلاً من تراب هذا الحائط، فغسلوا به أيديهم، مع أنّي قد استبرأتُ من صاحب الحائط، وهو أبرأني، وجعلني في حلٍّ من ذلك، ومتى أصلُ إلى هذا الحائط في مروري أعرقُ من الخجلِ حتى يتقاطرَ العرقُ منّي

قيل لعبد الواحد بن زيد: هل رأيتَ أحدًا اشتغلَ بنفسه عن الخلق؟ قال: أعرفُ شخصًا على هذه الصفة، والساعةَ يجيء إلينا. فما مضى زمانٌ إلاّ دخل عتبة، فقالوا له: من رأيت في الطريق؟ قال: ما رأيتُ أحدًا. والحالُ أنَّ طريقه كان على السوق، وهذا لغاية استغراقه في نفسه.

ونقل أنه ما كان يتناولُ طعامًا ولا شرابًا كما هو عادة الناس، فقالت له أُمُّه: ارفقْ بنفسك، واطلبْ في بعضِ الأوقات راحةً. فقال: إنّي أطلبُ راحتَها، وإنّي أحتملُ مدةً يسيرةً هذه المشقَّةِ حتى تبقى نفسي في نعيمٍ لا يزول

نقل أنه ما نامَ في ليلةٍ من الليالي، وكان يقول: إن عذّبتني فإنّي أُحبُّك[١]، وإن عفوتَ عنّي فإنّي أحبُّك. فسُئل عن سبب ذلك، قال: رأيتُ حوراءَ من الحُور في المنام، وقالت: يا عتبة، أنا أعشقُكَ، فلا تفعلْ شيئًا تُفارقني به. فقلت لها: أنا طلّقتُ ما سوى الحقِّ طلاقًا لا رجوع فيه.

ونقل أنه جاء إليه رجلٌ، وكان هو في البيت، فقال له: يا عتبة، الناسُ يسألوني عنك وعن أحوالك، فأرني شيئًا أُخبرهم به. قال: سل ما هو مطلوبك؟ قلت: أشتهي الرُّطبَ. وكان فصل الشتاء، قال لي: خذ، وناولني سلّةً مملوءة من الرطب.

ونقل أن محمد [بن] السماك وذا النون المصري كانا عند رابعةَ رحمهم الله إذ دخل عليهم عتبةُ، وعليه قميصٌ جديد متبخترًا، قال محمد [بن] السماك: ما هذه المشية؟ قال عتبة: كيف لا أتبخترُ واسمي غلامُ الجبار! قال هذه الكلمة ووقع ميتًا، ثم رأوه بعد موته قد اسودَّ نصفُ وجهه، قيل له: ما سببُ هذا؟

---

(١) في (أ): فإني محبُّكَ.

قال: كنتُ ذاهبًا إلى مجلس الأستاذ، رأيتُ في الطريق غلامًا أمردَ، نظرت إليه، ثم غمضتُ عيني، فالله تعالى رزقني الجنَّةَ، وأُمرتُ أن أدخلها، وكان العبورُ على جهنم، فخرجتْ منها حيَّةٌ، ونفختْ في وجهي، فاسودَّ نصفُ وجهي، ثم قالت: نفخةٌ بنظرة، فلو نظرتَ أكثرَ عملنا معك أكثر؛ لكنَّ هذا جزاؤك.

اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعًا، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابًا له، والله أعلم.

* * *



(٩) رابعة العدوية(١)

ذكر رابعة العدوية رحمها الله تعالى:

فإن قيل: لم ذكرتها بين المشايخ الرجال؟ قلنا: لأنه قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صورِكم، ولكنّه ينظرُ إلى نياتّكم وقلوبكم(٢)».

وأيضًا ورد عنه ﷺ أنه قال: «يُحشرُ الناسُ على نيّاتهم(٣)».

وأيضًا قال ﷺ: «خذوا شطرَ دينكم من الحُميراء(٤)» يعني عائشة رضي الله عنها، فإذا جازَ في الشرع أخذُ شطرِ الدِّين - أي نصفه - من عائشة رضي الله عنها، فيجوز أيضًا أن نستفيد بذكرِ بعضِ أعمالِ جاريةٍ من جواريها، فإذا كانت

(١) ذكر النسوة المتعبدات (١)، صفة الصفوة ٤/ ٢٧، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ٢٥٣، وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١٥ (٥٣)، العبر ١/ ٢٧٨، مرآة الجنان ١/ ٢٨١، الوافي بالوفيات ١٤/ ٥١، البداية والنهاية ١٠/ ١٨٦، طبقات الأولياء ٤٠٨، النجوم الزاهرة ١/ ٣٢٠، نفحات الأنس ٨١٣، طبقات الشعراني ١/ ٦٥، الكواكب الدرية ١/ ٢٨٥، شذرات الذهب ١/ ١٩٣. وانظر ترجمتها أيضاً صفحة (٨٤٩).

وكانت رابعة مولاة آلِ عتيك الذي ينتمي إليهم آل عدوة، ولهذا تُنسب لهم: العدوية.

(٢) الحديث رواه البخاري ٩/ ١٧١ في النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم (٢٥٦٣) في البر والصلة، باب تحريم الظن، والموطأ ٢/ ٩٠٧ في حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة، وأبو داود (٤٨٨٢، ٤٩١٧)، والترمذي (١٩٢٨) عن أبي هريرة. بلفظ: «إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٣) حديث أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٩٢، وابن ماجه في سننه (٤٢٢٩) وأبو يعلى (٦٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال صاحب تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٥٩: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: لا أعرف له إسنادًا، ولا رواية في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير، ولم يذكر من خرّجه، وذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير أنه سأل المزي والذهبي عنه فلم يعرفاه.

المرأة في طريق عبادة الله تعالى كالرجال لا يُطلقُ عليها المرأة؛ بل هي في الحقيقة رجل.

قال بعض العلماء: إذا نُودي غدًا يومَ القيامة: رجال، يكون أولُ من يُجيب مريمَ ورابعةَ عليهما السلام.

أقولُ: مصداقُ هذا الكلام أنَّ مريمَ عليها السلام لمّا اشتغلت بأعمال الرجال من القنوت ـ أي العبادة ـ لا جرمَ أدرجها اللهُ تعالى في زُمرة الرجال، ووصفها بصفتهم، حيث قال الله تعالى في وصفها: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] أي من العابدين المطيعين، أي كانت مريم عليها السلام من الرجال المطيعين لله تعالى العابدين، ولم يقل: (وكانت من القانتات)، مع أنَّ هذا أنسب بظاهر حالها، والله أعلم.

وأيضًا: امرأة لو لم تكن حاضرةً، لما اشتغل الحسنُ البصري رحمه الله بالوعظ على ما رُوي[1]، فلم يكن ذكرُها في الرجال معدودًا من العيب، مع أنّها كانت عديمةَ المثيل في زمانها؛ بل وبعده أيضًا[2].

وكانت رحمها الله مُعتبرةً لدى أكابر عصرها، وكانت حجّةً قاطعة على أهل زمانها.

حكي أن الليلةَ التي ولدت فيها رابعة، ما كان يوجد في بيت أبيها شيءٌ من المال والمأكول؛ لأنّه كان مُقلَّ الحال إلى غايةِ ما يكون، إلى حدٍّ ما كان لهم شيءٌ من الدهن يدهنونها به، ولا زيت مصباح يشعل، ولا قطعة خرق يلفّوها بها، وكان له ثلاثُ بنات، ولهذا سمّاها رابعة، ثم قالتِ امرأتُه: اذهب إلى بيت فلان من الجيران، واطلبْ شيئًا من الزيت نشعل به ضوءًا، وهذا الرجل كان له عهدٌ مع الله تعالى أن لا يسألَ مخلوقًا شيئًا أبدًا، فخرج من البيت، وأتى باب ذلك الشخص، ووضع يده على الباب في غاية الاستحياء، وما أخبرهم

---

(١) انظر ما تقدم صفحة ٥٣.
(٢) في الأصلين: وبعدها أيضًا.

بالحال، ورجع إلى بيته، وقال: ما فتحوا الباب. فبكتِ المرأة، والرجل في ذلك الفكر، وضع رأسَه على ركبتيه، وأخذه النعاس، فرأى النبيَّ ﷺ في المنام، وقال له: لا تغتمَّ بحصول هذه البنت لك، فإنه سيكون سبعون ألفًا من أُمّتي في حمايتها وشفاعتها، ثم قال ﷺ: اذهب غدًا إلى عيسى بن زاذان حاكمِ البصرة، وقل له: إن النبيَّ ﷺ يقول لك: إنك كنتَ تُصلّي عليَّ في كلِّ ليلةٍ مئةَ مرة، وفي ليلة الجمعة أربع مئة مرة، فنسيتَ البارحة، وكفّارتُهُ أن يعطيك أربع مئة دينار. فانتبه أبو رابعة من النوم باكيًا، وكتب رسالةَ رسول الله ﷺ في ورقةٍ، وكان هذا أيضًا بأمره ﷺ، وأعطى الورقةَ في الغد حاجبًا من حجّابِ عيسى، وبعث إليه، فلمّا اطّلعَ عيسى على مضمونها، تصدَّقَ على الفقراء بألفي دينار شكرًا لله تعالى على أنْ ذكرَهُ النبيُّ ﷺ، وأعطى على هذا الرجل أربع مئة دينار، وهو بنفسه جاء إليه، وقال: هو قاصدُ رسولِ الله ﷺ إلينا، فيجب علينا توقيرُهُ وإكرامه، ثم حلف على أنَّ كلَّ حاجةٍ تكون له يعرضها عليه، فأخذَ الدنانير، وصرفها في حوائج البنت المولودة وغيرها.

فلمّا كبرتْ رابعةُ تُوفّي أبوها وأُمُّها، وتفرّقتْ أخواتُها عنها، ووقع في البصرةِ قحطٌ عظيم، واستسجرها[١] ظالمٌ، وباعها بستة دراهم، والمُشتري كان يستخدمها بالمشقّةِ والتعب.

حتى أنه يومًا تبعها رجلٌ، فهربت منه، فسقطتْ على الأرض، وانخلعتْ يدُها، فوضعتْ خدَّها على الأرض، وقالت: إنّي ضعيفة غريبةٌ لا أبَ لي ولا أم، أسير تحت يد ظالم، ومع هذا انخلعتْ يدي، وأنا راضيةٌ بجميعها، لكن لا أعلمُ هل أنتَ راضٍ عنّي أم لا؟ فسمعتْ صوتًا: يا رابعة، لا تغتمّي، فإنَّ لك جاهًا يومَ القيامة يغبطك المقرّبون من أهل السموات، ثم رجعت إلى بيت سيّدها، وكانت تخدمُهُ، وتصومُ النهار[٢]، وتقوم الليل قائمةً على الرجلين

(١) أي جعلها جارية له.

(٢) جاء في هامش (أ): إقرار الحرِّ رقبته كاذبًا حرامٌ، وخدمتها للأجنبية [كذا الأصل] مخالف للشرع، وهذا افتراء على رابعة.

إلى أن انتبه السيّدُ في بعض الليالي، وكان على السطح، إذ سمع صوتًا من البيت، فنظر من الروزنة[١]، فرأى رابعةَ في السجدة، وتقول: إلهي، تعلمُ أنَّ هوى قلبي على مُوافقتك، وامتثالِ أمرك، ورضاي في خدمة باب عظمتك، وإن كان أمري بيدي ما فترتُ عن الخدمة والعبودية، ولا استرحت، ولكنَّكَ جعلتني تحت يد مخلوق، وهكذا تناجي الله تعالى، ورأى قنديلاً معلّقًا فوق رأسها بلا سلسلةٍ، والبيتُ قد أضاء منه، فلمّا اطّلعَ السيدُ على حالها، صار متفكّرًا قائلاً: لا يليقُ بنا أن نستخدمَ مثل هذه، ونجعلها مشغولةً بخدمتنا، بل يجب علينا أن نقوم نحن بخدمتها. فلمّا أصبح دعا رابعة وأكرمها وأعتقها، فاستأذنَتْ منه الرَّواحَ إلى حيث ما شاءت، فأذنَ لها، فخرجت من بيته، ودخلتْ خربةً، فما كان يَطَّلِعُ على حالها غيرُ علاّم الغيوب، واشتغلت فيها بالعبادة لله تعالى، وكانت تُصلّي في اليوم والليلة ألفَ ركعة، وتحضرُ مجلسَ الحسن رحمه الله في بعض الأحيان.

وقيل: إنّها صارتْ مُطربةً مغنيةً، ثم تابتْ على يد الحسن، ثم تركت الخربة، واتّخذتْ صومعةً في مغارةٍ بعيدةٍ من الناس، ثم قصدت الحجَّ، وكان لها حمارٌ، فحمَّلَتْهُ بعض شيءٍ من أثقالها، وتوجَّهتْ إلى مكة[٢]، فلمّا بلغتْ نصفَ الطريق هلَكَ حمارُها، وأراد بعضُ الناس أن يحملَ أثقالها، فما رضيت، وقالت لهم: أنتم اذهبوا، فإنّي ما جئت متوكِّلَةً عليكم. فارتحلت القافلة، وبقيت رابعةُ في البادية منفردةً، قالت: إلهي، الملوكُ كذا يَعملون مع امرأةٍ عاجزةٍ غريبة، دَعوتني إلى زيارةِ بيتك، وأهلكْتَ حماري في الطريق، وتركتني في البوادي وما نمتُ!؟ وبينما هي في المناجاة إذ تحرّكَ الحمار، وقامَ بإذن الله، وحمّلته رابعة وسارَتْ به، حتى روي أن الحمارَ المذكور رُئي يُباع في السوق، ثم بعد زمان قالت: يا ربّ، تضجَّرتُ، إلى أين أروح وأنا مَدَرَةٌ[٣]، والبيتُ

---

(١) الروزنة: الكوة النافذة، الخرق بأعلى السقف. متن اللغة (رزن).

(٢) في هامش (أ): وسفر المرأة بغير محرم مخالف للشرع.

(٣) المَدَرُ: قطع الطين، واحدتها مَدَرَة.

ترابٌ وحجر، والمطلوبُ أنت؟ فألهم اللهُ تعالى في قلبها: يا رابعة، أتريدين إحراقَ العالم مع أهله؟ أما رأيت أن موسى عليه السلام طلبَ ما تطلبين، فتجلّينا على الجبلِ مقدارَ ذرّةٍ، فانشقَّ الجبل، اقنعي اليوم بالاسم. فلمّا كان الأمر كذلك جدّتْ في السيرِ حتى لمّا قربَتْ من الكعبة، رأتْ روحانية الكعبة قد استقبلتها، فنظرت إليها وقالت: إنّي لا أُريدك، ولا أَفرحُ باستقبالك، أريد استقبالَ من قال: «من تقرّبَ إليّ شبرًا، تقرّبْتُ إليه باعًا»[١].

أقول: يعني استقبال من هذا كلامه، والله أعلم

نقل أن إبراهيم بن أدهم سلك طريقَ الحجِّ أربع عشرة سنة، وكان رحمه الله يُصلّي ركعتين ثم يخطو خطوتين، حتى لمّا وصلَ[٢] إلى الكعبة لم يرَها في مكانها، قال: آه، عسى أنَّ في عيني خللاً، فهتف به هاتف وقال: ليس في عينك خلل؛ ولكن الكعبةَ استقبلتْ ضعيفةً تجيء إليها[٣]. فحصل لإبراهيم غيرةٌ شديدة، واضطربَ خاطرُه، وقال: من الذي بلغ إلى حالٍ تستقبله الكعبة؟ فسعى إليها ونظر، فإذا هي رابعة جائية، ورجعت الكعبة إلى مكانها، وقال إبراهيم: ما هذه الشهرة، أظهرتها في الدنيا؟ قالت رابعة: أنا ما ألقيت الشهرة في الدنيا، ولكن أنت ألقيت، حيث جئتَ إلى مكّةَ في مدة أربع عشرة سنة. ثم حجّت رابعة، وبكت، وقالت: إلهي، إن قبلتَ حجّتي فاكتبْ لي ثوابها، وإن لم تقبلْها فتلك مصيبةٌ، فأعطني أجرها.

أقول: يؤيّده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧] **وأمّا أمثال هذه الحكاية أي مجيء الكعبةِ إلى رابعة استقبالاً لها، إن كانت محمولةً على الظاهر فلا قائل بها، فضلاً عن الاعتقاد، وأما إن حُملت على**

(١) حديث رواه مسلم (٢٦٨٧) في الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء. عن أبي هريرة.

(٢) في (أ): ثم يخطو خطوة، حتى إذا وصل إلى الكعبة.

(٣) جاء في هامش (أ): واستقبال الكعبة أمر عظيم، لا يقع في نبيّنا ﷺ، كيف يقع لامرأة من أمّتِه؟.

الباطن والأمورِ المعنوية فلا استبعادَ فيها؛ ولكن لا يُجزم بها، ولا تُعلم كيفيتها، والله أعلم

ثم خرجت[١] رابعة إلى البصرة، واشتغلت هناك بعبادة الله تعالى إلى سنةٍ، وقالت: الكعبةُ استقبلتني في العام الماضي، وإنّي أستقبلها في هذه السنة.

فلمّا جاء وقتُ السفر نقلَ الشيخ أبو علي الفارمذي رحمه الله: أنها قصدت الحجَّ ثانيًا، ودخلتِ الباديةَ، وكانت تتقلَّبُ على جنبيها في الطريق حتى وصلتْ على هذه الحالة بعد سبع سنين إلى عرفات، فحين انتهتْ إليها سمعتْ هاتفًا يقول: ما هذا الطلبُ يا مُدّعية؟ فإن كنت طالبةً لنا فنتجلّى لكِ تجلّيًا واحدًا لتذوبي في الحال كما يذوبُ الملحُ في الماء. قالت: يا ربَّ العزة، ليس لرابعة رأسُ مالٍ تَتَجرُ به هذا المقدار من المال والربح؛ لكن أطلبُ نقطةً من الفقر. فنُوديتْ: يا رابعة، الفقر هو قهرُنا الموضوعُ على طرق الرجال الذين يتوجّهون إلينا، فإذا وصلوا إلى مقامٍ لم يبق بينهم وبين حضرتنا القدسية إلاّ مقدار شعرةٍ لا يأمنون من أن تهبَّ ريحُ القهرِ من هواء الغيرة، وينقلبَ الحال عليهم، وينعكسَ الأمرُ، ويتبدّلَ الوصالُ بالفراق، والقربُ بالبعد، والرضا بالسخط[٢]، وأنت يا رابعة مغمورةٌ بعدُ، محجوبةٌ بسبعين حجابًا، فإذا لم تقطعي الحُجُبَ، ولا تعبري بعده بسبعين مقامًا، لا يُمكنُكِ حديثُ الفقر؛ ولكن يا رابعة انظري إلى فوقك. فنظرَتْ، فرأت بحرًا من الدم في الهواء، وقال هاتف: هذا البحرُ الذي رأيتيه دموعُ عشّاقنا، أتوا لطلبِ وصالنا، فعُطبوا في المنزلِ الأول، ولم يعلم أحدٌ بهم أثرًا في الدارين غيرنا. قالت رابعة: إلهي، أرني من علامة سعاداتهم شيئًا. ففي الحال حاضتْ، ثم سمعتْ هاتفًا يقول: المقامُ الأول لهم أن يتقلّبُوا على جنوبهم في بوادي محبّتنا سبعَ سنين لزيارة حجرٍ، فإذا وصلوا إلى قرب الحجر ينسدُّ عليهم الطريق بعلّةٍ توجدُ فيهم.

---

(١) في (أ): ثم رجعت.

(٢) في (أ): وأنشد بعضهم في هذا المعنى بيتين.

فتقلقلتْ رابعةُ، واضطربت عليها الأحوال، وقالت: إلهي، لا تتركني في بيتي ولا في بيتك! إمّا اتركني في بيتي في البصرة[١]، وإمّا يسّرْ لي طريقًا إلى بيتك بمكّة، فأنا في أوّلِ الأمر، ما كنتُ راضيةً بالبيت، بل كنتُ أطلبُ ربَّ البيت، والآن فلا طريقَ لي إلى البيت أيضًا، ثم رجعتْ إلى البصرة، وسكنت في صومعتها

ونقل أنه جاء إليها شخصان من الأكابر زيارةً لها، ولهما رغبةٌ في طعام، فقال أحدُهما للآخر: لعلّها تُطعمنا شيئًا. فلمّا جلسا عندها، جاءت إليهما برغيفين كانا عندها، ففرحا بذلك، وشرعا في الأكل، إذ جاء سائلٌ بالباب، فأخذتِ الرَّغيفين، وأعطتهما إيّاه، فتعجَّبَ الضيفان من ذلك الفعل، ولكن سكتا، فبعد ساعةٍ جاءت جاريةٌ، وأتت لها بخبزٍ كثيرٍ طريٍّ، وقالت: سيدتي بعثَت لك[٢]. فعدَّتْهُ رابعة، فإذا هي ثمانية عشر، فردَّتْهُ على الجارية، وقالت: ليس هذا بتمامِ ما بعثته سيدتُكِ. فبالغتِ الجارية معها لتقبلها وما قبلَتْه، فأخذتِ الجاريـةُ الخبزَ، وخرجت من عندها، ثم رجعت به، فعدَّتْهُ رابعةُ، فإذا هو عشرون، فقبلته، وقالت: هذا الذي بعثتْ إليّ. وقدّمته إلى الضيفين، وهما في التعجُّب من أحوالها وأفعالها، فشرعا ثانيًا يأكلان، ثم سألاها عمّا جرى بين يديهما من الأوّلِ إلى الآخر من الأسرار، وقالا: اشتهينا الخبزَ الأول، وما تركتيه لنأكلَ منه، ثم عددتِ الخبزَ الذي جاءت به الجاريةُ، ثم قبلت ثانيًا بعد العدّ، وقلت أولاً: ليس هذا الخبز بتمامٍ، وفي المرَّةِ الثانية قلتِ: هذا تمامٌ. قالت: فحين دخلتما عليَّ علمتُ أنّكما جائعان، قلتُ في نفسي: كيف أُقدّم رغيفين إليكما؟ فلمّا جاءَ السائل أعطيتُهما السائل طمعًا في أن يُعوّضني اللهُ تعالى عن كلِّ واحدٍ عشرةً؛ لأني تيقَّنْتُ قول الله تعالى ووعده: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فجاءتِ الجاريةُ بثمانية عشر، علمتُ أنّها أَخَذَتْ رغيفين، فلمّا جاءت ثانيًا بعشرين علمت أنها حقّي، فقبلتها لذلك.

---

(١) في (أ): إما اتركني في البيت الذي كان لي بالبصرة.

(٢) في (ب): سيدتي بعث لك.

ونقل أنَّها كانت تُصلّي في صومعتها أثّر فيها ضعفٌ، وغلب عليها نومٌ، فوقعت على وجهها، وانكسر من الحصير عودٌ في عينها، ودميث وما أحسَّتْ.

وجاء سارقٌ، وأخذ ملحفةً كانت لها عتيقةً باليةً، وأراد الخروج، فاشتبَهَ عليه الطريق، ولم يجدِ الباب، فردَّها إلى موضعها، وأراد أن يخرج، انفتحَ له البابُ، ثم رجع وأخذها، وعند الخروج انغلقَ عليه الباب، ثم ردَّها، وتوجَّه إلى الباب وجده مفتوحًا، وهكذا إلى قرب سبعين مرة، ثم سمعَ من بعض زوايا الصومعة: يا رجل، إلى كم تُتعب نفسك؟! فإنّها- أي رابعة - قد سلَّمتْ نفسها إلينا منذ سنين، فلا جرأةَ لإبليس أن يطوف حولها، وأنت يا طرّار[1]، لا تتعَب؛ فإن إحدى الحبيبين، وإن كانتْ نائمةً، فالحبيبُ الآخرُ منتبهٌ، فيحفظها

ونقل أن خادمة رابعة احتاجتْ إلى بصلةٍ، لأنَّها أرادتْ أن تطبخَ طعامًا بعد أن لم تطبخْهُ مدَّةً، قالت: أطلبُ من بعض الجيران؟ فمنعتها رابعة، وقالت: عاهدتُ الله تعالى من أربعين سنة أن لا أسألَ من غيره شيئًا، اطبخي بلا بصلٍ. ففي الحال جاء طيرٌ وفي منقاره بصلةٌ مقشَّرةٌ، وألقاها في القدر الذي كان لها، فتركتْ رابعةُ ذلك الطبيخ، وما أكلتْ منه، وقنعتْ بالخبزِ اليابس وقالت: يُمكن أن يكون مكرًا.

ونقل أنها صعدت جبلاً، وقد جاء إليها جماعةٌ من الوحوش، وطافت حولها، ودارتْ بين يديها مُستأنسةً بها، وما نفرَتْ منها، فبينا هي كذلك إذ جاء الحسنُ البصري رضي الله عنه، فتوجَّهتْ رابعةُ إليه، فلمّا أحسَّتِ الوحوش بالحسنِ فرَّتْ وتفرَّقَتْ، فتغيَّرَ الحسن وتعجَّب من الحال، وقال: يا رابعة، لِمَ تفرُّ الوحوشُ عنّي، وقد رأيتُها استأنست بك؟ قالت رابعة: ما أكَلْتَ اليوم؟ قال: شيئًا من الشحم والبصل. قالت: أكلتَ شحمهُنَّ، لا جرم يهربن منك.

ونقل أنها مرَّتْ ببيت الحسنِ، والحسنُ قد أخرجَ رأسه من الشباك ويبكي،

(١) انظر شرح كلمة الطرار صفحة (٥١١).

فتقاطر من دموعه على رابعة. فظنَّتْ أنه من المطر، ونظرت إلى فوق، وعلمتْ أنّه من دموع عين الحسن، قالت: يا شيخ، هذا البكاء أظنُّه من رُعونات النفس[(١)]، فاجمَعْها في جوفك حتى تصيرَ بحرًا تطلبُ قلبك منه، ولا تجده إلاّ عند مليكٍ مقتدر. فانغاظَ الحسنُ من هذا الكلام، إلاّ أنّه كان ساكتًا عن الجواب إلى أن رأته رابعةُ قد بسط سجادةً على الماء، وجلس عليه. فقال: يا رابعة، تعالي لنُصلّي هنا ركعتين. قالت: من أراد عَرَضَ الآخرةِ في سوق الدنيا ينبغي أن يكون بحيث يعجز عنه أمثاله، ثم رمت رابعة سجّادتها إلى الهواء، وصعدت إليها، وقالت: يا شيخ، تعالَ إلى هنا نصلِّ؛ لئلا يرانا أحدٌ. فسكتَ الحسنُ رحمه الله، لكن أرادتْ رابعةُ أن تُطيِّبُ خاطرَه، قالت: يا شيخ، الذي أنت فعلتَه تفعلُهُ السمكُ، والذي أنا فعلتُ يفعله الذباب، ولكن لا بدَّ من الاجتهاد في العمل

نقل أن الحسنَ البصري رحمه الله قال: كنت عند رابعة يومًا وليلة، وكنّا نتحدَّثُ في الطريقة والحقيقة، ولا يخطر ببالي أنّي رجلٌ، ولا ببالها أنّها امرأة، ثم لمّا خرجتُ من عندها وجدتُ نفسي مفلسًا، ووجدتها مخلصة

أقول: وهذا من كمالِ تواضع الحسن، فلا شكَّ أنه يدلُّ على كمال نفسهِ، إذ ليس شيءٌ أضرَّ للسالك من عُجْبِهِ بنفسه. ولتعليم مقامَ التواضع كانَ النبيُّ ﷺ يقول فيما روي عنه: «لا تفضّلوني على يونس بن متى[(٢)]» مع أنه ﷺ كان أفضلَ من يونس عليه السلام، ومن غيرِهِ من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، يؤيِّدُهُ

---

(١) في (أ): من دموعات النفس.

(٢) لم أجده بلفظه، وقد روى البخاري في صحيحه ٥/ ٥٢ في الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص، ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من يُبعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلي؟ ولا أقول إن أحدًا أفضل من يونس بن متى».

ما رُوي عنه ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّرَ على الله وضعه الله[١]» والله أعلم.

نقل أن الحسنَ وجماعةً من أصحابه رحمهم الله زاروا رابعة في ليلةٍ، ولم يوجد عندها ضوء، فنفخت على أنملةٍ من أنامل أصابعها، فأضاءَتْ مثلَ المصباح إلى الصباح، فإن قيل: كيف يمكن هذا؟ قلنا: لا بُعْدَ به، كما في يدِ موسى عليه السلام، فإن قيل: إن موسى عليه السلام كان نبيًا من المرسلين، قلنا: نعم، ولكن من تابع نبيًا، فلا يبعد أن يصلَ إليه من أنوارِ شموس نبوّته نصيب، قال ﷺ: «من رد دانقًا من الحرام، فقد نالَ درجةً من النبوة[٢]» وقال ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستٍّ وأربعين جزءًا من النبوة[٣]»

أقول: ولذا نقدّرُ أنَّ كرامةَ الوليِّ أيضًا من معجزات النبيِّ عليه السلام. [والله أعلم].

نقل أنها أرسلتْ إلى الحسنِ بثلاثة أشياء: قطعةَ شمعٍ، وإبرةً، وشعرةً، وقالت: كنْ كالشمع؛ فإنَّه يحرقُ نفسه، ويُضيء على غيره، وكالإبرة فإنّها آلةٌ للوصل ـ أي: صلْ من قطعك ـ فإذا صنعت هذين الأمرين تكون لك شعرةٌ من العمل مقدارَ ألف سنة.

ونقل أنَّ الحسنَ خطبها، فقالت: يا شيخ، عقدُ النكاح يستدعي موردًا موجودًا، ووجودي قد ارتفعَ من البين، فأنا فانيةٌ في نفسي، وموجودة بوجوده، وأنا له وفي ظلِّ حكمه، فاطلبني منه لا مني. قال: يا رابعة، بمَ أدركت هذا المقام؟ قالت: بأن تركتُ المدركات كلَّها وضيَّعتها في وجوده. قال: كيف عرفته؟ قالت: يا شيخ، أنت تعرف بالكيف، وأنا أعرفه بلا كيف.

---

(١) حديث إسناده ضعيف رواه أحمد في المسند ٣/ ٧٦، وأبو يعلى (١١٠٩)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وابن حبان (٥٦٧٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) لم أجده في المصادر التي بين يدي.

(٣) حديث رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٩، ومسلم في صحيحه (٢٢٦٣) عن أبي هريرة.

ونقل أن الحسن رحمه الله ذهبَ إليها يومًا، وقال: علّمیني حرفًا من العلم الذي ما تعلّمتِ من أحدٍ، ولا سمعتِ؛ بل نزل في قلبك بلا واسطةِ مخلوقٍ. قالت: غزلتُ شيئًا من القطن، وذهبت به إلى السوق لأبيعه وأحصّلَ به شيئًا من القوتِ، فاشتراه منّي شخصٌ بدرهمين، فأمسكتُ أحدَهما بيدٍ، والآخرَ بالأخرى مخافةَ أن يصيرا زوجين لو أمسكتُها بيدٍ واحدة، هذا من فتوحي اليوم.

قيل لها: يقولُ الحسن: إنْ صرتُ مَحرومًا من مشاهدة جمال الله تعالى في الجنَّةِ لحظةً بكيتُ حتّى يترحَّمَ عليَّ أهلُ الجنة. قالت رابعة: هذا الكلام صحيح، لكن إذا حصلَ له غفلةٌ من ذكره في الدنيا لحظةً حصلَ له مثلُ هذا البكاء والأنين والحزن، فذلك علامةٌ على أنه يكونَ له في الآخرة ما قال، وإلاّ فخيالٌ وتوهُّمٌ

قيل لها: لِمَ لا تتزوّجين؟ قالت: أسألُ منكم ثلاثَ مسائل، إن أجبتُمْ أَمتثلْ أمرَكم، وأقبلْ كلامَكم: الأولى: أنّي أذهبُ من الدنيا بإيماني سالمًا؟ قالوا: لا نعلمُ ذاك. الثانية: حالَ إعطاء كتب الأعمال، هل أُعطى كتابي بيميني أو بشمالي؟ قالوا: ما نعلمُ. الثالثة: في وقت يذهبُ بجماعةٍ من جانبِ اليمين، وبجماعةٍ من جانب الشمال، أنا مع أيّهما أكون؟ قالوا: ما نعلم. قالت: من تكونُ له مصيبةٌ مثلُ هذه، فكيف يتفرّغُ للعرس؟!

وقيل لها: من أين تجيئين؟ قالت: من ذلك العالم. قيل: إلى أين تمشين؟ قالت: إلى ذلك العالم. قيل: بأيِّ شيءٍ أنت مشغولة؟ قالت: آكلُ خبزَ هذا العالم، وأشتغلُ بشغلِ ذلك العالم. قيل: فأنت تصلحين لرعايةِ الرباط. قالت: بل أنا خادمةٌ للرباط حارسةٌ له أمنعُ من[١] الدخول ما هو خارجٌ منه، ومن الخروجِ ما هو داخلٌ فيه، ومن دخل فيه أو خرج عنه لا شغلَ له معي[٢].

أقول: مرادها من الرباط القلب، والمعنى: أنّي أمنعُ الأمورَ الخارجة ـ أي

---

(١) في ب: أصنع من الدخول.

(٢) في ب: لا شغل لي معه.

زخارف الدنيا ومتاعها ـ من أن تدخلَ محبَّتُها في القلب، وأمنعُ الأمور الداخلة في القلب من الأسرار عن الظهور والانكشاف، وإن دخل شيءٌ في قلبي من الوساوس الشيطانية، والهواجس النفسانية يخرج عنه، ولا يشوّشني بتوفيق الله تعالى، والله أعلم.

قيل لها: تحبينَ الله تعالى؟ قالت: نعم. قيل: تُبغضين الشيطان؟ قالت: لا. قيل: وكيف ذلك؟ قالت: لغلبة محبّةِ الرحمن لا أتفرَّغُ لعدواة الشيطان.

قالت: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، قال: يا رابعة، هل تُحبّينني؟ قلت: يا رسول الله، من الذي لا يُحبُّك! ولكنَّ محبةَ الله تعالى استولت على قلبي بحيث لم يبقَ فيه موضعٌ لمحبَّةِ غيره، ولا لعداوة أحد

وقيل لها: ما المحبة؟ وبمن تتعلَّق؟ قالت: طلعتِ المحبَّةُ من الأزل، وعبرت على الأبد، فلم تجدْ[١] في ثمانية عشر ألف عالَمٍ[٢] شخصًا يتجرَّعُ شربةً منها، ثم رجعتْ إلى الحقِّ.

قيل لها: تعبدين الله تعالى، فهل ترينَهُ؟ قالت: لو لم أره، لم أعبده.

قلت: المُراد بالرؤية، إنما هي العلمية الاستدلالية أو الكشفية، لا العيانية. والله أعلم.

حُكي أنها كانَتْ باكيةً في أكثر الأحوال، قيل لها في ذلك، قالت: أبكي من خوفِ القطيعة، فإنِ استأنستُ به أخافُ أن أُنادى وقتَ الموت: لستِ لائقةً بنا، فحينئذ ماذا أصنع، وكيف يكون حالي؟

قيل: متى يكون العبد راضيًا؟ قالت: إذا فرح بالمحنة كما يفرح بالنعمة.

قيل: إذا كان العبدُ مُذنبًا، فإن تابَ تُقبلُ توبتُه أم لا؟ قالت: العبدُ المذنبُ كيف يتوب؟! ولا يتوبُ إلاّ إذا تابَ اللهُ عليه، فإذا تاب عليه هو يتوب.

---

(١) في (أ): طلعت المحبة من المحبة من الأزل، وعبرت من الأبد، فلم نجد.

(٢) كان الوجود في الفكر القديم يشمل مكانًا ثمانية عشر ألف عالَم، وزمانًا ثمانية عشر ألف سنة. وسيتكرر هذا اللفظ. انظر فهرس الألفاظ والمصطلحات صفحة (٩٢٧).

ومن كلماتها أن قالت: يا بن آدم، ليس في العين لله تعالى منزلٌ، ولا من اللسانِ إليه طريقٌ، ولا للسمع إليه مجال؛ بل أصحابُ اللِّسانِ حيارى، وأَربابُ العقول سُكارى في شأنه، وإنَّما الشغل مع القلب، اجتهدوا في أن يتنبَّهَ القلب، فإذا انتبه لا يحتاج إلى مساعدة غيره.

وقالت: الاستغفارُ باللِّسان صنعةُ الكذابين.

وقالت: إن تبت أنا - يعني بلا توفيق الله تعالى - فأنا محتاجةٌ إلى التوبةِ مرةً ثانية.

وقالت: لو كان الصبرُ رجلاً لكان كريمًا.

ثمرة العرفان التوجُّه إلى الله تعالى.

العارف عليه أن يطلبَ من الله تعالى قلبًا، فإذا أعطاه، ردّه عليه، وسلّمه إليه؛ ليكونَ في قبضته محفوظًا.

نقل عن صالح المُريِّ[١] أنه كثيرًا ما يقول: مَنْ دقَّ بابَه يُفتح له عاقبة الأمر. قالت له رابعة: كم تقول هذا الكلام! متى كان بابُه مُغلقًا على أحد حتى يفتحَه؟ قال صالح: يا عجبًا، رجلٌ قويٌّ جاهل، وامرأةٌ ضعيفة عالمة.

قيل: سمعتْ رجلاً يقول: وا حزني. قالت: قل: وا عدمَ حزني؛ فإنه لو كان لك حزنٌ لم يكن لك حزن

رأت شخصًا قد عصبَ رأسَهُ بعصابةٍ، قالت: لمَ هذه العصابة؟ قال: لي صداع. قالت: كم عمرك؟ قال: ثلاثون سنة. قالت: هل حصل لك صداعٌ في هذه المدة؟ قال: لا. قالت: وما حالك عشتَ ثلاثين سنة سالمًا مُعافًى من الأوجاع، وما شددْتَ رأسَك بعصابةِ الشكر، فبسبب صداع ليلةٍ تعصبُهُ بعصابة الشكاية!

---

(١) هو صالح بن بشير المُريّ، عابدٌ محدّث، دعاه المهدي إلى بغداد لعلمه بالحديث. وفي الأصلين: صالح المزني.

قيل: أعطتْ رابعةُ دراهم لشخصٍ ليشتري لها كساء، لأنّها كانت عارية، فذهب الشخصُ وجاء إليها، وقال على أيِّ لونٍ أشتري لك الكساء؟ قالت: لما جاء اللونُ في البين، أعطني دراهمي، فأخذتها، ورمتها في الدجلة[١].

وقيل: دخلت في البيتِ، وكان فصلُ الربيع، قالت لها الخادمة: اطلعي من البيت يا سيدتي، وانظري إلى صنعِ الله. قالت: ادخلي إلى البيتِ، وانظري إلى الصانع[٢]، شغلتني مشاهدة الصانع عن مشاهدة الصنع.

نقل أنه ذهبَ إليها جماعةٌ للزيارة، فرأوها تقطعُ اللحم بأسنانها، قالوا لها: ليس عندك سكين لتقطعي بها اللحم؟ قالت: من خوف القطيعة، لا أحبُّ أن يكون عندي سكين؛ فإنه آلةُ القطع، ما كان لي، ولا يكون أبدًا.

ونقل أنّها صامت مرةً سبعةَ أيام بلياليها، وما أفطرت، ولا تناولتْ شيئًا، ولا نامت ليلاً ولا نهارًا، وكانت طولَ الليل مشتغلةً بالصلاة، وجاوزَ الجوعُ حدَّه، فجاء شخصٌ إلى باب البيت بطعامٍ لها، فأخذته، وذهبتْ لتلهبَ ضوءًا، فلمّا رجعت رأتِ الطعامَ قد انقلبَ إناؤه، وانصبَّ الطعام على الأرض، فذهبت لتأخذ كوزًا، وتُفطرَ على الماء، فانطفأ السراجُ، فقصدت الماءَ للشرب، وقع الكوزُ من يدها على الأرض، وانكسرَ، فأنّتْ أنينًا كادَ البيتُ أن يحترقَ من أنينها ونَفَسِها، وقالت: إلهي، ما هذا الصنعُ الذي تفعلُ مع هذه الضعيفة العاجزة؟! فسمعتْ صوتًا: يا رابعة، إن أردتِ أن نجعلَ الدنيا كلَّها وقفًا عليك نجعلها، لكن يخرجُ من قلبك حزننا وخوفنا؛ فإنَّ خوفنا لا يجتمعُ مع نعمِ الدنيا في قلبٍ، يا رابعةُ، لك مُرادٌ، ولنا مرادٌ، فكيف يجتمعُ مرادُنا ومرادك في قلبك؟ قالت: فحين سمعتُ هذا الخطابَ صارَ قلبي مُنقطعًا من الدنيا، وقصرَ أملي إلى حدِّ أُصلّي منذ ثلاثين سنةٍ، وأقولُ في كلِّ صلاةٍ: هذه آخرُ أعمالي وآخرُ صلاتي، وانقطعتُ من الخلق إلى حيث كلّما يصبحُ عليَّ من خوفٍ أن

---

(١) جاء في المطبوع من الترجمة صفحة ٢٧٠: أي أنّ التفرقة ظهرت لها وهي لم ترتدِ المرقعةَ بعد.

(٢) في (ب): أدخلُ إلى البيت، وأنظرُ إلى الصانع.

لا يُخالطني[1] أحدٌ، كنت أفرُّ من الناس.

ونقل أنّها كانت تئنُّ دائمَ الأوقات، قيل لها: يا عزيزة، لا نرى ولا نعلمُ لك علّةً ولا وجعًا، ولك أنينٌ وتوجّعٌ دائمًا! قالت: لي علّةٌ في الجوف، ووجعٌ في صدري يَعجزُ كلُّ طبيبٍ في الدنيا عن معالجته، ولا دواءَ لدائي غير وصالِ حبيبي، أتعلّلُ لعلّي أَصلُ إلى مقصودي غدًا.

ونقل أنه رآها جماعةٌ، فسألت واحدًا منهم: أنت لِمَ تعبدُ الله تعالى؟ فقال: دركاتُ النار عظيمةٌ مهيبة، ولجميع الخلائقِ عليها عبورٌ، فأخافُ أن لا أبقى فيها زمان العبور، فأعبدُ اللهَ تعالى خوفًا من النار. فسألت آخر، فقال: درجاتُ الجنة عاليةٌ، ونعمةٌ غالية، فلأجل حصولِ نعمةِ الجنة أعبدُ الله تعالى. قالت رابعة: أيُّ عبدٍ له يعبدُهُ خوفًا من النار، وطمعًا في الجنة! قالوا: يا رابعة، وأنت، لِمَ تَعبدين الله تعالى؟ قالت: الجارُ ثم الدار، أليسَ يكفينا أنه تعالى أذنَ لنا في عبادته، فلو لم تكن جنةٌ ولا نارٌ كانت عبادتُهُ واجبةً علينا، فإنه مستحقُّ العبادة له، وهو المستحقُّ للعبودية.

أقول: ويؤيِّدُهُ أنّه سُمع عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه كان يقول في مُناجاته: إلهي، ما عبدتُكَ رغبةً في الجنة، ولا رهبةً من الجحيم؛ ولكن وجدتُّكَ أهلاً للعبادة، فعبدتك. والله أعلم.

نقل أنه جاء إليها شخصٌ، ورأى ثيابَها خلقةً مُقطَّعةً، قال لها: هنا ناسٌ كثيرٌ، إن سألتِ عنهم ينظرون لك، ويُشفقون عليك. قالت: أنا أستحيي أن أطلبَ الدُّنيا ممن هو ملكه، وهو مالكُها، يُعطي من يشاء، ويَمنعُ من يشاء، فكيف أطلبُها من شخصٍ هي عاريةٌ في يده؟ قال الرجل: يا عجبًا من علوِّ همَّةِ هذه العجوز؛ فإنَّها لا تريد أن تصرفَ وقتها في غيرِهِ، ولا تشتغلَ بغيره أبدًا ـ أي بغير الله تعالى.

(١) في (أ): ألاّ يخاطبني أحد.

أقول: وقد أنشد في هذا المعنى أبيات كثيرة، منها ما قيل:

لله تحتَ قبابِ العزِّ طائفةٌ	أخفاهُمُ في لباسِ الفقرِ إجلالا
هم السَّلاطينُ في أطمار مسكنة	جرُّوا على قلَلِ الأفلاكِ أذيالا
غُبْرٌ ملابسُهُم شمٌّ معاطسُهم	استعبدوا من ملوكِ الأرض أقيالا
هذي المناقبُ لا ثوبانِ من عَدنٍ	خيطا قَميصًا فعادا بعدُ أسمالا
هذي المفاخرُ لا قعبانِ من لبنٍ	شيبا بماءٍ فصارا بَعْدُ أبوالا

ونقل أنه جاءَ جماعةٌ إليها على سبيل الامتحان، ليمسكوا عليها كلامًا، فقالوا لها في أثناء المكالمة: إنّ الله تعالى أعطى الرجال كلَّ كرامةٍ ومزيّةٍ وفضيلةٍ، حتى وضعَ تاجَ النبوّةِ على رؤوس الرجال، وألْبسَ بعضًا منهم حلَّة الخُلّة، ونوَّرَهُ بنور المحبّة، وما صارت نِعَمُ النبوّة سهمًا للنساء؟! قالت: نعم، وهكذا، أطْلَعَ دعوى ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] من جيبِ أحدٍ من النساء؟ وما صارت واحدةٌ من النساء مُخنَّثةً، فإنَّ الخُنوثة في الرجال.

قيل: مرضت واشتدَّ مرضُها، فقيل لها: ما سببُ هذا المرض؟ قالت: التفتُّ التفاتةً إلى الجنّة، فأدّبني ربّي.

وقال الحسن رحمه الله: ذهبتُ إلى صومعةِ رابعة عيادةً لها، فالتقيتُ بشخصٍ من تجّارِ البصرة واقفًا على باب الصومعة ويبكي، ولديه صرّةٌ من النقد، قلت: لِمَ تبكي؟ قال: على هذه الزاهدةِ التي إن أخرجت بركاتها[1] من بين الخلائق هلكوا. قلت: وما هذه الصُّرّةُ؟ قال: أتيتُ بها لأصرفها في بعض حوائجها، وما أدري هل تقبلها هي أم لا؟ ولكن أرجو منك أن تشفعَ لي في القبول عسى تقبل منّي. فدخلَ الحسن، وعرض عليها، نظرت إلى الحسن بطرفِ العين، وقالت: من يرزقُ مَنْ يَسبُّه، ألا يرزقُ من يحبُّه!؟

أقول: معناه أنّ الله تعالى يرزقُ من لا يعرفه؛ بل يشتمه ويسبُّه كالكافر مثلاً، فهل يجوزُ بالنسبة إلى كرمه ولطفه أن لا يرزق من يموجُ بحرُ قلبه من محبّةِ

---

(١) في (أ): قال: هذه الزاهدة التي انخرجت بركاتها.

حضرته، ودليله قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] والله أعلم

ثم قالت: يا شيخ، مُذ عرفتُ الله تعالى أعرضتُ عن الخلق، والمالِ الذي لا أعرفُ أنّه حلالٌ أو حرام، كيف أقبله؟ وقد خطتُ قطعةً على قميصٍ في ضوء مصباحِ سلطانٍ، انسدَّ عليَّ بابُ قلبي زمانًا حتى فتقتُ ما خطتُ، ورميت، ثم افتحِ الباب[١]، واعتذرْ من ذلك التاجر حتى يطيب قلبُهُ.

قال: عبد الواحد بن عامر: أنا وسفيان ذهبنا إلى رابعة للعيادة، ما استجرينا أن نبتدىء عندها بالكلام من غاية مهابتها، قلت لسفيان: تكلّمْ بشيءٍ. قال: يا رابعة، لو دعوتِ اللهَ في كشفِ هذه الكربة عنك، وتسهيل الأمرِ عليك. فتوجَّهتْ إليه، وقالت: يا سفيان، ألا تعلمُ أنَّ هذا الوجع بإرادة الله تعالى؟ قال: نعم. قالت: إذن تعلم أنه إرادةُ الله، فكيف تقول أن ادعو اللهَ ليفعل شيئًا على خلافِ مُراده؟! لا يجوز مخالفةُ الحبيب بحال. ثم قال سفيان: ماذا تشتهين يا رابعة؟ قالت: يا سفيان، أنت رجل من أهل العلم، كيف تقول ماذا تشتهين؟ بعزةِ الله إنّي أشتهي الرُّطبَ من اثنتي عشرة سنة، وتعلم أنَّ الرُّطبَ بالبصرة أكثرُ شيءٍ يكون، وبعد ما أكلتُه؛ لأنّي عبدٌ، ولا شغلَ للعبد بتحصيل المُشتهيات، فإنّي إن أردتُ ولا يُريد سيدي فذا كفرٌ في الطريقة، يجبُ على العبد أن لا يَشتهي ولا يريد إلاّ ما يُريده السيّدُ ليكون عبدًا على الحقيقة، وإن أراد الله فشيءٌ آخر. فسكت سفيان، ولم يتكلّمْ بعده، إلاّ أنه قال: لا يُمكننا أن نتكلَّمَ في شأنك؛ ولكن تكلّمي في شأني. قالت: نعمَ الرجلُ أنت لو لم تكنْ مُحبًّا للدنيا. قال سفيان: وما ذلك؟ قالت: لأنّك تحبُّ روايةَ الحديث للجاه في الدنيا. قال سفيان: رقَّ قلبي من هذا الكلام، قلتُ: يا ربّ، ارضَ عنّي. قالت: ألا تستحيي أن تطلبَ رضا من لستَ أنت راضيًا عنه.

قال مالك بن دينار رحمه الله: ذهبتُ إلى رابعة، وجدتُ عندها كوزًا

---

(١) في الأصلين: ثم انفتح الباب.

مكسورًا تشربُ منه الماءَ وتتوضّأ منه، وقطعةَ باريةٍ عتيقةً، ولبنةً تضعُ عليها رأسها، فلمّا رأيتُ ذلك اتَّجعَ قلبي، قلتُ: لي أصحابٌ، هم أصحاب مالٍ، لو أردتِ أخذتُ منهم شيئًا، وصرفت في حوائجك؟ قالت: غلطتَ يا مالك غلطًا عظيمًا، أليس رازقي ورازقُهم واحدًا؟ قلت: بلى. قالت: هل ينسى الرازق الفقير لفقره، ويرزقُ الغني لغناه؟ قلتُ: لا. قالت: فإنه يعلمُ حالي، فلا حاجةَ إلى التذكير، إرادتُهُ تقتضي هذا، فنحن أيضًا نريدُ ما يريدُه هو.

نقل أنَّ الحسنَ البصري ومالكَ بنَ دينار، وشقيقَ البلخي رحمهم الله جاؤوا إلى رابعة، وكانت مريضةً، فقال الحسن: ليسَ بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يصبرْ على ضرب[1] مولاه. قالت رابعة: يشمُّ من هذا[2] رائحة الأنانية. قال: شقيقٌ: ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يشكرْ على ضرب مولاه[3]. فسكتتْ رابعة، قال مالك: ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يتلذَّذْ بضربِ مولاه. قالت رابعة: نُريد خيرًا من ذلك. قالوا: قولي أنت. قالت: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يَنْسَ الضَّربَ في مشاهدة مولاه، وهذا ليس بعجيبٍ؛ فإنَّ نساءَ مصرَ نسين الألمَ في مشاهدةِ مخلوقٍ، فإن حصل هذا الحال في مشاهدة الخالق فلا يكون بعيدًا

ونقل أنه جاء إلى رابعة شخصٌ من أكابر البصرة، وهي كانت مفترشةً للوجع، وأخذ يذمُّ الدنيا، قالت له رابعة: جميلٌ أنّك[4] تحبُّ الدنيا، فإنّك لو لم تحبَّها لما ذكرتها؛ فإنَّ المُشتري للشيءِ يُظهر منه عيبَهُ، ويحطُّ من مقداره، فإنّك لو كنتَ فارغًا من الدنيا لم يَعبرْ ذكرُها على لسانك، ذلك كما قيل: مَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ ذكره[5].

---

(١) في (ب): على ضر مولاه.
(٢) في (ب): أشمُّ من هذا.
(٣) في (ب): لم يشكر على مرض مولاه.
(٤) في (أ): علمنا أنك تحبُّ.
(٥) قال العجلوني في كشف الخفا ٣٠٧/٢ (٢٣٥٢) رواه أبو نعيم، والديلمي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

قال مسمع[١]: ذهبت إلى رابعة وقتَ العصر، وكانت تريدُ طبخَ طعامٍ، وقد وضعت القدرَ على الأثفية، وصبَّت فيه الماء، واشتغلنا بالحديث، وبقينا إلى المغرِب وتركتِ الطبخَ، وقالت: الحديث خيرٌ منه. حتى أذنوا المغرب، وصلّينا، وقامت رابعةُ وقدمَتْ بماءٍ في كوزٍ، وكسيرةِ خبزٍ يابسٍ، وأفطرنا عليه، ثم راحت رابعةُ إلى القدر لترفعَها، فأحسَّتْ بالحرارة، فنظرت، فإذا الطعامُ الذي كان فيه قد انطبخ، والقدرُ بعدُ يَغلي بأمرِ الله تعالى، فأتت به، وأكلنا الطبخَ واللحم، وما أكلنا ألذَّ من ذلك.

قال سفيانُ: أتيتُ إلى رابعة وقتًا، وهي دخلتِ المحراب، واشتغلتْ بالصلاة إلى الصباح، وأنا أيضًا كنت مشغولاً بالصلاة في زاويةٍ، ثم قلتُ: وبأيِّ شيءٍ نشكرُ الله تعالى إذ وفَّقنا الله تعالى للصلاة البارحة؟ قالت: بأن نصومَ النهار.

وكانت لها مُناجاةٌ كثيرة، منها أنها قالت: إلهي، إن أرسلتني غدًا إلى جهنم، اكشفُ سرًّا تفرُّ النار منّي مسافةَ ألف سنة.

وقالت: إلهي، ما قسمتَ لي من الدنيا فأعطه الأعداء، وما قدَّرْتَ لي من الآخرة أعطه للأولياء؛ فإنَّك أنت تكفيني، ولا حاجةَ لي إليهما.

وقالت: إلهي، إن عبدتُكَ خوفًا من الجحيم فحرِّمِ الجنَّة عليَّ، وإنْ عبدتُكَ لذاتِكَ فأرني جمالك.

وقالت: إلهي، فإن أدخلتني النارَ غدًا يوم القيامة، أستغيثُ وأقول: إلهي، أنا أحببتُكَ، كذا تفعل مع المُحبِّ؟ فسمعت هاتفًا يقول: يا رابعة، لا تظنينَ بنا ظنَّ السوء.

وقالت: إلهي، شأني وشُغلي وأُمنيتي من الدنيا ذكرُك، وفي الآخرة لقاؤك، ثم ما تُريد فاعملْ معي.

---

(١) كذا في الأصلين، وفي المطبوع من الترجمة ٢٧٤: قال الحسن.

وكانت تقول ليلةً في مناجاتها: إلهي، اجعلْ قلبي حاضرًا، واقبلْ صلاةَ مَنْ قلبُه معك غائب.

فلمّا حضرتها الوفاةُ كان عندها رجالٌ، قالت: اذهبوا من عندي، واجعلوا المكان خاليًا لرُسل الله تعالى.

فخرج الرجال، وردُّوا الباب، ثم سمعوا من يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . . .﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] الآية فما أحسُّوا صوتًا بعده، فتحوا البابَ، ودخلوا، فإذا هي ميتةٌ، وسلّمتْ روحها لحبيبها.

قال بعض الأولياء[١]: دخلت رابعة في الدنيا وخرجت إلى الآخرة وما تهجَّمَتْ على الله أبدًا، ولا طلبتْ منه شيئًا أصلاً، فكيف من الخلق؟

رأوها في المنام بعد الوفاة، فقيل لها: أخبري عن حالك، كيف نجوتِ من منكر ونكير؟ قالت: لمّا دخلا عليَّ، وقالا: من ربُّك؟ قلت لهما: ارجعا وقولا لله تعالى: إنك ما نسيتني مع أنَّ لك ألوفَ ألوفٍ مثلي من العبيد والإماء؛ بل مقدار ما لا يَعلمُهم إلاّ أنت، وأنا عجوزٌ ضعيفةٌ فقيرةٌ، ليس لي أحدٌ غيرك، ولا حبيب سواك، فهل يُمكنني أن أنساك حتى تبعثَ إليَّ رسولاً، ويسألني من ربُّك؟!

قيل: إنه جاء جماعةٌ إلى قبر رابعة، ونادوا: يا رابعة، كنتِ تدّعين أنك لا تلتفتين إلى الدنيا وما فيها، فإلى ما انتهى حالك؟ فسمعوا صوتًا من قبرِها: إنّي وصلتُ إلى ما طلبتُ.

نسألك اللهم، يا مُنجحَ الآمال، ويا مقلّبَ القلوب، ومغيّرَ الأحوال أن تثبّتْ قلوبنا على دينك ومحبّتِك، وتجعلنا بعزَّتك من عبادك الصالحين، يا ربَّ العالمين.

* * *

(١) في (أ): قال بعض العلماء.

(١٠) الفُضيل بن عياض[1]

ذكر الفضيل بن عياض رحمة الله عليه:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، وكان ذا قدمٍ في الطريقة، وله في الرياضات والكرامات شأنٌ رفيع[2]، وكان في الورعِ عديمَ المثل، وفي المعرفة مشهورًا في العالم، ومحمودًا بين أُولي الهمم، ومَرجِعًا للطائفة الصوفية.

وكان في أوّلِ الأمر ضرب خيمةً في البادية بين ورد وأبِيْوَرْد وهما مدينتان من مدائن خراسان، ولبس كساءً وقلنسوة من الصوف، وفي عنقه مسبحةٌ، وله أصحابٌ كثيرة وأعوان، وكان شغلُهم وشأنهم السرقةَ وقطعَ الطريق، وكانوا يأتون بما يَسرقون ويقطعون إلى الفضيل، وهو كان يقسمُ بينهم لما أنه كان كبيرَهم ورئيسَهم، وما كان يريد ويشتهي يأخذ له، لكن كان يكتب في كتابٍ: أنه ما أخذ وممّن أُخذ.

وكان لا يتركُ الصلاةَ، ويواظبُ على الجماعة، ومَنْ لا يُصلّي بالجماعة من أصحابه يطردُهُ من عنده.

---

(١) معرفة الرجال ٢/ ٢١٣، طبقات ابن سعد ٥/ ٥٠٠، تاريخ خليفة ٤٥٨، طبقات خليفة ٢٨٤، التاريخ الصغير ٢/ ٢١٩، التاريخ الكبير ٧/ ١٢٣، المعارف ٥١١، الجرح والتعديل ٧/ ٧٣، مشاهير علماء الأمصار ترجمة (١١٧٩)، ثقات ابن حبان ٧/ ٣١٥، طبقات الصوفية ٦، حلية الأولياء ٨/ ٨٤، الرسالة القشيرية ٣٩، مناقب الأبرار ٧، صفة الصفوة ٢/ ٢٣٧، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٩٣، جامع الأصول ١٥/ ٣٧، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٥١، وفيات الأعيان ٤/ ٤٧، مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٩٨، تهذيب الكمال ٢٣/ ٢٨١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٢ (١١٤)، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٦١، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٥٤، العبر ١/ ٢٩٨، طبقات الأولياء ٢٦٦، العقد الثمين ٧/ ١٣، نفحات الأنس ٥٣، تهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٤، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢١، طبقات الشعراني ١/ ٦٨، الكواكب الدرية ١/ ٣٩٥، الجواهر المضية ١/ ٤٠٩، شذرات الذهب ١/ ٣١٦.

(٢) في (أ): شأن عظيم.

حتى أن جاء قافلةٌ كبيرةٌ، وأصحابُ الفضيل كانوا يترصَّدون القافلة ويترقّبونها، فاطّلعَ شخصٌ من القافلة على أنَّ في الطريق قطّاعًا، وكان معه بَدْرَةٌ[١] من الدنانير والدراهم، وقصد أن يسترها في موضعٍ بدفنٍ وغيره، لعلّها تبقى إن وقعَ نهبٌ، فخرج عن الطريق، فالتقى بخيمةِ الفضيل، جاء إليها فرأى شخصًا[٢] على صُورة الزاهدين، فسلّم عليه، واستودعه البدرةَ، فقال الفضيل: اذهبْ بها وضعْها في ذلك الجانب من الخيمة. فوضعها هناك، ورجع إلى القافلة، فإذا هي قد نُهبت، وأُخذ ما كان لهم من الأموال والأمتعة، ورأى أصحابَهُ مَشدودين مكتوفين، فذهب إليهم، وحلَّهم، فقاموا وجمعوا ما بقي لهم ومشوا، جاء صاحبُ البدرة إلى الخيمةَ ليطلبَ حقَّه، فرأى الفضيلَ مُقدَّمَ القطّاع ورئيسَهم، والكلُّ بعد النهب اجتمعوا عنده، وجمعوا المالَ كلَّه لديه، وهو يقسمُهُ بينهم، فلمّا رأى الرجلَ على هذه الحال اغتمَّ غمًّا شديدًا، وتأوَّه تأوّهًا عظيمًا، وقال: أعطيتُهُ بدرةً من النقد، وكان مقدمَهم وكبيرهم، ضيَّعتُ مالي بيدي. فرآه الفُضيل مكروبًا مَغمومًا، عرف الحال، وصاحَهُ إليه، وقال: ما حاجتُكَ؟ قال: أريد أمانتي. قال: هي في مكانها الذي وضعتَ فيه، خذها واذهب. فدخل الرجلُ الخيمةَ، فإذا هي بعدُ في ذلك الموضع، فأخذها وذهب خلف أصحابه من أهل القافلة.

قال أصحاب الفضيل: يا عجبًا، ما التقينا نحن في جميع هذه القافلة بدرهمٍ من النقد، وأنت تردُّ عليهم بدرةً من الدراهم! قال الفضيل: لأنَّ هذا الشخص قد أحسنَ ظنَّه بي، وأنا أيضًا أُحسنُ الظنَّ بالله؛ لعلّه يرزقني توبةً، فصحّحتُ ظنَّه، عسى أن يُصحِّحَ اللهُ تعالى بكرمه ظنّي.

فبعد هذه القافلة، نهبوا قافلةً أُخرى، وأخذوا منهم أموالهم، وخرجوا عن الطريق، واشتغلوا بالطعام، فسأل رجلٌ منهم من القافلة: أين كبيرُكم؟ قالوا: هو

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال كانوا يتعاملون به، ويختلف باختلاف العهود.

(٢) في (ب) فرأى منها شخصًا.

ليس معنا. وأشاروا إلى مكانٍ، وقالوا: هناك شجرةٌ وعينُ ماءٍ، وهو مشغولٌ بالصلاة في ذلك المكان. قال هذا الرجل: ليس هذا وقتَ الصلاة. قالوا: يُصلّي تطوّعًا. قال: وكيف هو لا يأكلُ معكم؟ قالوا: إنّما هو صائم. قال: ليس هذا من أيامِ الصوم. قالوا: يصومُ تطوّعًا. فتعجَّبَ الرجلُ، وجاء إليه، فرآه في غايةِ الخُشوعِ، وهو في الصلاة، وقفَ إلى أن فرغ من الصلاة، قال له: الضدَّانِ لا يجتمعان؛ الصومُ وقطعُ الطريق، والصلاةُ وقتل النفس. قال الفضيل: هل معك شيءٌ من القرآن؟ قال: نعم، وقرأ عليه: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فسكت الفُضيل، وتحيّر في شأنه.

وقيل: إنه كان في أيام شبابه قبل التوبة ذا مروءةٍ وهمَّةٍ عالية، وكان لا يأخذُ من النساءِ شيئًا، ويتركُ لكلِّ واحدٍ مقدارَ رأس مالٍ ليتَّجرَ فيه، وكان مائلاً إلى الصلاح، وعشقَ امرأةً في ابتداء حاله، وما كانَ يحصلُ له من قطع الطريق كان يصرفُهُ إليها، وكان يدور بالليل، ويبكي من العشق، حتى سمع ليلةً من شخصٍ في قافلةٍ يقرأ هذه الآية: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦] فوقعتْ في قلبهِ وقوعًا شديدًا، وأثّرتْ فيه تأثيرًا عظيمًا، وقال ذلك الشخص القارىء: يا فُضيل، إلى متى تقطعُ الطريق؟ فنحن الليلةَ نقطعُ الطريق عليك ـ يعني نعبرُ من مكانك بحيث لا تَطَّلعُ علينا ـ وكانوا خائفين من الفُضيل، والحالُ أنَّ الفُضيلَ كان على رأس حائطٍ، فلمّا سمعَ الآيةَ والكلام بعده، رمى نفسَه من الحائط، وقال: نعم، قد آن الوقتُ.

بل عبر فتوجَّه إلى خربةٍ مُتحيّرًا في حاله، خجلاً من فعاله، فالتقى فيها بجماعةٍ من المجتازين ـ أي العابرين الطريق[١] ـ قد اختفوا هنالك من الفُضيل، وكان يقول بعضهم: نذهبُ. وبعضهم يقول: نخافُ أن يكون الفُضيلُ على الطريق. قال الفضيل: أبشروا، فإنَّ الفُضيل قد تاب.

فكان رحمه الله يدورُ على الخصماء، ويُرضيهم، ويستحلُّ منهم ويبكي

(١) كذا الأصلين.

حتى بقي في مدينة أبِيْوَرْد يهوديٌّ ما كان يُرىٰ ذمّتَهُ، قال اليهوديُّ لبعض أصحابه: اليوم نستهزئُ على شخصٍ محمَّديٍّ. وقال اليهوديُّ للفضيل: تُريدُ أن أجعلَكَ في حلٍّ؟ قال: نعم. قال: أُريدُ أن تنقلَ هذا الرمل عن هذا الموضع حتى أجعلَكَ في حلٍّ. قال: نعم. وكان هناك رملٌ مُجتمعٌ مثلُ أَكَمَةٍ، ونقلها من ذلك المكان مُتعذّرًا جدًا، وما كان في وسعِ الناس، فأمرَ اليهوديُّ الفضيلَ بنقل ذلك الرمل من مكانه ليجعله في حلٍّ، فعلمه الفضيل أنه لا يقدرُ عليه، إلاّ أنه بالضرورةِ شرعَ فيه، وكان ينقلُ قليلاً قليلاً إلى وقت السَّحرِ، فهبَّتْ ريحٌ، وذهبتْ بالرمل كلِّه، فلمّا أصبحَ، جاء اليهوديُّ، وعرف الحال، فتحيَّرَ، وقال: إني حلفتُ أن آخذ منك حقّي لا بدَّ، وليس لك شيءٌ تعطيني، فذهب به اليهودي إلى البيت، وقال: وضعتُ تحت هذا الفراش دراهم، أدخل يدك تحتَهُ، وأخرجْها وأعطني لئلا أَحنثَ في يميني. والحال أنّه كان تحت الفراش ترابٌ، فأدخل الفضيلُ يده تحت الفراش، وأخرجه، وكفُّه مملوءةً من الدنانير الذهبية، وأعطاها اليهوديَّ، فلمّا رأى اليهوديُّ هذه الحالة أيضًا، قال له: اعرضْ عليَّ الإسلام. فعرضَهُ عليه، وأسلم اليهوديُّ، ثم قال: هل تعرف سببَ إسلامي؟ قال: لا. قال اليهودي: لأنه لم يتبيَّنْ عندي إلى هذا اليوم أنَّ دينَ الإسلام حقٌّ أم لا، واليومَ قد تبيَّنَ عندي أنَّه حقٌّ لا ريب فيه، لأنّي قرأتُ في التوراة أنَّ من تُقبل توبته يقينًا إذا وضعَ يَدَهُ على الترابِ يَصيرُ ذهبًا، فأنا قد جرَّبْتُ توبتَكَ، ووضعتُ هذا الترابَ تحت هذا الفراش، وصار الأمرُ كما رأيت، فعلمتُ أنَّ توبتَكَ مقبولةٌ حقًّا، وأنَّ دينَ الإسلام حقٌّ[1]، فلذا أسلمت.

فأمر الفضيلُ شخصًا بأنْ يشدَّ يديه، ويجعلَ حبلاً في عُنقه، ويذهبَ به إلى السُّلطان، قال: لأنّه على حذرٍ من جهة الشرع، ليقيم عليَّ الحدود[2]، فلمّا وصلَ إلى مجلسِ السُّلطان، رأى السلطانُ في وجهه سيما الصالحين، فأعزَّه وأكرمه، وقال: لا نقدرُ نحن على إقامة الحدِّ عليه. وبعثه إلى بيته موقّرًا

---

(١) في (أ): و﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

(٢) في (أ): لأنه حدود من جهة الشرعِ، ليقيم عليَّ الحدود.

مكرّمًا، فلمّا وصلَ إلى باب البيت، ودقَّ الباب، سمعوا صوتَه، قالوا: قد تغيَّرَ صوتُه، عسى أن وصلَ به جراحةٌ، أو حصلَ به وجعٌ. قال الفُضيل: نعم، إنّي جرحتُ جراحةً. قالوا: على أيِّ عضوٍ؟ قال: على القلب. ثم دخل البيت، وقال لامرأته: إنّي أقصدُ الحجَّ، فإن أردْتِ مُصاحبتي وموافقتي فذاك، وإلا فأسرِّحُك. قالت امرأته: حاشا أن أُفارقك، وأكونُ حيث تكون. فقصد هو مع امرأته الحجَّ، وسافر هو مع امرأته إلى مكّةَ، والله تعالى قد سهَّلَ عليهما الطريق، فدخلا مكّة شرّفها الله، وأقاما بها، وصاحبَ هناك جماعةً من أولياء الله تعالى، وصاحب أبا حنيفة رضي الله عنه، وحصلت له روايةٌ عاليةٌ، ورياضةٌ تامّة، وانفتح عليه باب الكلام في مكّة شرّفها الله، وكان يجتمعُ عليه أهل مكّة، وكان يعظهم.

نقل أنه قال هارون الرشيد ليلةً للفضل البرمكي: أُريد أن تذهبَ بي الليلة إلى شخصٍ يُريني نفسي، فإنّي تضجَّرتُ من السلطنة. فذهب به الفضلُ إلى سفيان بن عيينة، ودقَّ البابَ، قال سفيان: من أنتم؟ قال: هارون أميرُ المؤمنين. قال سفيان: لمَ تَعِبَ السُّلطان سلّمه الله؟ وما خبّرتموني لأجيء إليه. قال هارون للفضل: ليس هذا مَنْ أُريده. فأخبروا سفيان بالواقعة، قال: هذا الذي قصده أميرُ المؤمنين ليس إلاّ الفُضيل. فذهبوا إليه، فلمّا وصلوا إلى بابه أحسُّوا[١] أنه يقرأ شيئًا من القرآن، فاستمعَ هارون، فإذا هو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] قال هارون: لو لم يكنْ لنا حظٌّ من صحبة هذا الشخص غير استماع هذه الآية لكفانا. ثم دقَّ الباب، قال الفُضيل: من على الباب؟ قالوا: هو أمير المؤمنين هارون. قال الفضيل: وما شأنه معي؟ فإنّي رجلٌ فقيرٌ هارب. وما فتح الباب، قال الحاجب: طاعةُ أُولي الأمر واجبةٌ. قال: لا تشوِّشوني. قال الحاجب: لا بدَّ من الدخول إليك. قال الفُضيل: أمّا بالإذن فلا، وأمّا بالحكمِ والوقت،

(١) في (أ): إلى بابه سمعوا.

فالحكمُ لكم[١]. ففتح الباب، وعبرَ إليه هارون، فقام وأطفأ السراجَ لئلا يرى وجهَهُ، فذهب إليه هارونُ في الظلمة، فوقعتْ يدُه على يد الفُضيل، فقال الفضيل: ما ألينَ هذا الكف! لو نجا من النار. قال هذا الكلام، وقامَ واشتغلَ بالصلاة، فتغيَّرَ هارون، وغلبَ عليه البكاء، ثم لمّا سلّم الفُضيل، قيل له: تكلّم مع أمير المؤمنين. قال: جدُّك كان عمَّ النبيِّ ﷺ، طلبَ من النبيِّ عليه السلام أن يجعلَهُ أميرًا، قال رسول الله ﷺ: «طاعتُكَ لله تعالى لحظةً خيرٌ لك من طاعة الناس لك ألفَ سنةٍ؛ إن الإمارة يومَ القيامة ندامةٌ»[٢]. قال هارون: زدنا. قال: لمّا ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافةَ دعا عنده سالم بن عبد الله، ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب، وقال: إنّي ابتُليتُ بهذه البلية، فكيف يكونُ تدبيري؟ فإنّ هذه بليةٌ عظيمة، وإن عدَّها الناسُ نعمة. فقالوا له: إن أردتَ النجاةَ يومَ القيامة من عذاب الله تعالى فأقمْ كلاً من شيوخ أهلِ الإسلام مقامَ أبيك، والشبابَ منهم مقامَ إخوانك، والأطفالَ منهم مقام أولادك؛ فإنّ بيضةَ الإسلام كلَّها كبيتٍ واحدة، وهي لك، وسكّانُها عيالك، فزرْ أباك، وأكرم أخاك، وأحسنْ إلى أولادك. ثم قال الفُضيل: إنّي أخافُ أن يحترقَ هذا الوجه الصبيحَ بالنار، فخفْ من الله تعالى، وتهيَّأْ للجواب، وانتبه؛ فإنّ الله تعالى يُقيمك يومَ القيامة مع كلِّ واحدٍ واحدٍ ممن هو تحت حُكمك دفعةً دفعةً، ويسألُك عنهم، ويَنتصفُ للمظلوم من الظالم، حتى أنه لو باتتِ امرأةٌ عجوزٌ في بيتها نوبةً جائعةً، تتعلّق بذيلك يوم القيامة، وتُخاصمُكَ. فلمّا سمعَ هارونُ من الفُضيل هذا، بكى إلى أن غُشي عليه، قال الحاجب: صَهْ يا شيخ؛ فإنَّكَ أهلكتَ أميرَ المؤمنين. قال الفُضيل: اسكتْ يا هامان؛ فإنّك أنت أهلكتَهُ،

---

(١) في (أ): أما بالإذن فلا، وإن كان بالحكم والقوة، فالحكم لكم.

(٢) لم أجد الحديث في المصادر التي بين يدي، وقد روى أحمد في المسند ٢/ ٤٤٨، والبخاري في صحيحه (٧١٤٨) في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، والنسائي ٧/ ١٦٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة».

وتقول لي إنك أهلكته. فازداد هارون بكاءً، وقال لحاجبه وهو الفَضل: قال لك يا هامان؛ لأنه جعلني فرعون. قال له: يا شيخ، هل عليك دينٌ؟ قال: نعم، عليَّ دينٌ واحدٌ، وهو طاعةُ الله تعالى، فإن وفّقني الله تعالى لأدائها فطوبى لي، وإلاّ فيا خجلتا. قال هارون: إني أسألك عن ديون الناس. قال: الشكرُ لله تعالى على أنَّ نعمَه كثيرةٌ عليَّ، وإني لا أشكو منه، إذ لا شكوى لي منه. فوضع عنده هارون صُرّةً فيها ألفُ دينار، وقال: هذا من الحلال، قد وصلَ إليَّ من مِيراث أمّي. قال الفضيل: يا أميرَ المؤمنين، ما نفعتك نصائحي، فإنَّك قصدتَ الظُّلم عليَّ؛ لأنّي أرشدتُكَ إلى النجاة، وأنت تُوقعني في البلاء. قال: كيف ذلك؟ قال الفُضيل: أنا أمرتُكَ بأن تردَّ كلَّ مالٍ إلى مالكه، وأنت تصرفه إلى غيره. وقام من عنده، ولم يقبل الصُّرّة، والله أعلم.

نقل أنه كان له ابنٌ صغير، هو ابن أربع سنين، فأخذه مرّةً في حجره وقبّله، كما هو دأبُ الآباء، قال له ابنه: تحبُّني؟ قال: نعم. قال: وهل تحبُّ الله تعالى؟ قال: نعم. قال: يا أبت، كم لك؟ قال: لي قلبٌ واحد. قال ابنه: كيف تحبُّ بقلبٍ واحدٍ شخصين ـ عرف أن هذا الكلام إنما كان من الحقِّ، ولكن جرى على لسانِ الابن، وكان في الحقيقة غيرةً من الله تعالى ـ فضربَ بيده على رأسه، وتابَ عن ذلك، وقطع قلبَهُ عن محبّة الولد وغيره ممّا سوى الله تعالى، وسلّم قلبَه لله تعالى.

نقل أنه كان واقفًا بعرفات، فنظرَ إلى ذلك الجمعِ الكثير ـ وهو في غاية التضرُّع والخضوع والبكاء ـ مُتوجّهون إلى الله تعالى، سائلون منه، واقفون بين يديه، فتعجَّبَ وقال: سبحان الله، لو أنّ مثلَ هذه الجماعة وقفوا قدّامَ شخصٍ، وسألوا منه مقدارَ درهمٍ أو أقلّ، ماذا يقول ذلك الشخص، هل يخيّبهم ويمنعهم عن ذلك؟ قالوا: لا، بل يعطيهم ولا يمنعهم. قال: فلا شكَّ في أنَّ الرحمةَ على هؤلاء أسهلُ عند الله تعالى، وأيسرُ عند الله من إعطائهم درهمًا[١]

(١) في (أ): وأيسر عليه من إعطاء درهم.

بالنسبة إلى ذلك الشخصِ، وأنه أكرم الأكرمين، وأرحمُ الأرحمين، فالرجاءُ أن يرحمهم جميعًا.

قيل له وهو في عرفات: كيف ترى هؤلاء الناس؟ قال: مرحومون، لو لم أكنْ أنا بينهم.

قيل: لأيِّ شيءٍ نحن لا نَرى الخائفين؟ قال: لو أنتم من الخائفين لرأيتم الخائفين؛ فإنَّ الخائفين لا يختفون على الخائفين.

أقول: وكما قيل:

وشبهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه[١]

والله أعلم.

وسئل: متى يصل الرجلُ إلى غايةِ محبَّةِ الله تعالى؟ قال: إذا كان المنعُ والإعطاءُ متساويَيْنِ عنده.

قيل: ما تقولُ في شخصٍ يُريد أن يقولَ لبيك، ولا يَستجري مخافةَ أن يُقال له لا لبيك؟ قال: إن من يحقِرُ نفسَه في ذلك المقام إلى هذا الحدِّ أرجو أن لا يكون أقربَ منه أحدٌ، أو أعلى منه في ذلك المقام شخصٌ.

قيل: أصلُ الدِّين ماذا؟ قال: العقل. قيل: أصلُ العقل ماذا؟ قال: الحلم. قيل: أصل الحلم ماذا؟ قال: الصبر[٢]

قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: مَنْ طلبَ الرياسة استحقرَ في أعين الناس، قال: قلت للفُضيل: أوصني. قال: كنْ ذنبًا، ولا تكنْ رأسًا، وهذا يكفيك.

أقول: وأنشد في هذا المعنى ما قيل[٣]:

---

(١) شطر بيت لغير ما شاعر، من أقدمهم المتنبي، فقد جعله صدر بيتٍ، عجزه: وأشبهنا بدنيانا الطغام. الديوان: ٤/ ١٩٢.

(٢) هذا الخبر ليس في (ب).

(٣) البيتان لمنصور بن إسماعيل التميمي المصري الضرير، معجم الأدباء ٦/ ٢٧٢٤.

الكلبُ أعلى منزلاً وهو النِّهايةُ في الخساسه
ممّن تصدّى للرِّياسةِ قبلَ أيام الرِّياسه

والله أعلم.

قال: بشر الحافي رحمه الله: سألتُ الفضيل رضي الله عنه: الزهدُ أفضل أم الرضا؟ قال: الرضا.

وقال أيضًا: ذهبتُ إلى الفضيل، وبتُّ عنده، وكنّا من المساء إلى الصباح مُشتغلين بالآيات والأخبار والآثار، فحين أصبحَ، وأردتُ الرواح، قلت: نعمت الليلة البارحة، كانت ليلةً مباركةً. قال: ولِمَ؟ قلتُ: لأنّا اشتغلنا بصحبةٍ طيّبةٍ، ومذاكرةٍ للآيات والأخبار والآثار. قال الفضيل: بئست الليلةُ هذه، وساءت. قلت: لأيِّ شيء؟ قال: لأنّك كنتَ تجتهدُ في أن تقولَ كلامًا حسنًا ليُعجبني، وأنا أيضًا كنتُ مُجتهدًا في أن أقولَ في جوابك كلامًا يُعجبُكَ، وتركنا ذكر الله تعالى، فالأصل إنّما العزلةُ والخلوة لا الصحبة.

قيل: روى الفضيلُ أنَّ عبد الله بن المباركِ جاءَ إليه فصاح، وقال: ارجع من ذلك الموضع؛ فإنك تجيء لتكيلَ عليَّ، وأكيلَ عليك من الكلام.

ونقل أن شخصًا من الأكابر قصده، وجاء إليه قال: لأيِّ شيء جئت إليَّ؟ قال: استئناسًا بك واستراحةً في صحبتك. قال: ارجعْ من مكانك؛ فإنّي أتمنّى أن أصيرَ مريضًا ليكونَ لي رخصةٌ في ترك الجماعة، ولا أُخالط أحدًا، ولا أَرى شخصًا.

قال: إن استطعتُم فاسكنوا موضعًا لا ترون أحدًا ولا يراكم أحد؛ فإنه شغلٌ عظيم.

قال: أقبل منّةً عظيمةً ممّن يمرُّ بي ولا يسلّمُ عليَّ، وإذا مرضتُ فلا يعودني.

أقول: والسرُّ في ذلك ما قال هو: إذا أُمسي أفرحُ، إذ يكون لي مع الله تعالى خلوةٌ بلا تفرقةٍ، وإذا أُصبحُ يحصلُ لي حزنٌ؛ كراهةَ أن أرى الناسَ وأخالطَهم،

ويجيئوا إلي ويُشوّشون عليَّ حالي. [والله أعلم].

قال: مَنِ استوحشَ الخلوة، وأستأنسَ بالخلق، فهو بعيدٌ من السلامة.

وقال: من خاف من الله تعالى يخرسُ لسانُه، مصداقُهُ قولُ من قال: مَنْ عرفَ الله كَلَّ لسانه[1].

وقال: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه بمصائبَ، وسلَّطَ عليه أحزانًا، وإذا أبغضَ أحدًا وسَّع عليه الدنيا.

وقال: إن بكى ذو حُزنٍ بين الأمة، يُمكنُ أن يرحمَ جميعَ الأمة بسببه.

وقال: لكلِّ شيءٍ زكاةٌ، وزكاة العقل الحزنُ الطويل.

وقال: كما أنّ من العجب أن يَدخلَ أحدٌ في الجنة ويبكي، كذلك أَعجبُ منه أن يكونَ أحدٌ في الدنيا ويضحك، ولا يدري عاقبةَ أمره.

وقال: خمسٌ من علامات الشقاوة: جمودُ العين، وقساوةُ القلب، وقلّة الحياء، والرغبةُ في الدنيا، وطولُ الأمل.

وقال: إذا استولى الخوفُ على قلبٍ لا يجري على اللسان ما يضرّه، وتحترق من ذلك الخوفِ منازلُ الشهوة، وحبُّ الدنيا، ويزيلُ من القلب رغبةَ الدنيا.

وقال: من خافَ من الله خافَهُ كلُّ شيء، ومن خاف غيرَ الله لم يخفْ منه شيءٌ، وهو يخافُ كلَّ شيء

وقال: خوفُ العبدِ من الله على مقدار علمه بالآخرة.

وقال: إن أعطيتموني الدنيا كلَّها على وجهٍ يكون عليَّ حلالاً، ثم حاسبتموني عليها لكان لي منها عار، كما يكون لأحدِكم من جيفة

وقال: جُمِعَ الشرُ كلُّه في بيتٍ مُقفل، وجُعل مفتاحُهُ حبَّ الدنيا، وكذلك الخيرُ كلُّه جُمع في بيت مقفول، وجُعل مفتاحُهُ بغضَ الدنيا.

---

(١) نُسب هذا القول إلى النبيِّ ﷺ. قال الإمام النووي: ليس بثابت. انظر كتاب المصنوع (٣٤٨) لعلي بن سلطان القاري. صفحة ١٧٣، ٢١٧، ٢٣٥ من كتابنا هذا.

وقال: الدخول في الدنيا سهل هيِّنٌ، ولكنَّ الخروج منها أمرٌ شديدٌ صعب

وقال: الدنيا كأنها مارستان، والخلقُ فيها كالمجانين، والمجنون لا بدَّ له من غِلٍّ وسلسلة

وقال: بالله، لو كانتِ الآخرةُ من خزفٍ باق، والدنيا من ذهبٍ فانٍ، لكان الأولى بالعاقل أن يطلبَ الخزفَ الباقي، ويَجتنبَ من الذهب الفاني، فكيف والأمر بالعكس!؟

وقال: ما أُعطي أحدٌ من الدنيا شيئًا إلاّ ونقصَ من آخرته مقداره ألفًا

قال: لأنَّ لك عند الله ما كسبتَ، فاكسبْ قليلاً أو كثيرًا

وقال: لا تستأنسْ بلذَّةِ الطعام(١) اللذيذ، والثيابِ الناعمة؛ فإنّهما لا يكونان لك ـ أي في القبر.

وقال: الناسُ إذا انقطعَ بعضُهم من البعض [بسبب التكلّف]، فإن تركوا التكلُّفَ، فالألفةُ بينهم سهلُ الحصول.

وسئل: ما التواضع؟ قال: هو الخضوعُ لله، وقبولُ أمره، والامتثال به

وقال: مَنْ عرفَ لنفسه همَّةً، فلا نصيبَ له من التواضع.

وقال: لا تَطلبوا ثلاثةَ أشياء؛ فإنّكم لا تجدونها: عالمًا يكون عملُهُ خيرًا من علمِهِ، وعاملاً يكون إخلاصُهُ مساويًا لعمله، وأخًا لا يكون مغتابًا ـ يعني هذه الثلاثة قليلٌ جدًا، لا تتعبوا في طلبها.

وقال: من أظهرَ بلسانه مع أخيه في الإسلامِ المحبّةِ، وأضمر في قلبه عداوةً لعنَهُ الله تعالى، وجعل قلبه أصمَّ أخرس.

وقال: تركُ العمل للخلق رياء، والعملُ للخلق شركٌ، والإخلاصُ أن يقيكَ الله تعالى منهما

(١) في (أ): لا تستأنسوا بلذّة الطعام.

وقال: لو أنّي حلفتُ على أنّي مُراءٍ لكان أسهلَ عندي من أن أحلفَ على أنّي لستُ بمراءٍ

وقال: أصلُ الزهد هو الرِّضا بجميعِ ما يفعل الله، وأوْلى الناسِ بالرِّضا أهلُ المعرفة

وقال: الفتوّةُ العفو عن الإخوان.

وقال: حقيقةُ التوكّلِ أن تقطعَ أملَكَ من غيرِ الله تعالى، ولا تخافَ من غيره.

وقال: المتوكّلُ من يكون واثقًا بالله، لا من اتَّهمَ اللهَ في أفعاله، واشتكى منه، بل يكونُ باطنُه موافقًا لظاهره في التَّسليم والرضا.

وقال: إذا قيل لك: تحبُ الله؟ فاسكتْ، لأنَّك إن قلت لا، كفرتَ، وإن قلتَ نعم، كذبتَ؛ لأنَّ أفعالك ليست أفعال المُحبّين.

وقال: أَستحي من الله تعالى لكثرةِ دخولي في المستراح لقضاء الحاجة، والحالُ أنّه ما كانَ يدخلُ إلاّ في كلِّ ثلاثةِ أيامٍ مرّةً.

وقال: كم من رجلٍ يدخلُ في المستراح، ويخرجُ طاهرًا. وكم من رجلٍ يدخل الكعبةَ طاهرًا ويخرج نجسًا!

وقال: المخاصمةُ مع العاقل خيرٌ من أكلِ الحلواء مع الجاهل.

وقال: من تبسَّمَ في وجه فاسقٍ من طيب النفس، فكأنّما سعى في هدم الإسلام.

وقال: من لعنَ دابّةً، تقولُ الدابة: آمين، وعلى من عصى ربّه منّي ومنك

وقال: لو أُخبرتُ بأن لي دعاءً واحدًا مُستجابًا لصرفتُهُ في حقِّ السُّلطان لا في حقِّ نفسي؛ لأنَّ في صلاحِ السلطان صلاحَ عالَمٍ، وليس في صلاحي سوى صلاح نفسي.

وقال: خصلتان فيهما فسادُ القلب: كثرةُ الأكل، وكثرةُ النوم.

وقال: فيكم خصلتان من الجهل: الأولى تضحكون من غيرِ رؤيةِ شيءٍ عجيبٍ، وتنصحون الناس من غير سهرٍ في ليلةٍ بتمامها.

قال: قال الله تعالى: يا بن آدم، إن ذكرتني ذكرتك، وإن نسيتني نسيتك، وفي الساعة التي لا تذكرني تكون عليك لا لك، فانظر ماذا تفعل.

وقال: أوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه[١]: بشّرِ المذنبين إن تابوا أقبلُ منهم توبتَهم، وأنذرِ الصدّيقين فإنّي إن عاملتهم بالعدلِ عاقبتُهم جميعًا.

وقيل: جاء إليه رجلٌ من إخوانه، والتمس منه نصيحةً، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقيل: كان له ابنٌ، واحتبسَ بولُه في بعض الأيام، فقال: إلهي، بمحبَّتي إيّاك اشْفِهِ، فلم يقم من مقامه إلاّ بعد أن شفاه الله تعالى

وكان يقول: إلهي، جعلتني جائعًا مع عيالي، وجعلتني عاريًا مع أهلي وعيالي، وما أعطيتني ضوءًا بالليل، وليس هذا إلاّ علامةَ أوليائك، فمن أين حصل لي هذا المقام؟ وبِمَ نالَ الفُضيل هذه الدرجة؟

ونقل أنه ما تبسَّمَ ثلاثين سنة إلاّ حين تُوفّي ابنٌ له[٢] فتبسّم، فقيل له: وما هذا التبسُّمُ يا شيخ؟ قال: لأنَّ موتَ ابني من رضاء الله تعالى، وتبسّمتُ موافقةً لرضاء الله تعالى

وكان يقول في آخر أمره: إنّي لا أغبطُ الأنبياء؛ فإنَّ لهم لحدًا وقيامةً، ويعبرونَ على الصراط، ويقولون: «نفسي نفسي»[٣] ولا أَغبطُ الملائكةَ أيضًا

---

(١) في (أ): أوصى الله إلى بعض أنبيائه.

(٢) هو علي بن الفضيل كان زاهدًا ورعًا تقيًا ثقةً. انظر ترجمته في طبقات الصوفية للمُناوي ١/ ٣٧٦.

(٣) قول الأنبياء عليهم السلام: «نفسي نفسي» جزء من حديث الحشر يوم القيامة الذي رواه البخاري (٧٥١٠) في التوحيد، باب كلام الربِّ عزّ وجلّ يوم القيامة مع الأنبياء، ومسلم (١٩٣) في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

في خوفهم، وإن كان خوفُهم أكثرَ من خوف ابن آدم، إذ ليس لهم عشق، وهذا أمرٌ يوجدُ في الإنسان، ولكن أغبطُ وأحسدُ من لم يوجد، ولا يصير موجودًا

وحكي أنّه لمّا حضرته الوفاةُ، وكانت له بنتان وامرأة، أوصى المرأة، وقال لها: أمسكي بعد وفاتي بيد بناتي واصعدي بهما جبل أَبي قُبَيْس[1]، وادعي الله تعالى، وقولي: قال زوجي: أتعهَّدُ وأُداري هذه الصغار الضعفاء ما عشتُ بتوفيقِكَ، فلمّا تَوفّيتني فأمورهُنَّ إليك. فامتثلت أمره، وفعلت ما أَوصى، وصعدت الجبلَ بالبنتين، وناجت ربَّها تعالى، وقالت ما أمرها أن تقولَ، وبكت، وتضرَّعَتْ، فهي في تلك الحالة إذ جاءَ أميرُ اليمن، ومعه ابنان له، واستخبرَ عن أحوالهنَّ، فلمّا عرفَ الحال، قال: زوّجي بنتيك من ابنيَّ كلاً بعشرة آلاف دينار صداقًا. فرضيَتْ، وعقدوا النكاح، وأعطاهما الملك ما يليق به من الملابس الفاخرة، والفُرشِ الغالية، وذهب بهما إلى اليمن. من كان لله كان الله له.

قال عبد الله بن المبارك: لمّا تُوفّي الفُضيل رحمه الله ارتفعَ الحُزنُ من القلوب؛ لأن أحوالَهُ وأفعاله وأقواله كانت سببًا لوقوع الحزنِ في القلوب.

اللهم ارزقنا بفضلِكَ من أحوالهم، وانفعنا بكرمك من أقوالهم، واستعملنا بلطفك بمثل أعمالهم يا كريم يا رحيم.

* * *

(١) جبل أبي قُبَيْس: جبل بمكة، سُمّي برجلٍ من مذحجٍ حدّادٍ، لأنه أول من بنى فيه، وكان يُسمّى الأمين، لأن الركن كان مستودعًا فيه. القاموس.

(١١) إبراهيم بن أدهم(١)

ذكر إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه:

كان إبراهيم رحمه الله متعيّنًا في وقته، صدّيقًا في زمانه، حجّةً وبرهانًا في دورانه، وله في أنواع معاملات الحقائق حظٌّ تامٌّ، ونفعٌ عامٌّ، مقبولاً بين الأنام من الخواصّ والعوامّ.

ولقي جماعةً من المشايخ، وصحب أبا حنيفة.

وقال الجنيد رحمه الله: مفاتيحُ هذه العلوم إبراهيم.

دخل على أبي حنيفة يومًا، ونظر إليه الأصحابُ بنظر الحقارةِ، فقال أبو حنيفة رحمه الله: هو سيّدُنا. فقيل: وبأيِّ شيءٍ بلغَ هذا المقام؟ قال: لأنَّه مشغولٌ بخدمة ربِّه، وأنتم بخدمة أبدانكم.

وكان من قصّته أنه كان مَلكًا في مدينة بلخ إحدى مدن خراسان، وكان طرفٌ من العالم تحت حُكمه، وكان إذا ركبَ تقدّم قدّامَهُ ويُؤتى خلفه أربعون دبُّوسًا من الذهب.

قيل: كان نائمًا على سريرِ السلطنة، فاهتزَّ السقفُ كأن شخصًا يدورُ عليه،

(١) التاريخ الكبير ١/ ٢٧٣، طبقات الصوفية ٢٧، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، و٨/ ٣، الرسالة القشيرية ٣٥، مناقب الأبرار ٢٢، صفة الصفوة ٤/ ١٥٢، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢١٢، الأنساب ٢/ ٢٨٤، مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٧، تهذيب الكمال ٢/ ٢٧، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، مرآة الجنان ١/ ٣٤٩، الوافي بالوفيات ٥/ ٣١٨، فوات الوفيات ١/ ١٣، البداية والنهاية ١٠/ ١٣٥، طبقات الأولياء ٥، نفحات الأنس ٦٠، تهذيب التهذيب ١/ ١٠٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٩، الكواكب الدرية ١/ ١٩٥، شذرات الذهب ١/ ٢٥٥.

فصاح عليه، وقال: من أنت؟ قال شخصٌ من السقف[١]: إنّي رجلٌ قد ضاعَ لي جملٌ، فأطلبُهُ. قال إبراهيم: يا جاهل، كيف تطلبُ البعيرَ على السقف؟ قال الشخص: يا غافل، وأنت كيف تطلبُ اللهَ تعالى على السرير، وفي الفراش الحرير؟ فهابه ذلك[٢] الكلام، ووقع في قلبه حريقٌ، وما نام باقي الليلة، فلمّا أَصبح جلس على سريره متفكّرًا متحيّرًا، واجتمع عليه أركانُ دولته، وجلس كلٌّ في مكانه، واطمأنَّ المجلسُ بهم، وقام الغلمانُ والمماليك صفوفًا بين يديه، إذ دخل عليه رجلٌ في غاية المهابة، حتى لم يقدرْ أحدٌ من الحاضرين أن يقول له: من أنت؟ ومن أين تجيء؟ وعبر إلى إبراهيم، ووقفَ بين يديه عند سريره، فقال له إبراهيم: ماذا تريد؟ قال: أريدُ أن أنزلَ في هذا الرباط. قال إبراهيم: أنت مجنون! ليس هذا رباطًا؛ بل هو بيتي. قال الرجل: هذا قبلَكَ لِمَنْ كان؟ قال: لأبي. قال: وقبله؟ قال: لجدّي. قال: وقبله؟ قال: لفلان. وقال: وأين هم؟ قال: ماتوا ومضوا. قال: أو ليس الرِّباط كذلك يجيء شخص ويذهب آخر؟ قال هذا الكلام وغاب عنهم ـ قيل: هذا كان الخضر عليه السلام ـ فازداد إبراهيمُ رحمه الله حزنًا على حزنٍ، وغمًّا على غمٍّ، ثم ركبَ وقصد إلى الصيد، وقال: قد وصلَ إليَّ اليوم شيءٌ، ولا أدري كيف يكون مآلُه؟ فركب ودخلَ الصحراءَ، وكان يتردّدُ هائمًا تائهًا، لا يدري أين يروح، وماذا يفعل، ووقعَ من العسكر في ناحيةٍ مُنفردًا حتى سمعَ صوتًا يقول له شخصٌ: انتبه. فتغافلَ عنه، فسمع ثانيًا، فتغافل عنه، ثم سمع ثالثًا، فعبر من ذلك، فسمع رابعًا: انتبه قبل أن تنبَّه. فتحيَّرَ إبراهيمُ رحمه الله، وازداد تحيُّرُهُ إلى أن ظهرَ قدّامه غزالٌ، أراد أن يقصدَهُ، فأنطقَ اللهُ الغزال، وقال: أرسلوني لأن أصيدَكَ؛ فأنت لا تقدرُ على أن تصيدني، ثم سمع من قَرَبُوسَيِ[٣] السرج: يا إبراهيم، ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أُمرتَ. فأعرضَ عن الغزال، وازدادَ قلقُهُ وشوقُه، ولمّا أرادَ أن يتمَّ

---

(١) في (أ): شخص في السطح.

(٢) في (ب): فهابه ذكر الكلام.

(٣) القَرَبوس: حِنْو السَّرج، أي قسمةُ المقوّس المرتفع من قدّام المقعد، ومن مؤخّره.

أمرَه سمعَ مثل ذلك الصوت في جيبه، وانفتح على قلبه بابُ أسرار المُلك والملكوت[١]، وتابَ إلى الله تعالى توبةً نصوحًا، ونزل عن الفرس، وتوجَّهَ إلى جانبٍ، وذهب حتى وصلَ إلى راعي أغنامٍ له، وكان عليه لبّادٌ، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ من الصوف، فإذا هو من مماليكه وغلمانه، فأعطاه ما كان عليه من الثياب الفاخرة، والتاجَ المُعرَّق، ووهبَ له جميعَ تلك الأغنام، وأخذَ منه اللَّباد وقلنسوةَ الصوف، فتعجَّبَ من حاله جميعُ مَنْ في عالم الملكوت؛ إذ هو خلعَ عنه الثيابَ النجسة المُزخرفة الدنيوية، ووضعَ على رأسه تاجَ الفقر، ولبسَ حلّته.

وكان يدورُ في الجبال والصحارى مُتولِّهًا متحيِّرًا، ويبكي على جرائمه وذنوبه وينوح، حتى وصل إلى مدينة تُسمّى مَرو الرُّوذ[٢]، وكان هناك جسرٌ على نهرٍ، فلمّا وصلَ إبراهيمُ إلى الجسر، وأرادَ أن يعبرَ، رأى رجلاً قد وقع من الجسر، فقال إبراهيم: اللهم احفظْهُ. فالله تعالى حفظه وأوقفَهُ في الهواء، حتى ذهبَ إليه جماعةٌ وأمسكوه، وتعجّبوا من حال إبراهيم.

ثم رحلَ إلى نيسابور، وطلبَ موضعًا خاليًا ليشتغل بعبادة الله تعالى، فأرشدَهُ اللهُ تعالى إلى مغارةٍ هناك مشهورةٍ، فسكنَ فيها تسع سنين، والله تعالى يعلم بأحواله وطاعاته وعباداته في تلك المغارة ليلاً ونهارًا.

وكان يصعدُ الجبلَ يوم الخميس، ويجمعُ حملاً من الحطب، وينزلُ به غداة يوم الجمعةِ ويبيعه، ويشتري بثمنه ما يسدُّ جوعتَهُ من القوت، ويفرّقُ نصفَ ذلك على الفقراء والمساكين، ويذهبُ بالنصفِ الآخر إلى المغارة، وكان يصوم ويُفطر على ذلك الطعام، ويقنع به إلى الجمعة الأخرى.

نقل أنه كان في تلك المغارة ليلةً من ليال الشتاء، وكانت في غايةِ البرودة، وقد حصلَ له احتياجٌ إلى الغُسل، فاغتسلَ بالماء البارد من الساقية بعد أن كسرَ

---

(١) في (ب): أسرار الملك والسلطنة.

(٢) مرو الرُّوذ: مدينة قريبة من مرو، بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم، فلهذا سميّت بذلك. فالروذ بالفارسية النهر. انظر معجم البلدان.

الجمدَ ودخل فيه، وبردَ برودةً عظيمةً إلى وقت السحر، وكادَ أن يهلكَ، وكان يشتهي دفئًا أو نارًا[١]، فهو في ذلك الحال إذ رأى فروةً على جسده، وذهبَتْ عنه البرودة، ونعست عيناه إلى طلوع الشمس، فلمّا أضاء العالمُ نظر فإذا الفروة التي لبسَها تنينًا عظيمًا مهيبًا، وكلٌّ من عينيه كأنَّها قصعةٌ مملوءةٌ من الدم، فهابَهُ وقال: إلهي، أرسلتَ إليَّ هذا في صورة اللطف، وأراه الساعةَ في صورة القهرِ ولا أطيقه، فذهبَ التنينُ في الحال بعد أن تمرَّغَ لديه في التراب وغاب.

ونقل أنه حين اطَّلَع عليه الناس، فرَّ من المغارة، وقصدَ مكّة شرّفها الله تعالى وعظَّمها، وبعد زمانٍ كثير دخلَ الشيخ أبو سعيد المَيْهَني[٢] رحمه الله في تلك المغارة، وقال: سبحان الله، لو كانت هذه المغارةُ مملوءةً من المسك ما فاحَتْ مثلَ ما تفوحُ الآن بسبب عبادة فتًى فيها، فكأنَّها امتلأتْ رَوْحًا وراحةً.

وقصدَ إبراهيم الباديةَ من خوفِ الشُّهرة، ووصلَ إليه شخصٌ من أكابر الدِّين، وعلّمه اسمَ الله الأعظم، وهو كان يذكرُ اللهَ تعالى، ويدعوه بذلك الاسم، فلقي الخضرَ عليه السلام، فقال له: يا إبراهيم، كان أخي إلياس الذي علّمكَ الاسم الأعظم. ثم جرى بينه وبين الخضر محادثاتٌ ومكالماتٌ كثيرة.

وكان شيخُهُ الخضرَ، فإنه أرشدَهُ أولَ الأمرِ كما مرَّ بإذن الله تعالى.

وقال: حين كنتُ متوجِّهًا إلى بيت الله تعالى الحرام، وصلتُ إلى ذات العرق[٣]، وجدتُ هناك سبعين إنسانًا عليهم المرقعات، ماتوا كلُّهم، والدمُ يجري من أفواههم وآذانهم، فدرتُ حولهم، فإذا في واحدٍ منهم رمقٌ من الحياة، قلتُ له: ما هذه الحالةُ يا فتى؟ قال: يا بن آدم، عليك بالماء والمحراب لا تبعدْ منه غايةَ البُعد لئلا تُهجر، ولا تقربْ أيضًا غايةَ القُرب لئلا تتعب، لا ينبغي لأحدٍ أن يجترئَ ويتهجَّمَ على بساطِ السلاطين، افزع ممّن

---

(١) في (ب): يشتهي دفءًا نارًا.

(٢) في الأصل: أبو سعيد المهنوي. وانظر ترجمته صفحة ٧٤٩.

(٣) ذات عرق: مَهَلُّ أهلِ العراق، وهو الحدُّ الفاصل بين نجد وتهامة. وقيل: عرق جبل بطريق مكة، ومنه ذات عرق. معجم البلدان (عرق).

يقتلُ أولياءَه وأحبّاءَه الحُجّاجَ له مثلَ قتلِ كفّار الروم في الغزوات، افزعْ من غنيٍّ يقتل بسيف الاستغناء جماعةَ المسلمين كما تشاهد. ثم قال: كنّا جماعةً من الصوفية، قصدنا أن ندخلَ الباديةَ على طريق التوكُّلِ، وعزمنا أن لا نكلّمَ أحدًا، ولا يكونَ لنا فكرٌ ولا ذكرٌ غيرَ الله، ولا حركةٌ ولا سكونٌ إلاّ له تعالى، ولا نلتفتُ إلى غيره، فقطعنا البادية، فلمّا وصلنا[1] إلى ميقاتِ الإحرام استقبلنا الخَضرُ عليه السلام، ففرحنا به، وقلنا: الحمدُ لله الذي جعلَ سفرنا مُباركًا، ووصل الطالبُ إلى المطلوب، فإنه استقبلنا شخصٌ مثلُ الخضر عليه السلام. فنُودينا في أرواحنا: يا جماعة المُتكلّين المُدَّعين، أما كان شرطُكم وعهدُكم[2] أن تنسوا غيري لا تلتفتوا إلى سواي، فاشتغلتم الآن بغيري، حقًّا عليَّ أن أُريقَ دماءكم بسيف الغيرة، وأهلكَكُم في البادية، ثم أصالحُ معكم، فالفتيانُ الذين تراهم كلُّهم هم المعاتبون بهذا العتاب، يا بن أدهم، فإن كنتَ أهلاً فادخلْ في هذا الطريق، وإلاّ فأخرجْ نفسَك منهم. فتحيّر إبراهيمُ من هذا الشأنِ العظيم، ثم سأل من هذا الشخص: كيف أنتَ باقٍ فيما بينهم؟ قال: قيل لي: إنّك ما وصلتَ بعدُ إلى مراتبهم، وأنت نيءٌ حتّى تنضجَ، فإذا نضجتَ نُدخلُكَ في دائرتهم. قال هذا الكلام، وتُوفّي إلى رحمة الله تعالى

نقل أنه رحمه الله قطعَ البادية أربع عشرة سنة بالصلاة والخضوع والخشوع إلى أن وصل إلى قريبٍ من مكّة، وشيوخُ حرمِ مكّة شرّفها الله تعالى علموا بمقدمه، فاستقبلوه، وهو خرجَ من القافلة لئلا يعرفَهُ الناس، فوصل إليه بعضُ خدّامِ الشيوخ، وقال له: إبراهيمُ بنُ أدهم قريب؟ فإنَّ مشايخَ الحرم الشريف خرجوا استقبالاً له. فقال إبراهيم: وما يطلبون من ذلك الزنديق؟ فصفعه الخادمُ. وقال: بل أنت زنديق، مَنْ يستقبلُه مشايخُ الحرم كيف يكون زنديقًا؟ فلمّا عبروا عنه، قال في نفسه: أردتَ استقبالَ المشايخ، فقيل لك: زنديق، وصُفعت، الحمد لله على أن رأيتك بمرادي.

---

(١) في (ب): ووصلنا.

(٢) في (ب): شرطكم ووعدكم.

ثم دخل مكّة شرّفها الله تعالى، وسكنَ بها، وكان يتقوّتُ من كسبِ يده، وكان كسبه من الحصد، وحفظ[1] البساتين وغيره.

ونقل أنه لمّا خرج من بلخ قد بقي له ابنٌ رضيع، فكبرَ وسألَ من أُمّه أحوالَ أبيه، وكان يطلبُهُ ويشتاقُ إليه، وأمُّه كانت تقصُّ عليه حكايته، وما جرى عليه، وقالت: الحاصلُ أنّه ضاعَ أبوك مدّةً، ثم سمعنا أنّه ساكنٌ بمكّة شرّفها الله تعالى. فابنه قصدَ زيارة الكعبة، ونادى في مدينة بلخ: إنّ من يريدُ الحجَّ فليتهيّأ للرواح إليها. فجاء إليه أربع مئة، فأعطى الجميعَ الزادَ والراحلة وسائرَ ما يحتاجون إليه في الطريق؛ لعلّه يصلُ إلى أبيه بعد طولِ الانتظار، فدخلَ مكّة، وجاء إلى باب المسجد، والتقى بجماعةٍ لبسوا المرقعة، فسأل منهم: هل تعرفون إبراهيم بن أدهم؟ قالوا: نعم، وله علينا حقُّ النعمة؛ ولكن قد ذهبَ لطلب الطعام. فخرج ابنُهُ إلى البطحاء[2] في طلبه، فرآه حافيًا، وقد حمل حطبًا، غلبَهُ البكاءُ، ولكن اختفى عنه، وأمسك نفسَه وتبعَهُ[3]، فدخل السوق، ويقول: من يشتري الطَّيِّبَ بالطيِّب؟ ـ أي الحلال بالحلال ـ فاشترى منه رجلٌ خبّاز بخبيزات، وذهب بها إلى أصحابه، وخافَ إن يُظهرَ نفسه عليه أن يفرَّ منه، فذهب إلى أمِّه ليدبِّر معها أنه كيف يلتقي به، فأمرته أمُّه بالصبرِ إلى تمامِ الحجِّ، وإبراهيم رحمه الله وصّى أصحابَه، وقال لهم: لا تنظروا إلى وجوهِ الصبيان والنساء في الطواف. فلمّا شرعوا في الطواف، إذ رأى إبراهيمُ صبيًّا صبيحَ الوجه قد استقبله، فنظرَ إليه، فتعجَّبَ أصحابُه منه، وبعد الفراغِ من الطواف، قالوا له: رحمك الله، نهيتنا عن النظرِ إلى الصبيان والنساء، وأنت نظرتَ إلى صبيٍّ حسنِ الوجه مليح! قال: علمتم ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لمّا خرجتُ من بلخ[4] كان لي ابنٌ رضيع، ظنّي

---

(١) في (أ): من الحطب وحفظ.

(٢) بطحاء مكة: هي ما حاز السيل، من الردم إلى الحنّاطين يمينًا مع البيت. وليس الصفا من البطحاء. معجم ما استعجم ١/ ٢٥٧.

(٣) في (ب): وأمسك ريقه وبلعه.

(٤) في (ب): لمّا حضرت من بلخ.

أن الصبيَّ الذي نظرتُ إليه هو ابني. ففي اليوم الثاني ذهبَ شخصٌ من أصحابه طالبًا لقافلةِ بلخ، فصادفَ خيمةً من الديباج، وفيها كرسيٌّ، وذلك الصبيُّ جالسٌ عليه، وحولَ الخيمةِ جماعةٌ من مماليكه وغلمانه، وهو مشغولٌ بتلاوة القرآن ويبكي، فاستأذنَ الدخول عليه، فدخل وسلّمَ عليه، وقال: من أين أنتم؟ قال الصبيُّ: نحن من كورة بلخ. قال له: من أبوك؟ فبكى وطبق المصحف، وقال: ما رأيتُ أبي إلاّ الأمس، ولا أعلمُ أنّه أبي أم لا، وأخاف أن يفرَّ منّا؛ فإنّه هربَ منّا من زمان. قال: وما اسمه؟ قال: إبراهيم بن أدهم بن منصور. فذهب به الرجل إلى إبراهيم رحمه الله، وتبعته أُمُّه، وكان إبراهيمُ جالسًا مع أصحابه عند الركن اليماني، فرأته امرأتُهُ، وفني صبرُها، وصاحت وقالت: يا ولدي، هذا هو أبوك الذي فرَّ من أهله وولدِهِ وعياله وسلطنته وماله. وبكت، وبكى الصبيُّ والناس حتى ظهر فيهم ضجيجٌ، وغُشي على ابنه، ثم لمّا أفاقَ، سلّم على أبيه، فردَّ الجوابَ، وأجلسه في حِجْرِهِ، وقال: على أيِّ دين؟ قال: على دين الإسلام. قال: الحمدُ لله. قال: هل قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. قال: هل تعلَّمتَ شيئًا من العلم وآداب الإسلام(١)؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. فأراد إبراهيم أن يفارقَهم ويذهبَ من عندهم، وهو قد أمسكَ بذيل أبيه، وما كان يتركُهُ، فنظر إبراهيمُ إلى السماء، وقال: إلهي، أغثني. ففي الساعة توفّي ابنُه، وهو في حِجْره، فقيل له: كيف هذا الشأن؟ قال: لمّا أخذتُهُ في حِجْري، وتحرّكتْ محبّتُهُ في قلبي، نُودي في سرّي: يا إبراهيم، تدَّعي محبّتَنا، وتحبُّ معنا غيرَنا، وتُوصي أصحابَكَ أن لا يَنظروا إلى الصبيان والنساء، وأنتَ تعلَّقتَ بصبيٍّ وامرأةٍ! فدعوتُ الله تعالى وقلت: يا ربَّ العزة، أغثني، فإنْ شَغلتني محبّتُهُ عن محبّتك فأمتني أو أمته، فاستُجيبَ دُعائي في حقِّه. فإنِ اعترضَ على ذلك شخصٌ، فنقول: ليس هذا بأعجبَ وأغربَ من ذبحِ إبراهيم النبيِّ عليه السلام ولدَهُ البارَّ الكريم.

---

(١) في (أ): من العلم والأدب والإسلام.

أقول: وقد وردَ في بعضِ الأخبار أنَّ إبراهيم بنَ أدهم حيثُ شاهدَ هذا الحال أنشد هذين البيتين:

هجرتُ الناسَ طُرًّا في هَواكا ... وأيتمْتُ العيالَ لكي أراكا

فإنْ قطّعتني في الحُبِّ إرْبًا ... لَمَا حَنَّ الفُؤادُ إلى سِواكا

والله أعلم.

ونقل أنّه قالَ: كنتُ أطلبُ الفرصةَ في كثيرٍ من المواضع في الليالي حتى أجدَ الحرمَ خاليًا، وأسألَ الله تعالى حاجةً، حتى وافيتُ ليلةً ماطرةً مظلمةً، فطفتُ بالبيت، ثم تعلّقتُ بالحلقة، وطلبتُ من الله تعالى العصمةَ من الذنوب، نُوديت: يا إبراهيم، تسألُ العصمةَ[(١)]، والناسُ كلُّهم يطلبونها، فإنْ بذلتُ لهم ولك العصمةَ، فإين تذهبُ بحارُ مغفرتي ورحمتي؟ ثم قلتُ: اللهم، اغفرْ لي ذنوبي، نوديت ثانيًا: يا إبراهيم، اسألْ في هذا المقام للخلقِ لا لنفسك، واذكرِ الخلقَ ولا تذكرْ نفسك، واتركْها حتى يذكرَها غيرُكَ في حضرتنا.

وكان يقول في مناجاته: إلهي، الطبقاتُ الثمانية للجنة قليلةٌ عليك في جنب إكرامِك إيّاي، وفي جنب محبتّي إيّاكَ، وفي جنب أُنسي بذكرك، وفي جنب فراغي وقتَ تفكري فيك وفي عظمتك.

وقيل: وكان عامّةُ دعائه: اللهم، انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك.

وكان يقول: إلهي، من عرفَكَ فلم يعرفك، فكيف حالُ من لم يعرفك؟

نقل أنه قال: اجتهدتُ إحدى عشرة سنة[(٢)]، ثم سمعتُ نداءً: يا إبراهيم، كن عبدًا فاسترح - يعني: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

وسُئل: ما أصابك حتى تركتَ السلطنةَ والمملكةَ؟ قال: كنتُ جالسًا على السرير، جئتُ بمرآةٍ في حذاء قلبي، ونظرتُ فيها رأيت أن القبرَ منزلي، وليس

---

(١) في (ب): تشاء العصمة.

(٢) في (أ): اثنا عشر سنة.

فيه أنيس لي، ورأيتُ سفرًا طويلاً، وما كان لي زادٌ، ورأيتُ السلطنةَ عاجلةً ولا حجَّةَ لي، لا جرمَ بردَ فؤادي عليها.

قيل: لمَ هربتَ من خراسان؟ قال: لأنّه كثيرًا ما كان يُقال لي: كيف كنت البارحة؟ وكيف حالك؟

قيل له: لم لا تخطبُ امرأةً؟ قال: فلو طلعَ من يدي[1] لطلّقتُ نفسي، فكيف أُعلِّقُ غيري عليَّ؟

قال: الفقيرُ إذا تزّوجَ فقد جلسَ في السفينة، وإذا ولدَ له ولدٌ غرق.

نقل أنه رأى فقيرًا يَئِنُّ من الفقر، قال: لعلَّ الفقرَ حصل لك بلا ثمن؟ قال: وأنت اشتريتَ الفقر؟ قال: نعم، بملك بلخ، وبعدُ هو رخيص.

حكي أنه جاء إليه شخصٌ بألف درهم، قال: لا أقبل شيئًا من الفقراء. قال الشخصُ: أنا غنيٌّ. قال: تُريد أن يكون لك أكثرُ ممَّا في يدك؟ قال: نعم. قال: ارفعْ دراهمَك؛ فإنّكَ رئيسُ الفقراء.

وقال: أوحشُ المواضع عندي موضعٌ تعرفونني فيه؛ لأنَّ الناس إذا عرفوني فيه لا بدَّ أن أهرب.

وقال: نحن طلبنا الفقر فرُزقنا الغنى، وقومٌ طلبوا الغنى فرُزقوا الفقر.

قيل: جاء إليه شخصٌ بألفي درهم، فما قبل، وقال: تُريدُ أن تمحوَ اسمي من جريدة أسماء الفقراء بهذا القدر من الدراهم؟!

ونقل عنه إذا وردَ عليه واردٌ من الله تعالى كان يقول: أين الملوكُ حتى يَنظروا إلى هذا الشأن، ليحصلَ لهم عارٌ من ملكهم؟

قال: ليس بصادقٍ من طلب الشُّهرة.

وقال: الإخلاصُ صدقُ النيّة مع الله تعالى.

وقال: مَنْ لم يجدْ قلبَه حاضرًا في ثلاثة مواضع، فليعلمْ أنه علامةٌ على

(١) فلو طلع من يدي: أي لو استطعت.

انغلاق الباب عليه؛ الأول: وقتَ قراءة القرآن، والثاني: وقتَ الذكر، والثالث: إذا كان في الصلاة.

قال: علامةُ العارفُ أن يكون غائبًا عنه[١]، متفكّرًا في أكثر الأوقات، وأكثرُ كلامه المدحُ والثناء على الله تعالى، وأكثرُ أعماله الطاعات، وأكثرُ نظره في لطائف صُنع الله تعالى وقدرته.

وقال رأيتُ حَجَرًا في طريقٍ مكتوبًا عليه: اقلبْ واقرأ. قال: قلبتُ وقرأت، فإذا كتابته: إذا لم تعملْ بما تعلم[٢]، فكيف تطلبُ ما لا تعلم.

وقال: أشقُّ الأشياء على هذا الطريق مفارقةُ الكتاب، حيث أمروني بترك مطالعته.

وقال: أرجحُ الأعمالِ في ميزانك غدًا أنَّ هذا اليومَ ثقيلٌ عليك ـ أي بسبب الطاعة.

وقال: ينبغي أن يرتفعَ من قلب السالك ثلاثُ[٣] حُجبٍ لينفتحَ عليه بابُ السعادة؛ الأول: لو أُعطي الدنيا والآخرة على سبيل المُلك لما فرحَ به، لأنّه إن فرحَ بمخلوقٍ فهو حريصٌ بَعْدُ، والحريصُ محروم. والثاني: لو كان له مُلك الدنيا والآخرة وأُخذ منه لا يحزن به، فإنَّ الحُزن على ما فاتَ سخطٌ، والساخطُ مُعذَّبٌ. والثالث: أن لا ينخدعَ بمدحِ أحدٍ، فإنَّ مَنْ ينخدعُ بالمدحِ همَّتُهُ حقيرةٌ، وصاحبُ الهمَّةِ الحقيرة محجوبٌ، إذ ينبغي في هذا الطريق همَّةٌ عالية.

نقل عنه أنه قال لشخص: يُعجبك أن تكون من الأولياء؟ قال: نعم. قال: لا ترغبْ في الدنيا والآخرة مقدارَ ذرَّةٍ، وتوجَّه إلى الله تعالى بالكلّية، وأَفرغْ قلبَك عمّا سوى الله تعالى، وكُلْ من الحلال، وليس لك صيامٌ بالنهار، ولا قيامٌ بالليل[٤].

---

(١) أي غائبًا عن نفسه.

(٢) في (أ): مكتوبًا عليه: اقلبني انفعك. فقلبتُهُ، إذا عليه: أنت بما تعلم ما تعمل..

(٣) كذا في (أ) و(ب).

(٤) في المترجم المطبوع (٣٠١): وكل من الحلال، ولا حرج عليك ألا تقوم الليل أو تصوم النهار.

وقال: لا يبلغ أحدٌ نهايةَ صفاتِ الرجال بالصلاة والصيام والجهاد والحجِّ، ولكن يبلغُ بأن يريق في حَلْقِهِ الحلال.

قيل له: هنا شابٌّ صاحبُ وجدٍ، وله حالةٌ عظيمة، ورياضةٌ كثيرة. قال: اذهبوا بي إليه لأستكشفَ عن أحواله. فذهب إليه، ووقف عنده ثلاثةَ أيام، وراقب أحوالَه، فكانت أزيدَ ممّا سمعه وعلمَهُ، كان لا ينامُ بالليل، ولا يستريحُ لحظةً، فحصلَ لإبراهيم غيرةٌ، لأنه لا ينامُ لحظةً من الليل، ولنا فتورٌ، ولكن قال: استكشفُ من حاله، هل للشيطانِ فيه مدخلٌ أم لا، أم كلّها إخلاصٌ؟ فتفحَّصَ من أساسِ هذا الشأن، وهو اللُّقمةُ، فوجدها من الحلال، قال: سبحان الله، هذا ليس من الشيطان. ثم قال له الشيخ: يا فتى، كنتُ ضيفَك ثلاثةَ أيام، أنت أيضًا شرّفْنا[1] أيامًا. وأتى به إلى منزله، وأطعمه من طعامه الذي يطعم، فقلَّتْ حالاته وشوقُه، ولم يبقَ من عشقه أثرٌ، وزالتْ حرارتُهُ وحدّتُهُ وسهرُهُ وبكاؤه، فقال لإبراهيم: ما صنعت معي؟ قال إبراهيم رضي الله عنه: طعامُكَ ما كان من وجهٍ حلالٍ، والشيطانُ كان يدخل فيك، وينزلُ في جوفك مع الطعام، وكان يُريكَ ما كنت فيه[2]، ولمّا أكلتَ الحلال، واستنارَ باطنُكَ، وضاق مدخلُه، هربَ منك.

قيل إنه قال لسفيان: إنك مُحتاجٌ إلى قليلٍ من اليقين، وإن كان لك علمٌ كثير.

وأيضًا قال له: من عرفَ ما يطلبه هان عليه ما يجده.

نقل أنه قال له شقيق البلخي: يا شيخ، لمَ تفرُّ عن الخلق؟ قال: أخذت دِيني، وأفرُّ من مدينةٍ إلى مدينة، ومن جبلٍ إلى جبل، من رآني يظنُّ أنّي مجنونٌ أو صاحبُ وسواس، ولا أفعل ذلك إلاّ رجاءَ أن يسلمَ إيماني من الشيطان، وأعبرَ مع الإيمان عن بابِ الموت.

---

(١) في (أ): أنت شرفتنا.

(٢) في (أ): وكان يريد ما كنت فيه.

ونقل أنه كان يحصدُ في رمضان الحشيشَ بالأجرة، ويصرفُها على الفقراء، ويقومُ الليلَ كلَّه بالصلاة، ولا ينام، فقيل له: يا شيخُ، لمَ لا تنام؟ قال: لأنّي لا أخلو من البكاء، وكيف في عيني للنوم مجال؟!

وحكي أنّه كلّما كان يصلي يقول: أخاف من أن تُردَّ صلاتي إلى وجهي.

نقل أنه لم يجدْ يومًا ما يتقوَّتُ به، قال: إلهي، أُصلّي شكرًا لك مئةَ ركعة. ففي اليوم الثاني أيضًا لم يجد شيئًا، فصلّى مئة ركعة شكرًا، وكذلك في اليوم الثالث إلى السابع، فضعفَ حينئذٍ، وقال: إلهي، لا طاقةَ للقوّة الجسمانية أكثر من هذا، فإن ترزقني شيئًا فهذا وقته. فجاء إليه شابٌّ، وقال: هل لك حاجةٌ إلى طعام؟ قال: فذهب به إلى بيته، فلمّا نظرَ الشابُّ إلى وجه الشيخ صاحَ وقال: يا شيخ، أنا مملوكٌ لك، وما في يدي مالُكَ وملكُكَ. قال إبراهيم: أعتقتُكَ لله تعالى، ووهبتُ منك ما في يدك. واستأذن منه، وخرجَ من بيته وقال: إلهي، طلبتُ منك كُسيرَةَ خبزٍ ولقمةً من طعامٍ، أعطيتني الدنيا، وعهدتُ لا أسألُ منك شيئًا بعد هذا.

ونقل عن سهل أنه قال: سافرتُ مع إبراهيم بن أدهم رحمه الله، فاتّجعتُ، فصرفَ عليّ ما كان معه، ثم سألتُ منه يومًا شيئًا اشتهاه قلبي، وكان له حمارٌ كنتُ أركبُه في الطريق، باعه وصرفَ ثمنه عليَّ، فلمّا طبتُ قلتُ: يا شيخ، أين الحمار؟ قال: بعتُهُ. قلتُ: وأنا كيف أمشي؟ وليس لي طاقةُ المسير. قال: أَحملُكَ على عنقي. فحملني ثلاث مراحل.

نقل عن عطاء السُّلمي أنه قال: ما بقيَ لإبراهيم شيءٌ يتقوَّتُ به، فصبرَ أربعين يومًا، وأكلَ في هذه الأيام الطينَ، ولم يذكرْ حالَه لأحدٍ.

ونقل أنه حجَّ مرّاتٍ ماشيًا، ولم يستقِ الماء من زمزم، قال: لأنَّ الدلو المُتدلّي فيها اشتراه بعضُ خدّام السلطان.

نقل أنه كان يؤجّرُ نفسه، ويعملُ إلى المساء، ويأخذُ أجرتَه ويصرفُها في نفقة أصحابه، وكانوا لا يطعمون شيئًا إلاّ بعد صلاة المغرب، قال أصحابُهُ في

بعض الأيام: وهو يَتعوّقُ[1]، نحن نتعشّى ولا نتركُ له شيئًا؛ حتى يجيءَ بعد اليوم بالعجلةِ ولا يتأخر. فتعشّوا، وما أبقوا له شيئًا، فلمّا جاءَ صادفَ أصحابَهُ نيامًا، توهّمَ أنهم ما طعموا شيئًا، وكان معه قليلٌ من الطحين، فأشعلَ نارًا، وأرادَ أن يطبخَ لهم شيئًا يطعمونه ليكون لهم قوّةً على الصوم، فانتبهوا ورأوه مشغولاً بإشعال النار، وعيناه دامعة، وهو ينفخُ ويتعبُ نفسَه، قالوا: ماذا تعمل يا شيخ؟ قال: أطبخُ لكم طعامًا تأكلونه. فقالوا: سبحان الله، نحن ماذا فعلنا معَه حيثُ أكلنا، ولم نُبقِ له، وهو ماذا يفعل معنا!؟

نقل أنَّ من أرادَ الصُحبة معه، كان يشترطُ عليه أمورًا ثلاثة، الأول يخدمه هو لا الرفيق، وأن يكونَ المؤذن هو، وإن حصلَ له شيءٌ يكون بينهما.

نقل أن شخصًا ذا عيالٍ كان يذهبُ إلى بيته مساءً، ولم يحصل له شيءٌ ينفق عليه وعلى أهله وعياله، وكان مغمومًا محزونًا، فمرَّ في طريقه بإبراهيم رحمه الله، فالتقاه فارغ الخاطر، رخيَّ البال، فقال له ذلك الشخص: طُوبى لك يا إبراهيم، إذ ليس لك همٌّ ولا حزن. فقال إبراهيم: ما عملتُ من الطاعات والعبادات والحجِّ أُعطيكَ وأعطني أنتَ مالَكَ من الحزن.

ونقل أنّه صاحبَهُ شخصٌ مدّةً، ثم عند الارتحال قال له: يا شيخ، أخبرني بما رأيتَ فيَّ من العيب. قال له الشيخ: ما رأيتُ فيك شيئًا من العيب؛ لأنّي نظرت فيك بنظرِ الصداقة لا بنظرِ العداوة، فما وجدتُ فيك عيبًا؛ بل ما رأيتُ منك أعجبني كلُّه.

سأل منه المُعتصم: يا شيخ، هل تعرف صنعةً؟ قال: نعم، تركتُ الدنيا لطالبها، والعقبى لطالبِ العقبى، واخترت في الدُّنيا ذكرَ الله تعالى، وفي الآخرة لقاءه.

وسأل منه آخر عن صنعته، قال: ألا تعرفُ أن من يعملُ لله تعالى لا يحتاجُ إلى صنعة.

---

(١) وهو يتعوّق: وهو يتأخر.

نقل أنه قال له شخص: يا بخيل. قال: نعم، تركتُ مُلك بلخٍ، واخترتُ الفقر، وأنت تقول إني بخيل.

نقل أنَّ مُزيّنًا كان يُزيّنُ سباله، فعبر عليه هناك شخص من المريدين، قال له الشيخ: هل معك شيء؟ قال: نعم. ووضع عنده كيسًا من الذهب، فلمّا فرغَ المزينُ، أعطاه الشيخُ كيسَ الذهب، فجاء إلى المُزيّنِ سائلٌ، وأراد المُزيّنُ أن يُعطيه الكيسَ بتمامه، قال إبراهيم للمزين: فيه ذهب! قال المزين: علمتُ يا بخيل، الغنى غنى القلبِ لا غنى المال. فقال إبراهيم: ما استحييت قطُّ مثل ذلك اليوم، وما رأيت نفسي بمرادي إلاّ في ذلك اليوم.

قيل له: هل حصلَ لك سرورٌ مذ دخلتَ في الفقر، وسلكتَ هذا الطريق؟ قال: نعم مراتٍ:

مرةً كنت في سفينةٍ، وما كان يعرفني أحدٌ فيها، وكان عليَّ ثيابٌ خلقة، وطال شعر رأسي، وكان ركاب السفينة ينظرون إليَّ بالاستهزاء والتحقير، وكان فيها هزّالٌ، كان يُمسكُ كلَّ لحظةٍ بشعري، ويضحكون عليَّ، فحصل لي هناك فرحٌ وسرور، ووجدت نفسي حينئذ على مرادي، وفرحتُ بحقارتها، ثم اضطربتْ أمواجُ البحر، وكان الهلاك، وأرادَ الملاّحُ أن يطرحَ شخصًا في البحر ليُخَفِّفَ السفينة، فأمسكوني ليطرحوني في البحر، فسكنتِ الأمواجُ، واطمأنّتِ السفينة، ففرحتُ أيضًا حين أرادوا أن يطرحوني في البحر، فسكنتِ الأمواجُ واطمأنّتِ السفينة.

ونوبةً أخرى وصلتُ إلى مسجدٍ لأبيتَ فيه، وقد جئتُ هناك من السفر، وكنت تعبان، ولي ضعفٌ عظيم بحيث ما كنتُ أقدرُ على الحركة، فلمّا صلينا العشاء، وأراد المؤذنُ الرّواحَ إلى بيته، جاء إليَّ وأمرني بالخروج، وما كان لي طاقةٌ للخروج لكثرة الضعف، فأمسكَ برجلي، وجرّني إلى خارج المسجد، وكان للمسجد درجٌ، فانكسرَ رأسي في ثلاثةِ مواضع بسبب الوقوع على الدرج، وجرى الدم، ورأيتُ نفسي على مرادي، ولكن كلّما كنتُ أقعُ على

درجةٍ من درج المسجد كان ينكشفُ عليَّ سرُّ إقليم، فتمنّيتُ أن يكونَ الدرج أكثرَ ممّا كانت.

ونوبةً أخرى كنت في مكانٍ، وكان هناك رجلٌ هزّالٌ، كان يضحكُ عليَّ، ويبول عليَّ.

ونوبةً أخرى كان لي فروةٌ عتيقة مقطّعة، وفيها قملٌ كثيرة يؤذونني، تذكّرتُ ثيابي في الخزانة، وما كان لي من التنعّمِ واللذة، فسُررتُ بالحالِ التي كنت فيها من الفقر.

قال: رأيت مُتوكّلاً، فقلت له: من أين تأكل؟ قال: ليس عندي هذا العلم، سلْ من الرزّاق، ما لي شغلٌ بهذا الفضول.

قيل: إنه اشترى غلامًا، قال: ما اسمك؟ قال: ما تدعوني به. قال: أيَّ شيءٍ تأكل؟ قال: ما تُطعمني أطعم. قال: ما تلبس؟ قال: ما تُعطيني ألبس. قال: وماذا شغلُك وعملك؟ قال: ترسمُ وتأمرُ أعمل بتوفيق الله. قال: أليس لك اختيار؟ قال: أنا عبدٌ، وما للعبد اختيار. فبكيتُ حتى غُشي عليَّ، وقلتُ لنفسي: تعلّمي العبودية من هذا العبد.

قيل: إنه ما كان يجلسُ على هيئة التربيع قطُّ، فسُئلَ عن ذلك، قال: كنتُ مرّةً جالسًا مربّعًا إذ سمعتُ صوتًا: يا بن أدهم، المماليك كذا يجلسون بين يدي سيّدِهم؟! فتركتُ ذلك الجلوس، وعهدت أن لا أجلس على تلك الهيئة ما أعيش.

نقل أنه قيل له: أنت عبدٌ، فخرَّ على وجهه، وتقلّبَ على جنبيه، ثم قام، وقرأ هذه الآية: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فقيل له: لِمَ ما أجبت عن سؤال ذلك الشخص؟ قال: لأنّي خفتُ، لو قلتُ: عبد الله، فيقول: وأين القيامُ بحقوقِ العبودية؟ أو قلتُ: عبدٌ لغيره، لكان كفرًا، والعياذ بالله منه.

قيل له: كيف تمرُّ بك الأحوال؟ قال: هيّأتُ مركب الصبر، فإذا لقيني

مكروهٌ أركبُ عليه وأستقبله، ومركبَ الإخلاص أركبُ عليه وأستقبلُ الطاعات.

[وقال]: لا تدع أهلَك أرامل، وعيالك يتامى، ولا تنام في الليالي على التراب، لا تظننَّ أنَّك تَنزلُ في صفِّ الرجال.

نقل أنه قصدَ نوبةً صحبةَ جماعة من الصوفية، فما تركوه بينهم، وقالوا: نشتمُّ منك نتنَ السلطنة بعد.

قيل: لِمَ حُجبتِ القلوبُ عن الله تعالى؟ قال: لأنَّها تُحبُّ ما أبغضَ الله، وتفرحُ بالاشتغال باللهو واللعب في هذه الدار الفانية، وترك الدار الباقية، والحياة الدائمة التي لا انقطاع لها ولا نقصان.

قال له شخص: أوصني. فقال: اذكرِ الله، واتركِ الخلق.

وقال شخص آخر: أوصني. فقال: افتحِ المشدود، وشدَّ المفتوح. قال ذلك الشخص: لا أعلمُ معنى هذا الكلام. قال: افتح الكيسَ المشدود، واشددِ اللِّسانَ المفتوح.

قال: أحمد بن خضرويه: صادفَ إبراهيم رجلاً في الطواف، وقال له: لا تنالُ درجاتِ الصالحين إلا أن تعبرَ عن ستِّ عقبات: أن تفتحَ عليك بابَ المحنة، وتغلقَ باب النعمة. وتغلقَ باب العزِّ، وتفتح باب الذلِّ. وتغلقَ باب النوم، وتفتحَ باب السهر. وتغلقَ باب الغنى، وتفتح باب الفقر. وتغلق باب الأمل[1] وتفتح باب الاستعداد للموت. وتغلق باب العلم، وتفتح باب الجهل.

نقل أنَّه جاء إليه رجلٌ وقال: يا شيخ، إنِّي ظلمتُ نفسي ظُلمًا كثيرًا، فعلِّمني كلامًا أجعلهُ أمامي. فقال له إبراهيم: أُعلِّمُكَ خصالاً ستًّا، إن قبلتَها فما تعملُ بعدها لا يضرُّكَ:

الأولى إذا عمدتَ إلى معصيةٍ، فاخرجْ عن مُلك الله تعالى. قال الرجل: كيف يتيسَّرُ هذا؛ فإنَّ الدنيا من المشرقِ إلى المغرب، ومن الجنوبِ إلى

---

(١) في (ب): وتغلق باب الليل.

الشمال، ومن تحت الثرى إلى ما فوق العرش مُلكُ الله تعالى، فأين أخرجُ من مُلكه؟ وإلى أين أذهب؟ قال الشيخ: تسكنُ في مُلكه وتعصيه!

الثانية: إذا هممتَ بمعصيةٍ فلا تطلب منه الرزق. قال الرجل: هذا كيف يُتصوَّرُ؟ فإنَّ مَنْ في العالم العلوي والسُّفلي يأكلُ مِنْ رزقِهِ، ويتمتَّعُ بإحسانه وإنعامه. قال: تأكلُ ما يرزقك وتعصيه!

الثالثة: إذا قصدت عصيانَه، فاجتهد أن لا يراك الله، ولا ينظرَ إليك. قال الرجل: كيف؟ ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ويعلم همسات الضمائر، وسرائر الصدور، ويرى دبيبَ النملةِ السوداء على الصَّخرة الصمّاءِ في الليلة الظلماء. قال الشيخ: تسكنُ في مُلكه، وتأكل من إنعامه وإحسانه وتعصيه بحضرته!

الرابعة: إذا جاء إليك مَلكُ الموت ليقبضَ روحك، فاستمهلْ منه طرفةَ العين للتوبة. قال الشخص: ومتى يقبل مني؟ قال: إذا لم تقدرْ على أن تدفعَ مَلَكَ الموتِ عنك لحظةً لتتوبَ، فتبْ قبل أن يَجيء إليك، ويضيِّقَ الحالَ عليك، واغتنم الفرصةَ في هذه الساعة وتب.

الخامسة: إذا نزلتَ وجاءَ إليك مُنكرٌ ونكير، فادفعهما عنك. قال: لا أقدرُ على ذلك. قال: فتهيأْ للجواب اليوم.

السادسة: إذا نادى منادٍ يومَ القيامة: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] والفرضُ أنك وقعتَ في فريقِ السعير، لا تمش معهم. قال: كيف أقدر على ذلك؟ وتاب في الحال، ودام عليها إلى أن توفّي، رزقنا الله توبةً نصوحًا.

نقل أنه قيل له: ما السببُ في أنّا ندعو الله تعالى، ولا يُستجابُ لنا؟ قال: إنكم تعرفونه، ولا تطيعونه[١]، وتعلمون أنه جاءَ إليكم رسولُهُ، فتعرفونه ولا تتبعونه. وتقرؤون القرآن، ولا تعملون به، وتعلمون أنَّ الجنةَ مزيَّنةٌ

---

(١) في (أ): إنكم تعرفون أن الله حق، وكلامه صادق، ورسوله أمين.

للمُطيعين، ولا تطلبونها. وتعلمون أنَّ النار مهيَّأةٌ للعصاة بأنواعِ العذاب والأغلال، ولا تجتنبون عنها. وتعلمون أنَّ الشيطان لكم عدوٌّ، ولا تخاصمون معه؛ بل تحبُّونهَ وتطيعونه. وتعلمون أنكم تموتون، ولا تستعدُّون للموت، وتدفنون الوالدَيْنِ والأولاد في التراب ولا تعتبرون، ولا تتبرَّؤون من عيوبكم، وتنظرون إلى عيوبِ غيركم، من يكون حالُه كذلك كيف تُستجابُ له دعوته؟

نقل أنه قيل له: إذا جاعَ شخصٌ، ولم يجدْ شيئًا، كيف يصنع؟ قال: يصبرُ يومًا يومين ثلاثة أربعة خمسة إلى عشرة[١]، بل إلى شهر. قيل: فلا يسأل عن أحد؟ قال: يصبرُ حتى يموتَ، لتكون ديتُهُ على قاتله.

قيل في مجلسه: غلا سعر اللحم في المدينة. قال: فنحن نُرخصُهُ. قيل: كيف؟ قال: لا نطمعُ في أكله.

نقل أنه حضر في ضيافةٍ، وكان أهلُ الضيافة يترقَّبون شخصًا، فقال بعضُهم: هو رجلٌ ثقيل. فقال إبراهيم: هذا من العجب، الناسُ يأكلون اللحمَ بعد الخبز، وأنتم أكلتُمُ اللحم قبل الخبز.

أقول: لأنهم اغتابوا ذلك الشخص؛ فإنَّ واحدًا منهم قال: هو ثقيل، وسكت الباقون، والساكتُ أحدُ المغتابين، وقد قال الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] والله أعلم.

نقل أنه قصدَ الحمام، فمنعه الحمَّاميُّ، لأن ثيابَهُ كانت خلقة، وهو كان فقيرًا، ولم يكن معه شيءٌ، فحصل له عند ذلك حال، وقال: تمنعون صاحبَ اليدِ الخالية عن الدخول في بيت الجن، فكيف لا تمنعون الشخصَ بغيرِ الطاعة عن بيت الرحمن.

نقل عنه أنه قال: دخلتُ الباديةَ متوكِّلاً على قصدِ الكعبة، فمشيتُ ثلاثة أيام، وما وجدتُ شيئًا، ثم جاء الشيطانُ إليَّ، ووسوسني، وقال: تركتَ السلطنةَ والنعمةَ الكثيرة، ثم تقصدُ الحجَّ جائعًا، وما معك شيءٌ، والناس مع

(١) في (ب): يومين، ثلاثة أيام، أو أربعة، وخمسة إلى عشرة.

تحمّل ومالٍ كثيرٍ لا يقدرون على قطع هذه البادية، فأنت كيف تقدرُ؟ فانتبهتُ من فعله، وناديتُ اللهَ تعالى، وقلت: إلهي، أَحلْتَ عليَّ العدوَّ يُشوّشُ عليَّ حالي[١]، وأنا لا أقدر على قطع هذه البادية إلاّ بمددك وتوفيقك. فسمعت صوتًا: يا إبراهيم، اطرحْ ما في الجيب، لندفع عنك ما في الغيب. فأدخلتُ يدي في جيبي، فإذا فيه أربعةُ دوانيق من الفضّة قد نسيتُها فيه، فأخرجتُها ورميتها، ونجّاني الله تعالى من إبليس عليه اللعنة، وحصلتْ لي قوةٌ من الغيب.

نقل عنه أنه قال: كنتُ جائعًا في أيام، وما وجدتُ شيئًا أسدُّ به جوعتي، فقصدتُ التقاط السنابل من الأرض بعد الحصاد، فكلّما كنتُ أرفعُ سنبلةً، كان الناس يأخذون منّي ويضربونني، إلى أربعين سنبلة، ولمّا أخذتُ سنبلةً أُخرى بعد الأربعين تركوها في يدي، ولم يتعرّضْ أحدٌ، ثم سمعت صوتًا: يا إبراهيم، هذه الأربعون في مقابلةِ الأربعين دبوسًا من الذهب، التي إذا كنتَ تركبُ في أيام سلطنتك[٢] قد كانت يذهب بك قدامك وخلفك.

نقل أنه قال: كنت حافظًا على بستانٍ، فجاء في بعض الأيام صاحبُ البستان، وطلب منّي الرمان الحلو، فأتيته بالرُّمان، وكان حامضًا، فطلبَ الرُّمان الحلو، فأتيته طبقًا آخر من الرمان، وكان حامضًا، فقال مالكُ البستان: كم زمان أنت في هذا البستان، ولا تميّزُ بين حلوِ الرُّمان وحامضه؟ قلت: أنا حافظٌ للبستان لا آكلٌ للرمان حتى أعرفَ الحامضَ من الحلو. فقال صاحب البستان: مع هذا الزهد، أنت إبراهيم بن أدهم! فتركتُ البستان، ومضيت.

نقل أنه قال: رأيتُ جبريل عليه السلام في المنام أنّه نزلَ من السماء، وبيده صحيفةٌ، وقال: أريدُ أن أكتبَ أسماءَ فقراء الله تعالى. قلتُ: هل تكتبُ اسمي؟ قال: لا؛ لأنّكَ لست منهم. فتفكّرَ ساعةً، ثم قال: وردَ الأمرُ بأن أكتبَ اسمَكَ في صدر الكتاب، لأنَّ الرجاءَ في هذه الطريق يحصلُ من ترك الرجاء.

---

(١) في (أ): على العدو شوّشني على حالي.
(٢) في (أ): من الذهب التي تركت في أيام سلطنتك.

نقل أنه قال: كنتُ في بعض الأيام في مسجدِ بيت المقدس، ولففتُ نفسي في باريةٍ[١]، واختفيت في زاويةٍ من المسجد خوفًا من أن يُخرجني المؤذّنُ، لأنَّهم ما كانوا يتركون شخصًا يبيتُ فيه، فلمّا مضى قليلٌ من الليل، انفتح الباب، ودخل جماعةٌ لابسون الكساءات، وتقدَّمهم شيخٌ، وهو أيضًا لابسٌ كساء، فعبر إلى المحراب، وصلّى ركعتين، ثم استدبرَ القبلةَ واستقبلهم، فقال واحد منهم: في المسجد الليلةَ شخصٌ هو ليس منّا. فتبسَّمَ الشيخُ وقال: نعم، هو إبراهيم بن أدهم، وما وجدَ حلاوةَ العبادة منذ أربعين يومًا. فلمّا سمعتُ هذا الحديث، طلعتُ من البارية، وذهبتُ إليهم، وسلّمتُ عليهم، وقلت: علامةٌ صحيحةٌ، وما سبب ذلك؟ قال: لأنَّكَ اشتريتَ في البصرة تمرًا في اليوم الفلاني، ووجدتَ تمرةً بين تمرك الذي اشتريت من تمرِ البائع، وظننتَ أنَّها لك من جملة تمرك. قال: فذهبتُ إلى البصرة، واستحللتُ التمرةَ من ذلك البائع، وتابَ ذلك الرجلُ من بيعِ التمر، وتركَ الدُّكانَ والمعاملة، واشتغلَ بعبادة الله تعالى، وصار من الأبدال.

نقل أنه كان في صحراء، فاستقبله شخصٌ من الأجناد، وقال: من أنت؟ قال: عبد. قال: العمارة في أيِّ ناحيةٍ؟ فأشارَ إلى المقابر، فاغتاظ الجنديُّ وقال: تهزأُ بي. وأخذَ يضربُهُ بالمقرعة حتى شجَّ رأسَه، والدمُ يجري، ثم قلّد في رقبته حبلاً يجرُّه إلى المدينة، فاستقبله جماعةٌ من أهل المدينة، وذمُّوا الجنديَّ ووبَّخوه، وقالوا: يا جاهل، أما تعرفه!؟ هذا هو إبراهيم بن أدهم أحدُ أولياء الله تعالى، والناسُ طلعوا من المدينة استقبالاً له. فندم الجنديُّ، وأخذَ يعتذرُ، ويقبّلُ يديه ورجليه، ويتمرَّغُ على التراب لديه، وقال: يا شيخ، لمَّا سألتُ من أنتَ، قلتَ عبدٌ. قال إبراهيم: من الذي ليس بعبد. قال: لمّا كسرتُ رأسَك، كنتَ تدعو لي بالرَّحمة؟ قال إبراهيم: نعم، لأنَّكَ بالتعدّي عليَّ صرتَ سببًا لأن يرحمني الله، وأنا أيضًا دعوتُ اللهَ تعالى ليرحمك، لئلا تضيعَ

---

(١) في بارية: في حصيرة.

معاملتُكَ معي، ولا يصيرَ نصيبُكَ من هذا العمل النار. قال: لِمَ أشرتَ إلى القبور؟ قال: لأنَّ أهلَ القبور يَزيدون كلَّ يومٍ، وأهلَ المدينة ينتقصون، فتكون العمارةُ في المقابر.

رأى شخصٌ من أولياء الله تعالى الجنَّةَ في المنام، وصادف أهل الجنة قد ملؤوا أردانهم وأرديتهم من اللآلىء والجواهر، فسأل عن هذا الحال، فقالوا: لأنَّ جاهلاً شجَّ رأسَ إبراهيم بن أدهم، ولمّا أدخلَهُ اللهُ الجنة، أمرَ اللهُ تعالى بأن ننثرَ عليه اللآلىء والجواهر، فملأنا أرداننا وأرديتنا منها.

نقل أنه رأى رجلاً سكران مُلطّخًا فمه بالخمر، فأتى إبراهيمُ بماءٍ، وغسلَ فمه، وقال: الفم الذي يذكرُ اللهَ تعالى، لا يجوزُ أن يُترك نجسًا. فلمّا صحا السكران، قيل له: زاهدُ خراسان غسلَ فمَك. قال الرجل: فأنا أيضًا تبتُ إلى الله تعالى، ورجعتُ. ثم رأى إبراهيمُ في المنام قد قيلَ له: أنتَ لأجلِنا وتعظيمنا غسلتَ فمه، فنحن لأجلِكَ غسلناه وطهّرنا قلبه.

نقل عن شخصٍ من أكابرِ المشايخ، أنه قال: كنتُ يومًا مع إبراهيم بن أدهم في بيتِ المقدس، فاستظللنا تحتَ شجرةِ رمانٍ كانتْ هناك وقتَ القيلولة، وصلّينا ركعاتٍ من الصلاة، فسمعنا صوتًا من الشجرة: يا أبا إسحاق ـ يعني يا إبراهيم بن أدهم ـ أكرمني، وتناولْ من رمّاني. فأطرقَ إبراهيمُ رأسَه حتى سمعنا ثلاث مرات. ثم قالتِ الشجرةُ: يا مُحمد ـ وكان اسمُ هذا الرجل محمدًا ـ اشفعْ عنده ليأكلَ من رمّاني. قلت: يا أبا إسحاق، تسمعُ؟ قال: نعم. فقامَ وقطفَ منها رمّانتين، وأكل أحديهما، وأعطاني الأخرى، وكانت الشجرةُ قصيرةً، ورمّانُها حامضًا، فلمّا رجعتُ إليها بعد زمانٍ، فإذا هي مرتفعةٌ، وصارَ رمّانُها حلوًا ببركة إبراهيم، وكانت تحملُ كلَّ سنةٍ مرّتين، وسماها الناسُ: رمانة العابدين، لكثرة جلوس العابدين في ظلّها، ببركة إبراهيم أيضًا.

نقل أنّه كان جالسًا على جبلٍ مع جماعةٍ من أكابرِ الدِّين، فسأله واحدٌ منهم، وقال: يا شيخ، ما علامةُ الكمال في الولي؟ قال: علامتُهُ هو أنّه إذا قال للجبلِ اذهبْ من مكانك، لذهبَ. فشرعَ الجبلُ الذي هو عليه يذهب، فقال الشيخ:

اسكنْ؛ فإنّي ما قلتُ لك اذهب، ولكنْ ضربتُ المثل بك.

نقل عن شخصٍ من أكابر المشايخ أنه قال: كنتُ مع إبراهيمَ في سفينةٍ، إذْ هبَّتْ رياح مختلفةٌ، واضطربتْ أمواجُ البحر، وأظلمتِ الدنيا، قلت: آه، غرقتِ السفينةُ. فسمعتُ صوتًا: يُقالُ إبراهيمُ في السفينة، وأنتم تخافون من الغرق؟ فانكشفَ الغيمُ، وسكنتِ الرياح، واستضاءت الدنيا.

نقل أنه كان مرةً أُخرى في سفينةٍ، فاضطربتِ الأمواجُ، وهاجت الرياحُ، وكادتِ السفينة أن تغرقَ، وكان في السفينة مصحفٌ، فأخذه إبراهيمُ، وقال: إلهي، تُغرقنا وبيننا كتابك؟! فسمعوا صوتًا: يُقال لا أفعل. وسكنتِ الأمواج والرياح.

نقل أنه قصدَ الجلوسُ في سفينةٍ، والملاحُ أراد منه الأجرةَ، ولم يكن له شيءٌ من الدينار والدرهم، فقال: إلهي، يطلبون منّي شيئًا، وما أجد. فنظرَ في الساحل، فرأى أنّه صارتِ الحصى كلُّها ذهبًا، فأخذ حفنةً، وأعطى الملاح.

نقل أنه كان في ساحلِ البحر في جدّة يخيطُ خرقتَهُ ويرفوها، فوقعت إبرةٌ في البحر، فأشار إلى سمكِ البحر بردِّ إبرته، فأطلعتْ ألفُ سمكةٍ رأسَها من البحر، وأخذ كلٌّ بفمه إبرةً من الذهب، قال: لا أُريد إلاّ إبرتي. فطلعَتْ سمكةٌ ضعيفة، وجاءت بإبرته، ثم قال: أقلُّ شيءٍ وجدتُ بتركِ مُلكِ بلخٍ هو هذا، والباقي ما أريده.

نقل أنه أدلى دلوًا في بئرٍ ليستقي ماءً، فخرج الدلو مملوءًا من الفضة، فقلبه في البئر، وأدلى ثانيًا، فطلع مملوءًا من الذهب، فقلبه، وأدلى ثالثًا، فطلع مملوءًا من اللآلىء، فقلبه أيضًا، وطاب وقتُه، وقال: إلهي، تُعرضُ عليَّ خزائنك، أنا عالمٌ مُوقن بأنك قادر على ما تُريد، وأنت تعلمُ بأني ما أنخدعُ بأمثالِ هذا، وأطلب الماء للطهارة، فأعطني الماء.

نقل أنه كان يمشي إلى الحجاز في جماعةٍ، فقال أصحابُه: ليس مع واحدٍ منّا زادٌ ولا راحلة. فقال إبراهيم: أنتم إذا تيقّنتم أنَّ اللهَ تعالى رازق، ثم إذا

نظرتم إلى هذه الشجرة، فإن تطمعوا أن تصير ذهبًا، تصير ذهبًا، نظروا إلى أشجار أم غيلان[1] في البادية، فإذا صارت ذهبًا بقدرةِ الله تعالى.

نقل أنه مع أصحابٍ له كان في سفرٍ، فوصلوا إلى كهفٍ، وكان هناك حطبٌ كثير، قالوا: نبيتُ هنا، ونلهبُ نارًا. ففعلوا واستضاؤوا بضوئها، وشرعوا يأكلون الخبزَ اليابس الذي كان معهم، وإبراهيم رحمه الله كان مشغولاً بالصلاة، فقال بعضهم: ليتَ لنا لحمًا حلالاً نشويه على هذه النار. فسلّم إبراهيم رحمه الله، وقال: إن الله تعالى قادرٌ على أن يرزقَكُم هنا لحمًا حلالاً. فقال هذا، واشتغلَ بالصلاة، فسمعوا صياح أسدٍ، يصيحُ ويجيءُ إليهم، ويسوقُ حمارًا وحشيًا، فأمسكوا الحمار، وذبحوه وشووه، والأسدُ ينظر إليهم.

نقل أنّه لمّا انقضى أجلُه، وتمَّ عمرُهُ غابَ عن الناس، ولا يُعرف مكانُ قبره يقينًا، حتى قيل: إنه ببغداد، وقيل: بالشام، وقيل بجنب لوط النبيِّ عليه السلام، وقيل: كانت له صومعة محفورةٌ في الأرض، وتوفّي هناك.

نقل أنّه لما حان وفاتُه، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى، سمعوا صوتًا: ألا إنَّ أمانَ الأرض قد مات. وتحيّر الناسُ عن هذا الصوت، حتى سمعوا: أنّ إبراهيم بن أدهم قدس الله روحه توفّي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.

ونسألُ اللهَ تعالى الوهّابَ الملك التّوابَ أن يتوبَ علينا بمنِّهِ، وينظرَ إلينا نظرَ الرحمة والعناية، ولا يخلّي عنّا الكفايةَ والهداية، ويجنّبنا عن موافقةِ النفس، ومتابعة الشيطان في البداية والنهاية، ويحفظَنا عن الضلالة والغواية إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى هو ونعم النصير، والله أعلم.

* * *

---

(١) أم غيلان: شجر السَّمُر. القاموس.

(١٢) بشر الحافي[1]

ذكر بشر الحافي رحمه الله تعالى:

أقول: أبو نصر بشر بن الحارث الحافي، أصلُه من مرو، سكن بغداد، ومات بها، وهو ابن أخت عليّ بن خَشْرَم، مات سنة سبعٍ وعشرين ومئتين. والله أعلم.

كانت له مجاهدةٌ عظيمة، وشأنٌ رفيع، وكان مُشارًا إليه بين القوم.

وابتداءُ توبته أنّه أصابَ في بعض الطرق كاغَدةً[2] عليها مكتوب اسم الله تعالى، وقد وطئتها الأقدام، وكان هو سكران، أخذها فاشترى لها غاليةً، وعطّرَ وطيّب بها الكاغَدة، ووضعها في صندوق، فرأى في تلك الليلة شخصٌ من الصُّلحاء فيما يرى النائم، كأنَّ قائلاً يقول: قل لبشر: طيَّبتَ اسمنا فطيّبناك، وبجّلتَ اسمنا فبجّلناك، وطهّرتَ اسمنا فطهّرناك، فبعزّتي لأُطيّبَنَّ نفسَك في الدنيا والآخرة. فانتبه ذلك الشخص من النوم، وقال: لعلَّ الرؤيا كانت من الشيطان. فتوضَّأَ وصلّى ونام، فرأى ثانيًا مثلَ ما رأى، ثم انتبه، وتفكّر في نفسه أنّه ربّما كان غلطًا، ثم توضّأ وصلّى ونام، فرأى ثالثًا، فانتبه، وفي الغد طلبَ

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٤٢، طبقات الصّوفية ٣٩، المعارف ٥٢٥، الجرح والتعديل ٢/ ٣٥٦، الثقات لابن حبان ٨/ ١٤٣، حلية الأولياء ٨/ ٣٣٦، تاريخ بغداد ٧/ ٦٧، الرسالة القشيرية ٤٦، الأنساب ٤/ ٢٧، تاريخ ابن عساكر ١٠/ ٣٥، مناقب الأبرار ١١٩، صفة الصفوة ٢/ ٣٢٥، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٤٤٥، وفيات الأعيان ١/ ٢٧٤، مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٩١، تهذيب الكمال ٤/ ٩٩، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٩، العبر ١/ ٣٩٩، مرآة الجنان ٢/ ٩٢، نفحات الأنس ٧١، الوافي بالوفيات ١٠/ ١٤٦، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٧، الكواكب الدرية ١/ ٥٥٧، شذرات الذهب ٢/ ٦٠.

(٢) الكاغَد: القِرطاس، معرب. القاموس.

بشرًا، فقيل له: إنه كان في مجلسِ الفسادِ البارحة، والساعةَ هو في بيته لا يعقلُ ولا يَدري؛ بل هو سكران. فقال الشخص: قولوا: لي إليك رسالة. قال: ممّن؟ قال: من الله عز وجل. فبكى بشر، وقال: لعلّه عتابٌ، أو عقاب؟ فقال الشخص: ليس ذلك، وقصَّ عليه القصصَ، فدخل على أصحابه وودَّعهم وقال: طلبوني، وما بقي لي مَيْلٌ إلى هذه الصحبة. وتابَ إلى الله تعالى، وارتقى أمرُهُ، وارتفعَ شأنه وقدْرُه إلى حيث ما كان يسمعُ أحدٌ اسمَه إلاّ ويصلُ إلى قلبه راحةٌ، وسلك طريق الزاهدين.

ومن غلباتِ مُشاهدة الحقّ عليه كان يدورُ حافيًا، ولهذا سُمّي بشر الحافي.

قيل: لم لا تلبسُ في رجلك نعلاً؟ قال: لأنّي لمّا تصالحتُ مع الله تعالى كنتُ حافيًا في تلك الساعة، وأستحيي أن ألبسَهُ بعد ذلك.

وقال أيضًا: الأرضُ بساطٌ بسطَهُ الله تعالى على باب كبريائه لخدمة أوليائه، والأدبُ أن لا يُداسَ بساط السلاطين إلاّ حافيًا.

نقل أنّ أحمد بن حنبل رحمه الله كان يتردَّدُ إليه كثيرًا، وله فيه اعتقادٌ وإرادة، حتى قال له تلاميذه: أنت عالمٌ في الحديث والفقه، ولك اجتهادٌ في الدين، وفي أنواع العلوم، بل لا نرى لك نظيرًا في العلم في عصرك، وتتردَّدُ إلى مجنونٍ هائم، هذا لا يليق بجنابك. كان أحمد يقول: في جميع ما عددتم أنا أعلمُ منه، لكن هو أعرفُ منّي بالله تعالى. فكان يذهبُ إليه ويقول له: حدثني عن ربّي.

ونقل أنه قصدَ أن يدخلَ البيتَ، فوضع رجلاً في البيت، والأُخرى خارج البيت، ووقف كذلك إلى الصباح متحيِّرًا هائمًا تائهًا.

قيل: كانت له أختٌ، فانتظرته ليلةً، وكنستِ البيتَ، فإذا هو جاءِ إليها مُشوَّشَ الحال، متحيِّرَ البال، وما سكن عندها، وقال: أريد طلوعَ السَّطح[1]. وطلع على المَرقى، ووقف على وسطِ المرقى قائمًا إلى الصباح، ثم نزلَ لصلاة

(١) في (أ): لا أريد طلوع السطح.

الجماعة، فلمَّا أصبحَ سألتْ عنه أختُهُ عن الوقوف على السُّلَّم، قال: خطرَ في بالي أنَّ كثيرًا من النَّاس في بغداد أسماؤهم بشر، بعضُهم يهوديٌّ، وبعضُهم نصرانيٌّ، وبعضهم مجوسيٌّ، واسمي أيضًا بشر، فمن أين حصل لي سعادةُ الإسلام من بينهم؟ وهم كيف تأخَّروا عن الإيمان؟ كنتُ متحيِّرًا متفكِّرًا في هذه الحال[1] إلى الصباح.

ونقل عن بلال الخواص أنَّه قال: كنتُ في تيه بني إسرائيل، فإذا رجلٌ يمشي معي، وما كنتُ أعرفُهُ، وتعجَّبْتُ من هذا الرجل، من أين جاء؟ فإذا أنا أُلهمتُ أنَّه الخضرُ عليه السلام، فقلت له: بحقِّ الحقِّ، من أنت؟ قال: أخوك الخضر. فقلت له: أُريد أن أسألك. فقال: سل. قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: هو من الأوتاد. قلتُ: ما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال: هو رجل صدِّيق. قلت: ما تقولُ في بشر الحافي؟ قال: هو رجلٌ لا يكون بعدَهُ مثلُهُ.

أقول: حُكي عن بلال أنَّه قال للخضر: وبأيِّ وسيلةٍ رأيتَكَ؟ قال: ببرِّك لأمِّك[2]، والله أعلم.

نقل عن أبي عبد الله [بن] الجلاء أنه قال: رأيتُ ذا النون وكان عابدًا، ورأيتُ سهلاً، وكانتْ له إشاراتٌ، ورأيت بشرًا، وهو كان صاحبَ ورعٍ. فقيل له: وأنت إلى أيِّهم أَميل؟ قال: إلى بشر بن الحارث؛ فإنه شيخنا.

نقل أنه كان له استماع قِمَطْرةٍ[3] من كُتب الحديث، وما روى منها حديثًا قطُّ، فقيل له في ذلك، قال: لأنِّي أُشاهدُ في نفسي شهوةَ روايةِ الحديث، ولو أنِّي كنتُ مُشتهيًا للسكوت، لاشتغلتُ بالرواية. فإنه يشير إلى أن الحرصَ في روايةِ الحديث جاهٌ، ولا غنى عن ترك الجاه.

قيل له: طعامٌ ببغداد مختلطٌ؛ بل الأكثرُ حرامٌ، فأنت ماذا تطعم؟ قال: أَطعمُ

---

(١) في (أ): في هذا المعنى.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٨٧.

(٣) القِمَطْرَة والقِمَطْر جمع قماطر يذكر ويؤنث: شبه سفط يسف من قصب أو غيره، تصان به الكتب.

ممّا تأكلون، وألبس مما تلبسون. يعني مقدار الضرورة مباحٌ عند الاضطرار

وقيل: بم وصلتَ إلى هذه المنزلة؟ قال: بلقمةٍ أقل من لقمة.

وقال: من يأكلُ ويبكي، كيف يكون كمن يأكلُ ويضحك؟

قيل له: من أيِّ شيءٍ نجعلُ إدامنا؟ قال: من العافية

نقل أنّه كان يشتهي اللحمَ المشويَّ أربعين سنة، وما وجد ثمنَ ذلك.

أيضًا وقيل: كان يشتهي الباقلاّء مدّةً، ولم يأكلْه.

وقيل: ما كان يشربُ من ساقيةٍ حفرها السُّلطان أو أحدٌ من خدّامه.

قال شخص من الأكابر: كنتُ عند بشر في يومٍ باردٍ، وهو يرجفُ من البرد، وكان عاريًا، ما كان عليه شيءٌ يدفعُ البرودة، فقلتُ: يا أبا نصر، الناسُ في مثل هذه يزيدون في الثياب، وأنت خلعتَ ما كان عليك منها! قال: نعم، ولكن ذكرتُ الفقراءَ العراةَ، وليس مالٌ أعطيهم وأواسيهم بذلك، فقلت: أُوافقهم بجسدي.

قيل: بما وجدتَ هذه المرتبة؟ قال: بأن أخفيتُ حالي من غير الله تعالى.

قال له جماعةٌ: لم لا تعظُ السلطانَ، ويصدرُ عنه ظلمٌ كثير؟ قال: إنَّ اللهَ أعزُّ وأجلُّ من أن أذكرَهُ عند من لا يعرفُهُ.

قال أحمد بن إبراهيم المُتطبّب: قال لي بشر: قل لمعروف: أجيءُ إليك بعد الصلاة. فبلّغتُ الرسالة، وانتظرناه بعد الظهرِ وما جاء، وبعد العصر كذلك إلى أن صلّينا العشاء، فقلت: سبحان الله، كيف يُخلفُ بشرٌ الوعد؟ وهذا حالٌ عجيب، وكنّا ننتظره، إذ جاء ومعه سجّادتُهُ، فلمّا وصلَ دجلة رمى السجادة على الماء وعبرَ، وكان هو ومعروف يحدثان ويكلّمان إلى السحَرِ، ثم رجع، وأنا رميتُ نفسي من السَّطحِ، وذهبتُ إليه، وتمرّغتُ في التراب لديه، والتمستُ منه دعاءً، وتضرّعتُ، فدعا لي بشرٌ، ووصّاني بإخفاءِ هذه الحالة ما دام هو باقيًا، فما أفشيتُ هذا السرَّ في حياته.

نقل أنه كان يحدّثُ في الرضا، وحوله جماعةٌ من الأصحاب، فقال له

شخصٌ منهم: يا أبا نصر، أنت لا تقبلُ من الناس شيئًا، وهذا أيضًا من الجاه، فإن كنتَ مُحققًا في هذا الزهد فاقبلْ منهم حتى لا يَبقى لك في أعينهم مهابةٌ، ولا عندهم حشمةٌ ووقار، وما تأخذُهُ منهم فاصرفْهُ في الفقراء والمساكين، وأنت على توكُّلِك يَصلُ إليك رزقُكَ من الغيب. فعظمَ هذا الكلام على الحاضرين، فقال بشر: اسمعوا الجواب؛ إنَّ الفقراء على ثلاثة أقسام:

قسمٌ: لا يَسألون الناس، ولا يَقبلون منهم، وإن أُعطوا، وهذا القومُ هم الروحانيون، الذين إن سألوا اللهَ أعطاهم، وإن أقسموا على اللهَ لأبرَّهم.

وقسمٌ آخر منهم: لا يَسألون أحدًا، ولكن لا يردّون ما يُعطيهم الناسُ، وهم المتوسّطون، الذين يسكنون على التوكّل على الله تعالى، وهم الذين يَقعدون على موائدِ الخُلد في حظائر القدس، وهم يحفظون أوقاتهم ما يقدرون.

وقسم آخر منهم: يصبرون، ويدفعون عن أنفسهم الدواعي، ويغتنمون نفائسَ الأوقات.

فلمّا سمعَ ذلك السائلُ هذا الجواب، قال: رضيتُ بهذا الكلام، رضي الله عنك.

قال بشر: وصلتُ إلى عليّ الجرجاني رحمه الله عند عين ماء، فلمّا رآني قال: وما ذنبي اليوم ألتقي بإنسانٍ؟! وهرب، فسعيتُ خلفه[1] ووراءه، وقلت: وصّني. فقال: لازمِ الفقر، وعشْ بالصبر، وخالفِ الهوى والشهوة، واجعلِ اليومَ بيتَكَ أخلى من القبر حتى إذا وُضِعْتَ في القبر تكون مُرفّهًا، وتصل إلى الله تعالى بسهولة.

نقل أنه جاء إليه طائفةٌ من الشام، وقالوا: نريد الحجَّ، فهل لك رغبةٌ في أن توافقنا وترافقنا؟ قال: نعم، بثلاثة شروط: أن لا نحملَ معنا شيئًا، وأن لا نسألَ شيئًا من أحدٍ، وأن لا نقبلَ من أحدٍ شيئًا. قالوا: أما أنه لا نحملُ

(١) من قوله: (فلما رآني.. خلفه) ليست في (ب).

ولا نسألُ فنقدرُ عليه، وأمّا أن لا نقبلَ، فلا نقدرُ عليه ألبتّةَ. قال: فأنتم قد توكّلتم على أزودة الحجّاج.

وهذا قريبٌ ممّا أجابه لصوفيٍّ وقال: إن خطرَ ببالك أَنْ تقبلَ من أحدٍ شيئًا، فلا يكونُ توكُّلُكَ على الله تعالى

ونقل أنه قال: دخلتُ بيتي، وصادفت فيه رجلاً، قلت: من أنت؟ فإنك دخلتَ بيتي بلا إذنٍ! قال: أخوكَ الخضر. قلت: ادعُ الله تعالى لي. قال: اللهم، سهّل عليه أداءَ طاعتهِ. قلت: زد. قال: اللهم، أخفِ عليه طاعته

أقول: والسرُّ فيه بإخفاءِ الطاعة عليه أن لا يغترَّ بها، ويصيرَ مُعجبًا بها، فإنَّ العُجْبَ بالطاعة من المهلكات. [والله أعلم]

نقل أنه شاوره رجلٌ، وقال: لي ألفا درهمٍ من الحلال، وإنّي أُريد زيارةَ الكعبة. قال بشر: أنت تُريد التفرُّجَ، فإنّك إن أُردتَ رضا الله تعالى فاقضِ دينًا على إنسان، أو انفقْ على يتيمٍ، أو اصرفْ على شخصٍ مقلٍّ الحال كثيرِ العيال؛ فإذا أوصلتَ سرورًا إلى قلبِ مُسلمٍ يكون خيرًا لك من مئةِ حجّةٍ بعد حجّة الإسلام.

وقال الرجل: إنّي أَرغبُ في زيارة الكعبة والحجِّ. قال بشر: لأنَّ مالَكَ الذي في يدك عسى أنّك لم تحصِّلْها من وجهٍ حلال، فلذا تُريدُ صرفَه في غيرِ وجههِ ليطمئنَّ قلبك.

نقل أنّه عبرَ على مقبرةٍ، قال: رأيتُ أهلَها قد خرجوا من قبورهم، وبينهم شغبٌ ومنازعةٌ، كأنّهم يقتسمونَ شيئًا، قلت: يا ربَّ العالمين، أعلمني هذا الحال. قيل لي: اسألْ منهم. فتقدَّمتُ، وسألت عن هذا الأمر، قالوا: عبر على هذه المقبرة رجلٌ من أكابرِ الدِّين منذ أسبوع، وقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات، وأهدانا ثوابَها، ونحن نقتسمُ ثوابَها في جميع هذه الأسبوع، وما فرغنا عنه بعد.

ونقل عن بشر أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي عليه السلام:

هل تعلمُ يا بشر أنَّ الله تعالى لِمَ اختارَكَ من أقرانِكَ، ورفع قدرَكَ؟ قلت: لا، يا رسول الله. قال عليه السلام: لمُتابعتك سُنَّتي، وخدمتِك للصالحين، ونصيحتِكَ لإخوانك، ومحبَّتِك لأصحابي وأهل بيتي لله تعالى، فهذا هو الذي بلَّغَكَ منازلَ الأبرار.

قال: رأيتُ عليًا المُرتضى كرّم الله وجهَهُ في المنام، قلت له: عظني. قال: ما أحسن شفقةَ الأغنياء على الفقراء طَلَبًا للثواب! وأحسنُ من ذلك تكبُّرُ الفقراء على الأغنياء اعتمادًا على كرم الوهاب.

نقل أنه قال لأصحابه: سيحوا في الأرض؛ فإنَّ الماءَ إذا كان جاريًا لا يتغيَّرُ، وإن كان واقفًا في مكانٍ واحدٍ يتغيَّرُ وينتِن.

أقولُ: رُوي عن الشافعيِّ روَّح اللهُ روحه أنه نظمَ بيتين في هذا المعنى:

إذا طالَ مكثُ الماءِ حالَتْ طِباعُهُ وإن كان عذبًا في المكان مصونُ[١]

وقد طالَ عَهدي بينكُم فأَهانني وذو العزِّ من طُولِ المقامِ يَهونُ[٢]

والله أعلم.

قال بشر رحمه الله: من أرادَ العزَّ في الدُّنيا فليلازمْ ثلاثةَ أشياء: لا يطلب حاجةً من مَخلوقٍ، ولا يذكر أحدًا بسوءٍ، ولا يدخل بيتَ أحدٍ ضيافةً.

وقال: لا يجدُ حلاوةَ نعمةِ الآخرة من أعجبَهُ أن يعرفَهُ الناس.

قال: لو لم يكن في القناعةِ سوى عزّ الإنسان في معاشه لكفى.

وقال: إن أحببتَ أن يعرفَكَ الناسُ، فهذه المحبَّةُ رأسُ محبَّةِ الدنيا.

وقال: لا تجدُ حلاوةَ العبادة إلاَّ بعد أن تَبني بينك وبين الشهوات حائطًا من الحديد.

وقال: أشقُّ الأعمال ثلاثة: السخاوةُ عند الضيق، والورعُ في الخلوة، والكلامُ الحقّ عند من تخافُهُ.

---

(١) في (أ): في العزّ مصون.

(٢) لم أجد البيتين في ديوان الشافعي، ولا في غيره من الكتب والدواوين.

وقال: الورعُ أن تخرجَ عن الشبهات، وتحاسبَ نفسَك في كلِّ طرفةِ عين.

وقال: الزهد ملكٌ لا يستقرُّ إلاّ في قلبٍ خال.

وقال: الحزنُ ملكٌ إذا سكنَ موضعًا لا يتركُ هناك غيرَهُ.

وقال: أفضلُ ما رُزقَ العبدُ المعرفةَ والصبرَ إلى الموت.

وقال: خواصُّ عبادِ الله هم العارفون.

وقال: الصوفي من يكونُ قلبُه صافيًا، والعارفون قوم لا يعرفهم إلاّ الله[1]، ولا يُكرمون إلا لله تعالى

وقال: من أراد أن يذوقَ طعمَ الحريّة، فليُطهِّرْ سرَّه.

وقال: من يكونُ عاملاً لله تعالى استوحش من الخلق.

وقال: النظرُ إلى البخيل يقسّي القلبَ.

وقال: ما جلستُ مع أحدٍ ولا جالسني[2] أحدٌ إلاّ تيقّنْتُ أن لو لم يكن بيننا مُجالسةٌ لكان أوْلى، وله خيرًا.

وقال: لا أكرهُ الموتَ؛ لأنّه لا يكرَهُ الموتَ إلاّ من يكون شاكًّا.

وقال: إن لم تُطِع اللهَ، فلا أقلَّ من أن لا تَعصيه.

وقال عنده شخصٌ: توكّلْتُ على الله. فقال له بشر: على الله تكذب! فإن كنتَ متوكّلاً عليه لكنتَ راضيًا بجميعِ ما يفعل.

وقال: لو كنتُ ساجدًا لله جميعَ عمري للشُّكر لَمَا أدَّيْتُ حقَّ شكرِ هذه النعمة التي سمّاك الله وليًا.

قيل: لمّا حضرتْهُ الوفاة حصلَ له اضطرابٌ عظيمٌ، وكربٌ شديدٌ، فقيل له: لعلَّكَ تحبُّ الحياةَ؟ قال: لا، ولكنَّ الحضورَ عند السّلاطين أمرٌ صعب.

---

(١) في (أ): ولا يعرف العارفون إلا الله.

(٢) في (ب): أحد إلا جالسني.

حُكي أنه جاء إليه شخصٌ في مرضِ موته، واشتكى عنده من ضيقِ اليدِ والفقر، فخلع بشرٌ ما عليه، وأعطاه ما كان عليه، واستعارَ قميصًا ولبسه، ومات فيه.

نقل أنه كان ما دامَ باقيًا لم ترثْ دابَّةٌ على الطُّرقِ إجلالاً له، لأنه كان حافيًا، فبينما يسوقُ شخصٌ دابَّتَهُ، فرآها راثتْ على الطريق[1]، فصاح الشخصُ وبكى، وقال: تُوفّي بشر. قالوا: بم عرفتَ؟ قال: بما أنّه ما دامَ باقيًا ما كانَ أحدٌ يَرى روثًا في بغداد على الطُّرق، وكان هذا على خلافِ العادة، والآن راثتِ الدَّابةُ على الطريق، فعلمتُ أنّه تُوفّي بشر رحمه الله.

قيل: إنه رُئي في المنام بعد موتِهِ، وقيل له: ما صنعَ اللهُ بك؟ قال: عاتبني، وقال لي: لمَ كنتَ خائفًا منّي غايةَ الخوف؟ أما علمتَ أنَّ الكرمَ صفتي.

ورآه آخر في المنام، وسأل: ما فعلَ اللهُ تعالى بك؟ قال: رحمني، وقال لي: كُلْ ما لم تأكلْ في الدنيا، واشربْ ما لم تشرب.

ورآه آخر في المنام وقال له: ما فعلَ الله بك؟ قال: غفَر لي، وأباحَ لي نصفَ الجنة، وقال: يا بشر، لو كنتَ لي ساجدًا طولَ عمرك لَمَا أدَّيتَ شكرَ هذه النعمة؛ وهي أن جعلتك مَقبولاً في قلوب عبادي.

ورآه آخر في المنام، وقال له: ما صنعَ الله بك؟ قال: خاطبني، وقال: مرحبًا يا بشر، لم يكن أَحبَّ منك عندي على وجهِ الأرض في السّاعة التي قُبضت فيها.

نقل أن امرأةً ضعيفةً جاءتْ إلى أحمد بن حنبل رحمه الله، وقالت: أغزلُ على سطح البيت، ويعبرون هناك بمشاعل الخليفة، ويتّفقُ لي أن أغزلَ في ضوءِ المشعل، يحلُّ لي ذلك الغزلُ أم لا؟ قال أحمد: عرّفيني أولاً من أنت، حتى تَسأليني عن هذه المسألة، ويظهرَ منك هذا الأمرُ العجيب، وأنت امرأةٌ ضعيفة؟

---

(١) في (أ): راثت على الأرض.

قالت: أنا أختُ بشر الحافي. فبكى أحمد، وقال: نعم، مثلُ هذا التقوى إنّما يطلعُ من بيت بشر الحافي، ثم قال: لا يحلُّ لك مثلُ هذا الغزل؛ لئلا يُشوّشَ عليك الحالَ، فإنَّ أخاك بشرًا تقواه بلغَ حدًّا لا تطاوعه يدُهُ إن مدَّها إلى طعامٍ فيه شبهةٌ، وكان يقول: لي سلطانٌ يُسمّى القلب، فما دام هو راغبًا إلى التقوى، فلا جرأةَ لي إلى مُخالفته.

اللهم، إنّا نَسألُكَ ونتوجَّهُ إليك أن تُحيي قلوبَنا بنورِ معرفتك، وتحفظَ إيمانَنا من غضبك وقهرك، وألاّ تسلِّطَ علينا عدوَّنا، يا أرحمَ الراحمين.

* * *



(١٣) ذو النون المصري(١)

ذكر أبي الفيض ذو النون المصري رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من سلاطين أهل الطريق، مُبارزًا في ميادين البلاء والملامة(٢)، وله في أسرار التوحيد نظرٌ دقيق، وكان له سلوكٌ كاملٌ، ورياضاتٌ عجيبةٌ، وكرامات غريبة، لكنَّ الناس كانوا متحيِّرين في شأنه، وبعضُ الجهّال من مصر ينسبون إليه الزندقةَ ويُنكرونه، ولم يطَّلِع أحدٌ على حاله ما دام باقيًا، وكان يخفي أحوالَه من الناس.

وكان سببُ توبته أنه سمع زاهدًا في مكانٍ، فقصده، فرآه قد علّقَ نفسَه في شجرةٍ، ويقول: يا جسدي، ساعدني ووافقني على طاعة الله تعالى، وإلاّ أذرُكَ على هذه الحال حتى تموتَ من الجوع. قال ذو النون: وغلبَ عليَّ البكاءُ، فأحسَّ الزاهدُ ببكائي، فقال: من الذي ترحَّمَ على شخصٍ قليلِ الحياء كثيرِ الجرم؟ قال ذو النون: فتقدَّمتُ إليه، وسلّمتُ عليه، وقلت: ما هذه الحالة؟ قال: جسدي لا يستقرُّ على الطاعة، ويريدُ الاختلاطَ مع الخلق. قال ذو النون: ظننتُ أنَّك قتلتَ مسلمًا بريئًا من ذلك، أو صدرَ منك كبيرةٌ أخرى. قال الزاهد:

---

(١) طبقات الصوفية ١٥، حلية الأولياء ٩/٣٣١، و١٠/٣، تاريخ بغداد ٨/٣٩٣، الأنساب ١/ ١٣٥، الرسالة القشيرية ٣٧، مناقب الأبرار ٥٩، صفة الصفوة ٤/ ٣١٥، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٣٣١، اللباب ١/ ٣٥، تاريخ دمشق ١٧/ ٣٩٨، وفيات الأعيان ١/ ٣١٥، مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢، العبر ١/ ٤٤٤، الوافي بالوفيات ١١/ ترجمة ٣٧، مرآة الجنان ٢/ ١٤٩، البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٧، طبقات الأولياء ٢١٨، نفحات الأنس ٤٦، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٠، طبقات الشعراني ١/ ٧٠، الكواكب الدرية ١/ ٥٩٧، شذرات الذهب ٢/ ١٠٧، ولابن عربي كتاب عنه اسمه: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، كما للسيوطي أيضاً عنه كتاب اسمه: المكنون في مناقب أبي الفيض ذي النون.

(٢) انظر الحاشية (٢) صفحة ٤٠٢.

أما علمتَ أنَّ من اختلطَ مع الناسِ لا يقدرُ على أن يحترزَ عن شيءٍ، إذِ الاختلاطُ مع الناس رأسُ كلِّ خطيئةٍ. فقلت: بلغَ زهدُك إلى غايةِ الحدِّ ونهايته. قال: تريد أن ترى زاهدًا؟ قلت: نعم. قال: اطلع الجبلَ. فلمّا طلعتُهُ رأيتُ شابًا في صومعةٍ، وقد قطع إحدى رجليه، ورماها خارجَ الصومعة، ووقعتْ فيها الدُّودُ تأكلُها، تقدَّمتُ إليه، وسلَّمتُ عليه، وسألتُ عن الحال، قال: كنتُ جالسًا في هذه الصومعةِ، إذ مرّتِ امرأةٌ بحذاء صومعتي، فمالَ إليها فؤادي، وتقاضاني قلبي أن أذهبَ خلفها، فلمّا وضعتُ إحدى رجليَّ خارجَ الصومعة، سمعتُ: أنَك لا تستحي، بعد أن عبدتَ اللهَ تعالى ثلاثين سنةً، اليومَ تقصدُ إطاعةَ الشيطان، وفعلَ الفاحشة. فقطعتُ تلك الرِّجْلَ الخارجةَ في الحال، وأنا جالسٌ مُنتظرًا ما يُصيبني، وماذا يُصنع بي، ثم أنت لِمَ جئتَ إلى المُذنبين؟ وتقرَّبتَ إليهم؟ فإن أردتَ الالتقاء بشخصٍ من الرجال اصعدْ قُلَّةَ[1] هذا الجبل. قال ذو النون: كان الجبلُ عاليًا، وما تيسّرَ لي الصعود، واستخبرتُ من أحواله، قالوا[2]: شخصٌ هناك مشغولٌ بالعبادة من زمانٍ، ووقع في قلبه شيءٌ، فتولّه في عبادةِ الله تعالى، حتى أنَّ رجلاً كان يُناظره في اليوم الثاني: أن الرزقَ، سببُ الكسب أم لا؟ فنذر أن لا يطعمَ شيئًا حصلَ بكسبِ الإنسان، ومضى عليه أيامٌ، وما أكلَ شيئًا، حتى أن أرسلَ الله تعالى طائفةً من النحلِ، كانت تطوفُ حولَه، وتُطعمُهُ العسل. قال ذو النون: حصل في قلبي من هذا شيءٌ عظيم، وصار حزنٌ لي عشرة أمثاله، وعلمتُ أن من يتوكّلُ على الله فهو حَسْبُه ويكفيه ولا يُضيّعُ عمله.

ثم كنت سائرًا في طريق، إذ رأيتُ طائرًا فاقدَ البصر، قاعدًا على غصن شجرةٍ، فتعجّبتُ من حاله أنه ماذا يأكلُ؟ وكيف يتعيّش؟ كنتُ متفكّرًا في أمره، إذ نزلَ من الغصن[3]، ووقع على الأرضِ، ونبشَ، فطلع قصعتان: إحداهما من الذهب وفيها السُّمسم، والأخرى من الفضة وفيها ماءُ الورد، التقط الطائرُ من

(١) قلّة الجبل: أعلى الجبل.
(٢) في (ب): قال شخص.
(٣) في (أ): إذ فرَّ مِنْ آن، ووقع على الأرض.

حبّات السمسم حتى شبع، وشربَ من ماء الوردِ، وطار إلى مكانه من الغصن، واختفتِ القصعتان في الأرض، فحصل لي حالةٌ عظيمة، وتحقّقتْ توبتي، ووصلت من التوكُّلِ إلى الغاية القصوى.

نقل أنه ذهبَ مع جماعةٍ، فوصلوا خربةً، فدخلوا فيها، رأوا هنالك بمُسوَّفة[١] مملوءةٍ من الذهب والجواهر النفيسة، وعلى رأسها لوحٌ من الخشبِ مكتوبٌ عليه (الله)، فلمّا رأوا ذلك اشتغل أصحابُهُ بقسمة المال، وهو أخذ اللوح، وقال: عليه اسمُ الحبيب. فجعلَ يُعزِّزُهُ ويُكرمه ويقبّله، ولم يحصل له ميلٌ إلى الذهب والفضة لصدق توبته، وتمامِ عزيمته، فرأى في تلك الليلة في المنام كأن قائلاً يقول له: يا ذا النون، اشتغلَ كلٌّ من أصحابك بالذهب والجواهر ورغبَ فيهما، وأنت اكتفيت باسمي المكتوبِ على ذلك اللوح، لا جرم فتحنا عليك أبواب علم الحقائق وكشف الدقائق.

قال: كنت سائرًا جنبَ ساقيةٍ أو نهرٍ، انتهيتُ إلى منظرةٍ عالية هناك، فتوضّأتُ ورجعت، فوقع نظري على المنظرة، فرأيتُ فيها جاريةً في غاية الحُسن والجمال، أردتُ امتحانها، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: يا ذا النون، لمّا رأيتُكَ بادي الرأي ظننتُكَ مجنونًا، فلمّا صرتَ قُربنا[٢] ظننتُكَ عالمًا، ثم لمّا صرتَ أقربَ ظننتُكَ عارفًا، والآن تبيّنَ الحالُ، وانكشفَ الأمرُ فما أنت بمجنونٍ ولا عالمٍ ولا عارف. قلت: كيف هذا الشأن؟ قالت: فلو كنت مجنونًا لما توضّأتَ، ولو كنت عالمًا لما نظرتَ إلى غيرِ محرمِكَ، ولو كنتَ عارفًا لَمَا نظرتَ إلى غير الله، ولَمَا التفتَّ إلى ما سوى الحقِّ جلّ وعلا. قالت هذا الكلام وغابتْ عن النظر، علمتُ أنّها ما كانت من البشر، فوقع في قلبي حريقٌ، وسرتُ إلى ساحل البحر، وصادفتُ جماعةً يُريدون ركوب

(١) المُسوَّفة: البئر، التي يُقال: سوف يوجد فيها الماء. وظني أنها: مَسوفة: أي زنبيل سُفَّ (نسج) من الخوص.

(٢) في (ب): يا ذا النون، فلمّا رأيتك بادي الرأي ظننتك مجنونًا، فلمّا صرتَ قريبًا ظننتك مجنونًا، فلمّا صرت قربنا.

سفينةٍ، فركبتُ معهم، فبعد زمانٍ ضاعَ لتاجرٍ في السفينة دُرَّةٌ، وكانوا يفتّشون الناس واحدًا واحدًا، حتى اتّفقَ الكلُّ أنها عندي، وشرعوا يُؤذونني ويحقّرونني ويستخفُّون بي، وأنا كنت ساكتًا صامتًا إلى أن جاوزوا الأمرَ من الحدِّ، فنظرتُ في البحر، فإذا ألوفٌ من السمك أطلعَتْ رؤوسَها من البحر، وفي فمِ كلِّ واحدٍ منها دُرَةٌ، قال ذو النون: فأخذتُ واحدةً منها، وأعطيتُها التاجرَ، وأهلُ السفينة شرعوا في الاعتذار وعظّموه، ولذلك سُمّي ذا النون.

حُكي أنّه كانت له أختٌ، صارتْ من بركته إلى أنها يومًا قرأت هذه الآية: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧] ونظرَتْ إلى السماءِ وقالت: إلهي، أنزلت على بني إسرائيل المنَّ والسلوى، وما أنزلتَ على أمَّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام، بعزّتك يا ربِّ لا أقعدُ من القيام حتى تُنزلَ عليَّ من المنِّ والسلوى. فأنزل الله تعالى عليها المنَّ والسلوى من الرَّوزنة[١]، فخرجتْ من البيت، ودخلتِ الباديةَ، وما رأوها بعد ذلك.

نقل أنه قال: كنت أسيرُ في الجبلِ، فرأيتُ هناك جماعةً ابتلاهم الله تعالى ببليّاتٍ، فقلت لهم: وما أصابكم؟ ولِمَ اجتمعتم هنا؟ قالوا: هنا شيخٌ في صومعةٍ، يطلعُ منها في كلِّ سنةٍ مرَّةً، ويدعو لهؤلاء المُضطرّين، ويشفيهم اللهُ تعالى ببركة دعائه، ثم يدخلُ الصومعةَ إلى سنةٍ أخرى، قال ذو النون: فصبرتُ هناك حتى طلعَ، فرأيتُ شخصًا مصفرَّ اللون ضعيفًا، غارتْ عيناه، فوقعتْ من هيبته رجفةٌ على الجبل، ونظر إلى هؤلاء، ثم نظرَ إلى السماء، فشفاهم اللهُ تعالى في الساعةِ، فأرادَ أن يدخلَ للصومعة، فتعلّقتُ بذيلِهِ، وقلت له: لله تعالى عالجْتَ العلَّة الظاهرة، فعالجِ العلّةَ الباطنة. فنظر إليَّ، وقال: يا ذا النون، اتركْ ذيلي؛ فإنَّ الحبيبَ ينظرُ إليك من أوجِ العظمة والجلال، ويعلمُ أنَّك تعلّقتَ بغيرِهِ، ثم يتركُكَ إلى ذلك الشخص، ويتركُهُ لك، ويُهلكُكُما جميعًا. فقال هذا ودخلَ الصومعة.

(١) الرَّوْزَنة: الكوة النافذة، الخرق بأعلى السقف، جمع روازن. متن اللغة (رزن).

نقل أنه دخلَ عليه أصحابُه يومًا، رأوه يبكي، فقالوا: وما يُبكيكَ يا شيخ؟ قال: نعستْ عيني في السحور[١]، فرأيتُ الله تعالى في النوم، قال لي: يا أبا الفيض، خلقتُ الخلقَ على عشرة أجزاء، فعرضْتُ عليهم الدنيا، فتوجّه إلى الدنيا تسعةُ أجزاءٍ منها، ثم قسمتُ الجزءَ الباقي عشرةَ أجزاء، وعرضت الجنّة عليهم، فمالَ إليها تسعةُ أجزاءٍ منها، ثم بقي جزءٌ واحدٌ، فجزَّأتُ هذا الجزء عشرةَ أجزاء، وعرضت النار عليهم، فهربَتْ تسعةُ أجزاءٍ من النار، وبقي جزءٌ واحد، فإنّهم لم ينخدعوا بالدنيا، وما اغترُّوا بها، ولا مالوا إلى الجنّة، ولا هربوا من النار، فقلت: ماذا تَطلبون؟ فرفعوا رؤسَهم وقالوا: أنت تعلم ما نُريد يا ربَّنا.

ونقل أنه جاء إليه صبيٌّ، وقال: ورثتُ مئة ألف دينار، أُريد أن أصرفها في صُحبتك. قال الشيخ: بلغتَ الحُلم؟ قال: لا. قال: فلا آذن[٢] حتى تبلغَ؛ فإنّه لا يجوز لك الآن أن تتصرّفَ في مالك. فلمّا بلغَ جاءَ إليه، وتابَ على يده، وصرف المالَ كلَّه في مجلسه إلى أن ظهرَ لبعض المُريدين يومًا حاجةٌ، ولم يكن لهم دينارٌ يَصرفونه فيها، فقال الصبيُّ صاحبُ المال: يا ليتَ لي مئةَ ألف دينار أُخرى لأصرفها على هؤلاء الفقراء. فسمع ذو النون هذا الكلام من الصبيِّ، فقال: هو ما وصلَ بعدُ إلى حقيقة الأمر، وللمالِ عنده اعتبار. فدعاه، وقال له: اذهبْ إلى العطار الفلاني، وقل له منّي أن يُعطيكَ بثلاثة دراهم نسيئةً الأدويةَ الفُلانية. فجاء بها، فأمره أن يدقَّها في الهاون ويخمّرَها بدهنٍ، ويجعلها ثلاثَ حبات، ففعل، وأشار إليه أن يثقبها بإبرةٍ، فامتثل الأمرَ، وجاء بالحبّاتِ إلى الشيخ، فأخذ الشيخ بيده، ونفخَ فيها، فصارتَ ثلاثَ قطعٍ من الياقوت، ما رأى مثلَها أحدٌ، ثم قال: اذهبْ بها إلى السوق، وثمّنْها، ولا تبعْ، وأت بها. فذهب، وجاء وأخبر: أنَّ أهلَ الخبرة قوّموا كلاً منها بألف

(١) في (أ): عيني في السجود.
(٢) في (أ): فلا إذن.

دينار، فقال الشيخ: اسحقْها في الهاون، وارمِ السحاقةَ في الماء، ثم قال: يا صبيُّ، لا تظنَّنَّ أن الفقراء جائعون بسبب القِلَّة، لكنْ على الاختيار. فلمّا علمَ الصبيُّ هذا الحال حصلَ له تمتين[١]، وما بقي للدنيا والدنيوي عنده اعتبارٌ ولا مقدار

نقل عنه أنه قال: دعوتُ الناس إلى الله تعالى ثلاثين سنة، فأجابني كما ينبغي شخصٌ واحدٌ، وكان من قصَّته أنَّ واحدًا من أبناء الملوك كان يمرُّ من موكبه بباب مسجدي[٢]، وأنا كنتُ أتكلَّمُ بهذا الكلام: ليس أكثرُ حمقًا من ضعيفٍ يُخاصم قويًا. فدخل المسجد، وقال: كيفَ قلتَ يا شيخ؟ أعدتُ الكلام، قال: وما معناه؟ قلت: الضعيفُ هو الإنسان، والقويُّ هو الله تعالى. فلما سمع المقالَ تغيَّرَ لونُهُ، وقام، وخرج وجاء في اليوم الثاني، وقال: كيف الطريقُ إلى الله تعالى؟ قلت: طريقٌ دقيقٌ، وطريقٌ آخرُ أدقُّ منه، أيُّهما تختار؟ قال: وكيف الدقيق؟ وكيف الأدقُّ؟ قلتُ: أما الدقيق فتركُ الدنيا والشهوات والذنوب، وأمّا الأدقُّ فتركُ ما سوى الحقِّ، وإفراغُ القلبِ من جميع ما سوى الله. قال: واللهِ لا أختارُ إلاّ طريقَ الأدقِّ. فجاء في اليوم الثالث[٣]، ولبس صوفًا، واشتغلَ بالعلم[٤] حتى صار من الأبدال

قال أبو جعفر الأعور: كنت عند ذي النون، وجماعةٌ من أصحابه حضورٌ، وتكلّموا في طاعة الجمادات للوليِّ، وكان هناك سريرٌ، فقال ذو النون: طاعةُ الجمادات للأولياء تكون مثل أن أقولَ لهذا السرير دُرْ في هذا البيت، فيتحرَّكُ ويدورُ. فالسريرُ في ساعةٍ تحرَّكَ، ودارَ في البيت كلِّه، ورجع إلى مكانه، وكان هناك شابٌّ بكى حتى تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وغُسِّلَ على السرير ودُفن.

نقل أنه جاء إليه رجلٌ، واشتكى من الدَّين، وقال: لا أجدُ شيئًا أصرفُهُ في

(١) في (أ): حصل له يقين.
(٢) في (أ): بباب المسجد الذي كنت فيه.
(٣) في (ب): في اليوم الثاني.
(٤) في (أ): واشتغل بالعمل.

وجه الدين. فأخذ ذو النون حَجرًا من الطريق، وأعطاه الرجلَ، وقال: اذهب به إلى السوق وبعْه، واقضِ به دينَك. فذهب الرجل بالحجرِ إلى السوق، فإذا هو زبرجدٌ، فباعه بأربع مئة درهم، وقضى به دينه.

قيل: كان شابٌّ يُنكر الصوفية، فأعطاه ذو النون خاتمًا، وأمره بأن يذهبَ به إلى السُوق، ويرهنَهُ بدرهمٍ، فإذا هو لم يثمّنْ دِرهمًا، فقال له الشيخ: اذهبْ به إلى سوق الجوهرية، وانظر ماذا يقولون. فإذا هم ثَمّنوه بألف دينار، فرجع الشابُّ إلى الشيخ، وأخبره الحال، فقال الشيخ: معرفتُك بالصوفية كمعرفةِ غير الجوهرية بهذا الخاتم.

نقل أنه اشتهى السّكباج[١] عشر سنين، ومنع النفس عن هذا المُشتهى إلى أن اتَّفَقَ يوم عرفة، والنفسُ طلبتِ السكباج، وغلبت عليه، فقال ذو النون: يا نفسُ، إن وافقتني الليلة، وهي ليلةُ العيد، على أن أختمَ القرآن في ركعتين غدًا أُوصلُكِ إلى مطلوبك. فقبلتِ النفسُ، ورضيتْ به، فصلّى ركعتين، وختم القرآن فيهما، ثم في ثاني اليوم، وكان يوم العيد، طبخَ سكباجًا، ووضع عنده، وأخذ لقمةً وقرَّبَها من الفم، ثم أعادها إلى القصعة، ومسحَ الأصابع، وقامَ إلى الصلاة، فقيل له: كيف يا شيخ؟ قال: فرحتِ النفسُ وقالت: حصلَ مقصودي بعد عشر سنين، فقلتُ لها: لا واللهِ ما وصلتِ.

قال الراوي: كان الشيخ في هذه الحالة إذ دخلَ شخصٌ، ومعه قدرٌ من السّكباج، ووَضَعَ بين يدي ذي النون، وقال: يا شيخُ، ما جئتُ به إليك من تلقاءِ نفسي؛ بل أنا قاصدٌ إليك، فاعلمْ أنّي رجلٌ حمّالٌ، ولي أهلٌ وعيال، وكانوا يَطلبون منّي السكباج، وما كانَ يحصلُ لي ثمنه إلى أن اجتهدتُ في تحصيله ليوم العيد، فطبخناه، ورأيتُ الرّسولَ ﷺ في المنام، قال: إنْ أردتَ أن تَراني غدًا، اذهبْ إلى ذي النون، وقل له: يقولُ محمد بن عبد الله أنا أشفعُ عندك لتتصالحَ مع نفسك طرفةَ عينٍ، وتُطعم لقيماتٍ من السكباج. فبكى ذو النون، وقال: أَمتثل أمر النبيّ عليه السلام.

---

(١) السّكباج: معرب (سركه باجه) وهو لحم يُطبخ بخلٍّ.

روي أنه لما تَرَقَّى أمرُهُ وعَظُمَ شأنُهُ[١]، وحسده بعضُ الناس، وسعوا به إلى المتوكِّلِ[٢]، فاستحضرَهُ المتوكّل إلى بغداد، فلمّا وصلَ إلى باب الخليفة، قال: تعلّمتُ الإسلام في الطريق من عجوزةٍ، والفتوّةَ من سقاء. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لمّا رأيتُ حشمةَ الخليفة، وكثرةَ الحجّابِ والغلمان على باب الخليفة كدتُ أن أتغيَّرَ، قالت عجوزةٌ: انظروا إلى هذا الشخص، فإنّه يذهبُ إلى الحبسِ، والحالُ أنّه والذي أمرَ بحبسِهِ عبدان ومملوكان لسيّدٍ واحدٍ جلَّ جلاله وعزَّ شأنه، فإن لم يُؤْلِمْهُ الله لا يقدرُ أحدٌ على أن يؤلِمَهُ، وأيضًا استقبلني سقّاءٌ، وناولني شربةَ ماءٍ، وأنا أشرتُ إلى صاحبٍ لي بإعطاءِ شيءٍ، فلم يقبلِ السقاء، وقال: هو أسيرٌ محبوس مُقيّدٌ، وليس من الفتوة أخذُ شيءٍ منه. ثم برزَ مرسومُ الخليفة ليُحبسَ، فبقي في الحبس أربعين يومًا، وكانت أختُ بشرٍ الحافي تُرسلُ له كلَّ يومٍ رغيفًا، تذهب به إلى باب الحبس، وتعطي البوّابَ ليوصلَه إليه، فلمّا طلعَ من الحبسِ كان هنالك أربعون رغيفًا، إذ ما أكل شيئًا، فقيل: إنَّ أختَ بشرٍ لم تبعثْ إليك إلاّ وجهًا حلالاً؟ قال: نعم، ولكن وصلَ إليَّ على يدٍ ليست نظيفة - يعني يد السجان.

قيل: حين خرجَ من السجن سقطَ على وجهِه، وانكسرت جبهتُهُ، وجرى الدم، وما تلطَّخ به وجهُهُ ولا ثيابُه، ولا رأوا على الأرضِ أيضًا منه قطرةً، فأدخلوه على الخليفة، وهو سأل منه جوابَ مسائلَ استشكلها المفسّرون، فشرع في الشرح، ووعظ الخليفة، حتى بكى، وردَّه مُكرمًا مُعزّزًا، وتعجّب الحاضرون من فصاحته وبلاغته. والله أعلم[٣]

نقل أنه رأى أعرابيًا في الطواف ضعيفًا نحيفًا، يبسَ جلدُه على عظمه، فقال له: أمحبٌّ أنت؟ قال: نعم. قال: حبيبُكَ قريبٌ أم بعيد؟ قال: قريب. قال:

---

(١) في (ب): وعظم شغله.

(٢) المتوكل: جعفر بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل (٢٠٦ - ٢٤٧) تولّى الخلافة العباسية سنة ٢٣٢هـ.

(٣) قوله: والله أعلم من (أ) فقط.

مُوافقٌ أم مُخالف؟ قال: بل مُوافق. قال ذو النون: فلِمَ هذه المحبة؟ قال الأعرابي: ألم تعلم بأنَّ المُوافقةَ والقربَ أصعبُ وأشدُّ من البعدِ والمُخالفةِ ألف مرة!

نقل أنه قال: سألتُ في بعض أسفاري امرأةً عن غاية المحبّة، فقالت: يا بطّال، هل للجنّة غاية؟ قلت: وما معنى هذا الكلام؟ قالت: لأنَّ لُطفَ المحبوب لا غايةَ له.

قيل: إنّه كان مريضًا، فعاده شخصٌ، وقال له: ألمُ الحبيب طيّبٌ. فتغيّر ذو النون من ذلك، وقال: لو عرفتَهُ لما ذكرتَهُ بهذه السهولة.

نقل أنه كتب إلى بعض إخوانه: سترنا الله وإيّاكَ بسترِ الجهل[1]، وجعلنا وإيّاك في ذلك الستر شُغولاً[2] بتحصيل مرضاته، إذ له كثيرٌ من الأولياء في زيِّ الأعداء.

أقول: وفائدتُه أن تكون مستورًا من الأغيار، محفوظًا من الاشتهار؛ فإنّ الشهرةَ سببٌ للعُجبِ، رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: الخمولةُ نعمة، وكلٌّ يتوقّاها، والشهرةُ آفةٌ وكلٌّ يتولاّها [والله أعلم].

نقل أنه قال: كنتُ سائرًا في بعض الأسفار، وكان في يومٍ من أيام الشتاء، فوافيت شخصًا مجوسيًا مغطي على رأسه بغطاءٍ للبرد، وهو يدورُ على الثلج، ويفرّقُ الأرزن، قلت له: ماذا تفعل يا فلاح؟ قال: الطيورُ في مثل هذا اليوم لا تجدُ حبّاتٍ تلتقطُها، وإنّي أزرعُ لهم هذا البذر، لعلّه ينبتُ، وأنتفعُ به يومًا، ويرحمني اللهُ بسببه. قلتُ: أنت أجنبيٌّ، والبذرُ الذي يَزرعُهُ الأجنبيُّ لا ينبت ولا يُستغلُّ منه. قال: فإن لم يقبلْ منّي، فإنه يَراني ويرى ما أصنع؟ قلت: نعم. قال: حسبي هذا. قال ذو النون: ذهبتُ إلى مكّة شرّفها الله تعالى حاجًّا، فرأيتُ ذلك المجوسيَّ عاشقًا هائمًا في الطواف، فلمّا رآني قال لي: يا أبا

---

(١) في (أ): بستر الجميل.
(٢) في ب: مشغولاً.

الفيض، رأيتَ أنّه رأى صنيعي، وتقبّل منّي، وأنبتَ لي ما زرعتُ، وجعلني وليًا عارفًا، وأخرجني من تيه الأجنبية إلى مقامِ المعرفة، ودعاني إلى بيته؟! فاضطربتُ من هذا الحال، قلت: إلهي، تقبلُ مجوسيًا بحفنة أرزن بعد أن عبر عمرُهُ أربعين سنة في المجوسية؟ فسمعت هاتفًا يقول: أما علمتَ أنَّ من دعاه دعاه بغيرِ علّةٍ، ومن طردَهُ طرده بلا علّةٍ؟ فأنت يا ذا النون لا تتعجّبْ من هذا، فإنّ من هو فعّالٌ لما يُريد شأنُهُ لا يَستقيمُ في نظر العقل؛ بل هو ما وراء إدراك العقول

أقولُ: قد أحسنَ المقال من قال:

دع الاعتراضَ فما الأمرُ لَكْ ... ولا الحكمُ في حركاتِ الفَلَكْ
ولا تَسألِ اللهَ عن فعلِهِ ... فمن خاضَ لجّةَ بَحرٍ هَلَكْ[1]

والله أعلم.

نقل أنه قال: كان لي صديقٌ توفّي، فرأيتُه في المنام، وقلت له: مافعل اللهُ بك؟ قال: رحمني بسبب أنّي كنتُ متردّدًا إلى مجلسك

نقل أنه قال: ما نسيتُ الماءَ والخبز أصلاً، وما شبعتُ منهما إلاّ وصدر منّي معصيةٌ، أو وجدتُ في نفسي قصدَ معصيةٍ.

نقل أنه كلّما أرادَ القيامَ إلى الصلاة، كان يقول: إلهي، بأيِّ قدمٍ أجيءُ إلى بابك؟ وبأيِّ عينٍ أنظرُ في قبلتك؟ وبأيِّ لسانٍ أذكر ثناءك وأذكر اسمك؟ اتخذتُ لي رأسَ مالٍ مِنْ فقدِ رأسِ المال، وجئتُ إلى باب لطفك. إلهي، فإنّي مضطرٌ فاقبلني، ومن تُرابِ المذلّة ارفعني.

وكثيرًا ما يقول في المناجاة: اللهم لا تعذّبني بذلّ الحجاب.

---

(١) ذكره العيني في كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٢/ ٣٤ من غير عزو، وفي البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٣ أضاف بيتًا ثالثًا هو:

دع الاعتراض فما أجهلك ... إليه تصيرُ أمورُ العباد

ومن كلماته أنه قال: إلهي، جعلتَ أهلَ المعرفة محجوبًا من خلق الدنيا بحُجُبِ الآخرة، ومن خلقِ الآخرة بحجب الدنيا.

لا تسكنُ الحكمةُ في معدةٍ مملوءةٍ من الطعام.

الاستغفارُ بلا تركِ الذنب توبةُ الكذّابين.

طوبى لمن استعدّ بالورع، وطهّرَتْ نفسُه من الطمع، ويُحاسب نفسه فيما صنع.

صحةُ الجسد في قلّةِ الأكل، وصحّةُ الروح في قلّة الذنوب.

الناسُ ما داموا في الخوفِ هم على الطريق، فإذا ذهبَ الخوف من قلوبهم ضلّوا عن الطريق.

علامةُ غَضَبِ الحقّ على شخصٍ خوفُهُ من الفقر.

الفسادُ يدخلُ في السالك من ستّة أشياء: الأول: ضعفُ النيّة بعمل الآخرة.

الثاني: الحرصُ في الشهوات.

الثالث: طولُ الأملِ مع قُربِ الأجل.

الرابع: اختيارُ رضا الخلق على رضا الحقّ.

الخامس: مُتابعة الهوى والبدعة، وتركُ السُّنة والشريعة.

السادس: أن يجعلَ زلّاتِ اللسان حجةً له، وينسى مناقبَهُم، ويُظهرَ الفسادَ بذلك بين الخلق.

لا عيشَ إلاّ مع من يكون طبعُهُ مُشتهيًا للتقوى، ويفرحُ بذكر الله تعالى.

اختر الصداقة مع من لا يتغيّرُ بتغيّرك.

إذا أردتَ المُصاحبة مع الإخوان فكنْ معهم كالصدّيقِ رضي الله عنه مع النبيِّ ﷺ؛ فإنّه لم يخالفْه في الدِّين والدنيا، لذا سمّاه الله تعالى صاحبًا[1].

---

(١) هو قوله تعالى في سورة التوبة الآية (٤٠): ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا...﴾ الآية.

علامةُ رجال الله تعالى متابعةُ حبيبه محمدٍ ﷺ في الأخلاقِ والأفعال والخصال، والأوامر والنواهي.

لا تصحبْ مع الله تعالى إلاّ بالموافقة، وبالخلقِ إلاّ بالمناصحة، وبالنفس إلاّ بالمخالفة، وبالعدو إلاّ بالعداوة.

أقول: مُرادُه بالعدوّ هو الشيطان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] **والله أعلم.**

وقال: ما رأيتُ طبيبًا أجهلَ ممّن يعالج سكرانَ وقتَ سُكره. يعني من صار سكران من محبّة الدنيا لا تنفعُه المعالجةُ حالةَ سكره. أي حال حبّه الدنيا.

ما أعزّ اللهُ عبدًا إلاّ أراه حقارةَ نفسه، وما حقرَ عبدًا إلاّ جعلَ نفسَهُ عليه عزيزًا حتى لم يطّلع على ذلّها.

لا تمتنعُ النفسُ من الشهوات إلاّ بعد حفظِ الحواس، كالعينِ والأذن وغيرهما.

إذا كان لك أنسٌ بالخلقِ فلا تطمعْ في أنس الله تعالى.

ما رأيتُ شيئًا أقربَ إلى الإخلاص من الخلوة.

منِ اختارَ الخلوةَ فقد تعلّقَ بعمود الإخلاص، وآوى إلى ركن شديد.

من الصدق بأوّلِ القدم تجد ما تطلب. يعني: إن لم تجدْ في أولِ القدم، فاعلم أنّك بعدُ ما دخلتَ في هذا الطريق، وإن بقي من وجودِك أثرٌ فذلك علامةُ أنّك بعدُ ما دخلتَ في هذا الطريق.

سيّئات المقرّبين حسناتُ للأبرار.

أقول: وهذا موافقٌ للحديث، إذ وردَ فيه: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين[١]» والله أعلم.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفا ١/٤٢٨ (١١٣٧): هو من كلام أبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وعدّه بعضُهم حديثًا، وليس كذلك. انظر صفحة ٦٣٩.

نقل أن أرواحَ الأنبياء كانت في ميدانِ المعرفة، فتقدّمهم روحُ نبيّنا ﷺ، فوصلَ إلى روضة الوصال.

لا يُعطى محبٌّ كأسَ المحبّة إلاّ بعد أن تحرق نارُ الخوف(١) قلبه.

لكلِّ شيءٍ عقوبةٌ، وعقوبة المحبِّ الغفلةُ عن الذكر.

قيل له: منِ العارف؟ قال: شخصٌ من الإنسان، متميزٌ عن الإنسان.

خشوع العارف يزدادُ كلَّ ساعةٍ؛ لأنه يتقرّبُ إليه كلَّ لحظة.

العارفُ الخائف خيرٌ من العارف الواصف. يعني من وصفَ نفسه بالمعرفة، إذ لو كان عارفًا لكان خائفًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به، ولو كان خائفًا لكان ساكتًا.

من عرف الله كَلَّ لسانُه(٢).

العارفُ لا يكون صاحبَ حالٍ واحدٍ؛ لأنّه يردُ عليه في كلِّ ساعةٍ حالٌ أُخرى ووارِدٌ آخرُ، فلا جرمَ يكون صاحب أحوالٍ لا صاحبَ حالٍ واحدٍ.

أدبُ العارف فوقَ الأدب؛ لأنَّ المعرفة تؤدِّبُه.

المعرفة على ثلاثة أصناف: معرفةُ التوحيد، وهي تكون لعامَّةِ المؤمنين. ومعرفةُ الحجّة والبيان، وهذه تكون للحكماء والعلماء. ومعرفة صفات الوحدانية، وهي للأولياء، وهم جماعة يشهدون الحقَّ بقلوبهم، وهو حينئذٍ يظهر عليهم حقيقة العرفان للاطلاع على الأسرار مع اتصالِ أنواع المعرفة؛ لأنَّ الشمس لا تُدرك بالشمس.

و: إياك ودعوى المعرفة، فإنَّ المُدّعي كذّاب.

وأيضًا: فإنِ ادّعيتَ فلا يخلو إمّا أن تكونَ صادقًا أو كاذبًا، فإن كنت صادقًا

---

(١) في (أ): تحرق نار المحبة.

(٢) انظر صفحة ١٢٣، وسيأتي هذا من قول أبي يزيد صفحة ٢١٧.

فالصادق لا يمدحُ نفسه لِمَا رُوي عن الصدّيق[١] رضي الله عنه أنه قال: لستُ بخيركم[٢].

أقول: وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لأصحابه رضوان الله عليهم: «لا تفضّلوني على يونس بن متى[٣]» وأيضًا روي أنه قال ﷺ: «من قالَ إنّي خيرُ الناسِ فهو شرُّ الناس، ومن قال أنا في الجنة فهو في النار[٤]» والله أعلم

وإن كنت كاذبًا فيسحتُكَ كذبُكَ، والكاذبُ لا يكون عارفًا.

من كان بالله أعرفَ كانَ تحيُّرُهُ أكثرَ؛ لأنَّ من هو أقربُ إلى الشمس كان تحيُّرُهُ فيها أكثر.

وسئل: من صفات العارف. قال: من لا يشاهدُ نفسَه في علمٍ ولا في عينٍ ولا في حياةٍ ومشاهدةٍ ووصفٍ وكشفٍ وحجابٍ، فهم لا يكونون بهم؛ بل يكونون بالحقِّ، وبه سكونُهم، وبه كلامُهم، كلامُهم كلامُ الحقِّ جارٍ على ألسنتهم، ونظرُهم نظرُ الحقِّ جارٍ من أعينهم، ثم قال: مصداقُهُ ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «لا يزال العبد يتقرّبُ إليَّ بالنوافل حتّى أُحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ وبصرَهُ الذي يُبصر...» الحديث[٥].

الزاهدون هم سلاطينُ الآخرة، والعارفون هم سلاطين الزهاد.

---

(١) في ب: يمدح نفسه مما روي عن النبي عليه السلام.

(٢) قول أبي بكر رضي الله عنه جزء من خطبته بعد بيعته بالخلافة، رواه الطبراني في الأوسط ٨/ ٢٦٧ (٨٥٩٧).

(٣) تقدم الحديث صفحة (١٠٢).

(٤) الشطر الأول من الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، أما قوله: «ومن قال: أنا في الجنة...» فقد ذكره ابن الجعد في مسنده (٣١٤٧) عن الحسن عن النبي ﷺ، وهو في أخبار قزوين ٣/ ٤٩٥ عن عليٍّ عن النبي ﷺ، وفي ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٠ ضمن ترجمة ضرار بن عمرو؛ عن الحسن عن أنس عن النبي ﷺ، وهو في المعجم الصغير (١٧٦) من قول يحيى بن أبي كثير، وسنده ضعيف. وانظر الحاشية (٢) صفحة ٥٤٧.

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) في الرقاق، باب التواضع، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٥٨ (٣٤٧).

علامةُ محبّةِ الحقِّ جلَّ ذكرُه تركُ جميع ما يكون شاغلاً عن محبّتِهِ، ليبقى المحبُّ، ويشغل الحق.

علامة القلبِ المريض أربعةٌ: الأول: أن لا يجد حلاوةَ العبادة. والثاني: أن لا يكون خائفًا من الله تعالى. الثالث: أن لا يعتبر عن الأشياء. الرابع: أن لا يفهم من العلم ما سمع.

علامةُ وصول الشخص إلى مقامِ العبودية أن يكون مخالفًا للهوى، وتاركًا للشهوات.

العبوديةُ أن تكون عبدَهُ في كلِّ حالٍ، كما أنه إلهُكَ في كلِّ حالاتك.

العلمُ موجودٌ والمقصودُ منه العمل، والعملُ موجود والمقصود منه الإخلاص، والحب موجود والمقصود منه الصدق فيه[1].

توبةُ العوام من الذنوب، وتوبةُ الخواص من الغفلة.

التوبة على قسمين: توبةُ إنابةٍ، وتوبةُ استجابة.

توبةُ الإنابة هي: أن يتوبَ العبدُ من خوف العقاب.

وتوبةُ الاستجابة هي: أن يتوبَ استحياءً من كرم الله تعالى.

لكلِّ عضوٍ من الأعضاء توبةٌ:

فتوبة القلبِ العزمُ على ترك الحرام.

وتوبةُ العين إغماضُها عن المحارم.

وتوبةُ اليدِ تركُ أخذ الحرام.

وتوبة الرِّجْلِ تركُ المشي إلى الحرام.

وتوبةُ السمع تركُ استماع الحرام.

وتوبة البطن تركُ أكل الحرام.

وتوبةُ الفرج الاحترازُ عن الفواحش.

---

(١) كذا في (أ)، و(ب). وكأن في الأصل نقصاً، ولعلّ الكلام: منه الإخلاص، والإخلاص موجود والمقصود منه الحب، والحب موجود والمقصود منه الصدق، والصدق فيه.

التوبةُ رقيبُ العمل[١]، والرجاء شفيعٌ محسنٌ.

ينبغي أن يكون الخوفُ أقوى من الرجاء، فإنّه إن غلبَ الرجاء شوّشَ.

ذكرُ الله تعالى غذائي، وثناؤه شرابي، وحبُّه لباس روحي.

الحياء هيبةُ القلب مع الوحشة عمّا جرى عليه.

الخوفُ مقلق التقوى، لا يلوّثُ ظاهرُه بالمعاصي[٢]، وباطنه بالفضول، ويكون قائمًا مع الله تعالى على هذا الطريق.

الصادقُ من يكون لسانُه ناطقًا بالصواب والحق.

الصدقُ سيفُ الله، ولا يمرُّ سيفُ الله على شيءٍ إلاّ قطعه.

الوجدُ سرٌّ في القلب.

التوكّلُ هو الخروج عن طاعة الآلهةِ الكثيرة، والاشتغالُ بطاعة ربٍّ واحدٍ، والانقطاعُ عن الأسباب. قيل: زد. قال: الاتصافُ بوصف العبودية، والخروجُ عن دعوى الربوبية.

التوكّلُ تركُ التدبير، والخروجُ عن القوة والحيلة.

الأنس هو التوحُّشُ عن الدنيا والخلق إلاّ عن أولياءِ الله تعالى؛ لأن الأُنسَ مع أولياء الله تعالى في الحقيقةِ أنسٌ مع الله تعالى.

إذا رزقَ اللهُ تعالى الولايةَ إنسانًا فكأنّه يُخاطبه في الجنة بلسانِ النور، وإذا أناله هيبةً فكأنه يُخاطبه في الجحيم بلسان النار.

أقلُّ مراتب الأنس بالله، أن لو أُحرقَ صاحبُ الأنس بالله تعالى بالنار لم يغب عنه طرفةَ عين.

علامةُ الأنُس أن تكون مُستوحشًا من الخلق، مُستأنسًا بنفسك، وإن كنت مُستأنسًا بالخلق تكون مُستوحشًا عن نفسك ألبتَّة.

---

(١) في (أ): التوبة رفيق العمل.

(٢) في (ب): لا يكون ظاهره بالمعاصي.

مفتاح العبادة الذكر، وعلامةُ الوصول مخالفة النفس والهوى، وعلامةُ المخالفة تركُ الأماني.

من داومَ على الفكر بالقلب يَرى عالمَ الغيب بالروح.

الرِّضا سرورُ القلب بمرِّ القضا.

الرضا تركُ الاختيار قبلَ نزولِ القضاء، وفقدانُ المرارة بعد القضاء، والموافقةُ مع الحبيب في عين البلاء.

قيل: من الأعرفُ بنفسه؟ قال: الذي يكون أَرضى بما قُسم.

لا يتمُّ الإخلاص إلاّ بالصدق فيه، والصبرِ عليه، والصدقُ لا يتمُّ إلاّ بالمداومة عليه.

علامةُ الإخلاص ثلاثة: الأولى: أن يكون المدحُ والذمُّ عنده سواء. الثانية: أن ينسى العملَ. الثالثة: أن لا يرى لعملِهِ ثوابًا في الآخرة.

ما رأيتُ شيئًا أشدَّ من الإخلاص.

في الخلوة ما يُرى بالعين فهو مَنسوبٌ إلى العلم، وما يُرى بالقلب فهو منسوبٌ إلى اليقين.

علامة اليقين ثلاث: النظرُ إلى الحقِّ في كلِّ شيءٍ. والرجوعُ إليه في كلِّ حال. والاستعانةُ به في كلِّ شُغلٍ.

اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل، وقصرُ الأمل يدعو إلى الزُّهد[١]، وهو إلى الحكمة، وهي تورثُ النَّظرَ في عواقب الأمور.

الصبر ثمرةُ اليقين.

قليلٌ من اليقين خيرٌ من الدنيا؛ لأن اليقينَ يرغّبُ القلبَ إلى الآخرة، وبقليلٍ من اليقين يُطالعُ ملكوتَ الآخرة.

---

(١) في (ب): اليقين يدعو إلى الزهد، وهو إلى الحكمة....

من استأنسَ بالخلقِ سكن على بساط الفراعنة.

المدّعي محجوبٌ بدعواه عن الرغبة إلى الحقّ وإلى الكلام الحق[1]، فإنَّ الدعوى علامة المحجوبين.

لا يكونُ المُريد مُريدًا إلا بعد أن يكونَ امتثالُهُ لكلامِ شيخه أكثرَ من امتثاله لكلام الله تعالى[2].

من وافق الله تعالى في خطرات قلبه عظّمه اللهُ تعالى في حركاته الظاهرة.

من خاف من الله تعالى هربَ إليه، ومن هربَ إليه يحصلُ له مرادُه، ويحصل له النجاةُ، ويصيرُ كبيرَ الشأن.

و: من توكّلَ على الله تعالى استقام.

و: من تكلّفَ في شيءٍ لا يعنيه، ضاعَ عنه ما يعنيه.

من خاف الله استحكم في قلبه محبّتُهُ، ويكملُ عقلهُ.

من طلب عظيمًا فخطرُهُ عظيم.

من يكون تأسُّفُهُ على الله قليلاً ـ أي على ترك تعظيم الله تعالى في السرِّ والعلن ـ فقدرُ الله تعالى عنده قليل.

من يدلُّكَ ظاهرُهُ على باطنه فلا تصاحب معه.

لا تحزنْ على المفقود، وذكرُ المعبودِ موجود.

(١) في (أ): المدعي محجوب بدعواه عن الحق، وعن الرغبة إلى كلام الحق.

(٢) أعوذ بالله العظيم، اللهم إيّاك نعبد وإياك نستعين. أقول: ولعله يريد أن امتثال كلام الشيخ الذي يُفسّرُ له كلام الله من لغة وبيان، ويهديه لما فيه من حلال وحرام، وناسخ ومنسوخ يوصله إلى الله تعالى، أما امتثال كلام الله مباشرة دون إحاطة بعلوم الآلة، ودون دليلٍ عارفٍ ربما أوقع المُريدَ بإشكالٍ وخطأ لا يريده أصلاً. والله أعلم. وانظر قوله (إن عرفت الله..) صفحة ١٨٠.

من ذكرَ الله تعالى على الحقيقة نسي كلَّ شيءٍ في جنب ذكره، ويكون اللهُ تعالى له عوضًا عن كلِّ شيءٍ.

قيل له: بمَ عرفتَ الله تعالى؟ قال: بالله، وعرفتُ الخلقَ بمحمد ﷺ

قيل له: ما تقولُ في الخلق؟ قال: كلُّهم في الوحشة.

ذكرُ الله بين أهل الغفلة غفلة.

قيل: من تصاحب؟ قال: من لا يُنكرك بحال، ولا يتغيَّرُ بتغيُّرك، وإن كان تغيُّرُكَ عظيمًا.

قيل: متى يسهُلُ طريق الخوف؟ قال: إذا عدَّ الشخصُ نفسَه مريضًا، ثم احتمي من خوفِ طول المرض.

قيل: العبدُ بأيِّ شيءٍ يستحقُّ الجنة؟ قال: بخمسة أشياء: استقامةٍ لا يكونُ فيها حيلة. واعتمادٍ لا يكون فيه سهوٌ. والموافقةِ مع الله تعالى في السرِّ والعلانية. وانتظارِ الموت، والتَّهيُّؤِ له. ومحاسبةِ النفس قبل يوم الحساب.

قيل له: ما علامةُ الخوف؟ قال: أن يجعلَكَ الخوفُ آمنًا من كلِّ خوف.

قيل: من أصونُ من الناس؟ قال: من هو أحفظُ للسانه.

قيل: ما علامةُ التوكّل؟ قال: قطعُ الطمع عن الخلق.

ثم سُئل عن التوكّل، قال: خلعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب.

فسئل عن العزلة، متى تصحُّ؟ قال: إذا اعتزلت عن نفسك.

قيل: من أكثرُ الحزن من الخلق؟ قال: من يكون سيِّئَ الخلق.

قيل: ما الدنيا؟ قال: ما شغلك[1] عن الحقِّ.

قيل: من الخسيس؟ قال: من عرفَ طريق الحقِّ ولم يسلكه.

---

(١) في (أ): التي تشغلك عن الحقِّ.

قال يوسف بن الحسين: سألتُه عن الصاحب[1]، قال: خيرُ الصاحب من لا يكونُ بينك وبينه أنا وأنت وهو.

وقال أيضًا: قلت له: أوصني. قال: خاصمْ نفسَك لله، ولا تخاصم الله لنفسك، ولا تحقّر أحدًا وإن كان مُشركًا؛ لعلّه يصيرُ عاقبة الأمر صاحبَ المعرفة والوصلة بالمقصود.

قيل: استوصى منه شخصٌ، فقال: اتركْ باطنك للحقّ، ودع ظاهرَكَ للعشق، وفرَّ إلى الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى يجعلُكَ غنيًّا عن الخلق.

واستوصى منه آخرُ، فقال: لا تخترِ الشكَّ عن اليقين، ولا ترضَ عن شيءٍ إلاّ إن سكن في مقام اليقين والعبودية.

واستوصى منه آخر، قال: إن توجّه إليك بلاءٌ، فاجعلِ الصبرَ شعارَك، ولازمْ في جميع حالاتك بابَ العبودية.

واستوصى منه آخر قال: لا تبعثْ همَّتَكَ إلى خلفك وقدامك. قال السائل: اشرح هذا الكلام. قال: لا تحزنْ لما فات، ولِمَا لَمْ يأت، واشتغلْ في الحال بصالح الأعمال.

قيل: من الصوفي؟ قال: من لا يَرى اللهَ تعالى إلاّ جميلاً، ومن اللهِ إلاّ جميلاً، ولا يرى منه وإيّاه إلاّ الجميل.

قال له شخص: دلّني على الحقّ. قال: إن تطلبِ الدلالة، فلا حصر لها، وإن تَطلبِ القُربَ ففي القدمِ الأول.

قال له شخصٌ: أنا أحبُّك. قال: إن عرفتَ الله تعالى فهو حسبُكَ، وإن لم تعرفْهُ فاطلب شخصًا يدلُّك عليه.

سئل عن نهايته، فأجابَ بما أجابَ[2] به حين سُئل عن أوّلِ درجةٍ يتوجَّه

---

(١) في (أ): سألته عن المصاحبة.

(٢) في (أ): عن نهاية، فأجاب مثلَ ما أجاب به.

إليها العارفُ حيثُ قال: التحيُّرُ، ثم الافتقارُ، ثم الاتصال.

قيل له: ما عملُ العارف؟ قال: هو أن يكون ناظرًا إلى الحقِّ في جميع الأحوال.

وسئل في مرضِ موته: هل تشتهي شيئًا؟ قال: نعم، أن أعرفَ الله تعالى قبل موتي ولو بلحظةٍ.

أقول: يدلُّ هذا الكلام على أنّه ما عرفَ الله، والمرادُ أنّه ما كان عارفًا بالله حقَّ معرفته، ومصداقه ما رُوي عن النبيِّ عليه السلام أنه كان يقول في مناجاته: «سبحانك، ما عرفناك حقَّ معرفتك»(١) وما روي عن بعض العارفين.

اعتصام الورى بمعرفتكْ   عجزَ الواصفون عن صفتكْ

تبْ علينا فإننا بشرٌ   ما عرفناكَ حقَّ معرفتكْ

[والله أعلم].

ثم قال:

الخوفُ أمرضني والشوقُ أَحرقني   والحبُّ قتلني(٢) والله أحياني

ثم غشي عليه يومًا.

قال يوسف بن الحسين: استوصيتُهُ في حين وفاته، فقال: صاحبْ شخصًا تكون سالمًا عنه في الظاهر، ومصاحبتُهُ تكونُ باعثةً لك على الخير، ويذكّرك الحقَّ.

قيل له حال النزعِ: أوصنا. قال: لا تشغلوني؛ فإنّي مُتعجّبٌ في إحساناته. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

وفي ليلة وفاته رأى سبعون شخصًا النبيَّ ﷺ في المنام أنّه قال: انتقل وليُّ الله ذو النون عن دار الفناء إلى دار البقاء.

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ٥٤٧.

(٢) الأصل الفارسي، والترجمة العربية: والحبُّ أصفدني.

حضرنا استقبالاً له، فلمّا توفّي ظهرَ على ناصيته خطٌّ أخضرُ: هذا حبيبُ الله، قتيلُ الله تعالى في حبِّ الله.

وحين رُفعت جنازتُهُ، وكان وقتَ الهاجرة في غاية الحرِّ، جاءت طيورٌ كثيرةٌ وبسطت أجنحتها فوق جنازته، وأذهبوا جنازتَهُ إلى القبرِ في الفيء.

وسمعوا في الطريق مؤذّنًا يؤذّنُ، فلمّا وصلَ إلى كلمة الشهادة، رفعَ ذو النون مُسبِّحتَهُ، فظهر في الناس غوشٌ عظيم، وقال بعضُهم: إنّه حيٌّ، وفتّشوا عنه، فوجدوه ميتًا، وبقيت مُسَبِّحتُهُ مرفوعةً، وندم من كان يؤذيه في حالِ الحياة.

إلهنا ومولانا أدرجنا في جملة أوليائك، واحشرنا في زمرة أصفيائك، واجمع بيننا وبين أتقيائك في دار النعيم بحرمتك وبحرمة أحبابك ورسلك وأنبيائك، يا أرحم الراحمين، وأكرمَ الأكرمين

* * *

(١٤) أبو يزيد البسطامي(١)

ذكر سلطان العارفين أبي يزيد طيفور بن عيسى البِسطامي رحمه الله رحمة واسعة:

كانوا ثلاثة إخوة: آدمُ، وطيفور، وعلي، وكان جدُّهم مجوسيًّا، والإخوان الثلاثة كانوا زهّادًا عبّادًا، وأبو يزيد كان أجلَّهم حالاً.

قيل: مات سنة إحدى وستين ومئتين، والله أعلم.

وكان أكبرَ المشايخ، وأعظم الأولياء، وحجةَ الخلق، وخليفةَ الحقِّ، وقطبَ العلم، ومرجع الأوتاد، ولم يكن له نظيرٌ في الرياضةِ والكرامات والحالات، وكان له في الحقائق والأسرار نظرٌ نافذ، وجدٌّ بليغ، ودائمًا كان في مقامِ القرب والهيبة، غريقًا في بحر الأنس والمحبّة، ولا يزالُ جسدُه في المجاهدة، وقلبُه في المشاهدة.

وله في روايةِ الحديث أسانيدُ عالية، ما كان لأحدٍ قبله ولا بعده.

وله استنباطٌ عظيم في علم الطريقة إلى أن يمكنَ أَنْ يُقال: إنّه الذي أظهر طريق السير والسلوك.

ولا تخفى كمالاته على أحدٍ، حتى قال الجُنيد رحمه الله: هذا الرجل الخراسانيُّ ـ يعني أبا يزيد ـ بيننا كجبريل بين الملائكة.

---

(١) طبقات الصوفية ٦٧، حلية الأولياء ١٠/٣٣، الرسالة القشيرية ٥٥، الأنساب ٢/٢١٣، المنتظم ٥/٢٨، مناقب الأبرار ١٩٢، صفة الصفوة ٤/١٠٧، المختار من مناقب الأخيار ٣/١٨٢، معجم البلدان ١/٤٢١، اللباب ١/١٥٢، وفيات الأعيان ٢/٥٣١، سير أعلام النبلاء ١٣/٨٦، ميزان الاعتدال ٢/٣٤٦، العبر ٢/٢٣، مرآة الجنان ٢/١٧٣، الوافي بالوفيات ١٦/٥١٤، البداية والنهاية ١١/٣٥، طبقات الأولياء ٣٩٨، النجوم الزاهرة ٣/٣٥، نفحات الأنس ٨٥، طبقات الشعراني ١/٧٦، الطبقات الكبرى للمناوي ١/٦٥١، شذرات الذهب ٢/١٤٣، جامع كرامات الأولياء ٢/٤٩.

وأيضًا قال رحمه الله: نهايةُ ميدان جميع السالكين إلى التوحيد بدايةُ ميدان أبي يزيد، ولهذا كان يقول أبو يزيد: يعبر مئتا سنة على البساتين لا تُزهر مثلنا[١].

نقلت أُمّه أنه ما دام في بطنها فلو اتّفقَ لها أكلُ طعامٍ فيه شبهةٌ، كان يضطربُ في البطن ولا يستقرُّ إلى أن تتقيّأ ذلك الطعام. ومصداقُ هذا الكلام ما سُئل عن أبي يزيد: عمّا يَنبغي للرجلِ في هذا الطريق؟ قال: سعادةٌ من بطنِ أُمّه. قيل: فإن لم يكن؟ قال: قلب عارفٌ. قال: فإن لم يكن؟ قال: عينٌ مُبصرة. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أذنٌ سامعة. قيل: فإن لم يكن؟ قال: بدنٌ عامل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت الفجأة.

نقل أنه كان في الكُتّاب يقرأ القرآن، وله أمٌّ، فوصلَ في القراءة إلى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] فاستفسرَ عن الشيخِ معنى الآية، ثم استجاز منه، وذهب إلى أُمّه، فقالت أُمّه بالعجل: جئتَ اليوم يا طيفور؟ قال: نعم، قرأتُ اليومَ هذه الآية، وأنا أرى في نفسي أنّي لا أطيق الشُّكرَيْنِ جميعًا، فإمّا اطلبيني من الله تعالى لأكونَ في خدمتك، وإمّا اتركيني لأشتغل بخدمة الله تعالى. فقالت أمُّه: تركتُكَ لخدمة الله تعالى، ووهبتُكَ منه. فارتحل من بِسطام، وسافر ثلاثين سنة. وكان في البوادي وبلادِ الشام مشغولاً بالرياضة والسَّهرِ والجوع.

وصحب مئةً وثلاثة عشر من المشايخ، واستفاد منهم، ووصل إلى صحبة جعفر الصادق رضي الله عنه.

وكان يومًا في صُحبة الصادق، قال له الصادق رضي الله عنه: ائتني بذلك الكتاب من هذه الطاقة. قال أبو يزيد: أين الطاقة؟ قال الصادق: أنت كم أيام، وكم مرّةٍ تجيء إلى هذا البيت وما عرفتَ الطاقة؟! قال: أنا ما جئتُ لأنظر إلى

(١) في (ب): لا يثمر مثلنا.

الطاقة، وأنا ما جئت إلا لأُصاحبَكَ. فقال له الصادق: ارحلْ إلى بِسطام؛ فإنّه قد تمَّ شغلُكَ.

نقل أنه دخل باديةَ الحجاز، وبقي اثنتي عشرة سنة حتى وصلَ إلى الكعبة عظّمها الله تعالى، وكان يُصلّي ركعتين، ثم يخطو خطوةً، ويقول: ليس دهليزَ سلطانٍ مجازيٍّ حتى أجوزَ فيه دفعةً، وفي تلك السنة ما زارَ النبيَّ ﷺ، وقال: ما جئتُ في هذه السنة لزيارةِ النبيِّ ﷺ، ويكون من سوءِ الأدب أن أزورَ من غير قصد زيارته. فقصد زيارة النبيِّ ﷺ مرّةً أُخرى وجاء إلى المدينة شرّفها الله تعالى.

قيل: رأى في الطريق جمجمةً[١] إنسان مكتوبًا عليها: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فصاح، ثم أخذَ الجمجمة ويُقلّبها[٢] ويقول: هذه تُشبه رأسَ صوفيٍّ صار مَحوًا في الله، وتلاشى، ولم يبق له أُذُنٌ يسمع خطاب الله الأزلي، ولا عينٌ يرى الجمال الأزلي، ولا لسانٌ يُثني به على حضرةِ العزَّة، ولا عقلٌ يعلم ذرةً من المعرفة.

نقل أنه أرسل إليه ذو النون شخصًا من المُريدين برسالة، وهي أن يقول له: يا أبا يزيد، تنامُ جميعَ الليل في البادية وتستريحُ، وتشغل بالاستراحة[٣]، والقفل قد عَبر[٤]. فلمّا سمعَ الرسالة، قال: قل لذي النون: الرجل التامُّ من ينام جميعَ الليل، ثم قبل نزول القافلة يبلغُ المنزلَ. فلمّا ردَّ المُريدُ الجوابَ على ذي النون، فبكى وقال: بارك الله له في هذه الحال، فإنّا ما وصلنا إليها.

والمُرادُ بالبادية: الطريقة. وبالرواح: السلوك الباطن

نقل أنه سمعَ رجلاً قد اشتهر بالولاية، وكان رجلاً يقصدُهُ الناسُ، مشهورًا بالزهد، فمضى إليه أبو يزيد، فخرج الرجل من بيته، وقصد المسجد، ورمى

(١) في الترجمة العربية ٣٥٣: عمامة.
(٢) في (ب): الجمجمة ويقبلّها.
(٣) في (ب): وتشتغل بها.
(٤) أي: والقافلة قد عبرت.

بزاقةً تجاهَ القبلة، فانصرفَ أبو يزيد، ولم يُسلِّم عليه، وقال: هذا غيرُ مأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يَدّعيه[(١)]؟

نقل أنه حمل زادَهُ في طريق الحجِّ على بعيرٍ، فقال شخص: سُبحان الله، بعيرٌ ضعيف، وحملٌ ثقيل، هذا ظلمٌ ظاهر، وقال مرات. فقال أبو يزيد: انظر. فلمّا نظرَ رأى الحملَ مرفوعًا عن ظهرِ البعير مقدارَ شبرٍ، والبعيرُ يمشي تحته خفيفَ الظهر، ثم قال: شأني عجيب، إن أفشيتُ حقيقةَ حالي فلا طاقةَ لكم بذلك، وإن أُخفيها تُطوِّلون ألسنتَكُم بالطعنِ فيَّ.

نقل أنه بعد زياة قبرِ النبيِّ ﷺ أمر بزيارة أُمِّه، فتوجَّه إلى بِسطام في جماعةٍ، وسمع أهلُ بسطام أنّه جاء، فاستقبله خلقٌ كثيرٌ، وعلم أبو يزيد رضي الله عنه أنَّ مُراعاةَ الناس وملاقاتهم تمنعُهُ عن الحقِّ، فأخذَ رغيفًا، واشتغلَ بالأكل، وكان في رمضان، وقصدَ الرُّخصةَ بذلك، فأنكرَهُ الخلقُ وتركوه، فقال لأصحابه: رأيتم أنّي عملتُ بمسألةٍ من الفقه، فلذلك أنكرني الناس وردُّوني، اصطبرُ إلى الليلِ. فدخل المدينةَ ليلاً، وجاء إلى باب دار أمِّه، واسترقَّ السمعَ، فإذا أُمُّه تتوضَّأُ وتقول: إلهي، طيِّبْ حالَ غريبي، واحفظْهُ في غربته، وطيِّبْ عنه قلوبَ المشايخ. فغلب البكاءُ على أبي يزيد، ودقَّ الباب، فقالت أمُّه: من أنت؟ قال: غريبُكِ. فشهقت أمُّه شهقةً، وفتحتِ الباب، وقالت: يا طيفور، ضعفتْ باصرتي من كثرة البكاء في فراقك، وانحنى ظهري من كثرة البليّاتِ والأحزان؛ ولكنِ الحمدُ لله الذي رزقني وصالك.

نقل أنه قال: ما ظننتُ أنَّهُ بعد جميع الأعمال، فهو قد كان مقدّمًا عليه، وذلك رضا الوالدة، قال: حتى أنا ما كنتُ أطَلبُهُ في الرياضات والمجاهدات والغربة وجدتُهُ في أنَّ والدتي طلبَتْ منّي الماءَ في بعض الليالي، ذهبتُ إلى

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٤٠٥) في الصلاة، باب ما جاء في القبلة، ومسلم (٥٥١) في المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، والنسائي ١/١٦٣، ٢/٥٢ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إنّ أحدكم إذا قام في الصلاة فإنّما يناجي ربّه، فإن ربّه بينه وبين القبلة، فلا يبزقن أحدكم قِبَلَ قبلته..».

الكوز، لم أجد فيه ماءً، ثم إلى الجرَّةِ كذلك، فذهبتُ إلى الساقية، وجئتُ بالماء، فإذا هي نائمة، فأخذتُ الكوزَ بيدي، ووقفتُ حتى استيقظَتْ، وكانت الليلةُ في غايةِ البرودة، وانجمدَ الكوزُ في يدي، فأخذتِ الماء، ودعتْ لي، ثم قالت: ردَّ أحدَ مصراعي الباب. كنتُ متردِّدًا إلى قريبٍ من الصباح أن أردَّ الطرفَ الأيسر أو الأيمن؛ لئلا أكونَ مُخالفًا لها، فلمّا أصبحت، ما كنتُ أطلبُهُ مدَّةً طويلةً وجدتُهُ حاضرًا عندي ببركة مُوافقتها ودعائها.

نقل أنه لمّا رجعَ من سفرِ الحجاز، وبلغ مدينة هَمَذَان، اشترى هناك شيئًا من حبِّ العُصْفُرِ، وذهب بها إلى بِسطام، وجد فيه نملاً، فرجع إلى هَمَذَان، وردَّها إلى مكانها شفقةً على خلقِ الله تعالى.

نقل أنه قال: كنت اثنتي عشرة سنة حدَّادًا لنفسي، أحمِّيها من كُورة الرياضة بنارِ المجاهدة، وأحضُّها على المداومةِ، وأضربُ عليها بمطرقةِ الملامة، حتى صنَعتُ من نفسي مرآةً، ثم صقلتها في خمس سنين بمصقلِ أنواع العبادات والطاعات، ثم نظرتُ فيها بنظرِ الاعتبار، رأيتُ على وسطي الزنار من العُجْب والغرور، والاعتماد على الطاعة والعمل، فاجتهدتُ خمس سنين أُخرى في قطع الزنار، حتى قطعتُ الزنار، وجدَّدت الإسلام، ثم رأيتُ الخلق كلَّهم موتى، فقلت: أُصلِّي عليهم صلاة الأموات، وكبَّرتُ أربعَ تكبيرات لفنائهم، ثم بلا واسطةِ الخلق ولا مُزاحمة النفس؛ لكن بمددِ الحقِّ رجعتُ إليه، ووصلتُ إلى مقام القُرب.

نقل أنّه كلَّما أرادَ أن يدخلَ مسجدًا، كان يقفُ على باب المسجد، ويبكي، ثم يدخل، سُئل عنه عن هذه الحال، قال: أجدُ نفسي كامرأةٍ مُستحاضةٍ، أخافُ أن أُلوِّثَ المسجد.

نقل أنه خرجَ بقصد الحجاز، ثم رجعَ، قيل له: ما فسختَ العزيمةَ قطُّ، كيف كان في هذه النوبة؟ قال: لمّا توجَّهتُ إلى الطريق، استقبلني زنجيٌّ بيده سيف، وقصدني، وقال: تركتَ الله ببسطام، وقصدتَ البيت الحرام، إن رجعتَ فيها، وإلاّ قطعتُ رقبتك، ثم استقبلني شخصٌ آخر، وقال: إلى أين؟

قلت: إلى مكّة شرّفها الله تعالى. قال: وما معك؟ قلت: مئتا دينار. قال: أعطني؛ فإنّي رجلٌ فقير ولي عيال، وطفْ حولي سبعَ مرات، فإنَّما هذا حجُّكَ. ففعلتُ، ورجعت[١].

نقل أنه صعدَ سطحَ رباطٍ ليذكر الله تعالى، فقام إلى جدارٍ إلى الصباح، وذكرَ الله تعالى، فرأوا في النهار بولَه، فإذا هو مثلُ الدم، قالوا: وما هذه الحالة؟ قال: لشيئين: الأول: أنه قد عبرَ على لساني كلمةٌ في الطفولة، والثاني: أنّ عظمةَ الله تعالى أظلّتني، وصار قلبي مُتحيِّرًا، فإن خطرَ قلبي ما ينطق لساني، وإن انطلقَ لساني كان قلبي غائبًا، كنتُ إلى الصباح في هذا الاضطراب.

قال عيسى البسطامي[٢]: صحبتُ أبا يزيد اثنتي عشر سنة، ما سمعتُ منه كلامًا؛ بل كان على عادته، أن يضعَ رأسَهُ على ركبته، وفي بعض الأحيان يرفعُ رأسَهُ ويتأوّه، ثم يرجُع إلى ما كان.

قال السَّهلكي[٣]: هذا إنما كان في حالة القبض، وأما في حالة البسط فاستفادَ الناس منه فوائدَ كثيرة.

نقل أنه كان في يده تفاحةٌ حمراء، فنظر إليها وقال: تفاحةٌ لطيفة. نُودي في سرِّه: يا أبا يزيد، ألا تَستحيي منّا، تضعُ اسمًا من أسمائنا على التفاح. وأنساه الله اسمَه أربعين يومًا - أي أخرج من قلبه حلاوةَ الذكر - فحلف أن لا يأكلَ من فواكه بِسطام مدّةَ حياته.

قال: خطر ببالي وقتًا من الأوقات أنّي اليومَ شيخُ الوقت، فعلمتُ أنّه وقعَ غلطٌ عظيم، وخطأ كبير، فقمتُ إلى طريق خراسان، ونزلتُ في منزلي،

(١) جاء في هامش (أ): مطلب شنيع. وانظر صفحة ٨٤١ بشأن الطواف، وطواف الكعبة بالمريد ٣٣٢ وصفحة ٩٨.

(٢) كذا الأصول، وعيسى أبو أبي يزيد، ولعل الخبر عن أحد أخوي يزيد: ادم أو علي ابني عيسى.

(٣) هو محمد بن علي بن أحمد السهلكي أبو الفضل شيخ محدث، انظر التدوين في أخبار قزوين ١/٤٠٨، ٣/١٤٧، ٤/٣٥٧، ومعجم البلدان (بسطام).

وحلفت أني لا أُفارقَ هذا المنزل حتى يجيء إليَّ شخصٌ، ويُريني نفسي وذلّي، فمكثتُ ثلاثةَ أيام، ثم في اليوم الرابع رأيتُ رجلاً أعور يجيءُ على راحلةٍ، فلمّا نظرتُ إليه، علمتُ أن فيه أثرَ العرفان، أشرتُ إلى بعيره بالوقوف، فخُسفَتْ رجلاه في الأرض، ووقف البعير، قال: راكبٌ جئت بي لأفتحَ المُغلقَ، وأُغلقَ المفتوح، وأُغرقَ بسطام مع أهلها ومع أبي يزيد. قال أبو يزيد: غُشي عليَّ، ثم بعد الإفاقة قلتُ له: من أين تجيء؟ قال: من اليوم الذي حلفتَ أن لا تفارقَ هذا المكان ليرسلَ اللهُ تعالى إليك شخصًا يُريك نفسَك، أنا قطعتُ في الطريق ثلاثة آلاف فرسخ، ثم قال: يا أبا يزيد، عليك بحفظِ القلب. وأعرضَ عنّي، وغاب.

نقل أنه مدة أربعين سنة ميّزَ بين ثيابَ الصلاة، وثياب بيته، وثياب الوضوء.

وقال: إنّي ما أكلتُ أربعين سنة ممّا يأكلُ الناس، فإنَّ قوته كان من موضعٍ آخر.

قال: أربعين سنة كنتُ جاسوسًا على القلب، ثم اطّلعتُ على أنّ العبودية منه كانت.

قال: كنت لله طالبًا ثلاثين سنةً، ثم وجدتُ أنّي مطلوبٌ، وهو طالب[١].

قال: منذ ثلاثين سنة كلّما أُريد أن أذكرَ الله تعالى أَغسلُ فمي ولساني ثلاثَ مرات تعظيمًا لله تعالى.

سأل منه أبو موسى[٢]، وقال: سلكتَ هذا الطريق زمانًا، ماذا رأيت فيها؟ قال: أوّلُ الأمر كنتُ أجرُّ نفسي إلى بابه، وهي تبكي، فحين حصل لي مددٌ من الحقِّ، النفسُ تذهبُ إليه وتضحك.

قيل: وما رأيتَ في هذا الطريق أعجب؟ قال: إنه ما رجع منه أحد.

نقل أنه صارَ في آخر الأمرِ إلى حيثُ ما كان يخطرُ بباله، يظهرُ عنده في

(١) هذا القول ليس من (ب).

(٢) يقال: أبو موسى الدبيلي من المشايخ المريدين لأبي يزيد. انظر الصفحة ٢٢٥.

الحال، وإذا أراد أن يذكر الله تعالى يتقاطرُ البولُ منه على صورة الدم.

نقل أنه كان مريدٌ صاحب كمال، سريع السلوك للشيخ أبي تراب النَّخْشَبي، وشيخُهُ كثيرًا ما كان يقول له: ينبغي لك، ولا بدَّ لك من صحبة أبي يزيد. حتى قال المريدُ يومًا: يا شيخ، من يرى كلَّ يومٍ كم مرّةٍ ربَّ أبي يزيد، ما يصنعُ بأبي يزيد؟ قال أبو تراب رحمه الله: أنت ترى الله تعالى على قدرِ حالك، وإذا كنتَ عند أبي يزيد تراه على قدر حالِ أبي يزيد، ففي الرؤيا تفاوتٌ باعتبار الحالين. أثّر هذا الكلام في قلب المريد، فهو مع الشيخ ذهبا إلى أبي يزيد، وكان في غيضةٍ، وبيده جرّةٌ، وعليه فروةٌ عتيقة، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ، فلمّا وقعَ نظرُ المريد عليه يبسَ ومات من زمانه، فقال أبو تراب: سبحانَ الله، نظرةٌ وموت! قال أبو يزيد: كان له قابليةٌ، ولم يكن وقتُ انكشاف ذلك الشيء، فلمّا نظرَ إلى أبي يزيد، انكشفَ له ذلك الأمر، وما أطاق، ولهذا مات في زمانه. نظيره ما وقع لنسوة مصر في مُشاهدة يوسف عليه السلام، حتى لم يطقنَ، وقطّعنَ أيديهن.

نقل أن يحيى بن معاذ كتبَ كتابًا إلى أبي يزيد بهذا البيت بالعجمية:

مَسْت أز مَي عشق أيحالم كه أكر أز إين بيش خورم عشق نيست شَوَمْ

قال أبو يزيد في جوابه قدّس الله سرّه:

شربتُ الحبَّ كأسًا بعد كاس فما نفدَ الشراب وما رويتُ[١]

نقل أن يحيى بن معاذ كتبَ كتابًا إلى أبي يزيد رضي الله عنه، وقال: ما تقولُ فيمن تجرّعَ جرعةً، وسكر من الأزل إلى الأبد؟ فأجابَ أبو يزيد رحمه الله وقال: لا أعلمُ ذلك؛ ولكن هذا رجلٌ يتجرّعُ كلَّ يومٍ وليلة بحور الأزلِ والأبد، ثم يصيح: هل من مزيد[٢].

---

(١) الخبر ليس في (ب).

(٢) جاء في هامش (أ) بخط مغاير: فقال رجلٌ هنا: من يتجرّعُ بحور الأزل، وله في كل نَفَسٍ من الأنفاس، ويقول: هل من مزيد؟.

ثم أرسلَ إليه يحيى، وقال: لي معك سرٌّ، ولكن موعدنا الجنة، تحت شجرة طوبى. وبعث له رغيفًا هديةً، وقال: عجنتُهُ بماء زمزم. فكتب أبو يزيد في الجواب، وأشار إلى السرّ الذي كتمه يحيى، وقال: أيُّ موضع يكون هو مذكورًا فيه فهو الجنة[1]، وهناك فيءُ طوبى، وما أكل ذلك الرغيف، وقال: ذكرتَ الماء الذي خمّرتَ به، وما ذكرتَ من أيّ بذرٍ حصّلته! فازداد اشتياق يحيى إليه، وقصده، وجاء إليه، فوصل عشاءً، وقال: لا أريدُ أن أشوّشَ عليه الليلة، وليس لي اصطبارٌ إلى الصباح، فسأل عنه، قالوا: هو في الصحراء. قال: ذهبتُ إليه، فإذا هو قد صلّى صلاة العشاء، وقام على أصبعين إلى الصباح[2]، وأنا متعجّبٌ عن هذا الحال، وهو مشغولٌ بحاله إلى الصباح، فلمّا طلعَ الفجر، قال: اللهم، إنّي أعوذُ بك أن أسألك هذا المقام. قال يحيى: فتقدّمت إليه، وسلّمتُ عليه، وسألته عن وقائع الليلة، قال: عرض عليّ نيفٌ وعشرون مقامًا وما قبلتها، وقلت: كلُّها حجاب، كان يحيى مبتدئًا وأبو يزيد منتهيًا. فقال له: يا شيخ، لولا سألتَ من الله تعالى المعرفة، وهو مالكُ الملوك، وقد قال: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠]؟ فشهق أبو يزيد وقال: اسكتْ يا شيخ؛ فإني يحصل لي غيرةٌ على أن أعرفه، وإني أُريدُ أن لا يعرفَهُ غيره، ثم قال أبو يزيد رضي الله عنه: لو رُزِقتُ صفوة آدم، وقدس جبريل، وخلّةَ إبراهيم، وشوق موسى، وطهارة عيسى، ومحبّة محمد عليهم السلام عليك أن لا ترضى بها؛ فإنّ ما وراء ذلك منازلُ ومقاماتٌ، كنْ صاحبَ همّةٍ، ولا تغترَّ بمقامٍ من المقامات، فإنك لو قنعتَ بمقامٍ رضيتَ وسكنت فيه صرتَ محجوبًا به[3].

أقول: هذا الكلام إشارةٌ إلى أن مقاماتِ المعرفة لا نهايةَ لها، وليس للسالك أن يقنعَ بمقامٍ دون مقام، إذ ما من مقامٍ إلاّ وفوقه مقامٌ آخر، وبهذا يؤوّلُ ما وردَ

(١) في (أ): أي موضع يكون هنا مذكورٌ فيه، فهو الجنة.
(٢) انظر الحاشية (١) صفحة ٧٥٧.
(٣) جاء في هامش (أ): نعوذ بالله تعالى من الاجتهاد، مثل هذه الأقوال السخيفة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

عن النبيِّ ﷺ من كثرة الاستغفار، حيث قال: «إنّي لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

قيل: سببُ كثرة استغفاره عليه السلام، وإن كان عليه مأمونًا من صدورِ الذنب عنه، ولا سيما حال الرسالة، أنه ﷺ كان يترقّى في كلِّ لحظةٍ إلى مقامٍ من مقامات الكمال لم يكن فيه قبله، فإذا وصلَ إليه عليه السلام كأنه كان يرى نفسَه مقصّرًا في المقام الذي قبله، فلذا كان يستغفرُ اللهَ، ويتوبُ إليه، والدليل عليه ما روي عنه ﷺ أنه قال: «حسناتُ الأبرار سيئات المقربين»(٢) ويعلم من هذا أن سيره ﷺ في المقامات كان كثيرًا متواليًا غيرَ مُتناهٍ ولا مُنقطعٍ، وقيل في هذا المعنى بيتٌ بالعجمي وهو هذا:

روزي أكر بكويِ مرادي وسي عماد انجامقام نيست كذركُنْ نَه منزل است

واتفق لهذا الفقير ترجمتُهُ أوانَ النسخ وهي هذا:

فـإذا وصلـتَ إلـى مُـرادِكَ ليلـةً فـاعبـرْ فـذلـك مَعْبَـرٌ لا مَقصـدُ

والله أعلم.

نقل أن ذا النون أرسلَ(٣) إلى أبي يزيد مسندًا ليتّكيء عليه، وقال: الشيخُ قد ذاب جسمُهُ، ونحل بدنه. والحالُ أنه قد بقي عظمٌ عليه جلد، فلم يقبلْ، وقال مُتّكؤنا لطفُ الحقِّ وكرمه، فلا احتياجَ لنا إلى مُتّكأ المخلوق.

نقل أنه قال: كنتُ في صحراء ليلةً باردة، وأدخلتُ رأسي في جيبي متفكّرًا، إذ حصل نعاسٌ، واتفق احتلامٌ، فتنبّهتُ، وكنت أجدُ في نفسي تكاسلاً، وحملتني على تأخير الاغتسال إلى طلوع الشمس، فلمّا ظهرتْ عليَّ فتنةُ النفس، قمتُ في الحال، وتوجّهتُ إلى الماء، وكسرتُ الجليد، ودخلتُ مع

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٨٢، ٣٤١، والبخاري في صحيحه (٦٣٠٧) في الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٤٣٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر الحاشية (١) صفحة (١٧٢).
(٣) في (أ): أوصل إلى أبي يزيد.

الخرقة في الماء، واغتسلتُ، وخرجتُ والخرقةُ عليَّ إلى أن غُشي عليَّ سبعين مرة، حتى نشفتِ الخرقة.

نقل أنه كان يدور في المقابر في بعض الليالي، فاتّفقَ في ليلةٍ أنِ التقى بابنٍ لبعض الأكابر، ومعه بَرْبَط[1]، وكان مشغولاً بضربه، فجرى على لسان أبي يزيد: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وكان ذلك الشخص سكرانَ، وانغاظ عن هذا الكلام، وضربَ البَرْبَطَ على رأس الشيخ حتى انكسر رأسه، وما عرفه، فذهب الشيخُ إلى زاويتِهِ، واصطبر إلى الصباح، فدعا شخصًا من المُريدين، واستفسر قيمةَ بَرْبَطِه، وشدَّ من الدراهم مقدارَ قيمة البربطِ في منديل، وبعثه مع طبقٍ من الحلوى إلى صاحب البربط، واعتذرَ عنه، فقال: الدراهمُ ثمنُ بربطك الذي كسرته على رأسي، والحلوى عوضُ الغصّة التي حصلتْ لك أوانَ الضرب. فلمّا اطّلعَ ذلك الشخص على الحال، قام من زمانه، وجاء إلى الشيخ، واعتذر عنده، وتاب من المعاصي ببركة ذلك الخُلق الحسن الصادر عن أبي يزيد رحمه الله.

نقل أنه كان يمشي مع جماعةٍ من المُريدين في طريق ضيّقٍ، فاستقبله كلب، ولا بدّ إما من رجوع الشيخ أو الكلب، فرجع الشيخ، وتركَ الطريقَ للكلب، فدار في قلبِ بعض المُريدين شبهةُ إنكارٍ في ذلك وقال: ما معنى ذلك؟ مثلُ الشيخ وجماعة من المسلمين يَرجعون لأجل كلبٍ، ولقد قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] فاطّلعَ الشيخ وقال: لمّا استقبلتُ الكلب، واستقبلني، قال الكلب: يا شيخ، وأيُّ شيءٍ سبقَ لي في الأزل حتى أُلبستُ جلدَ الكلب، وأنت صرتَ إنسانًا مشهورًا في الدنيا سلطان العارفين؟! فرجعت لذلك.

نقل أنه التقى بكلبٍ، فشمَّرَ عنه أذيالَهُ، فقال الكلب بلسان الحال[2]: يا شيخ، إن تلوّث ذيلُك بمثلي يتنظّفُ بغسله سبعَ مرات، وإن تلوّثْتَ بنفسك

---

(١) البَرْبَط: من آلات الطرب، يشبه العود. فارسي، معرب بربت. متن اللغة.

(٢) في (أ): بلسان فصيح.

لا تطهر بسبعين بحرًا. فقال الشيخ: أنت نجسُ الظاهر طاهرُ الباطن، وأنا طاهرُ الظاهر نجسُ الباطن. فسنترافقُ مدّةً من الزمان، ونرى من يطهرُ منّا. فقال الكلب: أنت لا تليقُ بمرافقتي ومصاحبتي، لأنّي ردٌّ للخلق ـ أي مردود عندهم ـ وأنت مقبولٌ عندهم، ومن التقاني يَضربني بالحجر، ومنِ التقاكَ يقول: السلامُ عليك يا سُلطان العارفين، وأنت قد حويْتَ دنًّا من الحنطة، وأنا لا أتركُ عظمًا للغد. فقلتُ: إذا ما كنتُ لائقًا بمرافقة كلبٍ، فكيف أليقُ بمصاحبة أرواح القُدْسِ، وقرب حضرة ربِّ العزة؟ قال: فاستولى عليَّ قبضٌ، وصرت خائبًا من طاعتي، قلت: أدخلُ السوق، وأشتري باللحم[1] زنارًا، وأشدُّ في وسطي لينقطع عن الإسلام عاري وشناري. فدخلتُ السوق، ورأيتُ زنّارًا مُعلّقًا، فقلت: بكم؟ والحالُ أنَّ قيمةَ مثلِه درهمٌ أو أكثر، فقال: هذا بألف دينار. فأطرقتُ رأسي، فسمعتُ هاتفًا يقول: أما علمتَ يا أبا يزيد أنَّ الزنّار الذي أنتَ تشدُّ في وسطك قيمتُهُ ألف دينار، بل أكثر؟ فطاب قلبي، وعلمت أن الله عليَّ نظرًا بعدُ.

نقل أنه جاء إلى أبي يزيد أحمد بن الخضرويه في ألف مُريدٍ له رحمهم الله، وكلُّهم كانوا يمشون على الماء، وبيد كلٍّ واحدٍ منهم عصًا، ولمّا دخلَ عليه أحمد بن خضرويه، قال للمُريدين: من ليس له أهليةُ صحبةِ أبي يزيد لا يدخل. فدخلَ الكلُّ معه، ووضعوا عصيَّهم في بيتٍ، فامتلأ منها، وسُمّي بيت العصي إلاّ شخصًا واحدًا، فإنّه لم يدخل، ووقف على الباب، وقال: لا أجد في نفسي قابليةً لهذه الصحبة. فلمّا اطمأنَّ بهم المجلسُ، قال أبو يزيد لأحمد رحمهما الله: لِمَ أخلفتم على الباب مَنْ هو أفضل منكم؟ فأدخِلوه. فأدخلوا ذلك أيضًا، وقال أبو يزيد لأحمد رحمهما الله: إلى متى تسيحُ في الأرض؟ قال أحمد رضي الله عنه: لأنَّ الماءَ من طول المكثِ يتغيّر. قال أبو يزيد رحمه الله: كن بحرًا لئلاّ تتغيرَ، وشرع في الكلام، وقال أحمد: تنزُّلُ

---

(١) قوله: باللحم ليست في (أ).

عن هذا المقام؛ فإني لا أفهمُ الكلامَ. فتنزّلَ الشيخُ عن ذلك المقام، ثم قال له أحمد: يا شيخ، تنزّلْ عن هذا أيضًا، إلى سبع مرات، حتى فهمَ كلامَه، فلمّا أتمَّ الكلام، قال أحمد: يا شيخ، رأيتَ إبليسَ معلّقًا على الباب؟ قال أبو يزيد: نعم، كان بيننا وبينه عهدٌ ألاّ يدخلَ بِسطامَ، ثم اتّفقَ له أنْ وسوسَ شيخًا[١]، حتى وقعَ في معصيةٍ، لذلك علّقَ.

سأل شخصٌ عن أبي يزيد، وقال: نرى في بعض الأيام طائفةً عندك على صورة الرجال ولا نعرفهم. قال الشيخ: هم من الملائكة، يَحضرون مجلسنا، ويسألون عنّي ما يحتاجون إليه من العلوم، وأنا أُجيبُهم بتوفيق الله تعالى.

نقل أنه رأى ليلةً في المنام أن ملائكةَ سماءِ الدنيا نزلوا إليه، وقالوا له: تعالَ نذكر الله تعالى. قال أبو يزيد: ليس لي لسانٌ ذكر الله تعالى. ثم جاء إليه ملائكةُ السماء الثانية، قالوا كذلك، وأجابهم بمثل ما أجابهم، وكذلك ملائكة السماء الثالثة، والرابعة إلى السابعة، وهو كان يقول كذلك، إلى أن قال له أهلُ السماء السابعة: ومتى يكونُ لك لسانٌ تذكر الله تعالى به؟ قال: إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النار النار، وثم يدور أبو يزيد حول العرش، ويقول: الله الله.

نقل أنه ما كانَ يجدُ ليلةً ذوق العبادة، قال لأصحابه: انظروا في البيت، هل تجدون فيه لهذا سببًا؟ تفحّصوا، فإذا في البيت نصفُ عنقودٍ من العنب، قال: هذا هو الذي صار سببًا، ثم قال: أخرجوه، وأعطوه شخصًا؛ فإنَّ بيتنا ليس حانوت البقالين. ففعلوا ذلك، ثم حصل للشيخ ذوقُ العبادة.

نقل أنه كان له جارٌ مُشركٌ، وكان لذلك الجارِ طفلٌ، فبكى في بعض الليالي، فلم يكن لهم سراجٌ يستضيئُون بضوئه، فقام الشيخ، وأخذ السراجَ بيده، ودخل بيت المشرك، ولمّا رأى الطفلُ ضوءَ السراج سكنَ بكاؤه، وقال المشرك: أليس حيفٌ علينا أن نبقى على ظلمتنا بعدما جاء إلينا أبو يزيد بالضوء. فآمن، وآمن معه أهلُه كلُّهم ببركة قدم أبي يزيد[٢] رحمه الله وأعماله.

---

(١) في (أ): أن وسوس شخصًا.

(٢) كذا الأصل، ولعلها: ببركة قدوم.

نقل أنه كان مشركٌ في عهد أبي يزيد، فقيل له: لِمَ لا تؤمن؟ فقال: كيف أؤمن، وأنا لا أقدر على مثل إيمان أبي يزيد وأعماله، ولا أرضى بإيمانكم وأعمالكم.

نقل أنه كان يومًا جالسًا في المسجد، قام وقال لأصحابه: قوموا نستقبل وليًا من أولياء الله تعالى. فلمّا خرجوا من باب المدينة التقوا بإبراهيم الهروي راكبًا على حمارٍ يأتي، قال أبو يزيد: نُوديَ في سرّي من الحق: أنْ يا أبا يزيد قم استقبالاً له، واستشفعْ به عندنا. فقال إبراهيم: لو فُوّضَ إليك أن تشفعَ للخلقِ الأولين والآخرين، لكان شفاعتُكَ في حفنةِ ترابٍ. فتعجّب أبو يزيد من هذا الكلام، وذهب به إلى بيته، وقدّم إليه طعامًا لذيذًا، فلمّا رآه إبراهيمُ، قال في نفسه: كيف يكون شيخًا من يأكل من مثل هذا الطعام؟ وأبو يزيد رحمه الله علمَ ما أضمرَهُ إبراهيمُ بالمكاشفة، وأمسك بيده بعد فراغهم من الأكل، وذهب به إلى ناحيةِ خلف حائطٍ، وضربَ يدَهُ على الحائط، فانفتحَتْ كُوّةٌ، فظهر فيها بحرٌ لا ساحل له، وقال: يا إبراهيم، تعالَ ندخل هذا البحر. ففزعَ إبراهيم، وقال: ليس لي هذا المقام. ثم قال له أبو يزيد: الشعيرُ الذي أخذتَهُ من الصحراء، وخبزته، وأدخلته في الجراب شعيرٌ أكلَتْهُ الدواب، وخرج مع زبلهم، وكان نجسًا، والحقُّ ما قال أبو يزيد إذ حالُ الشعير كان كما قال، وعلم إبراهيمُ أنّه أخطأ في اعتراضه على أبي يزيد فيما قدّم إليه من الطعام، وتاب عن ذلك، ورجع واستغفر.

قال شخص من المُريدين: كنتُ مع الشيخ في طبرستان، وشيّعنا جنازةً، فرأيتُ الشيخَ يمشي مع الخضر عليه السلام، واضعًا يده على كتف الخضر، والخضرُ عليه السلام كذلك، ولمّا رجعَ الناسُ من المقبرة، رأيتُ الشيخ يمشي في الهواء.

نقل أنه جاء إليه جماعةٌ، واشتكوا عنده من القحط، وعدمِ مجيء المطر، فأدخل رأسَه في جيبه، ثم أخرجَ، وقال: سوُّوا ميازيبَكم، إذ جاء المطر. ففي الحال ظهرَ غيمٌ، وجاءَ مطرٌ أيامًا وليالي.

نقل أنه في بعض الأيام مدَّ رجلَه، وكان عنده رجلٌ، هو أيضًا مدّ رجلَه، فجرَّ الشيخُ رجلَه إليه، وقال للرجلِ: مدَّ إليك[١] رجلَك. فما أطاق الرجلُ، وبقيت رجله كذلك ممتدَّةً إلى آخر عمره.

نقل أنه مدَّ رجله وقتًا، عبرَ هناك شخصٌ، وداسَ رجلَه، فقيل له في ذلك، فقال: ما صار هو رجل، علّقتم عليه طاماتٍ. فما مضى عليه زمانٌ إلاّ ابتُلي في رجله بالأكلة، وما انقطعت الأَكَلةُ من نسله وذرّيّته إلى كم بطن.

نقل أنه جاء إليه شخصٌ للامتحانِ من بعيد، وسأل منه مسألةً في الطريقةِ، وقال: هذه المسألة مخفيةٌ، على أنّي أُريدُ أن تكشفَها عليَّ. وعلم الشيخُ عُجبَهُ وإنكاره وامتحانه، وأمره أن يذهب إلى جبلٍ هناك، وفيه مغارةٌ وسرداب، قال: فيها صديقٌ من أصدقائنا، اسألْ هذه المسألةَ منه يكشفْها لك. فذهب الرجلُ إلى المغارة ودخل فيها، ونزلَ، فما رأى أحدًا، وكانتِ المغارة مظلمةً، وهو فيها إذ تحرَّكتْ أرضُ المغارة، وطلع ثعبان كلٌّ من عينيه كأنَّها طاسٌ مملوء من الدم، فغلب عليه الرُّعبُ والخوف، وخرجَ منها هاربًا، وترك أحدَ نعليه في المغارة، ولم يستجرِ أن يرجعَ ويأخذ، وجاء إلى الشيخِ بنعلٍ واحد، وتابَ على يده، ورجع عن الإنكار، فقال الشيخ: سبحان الله، ما قدرتَ من هيبة مخلوقٍ أن ترجعَ وتأخذ الكفش[٢] ـ أي المشائي ـ، فكيف تقدر مع عبيد الخالق على الكشف، والله أعلم.

نقل أن الشيخ سعيدَ المَنْجوراني[٣] زار أبا يزيد رضي الله عنهما، وأراد أن يمتحنه، فأشار الشيخ أبو يزيد إلى مُريدٍ له كان راعيًا للغنم، فذهبَ سعيد إلى ذلك المُريد، فصادفه وهو في الصلاة، والغنمُ ترعى، وهناك جماعةٌ من الذئاب تحومُ حول الغنم، ولا يقرب إليها واحدٌ، فلمّا فرغَ من الصلاة، وسلم عليه

---

(١) في (أ): جرَّ إليك.

(٢) الكفش: في اللغة الفارسية: الحذاء. المعجم الذهبي.

(٣) المنجوراني. منسوب لقرية مَنْجوران من قرى بلخ. الأنساب ١١/ ٤٩٣.

سعيد، قال له الراعي: ماذا تشتهي؟ قال: الخبز الحارّ، والعنب. وكان بيده قضيبٌ، فكسره نصفين، وغرز أحدَ الشقّين عنده، والشقَّ الآخر عند سعيد، فصار في الحال شجرتان[1] للكرم، وأثمرتِ التي عند الراعي عنبًا أبيضَ، والتي عند سعيد عنبًا أسود، فقال سعيد: لِمَ صارَ ما عندي أسودَ، وما عندك أبيض؟ قال الراعي: لأنّي سألتُ على يقينٍ، وأنت سألتَ على طريق الامتحان، فصارَ مقصودُ كلٍّ لائقًا بحاله. فحين أرادَ سعيدٌ الرجوع، أعطاه الراعي كساءً، وقال: احفظْه لئلا يضيع. ثم بعد مدَّةٍ قصدَ سعيدٌ زيارةَ الكعبة المعظّمة، فضاعَ الكساءُ عنه في عرفات، فاتّفقَ أنه جاءَ إلى بِسطام، وذهب إلى الراعي، فوجد الكساء عنده.

نقل أنه قيل لأبي يزيد: من شيخُك ومرشدك؟ قال: امرأةٌ عجوزة. قيل: كيف ذلك؟ قال: خرجتُ من البيت يومًا في غلبات الوجد والشوق، ودخلت الصحراء، فإذا أنا بعجوزة معها جرابٌ فيه دقيق، وأمرتني بحمل الجراب، وكنتُ في حالةٍ لم تكن لي قدرةٌ على ذلك، فأشرتُ إلى أسدٍ، فحملَ جرابَها، ووصَّيتُها أن لا تخبرَ عن الحالِ في المدينة، ولا تقولَ مَنْ رأتْ، وكنتُ لا أُريدُ أن يَعرفني أحدٌ. فقالت العجوزة: وماذا تقول! فإني قد رأيتُ ظالمًا معجبًا. فقال الشيخ: وما هذا الكلام؟ قالت العجوزة: هل هذا السبعُ مُكلّفٌ؟ قال: لا. قالت: فإن الله تعالى رفع عنه التكليف والتحميل، وأنت حمّلته، أفلا تكون ظالمًا؟! قال الشيخ: بلى. قالت العجوزة: ومع هذا تُريدُ وتشتهي أن يعلمَكَ أهلُ المدينة، ويطّلعون على أنَّ الأسد في طوعك ورضاك، وأنت صاحبُ كرامات، أفلا يكون هذا عُجْبًا؟ قال الشيخ: بلى. ورجع عمّا كان عليه، ورأى نفسَهُ مُنَزّلةً من الأعلى إلى الأسفل، قال: وصرت بحيث إذا كان تظهرُ عليَّ كرامات، كنتُ أرجو من الله تعالى أن يكشف عليَّ تصديقَ ذلك، فكان يظهرُ نورٌ عليه، مكتوبٌ بخطٍّ أخضر: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، نوحٌ نَجيُّ الله، إبراهيمُ خليل الله، موسى كليمُ الله، عيسى روح الله، فكنتُ أعلمُ

---

(١) كذا الأصلين.

بشهادة الشهود الخمسة صدقَ ذلك، حتى بلغتُ إلى مقامٍ لا أحتاجُ إلى الشاهد.

أيضًا قال أحمد بن الخضرويه رحمه الله: رأيتُ الله في المنام، فقال: الناسُ كلُّهم يطلبون منّي إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

نقل أنه كان شقيقُ البلخي، وأبو تراب النَّخْشبي عند أبي يزيد رحمهم الله، وحضر طعامٌ، فشرعوا يأكلونَ، وكان للشيخ مريدٌ وهو قائم بين يديهم للخدمة، فقال له أبو تراب: اجلسْ وكُلْ معنا. قال أنا صائم. فقال أبو تراب: كُلْ معنا وخذ أجرَ شهر. قال: لا أُفطر. قال شقيق[1]: افطر معنا ولك أجرُ سنةٍ. فامتنعَ المريد، ولم يفطر، فقال أبو يزيد: اتركوا من هو مطرودٌ ومردودٌ. قيل: فما مضى عليه قليلٌ إلاّ اتُّهم بسرقةٍ، وقطعت يداه كلتاهما[2]

نقل أنه كان يومًا في مسجدٍ، وعصاه موضوعةٌ في جنب عصا شيخٍ، فوقعتْ عصاه على عصا الشيخ، ووقعتا جميعًا على الأرض، فانحنى الشيخُ صاحبُ العصا وأخذَ عصاه، ثم لمّا خرجا من الجامع ذهبَ أبو يزيد رحمه الله إلى صاحبِ العصا، واستحلَّ منه واعتذر، وقال: تعبتَ في الانحناءِ لأجل أخذِ العصا.

ونقل أنه قال: وصلتُ إلى دجلةَ يومًا، وأردتُ العبورَ عليها، فإذِ التأمَتْ حافتا دجلة لأعبر، فقلت: أنا لا أغترُّ بذلك، فإنَّ الناسَ يعبرون على دجلة بنصفِ درهم، فإنّي لا أضيع عمري وحاصلَهُ لأجل نصف درهم؛ فإني أريد الكريمَ لا الكرامة.

نقل أنه قال: عزمت على أن أسألَ الله تعالى أن يكفيني مؤنةَ الطعام والنساء، ثم لمّا تأمّلتُ في ذلك رأيتُ أن رسولَ الله ﷺ ما سأل من الله ذلك،

---

(١) في الأصلين: قال أبو تراب. والمثبت من. الخبر نفسه، والترجمة العربية ٣٧١.

(٢) في الحدود من كتب الفقه لا تقطع يدا السارق.

فأحجمتُ، وتركتُ السؤال حتى أن الله تعالى كفاني مؤنتهما إلى أنّي لو رأيتُ امرأةً وحجرًا[1] لكانا عندي سواء

نقل أنه صلّى خلفَ شخص وقتًا، فلمّا قضى الإمامُ صلاته نظر أبا يزيد مُصلّيًا خلفه، فجاء إليه وقال: يا شيخ، أعلمُ أن لا كسبَ لك ولا مال، فأخبرني من أين تأكل؟ قال الشيخ: توقّفْ إلى أن أقضي الصلاةَ التي صلّيتها خلفَكَ. قال الإمام: ولِمَ يا شيخ؟ قال: لأنّه لا يجوزُ الصلاة خلفَ من لا يرى الرزقَ من الله تعالى، ولا يعلم أنّه ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قال: يزورني شخصان، يصيرُ أحدُهما ملعونًا، والآخرُ مرحومًا. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنه يجيءُ إليَّ شخصٌ، وربّما أكون في تلك الحالة مُستغرقًا في بحر الفكرةِ والمكاشفة، فيراني كالمجنون الزائل العقل، فيُفارقُني، ويغتابُني، ويستحقُّ اللعنَ بذلك، ويجيءُ إليَّ الآخرُ، ويستفيد منّي في تلك الحالة، ويكونُ ذلك سببًا لاستجلاب الرحمة.

قال حاتم الأصم لأبي يزيد: سمعتُ أنّك قلتَ لجماعة تلاميذك: يشفع كلٌّ منكم يومَ القيامة لواحدٍ من أهل النار ليدخلَ الجنَّة، ويدخل هو مكانه النار، وإلاّ فأنا بريءٌ منه؟ قال: نعم، والآن أقول كذلك. قال حاتم: إذا كنتَ في هذه الحالة، فلِمَ لا تدعو الناسَ إلى الحقِّ؟ قال: لأنّي لا أقدرُ أن أحلَّ عقدًا عقده الله تعالى.

نقل أنه سمع خطيبًا يقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] جرى الدمُ مكانَ الدمع من عينيه، واضطرب، وضربَ نفسَه على الأرض إلى أن زال عقلُه، ووقع مغشيًا عليه.

نقل أنه رآه خادمٌ له في بعض الأيام يرجفُ، قال: لِمَ ترجف يا شيخ؟ قال: لا بدّ من سلوك طريق الصدق ثلاثين سنة، ثم كنسِ المزابل بالوجه، ووضعِ

---

(١) في (أ): امرأة أو رجلاً.

الجبهة على ركبةِ الأحزانِ والغموم، حتى يعلمَ سببَ تحرّك الرجال، وتحصيل الوقوف على أحوالهم.

نقل أن عسكرَ الإسلام صار ضعيفًا، وكاد ينهزمُ، فصاح بعضُهم وقال: يا أبا يزيد، أدركْنا. فظهرتْ في الحالِ نارٌ من جانب خراسان، وانهزم عسكرُ الكفار، وانتصر أهل الإسلام

نقل أنه قال: من لم يقرأ القرآنَ، ولمِ يشيّع جنازةَ المسلمين حسبَ الطاقة، ولم يعدِ المرضى، ولم يشفقْ على اليتامى، ثم يدّعي هذا الحديث، فاعلمْ أنّه مدّعٍ كذّاب.

قال شخص: اصف قلبَك، لأقولَ لك شيئًا، وأكلّمك كلامًا. قال أبو يزيد: منذ ثلاثين سنة أسألُ اللهَ تعالى أن يَرزقني قلبًا صافيًا، ولم أجدْه بعدُ، فكيفَ يصيرُ صافيًا في هذه الساعة؟!

أقول: الظاهرُ أنّ مرادَه رحمه الله صفاءَ القلب عمّا سوى الله تعالى، لا عنِ الوسواس والكدورات، والله أعلم.

نقل أنه قال: يظنُّ الناسُ أن الطريقَ إلى الله تعالى سهلٌ مُضيء، وأنا سنين سألتُ اللهَ تعالى ليهوّنَ عليَّ هذا الطريق قدر سَمِّ إبرة، ويفتح عليَّ منه شيئًا يسيرًا.

نقل أنه إذا لم يصل إليه في بعضِ الأيام بلاءٌ، كان يقول: إلهي، رزقتني الخبزَ، فارزقني الإدام - يعني بلاء.

نقل أنه قال: نُودي في سرّي: يا أبا يزيد، خزائنُنا مملوءةٌ من الطاعات المقبولة، والعباداتِ المحمودة، فإنْ كنتَ طالبًا لنا فاعملْ عملاً لا يكون عندنا، ولا يكون لنا. فقلت: وما ذلك يا رب؟ فقال: العجز والاضطرار، والضراعة والانكسار.

قال: متى ما يجيء إليّ مُريدٌ، فلا بدَّ وأن أتنزّلَ له من مقامي لإرشاده.

نقل أنه إذا تكلّم في صفات الله تعالى كان ساكنًا مُطمئنًّا، وإذا تكلّمَ في ذات الله تعالى تحرّك واضطرب.

قال بحضرته شخصٌ: العجبُ ممّن[1] يعرفُ اللهَ تعالى كيف يعصي!؟ فقال أبو يزيد: العجبُ ممّن يعرفُهُ ويطيعُهُ. يعني إذا عرفَه، وغرقَ في بحار معرفته، تحيَّرَ ودهش، ولا يبقى له عقلٌ ولا شعور، ولا رسمٌ ولا أثر، فكيف يطيعه، وذلك مثلُ تَحيُّرِ نسوةِ مصرَ في جمالِ يوسف عليه السلام، حتى قطّعن أيديهن، ولم يشعرن.

نقل أنه قال: ذهبتُ إلى الكعبة حرسها اللهُ تعالى أوّلَ مرةٍ، فرأيتُ البيتَ، ثم ذهبتُ ثانيًا فرأيت البيتَ وصاحبَهُ، وثالثًا رأيتُ صاحبَ البيت.

أقول: يعني أنّ الله تعالى قد تجلّى له في المرة الثالثة تجلّيًا اضمحلَّ في ذلك التجلّي البيتُ وغيرُه، وصرتُ ملتذًّا محفوظًا من ذلك التجلّي، ولم يبق لي التفاتٌ إلى البيت، ولا شكَّ أنَّ هذا مقامُ الخواصِّ الذين غرضُهم ومقصودُهم من قطعِ البوادي والفيافي ليس إلاّ الكشف والمُكاشفة والمُشاهدة في الكعبة المعظّمة، لا مجرَّد زيارة البيت، فإنه يقنع به العوامُ الذين لا معرفةَ لهم سوى ذلك، والله أعلم.

قيل: جاء إليه شخصٌ يطلبه، فقال أبو يزيد رضي الله: وأنا أيضًا أطلب أبا يزيد عنه منذ ثلاثين سنة ولا أجده.

قيل له: أخبرنا عن مجاهداتك. قال: أمّا المُجاهدةُ الكبرى فلا تطيقون استماعها، وأمّا من الصغار فإنّي أمرتُ نفسي شغلاً، فما وافقتني، فمنعتها الماءَ سنةً كاملة.

وقيل: كان استغراقه إلى حدٍّ كان له خادمٌ يخدمه، وقد صاحبه عشرين سنةً وما فارقه قطُّ، وكلّما يراه كان يسألُهُ اسمَهُ، فقال له الخادم في بعض الأيام: يا شيخ، أتستهزىء بي، فإنّي ملازمُكَ مدّةً كثيرةً، وأنت كلَّ يومٍ تقولُ:

(١) في (ب): أتعجّبُ ممن.

ما اسمُكَ؟ قال: لا أستهزىء، ولكن جاء اسمُهُ ومحا جميعَ الأسماء عن لوح قلبي، فإني أحفظُ اسمك، لكن أنساه.

نقل أنه قيل له: بم وصلتَ إلى هذا المقام، وأدركت المرام؟ قال: خرجتُ إذ كنت صبيًا في بعض الليالي المُقمرةِ إلى الصحراء، ورأيت العالمَ قد سكنَ واطمأنَّ، ونظرتُ إلى باب عظمة الله تعالى ورحمته، فإذا هو مفتوحٌ، ووجدت عظمةً رأيت ثمانية عشر ألف عالم في جنبها أقلَّ من ذرّةٍ، فحصلَ لي حالٌ، وغلبَ عليَّ وجدٌ، قلتُ: إلهي، بابٌ بمثلِ هذه العظمة ويكون خاليًا! ومنزلةٌ على هذا الارتفاع والتعالي ويكون مخفيًا! فصاحَ هاتفٌ وقال: ليس الخلوُّ لأنه لا يتوجَّهُ إلينا أحدٌ؛ ولكن لأنَّا لا نرضى إلاّ بمن يليقُ ببابنا، وليس كلُّ أحدٍ يليقُ به. قال أبو يزيد: خطرَ ببالي أن أسألَ جميع الخلق؛ لأنّي ما رأيتُهم في جنب تلك العظمةِ مقدار ذرةٍ؛ لكن قلت: هذا المقامُ إنّما هو لمحمدٍ المصطفى عليه السلام فراعيتُ الأدب، فسمعتُ خطابًا مضمونة: يا أبا يزيد، برعايتك هذا الأدب رفعنا ذكرك، ولذا تُسمّى وتُدعى إلى يوم القيامة سلطان العارفين. وحُكيتْ هذه الحكاية في مجلسِ الإمام أبي نصر القشيري رضي الله عنه قال: بهذه الهمَّةِ نال أبو يزيد ما نال.

حُكي أنّه كان يُصلّي ليلةً صلاةَ العشاء، وكلّما كان يُصلّي أربعَ ركعات يستأنفُ أربعًا أُخرى، ويقول: إلهي، هذه إنّما تليقُ بأبي يزيد لا بجنابك، إلى أن طلعَ الفجر، وما صلّى الوتر بَعْدُ، ثم قال: إلهي، التاركون للصلاة كثيرٌ، فعدَّ أبا يزيد منهم؛ فإني اجتهدتُ أنْ أُصلّي صلاةً لائقةً بك وما قدرت عليها؛ بل صلّيتُ صلاةً لائقةً بي.

نقل أنه قال: بعد الرياضةِ والمُجاهدة أربعين سنةً رُفعَ الحجاب، وحصلَ لي مقامُ الكشف والشهود، فشرعتُ في التضرُّعِ، وطلبتُ مقام القُرب، وَرَدَ خطابٌ، وقيل: يا أبا يزيد، لك كوزٌ وفروة عتيقة، ومع ذلك ترجو مقام القرب؟! فطرحتُ الكوزَ، ورميت الفروةَ، فنُوديت: يا أبا يزيد، قل لجماعةِ المُدّعين: إنّ أبا يزيد مع كثرةِ رياضته ومجاهداته لم يحصلْ له مقامُ القرب

بسبب أن كان له كوزٌ وفروة، فتركَهُما، ثم وصلَ إلى القُرب المقصود، فكيف يكون حالُكم مع كثرةِ خلافكم ودعواكم، وجعلكم الطريقةَ شِركًا للهوى؟ فحاشا أن يكونَ لكم وصولٌ إليه.

نقل أنَّ شخصًا كان ينتظر أبا يزيد في ليلةٍ إلى الصباح؛ لينظرَ ماذا يفعل، ففي السحر، قال مرَّةً: الله. وسقط مَغشيًّا عليه، وجرى الدمُ عنه، بعد ذلك قال: قيل لي: مَنْ أنتَ حتى تُجريَ حديثَنا على لسانك؟

أقول: وقد أُنشدَ في هذا المعنى بيتان، وهما هذان[١]:

ما إن ذكرتُكَ إلاّ همٌّ يَلعنُني قلبي وسِرّي وروحي عند ذكراكا
كأنَّ ثمَّ رقيبًا منك يَهتفُ بي إيّاك ويحك والتذكارَ إيّاكا[٢]

والله أعلم.

نقل أنه رحمه الله كان في ليلةٍ من الليالي قائمًا على رُؤوس أصابع الرجلين من أوّلِ الليلة إلى آخرها[٣]، والدمعُ يسيلُ على الأرض، وشخصٌ من المُريدين مُطّلعٌ عليه، وكان يترقَّبُهُ إلى الصباحِ متعجّبًا من حاله، متحيِّرًا في شأنه، فلمّا أصبحَ قال الخادم: يا شيخُ، وجدتُكَ البارحة غريقًا في بحر الوجد، وأُريدُ نصيبًا من ذلك. فقال أبو يزيد: في أوّلِ قدمٍ خطوتُ وصلتُ إلى العرش، فقلتُ: يا عرش، أخبرني، فإنَّ الله تعالى قد أخبر منك حيث قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال العرش: يا أبا يزيد، أنت حدِّثني؛ فإنَّ الله تعالى قال: «أنا عند المُنكسرةِ قلوبُهم، والمندرسةِ قبورُهم»[٤]. ثم قال أبو يزيد:

---

(١) ذكرهما القشيري في رسالته ٣٣٤ (باب الذكر) من غير عزو.

(٢) في الرسالة: إلاّ هم يزجرني... حتى كأن رقيبًا.

(٣) انظر الحاشية (١) صفحة ٧٥٧.

(٤) قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٣٤ (٦١٤) تحت قول: «أنا عند المُنكسرةِ قلوبُهم من أجلي»: قال في المقاصد: ذكره في البداية للغزالي، وقال القاري عقبه: ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية. قلت: وتمامه: «أنا عند المُنكسرةِ قلوبُهم من أجلي» ولا أصل لهما في المرفوع. اهـ. وفي الحلية ٤/ ٣٢: قال داود عليه السلام: إلهي، أين أجدك إذا=

سبحان الله، أهلُ السموات يطلبونَ ويَسألون من أهل الأرض! وأهلُ الأرض من أهل السماء! والشبانُ من الشيوخ! والشيوخُ من الشبان! ثم قال: وصلتُ إلى مقام القُرب والشُّهود، فخُوطبتُ: سلْ. فقلتُ: ليس لي سؤالٌ ولا إرادة. ثم قيل لي: سل. قلتُ: لا أسألُ إلاّ إيّاك. قيل: ما دامَتْ ذرةٌ من وجودك باقيةٌ، هذا السؤال منك مُحال، دعْ نفسَكَ وتعال. قلت: لا أرجعُ عن هذه الحضرة بغيرِ تصيبٍ للأصحاب والإخوان.

أقول: ويُناسبُ المقام ما أُنشد:

شربتُ شرابًا طيِّبًا عند طيِّبٍ كـذاك شـرابُ الطيِّبيـنَ يَطيـبُ
شربنا وأَهرقنا على الأرضِ كاسَنا وللأرضِ من كأسِ الكرامِ نَصيبُ

والله أعلم.

فقيل: وما مطلوبُك ومرادُك؟ قلتُ: أن ترحمَ على جميع الخلائق من عبادك المؤمنين. قيل: انظر إلى وراءَك. فنظرتُ، فما رأيتُ أحدًا من المسلمين إلاّ وله شفيعٌ، ورأيتُ الله تبارك وتعالى أرحمَ وأرأفَ وأشفقَ عليهم منّي، فسكتُّ حينئذٍ، قلت: يا ربّ، ارحمْ إبليس. قيل: تهجّمْتَ، هو في النار، وتليق به النار، أنت اجتهدْ لئلا تصيرَ لائقًا بالنار.

نقل أنّه قال: إنَّ الله تعالى عرضَ عليَّ ألفَ مقامٍ، وفي كلِّ مقامٍ عرضَ عليَّ مملكةً، وأنا ما قبلتُ شيئًا من ذلك، ثم قيل لي: وما مُرادُك ومطلوبُك؟ قلتُ: مُرادي أن لا يكون فيَّ مراد[1].

نقل أنه كان إذا التُمِسَ منه دعاءٌ، يقول: إلهي، أنت خالقٌ له، وهو مخلوقٌ وعبدٌ لك، فمن أنا لأكونَ واسطةً بين السيِّد وعبدِهِ؟ قال: لأنّه تعالى عليمٌ،

= طلبتك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي، وفي الحلية أيضًا ٢/ ٣٦٤، و٦/ ١٧٧ من قوله تعالى لموسى عليه السلام. وقوله: «والمندرسة قبورهم» ليست في (ب).

(١) في (أ): ألا يكون ليَّ مراد.

لا يَخفى عليه شيءٌ من السرائر، فمالي وهذا التهجُّم والتوسّط بين السيد وعبده.

نقل أنه جاء إليه شخص وقال: علّمني شيئًا يكون سببًا لنجاتي. قال: احفظْ حرفيْنِ من العلم، واعلمْ أنّك لا تحتاجُ بعدهما إلى شيءٍ، فاعلمْ أنّ الله مطّلعٌ عليك، ويراك وعملك.

نقل أنه كان يمشي في طريقٍ، ويمشي خلفه شخصٌ، كلّما يرفعُ الشيخُ قدمَهُ، يضعُ هذا الشخصُ قدمَهُ في موضعِ قدمه، فالتفتَ إليه الشيخُ، وقال: يا فلان، لا تتبعِ المشايخ كذلك. قال ذلك الشخص: اعطني فلقةً من فروتك، أتبرّكُ بها. قال الشيخ: فإن لبستَ جلدَ أبي يزيد لا ينفعك إن لم تعمل بأعماله.

نقل أنه رأى في غلبات الشوق شخصًا أشعثَ متغيّرَ اللون، رثيثَ الوضع، يقول: إلهي، انظرْ إليّ. قال الشيخ: أنت على هذا الحال وتسألُ الله تعالى أن ينظرَ إليك؟! قال الشخص: نعم، ليحسُنَ حالي، ويكملَ جمالي. فطاب وقتُ الشيخ، وقال: أنت أصدقُ في هذا المقال منّي.

نقل أنه قال: قطعتُ سبعين ألف زنّارٍ، وبقي زنّارٌ واحدٌ، فما قدرتُ على قطعه، فتضرّعْتُ وقلت: إلهي، ارزقني قوةً أقطعُ هذا أيضًا. فسمعتُ صوتًا يقول: يا أبا يزيد، حللتَ الزنانيرَ كلَّها، وأنت لا تقدرُ على قطع هذا؛ بل هو مُفوّضٌ إلينا.

نقل أنه قال: قرعتُ بابَ الحقِّ بكل يدٍ، ما فُتحَ لي إلى أن قرعتُهُ بيدِ قبولِ البلاء، فانفتح، وسألتُ الدخولَ في باب القُرب بكلِّ لسانٍ، فلم يُؤذنْ لي إلى أن سألتُ بلسان الحزن، وسعيتُ في هذا الطريق بكلِّ قدمٍ فما بلغتُ إلى باب العزّة إلى أن سعيت بقدمِ الذُّلِّ.

نقل أنه قال: كنتُ ثلاثين سنة أقول: إلهي، افعلْ بي كذا، واعطني؛ فلّما وصلتُ إلى أولِ مقامِ المعرفة، قلتُ: إلهي، كن لي، وافعلْ ما تُريد.

نقل أنه قال: قلتُ في المناجاة: كيف الوصولُ إليك؟ سمعتُ قائلاً يقول: طَلِّقْ نفسَكَ ثلاثًا، ثم قل: الله.

نقل أنه قال: إنْ طلبَ الله تعالى منّي يومَ القيامة حسابَ سبعين سنةً، أنا أطلبُ منه تعالى حسابَ سبعين ألفَ سنةٍ، حيث قال قبل سبعين ألفَ سنة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأوقعَ عالمَ الأرواح في الاضطرابِ من هذا الخطاب إلى الأبد؛ بل امتلأتِ السموات والأرضون شوقًا من هذا الخطاب.

قال: ثم سمعتُ خطابًا: يا أبا يزيد، يومَ القيامة اقطعْ أعضاءَك ذرَّةً ذرة، وأرزقُ كلَّ ذرّةٍ منها بصرًا ينظر إلى جمالي، وأقول: هذا حاصلُ حساب السبعين ألف سنة.

نقل أنه قال: لو فُتحتْ ثمانيةُ أبواب الجنة في حجرتي، ويُقطعُ لي مُلك العالمين، لا يُساوي جميعُ ذلك بآهٍ واحدٍ طلعَ منّي في سحرٍ على غلبات الشوق، حين ذكرتُه من صميم القلب؛ بل لا أُعطي نَفَسًا تنفستُ به مع ذكره بثمانية عشر ألف عالَمٍ.

نقل أنه قال: إن لم يرزقني اللهُ تعالى النظرَ إلى جماله ووجهه الكريم في جنّةِ عدنٍ التي وعدَها للمُتّقين، أندبُ وأبكي وأنوح حتى ينسى جميعُ أهلِ النار[1] رقةً على عذابهم في النار.

قال الذين كانوا قبلنا: نزل كلٌّ منهم إلى شيءٍ، وأمّا أنا فلا أنزلُ إلى شيءٍ سواه، وفدته نفسي بالكلّية.

قال: توجّهتُ إلى الخلقِ أربعين سنةً، ودعوتهم إلى الحقّ، فما أجابني أحدٌ منهم، ثم أعرضتُ عنهم، وتوجّهتُ إلى الحقّ، وجدتهم قد سبقوني إليه.

والمعنى: أنّي رأيتُ عنايةَ الله تعالى في حقّهم أكثرَ من عنايتي فيهم.

قال: عكفتُ على هذا الباب سنين كثيرة، فما صار نصيبي عاقبةَ الأمرِ إلاّ الهيبة والحيرة.

---

(١) في (أ): حتى يبكي جميع أهل النار.

قال: وصلتُ إلى باب العزّةِ والعظمة، فلم أجدْ هناك ازدحامًا؛ لأن أهل الدنيا كانوا مشغولين بالدنيا، محجوبون[١] عن الآخرة، وأهل الآخرة كانوا مشغولين بالآخرة، وأهل الدعوى بالدعوى، ووجدتُ أرباب الطريقة والتصوّفِ غرقى في بحار العجز.

قال: كنت طائفًا بالبيت زمانًا، فحين عرفتُ الله تعالى، ووصلت إلى قافِ القُرب، وجدتُ البيتَ طائفًا بي.

قال: كنتُ أطلب قلبي ثلاثين سنة، ثم سمعتُ في سحرٍ نداءً: يا أبا يزيد، ما لَكَ تَطلبُ غيرنا فما لك والقلب!

قال: ليس الرجلُ من يتبعُ مرادَهُ؛ بل الرجلُ أن يجيءَ إليه مرادُه حيث ما يكون.

قال: يُرزق المُريدُ حلاوةَ في الطاعة، فإن فرحَ بها يصير فرحُهُ حجابًا له من قربه.

قال: إن أدخلني الله تعالى النارَ بدلَ جميع الخلق، وأنا أصبرُ، فبالنظرِ إلى دعواي في محبّته لا يكون إلاّ شيئًا قليلاً، وإن غفرَ لي ولجيمع الخلائق، فبالنظر إلى كمالِ رأفته ورحمته لا يكون أمرًا كثيرًا.

قال: التوبةُ من المعصيةِ واحدةٌ، ومن الطاعة ألف. يعني: العُجبُ في الطاعة أقبحُ من المعصية.

قال: كمالُ درجة العارف احتراقُهُ في المحبة.

قال: إن لله عبادًا إن عُرضت عليهم الجنّاتُ الثمانية مع زينتها وحورها وقصورها، فتضرّعوا وجزعوا واستغاثوا مثل أهلِ النار من النار.

قال: العابدُ بالحقيقة، والعاملُ بالصدق من رفعَ بسيفِ المجاهدة رؤوسَ

(١) كذا الأصلين.

جميع مراداته، وتلاشَتْ واضمحلّت شهواته ومنهياته في محبّة الله تعالى، ثم لا يحبُّ إلاّ ما أحبَّ الله، ولا يتمنّى إلاّ ما أراد الله تعالى.

قال: إن الله تعالى بسبب رضائه يُعطي الجنَّة عباده. ثم قال: إذا رضي الله عن أحدٍ فما له بعد ذلك والجنَّة؛ فإنَّ ذرةً من حلاوةِ المحبَّةِ والمعرفة خيرٌ من ألفِ حُورٍ وقصورٍ في الفردوس الأعلى.

قال: علمُ التوحيد يُعجزُ كثيرًا من الرجال، ويجعلُ كثيرًا من العاجزين رجالاً.

قال: إن قدرتم فارجعوا إلى فِنائكم الأول حتى تصلوا إلى سرِّ(١) هذا الحديث، وإلاّ فصلاحُكم وزهدُكم هباءٌ تكيلونها.

قال: كما يضرُّكم الذنب يضرُّكم تحقيرُ الأخ المؤمن.

قال: الدنيا لأهلها غرورٌ في غرورٍ، والآخرة لأهلها سرورٌ [في سرور]، ومحبّةُ الله تعالى لأهل العرفان نورٌ على نور.

قال: العارف إذا سكتَ يكونُ مرادُه أن يتكلَّم الحقُّ، وإذا غمضَ عينه مقصودُه(٢) أنه إذا فتح نظرَ إلى وجههِ الكريم، وإذا وضعَ رأسه على ركبتيه يُحبُّ أن لا يرفعَ إلى أنْ يسمعَ صوتَ إسرافيل، وذلك لغايةِ أُنسه بالله تعالى.

قال: علامةُ معرفة الله تعالى الفرارُ من الخلق، والسكوتُ في معرفته.

قال: من ابتلي بالخلق فإنه لا يَخلُ عليه بالمملكة، وهو حينئذ لا يقنعُ بالعالمين.

العشقُ إذا دخل لا يتركُ في القلب ما دون الحقِّ.

قال: غدًا يومَ القيامة يُؤذنُ الخلق لزيارة ربِّ العالمين، ثم تُعرضُ عليهم صورٌ في الطريق، من اختار صورةً منها يُمنعُ عن الزيارة.

---

(١) في (أ): حتى ترجعوا إلى سرٍّ.

(٢) في (أ): وإذا غمض عينه حصل مقصوده.

قال: لا يكونُ شيءٌ للعبد خيرًا من أن لا يكون له شيءٌ: لا زهد ولا علم ولا عمل، فإذا لم يكن له شيءٌ يكون الكلُّ له.

أقول: معناه أنّه لا يكونُ له شيءٌ في حدِّ ذاته؛ بل يكون زهدُه لله، وعلمُه وعملُهُ لله، ولا يكون له نظرٌ ولا ابتهاج أيضًا إليها، فإذا كان كذلك لا شكَّ يكون الكلُّ له وينفعه، والله أعلم.

قال: إن هذه القصة ينبغي لها الألم، إذ لا يحصلُ شيءٌ من العلم.

قال: طلبُ العلم إنّما ينفعُ من يترقّى من العلم إلى المعلوم، وكذا من الخبرِ إلى المخبر، وأمّا من طلبَ علمًا للمباهاة، وطلب بذلك زينةً بين الناس ليقبَلَهُ مخلوق، فكلُّ يومٍ يزيد بعدُه من الله تعالى، ويصير مهجورًا منه.

لا قدرَ للدنيا بحيث يكون تركُها صعبًا على شخص.

قال: يستحيلُ أن يعرفَ اللهَ تعالى أحدٌ ولا يحبّه.

لله عبادٌ لو حُجبوا منه ساعةً في الدنيا أو في الآخرة لما عَبَدوه ولا أَطاعوه.

قال: لأنَّهم لو حُجبوا عنه طرفةَ عينٍ فنوا، ومَنْ فنيَ وعدمَ وتلاشى وهلَكَ ولا يبقى له اسمٌ ولا رسم ولا أثر كيف يعبدُ الله ويطيعه؟!

من عرف الله تعالى لا يفتحُ لسانَه بذكرِ غيره.

أقلُّ شيءٍ يجبُ على العارف أن يهلَكَ ويصرفَ جميع شيءٍ له في طريقه من المالِ والمُلْك، والحقُّ هو هذا؛ لأنَّ جميعَ ما في الدنيا والآخرة بالنسبة إلى شعاعٍ من أشعَّةِ محبَّتِهِ يُعدُّ قليلاً.

ثوابُ العارف من الله تعالى إنَّما هو الحقُّ تعالى وتقدّس.

لو كان من فوقِ العرش إلى ما تحت الثرى، مع مئةِ ألفِ آدم بذرِّيّاتهم وأتباعهم ونسلهم[1] لا يُعدّ ولا يُحصى، ومئة ألف مَلَكٍ مُقرَّبٍ مثل جبريل وميكائيل عليهما السلام يدخلُ زاويةً من زوايا قلب العارف لا يُدركهم

(١) في (ب): بذرياتهم وأتباعٍ ونسلٍ.

ولا يحسُّ بهم في جنب معرفة الله تعالى، ولا يَظنُّهم موجودًا مع وجود الله تعالى، ولا يَحسُّ بدخولهم وخروجهم، وإن كان على خلافِ ذلك يكون مُدَّعيًا لا عارفًا.

إن ظهرَ المعروفُ للعارف، والعلمُ للعالم، يقول العارف: هو، ويقول العالم: أنا

أقول: معنى هذا الكلام أنَّ العارفَ إذا غرقَ في بحر المعرفة، وهلك بنفي ذاته، ويثبت ذات الحقِّ، وينظر إليه تعالى لا إلى نفسه، إذ لا يبقى له حينئذٍ وجودٌ، وذلك كما إذا أشرقت الشمسُ لا يبقى للكوكب نور ولا ضياء ولا وجودٌ في الحسِّ، فحينئذٍ يقول: هو لا أنا؛ وأمّا العالم فهو الذي لم يبلغْ إلى هذا المقام، وله نظرٌ إلى نفسِهِ، ويرى وجود نفسه، فلذلك يقول: أنا. فالأولُ في المحو، والثاني في الإثبات، والله أعلم.

قال: لا خطر ولا قدرَ للجنة عند أهل المحبة، وهم في النوم واليقظة مشغولون بالطلب، ولا يفترون منه طرفةَ عينٍ، ومع هذا لهم فراغةٌ عن الطلبِ أيضًا، وذلك لغلبة المشاهدةِ عليهم، فإنَّ في مقام المشاهدة إن نظرَ العاشقُ إلى طلبه يكون خسرانًا عظيمًا؛ بل يجب أن يكونَ نظرُهُ في تلك الحالة إلى جمال معشوقه.

قال: إن الله تعالى اطّلعَ على قلوب أوليائه، علمَ أنَّ بعضَها لا يطيقُ حملَ المعرفة، فجعله مشغولاً بالعبادة، وما كلّفه لحمالةِ المعرفة.

لا يحملُ أحمالَ الحقِّ إلاّ من ذلَّلَ نفسه بالمجاهدة والرياضة.

ليت الناسَ يعرفون أنفسهم، فإن ذلك يكفيهم.

قال: اجتهدْ أن تجعلَ لك ساعةً(١) في جميع عمرك لا ترى فيها غيرَ الله تعالى، ثم اجتهدْ أن يمضي عمرُكَ كلُّه بهذه الصفة.

(١) في (ب): أن يحصل لك ساعةٌ.

قال: علامةُ محبّة الله تعالى للعبدِ أن يُعطيَه ثلاثَ خصالٍ: سخاوةً مثل سخاوة البحر، وشفقةً كشفقة الشمس، وتواضعًا كتواضع الأرض.

قال: الحُجّاجُ بالبيت يطوفون حول البيت، ويسألون البقاء، والعارفون بالقلبِ يَطوفون حول العرش، ويسألون اللقاءَ.

في العلوم علمٌ لا يعلمه العلماء، وفي الزُّهدِ زهدٌ لا يعلمه الزهاد.

قال: صحبةُ الأخيار[1] خيرٌ من عمل الخير، وصحبة الأشرار شرٌّ من عمل الشر.

يمكنُ أن يعملَ في المجاهدة كلَّ عملٍ، ثم يرى ذلك بفضلِ الله تعالى، لا من فعل نفسه.

من عرف الله تعالى لا يحتاجُ إلى السؤال، ومن لم يعرف لا يفهمُ كلام العارفين.

قال: العارف من لا يكدّرُ مشربَه شيءٌ؛ بل إن وصلَ إليه كدورةٌ تصفو عنده.

قال: نارُ العذاب إنّما يكون على من لا يعرفُ الله تعالى، فأمّا من عرف الله تعالى يكون هو عذابًا على النار.

يدخلُ كلَّ يوم في هذا الطريق ألفُ رجلٍ، فإذا أمسوا لا يكون لهم إيمانٌ، ولا لهم علمُ شيءٍ من العرفان.

قال: كلُّ شيءٍ يحصل للعارف إنّما يحصل بقدمين: قدمٍ على نصيبه وحظِّه من الدنيا، وقدمٍ في طريق عبادةِ الله تعالى وتحصيلِ أوامره، ثم يرفعُ الأولى، ويثبّتُ الأخيرة.

قال: من ترك الهوى وصلَ إلى الحقِّ بلا كيف.

قال: من وصلَ إلى الحقِّ يحصلُ له كلُّ شيءٍ، ويكون له كلُّ مكانٍ.

---

(١) في (ب): صحبة الأولياء.

قال: العارفُ طيّار، والزاهدُ سيار.

أقول: الأولُ يطيرُ في هواء عالمِ الغيب، والثاني يسيرُ في فضاء عالم الشهادة، والله أعلم.

قال: لا يفرحُ العارفُ بشيءٍ غير الوصال.

قال: نفاقُ العارفين أفضلُ من إخلاص المريدين.

ما رُوي أنَّ موسى وعيسى عليهما السلام تمنَّيا لو كانا من أُمَّة محمد عليه الصلاة والسلام. يُظَنُّ أنهما قالا ذلك لأجلِ فضائل جماعةٍ يطلبون الرئاسة في الدنيا، حاشا وكلاّ؛ ولكنَّهم رأوا في هذه الأمة من كانت أقدامُهُ تحتَ الثرى، ورأسه عبر من أعلى علّيين.

قال: من أماتَ قلبَهُ بكثرةِ الشهوات يكفَّنُ في كفنٍ من اللعنة، ويُدفنُ في أرضٍ من الملامة.

قال: ما وصلَ إلى الحقِّ من وصل إلا بحفظ الحرمة، وما طُردَ مَنْ طُردَ إلاّ بترك الحرمة.

قال: لا يُدركُ غورُ حديثِ العشقِ بالطَّلبِ، مع أنّه لا يُدركُهُ إلاّ الطالبون.

أقول: معناه أنّه لا بدَّ مع الطلبِ من توفيقٍ إلهي، وعنايةٍ إلهية، يؤيّدُه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والله أعلم.

قال: إذا صاحَ المُريد من غلبة الشوق يصيرُ حمارًا، وإن سكتَ يصيرُ بحرًا مملوءًا من الدُّرّ.

قال: أظهرْ نفسَك كما كنت، أو كنْ كما تظهر.

أقول: حاصله موافقةُ الظاهر والباطن. والله أعلم

قال: قبضُ القلوب في بسط النفوس، وبسطُ القلوب في قبض النفوس.

أقول: معناه: من انقبضَتْ نفسُه بالكفِّ عن الشهوات، والامتناعِ عن اللذّات، ينبسطُ قلبه بحصول المقاصد الأصلية. ومن انبسطت نفسُه بسبب

حصول أمانيها من الهوى والشهوات لا جرم ينقبضُ قلبه عند الحرمان عن المقاصد، شعر:

إذا أنتَ لم تَخرجْ بزادٍ من التُقى وشاهدْتَ بعد الموتِ من قد تزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثله وأنك لم ترصدْ كما كان أرصدا[١]

والله أعلم.

وقال: الحياةُ في العلم، والراحةُ في المعرفة، والذوقُ في الذكر والشوق.

دار ملك العاشقين نُصبَ فيه سريرٌ من السياسة، وفيه سيفٌ من هول الهجران، وأُعطي العاشقون ورقًا من نرجسِ الوصال، وفي كلِّ نَفَسٍ يُقطع بذلك السيف ألفُ رقبة وأكثر.

قال: المعرفةُ أن تعلمَ أن حركاتِ العباد وسكناتهم بحول الله تعالى وقوّته.

و: التوكّلُ أن تحصرَ عيشَك في يومك الذي أنت فيه، وتقطعَ فكرَك وأملك عن الغد بالكلّية.

قال: المحبّةُ أن تعدَّ كثيرَك قليلاً، والقليلَ من الحقِّ كثيرًا.

والمحبّةُ[٢] أن لا تحبَّ الدنيا والآخرة.

و: اختلافُ العلماء رحمةٌ إلاّ في التوحيد والتجريد.

أقول: لأنّ الاختلاف في التوحيدِ كُفْرٌ، وفي التجريد جهلٌ وغرور، فإنّ حقيقةَ التجريد تركُ ما سوى الحق. [والله أعلم]

قال: الجوعُ غيمٌ لا يمطرُ منه إلاّ الحكمة.

قال: أقربُ الناس إلى الحقِّ من يحتملُ أذى الناس كثيرًا، ومع ذلك يكونُ صاحبَ خُلُقٍ حسن.

قال: نسيانُ النفس عينُ ذكر الله تعالى.

---

(١) البيتان للأعشى ميمون بن قيس، الديوان ٦٩، ٧٠، وفي الأصلين: كما كان راصدا.

(٢) من هنا نقص في (أ) حتى الصفحة (٢١٦).

قال: قلبٌ كمصباحٍ في قنديلٍ من زجاجٍ صافٍ ينوّرُ شعاعُه جملةَ عالم الملكوت.

قال: هلاكُ الخلق في شيئين: تركُ حرمة الخلق، وتركُ احتمال المنّة من الله تعالى.

قيل: سئل عنه: ما الفريضةُ وما السُّنة؟ قال: الفريضةُ صحبةُ المولى، والسُّنَّةُ تركُ الدنيا.

نقل أن واحدًا من المُريدين أرادَ إنشاءَ سَفَرٍ، فاستوصى الشيخَ، فقال: أوصيك بثلاثة[1] خصال: إن اتّفقَ لك مرافقةٌ ومصاحبةٌ مع شخصٍ قبيحِ الخلق، اجتهدْ حتى يصيرَ خُلُقُ الشيخ حسنًا، فيصير عيشُك هنيًّا. وإن أنعمَ عليك شخصٌ فاشكرِ الله تعالى أولاً، ثم اشكرْ ذلك الشخص، فإنَّ الله تعالى قد جعلَهُ عليك شفيقًا. وإن وصلَ إليك بلاءٌ ومحنةٌ فاعترفْ بعجزك، واستغث إلى الله تعالى؛ فإنَّه ليس لك طاقةُ الصبر، والله لا يبالي.

سئل عن الزهد، فقال: لا قيمةَ له؛ فإنّي زهدتُ ثلاثةَ أيام: ففي اليوم الأول زهدتُ عن الدنيا وما فيها، وفي اليوم الثاني عن الآخرة، وفي اليوم الثالث عمّا سوى الحقِّ، فسمعتُ هاتفًا يقول: يا أبا يزيد، لا طاقةَ لك بنا. قلتُ: ذلك مُرادي ـ أي أن لا تكونَ طاقةٌ ـ ثم سمعت قائلاً يقول: وجدت وجدت.

سئل عن كمال رضا العبد عن الحقِّ، قال: لا أعلمُ كمالَ الرضا؛ ولكنْ أُخْبِرُ شيئًا عن وصف رضاي منه بلغَ حدًا لو أنه رفعَ عبدًا من عباده إلى أعلى علّيين، وجعل مقامَهُ هنالك خالدًا، وأنزلني إلى أسفل السافلين، ويجعل مقامي هنالك أيضًا مُخلّدًا، فإنّي أرضى من الله تعالى من ذلك العبد.

سئل عنه: متى يصلُ العبدُ إلى درجة الكمال؟ قال: إذا عرفَ قيمةَ نفسه، ولا يتّهم الناس، ثم إن الله تعالى بقدر همَّتِهِ وبُعده عن نفسه يُقرِّبُهُ إليه.

---

(١) كذا.

سئل عنه: كيف الطريق إلى الحقِّ؟ قال: أنت قمْ من الطريقِ، وقد وصلت.

قيل: سمعنا كثيرًا من كلام المشايخ، وما سمعنا أعظمَ من كلامك! قال: هم حدّثوا عن بحرِ صفاء المعاملة، وأنا أُحدِّثُ عن بحر صفاء المنَّة.

قال له شخصٌ: أوصني. قال: ارفعْ رأسَكَ، وانظرْ إلى السماء. فنظر، قال: هل تعرفُ[١] من خلق هذا؟ قال: نعم. فقال للشخص: فالذي خلقَ هذا السقفَ العجيب الرفيعَ أينما تكونُ هو مطّلعٌ عليك، فكنْ منه على حذر.

قيل: مع من نُصاحب؟ قال: صاحبْ شخصًا إذا مرضتَ يعودُكَ، وإذا أذنبْتَ يتوبُ هو، وما يصدُر منك لا يكون مَخْفيًا عنه.

أقول: معنى (أن يتوبَ هو بذنبك) يعني أنّه: إذا عدَّ ذنبَكَ من ذنوبِ نفسه، فلا جرمَ يتوبُ هو، ويدلُّكَ على التوبة، ويكون أمينًا من الإفشاء إذا اطّلعَ على بعضِ سرائرك، فحينئذ تستريح في مصاحبته. حاصلُ الكلامِ أن المصاحبَ ينبغي أن يكون في كمال الاتحاد، كما قيل:

رُوحي وروحُكَ مَمْزوجٌ ومتَّصلُ فكلُّ عارضةٍ تُؤذيك تُؤذيني

[والله أعلم]

وقال: العارفُ من لا يرى في المنامِ غيرَ الله تعالى، ولا يوافق إلاّ إيّاه، ولا يبوحُ بسرِّه إلاّ لديه.

قيل: متى يعلمُ الرجلُ أنّه قد وصل إلى حقيقة المعرفة؟ قال: إذا صارَ فانيًا، وفي المحبّةِ باقيًا، ويجلسُ على بساط الحقِّ بلا خلق ولا نَفَس، فيكون حينئذ فانيًا باقيًا، وباقيًا فانيًا، ميتًا حيًّا، وحيًّا ميتًا، محجوبًا[٢] مكشوفًا، ومكشوفًا محجوبًا.

---

(١) في (ب): قال: هل من خلق.

(٢) هنا ينتهي السقط من (أ) الذي بدأ صفحة (٢١٤).

قيل: كيف حالُ من يكون غريقًا في بحر المكاشفة؟ قال: إنه لا يلتفتُ إلى الكونَيْنِ، ويطوي بساط القيل والقال.

قال: من عرفَ اللهَ تعالى كلَّ لسانُهُ(١) .

قيل: ما الفقر؟ قال: أن يصادفَ المحبُّ في زاويةٍ من زوايا قلبه كنزًا، ثم يجدُ في ذلك الكنزِ جوهرًا يُسمَّى محبةً، فمن وجد ذلك الجوهرَ فهو الفقير.

قيل: متى يصلُ السالكُ إلى الله تعالى؟ قال: يا مسكين، وهل يصلُ إليه أحدٌ حتى يقال متى يصل!

قيل: يا شيخ، بِمَ وجدتَ ما وجدتَ؟ قال: جمعتُ أسبابَ الدنيا كلَّها وشددْتُها بسلسلةِ القناعة، ووضعتها بمنجنيق الصدق، ورميتها في بحر الحرمان.

قيل له: كم عمرُكَ؟ قال: أربع سنين. قيل: وما معنى هذا الكلام؟ قال: إنّي كنتُ في حُجُبِ الدنيا سبعين سنة، ولكنْ منذ أربع سنين خرقتُ الحُجُبَ، وأرى الحقَّ بلا كيفٍ، فلا جرمَ لا يكون أيام الحجاب إلا أربع سنين من العمر.

قيل له: كم تمدحُ الجوع! قال: لأنّه لو كان فرعونُ جائعًا لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

قال: لا يجدُ المتكبِّرُ رائحةَ المعرفة أبدًا. قيل: وما علامةُ المتكبِّر؟ قال: أن لا يرى نَفْسًا أَنْفَسَ من نفسه.

قيل له: أنت تمشي على الماء! قال: عودٌ من الحطبِ يمشي على الماء. قيل: تطيرُ في الهواء! قال: الطيرُ أيضًا يطيرُ في الهواء. قيل: تصلُ إلى الكعبة في ليلةٍ! قال: ساحرٌ يأتي من الهند إلى دماوند(٢) ـ وهو جبل في قرب هَمَذان ـ بليلةٍ. قيل: فما شغلُ الرجال؟ قال: ألا يتعلّق قلبُ الرجال بغير الله تعالى

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ١٢٣.

(٢) كذا في جميع الأصول: (أ) و(ب) و(المطبوع الفارسي) ـ أما الترجمة العربية فجاءت: دوماند. ولعلها تحريف: دُنْباوَنْد، وهو جبل في نواحي الري. (معجم البلدان).

قيل: كيف كانت أحوالك بعد تلك المجاهدات؟ قال: طلّقتُ الدنيا ثلاثًا، ثم وقعتُ في الحضرة مجرّدًا، وقلت: إلهي، ما لي أحدٌ غيرك؛ ولكن إذا كنتَ لي فالكلُّ لي، وكان صدقي بالإخلاص، فأول ما فعلَ بي أن رفعَ من عيني قذَى النفس.

قال: إنّ الله تعالى أمرَ ونهى، فامتثلَ طائفةٌ أمرَهُ ونهيه، فشرّفهم بتشريفات، فاشتغلوا بالتشريفات، وأما أنا فما طلبتُ منه إلاّ إياه.

قال: ذكرتُهُ مقدارَ ذكرِ الخلائق كلِّهم، حتى صار ذكري ذكره، ثم سعيتُ إلى معرفتِهِ فأفنتني، ثم سعيتُ إلى معرفته ثانيًا فأحيتني.

قال: ظننتُ أنّي أحبُّه، فإذا محبَّتُهُ إيّاي كانت أسبق.

قال: غرقتِ الخلائقُ في بحر العلم، وأنا غرقتُ في بحر الله تعالى. يعني: نظرُ الخلائق إلى رياضاتهم، ونظري إلى عناية الحقِّ.

قال: أخذَ الناسُ العلمَ من الأموات، وأنا أخذتُهُ من الحيِّ الذي لا يموت.

الناس يقولون بالحقِّ، وأنا أقول منَ الحقِّ.

قال: دعوتُ النفسَ إلى الحقِّ، فما أجابتني، ثم تركتُها وتوجَّهتُ إليه وحدي.

قال: نُقِل قلبي إلى ملكوت السموات، فسار فيها ورجع، فقلتُ: وبماذا رجعتَ؟ قال: بالمحبة والرضا.

قال: أردتُ أن أعرفَ أشدَّ عقوبةٍ على نفسي، فما وجدتُ أشدَّ من الغفلة، فإنّه لا تعملُ نارُ جهنّم مع الرجالِ ما تعملُ ذرّةٌ من الغفلة.

قال: كم سنين أُصلّي، واعتقادي في كلِّ طرفةِ عينٍ أنّي مُشركٌ، أقطعُ الزُّنّارَ من وسطي.

قال: حالُ النساءِ أحسنُ من حالنا؛ لأنّهنَّ يغتسلن[١] في كلِّ شهرٍ مرةً، ونحن لا نغتسلُ في العمر مرة.

---

(١) في (أ): أحسن من أحوالنا؛ فإنهنَّ يغتسلن.

قال: غدًا يومَ القيامة أُحبُّ أن يُقال لي: هلاّ فعلت؟ من أن يُقال: لِمَ فعلت؟

قال: رأيتُ الله في المنام، قلت: إلهي، كيف الطريقُ إليك؟ قال: اتركْ نفسَك، ووصلت إليَّ.

قال: رأيت الله تعالى في المنام، قال: يا أبا يزيد، ماذا تُريد وتطلبُ؟ قلتُ: أريدُك وأطلبك. قال: أنا لك كما أنت لي.

قال: يظنُّ الناسُ أني معهم ومنهم، فلو علموا وصفي في عالمِ الغيب لدهشوا وهلكوا.

ذكر معراج أبي يزيد روّح الله روحه

قال رحمه الله: نظرتُ إليَّ بعين الحقيقة بعد أن أوصلني الله تعالى من جميع الموجودات إلى درجة الاستغناء، ونوّرني بنوره، وأظهرَ عليَّ الأسرار، وأراني عظمةَ هويَّتِهِ، ثم نظرتُ منه إليَّ، وتأمّلْتُ صفاتي[1]، فإذا نُوري في جنبِ أنواره ظلمةٌ، وعظمتي في جنبِ عظمتِهِ حقارةٌ، وتلاشت عزّتي في جنب عزّته، هناك كان صفاءٌ، وعندي كان كدورةٌ، ثم نظرتُ، فوجدتُ نوري بنوره، وعظمتي بعظمته، وعزّتي بعزّته، علمتُ أنَّ ما فعلتُ إنّما كان بقدرته، وما وجدتُهُ إنّما هو منه، فنظرتُ بعين الإنصاف، علمت أنَّ عبادتي إيّاه كانت منه، وأنا ظننتُ أنّها كانت منّي، قلتُ: وما هذا يا رب؟ قال: أنت مُباشرٌ لأفعالك، وأنا المقدّرُ والميسّرُ، فلو لم يكن منّي توفيقٌ لا يكونُ منك طاعةٌ. ثم نظري اشتغلَ منّي إليه، وأفناني هو من وجودي، وأبقاني ببقائه، وأعزّني وعرّفني هويَّتَهُ بلا مزاحمةٍ منّي، فلا جرمَ ازداد لي علمُ الحقيقة، فنظرتُ من الحقّ إلى الحقِّ، وأقمتُ في مقعدِ صدقٍ، واطمأننتُ هناك، وسدَدْتُ صِماخَيْ أُذني، وجررتُ لساني في فمي، وتركتُ العلمَ الكسبيَّ ورفعتُ من أجمة النفس[2] الأمّارة من

---

(١) في (ب): وتأملت صفاتي.

(٢) في (ب): ورفعت مزاحمة.

البين، فسكتُ مدّةً بلا آلةٍ وعدّةٍ، فالحقُّ جلّ جلاله رحمني، وعلّمني من علوم الأزل، ووضع في فمي لسانًا من لُطفه، وخلق لي عينًا من نوره، فرأيتُ بالحقِّ جميعَ الموجودات، وناجيتُ اللهَ تعالى بلسانِ اللُّطف، وحصلَ لي علمٌ من علوم الحقِّ، فنظرتُ إليه بنوره، ثم قلت: إلهي، لا أغترُّ بهذا وبوجودي، لا أستغني عن وجودِك، وأنت تكونُ لي بلا أنا خيرٌ لي من أنْ أكونَ لي بلا أنت، وأتكلّمُ بك معك خيرٌ من أن أتكلّمَ مع نفسي بلاك. فقال: لازمِ الشريعةَ، ولا تجاوزْ حدودَ الأمر والنهي؛ لئلا يَضيعَ لدينا سعيُكَ، وتصيرُ مشكورًا عندنا. قلت: إن شكرتني منك لا منّي، وإن ذممتني فأنت مُنزّهٌ عن العيوب، فحين نظرَ الحقُّ جل جلاله صفاء سرّي، وسمع قلبي نداء رضا الحقِّ، ورقم عليَّ بقلم الرضا، ونوّرني، وعبّرني عن ظُلماتِ النفس وكدورات البشرية، علمتُ أنّ حياتي به، ومن فضله بساطُ المسرّةِ في قلبي، فقال: سل ما تُريد. قلت: ما أُريدَ إلاّ إيّاك، فأنت أفضلُ من الفضل، وأكبرُ من الأكبر، وأكرمُ من الكرم، وقنعتُ بك منك، إذا أنتَ كنتَ لي فأنا أطوي منشورَ الفضل والكرم، لا تُبعدْني منك، ولا تُعطني ما دونك. فلم يجبني زمانًا، ثم وضعَ على رأسي تاجَ الكرامة، وقال: لا تقلْ إلاّ الحقَّ؛ لأنّك تطلب حقيقتي، ورأيتَ الحقَّ وسمعتَ الحقَّ. قلتُ: إن رأيتُ فبك رأيتُ، وإن سمعتُ فبك سمعتُ، وأثنيت عليه حتى أعطاني من كبريائه جناحًا أطيرُ به في ميادين عزّه، وأنظر إلى عجائب صنعه.

ثم قال لي: لمن الملك؟ قلت: لك. قال: لمن الحكم؟ قلت: لك. قال: لمن الاختيار؟ قلت: لك. ولمّا ألقيتُ نفسي مع ضعفي في كلِّ وادٍ، وأذبتُ جسدي بنار العبرة في كلِّ بوتقةٍ، وأجريتُ خيلَ الطلبِ في فضاء كلِّ صحراء، ما رأيتُ صيدًا خيرًا من الافتقار، ولا شيئًا أحسنَ في هذا الطريق من العجز، ولا أضوأَ من السكوت سراجًا، ولا كلامًا أنفعَ من ترك الكلام، فسكنتُ دارَ السكوت، ولبستُ خرقةَ الصبرِ حتى وصلْتُ إلى مقامٍ صار ظاهري وباطني خاليًا من علّةِ البشرية، ففُتِح في صدري فرجةٌ من الفرح، وأعطاني لسانًا من

التجريد والتفريد والتوحيد، فلساني من لُطفِ صمدانيته، وقلبي من نورِ ربّانيته، وعيني من صنع حكمته بمدده.

أقول: وبقوّتِهِ أبطشُ، وبه أحيا وبه أموت، فلا أُحدّثُ من غيره لأكونَ مُحدِّثًا، ولا من نفسي لأكون كاذبًا، فهو يُديرُ لساني في فمي بما يريد، وأنا في الوسط كالترجمان، والمتكلّمُ في الحقيقة هو لا أنا.

ثم قال: يا أبا يزيد، الخلائقُ يُريدون أن يَروك. قلت: أنا لا أريدُ أن أراهم؛ ولكن لا أخالفُ إرادتك ورضاءك، فزيّنّي بوحدانيتك، وأرني إيّاهم، حتى الخلق إذا رأوني رأوا صنعَكَ، فكأنّهم رأوا الصانع، وأنا لا أكون في الوسط. فلمّا خطوتُ قَدَمًا من الحضرة إلى الخلق سقطتُ في القدم الثاني، فسمعتُ مناديًا يقول: ارجعوا حبيبي، فإنّه لا يطيق إلاّ بي، ولا يهتدي إلاّ بي. ثم رجعتُ ووصلتُ إلى أول مقام التوحيد، فسعيتُ في[1] ذلك الوادي سنين بقدم الأوهام حتى صرتُ طيرًا عينُهُ من الوحدانية، وجناحُهُ من الديمومية، كنت أطيرُ في هواءٍ بلا كيف، ولمّا غبْتُ من المخلوقات، وصلتُ إلى الخالق، وأطلعتُ رأسي من وادي الديمومية، وتجرَّعْتُ كأسًا، فعطشتُ حتى لا أرتوي إلى الأبد، ثم طرتُ ثلاثين ألف سنة في فضاءِ وحدانيته، وثلاثين ألف سنةٍ في ألوهيّته، وثلاثين ألف سنة في فردانيته، فلمّا عبر سبعون ألف سنة خرجتُ من جلدي[2]، ورأيتُ أبا يزيد، ثم قطعتُ أربعةَ آلاف بادية، وانتهيت إلى المقصود، ثم نظرتُ، فإذا أنا في بدايةِ درجة الأنبياء عليهم السلام، سعيتُ إلى العالم الغير المتناهية[3] حتى ظننْتُ أنّه ما سبقني أحدٌ في هذا العالم، فرأيت تحت رأسي قدمَ نبيٍّ من الأنبياء، فسلّمتُ أن: نهايةَ حالِ الأولياء بدايةُ حال الأنبياء، ولا نهاية لأحوال الأنبياء.

---

(١) في (أ): فسمعتُ في ذلك الوادي.

(٢) في (أ): فلمّا عبر تسعون سنون خرجت من جلدي.

(٣) في (أ): سعيت إلى عالم الغير المنتهي.

ثم عبر روحي على جميع عالم الملكوت، وعُرضتْ عليه الجنة والنار، فلم يلتفتْ إليهما، وما وصلتُ في عروجي إلى روحٍ إلاّ سلّمتُ عليه، حتى وصلتُ إلى الروح المحمدي ﷺ، رأيتُ هناك بحورًا من النار، وألفَ حجابٍ من النور، فإنّي لو خضتُ في أولِ تلك البحور لاحترقتُ بأولِ قدمٍ، دهشتُ من الهيبةِ إلى أن لم يبق منّي أثرٌ، وكلّما اجتهدتُ في أن أنظرَ إلى خيمة النبيّ ﷺ؛ بل وتد خيمتِهِ ما قدرتُ على ذلك، ثم وصلتُ إلى الحقّ، والسرُّ في ذلك أن كلاً من الأولياء يصلُ إلى الحقّ على قدر قابليته، فإنَّ الحقَّ جلَّ جلاله مع الجميع؛ أمّا النبيُّ ﷺ فهو في الحرم الخاصّ[١] والمقام الأعلى، ولذا حتى لا ينقطعَ وادي لا إله إلا الله لا يقدرُ على الوصول إلى بداية وادي محمد رسول الله ﷺ.

أقول: ويؤيِّدُهُ ما نقلُ عن جبريل عليه السلام أنه تخلَّفَ عن رسول الله ﷺ ليلة المعراج، وقال: لو دنوتُ لاحترقتُ[٢]. قال الله تعالى حكاية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] والله أعلم.

ثم قلتُ: ماذا أعملُ يا ربِّ؟ قال: خلاصُكَ في إخلاصِ متابعتك لحبيبي المصطفى ﷺ، فاكحلْ عينيك بغبار أقدامه، وداومْ متابعتَهُ؛ فإنَّ سعادةَ الدارَيْنِ في ضمن متابعة شريعته مندرجةٌ كما قال الله تعالى آمرًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

أقول: فإن قلتَ: كيف يجوزُ أن يكونَ لأبي يزيد معراجٌ، وقد كان المعراجُ مَخصوصًا بالنبيِّ ﷺ؟ قلت: يجوزُ أن يكون لأبي يزيد معراجٌ مَعنويٌّ رُوحانيٌّ لا جسماني؛ بل المعراج بهذا المعنى يجوز لكلِّ واحدٍ من آحاد المؤمنين، كما قال النبي ﷺ: «الصلاةُ معراج المؤمن»[٣] وأمّا المعراجُ بالجسدِ من المسجد

---

(١) في (أ): هو في إحرام الخاص.

(٢) حديث رواه ابن حبان في كتاب العظمة ٢/ ٦٧٧ (٩).

(٣) حديث ذكره المناوي في فيض القدير ١/ ٤٩٧.

الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم منه إلى سماء الدنيا، ثم إلى ما شاء الله تعالى من العُلا، فلا شكَّ ولا خلافَ في أنّه مخصوصٌ بالنبيِّ ﷺ، لا يجوزُ أن يحصلَ مثلُه لأبي يزيد وغيره من الأُمّة، والله أعلم.

ذكر مناجاة أبي يزيد رحمه الله

إلهي، إلى متى أنا أدفعُ أنانيتي لئلاّ أكونَ أنا.

إلهي، إذا أكون معك أكونُ أرفعَ وأكملَ من كلِّ شيءٍ، وإن أكون معي أكونُ أنقصَ من كلِّ شيءٍ.

إلهي، قرّبني منك الفقرُ والفاقةُ، ولطفُكَ ما أزالهما عنّي.

إلهي، لا أريدُ أن أكونَ من القرّاء ولا من العلماءِ ولا من الزُّهاد؛ ولكن أريدُ أن تَجعلني ممّن يشمُّ رائحةً من أسرارك، وتُوصلني إلى درجةِ أحبابك وأوليائك.

إلهي، أدلُّك عليك، وبكَ أصلُ إليك.

إلهي، ما أحسنَ واقعاتِ إلهاماتك على خطرات قلبي! وما أحلى تفهيمك في طُرقِ الغيب! وما أعظمَ حالةً لا يقدرُ الخلقُ على كشفها، ولا يعرفُ اللسانُ وصفَها! ولا تصحُّ هذه القصة بالشرح.

إلهي، لا عجبَ في أنّي أحبُّكَ، وأنا عبدٌ عاجزٌ ضعيف فقيرٌ؛ ولكنَّ أعجبَ العجائب، وأغربَ الغرائب في أنّكَ مع كمال ألوهيتك، وعظمةِ سُلطانك تحبُّني.

إلهي، أنا اليومَ في غايةِ السرور والفرح، مع خوفٍ عظيم، فكيف يكونُ السرور إذا ارتفع الخوف بالكلّية، وأصير آمنًا.

نقل عنه أنّه قال: وصل أبو يزيد إلى حضرة القدس سبعين مرّةً، وحصل له مقامُ القربِ سبعين مرة، وفي كلِّ مرّةٍ عند الرجوع[1] يشدُّ زنّارًا ويقطعه، فلمّا

---

(١) في (ب): وفي كل نوبة عند الرجوع.

انتهى عمرُهُ إلى الآخر دخلَ المحرابَ، وشدَّ زنّارًا، وكانت له فروةٌ عتيقة، قلبها، ولبس مقلوبةً، وقلبَ قلنسوته أيضًا، وقال:

إلهي، لا أتوسَّلُ بالرياضات وفي المجاهدات الواقعة[١] منّي في مدّةِ عمري، ولا أعرضُ الصلاةَ التي صلّيتها في دياجير الليالي، ولا أذكرُ صيامي في عمري، ولا أعدُّ قراءةَ القرآنَ والمناجاة والذكر، ولا أنظرُ إلى شيءٍ منها، وأنت علاّمٌ بحالي، خبيرٌ بصدق مقالي، وتعلمُ عنّي أنّي إنّما شرحتُها باللسان، لا أني ذكرتُها للافتخار والاعتماد؛ فإنّ لي عارًا عظيمًا منها[٢]، إذ ليستْ تليقُ بجناب قُدسك، ولا بعظمةِ كبريائك، وهذه الحالُ أيضًا تشريفٌ من تشريفاتك.

إلهي قدّرْ أنّي ما فعلتُ شيئًا، ولا عملتُ في الإسلام عملاً؛ بل قدّرْ أنّي رجلُ قبيحُ الظنِّ سَيِّئُ الأعمال، عبرتُ عمري في الكفرِ والإشراك، وابيضَّ شعري في ذلك، ومضى عليه سبعون سنة، وأنّي ما عرفتُك ولا تبعتُ شريعةً، واليوم طلعتُ من البادية. أقول بالتركية[٣]: تنكري تنكري[٤]، وأتعلّم اليوم كلمةَ الله، وأقطعُ زنّارَ الكفر، وأضع قدمي في دائرةِ الإسلام، والآن أفتحُ لساني بالشهادة، وأقول: أشهدُ أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريكَ لك، وأشهد أنَّ محمّدًا عبدُكَ ورسولُك، وأعلمُ أنَّ شأنَكَ بريءٌ من العلّة، وقبولك ليس في الطاعة؛ بل بمحضِ الفضل، وردُّكَ ليس بالمعصية؛ بل العدل.

إلهي، ما صدر منّي من الأعمال والطاعات حسبتها هباءً منثورًا، فإنك أيضًا بكرمِكَ ما رأيت منّي ممّا تسخط، ولا ترضى به، اعفُ عنّي، ولا تُؤاخذني به، واغسلْ عنّي غبار المعاصي، فإنّي غسلتُ من وجهِ طاعتي غُبارَ العجب.

نقل أنه في الابتداء كان يقول كثيرًا: الله الله، وفي حالةِ النزع كان يقول: الله الله، ثم قال: إلهي، ما ذكرتُكَ بالحضورِ ساعةً، والآن حضرني

---

(١) في (ب): لا أتوسّل بالرياضة في المجاهدات.
(٢) في (أ): فإني له عارًا عظيمًا.
(٣) في (أ): أقول بالتركي.
(٤) تنكري: كلمة تركية تعني: الله.

الوفاةُ، وإنّي غافلٌ عن طاعتك، ما أدري متى أذكرُكَ وأطيعُكَ على حضورِ القلب؟ ففي الذكر والتكلّمِ بكلمة (الله) جادّ بنفسه.

أبو موسى كان من المُريدين، وفي ليلة وفاة الشيخِ لم يكن هناك، قال: رأيتُ تلك الليلة في المنام كأنّي وضعتُ عرشَ الرحمن على رأسي، وأذهب به، فانتبهتُ، وقصدت الشيخَ لأقصّ عليه الرؤيا، فالتقيته موضوعًا على الجنازة، واجتمعَ خلقٌ كثير لمشايعة جنازته، واجتهدتُ أن أرفعَ طرفًا من الجنازة، وما وصلَ إليّ لازدحامِ الناس، فدخلتُ تحتها لمّا رفعوها، وهي على رأسي، وأنا أمشي، وقد نسيتُ الرؤيا، رأيتُ روحانيةَ الشيخ، قال: يا أبا موسى، هذا تعبيرٌ رؤياك التي رأيتَها البارحة؛ فإنَّ عرشَ الرحمن أبو يزيد في التعبير.

نقل أن شخصًا من المُريدين رأى الشيخ في المنام، وقال له: كيف نجوتَ من المنكر والنكير؟ فأجابه الشيخ وقال: لما سألني المَلَكانِ، قلتُ لهما: وما ينفعُكما جوابي بأن ربّي هو الله؛ ولكن ارجعا، واسألا الحقَّ جلَّ وعلا أني مقبولٌ عنده أم لا؟ وما أنا على بابِ عظمته؟ فإن قلتُ ألفَ مرّةٍ: هو سيدي وإلهي، فإن لم يقبلْ منّي، ولم يصدّقني، فماذا ينفع[1] هذا الاعتراف؟!

نقل أنه رآه في المنامِ شخصٌ من أكابر الدِّين، وقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: قال الله: بما جئتَ يا أبا يزيد؟ قلت: إلهي، ما جئت بشيءٍ يليقُ بحضرتك، ومع هذا ما جئتُ بالشِّركِ أيضًا. فقال الله تعالى: وما تقولُ في ليلة اللبن؟ قال: إنّي شربتُ في بعضِ الليالي شيئًا من اللبن، فأوجعني بطني، وفي الغد جرى على لساني: أنّي البارحةَ شربتُ اللبن، واتَّجَعَ بطني، فعاتبني الله تعالى بهذا القدر. يعني الوجع ما حصل من اللبن.

نقل أنّه لما دُفنَ الشيخُ، جاءت أمُّ عليٍّ زوجة أحمد بن خضرويه إلى زيارة قبره، ورجعت وقالت: هل تعرفون أن أبا يزيد من كان؟ قالوا: أنت أعرفُ به

(١) في (أ): فما ينفعني هذا الاعتراف.

منّا. قالت: كنتُ ليلةً في الطواف، فحصلَ لي نعاسٌ، فانتعستُ، فرأيتُ فيما يرى النائم أنّي صعدتُ السماءَ، ورأيتُ إلى ما تحت العرش باديةً عريضةً، لا يعلم عرضَها وطولَها إلاّ الله تعالى، وجميعُ البادية مملوءٌ من الأزهار والرياحين، مكتوبٌ على كلٍّ ورقةٍ منها: أبو يزيد وليُّ الله.

نقل أن شخصًا من المشايخ رآه بعد موتِهِ في المنام، وقال له: وصِّني. فقال: الناسُ بحرٌ عميقٌ والبعدُ منهم سفينة، اجتهد أن تجلسَ في هذه السفينة، وتنجي بدنَكَ المسكين[١].

نقل أن رآه في المنام شخصٌ، وقال له: ما التصوف؟ قال: التصوف أن تُغلقَ عليكَ أبواب الراحة، وتقعدَ في زاويةِ المحبّةِ.

قيل: جاء إليه أبو سعيد بن أبي الخير رحمه الله وجلسَ ساعةً، وقام، ووقفَ ساعةً، ثم رجع وقال: هذا مقامُ مَنْ ضيّع في الدنيا شيئًا، فليطلب هنا.

اللهم، إنّا نسألُكَ ونتضرّعُ إليكَ أن تجعلنا ممّن عرفَكَ فأطاعك، وتبعدنا من زمرة مَنْ جحدَكَ وعصاكَ يا ربَّ العالمين، والحمد لله وحده.

* * *

(١) كذا في الأصل، وكأنه ترجمة بيتي منصور بن إسماعيل الفقيه:

النـــاس بحـــر عميـــق والبعـــد عنهـــم سفينَـــة
وقـــد نصحتـــك فـــانظـــر لنفســـك المسكينـــة

انظر معجم الأدباء ٦/ ٢٧٢٣.

(١٥) عبد الله بن المبارك[١]

ذكر الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله:

كان رحمه الله زينةَ زمانه، وحِلية أوانه، إمامًا في الشريعة والطريقة، ذا الجهادَيْنِ[٢] في الحقيقة.

وكان يُسمّى سلطان العلماء، وما كان له نظيرٌ في عهده في العلم والشجاعة.

وكان من مُحتشمي أصحاب الطريقة، ومن محترمي أرباب الشريعة، وله في جميع الفنون أحوالٌ مرضية.

وأدركَ جمعًا كثيرًا من كبار المشايخ، وكان مُداريًا مع جميع الخلق، مَقبولاً عندهم.

وله في العلوم تصانيفُ مَشهورة[٣]، وبين المشايخ كراماتٌ مذكورة، حتى

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٢، طبقات خليفة ٣٢٣، تاريخ خليفة ١٤٦، التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٢١٢، التاريخ الصغير له ٢/ ٢٠٥، المعارف ٥١١، الجرح والتعديل ٥/ ١٧٩، الثقات لابن حبان ٧/ ٧، حلية الأولياء ٨/ ١٦٢، تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، ترتيب المدارك ١/ ٣٠٠، أنساب السمعاني ٤/ ٢٥١، صفة الصفوة ٤/ ١٣٤، تاريخ دمشق ٣٨/ ٣٠١، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٧٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٨٥، وفيات الأعيان ٣/ ٣٢، مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ١٣، تهذيب الكمال ١٦/ ٥، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٦ (١١٢)، تذكرة الحفاظ ٢٧٤، غاية النهاية ١/ ٤٤٦، الوافي بالوفيات ١٧/ ٤١٩، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٨٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٩، الكواكب الدرية ١/ ٣٥٠، شذرات الذهب ١/ ٢٩٥.

(٢) الجهادان: الجهاد الأكبر (جهاد النفس)، والجهاد الأصغر (قتال أهل الشرك والضلال).

(٣) ذكر صاحب هدية العارفين ١/ ٤٣٨ من كتبه: الأربعين في الحديث، تفسير القرآن، الدقائق في الرقائق، رقاع الفتاوى، كتاب البر والصلة، كتاب التاريخ، كتاب الجهاد، كتاب الزهد، كتاب السنن في الفقه.

قيل: كان يجيءُ يومًا إلى سفيان الثوري رحمه الله، فقال سفيان: تعالَ يا رجلَ المشرق. وكان الفضيلُ حاضرًا فقال: والمغربِ وما بينهما أيضًا.

حكي أنَّ ابتداءَ سبب توبته أنه كان عاشقًا على جاريةٍ، وهي قد سلبَتْه العقل والقرار إلى أن جاءَ إلى تحت حائطِ بيتها في ليلةٍ شاتيةٍ باردة، وهي كانت على السطح يُشاهدُها وتُشاهده إلى أن أذَّنَ المؤذن للصُّبح، وفي ظنِّه أنه للعشاء، فلمّا انكشفَ الفجر، علمَ أنّه لصلاة الصبح، وأنه كان مُستغرقًا في مشاهدة معشوقته الجارية، فتنبَّه وانتبه، وندمَ على ما فعل، وقال في نفسه: أما تَستحيي يا بن المُبارك من أن أحييتَ ليلةً إلى الصباح في هوى النفسِ؟ وكنتَ قائمًا واقفًا على الأقدام لا تدري الرأسَ من القدم! وإن أطالَ الإمامُ نوبةً في الصلاة يحصلُ لك ضجرٌ وسآمةٌ، ولا تقدرُ أن تقومَ لله في عبادته لحظةً، أهكذا يفعلُ الكرام؟ أهكذا تُحفظ الذمام[1]؟ وحصل في قلبه قلقٌ واضطراب وحرقة، وتاب من ساعتِهِ، واشتغلَ بطلب العلم، وترقّى ووصلَ إلى درجةٍ من الكمال حتّى رأته أمُّه نائمًا في البستان، وعنده حيّةٌ عظيمةٌ، أمسكَتْ بفمها ورقةَ ريحانٍ تروِّحُهُ بها.

ثم رحلَ من مرو إلى بغداد، وسكنَ بها مدةً، وكان يصحبُ المشايخ، ثم سافر إلى مكّةَ شرّفها الله تعالى، وسكن هناك ما شاء الله تعالى، ثم رجعَ وتوجَّهَ إلى مرو، وهي من مدن خراسان، واعتقدَهُ الخلائقُ فيها، واشتغل بإفادة الناس والدرس، وكان أهلُ مرو فريقين: بعضُهم على طريقةِ أهلِ الحديث، وهم أصحابُ الشافعي رضي الله عنه، وبعضهم على مذهبِ أهلِ الرأي على مذهبِ أبي حنيفة[2] رضي الله عنه، وهو عاشَرَ الفريقين بحيث أنَّهما رضيا عنه، وسُمّي رضيَّ الفريقين لغاية موافقته لهما، وكلٌّ من الفريقين يدّعي: أنّه منّا. وهو بنى في مرو زاويتين: إحداهما لأهلِ الحديث، والأخرى لأهل أرباب الرأي[3]

(١) في (أ): أهكذا تخفر الذمام.
(٢) في (أ): على طريقة أهل الرأي.
(٣) في (أ): والأخرى لأصحاب الرأي.

ـ أي الشافعية والحنفية ـ ثم ارتحلَ إلى مكّة حرسها الله تعالى، واختار الإقامة بها.

نقل أنه كان يحجُّ عامًا، ويغزو عامًا، ويتّجرُ عامًا، وما يكتسبُ من عامِ تجارتِهِ[1] يُنفقُهُ على المساكين والمحتاجين، وكان يُطعمُهم التمرَ، ويقول: من يأكل تمرةً أُعطيه درهمًا. ثم كان يعدُّ العَجَمَ، ويُوفي بما وعد.

نقل أنه اتّفقَ له مرافقةٌ مع شخصٍ سيّىء الخلق، فلمّا تفرّقا شرعَ عبدُ الله يبكي، قيل له: ولِمَ تبكي؟ قال: لأنَّ هذا المسكين فارقني، ولم يفارقْ خلقَه، وذهبَ معه.

نقل أنه كان في التقوى إلى حدٍّ أنّه في بعض الأيام كان راكبًا على فرسٍ له، سائرًا في بعض الصحارى يشتغلُ، والفرسُ كان من الجياد، فنزل واشتغلَ بالصلاة، فبين ذلك دخلَ فرسُه في زرعٍ، وأكلَ منه شيئًا، فلمّا فرغَ من الصلاة، ترك الفرسَ لصاحبِ الزرع، وقال: لا يصلحُ لي بعد هذا.

نقل أنه رجعَ من مرو إلى الشامِ بسببِ قلمٍ لبعضِ الأصحاب قد بقي معه، فأوصله إلى صاحبه.

نقل أنه كان سائرًا في بعض الطُّرق، وكان هناك رجلٌ أعمًى واقفًا على الطريق يَسألُ الناس، قيل له: هذا عبد الله بن المبارك يجيءُ إليك، اسألْ منه ما تشتهي. فلمّا وصلَ إليه عبد الله قال الأعمى: قف يا عبد الله. فوقف، فقال له: ادعُ الله تعالى ليردَّ عليَّ عيني. فأطرق عبدُ الله رأسَه، ودعا، فردَّ اللهُ عليه عينه في الحال.

نقل أنه في عشر ذي الحجَّة خرج إلى الصحراء، وكان له اشتياقٌ عظيم إلى زيارة الكعبة، وما تيسّرتْ له في تلك السنة، فاشتغلَ بأعمال الحجّ هناك، وترك قَلْمَ الأظفار، وحلقَ الشعر، وغيرَ ذلك ممّا يمكنه أن يأتي به من أعمال الحجِّ في ذلك المكان، وكذلك كان مشغولاً بذلك إذِ التَقتْهُ عجوزةٌ مُنحنيةُ الظهر،

(١) في (ب): وما يكتسب في حال تجارته.

بيدها عصا، وقالت: يا عبد الله، تَشتهي الحجَّ، فإنك مشغولٌ بأعماله؟ قال: نعم. فقالت العجوزة: بعثوني لأجلك لترافقني وأرافقك إلى عرفات، وأوصلَكَ إليها بتوفيق الله تعالى. قال عبد الله: قد تضيَّقَ الوقتُ، وما بقي إلاّ ثلاثةُ أيام أو أربعةُ أيام، فكيف نصلُ من مرو إلى مكة؟ قالت العجوزة: مَنْ صلَّتْ سُنَّةَ الصبح[١] في ساحل سيحان، والفريضةَ في جيحان، وحين طلعتِ الشمسُ وصلَتْ إلى مرو تصلحُ لترافقها إلى مكة. فذهب معها عبد الله، قال: كنّا نصلُ إلى أنهارٍ عظيمة[٢]، لا يُمكن العبور عليها إلاّ بالسفينة ومثلها، فتقولُ لي العجوزةُ: اغمضْ عينيك. وعند الفتح أكونُ في الناحية الأخرى من النهر حتى انتهينا إلى عرفات، وحصل لنا الوقوفُ، وتمَّ الحجُّ، وأدّينا المناسك من الطواف والسعي، وقضينا العمرةَ أيضًا، قالت العجوزة: لي هنا ابنٌ مشغولٌ بالرياضة في مغارةٍ، تعالَ نمشِ إليه لنزوره. فلمّا وصلنا إليه، رأيناه أصفر لونُهُ، وصار ضعيفًا مهزولاً نحيفًا، فكان النورُ يتقاطرُ من وجهه، فحين رأى أمَّه استبشرَ وشرع يقبِّلُ يديها ورجليها، وقال: أعلمُ أنك ما جئتني اختيارًا، إلاّ أنّ الله تعالى بعثَك، والحالُ أني قد انقضى عمري، وما بقي منه إلا قليلٌ، اصطبري وقفي عندي لتجهّزيني. قالت لعبد الله: توقّفْ عندي إلى أن نفرغَ من دفنه. فتوفّي ابنُها إلى رحمة الله تعالى، وجهّزوه ودفنوه، ثم قالت العجوزة: إني لا أفارقُ قبرَه، وأنت يا عبدَ الله في الخير والسلامة، فإن اتّفقَ لكَ المجيءُ إلى مكة في السنة القابلة، ووجدتني قد انتقلتُ إلى رحمة الله تعالى، اذكرني بالدعاء. والله أعلم.

نقل أنه قال: قد حججتُ في بعض الأعوام، وأتممتُ المناسكَ، وكنت قاعدًا في الحرم الشريف إذ غلبني النوم، فرأيت فيما يرى النائم أنّه نزلَ من السماء مَلَكانِ، وسأل أحدُهما من الآخر: كم من الناس اجتمع في هذه السنة؟ قال: ستُّ مئة ألف. قال: فحجُّ كم منهم مقبول؟ قال: ليس حجُّ أحدٍ منهم

---

(١) في (ب): من صلت صلاة الصبح هو في ساحل.

(٢) في (أ): كنّا إذا وصلنا إلى أنهار عظيمة

مقبولاً. قال عبد الله: لمَّا سمعتُ هذا الكلام حصلَ لي اضطرابٌ وألمٌ عظيم، قلت: هذه الخلائقُ اجتمعوا وتعبوا وجاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق، وقطعوا البوادي، وسعيُهم يصيرُ ضائعًا عند الله! قال: رجلٌ إسكاف في دمشق يُسمَّى عليًّا [بن] الموفق[١]، وهو ما حضر الموقف؛ ولكن الله تعالى كتبَ له ثواب حجٍّ كامل، وقَبِلَ حجَّ هذه الخلائق ببركته. فانتبه عبد الله من نومه، وقال: قصدتُ دمشق، إذ ليس منهم أفضلُ من أن ألتقي بذلك الشخص، وأستخبرُ من أعماله، وأعلم أنَّه بأيِّ عملٍ استحوذَ على هذه الدرجة حتى كُتب له حجٌّ، وقُبل ببركته حجُّ ناسٍ كثيرٍ من المسلمين، فبلغتُ دمشق، وانتهيتُ بلا دليلٍ إلى باب دارٍ، وقرعتُه، فطلعَ شخصٌ، فسألتُ اسمَه، فقال: اسمي عليّ [بن] الموفق. قلت: وما عملُك؟ قال: إنّي رجل مشفعٌ، وعملي وصنعتي التَّشفيع[٢]. قلتُ: لي معك كلامٌ. وكان هناك مسجدٌ، فدخلناه، وأعلمتُهُ عمّا رأيتُ في المنام، وقلتُ: اسمي عبد الله بن المبارك. فشهق الرجل شهقةً وأُغمي عليه، فلمّا أفاقَ، قلتُ: أخبرني عن هذا الحال. قال: من ثلاثين سنة أقصدُ زيارةَ الكعبة، وتَحصيلَ المناسك، وأهمّني ذلك[٣]، وكنت أجمعُ قليلاً من التشفيع حتى انجمعَ لي ثلاثُ مئة وخمسون درهمًا، وأردتُ الحجَّ في سنتنا هذه، ثم رأيت الدراهم قليلةً، قلتُ: أصبرُ هذه السنة إلى القابلة، عسى أن يحصلَ لي خمسون درهمًا آخر ليصيروا أربع مئة درهم، ثم أُسافرُ إن شاء الله تعالى، وكانت امرأتي حاملةً، واشتمَّت رائحةَ طعامٍ من بعض بيوت الجيران، وتغيَّرَتْ عليها الحال، وطلبَتْ منّي لقمةً من ذلك الطَّعام، فأتيتُ باب ذلك البيت، وطلبتُ مذقةً من ذلك الطعامِ، وأعلمتُ الحال، وكانت صاحبةُ البيت امرأةً، فبكت وقالت: لي

---

(١) كذا في الأصول، وهو غير علي بن الموفق الزاهد الورع السخي الذي توفي سنة ٢٨٣هـ انظر ترجمته ومصادرها في طبقات الصوفية للمُناوي (١/ ٦٧٩) ومن نافلة القول إن عبد الله بن المبارك توفي سنة ١٨١.

(٢) التشفيع: إصلاح الأحذية، انظر صفحة ٧٨٨، وفي الترجمة العربية صفحة ٤١١ صنعته الحياكة.

(٣) في (أ): وأتمنّى ذلك.

أولادٌ صغارٌ أيتام، وما أكلوا شيئًا في هذه الأسبوع، فدخلتُ اليومَ في خرابةٍ، فصادفتُ فيها جيفةَ حمار، وأتيت منها بقطعةِ لحم، وهي هذه في القدر بعدُ، وهي علينا حلالٌ، وعليكم حرام. فلمّا سمعتُ الحكايةَ احترقَ قلبي رأفةً بهم وشفقةً عليهم، فلمّا رجعتُ إلى البيت وأخذتُ الدراهمَ المعهودة، وهي ثلاثة مئة وخمسون درهمًا، وأتيت بها إلى المرأةِ، وأعطيتُها إيّاها لتُنفقَ على نفسها وعلى أطفالها، واكتفيت بالبذلِ لوجهِ الله على الحجِّ، وقلت: هذا يقوم لي بعنايةِ اللهِ عن الحجِّ ومقامه. فقال عبد الله: صدقْتَ، وصدق المَلَكُ الرؤيا، وعدل المَلَكُ في الحكم والقضاء، والله أعلمُ بحقائق الأشياء.

نقل أن لعبدِ الله كان مملوكًا، فكاتبه على درهمٍ يؤدّيه إليه في كلِّ يوم، فأخبره شخصٌ: أن هذا المُكَاتَبَ يَنبشُ القبور، ويُحصِّلُ الدرهم الذي يُعطيك من ثمنِ الأكفان. فشقَّ ذلك على عبد الله، فتبعه ليلةً خُفيةً منه، فرآه دخلَ بعضَ المقابر، ونبشَ قبرًا، ودخل فيه، فاطّلعَ عليه، فإذا هو مسجدٌ وفيه محرابٌ، واشتغلَ المملوكُ المكاتَبُ فيه بالصلاة والعبادة إلى الصباح في غايةِ التضرُّع والابتهال[١]، وقد تقلَّدَ في عُنقه غلاًّ ثقيلاً من الحديد، ولمّا رأى عبدُ الله الحالَ، غلبَ عليه البكاء والأنينُ، واختفى هناك إلى أن انقضى شُغلِ المكاتَبِ، وطلع الفجر، فخرج من ذلك الحفرة، وطمَّ رأسَه، ثم رفع رأسَه إلى السماء، وقال: إلهي، أصبحتُ والسيد المجازيُّ سيطلبُ منّي الدرهم المطلوب المعهود، إلهي وأنت رأسُ المال للمُفلسين، فاعطني من حيث تعلمُ ولا أعلم. فظهر نورٌ وفيه درهمٌ وقعَ بين يديه، فقام عبد الله إليه إذ لم يبقَ اصطبارٌ، واعتنقَ العبدَ المكاتَبَ، وشرع يقبِّلُ رأسَه ووجهه، فاغتمَّ المُكاتَبُ من اطّلاع عبد الله على حاله، وقال: إلهي، لمّا افتضحْتُ وهُتك ستري، وانكشف سرّي لم يبقَ لي عيشٌ ولا راحةٌ في الدنيا، أسألُكَ بعزّتِكَ أن لا تفتنني؛ بل تقبض روحي في الساعة. وكان بعدُ في المُعانقة مع عبد الله، وفي حضنه، إذ قُبض روحُه، ووقع

---

(١) في (أ): في غاية التضرع والخشوع.

على الأرض ميتًا، تحيّرَ عبدُ الله رضي الله عنه في شأنه، وبقي متفكّرًا ساعةً، ثم رجعَ، وأخبرَ أصحابَه وإخوانه، فحضروا، وهو تولّى غسلَهُ بنفسه، وصلّى عليه بجماعةٍ من المسلمين، وكفّنه في كساءٍ غليظٍ كان عليه، ورأى عبدُ الله في ليله إبراهيمَ ومحمّدًا عليهما السلام يأتيان راكبَيْنِ على بُراقَيْنِ، فالتقيا بعبد الله بن المبارك، وقالا له: يا عبدَ الله، لِمَ دفنْتَ وليًا[١] في ذلك الكساء؟!

نقل أنه كان يَمشي في بعض الأيام في وقارٍ عظيم، وسكونٍ ومهابة، فاستقبله شابٌ سكرانُ من أبناء السادات العلوية، وقال له: يا بن الهندي ـ لأن المباركَ كان غلامًا هنديًا ـ أنت تتماشى على تلك الطريقةِ، وأنا من أولادِ الرسول ﷺ، وحالي كما ترى! فقال عبد الله: لأنّي أعملُ بما عملَ به جدُّك ﷺ وأمر ونهى، وأنت لا تعملُ، لا جرمَ أنا على هذا الحال، وأنت على ذلك. فلمّا باتَ عبدُ الله رأى في المنام النبيَّ ﷺ متغيّرًا عليه، قال: يا رسول الله، ما لي أراك متغيّرًا عليّ؟ وأيُّ شيءٍ هو جرمي؟ وما ذنبي؟ قال ﷺ: لأنّك حملتَ الذنبَ على بعض أولادي في جماعةٍ من الناس[٢]، ونسبتَ إليه ظاهرًا. فأصبح عبدُ الله، وقصد مقامَ العلويِّ ليعتذرَ منه، والحالُ أنَّ الشابَّ العلويَّ أيضًا رأى النبيَّ ﷺ تلك البارحةَ، واشتكى لديه من عبد الله، وقال له النبيُّ ﷺ: لو أنت كنتَ كما ينبغي، وعاشرتَ على طريقي، وسلكت محجّتي لما قال عبدُ الله ما قالَ. فأصبح العلويُّ أيضًا، وقصدَ عبد الله ليعتذرَ منه، فالتقيا في الطريق، وتحاكيا ما جرى عليهما، وتاب العلويُّ على يد عبد الله، وهو على يد العلوي ورجعا.

أقول: معاتبة النبي ﷺ مع عبد الله بن المبارك لا شكَّ أنّها كانت إرشادًا له، وإصلاحًا له، وإزالةً لما توهَّمَ فيه من العُجب المُردي، ومن التحقير لبعضِ أولاد النبيِّ عليه السلام، وتهذيبًا لأخلاقه، وتأديبًا، وسببًا لصلاح ذلك العلويِّ المُجاهر بالفسق، المخالف لسيرةِ أسلافه الكرام، والله أعلم.

---

(١) في (ب): دفنت وليًّا.

(٢) في (أ): وفي ملاءٍ من الناس.

نقل أن سهلَ بن عبد الله المروزي[١] رضي الله عنه كان يترَدَّدُ إلى مجلسِ درسِ عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، فخرج يومًا من المجلسِ، وقال: لا أرجعُ إلى مجلسِ درسِك أبدًا. قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأنَّ جماعةً من جواريك طلعتْ على السطح اليومَ، ودعونني إليهنَّ، وكلٌّ تقول: سهلي، وأنت لا تؤدِّبهنَّ! قال عبد الله لأصحابه: اجتمعوا نصلِّ على سهل؛ فإنه سينتقلُ إلى رحمة الله تعالى؛ إذ ليس لي جوارٍ، ولكنَّ هذه التي رآها سهل كانت من حُورِ العين. فاجتمعوا، وهو تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وصلّوا عليه، ودفنوه.

نقل أنه سئل عنه: ماذا رأيتَ من العجائب؟ قال: رأيت راهبًا نحيفًا من المجاهدة مُتضرِّعًا مُضطربًا من خوف الله تعالى، مُنحنيًا من سطوات العقاب، قلت له: وما الطريقُ إلى الله تعالى؟ قال: إن عرفتَهُ علمتَ الطريقَ إليه، ثم قال: والذي يقضي منه العجب أنّي كيف أعبدُ من لا أعرفه؟ وأنت كيف تَعصي من تعرفه؟ مُراده: أنك تدّعي المعرفة، وهي تقتضي الخوف، ولا أرى فيك أثرَ الخوف، والكفرُ يقتضي الجهلَ، وأنا ذبتُ من الخوف.

قال: دخلتُ الروم، وكنت أسير فيها وأدور، فالتقيتُ في مدينةٍ بجماعةٍ اجتمعوا في موضعٍ، ويريدون أن يصلبوا شخصًا في كلاليب ويعلّقونه فيها بكتفيه[٢]، ويقولون: إن قصّرنا ذرةً في تعذيبه، فليكن خصمُنا الصنمَ الكبير. ورأيتُ ذلك الشخص في تعبٍ عظيم، وعذابٍ أليم، وكان يصطبرُ، ولا يُظهرُ الجزعَ ولا يتأوّه، فتقرّبتُ منه، وسألتُهُ عن حاله، وعن غايةِ اصطباره، وعدم إظهاره الجزعَ مع سُوءِ حاله، وقبحِ مآله[٣]، فقال: إليك عنّي؛ فإنّي جنيتُ جنايةً عظيمةً، وسيّئةً كبيرة. قلت: كيف ذلك؟ قال: أظنُّك مُسلمًا، وأحكي لك حكايتي، فاعلم أنَّ من ملّتنا أن لا يذكرَ أحدٌ الصنمَ الكبير إلاّ بعد أن يُطهِّرَ

---

(١) كذا في الأصول، وهو ليس سهل بن عبد الله التستري التي ستَرِد ترجمته برقم (٢٨) الذي توفي سنة ٢٨٣هـ عن ٨٣ عامًا، وعبد الله بن المبارك توفي سنة ١٨١هـ.

(٢) في (ب): في كلابين، ويعلقونه فيهما بكتفيه.

(٣) في (ب): وقبح باله.

ظاهرَه وباطنه من كلِّ رجس ونجسٍ، ونذكرَه في غايةِ الخشوع والخضوع في موضعٍ نظيف، وأنا اليوم ذكرتُهُ في السوقِ خلفَ الميزان، وهذا جزاؤه. قال عبد الله: وكذا في شريعتنا مَنْ عرفَ الله تعالى حقَّ المعرفةِ لا يطيقُ أن يذكرَه، من عرفَ الله تعالى كَلَّ لسانه.

نقل أيضًا أنّه اتّفقَ في الرومِ في بعض الغزوات، وحصلَتْ له محاربةٌ مع كافرٍ، فدخلَ وقتُ الصلاة، فاستمهلَ من الكافرِ ليُصلّي، فأمهلَهُ الكافرُ، فصلّى عبد الله، ورجع إلى قتاله، ثم دخل وقتُ صلاة الكافر، فهو أيضًا استمهل عبد الله، فأمهله، ورجع الكافر ليُصلّي، ولمّا اشتغلَ الكافرُ بصلاته علمَ عبدُ الله أنّه يعبدُ الصنمَ، ويجوز قتالُه في هذه الحالة، والفرصةُ غنيمةٌ، فسلَّ سيفه وتبعَهُ ليجزَّ رقبته، وحين وصلَ إليه، ووقفَ على رأسه، سمعَ مُناديًا يقول: يا عبد الله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] فشرعَ عبدُ الله يبكي واقفًا هنالك، وامتنعَ من التعرّضِ له، رفع الكافرُ رأسَه من سجوده، ورأى عبدَ الله واقفًا على تلك الهيئة والحالة، استخبرَ منه، فقصَّ عليه القصة، وقال: عُوتبتُ لأجلك. فشهق الكافرُ وقال: يكونُ من ترك المروءة والفتوّة والعصيان فيمن يُعاتبُ أولياءه في بعض أعدائه، وقال: اعرضْ عليَّ الإيمان. فآمن، واجتهدَ في الدين، وحسنَتْ حالُه، وحصلَتْ آمالُه ببركة معاملته مع عبد الله عليه الرحمة.

نقل أنه قال: كنتُ في مكّة مُحرمًا بالحجِّ، وقصدتُ أن أدخلَ البيت، وتبعني شابٌّ حَسَنُ الهيئة، جميلُ الوجه، فلمّا دخلتُ التفتُّ ما رأيتُ الشاب، فحين خرجتُ رأيتُهُ ساقطًا على الأرض، مَغشيًا عليه، واجتمعَ حوله جماعةٌ، فوقفتُ ساعةً، فأفاقَ، ورفعَ مُسبّحَتَهُ، وقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله. قلت: كيف حالُكَ يا فلان؟ قال: اعلمْ أنّي رجلٌ من النصارى، وأردتُ أن أرى الكعبةَ، وأدخلَ فيها مع المسلمين بالتلبيس والحيلة، فلمّا وصلتُ إلى الباب سمعتُ هاتفًا يصيح ويقول: أتدخلُ بيتَ الحبيب، وفي قلبكَ معاداةُ الحبيب؟! فانفتح بابُ قلبي، وأسلمتُ وآمنت.

نقل أنَّه كان يدورُ يومًا في سوق نيسابور، وكان يومًا شاتيًا باردًا، فالتقى بغلامٍ عليه قميصٌ واحدٌ، وهو يرجفُ من البرد، قال له: لِمَ لا تقولُ لسيِّدكَ أن يشتري لك جبَّةً؟ قال: ماذا أقولُ والسيِّدُ يراني ويسمعُ ويعلمُ أحوالي؟! فطاب وقتُ عبد الله من كلامِ الغلام، وشهقَ وخرَّ زائلَ العقل، ثم أفاق وقال: ينبغي أن تتعلَّمَ الطريقةَ من هذا الهندي.

نقل أنه أصابه مصيبةٌ، وكان الخلقُ يتردَّدون إليه للتعزية، وكان هناك مُشركٌ مجوسيٌّ هو أيضًا جاء إليه يعزِّيه وقال: يا عبدَ الله، ينبغي لك أن تعملَ اليومَ ما أنت تعملُهُ بعد ثلاثةِ أيام. فبكى عبد الله، وقال: اسمعوا كلمةَ الحكمةِ من هذا الأجنبي.

أقول: لا غروَ في هذا وفي أمثاله، فإن عليًّا كرّم الله وجهه قال فيما نُقل عنه: انظرْ إلى ما قال، ولا تنظر إلى مَنْ قال، والله أعلم.

سُئل: أيُّ خصلةٍ في الإنسان أنفع؟ قال: العقلُ الوافر؛ أي الكثير الكامل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: حسنُ الأدب. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ مُشفقٌ يُشاورُهُ فيما يسنح له من الأمور. قيل: إن لم يكن؟ قال: السكوت الدائم. قيل: إن لم يكن؟ قال: الموت في الحال.

ومن كلامه:

من استخفَّ أدبًا من الآداب حُرم سُنَّةً، ومن استهان بسُنَّةٍ ابتُلي بترك فريضةٍ، ومن استخفَّ فريضةً حُرم من المعرفة، والبعدُ من المعرفة شؤم.

قلوب الطالبين للحقِّ لا تسكنُ أبدًا؛ بل تكون طالبةً لمقامها عند مولاها.

الناسُ بقليلٍ من الأدب أحوجُ بكثيرِ العمل.

نحن نطلبُ الأدب اليوم، وقد ذهب المؤدِّبون.

كلٌّ من الناس قال في الأدبِ شيئًا، وهو عندي معرفةُ النفس.

السخاوةُ بما في أيدي الناس أفضلُ من بذل ما في يدك.

ردُّ درهمٍ من الشُّبهة إلى صاحبها خيرٌ من التصدّقِ بمئةِ درهمٍ.

مَنْ قَبِلَ درهمًا من الحرام لا يكونُ متوكِّلاً.

ليس التوكّلُ أن تراه من نفسك؛ بلِ التوكُّلُ ما يعلمُ الله تعالى منك توكّلاً.

الكسبُ لا يمنعُ من التفويض والتوكُّلِ.

المروءةُ في الرضا أحسنُ من المروءةِ في العطاء.

الزهد هو الأمن في وعد الله.

من لم يذقْ طعمَ العبودية فلا ذوقَ له.

من له أهلٌ وأولاد، وهو يُربِّيهم بالخيرِ والصلاح، ويقومُ بالليل، فإن رأى واحدًا منهم قد انكشفَ فغطّاه، فذلك القدرُ من العمل أفضلُ من غزونا.

مَنْ عظم قدرُهُ عند الناس ينبغي أن يحقِّرَ نفسَه.

قيل له: ما داوءُ القلب؟ قال: البعد من الناس، والتكبُّرُ على الأغنياء، والتواضعُ للفقراء.

من التواضعِ التكبّرُ على من فوقك في الدنيا، والتواضع لمن دونك فيها.

الرجاءُ يحصل من الخوف، والخوفُ من صدقِ الأعمال، وصدقُ الأعمال من تصديقِ القلب.

كلُّ رجاءٍ لا يكون أصلُه الخوف يَزولُ عن قريب ويسكن.

سببُ انبعاثِ الخوفِ وقرارِهِ في القلب دوامُ المراقبةِ في السرِّ والعلن.

نقل أنه جرى في مجلسه غيبةٌ لبعضِ الناس، قال: إن أردتُ اغتيابَ الناسِ، فأبي وأمي أوَلى بذلكم، فإنهما أوْلى بحَسناتي من غيرِهما.

نقل أنه قال له شخصٌ: وصّني. قال: راقبِ الله تعالى. قال: وكيف أراقبُهُ؟ قال: كنْ في جميع الأحوال كأنك تشاهدُ أنه يراك.

نقل أنه في حال حياته صرفَ جميعَ أمواله على الفقراء، وحين حضرتْهُ الوفاةُ، قال له شخص من المُريدين: تغمضُ عينيك من الدنيا، ولك بنتان، وما تركتَ لهما شيئًا؟ فقال عبد الله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ففي وقتِ النزعِ، فتحَ العين، وكان يضحكُ ويقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

نقل أنّ شخصًا من الصالحين رأى سفيان الثوري بعد موتِهِ في المنامِ، وسألَهُ عن عبد الله بن المبارك، قال سُفيان: وهو ممّن يُؤذَنُ له إلى ربِّه كلَّ يوم مرتين.

رزقنا الله تعالى السُّلوكَ في طريقهم، ونوّرنا الله تعالى بأنوار كشفهم وتحقيقهم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *



(١٦) سفيان الثوري[1]

ذكر سفيان الثوري قدّس الله سرَّه:

كان رحمه الله كبيرَ الشأن، مشارًا إليه بالبنان، ولهذا سُمّي بأميرِ المؤمنين، وإن لم يشتغل بالخلافة، وكان مقيّدًا بالحقِّ، وصاحبَ قبولٍ في الدِّين، وفي العلوم الظاهرة والباطنة، عديمَ النظير.

أقول: وهو أحد المجتهدين الستة، وهم المذكورون في هذين البيتين:

وإن شئتَ أركانَ الشريعة فاستمعْ ... لتعرفَهُمْ واحفظْ إذا كنتَ واعيا
محمـدُ والنعمـانُ مـالـكُ أحمـدُ ... وسُفيانُ واذكرْ بعدُ داودَ تابعا[2]

والله أعلم.

وله في الورع والتقوى يدٌ طُولى، وأدبٌ حسن، وتواضعٌ عظيم، ومن أول أمره إلى آخره كانت أعماله وأحواله على سنن واحد[3].

نقل أنه حين كان في بطنِ أمهِ، طلعتْ أمُّه في بعض الأحيان على السطح،

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٧١، طبقات خليفة ١٦٨، تاريخ خليفة ٣١٩، التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٩٢، التاريخ الصغير له ٢/ ١٣٩، ١٤٢، المعارف ٤٩٧، الجرح والتعديل ٤/ ٧١٣، الثقات لابن حبان ٦/ ٤٠١، مشاهير علماء الأمصار ١٦٩، حلية الأولياء ٦/ ٣٥٧ـ ٧/ ١٤٤، تاريخ بغداد ٩/ ١٥١، صفة الصفوة ٣/ ١٤٧، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٥٤٠، جامع الأصول ١٤/ ٢٣٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٢٢، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٦، تهذيب الكمال ١١/ ١٥٤، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٣، العبر ١/ ٢٣٥، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٧٨، تهذيب التهذيب ٤/ ١١١، طبقات الشعراني ١/ ٤٧، الكواكب الدرية ١/ ٣٠٣، شذرات الذهب ١/ ٢٥٠.

(٢) البيتان في طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٣١، ليحيى بن سلامة الطَّنْزي الحصكفي. قالهما جامعًا أسماء الأئمة الستة. وفي الطبقات: لتعرفهم واحفظ إذا كنت سامعًا.

(٣) في (أ): على سنن دائم.

وحطّت في فمها بأصبعِها من سطحِ الجار حامضًا كان هناك، ونزلت، وشرعَ هو في البطن يتحرَّكُ ويضطربُ، ولا يسكنُ حتى عرفتِ الأم أن لعقَتْ أصبعًا من ذلك الحامض بلا إذنٍ، فذهبت إلى الجارِ، واستحلّتْ ذلك، فاطمأنَّ بعدَه، وسكن.

حكي أنه في ابتداء الحال وضعَ يومًا رجلَه اليُسرى في المسجد قبلَ اليُمنى غافلاً، فسمع صوتًا قيل له: يا ثور. وغُشي عليه، فلمّا أفاقَ أخذَ لحيتَهُ بيده، وشرعَ يضربُ على وجهِهِ ويلطمُهُ، ويقول: أسأتَ الأدبَ نوبةً في دخول المسجد نُوديت باسم البهائم، وأُخرجَ اسمي من أسماء الإنسان، والحال أن من سبعين سنةً أسأتُ الأدبَ في الإسلام، فكيف يكون حالي؟

وقيل: إنه وضعَ قدمًا في زرعٍ، فنودي: يا ثور، وهذا من غايةِ عنايةِ الحقِّ كان في حقِّه، فإنه ما قدرَ على وضعِ قدمٍ بخلافِ السُّنة، وقيل: ما نام عشرين سنة.

نقل عنه أنه قال: ما رَويتُ حديثًا عن رسول الله ﷺ إلاّ عملتُ به، وكان يقول لأصحاب الحديث: أدّوا زكاةَ الحديثِ. قيل: وما زكاة الحديث؟ قال: أن تَعملوا من كلِّ مئتي حديث بخمسةِ أحاديث.

نقل أن خليفة العصر كان في المسجد يُصلّي، وبيده يعبث بلحيته، فقال له سفيان: ليست هذه الصلاةُ بصلاةٍ؛ بل تُلَفُّ هذه الصلاةُ في القيامة في خرقةٍ، ويُضرب بها على وجهك[1]. قال الخليفة: مهلاً يا سفيان. قال سفيان: قلبي

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصلوات لوقتها، وأسبغ لها وضوءها، وأتمَّ لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى لغير الصلاة لغير وقتها، ولم يسبغ لها وضوءها، ولم يتمَّ لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفّتْ كما يُلفُّ الثوب الخلق، ثم ضُرب بها وجهه». رواه الطبراني في الأوسط ٣/ ٢٦٣ (٣٩٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٠٢: وفيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه.

ينقلبُ دمًا من مُشاهدة مثل هذه الأفعال، ولا أقدرُ على السكوت. وكلامُه قد أثّر في قلب الخليفة، وأضمرَ منه، ثم بعد مدّةٍ أمر أن تُنصبَ خشبةٌ ليُصلب عليها سفيان جزاءً لسوء أدبه في حضرة الخليفة، وسفيان كان في بيته غافلاً عن ذلك، وعنده سفيان بن عيينة، وشخصٌ آخر من المشايخ، وهو كان نائمًا، فقال أحدُهما للآخر: نُعلمه الحكاية أم لا؟ وهو كان مُستيقظًا، فسمعَ مقالتهم، واستخبرَهُ عنهم[1]، فقالوا ما جرى من الأمر، فقال: لا أحبُّ حياتي؛ ولكن ينبغي أن لا يُترَكَ الحقُّ، فدمعت عيناه، وقال: إلهي، خذه أخذَ عزيزٍ مقتدر. والخليفةُ كان جالسًا على سريرِ الملك، وعنده جماعةٌ من خواصِّه وأركانِ دولته، سمعوا صوتًا من جانب السقف، وانهدمَ البيت، ووقع السقفُ على الأرض، وهلكَ الخليفةُ والذي حوله، وجاء الخبرُ إلى سفيان، وهو بعدُ جالسًا في بيته مع الشخصين، قالا له: يا شيخ، دعاءٌ مُستجابٌ بهذه العجلة! قال: نعم، إنّي ما أرقتُ ماءَ وجهي على هذا الباب قطُّ.

نقل أنه استُخلفَ خليفةٌ آخرُ، فاعتقدَ في سفيان اعتقادًا عظيمًا إلى أن مَرِضَ سفيان، وبعث إليه الخليفةُ طبيبًا من خواصِّ أطبائه، ونظر الطبيبُ إلى قارورته قال: هذا رجلٌ صارَ كبدُهُ من خوف الله دمًا، وينزلُ إلى المثانة قليلاً قليلاً. وكان الطبيب كافرًا، فآمن، وقال: الدين الذي يكون فيه مثلُ هذا الشخص لا يكونُ باطلاً. قال الخليفة: حسبتُ أنّي بعثتُ الطبيبَ إلى المريض، والأمرُ كان بالعكس، فإنَّ الطبيب كان مريضًا والمريض طبيبًا.

نقل أن سفيان رحمه الله كان في أيام الشباب مُنحني الظهر، فقيل له: يا إمام المسلمين، مالك صار ظهرُك في أوان الشباب مُنحنيًا؛ مع أن أترابَكَ ليسوا كذلك؟! وما كان يُجيبهم حتى ألحُّوا عليه، قال: كان لي شيخٌ، وهو كان عالمًا كبيرًا نحريرًا فاضلاً، وأنا كنتُ أتردَّد إليه وأتلمذُ عليه، فلمّا انقضى عمرُهُ، ووصلتْ سفينةُ حياته إلى ساحلِ الأجل، كنت عنده، فإذا هو فتحَ عينيه وقال:

---

(١) في (ب): واستخبر عنهم.

يا سفيان، انظر ماذا يفعلون معي، أنا منذ خمسين سنة أدعو الخلقَ إلى الحقِّ وأهديهم إلى الصراط المستقيم، فالآن يردّونني ويَطردونني عن هذا الباب، ويقولون: أنت لا تنبغي لنا. وحين انتهى إلى النَّفَسِ الآخر صار ـ والعياذ بالله ـ يهوديًا، وخرجَ من الدنيا على ذلك، وإنّي لمّا اطّلعتُ على الحال ثقلَ ظهري من هذا الحمل، حتى انحنى. نسألُ الله عزّ وجلّ أن يَعصمنا عن ذلك بلطفه وكرمه؛ إنه سميعٌ مُجيب.

نقل أنه جاء إليه شخصٌ ببدْرَةٍ، وقال: أبي كان من أصدقائك وكان طالبًا للحلال، وتوفّي إلى رحمة الله، وهذا من ميراثه، نرجو منك أن تقبلَهُ. فقبله سفيان، ولمّا رجعَ الرَّجلُ دعا سفيانُ ابنَهُ، وقال: اذهب بهذه البَدْرَةِ إلى ذلك الرجل، وسلّمها إليه، وذلك لأنّه خطر بباله أنّ الصداقة مع أبِ ذلك الرجل كانت لله تعالى، فابنُه امتثل الأمر، وذهب بها إليه، ورجع ابن سفيان وقال: يا أبت، أنا رجلٌ فقير، صاحبُ عيالٍ، وأنت لا تترحّم عليَّ. قال: يا ولدي، لأجل أن تأكلَ أَبيعُ الصداقةَ لله تعالى بصداقتك، وأنت لا تَنفعُني يوم القيامة.

نقل أنه كان يَمشي، ومعه شخصٌ، فاتّفقَ له العبور على دارٍ عالٍ لشخصٍ مُحتشمٍ، فنظر رفيقُه إلى ذلك الدار، ومنعه سفيانُ عن النظر إليه، وقال: إنّكم لو لم تنظروا إليه، لم يكن صاحبُهُ مُجتهدًا في إعلائه وتَشييده، وحينئذ أنتم شركاء له في الإسراف.

نقل أنه ماتَ جارٌ له، وهو أيضًا قد شيّع جنازته، ولمّا رجعَ سمعَ الناسَ يُثنون عليه ويشكرونه، قال: لو أنّي علمتُ أن الناسَ كلَّهم راضون عنه لما شيَّعتُ جنازته؛ فإن هذا ـ أي رضا جميع الناس عنه ـ قرينةُ النفاق.

نقل أنه كان يقعد في مقصورةِ الجامع، وجيء إليها بمجمرةٍ من بيت الخليفة، وحين إليها وصلَ رائحةُ المجمرة، ترك ذلك المقام، وما ذهب إليه بعدُ احترازًا من أن يشمَّ رائحةَ من المجمرة.

نقل أنه لقي رجلاً قد فاته الحجُّ، وهو يتأسّفُ ويتحسّر ويتحزّن ويتأوّه،

فقال له: يا فلان، إني قضيتُ أربعة عشر[1] حجَّةً، فأعطيتُك كلَّها بهذا التأوّه والحزن. فقبلَ الرجلُ، وأعطاه ذلك، ثم رأى سفيان في المنام أن قائلاً قال له: ربحتَ يا سفيان، إذ لو قُسم ثوابُ ذكرِ التأوّه على جميع أهلِ الموقفِ لصاروا أغنياء.

نقل أنه كان في الحمام، إذ دخلَ عليه أمردُ، قال: اخرجوه، فإنّ مع كلّ امرأةٍ شيطانًا واحدًا يُزيّنها في أعين الناس، ومع الأمردِ ثمانية عشر شيطانًا يزيّنونه في أعين الناس.

نقل أنه [كان] يقول لأصحابه: اصبروا على ترك الطعام؛ فإنَّ غايةَ لذّتِهِ إلى الحلق، وإذا وصل إليه وعبر منه لا يُدرك منه طعمٌ ولا لذّةٌ، والشيءُ الذي يمرُّ سريعًا يمكنُ أن يُصبر عنه.

نقل أنه [كان] يعظّم الفقراء إلى حيث أنّهم يكونون في مجلسه كالأمراء والأشراف.

نقل أنه كان في هودجٍ رائحًا إلى مكّة، وهو يبكي أكثرَ الأوقات، فسأله يومًا رفيقُه وقال: يا شيخ، ، تبكي على كثرةِ الذنوب؟ قال: لا، فإنّ ذنوبي ليس لها قدرٌ عند الله تعالى مقدارَ قذًى؛ ولكن أبكي على أن الإيمانَ الذي حصلَ لي هل هو عند الله إيمانٌ مقبولٌ أم لا؟ ثم قال: اعلمْ أن البكاءَ على عشرة أجزاء، تسعةُ أجزاءٍ منها رياء، وجزءٌ واحدٌ لله بالإخلاص، فلو تقاطر دمعةٌ واحدةٌ في كلّ سنةٍ لكفى.

قال: الاحتراز على العمل أشقُّ من العمل، إذ يكون شخصٌ يعملُ عملاً مقبولاً يُكتبُ في ديوان حسناته، ثم لا يزالُ يذكره ويُباهي به حتى يُكتبَ في ديوان الرياء.

ومن كلامه قال:

الفقير إذا دار حولَ الأغنياء، فاعلمْ أنّه مُراءٍ، وإذا دار حول الملوك فإنه سارق.

---

(١) كذا.

الزاهدُ من زهد في الدنيا بالفعل لا باللسان، فإنه لا يكون زاهدًا.

ليس الزهدُ في الدنيا بأكل خبز الشعير، ولا بلبس الكساء الغليظ؛ ولكنه أن لا يعلق القلبُ بالدنيا ويقتصر الأمل.

إذا رجعتَ إلى الله تعالى بكثرةِ الذنوب، فالذي بينك وبين الله أهونُ من الذي بينك وبين الخلق.

أقول: يعني ظلمك على غيرك أشقُّ وأشدُّ من ظلمك على نفسك، والله أعلم.

هذا أوان السكوت وملازمةِ[١] البيوت.

ليس شيءٌ خيرٌ للإنسان من كنٍّ ومَطمورةٍ يفرُّ إليها، فإنَّ السلفَ رضي الله تعالى عنهم كرهوا الشهرةَ في الخير، كما كرهوها في الشرّ.

أقول: وليس شيءٌ أضرَّ للعبد الصالح من الاشتهار، خصوصًا في زماننا، فإنَّ الهوى غلب على النفوسِ، والطباعُ غالبًا جُبلت على الشرّ، وكلٌّ يَجري إلى متابعته وموافقته في مقتضيات هوى نفسه، وفي مثل هذا الحالِ حفظُ الدين الذي هو رأس مال السعادات الأزلية شكلٌ في غاية الإشكال، ولذا قال بعضهم[٢]: الخمولةُ نعمةٌ وكلٌّ يتوقّاها، والشهرةُ نقمةٌ وكلٌّ يتولاّها، أعاذنا الله تعالى عن هذه الفتنِ، والله أعلم.

خيرُ السَّلاطين من تكون مُجالستُهُ مع العلماء، وشرُّ العُلماء من تكون مُخالطته[٣] مع السلاطين.

أوّلُ العبادات وأوْلاها الخلوةُ، فإن لم يتيسّر فطلبُ العلم، ثم العمل به، ثم السعي في نشرهِ وتعليمه.

---

(١) في (ب): ولزوم البيوت.

(٢) هو قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تقدّم صفحة (١٦٩).

(٣) في (أ): من تكون مجالسته.

ما تواضعتُ لأحدٍ مثل تواضعي لمن وجدتُ فيه حرفًا من الحكمة.

أقول: الحكمةُ هي العلم المقارن بالعمل، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] **على ما قيل، والله أعلم.**

اخترْ من الدنيا ما يربّي جسدَك، ومن الآخرة لقلبك.

لو كان للذنوبِ نتنٌ ورائحة كريهةٌ لما عاشَ أحدٌ في الدنيا من ذلك.

من رأى فضلاً لنفسه على غيرِه فهو متكبِّر.

أعزُّ الناسِ وأشرفُهم خمسةٌ: عالمٌ زاهد، وفقيهٌ صوفي، وغنيٌّ شاكر، وفقيرٌ صابر، وشريفٌ سني.

من لم يكن خاشعًا في صلاته فلا تكونُ تلك الصلاةُ مقبولةً صحيحة عند الله.

أقول: والخشوعُ فيها أن يكون الظاهرُ متوجِّهًا إلى القبلة الظاهرة، والباطنُ ـ أعني القلب ـ متوجِّهًا إلى القبلة الحقيقية ـ أي إلى الله تعالى ـ بحيثُ لا يلتفتُ في صلاته إلى ما سوى الله تعالى؛ ولذا ورد في بعضِ الأخبارِ عن النبيِّ ﷺ: «لو علمَ المُصلّي من يُناجي في صلاتِهِ لما التفتَ يمينًا وشمالاً»(١) التحقيقُ أنّه ينبغي أن لا يلتفتَ إلى الدُّنيا ولا إلى الآخرة، وهذه المرتبة هي نهايةُ الخُشوع لله تعالى في الصلاة، وأمّا أدنى الخشوعِ الذي هو مقامُ العوام أن يحفظَ قلبَه في الصلاةِ عن الأفكار الدنيوية، والوساوس الشيطانية، وإن لم يقدرْ على ذلك في جميعِ الصلاة فلا بدَّ من أن يكون قلبُهُ حاضرًا عند النية، وعند الانتقالِ من ركنٍ إلى ركنٍ آخر، وإن لم يحصلْ هذا أيضًا فظاهرٌ أنّه لا ينتفعُ بصلاتِهِ إلا دفعَ السيف عنه، والنهبَ عن أمواله في الدنيا والآخرة، فأمره إلى الله، والله أعلم.

الخُلُقُ الحسن للإنسان يُطفئُ غضبَ الله تعالى.

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١/ ٤٩ (١٥٠) عن الحسن عن النبي ﷺ. دون قوله: «يمينًا وشمالاً».

اليقينُ ألاَّ تتَّهمَ[١] الله تعالى فيما يصلُ إليك.

من أحبَّه الله تعالى لا يُبغضُه أبدًا.

أقول: معناه: أن من جعلَهُ اللهُ تعالى في الأزلِ سعيدًا فأحبَّه، لا يُشقيه ألبتَّةَ ولا يُبغضه.

قال النبيُّ ﷺ: «السعيدُ من سعدَ في بطنِ أُمِّه، والشقيُّ من شقيَ في بطن أمه»[٢]، ولذا يقال: لا يتبدَّلُ الإسعادُ والإشقاء، لكن يمكنُ أن تتبدَّلَ السعادةُ الظاهرة، والشقاوةُ الظاهرة. ويظهرُ من هذا أنَّ المُسلمَ الذي يرتدُّ آخرَ عمره ـ والعياذ بالله منه ـ ما كان مَسعودًا في الأزل، ولا محكومًا عليه بالسعادة أبدًا، وكذلك لم يكن مَحبوبًا لله، وكذا الكافر الذي يُسلمُ آخرًا ويَحسنُ حاله كان مَسعودًا في الأزل، غير مبغوضٍ، ولذا قال بعضُ العارفين: أنتم تفزعون من الخاتمة والنهاية، والله أعلم.

إذا قيل لك: نعم الرجلُ أنت! فيعجبك، وإن قيل: بئس الرجلُ أنت! فيبغضك، فاعلم أنك بعدُ رجلٌ سيِّئٌ قبيح.

سئل عنه: من اليقين؟ فقال: اليقين يثبتُ في القلب عند ثُبوت المعرفة.

وقال أيضًا: اليقينُ أن يكون الوعدُ عندك بمثابة العيان.

أقول: يؤيِّدُه ما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه ما قال: لو كُشفَ الغِطاء ما ازددتُ يقينًا. والله أعلم.

سئل عنه: ما تقولُ في معنى قوله ﷺ: «إن الله تعالى يُبغض أهلَ بيتٍ يُكثرون أكل اللحم»[٣] قال: إنَّما أراد به النبيُّ ﷺ الغيبةَ، قال الله تعالى:

---

(١) في (ب): غضب الله تعالى. معناه: لا تتَّهمَ الله.

(٢) قال المناوي في فيض القدير ٤/ ١٤٠: ذكره ابن الكمال، والبزار والديلمي كلهم عن أبي هريرة، قال ابن حجر: سنده صحيح.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٣، ٢٩٩ بلفظ: «إن الله يبغض أهل البيت اللحميين» عن كعب.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

نقل أنّه قال لحاتم الأصم: أُعلِّمُك أربعَ خصال؛ لتكون منها على حذرٍ؛ فإنّها من الجهل:

الأولى: الندامة على ما صدر إلاّ على الذنوب؛ فإنَّ الندامة من عدم رؤية القضاء من الله تعالى، وهو كفر.

أقول: يؤيِّدُه ما روي عنه ﷺ: «لو تفتحُ بابَ الشيطان[1]» كان يشير إلى ما اعتاده من قولهم: لو كان كذا كان كذا، ولو لم يكن كذا لم يصر كذا، والله أعلم.

والثانية: الحسدُ على الأخ المسلم؛ فإن ذلك من عدم اعتقادِ أنَّ القسّامَ هو الله، وذلك أيضًا كفر.

والثالثة: جمعُ المال من الحرام والشُّبهة، فإنه من عدمِ اعتقاد الحساب يومَ القيامة، وذلك أيضًا كفر.

والرابعة: الأمنُ من وعيدِ الله تعالى، وتركُ الرجاء بوعده، فإن ذلك أيضًا كفر.

أقول: أما الثلاثة الأولى إذا رسختْ في إنسانٍ لا شكَّ أنّها ستجرُّه إلى الاعتقاد المذكور، ويصير كافرًا، وأمّا الرابعة أعني: الأمنُ من مكر الله تعالى، واليأسُ من روح الله، ففي الحالَ كفر بلا خلاف، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] وقال: ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والله أعلم.

نقل أنه كان يقولُ لأصحابِهِ وتلاميذه إذا أرادوا السفر: إنِ التقيتُمْ بأحدٍ يبيع الموت، فاشتروا لي. وحين حضرَتْهُ الوفاةُ بكى، وقال: كنت أشتهي الموت؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) في القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز عن أبي هريرة بلفظ: «فإن لو تفتح عمل الشيطان». وذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣٢٣ عن مسلم بالرواية المذكورة في المتن.

ولكنَّ الورود على الله صعبٌ[١]، والقدومَ عليه شديدٌ، ليتَ هذا السفرَ يَحصلُ لنا بعصًا وكوزِ ماءٍ. ولذا كان إذا ذُكر الموتُ، أو سمعَ ذكرَه يُغشى عليه أيامًا، ويقول لمن يلتقي به: استعدَّ للموتِ قبل نزوله. وأصحابُهُ كانوا يقولون له وقتَ وفاته: طُوبى لك. وهو يهزُّ رأسَه، ويقول: أين أنتم؟ وماذا تقولون؟ أنا! متى أصلُ إلى الجنة؟ وهي! متى تصل إلي؟

أقول: مرادُه تحقيرُ أعماله، وأنّها ما صدرتْ عنه على وجهٍ تكون مقبولةً عند الله تعالى، واستعظامه أيضًا أمورَ الآخرة وأحوالَها، لا أنّه كان آيسًا من رحمة الله تعالى، فحاشاه من ذلك، فإن قلت: أَلَيس يُستحبُّ حينئذٍ حسنُ الظنِّ بالله تعالى؟ قلتُ: نعم، ولكنّ هذا لا يدلُّ على أنه في نفسِهِ لم يكن حَسَنَ الظنِّ به، غايتُهُ أن الخوفَ كان غالبًا عليه، وهذا من كمال الإيمان بالله وصفاته، فإنَّ مَنْ يكون عرفَ أنّه بالله وباليوم الآخر أكثر، فهو أخوفُ وأفزع، والله أعلم.

رُويَ أن الخليفة قصدَ أن يُولّيه إمارةَ البصرة، فطلبوه لأجل ذلك، فوجدوه في إصطبلٍ، لما كان به من علّةِ البطنِ، ومع ذلك ما تركَ العبادةَ، ولم يسترحْ، حتى قيل إنه في ذلك المرض توضّأ في ليلةٍ ستين نوبةً، كلّما كان يتوضّأُ ويُريدُ أن يشتغلَ بالعبادة بطنُه يتقاضاه ويحتاجُ إلى الوضوء.

قيل له: يا شيخ، كم تتوضّأُ، وأنت ضعيف؟! قال: لأن يلقاني عزرائيلُ وأكون على الوضوءِ متطهّرًا لا نجسًا، إذ مع النجاسةِ لا يكون التوجُّه إلى الله تعالى ميمونًا.

قال عبد الله بن المهدي: أوصاني سفيان وقال: إذا دفنتموني أرجو منكم أن تضعوا خدّي على التراب؛ لعلَّ الله يرحمُ ذُلّي وفقري. ثم قال: الآن حطُّوا وجهي على التراب؛ فإنَّ أجلي قريب.

قال الراوي: فعلتُ ما رسم، وخرجتُ لأُعْلِمَ الناسَ والأصحاب، وجدتُهم اجتمعوا والتأموا هناك، قلت: من أخبركم بالحال؟ قالوا: كنّا نيامًا، فرأينا في

---

(١) في (أ): ولكن المرور على الله صعب.

المنام: أن احضروا جنازةَ سُفيان، فدخلوا عليه، وقد ضاقَ عليه الوقتُ، أَخرجَ من وسطه صُرّةً من الذهب، وسلّم إلى أصحابه، وأوصاهم أن يتصدّقوا به على الفقراء، قالوا: سبحان الله، كان يأمرنا بتركِ الدُّنيا، وهو قد حوى هذا القدرَ من المال، وشدَّه على وسطه! سمع سفيانُ مقالتَهم، وقال: حويتُ هذا لأنّه كان حارسًا لديني لئلا يتسلَّطَ عليَّ الشيطانُ، فإنّه كلّما أرادَ أن يُوسوسَ في صدري، ويُلقي في روعي: ماذا تأكل غدًا؟ ماذا تلبس؟ كنتُ أدفعُهُ عنّي، وأمنّي نفسي بأنَّ لي مالاً حاضرًا معي، وما كان لي حاجةٌ إلى هذا المال.

أيضًا قال لهم هذا الحديث، وتكلّم[١] بالشهادتين، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

نقل أن مُورِّثًا له مات ببُخارى، ووصلَ إليه من تركته هذه الصرَّةُ من النقد وكانت محفوظةً في بُخارى عند بعض الناس ثمانية عشر سنة[٢]، ثم بعثوا إليه، وبقيت عنده مدّةً، وهو لأجل تسلية النفسِ، ولئلا تأمرَهُ بالسُّؤال عن الناس، أو القبول عنهم، كان يحفظُها، فلمّا حصلَ له اليأس من الحياة[٣]، وصّى بالتصدّق بها.

نقل أنه حين دُفن سمعوا صوتًا صَريحًا، يقال: ماتَ الوَرعُ، مات الورع.

رآه بعضُ الناسِ في الليلة الأولى في المنام، وقال له: كيف صبرتَ على وحشةِ القبر وظلمته؟ فقال: قبري روضةٌ من رياض الجنة، أين الوحشة؟

رآه شخصٌ آخرُ في المنام، قال: كيف حالُكَ؟ قال: وضعت إحدى قدمي على الصراط والأخرى في الجنة.

نقل أن شخصًا آخر رآه في المنام أنّه يَطيرُ من بعضِ أشجار الجنة إلى بعضٍ، قال له: بم نلتَ هذه المنزلة؟ قال: بالورع.

---

(١) في (ب): هذا الحديث أيضًا وتكلم.
(٢) كذا في الأصلين.
(٣) في (أ): حصل له اليأس من الناس ومن الحياة.

ونقل أنه كان شفوقًا على خلق الله، إلى أنه كان يتماشى في بعض الأسواق رأى طيرًا مَحبوسًا في قفصٍ، يَصيحُ ويطلبُ الخروج إلى الصحراء، فأشفقَ عليه، وحنَّ من أنينه، واشتراه وشمّره[١]، والطيرُ كان بالنهار يطيرُ إلى الصَّحارى، وبالليل كان يأوي إلى منزل الشيخ، وهو يشتغلُ بالصلاة والعبادة، والطيرُ ينظرُ إليه، ويجلس عليه أحيانًا، حتى أن اليوم الذي تُوفّي رحمه الله جاء الطيرُ، وكان يضربُ جسدَهُ على نعشِ الشيخِ، ويضطربُ ويخفقُ إلى أن دُفِنَ الشيخُ، فنزل على قبره، ومات هو أيضًا هناك. ولما رجعَ الناسُ عن دفنه، سمعوا صوتًا: يقال إنَّ الله تعالى رحمَ سفيان لشفقته على خلقِ الله.

اللهم، إنّا نسألُكَ ونتوجَّهُ إليك بحبيبك ونبيّك محمدٍ عليه الصلاة والسلام أن تعدَّنا من الصالحين، وتحشرَنا في زمرةِ الأنبياء عليهم السلام، والشهداء والصدّيقين، آمين.

* * *



(١) شمَّر الصقر: أرسله. معجم متن اللغة.

(١٧) شقيق البلخي[١]

ذكر أبي علي شقيق بن إبراهيم البلخي قدس الله روحه:

كان رحمه الله وحيدَ عهده، وشيخَ وقته[٢]، وله في الزهد والرياضة قدمٌ راسخة.

ومضى عمرُهُ على التوكّل، وكان في أنواع العلوم كاملاً، وله تصانيفُ في جميع الفنون[٣].

وكان شيخًا لحاتم الأصم، وتعلّم علمَ الطريقة عن إبراهيم بن أدهم روّح الله تعالى روحه.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، حتى قال: خدمتُ ألفًا وسبع مئة شيخ، وجمعت أوقارًا من الكتب، ووجدتُ الطريقَ إلى الله تعالى في أربعةٍ: الأول: امتثالُ أمره. الثاني: إخلاصُ العمل له. الثالث: عداوةُ الشيطان. الرابع: الاستعداد للموت.

قيل: كان سببُ توبته أنه كان من أبناءِ الأغنياء، وخرجَ للتجارة إلى أرضِ الترك، وكان شابًا حدثًا، فدخل يومًا بيت الأصنام، ورأى خادمَ الأصنامِ في ذلك البيت حلقَ رأسَه ولحيته، واصفرّ لونه، وعليه ثوبٌ أرجوانية، فقال

---

(١) الجرح والتعديل ٤/ ٣٧٣، طبقات الصوفية ٦١، حلية الأولياء ٨/ ٥٨، الرسالة القشيرية ٥٣، صفوة الصفوة ٤/ ١٥٩، مناقب الأبرار ١٨٢، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ١٠٨، وفيات الأعيان ٢/ ٤٧٥، مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٣٢٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٣، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٧٩، دول الإسلام ١/ ١٢٣، العبر ١/ ٣١٥، فوات الوفيات ٢/ ١٠٥، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٧٣، مرآة الجنان ١/ ٤٤٥، نفحات الأنس ٧٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٣٢٠، شذرات الذهب ١/ ٤٣١.

(٢) في (أ): كان وحيدَ عصره، وشيخ عهده.

(٣) لم أقف على مؤلفاته.

شقيق: يا هذا، إن لك صانعًا حيًا عالمًا، فاستحْيِ منه واعبدْه، ولا تعبدْ هذه الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع. قال: إن كان كما تقول فهو قادرٌ على أن يرزقَكَ ببلدِك، فلِمَ أتعبت نفسك إلى ههنا للتجارة. فانتبه شقيق من هذا الكلام، وأخذَ في طريق الزهد، ولمّا رجعَ اتّفق له مرافقةٌ مع مجوسيٍّ، قال له: يا فتى، ما شغلك؟ قال: التجارة. قال المجوسيُّ: تطلبُ ما قدّرَ لك، أو شيئًا آخر لم يُقدّرْ لك؟ فالأوّلُ يصلُ إليك ألبتّةَ، والثاني لا يصلُ إليك، وإن اجتهدْتَ إلى يومِ القيامة. فبرد الدنيا على قلبه من هذا الكلام إلى أن جاءَ إلى بلخ، واجتمع عليه إخوانُه وأصحابه إذ كان فتىً سخيًا يَتَفَتّى، ويعاشر الفتيان.

وكان عليُّ بن عيسى بن ماهان حاكمًا في بلخ، ويحبُّ كلابَ الصيد، فَقَدَ كلبًا من كلابه، واتُّهِمَ به شخصٌ من جيران شقيق، ومضى شقيقٌ إلى الأمير وضمنَهُ وقال: الكلبُ عندي، أردُّهُ إليكم إلى ثلاثةِ أيام، فخلّوا سبيله. وانصرفَ شقيقٌ مغتمًّا مهتمًّا لما صنعَ، ولمّا كان اليوم الثالث كان رجلٌ غائبًا من المدينة، رجعَ، ووجد في الطريق كلبًا عليه قلادةٌ، فأمسكه، وأهداه إلى شقيق، لأنه كان يشتغل به طمعًا له في شيء يُعطيه، فلمّا جاءَ به إليه، نظرَ شقيقٌ، فإذا هو كلبُ الأمير، فسُرَّ به، فحمله إلى الأمير، وخلص من الضمان، ورزقه الله تعالى الانتباه، وتابَ ممّا كان فيه.

وقيل: كان سببُ توبته وزهده أنّه رأى مَملوكًا يلعبُ ويمرح[١] في زمانِ قحطٍ كان الناس مهتمّين، فقال له شقيق: ما هذا النشاطُ الذي فيك! أما ترى ما فيه الناس من الحزن والقحط؟ قال المملوك: وما عليَّ من ذلك ولمولاي قريةٌ خالصة يحصلُ منها له من الغلّةِ ما يحتاجُ إليه. فانتبه شقيقٌ من غفلته، وقال: إن كان لمولاه قريةٌ، وهو مخلوقٌ فقير، وأنا مملوكٌ لمالك الملوك والأملاك[٢]، وهو حيٌّ غنيٌّ. ثم إنه ترك الدنيا، وليس يهتم لرزقه، وبلغ من

---

(١) في (أ): يلعب ويمزح.

(٢) في (أ): لمالك الملوك والأفلاك.

التوكّل إلى حدِّ الكمال، وكثيرًا ما كان يقول: أنا تلميذٌ لمملوك.

نقل أنه كان مشغولاً بالوعظ، إذ جاء خبرٌ: أنَّ عسكرًا من الكفار قصدَ المدينة، فخرج شقيقٌ كما كان على زيِّهِ وهيئته، وانهزم العسكر بتوفيقِ الله على يده، ثم رجع، وجلسَ في المسجد، جاء شخصٌ وأتى إليه وأعطاه شيئًا من الورد الأحمر، وهو أخذَ يَشتمُّ موافقةً للسُّنة، نظر إليه شخصٌ قليلُ الأدب، وقال: إمامُ المسلمين يشمُّ الورد!؟ فقال شقيق: ما لكم تنظرون إلى الوردِ المَشموم، ولا ترونَ العسكرَ المهزوم.

نقل أنه بينما يَعِظُ الناس في سمرقند، قال: يا قومي، إن كنتُمْ أمواتًا فالمقابرُ أوْلى لكم، وإن كنتم صبيانًا فالمعلّمُ أحرى بكم، وإن كنتم مجانين فالمارستان أولى بكم، وإن كنتم كفارًا فالنيران أولى بكم، وإن كنتم مُسلمين، فأينَ الإيمان والإسلام والإحسان؟

قال له شخص: يذمُّكَ الناس ويلومونك على أنَّكَ تأكلُ من كسبِ الخلائق، تعالَ أنا أُجري لكَ إجراءً، وأرتِّبُ لك راتبًا يصلُ إليك، كُلْ بلا كلفةٍ ومشقّة. قال: لو لم يكن فيك عيوبٌ خمسةٌ لتبعتك وآخذ أمرك: الأول: أنّ خزانتك تنقصُ بالاتفاق. الثاني: أنّ مالَكَ يسرقُهُ السارقُ. الثالث: يحتملُ أنّك تندمُ من ذلك. الرابع: لا يبعد إذا رأيت منّي عَيبًا تقطع عنّي الراتب. الخامس: إذا انقضى عمرُك أبقى بلا زادٍ، ولي ربٌّ منزَّهٌ عن العيوب، ولي معه عهدٌ أن لا أطلبَ من غيره رزقًا، ولا أنقض العهد ما دمتُ حيًّا بتوفيق الله تعالى.

ونقل أن شخصًا جاء إليه وقال: أريد الحجَّ. قال له شقيق: وما زادُكَ في الطريق؟ قال: أربعةُ أمور: الأول: أني لا أرى أحدًا أقربَ إلى رزقي منّي، والثاني: أنّي أرى غيري أبعدَ منّي من رزقي، والثالث: أعلمُ أنَّ قضاءَ الله تعالى معي أينما أكون، والرابع: أنّي على أيِّ حالٍ أكونُ أعلمُ أن الله تعالى أعلمُ بحالي منّي. فقال شقيقٌ رضي الله عنه: ما أحسنَ هذا الزاد، امشِ فالحجُّ مبارك عليك.

نقل أن شقيقًا رحمه الله أراد سفرَ الحجِّ، ووصل إلى بغداد، وكان الخليفة هارون الرشيد، ودعاه إلى مجلسه، وقال: أنت شقيقُ الزاهد؟ قال: أنا شقيقٌ لا زاهد، والزاهدُ أنت. قال هارون: كيف أكونُ أنا الزاهد، ولي ملكٌ ومملكة؟ قال شقيق: لأنَّ الدنيا قليل عند الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وأنت قنعتَ من هذا القليل ببعضٍ، والزاهد من يرضى ويقنعُ من الكثيرِ بشيءٍ قليل، وأمّا أنا فكيف أكون زاهدًا ولا ألتفتُ إلى الكونين! فبكى هارون من هذا الكلام، وقال: أوصني وعظني يا شيخ. فقال: اعلم أن الله تعالى أَجلسَك في مقامِ الصدّيق، ويسألُك الصدقَ، كما يسألُه عنه ـ يعني الصديق ـ وفي مقام الفاروق، ويسألُكَ الفرقَ بين الحقِّ والباطل، كما يسألُه، وفي مقامِ ذي النُّورَيْنِ، ويسألُك الحياءَ والكرم، كما يسألُه، وفي مقام المُرتضى ويسألُكَ العلم والعدل، كما يسأله. قال هارون: زدني. قال: إن لله دارًا تُسمّى جهنم، وقد جعلك بوّابًا لهذا الدار، وأعطاك ثلاثةَ أشياء: المالَ، والسيف، والسوط، وأمرك بأن تمنعَ الناس بهذه الأشياء عن جهنّم، لا تمنعِ المحتاج عن المال، وأدّبْ سيّئِ الأدب بالمقرعة، واقتصَّ للمقتول عن القاتل بالسيف، فإن عملتَ كذلك أنجيتَ ونجوت، وإلاّ أنت تُقدَّمُ إلى جهنم، ويتبعُك الناس. قال: زدني. قال: أنت كعينٍ، والعمالُ كالسواقي[1] الجارية منها، فإنْ كانت العينُ صافيةً لا تَضرُّ كدرةُ السواقي، وإنْ كانت العينُ كدرةً لا ينفعُ صفاءُ السواقي[2]. قال: زدني. قال: إن كنتَ في باديةٍ، وأشرفتَ على الهلاك من العطش، بكم تشتري جرعةً من الماء؟ قال هارون: بما يبيعون ويشترون ويطلبون أشتري. قال: فإن باعوا بنصف مُلكك، تشتري؟ قال: نعم. قال: فإذا شربت ولم يخرج[3] من جوفك، وقال شخص: أُريدُ النصفَ الآخر من مُلكك لأُداويك حتى يخرجَ منك الماء المشروب. قال: أعطيه. قال: ولِمَ تغترُّ

(١) في (ب): والمال كالسواقي.
(٢) قوله: (وإن كانت العين كدرة.. السواقي) ليست في (ب).
(٣) في (ب): فإذا شربت ولم يخرج.

بمُلْكٍ تكون قيمتُه جرعةً من ماء تشربه، ثم يخرج منك؟ فطاب وقتُ هارون، وبكى حتى أُغمي عليه، فلمّا أفاقَ وجَّهَهُ إلى منزلِهِ بإعزازٍ عظيم، وتبجيلٍ وتكريم.

نقل لمّا حجَّ شقيق والتقى بإبراهيم بن أدهم وسأله، وقال: كيف حالُكَ في معاشك؟ قال إبراهيم: إن وجدنا شيئًا شكرنا الله تعالى وإلاّ صبرنا. قال شقيق: هذا طريقةُ كلابنا في بلخ. قال إبراهيم: وأنتم كيف تفعلون؟ قال: إن وجدنا بذلنا، وإلاّ شكرنا. قام إليه إبراهيم وقبَّلَ بين عينيه، وقال: أنت الأستاذُ واللهِ.

نقل أنَّ رجلاً شيخًا فانيًا جاء إليه ليتوبَ، وقال: لي ذنبٌ كبير. قال له شقيق: أبطأتَ في المجيء. قال الشخص: لا يا شيخ، من جاء قبلَ الموت ما أبطأَ. فقال شقيق: نِعْمَ ما قلتَ، وما أحسن مجيئك.

قال شقيق: رأيتُ في المنام أنه قيلَ: من اعتمدَ على الله في رزقه يحسنُ خلقه، ويصيرُ سخيًا، ولا يكون في طاعته وسواس.

وقال: مَنْ جزِعَ في المصيبة فكأنّما أخذَ رمحًا وبارز الله بالمحاربة.

قال: أصلُ الطاعة الخوفُ والرجاء والمحبة.

علامةُ الخوف تركُ المحارم، وعلامة الرجاءِ الطاعةُ الدائمة، وعلامةُ المحبّة الشوقُ اللازم والإنابة.

من لم يكن له ثلاثة أشياء، لا ينجو من النار: الخوف والطاعة والاضطراب.

العبادة عشرةُ أجزاء تسعةٌ في القرار من الناس، وجزء في الصمت.

أكثرُ الناس هلكٌ[١] من ثلاثةِ أشياء: يُذنبون رجاء التوبة، ويؤخِّرون التوبةَ لطول الأمل، ويموتون بلا توبة طمعًا في رحمة الله.

---

(١) قوله: (تسعة في الفرار . . . هلك) ليست في (ب).

إن الله تعالى يُحيي أهلَ الطاعة[١] بعد موتهم، ويُميتُ أهلَ المعصية حالَ حياتهم.

ثلاثة أشياء تلزم الفقر، ولا تنفكُّ عنه: فراغُ القلب، وخفّةُ الحساب، وراحة النفس. وثلاثةُ أشياءٍ لازمةٌ للغنى: شغلُ النفس، وشدّةُ الحساب، وتعبُ القلب.

استعدَّ للموت، فإنه إذا جاءك ونزل بساحتك لا يرجع.

لا أحبُّ شيئًا في الدنيا مثلَ ما أحبُّ الضيف؛ فإنَّ رزقَه ومؤنَتَهُ على الله تعالى، ونزوله عليَّ سببٌ لتخفيف خطيئاتي.

قال: سألتُ سبع مئة عالمٍ عن مسألةٍ، والكلُّ أجابوا بجوابٍ واحد، قلت: من العاقل والكيِّسُ والغنيُّ والفقيرُ والبخيل؟ قالوا: العاقلُ من لا يحبُّ الدنيا، والكيِّسُ الفطنُ من لا تغرُّه الدنيا، والغنيُّ من رضي بقسمة الله تعالى، والفقيرُ من في قلبه[٢] طلبُ الزيادة، والبخيلُ من منعَ عن الله حقَّه الواجبَ في ماله.

قال حاتم الأصم: قلتُ له في آخر عمره: أوصني وصيةً أنتفعُ بها. قال: إن أردتَ وصيةً عامةً فاحفظْ لسانَك، ولا تتكلَّمْ إلاّ إذا رأيتَ ثواب كلامك في ميزانك، وإذا أردتَ وصيةً خاصةً لا تتكلّمْ أبدًا إلاّ إذا رأيتَ أنَّ سكوتَكَ عن الكلام يحرقُكَ، فحينئذ لك رخصةٌ في الكلام.

اللهم اجعلْ حديثَنا وتكلّمَنا لنا لا علينا، وانظر بلطفِكَ وكرمك العميمِ إلينا، ولا تقطعْ برَّكَ وخيرَكَ عنّا يا أرحمَ الراحمين.

* * *

---

(١) في (أ): أهل طاعتِهِ.

(٢) في (أ) والفقير من لا يكون في قلبه طلب.

(١٨) أبو حنيفة(١)

ذكر الإمام الأعظم أبي حنيفة روّح الله روحه:

أوصافُه ونعوته معروفةٌ مشهورة، وبألسنة أهل الملّةِ مذكورة، وهو مقبولٌ في قلوب الخواصّ والعوامّ، إمامُ أهلِ الإسلام، كانت له رياضاتٌ ومُجاهدات، ومُشاهدات لا نهاية لها ولا غاية، وله في الأُصولِ والفروع، والشريعة والطريقة درجةٌ عالية، ومنزلةٌ رفيعة، ونظرٌ نافذ.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، وكان من تلاميذ جعفر الصادق رضي الله عنه، وأستاذَ فضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، وداود الطائي.

وقصد زيارة رسول الله ﷺ، وحين وصلَ إلى الروضةِ المقدّسة المطهّرة، قال: السلام عليك يا سيّدَ المُرسلين. سمع صوتًا طلعَ من الرّوضة الشريفة، قال: عليك السلام يا إمامَ المُسلمين.

نقل أنّه كان في أول الأمر طالبًا للخلوة والعزلة، متوجّهًا إلى القبلة الحقيقية، مُعرضًا عن الخلق، لابسًا للصوف، ولذا يدعى صوفيًا، حتى رأى في المنام أنّه يَرفعُ عظامَ النبيِّ ﷺ من لحدِهِ، ويختارُ بعضًا، ويفضّلُ بعضًا على

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٦٣٨، ٧/ ٣٢٢، طبقات خليفة ١٦٧، ٣٢٧، التاريخ الكبير ٨/ ٨١، التاريخ الصغير ٢/ ٤١، ٩٣، ضعفاء العقيلي ٤/ ٢٦٨، الجرح والتعديل ٨/ ٤٤٩، المجروحين لابن حبان ٣/ ٦١، الكامل لابن عدي ٧/ ٥، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣، جامع الأصول ١٥/ ٤٣٢، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ٨٧، وفيات الأعيان ٥/ ٤٠٥، تهذيب الكمال ٢٩/ ٤١٧، سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٠، تاريخ الإسلام ٦/ ١٣٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٨، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٦٥، مرآة الجنان ١/ ٣٠٩، البداية والنهاية ١٠/ ١٠٧، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٩، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢، طبقات الشعراني ١/ ٥٢، الكواكب الدرية ١/ ٤٦٩، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧.

بعض، انتبه من المنام مَذعورًا مَرعوبًا، فسألَ بعضَ أصحاب ابن سيرين، فقال: تترقّى في علم النبيِّ ﷺ، وحفظِ سُنّته إلى أن تتصرّفَ فيه كما رأيتَ من تصرّفك في العظام، وتميّز صحيحَ الأحاديث عن سقيمها.

ورأى نوبةً أُخرى في المنام النبيَّ ﷺ، فقال له: يا أبا حنيفة، أُتي بك إلى الدنيا لإحياء سُنّتي لا بقصدِ العزلة.

وكان من ورعِهِ واحتياطه أنَّ الشَّعبيَّ كان شيخه وقد صار شيخًا له.

وكان قاضيًا في زمن خلافة المنصور، وجمع المنصورُ جماعةَ الفقهاء والعلماء وأقرَّ لبعضِ الخواص بالأملاك، ووقف على بعضٍ، وأعطى بعضًا، ورسم بكتابة صكوكٍ، وبعث الخطوطَ إلى الشعبي، فكتب هو عليها، وحكم، وكذا جميعُ الحاضرين من الفقهاء، ثم انتهى الأمرُ إلى أبي حنيفة رحمه الله امتنع، ولم يكتبْ عليها شهادةً، فألحَّ عليه الخادم، قال أبو حنيفة: أين الخليفة؟ قال: في الدار. قال: إمّا إن يجيءَ إليَّ الخليفة، وإمّا أن أمضيَ إليه، وأسمعَ منه. فعنَّفه الخادم، وغلَّظَ في الكلام إلى أن سمعَ الخليفةُ، وسأل عن الحال، قالوا: كذا وكذا، بعثتَ إليه، لِمَ لا تكتبُ وهم كتبوا؟ قال: لا بدَّ من السماع من الخليفة. سأل الخليفةُ ذلك من الشعبيِّ: هل هو شرطٌ أم لا. قال: نعم. قال الخليفة: ومتى رأيتني أنت وسمعتَ منّي، وكتبتَ عليَّ المكاتيب وحكمت؟ قال: ما رأيتُ ولا سمعت؛ ولكن علمتُ أنَّ الخليفةَ قد أنشأ هذه التصرفات. قال الخليفة: هذا الكلامُ بعيدٌ عن الحقّ، وهذا الشابُّ يستحقُّ القضاءَ.

ثم تفكّرَ الخليفةُ فيمن يُولّيه القضاء، ويكون أهلاً مُستحقًا له، وبعد المُشاورة استقرَّ رأيُهُ على أحدِ أربعةٍ كانوا من فحولِ العلماء، بالغين درجة الاجتهاد، وهم: أبو حنيفة، وسفيان، وشريك، ومِسْعَر بن كِدام رضوان الله عليهم أجمعين، وعلى من تَبعهم، فطلبهم الخليفةُ، وجمعهم عنده، لكن قبل أن يَصلوا إليه، قال أبو حنيفة رضي الله عنه: أنا أقول بالفِراسة كلامًا: الخليفةُ دعانا لتولية القضاء، فأنا أدفعُ عنّي بحيلةٍ، وسفيان يفرُّ، ومِسْعَر يُظهر الجنونَ

ويترك، وشريك يصيرُ قاضيًا. صار الأمر كما قال، أما سفيان فقد هربَ في الطريق، وركب زورقًا، وعبر دجلة، وقال: اخفوني، إذ قصدوا ذبحي، وأرادَ بذلك مضمونَ قولِ النبيِّ ﷺ: «من جُعل قاضيًا فقد ذُبحَ بغير سكين[١]»، فأخفاه الملاّح، ووصل الثلاثةُ الباقية إلى الخليفة، فتوجّه الخليفةُ إلى أبي حنيفة رضي الله عنه، وعرضَ عليه القضاء، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: يا أيُّها الخليفة، ما أنا من أشرفِ قبيلةٍ في العرب، ولعلَّ الناسَ لا يرضون بحكمي، ولا ينقادون لي. قال الخليفة: القضاءُ لا يتعلّقُ بالنسب؛ بل بالعلم والأدب. قال أبو حنيفة رضي الله عنه: الصحيحُ أني لا أليق بهذا المنصب ولا أستحقُّه، فإن كنتُ صادقًا في هذا الكلام فذاك، وإن كنتُ كاذبًا فبالكذب صرتُ فاسقًا، والفاسقُ لا يجوز أن يُولّى القضاء، وأنت الخليفةُ عليك أن تحكمَ بين المسلمين بالحقِّ، فكيف يسوغُ لك، ويحِلُّ من الله أن تجعلَ الكاذب قاضيًا بين المسلمين، وتُسلّمَ إليه دماءَ المسلمين وفروجَهم وأموالهم. فأنجاه الله تعالى بهذه الحيلة، ولمَّا التفتَ إلى مِسْعَر، قال: كيف أنت يا خليفة؟ وكيف أهلك وعيالك ودوابك؟ قال الخليفة: هذا مجنونٌ، أخرجوه. ثم قيل لشريك: اقبلِ القضاء. قال: أنا رجلٌ سَوداويُّ المزاج، ودماغي ضعيفٌ. قال الخليفة: لا بدّ أن تصير قاضيًا، ودماغُك قابلٌ للعلاج، فِعالجْه. فصار قاضيًا، وهجر الخليفةُ أبا حنيفة، وما حدّثَهُ ما عاش.

نقل أنه سأل شخص من أكابر الدِّين[٢]: هل يجوز أن يظهر أثرُ معجزة النبيِّ ﷺ في شخصٍ من أمّته؟ قال: نعم. قال السائل: من هو ذلك؟ قال: انظر إلى أبي حنيفة، فإنّه حفظَ القرآن وهو ابنُ سبعٍ، وحصل له علمٌ وأدب تامٌّ وهو ابن عشر، وحفظ ثلاثين ألفًا من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمسة عشر، وحينئذ ميّزَ الصحيحَ عن السقيم، واستنبطَ مئتين وستين ألف

(١) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٣٠، والنسائي في سننه الكبرى (٥٩٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦٦١٣)، عن أبي هريرة.
(٢) في (أ): سأل شخص من أحدٍ من أكابر.

مسألة من القرآن والحديث والإجماع وغيره وهو ابن سبعة عشر[١] سنة.

ونقل أن جماعةً من الصبيان يلعبون بالأُكرة[٢] في بعض الطُرق كما هو دأبُهم على باب مجلس أبي حنيفة رضي الله عنه، فارتمت الأُكرة، ووقعت في المجلس، وما كان أحدٌ من الصبيان يستجري أن يدخلَ ويأخذَ الأكرة حياءً من أبي حنيفة ومصاحبيه، قال لهم صبيٌّ منهم: لم تستحيون؟! أنا أدخلُ وأجيءُ بالأكرة إليكم. فدخل، وأخذ الأكرة، وتعجَّبَ أهلُ المجلس من جرأته وقلّةِ حيائه، فقال أبو حنيفة: لو لم يكن مَطعونًا في نسبه لم يكن قليلَ الحياء سيِّءَ الأدب. قالوا: وبم علمت يا إمام المسلمين؟ قال: لأنه لو كان صحيحَ النسب لمنعه الحياء.

نقل إنه كان لأبي حنيفة رحمه الله دينٌ على شخص، وتوفي أحدٌ من تلاميذه في محلّةِ ذلك الشخص، وحضر أبو حنيفة جنازته، واشتدّ الحرُّ؛ لأنه في أيام الصيف، وتفيّأ الناسُ في ظلِّ الجدران، ولم يجدْ أبو حنيفة رضي الله عنه إلاّ موضعًا وراء جدار ذلك المديون، فامتنعَ الإمامُ، ولم يتقرَّبْ إلى الجدار، وألَحَّ الناسُ عليه، ولم يقبل، وقال: لأنَّ لي على صاحبِ الجدار دينًا، ولا يجوزَ أن انتفعَ بجداره، قال رسول الله ﷺ: «كلُّ دينٍ جرَّ منفعةً فهو ربا»[٣].

نقل أنه كان محبوسًا، وجاء إليه شخصٌ من الظَّلمة، وأمره أن يبري له قلمًا، ولم يقبلْ، وبالغ الشخصُ وألَحَّ، فلم ينفع، قال الشخص: ولِمَ لا تَبري؟ قال: لقوله تعالى: ﴿ ۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢].

نقل أنه كان يُصلّي كلَّ ليلةٍ ثلاث مئة ركعة، وكان في بعض الأيام يمرُّ في شغله، قالت امرأةٌ لأُخرى: هذا الرجل يُصلّي كلَّ ليلةٍ خمس مئة ركعة. سمع

(١) كذا في الأصلين.

(٢) في (أ) كتب تحتها بخط دقيق: بالكردي كوس.

(٣) قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ١٨٢ (١٩٩١) تحت قوله: كل عَرض جر نفعًا: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن علي رفعه، قال في التمييز: وإسناده ساقط، والمشهور على الألسنة: كل قرض جر نفعًا فهو ربا.

كلامها، ونوى أن يُصلّي خمس مئة ركعة ليصحَّ ظنُّ المرأة في حقِّه، وكان يُصلّي كذلك حتى اتّفقَ له مرورٌ على صبيان يلعبون، قال بعضُهم لبعض: هذا الرجلُ يُصلّي كلَّ ليلةٍ ألف ركعة. سمع وقال: أُصلّي إن شاء الله تعالى كلَّ ليلةٍ ألف ركعة؛ لئلا يكونَ ظنُّ الصبيِّ خطأً في حقّي. مضى على ذلك زمانٌ ثم قال له بعضُ تلاميذه: يظنُّ الناسُ أنّك لا تنامُ بالليل. قال: عهدتُ أن لا أنام. وتركَ النوم كلاً. قال التلميذ: لِمَ يا شيخ؟ قال: لئلا أكونَ من الذين قال الله تعالى في حقِّهم: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨].

نقل أنه بعد ذلك صلّى صلاةَ الصُّبح بطهارة العشاء ثلاثين سنة[١].

نقل أنه صارت ركبتاه كركبةِ الإبل في الغلظِ لكثرةِ سُجوده.

نقل أنه تواضع نوبةً لغنيٍّ، ونوى به إيمانَه لا غناه، ثم قال: ختمتُ القرآنَ ألفَ مرّةٍ تكفيرًا لذلك التواضع.

وقيل: في بعض الأحيان كان يستشكلُ مسألةً، فيختم القرآنَ أربعة ختم[٢]، لينكشف عليه، وتنحلّ المسألة.

نقل أن محمدَ بن الحسن كان من تلاميذه، وصار إمامًا مُجتهدًا، وكان في ابتداء الأمر صبيًا ذا جمالٍ، لمّا جاء إلى أبي حنيفة، وقع نظرُه عليه، ثم لم ينظرْ إليه إلى أن نبتتْ لحيتُهُ، وفي تلك المدة يُجلسه خلف ساريةٍ؛ لئلا يقعَ نظرُهُ عليه.

أقول: وسمعت أنَّ شخصًا من أصدقائه جاءَ إليه بأمشاطٍ هديةً، وهو في المجلس، ففرَّقَ الأمشاط على الأصحاب، قال بعضهم: يا إمامَ المسلمين، بقي محمدُ بن الحسن رضي الله عنه ما أَعطيته مشطًا. قال أبو حنيفة: هل نبتتْ له لحيةٌ، وله احتياجٌ إلى المشط؟ قالوا: نعم. فأعطاه مشطًا. والله أعلم.

قال داود الطائي رضي الله عنه: لازمتُ أبا حنيفة عشرين سنةً، وراعيته سرًّا

(١) في (أ): صلاة الصبح بوضوء العشاء.

(٢) في (أ): أربعين ختمة.

وجهرًا، وليلاً ونهارًا، ما رأيتُه في هذه المدَّةِ مكشوفَ الرأس، ولا مدَّ رجله استراحةً، قلتُ له: يا إمام المسلمين، إن مددتَ رجلَك لحظةً في الخلوة، ماذا يكون؟ قال: رعايةُ الأدب من الله أولى.

نقل أنه كان يمضي إذ رأى صبيًا قد وقعَ في الوحل، وانعلقَتْ رجلُه بالوحل، فقال له أبو حنيفة رضي الله عنه: اجعل بالك[1] لئلا تسقطَ. قال الصبي: يا إمام المسلمين، وقوعي[2] أمرٌ هيِّنٌ، وقيامي أيضًا سهلٌ؛ فإنّي إنْ وقعتُ وقعتُ وحدي، ولكن بوقوعك يقعُ عالَمٌ، وقيامك أيضًا يكون عسيرًا. فبكى أبو حنيفة من كلام الصبيِّ، وتعجَّبَ من حلاوته وحذاقته، ثم قال لأصحابه: إن سنح لكم دليلٌ أظهرُ من دليلي، وانكشف شيءٌ لم ينكشفْ لي، فاعملوا به، ولا تقلّدوني. ولذا خالفه أبو يوسف رضي الله عنه، ومحمد رضي الله عنه وغيرُهما في كثيرٍ من المسائل المذكورة في الفقه، وهذا دليلٌ على كمالِ إنصافه وورعه.

نقل أن رجلاً ذا مالٍ وثروة في عهد أبي حنيفة كان عدوًّا لعثمان بن عفان رضي الله عنه مُجاهرًا بها حتى يقول: إنه ـ رضي الله عنه ـ كان يهوديًا. سمع أبو حنيفة كلامَه من الناس، فدعاه إليه، وكان في المدينة رجلٌ يهوديٌّ صاحبَ مالٍ وجاه، وله ابنٌ، وقال له ـ أي لعدوِّ عثمان ـ: اليهوديُّ الفلاني يخطب بنتَكَ من ابنه. فاغتمَّ الرجل بذلك الخبر، وانغاظَ منه، وظهرتِ الرجفةُ في أعضائه، وقال: أنت إمامُ المسلمين! وكيف يجوزُ استخطاب بنات المسلمين من أبناء اليهود؟ وكيف يمكن هذا؟ قال أبو حنيفة رضي الله عنه: سبحان الله، أنت لا تجوّزُ أن تكونَ بنتُك تحت ابنِ يهوديٍّ، ولا ترضى به، فكيف تجوّزُ أن تكون بنتُ رسول الله ﷺ امرأةً ليهوديٍّ، وترضى به؟ فعلم الرجل أنه أخطأَ في اعتقاده، فرجع عنه وصارَ سُنّيًا.

---

(١) اجعل بالك: خذْ حذرك.

(٢) في (أ): يا إمام المسلمين، سقوطي.

نقل أنه كان في الحمام، إذ دخلَ رجلٌ مكشوف العورة، قيل: كان دهريًا أو فلسفيًا، فغمض أبو حنيفة رضي الله عنه عينيه، فقال الرجل: متى رُفعَ عن عينك الضوء؟ قال: حين رفعَ اللهُ عنك ستره.

نقل أنَّ الناسَ اجتمعوا، وأرادوا أن يَعمروا مسجدًا في محلّته، فجاؤوا إليه، وطلبوا منه مساعدةً على سبيل التبرُّكِ، فثقل عليه ذلك، فقالوا له: لا نقصدُ منك المال، وإنّما المقصود منك البركة. فبكراهيةٍ عظيمةٍ أعطاهم شيئًا حقيرًا يسيرًا، فقال له بعضُ التلاميذ: يا إمام، أنت رجلٌ كريم، ولِمَ صار ثقيلاً عليك إعطاءُ هذا القدر اليسير؟ قال: ما كان هذا لأجل البخل؛ ولكنّي تيقّنتُ أنَّ المال الحلال لا يُصرفُ في عمارة الطين[1]، وكان ظنّي أنَّ مالي حلالٌ لمّا طلبوا منّي شيئًا، كرهتُ ذلك لأجل أنه: هل يكون في مالي حرامٌ أو شبهةٌ؟ وكان بسببِ ذلك دائمًا في الحزن، إلى أن جاءَ رجلٌ من تلك الجماعة بالشيءِ الذي أخذوا منه، وردّه إليه، ففرحَ أبو حنيفة، وسأل عن الحال، قال: تمّتِ العمارة، وبقي عينُ مالك هذا. فأخذه أبو حنيفة رضي الله عنه وشكرَ الله تعالى على أنَّ مالَهُ كان حلالاً بلا شبهة.

نقل أنه كان يَمشي في بعض الطُّرق، فتطايرَ إلى ثوبِهِ من طينِ الشوارع قدرُ ظفرٍ، فمضى إلى دجلة وغسله، قالوا له: يا إمامَ المسلمين، لا تُرخّصُ بهذا القدر من النجاسة وتغسله؟! وأفتيتَ من المغلّظة قدرَ دينارٍ، ومن المخفّفة ربع الثوب! قال: هذا من التقوى، وذلك من الفتوى.

---

(١) روي عن رسول الله ﷺ أكثر من حديث ينفي به الأجر عمّن وضع ماله في العمارة، منها ما رواه البخاري في صحيحه (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨١) عن قيس بن حازم رضي الله عنه قال: إنّ المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب.

وما رواه الترمذي (٢٤٨٤) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة كلُّها في سبيل الله إلا البناء، فلا خير فيه».

أقول: وهذا في البنيان، والتطاول فيه والتفاخر والتباهي، أما بناء المساجد لله خالصة كما أمر الله ورسول ﷺ فلا يندرج هذا.

أقول: التقوى مقام الخواص، والفتوى للعوام، والله أعلم.

نقل أن داود الطائي لمّا صارَ مُقيّدًا[١]، قال لأبي حنيفة رضي الله عنه: كيفَ أعملُ في هذا الشأن العظيم؟ قال له الإمام: عليك بالعمل بما علمت، فإنَّ العلمَ بلا عملٍ كجسدٍ بلا روح.

نقل أن بعض الخلفاء رأى في المنام ملكَ الموت، وسأل عنه ما بقي من عمره، فأشار إليه ملكُ الموت بخمسِ أصابع، فأصبحَ الخليفةُ، وجمع العلماء في دار الخلافة، وعرضَ عليهم الرؤيا، وطَلَبَ منهم التعبيرَ، فبعضُهم قال: خمس سنين، ومنهم من قال: خمسةُ أشهر، ومنهم من قال: خمسة أسابيع إلى غير ذلك، وما أجابوا قطعيًا، وما تسلّى الخليفة بجوابهم، وأخبر أن في المدينة شابًا كيّسًا ذا نظرٍ دقيق، وفكرٍ كامل، فأحضره، وعرضَ عليه الرؤيا، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: أشار بالأصابع الخمسةِ إلى الأشياء الخمسة التي لا يَعلمُها إلاّ الله تعالى، وهي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤] فطاب وقتُ الخليفة، وأعزَّ أبا حنيفة رضي الله عنه وأكرمَهُ، وخلع عليه بخلعةٍ نفيسة، وأنعم عليه بجميع ما كان في الخلوةِ، فلم يقبلْ شيئًا، ورجع.

قال أبو علي الجلالي[٢]: كنتُ بالشام على قبرِ بلالٍ رضي الله عنه، إذ غلبني النوم، فرأيتُ أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ المسجد الحرام من باب بني شيبة، واحتضن شيخًا كما يحتضن الأطفال بشفقةٍ تامة، فسعيتُ إليه ﷺ، وقبّلتُ رجله، وأتعجّبُ في شأن ذلك الشيخ، فاطّلعَ النبيُّ عليه السلام بنور النبوة على ما أضمرت، فقال: هذا إمامُك، ومقتدى أهلِ ديارك أبو حنيفة رحمه الله.

---

(١) في الترجمة العربية صفحة ٤٤٣: صار قدوةً.

(٢) في الترجمة العربية صفحة ٤٤٤ أبو علي بن عثمان الجلابي، وفي الأصل الفارسي: أبو علي بن عثمان الجلاء.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: توفّي نوفلُ بن حيان، فرأيتُ في المنام كأنَّ القيامةَ قد قامت، وجُمعت الخلائقُ من الأوّلين والآخرين للحساب، والنبيُّ ﷺ واقفٌ على الحوض، وعلى يمينه ويساره جماعةٌ من المشايخ، ونوفل بن حيان واقفٌ مُقابله، فلمّا رآني نوفل جاءَ إليَّ وسلَّم عليَّ، فاستسقيتُهُ. قال: لأستأذنَ النبيَّ ﷺ. فاستأذنَ، وأشارَ النبيُّ ﷺ بالأصبع أن اسقه، فسقاني، فشربتُ وسقيتُ أصحابي، ولم ينقصْ من الإناءِ شيءٌ، ثم قلت: يا نوفل، من الشيخ الذي على يمين النبيِّ عليه السلام؟ قال: إبراهيم الخليل عليه السلام. قلتُ: والذي على اليسار؟ قال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وكذلك سألت إلى سبعة عشر، فانتبهتُ وأنا عاقدٌ سبعة عشر.

نقل أن يحيى بنَ معاذ الرازي رحمه الله قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام وقلت: أين أطلبُكَ يا رسول الله؟ قال: عند عَلَمِ أبي حنيفة.

هذا ومناقبُ أبي حنيفة وفضائلُه أكثرُ من أن تُعدَّ وتُحصى، فإنَّ الكتبَ مشحونةٌ بها، ناطقةٌ ببيان كمالاته؛ لكن ذكرنا نبذًا منها تبرّكًا وتيمّنًا.

اللهم إنّا نسألُكَ ونتضرّعُ إليكَ أن تستعملنا بأعمالٍ تُحبُّها وترضاها، ولا تَكلنا إلى أنفسنا ولا إلى غيرِك، إنَّك رؤوف رحيم جواد كريم.

* * *

(١٩) الإمام الشافعي(١)

ذكر الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس روّح الله روحه، وزاده كلّ لحظةٍ فتوحَه

كانَ سلطانَ الشريعة، وبرهانَ الحقيقة، ، مُفتي الملّةِ الحنيفية، مُظهر الأسرار الإلهية، مقتدى المسلمين، وارثَ علومِ سيد الأنبياء والمرسلين، مع ذلك كانَ قُرشيًّا من بني أعمامِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

ونحن لا نحتاجُ إلى شرح أحواله وبيان كماله، فإنَّ العالمَ منوَّرٌ من أنواع علومه المقتبسة من أنوار الشريعة المحمدية، والكتبُ مملوءةٌ بذكر فضائله وأخلاقه وشمائله، والعلماءُ المحقّقون والفضلاء المفلقون يشهدون بمناقبه ومآثره ومفاخره في العلم والعمل والزهد والإخلاص والورع، ولقد كفاه شرفًا وفضلاً أنّه شُعبةٌ من الدَّوحةِ المحمّدية، وثمرةٌ من الشجرة المصطفوية، وكان في الفِراسة والكياسة فريدًا في عصره، وفي المُروءة والفتوّة أعجوبةَ وقتِهِ، كريمًا ذا سخاوةٍ وجودٍ ورياضةٍ، وكراماته أكثرُ من أن يحتملها هذا الكتاب.

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٤٢، التاريخ الصغير ٢/ ٣٠٢، الجرح والتعديل ٧/ ٢٠١، ثقات ابن حبان ٩/ ٣٠، حلية الأولياء ٩/ ٦٣، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، طبقات الفقهاء للشيرازي ٧١، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠، الأنساب ٧/ ٢٥١، صفة الصفوة ٢/ ٢٤٨، جامع الأصول ١٥/ ٢٣٧، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٠٧، معجم الأدباء ١٧/ ٢٨١، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٤٤، وفيات الأعيان ٤/ ١٦٣، مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٣٥٥، تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٥٥، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦١، طبقات الشافعية (الفهرس من الجزء الأول)، الوافي بالوفيات ٢/ ١٧١، مرآة الجنان ٢/ ١٣، البداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، العقد الثمين ٧/ ٤١٨، غاية النهاية ٢/ ٩٥، تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥، نزهة الألباب ١/ ١٤٣ (تاج الفقهاء)، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، طبقات الشعراني ١/ ٥٠، طبقات الحفاظ ١٥٢، طبقات المفسرين ٢/ ٩٨، مفتاح السعادة ٢/ ٨٨، الكواكب الدرية ١/ ٧٠٢، شذرات الذهب ٢/ ٩.

نقل أنه كان ابن ثلاثة عشر[(١)] سنة، ويقول حينئذ: سلوني ما شئتم. وكان ابنَ خمسة عشر سنة يُفتي الناسَ في الحوادث اليومية.

والإمامُ أحمدُ بن حنبل رضي الله عنه كان إمامًا جليلاً حافظًا لثلاث مئة ألف حديث، مع هذا صارَ تلميذًا له، ورضي بخدمته، واعترضَ عليه قومٌ: بأنك رجلٌ عالمٌ، شيخٌ في الإسلامِ وبالسنِ، تقوم بين يدي شابٌّ ابن خمسة وعشرين سنة، وتترك الأئمة الأعلام ومشايخ الإسلام؟! قال أحمد بن حنبل في الجواب: إنّي حافظٌ للحديث أفضلُ منه؛ لكنّه أعلمُ منّي للمعنى، فلو لم يكن هو لبقينا نحن على الباب، وما كنا نجوزُ داخلَ بيتِ العلوم والمعارف، فإنّ الله تعالى وفّقَهُ لفهمِ حقائقِ الأخبار والآثار، وأنه - أي الشافعي رضي الله عنه - كالشمسِ للدنيا.

وقال أيضًا أحمد رضي الله عنه: ما أعلمُ أحدًا أكثرَ منَّةً على الإسلام من الشافعي رضي الله عنه، حتى أقول في صلاتي: اللهم اغفرْ لي ولوالدي ولمحمد بن إدريس رضي الله عنه.

وأيضًا قال أحمد رضي الله عنه: الشافعي ماهرٌ علاّمةٌ في أربعةِ علومٍ: اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه.

وأيضًا قال أحمد بن حنبل في معنى حديث النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله عز وجل يبعثُ لهذه الأمّة على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ من يجدّدُ لها دينها»[(٢)] بعثَ الله في المئة الأولى عمرَ بنَ عبد العزيز رحمه الله. وفي الثانية الشافعي رضي الله عنه.

قال المُزنيُّ رحمه الله: لو وُزِنَ عقلُ الشافعي رحمه الله مع نصفِ عقول الخلائق لرجحَ عقلُه.

وسأل بلالُ الخواص الخضرَ عليه السلام عن الشافعي رضي الله عنه، قال: هو من الأوتاد[(٣)].

---

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): ثلاث عشر سنة.

(٢) حديث رواه أبو داود (٤٢٩١) في الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة. وإسناده صحيح.

(٣) تقدم الخبر صفحة ١٥٣. وانظر الحاشية (٢) صفحة ٢٧٠ الآتية.

وكان الشافعيُّ رضي الله عنه في أول أمرِهِ لا يدخل بيتًا فيه عرسٌ أو سرور، ويأتي كلَّ مكانٍ فيه عزاءٌ وحزن، ويبكي.

وكان في أكثرِ الأحوال باكيًا مُحترقًا، وكان في التصوّفِ سابقًا على الكلِّ.

قال عبد الله الأنصاري رحمه الله: ما أنا على مذهب الشافعي؛ ولكنّي أحبُّه، لأنّي كلَّ مقامٍ أنظرُ إليه أرى الشافعي رضي الله عنه سابقًا فيه.

نقل عنه رضوان الله عليه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: من أنت يا صبي؟ قلت: يا رسولَ الله، شخصٌ من أمّتك. فقال ﷺ: تعالَ إليَّ. فمضيتُ إليه، قال ﷺ: افتح فاك. ففتحتُ، وصبَّ فيه من ريقهِ المُبارك حتى امتلأ فمي من ريقِهِ ﷺ، وقال: اذهبْ، بركاتُ اللهِ عليك. وقال عليه الصلاة والسلام في تلك الساعة لعليٍّ رضي الله عنه: اخلعْ خاتمَكَ، وضعه في أُصبعه. فسرى فيَّ علمُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وعلمُ الوليِّ رضوان الله عليه.

نقل أنَّ الشافعي رضي الله عنه كان يمشي إلى المعلّمِ وهو ابنُ ست سنين، وأمُّه امرأةٌ هاشمية موصوفةٌ بكمالِ الزهد والديانة والأمانة، حتى أنّ الناسَ يودعون الودائعَ عندها لشهود أمانتها(١)، ففي بعض الأوان جاء إليها رجلان بوديعةٍ، وأودعاها عندها، وقالا: إن جئنا إليك جَميعًا سلّميها إلينا. وبعد زمانٍ جاء إليها أحدُهما لطلبِ الوديعة، والمرأةُ قد نسيتِ الشرطَ، وسلّمتِ الوديعةَ إليه، ففي اليوم الثاني جاءَ الآخرُ منهما، وطلب الوديعة(٢)، وتذكّرتْ حينئذ الشرط؛ لكن ما كان ينفعها، وكان الشخصُ يُجادل معها، ويقول: إنَّا شرطنا(٣) أن تُسلّمي إلينا جميعًا، وإن جاء أحدُنا لا تُسلّمي إليه. وتحيَّرتِ العجوزة في شأنها، وجاء الرجلُ بمحضرٍ من القاضي، وشرعَ في الجدال

(١) في (أ): لشهرة أمانتها.
(٢) في (ب): وطلب الآخر الوديعة.
(٣) في (أ): أما شرطنا.

والنزاع، إذ جاء الشافعيُّ رضي الله عنه من المكتب، وألفى أمَّه تَبكي متحيِّرةً، سأل عنها، وذكرتِ الواقعة، قال الشافعي وهو ابن ستٍّ سنين: مَنِ الخصم؟ قال: الرجل. قال الشافعي رضي الله عنه: أليس الشرطُ أن تجيئا كلاكُما وتتسلّما الوديعة؟ قال: نعم. قال الشافعي رضي الله عنه: أوفِ بالعهد، اذهبْ وأحضرْ صاحبَكَ، واطلبِ الأمانَة. فأُفحمَ الرجل ورجع.

ثمّ تلمذَ الشافعي رضي الله عنه على مالك رضي الله عنه، وعمرُ مالك قد عبر سبعين سنةً حينئذ، والشافعي رضي الله عنه كان صبيًّا، فاشتغل عليه بالفقه، وكملَ فيه إلى حدٍّ كان يجلسُ على الباب، ويقول للمُستفتين إذ يخرجون من عند مالك بالجواب: ارجعوا إليه؛ لعلّه يحتاطُ[١] في المسألةِ. ومالك يطّلعُ على أن الحقَّ مع الشافعي رضي الله عنه، ويفتخرُ به في كياسته وذكائه.

نقل أن الخليفة الرشيدَ كان يُناظر مع امرأته زبيدة في بعض الليالي، فقالت له: يا جهنَّمي. قال هارون: إن كنتُ جهنَّميًا فأنت طالق. وافترقا، وهارون يحبُّها محبّةً عظيمة، فشقَّ الأمرُ عليهما جميعًا، ثم أمر الخليفةُ مناديًا يُنادي في بغداد: أن يحضرَ كلُّ فقيهٍ وإمامٍ إلى دار الخلافة يومًا معيّنًا، فحضروا، وسئلوا عن حلِّ هذه المسألة، وطلبوا رخصةً لئلا تُطلّقَ زوجةُ الخليفة، وكان الفقهاءُ العظام والأئمةُ الأعلام يَجتمعون في دار الخلافة كلَّ يومٍ، ولا يقدرون على تقرير جوابٍ[٢] يُزيلُ الإشكال ذلك إلى سبعة أيام، وحضر الشافعيُّ روّح الله روحه وقال: أنا أجيب عن هذه المسألة. وكان حينئذٍ شابًّا حديثَ السنِّ، وتعجّب الحاضرون عن هذا الأمر، إذ كان هناك كثيرٌ من المشايخ الكبار، وكلُّهم تحيّروا في حلِّ المسألة، فدعاه الخليفةُ، وأجلسه في جنبه وقال: ما تقولُ في هذه المسألة؟ قال الشافعي رضي الله عنه: أخبرني أنك هل قدرتَ على معصيةٍ ثم تركتَها لله تعالى؟ قال: نعم، قدرتُ يومًا على جاريةٍ من سراري

---

(١) في (ب): لعله يختلط.

(٢) في (ب): على تقدير جوابٍ.

أبي، وعزمتُ على المعصيةِ المعهودة، ولكنْ تركتُها خوفًا من الله تعالى، ورجعت عن ذلك الأمر. فقال الشافعي رحمه الله: إنّك من أهل الجنة، ولا يقعُ عليك، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] واستحسنه الحاضرون من العلماء، وطاب قلبُ الخليفة[١]، وكان ذكاؤه ودرايته في أيام الطفولة كذلك، فما ظنُّكَ به حال الكهولة، فأنعمَ عليه هارون عشرةَ آلاف دينار تقريبًا، فخرج من عنده وفرّقها على الفقراء والمساكين.

قال بعضٌ من كبار المشايخ رضي الله عنه: رأيتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام في المنام، قلت: يا رسول الله، سمعتُ حديثًا روي منك أنّ في الأرضِ أوتادًا[٢] من أولياء الله تعالى؟ قال: نعم. قلت: أُريدُ أن ألتقي بواحدٍ منهم. قال ﷺ: محمد بن إدريس منهم.

نقل أنّه قدّس الله سرَّهُ كان في مجلس الدرس، فقام وقعدَ أكثر من عشر مرات، وسببُهُ أنَّ صبيًا من العلوية يلعب مع الصبيان، كلّما جاءَ حذاءَ الباب، ويراه الشافعيُّ ـ أسكنه الله بحبوحة[٣] الفراديس ـ كان يقومُ له إجلالاً وتعظيمًا

نقل أنه رضي الله عنه كان بمكّة شرّفها الله تعالى، وكان في المسجد يُطالعُ كرّاسًا في ليلةٍ قمراء، وفي قرب البيت شمعٌ مشعول، قيل: له: لم لا تَمشي

(١) في (أ): وطاب وقت الخليفة.

(٢) روى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ١/ ٢٦٢ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إنّ الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلمّا انقطعت النبوة أبدلَ الله مكانهم قومًا من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا تسبيح، ولكن بحسن الخُلق، وبصدق الورع، وحسن النية، وسلامة قلوبهم لجميع المسلمين، والنصيحة لله.

وقال الجرجاني في تعريفاته: الأوتاد هم أربعة رجال، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم شرق وغرب، وشمال وجنوب.

وانظر رسالة السيوطي: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال.

(٣) كتب تحت كلمة (بحبوحة) في (أ): أي وسط.

إلى الشمع وتطالع في ضوئه؟ قال: لأن الشمعَ إنّما هو من أموال بيت المال، ولم يُشعل لأجلي.

نقل أنَّ شخصًا من أرباب الأموال بعثَ مالاً كثيرًا إلى مكّة، وأمر بصرفها إلى الفقراء، وجاؤوا إلى الشافعي رضي الله عنه ببعضٍ منه، قال: كيف قال صاحبُه؟ قيل: إنه قال: إلى الفقراء المُتّقين. قال الشافعي رضي الله عنه: أنا فقيرٌ غيرُ متّقٍ. ولم يقبل.

نقل أنه رضي الله عنه جاء من صنعاء إلى مكة، ومعه عشرةُ آلاف دينار، قيل له: اشترِ بهذا المال ضياعًا. قال: لا. وضُربَتْ له خيمةٌ في خارج مكة، وبسط بساطًا، وصبَّ الدنانير عليه، ومن يأتي إليه يُعطيه من الدنانير، حتى قام لصلاة الظهر ولم يبق عنده ما يشتري به عشاء.

نقل أنَّ أهل الروم كانوا يؤدّون[1] مالاً إلى هارون الرشيد كلَّ سنةٍ، فامتنعوا عن ذلك، ومنعوا وقالوا: لنا علماءٌ أمثالُ علمائكم، نبعث إليكم من علمائنا ليناظروا مع علمائكم، فإن رجعَ علماؤنا لا نُعطيكم بعده المال، وإن رجعَ علماؤكم ننقادُ لكم، ونطيعكم بالمال وغيره. فبعثوا أربع مئة من علمائهم المشهورين، فأرسل هارون إلى الشافعيِّ برّدَ الله مضجعه: أنه جاء أهلُ الروم لأجل المناظرة معكم، فأين تجتمعون معهم؟ قال الشافعي رضي الله عنه: على ساحل دجلة؛ فإنَّ جنب الشطِّ موضعٌ وسيع[2]، يسعُ أهلَ بغداد. فاجتمعوا هناك، وجاء إليهم الشافعي رضي الله عنه وعلى كتفه منديلٌ كبير، فلمّا وصلَ إليهم رمى المنديل على وجه الماءِ وجلس عليه، وقال: من يريد المناظرة والمباحثة معنا ليجئْ إليَّ، ويقعدْ في جنبي لنتكلّم معه. ولمّا رأى أهلُ الروم هذا الحال، قطعوا الزنانير كلَّها، وآمنوا، ووصلَ الخبرُ إلى ملك الروم، فرح بأن هذا المباحثة لم تكن في الروم، وإلاّ ما كان يبقى فيها شخصٌ على كفره.

---

(١) في (ب): كانوا يردون.

(٢) كذا الأصلين.

نقل أنه قيل لهارون: إنّ الشافعي رضي الله عنه ليس حافظًا للقرآن، وكان الأمرُ كذلك، فامتحنه هارون، وأمره أن يحضرَ عنده كلَّ ليلةٍ من رمضان، ويؤمَّه في التراويح، ويقرأ كلَّ ليلةٍ جزءاً من القرآن، كان روّح الله روحه يحفظُ كلَّ يومٍ جزءاً من القرآن، ويجيءُ إلى هارون ليلاً، ويقرأُ في الصلاة حتى ختمَ القرآن كلَّه في رمضان.

نقل أنّه رحمه الله سمعَ بامرأةٍ لها رأسان، فنكحها بمئة دينار، وتحقَّقَ حالَها، ثم طلّقها، وأعطى الصداق.

نقل أنّه ذهب أحمدُ بن حنبل إلى أنَّ تاركَ صلاةٍ واحدةٍ عمدًا يكفر، عملاً بظاهر الحديث: «من تركَ صلاةً مُتعمّدًا فقد كفر»[١] قال له الشافعي رضي الله عنه: إذا ترك أحدٌ صلاةً عمدًا، وكفرَ كما هو مذهبك، كيف يعملُ ليرجع إلى الإسلام؟ قال: يصلي. قال الشافعيُّ رضي الله عنه: فكيف تصحُّ الصلاة من الكافر؟! فانقطعَ أحمد عن الكلام.

أقول: مذهبُ الشافعي رحمه الله فيمن ترك صلاةً عمدًا أنّه إن تركها جاحدًا لوجوبها يكفر بلا خلاف، وإن تركَها غيرَ جاحدٍ؛ بل كسلاً وتهاونًا فلا يكفر؛ بل يوبّخ[٢]، وعلى الإمام أن يأمرَهُ بالاشتغال بأدائها، فإن صلّى في الوقت فذاك، وإلاّ فإن أخرجَ الصُّبحَ عن وقتها، والظهرَ عن وقت العصر، والعصر عن وقتها، والمغربَ عن وقت العشاء، والعشاء عن وقتها، يأمرُهُ الإمامُ حينئذٍ بالتوبةِ والقضاء، فإن قضى فيها، وإلاّ يُقتل حدًّا، ويُغسل ويُكفَّنُ ويُصلّى عليه، ويُدفن في مقابر المسلمين، ولا يُطمسُ قبرُه؛ لأنّه قُتل حدًّا كالزاني المُحصن الذي يُرجم، ومعنى الحديث على هذا: أنَّ من تركَ صلاةً قاصدًا للتركِ جاحدًا كفر،

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٣٠ (٢٤٢٩): رواه الدارقطني في العلل عن أنس. ورواه البزار عن أبي الدرداء. ورواه الترمذي، والنسائي، وأحمد، وابن حبان، والحاكم عن بريدة بلفظ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»، ولمسلم عن جابر: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة».

(٢) في (أ): بل يعصي، على الله وعلى الإمام.

وإن لم يكن مع الجحود يعذَّبُ عذابًا مثلَ عذاب الكافر، لا في الخلود، بل في الشدَّةِ، وأمّا من تركَ صلاةً أو أكثر سهوًا أو نسيانًا أو نومًا فإذا تذكّرها يقضي على التراخي، ولا يأثم، بخلاف من ترك قصدًا، فإنّه يَجبُ عليه المبادرةُ إلى القضاء، ويعصي بالتأخير كلَّ لحظةٍ يتمكّنُ فيها من القضاء، كما أنّه عصى بالإخراج عن الوقت عمدًا، والله أعلم.

وأمثال هذه المباحثةِ وكشف أسرار الفقه اتّفقَتْ له كثيرًا مع أحمد بن حنبل وغيره من أهل زمانه، ولا يحتمل ذكرَها هذا الكتابُ.

أقول: ومن أراد أن يقفَ على بعضِها فليطالعِ الكتاب الذي صنّفه الأزهريُّ رضي الله عنه صاحبُ «التهذيب في الفقه» وغيره أيضًا في مناقب الشافعي[١] رضي الله عنه، والله أعلم.

نقل أنه قال رفعَ اللهُ تعالى منزلته لديه[٢]: إذ رأيتَ العالم يعملُ بالرُّخصِ في الدِّين دون العزائم، واشتغلَ بالتأويل، تخفيفًا على نفسه، فاعلم أنه لا يصلحُ لشيءٍ.

وقال: أنا عبدٌ لمن علّمني من الأدب حرفًا، ومن علّمَ الجاهل ـ أي الذي لا يعتقد الحقَّ، أو لا يريد العلم به ـ فقد ضيَّع الحقَّ، ومن منعَ الآهلَ المُستحقَّ للتعليم فقد ظلم. شعر.

فمن منح الجهّال علمًا أضاعَهُ   ومَنْ مَنَعَ المُستوجبين فقد ظلَمْ[٣]

وقال: لو بيعتِ الدُّنيا كلُّها برغيفٍ لما اشتريتها.

وقال: مَنْ كان همَّتُهُ أن يملأ البطن، فقيمتُهُ ما يخرجُ منه.

نقل أنه طلب منه شخصٌ وصيةً، وقال: احسدِ الأحياءَ كما تحسدُ

---

(١) لم أجد ضمن مؤلفات الأزهري مؤلفًا بعنوان «التهذيب في الفقه» وإنما له تهذيب اللغة، كما لم أجد له كتابًا في مناقب الشافعي، والله أعلم.

(٢) في (ب): منزلته عليه.

(٣) بيت شعر ينسب للإمام الشافعي، الديوان ١١٢، ولمحمود الوراق ١٦٣.

الأموات. وظاهرهُ أنَّ أحدًا من الأحياء لا يحسد الأموات، فكذا ينبغي أن لا تحسد الأحياء أيضًا، ولأنَّ الأحياء مصيرهم إلى الأموات، ومرجعهم إلى[١] الممات.

نقل أنه في بعض الأحيان ضاعَ عنه وقتُهُ، وكان روّحَ اللهُ روحه يدورُ في المدارس والزوايا والرباطات طالبًا للوقتِ، فوصلَ إلى جماعةٍ من الصوفية في زاويةٍ، فسمع بعضُهم يقول للآخر: اغتنموا الوقتَ، فإنَّه عزيز. قال الشافعي رضي الله عنه لخادمه: وجدتُ الوقتَ، ورجع.

أقول: معناه أنهم يقولون: الصوفيُّ ابنُ وقته. أيْ أنّه مشغولٌ بما هو أوْلى به في الحال، مُطالَبٌ به في الحين، فيكون ذلك عزيزًا جدًا، وما يُقالُ من أنَّ الوقتَ سيفٌ قاطعٌ، يُريدون به من أن يُصادفَهم[٢] فيه من تصريف الحقِّ وتصرُّفه فيهم[٣]، ولا شكَّ أنَّ تصرّفَ الله فيهم سيفٌ قاطع، أي كما أنَّ السيفَ قاطعٌ غالبٌ، فكذلك ما يجيءُ اللهُ تعالى في الوقت ويمضيه غالبٌ، لا يمكن مخالفته، والله أعلم.

نقل أن الرّبيع[٤] الذي هو أحدُ تلاميذ الشافعي رضي الله عنه قال: رأيتُ في المنام كأنَّ آدمَ عليه السلام توفّي، والناس يشيّعون جنازته، فسألتُ المُعبِّرَ، قال: سيموتُ أعلمُ أهلِ الأرض، وأفضلُ الزمان، لأن العلمَ لآدم عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] قال: فما مضى كثيرٌ إلاّ تُوفّي الشافعي رحمه الله.

نقل أنه رحمه الله في مرضِ موته وصّى شخصًا بغسله، فحضر الشخصُ بعد

---

(١) في (ب): مصيرهم إلى الممات.

(٢) في (ب): يريدون به يصادفهم.

(٣) في (ب): وتصرفهم فيهم.

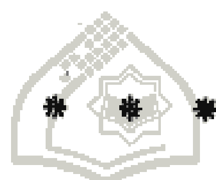
(٤) هو الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي بالولاء، المصري أبو محمد (١٧٤ـ ٢٧٠هـ) صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتبه، وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون، كان مؤذنًا.

وفاتِهِ، وطلب تذكرةَ ديونه، فإذا عليه سبعون ألف درهم، فأدّى الشخصُ جميع ديونه، وقال: كان مُرادُ الشافعي ـ رفعَ الله رتبته ـ بالغسل هو هذا

نقل عن الربيع أنه قال: رأيتُ الشافعيَّ رضي الله عنه في المنام، قلت: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: أجلسني على كرسيٍّ، ونثرَ عليَّ الذهبَ والفضّة واللآلىء، وأعطاني مقدارَ الدنيا أضعافًا مضاعفةً من الجنة، وأباحَ لي النظرَ إلى وجهه الكريم، ووعدني أنَّ من أحبَّني أُعتقُهُ يوم القيامة، وأنزلُهُ في جواره، في كريم داره.

اللهم اجعلنا برحمتك ممّن أحبيتَهُ وأحبَّك، وأدرجنا بلطفِكَ الكريم في زمرةِ نبيِّك محمّدٍ ﷺ، واحشرنا معهم، واجمع بيننا وبينهم وبين والدينا وأمهاتنا وسائر أحبّتنا ومشايخنا وأولادنا وأهلنا في دار السلام برحمتك يا أرحم الراحمين.

٭ ٭ ٭



(٢٠) أحمد بن حنبل[١]

ذكر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه:

كان شيخَ أهل السُّنة والجماعة، وله في علمِ الحديث سعيٌ جميل، وله في الورع والتقوى والرياضة والمجاهدة شأنٌ عظيم.

وكان صاحبَ الفِراسة، مُستجابَ الدعوة، وأهلُ الفِرق الإسلامية كلُّهم يعظِّمونه ويعزّزونه من غاية إنصافه وزهده.

وما يُنسبُ إلى مذهبِهِ من نسبةِ الجسمِ إلى الله تعالى، فهو بريءٌ منه.

نقل أنه رأى ابنَه يتكلَّمُ في معنى هذا الحديث: «خمّرتُ طينة آدم بيدي»[٢]، وفي تلك الحالة كانت يدُه مكشوفةً من الكمِّ، فمنعه عن ذلك، وقال: تتكلّمُ في معنى يدِ الله تعالى، وتشيرُ باليدِ في أثناء الكلام.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ مثل: ذي النون المصري، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي، والسَّري السقطي، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قال بشر الحافي: في أحمد بن حنبل ثلاثُ خصالٍ ليست فيَّ: يطلبُ الحلال له ولعياله، وأنا لا أطلبُ إلاّ لنفسي[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، التاريخ الكبير ٢/ ٥، التاريخ الصغير ٢/ ٣٤٥، الجرح والتعديل ١/ ٢٩٢، و٢/ ٦٨، حلية الأولياء ٩/ ١٦١، تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، طبقات الحنابلة ١/ ٤، تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢١٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٢٥، صفة الصفوة ٢/ ٣٣٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١١٠، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٦٣، تهذيب الكمال ١/ ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، الوافي بالوفيات ٦/ ٣٦٣، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢، البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥، غاية النهاية ١/ ١١٢، تهذيب التهذيب ١/ ٢٢، طبقات الحفاظ ١٨٦، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٤، الكواكب الدرية ١/ ٥١٧.

(٢) حديث رواه الدارقطني في علله ٥/ ٣٣٨ عن ابن مسعود. دون قوله: «بيدي».

(٣) كذا الخبر في الأصلين، ولم يذكر الخصلتين المتبقيتين وفي الترجمة المطبوعة صفحة ٤٥٣: ليست لي، منها: طلب الحلال...

قيل: لمّا غلبتِ المعتزلةُ على أهل السنة في بغداد كلّفوه ليقول بخلق القرآن، وطلبوه إلى دار الخلافة، قال له شخصٌ في الطريق: أنا سرقتُ شيئًا لبعضِ الناس، وأخذوني بالسرقة، وضربوني ألفَ مقرعةٍ ما اعترفتُ مع أنّي كنتُ على الباطل حتّى نجوتُ بالصبر، وأنت لا شكَّ على الحقِّ، وخصومُك على الباطل، إن صبرْتَ ظفرْتَ البتَّةَ. فعرضوا عليه الحال، قال: القولُ بخلقِ القرآن ليس بهيِّنٍ، وأنا لا أقدر عليه. وما رجعَ حتى صلبوه بالأكتاف معلّقًا بالكلاليب، وضربوه ألف سوطٍ[١] حتى يقولَ بخلقِ القرآن، وما قال به[٢]، ولم يرجعْ عن مذهب أهل السنة القائلين بأنَّ القرآنَ قديمٌ غيرُ مخلوق

حكي أنه كان عاريًا، وعليه إزارٌ، فانحلّ عقدُه، ويداه كانتا مَشدودتين، وحين شرعَتْ عورتُهُ في الانكشاف، ظهرَتْ يدان، وشدّتا عليه إزارَه، ولمّا رأى الخلقُ هذه الكرامة، امتنعوا منه[٣]، وأنزلوه وقيل إنه عاش بعده. والله أعلم.

نقل أنّ بعضَ الناس جاء إليه، وهو في النزع، فقال له: ما تقولُ في حقِّ هذه الطائفةِ التي عملوا معك شرًا؟ قال: إنهم يحسبون أنّهم على الحقِّ، وأنا على الباطل، وما عاقبوني إلا ظنًّا منهم[٤] أنّي مُستحقٌّ له، وإنّي على الضَّربِ والتعذيب لا أُخاصمهم في القيامة.

نقل أنه كان في عهده شابٌّ، وله أمٌّ مريضةٌ مرضًا مزمنًا[٥]، فقالت لابنها:

---

(١) ضرب الإمام أحمد أمام الخليفة المعتصم أربعة، أو نيفًا وثلاثين سوطًا، وكانت من الشدّة أن قال رجلٌ ممن يُبصر الضرب والعلاج، لمّا رأى ضربه: قد رأيت من ضُرب ألف سوط، ما رأيت ضربًا مثل هذا. سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٣، ٢٥٦.

(٢) في (آ): وما أقرّ به، ولم يرجع.

(٣) هذه الحادثة أوردها الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٦ ووهّاها، واتّهم من جاء بها بالكذب، وأنها من الخرافات السمجة.

(٤) في (ب): وما عاقبوا فيّ إلا ظنًّا منهم.

(٥) في (ب): مريضة مرض الموت مزمنًا.

يا ولدي، ما أطيقُ هذه الحالة، اذهب إلى أحمدَ بن حنبل رضي الله عنه، والتمسْ منه دعاءً في حقّي ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] جاء الابنُ إلى بيت أحمد بن حنبل، وقرعَ الباب، فإذا هو في بيتٍ مُظلمٍ، قال: من أنت؟ قال: مُحتاجٌ. قال: فما حاجتك؟ فذكر له الحال، فاغتمَّ أحمدُ بسببِ خوف الاشتهار، ولكن قام واغتسلَ، واشتغلَ بالصلاة، وكان الشابُّ واقفًا بالباب، كانت هناك عجوزةٌ، قالت: امضِ يا شابُّ إلى شُغلك، إذ هو مشغولٌ في شغلك. رجعَ الشابُّ، ولمّا وصلَ إلى باب بيته جاءتْ أمُّه وفتحَتْ له الباب بلا كلفةٍ ولا مشقة.

نقل أنه رضي الله عنه كان يتوضّأُ على جنب الشطِّ في بعض الأحيان، وكان شخصٌ آخر يتوضّأُ فوقه من الشطِّ، فتحوّلَ إلى تحته[1] أدبًا، فحين ماتَ ذلك الرجل، رئي في المنام، وقيل له: ما فعلَ الله بك؟ قال: بسبب أدبٍ راعيته مع الإمامِ أحمد بن حنبل رحمني الله تعالى وغفرَ لي.

نقل أنه قال: دخلتُ بادية الحجاز وحدي قاصدًا مكّة، وفي بعض الأيام ضيّعتُ الطريق، وأنا أمشي في تلك الحالة إذ التقيتُ بأعرابيٍّ قاعدًا في طرفٍ، سعيتُ إليه، وسألتُ: الطريق؟ فنظر إليّ، وإنّي ظننتُ أنّه جائعٌ، ومعي كسيرةٌ من الخبز، أردتُ أن أُطعمَه، فاضطربَ في الحال، وقال: يا أحمد، أنت متوجّهٌ إلى بيت الله الحرام، ولا ترضى برازقيّة الله تعالى، لا جرم تضلُّ في الطريق. قال أحمد: اشتعلتْ نارُ الغيرةِ في فؤادي، وصرتُ متفكّرًا في أن لله تعالى عبادًا في زوايا وأطراف، لا يَعرفُهم غيرُه، قال الرجل: يا أحمد، فيما ذا تفكّرُ، له عبادٌ لو أقسموا على الله تعالى أن يجعلَ الأرضَ والجبال كلَّها ذهبًا لجعل. قال أحمد: نظرتُ، فإذا الأرض والجبال كلُّها ذهبًا[2]، فغشي عليَّ من الهيبة، وغلبني النوم، سمعتُ هاتفًا يقول: يا أحمد، لِمَ لا تحفظُ القلبَ، هو

---

(١) في (ب): إلى ما تحته.

(٢) في (ب): أن يجعل الأرض والجبال كلها ذهبًا. فغشي علي.

عبدٌ من عبادنا، لو أرادَ أن نضعَ السماءَ على الأرضِ، والأرضَ على السماء نفعلُ ولا نخالفُهُ، ونحن أريناه إيّاك، ولا تراه بعد ذلك. قال: انتبهت ولم أر الأعرابي

نقل أنه سكنَ بغداد، وما أكل من خبزِها أبدًا، وكان يقول: إنّ عمرَ رضي الله عنه وقفَ أرضَ العراق على الغزاة والمُجاهدين، وهي حقُّهم، وكان يَبعثُ إلى الموصل، ويُشترى هناك له الحنطةُ، ويُؤدّى إليه في بغداد، ويأكلُ منها مقدار قُوته.

ابنُه صالح تقلّدَ القضاء في أصفهان سنةً، وكان صائمَ النهار قائمَ الليل، وما كان ينامُ في الليل إلاّ ساعتين، ولم يكن لمحكمتِهِ بابٌ ولا بوّاب، وكان يسكن فيها ليلاً ونهارًا مخافةَ أن يجيءَ إليه متظلّمٌ أو شخصٌ لرفعِ حكمٍ، ويكون هو غائبًا، أو يكون الباب مُغلقًا أو مردودًا، أو يعرض لأحدٍ عارضةٌ ليلاً، فكان في جميع الأوقات حاضرًا هناك

نقل أنه جيءَ إلى بيته من بيتِ ابنه المذكور خميرةُ العجين مرّةً، وعجنوا بها العجين وخبزوها، فوضعوا الخبزَ بين يديه، وقالوا: الخميرةُ من بيتِ ابنك. فنظر إليه طويلاً، ثم قال: هو كان قاضيًا في أصفهان سنةً، والخميرةُ من بيته، فهذا الخبز لا يليقُ بنا. قالوا: وما نعملُ بهذا الخبز؟ قال: حطّوا عندكم، وإذا جاءَ فقيرٌ، قولوا: الدقيقُ من بيت أحمد، والخميرةُ من بيتِ ابنه صالح، فمن أرادَ أن يأخذَ فليأخذْ، ومن لا فلا. مضى أربعون يومًا، وما جاء فقيرٌ، فتغيّرَ الخبزُ، وذهبوا به إلى دجلة، ورموه بها، سأل أحمد عليه الرحمة: ماذا صنعتم بالخبز؟ قالوا: رميناه في دجلة. قيل: ما أكل من سمكِ دجلة بعده أبدًا.

نقل أنه كان بمكّة يسمعُ الأخبار عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه، فتخلّفَ يومًا، وأرسل إليه سفيان رضي الله عنه شخصًا يتفحّصُ عن حاله، فلمّا جاءَ إليه الشخصُ صادفه عاريًا، وثوبُه يغسلُه الغسّال. قال: لأجلِ هذا ما حضرتَ مجلسَ سماع الحديث؟ قال: نعم. وكان هذا الرجلُ المبعوثُ كثيرَ المال، قال لأحمد: أُعطيك من مالي كذا وكذا لتصرفَه في حوائجك؟ قال: لا أريد. قال:

أُعيرُك ثوبي لتلبسَ، وتحضر المجلس؟ لم يقبل. قال: فلا أرجعُ حتّى تُدبِّرَ تدبيرًا. قال الشيخ: أنسخُ كتابًا، اذهبْ واشترِ بثمنه ثوبًا. قال: من الكتان؟ قال: بل اشترِ لي من ثوب البطانة عشرةَ أذرع لأجعلَ الخمسة إزارًا، والخمسةَ قميصًا، وهذا يكفيني.

نقل أن له تلميذًا من قديم الأيامِ طرده وهجرَ عنه؛ لأنّه رآه قد سيَّجَ حول بابه من الخارج، قال: أخذتَ من حقِّ الناس قدرَ ظفرٍ، لأنّك ضيّقت الطريقَ مقدارَ السياج، والطريقُ الشارع حقُّ جميع الناس، فإذا ما عملت بهذه المسألة لا يَنبغي لك تحصيلُ العلمِ.

نقل أنه رحمه الله رهن سطلاً عند سوقيٍّ، مضى إليه اليوم، وأدّى الدَّين، وطلب السطلَ، جاء السوقيُّ بسطلين، وقال: خذْ منهما الذي لك. فما عرف سطلَهُ يقينًا، وترك سطلَه أيضًا للسوقيِّ وأعرضَ عنه.

نقل أنه يشتاقُ إلى عبد الله بن المبارك زمانًا، ويحبُّ أن يجتمعَ به، ويحترق في فراقه، فاتّفقَ أن جاءَ عبدُ الله بن المبارك زائرًا له، ودخل عليه ابنُه وقال: يا أبي، جاء عبد الله، قم إليه والتقِ به. فلم يقبلْ، وامتنعَ عن الاجتماع به، وقال ابنه: هذا عجيبٌ، أنت إلى اليوم كنتَ مُشتاقًا مُحترقًا في الشوق، فإذا جاءَ إليك مُتمنّاكَ لِمَ لا تجيء إليه؟ قال أحمد رحمه الله: يا ولدي، كنتُ في هذا الاشتياق عمرًا طويلاً، وإنّي أخافُ إنِ التقيتُ به، وصرتُ ملتذًا بصحبته أستأنسُ به، يتعوّدُ به ناظري، وحينئذٍ يشقُّ عليَّ مفارقتُه؛ فإنّي أُحبُّ أن يمضي عمري في اشتياقه، لعلَّ اللهَ يجمعنا وإيّاه في مكانٍ لا يكونُ بعده فراق.

وله كلماتٌ عالية في المعاملات ـ أي معاملات العبدِ مع نفسه ومع غيرِه ومع الحقِّ والله أعلم ـ فإذا جاء إليه سائلٌ، وسأله عن المعاملة، كان يُجيبُ عن سؤاله، ويشرحُ له، وإن سأل في علم الحقيقة، كان يُحيلُهُ على بشر الحافي رضي الله عنه.

قال: سألتُ الله تعالى أن يفتحَ عليَّ بابًا من الخوف، ففتح حتّى كادَ يزولُ

عقلي، ثم سألتُ الله تعالى وقلتُ: يا ربّ، بمَ يحصلُ التقرُبُ إليك؟ قال: بالقرآن.

سئل عن الإخلاص، قال: أن تخلصَ من عملك. يعني لا يكونُ لك حظٌ في عملك

سئل عن التوكّل، قال: الثقةُ بالله في الرزق.

وسئل عن الرضا، قال: أن تفوّضَ أمورَك إلى الله تعالى.

وسئل عن المحبّة، قال: اسألوها عن بشر الحافي رحمه الله، فإنّه ما دامَ باقيًا أنا لا أُجيبُ عن هذه المسألة

سئل عن الزهد، قال: هو ثلاثةُ أشياء: الأول: تركُ الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: تركُ الفضولُ، وهو فضولُ العيش، وهو زهدُ الخواص. الثالث: تركُ كلِّ شيءٍ يَشغلُكَ عن الحقّ، وهو زهد العارفين

قيل له: ما تقولُ في هذه الجماعةِ الصوفية التي اعتكفوا[1] في المسجد على التوكُّلِ بلا علمٍ؟ قال: غلطتم فيهم؛ فإنَّ العلمَ أجلسَهم فيه.

لما انتهى إلى حالةِ النزع، كان يُشير، ويحدّثُ، ولا يُفهم ما يقول، فابنُهُ قرّبَ أذنَهُ من فيه، واستمع، فإذا هو يقول: لا، بَعْدُ. قال: يا أبت، ما هذا الكلام في هذه الحالة الخطيرة؟ قال: جماعةٌ قعودٌ عندي، كما قال الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [قٓ: ١٧]، وإبليس حذائي، ويحثو على رأسه تراب المذلّة، ويقول: يا أحمد، نجوتَ منّي. وأنا أقول في جوابه: لا، بعدُ، يعني ما دامَ منّي رَمَقٌ أنا على الحذرِ من فتنتك، وإيماني على الخطر.

ولمّا توفّي إلى رحمة الله تعالى ورُفعت جنازتُه، جاءتِ الطيرُ أفواجًا، ومسّتْ بأجنحتها وأجسادها نعشَه، حتى أسلمَ ذلك اليوم، وآمنَ بالله أربعةُ آلاف من اليهود، ويصيحون: لا إله إلا الله محمد رسول الله[2].

---

(١) في (أ): الذين اعتكفوا.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٣: هذه حكاية منكرة... ثم العادة والعقل تحيل=

قيل: كان من دعائه: اللهم، من رزقته شرفَ الإيمان لا تسلبْه عنه، ومَنْ لم ترزقْهُ الإيمانَ فارزقه وارفقْ بهم حال النزع.

وقال محمد بن خزيمة[١]: رأيتُ الإمامَ أحمد بن حنبل رحمه الله بعد وفاته في المنام، كأنَّه يتمشّىٰ متبخترًا، قلت: وما هذا التمشّي؟ قال: هذه مشية المقرّبين إلى دار السلام، قلت: وما فعل الله معك؟ قال: غفرَ لي، وتوّجني بتاجِ الكرامة، وأنعلني بنعلِ العزّ، وقال: يا أحمد، هذا جزاءُ من قال: القرآنُ قديم، ليس بمحدثٍ.

اللهم إنّا نسألُكَ ونتضرّعُ إليك أن تُصلحَ لنا فسادَنا، وتصحّح بكرمك فيك وفي صفاتك اعتقادَنا، وتجعلنا من الفائزين بمرضاتك يا كريم يا أرحم الراحمين.

* * *



= وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموت وليٍّ لله، ولا ينقل ذلك إلاّ مجهول لا يُعرف، فلو وقع ذلك لاشتهر ولتواتر، بل لو أسلم لموته مئة نفس لقُضي من ذلك العجب.

(١) في (أ): محمد بن جزعة، وفي (ب): محمد بن خزاعة، والمثبت من سير أعلام النبلاء ٣٤٨/١١.

(٢١) داود الطائي(١)

ذكر أبي سليمان داود الطائي رحمه الله:

كان رحمه الله من أكابر الطائفة، وسيدَ القوم، وفي الورع كاملاً، وله حظٌّ وافرٌ من العلوم، ولا سيما الفقه ودقائقه.

وتلمذ على أبي حنيفة رضي الله عنه عشرين سنة، وصحب الفُضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم رحمهما الله، وشيخُه في الطريقة حبيب الراعي.

وكان الخوفُ من أول الأمر إلى الآخر غالبًا، ويَتنفَّرُ من الخلق دائمًا.

وسبب توبته أنه سمع في مرورِهِ نائحةً تنوح وتقول(٢):

بأيِّ خدَّيك تبدَّى البِلى ... وأيُّ عينيك إذًا سالا

أقول: قيل: وكان سببُ زهده أنه كان يمرُّ ببغداد يومًا، فنحّاه المطرِّقون بين يدي حميد الطوسي، فالتفت داود، فرأى حميدًا، فقال داود: أفٍّ للدنيا سبقك بها حميد. فلزمَ البيتَ، وأخذ في الجهد والعبادة.

وقيل: سببه أنه كان يُجالسُ أبا حنيفة رضي الله عنه، فقال أبو حنيفة يومًا:

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٦٧، التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٢٤٠، التاريخ الصغير ٢/ ١٣٦، المعارف ٥١٥، مشاهير علماء الأمصار ١٦٨، الثقات ٦/ ٢٨٢، حلية الأولياء ٧/ ٣٣٥، الرسالة القشيرية ٥١، تاريخ بغداد ٨/ ٣٤٧، الأنساب ٨/ ٣٠٦، مناقب الأبرار ١٧٥، صفة الصفوة ٣/ ١٣١، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٧٥، تهذيب الكمال ٨/ ٤٥٥، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٩، العبر ١/ ٢٣٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٢١، مرآة الجنان ١/ ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٩٥، طبقات الأولياء ٢٠٠، نفحات الأنس ٥٩، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٢٧٢، شذرات الذهب ١/ ٢٥٦.

(٢) ذكر البيت مع الخبر القشيري في رسالته ٥١، وابنُ قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٢.

يا أبا سليمان، أمّا الآدابُ فقد أحكمناها. فقال له داود: فأيُّ شيءٍ بقي؟ قال: العمل. قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة، فقلتُ لنفسي: جالسيهم ولا تتكلَّمي في مسألةٍ، فجالستُهم سنةً، وكانتِ المسألةُ تمرُّ بي، وأنا إلى الكلامِ فيها أشدُّ نزاعًا من العطشان إلى الماء الزُّلال، ولا أتكلَّمُ به، ثم صارَ أمرُ حالي إلى ما صار، وقال: بصبري في سنةٍ حصلَ لي عملُ ثلاثين سنةً[١]، والله أعلم.

ثم وصل إلى حبيب الراعي، وفتوحُهُ في الطريقة حصلَتْ منه، ودخل الطريقَ برجوليّةٍ تامّةٍ، ورمى جميعَ كتبِهِ في الماء، واختار الخلوةَ والعزلة، وقطع الرجاءَ بالكلّية عن الخلق.

وكان له عشرون دينارًا وصلَ إليه من ميراثٍ، فتقوّتَ به عشرين سنة، حتى قال له بعضُ المشايخ: من الطريقة الإيثار لا الاختيار. قال: ليس هذا بمالٍ يُعدُّ ذخيرةً، ولكن هو سببٌ لفراغ قلبي، وأتقوّتُ به إلى يوم موتي.

وكان رحمه الله مَشغولاً بعملِ الآخرة، ولم يسترح من العملِ إلى اليوم الآخر من عمره.

وكان ينقعُ الخبزَ بالماء، ويأكلُ ويقول: إلى أن يُمضغَ الخبزُ يُمكنُ أن يقرأ خمسين آيةً من كلام الله تعالى، فلا ينبغي أن يُضيَّعَ العُمُرُ في أكلِ الخبز ومضغه.

قال أبو بكر بن عياش[٢]: دخلتُ حجرةَ داود، ألفيته يبكي، وبيده كسرةُ خبزٍ، قلت: وما بك يا داود؟ قال: أُريد أن آكل هذه[٣] الكُسيرة من الخبز، ولا أدري أنه حلالٌ أم حرام؟

وقال آخر: دخلتُ حجرةَ داود، رأيتُ جرّةً مملوءةً من الماء، ضربت عليها الشمسُ، قلت: لِمَ لا ترفعها، ولا تحولُها من مكانها؟ قال: وضعتها هناك،

(١) الرسالة القشيرية ٥١.
(٢) في (ب): أبو بكر العياش.
(٣) في (ب): يبكي وبيده الكُسيرة. وما بينهما مستدرك من (أ).

وما كانتِ الشمسُ حينئذٍ تضرب على ذلك المكان، وأستحيي من الله أن أمشي إليها الآن، وأرفعَها للتنعُّمِ ولذَّةِ النفس.

نقل أنه كان له دارٌ مشتملٌ على بيوتٍ كثيرة، وهو يسكُنُ في بيتٍ منها، فإذا يخربُ يَنتقلُ إلى بيتٍ آخر، قيل له: لِمَ لا تعمّرُ البيتَ الذي يخرب؟ قال: لي مع الله تعالى أن لا أعمّرَ في الدنيا قطُّ.

نقل أنه انهدمَتْ البيوتُ كلُّها، وتحوّلَ آخرَ عمره في الدهليز، ويسكنُ هناك، جاء إليه شخص وقال: اخرجْ من هذا الدهليز؛ فإنَّ سقفَهُ خرابٌ وسينهدمُ. قال: إنّي مذ عشرين سنة ساكنٌ فيه، وما نظرتُ إلى سقفه. حتى أنَّ ذلك الدهليزَ انهدمَ في الليلة التي ماتَ فيها داود رحمه الله.

قيل له: لِمَ لا تختلطُ مع الناس؟ قال: إن خالطتُ مع أصغرَ منّي فهو لا يُعاونني على أمرِ الدِّين، ومع أكبر فهو عسى أن لا يقولَ لي ما يرىَ فيَّ من العيوب، لأجل هذا تركتُ صحبةَ الخلق.

قيل له: لِمَ لا تتزوّج؟ قال: لأنني لا يُمكنني أن أخدعَ مؤمنةً، لأنّي إذا تزوّجتُ بها تقلّدتُ بأن أكونَ أقومُ بأمورِها وأشغالِها دينًا ودنيا، وإذا لم أقدر على القيام بها فقد خدعتُها، وهذا لا يجوز.

قيل له: لِمَ لا تسرّح لحيتك بالمشط؟ قال: متى فرغتُ من الأشغال لأُسرِّحَ اللحية؟

نقل أنه صعدَ السطح في ليلةٍ قمراء، ويتفكّرُ في عجائب ملكوتِ السماء، ويبكي إلى أن غُشي عليه(١)، وسقط على سطحِ الجار، وانتبه صاحبُ البيت من المهابة، وصعدَ السطحَ عاريًا، ومعه سيفٌ، فلمّا رأى داودَ على تلك الحالة، رجعَ، ولبسَ الثوب، وأغمدَ السيف، وجاء إليه، وأمسك بيده، وقال: من جاءَ بك إلى هنا؟ قال: لا أعلم أني كيف وصلت إلى هنا.

نقل أنه رحمه الله كان يستوحشُ من مُخالطة الناس، حتى رأتْهُ أمُّه يومًا

(١) في (ب): إلى أن غشي على عقله.

قاعدًا في الشمس، والعرقُ يتقاطر منه، بل يجري، قالت: يا روحي، حرٌّ شديدٌ وأنت صائم، فإنْ تحوَّلْتَ إلى الفيء فهو خير. قال: يا أمّي، أستحيي من الله تعالى أن أخطوَ خطوةً من أجل نفسي، والحالُ أنّي عادمٌ لقوَّةِ المشي. قالت: ما هذا الكلام؟ قال: يا أمّي، كنتُ أرى في بغداد أمورًا لا تُوافِقُ الشرع، ولم أقدرْ على نهي المُنكر، سألتُ الله تعالى أن يأخذَ منّي قوَّةَ المشي؛ لأصيرَ مَعذورًا في ترك الجماعة، ولا أَطلع من البيت، ولا أرى المنكر، والآن لا أقدرُ على المشي مدّة ستة عشر سنة.

نقل أنه رحمه الله كان دائمَ الحُزن، ويقول في الليل: إلهي، همُّكَ قد عطَّلَ عليَّ الهموم، وحال بيني وبين الرقاد.

قال فقير: دخلتُ على داود، فوجدتُهُ ضاحكًا، تعجَّبْتُ منه، قلت: يا أبا سليمان، من أين هذا الفرح؟ قال: سقاني في السَّحَرِ شرابًا يُسمّى شرابَ الأُنس، واليومَ لي يومُ العيد والطرب.

نقل أنه كان يأكلُ الخبزَ، فمرَّ عليه نصرانيٌّ، وأعطاه داود كُسيرةً من خبزِه، فأكلَ وحصلَ له في تلك الليلة مع أهله قربانٌ، وحملتِ المرأةُ بمعروف الكرخي، ووُجِدَ من تلك النطفة.

قال أبو يزيد الواسطي[1]: التقيتُ بداود، واستوصيتُهُ. قال: اكتفِ من هذه الدنيا بالسلامةِ.

واستوصاه آخر، قال: اجتهدْ للآخرة، واعملْ لها على قدرِ مقامك فيها، وبقدرِ ما تَحتاجُ إليه منها.

واستوصاه آخر، قال: الأموات ينتظرونَكَ، فاستعدَّ للموت.

وقال: مَنْ يؤخِّرُ التوبةَ والطاعةَ مثَلُهُ كمثلِ شخصٍ يصطادُ[2] ولا ينتفع بصيده؛ بل ينتفعُ[3] به غيره.

---

(١) المطبوع الفارسي، والترجمة العربية المطبوعة صفحة ٤٦٤: أبو ربيع الواسطي.

(٢) في (ب): شخص سطاط.

(٣) في (أ): بل لينتفع به غيره.

وقال لشخص: إن أردتَ السلامةَ، فسلِّمْ على الدنيا تسليمَ الوداع، وإنْ أرَدْتَ الكرامة فكبِّرْ على الآخرة بالترك. يعني اتركِ الدنيا والآخرة جميعًا لتصل إلى الله تعالى.

قال المعروف: ما رأيتُ أحدًا تكون الدنيا حقيرًا في عينه مثل داود، فإنه لم يكن للدنيا ولا لأهلِ الدنيا عنده مقدارُ مثقالِ ذرة[١] حتى إذا كان يرى أحدًا من أهل الدنيا يَشتكي من الظلمة، وكان مُتنفِّرًا من قواعدهم ورسومهم بحيث إذا كان يغسل قميصه يقول: أصادف قلبي متغيِّرًا، لكن يحبُّ الفقراء ويكرمهم.

نقل أنَّ الخليفة كان يعتقدُهُ، ولا يجدُ إليه طريقًا، وكتب له مثالاً ليُدرِّسَ الفقهاء، وجاء إليه الوزير بالمثال، وعنده فقيرٌ منكسر، فأعرضَ عن الوزير، وتوجَّه إلى ذلك الفقير، وأخذ المثال من وراء الظهرِ، ولم يلتفت إلى الوزير، ورمى المثال، وقال للوزير: قل للخليفة: أنا أعملُ بما أمرني الله تعالى، فاتركْ أنت الفضولَ، وكان صاحبَ مروءة.

قال الجُنيد رحمه الله: حجمَهُ الحجّام، فأعطاه دينارًا، قال الحجّام: هذا إسراف. قال: ليس بعابدٍ من لا مُروءة له، إذ ورد في الخبر: «لا دين لمن لا مروءة له»[٢].

نقل أنه دخلَ إليه بعضُهم، وجعل ينظرُ إليه، فقال: أما علمتَ أنَّهم كانوا يكرهون فضولَ [النظر، كما كانوا يكرهون فضول] الكلام.

نقل أن أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن رحمهما الله إذا كانا يختلفان في مسألةٍ يرفعانِ المسألةَ على داود، وهو يفصلُ بينهما؛ ولكن كان يتوجَّهُ إلى محمد، ويُعرضُ عن أبي يوسف رضي الله عنه، فإن كان الحقُّ في جانب محمد، يقول: الحقُّ ما يَرسمُهُ محمد، وإن كان في جانب أبي يوسف، يقول:

(١) في (أ): مقدارًا في عينيه، حتى إذا.

(٢) الخبر من قول داود نفسه، انظر حلية الأولياء ٧/ ٣٥٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٣٥٠. وقوله: إذ ورد.. ليس في (أ).

الكلام هو هذا، ولم يذكرْه، حتى قيل له: كلاهما من العلماءِ الكبار، لِمَ تعزّزُ أحدَهما دون الآخر، ولا تنظرُ إلى وجهه أيضًا؟ قال: لأنَّ محمدَ بن الحسن دخلَ المدرسةَ، واشتغل بالعلم من النعمة والجاه، وجعلَ العلمَ سببًا لعزَّةِ دينه، وأمّا أبو يوسف فإنه اشتغلَ بالعلم من الذلّةِ والمسكنة، وجعلَ العلمَ رأسَ ماله في دنياه، وسببًا للعزِّ والجاه فيها، فكيف يكونُ أبو يوسف مثلاً لمحمدٍ، وأيضًا ضُرب أستاذُنا أبو حنيفة رضي الله عنه بالمقرعةِ، ولم يقبلِ القضاءَ، وقبلَهُ أبو يوسف، ومن لم يسلكْ طريقَ شيخه، وخالفه، فأنا لا أتكلم معه

نقل أن هارون الرشيد قال لأبي يوسف، والتمس منه أن يذهبَ به إلى داود الطائي ليتشرَّفَ بزيارته، فجاء إلى بابه، ولم يجدْ إليه سبيلاً، فاستشفعَ بأمِّه، فشفعت، وما كان يقبلُ، ويقول: مالي وصحبة أهل الدنيا والظلمة؟! حتى قالت أمُّهُ: بحقِّي عليك ألا تأذنُ له في الدخول. قال: إلهي، أنت أمرتني بالإحسان إلى الوالدة وإرضائها، وإلاَّ ما كانَ لي شغلٌ مع هؤلاء. فأذن لهم في الدخول عليه، فدخلوا، وجلسوا، وهو افتتحَ بالنصيحة والوعظ، وشرع هارون يبكي، ولمّا أرادَ الرجوعَ حطَّ عنده صرّةً من الذهب، وقال: هذا حلالٌ، أرجو منك أن تقبلَها. فلم يقبلْ. وقال: بعتُ بيتًا من تركة أبي، وأُنفقُ الثمنَ عليَّ، وليس لي حاجةٌ إلى مالك، وقد سألت الله تعالى أن يقبضَ روحي إذا تمَّ ثمنُ البيت؛ لئلا أحتاجَ، وأنا أرجو أن يَصيرَ دُعائي مُستجابًا. فرجع هارون، وسأل أبو يوسف مِنْ وكيلِ خرجه: كم قد بقيَ من ثمن البيت؟ قال: عشرةُ دراهم، ونفقتُهُ كلَّ يومٍ دانقٌ. وكان أبو يوسف يحاسبُ ذلك، حتى أنه أسند ظهرَهُ إلى المحراب يومًا، وقال: اليوم توفّي داود، تفحّصوا. فكان كذلك، قيل: بم أدركتَ؟ قال: حسبتُ نفقتَهُ، وعلمت أنّها تمَّتِ اليومَ، ولا شكَّ أنّه كان مُستجابَ الدعاء.

سألوا عن أمّه حالَ وفاته، قالت: كان يُصلّي طولَ الليل، ففي آخره سجدَ ولم يرفعْ رأسه من السجود، قلت: يا ولدي، وقت الصلاة. فلم يُجبْ، فالتفتُّ إليه، فإذا هو ميت.

وقيل: إنه كان في ذلك الدهليز الخراب في الحرِّ الشديد، واضعًا لبنةً تحت رأسه، ويقرأ القرآن، وهو في النزع، فقيل له: نذهبُ بك إلى الصحراء؟ قال: أستحيي من الله تعالى أن أضعَ على الأرضِ قدمًا لحظِّ نفسي، ولم يكن للنفسِ عليَّ يدٌ وسلطنةٌ إلى اليوم، والآن أولى أن لا يكونَ لها عليَّ سلطنةٌ واستيلاء، وفي تلك الليلة تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وكان قد أوصى أن يُدفنَ خلفَ جدارٍ لئلا يمرَّ أحدٌ تلقاء وجهه، فامتثلوا وصيته.

نقل أنه سُمِعَ صوتٌ في تلك الليلة: يقال يا أهلَ الأرض، داودُ وصلَ إلى الحقِّ، والحقُّ عنه راضٍ.

رآه شخصٌ في المنام أنه يَطيرُ في الهواء، ويقول: الآن خلصتُ من السجنِ. انتبه الشخص وجاء إليه ليحكيه الرؤيا، فوجده ميتًا.

اللهم، إنّا نسألُكَ بحرمةِ أنبيائك وأوليائك وأصفيائك أن لا تحرمَنَا من مصاحبتِهم ومقاربتهم في اليوم الآخر، إنك كريمٌ رحيم، وأن ترزقنا سلوكَ طريقهم في الدنيا، وتُدرجنا في صحبتهم في العقبى، إنّك مُجيبُ الدعوات، ووليُّ الحسنات.

* * *

(٢٢) الحارث المُحاسبي[١]

ذكر أبي عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي رحمه الله:

مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومئتين، نوّرَ الله قبرَه، وعطّر مشهده.

كان رحمه الله من مشايخ العلماء، مُزيّنًا بالعلمِ الظاهر والباطن، مقبولاً في المعاملات والإشارات، مرجعًا للأولياء في جميع الفنون.

وله تصانيفُ كثيرةٌ في أنواع العلوم[٢].

وكان سخيًا[٣] ذا همّةٍ عالية، ومروءةٍ في الفِراسة والحذاقة، عديمَ النظير، وفي وقته شيخَ المشايخ في بغداد، مخصوصًا بعلم التجريد والتوحيد، وفي المُجاهدة والمشاهدة، واصلاً إلى أقصى الغاية، مُجتهدًا في الطريقة، وكان بصريَّ الأصل.

نقل أنه رحمه الله كان يتمشّى في بعض الأسواق، فإذِ التقى بشخصٍ أمسكَ امرأةً، وجرَّ سكينًا، وما كان يستجري أحدٌ أن يخلّصَ المرأة من ذلك

(١) طبقات الصوفية ٥٦، حلية الأولياء ١٠/ ٧٣، تاريخ بغداد ٨/ ٢١١، الرسالة القشيرية ٤٩، الأنساب ١١/ ١٥١، طبقات الفقهاء لابن الصلاح ١/ ٤٣٨، مناقب الأبرار ١٦٥، صفة الصفوة ٢/ ٣٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٤٤، الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ٥٧، تهذيب الكمال ٥/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠، العبر ١/ ٤٤٠، ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٠، مرآة الجنان ٢/ ١٤٢، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٥٧، طبقات السبكي ٢/ ٢٧٥، طبقات الإسنوي ١/ ٢٦، البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٣، طبقات الأولياء لابن الملقن ١٧٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٣١٦، نفحات الأنس ٧٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٥، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٥٨٥، شذرات الذهب ٢/ ١٠٣، مفتاح السعادة ٢/ ١٧٢.

(٢) من مؤلفاته: رسالة المسترشدين، وكتاب التفكير والاعتبار، وكتاب الرعاية. انظر هدية العارفين ١/ ٢٦٤.

(٣) في (ب): وكان شيخًا.

الشخص، فذهب إليه الحارث، وقال في أذنه: إنَّ الله تعالى يراك في هذه الحالة. فرمى الشخصُ السكينَ، وترك المرأة، وبكى، وتابَ على يد الشيخ رضي الله عنه، وصارَ من الأبدال.

نقل أنّه ورثَ من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذْ منها شيئًا، وبعثَهُ إلى بيت المال، قال: لأنه قال النبيُّ ﷺ: «القدريةُ مَجوسُ هذه الأمة»(١)، وأبوه كان يقول بالقدرِ ـ أي كان قَدَريًا ـ فرأى في الورع أن لا يأخذَ من ميراثه، وقال: صحّتِ الروايةُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يتوارثُ أهلُ الملَّتَيْنِ شتّى»(٢) ـ أي: أهل ملّتين مفترقين.

يُحكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال: مرَّ بي الحارثُ المُحاسبي، فرأيتُ منه أثرَ الجوع، فقلت: يا عمّي، لا تدخل الدار فتتناول شيئًا؟ قال: نعم. فدخلنا

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) في السنة، باب في القدر من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه أبي حازم سلمة بن دينار، عن ابن عمر، وقد جزم المنذري بأن أبا حازم لم يسمع من ابن عمر، فالإسناد منقطع.

قال ابن الأثير في جامع الأصول ١٠/١٢٨: (القدرية) في إجماع أهل السنة والجماعة: هم الذين يقولون: الخير من الله، والشرُّ من الإنسان، وإن الله لا يريد أفعال العصاة، وسُمُّوا بذلك، لأنهم أثبتوا للعبد قدرةً توجِد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونَفَوْا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية، حين تجعلون الأشياء جاريةً بقدرٍ من الله، وأنكم أولى بهذا الاسم منا، وهذا الحديث يبطِل ما قالوا، فإنه ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة» ومعنى ذلك: أنهم لمشابهتم المجوس في مذهبهم، وقولهم بالأصلين ـ وهما النور والظلمة ـ فإن المجوس يزعمون أن الخير من فعل النور، والشرَّ من فعل الظلمة، فصاروا بذلك ثنوية، وكذلك القدرية لما أضافوا الخير إلى الله، والشرَّ إلى العبيد؛ أثبتوا قادرَيْنِ خالِقَيْن للأفعال كما أثبتَ المجوس، فأشبهوهم، وليس كذلك غير القدرية، فإن مذهبهم أن الله تعالى خالق الخير والشرّ، لا يكون شيء منهما إلا بخلقه ومشيئته، فالأمران معًا مضافان إليه خلقًا وإيجادًا، وإلى العباد مباشرة واكتسابا.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/١٧٨، وأبو داود (٢٩١١)، والبيهقي في السنن ٦/٢١٨، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/٢٩٠، وابن ماجه (٢٧٣١)، والحاكم ٤/٣٤٥ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

الدار، وطلبتُ شيئًا أُقدّمه إليه، وكان في البيت شيءٌ من طعامٍ حُمل إليّ من عرسِ قومٍ، فقدّمتُ إليه، فأخذَ لقمةً، فأدارها في فمه مرّاتٍ، ثمّ إنه قامَ وألقاها في الدهليز ومرّ، فرأيته بعد ذلك بأيام، وسألته عن ذلك، قال: إنّي كنتُ جائعًا، وأردتُ أن أسرَّكَ بأكلي، وأحفظَ قلبك؛ ولكن بيني وبين الله علامةٌ أن لا يُسوّغني طعامًا فيه شبهةٌ، فلم يُمكّنني ابتلاعه، فمن أين كان ذلك الطعام؟ قلت: إنه حُمل إليَّ من دارِ قريبٍ لي من العرس، ثم قلت: تدخلُ اليوم؟ قال: نعم. فقدّمت إليه كسرةً كانت لنا، فأكلَ، وقال: إذا قدَّمْتَ إلى فقيرٍ شيئًا، فقدّم مثل هذا.

نقل أنه كان في المحاسبة مع النفسِ جدًّ عظيمٍ، ولذا سُمّي مُحاسبيًا.

وقال: لأهل المحاسبة عشرُ خصال: الأولى: أن لا يحلفَ بالله لا صدقًا ولا كذبًا، ولا سهوًا ولا عمدًا. الثانية: الاحتراز عن الكذب. الثالثة: تركُ خلاف الوعد، فإن قدرتَ على الوفاء لا تخالفْ، وإن لم تقدرْ عليه لا تعد. الرابعة: تركُ اللعن وإن كان على ظالمٍ. الخامسة: ترك الدُّعاء على أحدٍ أساءَ إليك قولاً أو فعلاً، ولا تريد مجازاته؛ بل تتحمّلُ عنه لله تعالى. السادسة: ترك الشهادة على الناس بكفرٍ أو بشركٍ أو نفاقٍ، فإنه من الرحمة والشفقة عليهم، وسببٌ للبعد عن مقتِ الله تعالى. السابعة: ترك قصد المعصية ظاهرًا وباطنًا. الثامنة: رفع تعبك وتشويشك عن الناس قليلاً أو كثيرًا. التاسعة: قطع الطمعِ عن الخلق، واليأس عن الجميع. العاشرة: أن لا ترى لنفسك فضلاً على أحدٍ، ولا تعتقد أنك خيرٌ من أحدٍ، إذِ العاقبةُ غيرُ معلومة، فإن كنت من أهلِ السعادة عسى أن تتوجّه الشقاوة والعياذ بالله، وإن كنت من أهلِ الشقاوة تحتملُ أن تصيرَ سعيدًا في الأُخرى، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

قال ذو النون: لا تنظرْ على أحدٍ بالحقارة، وانظر إلى عاقبة أمرِه، إذ يمكن أن يُرفعَ هو وتُخفضَ أنت.

ومن كلام المحاسبي رضي الله عنه:

المُراقبةُ علم القلب في قرب الحقّ.

الرضا اطمئنانُ القلب تحت مجاري الأحكام.

الصبرُ أن يصير الإنسانُ هدفًا لسهام البلايا.

التوكُّلُ رؤية الأسباب من الحقّ[١].

التسليمُ هو الثبوت والتثبُّتُ عند نزول البلايا بلا تغيُّرٍ في الظاهر والباطن.

الحياء هو التباعدُ عن الأخلاق الذميمةِ التي لا يرضى الله بها.

المحبّةُ الميلُ بالكلّيةِ إلى شيءٍ، ثم إيثارُهُ واختيارُه على الجسدِ والروح والمال، والموافقةُ معه في السرّ والعلن، ثم بعد ذلك الاعترافُ بالتقصير.

الخوفُ أن تعتقد أنّك لا تتحرّكُ حركةً إلاّ وأنتَ مؤاخذٌ بها في الآخرة.

علامةُ الأُنس بالحقّ الوحشةُ والنفرةُ عن الخلق، والتلذُّذُ بحلاوة ذكر الله تعالى.

بقدر ما يكون للأُنسِ في القلب قرار يفرُّ أُنس الخلقِ[٢] عن القلب.

الصادقُ من لا يبالي إن لم يكن له عند الخلق مقدار، ويحبُّ أن لا يطلعَ أحدٌ على[٣] ذرةٍ من أعماله.

احذروا من ضعف العزم، فإنَّ العدوَّ وهو شيطان يغلبك عليك[٤].

قال لفقير: كن لله، وإلاّ فلا تَكن.

وقال: من هذّب نفسَه بالرياضة فحريٌّ[٥] أن يهديَهُ الله تعالى إلى المقامات.

---

(١) في (ب): الأسباب حقّ الحق.

(٢) في (ب): قرار ثم يفر أنس.

(٣) في (ب): أن لا يطلع عليه إنسان على ذرة.

(٤) إشارة لقوله تعالى في سورة النساء، الآية ٧٦: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

(٥) في (أ): كتب تحت كلمة (فحري): لائق.

من أرادَ أن يتلذَّذَ بصحبة أهلِ الجنة ونعيمها، فليقنع بصحبة أهلِ الفقر.

من زيَّنَ باطنَه بالمراقبة والإخلاص لله تعالى، يتحلّى ظاهرُه بالمجاهدةِ واتّباعِ السنة.

من كان بحركات القلب في عالم الغيب خيرٌ من أن يكون بحركاتِ الجوارح في عالم الشهادة.

العارفون يغوصون في بحرِ الرضا، ويسبحون في لجَّةِ الصفا، ويُخرجون جواهرَ الوفا، لا جرم يصلون إلى الحقِّ في السرِّ والخفا.

قال ابن مسروق: مات الحارثُ المحاسبي رحمه الله وهو محتاجٌ إلى درهم[١]، وخلّف أبوه ضياعًا وعقارًا، ولم يأخذ منه شيئًا.

اللهم أنزلْ عليه شآبيب رضوانك، وارزقنا مُتابعة أوليائك سرًّا وجهارًا، ليلاً ونهارًا، وانظر إلينا نظرَ العناية، يا كريم يا رحيم.

* * *



(١) في (ب): وهو يحتاج إلى درهم.

(٢٣) أبو سليمان الداراني(١)

ذكر أبي سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني رحمه الله:

داريا(٢) قرية من قرى دمشق مات بها رحمه الله(٣).

كان رحمه الله وحيدَ وقته، وفريدَ دهره، ولطيفَ عصره، ومن غاية لطفه سُمّي ريحان القلوب.

وله في الرياضة والجوعِ المُفرط شأنٌ كبير حتى قيل له: بُندار(٤) الجائعين؛ فإن أحدًا من هذه الأمة لم يصبرْ على الجوع مثلَ صبره.

وله أيضًا في معرفة حالاتِ الغيوب وآفاتِ النفس وعيوبها حظٌّ وافر.

وله كلماتٌ عليّةٌ، وإشاراتٌ لطيفة.

قال أحمد بن أبي الحواري(٥)، وهو من مريديه: كنتُ أُصلّي في الخلوة،

---

(١) الجرح والتعديل ٥/ ٢١٤، تاريخ داريا للخولاني ٥١، طبقات الصوفية ٧٥، حلية الأولياء ٩/ ٢٥٤، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨، الرسالة القشيرية ٥٩، تاريخ ابن عساكر ٤٠/ ٧٧، الأنساب ٥/ ٢٤٣، مناقب الأبرار ٢٣٤، صفة الصفوة ٤/ ٢٢٣، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٣٦٩، وفيات الأعيان ٣/ ١٣١، مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ١٨٧، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢، العبر ١/ ٣٤٧، فوات الوفيات ٢/ ٢٦٥، مرآة الجنان ٣/ ١٣١، البداية والنهاية ١٠/ ٢٥٥، طبقات الأولياء ٣٨٦، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٩، نفحات الأنس ٥٧، طبقات الشعراني ١/ ٩٢، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٦٦٩، شذرات الذهب ٢/ ١٣.

(٢) في الأصلين: الداراني. . . دارا. وداريًا قرية جنوب دمشق بـ ٨كم، والنسبة إليها داراني، والنسبة إليها على هذه الصورة من شواذ النسب. انظر الأنساب ٥/ ٢٤٤.

(٣) في (ب): مات بها رحمه الله سنة خمس عشر وثمان مئة. اهـ. أقول: ووفاته كانت سنة خمس عشرة ومئتين.

(٤) في (أ) كتب تحت كلمة (بندار): أول. وهي في الفارسية تعني: صاحب المنزلة. والأصلي.

(٥) في الأصلين: أحمد الحواري.

وحصل لي فيها لذّةٌ عظيمةٌ، وذكرت ذلك للشيخِ أبي سليمان، قال: أنت رجلٌ ضعيف، ولك نظرٌ إلى الخلق، ولذا حالُكَ في الخلوة غيرُ حالك في الملأ، والمُخلصُ ينبغي أن يكون حالُه في الخلا والملا على سننٍ واحد، ومن غايةِ استغراقه لا يكون مُلتفتًا إلى الخلق.

قال أبو سليمان: بتُّ ليلةً في مسجدٍ، وكان البردُ قويًا، ففي وقتِ الدُّعاء غطّيت إحدى يدي في الكمّ، ودعوتُ الله تعالى، ثم غلبني النومُ، صاحني هاتفٌ: يا أبا سليمان، أُعطيتَ نصيبَ اليد التي كانت خارجةً، ولو كانتِ الأُخرى بارزةً مكشوفةً لأعطينا نصيبَها. قال: ثم حلفتُ بالله أن لا أدعو الله تعالى في حرٍّ أو بردٍ إلاّ وتكون يداي مكشوفتين.

قال: سبحان الذي وضع لطفَهُ في مخالفتنا لاختياره.

قال: اتّفقَ لي أن نمتُ عن وردي نوبةً، فرأيتُ في المنام حوراء تقولُ لي: تنامُ عن وردك، وأنا أُربّى لك في الخدورِ منذ خمس مئة عام!؟

وقال: رأيتُ ليلةً في المنامِ حوراء تنظر إليّ من طرفٍ وتبتسمُ، ويُشرقُ وجهُها نورًا بحيث لا يُمكنُ وصفُه، قلت لها: من أين لك هذا الجمال؟ قالت: أمطرْتَ ليلةً قطراتٍ من العَبَرة[1]، فغُسِلَ بها وجهي، فحصل هذا النورُ والضياء.

قال: كان لي صديقٌ يُعطيني ما أسأل عنه، فقال نوبةً حين سألتُ شيئًا: كم تسأل! فتركتُ صداقته.

أقول: لأنَّ الصداقةَ لا ينبغي أن تتحقَّقَ إلاّ مع أحدٍ لا يَعْجِزُ عن قضاء حوائجك، ولا يضيق قلبُه عن طلباتك، وإلاّ فلا يصلح للصداقة، ومن لا يعجزُ عن سُؤال السائلين، ولا تَضيقُ خزانتُهُ عن طلبات المستحقين إنّما هو اللهُ عزَّ وجل، والله أعلم.

---

(١) في (أ) كتب تحت كلمة (العبرة): العين وانظر صفحة ٣٦٧.

قال: صادفتُ بمكّةَ(١) رجلاً لا يطعمُ شيئًا إلاّ أنه يشربُ الماءَ من زمزم، قلت له: إن نشفَ زمزمُ ماذا تأكلُ وتشرب؟ فقام الرجل وقال: جزاكَ اللهُ خيرًا، هديتني إلى الطريقِ، فإنّي كنتُ عابدَ زمزمٍ منذ سنين. وذهب

قال أحمد بن أبي الحواري: كان أبو سليمان رحمه الله إذا أحرمَ للحجِّ لا يقول عنده لبّيك، سألْتُهُ عن ذلك، قال: إنَّ الله تعالى أَوحى إلى موسى عليه السلام أن: قلْ للظالمينِ من أُمّتك لا يذكروني، فإنَّ الظالمَ إذا ذكرني، أنا أذكُرُه باللَّعنِ. وأيضًا سمعتُ أنَّ من أنفقَ في طريقِ الحجِّ من الشُّبهة، ثم يقولُ: لبّيك، يُقال: لا لبيك ولا سعديك، حتى تردَّ ما في يدك.

نقل أن ابنَ الفُضيل ما كان يطيقُ سماعَ آية العذاب، سئل ذلك عن الفُضيل، وقيل: إنّ ابنك بلغ من الخوف إلى هذا الحد! قال: لكثرة الذنوب. ثم بلغ هذا الكلامُ إلى أبي سليمان، قال: لا شكَّ أنَّ كثرةَ الخوفِ من كثرة الذنوب

أقول: إنّهم عسى يعدّون التقصيرَ في العبادة من الذنوب، ولا خفاءَ في أنَّ العبد لو صرفَ(٢) غاية جهده ووسعه في عبادة الله تعالى، فهو بعدُ مُقصِّرٌ فيها، وذلك لأنَّ العبادةَ ينبغي أن تكون على وجهٍ يليق بكبرياء الله تعالى، أو في مقابلة نِعم الله تعالى على العبدِ، ولا شكَّ أن طاقةَ البشرية عاجزةٌ عند هذا المقام؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى أعزُّ وأجلُّ وأعظمُ من أن يليقَ بجناب كبريائه عبادةُ الثقلين، فكيف أنت بعبادةِ إنسان واحد! ونعمُهُ تعالى أيضًا على كلِّ من عبيده أكثرُ من أن تُحصى، وأجلُّ من أن تُستقصى حتى يمكن مقابلة شيءٍ منها بعبادةِ العبد، وهذا لأن التوفيقَ للعبادة أيضًا نعمةٌ، فلا بدّ من عبادةٍ أُخرى في مقابلة التوفيق، ويحتاج العبدُ إلى توفيقٍ آخر لهذه العبادة، وهذا التوفيق أيضًا نعمةٌ يجب على العبد مُقابلتها بعبادةٍ أُخرى، ولا بدَّ لهذه العبادةِ من توفيقٍ آخر، وهلّم جرًّا، فعلمنا أنَّ العبدَ يَعجزُ عن مقابلةِ نعمِ التوفيق بالعبادة، فما ظنُّكَ

---

(١) في (ب): صادقت بمكة.

(٢) في (أ): العبدَ وإن صرف.

بالنِّعمِ الجِسام، الظاهرةِ والباطنة، يؤيّده ما روي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: أن اشكرْ لي. فقال موسى عليه السلام: كيف أشكُرُ لك والشُّكرُ أيضًا نعمةٌ، يجب عليَّ شكرٌ آخر ويتسلسل؟ فقال الله تعالى: يا موسى، إذا علمتَ أنّك عاجزٌ عن إحصاءِ الشُّكر فالآن شكرتني.

قال الشاعر:

إذا كـان شُكـري نعمـةَ اللهِ نعمـةً ... عليَّ لـه في مثله يَجِـبُ الشُّكـرُ
فكيـفَ بلـوغُ الشُّكـرِ إلاّ بفضلِـهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتَّصل العمر

فثبت أنَّ العبدَ عاجزٌ مقصِّرٌ، وإن بلغ إلى نهايةِ درجات العابدين، والتقصيرُ في مقام العبادةِ معدودٌ عندهم من الذنوب، وبهذا يتجلّى[1] غلبة الخوف على الأنبياء والأولياء والصدّيقين، وصدور التوبة في يومٍ مرارًا عن النبيِّ ﷺ[2] والله أعلم.

نقل عن صالح بن عبد الكريم أنه قال: الخوف والرجاء نوران في القلب. قيل له: أيُّهما أنور؟ قال: الرجاء. ثم سمع أبو سليمان هذا الكلام، قال: سبحان الله، تعلم أنه يصدر من الخوفِ الصومُ والصلاةُ وسائرُ الأعمال الحسنة بخلافِ الرجاء، فكيف يكونُ الرجاءُ أنورَ من الخوف؟!

وقال: أنا أخافُ من نارٍ يُعاقب اللهُ بها، ومِنَ اللهِ الذي يُعاقبُ بالنار.

وقال: أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة هو الخوف من الله تعالى.

وقال: إذا غلبَ الرجاء على قلبٍ أفسده، وإذا كان الخوفُ دائمًا يستقرُّ الخشوعُ في القلب، وإن لم يكن دائمًا، بل حينًا وحينًا فلا يحصلُ الخشوعُ في القلب.

---

(١) في (ب): وبهذا ينحل غلبة.

(٢) روى أحمد في المسند ٢/ ٢٨٢، والبخاري في صحيحه (٦٣٠٧) في الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢٠٤ (٩٢٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وقال: لا يفارق الخوفُ من قلبٍ إلاّ خرب.

وقال يومًا لأحمد بن أبي الحواري: كنْ خائفًا من الله لا إلى حدٍّ تصير آيسًا من رحمة الله تعالى، وكن أيضًا راجيًا من الله تعالى لا إلى حيثُ تصيرُ آمنًا من مكر الله تعالى، لئلا تكون من الخاسرين.

وقال: إذا أدخلتَ قلبك في المعاصي[١] فألقه في الخوف؛ ليرفع الخوفُ الشوقَ من الطريق. يُريد أنّك الآن أحوجُ إلى الخوفِ من الشوق.

وقال: أفضلُ الأعمال خلافُ رضا النفس.

وقال: لكلِّ شيءٍ علامةٌ، وعلامةُ الخذلان تركُ البكاء، ولكلِّ شيءٍ رينٌ، ورينُ القلب في كثرة الأكل.

وقال: من أكل إلى الشبع يظهرُ فيه ستةُ أشياء: الأول: لا يدرك حلاوة العبادة. الثاني: يختلُّ حفظُهُ. الثالث: يصير محرومًا عن الشفقة على خلق الله تعالى، لأنّه رُبّما يحسَبُ[٢] جميعَ الخلق شبعان. الرابع: تثقل عليه العبادة. الخامس: تغلبُ الشهوات عليه. السادس: أنَّ أهلَ الإيمان يتوجّهون إلى المساجد، وهو إلى المزابل.

وقال: الجوعُ من خزانةٍ مُدّخرةٍ عند الله، لا يُعطيه إلاّ من أحبَّه الله.

وقال: إذا شبعَ الإنسان جاعتْ أعضاؤهُ إلى الشهوات. يعني: إذا شبعَ البطنُ توجّهتِ النفسُ إلى الشهوات.

وقال: الجوعُ مفتاح الآخرة، والشّبعُ مفتاح الدنيا.

وقال: إذا عرضَ لك حاجةٌ من أمور الآخرة أو الدنيا فلا تأكلْ شيئًا حتى تَقضي حاجتُكَ؛ لأنَّ الأكلَ يغيِّرُ العقل، وطلبُ الحاجة من العقل المُتغيِّرِ مُتغيِّرٌ، فعليكَ بالجوع؛ فإنه يذلّلُ النفسَ، ويرقّقُ القلب، ويُورّثُ العلم السماوي.

---

(١) في (أ): أدخلت قلبك في الشوق فألقه.

(٢) في (ب): لأنه ربما يحسُّ.

وقال: إن تركتُ لقمةً من الحلال أحبُّ إليَّ من أن أُحيي ليلةً في العبادة والصلاة؛ لأن الليل يدخلُ بغروب الشمس، وليلُ قلوبِ العُبَّادِ يدخلُ إذا امتلأتِ المعدةُ من الطعام.

لا يصبرُ من شهواتِ الدنيا إلاّ من في قلبه نورٌ يَشغله بأعمال الآخرة.

ما رجعَ من رجع عن الطريق؛ لأنّه لو كان واصلاً لما رجع.

وقال: ذهبَ الصدقُ مع ألسنةِ الصادقين، وبقي مع ألسنة الكاذبين.

وقال: لكلِّ شيءٍ نورٌ، ونورُ الصدق الخشوع.

وقال: اجعلِ الصدقَ مطيَّتَكَ، واعلم أنَّ الله تعالى غايةُ طلبك.

وقال: القناعةُ من الرضا تقوم مقامَ الورع من الزهد؛ فإنّ هذا الزهد، وذاك أول الرضا.

وقال: إنّ لله عبادًا يستحيون من المعاملة مع الله تعالى بالصبر؛ وإنما يعاملونه بالرضا؛ لأن الصبر يدل على الاختيار في الجملة دون الرضا؛ ولأنَّ الصبرَ يتعلّقُ بالصابر، والرضا بالحقِّ.

الرضا أن لا تطلبَ من الله تعالى الجنَّةَ، ولا تَعوذَ به من النار؛ بل تفوّضُ الأمر إليه.

وقال: لا أعلمُ للزهدِ نهايةً، ولا للورعِ ولا للرضا؛ ولكن أعلَمُ إليها طريقًا وصلنا من الرضا إلى مرتبةٍ لو وضع اللهُ تعالى جميعَ طبقات النار ودركاتها في عيني اليمنى لما يخطر بالبال أنه لِمَ لَمْ يضعْها في اليسرى.

وقال: لا يتواضعُ من لا يعرفُ نفسَه، ولا يزهدُ من لا يعرف حقيقة الدنيا.

قال: الزهدُ عبارةٌ عن أن تترك الدنيا وكلَّ ما يشغلك[1] عن الله تعالى.

وقال: علامة الزهد أنه إذا رأيتَ من لبسَ صوفًا قيمته ثلاثة دراهم فلا تكون لك رغبةٌ في صوفٍ قيمته عشرة.

---

(١) في (ب): أن تترك ما شغلك عن الله.

وقال: الحصنُ الحصين حفظُ اللِّسان.

و: مخُّ العبادة الجوع.

وقيل أيضًا: الدعاء مخُّ العبادة[١].

و: حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة.

و: التصوّفُ ألاّ يطَّلع على أفعالك غيرُ الله تعالى.

و: التوكل في الدّنيا حجابُ الآخرة.

والتفكّرُ في الآخرة يُورث الحكمةَ والحياةَ في القلوب.

وقال: العلمُ يزدادُ من الغيرةِ والخوفِ من الله، ومن التفكّرِ[٢].

ذكر عنده معصيةُ شخصٍ، فبكى وقال: تالله، إنّي وجدتُ في الطاعةِ من الآفات ما لا يحتاج معها إلى هذه المعاصي.

وقال: عَوِّدِ العينَ بالبكاء، والقلبَ بالتفكّر.

و: ينبغي ألاّ يبكي العبدُ إلاّ على ما ضيّعَ من أيامه، وهذا الحزنُ يَكفيه إلى يومِ الموت، فويلٌ لمن يضيّعُ المستقبلَ من الأيام كالماضي.

و: مَنْ عرفَ الله تعالى يَفرغ قلبُه لذكره[٣]، ويشتغلُ بخدمته، ويبكي على خطاياه.

وقال: في الجنة أراضٍ إذا اشتغل العبد بالذكر تغرسُ له الملائكةُ فيها أشجارًا، وإذا تركَ تركوا.

و: مَنْ أحسنَ بالنهار، وجد مكافأته بالليل.

و: من امتنع بالصدقِ عن شهوةٍ، فاللهُ أكرمُ من أن يعذّبَه، وهو بلطفه يُزيلُ الشهوةَ عن قلبه.

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ٨٠١.

(٢) في (ب): والخوف من التفكر.

(٣) في (ب): يفزع قلبه لذكره.

و: من اشتغلَ بالنكاح والسفر وكتابةِ الحديث فقد توجَّه إلى الدنيا، إلاّ المرأةَ الصالحة، فإنَّها ليستْ من الدنيا، بل من الآخرة؛ فإنَّها تعينك على تقوى الله تعالى وعلى عمل الآخرة. وأمّا ما منعك من الآخرة من المالِ والأهلِ والعيال فهو شُؤمٌ، وكلُّ عملٍ ما وجدتَ[1] ثوابَه في الدنيا، فاعلمْ أنَّك تجد جزاءه في الآخرة.

أقول: يُشير إلى العملِ بالإخلاص، فإنّ العامل بالإخلاص[2] لا حظَّ له في الدنيا من عمله أصلاً، بل إنّما عمل لله تعالى، وأمّا العامل بالرياء فله إمّا لذَّةُ النفس[3] برؤية الناس والاطلاع على عمله، وإرادة مدح الناس، أو استجلابُ منفعةٍ، أو دفعُ مضرّة إلى غير ذلك من الأغراضِ، فإنّه علَى هذا قد استوفى ثوابَ عمله في الدنيا، ولم يبق له عند الله مقدار، فلا يجازيه عليه، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. والله أعلم.

وقال: صعودُ نَفَسٍ باردٍ عن الفقير عند فقد أُمنيَّتِهِ، والعجزُ عنها أفضلُ عند الله تعالى من طاعة غنيٍّ ألفَ سنةٍ.

و: أفضلُ السخاوةِ أن تكونَ موافقةً للحاجة.

و: آخر أقدام الزاهدين أولُ أقدامِ المتوكّلين.

لو علم الغافلون ما فاتَ عنهم ويفوت لماتوا فجأة.

و: إذا انسدّتِ العينُ الظاهرةُ للعارف فلا يرى إلاّ الله تعالى.

و: أوّلُ شيءٍ تتقرّبُ به إلى اللهِ تعالى أن تعلمَ أنّه مُطّلعٌ على قلبك، وتعلمَ أنّك لا تطلبُ منه الدنيا والآخرة؛ بل لا تطلبُ منه إلاّ إيّاه.

و: لو كان للمعرفةِ[4] صورةٌ لما نظرَ إليها أحدٌ إلاّ ماتَ من غاية حسنِها

(١) في (أ): وكل عمل وجدت.
(٢) قوله: فإن العامل بالإخلاص ليست في (ب).
(٣) في (ب) إما حظ لذة النفس.
(٤) في (أ): و: للمعرفة صورة.

وجمالِها، ولاضمحلَّ في أشعةِ أنوارها كلُّ نورٍ، وتلاشى في جنبِ ضيائها كلُّ ضوء.

و: المعرفة أقربُ إلى السكوت دون الكلام.

و: قلبُ المؤمنِ منوّرٌ بذكرِ الله تعالى، وذكر الله تعالى غذاؤه، والأُنس راحتُهُ، وحسنُ المعاملةِ - أي مع الله تعالى، ومع النفس، ومع الخلق - تجارتُهُ، والمسجدُ حانوته، والليلُ سوقُهُ، والعبادةُ كسبه، والقرآنُ بضاعتُهُ، والدنيا مزرعته، والقيامةُ بيدره.

و: الذي لا شرَّ فيه أصلاً اثنان: الشكرُ في النعمة، والصبرُ على البلاء.

و: من لنفسِهِ عنده مقدارٌ وقيمةٌ لا يجد حلاوةً أصلاً.

و: لو اجتمعَ الناسُ وأجمعوا على تحقيري لما قدروا على مثل ما أحقرتها أنا.

و: لكلِّ شيءٍ صداقٌ، وصداقُ الجنةِ تركُ الدنيا.

و: كلُّ قلبٍ تمكَّنَ فيه حبُّ الدنيا انشرد عنه حبُّ الآخرة.

و: الحكيمُ إذا تركَ الدنيا تنوَّرَ قلبُه بنورِ الحكمة.

و: الدنيا أحقرُ عند الله تعالى من جناحِ بعوضةٍ، فما قيمتُها حتى يزهدَ أحدٌ فيها؟

و: من توسّلَ إلى الله تعالى بإتلافِ النفس - يعني في طاعاته وعباداته - فإنَّ الله تعالى يحفظُ عليه نفسَهُ، ويجعلُه من أهل الجنة.

يقول الله تعالى: عبدي إن استحييتَ منّي أسترُ عيوبَكَ عن الناس، وأمحو زلاّتكَ عن اللوح المحفوظ، لئلا يَطّلعَ عليها الملائكة، ولا أستقصي معك يوم القيامة في الحساب.

و: إن عاتبتَ على بعض إخوانك في جنايةٍ فلا تشدّدْ، أو اتركِ العتابَ رأسًا، إذ يمكن أن تفسدَ بالمعاتبة أكثرَ من تلك الجناية.

قال: المريد جربناه كان كذلك.

قال أحمد [بن أبي] الحواري: لبس الشيخُ يومًا ثوبًا أو قميصًا أبيض، فقال: ليت قلبي بين القلوب كقميصي بين القمصان.

قال الجنيد رحمه الله: كان احتياطُ أبي سليمان إلى غايةٍ أنه يقول: إن بلغني شيءٌ من كلامِ القومِ لا أقبلُه إلاّ بشاهدي عدلٍ من الكتاب والسنة.

نقل أنه كان يقول في بعض مناجاته: كيف يليقُ بخدمتِكَ من لا يليقُ بخدمة خدّامك؟! وكيف يرجو رحمتك من لا يستحيي أن لا ينجو من عذابك؟!

أقول: إنه لا يستحيي من ارتكاب المعاصي، فلا جرمَ لا يستحيي من استحقاقِ العذاب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دخلتُ على رسول الله ﷺ، وجدته يبكي، قلت: وما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام، وقال: قال الله تعالى: من شابَ شيبةً في الإسلام، فأنا أستحيي أن أعذّبَهُ»[1] والذي شاب شيبةً في الإسلام فكيف لا يَستحيي أن يعملَ عملاً يستحقّ به العذاب؟! والله أعلم.

نقل أنّه لمّا حانَ أجلُهُ، وقربت وفاتُهُ، قال له أصحابُهُ: أبشرْ، فإنّك رائحٌ إلى رحمة الله تعالى، وإنه هو رؤوفٌ رحيم. قال: لِمَ لا تقولون إنك ذاهب

(١) لم أجده بلفظه، وروى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٦/ ٢٩٧ (آخر ترجمة يحيى بن أكثم) قال سلم الخواص الشيخُ الصالح: رأيت يحيى بن أكثم القاضي في المنام، فقلت له: ما فعلَ الله بك؟ فقال: أوقفني بين يَديه، وقال لي: يا شَيخ السُّوء، لولا شَيْبتك لأحرقتُك بالنار. فأخذني ما يأخذ العَبْد بين يَدَي مولاه، فلما أفقتُ قال لي: يا شَيخ السُّوء، فذكَر الثالثة مثل الأولتين، فلمّا أفقتُ قلت: يا رب ما هكذا حُدِّثتُ عنك. فقال الله تعالى: وما حُدِّثتَ عني؟ وهو أعلم بذلك. قلت: حدثني عبد الرزاق بن هَمّام، قال: حدثنا مَعْمر بن راشد، عن ابن شِهاب الزُّهري، عن أنس بن مالك، عن نبيِّك ﷺ، عن جبريل، عنك يا عظيم، أنك قلت: ما شابَ لي عبدٌ في الإسلام شَيْبةً إلاّ استحييتُ منه أن أعذّبه بالنار. فقال الله: صَدَق عبد الرزاق، وصَدَق مَعْمر، وصَدَق الزُّهري، وصَدَق أنس، وصَدَق نبيي، وصدقَ جبريل، أنا قلت ذلك، انطلقوا به إلى الجنّة.

إلى الله الذي يحاسب على صغيرةٍ، ويعذِّبُ بكبيرة. وسلّم[١] روحَهُ إلى الله تعالى.

رآه بعضُ الصالحين في المنام، فقال له: ما فعلَ الله تعالى بك؟ قال: رحمني، ولكن قد أضرّني أن كنتُ مشارًا إليه في الدنيا.

اللهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

أقول: قال أحمد بن أبي[٢] الحواري: دخلتُ على أبي سُليمان الداراني يومًا، وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد، ولم لا أبكي، إذا جنَّ الليلُ، ونامتِ العيون، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، افترشَ أَهلُ المحبَّة أقدامَهم، وجرت دموعُهم على خدودهم، وتقاطرتْ على محاريبهم، أشرف الجليلُ سبحانه، فنادى: يا جبريل، بعيني من تلذَّذَ بكلامي، واستراح إلى ذكري، وإنّي مُطّلع عليهم في خلواتهم، أَسمعُ أنينهم، وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبًا يعذّبُ أحبّاءَهُ؟ أم كيف يجملُ في أن آخذ قومًا إذا جنَّهم اللّيلُ تملّقوا فيَّ؟ حلفتُ إذا وردوا عليَّ يومَ القيامة لأكشفنَّ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليَّ، وأنظرَ إليهم. والله أعلم.

ربنا أَرنا عيوبَ أنفسنا، وتُبْ علينا إنّك أنت التّواب الرحيم

* * *

---

(١) في (ب): رائح إلى حضرة الله الذي يحاسبه على صغيرة بوزن كبيرة، وسلّم.

(٢) في الأصلين: أحمد بن أبي بكر الحواري.

(٢٤) محمد بن السماك[١]

ذكر قدوة المشايخ محمد بن السماك رحمه الله:

كان رحمه الله إمامًا في وقته، مقبولاً بين الأنام.

وله كلماتٌ عالية، وبياناتٌ شافية، ووعظٌ موفقٌ، وكانت فتوحُ المعروفِ الكرخي من كلماته.

وهارون الرشيد رحمه الله كان يَحترمه ويُكرمه، ويبالغ في ذلك، ويتواضعُ له، فقال له الشيخ رحمه الله: يا أميرَ المؤمنين، التواضعُ مع الشرفِ أشرفُ من الشرف الكبير.

وقال: أشرفُ التواضع أن لا ترى لنفسِكَ فضيلةً على أحدٍ.

وقال: كان الناس قبلنا دواءً يُستشفى بهم، واليوم كلُّهم ذو علّةٍ لا دواءَ لها. الطريقُ أن تستأنسَ بالله[٢]، وتجعلَ الكتابَ رفيقَكَ.

ومن كلامه أنه قال: الطمع رسنٌ ـ أي حبلٌ ـ معقودٌ في عنقك، وقيدٌ على رجلك، ارفع الحبلَ من العنق، وارمِ القيد من الرجل لتستريح.

و: كان الوعظُ ثقيلاً على الوعّاظ، كما أنَّ العملَ ثقيلٌ على العاملين؛ لأن الواعظ كان قليلاً، كما أنَّ العاملَ قليلٌ اليوم.

---

(١) هو محمد بن صبيح بن السماك، أبو العباس، وترجمته في:
الجرح والتعديل ٧/ ٢٩٠، الثقات لابن حبان ٩/ ٣٢، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٣، تاريخ بغداد ٥/ ٣٦٨، الأنساب ٧/ ١٢٧، صفة الصفوة ٣/ ١٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٨٦، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩١ (٨٤)، العبر ١/ ٢٨٧، مرآة الجنان ١/ ٣٩٣، الوافي بالوفيات ٣/ ١٥٨، ميزان الاعتدال ٣/ ٥٨٤، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦١، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٤٣٣، و٤/ ١٤٢، شذرات الذهب ١/ ٣٠٣.

(٢) في (أ): الطمع أن تستأنس بالله.

قال أحمد بن [أبي] الحواري رحمه الله: عُرِضَ لابن السمّاكِ مرضٌ، فأخذنا قارورتَهُ، نذهب بها إلى الطبيبِ، والطبيبُ كان نصرانيًا، فالتقينا في الطريق برجلٍ حسنِ الهيئة، نظيفِ الثوب، طيّبِ الرائحة، جميلِ الوجه، قال لنا: إلى أين؟ قلنا: إلى الطبيب لنعرضَ عليه قارورةَ ابن السّماك. فقال: سبحان الله، تستعينون لوليِّ الله من عدوِّ الله تعالى، ارجعوا إلى ابن السّماك، وقولوا له: ضع يَدكَ على موضع العلّة، وقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فرجعنا، وذكرنا له القضيةَ، ففعل وبرىء في الحال بعون الله تعالى. وقال: كان الشخص هو الخضر عليه السلام.

نقل أنّه لما حضرته الوفاة قال: إلهي، إني وإن كنتُ عاصيًا لك إلاّ أنك تعلمُ أنّي كُنتُ محبًّا لأهل الطاعة، فبقدرتِكَ اغفرْ لي بسببِ هذه المحبة.

نقل أنه قيل له: لِمَ لا تتزوّجُ؟ قال: لأنَّ لي شيطانًا، وآخرَ مع المرأة، فإذا اجتمعَ شيطانان في بيتي، فكيف يكون حالي حينئذ؟

نقل أنه لما دُفن رُئي في المنام، وسئل عنه: ما فعل الله بك؟ قال: أكرمني وأعزّني[1]، لكن ليس لي عند الله مقدارٌ مثلَ من كان ذا أهل وعيالٍ، وأتعبَ نفسَه معهم لله تعالى ولرضائه رحمه الله.

* * *

(١) في (ب): أكرمني وخلع وأعزني.

(٢٥) محمد بن أسلم الطوسي(١)

ذكر الشيخ محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله تعالى:

كان قدّس الله روحَه وحيدًا في وقته، مُفيدًا لأهلِ الإيمان، مُتابعًا للسنة النبوية حتى قيل له: لسانُ الرسول، وله في متابعة السُّنة قدمٌ راسخٌ حتى أنه ما كان أحدٌ مثلَه، فإن جميع حركاته وسكناته كانت على وفق السُّنة والشريعة.

نقل أنه رحلَ إلى نيسابور، وكان مع الإمام علي بن موسى الرِّضا رضي الله عنهما في محفَّةٍ واحدةٍ، وإسحاقُ بن راهويه الحنظلي ـ وهو إمامٌ مشهور ـ آخذٌ بزمام البعير المحمولِ عليه محفَّتُهما، فلمّا وصلا إلى نيسابور، ونزل رآه أهلُ نيسابور، وعلى رأسه قلنسوةٌ من اللبد، وعليه قميصٌ من الكساء الغليظ، مُعلّقًا على رقبته خريطةً فيها كتبٌ، ولما رأوه على هذه الحالة بكوا، حتى بكى هو أيضًا، ثم سألهم عن بكائهم، قالوا: لأنّا نراكَ في هذه الثياب. قالَ(٢): لا تعجبوا؛ فإنّها لباسُ الرجال.

نقل أنه كان يشتغلُ بالوعظ، ولا يحضرُ في مجلسه إلاّ ناسٌ مَحصورون، ومع هذا قد اهتدى ببركته وبركة أنفاسِهِ خمسون ألف إنسان تقريبًا، وتابعوا وصلحتْ أحوالُهم، ورجعوا عن الشرِّ والفساد.

---

(١) الجرح والتعديل ٧/ ٢٠١، ثقات ابن حبان ٩/ ٩٧، حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨، صفة الصفوة ٤/ ١٢٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٤٢، طبقات ابن عبد الهادي ترجمة (٥١٩)، العبر ١/ ٣٤٧، تذكرة الحفاظ ٥٣٢ (ترجمة ٥٥٠)، دول الإسلام ١/ ١١٤، مرآة الجنان ٢/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٤، طبقات الحفاظ ٢٣٣، ترجمة (٥٢٩)، طبقات الشعراني ١/ ٦٣، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٦٩٩، شذرات الذهب ٢/ ١٠٠، الرسالة المستطرفة ٦٤.

(٢) في (ب): الثياب. قالوا.

نقل أنه حُبس سنتين ليعترفَ بخلق القرآن، فلم يعترفْ به، وقال: لا أقول به أبدًا.

نقل أنه ما دامَ في تلك الحبس يغتسلُ كلَّ جمعةٍ، ويأخذُ سجّادته، ويأتي إلى باب السجنِ، ويمنعُه السجّانُ عن الخروج، ثم يرجعُ، ويضع خدَّه على التراب، ويقول: إلهي، أتيت بما استطعتُ، وأنت أعلم.

نقل أنه أُطلقَ من الحبس، ودخلَ عبدُ الله بن طاهر[١]، وكان مَلِكًا بنيسابور[٢] واستقبلَهُ أهلُ المدينة، وكان الأعيان والأكابرُ والأشراف يأتون إليه كلَّ يومٍ إلى سبعةِ أيام، ويُسلّمون عليه، حتى سألَ: هلَ بقي في المدينة[٣] من لم يأتِ إلينا؟ قيل: نعم، شخصان: أحمدُ بنُ حرب، ومحمد بن أسلم الطوسي. وقال: وما منعهما؟ قيل: هما عالمان ربّانيان مُنقطعان عن الخلق، لا يتردّدان إلى أهل الدنيا. قال: فأنا أذهبُ إليهما. فذهبَ شخصٌ إلى أحمد بن حرب، وأخبرَهُ عن الحال، وهو لم يرض بذلك، إلاّ أنَّ عبد الله بن طاهر جاءَ إليه مُطرقًا رأسه، فرفع رأسَه، ونظر إليه، وقال: سمعت أنَّك رَجلٌ حسنُ الطلعة، جميلُ المَنظر، وأنتَ أَحسنُ ممّا سمعتُ، فعليكَ أن لا تُقبّحَ هذا الوجه، ولا تُشوّهه بمخالفةِ الله تعالى، والمعاصي. فخرجَ عبدُ الله، وذهب إلى محمد بن أسلم، لكن هو أغلقَ البابَ، ومنعَهُ عن الدخول، ولم يجدْ عبدُ الله سبيلاً إليه بأيِّ احتيال، وكان يومَ الجمعة، فصبرَ إلى أن خرجَ، وقصدَ الجامع، وعبدُ الله ينظرُ إليه، ويبكي إلى أن فني صبرُهُ، فنزل من الفرس، ويَمسُّ وجهَه على الأرض بين يديه، وقال: إلهي، إنّه يُبغضني لله، لأنّي عبدٌ سيّءٌ شقيٌّ، وأنا أحبُّه لله تعالى؛ لأنَّه عبدٌ مقبولٌ سعيد، وكلانا من عبادك[٤]،

---

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن زريق الخزاعي بالولاء، أبو العباس (١٨٢ـ ٢٣٠هـ) أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي.

(٢) في (أ): وكان ملك نيسابور.

(٣) في (ب): حتى سأل: أهل بقية من أهل المدينة.

(٤) في (أ): وكلُّنا من عبادك.

فاغفرْ لهذا القبيح الفعال ببركةِ هذا الحميد[١] الخصال.

ثم سافرَ محمدُ بنِ أسلم رحمه الله إلى الطوس، وسكنَ هناك، وله فيها مسجدٌ، كان إذا دخله أعمى يَصيرُ بصيرًا.

وهو كان من العرب، لكنْ نُسب إلى الطوس لكثرةِ مَقامِهِ فيها.

وكان يجري عند بابِ داره ساقيةٌ، وهو ما استقى منها، وقال: الماءُ الجاري فيها حقٌّ للناس، ولا يحلُّ لي الاستقاءُ منه، وكان يميل قلبُه إلى الماء الجاري مدّةً، وزاد ميله، فاستقى من البئرِ التي في بيته كوزَ ماءٍ، وصبَّه في الساقية، وأخذَ بدلَهُ كوزًا منها.

نقل عن شخصٍ من أكابر الطريقة أنه قال: كنتُ في الروم جالسًا بين جماعةٍ، إذا إبليسُ جاء في الهواء، وسقطَ على الأرض، قال: كيف يا لعين؟ وما أصابك؟ قال: تنَحنَحَ محمدُ بن أسلم في الطوس في المتوضَّأ، فأنا من الخوفِ والفزع وقعتُ هنا.

نقل أنه كان يستقرضُ ويصرفُ إلى الفقراء[٢]، فجاء إليه يومًا يهوديٌّ وتقاضاه دينَه الذي كان عليه، ولم يجد شيئًا يؤدّي دينه[٣]، ولكن قد برى قلمًا، ونحاتتُه كانت عند حصيرةٍ، فقال لليهودي: قم، وخذْ مقدارَ دينك من النحاتة تحت الحصير. فقام إلى الحصير، ورفعَ طرفَهُ، فإذا نحاتةُ القلم قد صارتْ ذهبًا، فتعجّبَ اليهوديُّ وقال: دِيْنٌ يُصيِّرُ نحاتةَ القلم ـ بنَفَسٍ عزيزٍ من أهله ـ ذهبًا لا يكونُ باطلاً. فآمنَ اليهودي، وآمنَ معه قبيلتان بموافقته

نقل أن الشيخ [أبا] عليَّ الفارمذي كان يعظُ الناس بنيسابور، وإمامُ الحرمين[٤] حاضرٌ، فسأله شخص: مَنِ الذين قالَ النبيُّ ﷺ فيهم: «العلماء

(١) في (ب): هذا الجيد الخصال.

(٢) في (أ): وينفق على الفقراء.

(٣) في (أ): يؤدي إليه.

(٤) في (أ): كُتب تحت كلمة (إمام الحرمين): أستاذ الغزالي. أقول: هو عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩ـ٤٧٨) أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي.

ورثة الأنبياء»[١]؟ فقال: ليس القائلُ ولا المسؤول عنه وإمام الحرمين أيضًا منهم، ولكن هذا الرجلُ منهم. وأشارَ إلى قبرِ محمد بن أسلم رحمه الله

نقل أنه مرضَ بنيسابور، فرآه شخصٌ من جيرانه في المنام وهو يقول: الحمدُ لله على أني خلصتُ من المرض. فأصبحَ الرجل، وجاءَ مُستعجلاً إلى الشيخ ليُخبره أن الشفاءَ قد قربَ، فلمّا وصلَ إلى بابه، وسأل عن حاله، فقائل قال: آجرك الله، تُوفّي الشيخُ رحمه الله في الليل.

فلمّا حُملت جنازته، وله خرقةٌ أُلقيت على الجنازة، وقطعةُ لبدٍ كان يجلسُ عليها فُرشت تحته على الجنازة، قالت عجوزتان واقفتان على سطحٍ: ذهب محمدُ بن أسلم بما كان له.

أسكنَهُ الله تعالى أعلى فراديس الجنان، ونظرَ إلينا بنظرِ اللُّطفِ والإحسانِ، والمغفرة والرحمة والرضوان، بحرمة حبيبه ونبيِّه محمدٍ عليه الصلاة والسلام.



* * *

(١) حديث رواه أحمد في المسند ٥/ ١٩٦، وأبو داود (٣٦٤١) في أول كتاب العلم، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة، باب فضل العلماء، والدارمي ١/ ٩٨ عن أبي الدرداء.

(٢٦) أحمد بن حرب[١]

ذكر الشيخ الأعظم أحمد بن حرب روّح الله روحه ويزداد فتوحه:

فضائله رحمه الله كثيرةٌ، وكان في الزهد والورع عديمَ النظير، وفي العبادة عديمَ المثل مُقدّمًا، والأصحابُ مُتّفقونَ على جلالة قدره، ونباهةِ شأنه.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله وصيةً إلى أصحابه: أن ادفنوني تحتَ أقدامِ أحمدَ بنِ حرب.

وفي التقوى كان إلى حدٍّ شوت أمُّه دجاجةً، وقدَّمَتْ إليه، وقالت: كلْ منها؛ فإنّي ربّيتُها وليس فيها شبهةٌ بوجه. فقال أحمد: إنّي رأيتُها على سطحِ جارٍ لنا، والتقطتْ حبّةً منه، وصاحبُ البيتِ من الأجناد. ولم يأكل.

وكان مشغولاً بالذكر، مُستغرقًا فيه إلى أن جاء إليه مُزيّنٌ، وأرادَ أن يُزيّنَ شواربَه، وهو لم يسكتْ عن الذكر، فقال له المُزيّنُ: اسكتْ، لأقصَّ شاربَكَ. قال: لا أتركُ شُغلي لأجل شغلك. ولم يكن يُزيّنُ شاربَه إلا يقطع شفته لذلك

نقل أن صديقًا له كتب إليه كتابًا، ومضى زمانٌ ولم يجد فُرصةً ليكتبَ الجواب، حتى يومًا بين الأذان والإقامة قال لشخصٍ: اكتبْ جوابَ كتابِ ذلك الصديق كذا وكذا، واذكرْ فيه أن لا يكتبَ إلينا كتابًا؛ إذ لا فراغَ لنا لأن نكتبَ الجواب، واشتغلْ بالحقِّ، فإنَّ الخلقَ لا يفتح منهم شي، والسلام.

نقل أنه رحمه الله كان يعلّمُ ابنَه التوكُّلَ وكان طفلاً، فقال: إذا أردتَ طعامًا أو شيئًا آخرَ، فاذهبْ إلى تحت تلك الرَّوْزَنة[٢]، وقل: اللهم، أُريد الشيءَ

---

(١) الجرح والتعديل ٢/ ٤٩، تاريخ بغداد ٥/ ١٩٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٢، ميزان الاعتدال ١/ ٨٩، لسان الميزان ١/ ١٤٩، شذرات الذهب ٢/ ٨٠.

(٢) الرَّوْزَنة: الكوة غير النافذة.

الفلاني، فأَعطني ودبّره. إن ما يشتهيه الطفل ويطلبُه يُرمى إليه من الروزنة في الساعة، ليصيرَ الطفلُ راسخًا في مقام التوكّل، والابنُ كان يعتمدُ على هذا، وأيُّ شيءٍ كان يطلب من الله تعالى، ويحصلُ مطلوبُه بتوفيقِ الله تعالى، حتى أنَّ أهل البيت كلَّهم غابوا، ولم يكن أحدٌ هناك حاضرًا، وغلب الجوعُ عليه، فذهبَ على عادته إلى حذاء الروزنة، وقال: إلهي، أطلبُ الخبزَ والشيءَ الفلاني. ففي الساعة رُمي من الروزنة جميعُ ما طلب، فحضر أهلُ البيت، ووجدوه مشغولاً بالأكل، قالوا له: من أين حصلَ لك هذا؟ قال: من مكان يعطيني كلّ يوم. فعلموا أن سُلِّمَ له مقامُ التوكل.

نقل أن شخصًا من الأكابر قال: مررتُ على مجلس الشيخ أحمد بن حرب رحمه الله، فسمعتُ من لسانِهِ حديثًا، ظهرَ في الساعة في قلبي نورُ الشمس، والآن مضى عليَّ أربعون سنة وأنا بعدُ في ذلك الذوقِ، وكلٌّ لحظةٍ في الازدياد

نقل أنه رأى يحيى بن يحيى يأكل عنبًا، أُتِي به إليه من كرمه، فقال له: لمَ لا تأكلُ من هذا العنب؟! قال: هذا من كرمي. قال أحمد: نعم، ولكن في تلك الضيعة التي كرمُكُ فيها ماء وقف يومًا من الأسبوع، وأهلُ القرية لا يُراعون ذلك، وكيف يحلُّ لك على هذا أكلُ العنب؟ فترك يحيى أكلَ العنب بكلامه، وتابَ، ولم يأكل من ذلك العنب إلى آخر عمره.

نقل أنه كان له صومعةٌ، إذا أراد الخلوة يمشي إليها، ويعبدُ الله فيها، ويُحيي الليلَ. كان فيها ليلةً، إذ جاء مطرٌ كثير، وتشوّشَ قلبُه من جانب بيته، هل دخل فيه ماءُ المطر أم لا؟ فسمع صوتًا: يا أحمد، ما يصلح منك وجهته إلى البيت[1]، قم أنت إليه، واذهب إلى البيت، وماذا تعمل هنا أراد به القلب. فتاب من ساعته، ورجع إلى الله تعالى.

نقل أنَّ ساداتِ نيسابور زاروه في بعض الأحيان، وكان له ابنٌ مُدمنٌ للخمر، مفسدٌ مشغول بالزمر والملاهي، فدخلَ البيتَ، وعبر، ولم يلتفتْ إلى

(١) في (أ): منك واجهنه أي القلب إلى البيت.

هؤلاء الجماعة، فتغيَّرتِ الجماعةُ من ذلك، وأنكروه، فقال أحمد: اعذروه، فأنا أكلتُ طعامًا جيء به إلينا من بيتٍ بعض الجيران، واتّفقَ في ذلك صحبةٌ مع الأهل، وهذا الولد صارَ من تلك النطفة، وبعد ذلك تفحّصنا، فكان ذلك الطعامُ من عُرسٍ، كان في بيتِ شخصٍ من غلمان[1] السلطان

نقل أنه كان له جارٌ مجوسيٌّ اسمه بهرام، وكان له شريكٌ سيَّرَهُ إلى التجارة مع مالٍ كثيرٍ، وقد نُهبَ في الطريق، فسمعَ أحمدُ، وقال لأصحابه: قوموا نمش إلى بهرام، ونسأل عن حاله ونسلّيهِ؛ فإن له علينا حقَّ الجوار، ووقع له حادثةٌ. فلمّا وصلوا إلى باب داره، استقبلهم المجوسيُّ، وقبّلَ يده، وأعزّه وأكرمه مع أصحابه، وأجلسهم، وخطر بباله أنَّ الشيخ ربّما يكون جائعًا، إذ كان الطعام غاليًا حينئذٍ، وأرادَ أن يأتي بطعامٍ إليهم، وعلمَ الشيخُ بالفِراسة، وقال: ما جئنا إليك إلاّ لنطيِّبَ خاطرك، إذ سمعنا ما نُهب من مالك مع الشريك. قال المجوسيُّ: نعم، ولكن يجبُ عليَّ شكرُ الله على ثلاث نعم، الأولى نهبوا منّي وأنا ما نَهبتُ من غيري. والثانية أنّه نُهبَ النصفُ وبقي عندي النصف. والثالثة أنّ المالَ وإنْ ذهبَ فالدِّينُ باقٍ. فهذا الكلام أعجبَ الشيخَ، وقال لأصحابه: انسخوه، إذ تفوحُ منه رائحةُ الإسلام. فالتفت إليه الشيخ، وقال: يا بهرام، لمَ تعبدُ هذه النار؟ قال: لئلا تحرقني، وأيضًا أعطيتُها حطبًا كثيرًا، فكيف تَغدرُ معي؟ وأيضًا لتُوصلني إلى الله تعالى. قال الشيخ: غلطتَ غلطًا عظيمًا؛ لأنَّ النارَ ضعيفةٌ جاهلة، ولا وفاءَ لها، وظنُّكَ فيها كاذبٌ وباطل، أما ضعفُها فلأنَّ طفلاً إن أراقَ عليها الماءَ أو يرمي عليها ترابًا تنطفىء وتنعدمُ، فالشيءُ الذي ضعفُهُ بهذه المثابة كيف يُوصلُكَ إلى الجبار القوي؟ وهو لا يقدرُ أن يمنعَ عن نفسه حفنةَ ترابٍ أو قطرةَ ماءٍ، فكيف يدفعُ عنك العذاب؟ وأما جهلُها فلأنها لا تفرّقُ بين المِسك والنجاسة، فتحرقهما على السواء إن أُلقيا فيها، وأمّا عدمُ وفائها وغدرها فظاهرٌ لأنّك تعبدها الآن، وقد عبدتَها سبعين سنة، وأنا ما عبدتُها قطُّ، تعالَ نُدخل فيها أيدينا، ثم ننظر أيُّنا تحرق؟ أو هل تراعي جانبك

(١) في (ب) شخص من علماء السلطان.

أم لا؟ فكلمات الشيخ أثَّرتْ في قلب المجوسي، وقال: أسأل منك أربع مسائل، فإن أجبتَ أؤمن. قال الشيخ: اذكر. فقال المجوسي: لم خلقَ اللهُ الخلق؟ ولِمَ رزقَهم؟ ولم يُميتهم؟ وإذا أماتهم لِمَ يُحييهم؟ قال الشيخ رحمه الله: خلقهم ليعبدوه، ورزقَهم ليعرفوه، ويُميتهم ليعترفوا بألوهيته ومُلكِهِ وقهرِه، ويُحييهم ليعرفوه بالقدرة والعلم. فلمَّا سمعَ بهرام قال: اعرضْ عليَّ الإسلام. فقال الشيخ: قل: أشهدُ أن لا إله إلاّ الله وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله. فلمّا تمَّ إيمانُهُ، شهقَ الشيخُ، وغُشي عليه، ولمّا أفاقَ قال: يا شيخُ، ما سببُ الشهقة؟ قال: حين رفعتُ المُسبِّحَةَ بكلمة التوحيد نُودي في سرِّي: يا أحمد، آمن بهرام بعد سبعين سنةً عبرَتْ عمرَهُ في عبادة النار، وحسنَتْ حالُه، وصارت عاقبتُهُ محمودةً، وأنت تعبدُ الله تعالى، وعبدتَه ثمانين سنة، وليس آخرُ أمرك معلومًا.

نقل أنه ما نام ليلةً من الليالي، فقالوا له: استرحْ لحظةً. فقال: كيف يستريحُ من تُزيَّنُ الجنةُ فوقه، وتُسعَّرُ النارُ تحته، وهو لا يعلم أنّه من أهلِ تلك أو هذه، فهو بينهما، كيف ينام؟!

من كلامه أنه قال: ليتني أعلمُ من هو عدوّي ويغتابني؛ لأبعثَ له الدَّراهم والدنانير؛ فإنّه يعملُ لي، فلا أقلَّ من أن يُصرفَ عليه من مالي.

وكان يقول رحمه الله: اعبدوا الله ما استطعتم، واجتهدوا في أن لا تغرَّكم الدنيا، ثم يبتليكم اللهُ بما ابتلي من قبلكم.

اللهم، ارضَ عنه وعنَّا بكرمك يا أكرم الأكرمين.

* * *

(٢٧) حاتم الأصم(١)

ذكر أبي عبد الرحمن حاتم الأصم عليه الرحمة والرضوان:

كان من أكابر المشايخ من خراسان، كاملاً في أحواله، تلميذًا لشقيق البلخي رحمه الله، وأستاذًا لأحمد بن خضرويه.

وله في الرياضة والأدب والورع والصدق احتياطٌ عظيم حتى يُمكنَ أن يُقال: بعد البلوغ لم يتنفَّسْ نفسًا بلا مراقبةٍ ولا محاسبة، ولم يَخْطُ قدمًا بغيرِ صدقٍ وإخلاص.

قال الجنيد رحمه الله: إنّه صدِّيقُ زمانه.

وله تصانيفُ معتبرةٌ(٢)، ونكات مشهورة.

قال لأصحابه: إن قال لكم بعضُ الناس: ماذا تتعلّمون؟ قالوا: نقول: العلم. قال: فإن قيل: حاتم لا يُعلِّمُ العلمَ؟ قالوا: نقول: الحكمة. قال: فإن قيل: ليس حاتمٌ حكيمًا؟ قالوا: نقول: له خصلتان الأولى أنه راضٍ بما في يده، والثانية أنّه آيسٌ عمّا في أيدي الخلق

قال يومًا لأصحابه: صرفتُ فيكم عمري، فهل صار أحدٌ منكم كما ينبغي؟ قيل: فلان غزا غزوات كثيرة. قال: هو رجل غازٍ، وأنا أُريد رجلاً مقبولاً

---

(١) الجرح والتعديل ٣/٢٦٠، طبقات الصوفية ٩١، حلية الأولياء ٨/٧٣، تاريخ بغداد ٨/٢٤١، الرسالة القشيرية ٦٠، الأنساب ١/٢٩٨، صفة الصفوة ٤/١٦١، مناقب الأبرار ٢٥٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/١٢٩، وفيات الأعيان ٢/٢٦، سير أعلام النبلاء ١١/٤٨٤، العبر ١/٤٢٤، الوافي بالوفيات ١١/٢٣٣، مرآة الجنان ٢/١١٨، طبقات الأولياء ١٧٨، النجوم الزاهرة ٢/٢٩٠، نفحات الأنس ٩٨، طبقات الشعراني ١/٨٠، الكواكب الدرية ١/٥٨٩، شذرات الذهب ٢/٩٣.

(٢) لم أجد في المصادر التي بين يدي أيًا من أسماء تصانيفه.

قائلاً[١]. قالوا: فلان، كم حجّة حجَّ! قال: غيرُه أُريد. قالوا: لا نعرفُ، فبيّنْ لنا أنتَ من القائل. قال: الذي يَخافُ من الله تعالى، ولا يرجو غيره

نقل أنه كان كريمًا، ذا عفوٍ وإغماضٍ إلى حدٍّ جاءت إليه امرأةٌ، وسألت منه مسألةً، فاتّفقَ أن خرجَ منها صوتٌ في تلك الحالة، فخجلتِ المرأةُ، وقال: ارفعي صوتَكِ. فأَرى من نفسه أنّه أَصمُ، فسُرَّتْ به المرأة، وقالت: إنه لا يسمع. ولذا سُمّي حاتمَ الأصمَّ[٢].

نقل أن المرأة ما دامتْ باقيةً، وهي عاشت خمس عشرة سنةً بعدها تقريبًا كان رحمه الله يُظهر أنَّه أَصمُّ؛ لئلا يصلَ إلى المرأة أنه يسمعُ، وحينئذٍ تخجلُ، وحين ماتتْ سمعَ على عادته.

نقل أنه كان يعظُ الناسَ ببلخ، فقال: إلهي، اغفرْ لمن هو في مجلسنا اليوم أعصى وأكثر ذنوبًا، وأجرأ على المعاصي. وكان في المجلسِ رجلٌ نبّاشٌ، قد نبشَ القبورَ الكثيرة، وأخذ الأكفانَ، فلمّا جنَّ عليه الليل على عادته مضى إلى المقابرِ، وشرعَ ينبُشُ قبرًا، فسمع صوتًا يقول: ألا تستحي أنّكَ صرتَ مَغفورًا له في مجلس حاتم الأصم، ثم تعودُ إلى صنيعك؟ فرجع الرجل إلى حاتم، وتاب على يده، وما رجعَ إلى ذلك الشُّغل ببركة دعاء حاتم الأصم.

نقل أن محمدًا الرازي رحمه الله قال: صحبت حاتم الأصم سنين، فما رأيتُهُ غضبَ قطُّ إلاّ أنه كان يمرُّ ببعض الأسواق، فالتقى برجلٍ أمسكَ بيد تلميذه ويخاصمه ويصيح ويقول: أخذ منّي متاعًا من زمان، بل من سنين، ولا يؤدّي ثمنه. فقال له الشيخُ: يا فتى، اعمل معه بالمواساة. قال الرجل: لا أعرفُ المواساة، وأطلب الدراهم. فألحَّ عليه الشيخ، فلم ينفع، ولم يقبلِ الرجلُ كلامه، حتى احتدَّ الشيخ وغضب، وأخذ الرداء من كتفه، وضربَ على الأرض، فإذا امتلأ أرضُ السوق من الدنانير، وقال الشيخ رحمه الله للرجل: ألا

---

(١) في (ب): مقبولاً قابلاً.
(٢) في (ب): سُمّي أصم.

خذْ حقَّك، ولا تأخذْ أكثر منه وإلاّ تيبسُ يدك. فشرعَ الرجل يلتقطُ الدنانير، حتى أخذَ تمامَ حقِّه، ثم طمعَ ومدَّ يدَه ليأخذ زيادةً على حقِّه، فيبستْ يدُه في الحال، فشهق، ووقع بين يديِ الشيخ، وتاب

نقل أن حاتمًا رحمه الله دُعي إلى دعوة، فقال: ليس لي عادةُ المشي[1] إلى الضيافات. فألحُّوا عليه وبالغوا، قال: قبلتُ أن أجيءَ معكم؛ لكن أشترطُ شروطًا ثلاثة: الأول أن أجلسَ في أيِّ مكانٍ يُعجبني، ثم أن آكلَ ما يُعجبني، وعلى قدر ما يُعجبني. فقبل الداعي، وذهب الشيخُ معه، وجلس في صفِّ النعال، قالوا: ليس هذا موضعُ جلوسك! قال: شرطتُ أن أجلسَ موضعًا أُريد. فلمّا وضعوا السفرة، أخرجَ قرصًا من الشعير من كُمِّه، وشرع يأكل، فقالوا: يا شيخ، اطعمْ شيئًا من طعامنا. قال: هكذا شرطُنا. ثم قال: حمِّ هذه الأُثْفِيَة[2] على النار، وضعها في المعبر. فقام الشيخ ووضع رجله حافيةً على الأُثْفِيَةِ، وقال: أكلتُ قرصًا من الشعير، وعبرَ، ثم[3] قال: أنتم تعترفون بالقيامةِ والنار والصراط؟ قالوا: نعم. قال اعتبروها الصراطَ بهذه الأُثفية، والأعمال الصادرة عنكم في الدنيا بما أكلتم في هذه الضيافة، فليضعْ كلٌّ منكم قدمَهُ على الأُثْفية المحميَّةِ، وليذكرْ ما أكلَ وعمل في الضيافة. قالوا: ولا طاقةَ لنا بهذا يا شيخ. قال: فكيف تكون أحوالُكم في القيامة؟ وأنتم تُسألون عمّا أكلتم وعملتم وشربتم ولبستم، كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فبكى أهل الضيافة حتى تنغّصتْ[4] عليهم الدعوةُ والنعمة.

نقل أنه جاء إليه رجلٌ وقال: يا شيخ، إنَّ لي مالاً كثيرًا، وأُريد أن أصرفَهُ عليك وعلى أصحابك. فقال الشيخ: إنِ اتَّفقَ موتُك قبل موتي، فأحتاجُ أن أقولَ حينئذٍ: يا رازق مَنْ في السموات ومن في الأرض، مات هذا الرجلُ الذي

---

(١) في (ب): فقال: ليس لي دعوة، فقال: ليس لي عادة المشي.

(٢) الأُثْفِيَة والأُثْفِيَّة: أحد أحجارٍ ثلاثة توضع عليها القدر.

(٣) في (ب): وعبرتم، ثم قال.

(٤) في حاشية (أ): وفي نسخة: تنفَّضتْ.

كان يُنفق علينا، ويحصلُ فيَّ خجلٌ عظيمٌ من الله تعالى، فمالُكَ لا يَنبغي أن نعتمد عليه

نقل أن رجلاً قال له: من أين تأكلُ؟ فقال حاتم[١]: من خزانة الله التي لا تنفد. قال الرجل: بل تأكلُ من مال المسلمين[٢]. قال الشيخ: هل أكلتُ من مالك؟ قال: لا. قال: تتكلّمُ بالحجّة. قال الشيخ: إن الله تعالى يطلبُ من العبد في القيامة الحجّة[٣]. قال الرجل: هذا كلام. [قال] الشيخ: إن الله تعالى أنزلَ من السماء كلامًا، وأمُّكَ حلّتْ على أبيك بالكلام، قال: رزقُك يَنزلُ من السماء[٤]؟ قال الشيخ رحمه الله: الأرزاقُ كلُّها تنزل من السماء، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] قال الرجل: هل ينزلُ عليكم رزقُكم من روزنة البيت؟ قال الشيخ: نعم. قال الرجل: استلقِ على قفاك، لينزلَ الرزقُ إلى فمك. قال الشيخ: أما كنتُ سنين مُستلقيًا على القفا في المهد، ورزقي كان ينزل في فمي؟! قال الرجل: هل رأيتَ من يحصدُ من غيرِ زرعٍ؟ قال: نعم، يحصدُ شعر رأسك من غير زرع. قال الرجل: طِرْ في الهواءِ ليزرقَكَ الله. قال: إذا صيّرني طائرًا، أطيرُ حينئذٍ في الهواء. قال: ادخلْ تحتَ الماء، واطلبِ الرزقَ من الله. قال الشيخ: إن الله تعالى يرزق السمكَ تحت الماء، فإن رزقني هنا يكون[٥] غريبًا!؟. فسكتَ الرجل، وندم وتاب، ثم قال للشيخ: أوصني. فقال الشيخ: اقطعِ الطمعَ عن الخلق، وأحسنْ إلى نفسِك وإلى الناس مخفيًّا ليُحْسنَ اللهُ تعالى إليك ظاهرًا جليًّا، كن خادمًا لله تعالى أينما تكون، ليجعلَكَ اللهُ تعالى مَخدومًا للناس.

---

(١) في (ب): فقال الحاتم.

(٢) في (ب): تأكل من مالي.

(٣) في (ب): تتكلم بالحجة. قال الرجل: هذا كلام.

(٤) في (أ): إن الله أنزل من السماء كلاً، وأمك جلت على أبيك بالكلام. قال: رزقك من السماء.

(٥) في (أ): فإن رزقي هناك يكون.

نقل أنه رحمه الله سأل عن أحمد بن حنبل رحمه الله، قال: هل تطلبُ الرزق؟ فسكت أحمد، وكان يتفكّر فيه، قال: لأنّي لو قلتُ أطلبُ، كان يقولُ: تطلبه قبل الوقت، أو بعده، أو فيه؟ فلو قلتُ: قبل الوقت له، أن يقولَ: لا تضيّعْ عمرَك، فإنَّ الرزقَ قبل الوقت لا يُمكنُ أن يحصل، وإن قلتُ: بعده، لقال: تطلب شيئًا قد مضى وقته، ولو قلتُ: في الوقت، لقال: تطلب شيئًا حاضرًا لديك، والكلُّ مُحالٌ، لأجلِ هذا سكتُّ.

وقال أحمدُ من الأبرِّ[1] لو سأل مني لقلت: ليسَ طلبُ الرزق واجبًا علينا، ولا مَسنونًا، فلا أطلبه، ولا أُتعبُ نفسي في تحصيله، لأنه يطلبني، يقول صاحب الشرعِ: فحاصلُ جوابُ حاتم: علينا[2] أن نعبدَ الله تعالى كما أوجبَ، وعليه أن يرزقَنا كما وعدنا.

قال حامد اللّفاف: سمعتُ حاتمَ الأصم رحمه الله أنه يقول: ما من صباحٍ إلاّ والشيطانُ يقولُ لي: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموتَ، وألبسُ الكفن، وأسكنُ القبرَ.

نقل أيضًا بإسناده أنه قيل له: ألا تشتهي؟ قال: أشتهي عافيةَ اليومِ إلى الليل. فقيل له: أليست الأيامُ كلُّها عافيةً؟. قال: إنَّ عافيةَ يومي أن لا أَعصي الله تعالى فيه.

نقل أنه عزمَ أن يسافر إلى الروم للغزو، فقال لامرأته: أسافرُ ولا أَعودُ إلى أربعةِ أشهر، فكم للنفقةِ أَتركُ عندك؟ قالت المرأة: مقدارَ ما تُقدّرُ لي من الحياة. قال حاتم: ليس هذا بتقديري ولا بيدي. فقالت: اذهبْ، فإنَّ الرزقَ أيضًا ليس إليك. فلمّا سافرَ حاتم، سألتْ من امرأته بعضُ نساء الجيران: إنَّ حاتمًا سافرَ، وكم ترك عندك للنفقة؟ قالت: هو أيضًا كان آكلاً للرزق، فذهب، ومُعطي الرزق حاضر.

---

(١) في (ب): سكتُّ، وقال أحد من الأكابر: لو سأل.

(٢) في (أ): فحاصل جواب حاتم أن يُقال: علينا أن نعبد.

نقل أنه قال: كنتُ في بعض الغزاوت، فأخذني تركيٌّ، وأضجعني للذبح، فلم يشتغلْ قلبي، بل كنتُ أَنظرُ ماذا يحكمُ اللهُ، فبينما هو يطلبُ السكينَ من خُفِّهِ، إذ أصابه سهمٌ من الغيب فقتله.

أقول: ونقل عنه أيضًا أنه قال: من دخلَ في مذهبنا هذا فليجعلْ في نفسه من الموت أربع خصال: موتًا أبيضَ، وهو الجوع. وموتًا أسودَ، وهو احتمالُ الأذى من الخلق. وموتًا أحمرَ، وهو العملُ بمخالفة الهوى. وموتًا أخضرَ، وهو طرح الرقاع بعضَها على بعضٍ. والله أعلم.

نقل أنّ أحدًا من الناس أرادَ سفرًا، فجاء إلى حاتم، والتمس منه نصيحةً، قال حاتم: إن طلبتَ ناصرًا، فحسبُكَ اللهَ. وإن طلبتَ مُصاحبًا، فحسبك الكرامُ الكاتبون. وإن طلبت العِبرةَ فحسبك الدنيا. وإن طلبتَ أَنيسًا، فحسبك القرآن. وإن طلبت شُغلاً، فحسبك العبادةُ. وإن طلبت وعظًا، فحسبك موتُ الأقران[١]. وإن لم يكفك ما ذكرتُ لك، فحسبُك جهنَّمُ.

نقل أنه سأل حامدًا اللفاف عن حاله، فقال: بالسلامة والعافية. فقال حاتم: السلامةُ إنما تكون بعد العبور على الصراط، والعافيةُ إذا نزلتَ الجنة.

نقل أنه قيل له: إنَّ فلانًا جمع مالاً كثيرًا. فقال: هل جمع به الحياة؟ قالوا: لا. قال: فالميتُ لا حاجةَ له إلى المال.

نقل أن شخصًا من أكابرِ الدنيا قال لحاتم: سلْ حاجتَكَ عنّي. قال حاتم: حاجتي عنك أن لا تراني ولا أَراك.

قال له شخص: كيف تُصلّي؟ قال في الجواب: إذا دخلَ وقتُ الصلاةِ أتوضّأُ ظاهرًا وباطنًا، فأغسل ظاهري بالماء وباطني بالتوبةِ[٢]، ثم أدخل المسجدَ، وأجعلُ المسجدَ الحرام ـ عظّمه الله ـ شاهدي، ومقامَ إبراهيم عليه السلام بين ناظري، وكأنَّ الجنةَ أرى عن يميني، والنارَ عن يساري، والصراطَ

(١) في (ب): فحسبك الموت وموت الأقران.

(٢) في (ب): وباطني بالتوجه.

تحت قدمي، وملكَ الموت على قفاي، وأفوّضُ أَمرِي وقلبي إلى الله تعالى، ثم أكبّرُ الله بالتعظيم، وأقومُ بين يديه بالحرمة، وأقرأُ بالهيبة، وأسجدُ بالتضرُّعِ، وأركعُ بالتواضع، وأجلس بالحلم، وأُسلّم بالشُّكر

نقل أنه مرَّ بجماعةٍ، وقال: إن كان فيكم ثلاثةُ أشياء فطُوبى لكم، وإلاّ فالنار. قالوا: وما هذه؟ قال: الحسرةُ على الأمسِ، فإنّه مضى، ولم تقدروا على زيادةِ طاعةٍ فيه، والتوبةُ من المعاصي الآن، والاشتغال بالتوبة؛ لأنه إن فات ربّما لا تُمهلون بعده، والغنيمةُ والانتهاز الفرصة اليوم للطاعة، والسعي في طلبِ مرضاتِ الله تعالى، والثالث الخوفُ من الغد؛ فإنّك لا تعلمُ ماذا يصلُ إليك غدًا من النجاة والهلاك.

ومن كلماته أنه قال: ثلاثةٌ موضوعةٌ في ثلاثٍ: فراغُ العبادة في صدق التوبة، والإخلاصُ[١] في اليأس، والنجاةُ من العذاب في طاعة الله تعالى.

قال: احذروا عن ثلاث خصالٍ قبلَ أن تُؤاخذوا بها: الكِبر، والحرصُ، والتبختر في المشي. أما المتكبّرُ فلا يخرج من الدنيا إلا جائعًا عطشان ثم المؤاخذة. وأما المُتبختر فلا يخرجُ من الدنيا إلاّ مُتمرّغًا بالتراب. ولو وزنَ كبرُ الزهاد والعلماء والقرّاء في عصرنا لرجحَ على كِبر الملوكُ والأمراء.

عليك أن لا تغترَّ بالبيت المزوّقِ، والبستانِ المزيّن، إذ لا بيتَ أَزينُ من الجنة، وأصابَ آدمُ في الجنة ما أصاب. ولا بالعلم الكثير؛ فإنَّ إبليسَ مع كثرة علمه أصابَهُ ما أصاب. ولا بكثرةِ الكرامات والعبادات؛ فإن بلعام[٢] بكثرةِ كراماته وما علّمه اللهُ تعالى من اسمه الأعظم أصابَهُ ما أصاب. ولا بالصحبة مع الزُّهاد والعلماء، فإنَّ المصطفى عليه الصلاة والسلام كان أعلمَ العلماء وأزهدَهم وأتقاهم، وصحبتُهُ لم تنفعْ ثعلبة[٣].

---

(١) في (أ): فراغ العبادة في الصدق والتوبة والإخلاص.

(٢) هو بلعام بن باعور تقدم التعريف به صفحة ١٥، وانظر صفحة ٦٢٣.

(٣) روى الطبراني في المعجم الكبير(٨/ ٢١٨)، (٧٨٧٣) قال: حدثنا أبو يزيد القراطيسي، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن=

من عرض على نفسه كلَّ يومٍ شيئًا من حكايات الصالحين، يحفظُ دينه.

= القاسم، عن أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أدعُ الله أن يَرزقني. قال: «ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تُؤدِّي شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقه» ثم رجع إليه، فقال: يا رسول الله، أدع الله أن يرزقني مالاً. قال: «ويحك يا ثعلبة، أما تريد أن تكونَ مثلَ رسول الله ﷺ؟ واللهِ لو سألت أن يسيل لي الجبال ذهبًا وفضة لسالت». ثم رجع إليه، فقال: يا رسول الله، أدع الله أن يرزقني مالاً، والله لئن آتاني اللهُ مالاً لأوتينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» فاتَّخذَ غنمًا، فنمتْ كما ينمو الدود، حتى ضاقت عنها أزقَّة المدينة، فتنحى بها، وكان يشهدُ الصلاةَ مع رسول الله ﷺ، ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذَّرتْ عليه مراعي المدينة، فتنحى بها، فكان يشهدُ الجمعةَ مع رسول الله ﷺ، ثم يخرج إليها، ثم نمتْ، فتنحى بها، فترك الجمعة والجماعات، فيتلقَّى الرُّكبان ويقول: ماذا عندكم من الخبر؟ وما كان من أمر الناس؟ فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] قال: فاستعمل رسول الله ﷺ على الصدقات رجلين رجلٌ من الأنصار، ورجلٌ من بني سليم، وكتب لهما سنة الصدقة وأسنانها، وأمرهما أن يصدقا الناس، وأن يمرًا بثعلبةَ، فيأخذا منه صدقةَ ماله، ففعلا حتى ذهبا إلى ثعلبة، فأقرأاه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: صَدِّقا الناس، فإذا فرغتما فمرًّا بي. ففعلا، فقال: والله ما هذه إلا أُخيَّةُ الجزية. فانطلقا حتى لحقا رسول الله، وأنزل الله عزَّ وجل على رسوله ﷺ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧] قال: فركبَ رجلٌ من الأنصار قريبٌ لثعلبة راحلةً حتى أتى ثعلبة، فقال: ويحك يا ثعلبة، هلكتَ، أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيك من القرآن كذا. فأقبل ثعلبةُ، ووضع الترابَ على رأسه وهو يبكي ويقول: يا رسول الله يا رسول الله. فلم يقبلْ منه رسول الله ﷺ صدقته، حتى قبض اللهُ رسول الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا بكر، قد عرفتَ موقعي من قومي ومكاني من رسول الله ﷺ، فاقبلْ مني. فأبى أن يقبله، ثم أتى عمر رضي الله عنه، فأبى أن يقبلَ منه، ثم أتى عثمان رضي الله عنه فأبى أن يقبلَ منه، ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قال ابن حجر في الإصابة ١/ ٤٠١: ولا أظنُّ الخبر يصحُّ.

وقال ابن حزم في المحلّى ١١/ ٢٠٨: وهذا باطل بلا شك. وفي رواته معاذ بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن، وعلي بن يزيد الألهاني وكلهم ضعفاء.

وقال البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٨: وفي إسناد هذا الحديث نظر.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣١: وفيه علي بن زيد الألهاني، وهو متروك.

قال: القلبُ على خمسة أنواع: قلبٌ ميت، وقلبٌ غافلٌ، وقلب في غلافٍ، وقلبٌ مريض، وقلب صحيح. أمّا الميتُ فقلبُ الكفار، والغافلُ قلبُ أهلِ البدعة، والصحيحُ قلبُ أهل النهاية، والمريضُ قلبُ العصاة، والذي في الغلافِ قلبُ اليهودِ، قال الله تعالى حكايةً عنهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

تعهّدْ نفسَك في ثلاثة أحوال: إذا اشتغلتَ بعملٍ فاعلم أنَّ الله تعالى حاضرٌ، وعليك ناظرٌ، وإذا تكلّمتَ فاعلم أنَّ اللهَ تعالى يسمعُ كلامَكَ، وإذا سكتَّ فاعلم أنّ الله تعالى يعلمُ سُكوتَكَ وما في ضميرك.

قال: الشهوةُ على ثلاثةِ أنواع: شهوةٌ في الأكل، وشهوةٌ في الكلام، وشهوةٌ في النظر، فاعتمدْ(١) على الله تعالى في الأكل، واعلمْ أنه تعالى يَراك في حالِ الفطر، ولازمِ الصدقَ في الكلام.

قال: احفظْ نفسَكَ في أربعةِ مواضع: عند العمل احفظْها عن الرياء، وفي الأخذ عن الطمع، وفي الإعطاء عن المنَّة، وفي الإمساك عن البخل.

وقال: المنافقُ من إذا جمعَ شيئًا من الدنيا جمعَ بالحرص، وإن منعَ منع بالرضا، وإن أنفق أنفقَ بالمعصية. والمؤمن إذا جمع من الدنيا جمع من غيرِ رغبةٍ، وإن منع كان عليه شديدًا، وإذا أنفقَ أنفق في طاعة الله تعالى لوجهه

وقال: الجهاد ثلاثةٌ: جهادٌ في السرِّ مع الشيطان إلى أن ينهزمَ، وجهادٌ في العلانيةِ مع الفرائضِ إلى أن يؤدّيها، وجهادٌ مع أعداء الله تعالى وأعداء الدين إلى أن يَقتل أو يُقتل.

وقال: ينبغي أن تحتمل كلَّ أحدٍ إلاَّ عن النفس.

أوّلُ الزهد هو الاعتمادُ على الله تعالى، وأوسطُهُ الصبر، وآخره الإخلاصُ.

و: لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ العبادة الخوف، وعلامةُ الخوف قِصَرُ الأمل.

و: إن أردتَ أن تكونَ وليّا لله تعالى، فكن راضيًا بجميع ما يفعلُهُ.

---

(١) في (ب): النظر. فاعبد على الله.

و: إن أردت أن يمدحَكَ أهلُ السموات، فعليك بالصدق في الوعد.

العجلةُ من الشيطان إلاّ في خمسة[1]: في الطعامِ إذا حضر، وخدمةِ الضيف إذا نزل، وتجهيزِ الميتِ عند تحقُّق الموت، ونكاحِ الأرامل إذا بلغن[2]، وأداءِ الدَّين إذا حلَّ، والتوبةِ عن المعاصي.

أقول: عدا الطعام، وخدمة الضيف، والله أعلم.

نقل أنه إذا أُهدي إليه شيءٌ لم يكن يقبل، فقيل له في ذلك، قال: لأنَّ في القبولِ أرى ذلَّ نفسي، وفي الردِّ عزَّها، فأختار العزَّ على الذلِّ.

نسألُكَ يا الله أن تصبَّ علينا سِجالَ رحمتك، وتنفعَنا بما علّمتنا، وتعلّمنا ما ينفعُنا، وترزقنا متابعةَ أوليائك يا كريم يا رحيم.

* * *



(١) في (ب): في الخمسة.

(٢) كذا في الأصلين، والذي في طبقات الصوفية للسلمي ٩٣: وتزويج البِكْر أذا أدركتْ.

(٢٨) سهل التُّستري(١)

ذكر أبي محمد سهل بن عبد الله التُّستري رحمه الله:

كان من مُحتشمي أهل التصوف، ومن كبار الطائفة، وأحد أئمة القوم، ولم يكن له في وقته نظيرٌ في المعاملات والورع، وكان صاحبَ كراماتٍ، وكان سلطانَ الطريقة، وبرهانَ الحقيقة، وله في الجوع والسهر شأنٌ عظيم، وله همّةٌ عالية، وقدرٌ جليل، صاحبُ علمٍ وعمل، حتى قال علماءُ الشريعة: هو قد جمع بين الشريعة والحقيقة.

وكان شيخُه ذا النون، لقيه بمكّة سنة خروجه إلى الحجّ.

ولم يتّفقِ لأحدٍ من المشايخ ما اتّفقَ له في أوان الطفولية؛ بل كان له قبل أوان الطفولية حالات عجيبة.

كما نقل أنّه قال: إنّي أذكرُ خطابَ الله تعالى في الأزل لمّا قال للأرواح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأنا قلت: بلى، وأذكرُ إذ كنتُ في بطن أمي(٢).

وقال: كنتُ ابنَ ثلاث سنين، وكنتُ أقومُ بالليل، وأنظرُ إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقومُ بالليل، فربّما كان يقول: يا سهل، اذهبْ فنمْ، فقد شغلتَ قلبي، وكنتُ أنظر إلى صلاته سرًّا وجهرًا، فصرت إلى حيثُ أقول لخالي: أرى في نفسي حالةً عجيبة، فكأنّي أراني في السجودِ. فقال: إلى متى؟

---

(١) طبقات الصوفية ٢٠٦، حلية الأولياء ١٠/ ١٨٩، الرسالة القشيرية ٥٧، الأنساب ٣/ ٥٥، المنتظم ٥/ ١٦٣، صفة الصفوة ٤/ ٦٤، مناقب الأبرار ٢٠٦، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٥١، اللباب ١/ ١٧٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠، العبر ٢/ ٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٠٠، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٦، طبقات الأولياء ٢٣٢، نفحات الأنس ١٠٢، طبقات الشعراني ١/ ٧٧، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٦٣٣، شذرات الذهب ٢/ ١٨٢.

(٢) انظر صفحة ٥٨٥.

فقلت: إلى الأبد. فكان يقول لي: لا تُظهرْ سرَّك لأحدٍ. ثم قال لي خالي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: بقلبك، عند تقلّبك في ثيابك بالليل ثلاث مرات من غيرِ أَنْ تحرِّكَ به لسانَكَ: الله معي، الله ناظرٌ إليَّ، اللهُ شاهدي. فقلت ذلك ليالٍ، ثم أعلمته، فقال: قل في كلِّ ليلةٍ سبع مرّات. فقلتُ ذلك، ثم أعلمته، فقال: قل في كلِّ ليلةٍ إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوةٌ، فلمّا كانَ بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظْ ما علّمتك، ودمْ عليه إلى أن تدخلَ القبرَ؛ فإنّه ينفعُكَ في الدنيا والآخرة. فلم أزلْ على ذلك سنين، فوجدتُ لها حلاوةً في سري، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهلُ، من كان الله معه، وهو ناظرٌ إليه، وشاهده، كيف يعصيه؟ إيّاك والمعصيةَ.

فكنتُ أخلو، فبعثوني إلى الكتّاب، فقلتُ: إنّي أخشى أن يتفرَّقَ عليَّ همّي، ولكن شارطوا المعلّمَ أنّي أذهبُ إليه ساعةً، فأتعلّم، ثم أرجع. فمضيتُ إلى الكتّاب، وحفظتُ القرآن وأنا ابن ستٍّ أو سبع سنين، وكنتُ أصومُ الدهرَ، وقُوتي خبزُ الشعير، فوقعتْ لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاث عشرة سنة، فسألتُ أن يَبعثوني إلى البصرة، فجئت البصرة، وسألتُ علماءَها، فلم يكشف[١] عنّي أحدٌ، فخرجتُ إلى عَبّادان إلى رجل يُعرف بأبي حبيب بن حمزة بن عبد الله العبّاداني[٢]، فسألته عنها، فأجابني، فأقمتُ عنده مدةً أنتفعُ بكلامه، وأتأدَّبُ بآدابه، ثم رجعتُ إلى تُستر، وجعلتُ قوتي اقتصارًا[٣] على أن يُشترى لي بدرهم من الشعير، فيطحن ويخبز لي، فأفطر عند السحر كلَّ ليلةٍ على أوقيّةٍ، وهي أربعون درهمًا بالوزن بحتًا ـ أي خالصًا مُخلّصًا ـ بغيرِ ملحٍ ولا إدام، وكان يكفيني ذلك الدرهمُ إلى سنةٍ، ثم عزمتُ على أن أطوي ـ يعني أجوع ـ وأصومَ ثلاثة أيام، ثم أُفطر ليلةً، ثم خمسًا، ثم سبعًا، ثم خمسًا وعشرين ليلة، وكنت

---

(١) في (ب): فلم يشف.
(٢) في الترجمة العربية صفحة ٥٠٨: حبيب بن حمزة.
(٣) في (أ): قوتي اختصارًا.

عليه عشرين سنة، وقال: أوصلت إلى سبعين يومًا، وربّما كنتُ أَقنعُ في أربعين يومًا وليلةً بلوزةٍ واحدة، وقال: جرّبتُ نفسي مدّةً، كان ضعفي من الجوع، وقُوَّتي من الشبع، ثم مضى عليَّ زمانٌ رأيتُ ضعفي في الشبع، وقُوَّتي في الجوع.

نقل أنه كان قد كتب على أوراقٍ جميعَ ما كان له من النقد والجنس والعقار والضياع والصامت والناطق، ثم جمعَ الناس، ونثرَ عليهم أوراقًا، فمن أخذَ ورقةً، أعطاهُ ما كان مكتوبًا فيها خاصّةً، وكان يُقبّلُ على رؤوسهم، وفرح بأنهم قبلوا منه ما كان له من الدنيا[١].

وتوجّه إلى الحجاز، وقال لنفسه: يا نفسي، الآن إنّي مفلس من أسباب الدنيا، فلا تطلبي منّي شيئًا، إذ لا تجدينه، فشارطتِ النفسُ معه أن لا تطلبَ منه شيئًا، فلمّا وصل إلى الكوفة، قالتِ النفسُ: إلى اليوم ما طلبتُ منك شيئًا، فناولني هنا شيئًا من الخبز والسمك آكلهُ، ولا أُتعبُكَ قطُّ إلى مكة. فدخل الكوفة ورأى جرّاشًا يجرشُ بالبغل، سأله وقال: بكم تكتري هذا البغل كلَّ يوم؟ قال: بدرهمين. قال الشيخ: خلِّ البغل، واشددني في مكانه بدرهم. ففعل، وأعطاه درهمًا إلى المساء، فأخذ الشيخُ بعد انقضاء العمل الدرهم، ودخل السوقَ، واشترى الخبز والسمك، ووضع بين يديه، وقال: يا نفس، إذا طلبتِ منّي شيئًا تشتهين، فأستعملك بأعمال البهائم من الصباح إلى المساء. ثم دخل البادية، وقطعها إلى أن وصلَ إلى مكّة حرسها الله تعالى، وأدرك هناك كثيرًا من المشايخ، وصحب ذا النون رحمه الله، ثم عاد إلى تُستر

قيل: ما أسند ظهرَهُ إلى جدارٍ، ولا جمعَ رجليه تحته كما يفعلُه أصحابُ الدنيا وأرباب الترفة، وما صعِدَ منبرًا، وما سألوا منه من المسائل لم يجبْ، وقد شدّ أصبع رجله أربعين[٢] شهرًا، فسألوا منه، فما أجاب، حتى ألحّوا عليه

(١) في (أ): ما كان له من الدنانير.

(٢) فوق كلمة (أربعين) كتب في(أ): أربعة أشهر.

كثيرًا إلى أن ذهب فقيرٌ إلى مصر، وجدَ ذا النون شدَّ على أصبعِ رجله، فسأله عنه، قال: لها وجع. قال: من كم زمان؟ قال ذو النون: منذ أربعين شهرًا[١]. فضبط الفقير الحساب، وعلمَ أنّه من الزمان الذي اتَّجعت[٢] أصبعُ سهل، وذكره لذي النون، فقال ذو النون: هل بقي من يطّلع على وجعنا ويُوافقنا

قيل: ثم بعده أسند سهل إلى جدارٍ، وجمع رجليه، وقال: سلوني ما بدا لكم. فسألوا عنه: إنك خالفت عادتك، ورجعت عنها، فإنّك قبل هذا ما اتّكأتَ إلى حائطٍ ونحوه، ولا جمعتَ رجليك في القعود؛ بل كنتَ تقعدُ على الرُّكبتين، ولا كنت تُجيب عن المسائل التي يسأل الناس. قال سهل: ما دام الشيخ باقيًا لم يكن للتلميذ أن يشتغلَ بأمثال هذه. فكتبوا هذا الحال، فإذا قد توفّي ذو النون في ذلك الحال واليوم.

نقل أن عمرو بن الليث[٣] مرضَ، حتى عجزت الأطباءُ عن معالجته، فقالوا: نطلبُ شخصًا مُستجاب الدعوة، ليدعو له، فعسى اللهُ أن يشفيَهُ. وكانوا يتفحّصون من كلِّ ناحيةٍ، فسمعوا أن سهلاً مُستجاب الدعاء، فطلبوه، فامتثل أمر الله تعالى حيث قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وجاء إليه، وحين التقى به قال: الدعاءُ إنّما يُستجابُ فيمن يتوبُ إلى الله تعالى، ويرجعُ عن المعاصي والذنوب، وأنت قد حبستَ جماعةً من المَظلومين بغير حقٍّ. فأطلقَهم عمرو، وتابَ عن المعاصي، فرفع سهلٌ يديه وقال: إلهي، كما أَريته ذلَّ معصيته، فأره عزَّ طاعته، وكما أَلبستَ باطنَهُ لباسَ التوبة، فألبسْ ظاهرَهُ لباسَ العافية. فما أتمَّ الدعاء إلا أنه جلسَ عمرو وبرأ، وصحَّ جسمُه بتوفيقِ الله تعالى، فأكرمه عمرو، وعرضَ عليه مالاً كثيرًا، فلم يقبل، وقال له مريدٌ: لو قبلتَ شيئًا، أدّينا به الدَّينَ الذي علينا. فقال للمريد: إن كان لك شوقٌ

---

(١) فوق كلمة (أربعين) كتب في (أ): أربعة أشهر.

(٢) في (أ): اتجع أصبع.

(٣) هو عمرو بن الليث الصفار ثاني أمراء الدولة الصفارية، وهو أحد الدهاة الشجعان. حكم خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان. مات سنة ٢٨٩ للهجرة.

إلى المال، فانظر. فنظر المريدُ، فرأى الصحراءَ والجبلَ قد صار ذهبًا ولؤلؤًا، ثم قال سهل: من كان الله معه كما ترى، كيف يقبلُ من مخلوق شيئًا؟!

نقل أنه كان إذا سمع صوتًا طيّبًا يحصلُ له وجدٌ، وربّما كان يبقى إلى خمسةٍ وعشرين يومًا لا يأكل طعامًا، ولو كان في أيام الشتاء يصبُّ عرقًا حتى يكاد يغرقُ فيه، ولو سئل عنه في تلك الحالة، كان يقول: ليس لكم عنّي وعن كلامي في هذا الحال انتفاعٌ.

نقل أنه كان يمشي على الماء ولا تبتلُّ قدماه.

نقل أنه قيل له: صحّ أنك تمشي على الماء؟ قال: اسألوا[١] عن المؤذن؟ فإنّه رجلٌ صادق القول. فسألوه، فقال: لا أعلم هذا، ولكن رأيتُهُ وقعَ في البركة، فلو لم أكنْ حاضرًا لأدركَهُ الغرقُ، ومات في البركة.

قال الشيخ أبو علي الدقّاق رحمه الله: كان سهلٌ صاحبَ الكرامات، ولكن يخفي على الناس.

كما نقل عنه أنه كان في المسجد، فجرى على لسانِهِ أنَّ شاهَ الكرماني ماتَ، فلما حاسبوا بعد ذلك وجدوا أنه مات في ذلك اليوم.

وأيضًا نقل أنَّ شخصًا دخل عليه يومًا، وهو في بيته، فرأى حيّةً عظيمةً في البيت، فقال الشخص: فزعتُ فزعًا شديدًا. فقال سهل: تعالَ ولا تفزعْ، فإنَّ المرء لا يصلُ إلى حقيقةٍ إلاَّ إذا لم يفزع عمّا سوى الله تعالى. ثم قال: ماذا تقول في المسجد يوم الجمعة؟ قلت: بيني وبين المسجد مسيرةُ يومٍ وليلة. فأمسك سهلٌ بيدي، فلمّا فتحتُ العينَ ألفيتُ نفسي داخل المسجد[٢]، فصلّينا الصلاة، وخرجنا ناظرين إلى الناس، فقال سهلٌ: أهلُ لا إله إلا الله كثير، والمخلصون قليل.

---

(١) في (أ): كان يمشي على الماء قال: اسألوا عن المؤذن. وما بينهما من (ب).

(٢) في (ب): ألفيت نفسي في المسجد داخله.

نقل أنّه كانتِ السّباع تجيءُ إليه، وتجلسُ بين يديه، وهو يُعاتبُها ويُداعبُها، واليومَ يُسمّى ذلك البيت في تُستر بيت السباع.

نقل أنه عُرضَ له من كثرةِ الرياضة والمجاهدة احتراقُ البول، ومع ذلك ما كان يقدرُ أن يقومَ من موضعه، لكنْ إذا دخلَ وقتُ الصلاة، يقومُ ويتوضّأ، ويصلّي، ولم تكنْ له مشقّةٌ في ذلك، ووصل إلى ذلك الحال ولم يفتْ عنه مثقالُ ذرّةٍ من الشريعة.

نقل أنه قال لمريدٍ: لا تغفلْ عن ذكر لا إله إلا الله في النهار، وداومْ عليه. ففعلَ ذلك أيامًا، ثم قال: افعلْ بالليل أيضًا كذلك. ففعل المريدُ إلى أن بلغ إلى أنه في النومِ واليقظة يقولُ (الله)، ثم أمره أن يتركَ الذِّكرَ جهرًا، ويشتغل بالفكرِ والمراقبةِ حتى صارتْ أوقاتُهُ مستغرقةً في الفكر والمراقبة، حتى نقل أنه كان جالسًا في بيته، فوقع قطعةُ الجذع من السقف على رأسه وانكسر رأسُه، وجرى الدم، وتقاطر على الأرض وتنقّش الدّمُ على الأرض[1]: لا إله إلا الله.

نقل أنّه أمرَ مُريدًا بشغلٍ[2]، فقال المُريد: لا أقدرُ على هذا الشغل، من لسان الناس. فالتفتَ سهلٌ رحمه الله إلى الحاضرين من أصحابه، وقال: لا يبلغُ إلى حقيقةِ هذا الشغل إلاّ من يحصلُ فيه أحدُ الأمرين: إمّا يَسقطُ الخلقُ من عينه حتى لا يلتفتَ إليهم، ولا يغتمَّ بذمِّهم، بل لا ينظرُ إلاّ إلى الخالق، وإما تَسقطُ نفسُه عن عينه حتى يأتي صفةً يراه الخلقُ، لا يُبالي بهم.

نقل أنه أخبر عند جماعةٍ أنَّ في البصرة خبّازًا هو من أولياء الله تعالى، فقصده أحدُ المُريدين، فلمّا وصلَ إليه، وجده أدارَ خرقةً حول لحيته احتراسًا من النار كما يفعله الخبّازون، فخطرَ في خاطر المريد: أنه لو كان وليًا لما احترزَ من النار، ثم سلّم عليه، وسأل عنه مسألةً، فقال الخباز: إنك نظرتَ أولاً إليّ نظر التحقير، ثم لا ينفعُكَ كلامي، ولا تنتفعُ منّي.

---

(١) في (أ): على الأرض، ولا يغفل من كلمة لا إله إلا الله.

(٢) في (ب): بشغلة.

نقل أنه قال: كنتُ نوبةً في بادية الحجاز أمشي مجرّدًا، فالتقيت بامرأةٍ عجوزةٍ شدّتْ على رأسها بخرقةٍ، وبيدها عصًا، ظننتُ أنّها تخلّفتْ عن القافلة، فأدخلتُ يدي في جيبي، وأخرجتُ شيئًا وأعطيتُها، فعضّتْ على أَنْمُلَتِها متعجّبةً، ومدّتْ يدَها، وأخذتْ من الهواء كتلةً من الذهب، وقالت: إنْ أخذتَ أنتَ من الجيب، فأنا آخذُ من الغيب. قالت هذا، وغابت عن نظري، صرت متحيّرًا عن شأنها، حتى انتهيت إلى عرفات وإلى الكعبة رأيتُ الكعبةَ تطوفُ بالمرأة، فقالت: يا سهل، من خطى خطوةً ليرى جمالَ الكعبة، لا جرمَ هو يطوف بها، ومن خطى خطوةً عن نفسِهِ فالكعبة تطوف به.

أقول: المرادُ الانخلاعُ عن الصفة البشرية، والخروج عن الكدورات النفسانية، والغنى عن الأوصاف الناسوتية، والاتّصاف بما يكون من الأخلاق اللاهوتية، كما ورد أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، تخلّق بأخلاقي، ومن أخلاقي أنّي أنا الصبور. وما أحسنَ ما أُنشد في هذا المعنى:

وقــومٍ تَــاه فــي أَرضٍ بقفـرٍ ... وقــومٍ تــاه فــي ميــدانِ حُبّــهْ
فــأفنــوا ثــم أفنــوا ثــم أفنــوا ... وأبقــوا بــالحيــاة بقــرب ربّــه

[والله أعلم].

قال سهل رحمه الله: اتّفقَ لي نوبةً مع رجلٍ من الأبدال صحبةٌ، وهو كان يسألُ منّي في الحقيقة إلى صلاةِ الصبح، ثم بعدها كان يَتركني وينزلُ تحت الماء، ويجلس هناك إلى وقت الظهر، فإذا سمعَ صوتَ المؤذّن كان يطلعُ من تحت الماء، لم تبتلَّ منه شعرةٌ، ويُصلّي صلاة الظهر، ثم ينزل في الماء، ويعتكفُ هناك، وما كان يخرجُ من الماء إلاّ للصلاة، فصاحبنا مدّةً من الأيام على هذه الحالة، ما كان يأكلُ ولا يُجالسُ أحدًا إلى أن فارقنا.

وقال سهل: رأيتُ ليلةً في المنام كأنَّ القيامةَ قد قامت، وجملةُ الخلائق وقوفٌ في المَحشر، ويطير طائرٌ أبيضُ، ويُمسكُ من كلِّ جانبٍ شخصًا، ويُدخلُه الجنة، فقلت: ما هذا الطائر الذي منَّ اللهُ به على عباده؟ فرأيت كاغدًا

جاء إليَّ من الجوِّ، فأخذته، ونظرته، فإذا فيه هذا الطائر شيء يسمى[١] الورع.

وقال: رأيتُ ليلةً أُخرى كأنّي في الجنة، واجتمعتُ مع ثلاث مئة شخص في مجمع[٢]، فسلّمتُ عليهم، وردّوا عليَّ الجواب، ثم قلتُ لهم: أيُّ شيءٍ كان أخوفَ عليكم في الدنيا؟ قالوا: خوف الخاتمة.

وقال: لمّا أرادَ اللهُ تعالى أن ينفخَ الروحَ في آدم عليه السلام، نفخه فيه باسم محمد ﷺ، وسمّاه آدم عليه السلام، وكنّاه بأبي محمد عليهما السلام.

وقال: ليس في الجنةِ ورقةٌ إلا واسم محمد ﷺ مكتوب عليها، وليس فيها شجرةٌ إلاّ وغُرست باسم محمد ﷺ، فابتداء جميع الأشياء كان باسمه ﷺ، وختم الأنبياء عليهم السلام به ﷺ.

وقال: رأيتُ إبليسَ عليه ما يستحقُّه، قلت: يا ملعون، أيُّ شيءٍ أشدُّ عليك من أعمال بني آدم؟ قال: إشاراتُ القوم إلى الله تعالى.

وقال: رأيتُ إبليسَ عليه ما يستحقُّه قاعدًا بين قومٍ، فقيّدته هناك بالهمّة إلى أن تفرّقَ القومِ، ثم قلت له: لا أطلقُكَ إلاّ بعد أن تحدّثَ في التوحيد. فشرع إبليسُ وقررَ في التوحيد فصلاً لو كان العارفون هناك لعضُّوا على أناملِهم تعجّبًا.

وقال: رأيتُ شخصًا جائعًا إلى غاية ما يمكن، وحضرَ عنده طعامٌ من الشُّبهة، فتركَ، ولم يلتفتْ إليه، واشتغلَ بالطاعة، وأتمَّ وِردَهُ ووظيفته، وكان ثلاث سنين مشغولاً بالطاعة، ولكن تلك الليلة شدَّ على بطنه، واشتغلَ بها برجولية تامّةٍ، تاركًا للطعام الذي فيه شُبهةٌ، فعُرِضَ عليه أعمالُ جميع الخلائق، فلم يرضَ بها، إذ طاعته كانت أكثرَ وأزيدَ.

قال: لا تصحُّ الخلوةُ إلاّ بأكلِ الحلال.

من أكلَ في اليومِ والليل نوبةً، فهو على أكل الصدّيقين.

---

(١) في (أ): فأخذته، ونظرت فيه، هذا يُسمّى الورع.

(٢) في (أ): شخص في مجلس.

وقال: لا تصحُّ عبادةُ أحَدٍ، ولا يخلصُ عملُه إلاّ بالجوع.

وينبغي أن يختارَ العابدُ ثلاثةَ أشياء لتصحَّ عبادته، ويلتذَّ منها: الأول الجوع، الثاني الفقر، الثالث الذل.

من اختارَ الجوعَ طردَ عن نفسه الشيطانَ، وأبعدَهُ بتوفيق الله تعالى.

قال: إذا أكلتم إلى الشبع، فاطلبوا الجوعَ؛ فإنكم ابتليتم بالشِّبع، وأن بقيتُمْ فيه ربّما تجاوزون الحدَّ وتطغون.

قال: رأس الآفاتِ الأكلُ الكثير.

من أكلَ الحرام تقعُ أعضاؤه السبعةُ في المعاصي، أرادَ أم لا، ومَنْ أكلَ الحلالَ تشتغلُ أعضاؤه بالطاعة بتوفيق الله تعالى.

و: الحلال الصافي أن لا يصيرَ سببًا لنسيانك الله[١].

نقل أن بعضَ المريدين جاعَ جوعًا عظيمًا، ومضى عليه أيامٌ، فقال: يا شيخ، ما القوت؟ قال: ذكرُ الله الحيِّ الذي لا يموت.

ومن كلامه أنه قال: الناسُ على ثلاثة أقسام: قسمٌ منهم يُخاصمون مع أنفهسم لله تعالى، وقسمٌ يُخاصمون مع الخلق لله تعالى، وطائفةٌ يُخاصمون مع الله لأنفسهم، يقولون: لم لا يجري قضاؤك على وفق رضائنا؟!.

أقول: والطائفة الأخيرةُ هم الذين قال النبيُّ ﷺ: «ربَّ أشعثَ أغبر لو أقسمَ على الله لأبرّه[٢]» لله درُّ من قال:

لله تحت قبابِ العزِّ طائفةٌ … أخفاهُمُ في رداءِ الفقراء إجلالا
هم السَّلاطينُ في أطمار مسكنةٍ … استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
غبرٌ ملابسُهم شمٌّ معاطسُهم … جرّوا على قُلَلِ الخضراءِ أذيالا

والله أعلم.

---

(١) في (أ) جاء بعد قوله: (لنسيانك الله): والله أعلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٢٢) في البر والصلة، باب فضل الضعفاء، و(٢٨٥٤)، والطبراني في الأوسط (٨٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٣١.

قال: لا تصحُّ تقوى أحدٍ إلاّ إذا أعرضَ عن المعاصي كلِّها.

وقال: مضى من الدنيا كثيرٌ من العلماء والزهاد والعباد، وما انفتحَ بابُ قلوبهم بالكليّة، ولم ينفتحْ إلاّ للصدّيقين.

و: لا يكملُ إيمانُ أحدٍ إلاّ عند صحّة ورعه.

و: الورعُ لا يتمُّ إلاّ بالإخلاص.

و: الإخلاصُ بالمشاهدة، والإخلاصُ هو البراءةُ عن غير الله.

و: خيرُ الخلائق هم المُخلصون، وخيرُ المخلصين هم الذين يستمرُّ إخلاصُهم إلى الموت.

لا يقفُ على الرياء غيرُ أهلِ الإخلاص، ومن الإخلاص حصلَ لهم هذا المقام.

قال: من لا يعبدُ اللهَ بالاختيار يعبدُ عبادَه بالاضطرار.

حرامٌ على قلبٍ يطمئنُّ بغير الله تعالى، فكأنه لم يشمَّ رائحة اليقين[١].

حرامٌ على قلبٍ أن يكون فيه شيءٌ لا يرضى الله تعالى به.

و: كلُّ وجدٍ لا يكون الكتابُ والسنةُ شاهدَيْنِ له فهو باطلٌ.

و: أفضلُ الأعمال أن يطهُرَ العبدُ من خبثه.

و: من انتقلَ من نَفَسٍ إلى نَفَسٍ من غيرِ ذكر الله فضائعٌ.

و: لو لم يكن بلاءٌ، لم يكن إلى الله طريق.

و: من يكون أربعين يومًا زاهدًا بالإخلاص يصيرُ صاحبَ الكرامة، وإلاّ فالخللُ منه، لا من الزهد.

قيل له: ما الكرامة؟ قال: أن يأخذَ ما يريدُ، ممّن يُريد، على وجه يريد.

و: من وكَلَهُ اللهُ تعالى إلى تدبير نفسه، فقد ألقاهُ في جهنّم.

---

(١) الخبر ليس في (ب).

قال: العلماء على ثلاثة أوجهٍ وطوائفَ: طائفةٌ هم علماءُ الظاهر، ويذكرون علمهم لأهلِ الظاهر، وطائفةٌ هم علماءُ الباطن، ويذكرون علمهم لأهل الباطن، وطائفة علماءُ بما بينهم وبين الحقِّ، ولا يمكن أن يذكر ذلك العلم.

و: لا معصيةَ أعظمُ من الجهل.

و: لا تنظروا إلى العلماءِ بنظرِ الحقارة؛ فإنّهم خلفاءُ الأنبياء عليهم السلام.

قال: لا يحصلُ الوصول إلى الله تعالى إلاّ بستَّةِ أشياء: التمسُّكِ بكتاب الله تعالى، والاقتداءِ بسُنّةِ الرسول ﷺ، وأكلِ الحلال، وتركِ إيذاء الناس، وإن لحقَكَ منهم إيذاءٌ، والبعدِ عن المناهي، والتعجيلِ في أداء الحقوق.

قال: أصولُ مذهبنا ثلاثة: الاقتداءُ بالنبيِّ ﷺ في أفعالِهِ وأقواله وأخلاقه، وأكلُ الحلالِ، والإخلاصُ في جميع الأعمال.

وقال: أولُ شيءٍ يجب على المبتدئ التوبةُ، وهي عبارةٌ عن الندامة على ما مضى من الذنوب والأفعال، وقلع الشهوات عن القلب، والانتقال من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة.

وقال: لا تحصل التوبةُ لأحدٍ إلاّ إذا لازم الصمت والسكوت والخلوة، وهما لا يصحّانِ إلاّ بعد أكلِ الحلالِ، والحلالُ لا يحصلُ إلاّ بعد أداء حقِّ الله تعالى، وحقُّ الله تعالى لا يُؤدّى إلاّ بحفظ الجوارح، والكلُّ لا يتيسَّرُ إلاّ بعد الاستعانة بالله تعالى على الجميع.

قال: أولُ مقامِ العبودية تركُ الاختيار، والبراءة عن حول نفسه وقوّتها.

وقال: أهلك الإنسانَ شيئان: طلبُ العزِّ، والخوفُ من الفقر.

و: إذا خشعَ القلبُ لا يحومُ الشيطان حوله.

وقال: خمسةٌ من جوهر النفس: فقير يُرى غنيًا[١]، وجائعٌ يُظهر الشّبع، [وحزينٌ يُظهر السُّرور]، ورجل له عداوةٌ مع إنسانٍ فيظهر الصداقةَ إلى أن تزولَ

(١) في (ب): فقير يرى نفسه.

العداوة بالكلّيّة، ورجلٌ يصومُ في النهار ويُصلّي بالليل، ولا يُظهر ضعفَهُ[١].

و: لا حجابَ أغلظُ بين العبد وربّه من الدعوى.

و: [لا] طريقَ أقربُ إلى الله من الافتقار إليه.

وقال: من كان مدّعيًا لا يكون خائفًا، ومن لا يكونُ خائفًا لا يكون أمينًا، ومن لا يكون أمينًا[٢] لا يكون له اطّلاعٌ على خزائن السلطان.

و: لا يجدُ رائحةَ الصدق من داهنَ غيرَه.

وقال: مثلُ السُّنة في الدنيا كالجنة في العقبى، من دخلَها أمنَ من الخوفِ، فكذلك من دخلَ حُصنَ السنة أمنَ من البدعة والهوى.

من طعنَ في الكسبِ فكأنّما طعنَ في السُّنة، ولا يصحُّ الكسبُ من أهل التوكّلِ إلاّ على طريق السنة.

وقال: أصل الآفاتِ كلِّها قلّةُ[٣] الصبر.

و: غايةُ شكرِ العارفين أن يعلموا عجزَهُم عن إحصاء الشكر؛ بل عن البلوغ إلى مبادىء حدوده.

وقال: لله تعالى في كلِّ يومٍ وليلة عليك إنعاماتٌ، وأكبرُها أن يُلهمَكَ ذكره.

و: لا معصيةَ أعظمُ من نسيان ذكر الله تعالى.

وقال: من أغمض عينه عمّا حرّم الله تعالى عليه لا يجدُ الشيطان إليه سبيلاً.

إنّ الله تعالى لم يخلقْ من العرشِ إلى ما تحت الثرى مكانًا أعزَّ من قلبِ المؤمن؛ لأنه لم يجد بعطاءٍ أعزَّ من الإيمان، فلا جرمَ وضعَ أعزَّ العطايا في أعزِّ الأمكنة، ولو كان في الدارَيْنِ مكانٌ أعزُّ من قلبِ المؤمن لوضعَ المعرفة فيه.

---

(١) ما بين معقوفين مستدرك من الترجمة العربية صفحة ٥١٨.

(٢) كذا أمينًا، ولعلها: آمنًا.

(٣) في (أ): كلّها من قلّة.

قال: العارفُ من لم يتغيّرْ طعمُهُ، وتكون رائحتُهُ كلَّ لحظة[١] أطيب.

لا ناصر، ولا معين إلاّ الله تعالى، ولا دليلَ إلاّ النبي ﷺ، ولا زادَ غير التقوى، ولا عملَ مثل الصبر على ما ذكرنا.

وقال: ما من يومٍ إلاّ وينادي فيه منادي الحقِّ جلَّ جلاله: عبدي، لا إنصافَ لك، أنا أذكُرُكَ وأنت تنساني، أنا أدعوك وأنت تَذهبُ[٢] إلى باب غيري، وأنا أصرفُ عنك البلاء وأنت معتكفٌ على المعاصي، يا بن آدم، ما عُذرك لديّ إذا حضرت عندي غدًا يوم القيامة؟.

وقال: لمّا خلق الله تعالى الخلقَ قال لهم: ناجوا معي، وإن لم يكن لكم مقامُ المناجاة فانظروا إليّ، وإلاّ فاطلبوا منّي حوائجكم.

وقال: لا يحيا القلبُ إلاّ بعد أن تموت النفسُ.

و: من صارَ مالكًا على نفسه صارَ مالكًا على غيره، كما قيل: إنَّ من صار سلطانًا على جسده فهو سلطانٌ على كلِّ جسدٍ، وإذا غلبتَ على نفسك لا يُقاومُكَ عدوُّك، ومَنْ ملكهُ نفسُه فقد ذلَّ.

وقال: أوّلُ جناية الصدّيقين الموافقةُ مع النفس.

لا عبادة أفضلُ من مُخالفة النفس والهوى.

وقال: من عرفَ اللهَ جلَّ جلاله غرقَ في بحرِ الحزن والفرح.

علامةُ المعرفة الحيرةُ والدهشة.

أول مقامِ المعرفة أن يحصلَ للعبدِ يقينٌ في سرِّه، ثم تطمئنُ جميعُ جوارحه إلى ذلك اليقين.

وقال: الصادقُ من وكلَّ اللهُ تعالى عليه مَلَكًا، إذا جاء وقتُ الصلاة هيّجه إليها، وإن كان نائمًا أيقظه.

---

(١) في (أ): كل يوم.

(٢) في (أ) وأنت تروحَ.

قال: الصوفي من صفي عن الكدر[١]، وامتلأ باطنه من الفكر، وانقطع عن غيرِ الله تعالى بالقلب والنظر، ويكون سواءً عنده الذهبُ والمدر.

وقال: التصوّفُ قلّةُ الأكل، والاطمئنانُ مع الحقِّ، والفرارُ عن الخلق.

و: أول مقام التوكّل أن يكونَ العبدُ بين يدي القدرةِ[٢] كالميت لدى الغسّال؛ فإنّه يُحرِّكُه كيف يشاء، ولا إرادةَ للميت أصلاً، ولا حركةَ في نفسه.

وقال: لا يصحُّ التوكُّل إلاّ بترك التدبير.

وقال: علامةُ المتوكِّلِ ثلاثةٌ: تركُ السؤال، وترك الردِّ إن حصلَ له شيءٌ بغيرِ سؤال، والصدق إذا قَبِلَ بغير سؤال[٣].

وقال: التوكّلُ أن لا تجعلَ الله تعالى مُتَّهمًا فيما قال: أُوصِلُهُ إليك.

أقول: يعني: اللهُ قد وعدَ وتكفّلَ بأرزاقِ جميعِ العباد، حيث قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فحينئذٍ لا يُتعبُ نفسَه في الطلب، فكأنه لم يصدّقِ الله تعالى في إنجازِ هذا الوعد؛ ولأجل هذا يجتهدُ في الطلب. والله أعلم.

قال: التوكّلُ أن يكونَ القلبُ مُطمئنًا على حدِّ تقديرَيِ الوجدان والفقدان ـ أي الغِنى والفقر.

وقال: التوكّلُ لقلبٍ يَعيشُ مع الله تعالى بلا علاقة ـ أي إلى غيره تعالى.

وقال: لكلِّ حالٍ من الأحوال وجهٌ وقفا إلاّ التوكُّلُ فإنه وجهٌ بلا قفا. معناه: أنَّ الزُّهدَ والتقوى هو الاجتنابُ عن الدنيا لله تعالى.

و: المجاهدةُ مخالفةُ النفس والهوى لله، والشكرُ على النعماء، والصبرُ على البلاء إلى غير ذلك.

---

(١) في (أ): عن الكدورة.

(٢) في (أ): العبد بين الخوف والقدرة.

(٣) قوله: والصدق إذا قبل بغير سؤال. ليست في (ب).

و: التوكُّلُ مخصوصٌ بالله تعالى من غيرِ واسطةٍ.

وقال: المحبة مُعانقةُ الطاعة، والمخالفةُ للنفس، والبعدُ عن مخالفة المحبوب.

وقال: الحياءُ أعلى درجات من الخوف؛ لأنَّ الحياءَ صفةُ الخواصِّ، والخوفُ صفة العلماء.

أقول: يؤيِّدُه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]..

وقال: المراقبة الخوفُ من زوال الآخرة، وعدمُ الخوف من زوال الدنيا.

وقال: الخوفُ ذَكَرٌ، والرَّجاءُ أُنثى[1]، ونتيجتُهما الإيمان، ولا يَسكنُ الخوفُ والرجاء في قلبِ المتكبِّرِ، والخوفُ هو البعدُ عن المناهي، والرجاءُ الإسراعُ إلى الأوامر، والرجاءُ لا يصحُّ إلاَّ للخائف، والخوف أعلى المقامات، فالعبدُ يكون خائفًا ممّا جرى في علم الله تعالى في الأزل من التقدير عليه.

نقل أن رجلاً ادّعى الخوفَ، فقال له سهلٌ رحمه الله: هل فيك خوفٌ غيرُ خوف القطيعة؟ قال الرجل: نعم. فقال سهل: فإذًا ما عرفت الله تعالى، ولم تخف عن قطيعته.

أقول: وقد أحسنَ المقالَ من قالَ في بيان هذا الحال شعر:

إنَّ خـوفَ الفـراقِ قطَّـع قلبـي ... قطَّـعَ اللهُ قلـبَ يـومِ الفـراقِ

والله أعلم.

وقال: المكاشفةُ ما أشار إليها عليٌّ[2] رضي الله عنه: لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددت يقينًا.

قال: الفتوّةُ مُتابعة السنة.

قال: الزهدُ في خمسة: في الملبوسِ، والمطعوم، والمشروب، فإنَّ مآلها

---

(١) في (أ): والحياء أنثى.

(٢) في(أ): ما أشار إليه الوصي.

إلى المزبلة، وفي الإخوان فإنَّ مآلهم إلى الفراق، وفي الدنيا فإنَّ آخرَها إلى الفناء.

قال: الدنيا هي النفسُ، فمن أحبَّها فقد أحبَّ ما أبغضَ الله.

قال: السفرُ من النفس إلى الله صعبٌ.

قال: النفس لا تخلو عن إحدى ثلاثة: الكفر، والنفاق، والرياء.

وقال: للنفسِ أسرارٌ كثيرةٌ منها ما ظهر على فرعون، وذلك لا ينكشفُ إلاّ فيمن هو مثل فرعون، وهو دعوى الربوبية.

وسُئل الشيخ رحمه الله عن الأُنس، قال: هو أن تستأنسَ الأعضاءُ بالعبد، والعبدُ بالله تعالى.

وسُئل عن ابتداء الأحوال ونهايتها، فقال: الورعُ أولُ الزهد، والزُّهدُ أولُ التوكل، وهو أول درجات العارفين، والعرفانُ أوّلُ القناعة، وهي ترك الشهوات، وهو أوّلُ الموافقة.

وسئل عن أصعب الأشياء على النفس، قال: الرّضا، إذ لا حظَّ للنفس فيه أصلاً.

وسئل عن وصف الصدقين[١]، قال: أنتم لا تُطيقون أسرار الصدّيقين لأخبرها عندكم.

قيل: بم يُعلمُ أنَّ العبدَ يُصلّي بالليل؟ قال: بأن لا تَظهَرَ عنه خيانةٌ بالنهار.

قيل له: شخصٌ يقولُ: أنا كبابٍ، لا أتحرَّكُ إلاّ بعد التحريك. قال: هذا إمّا كلامُ صدّيقٍ أو زنديق.

وسئل عن الخُلق الحسن، قال: أقلُّ مرتبتهِ[٢] الاحتمالُ عن الناس، وتركُ المكافآت.

---

(١) الأصل: عن وصف الصادقين.

(٢) في (أ): أول مرتبته الاحتمال.

سئل: متى يظهرُ أثرُ اللُّطفِ على العبد؟ قال: إذا صبرَ في المرضِ والجوع والبلاء إلى ما[١] شاء الله.

قيل: إذا لم يأكلْ أحدٌ كثيرًا، فأين تصيرُ نار الجوع؟ قال: يُطفئُها ماءُ النور الحاصل في القلبِ بسببه.

سئل عنه: ما التوبة؟ فقال: نسيانُ الذنوب. فقال السائل: بل أن لا ننسى الذنوب. فقال سهل رحمه الله: ليسَ كما فهمت، فإنَّ ذكرَ الجفاءِ في أيام الوفاء جفاء.

استنصح منه رجل، فقال: خيرُكَ في قلّةِ الأكل والنوم والكلام، ثم العزلة.

قيل له: الأسدُ يَجيءُ إليك زيارةً؟ قال: نعم، الكلبُ يجيءُ إلى الكلب.

قال له شخصٌ: أُريدُ أن أُصاحبك. قال: فإذا متُّ، فماذا تفعل؟ فصاحبْ أحدًا لا تفارقه أبدًا.

قيل له: مع من نُصاحب؟ قال: مع العارفين؛ فإن ما يصدرُ عنك يكونُ له تأويلٌ عندهم، وتكون معذورًا.

ومن مناجاته أنه قال: إلهي، ذَكَرْتَني وما كنتُ شيئًا، فإن ذكرتُكَ لا يكونُ مثلي شيء.

وقيل: كان واعظًا حقيقيًا، وبسببه اهتدى خلق كثير.

نقل أنه لمّا قربَتْ وفاتُهُ، قيل له: من يقومُ مقامَكَ، وينوبُ منابك، ويعظُ على منبرك؟ وله أربع مئة مُريدٍ كلُّهم حواليه، وكان هناك مُشركٌ اسمه شاددل، ففتح الشيخُ رحمه الله عينَهُ وقال: يقوم مقامي شاددل. فقال الحاضرون: لعلَّ عقلَ الشيخ رحمه الله اختلَّ، من يكون له أربعُ مئة مُريدٍ، كلٌّ منهم عالم مرتاضٌ كامل، فكيف ينصّبُ مُشركًا مكانه؟! فقال الشيخ: اتركوا الشغب[٢]، وادعوا

(١) في (ب): إلاّ ما شاء الله.

(٢) في (أ): كتب تحت كلمة (الشغب): العناد.

شاددل عندي. فلمّا حضرَ، التفتَ إليه الشيخُ رحمه الله وقال: إذا كان اليومُ الثالث من وفاتي فاصعدْ منبري، واجلسْ مكاني، وحدّثْ وعظِ الناس. وتعجَّبَ الناس عن هذه الإشارة، فلمّا تُوفّي الشيخُ إلى رحمة الله، ومضى ثلاثةُ أيام، اجتمعَ بعد صلاة الظهر خلقٌ كثير ينتظرون وصيةَ الشيخ في شاددل، فجاء شاددل، وصعِدَ المنبر، والخلقُ ينظرون إليه، ويقولون: ما هذا؟ رجلٌ مشركٌ، وعلى رأسه قَلَنْسُوةُ أهلِ الشرك، والزُّنارُ على وسطه! فتمكَّنَ على المنبر، ثم قال: سيّدُكم أرسلني إليكم، وقال لي: يا شاددل، أما جاءَ وقتُ أن ترفعَ قَلَنْسُوةِ أهلِ الشرك عن الرأس؟ ها رفعتُها عن رأسي، وقطعتُ الزنّارَ، ورفع مُسبَّحَتَهُ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا رسول الله، ثم قال: أمرني الشيخُ بالحديث، ولا يجوز مخالفة المشايخ، وهو كان شيخَكُم، فهاشاددل قطع الزنار الظاهر، فإذا أردتم أن تجتمعوا بنا يومَ القيامة أقسمكم بالفتوة أن تقطعوا زنانير الباطن، وتبتدئُوا بإسلامٍ نظيف. فظهر في الناس غوشٌ، وانكشفت أحوالٌ عجيبة.

نقل أنه لما حُملت جنازة الشيخ رحمه الله اجتمع ناس[1] كثير، وازدحموا هناك، وكان في مدينته يهوديٌّ ابنُ سبعين، فحين سمع اليهوديُّ صياحَ الناس بالبكاء خرجَ من البيت، ولمّا وقعَ بصرُهُ على الجنازة، صاحَ ورفعَ الصوت، وقال: لا تُبصرون ما أُبصر! أرى[2] الملائكة يَنزلون من السماء، ويماسُّونَ بأبدانهم وأجنحتهم جنازةَ الشيخ. وأسلمَ اليهوديُّ في الحال ببركته.

قال أبو طلحة بن مالك: إنّ سهلاً دخلَ الدنيا وهو صائم، وخرجَ منها وهو صائم، ووصلَ إلى الحقِّ بغيرِ إفطار.

نقل أنَّ سهلاً كان يومًا جالسًا مع أصحابه، مرَّ رجلٌ، فقال الشيخ: في هذا الرجل سرٌّ. فبعدَ وفاةِ الشيخِ رحمه الله زارَ مريدٌ قبرَ الشيخ، وكان قاعدًا عند

---

(١) في (ب): اجتمعت ناس كثيرة.

(٢) في (ب): ما أبصر، أنا أرى.

قبرِهِ، إذ جاء ذلك الرجلُ يمرُّ في بعض أشغاله، فقال المريد: يا فلان، إنَّ الشيخَ الذي في هذا القبر قال: إنَّ فيك سرًّا؛ بالذي أعطاك ذلك السرَّ أرني شيئًا منه. فأشار الرجلُ إلى قبر سهلٍ رحمه الله وقال: قلْ يا شيخ. فقال الشيخ في القبر بصوتٍ عالٍ: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. فقال: يا شيخ، سمعنا أنه لا يكون لأهلِ لا إله إلا الله ظلمةٌ في قبورهم، فصحيح ما سمعنا أم لا؟ فقال الشيخ من القبر: صحيح صحيح.

نسألُ الله عزّ وجل أن ينوّرَ صدورَنا وقبورنا، ويزيدَ بتحصيل مرضاته سرورَنا، ويجمع بيننا وبين أحبّتنا وأهلنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وإخواننا ومن أحبَّنا في دارِ كرامته مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، إنه رؤوف رحيم كريم.

* * *



(٢٩) معروف الكرخي(١)

ذكر أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي قدّس الله سرّه:

كان رحمه الله مُقتدى أهلِ الطريقة، ومقدَّمَ الطائفة، وسيدَ المحبّين في وقته، وخلاصةَ العارفين في عهده؛ بل لو لم يكن عارفًا لم يكن معروفًا.

وله رياضاتٌ كثيرة، وكان في الفتوَّةِ والتقوى آيةً، وله حزنٌ دائم، والشوقُ في مقامِ الأُنس غالبٌ عليه.

أقول: قيل: كان من المشايخ الكبار، مُستجابَ الدعوة، يُستشفى بقبره، وقال البغداديون: قبرُ معروف ترياقٌ مجرَّبٌ.

وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه.

مات سنة مئتين، وقيل: إحدى ومئتين.

وكان أستاذًا لسري السقطي رحمه الله. والله أعلم.

قال أبو علي الدقّاق: كان معروف أبواه نصرانيين، فسلَّما معروفًا إلى مؤدِّبهم وهو صبيٌّ، وكان المؤدِّبُ يقول له: قل ثالث ثلاثة. ويقول معروف: بل هو الواحد. فضربه المؤدِّبُ يومًا ضربًا شديدًا، فهرب معروفٌ، وكان أبواه

(١) ثقات ابن حبان ٩/٢٠٦، طبقات الصوفية ٨٣، حلية الأولياء ٨/٣٦٠، تاريخ بغداد ١٣/١٩٩، الرسالة القشيرية ٤١، طبقات الحنابلة ١/٣٨١، الأنساب ١٠/ ٣٨٩، صفة الصّفوة ٢/٣١٨، مناقب الأبرار ١٠٩، المختار من مناقب الأخيار ٥/٣٦، وفيات الأعيان ٥/ ٢٣١، سير أعلام النبلاء ٩/٣٣٩، دول الإسلام ١/١٢٦، العبر ١/٣٣٥، مرآة الجنان ١/ ٤٦٠، طبقات الأولياء ٢٨٠، نفحات الأنس ٥٦، طبقات الشعراني ١/ ٧٢، الكواكب الدرية ١/ ٧١٥، شذرات الذهب ١/ ٣٦٠. وفي مجلة المورد العراقية المجلد ٩/ العدد ٤ صفحة ٦٠٩ كتاب ابن الجوزي: مناقب معروف الكرخي.

يقولان[١]: ليته يرجع إلينا على أيِّ دينٍ شاء، فنوافقه. ثم إنه أَسلمَ على يدي علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما، ورجع إلى منزله، ودقَّ الباب، فقيل: من على الباب؟ قال: معروف. فقالوا: علي أيِّ دين؟ فقال: على الدين الحنفي. فأسلم أبواه.

ثم وصل إلى داود الطائي رحمه الله، وحظي في الصدق إلى أن صارَ مُشارًا إليه في وقته.

قال محمد بن منصور الطوسي: كنتُ عند معروف ببغداد، فرأيتُ يومًا على وجهه أثرَ جراحةٍ، قلت له: أمس كنتُ عندك، وما رأيتُ هذا الأثر على وجهك، فما هذا اليوم؟ قال: لا تسأل شيئًا لا حاجةَ لك به، واسألْ عن شيءٍ ينفعُكَ. قلتُ: بحقِّ المعبود، أخبرني عن هذا. قال: كنتُ في الصلاةِ أمس، ثم أردتُ أن أذهبَ إلى الكعبة وأطوف، ففعلت ذلك، ثم مضيتُ إلى زمزم لأشربَ منها الماء، فزلقتْ رجلي، ووقعتُ، وانجرح وجهي، وهذا علامته.

نقل أنه مضى يومًا إلى دجلة ليتوضأَ، وترك المُصلّى والمصحف في المسجد، فدخلت عجوزةٌ وأخذتهما وذهبت، فجاء معروفٌ وتبعها إلى أن وصل إليها، وأطرقَ رأسَه من الحياء لئلا ينظرَ إليها، وقال: هل لك ابنٌ يقرأُ القرآن؟ قالت: لا. فقال معروف: المُصلّى لك حلال، فاعطني المصحف. فتعجَّبتِ المرأةُ من غاية حلمِ معروف، وخجلتْ ووضعتْ كليهما بين يدي معروف، وهو يقول: المُصلّي لك حلال. والمرأة من غايةِ الخجل تركتْ ومضت بالعجل.

نقل أنه يومًا يمرُّ مع جماعةٍ بساحل دجلة، وجماعةٌ من الشبان كانوا في زورقٍ على دجلة يشربون الخمر، ويَضربون الرَّباب، ويُجاهرون بالفسق، فقال الأصحابُ لمعروف: يا شيخ، ادعُ الله عليهم؛ لعلَّه يُهلكُهم بالغرق، لئلا يصلَ شؤمُهم إلى الخلائق، وينقطع عن الناس فسقُهم. فقال: ارفعوا أيديكم. فلمّا

(١) في (ب): معروف، وقال أبواه: ليته.

رفعوا، قال: إلهي، كما طيَّبتَ عيشَهم في الدنيا، فطيِّبْ كذلك عيشهم في الآخرة. فتعجَّبَ الأصحاب عن هذا الأمر، وقالوا: يا شيخ نحن لا نبلغُ إلى سرِّ هذا الدعاء. قال: توقَّفوا ليتبيَّنَ لكم الأمر. فلمّا رأى جماعةُ الشبانِ الشيخَ، كسروا الرباب، وأراقوا الخمر، ووقعوا في البكاء، وجاؤوا إليه مُسرعين، وتابوا، فقال الشيخ: انظروا إلى هذا الشأن البديع، حصل مراد الجميع بلا غرق.

نقل عن الشيخ السريِّ السَّقطي رحمه الله، أنه قال: رأيتُ معروفًا يوم عيدٍ يدور، ويلتقطُ من الأرض نوى التمر، فقلت: ماذا تفعل؟ قال: رأيتُ هذا الطفل يبكي، فسألتُه عن بكائه، وقال: لا أبَ لي ولا أمَّ، وسائرُ الصبيان لهم ثيابٌ جديد، ومالي ثيابٌ، ولهم جوزٌ يلعبون به، ومالي جوز ألعب به، فإنّي ألتقطُ هذه النوى لأبيعها، وأشتري بثمنها له جوزًا ليلعب به. فقال السري: قلت: أنا أكفي لك هذا الشُّغلَ، واجعلْ قلبَكَ فارغًا من هذا الأمر. وذهبت بالصبيِّ، وألبستُهُ ثوبًا جديدًا، واشتريتُ له الجوز، فلمّا رجعتُ وجدت في قلبي نورًا في الحال، وتغيَّرَت عليَّ الأحوال.

نقل أنه كان له خالٌ، وكان واليًا في المدينة، فمرَّ يومًا في موضعٍ خرابٍ، رأى معروفًا جالسًا وفي جنبه كلبٌ، ويأكلُ الخبزَ، فيأكلُ هو لقمةً ويضعُ لقمةً في فم الكلب، فقال له خاله: لا تستحي تأكل مع الكلب؟ فرفع رأسَه، ورأى طيرًا يطيرُ، فدعاه، فجاء إليه، ووقع على يده، ويستر بجناحه وجهه، فقال معروف: أما تعلم أنَّ من يَستحيي من الله، يستحيي منه كلُّ شيء. فخجلَ خالُهُ عن هذا الحال، وتعجَّب ورجع.

نقل أنه انتقض وضوؤُه في بعض الطريق في بعض الأيام، فتيمَّمَ في الحال، فقالوا: هذه دجلة، وأنت تتيمَّمُ! قال: نعم، ولكن يمكن أن لا أعيشَ إلى أن أصلَ إليها.

نقل أنه نوبةً غلبَ عليه الشوقُ، فقام واعتنقَ ساريةً كانت هناك، حتى كادت السارية تتقطَّعُ وتتمزّق.

وله كلماتٌ عاليةٌ، منها أنه قال: علامةُ الفتوة ثلاثةُ أشياء: وفاءٌ بلا خلاف، وشكرٌ[١] بلا غفلة، وعطاءٌ بلا سؤال.

علامة الأولياء ثلاثةٌ: تكون أفكارهم في الله، واطمئنانُهم بالله، وشغلُهم لله.

و: إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا فتحَ عليه بابَ العمل، وأغلقَ عليه بابَ الكلام.

حديثُ المِراء فيما يجد به علامة الخذلان، وإذا أرادَ اللهُ بشخصٍ خيرًا، يكونُ بخلافه. يعني: يسكتُ، أو يتكلّمُ فيما ينفعه.

قال: حقيقةُ الوفاء الإفاقةُ عن نوم الغفلةِ، وفراغُ الفكر عن وصول الآفة.

و: إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا، فتحَ له باب العمل، وأغلقَ عليه باب الكسل.

طلبُ الجنّةِ بلا عملٍ ذنب.

و: انتظارُ الشفاعة بلا متابعةِ السنة نوعٌ من الغرور.

و: ارتجاءُ الرحمة مع العصيان جهلٌ وحماقة.

قيل له: ما التصوف؟ قال الأخذُ بالحقائق، واليأسُ عمّا في أيدي الناس.

من عشقَ الرئاسة، لا يُفلح أبدًا.

أعلمُ طريقًا إلى الله تعالى، وهو أن لا تسألَ عن أحدٍ شيئًا، ولا يكون لك شيءٌ ليُسأل عنك.

و: احفظوا ألسنتَكُم عن مدائح الناس، كما تحفظونها عن المذمّة.

قيل له: نحن بم نجدُ يدًا على الطاعة؟ قال: بترك الدنيا، وإخراجِها عن القلب.

سئل عن المحبة، قال: ليستِ المحبةُ عن تعليم الخلق؛ وإنّما هي عن مذهبه الحق.

---

(١) في (ب): نقل أن له كلمات عالية، منها أنه قال: علامة المحبّ ثلاثة أشياء، وفاء بلا خلاف وشغل بلا غفلة.

و: لو لم يكن للعارف شيءٌ، فهو في النعمة.

وكان يأكلُ يومًا من الأيام طعامًا لذيذًا، فقيل له في ذلك، فقال: أنا ضيفٌ، ما يُطعموني أطعم.

وكان يقول يومًا للنفس: اتركيني لتخلصي أنت.

استنصح منه رجلٌ، فقال: توكّلْ على الله، ليكونَ أنيسَك، وهو مرجعُك لتشتكي إليه، فإنَّ الخلائق كلَّهم لا يقدرون أن يوصلوا إليك منفعةً، ولا يَدفعون عنك مضرّةً، وإذا التمستَ شيئًا فالتمسْ ممّن لديه جميعُ الدواء.

واستوصى منه شخص قال: احذر من أن يراك الحقُّ، وأنت لا تكون في زِيّ المساكين.

أقول: ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين» وما أعظم منزلة المسكنة، والنبيُّ ﷺ يدعو الله تعالى أن يرزقَهُ المسكنةَ في الحياة والممات، ويحشرَهُ في زمرة المساكين، حيث قال: «واحشرني في زمرة المساكين»[1] ولم يقل: واحشرِ المساكين في زمرتي. والله أعلم.

قال السري السقطي: أوصاني معروف، وقال: قبل أن أموتَ اخلعْ قميصي، وتصدَّقْ به على فقير؛ فإنّي أُريدُ أن أخرجَ من الدنيا بلا شيءٍ عاريًا كما أنّي دخلتُها كذلك.

نقل أنه رحمه الله كان صائمًا، واتّفقَ له مرورٌ بالسوق مع جماعةٍ من أصحابه، فاستقبله سقّاءٌ وهو يقول: رحم الله من شرب. فأخذ الشيخُ وشرب، فقيل: أما كنتَ صائمًا؟! قال: نعم، ولكن رجوتُ الرحمةَ ببركة دعائه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٢) في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١١١، وابن ماجه (٤١٢٦) في الزهد، باب مجالسة الفقراء، والبيهقي في سننه ٧/ ١٢ في الصدقات، باب ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين، وشعب الإيمان ٢/ ١٦٧، ٧/ ٣٤٠.

ورآه شخصٌ بعد الوفاة، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني ببركة العاشقين.

قال محمد بن الحسن: رأيتُهُ في المنام، قلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمني. قلت: بورعك وزهدك؟ قال: لا، ولكن بقبول كلامٍ واحدٍ عن ابن السمّاك، قال: كنت مارًّا بالكوفة، فوقفتُ على رجلٍ يقال له ابنُ السماك، وهو يعظُ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرضَ عن الله بكلّيته أعرضَ الله عنه جملةً، ومن أقبلَ على الله بقلبه أقبلَ الله إليه برحمته، وأقبلَ بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرّةً مرّةً فالله تعالى يرحمُهُ وقتًا ما. فوقع كلامُه في قلبي، وأقبلتُ على الله، وتركتُ جميعَ ما كنتُ عليه إلاّ خدمة مولاي عليٍّ بن موسى الرضا رضي الله عنهما، وذكرت هذا الكلام لمولاي، فقال رضي الله عنه: يكفيك بهذا من عظةٍ[١] إنِ اتّعظت.

وقال السريُّ السقطي: رأيت معروفًا الكرخي رحمه الله في المنام، كأنّهُ تحت العرش، ويقول الله تعالى لملائكته: من هذا؟ يقولون: أنت أعلم يا ربُّ. فيقول: هذا معروف الكرخي، سكرَ من حبّي، فلا يفيقُ إلاّ بلقائي.

اللهم ارزقنا بكرمك لذّةَ النظر إلى وجهك الكريم، ولا تخيّبنا عن ألطافك وإحسانك يا رحيم، وطهّرْ قلوبنا عن هواجس النفس يا عظيم.

* * *

(١) في (أ): يكفيك بهذا من موعظة.

(٣٠) السَّرِيّ السَّقَطي(١)

ذكر أبي الحسن السَّريّ السَّقَطي بن المُغلِّس روّح الله روحه:

خالُ الجُنيد وأستاذُهُ، وتلميذُ معروف الكرخي.

وكان السريُّ رحمه الله إمامًا في التصوف، كاملاً في أصناف العلوم، بحرًا في الحزن، جبلاً في الحلم والثبات، خزانةً للمروءة والشفقة، وأعجوبةً في الرموز والإشارات، وواحدًا في زمانه في الورع والأحوال السنية.

وهو أولُ من تكلّمَ ببغداد في الحقائقِ والتوحيد.

وكان يسكن ببغداد، وأكثرُ مشايخ العراق من مريديه، وأدركَ صحبة حبيب الراعي رحمه الله.

وكان في الابتداء من أهل السوق، وله حانوتٌ يجلس فيه للمعاملة، وقد أرخى سترًا في الحانوت، ويدخلُ خلفَهُ، ويشتغلُ بالعبادة والصلاة، حتى قيل: إنه كان يُصلّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعة.

جاء إليه رجلٌ من جبل لبنان زائرًا، وهو في السوق خلف الستر، فرفع السِّتر وسلّم عليه، وقال: الشيخ الفلالي في لبنان يُسلّم عليك. فقال السري: أهو في لبنان؟ قال: نعم. قال السري: ليس الاعتزالُ عن الخلق شغلاً كثيرًا؛ بل الرجلُ

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨، حلية الأولياء ١٠/١١٦، تاريخ بغداد ٩/١٨٧، الرسالة القشيرية ٤٣، مناقب الأبرار ١٤٤، صفة الصفوة ٢/٣٧١، المختار من مناقب الأخيار ٢/٤٧٥، وفيات الأعيان ٢/٣٥٧، مختصر تاريخ دمشق ٩/٢١٥، سير أعلام النبلاء ١٢/١٨٥، العبر ٢/٥، الوافي بالوفيات ١٥/ترجمة ١٩٣، مرآة الجنان ٢/١٥٨، البداية والنهاية ١١/١٣، طبقات الأولياء ٢٣٢، لسان الميزان ٣/١٣، النجوم الزاهرة ٢/٣٣٩، نفحات الأنس ٧٩، طبقات الشعراني ١/٧٤، طبقات المناوي ١/٦١٨، شذرات الذهب ٢/١٢٧، جامع كرامات الأولياء ٢/٢١.

من يكون في السُّوق مَشغولاً بالحقّ، غيرَ غافلٍ عنه طرفة عين.

نقل أنه كان يبيع ويشتري، وليس له طمعٌ في الربح إلاّ لكلّ عشرةٍ نصف درهم، ولا يأخذ أكثر من ذلك، وقد اشترى في بعض الأيام اللوزَ بستين دينارًا، وغلا سعرُهُ وارتقى إلى تسعين دينارًا، فجاء إليه الدَّلال، وأخبره عن السعر، فقال: إنّي لا أبيعُ إلاّ بثلاثةٍ وستين دينارًا، ولا آخذ على كلّ عشرةٍ إلاّ نصفَ درهم. وقال الدلال: لا أبيعُ متاعَكَ بالنقصان. وهو لم يرضَ بالزيادة، ولم يبع.

وكان في الأول يبيعُ السَّقطَ، وهو ما في جوف الحيوان من الكرشِ والأمعاء وغيرها، يُقال لها بالفارسية سقط، ولهذا نُسبَ إليه[1].

نقل أنه وقعَ حريقٌ[2] في السوق، فقال: الحمد لله، الآن فرغتُ. والحال أن دكانه لم يحترقْ، فدخل الدكان، وفرّقَ جميعَ ما كان فيه على الفقراء موافقةً للأصحاب، وتجرَّدَ، وسلك طريقَ التصوف كالرجال.

سئل عنه ابتداء حاله، قال: مرّ بدكاني يومًا حبيبُ الراعي، فأعطيته شيئًا، وقلت: اصرفه على الفقراء. فقال: جزاكَ الله. فبردتِ الدنيا على قلبي إلى أن جاء إليَّ معروفُ الكرخي يومًا، ومعه صبيٌّ يتيم، فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال السري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بغّضَ اللهُ إليك الدنيا، وأراحَكَ ممّا أنت فيه. فقمتُ من الحانوت، وليس شيءٌ أبغضَ إليَّ من الدنيا، وكلُّ ما أنا فيه من بركات دعاء معروف، ولم يبالغ أحدٌ في المجاهدة والرياضة مثلَ مبالغته وسعيه واجتهاده.

قال الجنيد: ما رأيتُ أحدًا أكملَ في العبادة من السريّ، مضى عليه ثمانون أو تسعون سنةً ما اضطجع إلاّ في مرض الموت.

---

(١) قال ابن سعد في الأنساب ٧/ ٩١: السَّقطي: هذه النسبة إلى بيع السَّقَط، وهي الأشياء الخسيسة كالخرز والملاعق، وخواتيم الشبه والحديد وغيرها.

(٢) في (أ): وقعت نار.

قال: منذ أربعين سنة نفسي تشتهي حلواء الجزر، وما أعطيتها شهوتها.

وقال السريُّ رحمه الله: أَنظرُ كلَّ يومٍ إلى أنفي كذا مرّةً مخافةَ أن يكونَ قد اسودَّ وجهي من شؤم ذنبي.

وقال: تمنّيتُ أن يجتمعَ في قلبي ما في قلوبِ الخلائق من الأحزان، لتفرغ قلوبهم عن الهموم.

قال الجُنيد رحمه الله: دخلتُ على السريِّ يومًا، وهو يبكي، فقلت: وما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحةَ صبيةٌ وقالت: يا أبتِ، هذه ليلةٌ حارَّةٌ، وأعلّقُ هذا الكوز ليبردَ [في] الهواء، ثم إنه غلبتني عيناي، فنمتُ، فرأيتُ جاريةً من أحسن الخلْق، فنزلَتْ من السماء، فقلتُ: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشربُ المبرَّدَ في الكيزان. وتناولت الكوز، وضربت به على الأرض. قال الجنيد: رأيتُ الخزف المكسور لم يرفعْه، ولم يمسّه حتى عفاه التراب.

قال الجنيد: كنت نائمًا ليلةً، فتقاضاني سريٌّ الذهاب إلى الشُّونيزية إلى مسجدِ أُويس، فمضيتُ إلى باب المسجد، ورأيت هناك شخصًا هائلاً، ففزعتُ منه، فقال لي: يا جُنيد، أتفزعُ مني؟ قلت: نعم. قال: فلو عرفتَ الله تعالى لكنتَ لا تخافُ غيره. قلت: من أنت؟ قال: إبليس. قلت: كنتُ أَطلبُ أن أراك. فقال: إذا تفكّرْتَ فيَّ غفلتَ عن الله تعالى، وما لك معي؟ قلتُ: أردتُ أن أسألَ عنك: هل لك سلطةٌ على الفقراء؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: لأنه إذا أردتُ أن أمسكَهم بالدنيا يفرّون إلى الآخرة، وإن أردتُ أن أُمسكَهم بالآخرة يفرّون إلى الله، ولا مجالَ إليَّ هناك. قلت: وإذا لم يكن لك عليهم يدٌ، فهل تراهم أحيانًا؟ قال: نعم، إذا اتفق لهم سماعٌ أو وجدٌ، أراهم، وأعلم إن أتيتهم من أين يكون. قال هذا وغاب عنّي، وأنا دخلتُ المسجد، فرأيت السَّريَّ رضي الله عنه واضعًا رأسه على ركبته، فرفع رأسه، وقال: كذبَ عدوُّ الله، هم أعزُّ على الله تعالى من أن يكشفَهم على جبريل، فكيف يُريهم إبليس اللعين؟!.

قال الجنيد: كنت يومًا مع السريِّ، فمررنا على جماعةٍ من المُخَنَّثين،

فخطر ببالي أنَّ عاقبتَهُم كيف تكون؟ فقال السريُّ: ما خطرَ على بالي أصلاً أنَّ لي فضلاً على مخلوق. قلت: ولا على المخنثين؟ قال: ولا عليهم.

وأيضًا قال الجنيد رحمه الله: دخلتُ على السريِّ، فوجدته متغيِّرًا، فسألته عن حاله، قال: جاءَ إليَّ شخصٌ من الجنِّ، وسألني عن الحياء، فذكرتُ جوابه[1]، فصار الجنِّيُّ ماءً كما ترى من الحياء.

نقل أنه كانت له أختٌ، فطلبَتْ أن تكنسَ بيته، فما أذنَ لها، وقال: لا أُضيع الوقتَ بكنس البيت. فدخلتْ أُختُه عليه يومًا، ورأتْ عجوزةً تكنسُ بيته، فقالت أختُه: يا أخي، ما تركتني أكنسُ البيت، وجاءَتْ أجنبيةٌ تكنسُهُ؟ قال السريُّ: يا أُختي، لا يشتغلْ قلبُك؛ فإنَّ هذه العجوزةَ هي الدنيا، وهي قد احترقَتْ من محبَّتي وعِشقي، وصارت عنّي محرومةً، فطلبَتْ من الله تعالى أن يكونَ لها نصيبٌ منّي، فأعطاها الله تعالى مكنسةً تكنسُ بها بيتي، وتقنعُ بهذا القدر.

أقول: إن الله تبارك وتعالى قادرٌ على جميع المُمكنات، فاعلٌ بالاختيار، يفعلُ ما يشاء، ويحكم ما يريد، وحينئذٍ لا غَرْوَ ولا بُعدَ في أن يصوِّرَ الدنيا بصورةِ عجوزةٍ، وبأيِّ صورةٍ يريد بحيث يراها الإنسان، ويؤيِّدُهُ ما رُويَ أن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورةِ عجوزةٍ مخضوبةِ اليَدَيْنِ والرِّجلَيْن. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا. فقال عيسى عليه السلام: أبكرٌ أنت، أم ثيِّبٌ؟ قالت: بل بكر. قال عيسى عليه السلام: كيف ذاك؟ قالت: لأنَّ الرِّجالَ لم يلتفتوا إليَّ وما حالفوني[2]، والذي يَعشقني ويُخاطبني عِنّينٌ لا رجوليةَ له، فلذلك بقيتُ بكرًا. قال عيسى عليه السلام: وما هذا الخضاب على يَديك ورجليك؟ قالت: من عشقني وابتُلي بي قتلتُهم، وخضَّبتُ بدمائهم يديَّ ورجليَّ كما ترى.

---

(١) في (أ): فتفكرتُ جوابه.

(٢) في الأصلين: وما خالفوني، وأثبتُّ ما يناسب المعنى، أو العبارة: وخالفوني. بحذف (ما).

والمراد بهذه الدنيا ما يُبعد العبدَ عن الله تعالى، ويُشغله عن الآخرة، وهي اللَّذاتُ العاجلة، والشهواتُ الحيوانية من الأكلِ والشرب والنومِ واللبس والجماع وغيرها بما تقتضيه الطَّبيعةُ الحيوانيةُ البهيمية والسبعية، وتَشتهيه النفس الأمّارةُ بالسوء، ويمكنُ تجسيدُها وتصويرها كما يمكنُ تجسيدُ الأعمال الحسنة والسيئة للعبادِ يوم القيامة للوزن على رائي، وهذه الدنيا هي المُشار إليها بقوله ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلاّ ذكر الله وما والاه، أو عالمًا ومتعلمًا»[1]. والله أعلم.

نقل أن من كان يُسلّم على السريّ، فيتعبّسُ السريُّ، ويردُّ عليه الجواب بخُلقٍ سيِّىء، فسُئل عن ذلك قال: قال النبيُّ ﷺ: «من سلّم على أخيه المُسلِم ينزلُ عليهما مئةُ رحمةٍ، تسعون على من يكونُ منهما حَسَنَ الخُلق، وعشرةٌ على من يتعبّس منهما[2]» فأنا أتعبّسُ؛ ليكون الفضلُ لأخي.

نقل أنه رأى يعقوبَ النبيَّ عليه السلام في المنام، وقال له: يا نبيَّ الله، ما هذا المشهورُ في الدنيا من محبّتِكَ يوسفَ عليه السلام؟ ولك محبّةٌ كاملةٌ بالنسبة إلى حضرةِ العزّةِ؟ فنُودي في سرّه: يا سريّ، احفظِ القلبَ. وأراه اللهُ يوسفَ عليه السلام، فشهقَ السريُّ شهقةً، وغُشي عليه ثلاثة عشر يومًا، ولمّا أفاقَ، نُوديَ في سرِّه: هذا جزاءُ من يلومُ عشّاقنا.

نقل أنّه يتمنّى أن يلتقي بأحدٍ من أولياء الله تعالى، فاتّفقَ له أن رأى شخصًا على جبلٍ، فتقدّمَ إليه، وسلّم عليه، ثم قال: من أنت؟ فقال الشخص: هو. قال: ماذا تفعلُ؟ فقال: هو. قال: ماذا تأكلُ؟ قال: هو. قال: ماذا تُريد بكلامك؟ فقال: هو. قال: تُريدُ به الله تعالى جلَّ وعلا؟ فشهق الرجل، وماتَ في الحال.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) في الزهد، باب (١٤)، وابن ماجه ٢/ ١٣٧٧ في الزهد، باب مثل الدنيا، والدارمي في السنن ١/ ٩٤، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٥٧، ٧/ ٩٠، والطبراني في الأوسط ٤/ ٢٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٤٢.

(٢) لم أجد هذا الحديث في المصادر التي بين يدي.

نقل أنه سُئل الجُنيد عن المحبّة، فقال الجُنيد: قال قومٌ: هي الموافقةُ[١]، وقوم: هي الإشارةُ، وقالوا غيره. فأخذ السريُّ بجلدِ يده يجرُّهُ، فما طلعَ من موضعه، فقال: بعزّتِهِ، لو قلتُ يبس جلدي من محبّته لصدقتُ. قال هذا وغُشي عليه، وخرَّ زائل العقل.

وقال السريُّ: يصلُ العبدُ من المحبّةِ إلى مقامٍ لو ضُربَ بفأسٍ لَمَا أحسَّ به.

وقال: إذا جاءَ إليَّ بعضُ الناس ليتعلّموا منّي شيئًا من العلم، أقول لهم: اللهم ارزقْهُ العلم، واجعلْهُ مشغولاً به عنّي؛ لئلا يتردَّدَ عليَّ ولا يعرفني.

نقل أن رجلاً اشتغل بالمجاهدة ثلاثين سنة، قيل: بمَ أدركتَ هذا المقام؟ قال بدعاء السريِّ. قيل: كيف كان؟ قال: ذهبتُ إلى باب خلوته نوبةً، وقرعتُ الباب، فقال: من أنت؟ قلتُ: صديقٌ غيرُ أجنبي. قال: فلو لم تكن أجنبيًا لكنتَ مَشغولاً به، ولم تلتفت إلى سواه. ثم قال: اللهم اجعلْه مَشغولاً بك، بحيث لا يبقى له التفاتٌ إلى غيرك. دعا بهذا الدعاء، ونزلَ في صدري شيءٌ إلى أن وصلتُ إلى هذا المقام.

نقل أنه كان يعظُ الناسَ، فمرَّ بمحلّهِ[٢] شخصٌ من ندماء الخليفة اسمه أحمد بن يزيد الكاتب في كوكبةٍ عظيمةٍ مع جماعةٍ من الخدّام والغلمان، فدخل المجلسَ، وقال: إلى متى أتردَّدُ في موضعٍ واحدٍ وإلى مكانٍ لا ينبغي أن يذهب إليه! وإنّي قد تضجَّرتُ من ذلك. فلمّا سمِعَ كلامَ السريِّ كان يجري على لسانه في تلك الحالة: أنه ليس في ثمانية عشر ألف عالَمٍ مخلوقٌ أضعفَ من الإنسان، ولا يعصي اللهَ أحدٌ من مخلوقاته كما يعصي الإنسان، فالعجبُ كلَّ العجبِ للإنسانِ الضعيف العاجزِ كيف يَعصي الإلهَ القويَّ الكبير؟! فهذا الكلامُ كسهمٍ أثَّرَ في قلبِ أحمد، فبكى إلى أن وقعَ مغشيًا عليه، فلمّا أفاقَ قامَ وذهب إلى بيته، ولم يطعمْ تلك الليلة شيئًا، وجاء اليومَ الثاني إلى المجلس ماشيًا

(١) في (ب): هي المراقبة.
(٢) في (أ): فمرّ في مجلسه.

لا راكبًا، ووقفَ إلى آخر المجلس، وجاء إليه اليومَ الثالث ماشيًا مُنفردًا، ولمّا تمَّ المجلسُ تقدَّمَ إلى الشيخ وقال: يا أستاذ، قد أمسكني الكلامُ الذي سمعتُ منك في أوّلِ ما دخلتُ مجلسَكَ اليوم الأول، وأبغضتُ الدنيا، وبردت على قلبي، أُريدُ أن أعتزلَ الناس، وأتركَ الدنيا. والشيخ كان يُحدّثُ في النصائح، فما أطاقه الرجل، وتوجَّه إلى الصحراء، ولم يُعلم منه أثرٌ ولا خبرٌ إلى أيام، فجاءتِ امرأةٌ عجوزةٌ باكية تنتف شعرها إلى الشيخ، وقالت: يا إمامَ المسلمين، لي ابنٌ شابٌ غضٌّ طريٌّ، سمعتُ أنه جاء إلى مجلسك ضاحكًا مُتبخترًا فرحان، وخرجَ باكيًا مُنحنيًا ذا أحزانٍ، ومِنْ ذلك اليوم غابَ عنّي، ولا أعلمُ مكانه، وقلبي يحترقُ من فراقه، فكيف يكونُ حالي؟ وإلى أيِّ شيءٍ يَصيرُ مآلي؟ فمن غاية تضرُّعِها ترحَّم عليها السريُّ، ورقَّ لها قلبه، وقال لها: لا تتضجَّري، فإنه لا يكونُ إلاّ خيرًا، إذا جاء إلينا فنحن نخبرُك، وأنه ترك الدنيا والأهل والعيال، وتابَ إلى الله تعالى. فبعد أيام جاء إلى الشيخ ليلاً، فقال الشيخ للخادم: لتخبر أُمَّه. فرأى الشيخُ أحمدَ قد اصفرَّ وجهُهُ، ونحل جسمُه، وانحنى ظهره، فقال: يا شيخ، كما أنت نقلتني من الظُّلمات إلى النور، وأنجيتني بتوفيق الله تعالى عن تلك الأحوال الدَّنية، وأوصلتني إلى المراتب السنية، أراحَكَ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة. وشكرَ اللهَ تعالى كثيرًا على نعمة الفقرِ وتركِ الدنيا، وكان مشغولاً بهذه الكلمات إذ دخلتْ أُمُّه مع جميع أهله وعياله، وكان له ابنٌ صغير جاؤوا به لديه، ولمّا وقعَ نظرُ أُمِّه عليه، ورأته في حالٍ ما رأته في مثلِ تلك الحال أصلاً، عليه ثوبٌ عتيق مقطَّعٌ، ولونُهُ متغيّرٌ، وشعرُه مغبرٌّ أشعثُ، بكت وصاحت، واعتنقته، وشرعوا في التضرُّعِ وفي البكاء، وارتفع صياحُهم بالأنين والبكاء، واجتهدوا كثيرًا ليذهبوا به إلى بيته، فما قبلَ، ولم ينفعْ أنينُهم وبكاؤهم، فقال: يا إمام المسلمين، لِمَ أخبرتَهم، وهم يشوِّشون عليَّ الحال؟ قال الشيخ: جاءَتْ إليَّ أمُّك، وتضرَّعَتْ وجزعت، وأنا وعدتُها بأنك إذا حضرتَ لدي أُخبرُها بالحال. فأراد أحمدُ أن يعودَ إلى مكانه، بكتِ امرأتُه وتعلّقت به، وقالت: جعلتني أرملةً في حياتك، وأيتمتَ

أولادَكَ، ونحن ماذا نفعلُ مع هذا الولد الصغير، وهو يطلبُكَ ولا يَصبرُ عنك؟ فاذهبْ به معك. فأخذه، وخلع عنه ما كان عليه من الثياب النفيسة، وغطّاهُ بقطعةِ خرقةٍ نظيفةٍ[1] غليظةٍ، وأرادَ أن يذهبَ به، فما أطاقَتْ أمُّهُ تلك الحالة، وخطفَتِ الولدَ من يده، وتوجَّه أحمدُ إلى الصحراء والبادية، وصبرت مدّةً، ثم في ليلٍ بعد العشاء جاءَ رجلٌ إلى الشيخ، وقال: يقولُ أحمد ضاقَتْ عليَّ الحالُ، فليصل إليَّ الشيخ مُستعجلاً. فذهب إليه الشيخ، فالتقاه في المقابرِ مُضطجعًا على التراب، وانتهى إلى نَفَسٍ ويحرّكُ لسانَه، فاستمعَ الشيخ، فإذا هو يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] وانقطع نَفَسُهُ، فجاء الشيخ إلى المدينة باكيًا ليُجهِّزَهُ، فالتقى ناسًا كثيرًا يطلعون من المدينة، فسألهم عن خروجهم، قالوا: سمعنا صوتًا من السماء: من أرادَ أن يُصلّي على وليٍّ خاصٍّ من أولياء الله تعالى فليحضرْ مقابر الشُّونيزية.

نَفَسُ الشيخ وكلماتُهُ كانت مؤثّرةً في القلوب كما سمعتَ من قصّةِ أحمد، وكم مثلها! ولو لم يَتربَّ تربيته إلاّ الجنيد لكفى.

ومن كلامه أنه قال: يا جماعة الشباب، اجتهدوا في العمل، ولكم قوّةٌ ونشاط فيه، ولا تؤخّروا العملَ إلى أوان الضعف والفتور في الشيخوخة، وتصير حالُكم كحالي. وحين قال هذا الكلام ما أطاقَ شابٌّ أن يَعملَ مثلَ ما يعمل.

وكان يقول: إني أستغفرُ الله تعالى من ثلاثين سنةً بسبب أنّي قلتُ مرّةً: الحمدُ لله. قيل: كيف ذلك؟ قال: وقعَ في بغداد حريقٌ، فأخبرني رجلٌ بأنَّ حانوتك نجا من الحرق، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادمٌ على ما قلتُ، حيثُ أردتُ لنفسي خيرًا ممّا للمسلمين.

وقال: إن فاتَ حرفٌ من وِردِكَ فلا قضاء له.

وقال: باعدوا أنفسَكم عن جيران الأغنياء وأهلِ السوق وعلماءِ الأمراء ـ أي

(١) قوله نظيفة ليست في (ب).

الذين يَحومون حول الأمراء ـ ومَنْ أراد سلامةَ دينه، وراحةَ قلبه وجسده، وقلّةَ غمومه وأحزانه فليعتزلْ عن الناس؛ فإنَّ الزمانَ زمانُ العزلة والوحدة.

وقال: الدنيا كلُّها فضولٌ إلاّ كُسيرةَ خبزٍ تسدُّ رمقَكَ، وشربةَ ماءٍ تسكّن عطشَك، وسترًا يسترُ عورتَكَ، وعملاً تعملُ به، وبيتًا تسكن فيه.

قال: المعصيةُ إن كانت عن شهوةٍ فيُرجى أن يُغفرَ لها، وإن كانت عن كِبرٍ فبعيدٌ، بل قد لا يُرجى العفو عنها؛ لأنَّ معصيةَ إبليسَ كانت من الكِبر، وزلّةَ آدمَ من الشهوة.

و: لو دخلَ رجلٌ بستانًا فيه أشجارٌ كثيرة، وكلُّ ورقةٍ تقولُ بلسانٍ فصيح[1]: السلامُ عليك يا وليَّ الله، يجب عليه أن لا يغترَّ، ويخافَ أن يكونَ[2] مكرًا واستدراجًا.

و: علامةُ الاستدراجِ أن يَعمى الرجلُ عن عيوب نفسه.

و: المكرُ قولٌ بلا عمل.

و: الأدبُ ترجمان القلب.

و: من عجزَ من تأديب نفسِهِ، فهو عن تأديبِ غيره أعجزُ.

الحمقى كثيرٌ بين الناس، وهم الذين لا تُوافقُ أقوالُهم أحوالَهم وأفعالَهم.

من لم يعرف قدرَ نعمةٍ تزولُ قريبًا.

اللسان ترجمانُ القلب.

وجهُكَ مرآةُ قلبك ـ يعني يُرى في وجهك ما أخفيتَ.

أقول: والأمر كما قال؛ لكن لا يطَّلعُ على ذلك إلاّ أهلُ الفراسة. والله أعلم..

القلوبُ على ثلاثة أقسام: قلبٌ مثلُ الجبل لا يُمكن تحريكُهُ أبدًا، وقلبٌ

---

(١) في (ب): بلسان الحال الفصيح.

(٢) في (أ): أن لا يكون مكرًا.

مثلُ الشجرة، فأصلُها ثابتٌ لكنَّ الريحَ تُحرِّكُ أغصانَها، وقلبٌ مثلُ ورقةٍ يابسةٍ متعلّقةٍ؛ فإنّها تدورُ مع الرياح أينما دارت.

أقول: أما الأولُ: فقلوبُ الخواصِّ وخواصِّهم مثل الأنبياء والأولياء والصدّيقين؛ فإنّها قد رسختْ بتوفيق الله تعالى في المعرفة والإيقان والإيمان بحيث لا يَنْحرف عن هذا المقامِ من الأزل إلى الأبد بهبوبِ رياح الوساوسِ والهواجس، ولا بالنظر إلى لذّاتِ الدنيا وزخارفها كالجبال الراسية التي لا تتحرَّكُ أصلاً.

والثانية: قلوب المؤمنين؛ فإنّها تميلُ إلى الشهوات والمعاصي بوسوسةِ الشيطان، وطلب النفسِ الأمّارة بالسوء أحيانًا؛ لكن لا تزولُ من أماكنها بالكلّيّة، فأصلُها ثابت، والأغصانُ تتحرَّكُ كالشجرة الثابتة.

والثالثة: قلوبُ الكفار والمنافقين؛ فإنّها تتبعُ الشيطانَ والنفسَ الأمّارة دائمًا كالورقةِ اليابسة المقلوعةِ التابعة للرياح.

والأوّل هو النفس المُطمئنة، والثاني اللوّامة، والثالث الأمّارة بالسوء. والله أعلم..

قلوبُ الأبرار متعلّقةٌ بالخاتمة، خائفةٌ منها، وقلوبُ المقرّبين بالسابقة وخائفة منها.

و: الحياءُ والأُنسُ ينزلان في القلبِ، فإن وجدا فيه الزُّهدَ والورعَ يسكنان فيه، وإلاّ يرجعان.

و: خمسةٌ لا تسكنُ في قلبٍ إن كان فيه غيرُها: الخوف من الله تعالى، والرجاءُ منه، والمحبّة له، والحياءُ منه، والأُنس به.

أقول: يعني هذه الخمسة تطلبُ قلبًا خاليًا عن غيرِها من محبّة الدنيا، والصفات الذميمة من الحرصِ والطَّمع والبغضاء والحسد والكِبر والغضب والهوى وغيرها لتسكنَ فيه، وإلاّ لا تسكن، قال الشاعر:

أَتاني هَواها قبلَ أَنْ أَعرفَ الهَوى فصادفَ قلبي خاليًا فتمكَّنا[١]

والله أعلم . .

و: مقدارُ كلِّ شخصٍ في نفسه مقدارُهُ عند الله .

و: أَفهمُ الناسِ وأذكاهم مَنْ فهمَ أَسرارَ القرآن وتدبَّر فيها .

أصبرُ الناس من يكونُ صابرًا على الحقِّ .

ربَّ رجلٍ عَمِي قلبُه ، ولا يستغفرُ باللسان .

و: يصدرُ من التوبة الاجتهادُ ، ومن الاجتهادِ الصدقُ ، ومنه الزُّهدُ ، ومنه التوكُّلُ ، ومنه الاستقامةُ ، ومنها المعرفة ، ثم تحصل لَذَّةُ الأُنس ، ثم الحياء ، ثم الخوفُ مِنْ مَكرِ الله تعالى والاستدراج[٢] .

من عرف ما يخافُ منه ، ويعلمُ حقيقةَ ذلك ، هانَ عليه الاجتنابُ من المناهي[٣] .

من كان أَعقلَ وأَعرفَ بالله فهو أَقربُ وصولاً إلى المقصود .

أفضلُ الأعمال البكاءُ على فوتِ وقتٍ لم يوافق فيه أمرَ الله تعالى .

من التفتَ إلى الدنيا بالإرادة والرِّضا يخرجُ من قلبه نورُ الفقر والزهد .

الدنيا مزبلةٌ ، والمزبلةُ مجمعُ الكلاب ، والكلبُ إذا قضى حاجتَهُ من المزابل ويشبع فيها يعود إلى مكانه ، فيكون أَنقصَ من الكلب ، وأذلَّ منه وأخسَّ من لا يقنع من الدنيا بمقدارِ حاجته[٤] .

و: من لم يعرفْ نفسَه فهو مغرورٌ في دينه .

إن الله تعالى ما ابتلي أَحدًا بشيءٍ أَشدَّ من الغفلة ، والقلبِ القاسي .

---

(١) البيت في ديوان مجنون ليلى ٢٨٢ ، وينسب لابن الطثرية ، وفيات الأعيان ٦/ ٣٧٠ .

(٢) سيأتي هذا القول صفحة ٣٦٧ من قول أحمد بن أبي الحواري .

(٣) في (أ): ويعرف حقيقة . . . الاجتناب من المعاصي والقول لابن أبي الحواري ، انظر ص ٣٧٦ .

(٤) هذا القول لأحمد بن أبي الحواري ، انظر طبقات المناوي ١/ ٥٣٥ .

الأنبياءُ عليهم السلام كانوا يَكرهون الموتَ لفتورِهم عن ذكرِ الله تعالى بسببِ الموت.

و: محبَّةُ الله تعالى إنَّما تظهرُ في محبَّةِ طاعته.

من أعجبَهُ أن يُذكرَ بخيرٍ فهو مُشركٌ في العبادة، لأنَّ مَنْ عبدَ الله تعالى بالمحبّةِ والإخلاصِ لا يُحبُّ أن يطَّلَع على أعماله إلاّ محرمٌ.

اللهم، نوّر قلوبَنا بأنوارِ معرفتك، وأَغرقْنا في بحارِ محبَّتك، وأَلهمنا يا الله رُشدَنا يا كريم يا رحيم.

* * *



(٣١) فتح الموصلي(١)

ذكر فتح الموصلي قدّسَ اللهُ سرَّه بلطفه:

كان رحمه الله من كبارِ المشايخ، وصاحبَ همَّةٍ عالية، وقدرٍ جليل، وفي الورع والمجاهدة بلا غايةٍ، والحزنُ والخوفُ غالبان عليه، مُنقطعًا عن الناس، وكان له مفاتيحُ كثيرةٌ مشدودًا بعضها إلى بعض موضوعةً عنده، يتوهَّمُ الناسُ أنه من التجار، ولا يعرفوه.

سأل شخصٌ واحد من الكبار: هل لفتح الموصلي علمٌ كثيرٌ أم لا؟ فقال المسؤول عنه: يكفي علمَه بأنّه تركَ الدُّنيا بالكلّية.

قال [أبو] عبد الله بن الجلاء: كنتُ عند السَّريِّ في بعض الليالي، فلمّا عبر الليلُ من النصف قام السريُّ ولبس ثوبًا(٢) نظيفًا، وارتدى برداءٍ، قلتُ: إلى أين؟ قال: إلى فتح الموصلي للعيادة. فلمّا خرجَ من البيت أمسكَهُ بعضُ الحرّاس وحبسه، وفي الغد جاءَ جلّادٌ ليضربَ المسجونين، فلمّا انتهى إلى السريِّ، ورفعَ يدَه ليضربَهُ، بقيت يدُهُ في الهواء، قال السَّرِي: لِمَ لا تضربُ؟ قال: شيخٌ في حذائي واقفٌ ويَمنعني عن الضرب. فالتفتُّ إليه، فإذا فتحٌ، فتركوا السريَّ وأطلقوه، فذهب إلى فتح.

نقل أن رجلاً سألَ فتحًا عن الصدقِ، فأدخلَ اليدَ في كيرِ الحدّاد، وأمسكَ

---

(١) الثقات لابن حبان ٧/ ٣٢٢، حلية الأولياء ٨/ ٢٩٢، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٨١، مناقب الأبرار ٢٥٠، صفة الصفوة ٤/ ١٨٣، معجم البلدان ٤/ ٤٢٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٧٥، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٥٠، طبقات الأولياء ٢٧٦، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٥، نفحات الأنس ٤٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٠، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٤٠٣، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٣.

(٢) في (ب): كنت عند السري ولبس ثوبًا.

بقطعة حديدة محمَّرةٍ من النار، وأخرج، وقال: هذا هو الصدق.

قال: رأيتُ أميرَ المؤمنين عليًا رضي الله عنه في المنام، واستوصيتُهُ، فقال كرّم اللهُ وجهه: ما رأيتُ أحسنَ من تواضعِ الغنيِّ للفقير رجاءَ الثواب. قلتُ: زدني. فقال كرّم الله وجهه وهو يوصيه: أحسنُ من هذا تكبُّرُ الفقيرِ على الغنيِّ اعتمادًا له على الله تعالى.

نقل أنه قال: كنتُ في مسجدٍ مع جماعةٍ من الإخوان، إذ دخلَ شابٌّ عليه ثوبٌ خَلَق، وقال: تعلم أنّه يكونُ للغرباء رحلة، فأنتَ غدًا تعالَ إليَّ في المحلّةِ الفلانية ـ وأعلم بيته له ـ وأنا أكون ميتًا، فكفّنّي في هذا القميص، وادفنّي. قال الشيخ الموصلي رحمه الله: مضيتُ إليه من الغدِ، فوجدته ميتًا، فجهّزته وكفّنتُهُ في القميص كما أوصى، ودفنتُهُ، لكنْ لمّا وضعتُهُ في القبرِ، وأردتُ أن أخرج منه، فمدَّ يدَه وأمسكَ بذيلي، وقال: يا فتح، لي عند الله منزلةٌ، وأريدُ أن أكافئُكَ بما صنعتَ معي، فاعلم أن المرءَ يموتُ على ما كان عليه في حياته. قال هذا وسكت.

نقل أنه رحمه الله رئي يبكي، ويجري الدمُ مع دموعه، فسئل عنه، فقال: إنّي أذكرُ ذنبي، وأبكي عليها الدم من الخوف.

نقل أنه بُعث إليه خمسون درهمًا، فقال: ورد في الخبر: «من أُعطي شيئًا بلا سؤال، فردّه، ردّه الله»(١) فأخذ درهمًا، وردَّ الباقي(٢).

نقل عنه أنه قال رحمه الله: أدركتُ كم من المشايخ وصاحبتُهم وكلُّهم من الأبدال، ووصّوني جميعًا بالاحترازِ عن صحبة الخلق، وأمروني بقلّة الأكلِ أيضًا.

---

(١) روى الطبراني في الأوسط ٢٠٦/٥ (٤٨٢٤): أعطى عمر بن الخطاب عبد الله بن السعدي ألف دينار، فأبى أن يقبلها، فقال له عمر: إني قائل لك ما قال لي رسول الله ﷺ، قال: «إذا ساق الله إليك رزقًا من غير مسألة ولا استشراف نفس فخذه؛ فإن الله أعطاكه».

(٢) الخبر ليس في (ب).

ومن كلامه أنه قال: إذا مُنع الطَّعامُ والشراب من المريض يموت؟ قالوا: نعم. قال: فكذلك أيُّ قلبٍ مُنع عن العلمِ والحكمة وكلامِ المشايخ يموت.

قال: أهلُ الله قومٌ إذا نطقوا نطقوا بالله، وإذا حدّثوا حدّثوا عن الله، وإذا عملوا عملوا لله، وإذا طلبوا طلبوا عن الله.

من اشتاق إلى الله تعالى أعرضَ عن غيره.

نقل أنه لمّا ماتَ فتحُ الموصلي رئي في المنام، وسئل: ما صنع اللهُ بك؟ قال: قال لي: لِمَ بكيتَ كثيرًا؟ قلت: إلهي، حياءً من الذنوب. قال الله: يا فتحُ، أمرنا المَلَكَ الكاتبَ للسيّئات أن لا يكتبَ عليك الخطيئاتِ أربعين سنة؛ لأجل كثرة بكائك.

اللهم بكرمك وإحسانك تبْ علينا، واغفرْ لنا إنَّك توابٌ غفور.

* * *



(٣٢) أحمد بن أبي الحواري[١]

ذكر أبي الحسن أحمد بن أبي الحواري رحمة الله عليه:

كان رحمه الله وحيدَ عصره، وفريدَ وقته، عالمًا في جميع الفنون ولا سيّما في علم الطريقة وفي علم الحقيقة وكشفَ الدقائق مُعتبرًا، ذا شأنٍ عظيم، وفي روايةِ الحديث مَرجعًا إليه مقتدى.

وكان من أكابرِ مشايخ الشام، حتى كان الجُنيد رحمه الله يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة أهل الشام.

صحب أبا سُليمان الداراني، وسفيان بن عيينة.

وكان لكلامه أثرٌ عظيمٌ في القلوب.

وكان رحمه الله في الابتداءِ مشغولاً بتحصيل العلوم إلى أن بلغَ منها إلى درجةِ الكمال، ثم أخذ الكتبَ التي له، وذهبَ بها إلى الساحل، وقال: نعم الدَّليلُ ما في هذه الكتب؛ لكن بعد الوصول إلى المقصودِ يَمتنعُ الاشتغالُ بالدَّليل. وألقى الكتبَ في البحر، وحصلَ له بسبب ذلك ألمٌ[٢] عظيم. وقال بعضُ المشايخ: إنه كان في وقتِ السُّكر دون الصحو.

نقل رحمه الله عهدَ أن لا يُخالفَ شيخَه أبا سليمان أبدًا، فكان الشيخُ يومًا

---

(١) الجرح والتعديل ٢/ ٤٧، الثقات لابن حبان ٨/ ٢٤، طبقات الصوفية ٩٨، حلية الأولياء ١٠/ ٥، الرسالة القشيرية ٦٤، طبقات الحنابلة ١/ ٧٨، مناقب الأبرار ٢٩٣، صفة الصفوة ٤/ ٢٣٧، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢٩١، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ١٤٢، تهذيب الكمال ١/ ٣٦٩، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٥، مرآة الجنان ٢/ ١٥٣، البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٨، طبقات الأولياء ٣١، تهذيب التهذيب ١/ ٤٩، نفحات الأنس ٩٩، طبقات الشعراني ١/ ٨٢، الكواكب الدرية ١/ ٥٣٤، شذرات الذهب ٢/ ١١٠.

(٢) في (ب) وحصل له بذلك السبب ألم.

مُستغرقًا في حالٍ، فقال له أحمد، ولم يكن له خبرٌ عن حاله: يا سجرة التنور[١]، بماذا تأمرُ؟ فلم يُجب، وأعاد ثانيًا، وثالثًا إلى أن قال الشيخُ رحمه الله: ادخلْ فيها، واجلس. ففعل كذلك أحمد، فلمّا مضى بعضُ الزمانِ طَلبهُ أبو سليمان، قالوا: لا نعلم. فتذكَّرَ الشيخُ ما قال، وقال: انظروا في التنور؛ فإنَّ له عهدًا أن لا يُخالفني قطُّ. نظروا في التنور، فوجدوه فيها، ولم يحترقْ عليه شعرة[٢].

نقل أنه قال رحمه الله: رأيتُ في المنام جاريةً في غاية البهاءِ والحُسنِ والجمال، قلت لها: أنت في غايةِ الجمال، ولك وجهٌ وضيءٌ! قالت: وضاءة وجهي وحسني منك. قلت: كيف؟ قالت: لا تذكرُ يا أحمد أنك بكيتَ في الليلة الفلانية، فأخذتُ دموعَكَ ومسحتُ بها وجهي، فصار كما ترى[٣].

وقال: لا تصحُّ التوبةُ إلاّ بعد الندم بالقلب، والاستغفارِ باللسان، والخروج عن عهده المظالم، ولا يُمكنه ذلك إلاّ بعد الاجتهادِ في العبادة، فحينئذٍ ينشأُ من التوبة الاجتهادُ والزهد والصدق، ومن الصدق التوكّل، ومن الاستقامةِ المعرفة، ثم بعد ذلك يظهرُ الحياء، ثم الخوفُ من المكر والاستدراج[٤]، وفي الجملة لا تزول هذه الأحوال عن القلب مخافةَ أن يخلوَ القلبُ عنها، ويَتخلّفَ عن لقاء الله تعالى.

قال: مَنْ عرفَ ما ينبغي له أن يخاف عنه سهلَ عليه الابتعادُ والانتهاء عمّا نهي عنه.

و: من كان أعقلَ فهو بالله أعرفُ، ومن هو بالله أعرفُ يصلُ إلى المقصد بالعجلة[٤].

---

(١) في الأصلين: سا شجرة. وفي الكواكب الدرية ١/ ٥٣٥: وقال: يا سيّدي، التنوّر قد سُجر، فما تأمر.

(٢) قال الذهبي في السير ١٢/ ٩٣: حكاية منكرة.

(٣) انظر صفحة ٢٩٦.

(٤) تقدم هذا القول صفحة ٣٦١ من قول السَّرِي.

قال: الرجاءُ قوّةُ الخائفين(١).

أفضلُ البكاء بكاءُ العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة.

قال عبد العزيز البلخي رحمه الله: سمعتُ أحمد بن أبي الحواري رحمه الله يقول: من نظرَ إلى الدنيا نظرَ إرادةٍ وحبٍّ لها، خرجَ نورُ اليقين والزهد من قلبه(٢).

وحالاتُهُ ومقاماتُهُ وكلماته كثيرة؛ لكن اكتفينا بهذا القدرِ لئلا يطولَ الكلام.

اللهم أنزل عليه شآبيبَ رحمتك، ولا تحرمْنا يا إله العالمين ويا مُجيبَ دعوة الخائفين منًّا من عفوك ومغفرتك.

* * *



(١) في (أ): الرجاء قوتُ الخائفين.

(٢) تقدم صفحة ٣٦١ من قول السري.

(٣٣) أحمد بن خضرويه(١)

ذكر أبي حامد أحمد بن خضرويه البلخي رحمة الله عليه:

كان رحمه الله من كبار مشايخ خراسان رحمهم الله، كاملاً في الطريقة، مَشهورًا بالفتوة، مَقبولاً لدى فِرَقِ الأمة وأهلِ الرواية، مشهودًا له بالولاية.

وله تصانيفُ، وكان له ألفُ مُريدٍ، كلٌّ منهم يمشي على الماءِ وفي الهواء.

وكان في أول الأمر مُريدًا لحاتم الأصم.

وصحب أبا تراب النَّخْشبي، وزار أبا حفص، وقدم إلى بِسطام لزيارةِ أبي يزيد البِسطامي وقد مرَّ في ذكر أبي يزيد(٢) رحمه الله.

وقال أبو حفص: ما رأيتُ أحدًا أكبرَ هِمَّةً ولا أصدقَ حالاً من أحمد بن خضرويه.

وامرأتُهُ فاطمة كانت آيةً في علم الطريقة، وكانت بنتَ أميرِ البلخ، فتابت إلى الله، وبعثت إلى أحمد: أن خاطبني من أبي، فلم يقبلْ أحمد رحمه الله، ثم بعثَتْ إليه ثانيًا، وقالت: ظنّي فيك أحسنُ من هذا، فإنّي حسبتُكَ دالاً إلى الطريق لا صادًّا عنه! ثم بعث أحمدُ إلى أبيها، واستخطبها منه، فأجابه أبوها، وزوّجها منه تبرُّكًا، وتركتْ هي أشغالَ الدُّنيا، واطمأنّتْ معه إلى أن قصد زيارة سلطان العارفين، وذهبت فاطمةُ معه، فلمَّا وصلتْ إلى أبي يزيد رفعَتِ

---

(١) طبقات الصوفية ١٠٣، حلية الأولياء ١٠/ ٤٢، تاريخ بغداد ٤/ ١٣٧، الرسالة القشيرية ٦٣، مناقب الأبرار ٢٨٩، صفة الصفوة ٤/ ١٦٣، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢٩٩، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٧، الوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٣، طبقات الأولياء ٣٧، نفحات الأنس ٨٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٣٢، طبقات الشعراني ١/ ٨٢.

(٢) انظر الصفحة ١٩٠.

الحجاب، وكشفَتْ عن وجهها، وشرعَتْ في الحديث مع أبي يزيد، فتغيَّر أحمدُ عن جرأتها[١]، وغارَ عليها، ثم قال لها: يا فاطمة، وما كانت تلك الجرأةُ مع أبي يزيد؟ قالت: إنك محرمٌ لطبيعتي، وهو لطريقتي، فيك أصلُ إليه[٢]، وبه إلى الله تعالى.

ومعنى هذا الكلام: أنك محتاجٌ إليَّ، وهو مُستغنٍ عنّي.

وكان لها انبساطٌ وجرأة مع أبي يزيد، حتى أنَّ أبا يزيد رحمه الله قال لها: يا فاطمة، ما هذا الحنّاءُ على يديك؟ فقالت: يا أبا يزيد، كان لي انبساطٌ معك ما لم تَكنْ مُطّلعًا على حنّائي، ولم تكن تنظرُ إليَّ، فالآن صحبتي معك حرامٌ.

وقد مرَّ في ذكر أبي يزيد[٣] أنه قال: دعوت اللهَ حتى سوّى في نظري بين الجنِّ والمرأة، حتى لا يتوهَّمنَّ في شأنه شيئًا لا يليق به.

ثم ارتحلَ أحمدُ مع فاطمة إلى نيسابور، وسكنَ هناك، وطاب معه أهلُ نيسابور.

واتَّفقَ أن جاء يحيى بن معاذ رحمه الله إلى نيسابور قاصدًا بلخَ، فقال أحمد لامرأتِهِ فاطمةَ: أريدُ أن أتَّخذَ دعوةً ليحيى. فقالت: إن أردتَ ذلك فاذبحِ الأغنامَ والبقر والحمير، وألقها من باب دارك إلى بعض الطريق. قال أحمد: أما الأغنام والبقر[٤] فأعلمُ، فما بالُ الحمير؟ قالت: تدعو فتىً إلى دارك، فلا أقلَّ من أن يكونَ لكلابِ المحلّةِ نصيبٌ. فكانت فتوَّتُها إلى هذه الحالة والمرتبة، حتى قال أبو يزيد: من أرادَ أن ينظرَ إلى رجلٍ في لباس الرجال[٥] فلينظر إلى فاطمة.

نقل عن أحمد بن خضرويه رحمه الله أنه قال: قهرتُ النفسَ مدّةً مديدةً إلى

---

(١) في (ب): فتغير أحمد عن جوابها.
(٢) في (ب): فيك أصل إليك.
(٣) انظر الصفحة ٢٠٠.
(٤) في (ب): فاذبح الأغنام والبقر، فأعلم فما بال.
(٥) كذا في الأصل، ولعل الصواب: إلى رجلٍ في لباس النساء.

أن عزم جماعةٌ السفرَ إلى الغزو[١]، فظهرتْ في نفسي رغبةٌ عظيمة إليه، وقصدتُ على المشي معهم، فقلت: ألبتَّة إن النفسَ لا ترغبُ في الطاعة، ولا يكون لها نشاطٌ فيها، ولا ميلٌ إليها، فليس هذا إلاّ مكرٌ وحيلة من النفس[٢]، ثم تفكّرتُ فيه، فظننتُ أنّي لا أُفطرُ في سفري هذا، وأَصومُ دائمًا، فوافقتني النَّفسُ في ذلك، فقلت: يحتملُ أن يكونَ مكرُها لأجل أنّي أُتعبُها بالصلاة في الليل، فقصدتْ هذا السفر لتنام بالليل وتستريح، فشرطتُ معها أن لا أَتركَها تنام بالليل قطعًا، وأُسهرُها إلى الصباح، فرضيتِ النفس بهذا أيضًا، قلت: يمكن أنّها عجزتْ عن الخلوةِ والعزلة، فتُريدُ الاختلاطَ في السفر مع الخلق والاستئناس بهم، فشرطتُ معها ألاّ أختلط بالسفر مع[٣] أحدٍ، فرضيت بهذا أيضًا، ثم إني عجزتُ في شأنها، وفي معرفةِ مَكرِها وتسويلها، حتى رجوتُ الله تعالى، وتضرَّعتُ لديه ليُلهمني مكرها، فحينئذٍ اعترفتِ النفسُ وقالت: إنك تقتلني بخلافِ مُرادي كلَّ يومٍ كم مرة، وأُريد أن أمشي إلى الغزو، لعلّي أُقتلُ وأخلصُ، وأيضًا يشتهرُ في الدُّنيا أنَّ أحمدَ بن خضرويه استُشهد في الغزو[٤]. قلت: إلهي، خلقتَ نفسًا تُنافقُ في الحياة وبعدها أيضًا، لا تُؤمنُ في هذه الدنيا ولا في الآخرة، حسبتُ أنّها تدلّني على طاعةٍ، فإنها لا تطلبُ إلاّ الرياءَ ثم الخلاصَ من المُكابدةِ والمشقّة، فبعدَ ذلك بالغتُ في مُخالفتها بأضعافِ ما كان قبل.

نقل أنه قال: كنتُ في البادية أَقطعُها إلى مكّةَ على التوكُّلِ، فانكسرتْ برجلي شوكةُ أُمِّ غيلان، فما أَخرجتُها لئلا يبطلَ توكُّلي، ووصلت إلى مكَّةَ شرّفها الله تعالى على العرجِ، وقضيت المناسكَ بعونِ الله تعالى، ورجعتُ، وفي دوام الطريق كان القيحُ يَخرجُ منها، وأكون معها في مشقّةٍ، فاطّلعَ بعضُ

---

(١) في (أ) و(ب): في الغزاه.

(٢) في (أ): فليس هذا الأمر وسيلة من النفس.

(٣) في (ب): الاختلاط في السفر مع أحدٍ، فرضيت.

(٤) في (أ) و(ب): في الغزاه.

الناس، وأخرجَ الشوكةَ من رجلي، وبقيتْ رجلي مقروحةً حتى وصلتُ إلى بِسطام، قال لي أبو يزيد مُبتسمًا حين رآني قال: ماذا فعلتَ بالقيدِ الذي كان على رجلك؟ قلت: تركتُ اختياري إلى اختياره.

نقل أن سارقًا دخلَ بيته، ودارَ في أطرافه، ولم يجدْ شيئًا، فأراد أن يخرجَ، فقال له أحمد: يا فتى، خذِ الدلوَ، واستقِ الماءَ من البئر، وتوضَّأْ، واشتغلْ بالصلاة، وقف هنا، فإن رزقني الله تعالى شيئًا أعطيك[١] لئلا تخرجَ من عندنا محرومًا. ففعل السارق ما أَمَرَ به الشيخ، ففي الغدِ جاء رجلٌ وأتى بمئة دينار، ووضعه بين يدي الشيخ، فقال الشيخُ للسارق: خذ هذا؛ فإنّه جزاءٌ لصلاتك ليلةً واحدةً. فظهرتْ للسارقِ حالةٌ عجيبة، ووقعتْ رجفةٌ على أعضائه، وشرعَ في البكاء، وقال: أخطأت الطريقَ؛ لأنّي عملتُ لله تعالى ليلةً واحدةً فأكرمني بهذا. فتابَ ورجعَ إلى الله تعالى ببركة حُسْنِ خُلق أحمد.

نقل عنه أنه قال: أضافَ رجلٌ فقيرَ غنيًّا، وقدَّمَ إليه خبزًا يابسًا، فلمّا عادَ الفتى إلى بيته أرسل للفقير صُرَّةً، فلم يقبلْها الفقير، وقال: هذا جزاءُ الفقير[٢]، كشفَ لديه سرَّ فقده.

نقل أن رجلاً من الأكابر رأى في المنام أحمدَ جالسًا على سريرٍ، وجمعٌ من الملائكة يجرُّون السريرَ بسلاسلَ من الذهب، ويمشون به في الهواء، فقال: يا شيخ، إلى أين؟ قال: إلى زيارة صديق. فقال: مع هذا القدرِ والجلالة أَنت تَزوره؟ قال: نعم، إن لم أمضِ إليه هو يجيء إليَّ زائرًا، ويكون له درجة الزائرين لا لنا.

نقل أنه نزل في زاويةٍ نوبةً مع ثيابٍ خَلَقَةٍ، فارغًا عن رسمِ أهلِ التصوف في الظاهر، ولكن هو مَشغولٌ بوظائف، وأصحابُ الزاوية يُنكرونه، ويضمرون عنه، ويَنظرون إليه بالتحقير، وقالوا لشيخهم: ليس هذا الرجلُ من أهل

(١) في (ب): رزقني الله أعط لئلا.

(٢) في (ب): وقال: ليست هذه جزاء الفقير.

زاويتنا، ولا يُناسبنا. إلى أن وقعَ الدلو يومًا في البئر، فجاء أحمد إلى رأس البئر، وقال للشيخ: اقرأ الفاتحة ليطلعَ الدلوُ من البئر. فتوقّفَ الشيخُ في هذا الشأن، فقال أحمد: يا شيخ، ائذنْ في أن أقرأ. فأذِنَ له الشيخُ، فقرأ أحمدُ الفاتحة، وطلعَ الدّلو على رأس البئر، فتحيّر ذلك الشيخُ عن هذا، وقال: من أنت؟ فإنَّ بيدرَ حياتي صار تبنًا في جنب حياتك[١]. فقال: قلْ لأصحابك لا يَنظروا إلى المسافرين بعين الحقارة، وها أنا سافرت.

نقل أنَّ رجلاً فقيرًا جاءَ إليه ضيفًا، وأشعلَ الشيخُ لإعزازه[٢] إحدى وسبعين شمعةً، فقال الفقير: لا يُعجبني هذا، فإنَّ التكلّفَ لا يليقُ بالتصوُّف. فقال أحمد رحمه الله: قم إلى الشموع، وأطفِئْ الشمعةَ التي ليست لله تعالى. فقام الضيف، وسعى واجتهد، ولم يقدرْ على إطفاءِ شيءٍ منها، فتعجَّبَ الفقيرُ عن هذا الأمر، فلمّا أصبحَ قال أحمد: تعالَ معي حتى ترى أعجبَ من ذلك. فذهب به إلى كنيسةٍ للنصارى، فالتقى هناك بعظيمِ النصارى، ففرحَ بقدومِ أحمد، وأجلسه ورحّبه، وقدَّمَ إليهما خِوانًا عليه طعامٌ، والتمسَ منه الأكلَ، فقال أحمد: لا يأكلُ الصديقُ مع العدو. فاضطرَّ العظيمُ لأجلِ إكرامِ الضيف، ولم يقدرْ على المُخالفة، فأعزم على الإسلام، وقال: يا شيخ، اعرضْ عليَّ الإيمان. فعرضَ، وآمنَ هو ومعه سبعون من خُدَّامه ومُلازميه، ثم رأى الشيخُ[٣] في الليلة في المنام، كأنّه تعالى وتقدّس يقول له: يا أحمد، إنك قد أشعلتَ لأجلنا إحدى وسبعين شمعة، فنحن لأجلك نوّرنا قلبَ أَحدٍ وسبعين[٤] رجلاً بنور الإيمان، فهذا بذاك.

من كلامه أنه قال: كرامةُ الفقير في ثلاثة: التواضع، وحُسن الأدب، والسخاوة.

---

(١) في (أ): فإنَّ بذر حياتي صار نبتًا.
(٢) في (ب): ضيفًا لي أشكل الشيخ.
(٣) في (ب): ثم رجع إلى الشيخ في الليلة.
(٤) كذا في (ب)، وفي (أ): إحدى وسبعين.

و: من أراد أن يكون اللهُ تعالى معه فليلازمِ الصدق، قال الله تعالى: إن الله مع الصادقين[١].

و: الصبرُ زادُ المضطرّين، والرّضا درجةُ العارفين.

حقيقةُ المعرفة أن تُحبَّهُ بالقلبِ[٢]، وتذكره باللسان، وتقطعَ همَّتَكَ وقصدَكَ عن غيره.

و: أقربُ الناسِ إلى الله تعالى أحسنُهم خُلقًا.

وسئل عنه عن المحبة، فقال: لا يعظمُ في قلبك الكونان ـ أي الدنيا والآخرة ـ لأنَّ قلبَكَ يكونُ مملوءًا عن ذكر الله تعالى، وأن لا تشتهي شيئًا سوى الخدمة والطاعة له، إذ ليس أوفقُ[٣] للمحبِّ شيئًا من الخدمة.

و: القلبُ موضعٌ إذا امتلأ من الحقِّ ـ أي من محبَّته ومعرفته والتفكّرِ في آلائه وصفاته ـ فاضَتْ أنوارُهُ على الجوارح، وإنِ امتلأ من الباطلِ ظهرتْ ظُلماتُهُ على الجوارح.

و: لا نومَ أثقلُ من الغفلة، ولا رقَّ أملكُ من الشهوة.

و: لولا ثقلُ الغفلة لما ظفرتْ بك الشهوةُ.

تمام العبودية في الحرية.

أقول: قال الإمام أبو القاسم[٤] رحمه الله: الحرية أن لا يكونَ العبدُ تحت رقِّ المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات.

وقال الأستاذُ أبو علي الدقاق رحمه الله: من دخلَ الدُّنيا وهو حرٌّ عنها

---

(١) كذا الأصلين، ولا يوجد هذا في كتاب الله، ولعلّه أراد قوله تعالى في سورة التوبة، الآية (١١٩): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ والخبر في حلية الأولياء ١٠/ ٤٢، وبه: فإن الله مع الصادقين.

(٢) في (ب): أن تحبّ بالقلب.

(٣) في (ب): ليس أوقف.

(٤) قول المحشّي كلّه في الرسالة القشيرية ٣٢٨ وما بعدها. (باب الحرية).

ارتحلَ إلى الآخرة وهو حرٌ عنها. وما أحسن ما أنشد[١]:

مـا بقـي فـي الإنسِ حـرٌ لا ولا فـي الجـنّ حـرُ
قـد مضـى حـرُ الفـريقَيْـ ـنِ فحلـوُ العيـشِ مـرُ

وقال أبو العباس السياري: لو صحَّتِ الصلاةُ بغيرِ القرآن لصحَّتْ بهذا البيت:

أتمنّـى علـى الـزّمـانِ مُحـالاً أن تـرى مُقلتـاي طَلعـةَ حـرٍّ[٢]

والله أعلم.

وقال: الطريقُ بيّنٌ، والحقُّ واضحٌ غيرُ خفي، ثم لا يمنعُ من السلوك إلاّ العمى.

وسئل عنه: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قال: حفظُ السرِّ عن الالتفات إلى غيرِ الله تعالى.

قيل: سمعَ يومًا هذه الآية: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] قال: نعم التعليم! إذ لا مفرَّ إلاّ لله تعالى.

استوصى رجلٌ، فقال: أمتْ نفسك ليُحييها اللهُ تعالى[٣].

أقول: وممّا نُقل: قال محمد بن حامد: كنتُ جالسًا عند أحمد بن خضرويه وهو في النزعِ، وكان قد أتى عليه خمسٌ وتسعون سنة، فسأله بعض أصحابه عن مسألةٍ، فدمعتْ عيناه، وقال: يا بُنيَّ، بابٌ كنتُ أدقُّه منذ خمسٍ وتسعين سنةً، هو ذا يُفتح لي الساعةَ، ولا أدري بالسعادة أم بالشقاوة، أنّى لي أوان الجواب[٤]. والله أعلم.

نقل أنه كان عليه سبعُ مئة دينار دينًا قد فرَّقها على المساكين، وغرماؤه

(١) في الرسالة القشيرية ٣٣٠ البيتان لمنصور الفقيه.
(٢) البيت لأبي الحسن علي بن محمد البديهي. انظر يتيمة الدهر ٣/ ٤٠٠.
(٣) الخبر ليس في (ب).
(٤) الرسالة القشيرية ٦٤.

عنده، فنظرَ إليهم وقال: اللهم إنك جعلتَ الرُّهونَ وثيقةً لأرباب[١] الأموال، وأنت تأخذُ عنهم وثيقتَهم - يعني روحه - فأدِّ عنهم. فدقَّ البابَ داقٌّ وقال: أين غرماءُ الشيخ؟ وقضى عنه ديونه، ثم خرجَتْ روحه، رحمه الله، ومات سنة أربعين ومئتين.

اللهم يا كريم، نسألُكَ مُستشفعين إليك بأوليائك رضوان الله عليهم أجمعين أن تقضي عنَّا جميعَ ديوننا، وأَنْ لا تَكلنا إلى أنفسنا طرفةَ عينٍ[٢]، وأن تكونَ لنا حافظًا وناصرًا ومُعينًا على كلِّ خيرٍ يا أرحمَ الراحمين، وصلِّ اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *



(١) في (ب): الرهون في وثيقةٍ لأرباب.
(٢) في (ب): إلى أنفسنا، ولا إلى هوى أنفسنا طرفة.

(٣٤) أبو تراب النخشبي(١)

ذكر أبي تراب عسكر بن حُصين النَّخْشَبي رحمه الله:

كان رحمه الله مُجتهدًا في الطريقة، مجرّدًا في الطريقة، مُجرّدًا عن طُرق البلاء، سيّاحًا في باديةِ الفقر، حميدًا عند الطائفة.

وهو من كبارِ شيوخ خُراسان، وله في التقوى والمُجاهدة قدمٌ راسخةٌ، وفي الإشاراتِ نَفَسٌ عالٍ، وفي الكلمات مقامٌ سنيٌّ.

أقول: وقيل: إنه صحب حاتم الأصم، وأبا حاتم العطار البصري رحمهم الله.

مات سنة خمس وأربعين ومئتين. والله أعلم..

نقل أنه حجَّ أربعين حجةً، وما نام سنين، ولم يضعْ رأسَه على الوسادة. قال: لكن نوبةً في الحرمِ ثقلتْ عيناي من النوم في السجود، فرأيتُ طائفةً من الحور ظهرنَ عليَّ، فقلتُ: من مُشاهدة الغفور لا ألتفتُ إلى الحور. قلن: إن لم تلتفتْ إلينا شمَّتَّ بنا نظراءنا من الحور. فقال: الرضوان هو اليوم لا يلتفتُ(٢) إليكنَّ، ولكن غدًا إذا استقرَّ في الجنَّةِ، وجلس على سرير الملك

---

(١) طبقات الصوفية ١٤٦، تاريخ أصبهان ٢/ ١٤٦، حلية الأولياء ١٠/ ٤٥ و٢١٩، تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٥، الرسالة القشيرية ٦٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٤٨، الأنساب ١٢/ ٦٠، مناقب الأبرار ٣١٢، صفة الصفوة ٤/ ١٧٢، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٧، مختصر تاريخ ابن عساكر ١٧/ ٥٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥، العبر ١/ ٤٤٥، طبقات السبكي ٢/ ٣٠٦، طبقات الأولياء ٣٥٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢١، نفحات الأنس ٧٦، طبقات الشعراني ١/ ٨٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٤٢، شذرات الذهب ٢/ ١٠٨.

والنخشبي: نسبة لنخشب، وهي نفسها نسف من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند.

(٢) في (أ): لا يتفرّغ إليكنَّ.

يلتفتُ إليكنَّ. ثم اعتذرن إليه ما وقعَ من التقصير، قال: قلت: إن أنزل الجنة يكون كذلك.

أقول: مراده أنه لا يقنع بالجنّةِ، ولا يَرضى بها؛ بل يطمعُ في منزلةٍ أعلى من الجنة، وهي المُشارُ إليها بقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] رزقنا الله تعالى بلطفه وكرمه. والله أعلم.

قال ابن الجلاء رحمه الله: صحبت ست مئة شيخ ما لقيتُ فيهم مثلَ أربعة، أوّلهم: أبو تراب النخشبي[١].

وقال: دخل أبو تراب رحمه الله مكّةَ طيّبَ النفسِ، فقلت: أين أكلتَ؟ قال: أكلتُ بالبصرةِ، وبالنّباج[٢]، وهاهنا.

نقل أنه كان إذا رأى من أصحابه ما يكرهُهُ زادَ في اجتهاده، وجدَّدَ توبتَهُ، ويقول: بشؤمي دُفع إليه ما دفع، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكان رحمه الله يقول لأصحابه: من لبسَ منكم المرقعةَ فقد سأل، ومن قعد في خانقاه أو مسجدٍ فقد سأل، ومن قرأ القرآن كما يسمعه الناس فقد سأل.

أقول: يعني إذا فعلَ هذه الأشياء فقد أبطلَ توكُّلَه، لأنَّ ذلك يوهمُ أنه يحتاجُ له الناسُ، ومع ذلك يُظهر احتياجَهُ للناس، وذلك خلافُ التوكّل. والله أعلم..

نقل أن أبا تُراب نظرَ يومًا إلى صوفيٍّ من تلاميذه مدَّ يدَه إلى قشرِ بطيخٍ، وقد طوى ثلاثة أيام، فقال: تمدُّ يدَكَ إلى قشرِ بطيخٍ! لا يصلحُ لك التصوُّفُ، الزمِ السوق.

وقال: بيني وبين الله تعالى عهدٌ أن لا أمدَّ يدي إلى حرامٍ إلاّ قصرَتْ يداي عنه.

---

(١) والثلاثة الأخرون هم: أبو يحيى الجلاء، وأبو عُبيد البُسري، وذو النون المصري. طبقات الشافعية ٢/ ٣٠٧، وانظر طبقات الصوفية ١٤٧.

(٢) النّباج: موضع على عشر مراحل من البصرة. معجم البلدان.

قال يوسف بن الحسين رحمه الله: سمعتُ أبا تُراب رحمه الله أنه قال: ما تمنَّتْ نفسي عليَّ قطُّ إلاّ مرّةً، تمنَّت عليَّ خبزًا وبيضًا، وأنا في سفري، فعدلتُ عن الطريق إلى قريةٍ، فوثب رجلٌ وتعلّق بي، وقال: كان هذا مع اللصوص. فبطحوني وضربوني سبعين خشبةً، فوقفَ علينا رجلٌ وقال: هذا أبو تُراب النَّخْشَبيُّ. فخلّوا عنّي، واعتذروا إليَّ، ثم أدخلني رجلٌ منزلَه، وقدّم إليَّ خبزًا وبيضًا، فقلت: كُلْهَا بعد سبعين جلدة، وقال: بحقٍّ وفاء الإسلام إنَّه لم يمضِ عليَّ وقتٌ أطيبُ من هذا الوقت، وكنتُ من زمانٍ أتمنّى هذا لأرى نفسي بمُرادي، فرأيتُها اليومَ، ووصلتُ إلى مرادي.

نقل أنَّه ظهرَ في أيامه ذئبٌ يأكلُ الناس، وقد أكلَ كثيرًا من الناس، وعضَّ كم من أولاده، فجاءَ إليه يومًا، وهو على سجّادته، فأخبروه، فلم يلتفتْ إليه، فتقرَّبَ الذئب إليه، ونظر، ولم يقصدْهُ، ورجع ومضى.

نقل أنه مع أصحابه مرَّ ببادِيةٍ، فغلبَ عليهم العطش، وأيضًا كانوا يريدون الماء للتوضُّوءِ، فراجعوا إلى الشيخ، فخطَّ خطًا على صورةٍ دائرةٍ، وأشارَ إليه، فنبع الماءُ في الحال، فشربوا وتوضَّؤوا.

قال أبو العباس السيّاري: كنتُ مع أبي تراب في البادية، قال بعض الأصحاب: عطشتُ. فضربَ الشيخُ قدمَهُ على الأرض، ففارت عينٌ، وجرى الماءُ، فقال ذلك الشَّخصُ: أشتهي أن أشربَ بقدحٍ. فضرب يدَهُ على الأرض، فظهرَ قدحٌ من زجاجٍ أبيضُ ما رأينا مثلَه، فشربَ الشيخُ رحمه الله وسقانا، وكان القدحُ معنا إلى مكّة شرفها الله تعالى.

قال: كنتُ بالبادية في ليلةٍ مُظلمةٍ سوداء، إذ رأيت شخصًا أسود طويلاً مثلَ منارةٍ استقبلني، ففزعتُ منه، وقلتُ: أجنّيٌّ أنتَ أم أنسي؟ فقال: أمسلمٌ أنت أم كافر؟ قلت: بل مسلمٌ. فقال: المُسلمُ يخافُ ممّا سوى الله!؟ فسكن قلبي بهذا الكلام، وعلمتُ أنّه مبعوثٌ من الغيبِ، فسَلِمَتْ نفسي، وذهب الروع.

قال: كنت بالبادية، فرأيت غلامًا بلا زادٍ ولا راحلة، قلت: لو لم يكنْ هو

على يقينٍ لهلك. ثم قلت له: تقطعُ هذه البادية بلا زادٍ ولا راحلة؟! قال: ارفع رأسَك يا شيخ ترَ غيرَ اللهِ أحدًا يَرزقُ ويعين؟ قلت: فاذهب أينما تريد.

ومن كلماته أنه قال: عشرين سنةً ما طلبتُ من أحدٍ شيئًا، ولا أعطيتُ أحدًا شيئًا.

مارأيتُ شيئًا أضرَّ بالمريد من السفر على متابعة النفس والهوى، ولا وجدَ الفسادُ طريقًا إلى المُريد إلاّ بسبب الأسفار الباطلة.

قال: قال الله تعالى: واجتنبوا الكبائر[1]، ومن الكبائر الدعوى الباطلة، والإشارةُ الفاسدة، وألفاظٌ خالية عن الحقيقة. ثم قال: قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١] ولا تصلُ نفسٌ إلى رضا الله تعالى إن كانَ للدُّنيا في قلبها مثقالُ ذرّةٍ مقدار واعتبارٍ.

إذا كان العبدُ صادقًا في العمل يجدُ الحلاوة قبل العمل، وإن كانُ مخلصًا وجدَ الحلاوة في العلم[2].

تطلبون شيئين في الدنيا، ولا تجدونهما: السُّرورَ والراحة؛ فإنَّهما في الجنة.

و: سببُ الوصول إلى الحقِّ سبع عشرة درجة أدناها الإجابة ـ أي لله ورسوله ـ وأعلاها التوكّلُ على الله بالحقيقة.

و: التوكّلُ أن تُلقي نفسَك في بحر العبودية، وتُعلّقَ قلبَك بالله، إن أعطاكَ شكرتَ، وإن منعَكَ صبرت.

لا يُكّدرُ العارفَ بالله شيءٌ؛ بل الكدوراتُ كلُّها تصفو به.

و: من القلوب قلبٌ يحيا بنور تفهيم الله تعالى.

---

(١) كذا في (أ)، وفي (ب): قال الله تعالى: اجتنبوا كثيرًا من الظن واجتنبوا الكبائر.
وقوله: (اجتنبوا الكبائر) ليس في كتاب الله العزيز، وكأنه أراد قوله تعالى في سورة الشورى (٣٧): ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾.

(٢) في (أ): وجد الحلاوة في العمل.

و: لا شيءَ بعد العبادة أنفعُ من صلاحِ الخواطر.

و: احفظْ فكرَكَ؛ فإنه مقدّمةٌ لكلِّ شيءٍ، لأنَّه من صحَّ فكرُه يصحُّ بعده ما يجري عليه من الأحوال، ويصدرُ منه من الأفعال.

و: إنَّ اللهَ تعالى يُنطقُ العلماءَ في كلِّ زمانٍ بما يُناسبُ أعمالَ أهلِ ذلك الزمان.

حقيقةُ الغِنى أن تستغني عمَّن هو مثلك.

قال له شخصٌ: هل لك حاجةٌ أَقضيها؟ قال: كيف تكونُ لي حاجةٌ إليك أو إلى أمثالك، وليس لي حاجةٌ مرفوعةٌ إلى الله تعالى. لأنّه كان في مقامَ الرِّضا، والراضي لا حاجةَ له.

وقال: قوتُ الفقير ما وجد، ولباسُهُ ما ستر، ومسكنُهُ حيث نزل.

قيل: إنه ماتَ بالبادية، نهشته السباع، وقيل: وصلَ إليه جماعةٌ بعد سنين رأوه قائمًا مستقبلَ القبلة، يبسَ جلدُهُ على عظمه، وعنده ركوتُهُ وعصاه، ولم يصل إليه سَبُعٌ أصلاً.

رزقنا الله تعالى ببركتهم عيشَ الأبرار، وموتَ الأخيار؛ إنه كريم غفّار، رحيم ستّار.

* * *

(٣٥) يحيى بن معاذ الرازي[(١)]

ذكر أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي روّح اللهُ روحه:

كان رحمه الله عديمَ النظير في وقته، له لسانٌ في الرجاء خاصَّةً، وكلامٌ في المعرفة، وخُلقٌ عظيم، وبسطٌ ممزوجٌ بالقبض، مشغولاً بعلم الخائفين، وإن كان الرجاءُ غالبًا عليه، كانَ ترجمان الطريقة، ولسانَ المحبّة، ذا همّةٍ عالية، وواعظًا شافيًا، وفي العلم والعملِ له قدرةٌ وقدمٌ راسخةٌ، موصوفًا بالمجاهدة والمشاهدة.

وله تصانيفُ[(٢)] وكلماتٌ مطبوعةٌ موزونة، وكلامٌ مقبول، ونَفَسٌ مؤثِّرٌ حتى قال بعضُ المشايخ: إنه من الطفولية نشأ على سيرة المشايخ، ما تكلَّمَ أصلاً بما لا يعنيه، ولا جرى عليه الهزلُ، ولا صدرَتْ عنه كبيرةٌ.

وفي المعاملة والسلوك كان مُجدًّا إلى حيث ما أطاقَهُ أحدٌ.

قال: اعلمْ أنَّ تركَ العبودية ضلال.

و: الخوفُ والرجاء قائمتان للإيمان، فإن لم يوجد ركنٌ من أركانه يكون ضلالةً، فالخائفُ يعبدُ الله تعالى على خوف القطيعة، والراجي يَعبدُهُ رجاءً في الوصلة، فإن لم تحصل العبادةُ لا الخوفُ يصحُّ ولا الرجاء.

---

(١) طبقات الصوفية ١٠٧، حلية الأولياء ١٠/ ٥١، تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٨، الرسالة القشيرية ٦٢، مناقب الأبرار ٢٧٠، المنتظم ٥/ ١٦، صفة الصفوة ٤/ ٩٠، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ١٤٥، وفيات الأعيان ٦/ ١٦٥، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥، العبر ٢/ ١٧، مرآة الجنان ٢/ ١٦٩، البداية والنهاية ١١/ ٣١، طبقات الأولياء ٣٢١، نفحات الأنس ٨٣، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠، طبقات الشعراني ١/ ٨١، الكواكب الدرية ١/ ٧٢٦، شذرات الذهب ٢/ ١٣٨، هدية العارفين ٢/ ٥١٦.

(٢) من تصانيفه كتاب المريدين: انظر هدية العارفين ٢/ ٥١٦.

نقل أنه صعدَ المنبرَ نوبةً، وقد حضرَ في مجلسه أربعةُ آلاف إنسان، فنظر إليهم، ونزل، وقال: من يُتكلَّمُ له ليس[١] حاضرًا.

كتبَ إليه أخوه من مكّة: إنّي كنتُ أتمنّى ثلاثةَ أشياء، فحصل اثنان وبقي واحدٌ، أسألُ الله تعالى أن يَرزقني ذلك أيضًا، كان مرادي أن أسكنَ باقي عمري ببقعةٍ مباركة، فرحلتُ إلى مكّة، وهي أشرفُ البقاع، وكنتُ أتمنّى خادمًا يُعينني ويخدمني، فرزقني الله جاريةً لائقةً، والثالث أن ألتقي بك قبل الموتِ بتوفيقِ الله تعالى.

فكتب يحيى في الجواب: أما إنك تمنَّيتَ أن تسكنَ في أفضلِ البقاع، فاجتهدْ أن تكونَ أفضلَ الناس، واسكن أينما تريد، فإنَّ البقعةَ تتزيَّنُ بالرجال، لا الرجال بالبقاع، وأما إنك تمنَّيتَ خادمًا فأعطاك الله، فلو كنتَ ذا مروءةٍ لما صيَّرتَ مَنْ يخدمُ الله تعالى خادمًا لك، ولا شغلتَهُ بخدمتك عن خدمة الله تعالى، فإنك في مقام الخدمةِ وتطلبُ أن تكونَ مَخدومًا!؟ فإنَّ الخدمةَ صفةُ العبد، والمَخدوميةَ صفةُ الحقِّ جلَّ جلاله، وإذا تمنّى العبدُ صفةَ الحقِّ صار فرعونًا، وأمّا إنك تمنّيتَ الالتقاء بي قبل الموت، فإنك لو كنتَ خبيرًا عن الله تعالى لما ذَكرتني، فصاحبِ الله تعالى بحيث لا تذكرْ عن أخيك، فإن هاهنا لا يقرّبُ بالأولاد، فكيف بالأخ؟ فإن وجدتَ الله تعالى فماذا تعملُ بي، ومالك منّي؟!.

نقل أنه بعثَ كتابًا إلى صديقٍ له، مضمونُهُ: الدنيا كالنوم، والآخرةُ كاليقظة، من يرى في المنام أنه يبكي، يدلُّ على أنَّه يضحك في اليقظة، فأنت اخترْ في الدنيا البكاءَ لتضحكَ في الآخرة وتفرحَ.

نقل أنه كانت له بنتٌ، فطلبت يومًا من والدتها شيئًا، فقالت: اسألي من الله تعالى. قالت البنت: أنا أستحيي أن أسألَ الله تعالى شيئًا هو مُشتهى نفسي، فإن كان عندك فاعطني، وإلاّ فلا.

---

(١) في (أ): من تَكلّم له ليس.

نقل أنّه مرَّ مع أخٍ له بقريةٍ، فقال الأخُ: هذه القرية موضعٌ جيّدٌ، ومقامٌ حسن. فقال يحيى: أحسنُ منها قلبٌ فارغ منها، لا يلتفتُ إليها وإلى أمثالها، ولكن اكتفِ من المُلك بالمَلك.

نقل أنه دُعيَ إلى دعوةٍ، وأنه كان قليلاً، فألحُّوا عليه ليأكل، قال: لا نضع من اليد مقرعةَ الرياضة طرفة عين؛ لأنَّ هوى النفس قد اختفى علينا، وينتظرنا في المرصد، فإن سلّمنا إليه العنان لحظةً تورّطنا.

نقل أنه كان عنده في ليلٍ شمعٌ مَشعول، فهبّتْ ريحٌ أطفأته، فصاح يحيى باكيًا، وجزع مُتضرّعًا، فقيل: وما أصابك؟ قال: شمعُ الإيمانِ في صدورنا كذلك مُضيءٌ، فنخافُ من أن تهبَّ لنا ريحٌ من رياح الاستغناء وتطفئهُ.

قيل: الدنيا عنده لا تساوي مع ملك الموت حبةً. قال: لو لم يكن ملك الموت لم تساوِ الدنيا حبة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الموتَ حبسٌ يُوصلُ الحبيبَ إلى الحبيب.

وبلغ يومًا في قراءته هذه الآية: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١] قال: إيمانُ لحظةٍ لا يعجزُ عن محوِ كفرِ مئتي[(١)] سنة، فإيمانُ سبعين سنة كيف يعجز عنه؟!.

أقول: يُشير إلى أن الكافرَ إذا آمن فإيمانُهُ يهدمُ ما كان قبلَهُ من الكفر والمعاصي، وإن كان ذلك الإيمانُ ساعةً وأقلَّ، ثم يموت، فالإيمان الأزليُّ المستمرُّ ـ رزقنا الله تعالى ـ أولى بذلك. والله أعلم..

نقل أنه قال: إن قال الله تعالى[(٢)] يوم القيامة لي: يا يحيى، ماذا تريد؟ أقول: يا إلهي ومولاي، أُريدُ أن تُرسلني إلى قعرِ جهنم، وتأمرَ بأن تُضربَ لي خيمةٌ من النار، ويوضع سريرٌ، فإذا قعدتُ على ذلك السرير تأذنُ لي أن أتنفَّسَ بما وضعتَ في سرّي ليحترقَ مالكُ وجميعُ خزنةِ جهنّمَ مع جهنم، ويصيرَ الكلُّ

(١) في (أ): محو كفره مئتي.
(٢) في (ب): نقل أنه قال الله تعالى.

عدمًا محضًا، مصداقُهُ ماوردَ في الحديثِ: «إنَّ النَّارَ تقول للمؤمنِ وقتَ عبورِهِ: جزْ يا مؤمن؛ فإنَّ نورَكَ أطفأَ لهبي[١]».

وقال: لو كانتِ النارُ في تَصرّفي تحت حكمي لما أَحرقتُ عاشقًا قطُّ، فإنه قد احترقَ مئةَ مرة بنار العشق.

أقول: والتخصيصُ بالمئة إما لبيانِ الكثرةِ لا للحصرِ كما هي العادة في المحاورات، أو لأنَّ المنازلَ بين العبدِ والربِّ كما قال بعضهم: ألفٌ، ثم اختصروها إلى مئةٍ[٢]، وأدرجوا في كلِّ منزلٍ عشرةَ منازل، أوّلُها التوبة، وآخرها الفناء، فكأنَّ العاشقَ السالكَ[٣] يحترقُ في كلِّ منزلٍ من المنازل المئة نوبةً بنار الاشتياق إلى الحبيب على الإخلاص. والله أعلم..

فقال سائلٌ: ولو كان للعاشق جرمٌ كثير فلا يحترقُ أيضًا؟ قال: نعم؛ لأنَّ الجرمَ لم يصدر عن العاشق بالاختيار؛ لأنَّ عملَ العاشقِ اضطراريٌّ لا اختياري.

ومن كلامه أنه قال: مَنْ فرحَ في خدمة الله تعالى فجميعُ الأشياء تقرُّ عينُها بالنظر إليه.

و: إنَّ الله تعالى أكرمُ من أن يدعو العارفين إلى طعامِ الجنة وإنَّ لهم هِمَّةً لا يَقنعون إلاّ بلقاء الله تعالى، ودوامُ اللذَّةِ بدوامِ المُشاهدة.

و: على قدرِ ما تُحبُّ اللهَ تعالى يُحبُّكَ الناسُ، وبقدرِ ما تخافُ من الله تعالى يخافُكَ الناس، وبقدرِ ما تشتغلُ بالله يَشتغلُ بك الناس.

و: من استحيا من الله تعالى حالَ طاعتِهِ، يستحيي كرمُ الله تعالى من أن يعذِّبَهُ بالنار.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/٢٥٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٦٠: وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.
في (ب): نورك طفّاني.

(٢) كما صنع عبد الله الأنصاري الهروي في كتابه منازل السائرين، إذا جعلها مئة منزلة انظر الحاشية (١) صفحة ٢١.

(٣) في (أ): العاشق الصادق.

و: حياءُ العبدِ حياءُ الندم، وحياءُ الباري تعالى حياءُ الكرم.

ظنُّ العبدِ بربِّه على قدرِ معرفته.

حسنُ الظنِّ بالله من أحسنِ الظنون إذا كان مُقارنًا بالعملِ الصالح والمراقبةِ، وأمَّا إذا أحسنَ بالله مع المعاصي والغفلة فأمنيتُهُ تُورّطُهُ في الخطر.

أقول: لأنَّ حسنَ الظنِّ حينئذٍ يؤدّي إلى فتحِ باب الرجاء بالكليّة، وسدِّ بابِ الخوف بالكلّية، ويصير بالآخرة سببًا للأمنِ من مكرِ الله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] وأيُّ خطرٍ أخطرُ من هذا؟ والله أعلم.

وقال: حسنُ الظنِّ يصدرُ من العمل الصالح، وسوءُ الظنِّ من العمل السيّئ.

مغبونٌ من صرفَ أوقاته العزيزةَ في البطالة، وضيَّعها في الكسالة، وسلّط جوارحَهُ على إهلاكه، ثم يموتُ قبل أن يفيقَ من هذه الغفلة.

منِ اعتبرَ بالمعاينة استغنى عن النصيحة.

احذروا عن ثلاثة أقوام: عالمٍ غافلٍ، وفقيرٍ مُداهن، وصوفيٍ جاهل.

الوحدة والخلوة أمنيةُ الصدّيقين[١]، والأنس مع الخلقِ وحشتُهم.

و: ثلاثُ خصالٍ من صفات الأولياء: الاعتمادُ على الله في جميعِ الأمور، والاستغناءُ به عن جميع الأشياء، والرجوعُ إليه في كلِّ الأحوال.

لو أنَّ الموتَ يُباع في الأسواق ليليق بأهلِ الآخرة أن لا يشتري شيئًا إلاّ الموت.

أهلُ الدنيا يَخدمون العبيدَ والإماء، وأهلُ الآخرة يخدمون الأبرارَ والأولياء.

ليس بحكيمٍ من لا يكونُ فيه ثلاث خصال: ينظرُ إلى الأغنياء بالنَّصيحةِ

---

(١) كذا في الأصلين، وفي الطبعة المترجمة صفحة ٥٧٦، والخبر في طبقات الصوفية للسلمي ١١٢: مُنية الصديقين. ولعلَّ الصواب: أَمَنَةُ الصديقين.

لا بالحسد، وينظرُ إلى النساء بالشَّفقة[١] لا بالشهوة، وينظرُ إلى الفقراء بعين التواضع دون التكبُّر.

و: من خانَ الله في السرِّ هتكه الله تعالى في العلانية[٢].

من استغنى بالله فلا يزالُ مُستغنيًا، ومن استغنى بكسبهِ فلا يزالُ فقيرًا.

وقال لأصحابه: ليكن حديثكُم مع الله كثيرًا ومع الناس قليلاً.

العارفُ لو ترك الأدبَ مع الله لهلكَ مع الهالكين.

إن الله تعالى يحبُّ المَجذوبَ أولاً، والمجاهد آخرًا.

سبحانه من إلهٍ، يُذنبُ العبدُ وهو يستحيي منه.

الذنب الذي يجعلك مُحتاجًا إلى الله تعالى أحبُّ من عملٍ يُبعدك عنه.

من أحبَّ اللهَ أبغضَ نفسه.



الوليُّ لا يكونُ مُرائيًا ولا منافقًا.

أقول: ويعلمُ منه أنَّ المرائي والمنافق لا يكون وليًّا. والله أعلم.

ولا يكونُ صدّيقًا من احتاجُ إلى أن أطلبَ منه شيئًا، أو يقول هو: اذكرني بالدُّعاء، أو أحتاجُ إلى المداراةِ معه، أو أحتاجُ إلى الاعتذار عنه عند صدور زلَّةٍ.

ينبغي أن يكونَ نصيبُ المؤمنِ منك ثلاثة: الأول: إن لم تُوصلْ إليه منفعةً فلا تُوصل إليه مضرَّةً.

أقول: تلخيصه: إن لم تنفعْهُ فلا تضرَّه. والله أعلم.

والثاني: إن لم تُفرحْه فلا تُحزنه، الثالثُ: إن لم تَمدحْه فلا تذمَّه.

لا حماقةَ أعظمُ من أن يزرعَ بذرَ النار ويطمعَ في الجنة.

---

(١) في (ب): وينظر إلى الناس بالشفقة.

(٢) في الأصلين: من خاف الله في السرّ. والمثبت من الرسالة القشيرية ٦٣.

ذنبٌ واحدٌ بعد التوبة أسوأُ من سبعين قبلها.

حسبُكم من الدواء تركُ الذنوب.

العُجبُ ممّن يَحتمي من الطعام مخافةَ العلّةِ، ولا يحتمي من الذنوب مخافة العقوبة.

كرمُ الله تبارك وتعالى في خلقِ النّارِ أظهرُ منه في خلق الجنة؛ لأنّه تعالى وإن خلقَ الجنّة ووعدَ بها، لكن لو لم يخلق النار وأوعد بها لم يُطعْه أحدٌ.

الدنيا موضعُ الشغل، والعبدُ لا يزالُ مَشغولاً، ولا يعلمُ أنَّ مستقرّه الجنةُ أو النار.

جميعُ الدنيا من الأوّل إلى الآخر لا تساوي ساعةً من العُمر، فكيف يسوغُ لشخصٍ أن يُمضي جميعَ عُمره في هموم الدنيا[1] وأحزانها مع قلّة الحظِّ منها.

الدنيا دكّانُ الشيطان، فعليك ألاّ تسرقَ منها شيئًا، وإلاّ فهو يأتي، ويستردّ منك.

الدنيا خمرُ الشيطان، من سكرَ منها لا يصحو إلاّ بين عسكرِ الله يوم القيامة مع الندامة والخسران.

أقول: فإن قال قائل: هذا الكلام[2] منافٍ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ١ ـ ٢] فإنَّ الآيةَ تدلُّ على أنّ الناسَ يوم القيامة يكونون سكارى، والشيخُ صرّحَ بأنهم حينئذ يصحون وبينهما منافاة، نقول: لا منافاةَ بينهما، إمّا لأنَّ الآيةَ دلّتْ على أن السُّكْرَ يكون لزلزلةِ الساعة ـ أي قيام القيامة ـ كما يدلُّ عليه سياقُ الآية، ويحتملُ أن يحصلَ بعد هذا السكر للصحو، أو يحتمل أن يزولَ السُّكرُ

(١) في (أ): في شغل الدنيا.

(٢) في (ب): قال قائل: ليس هذا الكلام.

الحاصلُ من الدنيا، ثم يحصلُ شُكْرٌ آخرُ لأجل زلزلةِ الساعة، هذا ممّا خطر بالبال. والله أعلم.

وقال: الدنيا كالعروس، وطالبُها كالماشطة التي تُزيِّنُها، والزاهدُ من يسوّدُ وجهَها وينتفُ شعرها.

الدنيا غمومٌ وهموم، وأحزانٌ وأشجان، والآخرة فيها عقابٌ وعتاب وعذاب.

أقول: فالمستريحُ من لا يلتفتُ إليهما؛ بل في الفرار منهما جميعًا إليه تعالى قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] مولاكم الحقّ. والله أعلم.

وقال: يقول الله تعالى: عبادي، أنتم تَشتكون عنّي، أفلا يَكفيكم أنَّ الدنيا والآخرةَ لي، وأنا لكم؟!.

في كسبِ الدُّنيا مذلّةُ النفوس، وفي كسبِ الآخرة عزَّتُها، فيا عجبًا ممّن يَختارُ الذلّةَ والهوان في اكتسابِ شيءٍ لا يدوم ويَفنى.

شؤمُ الدنيا إلى غايةِ تمنّيها يشغلُكَ عن الله تعالى، ويُبعدُكَ عن مقامِ القُرب، فما ظنُّكَ بطلبها ثم بحصولها.

العقلاءُ ثلاثة: مَنْ تركَ الدنيا قبلَ أن تتركَهُ الدنيا، ويعمرُ القبرَ قبل النزول إليه، ويُرضي اللهَ تعالى قبل الوصولِ، والوقوفِ بين يديه.

شيئان ما سمعَ الأوّلون والآخرون أشدَّ منهما: الأول أن يؤخذ منه ماله الذي جمعه، والثاني أن يُسألَ عنه ذرَّةً ذرة.

الدينارُ والدِّرهم عقربٌ في الدنيا[1]، فعليك أن لا تمسَّها قبل تعلُّمِ الرُّقية. قيل: وما هي؟ قال: رقيتُها أن يكونَ دخلُهما من الحلال، والخروجُ بالحقّ.

طلبُ العاقل للدنيا خيرٌ من تركِ الجاهل لها.

يا أربابَ الدنيا، ويا حملةَ العلم، قصورُكم قيصرية، ومساكنُكم كسراوية،

---

(١) قوله: (في الدنيا) ليس في (أ).

وعماراتكم وبساتينكم شدّادية[١]، وأثوابكم عادية[٢]، وهل لكم أشياءُ أَحمدية؟.

طالبُ الدنيا لا يزالُ في ذُلِّ المعصية، وطالبُ الآخرة في عزِّ الطاعة[٣]، وطالب الحقِّ في الرَّوح والراحة.

لبسُ الصوف دكّانٌ، وحديثُ الزهد حرفة.

التكبُّرُ على من يتكبَّرُ بمالِهِ تواضعٌ.

سقوطُ المرء عن درجته إذا ضاع في نفسه.

لا غنًى للمُريد عن ثلاثة: بيت يُواريه، وكفاف من التوكُّل، وخوف من العبادة.

إذا ابتُلي المُريدُ بكثرة الأكل تَبكي عليه الملائكة.

من ابتُلي بحرصِ الأكل فعن قريبٍ يُحْرَقُ بنار الشهوة.

في جسدِ المُريد ألفُ عضوٍ من الشرِّ، وكلُّها بيد الشيطان، فإذا جاعَ المُريد وارتاضَ ييبسِ الأعضاءُ كلُّها بالجوع، وتحترقُ بنار الرياضة.

الجوعُ نورٌ، والشِّبعُ ظُلمة، والشهوةُ حطبٌ يحصل منه نارٌ لا تخمد حتى تحرقَ صاحبَها.

ما شبعَ عبدٌ إلاّ أذهبَ اللهُ تعالى عنه شيئًا لا يجدُه أبدًا.

الجوعُ طعام الحقِّ في الدنيا، أجسادُ الصدّيقين تتقوّتُ[٤] بها وتتربّى.

الجوعُ رياضةٌ للمريدين، تجربةٌ للتائبين، سياسته مكرمة للعابدين للعارفين.

---

(١) شدادية: نسبة إلى شداد بن عاد، ملك يماني جاهلي قديم، من ملوك حمير.

(٢) عادية: نسبة إلى عاد بن عوص بن إرم، جدٌّ جاهلي قديم.

(٣) في (أ) في عز الدنيا.

(٤) في (ب): الصديقين، تتوقّدُ بها.

أعوذُ بالله من زاهدٍ يُفسدُ معدتَه بكثرة الأكل لألوان أطعمة الأغنياء.

أهلُ السلوك ثلاثة: زاهدٌ، ومشتاق، وواصل. الزاهدُ يُعالجُ الصبرَ، والمُشتاقُ الشُكرَ، والواصلُ الولايةَ.

إذا رأيت المرءَ يشيرُ إلى العملِ ويدلُّ عليه فاعلمْ أنه يَسلكُ طريق الورع، وإن أشارَ إلى الآياتِ فاعلمْ أنه من الأبدال، وإن تعلّقَ بالذكر فاعلم أنّه من العارفين.

لا تكون شاكرًا ما دمت شاكرًا؛ لأنّ الشكرَ هو التحيُّر.

لا يسكنُ قلبُ مُريدِ الآخرة إلاّ في أربعة مواضع: إمّا في زاويةِ بيتٍ، أو مسجدٍ، أو مقبرةٍ، أو موضعٍ لا يراه أحد.

قيل: وما أشدُّ شيء على المريد؟ قال: مُجالسةُ الأضداد.

انظرْ إلى أُنسك في الخلوة، وإلى أُنسك بالخلق في الجلوة، فإن كان أُنسُك بالخلوة، فإذا خرجتَ منها زالَ الأُنس، وإن كان بالحقّ فتستوي عندك الخلوة وغيرها، ويكون أنسُك بالحقّ حاصلاً في جميع الأماكن.

الوحدة جليس الصدّيقين.

حقيقةُ الصبرِ تنكشفُ عند نزول البلاء، وحقيقةُ الرضا عندُ مكاشفة المقدور.

من أحبَّ يومه فينعدم بمجيء الغد، ومن أبغضَ يومَه يصلُ إليه مُرادُه غدًا.

ضيعانُ الدِّين من الطمع، وبقاؤه في الورع.

مقدارُ خردلةٍ من المحبّةِ خيرٌ عندي من عبادة سبعين ألف سنة بلا محبة.

يحتاجُ العمل إلى ثلاثة: العلم، والنية، والإخلاص.

بالتوكُّل يُمكن أن تحصلَ العبودية، وبالإخلاص الجزاءُ، وبالرضا بالقضاء يطيبُ العيش.

الإيمان ثلاثةٌ: الخوفُ، والرجاء، والمحبة. ففي ضمنِ الخوف تركُ

الذُّنوب المُنجي من النار، وفي ضمن الرجاء في الطاعة خوضٌ في الجنة، وفي ضمن المحبّة احتمالُ المكاره ليحصلَ رضا الحقِّ جلَّ جلاله.

العارفُ من لا يكون شيءٌ عنده أَحبَّ من الذكر.

الخوفُ شجرةٌ في القلب وثمرتُها الدُّعاءُ والتضرُّع.

إذا صارَ المرءُ خائفًا أطاعته جوارحُه في الطاعات، واجتنبتْ عن المعاصي.

أعلى منازل الواصلين الحياءُ.

لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر لأمل.

أعلى منازل الزهد التواضعُ.

علامةُ الشوقِ أن يحفظ الجوارحَ عن الشهوات، ويمنعَها عنها.

الطاعةُ خزانةٌ لله تعالى، ومفتاحُها بيده تعالى.

التوحيدُ نورٌ، والشركُ نارٌ، فنورُ التوحيد يحرقُ سيِّئات الموحِّدين، ونارُ الشرك يحرقُ حسناتِ المشركين.

الورعُ هو الوقوفُ على حدِّ العلم من غيرِ تأويلٍ.

الورع على قسمين: ورعٌ في الظاهر، وهو أن لا يتحرَّكَ إلاّ بالله، وورعٌ في الباطن، وهو أن لا يخطرَ بالبال غيرُ الله تعالى.

الزهد ثلاثةُ أحرفٍ: الزاي، والهاء، والدال، فالزاي تركُ الزينة، والهاء ترك الهوى، والدال تركُ الدنيا.

يظهرُ من الزهد السخاوةُ بالملك، ومَنْ يُحبُّ بالنفس والروح.

الزاهدُ من يكونُ على تركِ الدنيا أحرصَ منه على طلبها.

الفوتُ أصعبُ من الموت؛ لأنَّ الموتَ انقطاعٌ عن الخلق، والفوتُ انقطاعٌ عن الحقِّ.

من تكلَّمُ قبل أن يتدبَّرَ يندم، ومن تفكَّر ثم تكلَّمَ سلم.

علامةُ التوبة النصوحِ ثلاثة: قلةُ الأكل بسبب الصوم، وقلّة النوم بسبب الصلاة، وقلّة الكلام بسبب الذكر.

ذكرُ الحقِّ تغرقُ فيه الذنوب، فكيف رضاه؟ ورحمتُهُ تُدهشُ العقول، فكيف ودُّه؟ وودُّه يُنسي جميعَ ما سواه، فكيف لطفه؟.

قيل: بأيِّ شيءٍ نعلمُ أنَّ الله تعالى راضٍ عنَّا أو لا؟ قال: فإن كنتَ راضيًا عنه فاعلمْ أيضًا أنه راضٍ عنك.

قيل: يكونُ أحدٌ لا يكون راضيًا عنه، ويدّعي معرفته؟ قال: نعم، فإنّ من يكون غافلاً عن إنعامه يكونُ ساخطًا معذورًا، فلا يكونُ راضيًا لا من النعمة ولا من المُصيبة[١].

إن لم يصلْ إليك رزقُكَ ثلاثةَ أيام، وأنت لا تصيرُ في نفسك ضعيفًا، فاجلسْ حينئذٍ مع الزاهدين، وإنْ لم تكن واصلاً إلى هذه الدرجة، فجلوسُكَ على بساط الزهد جهل.

قيل: متى يبلغُ المرءُ درجةَ التوكّل؟ قال: إذا كان راضيًا بوكالة الله تعالى.

قيل: ما الفقر؟ قالَ: أن يصيرَ المرءُ عن جميع الكائنات مُستغنيًا بربّه.

نقل أنه ذُكر عنده الفقر والغنى، قال: لا وزنَ غدًا للفقير ولا للغني، وإنَّما الوزنُ للصبر والشكر.

قيل: من أثبتُ في الزهد؟ قال: من تيقُّنُهُ أكثر.

قيل: ما علامةُ المحبة؟ قال: أن لا تزيدَ بالإحسان، ولا تنقصَ بالجفاء.

نقل أنه استوصى منه شخص، فقال: سبحان الله، نفسي لا تقبلُ منّي، فغيري كيف يقبل؟!.

وقيل له: جماعةٌ من الناس يذمُّونك. فقال: إنْ غفرَ اللهُ لي فلا يَضرُّني ذمُّهم، وإلاّ فأنا حريٌّ بأن يُقال فيَّ أكثرُ مما يقولون.

(١) في (أ): ولا من المعصية.

ومن مناجاته أنه قال: إلهي، إنّي بالسيئات أرجى إليك من الحسنات، لأنّي لا أقدرُ[(١)] على طاعةٍ بالإخلاص تليقُ بكبريائك، وأنا بالآفة موصوف، ولكن أجدني[(٢)] في الذنوب راجيًا عفوك، وأنت كيف لا تعفو عني وأنت بالجود معروف.

إلهي، أرسلتَ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعونَ الطاغي الباغي، وأمرتَهما أن يقولا له: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] فهذا لطفك مع من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فمن يعلم أنَّ لطفَكَ كيف يكونُ مع من يقول: سُبحانَ ربّي الأعلى.

إلهي، ليس لي في الدنيا من الأموالِ والأملاك إلاّ فلقةُ كساءٍ غليظٍ أسودَ عتيق، وأنا مُحتاجٌ إليه، ومع هذا إن سأله منّي شخص فأنا لا أمنعه عنه، ولك ثمانية عشر ألف عالَمٍ وأعلم أنك لا تحتاجُ إليها مثقالَ ذرَّةٍ، فكيف تمنعُ لُطفك ورحمتَك عنّا ونحن مُحتاجون إلى رحمتك؟!.

إلهي، كما أنَّ ذاتَكَ لا تُشبه ذوات المخلوقين، فكذلك أفعالُكَ لا تُشبه أفعالَهم، فمن أحبَّ أحدًا لا يُوصل إليه إلاّ الراحةَ، ولا يُريدُ وصولَ مكروهٍ إليه، وأنت إذا أحببتَ أحدًا أمطرتَ عليه أمطارَ البلايا.

إلهي، أيّ شيءٍ قسمتَ لي من الدنيا فأعطِه الكفار، وما قسمتَ لي من الآخرة فارزقه للمسلمين؛ فإنّي اكتفيتُ في الدنيا بذكرك، وفي الآخرة بلقائك.

إلهي، كيف امتنعُ بالمعصية عن الدعاء، وأراكَ لا تَمنعُ عنّي بالمعصية العطاءَ؛ فإنّي أعصي، وأنت تُعطي، فلذلك أدعو[(٣)].

إلهي، وإنّي وإن لم أقدرْ على تركِ الذنوب، فإنَّكَ قادرٌ على العفو والمغفرة.

---

(١) في (ب): أرجى إليك منّي بالحسنات، لأني أقدر.
(٢) في (ب): ولكن أجرني.
(٣) في (ب): فكذلك أدعو.

إلهي، ما يصدر عنّي من الذنوب[١] فذو وجهين، له وجهٌ إلى لطفك، ووجهٌ إلى ضعفي، فاغفرْ لي إمّا بلطفِكَ وإمّا بضعْفِي.

إلهي، أخافُ منك بسوءِ أعمالي، وأرجوكَ بفضلك، فلا تمنعْ فضلَكَ عنّي بسبب سُوءِ أعمالي.

إلهي، اعف عني فإني لك.

إلهي، كيف أخافُ منك وأنت لطيف؟! وكيف أخافُ منك وأنت كريم؟!.

إلهي، كيف أتوجَّه إليك وأنا عبدٌ عاصٍ، وكيف أُعرضُ عنك وأنت برٌّ كريم.

إلهي، أخافُ منك لأنّي عبدٌ، وأرجوك لأنَّك إله.

إلهي، إنّك تحبُّ أن أحبَّكَ، وأنت غنيٌّ عني، وعن حُبّي، فإنّي كيفَ لا أُحبُّ أن تُحبَّني مع كثرةِ احتياجي إليك؟.

إلهي، أنا غريبٌ، وذكرُكَ غريبٌ، وأنا ألفتُ ذكرَكَ؛ لأنَّ الغريبَ يألفُ الغريب.

أجلُّ الأشياء في قلبي عطاؤك، وأحبُّ الأوقاتِ إليَّ يوم لقائك.

إلهي، ليس لي عملُ أهلِ الجنة، ولا طاقةُ النار، فأمري مُفوَّضٌ إلى فضلك.

قال: إن قيل لي يومَ القيامة: بماذا جئت؟ أقول: إلهي، جئتُ من السجنِ بشعرٍ أشعث، وجسدٍ أوسخ، وخجلةٍ كثيرةٍ مُتراكمةٍ بعضها على بعض، فاغسلني إلهي وشرّفني بخلع لطفك وكرامتك.

نقل أنَّ يحيى رحمه الله اجتمع عليه مئةُ ألفِ درهم دينًا، صرفها على الغُزاةِ والفقراء والفقهاء والعلماء والصوفية، والغرماءُ يتقاضونه، وقلبُه يصيرُ مشغولاً

(١) في(أ): عني من المعصية.

بذلك، ففي ليلةِ الجُمعة رأى النبيَّ ﷺ في المنام فقال له: يا يحيى، لا تتضجَّرْ؛ فإنّي أتضجَّرُ من ضجرتك؛ ولكن سافرْ إلى خُراسان، فإنَّ امرأةً تقضي عنك مئةَ ألف درهم. قلت: يا رسول الله، مَنْ تلك المرأةُ؟ وفي أي بلدٍ هي؟ فقال ﷺ: امض إلى خراسان بلدةٍ بلدةٍ وحدّثْ لهم، وعظْهم؛ فإنَّ وعظَكَ شفاءٌ للقلوب، وأنا كما جئتُ إليك في نومِك أجيءُ إلى ذلك الشخص، وآمرُهُ بقضاء ديونك.

فرحل إلى نيسابور، واجتمعَ عليه الناس، وصَعِدَ المنبر، وقال: يا أيُّها المسلمون، ما جئتُ إلاّ بأمرِ النبيِّ ﷺ؛ فإنه قال ﷺ: يقضي ديونَكَ شخصٌ واحدٌ، وعليَّ مئةُ ألف درهم من الفضة دينًا، وكان لكلامي قبل هذا جمالٌ، ولكنَّ الدَّينَ صارَ حجابًا. فقال شخصٌ: عليَّ خمسون ألف درهم. وآخر: عليَّ أربعون ألف درهم. فلم يقبل يحيى، وقال: قال النبي ﷺ: يقضي ديونَكَ شخصٌ واحدٌ، ثم شرعَ في الكلام، وفي اليوم الأول رُفعتْ من مجلسه سبعُ جنائز، ثم رحلَ إلى بلخ، وجاء إلى مَرو، ثم إلى الهراة، وقصَّ عليهم النوم، وكانت بنتُ الملك حاضرةً في المجلس، فبعثت إليه وقالت: ليكنْ قلبُكَ فارغًا من جهة الدَّين؛ فإنَّ سيدَ المرسلين ﷺ جاءَ إليَّ في النوم، وأمرني بقضاءِ دينك. فقلتُ: يا رسول الله، أنا أسعى إليه؟ قال ﷺ: بل هو يجيء إليك، وكنتُ أنتظر قدومَك، وقالت: جهّزني أبي عند التزويج بثلاث مئة ألف درهم، وأنا بذلتُ لك الكلَّ، ولكن أرجو منك أن تعظَ الناسَ في أربعةِ مجالس أُخرى. ففي المجلس الأول رُفعت عشرُ جنائز، وفي الثاني خمسٌ وعشرون، وفي الثالث أربعون، وفي الرابع سبعون، وفي اليوم الخامس جاؤوا إليه بسبعةِ أَحمالٍ من الفضة، وابنُه كان معه، فأضمرَ في قلبه أنّه يَصرفُ جميعَ هذه الأموال في الغرماء، ويحرمنا منها. فيحيى رحمه الله[١] كان في السحر مشغولاً بالمناجاة، فسجدَ وضربَ على رأسه بحجرٍ، فرفع رأسَه وقال: اصرفوا هذا

---

(١) في (ب): منها. فيجيءُ الليلة رحمه الله.

المالَ في الغرماء. وماتَ إلى رحمة الله تعالى، ثم حمله أهلُه إذ كانوا معه، وجاؤوا به إلى نيسابور، ودفنوه في مقبرة آلِ النبيِّ ﷺ.

اللهم ارضَ عنه وعنّا، واجعلْ لنا برحمتك لسان صدقٍ في الآخرين، وأَنعِمْ علينا كما أنعمتَ على عبادك المُتّقين، وأَحسنْ إلينا إلهنا ومولانا كما أَحسنتَ إلى أولئك الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، إنك رحيم كريم.

* * *



(٣٦) شاه الكَرْماني (١)

ذكر أبي الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رحمه الله:

كان رحمه الله كبيرًا في عهده، مُحتشمًا في وقته، وأحدَ الفتيان، جليلَ الشأن، وصاحبَ فِراسة ما أخطأَتْ فِراسته قطُّ، وكان من أبناء الملوك، وصاحبَ التصنيف، صنف كتابًا سماه «مرآة الحكماء».

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، وصحب أبا تراب النَّخشبي، وأبا عُبيد البُسري، ويحيى بن معاذ، وغيرَهم رحمهم الله.

أقول: نُقل أنه مات قبل ثلاث مئة. والله أعلم.

وكان يلبس القباءَ، ولمّا نزل نيسابور زاره أبو حفص مع جلالة قدره، وقال: وجدتُ في القبا ماطلَبتُ في العبا.

نقل أنّه ما نامَ أربعين سنة، وكان يكتحلُ بالملح حتى صارَتْ عيناه كقدَحَيْنِ من الدَّمِ، ثم بعد أربعين سنة اتَّفقَ له أن نام، ورأى في المنام ربَّ العزَّةِ جلَّ جلاله، فقال: يا ربّ، طلبتك في اليقظة وجدتك في المنام. فقال الله تعالى: ياشاه، وجدانُك إيّايَ في النوم كان سبب كثرة يقظتك وانتباهك، فلو لم يكن الانتباهُ لَمَا كنت تراني في المنام. ثم كان ينام ويقول: عشقتُ، إذ ربّما أراه مرّةً أُخرى في المنام. وكان يقول: لا أُعطي ذرّةً من نومي هذا بجميعِ يقظةٍ في الدنيا.

---

(١) طبقات الصوفية ١٩٢، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧، الرسالة القشيرية ٨٢، مناقب الأبرار ٤٥٢، المنتظم ٦/ ١١١، صفة الصفوة ٤/ ٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٩٠، الوافي بالوفيات ١٦/ ٩١، طبقات الأولياء ٣٦٠، نفحات الأنس ١٢٨، طبقات الشعراني ١/ ٩٠، الكواكب الدرية ٢/ ٣٦، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٣٦. والكرماني بكسر الكاف وقيل بفتحها، وسكون الراء. الأنساب ١٠/ ٤٠٠.

نقل أنه كان له ابنٌ مكتوبٌ على صدره (الله) بخطٍّ أخضر، ولكن كان يَتَفتَّى ويُجالس الفتيان، ويشتغلُ بالطربِ وضربِ الرباب، وكان له صوتٌ طيِّبٌ، يضربُ الرَّباب أحيانًا، ويبكي معه، حتى أنّه كان يمرُّ في بعض السكك يضربُ الرباب ويغنّي، فسمعَتْ صوتَه عروسٌ، فطلعت من فراشِ الزوج، وجاءت تنظرُ إليه، وتسمعُ صوته وغناءه، فانتبه الزوجُ وما وجدها عنده، فتبعها ورآها مشغولةً بالنظارة، فصاح عليه، وقال: يا صبي، ما جاءَ الوقتُ؟ ما آن الزمان؟؛ أي زمان التوبة. أثّرَ الكلامُ في قلبه، وقال: نعم، جاء جاء. وكسرَ الرباب، واغتسلَ، واختلى في بيتٍ أربعين يومًا، ما أكل شيئًا، ثم خرجَ، فقال أبوه شاه: الذي وجدناه في أربعين سنة أُعطي الولدُ في أربعين يومًا.

نقل أنّه كانت له ابنةٌ يخطبها أحدُ أبناء الملوك، فاستمهلَ ثلاثةَ أيام، وكان يدورُ في المساجد، ويُفتِّشُ عن أحوال الناس، حتى رأى فقيرًا يُصلّي، فرضيَ بصلاته، ووقف إلى تمام صلاتِهِ، ثم سأل عن أهله، فقال الفقير: ليس لي أهلٌ. قال شاه: هل ترى أن تتزوج بامرأة قارئةٍ؟ قال الفقير: من يزوّجني في مثل هذه، ومالي من الدنيا إلاّ ثلاثة دراهم؟ فقال: أنا أزوّجكَ مع هذه الدراهم الثلاثة، اشتر بأحدِها الخبزَ، وبالآخر اللحم، وبالثالث العطر. ففعل الفقير، وعقدوا النكاح، وبعث البنتَ إليه من الليل، فلمّا دخلتِ البنتُ بيت الزوج رأتْ هناك خبزًا يابسًا على كُوزٍ فيه ماء، قالت: ما هذا الخبز؟ فقال الفقير: فضلٌ من أكلي البارحة، وأنا أبقيتُهُ لهذه الليلة. فقصدتِ البنتُ الخروجَ، قال الفقير: كنتُ أعلمُ أنَّ بنت شاه متى تصاحبني وكيف ترضى بي وبما لي من الفقر؟ قالت البنت: يا فتى، أنا لا أخرجُ بسبب الفقر؛ ولكن لقلَّةِ اليقين، وضعفِ الإيمان؛ فإنّك كيف أبقيتَ خبزًا من الأمس إلى اليوم، ولم تعتمدْ على الرازّق؟ ولكن أتعجّبُ من أبي، فإنّه ربّاني عشرين سنة، وقال: أزوّجُها من زاهدٍ، فزوّجني من لا اعتمادَ له على الله تعالى. فقال الفقير: وهل لهذا عذرٌ؟ قالت: نعم، إمّا أن أكونَ في هذا البيت، أو هذا الخبز اليابس.

نقل أنّه كان بين شاه وبين يحيى بن معاذ صداقةٌ، ثم اجتمعا في مدينةٍ،

وشاهُ ما كان يحضر في مجلس وعظِ يحيى، فقيل له في ذلك، قال: الصوابُ في هذا. فألحُّوا عليه حتى حضرَ يومًا، وجلس في زاويةٍ من المسجد، فانقطع الكلام على يحيى، فقال: حضرَ شخصٌ هو أولى بالكلام منّي.

ومن كلامه أنه قال: لصاحبِ الفضل فضلٌ على غيره ما لم يرَ فضلَ نفسِهِ، فإذا رأى فضلَ نفسه لم يبقَ له فضلٌ على غيره، بل يتواضعُ حينئذ.

وقال: الفقرُ سرٌّ من الحقِّ عند العبد، فما دام الفقيرُ يُخفيه يكون أمينًا، وإذا أظهره ارتفعَ عنه اسمُ الفقر.

وقال: علامةُ الصدق في الفقر ثلاثٌ:

الأولى: أن يزول عن قلبك قدرُ الدنيا حتى يَستوي لديك الذَهبُ والتراب، بحيث أن تَنفضَ يدَكَ من الذهب كما تنفضَ من التراب.

الثاني: أن يسقطَ الخلقُ عن عينك حتى لا تُبالي بمدحهم وذمِّهم، ويكون كلاهما عنده على السوية، فإنّك لا تفضلُ بالمدح، ولا تَنقصُ بالذم.

الثالثة: أن لا يبقى لك حظٌّ من الشهوات حتى لا تفرحَ بحصول المُشتهى كأهل الدنيا، فإنْ وجدتَ فيك هذه العلامةَ فلازمْ طريقةَ المُريدين، وإلاّ فأين أنت وهذا الكلام!؟.

وقال: الخوف هو الحزن الدائم.

الخوف الواجب هو أن تعلمَ أنّكَ مُقصِّرٌ في أداء حقوق الله تعالى.

التقوى هو الورع، وعلامةُ الورع الامتناعُ عن الشُّبهات.

علامةُ الصبر ثلاثٌ: تركُ الشكاية، وصدقُ الرضا، وقبولُ القضا بطيب القلب.

من غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسكَ نفسَه عن الشُّبهات، وعمَّرَ باطنَه بدوام المُراقبة، وظاهرَه باتّباعِ السنة، وعوّدَ نفسَه أكلَ الحلال، لم تُخطىء له فراسةٌ.

نقل أنّه كان يقولُ لأصحابه: اجتنبوا عن الكذب والخيانة والغيبة، ثم اصنعوا ما بدا لكم.

أقول: الخيانةُ إمّا مع النفس، أو مع الخلق، أو مع الله تعالى، وعلى هذا يندرجُ في ترك الخيانة جميعُ الواجبات من امتثالِ الأوامر، والانتهاءِ عن النواهي، وإنّما ذكرَ الكذب والغيبة وإن كانا داخلَيْنِ في الخيانة لشدَّةِ الاهتمام بهما. والله أعلم..

قال رحمه الله: اتركِ الدُّنيا، فإنَّك تُبتَ. يعني التوبة حقيقةً، هو ترك الدنيا.

قيل: كيف حالُكَ بالليل؟ قال: كطيرٍ أُدخلَ فيه سفُّودٌ، ويقلَّبُ على النار، كيف يكون حاله؟.

نقل أنّ الخواجا علي السيرجاني[١] كان يُطعمُ الطعامَ على رأس قبر شاه روّحَ الله روحه، فوضعَ الطعامَ بين يديه يومًا، وقال: إلهي، أرسلْ ضيفًا. فإذا جاءَ كلبٌ، فصاح عليه عليٌّ، وذهبَ الكلبُ، فسمع صوتًا من القبر: تطلبُ ضيفًا، فإذا أُرسلَ إليك ضيفٌ تنهره! فقام عليٌّ في طلب الكلب، ودارَ كثيرًا في المحلاَّت والخرابات فلم يجدْه، فخرج إلى الصحراء، ووجده نائمًا في موضعٍ، فوضعَ عنده ما كان معه من الطعام، فلم يلتفتْ إليه الكلبُ، حتى قام عليٌّ قائمًا، ورفع العِمامةَ من رأسه، واعتذرَ إلى الكلب، وتابَ عمّا فعل وندمَ، فتكلّمَ معه الكلب، وقال: أحسنتَ يا خواجا عليّ، تطلبُ الضيفَ، وإذا جاء تطردُهُ، ينبغي أن يكونَ لك عينٌ ناظرة بصيرة، ولو لم يكن شاهُ الكرماني وسيلةً لك لرأيتَ ما رأيت.

اللهم، طهّرنا برحمتك من رجسِ النفْسِ ودنس الهوى، وارزقْنا بكرمك متابعةَ نبيِّكَ المصطفى ﷺ في العلن والخفا، يا من إذا أرادَ شيئًا أن يقول له: كن، فيكون.

* * *

---

(١) في (أ) عليًا التيرجاني.

(٣٧) يوسف بن الحسين [١]

ذكر الشيخ يوسف بن الحسين عليه الرحمة:

كان رحمه الله من جملة مشايخ المُؤمنين، والأولياء المتقدّمين، عالمًا بأنواع العلوم الظاهرة والباطنة، وكان شيخَ الريِّ والجبال[٢] في وقته، مؤدّبًا أديبًا ذا ثباتٍ في إسقاط التصنُّع.

أدركَ جمعًا كثيرًا من المشايخ، وصحب ذ النون المصري، وأبا تراب النَّخشبي رحمهم الله تعالى، رفيقًا لأبي سعيد الخراز.

ورزقه الله تعالى عُمرًا طويلاً، وما زال مُجدًّا في العلم، وله في الملامةِ[٣] قدمٌ راسخة، وهمَّةٌ عليةٌ عالية.

(١) وقيل: محمد بن يوسف الرازي، طبقات الصوفية ١٨٥، حلية الأولياء ١٠/٢٣٨، تاريخ بغداد ١٤/٣١٤، الرسالة القشيرية ٨٣، طبقات الحنابلة ١/٤١٨، مناقب الأبرار ٤٥٦، المنتظم ٦/١٤١، صفة الصفوة ٤/١٠٢، المختار من مناقب الأخيار ٥/١٨٠، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/٧١، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٨، العبر ٢/١٢٨، دول الإسلام ١/١٨٥، روض الرياحين ٣٠١ (حكاية ٢٤٥)، البداية والنهاية١١/١٢٦، طبقات الأولياء ٣٧٩، النجوم الزاهرة ٣/١٩١، نفحات الأنس ١٤٧، ٢٦٥، طبقات الشعراني ١/٩٠، الكواكب الدرية ٢/١٦٤، شذرات الذهب ٢/٢٤٥..

(٢) الجبال: اسم علم للبلاد التي عرفت بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرّي، وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة. معجم البلدان.

(٣) الملامتية أو الملامية: فرقة صوفية، اشتقت اسمها من الملامة التي هي بخع النفس وتأنيبها، وقد اختص بهذا الاسم أولاً أهل خراسان.

وليس ببعيد أن يكون اسم الملامتية متصلاً ببعض الآيات ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ و﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾.

والملامتي لا يرى لنفسه حظًا على الإطلاق، ولا يطمئن إليها في عقيدة أو عمل ظنًّا منه=

وكان ابتداءُ حاله أنَّ بنتَ أميرِ العرب عشقته، إذ كان صاحبَ صورةٍ جميلةٍ، وهيئةٍ حسنة، وشكلٍ مليح، فانتهزت البنتُ فرصةً، وألقتْ نفسَها إليه، فرجفَ وهربَ من تلك القبيلة في تلك الليلة، ومضى إلى قبيلةٍ أُخرى، وما نامَ؛ بل وضعَ رأسَهُ على ركبتيه، فنعسَ ورأى في المنام مَوضعًا لم يرَ مثلَه، وهناك جماعةٌ مستورة، وشخصٌ جالسٌ على سريرٍ كسُلطان، فتمنّى أن يعلمَ مَنْ هؤلاء، ومَنْ هذا الجالسُ على السرير، فقال: من أنتم؟ قالوا: جماعةٌ من الملائكة، والذي على السرير هو يوسفُ النبيُّ عليه السلام، جاءَ إلى زيارة يوسف بن الحسين. قال يوسف رحمه الله: فبكيتُ، وقلتُ: من أنا ليزورني يوسفُ النبيُّ عليه السلام! كنتُ مُتفكّرًا في هذا، إذ نزلَ يوسفُ النبيُّ عليه السلام من السرير، وعانقني، وقال: لما ألقتْ بنتُ ملكِ العرب نفسَها إليك، ووقعتْ بين يديك مع جمالها وحُسنها وكَمالها، وأنت ما نظرتَ إليها، وفوَّضْتَ أمرَكَ إلى الله تعالى، والتجأتَ إليه، فعرضَكَ اللهُ عليَّ وعلى جميع الملائكة، وقال لي: يا يوسف، أنتَ قصدتَ زُليخا، وهممتَ بها لولا أن رأيتَ

= أن النفس شرٌّ محض، ولا يصدر عنها إلا ما وافق طبعها من رياء ورعونة، ولذلك وقف منها دائمًا موقف الاتهام والمخالفة، وهذا هو المراد بلوم النفس.

وكذلك يرى الملامتي أن معاملته مع الله سرٌّ بينه وبين ربه، لا يصح أن يطلع عليه غيره، فهو حريص على كتمان السرّ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلته به، لذا تعمّدوا فعل ما يجب عليهم من الخلق السخط والازدراء، وهذا هو لوم الناس إياهم.

وعدم الاستغراق في الله وعدم الغيبة عن النفس والعالم المحيط بها كان الحائل المنيع الذي سدَّ على الملامتية باب القول بوحدة الوجود، أو بالحلول والاتحاد، وما شاكل هذه الأقوال التي شاعت على ألسنة الصوفية الذين تكلموا في الفناء.

ولعل أشمل تعريف للملامتية ما قاله أبو حفص النيسابوري: أهل الملامة قوم قاموا مع الحقّ تعالى على حفظ أوقاتهم، ومراعاة أسرارهم، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم. انظر كتاب الملامتية وأهل الفتوة. تأليف د. أبو العلا عفيفي.

بُرهانَ ربِّك[(١)]، وهذا يوسف الذي ما التفتَ إلى بنتِ ملك العربِ، وفرَّ منها. ثم أرسلني مع جماعةٍ من الملائكة لأجلِ زيارتك.

نقل أنه توجَّه إلى ذي النون، وهو كان في مصرَ ليتعلَّمَ منه االاسمَ الأعظم، فوصل إلى مصرَ، ودخلَ مسجد ذي النون، وسلَّم عليه، وانزوى في زاويةٍ، ثم بعد سنةٍ سأل ذو النون وقال: من أين؟ قال: من مدينة الرَّيِّ. ثم بعد سنةٍ أُخرى قال: لِمَ جاء إلينا؟ قال: زيارةً. وكذا كان مُقيمًا في مكانه، حتى قال ذو النون بعد سنةٍ أخرى: هل لك حاجةٌ؟ قال: نعم، أرجو أن تُعلِّمني اسمَ الله الأعظم. ثم بعد سنةٍ أُخرى أعطاه ذو النون علبةً مُغطَّاةً، فيها شيءٌ يتحرّك، وأمره أن يذهبَ بها إلى شيخٍ آخرَ في مصرَ، وقال: ما يقولُ لك الشيخُ فاحفظْهُ. فأخذ يوسفُ العلبة، وذهب بها، ثم وقع في باله أن يفتحَ العلبةَ، ويطَّلعَ على ما فيها، فلمَّا فتحَها، فإذا فيها فأرةٌ، نطَّتْ منها وغابت، فتحيَّرَ يوسفُ في ذلك، وبقي متردِّدًا بين أن يرجعَ أو يَمضي إلى الشيخِ المبعوثِ إليه، فجمع عزمَه على أن مضى، فلمَا رآه ذلك الشيخُ، ومعه العلبةُ الخاليةُ، تبسَّمَ وقال: لعلَّكَ سألتَ ذا النون أن يُعلِّمَكَ الاسمَ الأعظم؟ قال: نعم. قال الشيخ: علمَ ذو النون قلَّةَ صبرك، وامتحنَكَ بفأرةٍ، فسبحان الله إذا أنتَ لم تطقْ كتمانَ فأرةٍ، فكيف تطيقُ معرفةَ اسم الله الأعظم؟.

نقل أنّه كان في عهده رجلٌ شطَّارٌ عيَّارٌ اسمه عبد الواحد، وكان أبواه مُتْعوبَيْنِ عنه بسبب قبائح أعماله، ورذائل خصاله، فدخلَ يومًا في مجلس ميعادِ يوسف بن الحسين، وهو كان يتكلَّمُ بهذا الكلام، دعاهم بلطفِهِ كأنّه مُحتاجٌ إليهم، فسمعَ هذا الكلام، ومزَّقَ ثيابه، وشهق وخرجَ باكيًا، ودخل بعضَ المقابر، ورأى يوسفُ في الليلة الأُولى كأنَّ شخصًا يقول له: أدركْ الشابَّ التائب. فكان يدورُ عليه إلى أن أدركَهُ اليوم الثالث في بعض المقابر، ففتح العين وقال: يا شيخ، أُرْسِلْتَ إليَّ من ثلاثةِ أيام، واليوم تأتي إليَّ وتتفقَّدُ حالي!؟

(١) هو من قوله تعالى في سورة يوسف (٢٤): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ...﴾.

نقل أنه كان في مدينة نيسابور رجلٌ تاجر، وكان له جاريةٌ تركيَّةٌ جميلةٌ، قد اشتراها بألف دينار، وكان يُحبُّها ويعزُّها، وأراد أن يسافرَ إلى مدينةٍ أُخرى لقضاءِ بعض الحوائج، فذهبَ إلى الشيخ [أبي] عثمان الحيري رحمه الله، وعرضَ الحالَ عليه، وقال: لا أَعتمدُ على غيرِك، فأرجو منك أن تكونَ الجاريةُ في بيتك إلى أن أرجعَ. وتضرَّعَ كثيرًا، فأذنَ له الشيخُ في ذلك، وذهبَ بها التاجر إلى بيت الشيخ، وسافر، فاتّفقَ أن وقعَ عليها نظرُ الشيخ مرَّةً بغير اختياره، فعشقَها.

وتَشوَّشَتْ حالُه، وتوزَّعَ باله، وتحيَّر في ذلك، فمضى إلى شيخه أبي حفص الحداد رحمه الله، وقصَّ له، فأمرَهُ أن يذهب إلى الشيخ يوسف بن الحسين[١]، فعزم [أبو] عثمانُ على الخروج، وسافر إلى مدينة الرَّي، فلمّا وافاها وسألَ عن مَسكنِ الشيخ، قيل: ماذا تُريدُ من ذلك الزنديقِ المُلحدِ المُباحي؟ والحالُ أنَّ عليك علامةَ الصلاح. وقد سمعَ مثلَ هذا عن جماعةٍ، فندمَ عن صحبته، ورجع إلى نيسابور، ودخلَ على الشيخ أبي حفص[٢]، فقال له الشيخ: رأيتَ يوسفَ بن الحسين؟ قال لا. قال: وما سببُ ذلك؟ قال: إني سمعتُ الناسَ يقولون في حقِّهِ كيتَ وكيت. قال: ارجع إليه. فرجع [أبو] عثمان رحمه الله إلى الريِّ ثانيًا، وسألَ الناسَ عن بيته، وما استمعَ إلى مَقالتهم، ولا التفتَ إليهم، وقال: لي شغلٌ إليه، ولا بدَّ منه. حتى أخبروه عن مسكنه، فلمّا وصلَ إليه وجدَ شيخًا ذا شيبةٍ، وعنده أمردُ صبيحُ الوجه، وبين يديه كوزٌ من كيزان الخمر وقدحٌ، وكان النورُ يتلألأُ على وجهه، فدخل عليه، وسلَّم، ثم شرعَ الشيخ يوسف في الكلمات، وكلّمَ بأشياء وراء طور العقل، حتى بقي أبو عثمان مُتحيِّرًا، فقال: يا شيخ، ما هذه الحالة مع هذه الكلمات، والهيئة الحسنة؟ فقال: يا أبا عثمان، أمّا الغلامُ الأمردُ فهو ابني أُعلِّمُه القرآن، وأما الكوزُ فكان مَرميًا في بعض المزابل، فأخذتُهُ وغسلتُهُ ونظّفته، ولم يكنْ لنا

(١) في (ب): فمضى إلى شيخه يوسف بن الحسين.

(٢) في (أ): الشيخ أبي جعفر.

كوزٌ، فنملأه من الماء، ونضعُهُ هنا، فمن يَشتهي الماء، يشرب منه. قال أبو عثمان: باللهِ يا شيخ، ولمَ تفعلُ كذا، ليقولَ الناس في حقِّكَ ما يقولون؟! قال الشيخ: لئلا يعتمدَ عليَّ أحدٌ في جاريةٍ[١]. فعرف أبو عثمان حالَهُ، وقبَّل يده ورجله، وعلم أنَّ الشهوةَ لا تخلو عن آفةٍ.

أقول: ويعضدُهُ ما رُوي عن بعضِ السلف رضوان الله عليهم[٢]: الشهوةُ آفةٌ، وكلٌّ يتولَّاها، والخمولُ نعمةٌ، وكلٌّ يتوقَّاها. والله أعلم.

نقل أنّه كان دائمَ السهر حتى ظهرَ في عينيه حمرةٌ ونقصانٌ لذلك، فسئل إبراهيمُ الخوّاص عن ذلك، قال: إنه إذا صلّى صلاة العشاء يقومُ قائمًا إلى الصبح، ولا يركعُ ولا يسجد، فسُئل يوسفُ عن سببِ قيامه إلى الصباح، قال: بعد أنْ أُصلّي العشاء أقومُ لأُصلّي، فأتحيَّرُ في عظمةِ الله وجلاله وكبريائه حتى لا يبقى طاقةٌ، ولا أقدرُ على أن أقول: اللهُ أكبر، وأبقى على تلك الحالة إلى أن يطلع الصبح، فأُصلي حينئذ صلاة الصبح.

أقول: نعمَ ما أُنشد في هذا الحال:

قد تحيَّرتُ فيك خُذْ بيديَّ ... يا دليلاً لمن تحيَّرَ فيكا

والله أعلم.

ونقل أنه كتب الجنيد: [لا] أذاقَكَ اللهُ تعالى طعمَ نفسِك؛ فإنّك إن تذقْ هذا الطعمَ لا تُبصر شيئًا[٣].

ومن كلامه أنه قال: آفةُ الصوفية في صُحبة الصبيان، ومُعاشرة الأضداد، ومصاحبة النساء.

---

(١) في المطبوع المترجم صفحة ٦٠٠: جارية تركية.

(٢) مرّ القول صفحة (١٦٩) منسوبًا للإمام علي رضي الله عنه.

(٣) في (أ) و(ب): فإنك إن لم تذق. والخبر في الرسالة القشيرية صفحة ٢٢، ونصُّه: لا أذاقك الله طعم نفسك؛ فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرًا أبدًا.

من يعلمُ أنّ الله تعالى يراه وينظرُ إليه، كيف يستجري من مَهابته على أن يفعلَ شيئًا ـ أي عملاً ـ لا يكون لله!.

من ذكرَ الله تعالى واشتغل بذكره حقيقةً نسي ذكرَ غيرَه.

علامةُ الصادق شيئان: محبّةُ الخلق، وإخفاء الطاعة.

من غرقَ في بحرِ التجريد، يزدادُ كلَّ يومٍ عطشُه ولا يرتوي[1] أبدًا.

أعزُّ الأشياءِ في الدنيا إنّما هو الإخلاص.

كلّما أسعى وأجتهدُ في إزالةِ الرياءِ عن القلبِ، فإذا هو يظهرُ من جانبٍ آخرَ.

لأن ألقى الله تعالى بأحمالٍ من المعاصي أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بالتصنُّعِ ـ أي بالرياء.

من علامةِ الزهدِ أن لا يطلبَ المقصودَ حتى يصيرَ موجودُهُ مفقودًا.

نقل أنه لما حضرته الوفاةُ، قال: إلهي، أنت تعلمُ أنّي نصحتُ الخلقَ قولاً، ونصحتُ النفسَ فعلاً، فاغفر لي جنايةَ النفسِ بوسيلة نصيحة الخلق.

فرآه بعضُ الصالحين في المنام، فقال: ما فعل اللهُ بك؟ قال: غفرَ لي. قال: بم؟ قال: بسبب أني ما خلطتُ الهزلَ بالجِدِّ أبدًا.

ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً، وهيِّئْ لنا من أمرنا رشدًا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

---

(١) في الأصلين: عطشه ولا يظمأ أبدًا.

(٣٨) أبو حفص الحداد (١)

ذكر الشيخ أبي حفص عمر بن سلم الحداد رحمه الله تعالى:

كان من مُحتشمي هذه الطائفة، ولم يكن له نظيرٌ في الرياضة والكرامة والمروءة والفتوة، وكان اللهُ تعالى يُعلّمه ويلقّنه ـ أي على طريقة الإلهام.

نقل أنه كان حدادًا، ويكسبُ كلَّ يومٍ دينارًا، ويُنفقه على الفقراء والأرامل، ويُفطرُ على كسرةِ خبزٍ، وفي بعض الأيام يحوي بقيّةَ البقلِ التي كانوا يَغسلونه في بعض السواقي والبرك، فيغسله ويأتدمُ به، ومضى على هذا زمانٌ حتى مرَّ به رجلٌ أعمى، وقرأ هذه الآية(٢): ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فاشتغل بها قلبه، ووردَ عليه واردٌ من الله تعالى، فدهشَ به، وأدخلَ يدهَ في الكيرِ، وأمسك قطعةَ حديدٍ مُحمَّى بلا كلبتين، ووضعها على العلاة، واشتغل تلاميذُه بالمطارق، فنظروا، فإذا الحديدةُ المُحمّاة على يده، فقال لهم: ما لكم لا تدقّون؟ قالوا: وكيف؟ وهي في يدك. فأفاقَ، وتركَ الدُّكان، وفرّقَ ما كان له إلى الفقراء والمساكين، واشتغلَ بالعزلة والمراقبة.

وقال: كنتُ أشتهي من زمانٍ أن أتركَ هذا الشغل، فما تركته حتى هو تركني.

---

(١) طبقات الصوفية ١١٥، حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩، الرسالة القشيرية ٦٥، مناقب الأبرار ٣٠١، صفة الصفوة ٤/ ١١٨، المنتظم ٥/ ٥٣، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٢٠، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥١٠، العبر ٢/ ٣١، مرآة الجنان ٢/ ١٧٩، البداية والنهاية ١١/ ٣٨، طبقات الأولياء ٢٤٨، النجوم الزاهرة ٣/ ٤١، ٦٦، نفحات الأنس ٨٧، طبقات الشعراني ١/ ٨٢، الكواكب الدرية ١/ ٦٨٥، شذرات الذهب ٢/ ١٥٠. وأغلب المصادر ذكرت أن اسمه: عمرو بن سلمة. .

(٢) في (ب): هذه الآية: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ونقل أنه كان جارًا لدارِ الحديث، فقيل له: لِمَ لا تحضرُ المجلس، وتسمع الحديث؟ قال: لأني قد سمعتُ منذ ثلاثين سنة حديثًا، وهو ما رُوي أنّه قال ﷺ: «مِنْ حُسنِ إسلام المرء تركهُ ما لا يعنيه»[1] وإني لا أستطيعُ أن أعملَ بمعنى هذا الحديث، فكيف أسمعُ حديثًا آخر؟!.

ونقل أنه خرج إلى الصحراء مع أصحابه، فبينما طابَ وقتُهم إذ جاء غزالٌ، ووضع رأسَه في حِجر الشيخ، فلمّا رأى الشيخُ هذه الحالة، أخذَ يلطمُ وجهه ويشهق، حتى فارقهم الغزالُ، فسأله بعضُ الأصحاب عن ذلك، قال: حين طابَ لنا الوقتُ خطرَ ببالي لو كان [لنا] غنمةٌ لشويناها، وبتنا الليلة هنا، ولم نتفرَّقْ، إذ جاء الغزال، وانقادَ كما رأيتم. قالوا: ولِمَ لطمتَ وجهَك وشهقتَ حتى راحَ الغزال، ومن كان له مع ربّه هذا الشأن، وعنده هذا القرب كيف يتحزّن بظهور هذه الكرامة؟ قال: صدقتم، ولكن من أُعطي مراده في الدنيا حُرِمَ بذلك القدر في الآخرة، أما سمعتم أنَّ نيلَ مصر كان يجري على مراد فرعون لعنَهُ اللهُ لعنةً دائمة.

ونقل أنه إذا حصلَ له غضبٌ أو انزعاج كان يُحدِّثُ في حُسنِ الخلق حتى يسكنَ غضبُهُ، ثم كان يشرعُ في حديثٍ آخر.

ونقل أنه أبصرَ رجلاً باكيًا متضرِّعًا مُتحيِّرًا في حاله، قال: ماذا أصابك؟ قال: كان لي من عرضِ الدنيا حمارٌ، فضاع عنّي. فقال الشيخ: إلهي، بعزّتك أَسأَلُكَ أن تردَّ عليه حمارَه. ما رفع قدمَه عن ذلك المكان بعدُ إذْ جاء الحمارُ إلى صاحبه.

نقل عن الشيخ أبي عثمان الحِيري أنه قال: قلت للشيخ أبي حفص الحداد رحمهما الله: إنه قد ظهرَ لي أن أُحدِّثَ للناس وأعظهم. قال: وما حملَكَ على

(١) رواه مالك في الموطأ ٢/٩٠٣، في حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، والترمذي (٢٣١٨ و٢٣١٩) في الزهد، باب رقم (١١)، وابن ماجه (٣٩٧٦) في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة. قال الزرقاني في شرح الموطأ: والحديث حسن، بل صحيح.

هذا؟ قلتُ: الشفقةُ عليهم. قال: وإلى أيِّ بُعدٍ بلغتْ شفقتُكَ عليهم؟ قلت: إلى حدٍّ لو أمرني اللهُ أن أدخلَ النارَ بدلَ عباده، وعذّبني مكانهم، وأدخلهم الجنّةَ لكنتُ راضيًا. قال: فعلى هذا يجوزُ لك أن تعظَهم؛ ولكنْ عظْ نفسَك أولاً، ولا تغترَّ بكثرةِ الناس في مجلسك؛ فإنهم ينظرون إلى ظاهرِك، واللهُ تعالى مُطّلعٌ على ظاهرك وباطنك. قال أبو عثمان: فطلعتُ المنبرَ، وشرعتُ في الكلام، والشيخُ أبو حفص كان في زاويةٍ من المسجد، فقام شخصٌ وسأل قميصًا، فخلعتُ قميصي، وأعطيتُه السائل، فقال أبو حفص: يا كذاب، انزلْ من المنبر. قلتُ: وما كذبي؟ قال: ادّعيتَ أن شفقتَكَ على الناس أكثرُ من شفقتك على نفسك، ثم إنّك سبقتَهم في بذل القميص، وما تركتَ لهم هذا الفضلَ، وآثرتَ بها نفسك، أفلا تكون كذابًا؟.

ونقل أنه كان عابرًا في السوق، إذ استقبلَهُ يهوديٌّ، فوقعَ أبو حفص على الأرض، ودهش، فحين أفاق سُئل عن ذلك، قال: رأيتُه ملتبسًا بلباس العدل، ورأيتني ملتبسًا بلباس الفضل وخشيت من تعكيسِ الأمر، وتبديلِ الحال، فلذا زالَ عقلي.

نقل أنه رحمه الله قصدَ سفرَ الحجِّ، ووصل في سفره إلى بغداد، فقال جماعةُ المريدين بعضهم لبعض: الشيخُ لا يَعلمُ لسانَ العرب أصلاً، وإذا اتّفقَ له مع مشايخ بغداد صحبةٌ، كيف يكون الحال؟ وهذا عارٌ علينا عظيم. وسيَّرَ الجُنيد جماعةً من أصحابه لاستقبال الشيخ أبي حفص، فعند الملاقاةِ شرعَ يُحدّث معهم بالعربية أفصح ما يكون، حتّى تعجَّبَ أهلُ بغداد من فصاحته، والله على كلِّ شيءٍ قدير.

نقل أنه قال للجنيد رضي الله عنه: مُرْ بعضَ أصحابك ليحصل من الحلاوى قدرًا صالحًا، ويحملَه على حمّالٍ، ويدور به الحمّال في أزقّةِ بغداد حتى يتعبَ، ففي أيِّ موْضعٍ وجدَ في نفسه التعبَ ليدقَّ البابَ القريبَ منه، ويهديه لصاحبِ ذلك البيت.

ففعلوا والقصة إلى آخرها، دقّوا بابًا، وقال شخصٌ: إن جئتم بالحلاوى

فتعالوا. فقيل له: وبمَ علمتَ أنّا جئنا إليك بالحلاوى؟ قال: إنّي كنتُ أمس في مناجاةٍ، فخطرَ ببالي أنَّ أولادي ما أكلوا الحلاوى من زمان، ويطلبون منّي، علمتُ أنّ الله تعالى قد بعثه لهم.

نقل أن الشيخ أبا حفص رحمه الله كان له من جملةِ المُريدين معه رجلٌ مؤدبٌ، ونظر إليه الجُنيد كم مرّة، وأعجبه من حُسن أدبه وخدمته لشيخه وتواضعه له، ثم قال الجُنيد لأبي حفص: كم سنةٍ هو في خدمتكم؟ قال أبو حفص: عشر سنين. قال الجُنيد: لله درُّه، حصلَ له في هذه المدّة ببركتكم معرفةٌ وأدبٌ وسيرةٌ جميلة. قال الشيخ أبو حفص: نعم، هو قد أنفق على الفقراء في مجلسنا سبعة عشر ألف دينار، واستقرض سبعة عشر ألف دينارٍ وصرفها على حوائج السفر لأصحابنا، ومع هذا لا يستجري على أن يَسألني مسألةً.

نقل أنه قال: التقيتُ بأبي تُراب النَّخشبي رحمه الله في البادية، والحالُ أنّي ما ذقتُ طعامًا منذ ستة عشر يومًا، فذهبت إلى بركةِ ماءٍ لأشربَ منها، وبقيتُ هناك متفكّرًا. قال أبو تراب: ما أقعدَكَ على جنب البركة؟ قلت: إنّي مُتردّدٌ بين العلم واليقين، وانتظرُ غلبةَ واحدٍ منهما، فإن غلبني العلم شربتُ، وإن غلبني اليقين تركتُ وذهبت.

أقول: معناه: إن غلبني العلم بأن العطشان إذا وصل الماء، ولا مانع هناك، فله أن يشرب منه، وإن وصلتُ إلى مقام اليقين، وتحققتُ أن لا أقدرَ على الشرب إلاّ بعد أن قدّر الله تعالى لي، وتحقّقتُ أنه لم يقدرْ لي الهلاك بسبب العطش، لا يضرُّني العطشُ ألبتَّةَ، فحينئذٍ لا ألتفتُ إلى الماء ولا أشتغل به، واصطبرُ على مضضِ العطش؛ فإنَّ الاشتغالَ يدفعُهُ حظُّ النفس الأمّارةِ، وفي مُدّة الشرب يَبقى القلبُ مشغولاً عن ذكر الله تعالى، وهذا من أعظمِ المصائبِ عندهم. والله أعلم..

نقل أنه حين دخلَ مكّة شرّفها الله تعالى، رأى فيها كثيرًا من الفقراء البالغين حدَّ الاضطرار، فحصلَ له من ذلك حالةٌ، وأخذ حجرًا، وقال: إلهي، بعزّتك

أسألُكَ أن تَرزقني شيئًا لأُنفقَهُ على هؤلاءِ من عبادك، وإلاّ بعزَّتِك لأكسرنَّ جميع القناديل في المسجد الحرام. قال هذا وشرعَ في الطواف، فاستقبله في الحال رجلٌ وأعطاه صُرَّةً، وأخذها وصرفَها على فقراءِ الحرم.

ونقل أن الشبلي رحمه الله قد أضافَ أبا حفصٍ أربعةَ أشهرٍ، كان يقدّمُ إليه أنواعَ الأطعمةِ اللذيذة، ويتكلّفُ في ذلك، ويهيّئُ كلَّ يومٍ أنواعًا من الطعام وألوانًا منه، فقال له أبو حفص يوم الوداع: إن جئت إلى نيسابور إنّي أُريك طريقةَ الضيافة، وأُعلّمُكَ وظيفةَ الدعوة[١] للإخوان. قال الشبلي: وماذا وقعَ منّي من التقصير في الخدمة؟ قال: ذلك أنّك تكلّفتَ، والمتكلِّفُ لا يكونُ ذا فتوّة، بل ينبغي أن تكون رعايةُ المضيف للضيف على حدٍّ لا يتضجّرُ بنزوله، ولا يفرحُ بارتحاله، إذِ التضجُّرُ بنزول الضيف، والسرورُ بارتحاله بعيدٌ من الفتوة. ثم اتّفقَ للشبلي أن سافرَ إلى خراسان، وانتهى في سيرِهِ إلى نيسابور، ونزلَ عند أبي حفص مع أربعين إلاّ واحدًا، ففرح أبو حفص وأكرمهم، وأشعل في الليل واحدًا وأربعين سراجًا[٢]، فقال الشبلي رحمه الله: يا شيخ، أليسَ هذا تكلّفًا، وإنك قد مَنعتنا عنه، وأتيتَ بمثله؟! قال أبو حفص رحمه الله: قم يا شبلي وأطفئ السراج. فقام الشبلي، واجتهدَ في ذلك، ولم يقدرْ إلاّ على إطفاءِ واحدٍ منها، ثم سألَ عن هذا السرِّ، فقال أبو حفص: أنتم أربعون، وأنا أشعلتُ لكلٍّ منكم سراجًا لوجه الله تعالى، وأشعلت لنفسي سراجًا، فالذي كان لغيرِ الله تعالى قدرتَ على إطفائه، والذي كان لله لم تقدر على إطفائه.

سئل أن السكوت أولى للولي، أمِ الكلام؟ قال: لو علمَ الوليُّ آفةَ الكلام لسكتَ، ولو كان على عُمرِ نوح عليه السلام مثلاً وإن وصل إلى راحة السكوت، سألَ اللهَ تعالى أن يوفّقهُ على السكوت مدة.

قيل له: لِمَ لا تحبُّ الدنيا[٣]؟ قال: لأنها مرامة، تُلقي العبادَ كلَّ يومٍ في

---

(١) في (ب): طريق الضيافة، وأعلمك طريقة الدعوة.
(٢) في (أ): وأشعل في الليل أربعين سراجًا وواحدًا.
(٣) في (ب): لم لا تحب النيسابور.

معصية. قيل: وإن كانت المعاصي في الدنيا، أليس التوبةُ فيها أيضًا؟ قال: نعم، ولكن حصولُ المعصيةِ يقينٌ، والتوبةُ مشكولة.

قيل: ما العبادة؟ قال: أن تتركَ كلَّ شيءٍ لك، وتَشتغلَ بما أُمرت.

قيل: ما الفقر؟ قال: عرضُ الانكسارِ والمذلّة على الله تعالى.

قيل: من الولي؟ قال: من رُزق قوّةَ الكرامات، ثم غيّب عنها.

قيل: من العاقل؟ قال: من طلبَ الخلاصَ عن نفسه.

قيل: من البخيل؟ قال: من تركَ الإيثارَ في وقت احتياجه.

قيل: ما الإيثار؟ قال: أن تُؤثر إخوانك على نفسك في الدنيا والآخرة.

قيل: ما الكرم؟ قال: أن تتركَ الدنيا لمن يحتاج إليها، وتتوجّهَ إلى الله تعالى باحتياجك إليه.

وقال: خيرُ وسيلةٍ يتوسّلُ بها العبدُ، ويتقرّبُ إلى الله تعالى دوامُ الفقرِ في الأحوال، وملازمةُ السُّنة في الأفعال، وطلبُ القوت الحلال.

وقال: من أبصرَ بنفسِهِ بعين الرضا هلك.

وقال: الخوفُ سراجٌ في القلب يميّزُ به بين الخير والشر.

لا ينبغي لأحدٍ أن يدّعي الفِراسة، ولكن ينبغي أن يكونَ على حذرٍ من فراسة غيره.

وقال: من ترى عليه فضلَ الله في جميعِ الحالات يُرجَى ألاّ يكونَ من الهالكين.

وقال: أفضلُ الأعمال المراقبة.

ما أحسن الاستغناء بالله! ما أقبحَ الاستغناء بالأيام!.

من تجرّعَ من شرابِ الشوقِ جرعةَ دهشٍ بحيثُ لا يفيقُ أبدًا إلاّ وقت اللقاء والمشاهدة.

العبادةُ في الظاهرِ سرورٌ، وفي الحقيقة غرور، وذلك لأنَّه لا يُسرُّ بفعله إلاّ المغرور.

المعصيةُ بريدُ الكفر كما أنَّ السُّمَّ بريدُ الهلاك.

من علمَ أنَّه يُبعثُ ويُحاسب ثم لا يَجتنبُ المعاصي والمناهي، فلا شكَّ أن سرَّه يُخبرهُ بأنّه لا إيمان بالبعث والحساب.

ومن أحبَّ أن يصيرَ قلبُه مُتواضعًا فليلازمْ صُحبةَ الصالحين، ويخدمهم.

محبّةُ الجسدِ في الخدمة، ومحبّةُ الرُّوح في الاستقامة.

التقوى أكلُ الحلال فحسب.

الأعمى من يَعلمُ أنَّ اللهَ تعالى مُطّلعٌ عليه[1]، ولا يبالي بما يَصدرُ عنه من القبائح.

استوصاه رجل فقال: يا أخي، لازمْ بابًا واحدًا ليُفتحَ لك سائرُ الأبواب، واخدمْ سيِّدًا يخدمك سائر السادات.

قال مَحْمَش[2]: خدمتُ أبا حفصٍ اثنتين وعشرين سنة ما رأيتُهُ ذكرَ الله تعالى على غفلةٍ[3] في حالةِ انبساط؛ بل إذا ذكرَ اللهَ كان يذكره على التعظيم، وفي غاية الحضورِ، ويتغيَّرُ عليه حاله.

قيل له وقت النزع: بما توجَّهتَ إلى الله تعالى؟ قال: الفقيرُ إذا توجّه إلى الغني فهل يتوجَّه إلاّ بفقرِه؟ يعني: ليس للفقير وسيلةٌ إلى الغني سوى فقره.

---

(١) في (أ): مطلع على أعماله.

(٢) محمش في اللغة الفارسية تختصر التركيبات مثل (محمد شاد) و(أحمد شاد) إلى ممشاد ومحمشاد، وهذا اللفظ يمكن أن يكون مخفف: (محمد شاد) أو (ممشاد) أي العارف. انظر الترجمة العربية صفحة ٦٦٢.

وفي المعجم الذهبي صفحة ٤١٥.

شاد: اسم فاعل: مسرور، مبارك، راضٍ. لاحقة للاسم، مثل: أحمد شاد.

(٣) في (أ): ذكر الله خاليًا على غفلة.

نقل أن عبد الله السُّلمي حين حضرته الوفاة وصّى بأن يدفن تحت قدمِ أبي حفصٍ رحمهم الله.

أقول: ونقل أنّه قال: إذا رأيتَ المُريدَ يُحبُّ السماعَ، فاعلمْ أنَّ فيه بقيّةً من الجهل والبطالة.

وقال: حسنُ أدب الظاهر هو عنوانُ حُسنِ أدب الباطن.

وقال: الفتوة إرادةُ الإنصاف، وتركُ مُطالبة الانّصاف.

وقال: من لم يزنْ أفعالَه وأحواله في كلِّ وقتٍ بالكتاب والسنة، ولم يَتَّهِمْ خواطرَه فلا تعدَّه في ديوان الرجال. والله أعلم.

نسأل الله تعالى بوسيلتهم أن يَجعلنا من الفائزين بمرضاته، ويوفِّقنا لما نستجلب به رحمته ومغفرته، إنّه وليُّ الحسنات، رفيعُ الدرجات.

* * *



(٣٩) حمدون القصار(١)

ذكر أبي صالح حمدون بن أحمد القصار رحمه الله:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، وموصوفًا بالورع والتقوى، فقيهًا عالمًا بالحديث، وله في علم الحديث درجةٌ عالية، وكان في عيوب النفس ذا بصيرةٍ، وكان في المجاهدة والمعاملة في المرتبة الأقصى.

وكلامه كان مؤثّرًا في القلوب، وكان على مذهبِ الثوري(٢)، ومُريدًا لأبي تراب النخشبي.

وكان في التّقوى إلى حيث أنه كان عند صديقٍ له، وقد حضرته الوفاة، فتوفّي في الليل، فقام حمدون وأطفأ السراجَ، وقال: انتقلَ هذا السراجُ بموته إلى ورثته، ولا يجوزُ لنا أن نستضيءَ بضوئه بدون رضا الورثة.

نقل أنه كان في نيسابور رجلٌ مشهورٌ بالشطارة والعيارة يُسمّى نوح، فالتقى به حمدون في بعض الطرق، وقال له: ما الفتوة؟ قال: أمّا فتوّتي ففي أن أخلع القباء وألبسَ مرقعةً، وأشرعَ في التصوف، وأستحيي من الخلق بسبب زِيِّ أهل

(١) طبقات الصوفية ١٢٣، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣١، الرسالة القشيرية ٦٩، مناقب الأبرار ٣٣٥، صفة الصفوة ٤/ ١٢٢، المنتظم ٥/ ٨٢، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، الوافي بالوفيات ١٣/ ١٦٥، طبقات الأولياء ٣٥٩، نفحات الأنس ٩١، طبقات الشعراني ١/ ٨٤، الكواكب الدرية ١/ ٥٩١.

(٢) أقام سفيان الثوري (٩٧ـ ١٦١هـ) مذهبًا فقهيًا مستقلاً، لم يتابع فيه أهل الرأي كل المتابعة، كما لم يتابع فيه أهل الحديث كل المتابعة؛ بل كان وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، ولذلك كانت له مكانته في كلا المدرستين، وكان لمذهبه علماء أتباع في العراق والمغرب، عاش مذهبه وعمل به الناس مدة ثلاثة قرون. انظر موسوعة فقه سفيان الثوري تأليف د. محمد رواس قلعة جي صفحة ٦٠.

التصوف، وأحترز عن المعاصي، وفتوّتك في أن تخلعَ جبّةَ التصوّف حتى لا تغترَّ بها ولا تغرَّ بها غيرَك. وحاصل هذا الكلام أنّه قال: فتوّتي في حفظِ الشريعة، وفتوّتك في حفظ الحقيقة، وهذا أصل عظيم.

نقل أنه لما ترقّى شأنُهُ في نيسابور قال له أئمّتُها: أنت اليوم موصوفٌ بالعلم والزهد، وكلامُك مؤثّرٌ في القلوب، فلا بدَّ لك من الاشتغالِ بالوعظ لينتفعَ به الخلائق. فقال: لا يجوزُ أن أُحدِّثَ للناس بالوعظ، ولا أثرَ لكلامي في القلوب، والكلامُ إذا لم يؤثّرْ في القلوب يكون استهزاءً بالعلم، واستخفافًا بالشريعة، وليس بمسلَّمٍ إلاّ لمن يكون سكوتُهُ إيصالاً للدين[1]، وبتكلّمِهِ يرتفع الخلل.

قيل: لأيِّ شيءٍ نجدُ كلامَ السلفِ أكثرَ تأثيرًا في القلوب؟ قال: لأنهم حدّثوا لأجلِ عزِّ الإسلام، ونجاةِ النفس ورضا الربِّ، ونحن نُريد أن نُحدِّثَ لعزِّ النفسِ، وطلب الدنيا، وقبولِ الخلق، لا جرمَ لا يؤثّر في القلوب.

وقال: ينبغي أن يكونَ علمُ الحقِّ بالعبدِ أحسنَ من علمِ النَّاسِ به. يعني المعاملة في الخلاء ينبغي أن تكون خيرًا من المعاملة في الملأ.

قال: لا تُظهر سرًّا يجب إخفاؤه عليك أيضًا.

وقال: أوصيكم بأمرين: صحبةِ العلماء، والاحتمال من الجهّال.

وقال: صاحبوا الصوفية؛ فإن وقعتْ منكم سيئةٌ يقبلوا منكم العذر، وإن عملتم حسنةً لا يوقّرونكم بها، وحينئذٍ لا يحصل لك عُجْبٌ.

مَنِ اطّلعَ على سيرة السلف يتبيَّنُ له تقصيرُهُ، ويعلمُ أنَّه تأخَّر عن درجةِ الرجال.

يكفيك ما يصلُ إليك من الرزقِ بلا تعبٍ، إنَّما التعبُ في طلب الزيادة.

من قدرَ على أن يُبصرَ نقصانَ نفسه فليس بأعمى.

من ظنَّ أن نفسه الأمّارةَ خيرٌ من نفسِ فرعون فهو معجب.

---

(١) في (أ): إبطالاً للدين.

أقول: معناه: أنَّ النفسَ من حيث هي نفسٌ منبعٌ للصفات الذميمة، والخصالِ الردية إلاّ من عصمَهُ الله، فالنفسُ لو خلّيت وطبعها تطلبُ ما طلبَتْ نفسُ فرعون لعنه الله، فدعوى الإنسان أنَّ نفسَه خيرٌ من نفس فرعون لعنه الله غرورٌ محضٌ، والغرورُ منهيٌّ عنه في باب الدين، لأنَّ الغرورَ يصيرُ سببًا للكبر والعجب والهوى، ومنها تنشأُ المُهلكات بأسرها، نجّانا الله تعالى منها. والله أعلم.

وقال: إيَّاك وأن تلومَ السكرانَ لأجلِ حظِّ نفسك، اغترارًا بطهارةِ نفسك، ولكن لتكنْ ملامتُك إيّاه نفسك لأجل النهي عن المنكر، وإلاّ توشكَ أن تُبتلى بما ابتُلي به.

وقال: لا أعلمُ حسنَ الخلق إلاّ في السخاوة، ولا قبحَ الخُلق إلاّ في البخل.

وقال: من زعم أنَّه مالكٌ لشيءٍ فهو بخيل.

أقول: يعني أن يكونَ باذلاً غيرَ جامعٍ، وأنّ المالكَ في الحقيقة هو الله، يُعطي ويمنع، وإذا كان كذلك فالبخلُ لماذا؟ فإنَّ بحرَ رحمة الله تعالى موّاجٌ في الليل والنهار، فكلّما بذلتَ أو أنفقتَ شيئًا، فاللهُ يعوّضُه بأفضل منه. والله أعلم.

قال: الفقيرُ لا يجدُ لذَّةَ التواضع إلاّ في التكبُّرِ على الأغنياء.

وقال: التواضعُ أن لا ترى أحدًا يَحتاجُ إليك في الدنيا وفي الآخرة.

منقبةُ الفقير في التواضعِ، فإذا تركَهُ فانخلع من جميع الخيرات.

كثرةُ الأكل رأسُ كلِّ داءٍ.

من تخلّفَ بطلب الدنيا عن الآخرة صارَ ذليلاً حقيرًا؛ إمّا في الدنيا وإما في الآخرة.

احتقرِ الدُّنيا ليعزَّك أهلُها.

وقال عبد الله بن المبارك: أوصاني حمدونُ القصار أن لا أغضبَ لأجلِ الدُّنيا.

وسئل عنه: من العبد؟ قال: من لا يحبُّ أن يعبدَهُ غيره ـ أي يخدمه غيره[(١)].

سئل عن التوكُّل، قال: التوكُّلُ أن لو كان عليك عشرةُ آلاف دينار لا تكونُ طامعًا في أموال الناس، ولا آيسًا عن الله سبحانه في قضائه.

قال: التوكّلُ هو التعلّقُ بالله.

قال: تفويضُ الأمورِ إلى الله تعالى خيرٌ من الاشتغال بالتدبير.

وقال: لا يجزعُ في المصائب إلاّ من اتّهمَ اللهَ عزَّ وجل.

وقال: لا يفرحُ الشيطانُ مثل فرحِهِ بثلاث: قتلِ مؤمن، وموتِ إنسان على كفرٍ، وشخصٍ يكونُ في قلبه خوفُ الفقر.

قال عبد الله بن المبارك: قيل لحمدون في مرضِ الموت: أوص لأولادك. قال: إني أخاف عليهم الغنى أكثرَ ممّا أخافُ عليهم الفقر.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]

وصلِّ اللهم على نبيّك محمد وآله أجمعين.

* * *

---

(١) في (ب): يعبده غيره، أو يخدمه كما يخدم الله تعالى.

(٤٠) منصور بن عمار[١]

ذكر الشيخ منصور بن عمار رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله تعالى من حكّامِ المشايخ، ومن سادة الصوفية، وفي المواعظ له كلماتٌ عالية، حتى قيل: ما تكلّمَ أحدٌ من المشايخ أحسنَ منه.

وكان في أنواع العلوم كاملاً، وصاحبَ معرفةٍ، وله في خُراسان قبولٌ عظيم.

وسببُ توبته على ما نُقل أنه وجدَ رقعةَ كاغدٍ مكتوبًا عليها بسم الله الرحمن الرحيم، فأخذها، وما وجد ثقبةً في جدارٍ يضعها فيها، فابتلعها، فرأى في المنام كأنَّ قائلاً يقول: بسببِ تعظيمك تلك الرُّقعة فتحنا عليك باب الحكمة. فاشتغل مدّةً بالرياضة، ثم شرع في الوعظ.

نقل أنه كان في زمانه شابٌّ فاسق، اشتغل في بعض الأيام بالفسق، وأعطى غلامًا له أربعة دراهم، وأمرَهُ أن يشتري ما يُتنقَّلُ[٢] به، فوصل الغلامُ في مروره إلى مجلسِ ابن عمار، وخطر ببالِهِ أن يدخلَ ويسمعَ من كلماته، فلمّا دخلَ سمع يقول: من الذي يُعطي هذا الفقيرَ أربعةَ دراهم، لأدعوَ له بأربعة أشياء. وكان هناك فقيرٌ يسألُ أربعة دراهم، فقال الغلام من نفسه: أنا أصرفُ هذه الأربعة

---

(١) التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٠، الضعفاء للعقيلي ٤/ ١٩٣، الجرح والتعديل ٨/ ١٧٦، الثقات لابن حبّان ٩/ ١٧٠، الكامل في الضعفاء ٦/ ٣٩٣، طبقات الصوفية ١٣٠، حلية الأولياء ٩/ ٣٢٥، تاريخ بغداد ١٣/ ٧١، الرسالة القشيرية ٦٨، مناقب الأبرار ٣٢٩، صفة الصفوة ٢/ ٣٠٨، المختار من مناقب الأبرار ٥/ ٦١، مختصر تاريخ دمشق ٢٥/ ٢٥٩، سير أعلام النبلاء ٩/ ٩٣، ميزان الاعتدال ٤/ ١٨٧، طبقات الأولياء ٢٨٦، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٤٤، نفحات الأنس ٩٤، طبقات الشعراني ١/ ٨٣، الكواكب الدرية ١/ ٧٢٠.

(٢) كذا في الأصلين، وفي الرسالة القشيرية ٢٢٦ (باب الرجاء): يشتري شيئًا من الفواكه.

والنُّقْل: ما يُتنقَّل به على الشراب من فواكه وكوامخ، وأيضًا ما يتفكَّه به من جوز ولوز وبندق. المعجم الوسيط.

على الفقير، وأسألُ الشيخَ أن يدعو لي[١] بأربعة أشياء. فأعطاه، وقال: يا شيخ، ادعُ اللهَ تعالى لي بأربعة أشياء. قال الشيخ: اختر شيئًا لأدعو اللهَ لك. قال الغلام وكان مملوكًا: ادعُ الله تعالى أولاً أن يَرزقني العتقَ، ويخلّصني من الرقّ. فدعا الله تعالى بهذا، وثانيًا أن يرزقَ سيِّدي توبةً من المناهي. فدعا، وثالثًا أن يعطيني بدل الدراهم شيئًا أذهب به إلى مولاي. فدعا بها أيضًا، ورابعًا أن يغفرَ اللهُ لكَ ولي ولمولاي ولأهلِ هذا المجلس. فدعا منصور بهذا أيضًا، ثم رجعَ الغلامُ إلى مولاه، وقال: اشتريتُ بالدراهم أربعَ دعواتٍ في مجلس منصور بن عمار. قال سيده: وما هي؟ قال: أولاً أن يرزقني اللهُ نجاةً من الرقّ، وثانيًا أن يرزقَكَ التوبة، وثالثًا أن يُعطيني بدل الدراهم، ورابعًا أن يغفرَ للشيخ ولي ولك ولأهل ذلك المجلس. فلمّا سمعَ الكلماتِ من المملوك أثَّرَ في قلبه، وقال: أَعتقتُكَ لوجه الله تعالى، وتبتُ إلى الله تعالى ممّا أنا فيه من الفسوق، وأعطيتك أربعة آلاف درهم بدلَ الدراهم الأربعة، وأمّا الدعاء الرابع فإجابته على الله، وما لي فيه مجالٌ، والذي طلعَ بيدي عملتُ، وأنا معذورٌ في ذلك. فرآى في ليلته في المنام هاتفًا يقول له: ما كان بيدك فعلتَهُ مع أنَّكَ عبدٌ لئيم، وما أحلته على الله تعالى كيفَ أُهملُه مع سَعِة رحمتي؟! فغفرتُ لك ولغلامِك ولمنصور ولمن كان في مجلسه.

نقل أنه كان يومًا مشغولاً بالوعظ، فناوله شخصٌ رقعةً فيها مكتوب هذا البيت:

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتُّقى ... طبيبٌ يُداوي الناسَ وهو مريضُ

واتفق لهذا الفقير أيضًا أبياتٌ في هذا المعنى وهي:

ألاَ [يـا] أيُّهـا الحبـرُ الهُمـام ... ويـا مَـنْ رأيُـهُ فينـا مُصيـبُ
تَتَبَّعْـتَ الأمـورَ بقـدرِ وسـعٍ ... بدا لـي مُشكـلٌ فمـنِ المُجيـبُ
طبيـبٌ عـالـجَ المَـرضـى بجهـدٍ ... فمـا بَـرئُـوا وقـد مَـرضَ الطَّبيـبُ

---

(١) في (ب): أن يقول بأربعة أشياء.

فأجاب المنصور وقال: اعملْ بقولي، فإنَّ عملي لا يَنفعُكَ، وتقصيري في العمل لا يَضرُّك[١].

نقل أنه كان يعبرُ في بعض الليالي في بعضِ السِّكك، فسمع من يُناجي ربَّهُ ويقول: إلهي، ما جرى عليَّ ما كان لأجلِ أنّي قَصدتُ مُخالفتَكَ؛ ولكن أضلّتني نفسي، وأغواني الشَّيطانُ، لا جرم وقعتُ فيما وقعتُ، إن لم تُمسكْ بيدي فمن يُمسكُ بيدي؟ وإن لم تَعفُ عنّي، فمن يَعفُو عنّي؟ ومَنْ يُنجيني من عذابك وعقابك؟ فإنّي قد سوّدتُ وجهي، فكم أرجعُ إليك وأتوبُ وأعصي! كان يذكر من هذا النوع ويبكي، فقال المنصور: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فلمّا أصبحَ اتَّفق له عبورٌ في ذلك الطريق، فسمع بكاءً في ذلك البيت، فسأل مِنْ شيخٍ هناك عن الحال، فقال: كان لي ابنٌ يَبكي البارحةَ من خوف الله تعالى، فعبرَ شخصٌ، وأسمعه آيةً من القرآن، فحين سمعَ ماتَ في ساعته من خوفِ الله تعالى.

نقل أن هارونَ الرشيد سألَ عن المنصور بن عمّار مسألةً، وأمهلَهُ ثلاثةَ أيام، فقال: من أعلمُ الناس؟ ومَنْ أَجهلُ الناس؟ فخرج المنصور من مجلسه، ثم رجع عن الطريق، وقال: يا أمير المؤمنين، أعلمُ الناسِ المُطيعُ الخائفُ، وأجهلُهم العاصي الآمنُ.

ومن كلامه أنه قال: سبحانَ من جعلَ قلوبَ العارفين محلَّ ذكره، و[قلوب] الزاهدين موضعَ التوكّل، وقلوب المُتوكّلين منبعَ الرضا، وقلوبَ الفقراء منزلَ القناعة، وقلوبَ أهل الدنيا مقرَّ حبِّ جمع المال.

قال: الناسُ على قسمين: قسمٌ عارفٌ بنفسِهِ[٢]، وقسمٌ عارفٌ بالله. فالأولُ مَشغولٌ بالمجاهدة والرياضة، والثاني بالعبادةِ والطلب.

---

(١) كأنه ترجمة لبيت الخليل بن أحمد كما جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٢٥:

اعمـل بعلمـي ولا تنظـرْ إلـى عملـي ينفعك قولي ولا يضرُرْكَ تقصيري

(٢) في (أ): عارف نفسه.

وقال: الحكمةُ تتكلَّمُ في قلوب العارفين بلسان التصديق، وفي قلوبِ الزاهدين بلسانِ التفضيل، وفي قلوب العابدين بلسانِ التوفيق، وفي قلوب المُريدين بلسان التفكّر، وفي قلوب الطالبين بلسان التذكُّرِ.

وقال: طوبى لمن أصبحَ والعبادةُ حرفتُهُ، والفقر أُمنيتُه، والعزلةُ مسكنه، والآخرةُ همَّتهُ، وفي الموتِ فكرُهُ، وفي الرحمة رجاؤه بالتوبة.

وقال: أجملُ لباسٍ للعبد التواضعُ والانكسار، وأحسنُ لباسٍ للعارف التقوى.

وقال: سلامةُ النفس في مُخالفتها، وهلاكُها في مُوافقتها ومتابعتها.

وقال: من جزِعَ في مصائب الدنيا يُوشكُ أن يقعَ في مصائب الدين.

وقال: من ترك أماني الدنيا استراحَ عن الهموم، ومن امتثلَ أمرَ اللهِ تعالى أَمِنَ من العُذر.

نقل أن أبا الحسن الشعراني رأى المنصور رحمه الله في المنام بعد وفاته، فقال: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: قال الله: أنت المنصور بن عمّار؟ قلت: نعم. قال: أنت الذي كنتَ تأمرُ الناس بالزهد ولا تأتي به؟ قلت: نعم، إلهي، الكلامُ كلامُك، ولكن ما اشتغلتُ بالوعظِ أبدًا إلاّ وابتدأتُ بحمدِك وثنائك، ثم بالصلاة والسلام على نبيِّكَ عليه السلام، ثم شرعتُ في نُصح عبادك. فقال الله سبحانه وتعالى: صدقتَ. ثم أمرَ الملائكةَ: أن انصبوا له كرسيًّا في السماء بين الملائكة؛ ليُثني عليَّ كما كان يُثني عليَّ في الأرض[1].

اللهم اجعلنا مَشغولين بذكرك وشكرك، وحسن عبادتك، وتلاوةِ كتابك، ووفِّقنا للثناءِ عليك، وارزقنا شكرَ نعمائك وآلائك، وصلِّ على أشرفِ أنبيائك، ومبلّغ أنبيائك محمدٍ عليه السلام وعترته الطيبين الطاهرين، وأصحابه أجمعين.

* * *

(١) هنا ينتهي المجلد الأول من الترجمة العربية المطبوعة، أما الثاني فلمّا يُطبع بعدُ.

(٤١) أحمد الأنطاكي(١)

ذكر أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمة الله عليه:

كان رحمه الله من قُدماء المشايخ، وكبارِ الأولياء، وكان عالمًا بأنواع العلوم الظاهرة والباطنة، وصاحبَ مُجاهدةٍ، ورُزق رزقًا حسنًا وعمرًا طويلاً، وصادقَ تبعَ التابعين.

وكان مريدًا للمُحاسبي رحمه الله، وأدرك صُحبةَ بشر الحافي، والسريّ السقطي، وفُضيل بن عياض، وأبي سُليمان الداراني.

وقد سُمّي جاسوس القلوب لحدَّة فِراسته.

وله كلماتٌ عالية، وإشاراتٌ بديعة حتى قيل له: أنت مشتاق لله تعالى؟ قال: لا. قيل: لِمَ؟ قال: لأن الاشتياق إنّما يكونُ للغائب، وإذا كان حاضرًا فلا مجال للشوق والاشتياق.

سئل عن المعرفة، فقال: المعرفةُ ثلاثُ درجات: الأولى إثبات الوحدانية لله تعالى، والثانية تجريدُ القلب عمّا سوى الله تعالى، والثالثة لا يُمكن التعبيرُ عنها: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وسئل عن علامة المحبّة، قال: التفكُّرُ الدائم مع العبادة، والنَّظرُ الكثيرُ، والصمت الطويل. لا يحصلُ حزنٌ عند المُصيبةِ، ولا فرحٌ عند الأماني، وعدمُ

(١) الجرح والتعديل ٢/ ٦٦، الثقات لابن حبّان ٨/ ٢٠، طبقات الصوفية ١٣٧، حلية الأولياء ٩/ ٢٨٠، الرسالة القشيرية ٦٨، مناقب الأبرار ٣٢٤، صفة الصفوة ٤/ ٢٧٧، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٠٢، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ١٢٧، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٨٧، ١١/ ٤٠٩، ميزان الاعتدال ١/ ١٠٦، البداية والنهاية ١٠/ ٣١٨، طبقات الأولياء ٤٦، نفحات الأنس ٩٥، ١٤٠، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٣٠.

الخوف من غير الله تعالى، وعدم الرجاء من غير الله[١].

سئل: ما علامةُ الخوف والرجاء؟ قال: علامة الخوفِ الفرار، وعلامةُ الرجاء الطلب.

من يدّعي الرجاء ولا طلبَ له فكذّاب، وكما أنّ من يدّعي الخوفَ وليس له فرار كذّابٌ أيضًا.

قال: أرضى الناسِ بالنجاة من كان أخوفَ على نفسه، وأرضاهم للهلاك بنفسه من كان آمنًا على نفسه.

وقال: أقلُّ مرتبةِ اليقين ما إذا وصلَ إلى القلب نوّرَهُ، وأخرجَ ما فيه من الشكّ.

وقال: جالسوا أهلَ الجدّ؛ فإنّهم جواسيسُ القلوب.

وقال: علامةُ الرجاء أنّه إذا أُحسن إليهم ألهم الشُّكرَ على ذلك الإحسانِ طمعًا في إتمام النِّعمةِ في الدنيا، وإتمامِ العفو في الآخرة.

وقال: علامةُ الزُّهد أربعة: الاعتمادُ على الحقّ، والاحترازُ عن الخلق، والإخلاصُ في العمل لله تعالى، واحتمالُ الظلم من جهة كرامة الدين.

وقال: من كان معرفتُهُ بالله تعالى أكثرَ، فخوفُه منه أكثر.

وقال: أنفعُ العقلِ عقلٌ تَصيرُ به عارفًا بنعمة الله تعالى عليك، ثم يُعينك على الشُّكر.

و: أنفع الإخلاصِ ما أبعدَ عنك الرِّياءَ والتصنُّع.

أعظمُ الذُّنوبِ الطاعةُ على الجهل.

من استخفَّ القليلَ من المعاصي يُوشكُ أن يقعَ في الكثير.

---

(١) كذا في (أ) و(ب). وكأني بالجملة: والصمت الطويل، عندها لا يحصل حزنٌ عند المصيبة، ولا فرح عند نيل الأماني، والمحبة (أو الأمن): عدم الخوف من غير الله تعالى، وعدم الرجاء من غير الله.

الخواصُّ يَغوصون في بحر الفكرة، والعوامُّ يَضلّون في مفاوزِ الغفلة.

إمامُ جميع الأعمال العلمُ، وإمامُ العلوم العبادة.

و: اليقن نورٌ يَجعلُهُ اللهُ تعالى في قلبِ العبد ليشاهدَ به جميعَ أُمورِ الآخرة، ويحترقُ بسبب ذلك جميعُ الحجبِ الذي بينه وبين أمور الآخرة، حتى يُطالعَ بسببه جميعَ أحوال الآخرة.

و: الإخلاص ما إذا عملتَ عملاً لا يُعجبُكَ أن تُذكرَ به وتُعظّم.

اغتنم أيامًا بقيَتْ من عُمرك، وعظِّم قدرَها، واجتهدْ في إصلاح النفس، وإخلاصِ العمل فيها ليُجبرَ ما مضى من عمرك على الغفلة، ويُغفرَ لك ما عملتَ فيه.

قال: دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: مُجالسةُ أهل الصلاح، وتلاوةُ القرآن، وخلوُّ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّع في الأسحار.

و: العدلُ على قسمَيْنِ: عدلٌ ظاهرٌ بينك وبين الخلقِ، وعدلٌ باطنٌ بينك وبين الله عز وجل.

وقال: نحن نُوافقُ أهلَ الصلاح في أعمالهم، ونخالفُهم في الهمّة.

وقال: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن: ١٥] ونحنُ حريصٌ في زيادةِ الفتنة.

نقل أنّه اجتمعَ عنده ليلةً بضعٌ وثلاثون رجلاً من أصحابه، قدّم إليهم السفرة، وكان الخبزُ قليلاً، ففتَّهُ ورفعَ السراج وأمرَهم بالأكل، ولمّا ردَّ إليهم السراجَ أبصر[١] الخبزَ كما كان، ولم يأكل أحدٌ منهم إيثارًا لإخوانه، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) في (ب): السراج أبصروا الخبز.

(٤٢) عبد الله بن خُبيق[١]

ذكر أبي محمد عبد الله بن خُبَيْق رحمه الله:

كان رحمه اللهُ من الزُّهاد، ومن عُبّاد المتصوّفة، متورّعًا متوكّلاً، وله في أكلِ الحلالِ والتحرُّز عن الحرام والشُّبهات مبالغةٌ وجدٌّ عظيم.

صحبَ يوسف بن أسباط.

وهو كوفيُّ الأصل؛ لكنّه سكنَ أنطاكية وكان على مذهب سُفيان الثوري[٢] رحمه الله، وله كلماتٌ عالية.

قال أبو الأزهر الميّافارقيني: سمعتُ فتحًا الموصلي يقول: حدّثني عبد الله بن خُبَيْق أوّل ما لقيته، وقال: إنّما هي أَربعٌ لا غير: عينُك، ولسانُك، وقلبُك، وهواك؛ فاحفظْ عينَك[٣] لا تنظرْ بها إلى ما لا يحلُّ، ولسانَكَ لا تقلْ به شيئًا تَعلمُ خلافَه، وقلبَك لا يكونُ فيه غلٌّ ولا حقدٌ على أحدٍ من المسلمين، وهواكَ لا تَهوى شيئًا من الشرِّ، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال فاجعلِ الرَّمادَ على رأسك.

وقال: إنَّ اللهَ تعالى خلقَ القلبَ مَوضعًا للذكر، فإن صاحبْتَ نفسَك صرتَ محلاً للشهوة، ثم الشهوةُ لا تَخرجُ من القلب إلاّ بخوفٍ مُزعجٍ[٤] أو شوقٍ مُقلق.

---

(١) طبقات الصوفية ١٤١، حلية الأولياء ١٠/ ١٦٨، الرسالة القشيرية ٦٧، صفة الصفوة ٤/ ٢٨٠، مناقب الأبرار ٣٢٠، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٤٥، طبقات الأولياء ٣٣٨، تبصير المنتبه ٢/ ٥٢٤، نفحات الأنس ١٠١، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٣، الكواكب الدرية ١/ ٦٧٦.

(٢) انظر صفحة (٤١٦) حاشية رقم (٢).

(٣) في (ب): فاحفظ عينك ولسانك وقلبك وهوالك، فاحفظ عينك.

(٤) في (أ) كتب تحت كلمة (مزعج): محرك.

وقال: من أرادَ أنْ يَعيشَ حيًّا، ويموتَ حيًّا فعليه أن لا يجعلَ قلبَهُ مَسكنًا للطمع.

وقال: لا تحزنْ إلاّ بسببِ شيءٍ يضرُّك في مآلِكِ، ولا تفرحْ إلاّ بما يَسرُّك في مآلك.

القلبُ إذا كثرت وحشتُهُ من الله كثرت نفرتُهُ، ومن استأنسَ بالله استأنسَ به كلُّ شيءٍ.

أنفعُ الرجاءِ ما سهل عليك العمل.

الاستماعُ إلى الباطل يُذهبُ حلاوةَ الطاعةِ من القلب.

وقال: أنفعُ الخوف ما يَمنعُكَ عن المعاصي، وأطالَ منك الحزنَ على ما فات، وألزمَكَ الفكرةَ في بقيّةِ عمرك.

وقال: الإخلاصُ في العمل أشدُّ من العمل، والعملُ شديدٌ إلاّ أنّ الناس يَعجزون عنه، فكيف بالإخلاص؟.

من كانَ صادقًا فيما بينه وبينَ الله صارَ مُطَّلعًا على خزائن الغيب بتوفيقِ الله عزَّ وجل، وأمينًا في السموات والأرضين.

إنِ استطعتَ أن لا يَسبقَكَ أحدٌ في طاعةِ الله تعالى فافعلْ، ولا تَختَرْ على ربِّك شيئًا، فإنّه خيرٌ لك من كلِّ شيءٍ. والله الهادي.

* * *

(٤٣) الجنيد(١)

ذكر أبي القاسم الجُنيد بن محمد البغدادي رحمه الله تعالى:

كان سيد طائفة الله تعالى وإمامهم، وشيخَ المشايخ ورئيسهم، وأصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده العراق(٢)، وأبوه كان يَبتاع الزجاج، ولذا يُقال: القواريري.

وكان في جميعِ العلوم ماهرًا، وفي الفنون كاملاً، وفي الأُصول والفروع مُفتيًا، وفي المعاملات والرياضات والإشاراتِ العالية سابقًا على الأقران، ومن أول حاله إلى آخر حاله حميدًا مقبولاً.

والكلُّ مُتَّفِقٌ على أمانته وكماله، وكلامُه حجَّةٌ في علم الطريقة، وما استطاعَ أحدٌ أن يعترضَ عليه بمخالفة السنة.

وكان لسان القوم، وطاووسَ العلماء، وسُلطان المحقِّقين.

ولم يكن له نظيرٌ في الزهد والمحبة، وفي علم الطريقة صاحب اجتهادٍ، وأكثرُ مشايخ بغداد بعده كانوا على مذهبِهِ وطريقته.

---

(١) طبقات الصوفية ١٥٥، حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥، تاريخ بغداد ٧/ ٢٤١، الرسالة القشيرية ٧٠، طبقات الحنابلة ١/ ١٢٧، الأنساب ١٠/ ٢٥٤، مناقب الأبرار ٣٤١، صفة الصفوة ٢/ ٤١٦، المنتظم ٦/ ١٠٥، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٥٦، وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٦، دول الإسلام ١/ ١٨١، العبر ٢/ ١١٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٣١، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٦٠، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٠١، البداية والنهاية١١/ ١١٣، طبقات الأولياء ١٢٦، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٨، نفحات الأنس ١٢١، طبقات الشعراني ١/ ٨٤، الكواكب الدرية ١/ ٥٧٠، شذرات الذهب ٢/ ٢٢٨.

(٢) في (ب): ومولده من العراق.

وله تصانيفُ[(١)] غاليةٌ، وإشارت عالية، وهو أولُ من تكلَّمَ في الإشارة.

صحب السريَّ، والحارثَ المُحاسبي، ومحمد بن علي القصّاب.

مات سنة سبع وتسعين ومئتين.

وكان ابنَ أختِ السريِّ، سأل يومًا من شيخه السري: هل يكونُ المُريد أعلى مرتبةً من الشيخ؟ قال: نعم. قيل: كيف يكون؟ قال: مرتبةُ الجنيد أعلى من مرتبتي.

وكانَ من أوّل أمره حتى في زمان الصِّبا مَشغولاً[(٢)] بالطلب وتحصيلِ الأدب، وكان صاحبَ الفراسة والفهم والفكر.

نقل أنه جاء إلى البيتِ يومًا من الكُتّابِ، فوجد أباه يبكي، سأل عن ذلك، قال: ذهبتُ بشيءٍ من الزكاة إلى خالِك - أيِ السريّ السقطي - فلم يقبلْ، والحالُ أنّي صرفتُ عمري في تحصيل هذه الدُّريهمات الخسيسة، ولا يقبلُها أحدٌ من أولياء الله تعالى. قال الجُنيد: أعطني الدراهم لأُقبل بها على خالي، فأخذ وذهب إليه، ودقَّ الباب، فقال السريُّ: من أنت؟ قال: أنا الجُنيد. وقال: باللهِ الذي خلقَكَ، وفعلَ معك بالفضل، ومع أبي بالعدل إلاّ قبلتَ[(٣)]. قال السري: يا جُنيد، وكيف فعلَ معي بالفضل، ومع أبيك بالعدل؟ قال: إنَّ الله رزقَكَ الفقر، فإن أردتَ قبلتَ، وإلاّ فلا، أمّا أبي فرزقَهُ المالَ، فإن أرادَ، ولم يرد يجبُ عليه الصرف إلى المستحقّ. قال السريُّ: فإنّي قبل أن أقبل الدراهم قبلتك. وفتح البابَ، وأخذ الدراهمَ، وأحبّه.

وكان ابنَ سبعِ سنين إذ ذهبَ به السريُّ إلى مكّة، وحجَّ به، فاتفق أربع مئة من المشايخ قد اجتمعوا في المسجدِ الحرام، وأخذوا يَتكلّمون في الشُّكر،

---

(١) ذكر له صاحب هدية العارفين ١/ ٢٥٨ من الكتب: أمثال القرآن، معاني الهمم في الفتاوى، المقصد إلى الله تعالى.

(٢) في (ب): زمان الصبي.

(٣) في (ب): إلا فعلت.

وقال كلٌّ واحدٍ منهم كلامًا، فأشار السريُّ إلى الجُنيد، وقال: يا صبي، قلْ أنت أيضًا في بيان الشكر شيئًا. فقال الجُنيد: الشُّكر عبارةٌ[1] عمّا إذا أنعمَ اللهُ تعالى عليك بنعمةٍ ألاّ تجعلَ تلك النِّعمةَ مادّةً على المعصية[2]، وأن لا تعصي الله تعالى فيها. فقال المشايخ: أحسنتَ يا قُرّة عينِ الصدّيقين. واتّفقوا على أنّه لا يُمكن أن يُقالَ في تفسير الشكر أحسن ممّا قال.

فرجعَ إلى بغداد، واشتغلَ ببيع الزُّجاج.

وكان يدخلُ الدُّكانَ، ويسبلُ سِترًا، ويدخل خلفَ السِّتر، ويُصلّي أربع مئة ركعة، فمضى على هذا زمانٌ، ثم تركَ الدُّكانَ، وواظبَ على مجلس السريّ، واشتغل بحراسة القلب، واجتهد في أن لا يخطرَ بباله غيرُ الحقِّ، وعبر على هذه الحالة أربعين سنة.

نقل أنه ثلاثين سنة يُصلّي العشاءَ، ويقومُ إلى الصباح، ويقول: الله الله، ويُصلّي بوضوء العشاء صلاةَ الصبح، فبعد أربعين سنةً ظنَّ أنّه قَرُبَ إلى المقصود، فسمع هاتفًا يقولُ: جاء وقت أن نُريكَ إيّاك. قال الجنيد: إلهي، وما أذنبَ الجنيد؟ سمع نداءً: يا جُنيد، على ذنبٍ أعظمَ من أنّك ترى لك وجودًا!.

أقول: نظيرُه ما قيل: وجودُك ذنبٌ لا يُقاس به ذنب، والله أعلم.

فتأوّه الجنيد، وسكت وأنشد:

مَنْ لم يَكُنْ للوصالِ أهلاً ... فكلُّ إحسانِهِ ذنوبُ

وكان طولَ الليل قائلاً: الله، الله. حتى وقعتِ الناسُ فيه، وشرعوا في الطعن، وأوصلوا حالَه إلى الخليفة، والتمسوا زجرَه، والخليفةُ يقول: كيف نحكمُ فيه بلا حجّةٍ ونمنعُهُ بلا علّة؟ قالوا له: إنَّ الناسَ مُجتمعون عليه، ويغترّون بكلامه. وكانت للخليفة جاريةٌ جميلةٌ حسناء مُشتراةٌ بثلاثة آلاف، ولم

(١) في (ب): الشكر عبادة.

(٢) في (أ): مادة للمعصية.

يكن حينئذٍ جاريةٌ بجمالها، وكان الخليفةُ عاشقًا لها، مفتونًا بجمالها وغُنجها ودلالِها، فأمرها الخليفةُ أن تتزيَّنَ وتتجمَّلَ بأنواع الحلي والجواهرِ واللآلئ واللِّباسِ الفاخرِ وتتعطّرَ بأنواع العطر، وأمرها أن تذهبَ إلى الجُنيد، وتقولَ له: لي مالٌ وجمالٌ، وأشتهي أن تَقبلني وتتزوّجَ بي؛ لأشتغلَ ببركة صُحبتك بالطاعة والعبادةِ، وقلبي مالَ إليك، ولا يَميلُ إلى غيرِك، وأمرَها أن تعرضَ نفسَها عليه، وتكشفَ وجهَها بين يديه، وتحتالَ في ذلك، وتجتهدَ فيه، فذهبتِ الجاريةُ مع خادمٍ مجهولٍ إلى الشيخ، وذكرتْ ما أمرَها الخليفةُ؛ وبل بأضعافه، ففي أثناء المكالمةِ وقَع نظرُ الشيخ بلا اختيارٍ عليها، فأطرقَ رأسَه، وسكتَ، والجاريةُ بعدُ في الحديث، ثم رفع رأسَه وتأوّه، فسقطتِ الجاريةُ ميتةً، وذهب الخادمُ إلى الخليفة، وحكاه الحالَ، فاضطربَ الخليفةُ وتشوَّشَ، وقال: مَنْ يعملْ مع الرجالِ ما لا يليق، يلقَ شيئًا لا يُريد. وقال: لا يليقُ أن ندعو إلينا مثلَ ذلك الرجل؛ بل نحن نأتي إليه. والتقى به، وقال: يا شيخ، كيف وافقَكَ قلبُكَ حتّى دعوتَ اللهَ على مثلِ تلك الجارية؟ قال: يا أيُّها الخليفة، كلا، ولكن أنتَ أردتَ أن تُفسدَ عليَّ عبادةَ أربعين سنة، ولم تُشفقْ عليَّ، واللهُ تعالى غيور، فأحرقَتْها نارُ غيرةِ الله تعالى، ومَنْ أنا ليكونَ لي تأثيرٌ في ذلك؟.

قال لبعض أصحابه: ما أخذنا هذا التصوّفَ بالقيلِ والقال، وبالمحاربة والجدال؛ ولكن وجدناه بالجوعِ والسهرِ، والزُّهد في الدنيا، والانقطاعِ عن المحبوب فيها، وعمّا يَميلُ القلبُ إليه.

وقال: لا يَنبغي أنْ يَسلكَ هذا الطريق إلاّ شخصٌ يكونُ كتابُ الله تعالى بيمينه، وسنةُ رسوله ﷺ بيساره، وبضوئهما يَسلكُ؛ لئلا يقعَ في جُبِّ الشُّبهة، وظُلمة البدعة.

وقال: من تحمّلَ البلاء في هذا الطريق شيخُنا عليٌّ المُرتضى رضي الله عنه، ولولا كلامٌ ذكرَهُ عليٌّ رضي الله عنه لم يكن لهذه الطائفة شيءٌ يتمسَّكون به، والكلام هو هذا الذي قال حينَ سُئل: بماذا عرفتَ اللهَ تعالى؟ قال: بما جعلني عارفًا به، فعرفْتُ أنّه لا يُشبهُهُ شيءٌ، وليس له صورةٌ، ولا يُمكنُ أن

يُدرِكَ بالقياس، وأن لا يُقاس[١] بالأنواع والأجناس، فإنّه قريبٌ في البُعد، وبعيدٌ في القرب، فوقَ كلِّ شيءٍ لا بالمكان، ولا يُمكن أن يُقالَ تحت شيءٍ، أو تحته شيءٌ، وليس هو كشيءٍ، ولا عن شيءٍ، ولا في شيءٍ، ولا بشيءٍ، سبحانه من إله! هو كذلك، وليس غيره شيء ـ أي في الحقيقة ـ ومن أرادَ أن يشرحَ هذا الكلام يُمكنُهُ أن يكتب مُجلّدًا فيه، لكن فهم من فهم.

وقال: إن عشتُ ألفَ سنةٍ، لا أنقصُ من الأعمالِ ذرّةً إلاّ إنْ مَنعني عنه.

وقال: كنتُ زمانًا بحيث يَبكي عليَّ أهلُ السماء والأرض، ثم صرتُ إلى حيثُ بكيتُ على أهلِ السماء والأرض، وكنتُ حارسًا للقلب عشرَ سنين، ثم صارَ القلبُ حارسي عشرَ سنين، ثم صار منذ عشرين سنة لا خبرَ لي عن القلب، ولا للقلبِ عني.

وقال: لم تَفُتْ عنّي التكبيرةُ الأولى عشرين سنة ـ يعني مع الإمام ـ وكنتُ لو خطرَ ببالي شيءٌ من الدنيا لقضيتُ تلك الصلاة، ولو خطرَ ببالي شيءٌ من أمورِ الآخرة سجدتُ للسهو.

وقال يومًا لأصحابه: لو علمتُ أنّ ركعتينَ ممّا سوى الفريضة أفضلُ من مُصاحبتكم لما صاحبتكم أبدًا.

نقل أنه رحمه الله كان يصومُ أيامًا على التوالي، فإذا اتّفقَ أن يَزورَه شخصٌ من أصدقائه كان يصومُ معه، إن كان صائمًا، ويُفطر معه إن كان مفطرًا، ويقول[٢]: ليس ثوابُ الموافقة أنقصَ من ثواب الصوم.

نقل أنه كان في زِيِّ الفقهاء، ويقول: لو علمتُ أن الشُّغلَ ينقضي بلبس الخرقة، لكنتُ ألبس من الخرقة أوحشَ ما يكون؛ ولكن يُنادي كلَّ ساعةٍ في باطني: أن ليسَ الاعتبارُ بالخرقة، وإنّما الاعتبار بالحرقة[٣].

---

(١) في (ب): ولا يقايس.

(٢) في (ب) يزروه شخص من أصدقائه كان يفطر معه، ويقول. . .

(٣) في (أ): الاعتبار بالحرقة بالحرقة.

ونقل أنّه لمّا ترقّى شأنُه، أشارَ إليه السريُّ السقطي بأن يعظَ الناس، ويعملَ للوعظ ميعادًا من الأيام، وكان الجُنيد غيرَ راغبٍ في الوعظ، ويقول: مع وجود الشيخ يكونُ سوءُ أدبٍ. حتى رأى في المنامِ أن النبيَّ ﷺ أمره بالوعظ، فأصبحَ وأرادَ أن يذكرَ المنام للشيخ السريِّ رحمه الله، فحين طلعَ من البيت صادفَ السريَّ واقفًا بالباب، وقال: يا جُنيد، مشايخُ بغداد التمسوا منك الوعظَ، وأنا أيضًا رأيتُ فيه المصلحةَ، وأشرتُ إليك به، فلم تقبلْ حتى أمرَكَ النبيُّ ﷺ بذلك، فالآن لزمَكَ امتثالُ أمر النبيِّ ﷺ. فأجاب الجنيد، واستغفرَ الله تعالى، وقال: يا شيخ، بمَ عرفتَ أنّي رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام؟ فقال السريُّ رحمه الله: إنّي رأيتُ الله تباركَ وتعالى في المنام، فقال: يا سريُّ، اعلمْ أنّي أَرسلتُ محمدًا ﷺ ليأمرَهُ بالوعظ. قال: أشتغلُ بالوعظ بشرط أن لا يكونَ في المجلسِ أكثرُ من أربعين. ففعلوا كذلك، واشتغلَ بالوعظ، فمات ثمانية عشر من الأربعين، وأُغمي على اثنين وعشرين.

ونقل أنه بينما كان مشغولاً بالوعظ في بعض الأيام إذ دخلَ في مجلسه نصرانيٌّ على زِيِّ المسلمين، ولم يعرفْه أحدٌ من الحاضرين، وقال: أيُّها الشيخ، قال النبيُّ ﷺ: «اتّقوا فِراسة المؤمن؛ فإنّه ينظرُ بنورِ الله تعالى[1]». قال الجنيد رحمه الله: صدقتَ، ولكنّ فراستي تقتضي أن تقطعَ زنّارَ الكُفر، وتدخلَ في الإسلام، وتعلمَ أنَّ قولَ النبيِّ ﷺ حقٌّ؛ فإنّ المؤمنَ ينظرُ بنور الله. فأثّر الكلامُ في قلب النصرانيِّ، فآمنَ عن قلبٍ صافٍ، وتعجّبَ الحاضرون من فراسته.

ثم انقطعَ عن المجلس، وتركَ الوعظ، كلّما ألحّوا عليه لم يقبل، وقال: علمتُ أنّه أعجبني الوعظ، فلو اشتغلتُ به لهلكتُ. ثم بعد زمانٍ شرعَ فيه بلا طلبٍ، فقيل له في ذلك، قال: وجدتُ في بعضِ الأحاديث أنَّ في آخرِ الزمان

---

(١) حديث أخرجه الترمذي (٣١٢٧) في التفسير، باب ومن سورة الحجر، والطبراني في الكبير٨/ ١٠٢، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١٨، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٩٩، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨.

يكونُ شرُّ الناس زعيمَهم ومحدِّثَهم، وأعلمُ أنّي شرُّهم، فلذا شرعتُ في الحديث.

قيل: بم وجدت هذا المقام؟ قال: بأنّي قمتُ على ساقِ الجدِّ، وقدمِ الاجتهاد أربعين سنةً في دهليز السريِّ السقطي.

نقل أنه قال يومًا: إلهي، ضاعَ قلبي، أرجو منك أن تردَّهُ عليَّ. سمع هاتفًا يقول: يا جُنيد، أخذنا منك قلبَكَ لتكونَ لنا، فإن رددْنَا قلبَك إليك تصيرُ لغيرها.

نقل أن حسينَ بنَ منصور الحلاّج تبرّأ عن عمرو بن عثمان المكّي، وجاء إلى الجُنيد، وقال له الجنيد: ولماذا جئتَ إليَّ؟ لا يكونُ أن تفعلَ كما فعلتَ بسهلِ التُّستري، وعمرِو بن عثمان المكّي - يُشيرُ إلى أنّه أعرضَ عنهما - فقال الحسين: للعبدِ صحوٌ وسُكرٌ، ولا يكون العبدُ دائمًا فانيًا في أوصاف ربّه. قال الجُنيد: أخطأتَ يا حسين في الصَّحو والسُّكر، الصحو عبارةٌ عن صحّةِ حالِ العبد مع الحقِّ، وهذا يدخلُ تحت اكتسابِ العبد، ولكن أرى في كلامِكَ الفضولَ، وما لا معنىً له[1].

نقل أنه رأى شابًا جالسًا في ظلِّ أمِّ غَيلان، فقال: ما أجلسَكَ هنا[2]؟ قال: كان لي حالٌ فقدته هنا، فقعدتُ أُلازمَ هذا المكان لعلّي أُصادفهُ. فمضى الجُنيد إلى مكّة، ثم رجعَ، فوجدَ الشابَّ جالسًا في ذلك المكان، فسأله عن لُزومه ذلك الموضع، قال: الآن وجدتُ هنا ما قد ضيَّعتُهُ، لا جرمَ لا أُفارقُ هذا المكان؛ إذ فيه وصلتُ إلى مقصودي. فقال الجنيد رحمه الله: ما أدري أيُّ الحالين أشرفُ: الملازمةُ للطلب، أمِ المُلازمة بعد الوجدان؟!.

نقل أن الشّبلي رحمه الله قال: إن خيَّرني الله تعالى يومَ القيامة بين الجنَّةِ

---

(١) في (ب): الفضول يا غلام، ولا معنى له.

(٢) في (ب): ماذا أجبست هنا.

والنار، فإنّي أختارُ النارَ لا الجنة؛ لأنَّ الجنةَ مُرادي، والنارَ مرادَ الحبيب[١]، وإنّي أختارُ مُرداه على مُرادي. سمع الجنيد فقال: هذا كلامُ الصبيان، فإن خيّرني الله تعالى يومَ القيامة بينهما، فلا أختارُ شيئًا منهما، إذ لا اختيارَ للعبد؛ بل ما يختارُ الحبيبُ فهو مُختاري، فاختياري اختيارُهُ، ورضاي رضاه، ومُرادي مُرادُه، وأنشد:

وكلتُ إلى المحبوبِ أمريَ كُلَّهُ ... فإنْ شاءَ أحياني وإنْ شاءَ أتْلَفا

نقل أنه قالَ له شخصٌ: ليكنْ قلبُك حاضرًا حتى أُحدِّثَكَ شيئًا. قال: منذ سنين أَطلبُ من قلبي أن يحضر ساعةً لله، فما وجدتُهُ، فكيف يحضر الآن؟.

نقل أن رجلاً من الصالحين رأى النبيَّ ﷺ في المنام جالسًا، والجنيدُ عنده، فجاء شخصٌ برقعةِ فتوى، وطلب الجواب، فأشار إليه النبيُّ ﷺ: أن أعطه الجُنيد ليكتبَ الجواب. فقال الشخصُ: بحضرتِكَ يا رسول الله كيف يُفتي آخر؟ فقال ﷺ: أنا أفتخرُ بالجُنيد كما يفتخر الأنبياءُ بي.

قال جعفر بن قيصر[٢]: أعطاني الجنيد رحمه الله دِرهمًا، وقال: اشترِ به التِّينَ والزيت. وكان صائمًا، فلمّا وضعَ تينًا في فيه عند الإفطار رماهُ وبكى، وقال: يا أخي، ناداني هاتفٌ وقال: ألا تستحيي أن تأكلَ شيئًا حرَّمْتَهُ على نفسك لأجلي - أي في النهار - حال الصوم، وأنشد:

نونُ الهوانِ من الهوى مَسروقةٌ ... فصريعُ كلِّ هوًى صريعُ هوانِ

---

(١) قوله هذا مخالف لما أخبر به المصطفى ﷺ، فقد روى أحمد في المسند ٢/ ٣٦١، والبخاري في صحيحه (٧٢٨٠) والحاكم في المستدرك ١/ ٥٥، وابن حبان في صحيحه ١/ ١٩٦ (١٧)، واللفظ له: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتدخُلنَّ الجنة كلُّكم إلاّ من أبى وشردَ على الله كشراد البعير»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».
• وقال عزّ من قائل في سورة النساء (١٤٧): ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

(٢) كذا في الأصلين، وفي الطبعة الفارسية: جعفر بن نصير.

نقل أنه اتَّجعَ، فقال: اللهم، اشفني بشفائك. فسمع هاتفًا يقول: يا جُنيد لا تدخلْ بين العبد وربِّه، بل امتثلْ بما أمرَكَ، واصبرْ فيما ابتلاك، أنّى لك الاختيار!.

نقل أنه عاد مريضًا فقيرًا، فوجد له أنينًا، قال: ممَّن هو أنينك؟ فسكتَ الفقير، فقال: مع من هو صبرك؟ فصاح الفقير وقال: لا قوّةَ لي على الصبر، ولا مجالَ لي إلاّ الأنين؟!.

ونقل أنه اشتكى بعضَ الأيام من علَّةٍ كانت بإحدى رجليه، فقرأ الفاتحة، ونفخَ على الرِّجلِ العليل، فسمع هاتفًا يقول: ألا تستحيي من الله! تقرأ كلامه لحظِّ نفسك؟.

ونقل أنه رَمدت عيناه، فنهاه الطبيبُ عن إيصالِ الماء إليها، وقال: إن وصلَ إليها الماءُ وذهبت فلا تلومنَّ إلاّ نفسك. فلما ذهب الكحّال، وجاء وقتُ الصلاة، طلبَ الجُنيد ماءً، وتوضَّأ وصلّى، ثم أخذه نعاسٌ، فقام من النوم، وبرئت عينه بإذن الله تعالى، ثم سمع هاتفًا يقول: يا جنيد، تركتَ العينَ لأجلِ رضائي، فلو أنَّك طلبتَ أهلَ النار كلَّهم عنّي بذلك العزم لأعطيتُك، فكيف بالعين؟ ثم رجعَ الكحّالُ، ورأى عينَهُ صحيحةً، ما بها علَّةٌ، وكان نصرانيًا، فسأله عن السبب، قال: توضَّأْتُ وصلّيت. فآمن الكحّال، وخرجَ عن الكفر، وقال: لا شكَّ أنَّ هذا علاجُ الخالق، وكان الضعفُ والرَّمدُ في عيني، وعينُكَ كانت صحيحةً، وأنت الطبيبُ لا أنا.

ونقل أنَّ شخصًا من أهلِ الكشف دخلَ على الجُنيد، فرأى الشيطانَ هاربًا من عنده، ووجد الجنيد غضبانَ مُنزعجًا على أحد الحاضرين، فقال: يا شيخ، الشيطانُ يدخلُ على الإنسان حالَ غضبه أكثرَ من غيرِ هذه الحالة، وقد رأيتُهُ يهربُ منك، وأنت في الغضب. قال الجنيد: لأنّا لا نغضبُ إلاّ للحقِّ، لا جرمَ أنه لا يهربُ منّا كما لا يهربُ حالَ الغضب(١).

---

(١) في (أ): وقد رأيته يهرب منّا كما لا حالَ الغضب.

ونقل أنه قال: أردتُ أن أرى إبليسَ عليه اللعنة، وبينما كنت يومًا من الأيام واقفًا علي باب المسجد، إذ رأيتُ شيخًا قد أقبلَ عليَّ، وظهرَتْ في قلبي منه وحشةٌ، فقلتُ: من أنت؟ قال: الذي كنتَ تُريده. قلت: يا ملعون، وما منعكَ أن تسجدَ لآدم عليه السلام؟ قال: يا جُنيد، هل رأيتَ أنّي كنتُ أسجدُ لغيرِ الله تعالى؟ قال الجنيد: فتحيَّرْتُ من كلامه، فنودي في سرّي أن قلْ له: يا كذّاب، لو كنتَ عبدًا لامتثلتَ للأمرِ، وانتهيتَ عن المنهي. فلمّا سمعَ إبليس عليه اللعنة هذا الكلام صاح وقال: أحرقتني يا جُنيد، وغاب.

نقل أنه قال شخص: إنَّ الإخوان قليل. فقال الجُنيد: إن أردْتَ أخًا يحملُ عنك مؤنتك وثقلَكَ فإنه قليلٌ جدًا، وإن أردتَ أخًا أنت تحملُ ثقلَهُ، فهذا كثير.

ونقل أنه كان يَبكي في بعضِ الأيام، فسُئل عن سببه، فقال: لو صارَ البلاء ثعبانًا لصيَّرْتُ نفسي له لقمةً، ومع هذا قد انقضى عُمري في طلبِ البلاءِ، وبعد هذا يقولون لي: لا تليقُ ببلائنا.

ونقل أنه رحمه الله كان إذا اشتغلَ بالكلام في التوحيد يتكلَّمُ كلَّ مرّةٍ بعبارةٍ أُخرى، ما كان يصلُ إلى معناها فهمُ السامعين، فقامَ يومًا شخصٌ وقال: إنّي لا أفهمُ معنى هذا الكلام. قال: لا تنظرْ إلى أعمالِك التي عملتَها في مدّة عُمرك حتى تفهم. قال الرجل: تركتُ عبادةَ سبعين سنة وما أفهمُ بعدُ؟! قال: اجعلْ رأسَك تحت قدمك، فإن لم تفهمْ فالملامةُ عليَّ.

نقل أن شخصًا من أهل الثروة أهدى الجُنيد رحمه الله خمسَ مئة دينار، فلما وضعَ بين يديه قال الجنيد: ألكَ غيرُهُ؟ قال: نعم، لي مالٌ كثير. قال: تطلبُ غيرَهُ؟ قال: نعم. قال الجنيد: فأنت أولى بهذا منّي؛ فإنّي ما أجدُ شيئًا من هذا، وليس لي طلبٌ بحمد الله، ولا طمعٌ.

نقل أنه رحمه الله رأى شخصًا سائلاً يسألُ الناسَ في المسجد، فخطرَ بباله: أنَّ هذا الرجلَ صحيحٌ سالمٌ، فلمَ يسألُ، ولا يعملُ عملاً ليخلصَ به عن ذلَّ السؤال؟ ففي الليلةِ رأى في المنام أن وضِعَ بين يديه طبقٌ مغطًى، وقيل له: كلْ

من هذا. فشالَ الغطاءَ عن الطبق، فرأى جسمَ ذلك السائل مشويًا موضوعًا على الطبق، فاجتنبَ عن أكلِهِ، وقال: ما أكلتُ من لحمِ الميتِ، ولا آكلُ. فقيل: وكيفَ كنتَ تأكلُ من لحمه أمس، والآن تنفرُ منه؟! فعلمَ أنّه اغتابَ السائلَ بما خطرَ بباله فيه، وانتبه من النوم فزعان، وقال: توضّأتُ وصلّيت ركعتين، وخرجت في طلبِ السائل، فوجدتُهُ في جنب الشطِّ، وهو يأخذُ قطيعاتِ البقل من وجه الماء ممّا غسلوه، وذهب الماءُ بها، ويأكلُ، فلمّا رأى الجنيدَ رفعَ رأسه، وقال: يا جنيد، هل تبتَ ممّا أضمرتَ في حقّنا؟ قلت: نعم. قال: اذهبِ الآن واحفظِ الخاطرَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. والسلام.

نقل أنه قال: تعلّمتُ الإخلاص عن حجّام، إذ كنتُ بمكّة، فالتقيتُ بحجّامٍ يُزيّنُ محاسنَ رجلٍ من ذوي اليسار، فقلتُ له: لله تعالى احلقْ[١] رأسي. قال: نعم. ودمعت عيناه، وترك ذلك الرجل، وجاء إليّ، وقال: حين ذكرتَ الله تعالى ما بقي لغيرِهِ مجالٌ. فأجلسني بين يديه، وقبّلَ رأسي، وشرع في الحلق، ولمّا تمَّ أعطاني كاغدًا فيه قراضةٌ، وقال: اصرفْها في حوائجك. فأخذتُ، وشرطتُ مع نفسي أنَّ أولَ شيءٍ يفتحُ الله عليَّ أبعثُهُ إليه مكافأةً لإحسانِهِ، فما مضى إلاّ قليلٌ إذْ أُهديتَ إليّ من البصرة صرّةٌ، فحملتُها إليه، فقال: ما هذا؟ قلتُ: قد نويتُ أنَّ أوّلَ ما يفتحُ اللهُ عليَّ أُجازيك به، فالآن حصلَ هذه، فاقبلْها منّي. فقال: يا رجل، ما تَستحي من الله تعالى؟ فإنّك أَمرتني أن أحلقَ رأسَك لله، ثم جئتَ إليّ بالأجرة، فمن رأيتَ عملَ لله عملاً، ثم أخذَ الأجرة من غيره؟!.

ونقل أنه قال: كنتُ أُصلّي في ليلةٍ من الليالي، فما وافقتني نفسي في السجدةِ الأخيرة حتى ضاقَ قلبي، فأردتُ أن أطلعَ من البيت، ففتحتُ الباب، فخرجتُ، رأيت شابًا متدثّرًا بكساءٍ أسودَ واقفًا بالباب، فلما رآني قال: كنتُ

---

(١) في (ب): فقلت له: تعالَ احلق.

أنتظرُك، فلِمَ تأخَّرتَ؟ علمتَ أنّه كان سببَ تشوُّش بالي، واضطرابي في الصلاة، قال: ماذا تقول: متى يصيرُ داءُ النفس دواءً لها؟ قلت: إذا خالفتَها يصيرُ دواءها. فقال: يا نفسُ، كم سمعتِ منّي هذا الجواب، فاسمعي من الجُنيد أيضًا. ثم ذهبَ وغاب، وما علمت أنه من كان، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب.

نقل أنه سمعَ أن في قلّةِ الجبال راهبًا في صومعةٍ، وهو يُخبرُ عن المغيَّبات، فذهب إليه الجنيد في جماعةٍ من الأصحاب قاصدًا لإسلامه، فلمّا قربَ منه، طلعَ الراهبُ من صومعته، وقال: لا تجئْ إليَّ؛ فإنّي لا أقبلُ كلامَكَ. ثم قال: تعالَ، فتعجَّبَ الجُنيد عن هذا الحال، فمضى إليه، وقال الراهب: اعرضْ عليَّ الإسلام. فعرضَ الجُنيد، وأسلمَ الراهبُ، ثم سأله الجنيد عن المنع أولاً، ثم الطلبِ ثانيًا، قال: نفسي منعتني أولاً من الإسلام لأنّي عرفتُ بالفِراسة أنَّكَ قصدت إسلامي، فلا جرمَ منعتُكَ، ثم قلبي وافقني، وخالفَ النفس، وأمرني بالإسلام، فلذا طلبتُ منك المجيء.

نقل أنَّ علي بن سهل كتبَ إلى الجُنيدِ: أنّ النومَ غفلةٌ، ولا ينبغي للمُحبِّ أن ينامَ، لأنّه حال النوم يغفُلُ عن المقصود، وعن وقته، مصداقُهُ ما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، كذبَ من ادّعى محبّتي ثم نامَ بالليل، وغفَلَ عنّي وعن محبّتي.

فكتبَ الجُنيدُ الجواب: أنَّ اليقظةَ معاملتُنَا في طريق الحقِّ، ونومَنا فعلُ الحقِّ جلَّ جلاله فينا، فاختيارُ الحقِّ يكون خيرًا من اختيارنا، والنومُ موهبةٌ من الله تعالى على المحبّين.

قيل: العجبُ أن الجُنيد رحمه الله كان من أهلِ الصَّحو، ورجَّحَ في هذه المكاتبة السُّكرَ؛ لعلّه أرادَ به ما وردَ في الحديث: «نومُ العالم خيرٌ من عبادة الجاهل»[1].

---

(١) هذا الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي.

أقول: فعلى هذا يكون مرادُهُ أنَّ نومَ العالم خيرٌ من يقظة الجاهل، وذلك لأن الجاهلَ اليقظان وإن كان عاملاً فلا ينفعُهُ عملُه، إذ العملُ مع الجهل كلا عملٍ، والعالِمُ إذا نامَ لا ينامُ إلاّ على العلم والمعرفة والأدب، فيثابُ[1] حينئذ على النوم، فيكون نومُهُ خيرًا من عبادة الجاهل. والله أعلم.

نقل أن سارقًا دخلَ على بيت الجنيد رحمه الله، فما وجدَ سوى قميصٍ، فأخذه ورجع، ففي الغد رأى الجُنيد القميصَ بيد بيّاعٍ، وهناك شخصٌ يُريد أن يشتريه ويقول: من يشهدُ أن القميص لك؟ فقال الجنيد: أنا أشهدُ أنَّ القميصَ ملكٌ له، فاشتر منه.

نقل أن عجوزةً جاءت إليه وقالت: يا شيخ، لي ابنٌ غائبٌ، فادع الله تعالى ليردَّه عليَّ ببركة دعائك. فأمرها بالصبر، ثم كم مرّةٍ جاءتْ إليه، وطلبت منه الدعاء، فأمرها بالصبر[2]، إلى أن جاءتْ وقالت: فني صبري، وذهبَتْ طاقتي. فقال الجنيد: إن صدقتِ في انعدام صبرك، فاللهُ تعالى قد ردَّ عليك ابنَك، لأنَّه قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] ثم دعا لها، فرجعتْ، ورأتِ الابنَ في البيت.

نقل أن رجلاً اشتكى إليه من الجوع والعُري، فقال الجنيد رحمه الله: لا تشتكي؛ فإنَّ الله لا يَبتلي بالجوع والعري إلاَّ أولياءَه، ولا يعطيهما من يُشنّع ويَشتكي.

نقل أن رجلاً من ذوي اليسار طلبَ واحدًا من المُريدين، ثم جاء بطعامٍ في زنبيل حملَها الفقير المريد، فغضب الجُنيد رحمه الله من ذلك، ولم يقبلِ الطعامَ، وقال: أتعبتَ فقيرًا لأجل طعامك لتكتسب به أجرًا، فإنَّ الفقراء وإن لم تكن لهم الدنيا، فلهم الآخرة.

ونقل أن رجلاً من الأغنياء كان يتصدَّقُ على الصوفية، ويخصُّهم بصدقته،

---

(١) في (ب): فلا يثاب.

(٢) في (أ): الدعاء، وهو يأمرها بالصبر.

ويقول: هم قومٌ ليس لهم همَّةٌ سوى الله، وإن كان لهم حاجةٌ إلى غير الله تتفرّقُ همَّتُهم، ويتشوّشُ عليهم حالهم، فعلى هذا توسُّلي إلى الله تعالى بقلبٍ حاضرٍ أحبُّ إليَّ من التوسُّلِ بألفِ قلبٍ يكون همّتها الدنيا، سمع الجُنيد هذا الكلام، فقال: هذا كلام المُحبّين. ثم عرض لذلك الرجلِ فقرٌ بسبب أنّه ما كان يأخذُ من الصوفية ثمنَ ما يبيع، فحصَّلَ الجُنيد مالاً، وأعطاه إياه، وقال: اتَّجرْ؛ فإن لمثلك لا تَضرُّ التجارة.

نقل أن شخصًا من المريدين زعمَ أنه وصلَ إلى درجة الكمال، وتركَ صُحبةَ الشيخ، وقال: الخلوةُ أنفعُ لي بعد اليوم من مُواظبة مجلسِ الشيخ. فانزوى في زاويةٍ، ومضى عليه زمانٌ حتى انتهى أمرُهُ إلى أن كان يتخيَّلُ أنه يُجاء إليه كلَّ ليلةٍ بأسدٍ ويركبه، ويُقال له: نذهبُ بك إلى الجنة. وهو يذهبُ راكبًا على الأسد إلى موضع نزيهٍ، بين طائفةٍ حِسانٍ، في روضةٍ وماء جارٍ، وكان يبيتُ هناك إلى السحر، ثم ينامُ، وعند الانتباه يَرى نفسَه في صومعته، فاغترَّ بذلك، وتكبَّرَ في نفسه، وحصلَ له عُجْبٌ عظيم، فبلغ إلى الجُنيد رحمه الله، فقصدَه، وذهبَ إليه، فوجده مُتكبِّرًا، مُعجبًا ضائعًا في نفسه، فسأله عن حاله، فأخبر ما جرى له، فقال الشيخ: الليلةَ إذا وصلتَ إلى ذلك المقام، فقل ثلاثَ مرّات: لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله العليِّ العظيم. فلمّا أمسى، وهو على العادة، ركبَ الأسدَ، وذهب إلى مقامِهِ الموعود، وهو مُنكرٌ لوصية الشيخ، ولكن عند الوصول قال للتجربة: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله العليِّ العظيم، فالقومُ صاحوا وغابوا، وهو وجدَ نفسه في مزبلةٍ، بين يديه عظامُ الموتى، فعلم أنَّه أخطأَ وضلَّ، فتاب من ذلك، ورجع إلى الشيخ، وقبلَ أمرَه، وتيقَّنَ أنَّ الخلوةَ للمريد أضرُّ من السحر، وصحبةُ الشيخ هي الترياق.

نقل أن رجلاً من المريدين شهقَ في مجلس الشيخ حين هو يتكلَّمُ، فصاح عليه الشيخُ، ومنعه، وأوعده إن عاد، ثم شرعَ في الكلام ثانيًا، فلم يطقِ المريدُ، وما صاح احترامًا للشيخ، ثم وجدوه مَيتًا مُحترقًا في دِلقة، صائرًا رمادًا.

ونقل أنَّ مريدًا له كان بالبصرة مُنزويًا في خلوةٍ، ففي بعض الأيام همَّ معصيةً، فاسودَّ وجهُهُ، فنظر في المرآة، وتحيَّرَ في حاله، واختفى عن الناس حياءً، بعد ثلاثة أيام شرعَ وجهُهُ يبيضُّ شيئًا فشيئًا إلى أن ابيضَّ كلُّه، ثم جاء إليه شخصٌ بكتابٍ من الجُنيد رحمه الله إذا فيه: لِمَ تُسيءُ الأدبَ في حضرة الله تعالى ليسوّدَ وجهَك؟ وإنّي دعوتُهُ مرّاتٍ حتى عادَ إليه البياض، وكان الجنيد ببغداد حينئذ.

نقل أنه رحمه الله دخلَ الباديةَ مع تلميذٍ له، وأثّرتِ الشمسُ في رقبة التلميذ حتى احترقَتْ وسال منها الدم، فقال: اليوم يومٌ حارٌّ. فالتفتَ إليه الجنيد، وقال: أنت لا تليقُ بالصحبة. وهجره عن الصحبة.

ونقل أن تلميذًا كان أعزَّ عليه من سائر تلاميذه حتى غاروا عليه غيرةً عظيمة، فقال الشيخ رحمه الله: لأنَّه أذكى وأفهمُ، وإنّي سأمتحنكم جميعًا. فأمرَ يومًا بشراءِ عشرين دجاجة، وأعطى كلَّ تلميذٍ واحدًا، وأمرَهُ أن يذبحَها في موضعٍ لا يراه أحدٌ، فذهبوا، ورجع كلٌّ بدجاجةٍ مذبوحةٍ إلاّ ذلك التلميذ، رجع بلا ذبح، فسألوه عن ذلك، قال: إنَّ الشيخَ قد أمرني أن أذبحَها في موضعٍ لا يراني أحدٌ، وإنّي كلَّما سعيتُ في ذلك ما قدرتُ عليه؛ لأنَّ الله تعالى لا شكَّ يَراني وينظرُ إليَّ، ولا قُدرةَ لي أن أختفي منه تعالى. فألزمهم الشيخ بذلك، وهم استغفروا وتابوا.

نقل أنّ شخصًا من السادة يُسمّى ناصريًا قصدَ الحجَّ، فلما دخلَ بغداد، ودخلَ على الجنيد رحمه الله، وزاره، سألَ الجُنيد عن مكانه، قال السيّدُ: وطني جيلان. فسأله عن نسبه، قال: من أولاد أميرِ المؤمنين عليٍّ كرّم الله وجهه. قال الشيخ: كانَ أبوك رضي الله عنه يُجاهدُ في سبيل الله بسيفين، يستعملُ أحدَهما مع الكفار، والآخرَ مع نفسه، فيا من هو من أولاده رضي الله عنه، فأنت أيَّ السيفين تستعمل؟ فبكى السيد، وقال: يا شيخ، أرشدني إلى الله تعالى. قال الشيخ: اعلمْ أن صدرَك حريمٌ خاصٌّ لله تعالى، فلا تجعلْ فيه لغيره طريقًا ما استطعت.

وله كلمات عالية منها: .

الفتوّةُ في الشام، والفصاحةُ في العراق، والصِّدقُ في خراسان.

قطّاعُ هذا الطريق على ثلاثة أنواع، وهم يَنصبون الشِّباكَ فيه على أنواعٍ: شبكة المكر والاستدراج، والقهر، واللطف، فينبغي أن يفرّقَ العبدُ بينها.

والعبادُ على[1] قسمين، فالعبدُ حقيقةً أن يقول: اللهم، إنّي أعوذُ بك منك.

و: يطلب العبدُ علمَيْن، علم العبودية، وعلم الربوبية، وما سواهما حظُّ النفس.

و: أعظمُ النسب ما كان مع الفكرةِ في ميدان التوحيد.

و: الطرقُ كلُّها إلى الله تعالى مسدودةٌ سوى طريق محمد[2] ﷺ.

لا يجوزُ الاقتداء بمن لا يكون حافظًا للقرآن، عالمًا بالسنة؛ فإنَّ علمَ هذا الطريق متعلّقٌ بالكتاب والسنة.

بين العبدِ وبين الله تعالى أربعةُ أبحرٍ يجب قطعها، فالأولُ بحرُ الدنيا، وسفينتُهُ الزُّهد، والثاني بحرُ الناسِ، وسفينتُهُ الاعتزال عنهم، والثالث بحرُ إبليس، وسفينتُهُ مُتابعةُ السُّنة، والرابعُ بحرُ الهوى، وسفينتُهُ مُخالفةُ النفس.

الفرقُ بين هواجسِ النفس ووساوسِ الشيطان أنَّ النفسَ إذا اشتهت شيئًا فكلَّما تمنعُها عنه يزدادُ حرصُها إلى أن تبلغَ إلى مقصودها، وأمّا الشيطانُ إذا وسوسَ، وأنت خالفتَهُ هو أيضًا يتركك.

النفس جاذبةٌ للهلاك، ناصرةٌ للأعداء، متابعةٌ للهوى، متّهمةٌ دائمًا بالقبائح.

إبليس لم يستأنسْ به في الطاعة، وآدم عليه السلام لم يستوحشْهُ في الزلّة.

---

(١) في (ب): العباد هم على.

(٢) في (آ): سوى طريق المحمدية.

و: ليستِ الطاعةُ سببًا لما كتب في الأزل؛ بل هي أمارةٌ دالّةٌ على أن ما كُتب على المطيع هو من جنس السعادة.

والرجلُ رجلٌ بالسيرةِ دون الصورة.

قلبُ العارف خزانةٌ لأسرارِ الله تعالى، واللهُ تعالى لا يجعلُ سرَّه في قلبٍ يكون فيه محبّةُ الدنيا.

و: الغفلةُ من الله تعالى أشدُّ على العبدِ من دخول النار.

و: من عرفَ نفسَه هان عليه العبودية.

من حَسُنَتْ لأمرِ الله تعالى رعايتُهُ دامت ولايته.

من قال: (الله) بلا أُنسٍ فهو كذّاب.

و: من لم يعرفِ اللهَ تعالى لا يفرحُ أبدًا.

و: من أحبَّ سلامةَ دينه، وراحةَ نفسه، وعافية قلبه فليجانبِ الناس؛ فإنّ الزمانَ زمانُ الوحشةِ، والعاقلُ من يختار الوحدة والانفراد.

و: العارفُ من وصلَ علمُه إلى اليقين، ويقينُهُ إلى الخوف، وخوفُهُ إلى العمل، وعملُه إلى الورع، وورعُهُ إلى الإخلاص، وإخلاصُهُ إلى المشاهدة.

و: في الرجال من يمشي على الماء، ومنهم من يموتُ من العطش، وإخلاصُه أفضل وأرجحُ من إخلاص الأول.

لا بلوغَ إلى رعاية الحقوق إلاّ بحراسة القلوب.

و: إن كانتِ الدنيا كلُّها لشخصٍ لا يضره، وإن كان في قلبه شرةٌ - أي حرصٌ - إلى تمرةٍ فيضرّ ذلك[1].

و: إن قدرتَ على أن تكون أواني بيتِكَ من الحزن[2] فافعل.

و: العبدُ من لا يشتكي، ويترك التقصير في الخدمة.

---

(١) في (أ): فليضر ذلك.

(٢) في (أ): من الخوف.

المريدُ الصادق لا يحتاج إلى علم العالمين.

أقول: معناه أنّ الله تعالى يعلّمُهُ بعلم من لدنه، كما قال النبيُّ ﷺ: «ما اتخذَ الله وليًا جاهلاً، ولو اتّخذَهُ لعلّمه»(١) فعلى هذا فيستغني عن علمِ غيره وتعليمه. والله أعلم.

و: لا يُظهرُ اللهُ تعالى المحبّة مع عبده في الآخرة إلاّ على قدرِ ما أحبّه في الدنيا، إن كثيرًا فكثير، وإن قليلاً فقليل.

من لم يكن مُرائيًا في أول المصائب يطّلع آخرًا على أنواع العجائب، كما رُوي في الأثر: «الصبرُ عند الصّدمةِ الأولى»(٢).

و: مرجعُ علومِ العلماء إلى حرفين، تصحيحُ الملّة، وتجريد الخدمة.

من كانت حياتُهُ بروحه فموتُهُ بمفارقة الروح، ومن كانت حياتُهُ بالله فينتقلُ من حياةٍ طبيعية إلى حياةٍ أَصلية، هي الحياة بالحقيقة.

و: أيُّ بصيرٍ لا ينظرُ إلى مصنوعات الله تعالى بالاعتبار، فالعمى أولى به، وأيُّ لسانٍ لا يكونُ مشغولاً بذكره، فالخَرَسُ أولى به، وأيُّ أُذنٍ لا تكونُ مترصّدةً لاستماعِ الحقِّ، فالصمم أولى بها، وأيُّ جسدٍ لا يكون مشغولاً بخدمة الله تعالى، فالموتُ أولى به.

و: من تمسّكَ بالمال احتُقِرَ، ومن استعصمَ بالله تعالى جلَّ قدرُه.

و: إذا أرادَ بمُريدٍ خيرًا قرّبَهُ إلى الصوفية، وبعّدَهُ عن أهل المِراء والرياء.

و: لا ينبغي للمُريد أن يتعلّم إلاّ ما يحتاجُ إليه في العبادات.

و: من كان بينه وبين الله تعالى مِخلاةٌ مملوءةٌ من الطعام، كيف يجدُ حلاوةَ المناجاة.

---

(١) قال علي بن سلطان الهروي القاري في كتابه «المصنوع» صفحة ١٥٦: قال السخاوي: ليس بثابت، ولكن معناه صحيح.

(٢) رواه البخاري (٧١٥٤) في الأحكام، باب ما ذكر أن النبي ﷺ ليس له بواب، ومسلم (٩٢٦) في الجنائز، باب في الصبر، وأبو داود (٣١٢٤)، والترمذي (٩٨٧)، والنسائي ٤/ ٢٢.

و: كما تلوحُ الكواكبُ لأهلِ الأرض كذلك يلوحُ أهلُ المعرفة في الأرضِ لأهل السماء.

و: الناسُ تحبُّكم وتعزّزُكم[١] لله يا أهل الفقر، فانظروا كيف أنتم مع الله في الخلوة.

أفضلُ الأعمالِ أن تحفظَ نفسَك ودينك.

و: الخواطر أربعةٌ: خاطرٌ من الله عزّ وجل يَدعوك إلى الانتباه، وخاطرٌ من المَلَكِ يَدعوكَ إلى الطاعة، وخاطرٌ من النفس يَدعوك إلى التنعُّمِ وزينةِ الدنيا، وخاطرٌ من الشيطانِ يَدعوك إلى الحقدِ والحسد والعداوة.

و: أجمعَ ألفٌ من المشايخ على أن نهايةَ الرياضة أن تصلَ إلى مقامٍ كلّما تطلبُ قلبَك تجدُه مُلازمًا لخدمة الله تعالى.

من لم يكن سرُّه خالصًا لا يصفو له عمل أصلًا[٢].

و: الصوفيُّ ينبغي أن يكونَ كالأرضِ، تُطرح فيها النجاسة، ويطلع منها الأزهار.

والتصوفُ ذكرٌ باجتماعٍ، ووجدٌ باستماعٍ، وعلمٌ باتباعٍ.

و: التصوف من الاصطفاء، بمعنى الاختيار. يعني: الصوفيُّ من اختارَ الله تعالى، وتركَ ما سواه.

و: الصوفي من يكونُ امتثالُه لأمرِ الله تعالى كامتثال الخليل عليه السلام، وتسليمُهُ كتسليم إسماعيل عليه السلام، وأحزانُه كحزن داود عليه السلام، وصبرُهُ كصبر أيوب عليه السلام[٣]، وفقرُهُ كفقرِ عيسى عليه السلام، وشوقه كشوقِ موسى عليه السلام، وإخلاصه ومناجاته كإخلاص محمد ومناجاته عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في (أ): وتقدركم لله.

(٢) في (أ): لا يصفو له عمل أبدًا.

(٣) في (ب): كامتثال الخليل عليه السلام، وفقره كفقر عيسى.

و: التصوفُ أن تموتَ عن نفسك، وتحيا بربّك.

و: التصوف أن تكونَ مع الله تعالى بلا علاقةٍ.

و: التصوف ذكرٌ، ثم وجدٌ، ثم لا هذا ولا هذا.

أقول: معناه أنَّ التصوفَ ذكرُ الله تعالى، ثم بعد استكمالِ الذكر يَحصلُ وجدٌ لله بلا كيفٍ ـ أي معرفة كاملة ـ ثم استغراقٌ في بحر المعرفة، واضمحلالٌ عن الصفات البشرية بحيث لا يبقى له وجودٌ في حدِّ ذاته، وحينئذٍ لا يبقى ذكرٌ، ولا وجدٌ؛ بل ولا وجودٌ إلاّ لله عز وجل موجودًا دائمًا. والله أعلم.

سئل الجنيد رحمه الله عن ذاتِ التصوف، فقال: عليكم بظاهره، وإيّاكم أن تسألوا عن باطنه وحقيقته وذاته.

دخل شخصٌ في أصحاب الجنيد، وأقام فيهم أيامًا، وما كان يرفُع رأسَه إلاّ للصلاة، ثم فارقهم، فبعثَ الجُنيد شخصًا من أصحابه وراءه، وأمره أن يسألَهُ: إنّ الصوفي موصوفٌ بالصفا، فكيف يُدركُ من لا وصف له؟ فأجاب بقوله: كنْ بلا وصفٍ لتُدركَ ما لا وصفَ له. فقال الجنيد رحمه الله متأسّفًا: كان الشخصُ طيرًا غريبًا، وما عرفنا قدرَه.

و: للعارف سبعون مقامًا، أدناه تركُ المُراد في الدنيا.

و: العارفُ من يتكلّمُ شيخُه، وهو ساكتٌ.

العارفُ من ينطقُ سرُّه، وهو ساكتٌ.

و: العلمُ أن تعرفَ قدرك.

و: المحبةُ أمانةٌ.

إذا تمَّتِ المحبّةُ سقطَتْ شرائطُ الآداب.

إنّ الله تعالى حرّم المحبّةَ على أربابِ العلائق.

لا يصلُ أحدٌ إلى محبّةِ الله تعالى إلاّ إذا سامحَ في هذا الطريق بروحه.

و: المشاهدةُ غرقٌ[١]، والوجدُ هلاك.

أقول: أي المشاهدةُ غرقٌ في بحرِ الشهود، والوجدُ انخلاعٌ عن البشرية، وخروجٌ عن الرسوم، فيكون هلاكًا واستهلاكًا في لجّة بحر الوجود. والله أعلم.

المشاهدةُ إقامةُ الربوبية، وإزالةُ العبودية، الوجدُ هلاكُ الوجد.

أقول: معناه: أن يفنى العارفُ عن أفعاله وأحواله وصفاته؛ بل عن ذاته، بحيث لا يبقى له إحساسٌ بهذا الفناءِ، إذ لو بقي له إحساسٌ به لما حصل له مقام الفناء. والله أعلم.

و: الوجدُ انقطاعُ الأوصاف عند ظهور الذات.

أقول: إن انقطاع[٢] العارف عن أوصاف كونه ووجوده عند مُشاهدةِ آياتٍ دالآتٍ على وجود ذات الله تعالى، وإيقانها. والله أعلم.

و: المراقبة والخوف انتظارُ الغائب، والحياءُ الخجلة عن الحاضر.

و: الوقتُ إذا فاتَ لا يُدرك أبدًا، ولا شيءَ أعزُّ من الوقت.

و: إن أقبلَ على الله صادقٌ ألفَ سنةٍ، ثم أعرضَ عنه لحظةً، فما يفوتُهُ في تلك اللحظة أكثرُ ممّا حصلَ له في مدّةِ إقباله وتوجُّهه إلى الله تعالى. معناه: أن الإثمَ الذي حصلَ له بسبب إعراضه عن الله لحظةً أضرّ له ضررًا أكثر من الأجر الذي اكتسبَهُ في مدّةِ إقباله على الطاعة.

و: ليس على الأولياء شيءٌ أشدَّ من حفظِ النفس، وحفظ الوقت.

و: العبودية خصلتان: صدقُ الافتقارِ إلى الله تعالى في السرِّ والعلن، ومتابعةُ الرسول ﷺ.

---

(١) في (ب): المشاهدة تحرق.

(٢) في (ب): أقول: انقطاع.

و: حقُّ العبودية في شيئين: أن لا تسكنَ إلى لذَّةٍ، ولا تعتمدَ إلى حركةٍ. فإذا تحقَّقَ لك شيئان، فقد أدَّيْتَ حقَّ العبودية.

و: الشكرُ عبارةٌ عن أن تعدَّ نفسَك من أهل النعمة.

و: ما من أحدٍ يَطلبُ الصدقَ إلاَّ ويجده، وإن لم يجدْ كلَّه، فيجد بعضَه.

و: الصادقُ ربّما يتحوَّلُ من حالٍ إلى حال أربعين مرة، والمرائي قد يثبتُ على حالةٍ واحدةٍ أربعين سنة[١].

و: علامةُ الفقيرِ الصادق تركُ السؤال، وتركُ المعارضة، وإن عارضَهُ غيره يسكتُ.

و: التصديقُ يزيدُ ولا ينقص، والإقرارُ لا يزيد ولا ينقص، وعمل[٢] الأركان يزيد وينقص.

و: غايةُ الصبرِ التوكُّلُ، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

الصبرُ ثباتُ النفس مع الله تعالى بلا جزع.

و: الصبر تجرُّعُ المرارة مع البشاشة.

و: التوكّلُ أن تكونَ لله تعالى كما كنتَ له قبلَ أن تكون.

أقول: معناه: أنه ما كان لك اختيارٌ حال عدمك، فالتوكّلُ أن يحصلَ لك هذا المقامُ حالَ الوجود أيضًا، أي تتركُ الاختيارَ من جميع الوجوه، وتفوّضَ أمورَك كلَّها إلى الله في جميع الأوقات والحالات. [والله أعلم].

و: التوكّلُ تركُ الكسب، وتركُ البطالة معًا، وحقيقتُهُ سكونُ القلب، واطمئنانُهُ بوعد الله تعالى.

و: اليقينُ أن يستقرَّ في قلبك علمٌ لا يتغيَّرُ ولا يزول أبدًا.

---

(١) انظر قوله صفحة (٤٥٤).

(٢) في (أ): وعمد الأركان.

اليقينُ أن لا تعزِمَ على طلب الرزق، ولا تحزنَ له، والله تعالى يَرزقُكَ من حيث لا تحتسب.

و: الفتوة أن لا تفتخر على الفقراء، ولا تعارض مع الأغنياء.

الفتوةُ أن لا تحملَ حملَك على غيرك.

و: التواضعُ أن لا تتكبَّرَ على الدنيا والآخرة؛ بل لا تلتفت إليهما استغناءً بالحقِّ جلَّ جلاله.

و: الخُلق أربعةٌ: السخاوة، والإلفة، والنصيحة، والشفقة.

و: الصحبةُ مع فاسقٍ حَسنِ الخلق، أحبُّ إليَّ من الصُّحبةِ مع صالحٍ سيِّىء الخلق.

و: إذا نظرتَ إلى زلَّتِكَ وتقصيرِك يحصلُ لك حالةٌ تُسمّى تلك الحالة حياءً.

و: الحالُ شيء ينزلُ في القلب ولا يدوم.

و: الرضا تركُ الاختيار.

الرضا أن تعدَّ البلاءَ نعمةً.

و: الفقر الاستغراقُ في لجّة بحرِ البلاء.

و: التوبةُ لا تحصلُ إلاّ بثلاثة أشياء: الندمُ على ما مضى من الذنوب، والعزمُ على أن لا يعودَ إليها أبدًا، ثم أداءُ الحقوقِ من المظالم إلى أصحابها.

و: حقيقةُ الذكر فناءُ الذّاكرِ في الذكر، ومُشاهدة المذكور.

قيل له: ما السرُّ في أنَّ المُريدَ يكونُ مطمئنًا ساكنًا، فإذا سمعَ صوتًا مَوزونًا يَضطربُ؟ قال: لأنَّ اللهَ تعالى خاطبَ ذُرّيةَ آدم عليه السلام عند أخذ الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فاستغرقتِ الأرواحُ في لذَّةِ هذا الخطاب، فإذا سمعوا صوتًا يَذكرونَ تلك اللّذّةَ، فيقعون في الاضطراب.

و: التصوفُ صفاءُ القلبِ عن الخلق، والمُفارقةُ عن الأخلاق الطبيعية، وإطفاءُ نيرانِ الصفاتِ البشرية، والتباعدُ عن الدَّواعي النفسانية، والاشتغالُ بما هو أهمُّ وأولى، والوفاءُ في الوعد، ومتابعةُ النبيِّ ﷺ في أمور الشريعة.

أقول: خلاصتُهُ أن يُقال: التصوف ليسُ الصوف على الصفا، ونبذُ اللذّاتِ على القفا، ومجانبةُ الهوى والجفا، والمداومةُ على المحبة والوفا، ومتابعة النبيِّ المصطفى، في الجهر والخفا. والله أعلم.

سُئل عن أقبحِ الأشياء، قال: البخلُ عن الصوفي.

وسئل عن التوحيد، فقال: معناهُ أن يتلاشى فيه الرسوم، ويضمحلُّ فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما كان ويكون أزلاً[١] وأبدًا.

قال: صفةُ العبد الذلَّةُ والعجز، والضعفُ والاستكانة، ومن صفة الله تعالى العزُّ والقدرةُ والقوة، فمن فرّقَ بين الصفتين فهو موحّدٌ.

وسئل عن البقاء والفناء، فقال: البقاءُ لله تعالى، والفناءُ لما سواه.

وسئل عن التجريد، فقال: أن يكونَ الظاهرُ مجرّدًا عن الأغراض، والباطنُ عن الاعتراض.

وسئل عن الأُنس، قال: هو ارتفاعُ الحِشمة.

وسئل عن التفكُّر، فقال: هو على وجوه: التفكُّرُ في آيات الله، وعلامتُهُ المعرفةُ، والتفكُّرُ في الآلاءِ والنعماء، وعلامتُهُ المحبة، والتفكُّر في وعدِ الله، وعلامته الرجاءُ، والتفكُّر في الوعيد، وعلامته الخوف.

سئل عن تحقيق العبد في العبودية، قال: إذا رأى العبدُ جميعَ الأشياء مُلكًا لله تعالى، وقيامَها به تعالى، ومرجعها إليه تعالى، كما قال جلَّ وعلا: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وسئل عن المراقبة، فقال: انتظارٌ لوقوعِ ما يخاف منه، فلا جرمَ يكونُ

---

(١) في (أ): أولاً وأبدا.

المراقبُ خائفًا، كخائفٍ لا ينامُ بالليل، قال الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠].

وسئل عن الصادقِ، والصدّيق، والصدق، قال: الصدقُ صفةٌ للصادق، والصادقُ إذا رأيتَهُ تراه كما سمعتَه، بل وصلَ إليك خبرُهُ، فتجدُهُ في جميع عمره كذلك، والصدّيق من يكون مُواصلاً للصدق في جميع أحواله وأفعاله وأقواله.

سئل عن الإخلاص، فقال: هو فرضٌ في فرض، ونفلٌ في نفل ـ أي الإخلاصُ في الفرائض فرض كالفرائض، وفي النوافل نفل.

وأيضًا قال: الإخلاص فناؤك عن فعل نفسك، والنظرُ في العاقبة.

وسئل عن الخوف، فقال: انتظارُ العقاب في كلِّ نَفَسٍ يصعدُ منك. قيل: وما فوق الخوف؟ قال: التوبة، فإنها تقصير[١] الرجل، ومنِ انقصرَ بالتوبة لا يرى بلاءً أبدًا.

وسئل عن الشَّفقةِ على الخلق، قال: أن تُعطيَهم بالطوع[٢] ما يطلبون منك، ولا تكلّفَهم شيئًا لا يطيقونه، ولا تكلّمهم بما لا يفهمون[٣].

قيل: متى تصحُّ المعرفة[٤]؟ قال: إذا اعتزلتَ عن نفسك.

وقيل: من أعزُّ الناس؟ قال: الفقيرُ الراضي.

قيل: من أَوْلى بالمصاحبة؟ قال: من أحسنَ إليك، ثم نَسي الاحسانَ، ويوفّي بما عليه من الحقوق.

قيل: هل شيءٌ أفضلُ من الحياة؟ قال: البكاءُ على الحياة.

---

(١) تقصير الرجل: تبييضه. من قوله: قَصَر الثوب: دقَّه وبيَّضه، فهو قصّار.

(٢) في (أ): كتب تحت كلمة (بالطوع): بالقلب.

(٣) في (أ): بما لا يفقهون.

(٤) في (أ): متى تصح العزلة.

قيل: من العبد؟ قال: من يكون حرًّا من عبودية الغير[١].

قيل: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: إذا تركتَ الدنيا، وخالفتَ الهوى، وصلتَ إلى المولى.

قال: الحجاب ثلاثةٌ: النفسُ، والخَلقُ، والدنيا، وهي للعامة. وللخواص أيضًا ثلاثةٌ: رؤيةُ الطاعة، ورجاءُ الثواب، ودعوى الكرامة.

وقال: زلّةُ العالمِ الميلُ من الحلال إلى الحرام، وزلّةُ الزاهد الميل من البقاءِ إلى الفناء ـ أي من الآخرة إلى الدنيا ـ وزلّةُ العارفِ الميلُ من الكرمِ[٢] إلى الكرامة.

قيل: ما الفرقُ بين قلبِ المؤمن وقلب المنافق؟ قال: أمّا المؤمنُ فقلبُه يتحوَّلُ من حالٍ إلى حالٍ أخرى في ساعةٍ سبعين مرّة، والمنافقُ قد يستمرُّ على حاله سبعين سنة[٣].

نقل أنّه في حال النزع أمرَ بعضَ الأصحاب ليوضِّئَهُ، فوضَّأَهُ، وكأنَّهُ نسي التخليلَ، فأشارَ برأسه، حتى خلَّلَ، ثم خرَّ ساجدًا وهو يبكي، فقيل: أنت سيد أهل الطريقة، وقد قدّمتَ من الطاعةِ والعبادة ما قدّمتَ، وما الحاجةُ إلى هذه السجدة؟ قال: مه، ما كان الجنيدُ أحوجَ إلى العبادة منه في هذا الوقت ـ أي احتياجه إلى العبادة في هذا الحين أكثرُ وأقوى من احتياجه في سائر الأحيان ـ وشرعَ في تلاوة القرآن، وقال: ليس كلامٌ أولى وأشرفَ من هذا الكلام، وفي هذه الساعة تَنطوي صحيفةُ عمري، وأنظرُ إلى طاعتي[٤] التي فعلتها في مدّة سبعين سنة، أراها مُعلّقةً في الهواء بشعرةٍ، وريحٌ تهبُّ وتهزُّها، وما أعلم أنها ريحُ قطيعةٍ، أو وصلة؟ وكأنّي أنظر إلى الصراطِ وهو في جانب وملكُ الموتِ

---

(١) في (ب): حرًّا عن. قيل: كيف الطريق.

(٢) في (ب): الميل من الكريم.

(٣) انظر قوله الذي تقدم صفحة (٤٥٠).

(٤) في (أ): وأنظر إلى الطاعات.

في جانبٍ آخر، والحاكمُ عدلٌ لا يجور ولا يظلم، وقدّامي طريقان، وما أعلم في أيّهما أَسلك به، ثم ختمَ القرآن ثانيًا، وقرأ من سورة البقرة سبعين آيةً فانضاقَتْ حالُه، فقيل: قل الله. قال: ما نسيتُهُ. ثم عقدَ أصابعَه، وأرسلَ المُسبِّحَةَ، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وغمضَ عينيه، وتُوفّي إلى رحمة الله تعالى.

ثم إن الغسّالَ حين كان يغسّله، أرادَ أن يفتح عينيه، ويغسلهما، فسمعَ هاتفًا يقول: عينٌ غُمضت باسمنا، لا تنفتحُ إلاّ بلقائنا. فأرادَ أن يبسطَ أصابعه، فسمع أيضًا: أصابعُ عُقدت على اسمنا، لا تَنبسطُ إلاّ بأمرنا.

ثم رُئي في المنام، وسئل: كيف أجبتَ عن سؤال منكر ونكير؟ قال: حين أتى إليَّ الملكان المقرّبان من حضرة ربّ العزّة في غاية الهيبة، وقالا لي: مَنْ ربُّك؟ فنظرتُ إليهما، وتبسّمتُ، وقلت: لمّا قال الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قلتُ: بلى، واعترفتُ بوحدانيته بلا واسطتكم، فمن قد أجابَ السُّلطانَ مُواجهةً، يُجيبُ عن سؤال الغلام أيضًا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] فتركاني، وذهبا وقالا: هو بعدُ في سُكر المحبة.

رآه آخرُ في المنام، وقال: أخبرني عن حالك، قال: ليسَ الأمرُ كما تظنُّون، فإنَّ جميعَ الأنبياء مع قربهم وعلوّ قدرهم أطرقوا رؤوسهم مُنتظرين لحكم الله تعالى.

قال الحيري: رأيتُ الجُنيد رحمه الله تعالى، وقلت: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، إذ طاشتْ تلك الإشاراتُ، وتلاشتْ تلك العباراتُ، وما نفعني إلاّ تلك الركعتان، صلّيتُهما قبل الصبح.

وكان الشِّبليُّ عند قبر الجُنيد رحمه الله، فسأله شخصٌ عن مسألةٍ، فما أجابَ، وقال: أستحيي من الجُنيد وهو ترابٌ، كما كنتُ أستحيي منه وهو بيننا(١).

---

(١) وكأني بقوله هذا ترجمة لبيت شعر ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٧٨ من غير عزو: =

نسأل اللهَ الكريم ربَّ العرش العظيم أنْ يُلهمَنا رُشدنا، ويهوّنَ علينا مصائب الدنيا والآخرة وأحزانهما، ويسهّلَ علينا سكراتِ الموت، وهيبة سؤال مُنكرٍ ونكير، ويحشرنا في زمرة عباد الصالحين، إنه سميعٌ بصير، حكيمٌ قدير.

* * *



= وإنّــي لأستحييــهِ والتُّــربُ بيننــا   كما كنت أستحييه وهو يراني

(٤٤) عمرو بن عثمان المكي[1]

ذكر أبي عبد الله عمرو بن عثمان المكي رحمة الله عليه:

كان رحمه الله من أكابرِ أهلِ الطريقة، وساداتِ القوم ومحتشميهم، ومن المُعتبرين فيما بينهم، وانقاد له المشايخُ، وقبلوا كلامه، وكان مخصوصًا بالرياضة والورع، مَوصوفًا بمعرفة الحقائق واللطائف.

وكان حميدَ الخصائل، رضيَّ الشمائل، ما سلكَ طريقَ السُّكر؛ بل كان في الصحو دائمًا.

وله تصانيف جيدة.

لقي أبا عبد الله النِّباجي، وأبا سعيد الخراز وغيره.

وكان مُريدًا للشيخ الجنيد رحمه الله.

مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومئتين، وكان شيخَ الحرم الشريف سنين مُتطاولة.

أقول: ونقل عنه أنه قال: كلُّ ما توهَّمه قلبُك أو سنحَ في مجاري فكرك، أو دخل معارضات قلبك من حسنٍ أو بهاءٍ أو أُنسٍ أو ضياءٍ أو جمالٍ أو شبحٍ أو نورٍ أو شخصٍ أو خيالٍ فاللهُ تعالى بعيدٌ عن ذلك، مُنزَّهٌ منه، ألا تسمعُ إلى قوله

---

(١) طبقات الصوفية ٢٠٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٩١، أخبار أصبهان ٢/ ٣٣، تاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٣، الرسالة القشيرية ٨٠، مناقب الأبرار ٤٣٢، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٠، المنتظم ٦/ ٩٣، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٣٥، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٧، العبر ٢/ ١٠٧، دول الإسلام ١/ ١٨١٤، مرآة الجنان ٢/ ٢٢٧، طبقات الأولياء ٣٤٣، العقد الثمين ٦/ ٤١١، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٠، ١٨٤، نفحات الأنس ١٢٦، طبقات الشعراني ١/ ٨٩، الكواكب الدرية ١/ ٦٩٠، شذرات الذهب ٢/ ٢٢٥.

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤] [والله أعلم].

وقال: العلمُ قائدٌ، والخوفُ سائقٌ، والنفسُ حَرونٌ بين ذلك، جموحٌ خدّاعة روّاغة، فاحذرها، وراعها بسياسةٍ، وسقها بتهديدِ الخوف، يتمُّ لك ما تريد.

نقل أنه رأى الحسين بن منصور الحلاّج يكتبُ شيئًا، فقال له: ماذا تنسخ؟ قال الحسين: أريد أن أنسخُ[١] شيئًا أجعله مُقابلاً للقرآن. فدعا عليه الشيخ عمرُو بن عثمان، فقال المشايخُ: أصابَ الحسينُ ما أصابَهُ بذلك الدعاء.

نقل أنه كتبَ من مكّةَ شرّفها الله إلى الجنيد والحيري والشبلي رحمهم الله، وهم في العراق، ومضمونُ الكتاب: اعلموا يا جماعةَ مشايخ العراق وأعزّتهم[٢] أنَّ من يطلبُ الحرمَ الشريف وزيارةَ الكعبة شرّفها الله تعالى فيقال له: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] ومن كان طالبًا لمقام القُرب، فيخاطبون بـ: لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقِّ الأرواح.

وكتب في آخر الرقعة: من عمرو بن عثمان المكّي الساكن في الحرمِ الشريف إلى مشايخ العراق؛ لتعلموا أنَّ في هذا الطريق ألفي جبلٍ من النارِ المُحرقة، وألفين من الماءِ المُغرقِ المُهلك، فمن له إرادةُ الشروعِ في هذا الطريق فعليه العبورُ من الجبال النارية والمائية، ومن ليس له ذكورة الخوض فيها فليقتصرِ الدّعوى؛ فإنَّ الدَّعوى لا تُجدي نفعًا.

ولما وصل الكتابُ إلى الجُنيد رحمه الله جمعَ المشايخ رحمهم الله، وقرأه عليهم، ثم قال: ماذا أراد بالجبال؟ قالوا: أراد بالجبال النارية الفناء، وبالمائية البقاء، يعني حتى لا يفنى السالكُ ألفي مرة، ثم لا يبقى ألفي مرة لا يحصل له مقام القرب. فقال الجنيد رحمه الله: أمّا أنا فما عبرتُ من هذه الجبال إلاّ

---

(١) في (ب): ماذا تنسخ أشياء أجعله.
(٢) في (أ): العراق وأعزته.

واحدةً. فبكى الشبلي، وقال: طوبى لك، فإنَّك قد عبرت عن واحدةٍ، وأنا فما اطَّلعتُ عليها من بعيد بعدُ.

نقل عن بعض الأكابر أنه سأل عمرًا عن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢] فقال: إذا وصل العبد إلى أن ينظرَ إلى عظمة الله تعالى، وعلمِه، ووحدانيته، وجلاله، وربوبيته انفتحت عينه، فبعدَ ذلك لا ينظرُ إلى شيءٍ إلاّ ويرى اللهَ تعالى فيه ويشاهده.

أقول: معناه: أنه إذا حصلَ للعبد هذا المقامَ لا ينظرُ في شيءٍ إلاّ ويراه مظهرًا لقدرةِ الله تعالى، دالاً على عظمة الله وجلاله، شاهدًا على ألوهيته وربوبيته، متعلّقًا بعلمه وإرادته، فحينئذ يصيرُ نظرُهُ وعلمه به وسيلةً للعلمِ بالصانع الحكيم الفردِ القاهر العليم، وبهذا ينكشفُ معنى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. **والله أعلم..**

ومن كلامه أنه قال: تفكّروا في شيءٍ من عظمةِ الله، أو بعضِ صفاته.

وقال: الجمعُ خطابُ الله تعالى عباده في الأزل، والتفرقةُ عبارةٌ عن التعبير عن ذلك الخطاب.

وقال: أول المشاهدة زوائدُ اليقين، وأول اليقين آخرُ الحقيقة.

وقال: التصوفُ أن تشتغلَ في كلِّ وقتٍ بما هو أولى في ذلك الوقت.

وقال: الصبرُ هو الوقوفُ مع الله تعالى، وتحمّلُ البلاءِ بالرضا.

نسألُكَ اللهم أن تجعلَنا من الصابرين على البلاء، والشاكرين على النعماء، المتوكّلين عليك في البأساءِ والضراء، المتوسّلين إليك بأشرفِ الأنبياء محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات.

* * *

(٤٥) أبو سعيد الخراز[(١)]

ذكر الشيخ أبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز رحمه الله:

كان رحمه الله من كبارِ المشايخ وقدمائهم، وذا قدمٍ راسخةٍ في الورع والرياضة، مَخصوصًا بالكرامة، عالمًا بالحقائق، عارفًا بالدقائق، مُربّيًا للتلاميذ.

سُمّي: لسان التصوف، وله فيه أربع مئة تصنيف[(٢)].

عديمُ النظير في التجريد والانقطاع، وكان من بغداد.

صحب ذا النون، والنِّباجي، وأبا عُبيد البُسري، والسريَّ، وبشرًا، وغيرهم.

وكان مجتهدًا في الطريق، وهو أوّلُ من اصطلحَ عبارة الفناء والبقاء.

نقل أنه قد أنكر عليه بعضُهم في بعض كلماته مثل ما نقل عنه أنَّ: عبدًا لله[(٣)]، رجعَ إلى الله تعالى، وتعلّق بالله، وسكنَ في قرب الله، قد نسي نفسَه وما سوى الله تعالى، فإن قلتَ له: من أنت؟ وأيَّ شيءٍ تريد؟ لم يكنْ له جوابٌ غيرَ الله.

---

(١) طبقات الصوفية ٢٢٨، حلية الأولياء ٢٤٦/١٠، تاريخ بغداد ٢٧٦/٤، الرسالة القشيرية٨٥، الأنساب ٥/ ٦٥، مناقب الأبرار ٤٧٧، تاريخ ابن عساكر ٧/ ١١٠، المنتظم ٥/ ١٠٥، صفة الصفوة ٢/ ٤٣٥، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣١٠، اللباب ١/ ٣٥١، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٢٠٤، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٩، مرآة الجنان ٢/ ٢١٣، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٥ البداية والنهاية ١١/ ٥٨، طبقات الأولياء ٤٠، نفحات الأنس ١١١، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٢، الكواكب الدرية ١/ ٥١٠، شذرات الذهب ٢/ ١٩٢.

وقيل اسمه: إبراهيم بن عيسى.

(٢) لم يذكر له صاحب كتاب هدية العارفين صفحة ٥٥ إلا كتابًا واحدًا هو كتاب الصوم.

(٣) في (ب): أن عبدًا رجع.

أقول: معناه إذا قيل له: من أنت؟ وأيّ شيء تريد؟ هو يقول في الجواب: (الله)، أي: أريد الله، ولا أريدُ غيره، فإنّي رجعتُ إليه، وتعلّقتُ به، فهذا العبد ساكتٌ عن جوابه، بدليل قوله: (قد نسي نفسه وما سوى الله)، فظهر أنَّ قوله: (لم يكن له جواب غير الله) أي جوابٌ عن قوله: أيّ شيءٍ تريد؟ لا عن قوله: من أنت؟ فلمّا لم يفهم هذا المعنى أنكرَ عليه. والله أعلم.

قال: يصلُ العبدُ إلى مقامٍ إن قيلِ له: أيُّ شيءٍ تريد؟ فيقول: الله الله، ولو كان لأعضائه ومفاصله لسانٌ؛ بل لشعورٍ على جسده، لقال: كلٌّ لله[1].

نقل أنه قال: صحبتُ الصوفيةَ، فما وقعَ بيني وبينهم خلافٌ. قيل: وكيف كان؟ قال: لأنّي كنتُ معهم على نفسي.

أقول: حاصلُ معناه أنّي كنتُ موافقًا لهم، مُخالفًا لنفسي، فلذا لم يقعْ بيني وبينهم مخالفة. والله أعلم.

نقل أنه قال: إنّي لو خُيّرتُ بين القربِ والبُعدِ لكنتُ أختار البعدَ؛ لأنّي لا أطيق القرب.

أقول: كأنّه يُشير إلى ما نُقل عن بعضهم: الغائبُ يموتُ من غاية الشوق، والحاضرُ يفوت من نهاية الذوق، تأمّلْ تفهمْ، والله أعلم.

قال: كم خُيِّرَ لقمان بين الحكمة والنبوة، فاختارَ الحكمة، وقال: ليس لي طاقةُ حمل النبوة.

نقل أنه قال: رأيتُ في المنام مَلكَيْنِ نزلا من السماء، وسألاني عن الصدق، قلت: الوفاء بالعهود. قالا: صدقتَ، وصعدا السماء.

نقل أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: هل تحبُّني؟ قلتُ: اعذرني يا رسول الله؛ فإنَّ حبَّ الله تعالى ملأ قلبي، حتى شغلني عن حبّك. فقال ﷺ: من أحبَّ الله فقد أحبّني.

---

(١) في (ب): لقال: كل الله.

قال: رأيتُ إبليس في المنام، فأخذتُ عصًا لأضربَه، فسمعت هاتفًا يقول: هو لا يفزعُ من العصا، إنّما يفزعُ من نورٍ يكونُ في قلبِ المؤمن. فقلت له: تعالَ. فتنحّى عنّي، وقال: إيش أعملُ بكم؟ أنتم طرحتُم عن نفوسكم ما أُخادعُ به الناس. قلت: وما هي؟ قال: الدنيا. فلمّا ولّى التفت إلي وقال: غير أنَّ لي فيكم لطيفةً. قلت: ما هي؟ قال: صحبةُ الأحداث؛ أي الصبيان.

أقول: ونقل عن أبي سعيد الخراز رضي الله عنه أنه قال: كلُّ باطنٍ يُخالفُه الظاهرُ فهو باطل. يعني: من يدّعي علمَ الباطن، وطريقةَ المشايخ، وأنّه يُخالفُ شيئًا من ظاهر الورع، فدعواه باطلة عاطلة. والله أعلم[١].

نقل أنه قال: كنتُ بدمشق، فرأيت النبيَّ ﷺ في المنام جائيًا مُتّكئًا على أبي بكر رضي الله عنه، وأنا أنشد بيتًا، وأضربُ بأُصبعي على صدري، فقال رسول الله ﷺ: شرُّه أكثرُ من خيره. عنى[٢] السماع.

قيل: إنه كان له ابنان، فماتَ أحدُهما قبله، فرآه في المنام، وقال: ما فعلَ الله بك؟ قال: أنزلني في جوارِ رحمته، وأكرمني. فقال: أوصني يا ولدي. فقال: لا تكنْ معاملتُك مع الله تعالى بسوء الظنِّ. قال: زدني. قال: لا تطيق فوق ذلكم؛ ولكن ينبغي أن لا يكونَ بينك وبين اللهِ أكثرُ من قميص.

نقل أن الخراز رحمه الله عاشَ بعد هذا المنام ثلاثين سنة، ولم يلبسْ سوى قميصٍ صيفًا وشتاء.

نقل أنه قال: نفسي حملتني على أن أسألَ من الله تعالى شيئًا، فأمرني هاتفٌ أن لا أسألَ منه غيره، لا جرمَ أنّه قال: أستحيي من الله تعالى أن أجمعَ شيئًا لأيامٍ قليلة، بعد أن علمتُ أنّه ضامنٌ لأرزاق العباد كلِّهم برِّهم وفاجرهم، مؤمنِهم وكافرهم.

قال: كنتُ في البادية، فغلبني الجوعُ، والنفسُ تطالبني، فقصدتُ أن أسألَ

---

(١) قوله: (عاطلة. والله أعلم) ليس في (ب).

(٢) في (أ): خيره. كأنه عنى السماع.

من الله تعالى شيئًا أَطعمُهُ، ثم تنبَّهتُ أنَّ طلبَ الطعام ينافي التوكّلَ، فسكتُّ، فلمّا آيستِ النفسُ أخذَتْ في حيلةٍ أُخرى، وقالت: فإنْ لم تطلبِ الطعامَ، فاطلبِ الصبرَ. فهممتُ أن أسألَ الصبر، فسمعتُ قائلاً يقول: إنّا لا نضيع من توجَّه إلينا ويطلبنا حتى يحتاجَ إلى أن يطلبَ القوةَ على الصبر. قال: فأدركتني العصمة.

نقل أنه قال: كنتُ نوبةً أخرى في البادية، وغلبني جوعٌ شديد، فرأيتُ المنزلَ من بعيد، ففرحتْ نفسي، ووجدتُ فيها سكونًا، فحلفتُ يمينًا أن لا أدخلَ القريةَ، وحفرتُ حفرةً[1]، ودخلتُ فيها، فسمعتُ صوتًا: أيُّها الناس، في الموضعِ الفلاني شخصٌ من أولياء الله، قد دخلَ في الرَّملِ واستتر فيه، فأدركوه. فجاءَ إليَّ جماعةٌ من القرية، وحملوني إليها، وأطعموني، وسقوني، ثم سافرت منها، ووجدتُ في اليوم الرابع ألمَ الجوع ومرارته، وظهر فيَّ ضعفٌ عظيم، فقعدتُ في مكاني، وسمعتُ هاتفًا يقول: إن أردتَ طعامًا نعطيك، وإن أردتَ سببًا تتقوّى به، ويسكنُ به جوعُك فنعطيك. قلتُ: إلهي، أُريد سببًا. فأعطاني قوَّةً، فقطعتُ بها البادية.

نقل أنه قال: كنتُ أدورُ في بعض الصحارى، إذا أنا بكلابٍ توجَّهتْ إليَّ قاصدةً لإيذائي، فلمّا وصلتْ إليَّ اشتغلتُ بالمراقبة، وكان فيها كلبٌ أبيضُ، فحمل عليها، ودفعها عنّي، وما فارقني حتى بعدتِ الكلابُ عنّي، وما رأيته.

قال: من لم يعتقدْ أنَّ الله مُحسنٌ، كيف يُسلِّمُ إليه قلبَهُ بالكلّية؟.

وقال: عداوةُ الفقراء بعضهم لبعضٍ إنَّما هي لغير الله تعالى. يعني: كيف أطمأن إلى غير الله تعالى.

وقال: سأل اللهُ أولياءه لأنَّهم لمَّا اختاروا اللهَ تعالى لم يرضَ اللهُ تعالى أن يلتفتوا إلى غيره، ولا أن يكونَ لهم راحةٌ إلا بالله[2] تعالى.

قال: إذا أراد اللهُ أن يتَّخذَ وليًا يفتحُ عليه بابَ الذكر، فإذا حصلَ له لذّةُ

---

(١) في (أ): وحفرت حفيرة.

(٢) في (أ): ولا أن يكون له راحة به.

الذِّكرِ يفتحُ عليه باب الفتوّة، ثم أطلعَهُ على أسرار فردانيته لينظرَ إلى جلاله وعظمته، فإذا نظرَ إلى جلاله وعظمته يبقى ببقائه.

و: أول مقاماتِ أهلِ المعرفة التحيُّرُ بالافتقار، ثم السرور بالاتصال، ثم الفناء بالانتباه، ثم البقاء بالانتظار، ولا يصلُ مخلوقٌ إلى هذا المقام إلا على مقداره، فإن قلت: هل وصل الرسولُ ﷺ إلى هذا المقام؟ ـ أي البقاء ـ قلنا: نعم، ولكن على رُتبته ومقداره.

أقول: يُشير إلى أنَّ البقاءَ الحقيقي إنَّما هو وصفٌ لله تعالى، لا يليقُ أن يتَّصفَ به إلاّ هو، وأمّا غيرُه فلا يبقى إلا ببقاءٍ لائقٍ به، موهوبٍ له من الله تعالى. والله أعلم.

و: من ظنَّ أنَّه يصلُ إلى مقامِ القُرب بجهده واجتهاده، فقد أوقعَ نفسَه في تعبٍ دائمٍ، ومن ظنَّ الوصولَ بلا جهدٍ واجتهادٍ، فقد أوقع نفسَه في هلاك عظيم.

أقول: معناه أنه لا بدَّ من العمل والجدِّ والاجتهاد، وأمّا الوصولُ إلى المقصودِ فإنَّما هو بهداية الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والله أعلم.

و: لا تجعلْ أوقاتكَ العزيزةَ مصروفةً إلاّ في أعزِّ الأشياء، وهو اشتغاله بالعبادة بين الماضي والمستقبل.

ومن كلامه أنه قال: من نظر بالفِراسة، فقد نظرَ بنور الله.

و: من عبادِ الله قومٌ أخرستهم خشيةُ الله تعالى، وإن كانوا فصحاء وبلغاء.

و: من استقرَّتِ المعرفةُ في قلبه، فإنه لا يَرى في الدارَيْنِ إلاّ الله تعالى، ولا يسمع إلاّ به، ولا يَشتغلُ إلاّ بعبادته.

و: الفناء عبارةٌ عن فناءِ العبد عن رُؤيته، والبقاءُ بقاؤه في الحضرة الإلهية.

الفناء التلاشي عن الحقِّ، والبقاءُ هو الحضورُ مع الحقِّ.

و: حقيقةُ القرب خلوُّ القلبِ عن جميعِ ما سوى الله تعالى، وسكونُ القلبِ في الله.

و: كلُّ باطنٍ يُخالفه الظاهر فهو باطل.

و: الذكرُ على ثلاثةِ أوجهٍ[١]: ذكرٌ باللسان والقلبُ غافلٌ، وهو الذكر في العادة. وذكرٌ باللِّسان والقلبُ حاضر، وهذا لطلبِ الثَّوابِ. وذكرٌ بالقلب واللِّسانُ ساكتٌ، ولا يعرف أحدٌ قدرَه إلاّ الله تعالى.

و: التوحيدُ أوّلُه الفناء عن الأشياءِ كلِّها، والرجوع إلى الله تعالى بالكلّية.

و: العبدُ العارفُ قبل الوصول يستعين بكلِّ شيءٍ، ثم بعد الوصول يحتاجُ إليه كلُّ شيء.

و: العلم ما يشغلك بالعمل.

و: سئل عن العارف: هل يبكي؟ قال: نعم، يبكي ما كان في الطريق، وإذا وصلَ إلى المقصود يزولُ بكاؤه.

و: لا يطيبُ عيشُ زاهدٍ يكونُ مشغولاً بنفسه.

و: الخُلقُ أن لا يكونَ لصاحبه همّةٌ إلاّ الله.

و: التوكُّلُ اضطرابٌ بلا سكونٍ، وسكونٌ بلا اضطراب.

أقول: يعني التوكّل هو الاضطرابُ والحركة، والسيرُ إلى الله تعالى، ومع الله، وفي الله بلا سكون، إذ لا يتصوّرُ السكون [إلاّ] في الأخير، وإن تصوّر في الأوّلِ وفي التوسط تردَّدَ، ثم بعد هذا الاضطرابِ يحصلُ له سكونٌ وقرارٌ واطمئنان مع الله من جميع ما سوى الله تعالى. والله أعلم.

قيل له: لأي معنًى لا تصلُ حقوقُ الفقراء من الأغنياء إليهم؟ قال: أمّا أولاً فلقلّةِ الحلال عندهم، وثانيًا فلأنَّ الفقراءَ قد اختاروا البلاء.

نسألُك اللّهم الهدايةَ والتوفيق، والدِّرايةَ والتحقيق إنّك على ما تشاءُ قدير، وبالإجابةِ جدير.

* * *

---

(١) في (ب): الذكر ثلاثة.

(٤٦) أبو الحسين النُّوري(١)

ذكر الشيخ أبي الحسين النُّوري قدس الله سره:

كان رحمه الله فريدًا في عصره، قدوةً في وقته، ظريفًا بين(٢) أهل التصوف، شريفًا في أهل المحبة.

وله رياضاتٌ كثيرة، ومعاملاتٌ جميلة، ونكتٌ عالية(٣)، ورموزٌ عجيبة، ونظرٌ صحيحٌ، وفِراسة صادقة، وعشقٌ كامل، وشوقٌ بلا نهاية.

واتّفقتِ الصوفيةُ على تقدُّمِهِ، وسمُّوه أمير القلوب، وقمر الصوفيةِ.

وكان تلميذَ السريِّ السَّقطي، وصحب أحمد [بن أبي] الحواري، وكان من أقران الجنيد رحمهم الله.

وهو مجتهد في الطريقة، وصاحبُ مذهبٍ، وكان من صدورِ علماء المشايخ.

ومعاملتُهُ موافقةٌ لمعاملة الجُنيد، ومن معاملته أنه قال: الصحبةُ بلا إيثارٍ حرامٌ، والصحبةُ مع أهلِ الفقر واجبٌ، والعزلةُ غيرُ مرضية.

وسُمّي نوريًا لأنَّه كلّما كانَ يُحدِّثُ بالليل يظهر مِنْ فيه نورٌ يُضيءُ البيت.

---

(١) طبقات الصوفية ١٦٤، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩، تاريخ بغداد ٥/ ١٣٠، الرسالة القشيرية ٧٥، الأنساب ١٢/ ١٥٥، مناقب الأبرار ٣٨٩، صفة الصفوة ٢/ ٤٣٩، المنتظم ٦/ ٧٧، اللباب ٣/ ٢٤٢، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٥٦، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٠، البداية والنهاية ١١/ ١٠٦، طبقات الأولياء ٦٢، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٣، نفحات الأنس ١١٩، طبقات الشعراني ١/ ٨٧، الكواكب الدرية ١/ ٥٢٢.

(٢) في (ب): طريفًا بين أهل.

(٣) في (أ): ومعاملات حميدة، ونكتة عالية.

وأيضًا قيل: لأنّه كان يُخبرُ بنورِ الفراسة عن الأسرار الباطنة.

وقيل: لأنه كان له صومعةٌ في الصحراء، وهو يَشتغلُ فيها بالعبادة، والنورُ يلمعُ منها بالليل ويتصاعد.

نقل أنه كان في الابتداءِ يأخذُ من بيته كلَّ يومٍ عددًا من الخبز، ويذهبُ إلى دكّانه، ويتصدَّقُ بالخبز في الطريق على المساكين، وفي ظنِّ أهلِه أنّه يأكلُ في الدكّان، وأصحابُهُ في الدُّكّان يحسبون أنَّه قد أكلَ في البيت، وهو يدخلُ في المسجدِ، ويُصلّي إلى الظهر، وهكذا إلى عشرين سنة، ولم يطّلعْ عليه أحد.

نقل أنه قال: اجتهدتُ سنين، وأعرضتُ عن الخلقِ كلِّهم، واشتغلتُ بالرياضة، ولم ينفتح عليَّ الطريقُ، قلت: يا نفسُ، أكلتِ وشربت، وقلتِ وسمعتِ، ونمتِ واستيقظت، وعشت واشتغلت بالشهوات مدّةً على حسب المُراد، ويجبُ عليك غرامتُها وضمانها، فالآن أحبسُك، وأجعلُ في عنقِكِ سلسلةً من حقوق الله تعالى، وأقطعُك عن المُشتهيات والمُرادات. ففعلتُ ذلك أربعين سنةً.

وكنت أسمعُ أنَّ قلوبَ هذه الطائفة ترقُّ بكثرة الرياضة، حتى إذا سمعوا شيئًا، أو نظروا إلى شيءٍ اطّلعوا على سرّه[1]، وإنّي ما شهدتُ ذلك بعدُ في نفسي، فقلت: لا شكَّ في أن ما رُوي عن الأنبياء والأولياء حقٌّ وصدقٌ، لكنِ التقصيرُ إنّما هو منّي، فلعلَّ ما عملتُ من الأعمال كان رياءً، فلمّا تأمّلتُ في حالي، وجدتُ نفسي وافقتني في الأعمال، حتى أنَّ ما عملتُ من عملٍ كان للنفس فيه حظٌّ، ثم ألزمتُ عليَّ مخالفةَ النفس في جميع الأفعال والأقوال، حتى آيَسَتْ منّي، وانقطعتْ عن جميع الأماني والآمال، وتوجَّهْتُ إلى الله تعالى بالكلّية، وعملتُ له بعد ذلك بالإخلاصِ التامِّ، بحيث ما بقي للنفس في شيءٍ من الأعمال حظٌّ، فانفتحَ بابُ الأسرار والمعارف على قلبي، فعلمتُ أنّ المرادَ لا يحصلُ إلاّ بترك المراد.

(١) قوله: (على سرّه) ليست في (ب).

ثم ذهبتُ إلى جنب دجلة، ووقفت بين زورقين، وقلتُ: لا أبرحُ عن هذا المكان حتى تقعَ سمكةٌ في شبكتي، فوقعتْ سمكةٌ عظيمة، فحمدتُ الله تعالى على ذلك، وتفاءلتُ به على حُسن حالي، وذهبتُ إلى الجُنيد، وحكيتُ له الحكاية، فقال: يا أبا الحسين، لو وقعتْ في شبكتك حيَّةٌ لكان كرامةً، أمّا وقوعُ السمكة فتغريرٌ لك لا كرامة، فإيّاك والغرور.

أقول: معناه أنّ وقوعَ السمكة كان على وفقِ المُراد، ما دامَ السالكُ في مقام تحصيلِ مُراده، ويرى نفسه، فينظر إليها، فهو بعيدٌ من المقصود، لا قريب، وأمّا إذا لم يكنْ مُرادُهُ؛ بل تقعُ الأشياءُ على خلافِ مُراده، فذلك يدلُّ على أنّه منظورٌ بنظرِ اللطف[١]، ملحوظٌ بالكرامة والإعزاز، قال الشاعر:

لقد طابَ عيشُ الغَافلين ونومُهم وقد صارَ قلبُ العارفين مروَّعا

والله أعلم.

نقل أنه قد نهضَ شخصٌ من غلمان الخليفة بعدواة الصوفية[٢]، وقال عند الخليفة في حقِّهم: إنهم الزندقة والإلحادُ، ويُحدِّثون بالأشياء لا نعرف معناها[٣]. إلى أن أمر الخليفةُ بقتلهم؛ وهم أبو حمزة الخُراساني، والدقّام، والشبلي، والجُنيد، وأبو الحسين النُّوري رحمهم الله تعالى، وذلك بسبب شُبهةٍ أثبتوها عليهم بالزُّور، وحين قصد الجلادُ قتلَهم، قام النُّوري رضي الله عنه، وقدّم نفسَه، والتمسَ من الجلاد أن يُباشرَ بقتله أولاً، وكان مسرورًا مستبشرا، فتعجَّبَ الجلادُ عن حاله، وقال: يا شيخ، لأيِّ شيءٍ تستعجلُ؟ وليس هذا مقامُ العجلةِ، بل التأخُّرُ مطلوب! قال: نعم، ولكن بناءُ طريقتنا على الإيثار، والروحُ أعزُّ الأشياء، فأُريدُ أن أؤثرَهم عليَّ بأنفاسٍ. فعرض الجلادُ على الخليفة، فتحيَّرَ الخليفةُ في شأنهم، وثباتِ النُّوري وإيثاره، وأمرَ بالتوقُّف، وأمرَ القاضي أن ينظرَ في حالهم، فقال القاضي: إنّي لا أشكُّ في

(١) في (أ): على أنه منتظر بنظر الله اللطف.
(٢) هو غلام الخليل. انظر طبقات المُناوي ١/ ٥٢٣.
(٣) في (ب): ولا نعرفها، ولا معناها.

كمالِ الجُنيد[١] في جميعِ العلوم، وسمعتُ كلام النوري أيضًا، ولكن اسأَلُ الشِّبليَّ أيضًا مسألةً فقيهة، فقال: ما الواجبُ في عشرين دينارًا إذا ملكَهُ شخصٌ مسلم؟ قال: يجبُ عليه أن يبذلَ عشرين دينارًا ونصفَ دينار. قال القاضي: عمّن تقول هذا؟ قال: عن الصدِّيق رضي الله عنه، حيث تصدَّقَ بجميعِ ماله. قال: وما النصف؟ قال الشِّبلي: لأنَّه أمسكَ عشرين دينارًا حتى وجبَ عليه نصفُ دينارٍ، فهذا النصفُ غرامةٌ لإمساكه وعدمِ صرفه. ثم سأل عن النُّوريِّ مسألةً، فأجابَ في الحال، وأصابَ، فخجلَ القاضي، فقال النُّوريُّ: يا أيُّها القاضي، تسألُ عن المسائل الفرعية، ولا تعلمُ أنَّ لله تعالى عبادًا به قيامُهم وقعودهم، وحركتُهم وسكونُهم، وحياتُهم وموتهم، وهم في مقامِ الشهود دائمًا، فإنْ فاتهم الشُّهودُ لحظةً تزهَقُ أرواحُهم عن أجسادهم، وبه ينامون، وبه يأكلون، وبه يَبطشون، وبه يمشون، وبه يُبصرون، وبه يسمعون، وبه وجودُهم، هذا هو العلمُ، لا الذي سألتنا عنه. فتحيَّرَ القاضي من كلامه، وأرسلَ إلى الخليفة، وعرَّفَ أحوالَهم لديه، وقال: لو كان هؤلاء من الملاحدةِ أو الزنادقة، لم يوجدْ على وجه الأرضِ موحِّدٌ. فطلبهم الخليفةُ، وأعزَّهم وأمرهم أن يسألوا عنه حاجةً، قالوا: حاجتنا إليك أن تَنسانا[٢] ولا تذكرنا بالردِّ ولا بالقبول؛ فإنَّ ردَّكَ وقبولَك عندنا سواءٌ. فبكى الخليفة، وأجاز لهم في الرجوعِ إلى منازلهم وصوامعهم.

نقل أنه قال: قد فُرِّقَ بيني وبين قلبي منذ أربعين سنة حتى ما اشتهيتُ في هذه المدة شيئًا، ولا أَعجبني شيءٌ، وذلك من اليوم الذي عرفتُ الله تعالى.

نقل أنه قال: سألتُ الله تعالى أن يرزقَني حلالاً دائمًا، فسمعتُ هاتفًا يقول: يا أبا الحُسين، لا يصبر على الدَّائمِ إلاّ الدائم.

نقل أنه جاء إليه شخصٌ، وشرع يبكي، وأبو الحسين النُّوري رحمه الله

(١) في (أ): في حال الجُنيد.
(٢) في (ب): إليك أنت تنسانا.

يبكي ببكائه، ثم لمّا خرجَ الرجلُ من عنده، قال للحاضرين من أصحابه: هل عرفتم الشخصَ؟ قالوا: لا. قال: هو الشيطان، كان يَحكي عباداته وخدماته، ويبكي من ألمِ الفراق والردِّ والطرد، وأنا أيضًا بكيتُ معه.

قال جعفر الخُلدي[١] رحمه الله: كان النُّوريُّ رحمه الله في خلوته مشغولاً بمناجاتِهِ مع الله تعالى فاستمعت له، فإذا هو يقول: إلهي، تعذّبُ أهلَ جهنم، وأنت خلقتَهم بقدرتك على وفق علمِكَ وإرادتك؟! وأعلمُ أنّك قادرٌ على أن تملأَها منّي وحدي، فأسألُكَ اللَّهُمّ أن تملأَ جهنَّمَ منّي، وتدخلَ الناسَ كلَّهم الجنة. فتحيَّرتُ عن هذا، ثم رأيتُ في المنام كأنَّ شخصًا يجيءُ إليَّ ويقول: يا جعفر، قال الله تعالى: قل للنوري: إنّا غفرنا له ورحمناه بسبب شفقته وعاطفته.

نقل أنّه قال: وجدتُ ليلةً المسجدَ الحرام ـ شرّفه الله ـ خاليًا عن الناس، فاشتغلتُ بالطواف، ووصلتُ إلى الحجرِ الأسود، وقلت: إلهي، ارزقني صفةً لا أتغيّرُ منها، فسمعتُ صوتًا من داخل الكعبة: يا أبا الحسين، تُريد المعارضةَ معنا، فإنّا لا نتغيّرُ عن أوصافنا، وأمّا العبادُ فهم يتغيّرون من صفةٍ إلى صفةٍ، ومن حالٍ إلى حال لتتميزَ الرُّبوبيةُ عن العبودية.

قال الشبلي رحمه الله: دخلتُ على النُّوري رحمه الله وهو في المراقبة، ولا تتحرَّكُ عليه شعرة، فقلت: من علَّمَكَ هذه المراقبة؟ قال: إنّي قد تعلّمتُ من السنور؛ فإنَّه يترقَّبُ الفأرةَ بحيث لا تتحرَّكُ عليه شعرةٌ، بل هو أسكنُ منّي بكثير.

نقل أنَّ أهلَ القادسية[٢] سمعوا ليلةً صوتًا: أنَّ وليًا من أولياء الله قد حبسَ نفسه في وادي السباع[٣]، هلمُّوا إليه. فخرجَ الناس، وذهبوا إلى وادي السباع، فصادفوا الشيخَ أبا الحسين النُّوري رحمه الله قد حفرَ حفرةً[٤]، ودخلَ فيها،

---

(١) في (ب): جعفر الخدري.
(٢) القادسية: مدينة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا. معجم البلدان.
(٣) وادي السباع اسم لأكثر من مكان، وهو هنا من نواحي الكوفة، معجم البلدان.
(٤) في (أ): حفر حفيرة.

فتضرَّعوا إليه، وألحُّوا عليه، وأخرجوه منها، وذهبوا به إلى القادسية، ثم سألوا عن حاله، قال: ما أكلتُ شيئًا من زمانٍ، وقد وصلتُ إلى بساتين النخل اشتهتْ نفسي الرُّطَب، قلتُ: قد بقيتْ لنفسي الشهوةُ، فأنزلُ هذا الوادي لعلَّ أسدًا يقصدني ويأكلني، لئلا أشتهي الرُّطب.

ونقل أنه قال: كنتُ أغتسل في ساقيةٍ، إذ جاء سارقٌ وسرقَ ثيابي، فما طلعتُ من الساقية، إلاّ أنه جاءَ وردَّ عليَّ ثيابي، وقد يبستْ يده، فقلت: إلهي كما هو ردَّ عليَّ ثيابي، أسألُكَ أن تردَّ عليه يدَهُ. فطابت يده في الحال.

قيل له: ماذا أحسنَ الله إليك؟ قال: من إحسانه إليَّ، إذا أدخلُ الحمامَ يحفظُ ثيابي، فإنّي دخلتُ الحمامَ في بعضِ الأيام، وسرقَ سارقٌ ثيابي، فقلت: إلهي، ردَّ عليَّ ثيابي. فجاء السارق بها، واعتذر.

نقل أنه وقع حريقٌ في السوق النخاسين[١] في بغداد، واحترق خلقٌ كثيرٌ من الجواري والمماليك، وكان في دكّانٍ مملوكان في غاية الجمال لشخصٍ تاجر، والنار مُشعلةٌ حواليهما، وهما يَصرخان ويستغيثان، ويقول صاحبُهما: من يُخرجُهما من هذه النار، فأُعطيه ألفَ دينارٍ من الذهب. وما كان أحد يجترىءُ أن يدخلَ النار، فبينما هم كذلك إذ جاء الشيخُ أبو الحسين النُّوري، واطّلعَ على حال الغلامين، فرَقّ قلبُه عليهما، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ودخلَ في النار، وأخرجَهما سالمَيْنِ، ثم جاء إليه صاحبُهما بألف دينار، ووضعها عند الشيخ، فلم يقبل، ولم يلتفتْ إليه، وقال: لو كنتُ أقبلُ مثلَ هذا لما كان يحصلُ لي هذا المقام، وما كنتُ بالغًا إلى هذه المرتبة، فاشكرِ الله تعالى على أن أعطاني هذه المرتبةَ بتركِ الدنيا.

نقل أنّه قد مرّ برجلٍ قد مات حمارُه، ووقع حملُه على الأرض، وهو يبكي ويتضرَّعُ، وكان في موضعٍ بعيدٍ من العمران، فضربَ النُّوريُّ رحمه الله برجلِهِ

---

(١) في (ب): في السوق من النحاسين.

على الحمار، وقال: قمْ، ليس هنا مقام[١] النوم. فقام الحمارُ بإذنِ الله تعالى، وحملوا عليه حملَهُ، وركبَ عليه صاحبُهُ وراح.

ونقل أنَّ النُّوري رحمه الله قد مرض، وعاده الجُنيد رحمه الله، ومعه شيءٌ من الفواكه والورد، ثم بعد زمانٍ مرضَ الجُنيد، فعاده النُّوري في جماعةٍ من أصحابه، وقال لهم: ليحملْ كلٌّ منكم شيئًا من مرض الجُنيد ليطيب. قالوا: حملنا. فطاب الجنيد في الحال، وقال النُّوري: إذا عدتَ مريضًا عدْهُ هكذا، لا أن تحملَ إليه الفاكهةَ والورد.

قال: رأيتُ شيخًا ضعيفًا، ضربوه سياطًا، ولم يظهرْ له أنينٌ، ثم حبسوه في السجن، فانطلقتُ إليه، وقلت: أنتَ مع هذا الضعف، كيف صبرتَ على الضرب؟ قال: تحمُّلُ البلاءِ إنَّما هو بالهِمَّةِ لا بالجسم. قلتُ: وما الصبر عندك؟ قال: أن يكونَ الدُّخولُ في البلاء كالخروج عنه.

سئل النوريُّ رحمه الله عن العبودية، قال: هو مُشاهدةُ الربوبية.

قال[٢]: متى يصيرُ الإنسانُ أهلاً أن يحدِّثَ الناس؟ قال: إذا فهمَ من الله.

وقال: الإشارةُ هي الاستغناء عن العبارة.

قيل: ما الدليلُ على الله؟ قال: اللهُ دليلٌ على الله.

أقول: معناه: أنَّ الله خلقَ الأشياء، ورزقَ الأحياء، ثم أماتَ وأحيا، وأضحكَ وأبكى، وأغنى وأقنى إلى غير ذلك، ليُستدلَّ بذلك على وجوده ووحدانيته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] **قال الشاعر:**

ففي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ[٣]

والله أعلم.

---

(١) في (ب): ليس هناك مقام.

(٢) كذا في الأصلين. وكأن الصواب: قيل.

(٣) البيت يُنسب لمحمود الوراق، الديوان ١٦١، ولأبي العتاهية الديوان صفحة ١٠٤.

قيل: فما العقلُ على هذا؟ قال: العقلُ عاجزٌ، والعاجزُ لا يكون دليلاً.

وقال: الإسلامُ بابٌ مُغلق، لا ينفتحُ إلاّ عند وضعِ الرّجل[1] على خطِّ مُتابعة النبيِّ ﷺ.

وقال: الصوفية قومٌ خلصَتْ نفوسُهم عن آفات الهوى وغيره، وصفَتْ أرواحُهم عن كُدورة البشرية، وتنفّرَتْ قلوبهم وأسرارُهم عن غير الله تعالى، واستقرَّتْ به تعالى، فلا يكون الصوفيُّ مالكًا لشيءٍ، ولا مملوكًا لأحدٍ سوى الله تعالى.

وقال: الصوفيُّ أن لا يتعلَّقَ بشيءٍ، ولا يتعلَّقَ به شيءٌ.

وقال: التصوفُ ليس بعلومٍ ولا برسوم، إذ لو كانَ علمًا لحصلَ بالتعلُّم، أو رسمًا لحصلَ بالمُجاهدة؛ ولكنَّه أخلاقٌ كما قال النبيُّ ﷺ: «تخلّقوا بأخلاقِ الله[2]» والتخلُّقُ بأخلاقِ ليس من العلوم ولا من الرسوم.

وقال: التصوُّفُ هو الحرية، والفتوّةُ والسخاوة وترك التكلّف.

وقال: التصوفُ هو تركُ حظوظِ النفسِ كلِّها لله تعالى.

وقال: التصوفُ معاداةُ الدنيا[3]، ومُوالاة المولى عز وعلا.

نقل أنه سمعَ عن رجلٍ أعمى يقول: الله الله، فقال له النُّوريُّ رحمه الله: أنتَ لا تعرفه، ولو عرفتَهُ لما بقيتَ. فقال هذا ودُهِش عليه[4]، ثم غلبَ عليه الشوقُ، وخرجَ إلى الصحراء، ووقعَ في مقصبةٍ قد حُصدَ قصبُها، وكان يدورُ ويقول: الله الله، وتنجرحُ رجلاه، ويخرجُ الدم، وينتقش منه على الأرض:

---

(١) في (أ): إلا عند وضع الرأس.

(٢) لم أجد الحديث في المصادر التي بين يدي، وقد ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (كتاب المحبة والشوق والأنس، (بيان أن المستحق للمحبة) ٣٠٦/٤، بصيغة: حتى قيل: تخلقوا.. كما ذكره الجرجاني في التعريفات، ضمن تعريف (الفلسفة).

(٣) في (أ): معاداة مع النفس والدنيا.

(٤) قوله: (عليه) ليس في (ب).

(الله)، ثم ذهبَ إليه أبو نصر السرّاج، وأذهبه إلى بيته، وقال له: قل: لا إله إلا الله. فقال: نعم، أعودُ إليه الآن. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى في الحال.

قال الجُنيد: منذ ماتَ النُّوري لم يتكلّمْ أحدٌ في حقيقة الصدق؛ فإنّه كان صدّيقَ زمانه، رحمه الله رحمةً واسعة.

نسألك اللهم خالقَ الأرض والسماء، محيي الأموات، ومُميت الأحياء أن تُحيي قلوبَنا بنورِ معرفتك، وأن لا تحرمنا من مَوائد[١] رحمتك ومغفرتك، فإنّكَ أنتَ الوهاب الكريم، وأن تُصلّي على سيّدنا وشفيعِنا محمد وآله الطاهرين أجمعين، وأن تَحشرنا في زمرته، وتبعثنا في أُمّته.

* * *



(١) في (أ): تحت كلمة (موائد) كتب: مؤمَّلٍ.

(٤٧) أبو عثمان الحيري[١]

ذكر الشيخ أبي عثمان الحِيري رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من أكابر الطائفة، مُعتبرًا عند أهل التصوف، رفيعَ القدر، عاليَ الهمَّة، مقبولاً لدى الأصحاب، مخصوصًا بأنواع الكرامات والرياضات، صاحبَ كلماتٍ شافية[٢] في الوعظ، وإشاراتٍ عليّةٍ، كاملاً في فنون علوم الطريقة والشريعة.

وله كلام مؤثّرٌ في القلوب.

قال أهلُ الطريقةِ وأصحابُ الشريعة: ثلاثةٌ في الدنيا ليس لهم رابعٌ: أبو عثمان الحِيري في نيسابور[٣]، والجُنيد، في بغداد، وأبو عبد الله بن الجلاّء بالشام.

وقال عبد الله بن محمد الرازي: رأيتُ الجُنيد، ورُويمًا، ويوسف بن الحسين، ومحمد بن الفضل، وأبا علي الجرجاني وغيرَهم من المشايخ، فما رأيتُ أحدًا أعرفَ بالله من أبي عثمان.

---

(١) هو سعيد بن إسماعيل، وترجمته في: طبقات الصوفية ١٧٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ٩/ ٩٩، الرسالة القشيرية ٧٣، الأنساب ٤/ ٢٨٩، مناقب الأبرار ٣٧٩، المنتظم ٦/ ١٠٦، صفة الصفوة ٤/ ١٠٣، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٤٩٥، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢، العبر ٢/ ١١١، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٠٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٣٦، البداية والنهاية ١١/ ١١٥، طبقات الأولياء ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٧، نفحات الأنس ١٣٠، طبقات الشعراني ١/ ٨٦، الكواكب الدرية ١/ ٦٢٣، شذرات الذهب ٢/ ٢٣٠.

(٢) في (أ): صاحب كمالات شافية.

(٣) في (أ) قال أهل الطريقة في نيسابور والجنيد.

وانتشرَ منه التصوفُ في خراسان.

وصحب الجُنيد، ورويمًا، ويوسف بن الحسين، ومحمد بن الفضل رحمهم الله.

وله مشايخ ثلاثةٌ كبارٌ: يحيى بن معاذ الرازي، وشاه الكرماني، وأبو حفص الحداد رحمهم الله.

نقل أنه كان من أولاد الأكابر، ويذهبُ إلى الكتّاب، ومعه أربعةٌ من المماليك: حبشيٌّ، ورومي، وكشميري، وتركي، وعليه ثوبٌ من القصب، ومعه دواةٌ من الذهب، وعلى رأسه عِمامة فاخرةٌ، فمرّ في بعضِ الأيام بخانٍ خراب، ورأى فيه حمارًا ضعيفًا مقروحَ الظهر، وعلى ظهره غرابٌ ينقرُ على جرحه، وما كان له قوةُ الدفع، فرقَّ له، وقال لغلامه: أنت لأيِّ شيءٍ تُصاحبني؟ قال: لأكونَ لك موافقًا لرضاك. فدخل الخان، وخلع الجُبَّةَ الفاخرة، وغطّى بها ظهر الحمار، وخرج من الخان، فما وصل إلى البيت إلاّ وقد وردَ عليه حالٌ، وتشوَّشَ باله، ودخل مجلس يحيى بن معاذ رحمه الله، وحصل له فتوحٌ من كلامه، وكان يواظبُ مجلسَ يحيى مشغولاً بالرياضة إلى أن سمعَ أخبارَ شاه الكرماني، فطلبَ الإذنَ من أبويه، ورحل إلى كرمان، فلم يقبلْه شاه، وقال: أنت تعوَّدْتَ بالرجاء في مجلس يحيى بن معاذ، لأنَّ مقام يحيى إنّما هو على الرجاء، ومَنْ تربّى بالرجاء لا يتأتّى منه السلوك، لأنَّ الرجاءَ إذا كان بتقليدٍ لا يُورّثُ إلاّ الكسل[1]، والحالُ أن رجاءك تقليدٌ، ورجاءُ يحيى تحقيقٌ، والرجاء إذا كان عن تحقيقٍ لا يورّث[2] إلاّ الجدَّ والاجتهاد. فبقي هناك متضرِّعًا متذلّلاً إلى عشرين يومًا حتى دعاه شاهٌ إليه، وقبلَهُ وصحبه مدَّةً، واستفادَ منه فوائدَ كثيرة، ثم صحب أبا حفص الحداد، وانتفعَ منه، وتزوَّجَ بابنته.

---

(١) في (أ): لا يؤثر إلا الكسل.

(٢) في (أ): من علمه.

وقال: مضي عليَّ أربعون سنة ما وردَ عليَّ حالٌ أكونُ كارهًا له، حتى نُقل عنه أن شخصًا من المنكرين دعاه إلى بيته باسمِ الضيافة، فلمّا وصلَ إلى الباب، قال له: يا عبد البطن، ارجع؛ ليس هنا شيءٌ تأكلُهُ. فرجع، ثم عدا خلفه، وصاحَهُ وردَّه، فلمّا وصلَ إلى الباب قال: لك جدٌّ عظيم في الأكل، وليس هنا شيءٌ تشبع به. فرجع، ثم سعى خلفه، وقال: يا شيخ، ارجع. فرجع، فلمّا وصل إلى الباب قال: إن تأكل الحجر فتعال، وإلاّ فارجع. وهكذا إلى أربعين مرة، ولم يتغيَّرْ أصلاً، ثم تمرَّغَ الرجلُ بين يديه، وتابَ، وصار تلميذًا له، وتعجَّبَ من حلمه وسكونه. فقال أبو عثمان: هذا أمرٌ هيِّنٌ، فإنَّ الكلبَ كلّما تطرده يرجع، وإذا تدعوه يجيءُ إليك، ولكنَّ شغلَ الرجال شيءٌ آخر.

نقل أنه كان يعبرُ في بعض الطرق، ومعه جماعةٌ من أصحابه، فجاء شخصٌ على طرفِ سطحٍ، ونثرَ عليه طستًا من الرَّماد، فغضبَ أصحابُه لذلك، فقال أبو عثمان رحمه الله: لا تغضبوا؛ فإن هذا مقامُ الشكر، إذ من كان مُستحقًّا للنار قد صالحوا معه بالرماد.

قال أبو عمرو: إني تبتُ في ابتداء أمري في مجلس أبي عثمان، وكنت على التوبةِ مدّةً، ثم نقضتُ التوبةَ، واشتغلتُ بالمعاصي، وأعرضتُ عن مجلسِ الشيخ، وكنتُ إذا ألتقي به في الطريقِ أهرَبُ عنه، حتى التقاني يومًا، وقال: يا ولدي[1]، لا تجالس مع الأعداء إلاّ إذا كنتَ معصومًا؛ فإنّهم يَفرحون إذا اطّلعوا على بعضِ عيوبك، ويتحزّنون إذا وجدوك معصومًا منها، فإنْ أردتَ أن يصدرَ منك معصيةٌ، فتعالَ إلينا، فإنّا نحمل بلاءَك، ولا تُفرح بك أعداءك. قال: فلمّا سمعتُ كلامَ الشيخ بردَ قلبي عن المعاصي، وشبعت منها، وتبتُ توبةً نصوحًا.

نقل أنه كان يمضي في بعض الطُّرق، فاستقبله شابٌّ عيّارٌ سكران، ومعه ربابٌ، فظنَّ أنَّ الشيخ ينهرُه عن ذلك ويزجرُه، فسترَ الربابَ في كمِّه، وأرادَ أن

(١) في (أ): يا وليّ.

يعبرَ، فقال له أبو عثمان على طريق الشفقة: لا تفزعْ، فإننا إخوة. فأثّرَ الكلامُ في فؤاده، ورجع وتاب، وذهبَ مع الشيخ إلى الخانقاه، وأمرَهُ الشيخُ بالاغتسال، وألبسَهُ خرقةً، ثم رفع رأسَه وقال: إلهي، وفينا ما علينا، فبقي ما عليك. فوردَ على الفتى في الساعةِ حالٌ من أحوال الرجال، حتى تحيَّرَ الشيخُ في ذلك، وقال: شيءٌ كنّا نطمعُ فيه أن يحصل لنا في عمرٍ، قد حصلَ لهذا الفتى في لحظةٍ مجانًا، فعلمنا أنَّ الفضلَ بيد الله تعالى يُؤتيه من يشاء.

قيل له: نذكرُ اللهَ تعالى باللِّسان، ولا يُوافقنا القلب. فقال: اشكروا الله تعالى على أن أطاعَه عضوٌ من أعضائكم، فيمكنُ أن يوافقَ القلبُ بعد ذلك.

نقل أنه سُئل عن شخصٍ يدخل على جماعةٍ يحبُّ قيامَهم له، ويكرَهُ أن لا يقوموا له، فسكت، وما أجاب حتى اتَّفقَ يومًا في جماعةٍ فقال: سألوا منّي هذه المسألة، والجوابُ: أنّ مثلَ ذلك الشخص إن شاءَ فليمتْ يهوديًا، وإن شاءَ فليمتْ نصرانيًا.

قال: ينبغي أن تكون الصحبة مع الله تعالى بحسنِ الأدب، ودوام الهيبة، ومع الرسول ﷺ بمتابعةِ السُّنَّة، وملازمة ظاهر العلم، ومع الأولياء بلزومِ الخدمة، ومع الإخوان بالبشاشة والطلاقة، إنْ لم يكونوا في عصيان، ومع الجهّال بالشفقة والرحمة والدعاء.

وقال: إذا سمعَ التلميذُ شيئًا من كلام القوم، وعمل به، يظهرُ نورُه في آخر العمر في قلبه، وينفعُه حينئذ، ومن يسمع منه ذلك الكلام ينتفعُ به، ومن سمعَ من المشايخ كلامًا، ولم يعملْ به كان كحكايةٍ سمعها، فحفظَها، ثم عن قريبٍ ينسى.

وقال: من لم يكنْ في ابتداءِ أمره مُستقيمًا، لا يزدادُ إلاّ إدبارًا.

قال: لا يتمُّ رجلٌ إلاّ إذا استوى عنده أربعةُ أشياء: المنعُ، والإعطاء، والعزُّ، والذلُّ.

وقال: أعزُّ الأشياء على وجه الأرض ثلاثةٌ: عاملٌ يدلُّ عملُهُ على

علمِهِ[١]، وتلميذٌ غيرُ طامعٍ، وعارفٌ يعرف الله تعالى ويصفُهُ بلا كيف.

وقال: أصلُ الأمرِ في طريقنا السكوتُ ـ أي عمّا لا يعني ـ والاكتفاء بعلم الله تعالى.

وقال: من أعزَّه الله تعالى بالإيمان والمعرفة فحريٌّ أن لا يذلَّ نفسَه بالمعصية.

وقال: صلاحُ القلبِ في أربعة أشياء: الافتقارُ إلى الله تعالى، والاستغناءُ عمّا سواه، والتواضعُ لله، والأنسُ مع الله.

وقال: من لم يكنِ اللهُ غايةَ فكره في جميعِ الأحوال، يكون نصيبُهُ من الله تعالى ناقصًا في كلِّ المعاني.

و: من زهدَ عن نصيبه من الراحةِ والعزِّ والرِّياسةِ يصيرُ قلبُه فارغًا من جميع الهموم، ويرحمُ عبادَ الله.

و: المحزونُ من لا يفزعُ، ولا يسألُ[٢] عن حزنِ غيره.

الحزنُ في كلِّ حالٍ فضيلةٌ للمؤمنِ إن لم يكن سببًا لمعصية[٣].

و: الخوفُ من عدل الله تعالى، والرجاءُ من فضله.

حقيقةُ الخوف الاحترازُ عن الدُّنيا ظاهرًا وباطنًا.

و: خوفُ الخواصِّ إنَّما يكون في الحالِ، وخوفُ العوام من الاستقبال.

الخوفُ يُقرِّبُ إلى الله، ويزيلُ عن القلب داءَ العُجب.

و: الصبرُ هو التعوُّدُ باحتمال المكاره.

و: شكرُ العامَّةِ على ما رزقَهم الله له من الطعام واللباس، وشكرُ الخاصَّة على ما يردُ على قلوبهم من المعاني.

---

(١) في (ب): يدل عمله على عمله.

(٢) في (أ): لا يفزع لأن يُسأل عن حزن.

(٣) في (أ): للمؤمن يوم يكن سببًا لمعصية.

أصلُ التواضع ثلاثةٌ: أن يذكرَ العبدُ جهلَه، ويعترفَ في الحال بتقصيره، ولا ينظر إلى تقصيرِ غيره.

التوكل هو الاكتفاءُ بالله، والاعتماد عليه.

و: من تكلَّم في الحياءِ ولم يكن مُستحيًا من الله فهو مُستدرجٌ مغرور.

اليقين ألاّ يكون قصدُه وهمُّه من أمورِ الغد إلاّ قليلاً.

الشوق ثمرة المحبّة، فمن أحبَّ الله اشتاقَ إلى لقائه.

بالخوف تفتح المحبّة[1]، وبالملازمة يتأكّدُ الأدب.

من لم يذقْ وحشةَ الغفلةِ لا يجدُ حلاوةَ الأُنس.

و: التفويضُ أن تُفوّضَ ما لا تعلمُ إلى علمِه.

و: التفويضُ مقدّمه الرّضا، والرّضا بابُ الله العظيم.

و: الزهدُ عن الحرامِ فريضةٌ، وعن الحلال وسيلةٌ وقربةٌ.

و: علامةُ السعادة أن تكونَ مُطيعًا خائفًا من الردِّ، وعلامةُ الشقاوة أن تكونَ عاصيًا راجيًا للقبول.

و: العاقل من يتدبَّر[2] في الخلاص عن المكروه قبلَ أن يقعَ فيه.

كن مع الأغنياء بالتعزُّزِ، ومع الفقراءِ بالتذلّل، فإنَّ التعزُّزَ على الأغنياءِ تواضعٌ، والتواضعُ للفقراء شرفٌ وكرامة.

الفرحُ بالدنيا يزيلُ عن القلبِ الفرحَ بالله، والخوفُ عن الله يزيلُ عن القلبِ الخوفَ من الله، والرجاءُ من غيرِ الله يزيلُ عن القلب الرجاءَ من الله.

الموافقُ من لا يخافُ من غير الله، ولا يرجو من غيرِ الله، ويختارُ رضا الله على هوى نفسه.

---

(١) في (ب): وهمه من أمور الغد بالملازمة يتأكد.

(٢) في (ب): العاقل أن يتدبر.

و: الخوفُ من الله يقرّبُ إلى الله، والكِبر والعُجب يقطعانك من الله.

إهانتُكَ الخلقَ[1] وتحقيرُهم داءٌ لا يقبلُ الدواءَ.

أصل العداوةِ من ثلاثة أشياء: الطمعُ في مال الناس، والطمعُ في إكرامهم، وطمعُ القبول منهم.

و: الأدبُ عمادُ الفقراء، وزينةُ الأغنياء.

كلُّ قطيعةٍ من الدنيا غنيمةٌ للمريد.

و: الإخلاصُ أن لا يكونَ للنفسِ حظٌّ في العمل.

وقال: الإخلاصُ نسيانُ رؤية الخلقِ بدوام النظرِ إلى الخالق.

نقل أن رجلاً من فرغانة قصدَ الحجَّ، فلمّا وصلَ إلى نيسابور زارَ أبا عثمان رحمه الله، فسلّم عليه، ولم يلتفِتْ إليه الشيخُ كما ينبغي، فقال الرجل: سبحان الله، رجلٌ يزورُ رجلاً ولا يُكرمُه! فقال الشيخ: من خلّفَ في بيته والدةً مريضةً، وقصدَ الحجَّ بدون رضاها، كذا يكونُ حالُه. فرجع الرجلُ، وواظبَ على خدمة والدته إلى أن ماتت. ثم قال: جئتُ إلى الشيخ، وتلقّاني بالإعزاز والقبول، ولازمْتُ خدمتَهُ إلى حين وفاته، ولمّا قرب وفاتُهُ مزَّقتُ جيبي، وشرعتُ في البكاء والصياح، ففتحَ الشيخُ أبو عثمان عينه، وقال: يا ولدي، خالفْتَ السُّنة، ومخالفةُ السُّنّةِ ظاهرًا علامةُ النفاق. وسلّم روحَهُ في غايةِ الحضور. رحمه اللهُ رحمةً خاصَّة، ورضي عنه.

اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه برحمتك يا رحيم.

* * *

---

(١) في (أ): إهانة الخلق.

(٤٨) أبو عبد الله ابن الجلاء[١]

ذكر الشيخ أبي عبد الله بن الجلاّء رحمه الله رحمة واسعة:

كان رحمه الله من كبارِ مشايخِ الشام، مقبولاً مخصوصًا بكلمات رفيعةٍ، وإشاراتٍ بديعة[٢]، عديم النظير في الحقائق والدقائق والمعارف.

صحب أبا تراب، وذا النون، والجُنيد، والنُّوري رحمهم الله.

قال أبو عمرو الدمشقي رحمه الله: سمعتُ منه أنَّه قال: سألتُ أبي وأمي في ابتداء أمري أن يتركاني في سبيل الله، وتركاني، وأذنا لي أن أسافرَ، وأشتغلَ بالطاعة والمجاهدة، ثم رجعتُ إليهما بعد مدة، ودققتُ عليهما الباب، قال أبي: من أنت؟ قلت: ابنُك الذي غابَ زمانًا. فقال: نحن وهبنا ابننا من الله تعالى، ولا نرجعُ فيما وهبنا. ولم يفتح الباب.

قال: رأيتُ شابًا نصرانيًا في غايةِ الحسن والجمال، فتحيَّرتُ في حسنه، وكنت أنظرُ إليه، إذا مرّ بنا الجُنيد رحمه الله، فقلت: يا شيخ، كيف يُعذّبُ اللهُ تعالى مثلَ هذا في النار؟ فقال: هذا سوق النفس[٣]، وشركُ الشيطان، ولو كان نظرُكَ بالعبرة ففي العالمِ عجائبُ كثيرةٌ، ولكن سيبتليك اللهُ تعالى بإساءتك

---

(١) طبقات الصوفية ١٧٦، حلية الأولياء ١٠/ ٣١٤، تاريخ بغداد ٥/ ٢١٣، الرسالة القشيرية ٧٦، الأنساب ٣/ ٣٩٧، مناقب الأبرار ٤٠٦، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٣، المنتظم ٦/ ١٤٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٨٨، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥١، العبر ٢/ ١٣٢، مرآة الجنان ٢/ ٢٤٩، الوافي بالوفيات ٨/ ٢٣٩، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١١/ ١٢٩، طبقات الأولياء ٨١، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٠، نفحات الأنس ١٦٦، طبقات الشعراني ١/ ٨٧، الكواكب الدرية ٢/ ٣٦، شذرات الذهب ٢/ ٢٤٨.

(٢) في (ب): وإشارات بديهة.

(٣) في (أ): هذا أسوف النفس.

الأدب بحضرته، ويعاقبُك. ولمّا مضى الجُنيد رجعتُ إلى نفسي، وجدتني قد نسيتُ القرآن، حتى أنّي تضرّعتُ إلى الله سنين، فاستعنتُ به، ورجعتُ إليه، وندمتُ وتبت، ثم إنّ الله تبارك وتعالى رحمني، وردَّ عليَّ القرآنَ، فالآن لا أقدرُ أن التفتَ إلى شيءٍ من الموجودات مخافةً من غيرةِ الله تعالى.

سُئل أبو عبد الله عن الفقر، فسكت، ثم خرجَ ورجع، قيل له في ذلك، قال: كان معي أربعةُ دراهم، فاستحييتُ أن أتكلَّمَ في الفقر، وأنا مالكٌ لأربعة دراهم، فخرجتُ وصرفتُها على المساكين.

قال: وصلتُ إلى مدينة الرسول ﷺ وأنا مَتعوبٌ فقير، ذو فاقةٍ، فزرت النبيَّ ﷺ في المنام، وقلت: أنا ضيفُك يا رسول الله، وأخذني نعاسٌ، فرأيت النبي ﷺ وأعطاني رغيفًا، فأكلتُ نصفَه، وانتبهت، فإذا نصفُه الأخرُ بيدي.

سئل عنه أنَّ الرجلَ متى يستحقُّ اسمَ الفقر؟ قال: إذا لم يبق له شيء أبدًا قطُّ.

وقال: الزاهدُ من استوى عنده المدحُ والذم.

و: العابدُ من أقامَ الفرائض في أوّلِ الوقت.

الموحّدُ من اعتقدَ أن خالقَ الأفعال كلِّها هو الله تعالى.

وقال: همّةُ العارف هو الله تعالى، ولا يرجعُ منه إلى غيره.

و: علامةُ الزاهد أن ينظرَ إلى الدنيا بنظرِ الزوال، لتصيرَ في نظره حقيرًا، ثم يُخرجُها عن قلبه بسهولة.

من لا يصحبُ التقوى يأكلُ في الفقر حرامًا صرفًا.

و: التصوف فقرٌ مجرَّدٌ عن الأسباب.

و: التقوى شكرٌ لنعمة المعرفة.

التواضعُ شكرٌ على نعمة العزّ.

و: الصبرُ شكرٌ على نعمة المُصيبة.

الخائفُ من جعله الله آمنًا من جميعِ الأحزان.

من وصلَ بنفسه إلى مرتبةٍ، يقعُ عنها عن قريب.

و: قصدُكَ الرزق يُبعدك عن الله، ويُحوجُك[1] إلى الخلق.

قيل: إنه في حالة النزعِ كان يضحك، قال الطبيب: لعلّه باقٍ. نظروا إليه، فإذا هو ميت.

نوّر الله ضريحَه، ونوّر بأنوار هدايته قلوبَنا، وستر بأستار مغفرته[2] عيوبنا، وغفر بكرمه ورحمته ذنوبنا، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وعترته أجمعين.

* * *



(١) في (أ): ويخرجك إلى.

(٢) في (أ): بأستار معرفته.

(٤٩) رويم بن أحمد(١)

ذكر الشيخ أبي محمد رُويم بن أحمد رحمه الله:

كان رحمه الله من جملة المشايخ الكبار، وهم اتّفقوا على كماله وأمانته، وكان صاحبَ سرِّ الجنيد، وفقيهًا بارعًا على مذهب داود(٢).

وله في علم التفسير نصيبٌ وافر، وفي جميع الفنون حظٌّ كامل، وكان مُشارًا إليه بين القوم، وذا همَّةٍ وفِراسةٍ، وله في التجريد قدمٌ راسخةٌ، ورياضاتٌ بليغة. وسافرَ على التوكُّل أسفارًا كثيرة. وله تصانيفُ في علمِ الطريقة.

قال: منذ عشرين سنةً لم يخطر ببالي ذكرُ طعامٍ إلاَّ وقد حضر في الساعة.

قال: كنتُ عابرًا في بعض أزقّة بغداد، فغلبني عطشٌ، وطلبتُ ماءً من بيتٍ لأشربه، فجاء طفلٌ بكوزِ ماءٍ، ولمّا رآني وأنا على زيِّ أهل التصوف، قال: لا تستحي، صوفيٌّ يشربُ بالنهار! ثم بعد ذلك ما أفطرتُ بالنهارِ قطُّ.

وجاء إليه شخصٌ، وسأل عن حاله، قال في الجواب: كيف يكونُ حالُ من يكون دينُهُ هواه، وهمَّتُهُ دنياه، لا يُحسنُ عمله، واجتهادُهُ تنفُّرٌ من الخلق، ولا بسببِ معرفته وطاعته تقرّب من الحقِّ، ولا تُقًى ولا نقي.

---

(١) طبقات الصوفية ١٨٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦، تاريخ بغداد ٨/ ٤٣٠، الرسالة القشيرية ٧٧، مناقب الأبرار ٤١٤، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٢، المنتظم ٦/ ١٣٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٣٩٤، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٣٤، البداية والنهاية ١١/ ١٢٥، طبقات الأولياء ٢٢٨، النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٩، نفحات الأنس ١٤٤، طبقات الشعراني ١/ ٨٨، الكواكب الدرية ٢/ ٩٥ واسمه في (أ) و(ب): أحمد بن رويم، والمثبت من مصادر الترجمة.

(٢) داود بن خلف الأصبهاني إمام أهل الظاهر ـ وسُمُّوا بذلك لأخذهم بظاهر الكتاب والسنة، وإعراضهم عن التأويل والرأي والقياس ـ وأحد أئمة المسلمين ورعًا وهداية، انتهت إليه رئاسة العلم ببغداد، توفي سنة ٢٧٠ هـ.

سئل: ما أولُ شيءٍ افترضه الله تعالى على المُكَلف؟ قال: المعرفة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفوني.

وقال: أهلُ الحضور على ثلاثة أقسام: الأول حاضرٌ شاهدٌ للوعيد، لا جرمَ أنّه يكونُ في الهيبةِ دائمًا. والثاني حاضرٌ شاهدٌ للوعد، لا جرمَ أنه يكونَ دائمًا في الغيبة. و[الثالث] حاضرٌ شاهدٌ للحقِّ، فلا جرَمَ أنه في الطَّرب دائمًا.

وقال: إن الله تعالى رزقَكَ القولَ والعمل، فإن أخذَ منك القولَ وتركَ العمل فذلك نعمةٌ من الله تعالى، وإن أخذَ العملَ وتركَ القول فذاك مُصيبةٌ، وإن أخذهما جميعًا فذاك آفة.

و: صيرورتُك من جميع الأقوام أَسهلُ من أن تصيرَ صوفيًا، فإنَّ مُطالبةَ الناس ـ أي في القيامة ـ من ظاهر الشرع، ومطالبةَ الصوفيِّ من حقيقة الورع، ودوام الصدق.

وقال: من جالسَ أهلَ التصوّفِ ثم خالفهم في شيءٍ هم عليه حقيقةً نزعَ الله تعالى عن قلبه نورَ الإيمان.

سئل عن آداب السفر، قال: أن لا يتجاوزَ فكرُ المسافر عن قدمه، وينزلَ في مكانٍ اطمأنَّ فيه قلبه.

وقال: ينبغي للمحبِّ أن يستقرَّ على البساط، ويحترزَ عن الانبساط، ويصطبرَ على ضرب السياط، إلى أن يعبرَ على الصراط.

وقال: التصوّفُ مبنيٌّ على ثلاث خصال: الفقرِ والافتقار، والبذل والإيثار، وترك الاعتراض.

وقال: التصوّفُ هو الوقوف على الأفعال الحسنة.

وقال: التوحيد أن تفنى في ولائه عن هواك، وفي وفائه عن جفاك، وهكذا إلى أن يفنى الكلُّ في الكلِّ[1].

---

(١) قوله: التوحيد أن تفنى... ليس في (ب).

وقال: التوحيد محوُ الآثار البشرية، وتجريد الإلهية.

وقال: للعارف مرآةٌ، إذا نظرَ فيها يتجلّى له مولاه.

وقال: تمامُ الحقيقة أن تكونَ مقارنةً للعلم.

و: الأنسُ ظهورُ الوحشة عمّا سوى الله تعالى.

و: الأنسُ سرورُ القلب بحلاوة الخطاب(١).

و: الأنس الاجتلاءُ عمّا سوى الله تعالى(٢).

وقال: الفقير أن يسترَ سرَّه، ويحفظَ نفسَه، ويواظبَ على أداء الفرائض.

و: الصبرُ تركُ الشكوى.

و: التوبةُ أن تتوبَ عن التوبة.

أقول: التوبة عن التوبة إنّما تكونُ بترك الذنوب رأسًا، وإذا لم يصدرْ عنك ذنبٌ فلا تحتاج إلى التوبة، فكأنّك تبتَ عن التوبة. والله أعلم.

و: التواضع ذلّةُ القلوب بظهور جلال علّام الغيوب.

و: الزهد تحقيرُ الدنيا، ومحوُ آثارها عن القلب.

و: الخائفُ من لا يخافُ من غير الله.

و: الرضا أنَّ جهنم لو كانت في جهةِ يمينه، لا يقولُ: ينبغي أن تكونَ في جهة اليسار.

و: الرضا استقبالُ الأحكام بطيب الخاطر.

و: الإخلاصُ في العمل أن لا تكونَ راجيًا للثواب في الدارين.

وقال لأبي عبد الله بن خفيف(٣)، وهو يوصيه: أدنى شيءٍ في هذا الطريق بذلُ الروح، فإن لم تقدر على هذا فلا تشتغلْ بترّهاتِ الصوفية.

---

(١) الخبر ليس في (ب).

(٢) الخبر ليس في (ب).

(٣) في الأصلين: وقال لعبد الله الخفي. والمثبت من الأصل الفارسي.

قال الجنيد: رويمٌ مشغولٌ فارغ، ونحن معاشرَ الصوفية فارغون مشغولون.

رزقنا الله بكرمه التجافي عن دار الغرر، والإنابةَ إلى دار الخلود، والثبات على الصراط المستقيم، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

* * *



(٥٠) ابن عطاء(١)

ذكر الشيخ ابن عطاء رحمه الله:

كان رحمه الله سلطانَ أهل التحقيق، وبرهانَ أهل التوحيد، وفي فنون العلوم ماهرٌ، وفي الأصول والفروع مُفْتٍ، ولم يسبقْه أحدٌ من المشايخ في تحقيق أسرارِ التنزيل ودقائق التأويل، وكان محترمًا موقَّرًا بين الأقران.

وكان الشيخ أبو سعيد الخرّاز رحمه الله يُبالغُ في شأنه، حتى لا يُسلّم التصوف لغيره.

وكان من كبار تلاميذ الجُنيد(٢).

نقل أن جماعةً دخلوا صومعته، فرأوها متندِّيةً، فسألوه عن ذلك، قال: عُرض لي حالةٌ، فكنتُ أدورُ في الصومعةِ، وأبكي من الخجالة. فقيل: وكيف ذاك؟ قال: أمسكتُ في أيام الصبا حمامةً لإنسان، وبعد ذلك أعطيت صاحبها ألف درهم، والحالُ أنَّ قلبي لا يَطمئنُّ، فتذكرت وأبكي على حالي ومالي.

قيل له: كم تقرأُ من القرآن كلَّ يوم؟ قال: أمّا فيما سلفَ فكنتُ أقرأُ ختمةً كلَّ يومٍ، وأمّا الآن فمنذ أربع عشرة سنة(٣) أقرأُ، واليومُ وصلتُ إلى سورة الأنفال.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس، وترجمته في:
طبقات الصوفية ٢٦٥، حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢، تاريخ بغداد ٥/ ٢٦، الرسالة القشيرية ٨٩، مناقب الأبرار ٥١٩، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٤، المنتظم ٦/ ١٦٠، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٤٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥٥، العبر ٢/ ١٤٤، الوافي بالوفيات ٨/ ٢٤، مرآة الجنان ٢/ ٢٦١، البداية والنهاية ١١/ ١٤٤، طبقات الأولياء ٥٩، نفحات الأنس ٢١٢، طبقات الشعراني ١/ ٩٥، الكواكب الدرية ٢/ ٣٤، شذرات الذهب ٢/ ٢٥٧.

(٢) في (ب): وكان من تلاميذ الكبار. نقل.

(٣) في (ب): فمذ أربعة عشر سنة.

[أقول]: مقصودُهُ أنّه كان يقرأُ قبلُ على الغفلة، والآن يقرأُ على التذكُّر والتدبُّر، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. والله أعلم.

نقل أنّه كان لابنِ عطاء رحمه الله عشرة بنين، كلُّهم أصحابُ حُسنٍ وجمال، وبهجةٍ وكمال، وكانوا معه في سفرٍ، فاستقبلهم جماعةٌ من قطّاع الطريق وغلبوا عليهم، وأخذوا يَذبحون[١] أولاده واحدًا بعد واحدٍ، وهو رحمه الله واقفٌ ينظرُ إليهم مُبتسمًا، فذبحوا التسعة، وأمسكوا العاشر[٢]، فنظر إلى أبيه، وقال: ما أقلَّ شفقتك، ذبحوا تسعةً من أبنائك، وأنت تَنظرُ ضاحكًا! قال: يا ولدي، ويا روحي، وقرّة عيني، ماذا أعمل؟ ليس لي يدٌ مع من يَعملُ بنا هذا الأمرَ؛ فإنه قويٌّ ونحن ضعفاء، وهو عليمٌ بصير، يعلمُ ويرى ويقدرُ على الدفع. فلمّا سمعوا منه هذا الكلام، ظهرت فيهم حالةٌ، وأمسكوا عنه، وقالوا: يا شيخ، لو أسمعتنا هذا قبلُ لمَا كنّا نشتغلُ بقتلهم.

أقول: سبحان من أقرَّهُ على ولائه، وصبَّره على بلائه، وأوزعَهُ شكرَ نعمائه[٣]، فهو الذي يرزق أولياءَهُ من اللذّات الحقيقية الروحانية ما يشغلُهم عن الحظوظِ المجازية الجسمانية، فلا يلتفتون إلى من سواه، ولا يطلبون إلاّ إياه.

همُ الناسُ كلّ الناسِ يا أمَّ خالد[٤]

نسألُ الله تعالى بحرمتهم أن يجعلنا من زمرتهم. والله أعلم.

قال ابن عطاء رحمه الله يومًا مع الجنيد رحمه الله: الغنيُّ أفضلُ من الفقير؛

---

(١) في (أ): وأخذوا ينهبون.

(٢) في (ب): وأمسكوا الواحد العاشر.

(٣) في (أ): وأوزعه شكر آلائه.

(٤) عجز بيت، كأني به رواية أخرى لقول الأشهب بن رُمَيْلة:

إنَّ الأُولى حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم ... هم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

انظر البيان والتبيين ٤/ ٥٥.

فإنَّ الله تعالى يُحاسب الغنيَّ يومَ القيامة بلا واسطةٍ، وذلك لا يكونُ إلاّ محلَّ العتاب، والعتابُ من الحبيب ألذُّ من كلِّ شيءٍ. قال: نعم، ولكن يعتذرُ يومَ القيامة من الفقيرِ، والعذرُ ألذُّ من العتاب. والحقُّ ما قاله الجُنيد، لأنَّ الغنيَّ بعيدٌ من الله، فإنَّ الفقيرَ إذا تواضعَ للغنيِّ لغناه يذهبُ ثلثا دينه[1]، فما ظنُّكَ بالغنيِّ المغرور، على أن الأغنياءَ هم الموتى في الحقيقةِ، وقد ورد: إيَّاكم ومُجالسةَ الموتى[2]. وأيضًا الغنيُّ لا يدخلُ الجنَّةَ إلا بعد المحاسبة، ويقف في المحشر لأجلها خمس مئة سنة[3]، والفقيرُ من أوّلِ الأمر غريقٌ في بحر الاعتذار، فكم بين العتاب والعذر؟!.

نقل أنه قال له بعضُ المتكلّمين: لأيِّ شيءٍ تركَ الصوفيةُ اصطلاحَ العلماء، واصطلحوا على اصطلاحٍ آخر؟ قال: لأن ذلك عزيزٌ عندهم[4]، فلم يُريدوا أن يطّلعَ الأغيارُ المنكرون على مقاصدهم.

وله كلمات عالية وإشارات لطيفة منها ما قال: خيرُ الأعمالِ ما عُملَ، وخيرُ الكلام ما قيل، فلا تعملْ عملاً ما عمله أحدٌ، ولا تقلْ كلامًا ما قاله أحد.

أقول: يُريد ما تقرَّرتْ به السُّنة، ومضت عليه الجماعة من العمل والقول،

---

(١) روى الخطيب في تاريخ بغداد ٤/٣٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٢١٤، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن دخل على غنيٍّ فتضعضعَ له ذهب ثلثا دينه».

وجاء في الفردوس بمأثور الخطاب ٣/٤٦٧، عن أبي ذر قال: لعن الله فقيرًا تواضع لغنيٍّ من أجل ماله، فمن فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه.

(٢) روى أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/٣٥١، عن محمد بن واسع قال: أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مشافنة [مجالسة] النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك، ومجالسة الموتى. قيل: وما مجالسة الموتى؟ قال: مجالسة كل غنيٍّ مترف، وسلطان جائر.

(٣) روى الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام، نصف يوم» والحديث رواه أحمد في المسند ٢/٥١٢، والطبراني في الأوسط ٧/٣١٥ (٧٦٠٥).

(٤) في (أ): عزيز فيما بينهم.

ولا شكَّ أنَّ خلافَ ذلك باطلٌ وهراء، وتَقوُّلٌ وافتراء، خلافُ الشرعِ، هثهثة نقولٍ ودحوضٌ(١)، وهو بطلان. والله أعلم.

وقال: اطلب المرءَ في ميدان العلم، ثم في ميدان الحكمة، ثم في ميدان التوحيد(٢)، فإن لم تجدْه في الميادين فلا تطمئنَّ في دينه، إذ لا دينَ له حينئذ.

أقول: المرادُ بالحكمة العلمُ المقرون بالعمل. والله أعلم..

وقال: لكلِّ علمٍ بيانٌ، ولكلِّ بيانٍ لسانٌ، ولكلِّ لسانٍ عبارةٌ، ولكلِّ عبارةٍ طريقةٌ، ولكلِّ طريقةٍ قومٌ مخصوصون بها، من لا يفرّقُ بين هذه الأحوال كيف يجوزُ له أن يُحدّث الناس؟!.

من زيّنَ نفسَه بآداب السُّنة زيّنَ اللهُ قلبَه بنور المعرفة.

أقوى الغفلاتِ الغفلةُ عن الله، وعن أوامره، والمعاملات معه.

لا تصرفْ أوقاتك الشريفةَ، وأنفاسَكَ النفيسة في هوى نفسك، واصرفْها في أيِّ شيءٍ أعجبَكَ من الموجودات.

و: أصحُّ العقولِ عقلٌ موافقٌ للتوفيق، وشرُّ الطاعات طاعةٌ تفوح منها رائحةُ العُجب، وشرُّ الذُّنوبِ ذنبٌ يستعقبُ التوبةَ.

أقول: مرادُه أنَّ التوبة ينبغي أن تكونَ سابقةً على الذنب، أي المرءُ يكونُ عازمًا جازمًا على طاعة الله تعالى، والاحتراز عن المُخالفة والذنوب، فإنه إذا عزمَ على الذَّنبِ على نيّةِ التوبة، فلعلَّ توبتَهُ لا تُقبل، أو لا يوفّقُهُ الله تعالى للتوبة، ويكون مثلُه كمثل من يشرب السمَّ على قصدِ أن يشربَ الترياق، فيمكنُ أن لا يجدَ الترياق، أو لا يلحقَ شربه، أو لا ينفعه شربُهُ لغاية تأثير السُّمِّ في مزاجه. والله أعلم.

---

(١) في (ب): خلاف شرع رسول الله، هثهثة ونقول.

(٢) في (ب): اطلب المراء في ميدان التوحيد، فإن.

قال: الاطمئنانُ بالأسباب غرورٌ، والوقوفُ على الأحوال انقطاعٌ عن مُحوّل[١] الأحوال.

وقال: الباطن منظرُ الحقّ، والظاهرُ منظرُ الخَلْق، فمنظرُ الحقّ أولى بالتنظيف من منظر الخلق.

و: من كان أولُ دخوله بالهمَّةِ يصلُ إلى مقصوده، ومن كان أولُ دخوله بالتمنّي لا يصلُ إلاّ إلى الدنيا.

و: أيُّ شيءٍ منعَ العبدَ من الآخرة فهو الدنيا.

و: للقلبِ شهوةٌ، وللروحِ شهوةٌ، وللنفس شهوة، فشهوة الروح القربُ، وشهوةُ القلب المشاهدةُ، وشهوة النفس لذَّةُ الراحة.

و: طينةُ النفس سوءُ الأدب، والعبدُ مأمورٌ بمخالفتها، فمن أرخى عنانَها فهو شريكٌ معها في فسادها.

قيل: أيُّ شيءٍ أبغضُ إلى الله؟ قال: رؤيةُ النفس وأحوالها، وطلبُ الثواب على العمل.

وقال: قوتُ المنافق الأكلُ والشرب، وقوتُ المؤمن الذِّكرُ والاجتهاد.

وقال: بين العبدِ والحقّ ثلاثةُ أشياء: الاستعانة، والجهد، والأدب. فالاستعانةُ من العبد، والتقويةُ من الله. والجهدُ من العبد، والتوفيقُ من الله تعالى. والأدبُ من العبد، وإعطاءُ الكرامة من الله.

و: من تأدَّبَ بآداب الصالحين، فله صلاحيةُ بساطِ الكرامة، ومن تأدَّبَ بآداب الصدّيقين فله صلاحيةُ بساط الأنس، ومن حرم من الأدب فقد حُرم جميع الخيرات.

و: التقصيرُ في الأدب في القرب أصعبُ من التقصير في الأدب في البعد،

---

(١) في (أ): انقطاع عن محو الأحوال.

فإنه يُسامح مع العوام بأوقار، ويُعاتِبُ[١] الصدِّيقين بالالتفات.

و: هلاكُ الأولياء بلحظات القلوب، وهلاكُ العارفين بخطراتِ الإشارات، وهلاكُ الموحّدين بإشارات[٢] الحقيقة.

و: الموحِّدون على أربع طبقات: الطبقةُ الأولى ينظرون إلى الوقتِ، والثانيةُ ينظرون إلى العاقبة، والثالثةُ ينظرون إلى الحقائق، والرابعةُ ينظرون إلى الحقِّ.

و: أدنى مراتب المُرسلين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى مراتبِ الشهداء أعلى مراتب الصلحاء، وأدنى مراتب الصلحاءِ أعلى منازل المؤمنين.

الغيرةُ فريضةٌ على أولياء الله تعالى.

وقال: من الأولياء ذوي الغيرة من قتله ثوابٌ، لأنّه بالقتلِ ينجو من آلام نار الغيرة.

و: الهمَّةُ شيءٌ، لا يُبطله شيءٌ ما من العوارض.

و: الهمَّة ما لا يتعلّق بالدنيا[٣].

وقال: العلمُ أربعةٌ: علمُ المعرفة، وعلمُ العبادة، وعلمُ العبودية، وعلم الخدمة.

وقال: حقيقةُ التوحيد نسيانُ التوحيد.

أقول: نظيرُه ما رُوي عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: التوحيدُ أن لا تتوهَّمَه ـ أي: لا تتوهم التوحيد ـ ومعناه ـ التوحيد ـ: هو أن يصيرَ الموحِّدُ العارفُ غريقًا في بحر التوحيد، بحيثُ لا يبقى له ملاحظةٌ لِمَا سوى الله تعالى أصلاً حتى لا يلاحظ التوحيد أيضًا، لأن التوحيدَ معناه اعتقادُ الوحدانية. والاعتقادُ صفةٌ من صفات الموحّد، لا بدّ من اضمحلال الموحّد مع جميع

(١) في (ب): بأوقار، وقال: ويعاتب.

(٢) في (أ): بإشارة الحقيقة.

(٣) في (ب): ما يتعلّق بالرجاء.

صفاته عند انكشاف سلطان الوحدانية، فحينئذٍ لا يبقى إلاّ هو، فظهر أن التوحيدَ هو نسيانُ التوحيد أيضًا، وذلك لا يكون إلا بعد نسيان جميع الأشياء، فيكون مبالغةً في نفي الغير في مقام التوحيد، وبهذا ظهرَ معنى قول عليٍّ رضي الله عنه أيضًا، تأمَّلْ تعرف، فإنه دقيق وأنت بمعرفته حقيق. والله أعلم.

وقال: المحبّةُ على الدوام عتابٌ، والمحبُّ إذا ادّعى خرج عن المحبة.

وقال: التوبةُ المقبولةُ ما تكونُ مقرونةً بالعمل.

وقال: العقلُ آلةٌ للعبودية، لا للاشتراف على الربوبية.

و: التوكّلُ حسنُ الالتجاءِ إلى الله تعالى، وصدقُ الافتقار إليه.

و: التوكّلُ أن لا ترجعَ إلى السبب إلاّ عند شدّة الفاقة، ولا تخرج عن حقيقة السكون إلاّ عند غاية الاضطرار[1].

وقال: للمعرفة ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والإيمان.

و: الرضا هو النظرُ إلى الاختيار القديم فيما اختار الله للعبد في الأزل.

للتقوى ظاهرٌ وباطن، ظاهرُهُ حفظُ الحدود، وباطنُهُ النيّةُ والإخلاص.

سئل ابن عطاء رحمه الله عن ابتداء هذا الأمر وانتهائه، فقال: ابتداؤه المعرفة، وانتهاؤه التوحيد.

وقيل: أيُّ الطاعات أفضل؟ قال: دوام المراقبة.

سئل عن الشّوق، قال: احتراقُ القلب، وتقطُّعُ الكبد، والتهابُ النار فيه.

قيل له: الشوقُ أعلى أم المحبة؟ قال: المحبّةُ، لأنَّ الشوقَ لا ينشأُ إلاّ من المحبة.

قال: حين اشتهر في الأكوان، وعصى آدم، بكى عليه جميعُ الأشياء إلاّ الذهبَ والفضة، فأوحى الله تعالى إليهما: لِمَ لَمْ تبكيا على آدم؟ قالا: نحن لا نبكي على شخصٍ عصى ربّه. فقال الله تعالى: بعزّتي وجلالي، أجعلكما

---

(١) في (ب): التوكل أن لا ترجع إلى السبب إلا عند الاضطرار.

قيمة الأشياء، وثمنًا لها حتى لا يكونَ لشيءٍ قيمةٌ ولا ثمنٌ إلاّ بأحدِكما، وأجعلُ بني آدم خدّامًا لكما.

قال له شخص: نيتي أن أختارَ خلوةً. قال ابنُ العطاء: فحينئذ بمن تتّصلُ؟ فقال الشخص: فكيف أصنع؟ قال ابن عطاء: كن في الظاهر مع الخلقِ، وبالباطن مع الحقّ، وهذا هو حقيقة العزلة والخلوة.

نقل أنه سُئل يومًا من بعض أصحابه: إنَّ العبدَ بماذا يرتفع؟ قال بعضُهم: بالمجاهدة. وقال بعضُهم: بالمحاسبة مع النفس. وقال بعضهم: ببذل المال. قال ابن عطاء: ما ارتفعَ أحدٌ إلاّ بحسن الخلق.

نقل أن ابنَ عطاء رحمه الله نُسب إلى الزّندقة، فطلبَهُ عليُّ بنُ عيسى[١]، وكان وزيرَ الخليفة، وناظَرَ معه[٢]، وطالَ بينهما الكلام، وقال ابن عطاء كلامًا خشنًا في وجه الوزير، فغضب الوزير، وأمر أن: شلّحوا الخفَّ من رجليه، وضربوا به على رأسِهِ ووجهه حتى مات رحمه الله، وحشره مع الأبرار، وهو في أثناء الضرب قد دعا على الوزير، وقال: قطعَ الله يديك ورجليك. ثم بعد وفاة ابنِ عطاء غضبَ الخليفةُ على الوزير، وأمرَ بقطع يديه ورجليه، واعترضَ بعضُ المشايخ عليه، بأنه كيفَ دعا على الوزيرِ، والحالُ أنّه وصلَ إلى المقصود بفعله، فما كان الوزيرُ مُستحقًّا للدعاء عليه، بل للدعاء له بالخير، واعتذرَ عنه بعضُهم بأن الوزير لعلّه كان ظالمًا، فدعا عليه الشيخُ لأجل مصلحةِ المسلمين، لا لحظِّ نفسه.

---

(١) هو علي بن عيسى بن داود ابن الجراح (٢٤٤ـ ٣٣٤) وزير المقتدر العباسي والقاهر، أحد العلماء الرؤساء، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٨: الإمام المحدث الصادق الوزير العادل، كان عديم النظير في فنه، كان غنيًّا شاكرًا، ينطوي على دين متين وعلم وفضل، وكان صبورًا على المحن، كثير الصدقات والصلوات. عُزل أكثر من مّرة وقبض عليه، ونفي إلى مكة، ومنها إلى صنعاء، كانت حياته ملؤها الاضطراب.

(٢) أي فناظره.

وقال آخر: قد علم الشيخ بإلهامٍ أنَّ أمره يَؤولُ إلى هذا، فدعا عليه موافقةً للقدر. أي لتقدير الله وقضائه[١].

وقال آخر: لم يكنِ الدعاءُ مضرَّةً للوزير؛ بل حصلَ له بذلك منفعةٌ حيث وصلَ إلى درجة الشهداء، واحتمل الحقارة والهوان في الدنيا، مع الألمِ الشديد، فإنَّ عقوبَة الدُّنيا وإن كانت كثيرةً يسيرةٌ في جنب عقوبةِ الآخرة.

تمّتْ أخبارُ ابن عطاء رحمه الله، فنسألُ اللهَ الكريمَ الوهاب أن يحفظَ ديننا وإيماننا وإسلامنا عن غضبه وسخطه، وعن شرِّ الشيطان ومكره، وأن يحشرنا مع الأبرار الذين أنعم الله عليهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين، وأن يُصلّي على محمَّدٍ وآله أجمعين.

* * *



(١) هذا القول ليس في (ب).

(٥١) سمنون المحب[١]

ذكر الشيخ سمنون المحُبِّ رحمه الله:

كان رحمه الله وحيدًا في شأنه، فريدًا في أوانه، مقبولاً لأهل زمانه، وله إشاراتٌ غريبة، ورموزٌ عجيبة، وهو في المحبّةِ آيةٌ، والأكابر أقرُّوا بكماله، واعترفوا بفضائله.

وقد سُمّي رحمه الله لقوّةِ محبّته لله سمنون المحب.

وكان من أقران الجُنيد.

توفي في سنة سبعين ومئتين.

وله في المحبة مذهبٌ خاصٌّ، حتى قدّمَ المحبّةَ على المعرفة، وسائرُ المشايخ قالوا على العكس.

وقال سمنون: أصلُ الطريق إلى الله تعالى والقاعدة فيه إنّما هو المحبّة، وغيرُ المحبّةِ بالنسبة إليها هباءٌ منثور.

نقل أن سمنونًا لمّا أراد الحجَّ، وصل إلى الفَيْد[٢]، طلب منه أهل الفَيد أن

---

(١) هو أبو الحسين سمنون بن حمزة الخواص، وترجمته في:
طبقات الصوفية ١٩٥، حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٩، تاريخ بغداد ٩/ ٢٣٤، الرسالة القشيرية ٨٠، مناقب الأبرار ٤٣٧، المنتظم ٦/ ١٠٨، صفة الصفوة ٢/ ٤٢٦، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٤، روض الرياحين ١٧٥ (حكاية ٩٦) و٣٢١ (حكاية ٢٧١)، البداية والنهاية ١١/ ١١٥، طبقات الأولياء ١٦٥، نفحات الأنس ١٥١، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٩، الكواكب الدرية ١/ ٦٣٠.

(٢) فَيْد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة، عامرة، يودعُ الحاجُّ فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم، ووهبوا لمن أودعوها شيئًا من ذلك. معجم البلدان.

يعظَهم، فصعد المنبر، وشرع في الكلام، ولم يَجدْهم مُستمعين، فنظر إلى قناديل المسجدِ وخاطبها، وقال: أقولُ لكم. فاضطربتِ القناديلُ، وتحرَّكَتْ، ووقعَ بعضُها على بعضٍ، وانكسرت.

نقل أنه رحمه الله كان يَعظُ يومًا، ويتكلّمُ في المحبّة، إذ جاء طيرٌ، ووقعَ على رأسه، ثم نزلَ على يده، ثم جلس على حجره، ثم نقر بمنقاره على الأرض، إلى أن جرى منه الدم، وخرَّ ميتًا.

نقل أن سمنونًا رحمه الله تزوَّجَ في آخر عمره مُتابعةً للسُّنة، ووِلِدَتْ له بنتٌ، وبلغتْ إلى ثلاث سنين، ومال إليها قلبُه يومًا، فرأى القيامةَ تلك الليلة في المنام، ورأى أعلامًا منسوبةً لكلِّ[1] قوم، ثم رأى عَلَمًا نُصب، ونورُهُ يُضيءُ العرصات، قال سمنون: لمن هذا العلم؟ قالوا: للذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤] فأدخل سمنون نفسَه في المحبّين تحت العلم، فجاء مَلَكٌ ومنعه، وأخرجه عنهم، فاستغاث سمنون وبكى، وقال: لِمَ تُخرجني من هذا القوم؟ قال: لأنَّ هذا علم المُحبّين، وأنت لستَ منهم. قال سمنون: كيف لا، ويُسمّوني سمنون المحب، واللهُ تعالى مُطّلعٌ على ضميري. فسمع هاتفًا يقول: يا سمنون، كُنتَ من المحبّين، لكن مذ مالَ قلبُك إلى الصبية محونا اسمَكَ من جريدةِ المُحبّين. فسمنون في النوم بكى ودعا، وقال: إلهي، إن كانتِ الصبيةُ قاطعةً للطريق بيني وبينك، فارفعْها بلطفك من اليمين، وخذها منّي[2]. وانتبه من النوم، فسمع صِياحًا وعويلاً، فسأل عنها، قالوا: وقعتِ البنتُ من طرفِ السطح، وماتت.

نقل أنه قال في مناجاته نوبةً: إلهي، كلّما امتحنتني وابتليتني تجدني ثابتًا مسلمًا، لا أتنفَّسُ على غير رضاك. فابتلاه الله تعالى في الحال بوجعٍ أليمٍ كادَ نَفَسُه أن ينقطعَ، وهو يتنفَّسُ، واصطبر، فلمّا أصبحَ قال له الجيران: ما أصابك البارحة يا شيخ، فإنّا لم نسترحْ من صياحك يا شيخ إلى الصباح؟ والحال أنّه

---

(١) في (أ): منصوبة لكل قوم.

(٢) في (أ): بلطفك من البين، وخذ منّي.

كان ساكنًا، غيرَ صائحٍ، ولا يتنفَّس؛ لكنَّ الله تعالى جلَّ ثناؤه أوصلَ صياحَه إلى أسماع الجيران، ليَعلمَ أنَّ السكوتَ هو السكوتُ الباطني لا الظاهري؛ فإنه لو كانَ ساكنًا في الباطن كما كانَ في الظاهر لَمَا سمعَ جيرانُه صوتَه، فامتحنه الله تعالى بذلك، لئلا يدّعي بما لا يطيق.

نقل أنه أنشدَ هذا البيت.

وليس لي في سِواك حظٌّ فكيفما شئتَ فاختبرني

فاحتبس بوله، وهو يدورُ في الكتّابات على الصبيان، ويقول لهم: ادعوا الله تعالى على زعم هذا المدّعي الكذّاب، لعلَّ الله تعالى يشفيني.

قال أبو محمد المغازلي: كنتُ أنا وسمنون في بغداد، فتصدّقَ شخصٌ أربعين ألف درهم على الفقراء، ولم يصلْ إلينا في ذلك درهمٌ، فقال سمنون: تعالَ نذهبْ إلى موضعٍ خالٍ، ونصلِّ بعددِ كلِّ درهمٍ تصدَّقَ به الرجلُ ركعةً. فذهبنا إلى مدائن[1]، فصلّينا أربعين ألف ركعة.

قيل: إنَّ شخصًا من غلمان الخليفة أشهرَ نفسه بالتصوّف، وباع دينَه بدنياه، وحصلَ له قبولٌ عند الخليفة، وكانَ يقول في حقِّ أهل التصوف عنده، حتى ظهر سمنون، وترقّى شأنُهُ، واشتهرَ أمره، وانتشرَ صيته، فأوصلَ إليه الغلامُ المتصوّفُ أذًى كثيرًا، ويطلبُ فرصةً ليفضحه إلى أن كانت امرأةٌ منعّمةٌ تعرضُ نفسها إلى سمنون ليتزوّج بها، وهو يمتنع عنها، ولم يقبلْها، فذهبَتْ إلى الجُنيد تستشفعُ به إلى سمنون، فنهرها الجُنيد، ثم ذهبتِ المرأةُ إلى الغلام، ورمت سمنون ببهتانٍ، ففرحَ الغلامُ بذلك، وسعى في حقِّه إلى الخليفة حتى تغيَّرَ الخليفةُ عليه، وطلبَ السيّافَ، وسمنونًا، وأرادَ أن يأمرَ بقتله، فلمّا حضرَ سمنون، كلّما أرادَ الخليفةُ أن يتكلَّمَ، فما أطاقَ أن يتكلّمَ بشيءٍ، ورأى الليلةَ في المنام قائلاً يقول له: زوال مُلكك مُتَّصلٌ بزوال سمنون. فلمّا أصبحَ أكرمَ سمنونًا، وعزَّزه وردّه إلى مكانه، وازدادتْ عداوةُ الغلامِ معه إلى أن ابتلاه الله

---

(١) في (أ): فذهبنا إلى مدين.

تعالى في آخر عُمرِهِ بالجُذام، وشخصٌ آخرُ من المشايخ سمع بأن الغلام قد ابتُلي بالجذام، فقال: دعا عليه شخصٌ من أهل التصوف، فابتلي به، لكن قد أساء من دعا عليه وما أحسن، فإنه كان منازعًا مع أهل التصوف، وهم بسببه يحتاطون في أُمورهم، فأرجو من الله تعالى أن يشفيه. فرزقَهُ اللهُ تعالى الشفاءَ ببركة دعاء هذا الشيخ، فلمّا عرف الغلام بالحالِ بعد أن طاب جمعَ جميع أمواله، وبعثها إلى المتصوّفة تصدقًا عليهم، واعتقدَ فيهم اعتقادًا عظيمًا، ولم يقبل أحدٌ شيئًا من ماله، وتابَ الغلامُ، وحَسُنَ حاله.

قال بعض المشايخ: فهذا حال المُنكرِ العدوِّ لأهل الصلاح، فإنّه بسببهم رجعَ إلى الحقِّ في آخر الأمر، وتابَ توبةً نصوحًا، وطابَ من الجُذام، فما ظنُّكَ بصديقهم الذي يُحبُّهم، ويعتقدُ فيهم، ولذا قالوا: يصدقُ عليهم قولُ النبيِّ ﷺ: «هم القومُ لا يشقى بهم جليسهم»[1].

سُئل سمنون عن المحبة، فقال: صفاءُ الولاء، مع ذكرٍ دائم، قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال: من أحبَّ الله تعالى وجدَ شرف الدنيا والآخرة، قال النبيُّ ﷺ: «المرء مع من أحب»[2] فهم في الدنيا والآخرة مع الله تعالى.

وقال: وزنُ المحبةِ بالبلاء؛ لئلا يدّعي كلُّ خسيسٍ بها، فإن من يرى البلاءَ يهرب.

قال: التصوفُ أن لا يكونَ الصوفيُّ مالكًا لشيء، ولا أَحدٌ سوى الله تعالى مالكًا له.

رزقنا اللهُ تعالى الفقرَ إليه، والتصوّفَ، ونفعنا ببركة أوليائه.

* * *

(١) حديث رواه البخاري (٦٤٠٨) في الدعوات، باب فضل ذكر الله عزّ وجل، ومسلم (٢٦٨٩) في الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، والترمذي (٣٥٩٥) في الدعوات، باب رقم (١٤٠) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦١٦٨) في الأدب، باب: علامة الحب في الله، ومسلم (٢٦٤٠) في البر والصلة، باب المرء مع من أحب، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذي (٢٣٨٥).

(٥٢) المُرْتَعش(١)

ذكر الشيخ أبي محمد المرتعش قدّس الله سرّه:

كان رحمه الله من أكابر المشايخ، ذا اعتبارٍ بين القوم، مقبولاً عند الأكابر، سافر كثيرًا على التجريد، وكان من خيرة نيسابور.

قد رأى أبا حفص الحداد، وصحب جنيدًا، وأبا عثمان.

وتوفّي في بغداد رحمه الله تعالى في سنة ثمان وثلاث مئة.

نقل أنه قال: حججتُ ثلاث عشرة حجة(٢) على التوكّل، وحين تفكّرتُ فيها وجدتُها كانت على هوى النفس. قيل: وبمَ عرفتَ ذلك؟ قال: لأنَّ أُمّي قالت: هاتِ إليَّ جرّةَ الماء، فثقلَ عليَّ، عرفتُ أنَّ الحجّات كلَّها كانت على الهوى والشهوة.

قال فقير: كنتُ ببغداد، وفي خاطري أن أحجَّ، فخطرَ ببالي أنَّ المُرتعشَ يجيءُ إليَّ بخمسة عشر درهمًا لأشتري ركوةً، ورسنًا، ونعلين، وأدخل البادية. في الحال دقَّ شخصٌ عليَّ الباب، فتحتُ الباب، فإذا هو المُرتعشُ، وبيده ركوةٌ، فقال: خذها. قلت: ما آخذها. قال: خذ ولا تُتعبني، كم درهمًا

(١) هو عبد الله بن محمد المرتعش النيسابوري، وترجمته في:
طبقات الصوفية ٣٤٩، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٥، تاريخ بغداد ٧/ ٢٢١، الرسالة القشيرية ٩٨، الأنساب ١١/ ٢٣٧، مناقب الأبرار ٦٦٩، المنتظم ٦/ ٣٠١، صفة الصفوة ٢/ ٤٦٢، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٩٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٠، العبر ٢/ ٢١٥، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٥، طبقات الأولياء ١٤١، البداية والنهاية ١١/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩، نفحات الأنس ٣٠٣، طبقات الشعراني ١/ ١٠٥، الكواكب الدرية ٢/ ١٠٩، شذرات الذهب ٢/ ٣١٧.

(٢) في (ب): حججت ثلاثة عشر حجًا.

طلبت؟ قلتُ: خمسة عشر درهمًا. قال: خذ. وبيده خمسة عشر درهمًا، فأخذها الفقير.

ونقل عن المرتعش أنّه كان يدور في بعض محلاّت بغداد في شغلٍ له، فغلبَه العطشُ، وطلبَ الماءَ من بيتٍ، فخرجت بنتٌ جميلة بكوزٍ فيه ماءٌ بارد، فلمّا رآها الشيخ عشقَها، وقعد على الباب إلى أن جاءَ صاحبُ البيت، فقال الشيخ: يا فلان، بع القلب شربة ماءٍ ثقيل، والحالُ أن من بيتك[1] سقوني شربةَ ماءٍ واصطادوا قلبي. قال الرجل: تلك ابنتي، أُزوّجُك بها، فأدخلَ الشيخَ البيت، وعقدَ له نكاحَ البنت، وأرسله إلى الحمام، وألبسَهُ ثيابًا نفيسةً نظيفة، وخلع عنه الخرقة، ولمّا أمسوا وسلّموا له البنتَ، فقامَ المُرتعشُ، واشتغلَ بالصلاة، فبينما هو يُصلّي إذ شهقَ شهقةً، وصاحَ صيحةً، وقال: هاتوا إليَّ مرقّعي. قالوا: وما جرى؟ قال: نُودي في سرّي: خلعنا عن ظاهرك[2] الخرقةَ بنظرةٍ نظرتَ إلى أجنبيةٍ، فإنْ نظرْتَ نظرةً أُخرى نخلعُ عن باطنك خلعةَ المعرفة. فأخذ مرقعتَهُ ولبسها، وطلّقَ المرأة، وخرجَ من البيت، وذهب.

ونقل أنّه قيل: إنّ فلانًا يذهبُ على الماء. فقال: من وفّقَهُ الله تعالى لمخالفةِ هواه، فإن أرادَ طارَ في الهواء، وإن أرادَ ذهبَ على الماء.

ومن كلامه أنه قال: من اعتقدَ أنّه بعملِهِ يدخلُ الجنّة وينجو عن النار، فقد أوقعَ نفسَه في خطرٍ عظيمٍ، ومن اعتمدَ على فضلِ الله بعد العمل الصالح والاجتهاد، فالله تعالى يُوصلُه إلى الجنة بفضله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قيل له: بما يحصلُ للعبدِ محبّةُ الله تعالى؟ قال: بمعاداة ما اتّخذه الله عدوًّا، وهو الدنيا والنفس.

---

(١) في (أ): وقعد على الباب، فخرج صاحب البيت، فقال المرتعش: قد وقع عليّ الحال بشربة ماء، والحال أن في بيتك.

(٢) في (أ): عن ظهرك.

وقال: أصلُ التوحيدِ معرفةُ الله تعالى بالرُّبوبية، ونفي الأضداد كلِّها.

وقال: لا تصحُّ المعاملة إلاّ بشيئين: الصبر والإخلاص.

وقال: المخلصُ إذا سلّم قلبَه لله فذلك سلوةٌ، وإن سلّم لغيرِ الله تعالى فذاك بلاءٌ.

وقال: التصوف حسنُ الخلق.

أقول: وذلك لأنَّ الخُلق كما قيل مَلَكَةٌ للنفس، أي صفةٌ راسخةٌ ثابتة، تصدر عنها الأفعال بسبب تلك الملكة بسهولة، فإذا وصلَ العبدُ إلى مقامٍ تصدرُ عنه أفعالُ الخير، وأعمالُ البرِّ بسهولةٍ بلا مشقَّةٍ، فلا جرمَ أنّه يكون صوفيًا عابدًا لله تعالى بالطوعِ والاختيار. والله أعلم.

وقال: التصوفُ حالةٌ تُغيِّبُ صاحبَها عن كلِّ قيلٍ وقال، وتذهبُ به إلى الله المتعال ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥] حتى يرى الله باقيًا، ويرى نفسَه فانيةً.

نقل أنّ بعضَ أصحابه طلبَ منه وصيةً، قال: عليكم بملازمةِ شخصٍ يكون لكم خيرًا منّي، واتركوني واذهبوا إلى من هو خيرٌ لي منكم.

رزقنا الله تعالى المُلازمةَ للتقوى، والمواظبةَ على الهدى، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(٥٣) خير النساج(١)

ذكر الشيخ خير النسّاج عليه الرحمة والرضوان:

كان رحمه الله شيخًا لكثيرٍ من المشايخ ببغداد، وله في الوعظ بيانٌ شاف، وعبارةٌ مهذَّبة، وكان صاحبَ معاملةٍ وورعٍ، وخُلقٍ وحلمٍ، ومُجاهدةٍ كاملة.

وكان تلميذًا للسريّ السَّقطي، وتاب الشِّبليُّ، وإبراهيمُ الخوّاصُ في مجلسه، لكنه بعثَ الشِّبليَّ إلى الجُنيد حُرمةً للجنيد، والجُنيد كان يُعزّزه ويُوقّره.

مات رحمه الله في سنة خمس وثلاث مئة(٢).

وسببُ تسميته بالخيرِ النسّاج أنه حين وصلَ إلى بابٍ من أبواب الكوفة، وعليه مرقعةٌ مقطّعةٌ، وكان رحمه الله أسمر اللون، استقبله شخصٌ، وظنّ أنه مَملوكٌ آبقٌ من السيد، فقال في نفسه: أستعملُهُ أيّامًا، فإن ظهرَ صاحبُه وإلاّ يبقى لي مملوكًا، فقال له: أنت مملوك؟ قال: نعم. قال: آبق من سيِّده؟ قال: نعم. قال: تعال معي أذهبك إلى بيتي، وأربّيكَ إلى أن يجيءَ صاحبُك. قال: نعم. قال الشخص: اسمك خير؟ قال: نعم، ولم يُكذّبه من حُسن عقيدته، ولم يُخالفْه، ووافقه، وذهب معه إلى بيته، واشتغل بخدمته، والرجلُ كان نسّاجًا،

---

(١) طبقات الصوفية ٣٢٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٧، تاريخ بغداد ٨/ ٤٨، و٨/ ٣٤٥، الرسالة القشيرية ٩٥، مناقب الأبرار ٦٢٠، صفة الصفوة ٢/ ٤٥١، المنتظم ٦/ ٢٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٥٩، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٣، مرآة الجنان ٢/ ٢٨٥، الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٤٤، البداية والنهاية ١١/ ١٨١، طبقات الأولياء ١٩٦، نفحات الأنس ٢٠٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٢، الكواكب الدرية ١/ ٥٩٥، شذرات الذهب ٢/ ٢٩٤.

(٢) في (ب): سنة خمس وثلاث مئة سنة.

فعلّمَهُ صنعته، ومن يقول له: خير، كان يقول: لبيك، إلى أن رأى صدقَه وديانتَهُ، وأدبه وطاعَتَهُ وفِراسته، واطّلعَ على بعضِ مُجاهداته وطاعاته وعباداته، فندمَ من فعله، وعلمَ أنّه غالطٌ فيه، وقال: يا خير، علمتُ أنّك حرٌّ، ما أنت مملوكًا لي ولا لغيري، فاذهبْ إلى ما تُريد. فذهب إلى مكّة، وترقّى إلى أن قال الجُنيد رحمه الله: خَيرُنا خَيرُنا.

وكان يُحبُّ أن يُسمّى خيرًا، قال: لا أُحبُّ أن أُغيّرَ اسمًا سمّاني به مسلم.

نقل أنه رحمه الله كانَ ينسجُ ويمشي في بعض الأوقاتِ إلى جنب دجلةَ، واتّفقَ أن جاءت عجوزةٌ إليه بشيءٍ من الغزل لينسجَهُ لها كِرباسًا[1]، وقالت: أجيءُ بالأجرة، فإن لم تكن حاضرًا إلى من أُسلّمُ الدراهم؟ قال خير رحمه الله: إذا لم أكن حاضرًا، ارميها في دجلة. فجاءتِ العجوزة بالدراهم، ولم يكن خيرٌ حاضرًا، فذهبت إلى دجلةَ فرمتها فيها، ثم ذهبَ خيرٌ إلى دجلة، طلعت سمكةٌ، وجاءت بالدّراهم، ووضعتها بين يدي الشيخ.

قال الراوي: لمّا سمعَ المشايخُ هذه الواقعةَ ما استحسنوها، وقالوا: قد أوقفوا خيرًا باللعب، فإن مثل هذا ليس مما يغترُّ به وليٌّ من الأولياء.

قال بعضُهم مُعتذرًا من جهة خير: إنّا لا نعلمُ اغترارَ خيرٍ بهذا، كما أنّ سُليمان عليه السلام دعا الله تعالى وقال: ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾ [ص: ٣٥] مع أنه عليه السلام لم يكن مَغرورًا بما أعطاه الله تعالى من الملك والحشمة والسلطنة.

نقل أنه قال: كنتُ في البيتِ إذ خطرَ ببالي أنّ جُنيدًا رحمه الله هو على الباب، فنفيتُ الخاطرَ إلى ثلاث مرات، ثم خرجتُ، فالتقيتُ بالجُنيد واقفًا على الباب، وقال لي: لِمَ ما خرجتَ بالخاطر الأول؟.

قال: دخلتُ مسجدًا، ورأيت فيه فقيرًا، فتعلّق بي، وقال: يا شيخ، ترحَّمْ عليَّ، فإنّي قد وقعتُ في محنةٍ عظيمة. قلت: وما هي؟ قال: أخذوا البلاءَ

(١) الكِرباس: ثوب من القطن الأبيض. فارسيٌّ معرب. معجم متن اللغة.

منّي، وعاقبوني بالعافية. والحالُ أنّه رُزق دينارًا، قال: أخافُ بسببه سوطًا من سياطِ الله جلّ جلاله.

قال خير رحمه الله: العمل إذا بلغ النهاية، فعلامتُهُ رؤيةُ العجز والتقصير.

نقل أنه رحمه الله عاشَ مئةً وعشرين سنة، وجاء إليه مَلَكُ الموتِ قُبيل صلاة المغرب، وكان مريضًا، فرفع رأسَهُ وقال: عافاك الله يا ملكَ الموت، لا تستعجلْ، وتوقفْ قليلاً؛ فإنّي أعلمُ أنك عبدٌ مأمورٌ بقبضِ روحي، وإنّي عبدٌ مأمورٌ بإقامة هذه الصلاة، ولا يفوتُ شيءٌ أُمرتَ به، ولكن يفوتُ ما أنا أُمرتُ به، فأمهلني لحظةً. ثم قام وتوضّأ وصلّى صلاة المغرب، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

ورئي في المنام في تلك الليلة، وقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: لا تسألوني عن هذا؛ ولكنّي قد خلصتُ من دنياكم.

رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنَهُ بحبوحة فراديسه، ونبَّهنا بكرمه من نومة الغافلين، وأشركنا بلطفه في دعاءِ الصالحين، ولا تجعلْنا من الأشرين البطرين، وصلّى الله على خيرِ المُرسلين، وشفيعِ المُذنبين، وعلى آله الطيبين، وعترته الطاهرين، ويحشرنا في زمرتهم أجمعين[١].

* * *

(١) قوله: (ويحشرنا في زمرتهم أجمعين) ليس في (أ).

(٥٤) أبو بكر الكتاني[١]

ذكر الشيخ أبي بكر الكتّاني نوّر الله قبره:

كان رحمه الله شيخًا في مكّة شرّفها الله، ومُرشدًا في زمانه، وفي التّقوى والورع والزُّهد والمعرفة وحيدًا في عصره، وهو من كبار المشايخ في الحجاز.

وله تصانيفُ في علم الصوفية، وكان ذا تمكينٍ، وفي الولاية صاحبَ مقاماتٍ عالية وفراسة وعاملاً ومجاهدًا، مُرتاضًا كاملاً في أنواع العلوم، ولا سيّما في علم الحقائق والمعارف.

وصحب الجُنيد، وأبا سعيد الخرّاز، وأدرك النُّوري.

وكان يُقال له: سراجُ الحرم.

وجاور مكّةَ عظّمها الله تعالى إلى أن ماتَ في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة.

وكان رحمه الله يُصلّي من أول الليل إلى آخره.

وقد ختم القرآن في الطواف اثنتي عشرة ألف ختمة.

وجلس في الحرم الشريف ثلاثين سنة تحت الميزاب، وكان يتوضّأُ في هذه المدة كلَّ يومٍ مرّةً، وما نام في مدة ثلاثين سنة.

---

(١) هو محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٣٧٣، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧، تاريخ بغداد ٤/ ١٢٧، الرسالة القشيرية ١٠١، الأنساب ١٠/ ٣٥٤، مناقب الأبرار ٧١٣، صفة الصفوة ٢/ ٤٥٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٥٤/ ٢٥١، مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٧١، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٣، العبر ٢/ ١٩٤، الوافي بالوفيات ٤/ ١١١، مرآة الجنان ٢/ ٢٨٦، طبقات الأولياء ١٤٤، العقد الثمين ٢/ ١٤٩، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩٦، نفحات الأنس ٢٦٣، الكواكب الدرية ٢/ ١٤٥، ٤/ ٩٧، جامع كرامات الأولياء ١/ ١٠٤.

وقال: استأذنتُ من أمي، وتوجَّهتُ إلى مكّة، فلمّا دخلتُ البادية حصلَ لي موجبُ الغسل، قلت في نفسي: لعلّني ما خرجتُ بالشرائط، فرجعتُ، ولمّا وصلتُ إلى باب البيتِ، ألفيت أمي جالسةً خلف الباب، قلت: يا أماه، ما سافرتُ بإذنك؟! قالت: نعم، ولكنّي ما أشتهي أرى البيت إلاّ بوجودك، مذ رحلتَ أنا ما فارقتُ هذا المكان، وكان نيّتي أن لا أقومَ منه إلى أن ترجع إليّ. فصبرتُ إلي وفاةِ أمي، ثم دخلتُ البادية، فرأيتُ فيها فقيرًا ميتًا يضحك، قلتُ: أنت ميتٌ وتضحك؟! قال: هكذا يكون المُحبُّ.

قال أبو الحسن المُزيّن رحمه الله: دخلت الباديةَ بلا زادٍ وراحلةٍ، ووصلتُ بعد زمانٍ إلى جُومَة ماء، فجلستُ هناك، وقلت في نفسي: قطعتُ الباديةَ بلا ماءٍ وراحلة! فصاحَ عليَّ إنسانٌ، وقال: يا حجّام، لا تُحدّثْ نفسك بالأباطيل. نظرت إليه، فإذا هو أبو بكر الكتّاني رحمه الله، فتبتُ عن هذا الفكر، ورجعتُ إلى الله تعالى.

روي عن الكتاني أنه قال: كان في قلبي شيءٌ من الغبار من جهةِ أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه بسبب أنَّه كيفَ وقعَ بينه وبين معاوية جدالٌ ونزاع، حتى أُريقَتْ دماءٌ كثيرة من الجانبين، فالأَوْلى بشأن عليٍّ رضي الله عنه أن يُفوِّضَ الأمرَ إلى معاوية، وإن كان هو على الحقِّ ومعاوية على الباطل، وذلك أن النبيَّ ﷺ قد قال في حقِّه: «لا فتى إلاّ علي ولا سيف إلا ذو الفقار[1]» وكان

(١) روى ابن عدي في كتابه الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٩٩ (ترجمة عيسى بن مهران) أن راية رسول الله ﷺ يوم أحد كانت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وراية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة، فكان عليٌّ كرم الله وجهه يحمل على كل من رفع رايةً للمشركين فيقتله حتى قتل سبعة أنفس، وقتل جماعة من أئمة الكفر، فنادى صائحًا من السماء:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

وذو الفقار سيف رسول الله ﷺ أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة، قيل: فيه سبع فِقَر. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٢٤ عن عيسى بن مهران: قال ابن عدي: حدّث بأحاديث موضوعة، محترق الرفض. وقال أبو حاتم: كذاب، وقال الدارقطني: رجل=

مقتضى الفتوّةِ البذلَ والإيثار. قال: كنتُ نائمًا بين المروة والصفا في بيتٍ لي هناك، رأيتُ النبيَّ ﷺ ليلاً في المنام، ومعه جماعةٌ، من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين، فاعتنقني رسولُ الله ﷺ، ثم أشار إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: من هذا؟ قلت: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم إلى عمر[١]، ثم إلى عثمان رضوان الله عليهم أجمعين، ثم أشار إلى عليٍّ رضي الله عنه، وقال: من هذا؟ فأطرقتُ رأسي حياءً منه، ثم آخى النبيُّ ﷺ بيني وبين عليٍّ رضي الله عنه، فتعانقنا، وأمسك عليٌّ رضي الله عنه بيدي، وأمسكتُ بيده، ثم غاب النبيُّ ﷺ، والأصحاب، وبقيتُ أنا وعليٌّ رضي الله عنه، فقال رضي الله عنه: نطلعُ جبلَ أبي قبيس[٢]. فتماشينا، وطلعنا الجبلَ، ونظرنا منه إلى البيت المعظّم شرّفه الله تعالى، ثم انتبهتُ، فإذا أنا على أبي قُبيس، وما بقي من الغبارِ أثرٌ في قلبي.

قال الكتّاني رحمه الله: كان لي صاحبٌ، ولي منه ثقلٌ، فأعطيتُهُ شيئًا، فما زالَ ذلك الثقلُ، فذهبت به إلى البيت، ووضعت خدّي على الأرض، وأمرتُهُ أن يدوسَ وجهي، فلم يقبلْ حتى بالغتُ وألْححْتُ، فوضعَ رجلَهُ على وجهي، ووقف زمانًا حتى زالَ الثقلُ من قلبي، وحصل بدله المحبّةُ، ثم رزقني اللهُ تعالى مئتي درهم، فذهبت إليه، ووضعت الدراهم على طرف سجادته، والتمستُ

= سوء. قال الخطيب البغدادي: كان من شياطين الرافضة ومردتهم، وقع إليّ كتاب من تصنيفه في الطعن على الصحابة وتكفيرهم، فلقد قفّ شعري، وعظم تعجبي مما فيه من الموضوعات والبلايا.

قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٥٠٦: قال في المقاصد: هو أثر واهٍ عن الحسن بن عرفة في جزئه الشهير عن محمد بن علي الباقر.

وفي السيرة النبوية ٣/ ١٠٠: عن بعض أهل العلم، أن ابن أبي نجيح قال: نادى منادٍ يوم أُحد:

لا سيف إلا ذو الفقار ... ولا فتى إلا علي

(١) في (أ): ثم أشار إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم إلى عمر الفاروق، ثم إلى عثمان.

(٢) جبل أبي قبيس: انظر صفحة ١٢٧.

منه أن يقبل، فنظر إليَّ شزرًا، وقال: إنّي اشتريت هذا الحال بسبعين ألف دينار، تريدُ أن تغرّني بالدُّريهمات، ثم قامَ ونفضَ السجادة من الدراهم وذهب، فما رأيتُ مثلَ عزِّه وذلّي تلك الساعة حيث طرحَ الدراهم، وإني ألتقطُها من الأرض.

نقل أن تلميذًا له في حال النزع نظر إلى الكعبة، فرفسه بعيرٌ، وفقأ[١] إحدى عينيه، فنُودي في سرِّ الكتاني رحمه الله: أنه يردُّ عليه في هذا الحال واردات غيبته ومكاشفات حقيقته[٢]، ولمّا نظرَ إلى البيتِ أدّبه ربُّه، كأنه إذا ظهرَ ربُّ البيت، فالنظرُ إلى البيتِ إساءةُ أدبٍ.

نقل أنّ شيخًا نورانيًا ذا هيبةٍ جميلةٍ على كتفه طيلسانٌ، دخل من باب بني شيبة، وذهب إلى الكتّاني، وقال بعد السلام: لِمَ لا تمشي يا شيخُ إلى مقامِ إبراهيم، فإنَّ هناك شيخًا يروي الحديث عن النبيِّ ﷺ بروايةٍ عالية، حتى تسمعَ منه الحديثَ، وتنتفعَ به. فرفع الكتاني رحمه الله رأسَه، وقال: عمّن يروي الحديث؟ قال: عبد الله، عن معمر، عن الزُّهري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ. فقال الكتاني: أتيتَ بإسنادٍ طويلٍ، ما يُحدِّثونه من الأخبار بالإسناد، ونحن نروي بغيرِ إسنادٍ. قال الرجل: كيفَ ذلك؟ قال الشيخ الكتاني: حدّثني قلبي عن الله تعالى[٣]. فقال ذلك الشيخ: وما علامةُ ذلك؟ قال: علامته أنك الخضرُ عليه السلام. فقال الخضر عليه السلام: ما كنتُ أعلمُ أنْ يكون لله وليٌّ لا أعرفه إلى أن التقيت بأبي بكر رحمه الله، فإنه عرفني، وأنا ما عرفته. فظهرَ من هذا أن لله أولياءَ لا يعرفهم غيره.

نقل أنه كان يُصلّي وقتًا، فجاء طرّار[٤]، وأخذ الرداءَ عن كتف الكتاني،

---

(١) في (أ): واقفًا إحدى عينيه.

(٢) في (أ): أنه يَردُ عليه في هذا الحال واردات غيبية، ومكاشفات حقيقية.

(٣) في (أ): حدثني قلبي عن ربّي.

(٤) الطرّار: الذي يقطع الهمايين (جمع هِمْيان: كيس للنفقة، يُشدُّ في الوسط) ويشقُّ كمَّ الرجل ويسلُّ ما فيه. معجم متن اللغة.

وذهب به إلى السوق ليبيعه، فيبستْ يدُهُ في الحال، قال له بعضُ الناس: مصلحتُكَ أن تمشيَ به إليه، وتردَّ عليه رداءَه، وتتضرّعَ لديه؛ لعلّه يدعو لك، ويردُّ الله عليك يدَكَ. فذهب إليه الطرّار، وهو بعدُ في الصلاة، فوضع رداءه على كتفه، وقعد هناك إلى أن فرغ من الصلاة، فتضرّع الطرّار وتذلّل، وأخبره بالحال، فقال الكتاني: بعزّة الله وعظمتِهِ، ما أَحسستُ بأخذك، ولا بردِّك. ثم قال[1] الكتاني: إلهي، كما أنّ هذا الرجل ردَّ علي ما أخذه، أنت بكرمِكَ ردَّ عليه يدَهُ. فطابت يدُه في الساعة.

نقل أنه قال: رأيتُ في المنام شابًا في غاية الجمال والحسن، فقلت: من أنت؟ قال: أنا التّقوى. قلتُ: أين تسكن؟ قال: في كلِّ قلبٍ حزين. ثم رأيتُ امرأةً قبيحةً سوداءَ، فقلت: من أنت؟ فقالت: أنا الضحك. فقلت: أين يكونُ مكانك؟ قالت: في كلِّ قلبٍ غافلٍ. فانتبهتُ، وعزمتُ على أن لا أضحك أبدًا إلاّ إذا غُلبَ عليَّ.

وقال الكتاني رحمه الله: رأيتُ النبيَّ ﷺ في ليلةٍ خمسين مرّةً في المنام، وفي كلِّ مرّةٍ قلتُ: بماذا أدعو يا رسول الله، لئلا يُميتَ اللهُ تعالى قلبي؟ قال ﷺ: قل كلَّ يومٍ أربعينَ مرّةً: يا حيُّ يا قيُّومُ، لا إله إلا أنت، أسألُكَ أن تُحيي قلبي بنورِ معرفتك أبدًا.

وقال: جاء إليَّ فقيرٌ وهو يبكي، وقال: منذ عشرة أيام ما ذقتُ شيئًا من الطعام، فشكوتُ الجوعَ لبعض الإخوان، ثم دخلتُ السوقَ، فوجدتُ درهمًا مكتوبًا عليه: أما علمَ اللهُ تعالى جوعَكَ لتحتاج إلى الإظهار والاشتكاء؟!.

نقل أن رجلاً استوصاه، فقال: كنْ لله اليوم، كما تُحبُّ أن يكونَ لك غدًا.

ومن كلامه أنه قال: الأنسُ بالمخلوق عقوبةٌ، والقربُ من أهل الدُّنيا معصيةٌ، والميلُ إليهم مذلّة.

وقال: الزاهدُ من لا يجدُ شيئًا، وقلبُهُ مَسرورٌ بذلك، ويكون مُجدًّا مُجتهدًا

---

(١) في (ب): ولا بردِّك. فقال الكتاني: إلهي..

في الطلب ـ أي في طلب العبادة ـ وكان راضيًا إلى أن يموت.

وقال: المحبّةُ الإيثار للمحبوب.

وقال: التصوّفُ الصفوةُ والمشاهدة.

وقال: الصوفي من تكون طاعته[١] في نظره كجنايةٍ، يحتاجُ إلى الاستغفار لها.

وقال: التوبةُ اسمٌ جامع لستَّةِ أشياء: الأول: الندم على ما فات، والثاني: العزمُ على أن لا يعودَ إلى الذنب أبدًا، الثالث: أن يقضيَ ما فاتَ بينه وبين الله تعالى من الفرائض، والرابع: ردُّ المظالم إلى أربابها، والخامسُ: إذابةُ لحمٍ نبتَ من الحرام، والسادس أن يذيقَ الجسدَ مرارة الطاعة كما أذاقَهُ حلاوة المعصية.

وقال: المعرفةُ بالله تعالى أتمُّ وأكملُ من العبادة له تعالى.

وقال: التوكّلُ في الظاهرِ متابعةُ العلم، وفي الحقيقةِ كمالُ النفس.

وقال: العبادةُ على اثنين وسبعين بابًا، واحدٌ وسبعون بابًا منها في الحياء من الله تعالى.

وقال: الطعامُ المُشتهى هو لقمةٌ من ذِكْر الله تعالى، إذا وضعَتْ في فم اليقين، مأخوذةً في حالة التوحيد، من مائدة الرضا، بظنٍّ صحيح بإكرام الله تعالى.

وقال: إن الله تعالى لا يفتحُ لسانَ العبدِ بالاعتذار والاستغفار إلاّ بعد أن يفتحَ له بابًا من المَغفرة.

وقال: إذا صحَّ الافتقارُ[٢] إلى الله تعالى صحَّتِ العنايةُ من الله؛ لأنهما حالتان، لا يتمُّ أحدُهما بدون الآخر.

وقال: الحزنُ الحاصل وقتَ الانتباه من الغفلةِ، وانقطاعُ النفْسِ عن

---

(١) في (ب): من كان طاعته.

(٢) في (أ): إذا صح الاعتقاد.

حظوظها، ورجفانُ القلب من خوفِ القطيعة أفضلُ من عبادة الجنّ والإنس.

وقال: مدارُ الدنيا على البلوى[١]، ومدارُ الجنّة على التقوى.

وقال: المريدُ الصادقُ من لا ينام إلاّ عند غلبةِ النوم، ولا يأكلُ إلاّ عند شدّةِ الجوع.

وقال: كنْ بجسدِك في الدنيا، وبقلبك في الآخرة.

وقال: إذا سألتَ الله تعالى التوفيق، فليكنْ ابتداءُ سؤالك بالعمل الصالح.

وقال: وجدنا دينَ الله تعالى مَبنيًا على ثلاثة أركان: الحقّ، والعدل، والصدق. أمّا الحقُّ فعلى الجوارح، والعدلُ فعلى القلوبِ، والصدق فعلى العقول.

وقال: إنّ لله ريحًا تُسمّى ريحَ السحر، مخزونةً تحت العرش، تهبُّ وقتَ السحر، وترفعُ أنين[٢] المُذنبين واستغفارَهم إلى حضرة القدس.

وقال: الشكرُ في موضع الاستغفار ذنبٌ، كما أنَّ الاستغفارَ في موضع الشكرِ ذنبٌ.

نقل أنه قيل حين حضرتْ وفاةُ الكتاني رحمه الله، سأله بعضُ الأصحابِ عن أعماله في حياته، قال: لو لم أكنْ مُشرفًا على الوفاة لَمَا كنتُ أُخبرُكم، ثم قال: كنتُ أربعين سنة حارسًا للقلب عن غير الله تعالى، فدفعتُ ما وجدتُ فيه باقيًا[٣] غير الله تعالى، حتى ما بقي في قلبي سوى الله تعالى شيءٌ.

رحمه الله رحمةً واسعة، ورزقنا ببركتِهِ رحمتَهَ ومغفرتَه ورضوانه بغيرِ حساب، إنّه الكريم الوهاب، الرحيم التّواب، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

---

(١) في (أ): كتب تحت كلمة (البلوى): الاحتياج.

(٢) في (أ): وتحمل أنين.

(٣) في (ب): ما وجدت فيه شيئًا.

(٥٥) إبراهيم الخواص[1]

ذكر أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله:

كان رحمه الله وحيدَ عصره، رضيًّا بين الأولياء، كبيرَ الشأن، ذا قدمٍ راسخةٍ في الطريق، وصاحبَ نَفَسٍ عالٍ في الحقيقة.

وله في التوكّلِ والرياضة حظٌّ كثير إلى أن سُمّي رئيس المتوكّلين.

وبلغ من الرياضة والتوكّل إلى مقامٍ كان يقطعُ باديةَ الحجاز بإشمامِ رائحة تفاح.

وأدرك كثيرًا من المشايخ، وكان رحمه الله من أقرانِ الجُنيد رحمه الله، والنُّوري.

وله في علم الحقيقة تصانيفُ.

وسببُ تسميته بالخوّاص أنه كان يَنسجُ الزَّنابيل من خوصة النخل.

توفي رحمه الله بالرَّيِّ سنة إحدى وتسعين ومئتين.

نقل أنه سُئل عن أعجب ما رأى في السفر، قال: أَعجبُ ما رأيتُ أنَّ الخضرَ عليه السلام التمسَ منّي نوبةَ مُصاحبتي، فأبيت عن ذلك، لأنّي كنتُ في تلك الساعة مَشغولاً بالحقِّ جل وعلا.

نقل أنه رحمه الله مع كمالِ توكُّلِه، ما فارقته إبرةٌ، وشيءٌ من الغزل، وخِرَقٌ

---

(١) طبقات الصوفية ٢٨٤، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٥، تاريخ بغداد ٦/ ٤٩٣، الرسالة القشيرية ٨٩، مناقب الأبرار ٥٤١، المنتظم ٦/ ٤٥، صفة الصفوة ٤/ ٩٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ١٩٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٣٠٣، طبقات الأولياء ١٦، النجوم الزاهرة ٣/ ١٣٢، نفحات الأنس ٢٠٥، طبقات الشعراني ١/ ٩٧، الكواكب الدرية ١/ ٤٩٧، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٣٣.

من القطن والصوف، وكان يقول: هذا لا يضرُّ بالتوكّلِ.

ونقل أنه قال: رأيتُ بالبادية جاريةً مكشوفة الرأس، في غاية غلباتِ الشوق والوجد، ولها اضطرابٌ عظيم، فقلت: استري رأسَك. فقالت: يا خوّاصُ، أنت غمّض عينك. قلت: أنا عاشق، والعاشقُ لا يُغمض عينه، وإنّما وقعتْ عليك نظرتي بغيرِ اختيارٍ. قالت: وأنا يا خوّاص سكرى، والسّكرى لا تسترُ رأسَها. قلت: من أيِّ خمرٍ سكرت؟ قالت: من خمرِ مودَّتِهِ. قلتُ: مودّة من؟ قالت: يا خواص، أنت رجل في الطمع[1]، وأنا ما أرضى بالميت، وإنما أطلب رجلاً.

نقل أن رجلاً سألَ الخوّاص عن حقيقة الإيمان، فقال: إنّي ما أُحبُّ الجوابَ بالعبارة؛ بل بالمعاملة، وهاأنا قاصدٌ لسفرِ الحجِّ، فإن كان لك حاجةٌ في تحقيقِ المسألة فرافقني لأُريك جوابَ مسألتك. قال السائل: فرافقتُهُ، ودخلنا البادية، فكان يظهرُ لنا كلَّ يومٍ رغيفان، ومن الماء شيءٌ يكفينا، وهو يُعطيني رغيفًا، ويَسقيني من الماء، ويُخبِّئُ عنده الرغيف الآخر، وهكذا إلى أن قطعنا من البادية نصفَها، فإذا يومًا رأينا شيخًا ذا هيئةٍ حسنة، راكبًا على فرسٍ، فحين التقينا، نزل وجاء إلى الخواص، وتسألا، وتكلّما[2] زمانًا، ثم فارقنا، وركبَ ورجع، قلت: من الشيخ يا شيخ؟ قال: الخضرُ عليه السلام، جاء إليَّ يطلبُ مُصاحبتي، فما قبلتُ خوفًا من زوال التوكُّلِ، ونقصان الاعتماد على الحقِّ تعالى. ثم التفت إليَّ وقال: حصلَ الآن جوابُ مسألتك.

أقول: كأنه يُشير إلى أن حقيقةَ الإيمان أن يكونَ العبدُ بكلّيته مُتوجِّهًا إلى الله تعالى، مُعتمدًا عليه، سائلاً عنه، غيرَ مُلتفتٍ إلى ما سواه، ولو كان الخضرَ عليه السلام. والله أعلم.

نقل أنه قال: رأيتُ الخضرَ عليه السلام نوبةً في البادية في صورةِ طيرٍ يطير،

(١) في (أ): أنت رجل نيِّء الطمع.
(٢) في (ب): وتكالما.

فعرفته، وأطرقتُ رأسي لئلا يبطلَ توكّلي، فنزل هو إليَّ، وما سلّمتُ عليه لئلا يدخلَ خللٌ في توكّلي، وقال لي: يا خوّاص، لو نظرتَ إليَّ لَمَا نزلتُ إليك.

وقال الخوّاص رحمه الله: عطشتُ في الباديةِ حتى سقطتُ، فرأيتُ شخصًا راكبًا حسنَ المنظر، جاءَ إليَّ ورشَّ الماء عليَّ، وسقاني، وأركبني خلفَهَ، وكنتُ بأرضِ مكّةَ شرّفها الله تعالى، وسارَ بي قليلاً، فنظرتُ، فإذا أنا بأرضِ المدينة، فقال: انزل، وامض، وبلّغ منّي السلامَ إلى النبيِّ ﷺ.

وقال الخوّاص رحمه الله: وصلتُ في البادية إلى شجرةٍ، فالتقيتُ هناك بأسدٍ، فتوجَّه إليَّ، حتى ما بقي الفرارُ منه، فاستسلمتُ له، فجاء إليَّ، وتملّق، واضطجع، ثم مدّ رجلَه وله أنينٌ، فنظرتُ إليها، فوجدتُها متورِّمةً اجتمع فيها القيحُ، فعرفتُ أنّه يُريد تفجيرها، وإخراجَ القيح، فأخذتُ شوكةً، وشققتُ رجلَه، وطلع ما فيها من القيح، وشددْتُ بخرقةٍ، فسكن الأسدُ من الاضطرابِ والألم، ثم ذهب، وجاء بعد ساعةٍ ومعه شبلان له في رغيفٍ، فوضع الرغيفَ بين يديَ، وشرعَ يَتملَّقُ هو مع شبليه، ويتبصبصون(١).

نقل أن الخوّاص رحمه الله مع مُريدٍ له استقبلَهما بالبادية أسدٌ، ففزعَ المُريد، وصعد شجرةً وفرائصُهُ ترتعد من الفزع، والشيخ رحمه الله بسطَ سجّادته، وشرعَ في الصلاة، فجاء إليه الأسد، ووقفَ عنده، ونظر إليه طويلاً، ثم تركَهُ وذهب، ونزل المريدُ، ومشيا زمانًا، ثم إن بقّةً قرصتِ الشيخ، فتأذّى منها، وتألّمَ، وقال المريد: يا عجبًا، ما فزعتَ من الأسد، وتتألّمُ من قرصة بقّةٍ!؟ قال: لأنّي حين لقيتُ الأسدَ ما كنتُ معي؛ بل كنتَ مُستغرقًا في بحر المكاشفة، والآن أنا معي، فلأجلِ هذا أتأذّى من البقة.

وقال حامد الأسود: كنتُ مع الخوّاص رحمه الله في سفرٍ، فانتهينا الماءَ إلى مكانٍ كثيرِ الحيّات، فوضعَ الركوة، ونزل هناك، فطلعتْ حيّاتٌ كثيرة خبيثة، قلت: يا شيخ، اذكرِ الله، لعلّه يُعيذنا من شرِّ الحيات. ففعلَ، وغابت

---

(١) بصبص الأسد: حرّك ذنبه.

الحيّاتُ كلُّها عنّا، وبتنا سالمَيْنِ، فلمّا أصبحنا ورفعنا وطاء الشيخِ رأينا حيّةً كبيرةً مطوّقةً تحته، قلت: يا شيخ، كيف أَمسيت؟ قال: واللهِ، ما بتُّ ليلةً أطيبَ من البارحة.

نقل أنه قال: ضعتُ نوبةً في البادية، ومشيتُ أيامًا وليالي، وما اهتديتُ، إلى أن سمعتُ ليلةً صياحَ الديك، ففرحتُ بذلك، وتوجّهتُ إلى ذلك الجانب، فإذا أنا برجلٍ جاء إليَّ ولكمني في قفاي لكمةً شديدةً تألّمْتُ منها، فقلت: يا ربّ، هكذا تعملُ مع المتوكّلين؟ فسمعتُ هاتفًا يقول: يا خوّاص، كنتَ عزيزًا علينا ما دمتَ متوكّلاً، والآن فقد تركتَ التوكّلَ، واعتمدتَ على صياح الديك، لا جرمَ أنك قد هنْتَ علينا، وآذاك الرجلُ باللَّكم. فسكتُّ، وأطرقتُ رأسي، وأمشي مَرعوبًا متأذّيًا من اللكمة، فإذا أنا بهاتفٍ يقول: انظرْ. فنظرتُ، فرأيتُ رأسَ الرجل مقطوعًا مطروحًا قدّامي.

نقل عن الخوّاص رحمه الله أنه قال: نذرتُ نوبةً أن أقطعَ البادية إلى مكّة عظّمها الله تعالى بلا زادٍ ولا راحلةٍ، فدخلتُ الباديةَ أَمشي، إذا أنا أسمعُ من ورائي صوتًا، فالتفتُّ، فإذا فتًى نصرانيٌّ يعدو، فقال: السلامُ عليك يا شيخ. فرددتُ عليه الجواب، ووقفت، فجاء وقال: أرجو منك أن تأذنَ لي في المُرافقةِ معك في هذا الطريق. قلت: كيف تُرافقني وليس لك طريقٌ إلى المكان الذي قصدتُه؟.

أقول: وذلك لأنّه لا يجوزُ في الشرعِ أن يدخلَ الكافرُ في الحرمِ الشريف، وإن جاء كافرٌ لأداءِ رسالةٍ، والإمامُ في الحرم، خرجَ إليه، أو يبعث إليه من يسمعُهُ ويُخبرُ الإمام، وحدودُ الحرمِ ما جمعه هذا الشعر:

وللحرم التَّحديدُ من أرضِ طيبةٍ ثـلاثـةُ أميـالٍ إذا رُمْـتَ إتقـانَـهْ
وسبعـةُ أميـالٍ عـراقٌ وطـائـفٌ وجـدّةُ عشـرٌ ثـم تسـعٌ جعـرّانَـهْ

والله أعلم.

قال الفتى النصراني: لا غناءَ من أن أُصاحبَكَ. فرضي الشيخ بذلك طمعًا

في إسلامه، قال: فتماشينا أسبوعًا بلا أكلٍ وشربٍ، وغلبه الجوعُ والعطش، فقال في اليوم الثامن: يا زاهد الحنيفي، أُريدُ منك أن تتهجَّمَ أنت على ربِّك، وتطلبَ شيئًا نطعمُهُ ونشربه. قال الخوّاص: قلت: إلهي، بقرب محمد ﷺ منك، أسألُكَ أن ترزقَنا شيئًا نطعمُهُ، ولا تُخجلني من هذا الرجل الأجنبي. فأنزلَ الله تعالى علينا من الغيبِ طبقًا فيه من الخبزِ والسَّمكِ المشوي، والرُّطبِ ما نأكلُهُ، وكوزٌ فيه ماءٌ بارد، فأكلنا وشربنا، وتفكَّهنا وشكرنا الله[1] تعالى، ومضينا إلى أن تمَّ الأسبوع، ففي اليومِ الثامنِ قلت له: يا فلان، فالآن نوبتُكَ، فاطلبْ أنت أيضًا من ربِّك شيئًا نأكلُهُ؛ إذْ غلبنا الجوع. فاتَّكأ الرجلُ على عكّازته، وحرّكَ شفتيه، فظهر طبقان، وعليهما الحلاوى، والسمك، والرطب، والخبز، وكوزان فيهما ماءٌ، فتحيَّرْتُ في هذا الأمر، وهو يقول: كلْ يا شيخ. وأنا من الخجالة قد أطرقتُ رأسي، وما آكلُ. فقال: كل يا شيخ؛ لأُبشِّرَكَ بشارتين. قلت: ما أمدُّ يدي إلى هذا الطعام إلا أن تُخبرني. فقال: أمّا البشارةُ الأولى أنّي قطعتُ الزنار، وأقول عن اعتقادٍ: أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، والثانية أنّ هذه المائدة أيضًا ببركتِكَ، لأني قلتُ: إلهي، بحرمةِ هذا الشيخ إنْ كان له عندك حرمةٌ ومقدارٌ، وبدين محمَّدٍ ﷺ إلاّ أنعمتَ عليَّ بمائدةٍ نأكلُ منها، ولا تُخجلني قدّام هذا الشيخ. قال: فأكلنا وشربنا، وذهبنا إلى مكّة، وحججنا، وجاور الفتى هناك إلى أن مات.

قال شيخ من تلاميذ الخواص: سرنا في الباديةِ مع الشيخِ أُسبوعًا بلا أكلٍ ولا شرب، وحصل لي ضعفٌ، قلت: يا شيخ، ما بقيتْ لي قدرةٌ على المشي. فقال الشيخ: ماذا تريدُ؛ الماءَ أو الطعام؟ قلتُ: بل الماءَ. فقال: انظر إلى ما وراءك. فنظرتُ، فإذا أنا بماءٍ بارد نظيفٍ[2]، فشربتُ وتوضّأتُ، والشيخُ واقفٌ ينظرُ إليّ، وما قربَ من الماء، ولمّا فرغتُ أردتُ أن أسقي من الماء شيئًا

---

(١) في (أ): وشكرت الله.

(٢) في (أ): بماء بارد لطيف.

أذهبُ به، فقال الشيخ: لا تفعلْ؛ فإنّه ليس ممّا يُنقلُ من مكانٍ إلى مكان.

وقال: ضعتُ في البادية نوبةً، فظهر لي شخصٌ وسلّم عليَّ، وقال: ضللتَ في الطريق؟ قلت: نعم. قال: أَهديك إليه؟ قلت: نعم. فمشى قدّامي خطواتٍ وأنا خلفه، ثم غابَ وأنا على الجادّة، فما ضللتُ في الطريق بعدَ ذلك، ولا جعتُ ولا عطشتُ.

وقال: كنتُ في سفرٍ، فوصلتُ وقت المساءِ إلى خربةٍ، فدخلتُ، فإذا فيها أسدٌ، ففزعتُ[١] منه، فسمعتُ هاتفًا يقول: لا تفزعْ؛ فإنَّ معك سبعين ألفًا من الملائكة يحفظونك.

وقال: رأيتُ في طريق مكّة شخصًا عجيبًا، له شكلٌ مُنكر، قلت: من أنت؟ قال: أنا شخصٌ من الجنّ. قلتُ: إلى أين؟ قال: إلى مكّة. قلت: بلا زادٍ ولا راحلة؟ قال: نعم، وفينا من يسافرُ إلى مكّة على التوكّلِ مثلكم.

وقال: إذ كنتُ أدورُ في بعض نواحي الشام، وقلبي يَميلُ إلى الرّمان الحلو، فصادفت رجلاً بلا رجلين ويدين، ووقعتْ فيه الدودُ، واجتمعتْ عليه الزّنابيرُ، فترحّمْتُ عليه من سوءِ حاله، وقلت: أسألُ الله تعالى أن يعافيك؟ قال: لا. قلتُ: لِمَ؟ قال: لأنَّ البلاءَ اختيارُه، والعافيةَ اختياري، وأنا لا أختارُ اختياري على اختياره. قلتُ: ائذن لي أدفع عنك الزنابير. قال: يا خوّاص، ادفع عن نفسك ميلَ الرمان الحلو، ولا تُتعبني بهذه الكلمات. ثم قال: عليك بإصلاحِ قلبِك[٢]، ومالك وصحّة جسمي؟ قلتُ: كيف عرفتَ أنّي الخوّاص؟ قال: من كان هو مراده، هل يخفى عليه شيء؟!.

وقال الخواص: رأيتُ في البادية شخصًا مُتوجِّهًا إلى مكّة، قلت: من أين؟ قال: من بلاساغون[٣]، كأنّه من بلاد الهند، قلتُ: إلى أين؟ قال: أكلتُ لقمةً،

---

(١) في (أ) كتب فوق الكلمة: فزعبت.

(٢) في (ب): قال: يا خواص، ادفع بإصلاح قلبك.

(٣) بلا ساغون: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون، قريب من كاشغر. معجم البلدان. وفي (أ): بلاد ساغون.

فلطَّخْتُ أصبعي، فأمشي إلى زمزم لأغسلها. قلت: فما عزمُك بعده؟ قال: أُريُد أن أرجعَ إلى بيتي، وأبسطَ فراش أُمّي الليلة.

وقال الخواص: سمعتُ أنّ في الروم راهبًا ترهَّبَ سبعين سنةً في بيعةٍ لهم، واعتزل فيها عن الناس، والحالُ أنَّ الترهُّبَ عندهم لا يكون إلاّ إلى أربعين[١] سنة، فقصدتُهُ لأستكشفَ عن حاله، فلمّا وصلتُ إلى صومعته أخرجَ رأسَه عن الصومعه، وقال: لِمَ جئتَ يا إبراهيم؟ ما أنا شخصًا راهبًا، ولكن لي كلبٌ يقعُ في الناس، ويعضُّهم ويُؤذيهم[٢]، فدخلتُ هذه الزاوية أحرسُ الناس عنه وأدفعه. قال الخوّاص: قلت: إلهي، أنت قادرٌ على أن تهدي عبدَكَ، وهو في عين الضلالة. ثم قال الراهب: يا إبراهيم، إلى متى تطلبُ الناسَ، كنْ حارسًا لنفسك، فإنَّ الهوى يَتلبَّسُ بلباس الألوهية في يومٍ ثلاث مئة وستين نوبة[٣]، وينكشف للعبد يدعوه إلى الضلالة.

قال أبو الحسن العلوي، وهو من تلاميذ الخواص: إن الشيخَ رحمه الله قال له: أُريدُ أن أُسافرَ إلى موضعٍ كذا، فهل تُرافقني أم لا؟ قلت: نعم، ولكن أَرجعُ إلى بيتي، وألبسُ النعل وأجيء. فدخل البيت، ولبسَ النعل، واتّفق له أن أكلَ شيئًا من البيضة، وجاء إلى الشيخ، ومشيا إلى أن وصلا إلى نهرٍ، فعبر الشيخُ، وما غاصَ في الماء، قال أبو الحسن رحمه الله: وضعتُ قدمي على الماءِ لأعبرَ كما عبر الشيخ، فغاصتْ قدمي فيه، فالتفتَ الشيخُ إليَّ وقال: إنك شددتَ البيضة على قدمك، لا جرمَ أنّها تغوصُ. فعجبتُ من عبوره على وجه الماء، واطّلاعِهِ بتوفيق الله على سرّي.

قال الخوّاص: جعتُ في البادية جوعًا عظيمًا، فاستقبلني أعرابيٌّ، وقال: يا وسيع البطن، ما هذه الدعوى! أما علمتَ أنَّ الدعوى تفضحُ المُدّعي، فمالك والتوكّل؟.

---

(١) في (أ): إلاّ أربعين سنة.

(٢) يريد لسانه، وما ينطق به، انظر صفحة ٦٠٨.

(٣) في (أ): في يومٍ ثلاث مئة مرة وستين نوبة.

قال: قصدتُ أن أكتسبُ وجهًا حلالاً للمعاش، فأخذت شبكةً، وذهبت إلى جنبِ النهر، ورميتُها في النهر لأصطادَ السمكَ، فسمعتُ هاتفًا يقول: تدّعي أن تكسبَ حلالاً، وتريدُ أن تمنعَ السَّمكَ عن ذِكري باصطيادك؟! قال: فندمتُ عمّا قصدتُ، وتركت.

نقل أن الخوّاص رحمه الله كان يقول: أتمنّى أن يَرزقَني اللهُ تعالى بقاءً أبديًا في الدنيا، حتى إن أهل الجنةِ إذا اشتغلوا بالتنعُّمِ، وتركوا العبادةَ، أنا أكون قائمًا بحفظِ آداب الشريعة، عابدًا لله تعالى، ذاكرًا له.

أقول: وهذا يدلُّ على غايةِ حرصِهِ ورغبتِهِ في عبادة الله تعالى وطاعته، حتى تمنّى عُمرًا أبديًا ليصرفه في العبادةِ من غير التفاتٍ له إلى نعيمِ الجنة، ليعلمَ أنَّ عبادته لله تعالى إنّما هي لله، لا لأجل رغبةٍ في الثواب، ولا رهبةٍ في العقاب، والإخلاصُ ليس إلاّ هذا. والله أعلم.

وقال رحمه الله: إذا كان قلبُك ساكنًا، وإنْ كانت يدُك فارغةً، فاذهبْ أينما تريد.

وقال: من عرفَ الله تعالى بوفاءِ العهد يلزمُهُ أن يطمئنَّ قلبُه بالله؛ ويعتمد عليه.

وقال رحمه الله: ليس العلمُ بكثرةِ الرواية؛ بل بإتباعِ العلم للعمل، والاقتداءِ بالسُّنة، وإن كان العلم قليلاً.

وقال رحمه الله: العلمُ كلُّه مُجتمعٌ في كلمتين: أن لا تتكلّفَ بشيءٍ لم يَفرضْهُ اللهُ عليك، ولا تتركْ شيئًا فرضَه الله تعالى عليك.

وقال: من سكنَ قلبُه إلى غيرِ الله ابتلاه، فإذا رجعَ إلى الله تعالى يدفعُ عنه كلَّ بلاءٍ، وإن دام سكونه مع غيرِ الله أزالَ اللهُ الترحُّمَ عليه عن قلوبِ عباده، وألبسَهُ لباسَ الطمع حتى يسألَ الناسَ، ولا يكون في قلبهم شفقةٌ، فيصير عيشه ضيقًا، وموته شديدًا، ويُبقي في القيامة تأسُّفَهَ وندامته.

قال: من كان عيشُه بحيث تبكي عليه الدنيا، يكون في الآخرة بحيث يضحك عليه في الآخرة، وبالعكس.

وقال: من ترك شهوةً ولم يجد في قلبه عِوضًا، فهو في ذلك كاذبٌ.

سئل الخواص رحمه الله عن التوكُّلِ، فقال: الثباتُ بين يدي مُحيي الأموات.

وقال: الصبر هو الثباتُ على أحكام الكتاب والسنة.

وقال: المحبّةُ محوُ الإرادة، وإحراقُ الصفات البشرية، وترك الحاجات.

وقال: داوءُ القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبُّر، وتخليةُ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّع في السحر، والمُجالسة مع الأخيار.

وقال: يُطلبُ المقصودُ وقتَ السحر[١]، فإن لم يوجدْ فيه، فلا يُوجدُ في غيره ألبتة.

قيل له: من أين تأكل؟ قال: ممّا يأكلُ منه الجنين في بطن أمه. يُشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

قيل له: هل يكون للمتوكّلِ طمعٌ؟ قال: نعم، من طرف الطبع، لكن يكون له قوة تكليف النفس على اليأس، عمّا في أيدي الناس.

نقل أنه صار مبطونًا[٢] في آخر عمره، وكان يتوضّأُ في يومٍ وليلة ستين مرة، وبعد كلِّ وضوءٍ يُصلّي ركعتين، وحين يفرغُ من الصلاة كان بطنه يتقاضاه، وهكذا، فسأله رجل، وقال: هل تشتهي العافية؟ قال: حسبي الكبدُ المحروق.

حتى دخلَ نوبةً في الماء للاغتسال، فتوفّي هناك، وكان رحمه الله في جامع الرَّي، فحملوه ميتًا إلى بيته.

ثم رآه واحدٌ من المشايخ بعد موته في المنام، فقال: ما فعل الله

---

(١) في (ب): يطلب المقصود في السحر، وقت السحر.

(٢) مبطونًا: مصابًا بداءٍ في بطنه.

بك[١]؟ قال: عبدتُ الله تعالى كثيرًا، وسلكتُ سبيل التوكّل، وخرجتُ من الدنيا على طهارةٍ، فأعطاني الله تعالى ثوابَ العبادات؛ ولكن لأجلِ الطهارة أنزلني منزلاً هو فوق درجات الجنات، ثم نادى منادٍ وقال: يا إبراهيم، هذه المنزلةُ لأجل أنك قدمْتَ علينا طاهرًا.

رحمه اللهُ رحمةً واسعة، وزاد في درجاته، ونسأله أن يُطهِّرَ قلوبَنا، ويسترَ عيوبنا، ويغفرَ ذنوبنا؛ فإنه غفورٌ كريم، وهّابٌ رحيم، يغفرُ ذنوب العاصين كرمًا وفضلاً، وصلّى الله على شفيع المُذنبين، وقائد الغرِّ المحجَّلين محمدٍ وآله أجمعين.

* * *



(١) في (ب): ما فعل الله لك.

(٥٦) ممشاد الدِّينوري(١)

ذكر الشيخ ممشاد الدينوري رحمه الله:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، ذا خصالٍ حميدة، وصفاتٍ رضية، شيخًا في عصره، وحيدًا في دهره، وله رياضاتٌ ومُجاهداتٌ.

ولا يزالُ بابُ خانقاهه مُغلقًا، فإذا اتّفقَ له ضيفٌ كان يَجيءُ هو إلى خلفِ الباب، ويقول للضيف: مقيمٌ أنت أم مُسافر؟ فإن قال: مقيم، يفتح الباب، ويُعبّرُهُ، ولو قال: مسافرٌ، كان يقول: ليس هنالك مقامٌ؛ إذ نخافُ أن نستأنسَ بكم، ثم لا يكون لنا طاقةٌ في مفارقتك.

نقل أن رجلاً التمسَ منه دعاءً، فقال له: أدخلْ نفسَك من باب معرفة الله تعالى لئلا تحتاجَ إلى دعاءِ ممشاد. فأثّر الكلامُ في قلب الرجل، وقال: أين ذلك الباب؟ قال: حيث لم تكن أنت. فخرجَ الرجلُ من بين الناس، واعتزل عنهم، واجتهد في العبادة والرياضة وتحصيلِ المعرفة حتى حصلَ له حظٌّ من المعرفة، وسكنَ قلبُه بذكر الله تعالى، حتى بسطَ سجّادته على الماء، وجلس عليه، ويجيء إلى ممشاد. فقال ممشاد: ما هذه الحالة؟ فقال: يا شيخ، أنت أرشدتني إليها، ثم تسأل عنها؟ فالله أوصلني إلى هذا المقام ببركة دُعائك، وأغناني عن غيرِه بفضله وكرمه.

---

(١) طبقات الصوفية ٣١٦، حلية الأولياء ١٠/٣٥٣، الرسالة القشيرية ٩٤، مناقب الأبرار ٦١٤، صفة الصفوة ٤/٧٨، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ٥٥، سير أعلام النبلاء ١٣/٥٦٣، طبقات الأولياء ٢٨٨، النجوم الزاهرة ٣/١٧٩، نفحات الأنس ١٤١، طبقات الشعراني ١/ ١٠٢، الكواكب الدرية ١/ ٧١٩، وورد اسمه في طبقات الصوفيه، وطبقات الأولياء (ممشاذ).

وممشاد كلمة منحوتة من اسم علم، واسم فاعل: محمد شاد.

وشاد اسم فاعل يعني: مسرور، راضٍ، مبارك وانظر الحاشية (٢) صفحة (٤١٤).

نقل أنه قال: بعد أن علمتُ أنَّ أمورَ الفقر لا تكونُ إلاّ عن حقيقةٍ، تركتُ المُزاحَ معهم، قال: جاء إلينا فقيرٌ، وطلب العصيدةَ، فقلتُ له على وجه المُزاح: الفقرُ[١] وإرادةُ العصيدة! ـ يعني كيف يجتمعا ـ فخرج الفقيرُ من عندنا، وهامَ بالبادية، ولا زالَ يقول: الفقرُ وإرادة العصيدة حتى مات رحمه الله تعالى.

وله كلمات عالية منها أنه قال: الأصنامُ مُختلفةٌ متنوّعةٌ، فكم من الناس أصنامُهم أنفسُهم! وكم منهم أصنامُهم أولادُهم! وكم منهم أصنامهم حرفُهم وصنائعهم! وكم منهم أصنامهم صلاتُهم وصيامهم وزكاتهم! وقلَّ من ينجو من عبادة مثلِ هذه الأصنام إلاّ من ينظرُ إلى نفسه ولا يرى لها محلاً، ولا يعتمد على شيءٍ من أفعاله، ولا يكون راضيًا عن نفسه بما يصدرُ عنها من خيرٍ أو شرٍّ، ويلوم نفسه دائمًا.

قال: الأدبُ رعايةُ حرمةِ المشايخ، وحُرمةِ الإخوان، والخروجُ عن كلِّ شُبهةٍ، ورعايةُ آداب الشريعة.

قال ممشاد رحمه الله: ما دخلتُ على أحدٍ من شيوخي قطُّ إلاّ وأنا خالٍ من جميع أحوالي، وأنتظرُ بركاتِ ما يردُ عليَّ من رؤيته وكلامه، لأنَّ من دخلَ على شيخٍ بحظِّه[٢] انقطعَ عن بركاته ورؤيته وصحبته.

وقال: مِنْ مُصاحبةِ أهلِ الصلاح يَصلُحُ القلب، ومن مُصاحبة أهلِ الفساد يَفسُدُ القلب.

وقال: خيرُ الرجال من عَبَرَ عن[٣] رؤية النفس، وعن مقامِ الاعتماد على الخلق، ويكون اعتمادهُ في جميع أموره على الله تعالى.

---

(١) في (أ): الفقير وإرادة.
(٢) في (ب): دخل على شيء بخطِّه.
(٣) في (أ): من غيَّرَ عن.

وقال: فراغُ القلب هو في التخلّي[1] عمّا تعلّق به أهل الدنيا.

وقال: إن جمعتَ حكمةَ الأوّلين والآخرين، وحصلتْ لك حالاتُ ساداتِ الأولياء كلِّها لا تَظنَّنَّ أنك تصلُ إلى درجة العرفان إلاّ إذا سكنَ قلبُك بالله تعالى، ويكون مُعتمدًا على ما تكفّل الله لك من الرزق وغيره.

وقال: جملة المعرفة في شيئين: الصدق، والافتقار إلى الله تعالى.

وقال: المعرفة تحصلُ على وجوهٍ ثلاثة: الأول: التفكّرُ في الأمور كيف دبَّرها فأحسنَ تدبيرها. والثاني: التفكّر في المقاديرِ كيف قدّرها فأجادَ في تقديرها. والثالث: في الخلقِ كيف خلق الخلائق فأحسنَ خلقها.

وإن أرادَ أحدٌ شرحَ هذه الكلمات الثلاث يكتبُ مجلدًا، ولكن هذا الكتاب لا يحتمله.

وقال: الجمع عبارةٌ عمّا جمع اللهُ الخلائق في التوحيد، والتفرقةُ عبارةٌ عمّا فرّقها في أحكام الشريعة.

وقال: الطريقُ إلى الله تعالى بعيد، والصبرُ عليه شديد.

وقال: الحكماء وجدوا الحكمة بالصبرِ[2] والتفكُّر.

وقال: أرواحُ الأنبياء في الكشفِ والمُشاهدة، وأرواح الصدّيقين في القرب والاطلاع.

وقال: التصوّفُ صفاءُ الأسرار، والعملُ بما يَرضى به الجبّار، والصحبةُ مع الأخيار بلا اختيار.

وقال: التصوفُ إظهارُ الغِنى، واختيارُ الخمول عن الخلق، وترك ما لا يعني.

وقال: التوكّلُ قطعُ الطمع عمّا يميلُ إليه الطبعُ والنفسُ والقلب.

---

(١) في (ب): هو في الخلق عمّا تعلّق.

(٢) في (أ): الحكمة بالصمت.

قيل له: إذا جاعَ الفقيرُ كيف يصنع؟ قال: يشتغلُ بالصلاة. قيل: فإن لم يقدر؟ قال: ينامُ على الوضوء[١]. قيل: فإن لم يقدر على النوم؟ قال: فإن الله تعالى لا يتركُ عبدَه خاليًا عن القوة.

نقل أنه قيل له في وفاته: قل لا إله إلاّ الله. فتحوّلَ إلى الحائطِ وقال: إلهي، قد فني بك كلّي، وهذا جزاء من أحبّك[٢].

قال له شخص: ما فعل الله بك؟ قال: منذ ثلاثين سنة يعرضُ عليَّ الجنةَ، وإنّي لم ألتفتْ إليها، وما نظرتُ إليها.

قيل له في مرض موته: كيف بالُكَ؟ قال: إنّي فقدتُ قلبي وبالي من ثلاثين سنة، والآن ساعةَ يفقدُ جميعُ الصدّيقين قلوبَهم، فأنا كيفَ أجدُهُ؟ فقال هذا، وسلّم روحه.

روّح الله روحه، وكثّر في جوار الأبرار[٣] فتوحه، ونوّر ضريحه.

ونسأل الله تعالى الكريمَ أن يجعلَ بذكره قرارنا، وإليه فرارنا، وفي دارِ النعيم دارَنا، ونُصلّي على محمد وآله أجمعين.

* * *

---

(١) قوله (على الوضوء) ليس في (أ).

(٢) كذا في الأصل، وهو في مناقب الأبرار ٦١٨:

أفنيــت كلّـــي بكلّـــك   هـــذا جـــزا مـــن يُحبُّـــك

(٣) في (ب): فأنا كيف أجده. فتوحه، ونوّر...

(٥٧) أبو بكر الشِّبلي[١]

ذكر أبي بكر الشبلي بن جحدر رحمه الله رحمة واسعة:

كان رحمه الله من أجلِّ المشايخ وكبارِهم، وسيدَ القومِ، وإمامَ أهل التصوف، نسيجَ وحده حالاً وظرافة وعلمًا، ورموزه وإشاراتُه أكثرُ من أن تُحصى، ورياضاتُه وكرامته أوفرُ من أن تُستقصى.

أدرك أكثر المشايخ، وكان في علوم الطريقة وحيدًا، وسمعَ الحديث، وكان مالكيَّ المذهب، بغداديَّ المولد والمنشأ.

صحب الجُنيد، وعاش سبعًا وثمانين سنة، ومات سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة، وقبرُهُ ببغداد.

وكان رحمه الله حجَّةً على الخلق من الله، ولا يُمكن أن توصفَ أعمالُه وأحوالُه، وما عرضَهُ فتورٌ إلى آخر عمره، ولا سكنَ التهابُ شوقه ووجده بحال.

وقال: قرأت الحديث والفقه[٢] ثلاثين سنة حتى طلعتْ شمسُ الهداية من

---

(١) هو دلف بن جَحْدر، وقيل: ابن جعفر، ويقال: إن اسمه جعفر بن يونس، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٣٣٧، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦، تاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩، الرسالة القشيرية ٩٧، الأنساب ٧/ ٢٨٢، مناقب الأبرار ٦٣٥، صفة الصفوة ٢/ ٤٥٦، المنتظم ٦/ ٣٤٧، اللباب ٢/ ١٠، الكامل في التاريخ ٨/ ٣٥٠، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٩٢، وفيات الأعيان ٢/ ٢٧٣، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ١٦٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧، العبر ٢/ ٢٤٠، مرآة الجنان ٢/ ٣١٧، الوافي بالوفيات ١٤/ ٢٥، البداية والنهاية ١١/ ٢١٥، الديباج المذهب ١١٦، طبقات الأولياء ٢٠٤، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٩، نفحات الأنس ٢٦٦، طبقات الشعراني ١/ ١٠٣، الكواكب الدرية ٢/ ٨٣، شذرات الذهب ٢/ ٣٣٨.

والشبلي نسبة إلى قرية من قرى أسروشنة يقال لها: الشُّبلية. الأنساب.

(٢) قوله: (والفقه) ليست في (ب).

صدري، ثم واظبتُ المشايخ، وكنت أسألُهم عن الله تعالى، وأقول: هاتوا فقه الله تعالى[١]، فما أجابني أحدٌ، إذ لا اطّلاعَ لأحدٍ على الغيب[٢].

نقل أنّه احتملَ من جهّالِ زمانه أذًى كثيرًا، وكانَ دائمًا في ردِّ الخلق وقبولِهم وازدحامهم عليه، وكانوا يقصدون هلاكه، حتى انكشفَ أمرُهُ، وعُرفت حالاته، واعتقدَهُ العلماءُ والمشايخ، واشتهر بين المسلمين بالولاية.

وكان ابتداءُ أمره أنّه كان واليًا في نهاوند، أميرًا عليهم، فأرسلَ الخليفةُ من بغداد إلى حاكم الرَّيِّ خطًّا يطلبه إليه، فرحل حاكم الرَّيِّ إلى بغداد، ومعه الشبليُّ وغيرُهُ من الأمراء، فوصلوا إلى الخليفة، وأكرمهم الخليفةُ، وأنعمَ عليهم بخِلَعٍ وتشريفاتٍ، ورجعوا إلى مواضعهم، فعطسَ حاكمُ الرَّيِّ في الطريق، ومسح بطرفِ كمِّ خلعة الخليفة أنفَه وفمه، ونظفهما به، ووصل[٣] هذا الخبر إلى الخليفة، فغضبَ عليه، فأرسل إليه، وأمرَ بخلع الخِلعة عنه، واللكم على قفاه ورقبته، وعزله لأنّه أساءَ الأدب مع الخليفة، ولهذا استحقَّ الإهانةَ والتحقير، فاطّلعَ الشِّبليُّ على هذا الأمر، وانتبه، ورجع من ساعته إلى الخليفة، واستقال، وقال: أيُّها الخليفة، إذا لم يجز استخفافٌ مع خلعتك وأنت مَخلوقٌ من المخلوقين، ولا يخفى مقدارُ خلعتك عند من استخفَّ بخلعة الله تعالى، كيف يكون حالُه في إساءة أدبه مع الله؟ واللهُ تعالى شرّفني بخلعة معرفته، هل يرضى بأن أجعلها منديلاً[٤] لخدمة المخلوقين؟ فترك الحكمَ والإمارة، ودخل مجلسَ خيرِ النسّاج ليتوبَ، وأحاله النسّاجُ رحمه الله على الجُنيد.

فذهب الشبليُّ إلى الجُنيد، وقال: يقولون إنَّ جوهرَ المعرفة عندك، فأرشدني إليه، إمّا ببيعٍ أو هبةٍ. فقال الجنيد: أمّا بالبيعِ فليس لك ثمنُهُ، وأمّا

(١) في (ب): ما يوافقه الله.

(٢) في (ب): لا اطلاع على أحدٍ للغيب.

(٣) في (أ): إلى مواضعهم، فعطس به، ووصل الخبر.

(٤) في (ب): أجعلها منه منديلاً.

بالهيبة فلا يبقى له قدرٌ عندك واعتبار، فاجعل قدمَكَ من الرأس، وارمِ نفسك في بحر المجاهدة والصبر والانتظار، لعلّكَ تصلُ إلى جوهر المعرفة.

قال الشبلي: فالآن، أيَّ شيءٍ أعمل؟ فأمره الجنيد ببيع الكبريت سنةً، ففعل ذلك، ورجع إلى الجُنيد، فقال: لعلَّكَ يحصلُ لك في هذه التجارة شهرةٌ[١]، فأشار عليه بأن يدورَ على الأبواب سنةً، ويكدي ولا يعمل غيره، ففعل، وما أعطاه أحدٌ في جميع بغداد شيئًا، فرجعَ إلى الجنيد، وعرَّفَهُ الحال، فقال الجُنيد: عرفتَ الآن أنَّ لا قيمةَ لك ولا مقدار عند الناس، فلا تُعلّقْ بهم قلبَكَ، ولا يكن لهم أيضًا عندك قيمةٌ ومقدار، وتوكّلْ على الحيِّ الذي لا يموت، ولكن كنتَ مدّةً حاكمًا على طائفةٍ، فارجعْ إليهم، واستحلَّ منهم، عسى أنهم يُبرئون ذمَّتَكَ، ويجعلونك في حلٍّ. فأتى إليهم، وقال: كنتُ واليًا في بلدكم، وحكمتُ عليكم، فأرجو منكم أن تَجعلوني لأجلِ الله تعالى في حلٍّ[٢]. ودارَ على الناس واحدًا واحدًا، وبيتًا بيتًا، قال: فبقي لشخصٍ عليَّ مظلمةٌ، وما وجدتُهُ، وبذلت لذلك مئةَ ألف درهم للفقراء والمساكين، وقلبي غيرُ مُطمئنٍ بعدُ.

قال: مضى على هذا أربعون سنة[٣]، ثم رجعَ إلى الجنيد، فقال الجُنيد: فيك بعدُ من محبّةِ الجاه. فأمرني نوبةً أُخرى بالدَّوران على الأبواب، والتكدّي، فكنت أدورُ أطلبُ وأَجمعُ كُسيراتِ الخبز، وأذهب بها إلى الشيخ، وهو يُطعمُها للفقراء، ويَتركني جائعًا، فمضى على ذلك سنةٌ، ثم قال: ادخلْ بين الأصحاب، ولكن على أن تكونَ خادمًا لهم. فمضتْ سنةٌ أخرى، وقال لي: يا شبل، كيف تجدُ حال نفسك؟ قلت: أراها أنّها أقلُّ خلقِ الله. قال الجُنيد رحمه الله: فالآن صحَّ إيمانُك.

---

(١) في (ب): التجارة شهوة.

(٢) في (أ): فأرجو منكم أن تجعلوني في حلٍّ خاصةً لله.

(٣) كذا في الأصلين، ولعلّ الصواب: على هذا سنةٌ.

فوصلَ إلى أنه كان[١] يَملأ كفَّه من السكّر، ويدورُ على الصبيان، ويقول لهم: من يقول (الله)، املأُ فمَه من السكّر، فكان يفعلُ كذلك، ثم بعد ذلك يملأُ جيبه من الدنانير والدراهم، ويقول: من يقول (الله)[٢] أملأ فاه منها، ثم بعد ذلك حصلتْ له غيرةٌ، وكان يأخذُ سيفًا ويقول: من يقول (الله) أضربُ رقبته، فقالوا له: كنتَ قبل اليوم تملأُ أفواههم بالسكّر، ثم بالدّينار والدرهم على أن يقولوا (الله)، والآن تقول: من يقولُ (الله) أضربُ رقبته! قال: لأنّي ظننتُ أنّهم يقولون (الله) ويذكرونَهُ على التحقيق، ثم ظهرَ لي أنّهم يذكرونه على الغفلةِ ومجاري العادات، وأنا لا أستحسنُ أن يَجريَ هذا اللفظ إلاّ على لسانِ عارفٍ به.

وكان يدور، ويكتبُ لفظة (الله) على كلِّ ما يجده، حتى سمعَ هاتفًا يقول: يا شبلي، إلى متى تطلب الاسم؟! فادخلِ الآن في باديةِ طلب المُسمّى. فوقع هذا الكلام على قلب الشبلي، وازدادَ قلقُهُ وشوقه، وغلبَ وجدُه وعشقه[٣]، حتى أنّه رمى نفسه في الدجلة، فماجَ موجٌ، وقذفه على الساحل، ثم ألقى نفسَه في النار، فما أثّرتِ النارُ أيضًا فيه، ثم ذهب إلى موضعِ السباع، وألقى نفسَه بينهم، فتنفَّروا عنه وهربوا، ثم صعد شاهقًا، ورمى نفسَه من الشاهقِ، فجاءَتْ ريحٌ وأخذته، ووضعته على الأرض بلا مضرَّةٍ، فازداد شوقُه بأضعافِ ما كان، فصاحَ وقال: ويلٌ لمن لا يقبلُهُ الماءُ، ولا النار، ولا السباعُ، ولا الجبال. فسمع هاتفًا يقول: من كانَ مقبولَ الحقِّ لا يقبلُهُ غيرُه.

ثم بعد ذلك نَسبوه إلى الجنون، وقيّدوه بالسلاسل، وحبسوه في المارستان، ويتردَّدُ إليه الناسُ جماعةً جماعةً، ويقولون: هذا مجنون. وهو يقول: أنا مجنونٌ، وأنتم العقلاء! فأرجو من الله تعالى أن يزيدَ جنوني وعقلَكم. ثم بعثَ الخليفة طبيبًا ليعالجَه، فكان يُركِّبُ[٤] الدواء، ويوجرون في

---

(١) في (أ): فوصل إلى الداوي أنه.

(٢) في (أ): من يقول مرة (الله).

(٣) في (أ): وازداد قلقه وشوقه وجدُه وعشقه.

(٤) في (أ): فكان يركبون الدواء.

حلقة، وهو يقول: لا تتصدَّعوا؛ فإنَّ لي داءً لا يطيبُ بمعالجتكم.

نقل أن جماعةً من الناس دخلوا عليه، وهو في الحبس، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن أصدقاؤك وأحباؤك. فأخذ الحجارةَ ويرميهم بها، فكلُّهم هربوا عنه، فقال: يا جماعةَ الكذّابين، لو كنتم أصدقائي وأحبائي لما فررتم من بلائي، فعُلم[1] أنكم تحبُّون أنفسَكم ولا تحبوني.

ونقل أنه كان يذهب وفي كفِّه نارٌ، قالوا: إلى أين؟ قال: أمشي لأحرقَ الكعبة؛ حتى يتركها الناسُ، ويشتغلون بربِّها.

ورأوه يومًا، وبيده عودٌ، كِلاَ رأسَيْهِ مشعولٌ، قيل له: ما هذا يا أبا بكر؟ قال: أريد أن أحرقَ بأحد الطرفين الجنة، وبالآخر النار، ليتوجَّهَ الخلقُ في العبادة إلى الله تعالى.

أقول: يُشير بالكلام الأوّلِ إلى أن الناس يطوفون حولَ الكعبة، ويحجُّون من مكانٍ سحيق ـ أي بعيد ـ ولا يعرفون كيفية هذه العبادة[2]، فكيف يعرفون المعبود، فيشتغلون بالعبادة كيف كانت على غفلةٍ من المقصود الأصلي وهو المعرفة؟.

وبالكلام الثاني إلى أنَّ العارفَ المحقِّقَ ينبغي أن يعبد الله تعالى بلا غرضٍ ـ أي لا لأجلِ رغبةٍ في الثواب، ولا رهبةٍ في العقاب ـ بل لو فرضنا أنَّ الله تعالى لم يكلِّفْ أحدًا بشيءٍ من العبادة، فالعارف يجتهدُ في العبادة في هذه الحالة أيضًا أقوى ما يكون؛ لأنَّ الله تعالى أهلٌ للعبادة، مُستحقٌ لها، سواءٌ كان أَمَرَ أم لا، وأمّا الجاهلُ المقلِّدُ فإنّما يعبدُ الله تعالى على طمعٍ في نعيم الجنة، أو خوفٍ من أليم العقاب، ولأجلِ أمثالِ هذه الكلمات كانوا ينسبون الشبليَّ إلى الجنون. والله أعلم.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله كان يرقصُ تحت شجرةٍ أيامًا، فسألوه عن هذه

---

(١) في (أ): فعلمتُ أنكم.

(٢) في (أ): كيفية هذه المعادة.

الحالة، فقال: على هذه الشجرة فاختةٌ[١] تصيح وتقول: كو كو، وأنا أيضًا لموافقته أقول: هو هو، فنقل أنَّ الفاختة ما سكتَتْ إلاّ بعدما سكت الشبليُّ.

نقل أنَّ رِجلَه كُسرت نوبةً، وجرى الدَّمُ منها، فكان يتقاطرُ على الأرض، ويظهر نقش لفظة (الله).

ونقل أنَّ الشبليَّ كان في أوّلِ المُجاهدة بحيث أنَّه يكتحلُ بالملح كم سنة ليعتادَ السهر، ولا يأخذه النوم.

وقال بعضُهم: اكتحلَ بسبع منّاتٍ[٢] من الملح، وكان يقول: إنَّ الله تعالى ألهمني وألَحَّ عليَّ أن النائمَ غافلٌ[٣]، والغافلَ محجوبٌ.

ونقل أنه رحمه الله كان يأخذُ حزمةً من القضبان، ويدخلُ سردابًا، ويشتغلُ بالعبادة والمراقبة، وإذا حصلتْ له غفلةٌ يأخذُ قضيبًا، ويضربُ به على يديه ورجليه، حتى إذا انكسرتِ القضبان كلُّها يقومُ ويضربُ يديه ورجليه على الحائط.

ونقل أنه قال: تمنّيتُ في جميع عمري أن تكون لي مع الله خلوةٌ بحيث لا أكون أنا في البين.

وقال: اجتهدتُ سبعين سنةً لأن أعلم نَفَسَ الرحمن.

أقول: يُشير إلى أن ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «إنّي لأجدُ نَفَسَ الرحمن من جانب اليمن»[٤]. والله أعلم.

---

(١) الفاختة: واحدة الفواخت، لضرب من الحمام المطوّق، وتسمّى بالشام: يا كريم، وفي العراق فُخْتيّة. معجم متن اللغة.

(٢) المنُّ: كيل يكال به السمن، أو ميزان يوزن به، وقد اختلف في تقدير وزنه وأنواعه، فقيل: المن الطبي يساوي ٦١٨ غرامًا، والمن المصري ٤١٢ غرامًا، والمن التبريزي يساوي ٢٥٢٥,٨ غرامًا، والمن الشاهي ٥٠٥١,٦ غرامًا. معجم متن اللغة.

(٣) في (أ): ألهمني وألحَّ أن لا أنام غافلاً.

(٤) حديث ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ٢٢٢. قال الحافظ العراقي: أشار ﷺ بقوله هذا إلى أويس القرني، لم أجد له أصلاً. وقد روى البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٧٠ والطبراني في=

وقال: ليتَ أنّي أكونُ أَتونيًا[1]، لا يعرفني أحدٌ.

وقال رحمه الله: إنّي أنظرُ إلى نفسي كما أَنظرُ إلى يهوديٍّ.

وقال: إنّي ابتليتُ بأربعة أشياء، كلُّها أعداءٌ ليَّ: الدنيا، والشيطان، والنفس، والهوى.

إنّي ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا ... إلاّ لعظمِ مُصيبتي وشقائي

إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهَوى ... كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

نقل أنه كان يقول في مناجاته: إلهي، لو جعلتَ الدُّنيا في حكمي، لجعلتُها لقمةً، وألقيتها كلبًا أو يهوديًا؛ لأنّها صارَتْ حجابًا عن المقصود.

قال: قلتُ: العارفُ خيرٌ من الدنيا والآخرة، لأنَّ الدنيا دارُ المحنة، والآخرةَ دارُ النِّعمة، وقلب العارف دار المعرفة.

وقال: إذا طلبَ مَلَكُ الموت روحي، لا أُسلّمُ إليه روحي، وأقول: إلهي، كما سلّمتَ إليَّ روحي بلا واسطةِ أحدٍ، فكذلك تَسَلَّم منّي بلا واسطة أحد.

وقال: إني لو لم أخدمِ السُّلطان لما كنتُ قادرًا على خدمة المشايخ، ولو لم أخدمِ المشايخ لم أكن قادرًا على خدمة الله تعالى.

ونقل أنه نوبةً في غلبات الشوق خلعَ قميصه، وألقاه في النار ليحترق، قالوا: هذا خلاف العلم، لأنَّه لا يَجوزُ في العلم تضييعُ المال. قال: نعم، ولكن فعلتُ هذا بفتوى القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فإنّي نظرتُ إلى هذا القميص فأعجبني، فظهرَتْ فيَّ غيرةٌ، فأحرقتُهُ لئلا أشتغلَ بشيءٍ غير الله تعالى.

نقل أنه طابَ يومًا وقتُهُ، فدخل في السوق، واشترى مرقّعةً بدانق، وقلنسوةً بنصف دانق، ولبسهما، ثم ينادي: من يشتري صوفيًّا بدانقين؟.

- المعجم الكبير ٧/ ٥٢ عن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ، وهو مولٍ ظهره إلى اليمن: «إني لأجد نفس الرحمن من هاهنا» وانظر إلى بداية ترجمة أويس القرني صفحة (٤١).

(١) الأَتون والأتُّون: الموقد الكبير، كموقد الحمّام.

نقل أنه كان يحدّثُ للناس نوبةً، وكثيرًا يجري على لسانه: (الله)، (الله). قال فتىً مُحترقُ الفؤاد: يا شيخ، لِمَ لا تقولُ لا إله إلاّ الله؟ فتأوّه الشِّبليُّ، وقال: أخافُ ثمَّ أن أتكلّمَ، وأقولَ: (لا إله) وينقطع نَفَسي قبلَ أن أقول: (إلاّ الله) ثم أبقى في هذه الوحشة أبدَ الآباد. فأثّر الكلامُ في قلب الفتى، وأَنَّ أنينًا، وماتَ في ساعته، ثم جاء أولياء الميت، وادّعوا على الشبليِّ بالدم، وذهبوا به إلى دار الخلافة، فقال الخليفة: ما تقولُ يا شبلي؟ قال الشبلي: يا أمير المؤمنين، كان للفتى روحٌ قد احترقتْ بنار العشق في انتظارِ لقاءِ جلال الله تعالى، وانقطعَتْ عن جميع العلائق، وفنيت عن صفات النفس[1]، ولم تبق له طاقةٌ ولا صبر، وقد تواتر المتقاضي من الحضرة في باطنه، فلمعَ برقٌ من جمال حضرة القدس، فترقّى من مقام الوجدِ إلى مقام الشهود، فالروحُ المحترقة كالطير المقفّص، كسرتِ القفص الذي هو القالبُ، وطارت إلى المنزل الأصلي، وعادت إلى المقام الأول، فما ذنب الشبليِّ؟ فقال الخليفة: ردُّوا الشّبليَّ إلى منزله، فإنه ظهر فيَّ من كلماته حالةٌ كدتُ أن أُلقي نفسي من هذا السرير.

نقل أنَّ من كان يجيءُ إليه للتوبة، يقول له: سافر إلى الكعبة على التجريد، ثم بعدما ترجع تصاحبنا. ثم كان يبعثُ ذلك التائب مع جماعةٍ من تلاميذه إلى البادية بلا زادٍ ولا راحلةٍ، حتى قالوا: أهلكت ناسًا كثيرة! قال: ليس كما زعمتم، فإنَّ التائبَ لا يقصدني، وإلاّ يكون عابدًا للصنم؛ بل يقصدُ اللهَ تعالى وأنا آمره بزيارة الكعبة على التجريد، فإن ماتَ في الطريق فقد وصلَ إلى المقصودِ بلا كلفةٍ، وإن رجع فقد ليّنَهُ السفرُ، وحينئذ يصير أهلاً للصحبة، وقوّمَهُ بحيث لا أقدرُ عليه عشر سنين.

نقل أنّه قال: أمرُّ بالسوق، وأرى على جبهة بعضِ الناس: هذا سعيد، وعلى جبهة بعضٍ: هذا شقي.

---

(١) في (ب): صغائر النفس.

نقل أنه نوبةً كان يدورُ في السوق ويقول: آهٍ من الإفلاس، آهٍ من الإفلاس. قالوا: ما الإفلاس؟ فقال: مجالسةُ الناس، ومُحادثتُهم، والمخالطة معهم.

نقل أنّه مرّةً مرَّ بجماعةٍ متنعّمين مُشتغلين بتحصيل لذّاتٍ فانية دنيوية، فشهق، وقال: هذه قلوبٌ واهيةٌ غافلةٌ عن الله تعالى، وعن ذكرِ الله[1]، فلا جرمَ أنَّ الله تعالى ابتلاهم بجيفةِ الدنيا ونجاستها.

ونقل أنّه رأى في بعضِ المقابر امرأةً تبكي وتقول: آهٍ من فراقِ الولد. فصاح الشبلي، وبكى، وضرب على رأسه، وقال: آه من فراقِ الأحد.

قال: التقيتُ بإبليس، فقال: يا شبلي، لا يغرُّك صفاءُ الأوقات، فإنّ تحته غوامضُ الآفات.

نقل أنّه رأى نارًا مَشعولةً في حطبٍ طريٍّ نديٍّ، والماءُ يتقاطرُ من الطرف الآخر كما هو المعروف، فنظر إلى الأصحاب، وقال: أيُّها المدّعون، فإنْ صدقتم أنَّ في قلبكم نارَ الخوف والمحبة، فأين تقاطرُ الدموع من عيونكم؟.

نقل أنه دخلَ في بيتِ الجنيد، وهو في غلبات الشوق والسكر، وامرأةُ الجُنيد مكشوفةَ الرأس، فأرادَتْ أن تسترَ رأسَها، فقال الجُنيد: لا تَستري رأسَك، فإن سكرانَ هذه الطائفة لا يلتفتُ إلى الجنَّة، ولا يحسُّ بالنار. ثم شرع يتكلَّمُ ويتحدّثُ مع الجنيد حتى غلبه البكاء، فالتفتَ الجُنيد إلى امرأته، وقال: غطّي رأسك الآن؛ فإنه صحا، لأجل هذا يبكي.

وقيل دخلَ على الجُنيد يومًا محزونًا، فقال الجُنيد: مالك يا شبلي، من طلب وجد؟ قال الشبلي: لا، بل من وجدَ طلبَ.

أقول: كلامُ الجُنيد إشارةٌ إلى مقام السالك المجذوب، وكلامُ الشبلي إلى مقام المجذوب السالك، ولا شكَّ في أنّه لو لم يكن من الله جذبُه أولاً كيف يطلبه أحد، بل كيف يغيّر فيُقدّم الجذبة؟ ـ أعني التقديرَ الأزليّ، والعنايةَ الأولية

(١) في (أ) غافلة من الله وعن رسوله.

بشيءٍ لا بدَّ منه ـ ثم بعد ذلك لا بدّ من الطلب، وبه تزدادُ الجذبةُ ساعةً فساعة، فكلّما يزدادُ الطلبُ تزداد الجذبة، وبالعكس، فعلى هذا لا تنفكُّ الجذبةُ عن السلوك، ولا السلوكُ عن الجذبة، هذا ما خطر بالبال أوانَ الكتابة، فجرى على لسان القلم. والله أعلم. .

ونقل أن الجنيد رحمه الله رأى في المنام أنّه كان جالسًا مع الأصحاب، وفيهم الشبلي رحمه الله، فدخل عليهم النبيُّ ﷺ، وقبَّلَ على جبهة الشبلي وخرج، فقال الجُنيد للشبلي: ماذا تعملُ حتى صرتَ أهلاً بهذه النعمة، وهذا التشريف؟ قال الشبلي: لا أعلمُ لي عملاً يوجبُ هذا سوى أني أقرأُ في سُنَّةِ صلاة الليل هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] قال الجُنيد: بهذا وجدتَ ما وجدتَ.

نقل أنَّ الشبلي رحمه الله توضَّأ يومًا، وعزم أن يدخلَ المسجد، فنُودي في سرِّه: أين لك طهارة لائقة حتى تهجُمتَ علينا، وتريد الدخول في بيتنا؟! فلمّا اطّلع على هذا، رجع، فنُودي: أنّك رجعتَ عن بابنا، فأين توجّهت؟ فشرع في الصياح والشهيق، فنُودي: يا شبلي، تشتكي منّا؟ فوقف في مكانه، وصمتَ، نُودي: يا شبلي، تدّعي التحمُّلَ؟ فقال: إلهي، المستغاثُ بك منك.

ونقل أن الشبليَّ قصدَ الحجَّ نوبةً، فاحتاج إلى ألف درهم ليصرفَه في النقل لأصحابه، فجاء إليه نصرانيٌّ، فقال: عليَّ الألفُ، ولكن بشرطٍ أن أُرافقكم في هذه النوبة. فمنعه الشيخ، فلم يمتنع، فأذنَ له الشيخ في المشي معهم طمعًا في إيمانه، فشدَّ النصرانيُّ وسطَه للخدمة، وذهب معهم، وكان يخدمهم غايةَ الخدمة إلى أن بلغوا ميقاتَ الإحرام، وأحرمَ الشيخُ والأصحاب، فأحرم النصرانيُّ كما أحرموا، فلمّا وصلوا إلى الحرم، قال الشبلي: توقَّفْ؛ إذ لا طريقَ لك في الحرم وأنت على حالك. فشرعَ النصرانيُّ في التضرُّع والبكاء قائلاً: إلهي، إنَّ الشبليَّ يمنعني عن زيارة بيتك، والدخولِ في حرم حرمك. فسمعوا هاتفًا يقول: يا شبليُّ، نحن طلبناهُ وجذبناه ودعوناه من بغداد، وأشعلنا نارَ المحبّةِ في فؤاده، وبسلسلة اللطف والإحسان اجتذبناه إلى حرمنا،

فلِمَ تزاحمُهُ؟ فابعدْ منه، ويا وليَّنا ادخلِ البيتَ. فلمَّا دخلَ البيت وتشرّف، ودخلتِ الناسُ وخرجوا، وهو بقي في البيت ولا يخرج، فقال له الشبلي: ولِمَ لا تخرج؟ قال: لا يأذنونَ لي في الخروج، ففي أيِّ جهةٍ أطلبُ الباب، فلا أجده.

أقول: ولا شكَّ في أن النصرانيَّ قد أسلمَ، ثم توجَّه إلى الله، ولم يكن لهم خبرٌ بإسلامه[1]، وهذا فضلُ الله يُؤتيه من يشاء. والله أعلم.

نقل أنَّ الشبليَّ سافر إلى البصرة في جماعةٍ من أصحابه، وضيَّفهم طائفةٌ من البصرة وأعزُّوهم وأكرموهم، ثم شيَّعوهم يوم الخروج، وهو لم يلتفت إليهم، ولا اعتذرَ عن واحدٍ منهم على العادة، فقال له واحدٌ من الأصحاب: يا شيخ، لم لا تلتفتُ إليهم، ولهم على الأصحاب فضلٌ وحقُّ نعمةٍ؟ قال: هم إن عملوا ذلك لله فعليه أجرُهم وثوابهم، وإن عملوا لنا، ونحن عبيدُ الله ومماليك له، ومَنْ أحسنَ إلى مملوكِ شخصٍ، فذلك الإحسانُ معدودٌ على سيِّدِهِ، والله خبيرٌ بأعمالهم، وعلى أيِّ حالٍ فاللهُ يجزيهم ويثيبهم، واعتذاري لا ينفعُهم.

نقل أنه قال: عزمتُ أن لا أطعمَ إلاّ من الحلال، فخرجتُ إلى صحراء بعيدٍ من العمران، فوصلتُ إلى شجرةِ تينٍ في الخراب، فقصدتُ أن أتناولَ منه، فمددتُ يدي، فنطقَ التينُ وقال: احفظْ وقتك يا شبلي، فإنَّك على أن لا تأكلَ إلاّ من الحلال، والحالُ أنا ملكٌ ليهوديٍّ.

نقل أن رجلاً أعمى كان يحبُّ الشبلي لكثرةِ ما سمع من مناقبه وأوصافه، فيومًا جاءَ إليه الشبلي جائعًا، وعنده رغيفان، فما أطعمه رغيفًا، فمضى الشبليُّ، ثم أُخبر الأعمى: أنَّ الشّبليَّ جاء إليك وما أطعمتَهُ كُسيرةَ رغيفٍ! فندم الرجل، وعمل دعوةً صرفَ عليها مئةَ دينار، ودعا الشبلي في جماعةٍ من الأكابر والأشراف، ففي المجلس سأل شخصٌ من الشبلي: ما علامةُ أهلِ الجنة وأهل النار؟ قال: علامةُ أهلِ النار أن لا يَصرفَ إلى فقيرٍ رغيفًا لله تعالى، ويصرفَ

---

(١) في (أ): لهم خبرة بإسلامه.

لهوى النفس مئة دينار كما عملَهُ صاحبُ الدعوة، وعلامةُ أهل الجنة بعكس ذلك.

نقل أنه كان يعظُ الناس، فحصل لفقيرٍ ذوقٌ، فصاح، وعدا إلى دجلة، وألقى نفسه فيها، فقال الشبلي: إن كانَ صادقًا أنجاه الله تعالى كما أَنجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذبًا أغرقَهُ الله تعالى كما أغرقَ فرعون.

وكان يعظُ الناسَ نوبةً أُخرى إذ صاحتْ عجوزةٌ من خلف السترِ، فقالَ: موتي يا من تصيحُ وراءَ الستر. فقالت: ها أنا جئتُ لأموت. وخطتْ خطوةً، وماتت، ولم يخرجْ إلى سَنَةٍ، وكان يقول: داست عجوزةٌ رقبتي.

نقل أنّه اتّفق أن عرضَ للجُنيد والشبلي معًا مرضٌ، فجاء طبيبٌ نصرانيٌّ إلى الجنيد رحمه الله، وسأله عن مرضه، وعن سبب مرضه، فالجُنيد ذكرَ له الحالَ من الأول إلى الآخر، وعالجه الطبيبُ، ثم ذهبَ إلى الشبلي، وكذلك سألَهُ عن حاله، فسكتَ، ولم يذكرْ له شيئًا، ثم رزقهم الله تعالى الصحةَ، والتقيا، فقال الشبلي: يا شيخ، ذكرتَ للطبيب حالَ مرضك! قال: ليعلم الطبيبُ أن الله تعالى يعملُ مع المسلمين كذا، فكيف حال النصارى؟ ثم قال الجُنيد: وأنتَ لِمَ لا تذكرُ حالَكَ له؟ قال: لأنّي استحييتُ من الحبيب أن أشتكي منه إلى العدو الطبيب.

نقل أنَّ الشبلي مرَّ بدار الشفاء، فرأى شابًا مليحَ المنظر، حسنَ الهيئة، مُقيّدًا بالسلسلة، فقال: يا شيخ، إني أرى فيك سيما الصالحين، فأرجو منك أن تقولَ مع الله وقتَ السحر، حين يطيبُ وقتُك، ولا يكونَ حينئذٍ بين الله وبين العبدِ حجابٌ: أوجدتني من العدمِ، ثم بعّدتني من الأهل والأقارب، وقطعتني من الدنيا ولذّاتها، وأوقعتني في الغيرة، وعرّيتني وجوّعتني، وأذهبتَ عقلي، وألهبتَ نارَ المحبّةِ في كبدي، ثم قيّدتني بالسلاسل، وفضحتني بين الخلائق، وما لي ذنبٌ غير محبّتك. ولمّا أرادَ الشبليُّ أن يطلعَ، صاحَ الشابُّ خلفه، وقال: يا شيخ، لا تقل شيئًا مما قلت؛ فإني أخاف أن يَبتليني بشيءٍ مما أنا فيه، فالسكوتُ خيرٌ على كلّ حال.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله كان يمرُّ بالسوق، فسمع فقاعيًا[1] يصيح: ما بقي إلاّ واحدٌ ـ أي كوز واحد للفقاع ـ فشرع الشبليُّ يصيحُ ويقولُ: هل بقي إلاّ واحد.

نقل أنَّ مُتكدِّيًا كان يقول: يكفيني رغيفان. وينادي على ذلك، فقال الشبليُّ: طُوبى لك إذ يكفيك رغيفان؛ فإنّي يُعرضُ عليَّ كلَّ مساءٍ جميعُ الكونين ـ أي الدنيا والآخرة ـ ولا أرضى به، ولا ألتفتُ إليه.

نقل أنَّ الشبليَّ رأى رجلاً يبكي، فسأله عن سببِ بُكائه، فقال: كان لي حبيبٌ فمات، فأبكي عليه. فقال: يا جاهل، هلاَّ اتَّخذتَ حبيبًا لا يموتُ ولا يغيب.

نقل أنّه صلّى نوبةً على جنازةٍ، فكبَّرَ خمسَ تكبيرات، فقيل له في ذلك، قال: الأربع على الميت، والتكبيرةُ الخامسةُ على سائر الناس.

أقول: واعترضوا عليه لأنَّ التكبيراتِ المشروعة في صلاةِ الجنازة أربعٌ، وكأنّه بالخامسة أشار إلى أن النَّاسَ أمواتٌ؛ لاشتغالهم بما سوى الحقِّ جل جلاله. والله أعلم.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله غابَ أيامًا، وما كانوا يجدونه، ثم بالآخر وجدوه بعد طلبٍ كثير في بيتِ مخنَّثٍ، قالوا: يا شيخ، لا نرى هذا البيتَ مكانًا لك، فلِمَ قمتَ فيه أيامًا؟ قال: دعوني، كما أنّه ليس برجلٍ ولا امرأةٍ في الدنيا، كذلك ما أنا برجلٍ ولا امرأة في الدين والجنسُ إلى الجنس ـ كما قيل ـ يميل.

أقول: وهذا يدلُّ على كاملِ تواضعه وإنكاره في نفسه، وعدمِ التفاته إلى أعماله؛ بل إن أعماله وإن كثرت كان في نظره كلا عملٍ، وهذا طريقةُ المُخلصين، وسبيلُ الخالصين، يؤيِّدُهُ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. والله أعلم.

(١) الفقّاع: شراب يتخذ من الشعير، والفقاعي بائعه. معجم متن اللغة.

نقل أنّه رأى صبيَّيْنِ وجدا جوزةً، وكانا يختصمان فيها، فقال لهما: تعالوا إليَّ أقسمها بينكما. فأخذَها منهما، وكسرها، فإذا هي فارغةٌ، فسمع هاتفًا يقول: يا شبلي، لعلَّكَ أنت القسّام؟ فخجل من ذلك، وقال: الخصومةُ والقسمةُ في شيءٍ خالٍ حالُ أهل الدنيا، فإنّهم يتخاصمون على اللا شيء.

نقل أنه رحمه الله رأى جاريةً حسناء، فقال لسيِّدها: أتبيعُها بدرهمين؟ قال: وأنت مجنون؟ هل سمعتَ جاريةً تُباع بدرهمين! قال الشبلي: أنا مجنون أم أنت؟ أما تعلمُ أنَّ من الحورِ من تباع بتمرتين.

أقول: بتمرتين يتصدّقُ بهما شخصٌ عن فقرٍ مخلصًا لله تعالى، إذ ورد أنَّ درهمًا في الصدقة قد يكون مقدار ألف، لأن الأول يكونُ عن الفقر، والثاني عن الغنى[1].

قال الشاعر[2]:

جَهْـدُ المُقـلِّ إذا أَعطـاكَ نـائلَـهُ ... ومكثرٍ في الغِنى سِيّانِ في الجودِ

والله أعلم.

نقل أنه قال: ليس في فِرَقِ أهلِ الملل والنحل طائفةٌ أخسُّ ولا أنزلُ وأذلُّ وأحقر من الروافض والخوارج؛ فإنَّ سائرَ الناس اختلفوا في الحقِّ جلَّ جلاله، وفي صفاته، في الجملة كلُّهم يُشيرون إلى الحقِّ، ويحدّثون عنه.

---

(١) قوله هذا إشارة إلى حديث المصطفى ﷺ الذي رواه الإمام أحمد ٢/ ٣٧٩، والنسائي ٥/ ٥٩، والحاكم ١/ ٤١٦، وابن حبان ٨/ ١٣٥. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق درهمٌ مئة ألف درهم» فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مئة ألف، فتصدّق بها، ورجل ليس له إلاّ درهمان، فأخذ أحَدَهما فتصدّق به».

(٢) ذكرهُ المرزوقي شارح الحماسة من غير عزو ٤/ ١٧٦٧، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٨٠، والتذكرة الحمدونية ٢/ ٢٨١ نُسب إلى محمد بن يسير، وروايته فيهما: فضل المقل إذا أعطاك مصطبرًا.

أقول: يُوافقه قول الشاعر[(١)]:

عباراتُنَا شتّى وحسنُكَ واحدٌ ... وكلٌّ إلى ذاكَ الجمالِ يشيرُ

والله أعلم.

وأمّا الروافض والخوارج فهم يضيّعون أعمارَهم، ويَصرفون أوقاتهم في الخلقِ، غافلين عن الحقِّ، ومع هذا فهم يَحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا.

نقل أن الشبليَّ قال مع علويٍّ: من يُساوي منّا جدَّك عليًا رضي الله عنه، فإنه تصدَّقَ بثلاثة أقراصٍ من الشعير، واللهُ تعالى أنزلَ في شأنه مع أهلِ بيته رضوان الله عليهم قولَه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . . .﴾ الآية [الإنسان: ٨] ومدحهم بذلك، وأثنى عليكم[(٢)]، وبقيتْ هذه الخصلة الحميدة لهم مشهورةً بين الناس، متلوّةً في كتابِ الله تعالى إلى قيام الساعة، وواحدٌ منّا يتصدَّق بألوفٍ لا يَعلمُهُ ولا يذكرُه أحدٌ.

أقول: وكلامُ الشبلي صحيحٌ لا ريب فيه، ويؤيِّدُه قوله ﷺ في أصحابه رضوان الله عليهم: «لو أنفقَ أحدُكم مِلْءَ الأرض ذهبًا لما بلغَ مُدَّ أحدِهم، ولا نَصيفَهُ»[(٣)] فإنه ﷺ صرح بأنَّ تصدّقَ واحدٍ من أصحابه بمدٍّ أو نصفٍ خيرٌ وأكثر ثوابًا عند الله تعالى من تصدّقِ غيرهم ولو بملءِ الأرض ذهبًا، وعليٌّ رضي الله عنه كان من خيار الصحابة، فما ظنُّك بتصدّقه، وأيضًا قال ﷺ: «خيرُ القرون قرني، ثم الذي يلونهم. . .» الحديث[(٤)]، وهذا أيضًا دليلٌ على فضل الصحابة رضوان الله عليهم وعلى من بعدهم. والله أعلم.

---

(١) ذكره داود الانطاكي في كتاب تزيين الأسواق ٢/ ٣٧ من غير عزو.

(٢) في (أ): وأثنى عليهم.

(٣) حديث رواه البخاري (٣٦٧٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا، ومسلم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه، انظر الحاشية (١) صفحة (٥٤).

نقل أن الشبليَّ بينما كان في المسجد إذ قرأ شخصٌ قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] يعني إن أردنا نأخذ منك يا محمد ما أوحينا إليك، يعني وهو القرآن والرسالة. فحصلتْ له حالةٌ، وضرب جسدَه على الأرض حتى جرى منه الدم، وقال: إنَّ الله يُخاطبُ سيِّدَ الأنبياء عليهم السلام مع أنَّه حبيبه بهذا الخطاب، فكيف يكون حالُ غيره؟.

نقل أنَّ الشبليَّ قال: مذ زمان أُريدُ أن أقول: حسبي الله، وما أطيق؛ لأنّي أَعلمُ أنّي كاذبٌ في هذا المقال.

أقول: لأنَّ معنى حسبي الله بلوغُ العبد إلى أقصى مقام التوكّل، وقطع النظر ظاهرًا وباطنًا عمّا سواه، والشبليُّ علمَ أنّه لم يصلْ بعدُ إلى هذا المقام، فلو قال حسبي الله مُدّعيًا لهذا المقام، كان كاذبًا لا محال، وإذا كان هذا حالَ الشبلي، فما تقول في غيره[1]؟ والله أعلم.

نقل أنَّ شخصًا أراد أن يمتحن الشبلي، فأهدى له بَدْلة ثوب من الحرام، ولمّا دخلَ الشبليُّ بيته قال: وما هذه الظُّلمةُ التي أراها؟ وحين اطَّلعَ على الهدية، قال: الظُّلمةُ إنّما هي من هذه. وردَّها إلى المهدي، وقال: هذا لا يليقُ بنا.

نقل أنَّ الشبليَّ ولدتْ له بنتٌ، ولم يكنْ في بيته شيءٌ قطُّ، قيل: لم لا تطلبُ شيئًا من بعض الأصدقاء؟ قال: إنّ الطفلَ حين كان في ظلمات الرحم، أوصلَ اللهُ إليه راتبة الرزق، والآن أخرجَهُ إلى فضاءِ عالم الوجود، فيكف ينساه؟ ولكن علم أنَّ المرأةَ ضعيفةُ العقل، ركيكةُ الرأي، لعلّها لا يكون لها مثلُ صبره وتوكّله. فلمّا جنَّ عليه الليل تنحّى في موضع خالٍ، ووضع وجهَهُ على التراب، وقال: يا إلهي، أرسلتَ إلينا ضيفًا، فأنعمْ علينا بشيءٍ نقوم بخدمته، بحيث لا يكونُ بواسطةِ أحدٍ من البخلاء. ما تمّتْ مناجاتُهُ إذ نزلتْ عليه من السقف دنانيرُ كثيرةٌ من الذهب، وسمع هاتفًا يقول: خذْ بلا حساب،

(١) في (أ): فكيف يكون غيره.

وكلْ بلا عتاب. فأخذها بعد أن جمعَها، وفي الغد دخل السوق ليشتري حوائجَ البيت، فقال الناس: من أين هذه الدنانير الجديدة؟ قال: ضُرِبَتْ في دار ضربٍ لم تصلْ إليها يدُ بشرٍ، سبحان من يرزقُ عباده بلا حسابٍ ولا عتاب.

قيل له: يا شيخ، من كثرةِ اكتحالك بالملح لا تخافُ على عينك؟ قال: وما تَنفعني العينُ، فإن مقصودي مستورٌ من العين.

قيل له: ما أَعجبُ الأشياء؟ قال: أعجبُ الأشياء قلبٌ يعرفُ اللهَ ثم يُؤذيه.

قيل له: متى يتمُّ حالُ المريد؟ قال: إذا كان السفرُ والحضر، والغائبُ والشاهد مساويًا عنده.

قيل له: إنَّ أبا تراب النَّخْشبي جاعَ نوبةً في البادية، فأمطرَ اللهُ عليه الطعامَ بدلَ المطر. فقال الشِّبليُّ: كان هذا رفقًا من الله تعالى معه، ولم يكن واصلاً إلى مقام التحقيق، إذ لو كان في مقام التحقيق لكان يقول: «أظلُّ عند ربِّي يُطعمني»[1].

قال أبو العباس الدامغاني: وصّاني[2] الشبلي رحمه الله بملازمةِ الانفراد عن الناس، ومحو اسمي عن ديوان القوم، وأن أتوجَّهَ إلى حائطٍ إلى أن أموت.

سأل الجُنيد عن الشبلي رحمهما الله: كيفَ تذكرُ الله تعالى، وليس لك صدقُ قدمٍ في ذكره؟ قال الشبليُّ رحمه الله: أذكرُ الله تعالى على المجاز، وإن لم أذكرْه على الحقيقة إلى أن يَذكرني اللهُ تعالى مرَّةً. فغُشي على الجُنيد من ذوق هذا الكلام، فقال الشبليُّ: دعوه، فإنَّ على هذا الباب تارةً خلعة، وتارةً ضربًا بالسوط.

---

(١) أخرج أحمد في المسند ٣/ ١٢٤، والبخاري (٧٢٤١) في التمني، باب ما يجوز من اللو، ومسلم (١١٠٤) في الصوم، باب النهي عن الوصال عن أنس أن النبي ﷺ واصل في رمضان، فواصل ناس من أصحابه، فقال: «لو مُدَّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمِّقون تعمّقَهم، إني أظلُّ يطعمني ربي ويسقيني».

(٢) في (ب): قال: وصاني الشبلي.

قيل للشبلي رحمه الله : الدنيا دارُ الاشتغال، والآخرةُ دار الأهوال، فمتى الراحة؟ قال: اجتنبوا عن أشغالِ الدنيا للنجاة عن أهوالِ الآخرة.

قيل له: أخبرنا عن التوحيدِ بعبارةٍ محرَّرةٍ. قال: ويحكم، مَنْ أخبرَ عن التوحيد بالعبارة فهو مُلحدٌ، ومن أشارَ إليه فهو ثنوي[1]، ومن سكتَ فجاهل، ومن ظنَّ أنّه واصلٌ فليس له حاصل، ومن قال: إنّه قريبٌ، فهو بعيد.

أقول: أمّا قولُه: (من أخبر عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد) أي: مائلٌ إلى الباطل، فمعناه: أنه لا بدَّ من الاعتقاد الصحيح أولاً، ثم التحقيق ثانيًا، ثم الشهود ثالثًا. فالأولُ يُعبّرُ عنه بعلم اليقين، والثاني بعين اليقين، والثالث بحقِّ اليقين، فمن لم ينظرْ إلى هذه الأحوال، واكتفى عن المذكورات بالعبارة، فهو ملحدٌ لا محالة.

وأما قوله: (ومن أشار إليه - أي إلى الله تعالى - بالإشارة) الحسّية أنه هناك أو هنا فهو مشركٌ ثنوي، لأنَّ كونَه مُشارًا إليه يستلزمُ أنّه جسم[2]، وفي مكانٍ وزمان، وهذا وأمثالُه من صفات المُحدثات، وسماتِ المُمكنات، واللهُ تعالى مُقدّسٌ عن ذلك، مُنزّه عنه.

وأما قوله: (ومن سكت فجاهل) فمعناه: أنَّ من عرف الله تعالى، وخرج بتوفيقه تعالى من ظُلمات الغواية إلى نور الهداية كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فيجب عليه أن يُقرَّ بالتوحيد، ويُعربَ عنه لتجري عليه أحكام الشرع، وإلاّ فجاهلٌ ظاهر، وإن كان عارفًا باطنًا، ولكن من عرفَ الله تعالى، وآمنَ به، ولم ينطق بما اعتقد فإمّا لخرسٍ، أو لخوفٍ على النفس، أو لأنه لم يبق إلاّ أن ينطق فهو مؤمنٌ عند الله، غيرُ مؤمن عندنا.

وأما قوله: (من ظن أنه واصل فليس له حاصل) فمعناه: أنّ الوصول إلى الله

---

(١) كتب أمامها في (أ): في نسخة وثني.

(٢) في (أ): لأن قوله (مشار إليه) يستلزم جسمًا له.

تعالى بحسب الظاهر مُستحيلٌ قطعًا، وأمّا المعرفةُ فغايتُها العجزُ عن المعرفة، كما قال ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»(١).

وروي عن داود عليه السلام: سبحان من لم يجعلْ لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته. ويُروى هذا عن جعفر الصادق أيضًا.

فعلى هذا من ادّعى أنّه وصلَ إليه بالمعرفة، أو وصل إلى كُنْهِ المعرفة، فدعواه كذبٌ وباطل، ومن يكون كذلك فلا حاصلَ له في معرفته، ولا طائلَ لمرتبته، يؤيِّدُهُ ما رُوي عنه ﷺ: «من قال: إنّي من خيرِ الناس فهو من شرِّ الناس، ومن قال إنّي في الجنة فهو في النار»(٢). والله أعلم.

نقل أنَّ الشبليَّ رحمه الله سُئل عن التصوف، فقال: فناء الناسوتية ـ أي البشرية ـ وظهور اللاهوتية ـ أي الإلهية.

وقال: التصوفُ ضبطُ الحواس، ومُراعاةُ الأنفاس.

وقال: لا يصيرُ الإنسانُ صوفيًا حتى يَرى جميعَ الخلائق عيالاً له ـ أي في النصيحة لهم، وتربيتهم.

وقال: الصوفي من انقطعَ عن الخلقِ، ويكونُ للهِ وحده، كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

وقال: التصوفُ هو العصمةُ عن رؤية الكون ـ يعني لا يرى الوجود إلاّ لله الواحدِ القهار.

---

(١) حديث ذكره ابن عرب شاه في فاكهه الخلفاء ١٢٢، قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٤١٠ تحت قوله: «إن أتقاكم وأعلمكم...» . وفي الخبر: سبحانك ما عرفناك. والحديث يذكر بقول الملائكة لله عزّ وجل: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٤٤، والمعجم الكبير ٢/ ١٨٤. وقد تقدم الحديث صفحة ١٨١.

(٢) قوله ﷺ: «ومن قال إني في الجنة فهو في النار» رواه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ١٢٠ (١٧٦) عن يحيى بن أبي كثير. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: وفيه محمد بن أبي العطاء الثقفي، ضعفه أحمد، وقال: هو منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، ومع ذلك فهو من قول يحيى موقوفًا عليه. وأما قوله ﷺ: «من قال: إني من خير الناس، فهو من شرّ الناس» فلم أجده في المصادر التي بين يدي. وانظر الحاشية (٤) صفحة ١٧٤.

وقال: التصوف برقٌ مُحرق.

أقول: يعني هو برقٌ محرق[١] عن هواء الهوية على قلب الصوفي، فيحرق نفسَه وأنانيته وأنيَّته مع جميع أوصافه. والله أعلم.

وقال رحمه الله: إن الله تعالى أوحى لداودَ عليه السلام: يا داود، الذكر للذاكرين، والجنة للمُطيعين، والزيارة للمسافرين، وأنا للمحبّين.

وقال: المحبّةُ دهشةٌ في لذّةٍ، وحيرةٌ في نعمة.

وقال: المحبّةُ تركُ ما تحبُّ لمن تُحبُّ.

وقال: من ادّعى المحبّة، ثم اشتغلَ بغيرِ المحبوب، أو طلبَ غيرَه، فالحقُّ أنه مُستهزِئٌ بالمحبوب.

وقال: الهيبةُ تذيب القلوب، والمحبّةُ تُذيب الأرواح.

وقال: التوحيد حجابُ الموحّد عن جمال الحضرة الأحدية.

وقال لرجلٍ: هل تعرفُ لِمَ لا تصلُ إلى مقام التوحيد؟ قال: لا. قال: لأنَّك تَدّعي الاشتغال في الطلب.

وقال: إذا أرادَ اللهُ تعالى تعذيبَ البلاء أنزلَهُ في قلبِ العارف.

أقول: ونعمَ ما قيل فيما يُناسب هذا المعنى:

وليس الفتى مَنْ ضَاقَ بالصبرِ صدرُهُ ... ولكنَّه من ضاق عن صَدْرِهِ الصبرُ

والله أعلم.

سئل الشبلي عن العارف، قال: العارف من لم يقم على معارضته من مخلوقات الله عزَّ وجل[٢].

سُئل الشبليُّ رحمه الله مرة أخرى[٣] عن العارف، فقال: هو من

(١) في (ب): هو برق يلمع من.
(٢) هذا القول ليس في (ب).
(٣) قوله: (مرة أخرى) ليس في (ب).

يحملُ الأرضَ والسماء بهدبةٍ من أهدابه.

قالوا: يا شيخُ، قلتَ مرّة كذا، والآن تقولُ هذا! قال: ذلك الكلامُ صَدَرَ منّا ونحن نحن، وهذا الكلامُ قلتُ وما أنا أنا.

أقول: معناه إذا كان العارفُ في عالمِ الكثرة ناظرًا إلى وجوده، لا شكَّ أنّه باستقلاله وانفرادِهِ لا يقوى على معارضةِ أصغرِ مخلوقاتِ الله تعالى[1]، ولا على دفعِهِ عن نفسه، وأمّا عند تلاطم[2] بحرِ التوحيد واستغراقه فيه، فيحصل له قوةُ حمل السموات والأرضين بشعرةٍ من شعور أجفانه بقدرة الله تعالى وقوّته. والله أعلم.

وقال: لا علامة للعارف، ولا كلامَ للمُحبّ، ولا قرارَ للخائف.

سئل عن المعرفة، قال: أوّلُها إلى الله تعالى، وآخرُها لا نهاية له.

وقال: لا يعرفُ الله تعالى أحدٌ. قيل: كيف؟ قال: لو عرفوه لما اشتغلوا بغيره.

قال: العارفُ من يكونُ حرًا عن الدنيا، مُجرّدًا عن الآخرة؛ لأنَّ من تجرَّدَ عن الأكوان انفردَ إلى الحقِّ.

وقال: [العارف][3] من لا يرى، ولا يَنطقُ إلاّ بالله، ولا يرى لنفسه حافظًا غيرَ الله تعالى.

وقال: العارفُ كالربيع، ففيه صوتُ الرعد، ولمعانُ البرق، وهبوبُ الرياح، وصياحُ الأطيار، وظهورُ الأزهار، ونزولُ الأمطار، فكذلك حالُ العارف: بالعينِ يبكي، وبالشفتين يضحك، وبالقلبِ يحترقُ، وعلى سرِّه يمطرُ، ويذكرُ اسمَ الحبيب[4]، وعلى بابه يدور.

---

(١) في (أ): معارضة بقّةٍ، أصغرِ مخلوق الله.

(٢) في (ب): ولا ما عند تلاطم.

(٣) ما بين معقوفين لاستكمال المعنى.

(٤) في (أ): وعلى سيده يمطر اسم الحبيب.

وقال: الدعوة ثلاث: دعوةُ العلم، ودعوةُ المعرفة، ودعوةُ المعاينة.

وقال: العبادةُ لسان العلم، والحيرةُ ترجمانُ المعرفة.

وقال: علمُ اليقين ما وصلَ إلينا على لسان النبيِّ ﷺ، وعينُ اليقين ما ألهمَ اللهُ تعالى على قلوبنا بنورِ الهداية بلا واسطةٍ، وحقُّ اليقين لا طريقَ إليه[١].

وقال: صاحبُ الهمَّةِ لا يشتغلُ بشيءٍ، وصاحبُ الإرادة قد يشتغلُ.

و: الفقيرُ من لا يَستغني بشيءٍ دون الله.

سئل عن الفقر، قال: للفقراء أربع مئة درجة، أدناها أن الفقير إن كانتِ الدنيا بحذافيرها ـ أي بجميعها ـ له، وأنفقها في سبيل الله، ثم يخطرُ بباله: أنّه لِمَ لم يتركْ له قوتَ يومٍ؟ لا يكونُ فقرُه حقيقيًّا.

وقال: الشريعةُ أن تعبده، والطريقةُ أن تطلبه، والحقيقةُ أن تراه.

وقال: أفضلُ الذكر نسيانُ الذاكر في مُشاهدةِ المذكور.

وقال: الصابرُ كمن على الباب، والراضي كمن في البيت، والمُفوّضُ كمن هو من أهل البيت.

سئل عن الزهد، قال: هو نسيانُ الدنيا، وعدمُ تذكّر الآخرة.

وسئل عن الاستقامة، قال: في الدنيا رؤية القيامة.

وقال: الأُنُس أن يكونَ لك وحشةٌ من نفسك.

وقال: الأُنس بالذكر كالأُنسِ بالمذكور.

وقال: العبوديةُ أن يظهرَ العبدُ[٢] في عين العبد، وإذا ظهرتْ صفاتُ الحقِّ فهو المشاهدة.

وقال: مع كلِّ نعمةٍ ثلاثةُ أنواعٍ من المكر، وتحت كلِّ عبادةٍ ستّةُ أنواعٍ من المكر.

---

(١) انظر صفحة ٨٢٢.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّها: يظهر المعبود.

وقال: العبادةُ رفعُ الإرادة، وفسخُ الاختيار، وتركُ الأماني لإرادة الله تعالى واختيارِه ورضاه.

وقال: الاستئناسُ بالناس من الإفلاسِ، وحركةُ اللِّسانِ بلا ذكرِ الله وسواس.

وقال: علامةُ القربِ الانقطاعُ عن كلِّ شيءٍ غير الله.

وقال: الفتوة أن تحبَّ للناسِ كلِّهم ما تحبُّ لنفسك؛ بل خيرًا من ذلك.

وقال: الحريةُ حريةُ القلب.

وقال: الخوفُ في الوصل أشدُّ من الخوفِ في المكر.

وقال: لا يكونُ من يومٍ يغلبُ الخوفُ عليَّ فيه إلاّ ويُفتحُ على قلبي بابٌ من الحكمة.

وقال: الشكرُ في النعمة أن ترى في النعمة وجودَ المُنعم.

نَفَسٌ يَتنفَّسُ به العبدُ في مُوافقةِ مولاه أفضلُ من عبادة جميعِ الخلق.

وقال: من نامَ بالغفلةِ في ساعةٍ من ليلةٍ تأخَّرَ عن الآخرة مسافةَ ألف سنة.

وقال: سهوُ العارفِ من الله طرفةَ عينٍ مَعدودٌ من الشرك.

وقال: من هو محجوبٌ بالخلقِ عن الحقِّ ليس كمن هو محجوبٌ بالحقِّ عن الخلق، وليس مَنِ اختطفَتْهُ أنوارُ القدس كمن اختطفته أنوارُ الرحمةِ والمغفرة.

وقال: من تلفَ في الحقِّ، فالحقُّ له.

وقال: ظهرتِ اليومَ طائفةٌ يحضرون المجلسَ على العادة، ويسمعون بالرسم، ولا يزيدُ لهم الجلوسُ والسماعُ شيئًا سوى البلادة.

قال الحسن الدامغاني: وصّاني الشبليُّ رحمه الله، وقال: عليك بالله، فكن مع الله[1]، واتركْ غيره ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

---

(١) في (ب): فكن من الله.

قيل له: متى تكونُ أروحَ؟ قال: إذا لم يكنْ لله ذاكرٌ غيري، بل أذكرُ الله وحدي.

وقال: لو جعل الله تعالى الدنيا كلَّها لقمةً، وألقمَها طفلاً رضيعًا، فإنّي أترحَّمُ عليه بعد ذلك، فإنه يبقى جائعًا، وهي له قليل.

أقول: هذا إشارةٌ إلى أن فضلَ الله ورحمتَه أكثرُ ممّا يُحصى ويُستقصى، فالدنيا بالنسبةِ إلى طفل قليل. والله أعلم.

وقال: لو كانتِ الدنيا لي، وأنا سلّمتها إلى يهوديٍّ، فله عليَّ ألفُ منَّةٍ، لأنه قبلَ الدنيا منّي.

وقال: ليس للكونِ مقدارٌ أن يخطرَ ببالي، كيف ومع المكوّنِ لا ألتفتُ إلى الكون!.

نقل أنه قال في مرضِ موته، وهو في غاية الاضطراب: تهبُّ ريحان: ريحٌ من خزانة اللُّطف، وأخرى من مهبِّ القهر، فمن هبَّتْ عليه ريحُ اللطف، وصلَ إلى المقصود، ومن هبَّتْ عليه ريحُ القهرِ بقي في الحجاب، فإنْ هبَّتْ عليَّ ريحُ اللطف فما بي من التعب، والسكرات في جنبها هيِّنٌ.

ثم قال: لا شيءَ أصعبُ عليَّ من أنه كان عليَّ درهمُ مظلمةٍ، فصرفتُ لأجلِهِ ألفَ درهمٍ، ولا يَطمئنُّ قلبي.

ثم أمرَهم أن يغسلوا أعضاء وضوئه على نيّةِ الوضوء، ونسوا تخليلَ محاسنه، فذكّرهم ذلك.

قال أبو المجد الهروي رحمه الله: لا زالَ الشبليُّ رحمه الله ينشدُ هذين البيتين في الليلةِ التي تُوفّي فيها:

إنَّ بيتًا أنتَ ساكنُهُ غيرُ مُحتاجٍ إلى السُّرُجِ
وجهُكَ المأمولُ حُجَّتُنَا يومَ يأتي النَّاسُ بالحُجَجِ[1]

(١) البيتان في الرسالة القشيرية ٤٢٩ (أحوالهم عند الخروج من الدنيا)، تاريخ بغداد ١٦/ ٥٧١، مناقب الأبرار ٦٥١، وهما ينسبان إلى ديك الجن، انظر ديوانه صفحة ٢٠٧.

لقّنوه كلمةَ الشهادة، فقال: إنَّ سُلطانَ المحبَّة يقول: لا أقبلُ الرشوة[١].

ثم بعد ساعةٍ سُئل عن حاله، فقال: وصلتُ إلى المحبوبِ. وسلّم روحَه.

ثم بعد موته رآه بعضُ الصَّالحين في المنام، وقال له: ما فعلْتَ مع مُنكرٍ ونكير؟ قال: دخلا عليَّ، وقالا: مَنْ ربُّك؟ قلت: ربّي هو الذي أمرَكُما وأمرَ جميعَ الملائكة ليسجدوا لآدم، وأنا في ظهرِهِ أَنظرُ إليكم. قال أحدُهما للآخر: ما أجابَ عن نفسه فقط؛ بل عن جميعِ أولادِ آدم. ورجعا.

ورآه آخرُ في المنام، وقال: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: إنَّ الله لم يُطالبني بشيءٍ إلاّ بما قلتُه في الدنيا: إنه لا حسرةَ أعظمُ من أن يُحرمَ من الجنة، ويدخل النار، فقال الله تعالى: يا شبليُّ، ليس كما قلتَ، بل لا حسرةَ أعظمُ من الحرمان عن لقائي، والمحجوبية عنّي.

قيل: رآه آخرُ في المنام، وقال: كيف وجدتَ سوق[٢] الآخرة؟ قال: سوقُ الآخرة[٢] سوقٌ لا قيمة فيه لشيءٍ[٣] إلاّ لكبدٍ مُحترقٍ، وقلبٍ مُنكسر، وما سواهما لا شيءَ محضٌ؛ فإنَّ هنا يُجبرون المُنكسر، ويُعالجون المحترق، ولا يلتفتون إلى غيرِهما.

رحمه اللهُ بلطفه وكرمه، ورزقنا قلبًا مُحترقًا بنار محبَّته، مُنوَّرًا بنور معرفته، وحشرنا مع آبائنا وأمهاتنا وسائرِ أحبَّتنا في زمرة الأبرار الذين أنعمَ اللهُ عليهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وصلى الله على سيِّدنا وشفيعنا خيرِ المرسلين، وقائدِ الغرِّ المحجَّلين محمّدٍ وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) جاء في مناقب الأبرار ٦٥١: قيل له عند وفاته: قل لا إله إلا الله. فقال:

قال سلطانُ حبِّه ... أنا لا أقبل الرُشا
فسلوه فديته ... لِمْ بقتلي تحرَّشا

(٢) في (أ): شوق الآخرة.

(٣) في (ب): لا قيمة لكم فيه بشيءٍ.

(٥٨) أبو نصر السراج(١)

ذكر الشيخ أبي نصر السراج رحمه الله:

كان رحمه الله إمامًا مُفتيًا، مُتمكّنًا وحيدًا.

سُمّي طاووس الفقراء، وأوصافُهُ الجميلةُ، ونعوتُهُ الحميدة أكثرُ من أن يجمعها لسانُ القلم، أو يضبطها ترجمانُ العبارة؛ لأنّه كان في الفنون كاملاً، وفي الرياضات والمعاملات والمجاهدات ذا شأنٍ عظيم.

وكان رحمه الله شارحًا لكلمات المشايخ.

وأدرك السريَّ السقطي، وسهلاً التُّستري، وكثيرًا من المشايخ رحمهم الله.

وهو من الطوس، نزلَ بغداد في أوّلِ رمضان، وأقام في الشُّونيزية في مخزنٍ، وسُلّم إليه إمامةُ الفقراء(٢) وصلّى بهم التراويحَ وسائرَ الصلوات، وخادمُهُ يأتي إليه كلَّ ليلةٍ برغيفٍ، فلمّا عيّدوا، وسافر الشيخ، وجدوا في مخزنِهِ ثلاثين رغيفًا.

نقل أنه كان في ليلةٍ شاتيةٍ(٣) باردة يتكلّم بين أصحابه في المعرفة، والنارُ مشعولةٌ في الكانون، فوردتْ عليه حالةٌ، فدخل في النار، وشرعَ يسجدُ لله تعالى، وتحيّرَ الأصحاب في شأنه، وتفرّقوا من عنده دهشةً وهيبة، ثم رجعوا

---

(١) هو عبد الله بن علي الطوسي، وترجمته في:

كشف المحجوب ٥٦٧، ٥٨٧، العبر ٣/٩، مرآة الجنان ٢/٤٠٨، نفحات الأنس ٤٠٨، شذرات الذهب ٣/٩١، كشف الظنون ١٥٦٢، إيضاح المكنون ٢/٥٥٢، هدية العارفين ١/٤٤٧. وانظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٥٧ الجزء الأول صفحة ٣٥.

(٢) في (أ): أمانة الفقراء.

(٣) في (ب): ليلة شتائية.

إليه في الغدِ يظنُّون أنَّه احترقَ، بل صار رمادًا، فدخلوا عليه، فإذا هو قاعدٌ في المحراب، ووجهُهُ متهلّلٌ منوّرٌ كالقمر، قالوا: يا شيخ، كيف الحال؟ أقلُّ ما في الباب أنَّ وجهَكَ ينبغي أن يحترقَ! قال: وهذا ظنُّكم! من أراقَ ماءَ وجهه على هذا الباب، لا يحترقُ وجهُهُ بالنار؛ بل النارُ تهربُ من وجهه.

قال: العشقُ نارٌ تلتهبُ في فؤاد العاشق، فتحرقُ ما سوى محبّة الحقِّ عز وجل، وتجعله رمادًا.

وقال: الناسُ في الآداب على ثلاث طبقات: أمّا أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم في الفصاحةِ والبلاغةِ، وحفظِ العلوم وأخبارِ الملوك، وأشعارِ العرب. وأمّا أهلُ الدِّين فأكثرُ آدابهم في رياضةِ النفوس، وتأديبِ الجوارح، وحفظِ الحدود، وتركِ الشهوات. وأمّا أهل الخصوصية فأكثرُ آدابهم في طهارةِ القلوب، ومُراعاةِ الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظِ الوقت، وقلّة الالتفات إلى الخواطر، وحسنِ الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(٥٩) أبو العباس القصّاب[١]

ذكر الشيخ أبي العباس القصاب رحمه الله:

كان رحمه الله شيخَ العالم، محترمًا بين المشايخ، صدّيقًا في وقته، ذا مروءةٍ وفتوّةٍ، بصيرًا عارفًا بعيوب النفس.

وله في الرياضة والكرامة والفِراسة والمعرفة شأنٌ عال.

وقد سُمّي عابدَ المملكة.

نقل أنه قال: الناسُ يَطلبون الإعتاق، وأنا أطلبُ أن أكونَ رقيقًا له، لأنّ رقيقَهُ في قيده سالمٌ، والحرَّ في معرض الهلاك.

وقال: إنَّ الشيخَ مرآةٌ للتلميذ، فإذا نظرَ فيه يُشاهدُ نفسَه.

أقول: يؤيِّدُهُ ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ مرآةُ المؤمن»[٢] ولا شكَّ أنَّ الناظرَ في المرآة لا يُشاهدُ إلاّ صورته، حاصلُهُ أنّك إذا نظرتَ في شخصٍ، ووجدتَ عيبًا، فذاك إنّما هو عيبُك الذي شاهدتَ فيه. والله أعلم.

قال: القيامُ بخدمةِ فقيرٍ لله ساعةً أحبُّ من مئة ركعةٍ، وتقليلُ لقمةٍ من الطعام أحبُّ من قيام الليلِ كلِّه.

قال: كلُّ واحدٍ من الناس يحبُّ نفسَه، وإنّي أُحبُّ نفسي أن لا تكون.

وقال: وجدتُ الطاعةَ والمعصية في شيئين: إذا أكلتُ حتى شبعتُ، أجدُ

---

(١) واسمه أحمد بن محمد بن عبد الكريم، وترجمته في: كشف المحجوب ٣٧٥، أسرار التوحيد (انظر الفهرس)، نفحات الأنس ٤١٢.

(٢) رواه أبو داود (٤٩١٨) في الأدب، باب في النصيحة.

في نفسي أصلَ[١] أهل المعاصي، وإذا تركتُ الأكلَ أجدُ في نفسي أصلَ الطاعات.

وقال: علم الظاهر جوهرٌ من مئة ألف وعشرين ألف نبيٍّ[٢].

قال: لا تقل مات النبي ﷺ؛ بل إنَّما فاتَ نصيبُ عينك منه.

أقول: يؤيِّدُهُ ما رُوي عنه ﷺ: «المؤمنون لا يموتون، بل يُنقلون من دارٍ إلى دار»[٣] فإذا كان هذا حالُ المؤمن، فما ظنُّك بالنبيِّ الذي هو أشرفُ الكائنات غير الله تعالى، وقرّةُ العيون من المؤمنين والمؤمنات. والله أعلم.

وقال: إنَّ لله عبادًا تركوا سلطنةَ الدنيا وزينتَها للخلقِ الذين هم أهلها، وتركوا الآخرة ونعيمها للمطيعين، وقالوا: حسبنا الله، واطمأنُّوا به، ويقولون: أما يكفينا رُقْمُ عبوديةِ الربوبية على حياةِ أرواحنا، أفنطلب شيئًا آخرَ وراء العبودية؟.

وقال: طوبى لمن عرفت نفسه إليه فعرفها.

وقال: الفتى من كان صحبته مع الله، فلا راحةَ للخلق منهم، ولا وحشة، فهم من الحقِّ ينظرون إلى الخلق.

وقال: صحبةُ الأخيار، والبقاعِ الشريفة لا تُقرِّبُ أحدًا إلى الله تعالى، والقربُ من اللهِ لا يكون إلاَّ به ـ أي بإرادته وطلبه وجذبته.

وقال: لا تُصاحِبنَّ إلا من تُنوِّرُ بصحبته ظاهرَك وباطنك.

وقال: الدنيا جيفةٌ مُنتنةٌ، وأنتنُ منها قلبٌ ابتلاه الله بحبِّ الدنيا.

---

(١) في (أ): أجد نفسي أصل.

(٢) الخبر كله ليس في (ب).

(٣) لم أجده بلفظه، ولكن روى البيهقي في الزهد ٢/ ٢١٣، وابن المبارك في الزهد ١٦٧ والمزي في تهذيب الكمال ٤/ ٢٩٤ عن بلال بن سعد قال: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام. والقول في الحلية ٥/ ٢٨٧ منسوب لعمر بن عبد العزيز، وفي الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٢٩٧منسوب لأبي هريرة وانظر الخبر صفحة ٨٠١.

وقال: الطمعُ تركُ الفتوة، والمنعُ تركُ المروءة.

وقال: كُلَّما كان قربُ العبدِ من الربِّ أكثر، كان عجزُهُ أكثر.

وقال: اليومُ والليلةُ أربعةٌ وعشرون ساعة، في كلِّ ساعةٍ عليك من الله تعالى واردٌ.

وقال: إنْ أدخلكَ اللهُ تعالى في الأمنِ فنجوتَ، وإلاّ فحقٌّ لأولادِك أن يبكوا عليك.

وقال: لا يعرفُ اللهَ غيرُ الله تعالى شأنه.

وقال: طلبُ الأدبِ منكم كطلبِ الوالدة الأدبَ من الطفل الرضيع.

وقال: سجدةٌ واحدةٌ أسجدها لله تعالى ناظرًا إلى بقائه وفنائي أحبُّ إليَّ من جميع الأشياء.

نقل أنّه جاء إليه رجلٌ، واستشار منه إلى سفر الحجِّ، قال: ألك أمٌّ؟ قال الرجل: نعم. قال الشيخ: كنْ في رضاها. فرجع، ثم جاء إليه، وقال: يا شيخ، أُريد سفر الحج. فقال الشيخ: ما طلبوك، وإلاّ لم تكنْ تَستشير. المُراد: كنتَ تُسافر بغيرِ مُشاورةٍ.

نقل أنه سئل عن الكرامات التي له، قال: لا أعرفُ الكرامات؛ لكنْ أعلمُ أنّي كنتُ قصَّابًا أذبحُ كلَّ يومٍ غنمةً، وأحملُ لحمَها على رأسي، وأدور في الأسواق والسكك لأبيعه، لعلّني أكسبُ فِلسًا أو فلسين، والآن أرى الناسَ يقصدونني من المشرق إلى المغرب.

رحمه الله رحمةً واسعة، ونسألُ الله تعالى أن يغفرَ لنا خطايانا يومَ الدين، ويجمعَ بيننا وجميع أحبّتنا في دار النعيم، في جوارِ الصدّيقين والشهداء والصالحين، ونصلّي على سيّدنا محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين أجمعين إلى يوم الدين.

* * *

(٦٠) أبو علي الدقاق[١]

ذكر الشيخ الأستاذ أبي علي الدقَّاق رحمه الله:

كان رحمه الله شيخَ عهده، ومُرشدَ زمانه، كاملاً في علم الطريقة والحقيقة، تُرجمانًا للحقِّ، وفي الحديث والتفسير والوعظ والتذكير ذا شأن عظيم، وفي الرياضة والكرامة آيةً، وفي اللطائف والحقائق والمقام والحال مُتعيِّنًا.

وكان مريدًا للنصراباذي، وأدرك كثيرًا من المشايخ الكبار، وخدمهم حتى قال بعضُ المشايخ: لكلِّ زمانٍ نائحٌ، ونائحُ[٢] زماننا أبو علي الدقاق، وذلك لكثرةِ ما فيه من الحُزن والشوق والذوق.

وما وضع جنبَهُ على الأرض، وكان في مرو حين وردت عليه الواقعة.

نقل أنَّ واحدًا من المشايخ رأى إبليسَ عليه اللعنة يحثو الترابَ على رأسه، قال: يا لعين، هذا لماذا؟ قال: كانت خلعةً، كنتُ أنتظرها سبع مئة ألفَ سنة، اليومَ أُعطيتْ لرجلٍ بياع الدقيق[٣] أعني الشيخ أبا علي الدقاق.

نقل عن الشيخ أبي عليٍّ الفارمذي رحمه الله أنه مع كماله كان يقول:

---

(١) كشف المحجوب ٣٧٧، تبيين كذب المفتري ٢٢٦، الكامل في التاريخ ٩/٣٢٦، العبر ٣/ ٩٥، تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٦٤، مرآة الجنان ٣/ ١٧، طبقات السبكي ٤/ ٣٢٩، الوافي بالوفيات ١٢/ ١٦٥ طبقات الإسنوي ١/ ٥٢٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٣، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٥٦، طبقات ابن قاضي شهبة ١/ ١٦٩، نفحات الأنس ٤١٨، الكواكب الدرية ٢/ ١٧٩، شذرات الذهب ٣/ ١٨٠، كشف الظنون ١٤٣٤، معجم المؤلفين ٣/ ٢٦١.

واسمه في مصادر ترجمته الحسن بن علي. وفي كشف المحجوب: حسن بن محمد بن علي.

(٢) في هامش (أ): إشارة إلى نسخة ثانية تقول: لكل زمانٍ فاتح، وفاتح زماننا.

(٣) في (ب): لرجل بتاع الدقيق.

لا حجّةَ لي غدًا يوم القيامة إلاّ أنّ سَمِيٌّ لأبي[(١)] علي الدقاق.

وقال الأستاذ أبو عليٍّ الدقاق رحمه الله: إذا لم يكن شجرٌ مرنًا لا يُورق ولا ينتفع.

ثم قال: أنا أخذتُ هذا الطريق عن النصراباذي، وهو أخذَ عن الشبليّ، وهو عن الجُنيد، وهو عن السريّ، وهو عن المعروف، وهو عن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

قال: ما دخلت على أبي القاسم النصراباذي إلاّ اغتسلتُ أولاً حرمةً له.

نقل أن الأستاذ أبا علي رحمه الله غابَ زمانًا طويلاً، وسافر كثيرًا إلى الحجِّ وغيره، وارتاضَ رياضاتٍ كثيرة، ثم دخلَ مدينة الرّيِّ عريانًا، ليس عليه إلاّ ما يَستر[(٢)] عورتَه، ونزل بخانقاه عبد الله بن عمر رضي الله عنه، فعرفَهُ شخصٌ، وقال: هذا هو الأستاذ أبو علي الدقاق، فترحّمَ عليه الخلقُ لما رأوا من حاله، والتأموا عليه، والتمسوا أن يشتغلَ بالدرس والمناظرة، فلم يقبل، ثم طلبوا منه كلماتٍ في الوعظ، ونصبوا منبرًا، فلمّا صعدَ المنبر أشارَ إلى جانب اليمن وقال: الله أكبر. ثم إلى المقابلة، وقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. ثم إلى اليسار وقال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣] فصاحت الناس، وبكوا وعيّطوا واستغاثوا حتى مات في أثناء كلامه خلقٌ، والناسُ مشغولون بالبكاء، إذ هو نزلَ وغابَ، وما رآه أحدٌ منهم، ثم طلبوه، فما وجدوه، فراح إلى مرو، ثم رجع إلى نيسابور.

قال شخصٌ من الفقراء: دخلتُ على الأستاذ يومًا، ونيّتي أن أسألَهُ عن التوكّلِ، وكان على رأسه عمامة طبرية، فمالَ قلبي إليها، قلت: يا أيُّها الأستاذ، ما التوكّل؟ قال: هو أن لا تطمع في عمائم الناس. ورفع العمامة عن رأسِهِ ورماها إليّ.

---

(١) في (أ): إلا أني سُمّي لأبي.
(٢) في (ب): ليس عليه ما يسرّ سوى ما يستر.

قال الأستاذ: مرضتُ وأنا بمرو، وأشتهي أن أكون حينئذٍ بنيسابور، فأخذني نعاسٌ رأيت قائلاً يقول: أنت لا تقدرُ على الخروج من هذه المدينة. قلت: لِمَ؟ قال: لأنَّ جماعةً من الجنِّ قد أعجبهم كلماتُك، وهم يحضرون كلَّ يومٍ مجلسَكَ، فاللهُ تعالى أقامَك في هذه المدينة لأجلهم.

نقل أنه رحمه الله كان يومًا على المنبر ذمَّ الإنسانَ ذمًّا عظيمًا، وقال: إنه حسودٌ، مُعجب، متكبّرٌ. . وما شاكله. فقال الرجل: يا أستاذ، الإنسانُ مع جميع هذه الخصال الذَّميمةِ، له قابليةُ المحبَّةِ أم لا؟ قال: أما سمعتَ قولَ الله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

نقل أنه يومًا كان يقول على المنبر كثيرًا في أثناء الكلام: (الله، الله)، فقال القائل: ما اللهُ يا أستاذ؟ قال: لا أدري. فقال القائل: لِمَ تقول ما لا تدري؟ قال الأستاذ: إذا لم أقل (الله) فما أقول؟.

أقول: إشارة إلى كُنْهِ معرفة الله أنه لا يحصلُ لأحدٍ.

وإن طالتِ الأيام، واتَّصلَ العمر[1]

ومع هذا ينبغي أن لا يفترَ الطالبُ في طلبه، ولا الذاكرُ عن ذكره، واللهُ تعالى مطلوبٌ على خلاف سائر المطالب، فإنَّ من عجز في طلب شيءٍ عن إدراكه يتركه لا محالة، وأما في طلبِ الله تعالى فكلّما يعجزُ الطالبُ عن الإدراك، يشتدُّ طلبهُ، ويكثرُ طربهُ. والله أعلم.

نقل أنّه قامَ فقيرٌ في مجلسه، وقال: أنا رجلٌ فقير، ومذ ثلاثة أيام ما طعمتُ شيئًا. وكان جماعةٌ من المشايخ حاضرين، فصاح عليه الأستاذ أبو علي، وقال: مه يا كذّاب، فإنَّ الفقرَ سرٌّ من أسرار الله تعالى، والسلطانُ لا يضعُ سرَّه فيمن يُفشيه ويذيعه؛ بل عند من يقول: هل من مزيد؟.

---

(١) عجز بيت لمحمود الوراق، الديوان ١٢١، وقبله:

إذا كـان شكـري نعمـة الله نعمـة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيـف بلـوغ الشكـر إلا بفضلـه ... وإن طالـت الأيـام واتصـل العمـر

نقل أن فُقَّاعيًا[١] كان يدخل على الشيخ حين الأكل، ومعه فقاعٌ، يجلسُ على مائدتهم ويسقيهم الفقاع، ويردُّ ما يفضلُ منهم، ثم إنَّ الشيخ رحمه الله رأى ليلةً في المنام أنَّ جميعَ المشايخ وأصحاب الكرامات في موضعٍ عالٍ، وهو لا يقدرُ على الوصولِ إليهم، فبينا هو في هذه الحالة، إذ جاء إليه الرجلُ الفُقَّاعيُّ، وقال للشيخ: مدَّ إليَّ يدَكَ. وجرّه إليهم، وقال: يا شيخ، الأسدُ يصيرُ هنا ثعلبًا. ثم في اليوم الثاني كان الشيخ على المنبر، فدخل الفُقَّاعيُّ، فقال الشيخ رحمه الله: طرّقوا له[٢]؛ فإنّه لو لم يكن البارحة لكنتُ من المُخلَّفين. فقال الفُقَّاعي: يا شيخ، أكونُ كلَّ ليلةٍ في المكان الذي رأيتَهُ، ولا أذكرُهُ، أنت رأيتَ مرّةً واحدةً، هتكتني وأفشيتَ[٣] حالي.

نقل أن رجلاً جاء إلى أبي عليٍّ، وقال: يا شيخ، قطعتُ مسافةً بعيدةً حتى وصلتُ إليك، ليكنْ نظرُكَ عليَّ أكثرَ ممّا يكونُ على غيري. قال الشيخ: هذا المقصود لا يحصلُ بقطعِ المسافة القريبة والبعيدة، أخطُ خطوةً على النفس تصلْ إلى مقصودِكَ.

نقل أنه جاء إليه رجلٌ، واشتكى من الشيطان، فقال الشيخ: اقطعْ شجرةَ الهوى من أرض قلبك، لئلاّ يجتمعَ عليها عصافيرُ وساوس الشيطان لتستريح، وإلاّ مهما كانتِ الشجرةُ بحالها، فكلَّما تطردُ العصافير تهربُ ثم ترجع، ولكن إذا قطعتَ الشجرةَ من أصلها تفرّقَتِ العصافير واسترحتَ.

نقل أن تاجراً اسمه خُشكو كان من جيران الشيخ، فعرضتْ له عارضةٌ، فعاده الشيخ، وسأل عن علّته، قال: نهضتُ بالليل، وقصدتُ أن أتوضّأ لصلاةِ الليل، فانفتلَ ظهري، فحصل وجعٌ أليمٌ، وجاء بعده حُمّى، فقال الشيخ: أنت رجلٌ تاجرٌ، وعليك أن تدفعَ عنك حيفَ الدُّنيا، فمن أين أنت وصلاة الليل؟! أما علمتَ أنَّ منَ اشتغلَ بما لا يعنيه، وترك ما لا بدَّ به يؤول أمرُه إلى هذا. ثم

(١) تقدم شرح الفقاع صفحة (٥٤١) الحاشية (١).
(٢) قوله: (طرقوا له) ليست في (ب).
(٣) في (ب): وأفشلت حالي.

قال: مثلاً، من كان له صداعٌ، فهل ينفعه الطلاءُ على الرجل؟ ومن تنجَّسَتْ يدُه ينفعه غسلُ الأردان؟!

أقول: حاصلُ هذا الكلام أنَّ الصلاة بالليل، وإن كانت عبادةً ذاتَ فضيلة؛ ولكن صرف المال في الزكاة واجبٌ على صاحب المال، وكذلك صرفه في سائر ما يجب عليه كالإنفاق على من عليه نفقتُهُ له، والدَّين والكفَّارة والنذر، فتركُ الواجب، والاشتغالُ بالنافلة ليس إلاّ من الضَّعفِ في الدين، وأيضًا صرفُ المالِ في التطوّعات لله تعالى كإطعامِ الجياعِ، وسترِ العرايا وغيرهما أولى لصاحب المال من الاكتفاء بالعبادات البدنية كالصوم والصلاة وغيرِهما، نعم إذا جمعَ صاحبُ المال بين العبادتين ـ أي إنفاق المال والعبادات البدنية ـ فذلك ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. والله أعلم.

نقل أن رجلاً من المُريدين عطس في مجلس الشيخ، وحمدَ الله تعالى، فقال الشيخ رحمه الله: يَرحمُك ربُّك. فالصوفي في الحال أخذَ متاعه، وقام ليخرج، فاستفسرَ عنه بعضُ الحاضرين، قال: لمَّا جرى على لسانِ الشيخ ذكرُ الرَّحمةِ عليَّ حصلَ مقصودي، فلم يتوقَّفْ، وخرجَ.

نقل أنَّ أبا الحسن البُرْنَوْذي(١) رحمه الله وكان من عُقلاء المجانين دخلَ يومًا على أبي عليٍّ، وعليه فروةٌ عتيقةٌ مقطَّعةٌ، وعلى الشيخ مرقّعةٌ جديدة، فقال له الشيخ على وجهِ المُطايبة: يا أبا الحسن، بكم اشتريتَ الفروة؟ فشهق أبو الحسن، وقال: يا أبا علي، لا تُظهر الرعونةَ، فإنّي اشتريتها بالدنيا وما فيها، ولا أَبيعُها بالجنة ونعيمها. فطأطأ الشيخ أبو علي رحمه الله رأسه، وبكى كثيرًا.

ونقل أنّه قال: عهدتُ على نفسي أن لا أقولَ مع فقيرٍ كلامًا وعلى وجهِ المُطايبة أبدًا(٢).

---

(١) البرنوذي: نسبة إلى بُرْنَوذ قرية من قرى نيسابور. اللباب.

(٢) في (ب): المطايبة مثلاً أبدًا.

أقول: كأنَّ أبا الحسن رحمه الله أشارَ إلى مقامِ الفقرِ المعنوي الدالُّ عليه الفقرُ الصوري، وأراد: أنيّ تركتُ الدنيا وما فيها، ورضيتُ بهذا الفقر الذي افتخرَ به سيّدُ الكونين، ولا أُقايضُهُ بنعيمِ الجنة أيضًا، والإنصاف أنَّ هذا مرتبةٌ عالية، ومنقبةٌ سامية. والله أعلم.

نقل عن الأستاذ أبي علي رحمه الله أنه قال: دخلَ في الخانقاه فقيرٌ وقال: أطلبُ منكم زاويةً لأموت فيها. فعيَّنا له موضعًا خاليًا، فدخل فيه، ورمى نظرَهُ إلى جانبٍ منه، ويقول: الله، الله. وأنا من الخارج استمعُ، فأحسَّ بنورِ الولاية، وقال: يا أبا علي، لا تشوّشْ عليَّ حالي. فتركتُهُ وذهبت، ثم رجعتُ، وهو في تلك الحالة، إلى أن سلّم روحَه، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى، فبعثنا وراءَ الغاسل، وإلى السوق للكفن، ثم دخلنا عليه، فلم نجدْه في البيت، فتحيّرنا، وقلنا: يا ربَّ العالمين، أريتنا هذا الشخصَ في حياته، وغيَّبته عنّا بعد موته. فصاحَ هاتفٌ، وقال: ملكُ الموت طلبَهُ ولم يجدْه، والحورُ في القصورِ طلبته فما وجدَتْه. قلتُ: إلهي، فأين هو؟ قال الهاتف: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

قال الأستاذ رحمه الله: رأيتُ في مسجدٍ خرابٍ شيخًا يبكي الدم، ولطخ أرضَ المسجد بالدم، قلت: يا شيخ، رفقًا معك. قال: فنيتْ طاقتي. قلتُ: في أيِّ شيء؟ قال: في تمنّي لقاءِ الله تعالى، ثم قال ذلك الشيخ: سيّدٌ غضبَ على عبده، وأراد أن يعاقبَهُ، فاستشفعَ العبدُ بشفيعٍ مقبولٍ عند سيّدِهِ، فشفَّعَهُ السيدُ فيه، وعفا عنه، والعبدُ بعدُ يبكي، فقال الشفيع: لِمَ تبكي، والحالُ أنَّ سيدَك قد عفا عنك؟ قال السيد: بكاؤه على أنّه يطلب رضائي عنه، وليس إلى ذلك سبيل، فلذلك يبكي ويبكي.

نقل أنَّ شابًّا دخل من باب الخانقاه، فقال: إذا قصدَ إنسانٌ معصيةً، أو خطرَ بباله قصدُها، فهل ينتقضُ وضوؤه أم لا؟ فبكى الشيخ، وقال للأصحاب: أجيبوا عن سؤال هذا الشاب. قال زين الإسلام: سنحَ لي أن أقولَ: قصدُ

المعصية لا يَنقضُ الطهارةَ الظاهرة؛ ولكنْ ينقضُ الطهارة الباطنة. فاستحييتُ من الشيخ، ثم قال الشيخ: هكذا.

نقل أنه قال: هاجت عيني، وأوجعتني حتى اضطربتُ من الوجع[1]، وما نعستُ ولا استرحت أيامًا، فبينما أنا كذلك إذ أخذني نعاسٌ، فرأيت في المنامِ قائلاً يقول لي: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦] فانتبهتُ، وما وجدتُ للوجعِ والألم أثرًا بقدرة الله تعالى.

نقل أنه قال: ضللتُ الطريقَ بالبادية خمسة عشر يومًا، ثم اهتديتُ إلى الطريق، فاستقبلني شخصٌ من الأجناد، وسقاني شربةً من الماء، فإنّي بعد ثلاثين سنة أجدُ في نفسي ضررَها[2].

نقل أنه كان يأمرُ في الشتاء من كان من التلامذة قويًا بالاغتسال في الماء البارد عند الحاجة، ومن كان ضعيفًا يرفُقُ به، ويقول: ليعملْ كلٌّ على قدر وسعه.

وقال: من يكون سُوقيًا لا غناء له من حملٍ من الأشنان أو أكثر ليبيع ويستريح، وأمّا من احتاجَ إلى الأشنان ليغسلَ ثيابَهُ فيكفيه أوقيةٌ منه أو أقلُّ - يعني لا بدّ من العلم قدرَ ما يُحتاجُ إليه للعمل، والفضلُ لا ينفع، إذِ المقصودُ من العلم إنما هو العمل والتواضع.

كما نقل أنه دُعيَ إلى دعوةٍ في مدينة مرو، فسمع في الطريق صوتَ عجوزةٍ تئنُّ وتقول: إلهي، تركتني جوعى، وأحلتَ عليَّ أطفالاً جياعًا، وليس لي شيءٌ أَطعَمُهُ وأُطعِمُهُ، فيليقُ بكرمك أن تعمل بي هكذا؟ فعبر الشيخ، ودخلَ بيتَ الدعوة، وأمرَ صاحبَ الدعوة أن يجعلَ مائدةً يكونُ عليها أنواعُ الطعام والحلاوى وغيرُه، ففرح صاحبُ الدعوة، وظنَّ أنّه يُريد أن يبعثَها إلى بيته، ولم يكن له بيتٌ ولا عيال، فهيَّأها في الحال، وأحضرَ عنده، فحملَها الشيخُ

---

(١) في (ب): هاجت عيني واضطربت وأوجعتني من الوجع.

(٢) في (أ): أجد في نفسي ضربَها.

أبو علي رحمه الله وذهبَ بها إلى بيت العجوزة، فما أحسن ذلك التواضع!.

وله كلمات عالية منها قال[١]: كنْ كأنَّكَ ميتٌ مضى عليه ثلاثون يومًا.

أقول: يعني ينبغي أن يكون العبدُ بين يدي قضاء الله تعالى وقدره وإرادتُهُ كالميت الذي مضى عليه أيامٌ، إذ لا حراكَ له، ولا اعتراضَ، ولا تدبير له في أموره، وإلى هذا المعنى يشير صاحب الشريعة ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»[٢] وقال ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أصحاب القبور»[٣].

وأما ذكر ثلاثين يومًا فللمبالغة في كونه ميتًا. والله أعلم.

وقال: من يدّعي العشقَ، ولم يجعل روحَهُ مكنسةً على باب المعشوق، فهو كاذبٌ في دعواه.

وقال: من له أُنسٌ[٤] بغير الحقِّ فهو ضعيفٌ في حاله، ومن حدّثَ عن غيره فكلامُهُ إلى الكذبِ أقرب.

وقال: من قصدَ مخالفةَ شيخه يضلُّ في الطريق، ولا يبلغُ المقصدَ، وتنقطعُ العلاقةُ بينهما وإن كانا في بقعةٍ واحدة.

وقال: من اختار صحبةَ شيخٍ، ثم اعترضَ بقلبه عليه فقد نقضَ العهد،

---

(١) في (ب): منها ما قال.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٤٠٢ (٢٦٦٩): قال الحافظ ابن حجر: هو غير ثابت، وقال القاري: هو من كلام الصوفية، والمعنى: موتوا اختيارًا بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطرارًا بالموت الحقيقي.

(٣) رواه البخاري (٦٤١٦) في الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا...» والترمذي (٢٣٣٤) عن عبد الله بن عمر. قال الطيبي: ليس «أو» للشكّ؛ بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى (بل) فشبّه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يؤويه، ولا مسكن يسكنه، ثم ترقّى وأضرب عنه إلى عابر السبيل القاصد لبلدٍ شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وقطاع طريق، فإنَّ من شأنه ألاّ يقوم لحظة، ولا يسكن لمحة.
أقول: وقوله ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ليس في (ب).

(٤) في (أ): من أنس بغير الله.

ويجبُ عليه التوبةُ، وإن قيل: عقوقُ الشيخ لا توبةَ له.

وقال: سوءُ الأدب يوجبُ الطرد.

وقال: من أساءَ الأدبَ على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدبَ على الباب رُدَّ إلى سياسة الدواب.

وقال: إساءةُ الأدب مع السلطان جهلٌ يؤدّي إلى القتل.

وقال: من لم يَقمْ على باب الخدمة في البداية، كيف يجلسُ على بساط القُربة في النهاية؟.

وقال: من قامَ بالمجاهدة جلسَ بالمشاهدة.

وقال: السرورُ في الطلب أقوى من سرور الوجدان، لأنَّ الوجدان لا يَصفو عن كدورة الزوال، وفي الطلب رجاءُ الوصال.

وقال: لا بدَّ من المحبّة، إذ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] من غير ذكر الطاعة والعبادة، إلاّ أنَّ من بنى أساسَهُ على المحبّة لا يفترُ من عبادة المحبوب لحظة.

وقال: من تركَ خدمةَ ربّه يومًا(١) فمصيبتُهُ أعظمُ من مصيبة الكافر يومَ القيامة في النار؛ لأنَّ الكافر يفوتُهُ الثوابُ غدًا، وذلك قد فاته مشاهدةُ الخدمة نقدًا، فكم بين الفوتين!.

وقال: من تركَ الحرامَ نجا من النار، ومن ترك الشُّبهاتِ وصلَ إلى الجنة، ومن ترك معهما(٢) الفضول وصل إلى الله تعالى - أي إلى رضا الله تعالى.

وقال: إن أطاعَ العبدُ مولاه جميعَ عمره إلاّ لحظةً، ثم أنزلَهُ اللهُ تعالى في حظائر القدس، فلو كُشف عليه حسرةُ فتورِهِ في تلك اللحظة، لانقلبَ له نعيمُ الجنة عذابًا أليمًا.

---

(١) في (ب): خدمة ربه اليوم.

(٢) في (أ): ومن ترك معها.

أقول: ولكن بعد دخول الجنةِ لا يُكشفُ له عن شيءٍ من خطاياه؛ بل يُنسيه اللهُ تعالى بلطفه جرائمه حينئذٍ؛ لئلا يُنغِّصَ عليه نعيمَ الجنة إذا ذكرها. سبحانه ما أعظم قدرته، وما أكثر لطفه ورحمته. والله أعلم.

وقال: إنْ عاقبَ الله تعالى فيكون إظهارًا للقدرة، وإن عفاه فيكون إظهارًا للرحمة.

وقال: ليس بغريبٍ ولا بعجيب ما باع يوسف عليه السلام إخوتُهُ، ولكن أعجبُ كلِّ عجيبٍ أن يبيعَ مدبرٌ آخرتَهُ بدنياه.

وقال: لا ينبغي لمن سمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . . ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩] أن يبخلَ بروحه.

وقال: إنَّ الله تعالى قد باعَ منكم الجنَّةَ، فأنتم لا تَبيعوها من غيركم؛ فإنَّ هذا البيعَ فاسدٌ، وإن فرضنا صحَّتَهُ فلا تربحون(١).

وقال: للناس ثلاثُ مراتب: السؤال، والدعاء، والثناء. فالسؤالُ: لطلب الدنيا، والدعاءُ: لطلب العقبى، والثناء: لطلب المولى جلَّ جلاله.

وقال: السماحةُ على ثلاثة أقسام: السخاوة، والجود، والإيثار. فالسخاوةُ: اختيارُ الحقِّ على النفس، والجودُ: اختيارُه على القلب، والإيثارُ: اختياره على الروح.

وقال: من سكتَ عن الحقِّ، فهو شيطانٌ أخرس.

وقال: إيّاكم وصحبةَ السلاطين؛ فإنَّ لهم رأيًا مثلُ رأيِ الصبيان، وصولةً مثل صولة الذئبان.

قال: من خواصِّ السلاطين أنَّه لا صبرَ منهم، ولا طاقة معهم.

وقال: معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] استغاثةٌ عن الفراق.

---

(١) في (أ): فلا ترجون.

وقال: تواضعُ الأغنياءِ للفقراء ديانةٌ، وتواضعُ الفقراءِ للأغنياء خيانةٌ.

وقال: ورد في الحديث «أنَّ الملائكةَ تضعُ أجنحتها لطالبِ العلم»[١] إذا كان هذا حالَ طالب العلم[٢]، فكيفَ يكون حالُ من هو طالبٌ للمعلوم.

وقال: إذا كان طلبُ العلم فريضةً، فطلبُ المعلوم أفرض.

وقال: المريدُ من لا ينامُ في عمره ساعةً، وما نام[٣] النبيُّ ﷺ بعدما رجع من المعراج؛ لأنه ﷺ صارَ فؤادًا كلّه، ولمّا قالَ إبراهيمُ عليه السلام لابنه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] قال ابنُهُ: يا أبت، لو لم تنمْ لما رأيتَ هذا في المنام.

نقل أنه في آخر عمرِه غلبَ عليه الحزنُ والفكر، وصارَ بحيثُ ما كان أحدٌ يفهم معنى كلامِهِ إلاّ قليلاً، ولذا خلا مجلسُهُ عن الناس، حتى قال عبدُ الله الأنصاري: حين صارَ أبو علي الدقاق عاليًا، لا جرمَ أنّه صارَ مجلسُه عن الخلقِ خاليًا.

نقل أنه كان في ابتداءِ أمره غريقًا في بحار الحزن والخوف، حتى أنّه كان يقولُ في مناجاته: إلهي، هبني من حسكةٍ، هبني من تبنة، هبني من نملة.

ويقول: إلهي، لا تهتكني ولا تفضحني؛ فإنّي مجازفٌ مدّعٍ، ادّعيتُ كثيرًا على المنابر بين عبادك، فإن أردتَ هتكي ألبتةَ فلا تهتكني[٤] عند جماعةٍ يعرفونني.

إلهي، إن تدخلني النارَ فاتركني ألبسُ مرقّعةَ الصوفية، وبإحدى يديَّ العصا، وبالأخرى الركوة، ثم سيِّبني بهذه الهيئة في وادٍ من أودية جهنم؛ لأنوحَ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) في العلم، باب الحث على طلب العلم، والترمذي (٢٦٨٣) في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. عن أبي الدرداء.

(٢) في (ب): إذا كان هذا لطالب العلم حالاً.

(٣) في (ب): عمره ساعة، قيل: وما نام...

(٤) في (ب): فلا تبتكي عند جماعة.

فيها على فراقكم أبد الآبدين؛ فإني أحبُّ هيئةَ الصوفية.

قال: إلهي، إن أدخلتني النارَ، ثم يقولُ الكافرون: ما الفرقُ بيننا وبينكم؟ فإنَّا أشركنا وعبدنا الأصنامَ، وأنت وحَّدْتَ الله وعبدته، والحالُ نحن وأنت في النارِ، فماذا أقولُ لهم؟.

وكان يقول: إلهي، أنا سوَّدتُ صحائفَ أعمالي بالمعاصي، وأنت بيَّضْتَ شعوري في مرور الأيام[١] والليالي، فيا خالقَ الأبيض والأسود، تجاوزْ عن ذلك السواد ببركتك، وهذا البياض بفضلك[٢] وكرمك.

وكان يقول: يا مَنْ لا يراكَ الطالبُ في أوقات الطلب، ومع هذا يطلبُك دائمًا.

وقال: إلهي، وإنْ أنزلتني الفردوسَ الأعلى فبما ينجبرُ هذا؟![٣] وهو أنِّي قدرتُ على أن أكون خيرًا من هذا، وقد توانيت.

أقول: (قدرتُ أن أكون خيرًا مما أنا فيه) معناه: أنه كان قادرًا على ذلك بالنظر إلى حاله وأعماله في الظاهر، وأما بالنظر إلى تقدير الله تعالى في حقِّه فلا يمكنُ التجاوز عن حدِّه المحدود له في الأزل ولو بشعرةٍ، والحقُّ أنَّ هذا الكلام غامضٌ ينحلُّ به إشكالٌ كثير عند من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] والله أعلم.

نقل عن بعض الصالحين أنه رأى الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله في المنام فقال: أخبرني عمّا لقيتَ. قال: إن الله تعالى أقامني، وأوقفني، وسأل عن ذنوبي ذنبًا ذنبًا، فأيُّ ذنبٍ اعترفتُ به غفر لي إلاّ ذنبًا واحدًا؛ فإنّي استحييتُ أن أذكرَهُ، وعرقتُ واقفًا حتى سقط اللحمُ عن وجهي. قال الراوي: قلتُ: وما ذاك

---

(١) في (أ): في أمور الأيام.

(٢) في (أ): السواد ببركة هذا البياض بفضلك.

(٣) في (أ): الأعلى فيما يتخيّر هذا.

الذنبُ؟ قال: في أيام الجهلِ نظرتُ إلى أمردَ، وأعجبني حسنُهُ[١].

نقل أنه رآه آخرُ في المنام يبكي ويضطرب، فقال: تريدُ الرجوعَ إلى الدنيا؟ قال: نعم، ولكن لا لمحبّةِ الدنيا؛ بل لأنْ أشدَّ وسطي، وآخذَ بيدي عكازةً، وأدورُ على الناس وأنصحهم وأدعوهم إلى الحقِّ؛ فإنّهم غفلةٌ لا يَدرون ماذا تركوا، وعمّاذا غفلوا.

أقول: هذا يدلُّ على أنه قد اطّلعَ على حقيقة الحال، وأنه في غاية الشفقة على خلقِ الله تعالى، وفي الحقيقةِ الشفقةُ على الخلق أيضًا تعظيمٌ لأمر الله، لأنّه تعالى لا يرحمُ من عباده إلاّ الرحماء، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٢] قيل: وهذا أولُ حديثٍ سُمع[٣] منه ﷺ. والله أعلم.

نقل عن آخر أنّه رآه في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: عدَّ عليَّ ذنوبي وخطيئاتي ذرّةً ذرة، ثم عفا عنّا جبلاً جبلاً.

ورآه آخرُ في المنام كأنّه يمرُّ على الصراط، وقد صارَ عرضُ الصراط مسافةَ خمس مئة سنة، فقال: يا عجبًا، كنّا نسمعُ أنَّ الصراطَ أدقُّ من الشعرة، وأراه الآنَ بهذا العرض! قال الأستاذ: الحالُ كما سمعت، ولكنّه يتّسعُ لمن سلك في الدنيا أضيقَ الطريق وأدقَّه، ويتضيّقُ لمن سلك فيها طريقًا واسعًا.

نقل عن أبي بكر الصيرفيِّ وهو أحدُ تلاميذ الأستاذ، أنه كان يُواظبُ زيارةَ

---

(١) هذه الرؤيا وردت في الرسالة القشيرية ٥٣٤ (رؤيا القوم) عن أبي عبيد الله الزرّاد.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٦٠، والترمذي (١٩٢٥) في البر والصلة، باب في رحمة الناس، وأبو داود (٤٩٤١) في الأدب، باب في الرحمة، والحاكم ٤/ ١٥٩، والبيهقي في سننه ٩/ ٤١، وهو حديث صحيح بشواهده، انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧.

(٣) هذا الحديث «الراحمون يرحمهم...» حديث مسلسل بالأولية، والتسلسل من نعوت الأسانيد، وهو عبارة عن تتابع رجال الإسناد وتواردهم فيه واحدًا بعد واحد على صفةٍ أو حالةٍ واحدة، والمسلسل بالأولية نوع من أنواع التسلسل، وفيه يتتابع رجال إسناده ويتواردون بشرط أن يكون أول حديث سمعه رجال السند من شيخ معين من شيوخهم.

قبر الأستاذ كلَّ جمعةٍ بعد صلاةِ الجمعة إلى سنةٍ، قال: كنتُ عند القبرِ يومًا إذ نعستُ، فرأيتُ كأنَّ القبر انشقَّ، وطلعَ الأستاذُ، ويُريدُ أن يطيرَ، قلت: إلى أين؟ قال رحمه الله: إلى عالمِ الملكوت؛ إذ نصبوا لي هناك منابر. وطار.

ونقل عن أبي بكر الصيرفي أيضًا أنه قال: توفي القاضي أبو عمر رحمه الله، وكان من أقرانِ الأستاذ أبي علي رحمه الله، رأيتُ في المنام كأنّي أُريد أن أذهبَ إلى مجلسِ الأستاذ في عالمِ الملكوت، فكأنَّ قائلاً يقول: لا تذهب؛ لأنّه ليس اليومَ مجلسٌ. قلت: لم؟ قال: لأجل وفاة القاضي أبو عمر؛ فإنّه مات اليوم.

ونقل الشيخُ الإمام أبو القاسم القُشيري صاحب «الرسالة الصوفية» رحمه الله أنه جاء إليه شابٌّ يبكي، فسأله عن بُكائه، قال: رأيتُ البارحةَ في المنام كأنَّ القيامة قد قامت، وأُمِر بي إلى النار، وأنا أقول: لا تُنزلوني في النار؛ فإنّي حضرتُ مجلسَ أبي علي الدقاق. فقالوا: أحضرتَ مجلسه؟ قلت: نعم. قالوا: فأدخلوه الجنة إذن(١).

نسأل الله تعالى أن يفيضَ عليه من زُلال كرمه، وسلسالِ نعمه، ونستشفعُ إلى كريم حضرته بنبيّه سيّدِ الأوّلين والآخرين محمدٍ ﷺ، وبجميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وبجميع الأولياء والصدّيقين، والشهداء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين أن يمنَّ علينا وعلى إخواننا في الدِّين بدوامِ نعمته في الدنيا والآخرة، وأن يحفظَ إيمانَنا من سخطه وغضبه، وعن شرِّ الشيطان وكيده، وأن ينظرَ إلينا نظرَ الرحمة، ويُعافينا من بلاءِ الدنيا وعذاب الآخرة، وأن يرزقنا عملاً يرضى به، ورزقًا نستغني به عن الطلب، إنه كريمٌ رحيم، عفوٌّ حليم، وأن يُصلّي على خيرِ خلقه محمدٍ وآله وصحبه أجمعين، ويُسلّم تسليمًا كثيرًا كثيرا.

* * *

(١) لم أجده في المطبوع من الرسالة.

(٦١) علي الخَرَقاني(١)

ذكر الشيخ أبي الحسن علي الخَرَقاني رحمه الله:

كان رحمه الله سلطانَ المشايخ، قطبَ الأوتاد والأبدال، ومُقتدى أهلِ الطريقة والحقيقة، مُتمكّنًا في أحواله، متعيّنًا بالمعرفة، لا زال في المشاهدة بقلبه، والمجاهدة بجسده، ذا خضوعٍ وخشوعٍ ورياضة، وصاحبَ أسرارٍ ومكاشفات، وهمّةٍ عاليةٍ، ومرتبةٍ سامية، وله مع الله تعالى مقامُ الانبساط.

نقل أن سلطان العارفين أبا يزيد البسطامي قدّس الله روحه كان يزورُ كلَّ سنةٍ قبورَ الشهداء في قريةٍ اسمها دِهِسْتان(٢) في مكان اسمه سرريك(٣)، ويكونُ عبورُه بخَرَقان، قريةِ أبي الحسن رحمه الله، فإذا وصلَ إليها وقفَ وتنفَّسَ، فسأله بعضُ الأصحاب عن ذلك، فقال: إنّي أشمُّ رائحةً من هذه القرية ـ التي هي مكانُ اللصوص ـ يظهرُ فيها رجلٌ اسمُه عليٌّ، وكنيته أبو الحسن، يكون سابقًا عليَّ بثلاثِ درجات، يحملُ ثقل العيال والأهل، ويزرعُ، ويغرس.

نقل أن أبا الحسن في ابتداءِ حاله ثنتي عشرة سنة كان يُصلّي صلاةَ العشاء بخَرَقان، ثم يتوجَّهُ إلى بِسطام، ويمشي إلى قبرِ أبي يزيد ويزوره، ويقول:

---

(١) هو علي بن أحمد، وترجمته في الأنساب للسمعاني ٥/ ٨٦، ٨٧، اللباب ١/ ٤٣٤، معجم البلدان ٢/ ٣٦٠، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٢١، تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات (سنة٤٢٥هـ)، أسرار التوحيد (انظر الفهرس)، كشف المحجوب ٣٧٧، نفحات الأنس ٤٢٦، رشحات عين الحياة ١٤.

والخَرَقاني: نسبة لقرية خَرَقان في جبال بِسطام كبيرة كثيرة الخير على طريق إستراباذ.

(٢) دِهِستان: بكسر أوله وثانيه، بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان. معجم البلدان.

(٣) في (أ): سريربك.

اللهم، اسقني ممّا سقيتَ أبا يزيد، وارزقني رائحةً ممّا أنعمتَ عليه. ويرجع إلى خَرَقان، ويُصلّي الصبح فيها بوضوءِ العشاء مع الجماعة.

نقل إليه عن بعض اللصوص أنّه سرق شيئًا، ورجع القهقرى ـ يعني: رجع بحيث كان وجهُه إلى البيت الذي سرقَ منه وقفاه إلى بيتِ نفسه، ليُضَيِّعَ آثارَ أقدامه على الناس ـ فقال أبو الحسن: ما أنا أنقصُ من السارق في شأنه. فجعل يأتي قبرَ أبي يزيد، ويرجع إلى خَرَقان، ووجهُهُ إلى القبر، وهكذا إلى خرقان مدّةً طويلةً، ويعمل هذا احترامًا لقبر أبي يزيد، ثم بعد اثنتي عشرة سنة سمعَ صوتًا من تربة الشيخ أبي يزيد: يا أبا الحسن، حانَ حينُ سُكونك وجلوسك في بيتك. فقال أبو الحسن: يا شيخ، أنا رجلٌ عاميٌّ أُميٌّ، لا خبرةَ لي بالقرآن ولا بالشريعة. فسمع صوتًا يقول: يا أبا الحسن، ما رزقني الله تعالى كان ببركتك. قال أبو الحسن: كيفَ وأنت قبلي بثلاثين سنةً ونيف[1]. قال: نعم، ولكنْ لمّا كنتُ أمرُّ بخَرَقان كنتُ أرى نورًا من الأرض إلى السماء كأُسطوانة، وكان لي إلى الله حاجةٌ ثلاثين سنة، ما قضاها إلى أن نُودي في سرِّي: يا أبا يزيد، استشفع إلينا بذلك النور نقضِ حاجتك. قلت: إلهي، ما ذلك النور؟ فسمعت هاتفًا يقول: ذلك النورُ نورُ عبدٍ لنا خالصٍ خاصٍّ مُسمًّى بأبي الحسن. فاستشفعتُ به، وقُضيت حاجتي، وأُعطيت مقصودي.

قال أبو الحسن: ذهبتُ إلى خَرَقان، واشتغلتُ بتلاوة القرآن، فقرأتُهُ في أربعةٍ وعشرين يومًا.

وجاءَ في روايةٍ أُخرى: أنه سمعَ من قبرِ أبي يزيد: افتتحْ بالفاتحة. قال: ما وصلتُ إلى خَرَقان إلاّ وأتممتُ القرآنَ وختمته.

نقل أنه كان للشيخ أبي الحسن قطعةُ بستانٍ، وكان يعملُ فيها بيده، وكان يومًا من الأيام يعملُ بالمَرِّ[2] إذ طلعَ من الأرض بدلَ التُّراب الدراهمُ، فلم

---

(١) في (ب): قبلي بثلاثين سنة وسنة ونيفًا.

(٢) المَرُّ: المسحاة، أو مقبضها، وكذلك هو من المحراث. معجم متن اللغة.

يلتفتْ إليها، ففي النوبةِ الثانية طلعتِ الدنانيرُ، كذلك ما التفت إليها، واشتغل بشغله، ففي الثالثة خرجت اللآلىءُ والجواهرُ النفيسة، فقال: إلهي، إنَّ أبا الحسن لا يغترُّ بأمثال هذه، ولا يشتغلُ عنك بالدنيا.

نقل أنه رحمه الله كان يعملُ الحراثة أيضًا، فإذا جاءَ وقتُ الصلاة، تركَ العملَ واشتغلَ بالصلاة، وثيرانُهُ تعملُ وتحرث إلى فراغه من الصلاة.

نقل عن عمرو بن أبي العباس أنه قال لأبي الحسن: تعالَ يُمسكْ بعضُنا يدَ الآخر، ونقفزْ من أحدِ طرفي ظلِّ هذه الشجرةِ إلى الطرفِ الآخر - وكان يأوي إلى ظلِّها ألفُ غنمة - قال أبو الحسن: وما هذا، تعال نمسكْ لطفَ الله تعالى، ونقفزْ عن العالمين، بحيث لا نلتفتُ إلى الجنة ولا إلى النار.

نقل أنَّ شيخَ المشايخ دخلَ على أبي الحسن، وعنده طاسٌ مملوءٌ من الماء، فأدخل يدَه فيه، وأخرجَ سمكًا حيًا ورماه على الأرض، نظر أبو الحسن إلى التنورِ المشعولِ في البيت، وأدخل يدَهُ فيها، وأخرج سمكًا حيًا، ووضع عند شيخ المشايخ، ثم قال: يا عبد الله، تعالَ ننزلْ في بحر الفناء، ثم ننظر من يُخرجُ رأسه من جيب البقاء. فسكتَ شيخُ المشايخ، ولم ينطق.

نقل عن شيخ المشايخ أنه قال: ما نمتُ ثلاثين سنةً خوفًا من أبي الحسن، وفي كلِّ مقامٍ خطوتُ خطوةً رأيتُهُ قد سبقني، إلى حدِّ أنّي من عشرِ سنين أُريدُ أن أَسبقَهُ في زيارةِ قبرِ أبي يزيد رحمه الله بِبسطام، وما اتّفقَ لي؛ مع أنَّ مكاني أقربُ إلى القبرِ من مكانه.

نقل أنَّ واحدًا من تلاميذه استأذن الشيخَ أبا الحسن ليسافرَ إلى جبل لبنان في نواحي الشام، لعلّه يلاقي القطب، لأنّه سمعَ أنَّ القطبَ يحضرُ هناك غالبًا، فخرج قاصدًا للبنان، ووصل إليه بتعبٍ عظيم، وقطعَ المنازل، وطلعَ الجبل، فالتقى بجماعةٍ جالسين، وبين أيديهم جنازةٌ، وهم لا يُصلّون عليه، فسأل المريدُ عن توقّفهم عن الصلاة، قالوا: ننتظر القطبَ ليحضرَ ويؤمَّنا، ونحن نقتدي به. قال الرجل: متى يجيءُ القطب؟ قالوا: كلَّ يومٍ يحضرُ هنا خمسَ

مرات، ويُصلّي بنا الصلوات الخمس. ففرح الرجل في نفسه، وهمْ في ذلك إذ جاءَ رجلٌ، وكلّهم قاموا إليه، وأعزّوه وأكرموه، فتقدّم بعد أن سلّم عليهم، وشرع في صلاة الجنازة، وغلبتِ الدهشةُ على الرجل، وغُشي عليه، فمّا أفاقَ إلاّ بعد فراغهم عن الصلاة، وغيبةِ الإمام الذي هو القطب، ودفنهم الميت، فقال: بالله، أخبروني من هذا الشخص؟ قالوا: هو أبو الحسن الخَرَقاني. قلتُ: هل يرجع إلينا؟ قالوا: نعم، وقتَ صلاة الظهر. فتضوّرت[1] عندهم، واستشفعتُ بهم، وقلت: أنا من تلاميذه، ليشفعوا عنده، لعلّه يرجعُ بي إلى خَرَقان، فإنّي ما وصلتُ إلى هذا المكان إلاّ بمدّةٍ طويلةٍ، مع تعبٍ عظيم، فلمّا آنَ وقتُ الصلاة، جاء الشيخُ، وتقدَّمهم، وصلّى بهم، فلمّا فرغ من الصلاة، تعلّقتُ بذيله، وغُشي عليَّ نوبةً أُخرى، فحين أفقتُ رأيتني في سوقِ مدينة الرَّيِّ، وخَرَقانُ ضيعةٌ من ضياع الرَّيِّ، ووصّاني بالكتمان، وقال: إنّي سألتُ الله تعالى أن يَسترني في الدنيا والآخرة.

نقل عن الشيخ عبد الله الأنصاري أنه قال: أمسكوني وقيّدوني وأذهبوني إلى مدينة بلخ، وسمعتُ أنَّ الناسَ أخذوا الحجارةَ، وطلعوا السُّطوحَ ليرجموني، فقلتُ في نفسي: ما أسأتُ الأدب برجلي حتى صرتُ مقيَّدًا مُستحقًا للقيد. ثم ألهمني الله أنّي يومًا بسطتُ سجادةَ الشيخ، ووقعَتْ رجلي عليها، فعلمتُ أنَّ هذا العقاب لأجلِ ذلك، فندمتُ، وتبتُ إلى الله تعالى، فمن أرادَ أن يرجمني رأيتُهُ ما وافقَتْهُ يدُهُ، وبعد ذلك رفعوا القيدَ عن رجلي.

نقل أن رجلاً أراد أن يرتحلَ إلى العراق لسماع الحديث، فشاورَ الشيخ أبا الحسن، فمنعه الشيخُ عن السفر، فقال: هنا من سَنَدُهُ أعلى من أسانيد أهلِ العراق. فأنكر الرجلُ هذا الكلام، ولم يقبل منه، فقال الشيخ: منّةُ الله تعالى عليَّ أكثرُ من أن تُعدَّ وتُحصى، فأنعمَ عليَّ بامتنانه، وعلّمني بلطفه وإحسانه. فقال الرجل: ممّن أخذتَ الحديث؟ قال الشيخ: سمعتُ من الرسول، وأخذت

(١) في (أ): فتصورت عندهم.

منه ﷺ. فما التفتَ إليه الرجل حتى رأى النبيَّ ﷺ في المنام، فقال للرجل: لا تنكرْ على الفتيان، فإنهم يصدقون في المقال. ففي اليوم الثاني جاء الرجلُ، واشتغل على الشيخ بالحديث، فكان إذا وصلَ إلى حديثٍ لم يكن للنبيِّ ﷺ، فيقول الشيخ: ليس هذا للنبي[١] ﷺ. ويقول القارىء: بم عرفتَ يا شيخ؟ يقول الشيخ: إنّي أنظرُ إلى وجهِ النبيِّ ﷺ عند قراءة الحديث، فإذا أصلُ إلى حديثٍ موضوعٍ، أرى عُبوسًا في وجهه ﷺ، فبذلك أعلمُ أنَّ ذلك الحديث ما قالَهُ النبيُّ ﷺ.

أقول: وهذا الكلام مُشكلٌ إذ يتّجه أن يُقال: كيف يرى النبيَّ ﷺ في اليقظة في الدنيا؟ والجوابُ أنّه ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»[٢] وقال الشارحون: معناه أنَّ من رأى النبيَّ ﷺ في المنام فسيراه يوم القيامة، أو يراه عند موته. وقال بعض الشارحين[٣]: إنّ بعضَ المحقّقين العارفين ذهبَ إلى جواز رؤيته ﷺ في اليقظة، وذلك إذا صفا القلبُ عن الكدورات النفسانية، والظُّلمات الجسمانية، وتنوّر بأنوار الوارداتِ القدسية، والإلهامات القدّوسية، ثم توجّه عند استغراقه في بحرِ محبّةِ الله تعالى ورسوله عليه السلام إلى روح النبيِّ ﷺ فلا يبعدُ أن ينكشفَ له روحُ النبيِّ ﷺ على كيفيةٍ لا يعلمُها إلاّ الله تعالى بل ادعوا الوقوعَ أيضًا، وكلامُ الشيخ أبي الحسن ممّا يؤكّدُ هذا المعنى، والتوجيهُ المذكور عن بعض المحقّقين يجوّزه بالنظر إلى قدرةِ الله تعالى، وإمكان رؤية النبي ﷺ في نفسها يزول الإشكال بالكلية. والله أعلم.

نقل أن الشيخ أبا سعيد جاءَ إلى أبي الحسن، والبسطُ كان غالبًا على أبي سعيد، والحزنُ على أبي الحسن رحمه الله، فأرادا تبديلَ الحالتين، فقاما

---

(١) في (ب): فيقول الشيخ: ليس هذا واردًا عن النبيِّ، فيقول الشيخ ليس هذا للنبيِّ.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٢٣) في الأدب، باب في الرؤيا. قال صاحب عون المعبود شارحًا: (اليَقَظة) بفتح القاف، أي يوم القيامة، رؤية خاصة في القرب منه.

(٣) في (أ): وقال بعض الصالحين.

وتعانقا، فانقلب بقدرةِ الله تعالى بسطُ أبي سعيد حزنًا وقبضًا، وقبضُ أبي الحسن بسطًا، حتى أن أبا سعيد أغتمَّ، ووضع رأسَه على ركبته، ويبكي طول الليل، وأبا الحسن يشهقُ إلى الصباح من الطرب ويرقص، فلمّا أصبحا جاء أبو الحسن إلى أبي سعيد وقال: يا شيخ، أُريدُ حالتي التي من القبضِ والحزن، ولا أُريد هذا البسط، فإنَّ ذرّةً من الحزن خيرٌ عندي من جميع البسط والفرح في الدنيا، ففعلا مثل الأول، وانعكس الأمر، وانقلبَ الحالُ بتقدير الله تعالى.

نقل أن أبا سعيد لمّا خرجَ من مجلس أبي الحسن مسحَ بلحيته حَجَرَةً كانت في ممرِّ مسجد أبي الحسن رحمه الله تواضعًا له، ثم أَمَرَ أبو الحسن حتى نقلوها إلى محرابِ المسجد احترامًا لأبي سعيد، فلمّا أصبحوا رأوها في مكانها الأول، ثم نقلوها إلى المحراب، وفي اليوم الثاني وجدوها في مكانها الأول، وهكذا إلى كم مرةٍ، ثم قال أبو الحسن: اتركوها؛ فإنَّ تواضع أبي سعيد معنا أكثرُ من ذلك. لكنْ حوّلَ بابَ المسجد إلى جدارٍ آخر لئلا تداسَ تلك الحجرة.

وقال أبو سعيد: ذهبتُ إلى أبي الحسن وأنا خرقةٌ، ثم رجعتُ وأنا جوهرةٌ لا قيمة لها.

وقال الأستاذ أبو القاسم القُشيري رحمه الله: دخلتُ بلد خَرَقان، فلم يبقَ لي فصاحةٌ ولا بلاغةٌ ولا عبارة، حتى رأيتني خاليًا عن كلِّ شيء، وما ذلك إلاّ عن حشمةِ ذلك الشيخ ـ يعني أبا الحسن.

نقل أن أبا علي بن سينا لمّا سمعَ أخبارَ أبي الحسن قصدَهُ، وجاء إليه، فلمّا وصلَ البابَ ودقَّه، خرجتْ إليه امرأتُهُ وقالت: ما تريد؟ قال أبو علي: أُريد الشيخ أبا الحسن. قالتِ المرأة: ذلك الزنديق الكذّاب، فلمَ تعبتَ لأجله؟ قال أبو علي: لا غنى لي من صحبته. قالتِ المرأة: ذهب يحتطبُ. فخرجَ أبو علي إلى الصحراء في طلبه، فرآه يجيءُ وقد حملَ الحطبَ على أسدٍ ويسوقُه، فحصل لأبي عليٍّ من ذلك حالٌ وتعجّبٌ في شأنه، فلمّا وصل إليه، قال

أبو الحسن: لا تعجبْ من هذا، نحن حملنا على أنفسنا حمل ذلك الذئب ـ يعني المرأة ـ فلا جرمَ أنّه حمَّلَ الأسدَ حملنا وكارتنا[١].

وكان أبو الحسن جبلَ طينًا لعمارة حائطٍ له، فقام على الحائطِ ليبني، وكان معه معولٌ، فوقع من يده، فقام أبو علي ليعطيَهُ المعولَ، فقبل أن يصلَ إليه ارتفعَ المعولُ، ووصلَ إلى أبي الحسن، وازدادَ أبو عليٍّ تحيُّرًا وتعجّبًا.

نقل أنَّ عضدَ الدولة الذي كان وزيرَ الخليفة ببغداد عرضَ له وجعٌ في بطنه، حتى عجزتِ الأطباءُ عن المعالجة، ثم مسحوا بنعلين لأبي الحسن رحمه الله جوفه، فشفاه الله تعالى.

نقل أن رجلاً جاء إلى الشيخ أبي الحسن، وطلب منه خرقةً[٢] ليلبسها، فقال الشيخ: أسألُ منك مسألة أولاً، ثم أُلبسك الخرقةَ، فما تقول في رجلٍ لبس ثيابَ النساء، أو تغطّى بإزارهن هل يصير امرأةً؟ أو امرأة لبست ثيابَ الرجل، وتعمَّمَتْ هل تصير رجلاً؟ فقال ذلك الرجل: لا. قال الشيخ: وهكذا لا يصيرُ الإنسانُ صوفيًا بلبس المرقّعة، فإنّها في الحقيقة زِيُّ الرجال، ولا يَليقُ بها إلاّ رجل.

نقل أن رجلاً جاء إلى أبي الحسن وقال: يا شيخ، أُريد دعوةَ الخلقِ إلى الحقِّ. قال الشيخ: إلى الحقِّ؟ قال: نعم. [قال الشيخُ: إلى الحقِّ فنعم]، وأمّا إليكَ فلا. قال الرجل: وكيف أدعوهم إلى نفسي؟ قال: إذا حصل لك غيظٌ إن دعاهم إلى الله غيرُكَ آخرُ، فاعلمْ أنَّ دعوتك لم تكن إلاّ إلى نفسك.

نقل أنَّ السُّلطان محمود الغازي[٣] رحمه الله جاءَ من غزنةَ إلى مكانِ الشيخ

(١) الكارة: ما يحمله الرجل على ظهره، أو ما يحمل على الظهر من الثياب تكُور في ثوب واحد. معجم متن اللغة.

(٢) قوله: (خرقة) ليست في (ب).

(٣) هو محمود بن سُبُكتكين الغزنوي يمين الدولة أبو القاسم (٣٦١ـ ٤٢١هـ) فاتح الهند، وأحد أكبر القادة.

أبي الحسن رحمه الله زائرًا له، ونزل خارج القرية، وبعث إليه شخصًا، وأمره أن يقول للشيخ: إن السلطان قطع منازل، وجاء إليك، فعليك أن تأتي إلى خيمته من بيتك، وإن لم يقبلْ، تقرأ عليه هذه الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فلمّا اطّلعَ على المقصود، تبرَّمَ عن الذهاب إليه، واعتذرَ، فقرأ عليه الرجل الآيةَ، قال الشيخ: قد استغرقتُ في ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بحيث ما أتفرّغُ إلى ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وحصل منه خجالاتٌ، فكيف ألتفتُ إلى ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾؟ فرجع الرجل، وأخبرَ السُّلطان بما سمع، فرقَّ قلبُ السلطان، وقال: قوموا نذهبْ إليه؛ فإنّه ليس ممّا ظننّاه. فألبسَ ثيابه وزيّه مملوكَه الذي يُسمّى إياسًا، وقدّمه، وهو يمشي خلفه على هيئة الغُلمان، ومعه جماعةٌ من الغلمان والعبيد والجواري، فدخلَ إياس على هيئة السُّلطان، وسلَّم، فردَّ الشيخُ الجواب، ولم يقم، ولا التفتَ إلى إياس؛ بل نظرَ إلى السُّلطان، وعرفه بنورِ الفِراسة، وأمسك يده، وأجلسه في جنبه، ثم محمود التمسَ منه شيئًا من كلمات أبي يزيد، قال الشيخ: مُرْ هذه الجواري ليخرجْنَ من المجلس؛ فإنّهن أجنبيات. قال: قال أبو يزيد رحمه الله: من رآني فقد نجا عن رُقْم الشَّقاوة. قال محمود: يلوحُ عن هذا الكلام أنَّ أبا يزيد يكونُ أفضلَ من النبيِّ ﷺ، لأن أبا لهب وأبا جهل وغيرَهما من الكفّار رأوا النبيَّ ﷺ، ولم يأمنوا من الشقاوة؟ فقال الشيخ: لا تتخطَّ الأدبَ، ما رأى النبيَّ أحدٌ غير أصحابه، والكفارُ ما رأوه، وإن كانوا يبصرونه، والدليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

أقول: معنى قول أبي يزيد (من رآني فقد أمن من الشقاء) أنه من رآه كما رأى أصحابُ النبيِّ عليه السلام إيّاه. أي: اعتقدوا فيه، وقبلوا كلامه، واقتدوا به في جميع أفعاله وأحواله، وامتثلوا أوامره ونواهيه، واسترشدوا بإرشاده، وأكبُّوا على ما أمرهم اللهُ من الطاعة والعبادة، ووافقوه في الرِّياضة والمُجاهدة، واستمرُّوا على جميع ذلك، حتى خرجوا من الدنيا، وهم على ذلك، فلا شكَّ أنهم آمنين وناجين[1]، فكذلك حالُ أصحابِ أبي يزيد معه، يؤيِّدُهُ ما رُوي

---

(١) كذا الأصل.

عنه ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبيِّ في أُمَّته[1] سواء» أن النبيَّ عليه السلام كان نبيًّا واجبَ الاتّباع له، مفترضَ الإيمان به، ولا شكَّ أيضًا في أن من رأى أبا يزيد على ما فصّلناه تفصيلاً يكون بتوفيقِ الله تعالى سعيدًا آمنًا من الشقاوة، وعصمنا الله من الشقاق والأزلية والأبدية. والله أعلم[2].

فاستحسن السلطانُ رحمه الله كلامَ أبي الحسن رحمه الله، ثم استوصاه وصيةً، فقال الشيخ: حافظْ على أربعٍ: التقوى، والصلاةِ بالجماعة، والسخاوة، والشفقةِ على خلق الله. ثم قالَ: ادعُ لي. قال: أدعو لك كلَّ يومٍ وأقول: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات. قال: نعم، ولكن أريد دعاءً خاصًّا. قال: اللهمَّ[3]، اجعلْ عاقبةَ محمود محمودةً. فقدّمَ له بدرةً[4]، وقدّم له الشيخُ قرصًا من الشعير، وطلب منه أن يأكل، فأخذَ منه لقمةً، ووضعَ في فيه، ومضغ مَضغًا، ثم أرادَ أن يبلعَ، فغصَّ به، فقال الشيخ: كما أنَّكَ لا تقدرُ على ابتلاعِ خبزِ الفُقراء، فأيضًا لا أقدرُ على التصرّفِ في هذه البدرة. فردّها، ولم يقبلْها، وقال: إنّي طلّقتُ الدنيا ثلاث، والمطلَّقةُ ثلاثًا لا ترجع. ثم التمسَ محمودٌ منه شيئًا يكون تذكارًا، فخلعَ قميصَه، وأعطاه، ثم حين المفارقة قامَ له، فقال السُّلطانُ: إنك لم تقمْ[5] لي عند الدخول، وتقومُ عند الخروج؟ قال: لأنَّكَ دخلتَ ـ مع دعوتك ـ بالسَّلطنة والامتحان، والآن ترجعُ وعليك انكسارُ الفقر،

---

(١) رواه ابن حبان في كتاب المجروحين ٢/ ٣٩ (٥٧١) في ترجمة عبد الله بن عمر بن غانم، وقال عنه: قاضي إفريقية، يُحدّث عن مالك ما لم يحدّث به قطُّ، لا تحلُّ الرواية عنه إلاّ على سبيل الاعتبار. وابن عساكر في معجم شيوخه ٢/ ٧٠٣، وفي سنده محمد بن عبد الملك الكوفي القناطيري، قال ابن عساكر: هذا حديث منكر، والقناطيري كذاب، وإنما سُمّي بالقناطيري لأنه كان يكذب قناطير، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٤ في ترجمة عبد الله بن عمر بن غانم، و٣/ ٦٣٢ في ترجمة محمد بن عبد الملك القناطيري.

(٢) في (ب): سعيدًا آمنًا. فاستحسن السلطان.

(٣) في (ب): كل يوم وأقول: اللهم اجعل عاقبة محمود.

(٤) البَدْرَة: جلد السخلة إذا فُطمت، وهي كيس فيه ألف أو سبعة آلاف أو عشرة آلاف دينار، سُمّيت بجلد السخلة. معجم متن اللغة.

(٥) في (ب): السلطان: كيف أنك لم تقم.

فإنَّ أنوارَ شموس الفقر تلألأتْ عليك، فما قمتُ لك أولاً نظرًا إلى سلطنتك، وأقومُ الآن اعتبارًا لفقرك. ثم سافرَ السلطان بعده إلى نواحي سومنات[١] من ديار الهند[٢]، واجتمع لأجلِ مُحاربته عسكرِ الكفار، وكاد المُسلمون أن ينهزموا، فنزل السلطانُ، وانزوى في موضعٍ خالٍ، وأخذَ قميصَ الشيخ، وتمرَّغَ في التراب، واستشفعَ به إلى الله تعالى، وقال: إلهي، بحرمة صاحبِ هذا القميص أَسألُكَ أن تنصرَ جيشنا. وهو في ذلك، إذ هاجتْ من جانب خُراسان ريحٌ فيها ظلمةٌ، حتى قصدَ الكفارُ بعضهم بعضًا، وتقاتلوا، وانهزموا، وانتصر المسلمون، وانتقموا من الكفّارِ ببركة قميص الشيخ، ثم رأى السلطانُ محمودُ رحمه الله في ليلته في المنام أنَّ الشيخَ يقول له: يا محمود، لمَ أرقتَ ماءَ خرقتي على باب الله، فإنّك لو طلبتَ من الله تعالى تلك الحالة إسلامَ الكفار جميعهم[٣] لأسلموا بتوفيق الله تعالى.

نقل أن أبا الحسن قال ليلةً: إن جماعةً من القطّاع ينَهبون الساعةَ طائفةً في الوادي الفلاني، ويُخرجونهم. فلمّا فتّشوا، كان الأمرُ كذلك، والحالُ أنَّ بعضَ الأعداء قتلَ ولدًا للشيخ في تلك الليلة وقطعَ رأسَهُ، ورماه في بيت الشيخ، ولم يكن له خبرٌ عن ذلك، وامرأتُهُ كانت تُنكره، فقالت: واعجبًا، إنه يُخبر عن فراسخَ، وليس له علمٌ عن أحوالِ ولده في قربه؟! فقال الشيخ رحمه الله: نعم، إنَّ اللهَ تعالى رفعَ الحجاب بيني وبين القطاع، ولم يرفعْ ما بيني وبين الولد[٤].

---

(١) سومنات: صنم عظيم عند الهنود، على الساحل الشرقي للهند، وهو عندهم يحيي ويميت، ويرزق وينصر، كانوا يحجون إليه، ويقدّمون له نفائس أموالهم، فيتجمّع عنده مال يتجاوز الوصف، وهو على عرش بديع علو خمسة أذرع، وطول الصنم عشرة أذرع، وفي خدمته من البراهمة ٣٠٠ رجل يحلقون رؤوس حجّاجِهِ ولحاهم، و٨٠٠ رجل وامرأة يغنون ويرقصون عند بابه. ويجتمع عنده في عيدهم نحو مئة ألف كافر. استطاع محمود الغزنوي عام ٤١٦هـ بعد جهد ومشقة من حرقه بعد تحطيمه، وغنم مغانم كثيرة، ولله الحمد والمنة. انظر وفيات الأعيان ٥/ ١٧٩، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٩٠.

(٢) في (ب): من ديار الكفر.

(٣) في (ب): إسلام الكون جميعهم.

(٤) انظر الخبر صفحة ٦٠٧، و٧٧٦.

نقل أن أبا الحسن رحمه الله مع أربعين من أصحابه جلسَ في صومعةٍ، ولم يأكلوا شيئًا سبعةَ أيام، فجاء رجلٌ إلى الباب يحمل دقيقًا وغنمًا، وقال: صدقة للصوفيين. فقال الشيخ رحمه الله لأصحابه: من الذي يُصحّحُ نسبتَه للصوفية وإلى التصوّفِ ليقبلَ من الرجل صدقتَهُ، أمّا أنا فليس لي جرأةٌ في هذه الدعوى. فامتنعوا، ورجع الرجل بالدقيق والغنم.

نقل عنه أنه قال: كان أخوان، ولهما والدةٌ اتّفقا على أن يخدمَ أحدُهما الأمَ ليلةً، والآخرُ يعبدُ الله تعالى، وفي الليلةِ الثانية بالعكس، ثم في ليلةٍ من الليالي الذي أحدُهما اشتغلَ بعبادة الله تعالى والتذَّ منها، فطلبَ من أخيه نوبتَهُ في الليلة الثانية أيضًا ليشتغلَ بعبادة الله تعالى، فأعطاه نوبتَهُ، واشتغلَ ذلك الأخُ تلك الليلة أيضًا بعبادة الله، وأخذه نعاسٌ في السجدة، فرأى في المنام أنَّ هاتفًا يقول له: إنَّ الله تعالى قد غفرَ لأخيك، وغفرَ لك أيضًا ببركته. فقال: يا رب، أما أنا في عبادتك، وهو في خدمة الواحدة؟ قال الهاتف: نعم، ولكن أنتَ في خدمة من هو مُستغنٍ عن خدمتك، وهو في خدمةِ من هي مُحتاجةٌ إلى الخدمة.

نقل أنَّ أبا الحسن رحمه الله لم يضعْ رأسَه على المخدّة أربعين سنة، وفي جميع تلك المدّةِ صلّى صلاةَ الصُّبح بطهارة العشاء، ثم قال: عرفتُ استغناءَ الله تعالى عن عبادتي، ولكنْ أنا عبدٌ، والعبدُ لا يتجاوزُ عن مقام العبودية.

نقل عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صلّى ركعتين، لا يخطرُ بباله فيهما شيءٌ من أمور الدنيا، تُنتثرُ عنه الذنوب، ويصيرُ كيوم ولدته أمه»[1].

ونقل إليه أنَّ الإمامَ أحمد بنَ حنبل رضي الله عنه في جميع عُمرِهِ صلّى ركعتين هكذا، وبعد الفراغ بشَّرَ ابنه، وقال: صلّيتُ ركعتين، ولم يخطرْ ببالي شيءٌ من أمور الدنيا. فلمّا سمعَ أبو الحسن رحمه الله النقلَيْنِ قال: إنّ أبا

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ١/ ١٥٠ بلفظ: «من صلى ركعتين لم يحدّث نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه» قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلاً، وهو في الصحيحين من حديث عثمان بزيادةٍ في أوله دون قوله: «بشيء من الدنيا» وزاد الطيالسي: «إلاّ بخيرٍ».

الحسن الفقيرَ منذ ثلاثين سنة ما خطرَ بباله غيرُ الله تعالى.

نقل أنّه يومًا حصلَ له حالٌ، فتكلّمُ في الانبساط، فنُودي في سرِّه: ألا تخافُ من الموت؟! قال: كان لي أخٌ يخافُ من الموتِ، أمّا أنا فلا. فنُودي: ألا تفزعُ من مُنكرٍ ونكير حينَ دخولك في القبر؟ قال: الجملُ لا يفزعُ من صوت الجرس. فنُودي: أفلا تفزعُ من القيامةِ وأهوالها؟ فقال: إلهي، إذا قامتِ القيامةُ، وقامت أهوالُها أنا استغرقُ في بحرِ التوحيد، وأستريحُ عن تلك الأحوال.

نقل أنّه قال: إلهي، لا تبعثْ إليَّ مَلَكَ الموت ليقبضَ روحي، فإنّي ما سلّمتُ الروح منه حتى أسلّمه إليه، ما أخذتُ إلاّ منك، ولا أُسلّم إلاّ إليك[1].

نقل أنه قال: إنّ الله تعالى قد فتحَ عليَّ باب الفكر، فرأيت كأنَّ الله تعالى يقول لي: إنّي اشتريتُكَ من الشيطان بثمنٍ لا يُوصف قدرُه، فلا تغفلْ عنه، واعلمْ أنّك كيف تُداريه.

نقل أنه قال: إنَّ لكلِّ شيءٍ من المكوّنات نهايةً إلاّ لثلاث، أمّا أولاً فدرجاتُ محمّدٍ المصطفى ﷺ لا نهايةَ لها، وكيدُ النفسِ لا نهاية له، والمعرفةُ لا نهاية لها.

نقل أنه قال: إنَّ الله تبارك وتعالى أعطاني قدمًا؛ أمشي بخطوةٍ من تحتِ الثرى إلى العرش، ثم أرجعُ من العرشِ إلى تحت الثرى، ثم أفتكرُ، وأعلم أنّي ما مشيتُ أصلاً، وأقول: سبحان الله ما أطول هذا السَّفَر وما أقصره!.

ونقل أنه قال: لا أستريحُ إذا أمسيت حتَّى أُصحّحَ حسابي مع الله تعالى.

وله كلمات عالية منها: لو وهبَ اللهُ تعالى منّي جميعَ الناس يومَ القيامة الموجودين في عصري لا أنظرُ إليهم، ولا ألتفتُ.

وقال: لئن أعيشَ في الدُّنيا تحت شجرةِ عَوْسَجٍ[2] مع المعرفة بالله تعالى

---

(١) هذا قول الشبلي، وقد مرّ، انظر صفحة ٥٣٥.

(٢) العَوْسَج: شجر له شوك، أزهاره مختلفة الألوان، له ثمرٌ مدوّر كأنه خرز العقيق. واحدته عَوْسَجة.

أحبُّ إليَّ من أن أكونَ في ظلِّ طُوبى وأنا غافل منه جاهل به .

وقال: اليومُ والليلةُ أربعٌ وعشرون ساعة، أموتُ في ساعةٍ واحدةٍ ألفَ مرةٍ، وأمّا الساعات الباقيات فما ظنُّكَ بحالي فيها؟ .

وقال: منذُ تحرّكْتُ في بطن أُمّي إلى اليوم أَذكرُ ما جرى علي[1] .

وقال: أنظرُ إلى الإنسان، وإلى المَلَك، وإلى الجنِّ، والوحوش، والطيور، وأقدِرُ أن أُخبرَ عمَّا هو في أقصى العالم، كما أُخبر عمَّا في حوالينا، وذلك بتوفيق الله تعالى.

وقال: إنّ داخلَ هذا القلب بحرًا، إذا هبّتِ الريحُ، وجاءتِ السحاب، وشرعت تُمطر، فتمطرُ عن العرش إلى تحت الثرى.

أقول: مرادُهُ بالريح: توجُّه العقل بتوفيق الله تعالى، وبالسحاب: الفكرُ، وبالمطر: المعرفة. ولا شكَّ أنَّ[2] المعرفةَ الحاصلةَ من الفكر الصحيح بعد توجّه النفس الذكية، تتناول العرش والمخلوقات كلّها، لكن بشرطِ التصفية، وملازمةِ المجاهدة والرياضة، والعكوفِ على الطاعة والمراقبة، والاستمدادِ من حضرة ربِّ العزّة، ووصلِ المدد من تلك الحضرة، وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء. والله أعلم.

قال: سافرتُ بهداية الله تعالى الوهّابِ سفرًا، فقطعتُ منازلَ، وعبرتُ بواديَ وجبالاً، وتلالاً ووهادًا، وسواقي وأنهارًا وبحارًا، وخوفًا ورجاء، ثم بعد ذلك عرفتُ أنّي ما كنتُ مُسلمًا، فقلت: إلهي، أنا مسلمٌ في نظر الخلق، ولستُ بمسلمٍ عندك، فاقطعْ زنّارَ الشِّركِ من وسطي بلطفك، حتى أكونَ أنا مُسلمًا عندك أيضًا.

قال له الشيخ وبيده كراسة: أنا أتكلّمُ عن هذه الكرّاسة، أنت من أين تتكلّم؟ قال أبو الحسن رحمه الله: أنا في وقتٍ لا يسمع الكلام.

---

(١) انظر قول سهل التستري صفحة ٣٢٦.

(٢) في (ب): ولا شك أنها.

وقال: للناسِ أوّلٌ وآخر، فما يعملون في الأول، يُجزون به في الآخر.

وقال: إني لا أنكر وجود الجنة والنار، ولكن أقول: لا محلَّ لهما عندي.

وقال: لي في جميع عُمري سجدةٌ، ولا أتجرَّأُ أن أقولَ هذا الحديث مع الخواصِّ، لأنهم يهتكوني، ولا مع العوام؛ فإنهم لا يفهمون.

وقال: لمّا تواترتْ عليَّ ألطافُ الله تعالى، ظهرتِ الغيرةُ في الملائكة، فأخفاها عنهم.

قال: منذ عشرين سنةً إنّي لبستُ الكفنَ، وأخرجتُ رأسي من جيبه، وأتحدَّثُ مع الناس، احترقتُ إذ كنتُ في بطن أمي، فذبْتُ حين خرجتُ، ولمّا بلغتُ شبتُ.

وقال: ليتني أموتُ قبلَ الخلقِ كلِّهم[١]؛ لئلا يذوقوا ألمَ الموت. وليتَ الحسابَ من جميع الخلائق معي؛ لئلا يُحاسبَ أحدٌ في القيامة. ويا ليتَ العذابَ بدلَ جميع الخلق عليَّ، لئلا يُعذَّبَ أحدٌ غيري، ولا يدخل النار.

قال: توجّهتُ إلى تلك الحضرةِ بالجسد، فطلبتُ القلبَ، فلم يُوافقني، لكنْ وافقني الإيمان والدين والعقل والنفس، وإنّي أدخلْتُ القلبَ فيها، ثم آخذ اليقين بالإخلاص، والإخلاص تبعُ العمل، فوصلنا إلى الحقِّ، فوصلتُ إلى مقامٍ ما رأيتُ هناك شيئًا؛ بل رأيت الكلَّ لله.

قال: ما عرفتُ من الله عزَّ وجل كثيرٌ، ومالم أعرفْ فأكثر.

وقال: ما كلّمتُ مع الناس إلاّ على قدر عقولهم، ولو أقولُ مع الخلقِ ما عرفتُ من اللهِ لنسبوني إلى الجنون كما نسبوا النبيَّ ﷺ[٢].

---

(١) كذا في الأصلين، وكأني بالجملة هي: ليتني أموت عن الخلق كلِّهم.

(٢) نسبوا إليه ﷺ ـ قاتلهم الله ـ الجنون في غير ما مرّة، فقال الله تعالى حاكيًا قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] و﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] و﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]. وغيرها...

و: لو قلتُ مع العرش لتحرَّكَ، ولو قلتُ مع الشمس لسكنت عن الحركة.

وقال: إنّي لا أُخبركم عن أحوالي ومعاملاتي؛ ولكنْ أُخبرُكم عن طهارة الله تعالى ورحمتِهِ ومحبَّتِهِ، فإنّهما بحران زاخران تتلاطم أمواجُهما وتتكسر فيها سفينة على سفينة.

وقال: عشتُ سبعين سنةً، ولم أسجد على خلافِ الشرعِ[١] سجدةً، ولا تَنَفَّسْتُ على موافقةِ النفسِ نفسًا.

وقال: نُوديت: أن يا عبدي، إن جئتني بالحزن جعلتُكَ مَسرورًا، وإن جئتني بالفقر أغنيتك، وإن تركتَ نفسَكَ، وقطعتَ الالتفاتَ عنك سخَّرْتُ لك الماء والهواء.

قال: يقول العلماء: العقلُ هو الذي يهتدي إلى الله تعالى، والعَجَبُ أنَّ العقلَ عاجزٌ في معرفةِ ذاته، فكيف يخوضُ في معرفة الله تعالى؟.

أقول: هذا إشارةٌ إلى ما ذهبَ إليه الصوفية من أنَّ معرفةَ الله تعالى إنَّما تحصُل بالرياضة وتصفية النفس، ولا مجال فيها للعقلِ الصرف. وقالت المعتزلة: المعرفةُ تحصُلُ بالعقل. وقالت الأشاعرةُ: هي تحصُلُ بالشرع. والله أعلم.

وقال: عُرِضتْ عليَّ كنوزُ الدنيا كلّها، فلم ألتفتْ إليها، فنُوديت من الحقِّ: يا أبا الحسن، ليس لك في الدنيا حظٌّ ونصيب، وإنّما أنا حسبُكَ من العالمين.

وقال: ما رجعتُ إلى الدنيا مذْ تركتها.

وقال يومًا لأصحابه: هل تُريدون الصحبة مع الخضر؟ قال شخص منهم: نعم. قال: كم عمرك؟ قال: ستون سنة. قال الشيخ: ابتدأ العمر والطاعة، فإنَّ الله تعالى خلقَكَ، وأنت تُريدُ صحبةَ الخضر، فإني منذ صحبتُهُ أنا في صحبة الله، ولم يبقَ[٢] في فؤادي أن أُصاحبَ غيره.

---

(١) في (ب): يتلاطم أمواجهما على خلاف الشرع.

(٢) في (ب): مذ صحبته لم يبق في فؤادي.

وقال: إن قال الله تعالى لي يومَ القيامة: اشفعْ لعبادي، فأقول: إلهي، العبادُ عبادُك، والرحمةُ لك، ولا شكَّ أنتَ أرحمُ عليهم منّي وأكرم.

وقال: نظرتُ إلى بقائه، فأراني فنائي، ونظرتُ إلى فنائي فأراني بقاءَه.

وقال: في أربعٍ وعشرين ساعةً في الليل والنهار لي نَفَسٌ واحد، وذلك مع الحقّ.

وقال: إنّي شبعتُ منّي، فألقيتُ نفسي في الماء، فلمْ تُغرقني، وفي النار فلم تُحرقني، ثم قطعت من الحلق ما يأكلُهُ الخلق أربعة أشهر وعشرًا فلم أمت، فوضعتُ رأسي على عتبة العجزِ، فانفتحَ عليَّ أبوابُ الفتوح حتى وصلتُ إلى مقامٍ لا أقدرُ على وصفه.

قال: نظرتُ إلى خلقِ السموات والأرض من المَلَكِ والجنّ والبشر، وما رأيتُ مقدارًا لأعمالهم عندي، فنُوديتُ من الحقّ: يا أبا الحسن، أنت والخلقُ كلُّهم في نظر عزّتي كالخلقِ في نظرك.

وقال: أيُّ رجلٍ لا يقومُ مع الله كالسماء والأرض والجبال، فلا رجوليةَ له في حاله.

وقال: مَنْ أرادَ الكرامةَ فليأكلْ يومًا، ولا يأكلُ ثلاثة أيام، ثم يأكلُ يومًا ولا يأكل أربعة أيام، ثم يأكلُ يومًا ولا يأكلُ أربعةَ عشرَ يومًا، ثم لا يأكلُ أربعين يومًا، ثم أربعةَ أشهرٍ، ثم سنةً، ثم تظهر له حيّةٌ سوداء، وفي فمها شيءٌ تضعُهُ في فيه، فلا يحتاجُ إلى الأكلِ بعده.

قال: كنتُ قائمًا، وبطني قد يبسَ من الجوع، إذ جاءتني الحيّةُ، وذلك الشيءُ في فمها، قلتُ: إلهي، ما أُريدُ شيئًا بالوساطة. فوجدتُ في معدتي شيئًا أطيبَ من المسك، وأحلى من الشهد، ثم نُوديت: إنّا نسقيكَ من كبدك الحرّاء، ونُشبعُكَ من معدتك.

وقال: رأيتُ من الله عجبًا، فإنه قد سلبَ العقل مني سنين، ويُريني للناس كالعقلاء.

وقال: إلهي، ليت الجنّةَ والنارَ لم تكونا، ليتبيَّنَ مَنْ يعبدُ اللهَ ممّن لا يعبدُهُ[١].

وقال: إنّ اللهَ كشفَ لي سوقًا، فرأيت فيه أشياءَ، بعضُها معلومٌ، وبعضُها مسموعٌ، وبعضُها مقولٌ، فلمّا درتُ في هذا السوق رُفعَ عن قلبي حبُّ الأسواق كلِّها.

وقال: ما يُعطيني اللهُ تعالى في الآخر إلاّ ما أعطاني في الأول، وجعل من شعرِ رأسي إلى أظفارِ أقدامي جسرًا، وقال لي: اعبر عن هذا الجسرِ، فإذا عبرتَ عنه فقد خلّفْتَ الصراطَ عن ورائك.

وقال: إنّي متعجّبٌ في شأن الله تعالى، فإنه أودعَ داخلَ جلدي أشياءَ من غيرِ أن يكونَ لي وقوفٌ عليها واطّلاعٌ، ثم أطلعني عليها حتى صرتُ مُتحيّرًا، وأقول: يا دليلَ المتُحيّرين، زدني تَحيُّرًا.

وقال: الطُّرقُ إلى الله تعالى كثيرةٌ لا عددَ لها، ففي أيِّ طريقٍ سلكتَ وجدتَ خلقًا كثيرًا. قلت: إلهي، أُريدُ طريقًا إليك لا سلكَهُ غيري. فهداني إلى الحزن، وقال: الحزنُ حملٌ ثقيل، لا يطيقُ الناس حمله.

وقال: طلبتُ العافية، فوجدتُها في الوحدة، وطلبتُ السلامة، فوجدتها في الصمت.

وقال: نُودي في سرِّي من الحقِّ: أن يا أبا الحسن امتثلْ أمري؛ فإنّي حيٌّ لا أموت، فأعطيك حياةً لا يكونُ فيها موت، واجتنبْ عمّا نهيتُكَ؛ فإنّي سلطانٌ لا زوال لملكي، فأعطيك مُلكًا لا يكونُ له زوال.

وقال: فتحَ الله لساني بالتوحيد، فرأيتُ السماءَ والأرض يطوفان حولي، والناس غفول.

وقال: نُودي في سرِّي: أنَّ الناس يطلبون منّي الجنةَ، والحالُ أنهم لم يقوموا بشكرِ نعمة الإيمان.

---

(١) في (ب): يعبد الله ومن لم يعبده.

وقال: اتركوا المُزاح، إذ لو كانَ له صورةٌ لما كان له اجتراءٌ أن يدخلَ محلّةً أنا أكون فيها.

وقال: العالمُ يُصبحُ وهو في قصدِ زيادة العلم، والزاهدُ يُصبحُ وهو في طلب زيادة الزهد، وأبو الحسن يُصبح وعزمُهُ أن يُوصلَ سُرورًا إلى قلب مسلمٍ.

وقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى أماتني ممّا يُحيي به الناس في الدنيا والآخرة ثلاثين يومًا، ثم أحياني بحياة لا يكون بعدها موت.

وقال: لي مع الناس صلحٌ لا يكون معه خصومةٌ ولا خلاف بيني وبينهم، ومع النفس خصومةٌ وخلافٌ ليس معها صلحٌ أبدًا.

وقال: لو لم يكن سوءُ أدبٍ لقلتُ: أقولُ لكم جميعَ ما قال أبو يزيد مع الله تعالى، وما افتكر.

وقال: تركتُ الدنيا لأهلها، والآخرةَ لأهلها، وترقّيتُ إلى مقامٍ أعلى منهما وأجلّ.

وقال: خرجتُ منّي كما تَخرجُ الحيَّةُ من جلدها.

وقال: ما أنا بمقيم ولا مسافرٍ، ولكن أسافرُ في مقام[1] التوحيد.

وقال: لا أقولُ يومًا: أنا عالمٌ أو زاهدٌ، ولكن أقولُ: أنت واحدٌ، وأنا كنت لك.

وقال: أردتُ يومًا أن أكبّرَ لصلاة فريضةٍ، فعُرِضَتْ عليَّ الجنةُ المزيَّنَةُ مع الرضوان، والنارُ المُستعرّةُ مع مالك، فما نظرتُ إلى هذه، ولا فزعتُ من الأخرى[2]، وكان نظري إلى ما لا يُرى فيه الجنة ولا النار.

وقال: كان فكري أن أشوّقَ العبادَ إليه، وليس أحدٌ أشوقَ منّي، ففتحَ اللهُ

---

(١) في (أ): في عالم التوحيد.

(٢) في (ب): ولا فرغت من الأذى.

تعالى عينَ بصيرتي، حتى رأيتُ المُشتاقين، ثم خجلتُ ممّا ادعيت.

وقال: الفتوة هي الاستقامة مع الله تعالى.

وقال: رأيتُ في المنام كأنّي وأبا يزيد البسطامي وأويس القرني كنّا في كفنٍ واحد.

نقل أنه قرأ يومًا هذه الآية: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فقال: إنّ الله تعالى يأخذُ ببطشِهِ أهلَ العالم، وأنا أُمسكُ ببطشي ذيل كبريائه.

وقال: يقول بعض الناس: اللهُ والخبز، وبعضُهم يقول: الخبزُ والله، وأنا أقول: اللهُ بلا خبزٍ، واللهُ بلا شيءٍ آخر.

وقال: إن أوقفني الله في بساطِ المحبة، فأنا سكرانُ من شراب المحبة، وإن أقامني على بساط الوجود، فأنا مجنونٌ في مشاهدة كبريائه وسلطنته.

وقال: إنّ الله تعالى فتحَ عليَّ بابًا من الغيب، وألهمني أنّه يعفو عن جميعِ الخلائق إلاّ عمّن تاه في تيه أنانيته.

وقال: قلت: إلهي، نعمتُكَ فانيةٌ، ونعمتي باقية، لأنّي نعمتُك، وأنت نعمتي.

وقال: إلهي، ما أنعمتَ عليَّ فإنّي أنشرُهُ بين عبادك.

وقال: إن آذيتُ عبدًا من عبادك أعرضَ عنّي، وأُؤذيك ولا تُعرضُ عنّي، وأنت معي.

وقال: إلهي، أنا على أيِّ حالٍ عتيقُكَ ومحبُّكَ ومُحبٌّ لرسولِك، وخادمٌ لعبادك.

وقال: كبّرْتُ خمسَ تكبيرات: الأولى على الدنيا، والثانية على الخلقِ، والثالثةُ على النفس، والرابعةُ على الطاعة، والخامسةُ على الآخرة.

وقال: خطوتُ أربعين خطوةً، جزتُ بخطوةٍ[1] من العرشِ إلى ما تحت

---

(١) في (أ): خرجت بخطوة.

الثرى، ولا يُمكنني وصفُ الباقية من الخطوات.

وقال: لو لم تكنِ الجنّةُ والنارُ موجودتَيْنِ، لكنتُ أنا على ما أنَا عليه الآن من محبَّتِكَ وعبادتك وامتثالِ أمرك.

وقال: إلهي، إن ذكرتَني فروحي فداك، وإن ذكرَكَ قلبي فنفسي فداءٌ له.

وقال: إلهي، أوجدتني وخلقتني، فما خلقتني إلاّ لك، وما ولدتني أُمي إلاّ لك. إلهي، فلا تُسلمني إلى أحدٍ من عبادك، فإنَّ بعضَهم يُحبُّون الصومَ والصلاة، وبعضَهم الحجَّ والغزو، وبعضَهم العلمَ، فاذكرني؛ فإنّي لا أُحبُّ الحياةَ إلاّ لك، ولا أُحبُّ شيئًا إلاّ إيّاك.

وقال: إلهي، لو كنتُ مَخلوقًا من النور لما كنتُ لائقًا بك، فكيف وإنّي مكدّرٌ ظُلمانيٌّ، فكيف أكون لائقًا بكبريائك؟!.

وقال: هل كان في المُحبّين مَنْ ذكرَكَ ذكرًا لائقًا بقُدسِك حتى أَقلعَ عينيَّ وأرميهما تحت قدميه، واليوم مَنْ يَذكرك بما يليقُ بكبريائك، فأفديه بروحي.

وقال: يُبعثُ يومَ القيامة قومٌ شهداء قُتلوا في سبيلِك[1]، وأنا أُبعثُ شهيدًا مَقتولاً بسيف شوقك.

وقال: رأيتُ الطلبَ في كلِّ شيءٍ سابقًا على وجدانه إلاّ في هذا الشأن، فإنَّ الوجدانَ سابقٌ على الطلب.

وقال: الملائكةُ يطوفون في السماءِ بالبيت المعمور، والناسُ في الأرض بالكعبة، وأصحابُ الفتوّةِ يَطوفون حولَ كعبة التوحيد.

وقال: ليس الفتى من يُصلّي ويصوم؛ ولكنّه من لا يَكتبُ عليه الكرامُ البررةُ، إذا رآه استحيا.

قال: ينبغي أن يكونَ في قلبك أمواجٌ تلتهبُ النارُ منها، وتحرقُ جسدَك

---

(١) في (ب): قتلوا في سبيل الله سبيلك.

ونفسَك، ثم ينبتُ من الرماد شجرةٌ، ثمرتُها البقاء[١]، فإذا أكلتَ من تلك الشجرة، تجدُكَ فانيًا في التوحيد.

وقال: إن لله تعالى عبدًا في الأرض فتح على قلبِهِ بابًا من أنوار التوحيد، إن مرَّ به جميعُ ما في العالمِ من فوقٍ إلى ما تحت الثرى لايحترق[٢].

سأل عالمٌ من أبي الحسن مسألةً، فقال: لا تفهمُ جوابَ هذه المسألةِ إلاّ بعد أن تبلغ إلى مقامٍ تموتُ وتحيا في كلِّ يومٍ سبعين مرة، وكذلك في الليل، وليتكَ على هذه الحالةِ أربعين سنة.

وقال: إنّ لله في صورة الإنسان أولياءَ، مَنْ حرَّكَ منهم لسانَهُ يفزعُ مَنْ في السماء والأرض.

أقول: هذا إشارةٌ إلى سرعة استجابة دعواتهم، يؤيِّدُه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرَّه»[٣]. والله أعلم.

وقال: لا يزالُ لله عبدٌ في الأرضِ يرى الكواكبَ تسيرُ في السموات والشمسَ والقمرَ، وكذلك يرى طاعاتِ الخلائقِ ومعاصيهم تُرفعُ إلى السماء، والأرزاقَ تنزلُ منها، ويرى الملائكةَ ينزلون من السماء ويصعدون، ولو كان نائمًا مُغطّي وجهَهُ باللحاف في ليلةٍ سوداءَ مُظلمة في مطمورةٍ.

وقال: من نظرَ من الحقِّ إلى الخلق[٤] لا يرى الخلق.

وقال: إذا اختلى المحبُّ بالمحبوب لا يرى إلاّ المحبوبَ، ولا يرى نفسَه، إذ لو يكونُ له نظرٌ إليه لا يكون محبًّا.

وقال: من خطرَ بباله شيءٌ يستوجبُ الاستغفار، فلا يستحقُّ البكاءُ عليه.

---

(١) في (ب): الرماد ثمرة، شجرتها البقاء.

(٢) في (ب): الثرى لاحترق.

(٣) تقدم تخريجه صفحة ٣٣٤، الحاشية (٢).

(٤) في (ب): من الحق إلى الحق.

وقال: إنَّ الله تعالى يكتمُ أسرارَ الرجال في الدنيا والآخرة.

وقال: كثرةُ التعظيم[١] لأمر الله تعالى أفضلُ من كثرةِ العلم والزهد والعبادة.

وقال: لما قال اللهُ تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] خرستْ ألسنةُ الرجال عن هذا السؤال وسكتوا.

وقال: يكونُ لله عبدٌ في الأرض دائمًا، إذا ذكرَ اللهَ تعالى بالتِ الأسودُ من الهيبة، وسكنتِ السموكُ في البحار، والملائكةُ في الأرض والسماء، وتنوّرَ العالم بذلك.

وقال: لا يزال لله عبدٌ على وجه الأرض إذا ذكرَ الله تعالى اهتزَّ العرشُ إلى ما تحت الثرى[٢].

وقال: لو تقاطرتْ قطرةٌ من ماءِ المحبّةِ الذي جمعه اللهُ تعالى في قلوبِ المحبين لامتلأ العالمُ، ولو ظهرتْ شعلةٌ من نارِ الشوق التي في قلوب المُشتاقين لاحترقَ من العرش إلى الثرى.

وقال: الملائكةُ يَستهيبون الأولياءَ في ثلاثة مواضع: ملكُ الموت عند النزع، والكرامُ الكاتبون عند كتابة الأعمال، ومُنكرٌ ونكير عند السؤال.

وقال: نظرتُ إلى طاعتي، رأيتُ ثلاثة[٣] وسبعين سنةً من العُمر كساعةٍ، ونظرتُ إلى معصيتي رأيت عمري أطولَ من عمرِ نوحٍ عليه السلام.

وقال: لما علمتُ باليقين أنَّ رزقي على الله تركتُ الطلبَ، ولمّا علمتُ عجزَ الناس أعرضتُ عنهم.

وقال: ينبغي أن يكونَ العبدُ بحيث يرجعُ المَلَكُ عنه، ولا يكتب عليه شيئًا، أو يكون بحيث يأخذُ الديوانَ من المَلَكِ، ويمحو منه ما يُريد محوه، ويتركُ

---

(١) في (ب): وقال: قلت: التعظيم.

(٢) في (أ): اهتز الأرض والسماوات من العرش إلى.

(٣) كذا الأصلين.

ما يُريد إثباته، أو يكونُ بحيث إذا رجعَ الملك يقولُ: لم أكتبْ عليه ولا له.

وقال: صاحبوا اللهَ تعالى ولا تصاحبوا الخلق، فإنَّ اللهَ عزَّ شأنه هو الذي يَنبغي أن يُحبَّ ويحدَّثَ عنه ومعه، ويُسمعَ كلامه ويُدلَّلَ عليه، ويُشتكى إليه تعالى وتقدَّس.

وقال: لله عبادٌ منهم من يمشي إلى مكّة شرّفها الله تعالى وتقدّس ويرجعُ في ثلاثة أيام، ومنهم في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدة، ومنهم في يومٍ، ومنهم قبل ارتداد الطرف.

وقال: إنّ الله تعالى قادرٌ على أن يُوقفَ عبدَهُ في موضعٍ، ويُريه في مواضع.

وقال: إن الله تعالى يُعطي العبدَ المؤمنَ هيبةَ أربعين ملكًا، ثم يُخفيها عن الخلق لتتأتّى معاشرتُهم ومصاحبتهم معه.

وقال نقلاً عن علي الدهقاني: من افتكرَ فكرًا غيرَ صوابٍ تخلّفَ عمَّا هو فيه مسيرةَ سنين(١).

وسأل شخصٌ من العلماء، وقال: أين يكونُ العقل والإيمان والمعرفة؟ فقال: أنت أرني لونَ هذه الأشياء، ثم إنّي أُريك مكانَها. فبكى السائل وسكت.

وقال: الرجال لا يحدّثون عن مقاماتهم(٢)؛ بل ينزلون عنها، ويحدّثون ليفهمَ الناس.

وقال: كلٌّ يغترُّ بعلمه، فإن وصلَ إلى حيث عَلِمَ أنّه لا يعلمُ، فإنّه يستحيي حينئذٍ عن دعوى العلم والمعرفة، والآن كملت معرفته(٣).

وقال: طاب قلبٌ مرضَ للحقِّ جلَّ شأنه، فإنَّ الحقَّ حينئذ سعادة.

---

(١) في (ب): مسيرة سنتين.
(٢) في (ب): عن مقاتلهم.
(٣) في (أ): كلمت معرفته.

وقال: إن في هذا الطريق سوقًا يُسمّى سوق الرجال[١]، وفيه صورٌ حسنةٌ، فكم من السالكين إذا سلكَ ووصلَ إليه، سكنَ من السير، وتلك الصورُ هي الكرامات، ورؤيةُ الطاعات الكثيرة، والدنيا والآخرة، فإذا نظروا في السلوك إلى شيءٍ من الأمور المذكورة، واغترُّوا به، تأخَّروا عن المقصود، ولم يصلوا إليه، فالواجبُ على السالك العارفِ أن يتركَ الخلقَ، ويتوجَّهَ إلى الخالق، ويَضَعَ رأسهَ على الأرض سجدةً لله تعالى، ويغوصَ في بحر لُطفه إلى أن يصلَ إلى معرفة توحيده.

وقال: للعلمِ ظاهرٌ، ولظاهره ظاهرٌ وباطن، ولباطنه باطنٌ، فالظاهرُ وظاهرُ الظاهرِ ما يتداولُهُ العلماء، وعلمُ الباطن ما يُحدّثُهُ الرجالُ بعضهم مع بعض، وأمّا باطنُ الباطنِ فما يحدّثُهُ الرجال مع الحقِّ تبارك وتعالى.

وقال: ما دام الإنسانُ طالبًا للدنيا فهي سلطانٌ عليه، فإذا تركها صارَ سُلطانًا عليها.

وقال: الفقيرُ من لا يلتفت إلى الدنيا ولا إلى الآخرة، فإنَّ الدنيا والآخرة أحقرُ من أن يكونَ لهما نسبةٌ إلى قلبِ العارف.

وقال: كما لا يطلبون منك الصلاةَ قبل وقتها، فكذلك أنت لا تطلبُ الرِّزقَ قبل أوانه.

وقال: الرجولية بحرٌ يجري منه ثلاثُ عيون: الأولى السخاوة، والثانية الشفقة، والثالثة الافتقار إلى الله تعالى في جميع الأحوال، والاستغناء عن الخلقِ بالحقِّ.

وقال: إنَّ الله تعالى يرفعُ من كلِّ قومٍ شخصًا، ويعفو عنهم بسببه.

وقال: إنَّما يترقَّى الرجالُ بطهارةِ الباطن، لا بكثرة العمل.

وقال: قال النبيُّ ﷺ: «العلماء ورثتي[٢]» والوارثُ ينبغي أن يكونَ على

---

(١) في (أ): طاب قلب مرض للحق يُسمّى سوق الرجال.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى أحمد في المسند ٥/ ١٩٦، والترمذي (٢٦٨٢) في العلم، =

طريقة المورّث، والنبيُّ ﷺ اختار الفقر، وكان ﷺ ذا كرمٍ وسخاء، وخُلقٍ حسن، هاديًا للخلق، أمينًا غير خائن ولا طامع، معتقدًا أنَّ الخيرَ والشرَّ من الله تعالى، ناصحًا غيرَ غاشٍّ، ما كان خائفًا ممّا يخافُ منه الناس، ولا راجيًا ممّا يرجو منه الناس، ولا مغترًّا بشيءٍ، فهذه بعضُ أوصافه عليه الصلاة والسلام، فيجبُ على من يدّعي وراثتَهُ أن يتّصفَ بها، وإلاّ ببعضها.

وقال: كان النبيُّ ﷺ بحرًا، لا حدَّ له ولا ساحل، فلو ظهرَ منه قطرةٌ لغرقَ الخلقُ كلُّهم.

وقال: نحن في قافلةٍ، مُقدِّمتُها محمّد المصطفى ﷺ، وأصحابُهُ وراءه، ونحن وراءهم، فطوبى لمن هو في هذه القافلة.

وقال: إنَّ الله تعالى أدخلَ الأنبياءَ والأولياء في الوجود وهم عطاش، وأخرجهم من هذا العالم وهم عطاش.

وقال: ليس هذا البحر ـ أي بحر المعرفة، أو بحر التوحيد ـ ممّا يُدركُ غوره، أو يُرى ساحلُه، كم من سفينةٍ انكسرتْ فيه، وما وصلتْ إلى ساحلٍ! بل كم من الناسِ غرقت في ساحل هذا البحر قبل الوصول إليه!.

وقال: ألفُ منزلٍ من العبد إلى مبادىءِ التوحيد، أوّلُ المنازل وهو الكرامة، فإنِ اغترَّ بها العبدُ الدنيُّ الهمَّةِ، فلا يصلُ إلى سائر المقامات.

وقال: لله رجالٌ لو وضعتِ السمواتُ والأرض من المشرقِ إلى المغرب في طرفٍ من صدورِهم، لَمَا أحسُّوا بها.

وقال: أيُّ قلبٍ يكونُ فيه غيرُ الله، ولو كان طاعةً فهو ميت.

قيل له: كيف قلبك؟ قال: فُرّقَ بيني وبين قلبي منذ أربعين سنة.

وقال: لا حجابَ بين الحقِّ والخلق سوى النفس؛ فإنَّ الأولياء اشتكوا منها، وكذا الأنبياء عليهم السلام.

= باب ما جاء في فضل الفقه، وأبو داود (٣٦٤٢)، وابن حبان ١/ ٢٨٩، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة، باب فضل العلماء عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

وقال: لا فتنةَ من الشيطان في الدِّين، إنّما الفتنةُ فيه من رجلين: عالمٍ حريص على الدنيا، وزاهدٍ عارٍ عن العلم.

وقال: أفضلُ الأعمال ذكرُ الله تعالى، والتقوى، والسخاوةُ، وصحبةُ الصالحين.

وقال: زيارةُ المؤمن خيرٌ من ألفِ دينار صدقةً في سبيل الله، وإذا حصلتْ لك زيارةُ المؤمن، فاعلمْ أنَّ الله تعالى يرحمك.

وقال: العلم النافع علمٌ تعملُ به، وخيرُ الأعمال فرائضُها.

وقال: العقلاءُ يرون اللهَ تعالى بنور القلب، والمحبُّون بنورِ اليقين، والرجالُ بنور المعاينة.

وقال: بعضُهم يدّعي الوجدان، ولا يعلمُ أنَّ دعوى الوجدان حجابٌ.

وقال: المجاهدةُ على ثلاثة: إمّا طاعةٌ للنفس، وإمّا ذكرٌ باللِّسان، وإمّا فكرٌ بالقلب.

وقال: يا جماعةَ المحبِّين المُجتهدين، اعلموا أنَّ لا وصولَ إليه بالمرقَّعةِ والسجادة، فمن ادّعى بهما فيُدَقُّ ويُرَدُّ.

وقال: إلى متى تقول: أنا صاحبُ الرأي، أنا صاحبُ الحديث!؟ قلْ مرّةً: (الله)، وأنت لا تكونُ في الوسط، أو قل مرّةً: (الله) كما يليقُ به.

قال: الخلقُ كلُّهم يجتهدونَ في عملٍ ينفعُهم يومَ القيامة، ولا شيءَ أنفعُ للعبد عند الله من إظهارِ العجز.

وقال: ذكرُ الصالحين رحمةٌ للعوام، وغفلةٌ للخواص.

وقال: من أخلاقِ المؤمن أنَّه يشتكي من كلِّ شيءٍ إلاّ من الله، ومن النبيِّ ﷺ، ومن مؤمنٍ نظيفٍ[١] حسنِ الأخلاق.

---

(١) في (ب): ومن مؤمنٍ أخٍ نظيف.

وقال: السفرُ خمسةٌ: الأوّل بالإقدام، والثاني بالقلب، والثالثُ بالهمَّة، والرابع باللقاء، والخامسُ في الفناء.

وقال: من أحبَّه اللهُ تعالى مهَّدَ له الطريقَ إليه[١]، ثم يقصّر له الطريق.

وقال: طعامُ الرجال وشرابُهم محبّةُ الله تعالى شأنُهُ.

وقال: اختمْ لسانَكَ حتى لا يذكرَ غيرَه، وعلى قلبك حتى لا يُحبَّ غيرَهَ، وكذا على الفمِ وسائر الأعضاء حتى لا تأكلَ إلاّ من الحلال، ولا تعملَ إلاّ بالإخلاص.

وقال: الصوفيُّ جسدٌ ميتٌ، وقلبٌ فانٍ، ونفسٌ محترقة.

وقال: نَفَسٌ يتنفَّسُ به العبدُ مع الربِّ خيرٌ من عبادةِ أهل السموات والأرضين.

وقال: الإخلاصُ ما تعملُ لله تعالى، والرياءُ ما تعملُ للخلق[٢].

وقال: الطريقُ إلى الجنةِ قريبٌ، ولكنْ إلى الله تعالى بعيد.

وقال: ينبغي للعبد أن يموتَ في اليوم ألف مرّة، ويحيا حتى يَرزقَهُ حياةً لا يموت بعدها[٣].

وقال: ينبغي للعبدِ أن تتنفَّظَ رجلُه من السفر، وجسدهُ من السكوت، وقلبُه من الفكر.

وقال: لطفُ الله تعالى للمُحبّين، ورحمتُهُ للعاصين.

وقال لشخصٍ يُريد سفرَ الحجِّ إلى الحجاز: لِمَ تُسافرُ إلى الحجاز؟ قال الرجل: أطلبُ الله تعالى. قال الشيخ: لم لا تطلبُ إلهَ خُراسان، وتمشي إلى

---

(١) في (أ): يهديه إلى الطريق، ثم.

(٢) في (ب): والرياء ما تعمل لله تعالى.

(٣) الخبر ليس في (ب).

الحجاز؟ فإنَّ النبي ﷺ قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»(١) ولم يقل اطلبوا الله ولو بالصين.

وقال: جميعُ مخلوقاتِ الله تعالى شَرَكٌ للمؤمن في الطريق.

وقال: من أصبح وأمسى ولم يُؤذِ مؤمنًا، فكأنّما صاحبَ النبيَّ ﷺ، وإن آذى مؤمنًا لا تقبلُ طاعاتهُ في ذلك اليوم.

وقال: من جميعِ ما أعطى اللهُ تعالى عبدَهُ ليس أفضلَ من قلبٍ صافٍ، ولسانٍ صادق.

وقال: من استحى في هذه الدنيا من اللهِ ورسوله والمشايخ، فاللهُ يستحيي منه يومَ القيامة.

وقال: لثلاثِ طوائفِ طريقٌ إلى الله: لصاحبِ العلم والمحبرة، وصاحبِ المرقعة والسجّادة، وصاحب الكدي الذي يعملُ بيده، ويصرفُ على نفسه(٢) وعياله، والفراغُ وعدمُ الاشتغال بعملٍ مهلكةٌ للنفس.

أقول: يؤيِّدُهُ ما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يصيرُ الإنسانُ رجلاً بلبس اللباس الغليظ، وأكلِ الشعير، وإلاّ لكان الحمارُ رجلاً كاملاً؛ فإنّه يلبسُ البَلاسَ(٣) ويأكل الشعير، فلابسُ البلاس وآكلُ الشعير كثيرٌ، ولا بدَّ من قلبٍ مُستقيم، فإنَّ الشُّغلَ إنّما هو بالثواب لا بالثوب. والله أعلم.

وقال: ليس لي تلميذ لأني لا أدّعي بالإرشاد، ولكنّي أقولُ: حسبي الله فحسب.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/٢٥٣، والخطيب في تاريخ. بغداد ٩/٣٦٣ (ترجمة طريف بن سلمان) وابن حبان في كتاب المجروحين ١/٣٨٢، وابن عدي في الكامل ٤/١٤٣٨ (ترجمة طريف)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٣٠، قال الحافظ المزي: له طرق، ربما يصل بمجموعها إلى الحسن، ويقول الذهبي في تلخيص الواهيات: روي من عدة طرق واهية، وبعضها صالح. انظر كشف الخفا ١/ ١٥٤ (٣٩٧).

(٢) في (أ): ويصرفه على نفسه.

(٣) البَلاس: المِسْحُ: كساء غليظ من شَعَر. متن اللغة.

وقال: إن آذيتَ اللهَ تعالى نوبةً في جميع عمرِك، فعليكَ أن تبكي على نفسك في جميع عمرك، وإذا عفى الله عنك تبقى حسرةُ الإفراط أو التفريط في جنبِ الله في قلبك أبد الآباد.

وقال: لا تليقُ الصحبةُ إلاّ من يكون أعمى أصم أخرس[١].

أقول: مرادُهُ أن يكون أعمى من رؤية عيوب الناس، وأصمَّ من سماع مساوئهم، وأخرسَ من ذكر الغيبة والنميمة، والوقوع في أعراض الناس، وعن الكذبِ والبُهتان، وعمّا لا يُغني بالكلّية، إذ لو لم يكن كذلك لا استراحةَ لأحدٍ في صُحبته، والمرادُ أنَّ اللائقَ بالمصاحبة من هو أعمًى عن رؤيةِ غيرِ الله تعالى في الوجود حقيقةً، وأصمُّ عن سماعِ ذكرِ غيره، وأخرسُ عن الاشتغال بغير ذكرِ الله تعالى، والله أعلم.

وقال: طاعة الخلق بثلاثة أشياء: بالنفس، والقلب، واللسان على الدوام، فمن اشتغلَ بالله تعالى بهذه الأشياء، إذا خرجَ من الدنيا يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حساب.

وقال: من حصَّلَ أُمنيةً من أماني النفس يتجرَّعُ ألفَ حُزنٍ في طريق الحقِّ.

وقال: إنَّ الله تعالى قد قسمَ الأشياء، فجاءَ الحزنُ نصيبًا للرجال، وهم قَبلوا ذلك النصيبَ ورضوا به.

وقال: السلوكُ في طريقِ الحقِّ طيِّبٌ ما لم يطلَّعْ عليه أحدٌ، فإذا اطَّلعَ أحدٌ صار كطعامٍ بلا ملح.

وقال: الرجالُ يتركون العملَ لئلا يتركَهُم العمل.

أقول: معناه أنهم يَتركون الالتفاتَ بالعمل، والنظر إليه، والسرور به، وإلاّ فالعملُ يتركُهم. يعني: إذا التفتوا إلى العمل، واغترُّوا به، فلا ينفعُهم ذلك العمل، إذ ليس خالصًا لوجه الله، فكأنَّ العملَ تركَ صاحبَهُ وهربَ منه، وأمّا إذا لم يكن للعامل نظرٌ إلى عمله، وهو يرى تقصيرَهُ في جميع أحواله وأعماله، فإن

(١) في (ب): أعمى أو أصم أو أخرس.

العملَ حينئذٍ ينفعُهُ لا محالةَ، ولا يتركُهُ ألبتَّةَ. والله أعلم.

وقال: إذا قدّرَ اللهُ تعالى شيئًا، والعبدُ رضي به، فذلك خيرٌ له من ألفِ ألفِ عملٍ لا يرضى اللهُ به.

و: ليس شيءٌ في الدنيا أصعبَ من أن يكونَ لك خصومةٌ مع أحدٍ.

وقال: الصلاةُ والصومُ وسائرُ العبادات عظيمةٌ، ولكنَّ تصفيةَ القلب من الكِبْرِ والحِرص والحسد وغيره من الصِّفات الذميمة أعظمُ وأجلُّ.

وقال: اجتهادُ الرجالِ إلى أربعين سنة؛ عشرُ سنين لتقويم اللسان، وعشرٌ لتصفية القلب عن الكدورات الجسمانية، وعشرٌ لتخلية الروح، وعشرٌ لتجلية السرِّ، فإذا تمَّتِ المدّةُ يُمْكِنُ أن يخلو باطنُهُ عن الهوى.

وقال: ينبغي للمُحبِّ أن لا يخرجَ من الدنيا حتى يرى ثلاثةَ أشياء: يرى جريانَ دموعه من المحبّة، ويرى بولَه دمًا من الهيبة، [ويرى] عظامَهُ ناحلةً ذائبةً من نار الشوق.

وقال: يجبُ على المحبِّ أن يذكرَ الله تعالى ذِكرًا لا يحتاج إلى ذكره ثانيًا ـ يعني أن ينساه[1] ـ وإذا كان كذلك فكيفَ يذكرُهُ؟ لأنَّ الذِّكرَ لا يكونُ إلاّ بعد النسيان.

وقال: غايةُ الرجل أن يعلمَ نفسَه كما يعلمُ الله تعالى.

أقول: أي يعلم أنه عبدٌ ذليلٌ، عاجز فقيرٌ إلى غير ذلك. والله أعلم.

وقال: للرجالِ حزنٌ لا تَسعُهُ الدنيا والآخرة، وذلك لأجل أنّهم يُريدون أن يذكروا اللهَ تعالى لأجلِهِ ذكرًا لائقًا به، ولا يقدرونَ، فيحصلُ لهم لذلك حزنٌ طويل.

وقال: إذا كان قلبُكَ مع الله تعالى، والدنيا كلُّها لك، فلا يضرُّكَ، وإن كنت لابسًا للبَلاَس[2] وقلبُك غافلٌ عنه، فلا ينفعُكَ شيءٌ، وإذا لم يكن قلبُك مع الله

(١) في (ب): يعني لا ينساه.

(٢) البَلاَس: تقدم شرحه صفحة ٦٠٠.

تعالى، ولا يكون لك من الدنيا ذرّةٌ لا ينفعُك أيضًا.

وقال: الغريبُ من لا يكون له في السموات والأرضين شعرةٌ، وأنا لا أقولُ أنا غريب؛ بل أداري الزمانَ، والزمانُ يُداريني.

وقال: إذا عطشَ العبدُ من محبة الله تعالى، فإذا أُعطي ما في السموات والأرضين فلا يرتوي(١) ولا يَشبع.

وقال: الغفلةُ للخلق رحمةٌ لهم من الله تعالى، فإنهم لو علموا حقيقةَ الأمن(٢) مثقالَ ذرةٍ لاحترقوا.

وقال: إن الله يدفع كلاً من الخلائق عنه بشيءٍ، مثلاً يدفعُ واحدًا من الناس بالدنيا، وآخرَ بالجنة، فأنتم يا جماعةَ الرجال، لا تندفعوا عنه بشيءٍ - أي لا تشتغلوا بغيره - فإنّ من اشتغلَ بغيرِ مقصوده تخلّف عنه.

قال: كم من الناسِ يمشون على وجهِ الأرض، وهم أمواتٌ! وكم منهم في بطنِ الأرض وهم أحياء(٣)!.

أقول: يُؤَيِّدهُ قولُ الشاعر:

وإنَّ امرءًا لم يُحْيَ بالعلمِ ميّتٌ ... وليسَ له حتّى النُّشورِ نُشورُ(٤)

والله أعلم.

يقول العلماء: كان للنبيِّ ﷺ تسعُ نسوة، ولم يكن يدَّخرُ قوتَ سنة، وهو عليه الصلاة والسلام عاشَ ثلاثًا وستين سنة، ولم يلتفتْ إلى الدنيا وزهرتها، أوليس هذا بأعجب من ذاك!؟.

---

(١) في (ب): فلا يتروّى.

(٢) في (ب): حقيقة الأمر.

(٣) وكأن الكلام ترجمة لبيت قاله معروف الكرخي، أورده ابن الملقن في طبقات الأولياء ٢٨٥، وهو:

موت التقيّ حياةٌ لا نفاد لها ... قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. الديوان صفحة ٢٢٠. أنوار العقول.

وقال: جميعُ ما في السموات والأرضين موجودٌ في وجود الإنسان، ولكن أين رجلٌ ذو بصيرة ليطَّلعَ عليه؟!.

وقال: من احترقَ بنار شوقه، فصارَ رمادًا، فتهبُّ ريحُ المحبّةِ، وتملأُ من ذلك الرماد السماءَ والأرض، فإن أرادَ أن يسمعَ فهناك يسمع، وإن أرادَ الرُّؤيةَ فهناك يرى، وإن أرادَ الذوقَ فهناك يذوق.

وقال: ينبغي للعارفِ في القدم الأول أن يقول: (الله)، ويعرفه، ثم في الثانية: (النار)، وفي الثالثة (الاحتراق).

وقال: من أراد أن ينامَ بالليل، ويأكلَ بالنهار، فمتى يصلُ إلى المنزل؟.

وقال: إن صاحَ جبريلُ من السماء، وقال: ليس أمثالكم في القرب والمنزلة. فصدّقوه؛ ولكن لا تأمنوا مكرَ الله، وآفةَ النفس، وكيدَ الشيطان.

وقال: من لا يغترُّ بالشيطان يغرُّه اللهُ بالكرامة، فإن لم يغترَّ بها يغرُّه به، فإن لم يغترَّ به فهو إنسانٌ كامل.

وقال: العالِمُ اشتغلَ بعلمه، والجاهلُ اشتغلَ بجهله، والزاهدُ بزهده، والعابدُ بعبادته، والعارفُ بطهارة النفس يتقرَّبُ إليه؛ فإنّه طاهرٌ يحبُّ الطاهر.

وقال: إنْ سألَ سائلٌ وقال: الفاني كيفَ يرى الباقي؟ فنقول: الفاني يعرفُ الباقي في دار الفناء، ثم تصيرُ معرفتُه باقيةً في دار البقاء، فيرى الباقي في الآخرةِ بنورِ البقاء.

وقال: لا يرى الأولياءَ إلاّ من كان محرمًا، كما أنَّ مُحرمَ أهلِكَ يجوزُ له أن يراهم.

وقال: كلّما كانتْ محبّةُ المُريد للشيخ أقوى، كانت معرفتُهُ أتمّ وأكثر.

وقال: مَنْ لا يتركُ من مُراداته الدُّنيوية ألفًا، لا يصلُ إلى مرادٍ واحدٍ من المُرادات الأُخروية، ومن لا يتجرّعُ من اليمّ المرّ ألفَ جرعةٍ، لا يتجرَّعُ من الحلو جرعةً.

وقال: يا حسرتي على أُلوفِ أُلوفٍ من الناس حيثُ خرجوا من هذه الدنيا على الكفر والغفلة، ولم يَعرفوا ذوقَ الإيمان والمعرفة.

وقال: إذا خرجتَ من البشرية، فعيشك مع الله تعالى[١].

وقال: ثلاثةُ آلاف درجةٍ من الشريعة إلى المعرفة، وسبع مئة ألف درجةٍ من المعرفة إلى الحقيقة، وألفُ ألف درجة من الحقيقة إلى باب الحبيب، لا تُقطعُ درجةٌ منها إلاّ في مقدارِ عمر نوح عليه السلام، بصفاء محمد ﷺ.

وقال: نعمَ العبدُ السقيم[٢] الذي لو اجتمعَ أهلُ السموات والأرضين لأجلِ مُعالجته لم يقدروا عليها، ولا يَبرأُ بمعالجتهم.

وقال: العالِمُ يَشتغلُ بتفسير القرآن، والعارفُ بتفسير نفسه، وشرحِ أحواله.

وقال: إنَّ الله تعالى قسَّمَ الأشياء في الأزل، فجاء نصيبُ العارفين منها الأحزان والهموم.

وقال: اجتهدْ لتصيرَ طاهرًا في هذا الطريق، وإذا توهَّمتَ أنَّكَ طاهرٌ، فاعلمْ أنّه ليس كذلك.

وقال: جميعُ الأنبياء والأولياء اجتهدوا في هذه الدنيا ليعرفوا اللهَ تعالى حقَّ معرفته، فلم يعرفوهُ حقَّ المعرفة، ولم يقدروا عليه، سبحانَ من لم يجعلْ لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته.

سُئل عن المحبة، فقال: هي مرتبةٌ، إذا وصلَ العبدُ إليها، فلو أُحسنَ إليه بجميعِ ما أحسنَ إلى جميعِ العباد لا يطمئنُّ قلبُه، ولو أُوجرَ في حلقه[٣] مثلُ جميعِ البحور لا يسكنُ عطشُه، ويقول: هل من مزيد.

قيل له: بم تعرفُ صاحبَ الفتوة أنّه صاحبُ الفتوة؟ قال: إذا أعطى الله أخاه ألفَ كرامةٍ، وأعطاهُ واحدةً، أَحَبَّ أن تكونَ هذه أيضًا مع الألفِ لأخيه.

---

(١) الخبر ليس في (أ).
(٢) في (أ): نعم القلب السقيم.
(٣) كتب في (أ): فوق كلمة (أوجر): أجري.

قيل له: تخافُ من الموت؟ قال: الميتُ لا يخافُ من الموت.

نقل عنه أنه سألَ عالِمًا وقال: إنَّ الله يحبُّك وأنت تحبُّه؟ فقال العالِم: بل أنا أحبُّه. قال الشيخ: فعلى هذا ألا تدورُ حولَ تحصيل رضاه؛ فإنَّ المُحبَّ لا قصدَ له إلاّ رضا الحبيب.

قال بعضُ أصحابه يومًا في حضرته: إنِ الجُنيد رحمه الله دخلَ في الدنيا صاحيًا، وخرج صاحيًا، والشِّبليُّ رحمه الله دخلَ سكرانَ، وخرج سكران. فقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: إن سُئل الجنيدُ والشِّبليُّ رحمهما الله عن كيفية دخولِهما في الدُّنيا، وخروجهما عنها، فيقولان: لا ندري كيف دخلنا، وكيف خرجنا. وفي الساعةِ نُودي الشيخُ رحمه الله في سرِّه: أن صدقتَ في كلامك هذا، فإنَّ من عرفَ الله تعالى لا يبقى له التفاتٌ إلى غيره، فهو لا يعرفُ غيرَ الله.

قيل له: ما العبودية؟ قال: تركُ الاختيار مع الله تعالى.

قيل له: كيف نعملُ لننتبهَ؟ قال: قدِّرْ أنَّ عمرَك محصورٌ في نَفَسٍ، وذلك النَّفَسُ بين الشفة والأسنان ـ يعني كادَ أن ينقطعَ ـ فحينئذٍ تُنبَّهُ عن نومةِ الغفلة.

وقيل: ما التوكل؟ قال: أن لا تفزعَ من السَّبُعِ والثعبان، والنارِ والبحرِ الموّاج.

قال له واحدٌ من الأصحاب عن شُغله، قال: شُغلي أن أدفعَ جميعَ ما سوى الله عن خاطري.

وقال رحمه الله: عبدتُ الله تعالى بالإخلاص خمسين سنة، بحيثُ لم يكن لمخلوقٍ طريقٌ إلى قلبي، وكنتُ أُصلّي صلاةَ العشاء، وأقومُ إلى الصباح بهذه الحالة، وكذلك من الصباح إلى المساء، وكان ينامُ ظاهري، وروحي سائرٌ في الجنة والنار، وفي سائر عوالم المُلك والملكوت.

وقال رحمه الله: يحتاجُ السالكُ في هذا الطريق أولاً إلى الافتقارِ، ثم الخلوة، ثم الحزن، ثم الانتباه.

وكان يُصلّي بين الظهر والعصر خمسينَ ركعة.

وكان رحمه الله ما خُبِزَ في بيته خبزٌ، ولا طُبخ طعامٌ أربعين سنة إلاّ للضِّيفان، وهو وأهله يتبعونهم في الأكل(١)، ومع هذا يقول: لو كانتِ الدنيا لي، وجعلتُها لقمةً، ووضعتها في فمِ الضيف، ما أدّيتُ حقَّ الضيف.

وقال: لو سعيتم من المَشرقِ إلى المغرب لزيارةِ مُؤمنٍ لله، لم يكن كثيرًا.

وقال: نفسي تشتهي مُذْ أربعين سنة شربةً من الماء البارد، والرائبِ البارد، وما أعطيتُها(٢).

نقل أنه رحمه الله اشتهى الباذنجان أربعين سنة، وما أكل حتى أنَّ أُمّه مرّغَتْ ثديها بالتراب(٣) بين يديه، وتضرَّعتْ حتى أكلَ نصف باذنجانة، وفي تلك الليلةِ قُتل ابنٌ له، ورُمي رأسُه في بيته، وهو يقول في اليوم الثاني: القِدرُ الذي وضعناه على الأُثْفِيَةِ لا بدّ له من رأسِ إنسان(٤).

وقال: سلكتُ لله تعالى سبعين سنةً، وما خطوتُ خطوةً على مُراد النفس، ولا تنفَّسْتُ نَفَسًا على رضاها.

نقل أنه رحمه الله قال: الأرضُ كلُّها مسجدٌ للمؤمن، والأيام كلُّها يومُ الجمعة، والشهور كلُّها رمضان.

وقال: لو مُلئتِ الأرضُ كلُّها ذهبًا، فالمؤمنُ هو الذي صرف الكلَّ في رضا الله تعالى، لو حصلَ الكلُّ في يده. واللئيمُ لو حصلَ له دينارٌ يدفنُهُ في الأرض، ولا يُخرجُهُ منها إلى أن يرثه ورثتُهُ بعد موته.

وقال: إنّي إنْ أخرج من الدنيا وعليَّ دينٌ، لا يكون لي شيءٌ يُصرف فيه، ثم يحضر الخصومُ يوم القيامة، ويتعلّقون بأذيالي، يطلبون حقوقَهم، أحَبُّ إليَّ من أن أردَّ سائلاً بلا شيءٍ، وأحرمَهُ عن العطاء.

---

(١) في (أ): يتبعونهم إلا في الأكل.
(٢) في (ب): وما أعطيتهما.
(٣) في (أ): حتى أمه مرغت بالتراب.
(٤) انظر الخبر صفحة ٥٨٢، و٧٧٦.

وقال: إن سأل الله عنّي يومَ القيامة، وقال: ماذا جئتَ به من الدنيا؟ فأقول: إلهي، قيّضتَ عليَّ كلبًا في الدنيا[١]، يعضُّني، ويعضُّ غيري، وأنا كنتُ متحيّرًا في شأنه، كيف أدفعُهُ عنّي وعن غيري! وأعطيتني نَفْسًا نجسةً صرفتُ جميعَ عمري في تطهيرها.

وقال: الناس يَستغيثون بالله في ثلاثة مواضع: وقت النزع، وفي القبر، وفي القيامة، وأنا أستغيثُ به في جميع الأحوال[٢].

نقل أنه رحمه الله قال: رأيتُ الله عزَّ وجلَّ في المنام، وقلت: يا ربّ، إنّي مذ ستين سنةً في اشتياقك ومحبّتك وطلبك. فقال الله تعالى: إذا أنت في ستين سنة طلبتني، وكنتَ في شوقي، فإنّي في الأزل أحببتُكَ، وفي القِدَم طلبتُكَ، فأين محبّتي من محبتك؟.

قال: رأيتُ الله عزَّ وجلَّ نوبةً أُخرى في المنام، فقال: يا أبا الحسن، تريدُ أن أكونَ لك؟ قلت: لا، يا ربَّ العالمين. قال: تُريدُ أن تكونَ أنت لي؟ قلت: لا، يا ربَّ العالمين. قال الله: يا أبا الحسن، إنَّ خلقَ الأوّلين والآخرين احترقوا في اشتياقي، ويطلبون أن أكونَ لهم، وأنت تقولُ لا؟! قلت: يا ربَّ العالمين، من أين لي إرادةٌ واختيارٌ حتى أُريدَ وأختار؟! وأعلمُ أنّك لا تعملُ باختيارِ أحدٍ وإرادته، فإنِ اخترتُ شيئًا، فلا آمنُ من مكرك.

نقل أنه قال: سألتُ الله تعالى أن يُريني كما أنا، فأراني الله تعالى في صورة بَلاَس[٣] متوسّخٍ مرميٍّ في المزبلة، قلت: إلهي، فإذا أنا هذا، فما هذا الشوق والتضرُّعُ والبكاء؟ فسمعتُ نداءً: يا أبا الحسن، أنت ما تراه، والذي ذكرتَهُ هو منّا لا منك.

ونقل أنّه حين حضرته الوفاةُ، وصّى أصحابَه أن يحفروا في قبره ثلاثين ذراعًا، قال: لأنَّ أرضنا أعلى من أرضِ بِسطام،، والأدبُ أن لا يكونَ مرقدُ

(١) هو اللسان، انظر الخبر صفحة ٥٢١.

(٢) في (ب): في جميع أحوالي.

(٣) تقدم التعريف به صفحة ٦٠٠.

أبي يزيد البِسطامي رحمه الله أَسفلَ من قبري. فامتثلوا أمره، ثم بعد دفنه رأوا أسدًا حذاءَ قبره واقفًا، ففي اليوم الثاني رأوا حجرةً كبيرةً موضوعةً على قبره، وعليها أثرُ قدمِ الأسد، فعلموا أن ذلك كان فعلاً لذلك الأسد.

ونقل أيضًا أنَّهم أبصروا أسدًا يطوفُ بقبره.

وقيل: إنّ من المجرَّبِ أنَّ من زار قبرَه، وطلبَ من الله تعالى حاجةً، فإنَّ الله تعالى يَقضيها.

نقل عن بعض الصالحين أنه رأى أبا الحسن رحمه الله في المنام، قال: ما فعل الله بك؟ قال: إنَّ الله تعالى ناولني كتابًا بيميني، فقلت: إلهي، لا تشغلني عنك بالكتاب[1]؛ فإنّك قبل وجودي، وقبلَ أن أعملَ ما في هذا، كنتَ تعلمُ ذلك، وأنا أعلمُ ما يصدرُ منّي مع فقري وفاقتي، فأرجو من كرمك أن تُسلِّمَ الكتابَ إلى الملائكة الكرامِ البررة، وتأذنَ لي أن أنظرَ إلى جمالك لحظةً.

نقل عن الشيخ محمد بن الحسين رحمه الله أنه قال: مرضتُ نوبةً، وكان لي حزنٌ عظيم، وغمٌّ أليم من خوف الخاتمة، فعادني الشيخ أبو الحسن رحمه الله، وقال: إنَّك خائفٌ من الموت؟ قلت: نعم. قال: لا تخفْ؛ فإنّي إن متُّ قبلك أَحضرُ عندك عند موتك، وأسألُ الله تعالى أن يُخفِّفَ عليك، ثم رزقني اللهُ الصحةَ، وتُوفّي الشيخُ، ومضى زمانٌ، ثم مرض الشيخُ محمد بن الحسين رحمه الله مرضَ الموت، ونقل عن ابنِهِ أنه قال: كنتُ عند أبي وقتَ النزع، إذ رأيتُهُ نهضَ قائمًا، وقال: وعليكَ السلام، ادخل. قلت: يا أبي، من الذي تراه؟ قال: الشيخَ أبا الحسن الخَرَقاني رحمه الله، فإنّه وعدني من زمانٍ أن يحضرني عند الوفاة، والآن قد وفا بما وعد، وحضرني، ومعه جماعةٌ من أولياء الله تعالى لئلا أخافَ الموت. قال هذا، وسلّمَ الروحَ.

نسألُ الله تعالى أن يفيضَ على أرواحهم زلالَ لطفه ورضوانه، ورحمته وغفرانه، ونستشفعُ بجميع أوليائه إليه أن يغفرَ خطايانا وزلاّتنا، ويَسترَ علينا

---

(١) في (ب): لا تشغلني أنت بالكتاب.

عَوراتنا، ويؤمِّننا عند روعاتنا، ويرزقَنا بحرمتهم قطرةً من بحر محبّته، وينوّرَ قلوبنا بأنوارِ معرفته، ويستعملَنا بما يُحبُّ ويرضى، ولا يجعلَ لأنفسنا وللشيطان حظًّا ونصيبًا في أعمالنا؛ فإنّه يُجيبُ دعوة الداعي إذا دعاه، وكيف لا يُجيب؟ وإنه عبده وهو مولاه، وأن يُصلّي على جميعِ الأنبياء والمُرسلين، وأن يخصَّ محمدًا ﷺ بأفضلِ الصلوات والتسليم، وعلى آلِ كلٍّ وصحابته وجميع الصالحين، ويسلّمْ تسليمًا دائمًا كثيرًا.

* * *



(٦٢) إبراهيم الرقي[١]

ذكر الشيخ إبراهيم بن داود الرَّقّي رحمه الله رحمةً واسعة:

كان رحمه الله من أكابرِ العلماء، وأعاظمِ المشايخ، ومن قدمائهم، مُحترَمًا عندهم، وله كراماتٌ وكلماتٌ عالية.

وكان من أقران الجُنيد رحمه الله، وابن جلاء.

وعُمِّرَ عُمرًا طويلاً، وكان من أكابر الشام، ومات سنة سبعٍ وعشرين وثلاث مئة[٢].

نقل أن فقيرًا دخلَ البادية، وعلى خرقته رقعةٌ من خرقة إبراهيم، فاستقبله أسدٌ مهيبٌ، وقصده، ولمَّا وقع بصرُهُ على الرقعة سكنَ ورجع احترامًا للشيخ إبراهيم، وإلاّ لم يكنْ ذلك الفقير في هذه المرتبة.

ومن كلامه أنه قال: القدرةُ ظاهرةٌ، والبصرُ مفتوحٌ؛ لكنَّ الأبصار ضعيفة.

وقال: علامةُ محبَّةِ الحقِّ اختيارُ الطاعة، وملازمةُ العبودية والخدمة، ومتابعةُ سيِّدِ المرسلين محمد ﷺ.

وقال: أضعفُ الخلائق من هو عاجزٌ عن تركِ الشهوات، وأقواهم من هو قادرٌ عليه.

وقال: قيمةُ كلِّ أحدٍ على قدرِ همَّته، فإن كانت همَّتُهُ الدنيا، فلا قيمةَ له،

(١) طبقات الصوفية ٣١٩، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٤، الرسالة القشيرية ٩٤، صفة الصفوة ٤/ ١٩٧، مناقب الأبرار ٦٠٩، المنتظم ٦/ ٢٩٤، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢٥٥، طبقات الأولياء ٥٩، غاية النهاية ١/ ١٤، نفحات الأنس ٢٤٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٢، الكواكب الدرية ١/ ٥١٦.

(٢) قوله: (وثلاث مئة) ليست في (ب).

وإن كانت هِمَّتُهُ في تحصيلِ رضا الحقِّ فيمكن أن يُقال: لا قيمة له[١].

وقال: الرِّضا تركُ السؤال، والراضي من لا يسألُ، وليستِ المبالغةُ في الدُّعاء من آداب الرِّضا وشرائطه.

وقال: التركُ ـ أي ما سوى الله تعالى ـ هو اطمئنانُ القلبِ بما تكفَّلَ اللهُ به.

وقال: يصلُ إليك من الرزقِ شيءٌ يكفيك، والتعبُ إنَّما هو في طلبِ الزيادة.

وقال: الفقيرُ يعتمدُ على الحقِّ، والغنيُّ على الأسباب والأملاك.

وقال: لا يُؤدَّبُ الفقيرُ إلاّ إذا تنزَّلَ من الحقيقة إلى العلم.

وقال: ما يكون لأعراضِ الدنيا خطرٌ عندك واعتبار، فاعلمْ أنَّ لا اعتبارَ لك، ولا خطرَ عند الله تعالى.

وقال: من اغترَّ بغيرِ الله فهو إلى الحقارةِ والهوان أقربُ.

وقال: يكفي من الدنيا شيئان: الأولُ صحبةُ الفقراء، والثاني احترامُ الأولياء.

رزقنا الله صحبةَ الأخيار الصالحين، والأبرارَ المُتّقين، ومحبَّةَ الأولياء والأنبياء والمُرسلين، وأن يحشرَنا مع آبائنا وأُمّهاتنا وأولادنا وجميع أحبَّتنا في زمرتهم، إنه أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الراحمين، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين دائمًا إلى يوم الدين.

* * *

---

(١) كذا في (ب)، وقوله: (وإن كانت همّته... لا قيمة له) ليست في (أ). والقول في طبقات الصوفية ٣١٩، ومناقب الأبرار ٦٠٩ وهو: وإن كانت همَّتُهُ رضا الله فلا يمكن استدراك غاية قيمته، ولا الوقوف عليها.

(٦٣) يوسف بن أسباط[1]

ذكر الشيخ يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من زُهّاد القوم وعبّادهم، ومن التابعين، وليس فيهم أحدٌ بزهده.

وله في المراقبة والمحاسبة كمالٌ، وكان يُخفي حالَه ومعرفتَهُ، ويُديمُ الرياضة والانقطاع عن الدنيا.

وله كلماتٌ شافية.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ الكبار رحمهم الله.

نقل أنه رحمه الله ورثَ سبعين ألفَ درهم، فصرفه على الفقراء والمساكين، ولم يُنفق منه على نفسه درهمًا، وكان ينسجُ السِّلال من ورقِ النخل ويتقوَّتُ به، ومضى عليه أربعون سنة، ولم يلبس قميصًا جديدًا؛ بل خرقةً عتيقة.

ونقل أنّه كان كتبَ إلى حُذيفة المرعشي: أنّي سمعتُ أنّك بعتَ دينَك بحبّتين، وذلك لأنّكَ دخلتَ السوقَ لتشتري شيئًا، وصاحبُهُ ثمَّنَهُ بدرهمٍ، وأنت

---

(١) تاريخ ابن معين ٦٨٤، التاريخ الكبير ٨/ ٣٨٥، التاريخ الصغير ٢/ ٢٤٢، ضعفاء العقيلي ٤/ ٤٥٤، الجرح والتعديل ٩/ ٢١٨، مشاهير علماء الأمصار (١٤٩٠)، ثقات ابن حبان ٧/ ٦٣٨، الكامل في الضعفاء ٧/ ١٥٧، حلية الأولياء ٨/ ٢٣٧، صفة الصفوة ٤/ ٢٦١، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ١٧٤، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٦٩، ميزان الاعتدال ٤/ ٤٦٢، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٠٧، نفحات الأنس ٥٥، طبقات الشعراني ٤٨٩، الكواكب الدرية ١/ ٤٨٩.

اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته؛ ففي ثقات ابن حبان ٧/ ٤٦٨: توفي سنة ١٩٥، وفي صفة الصفوة: توفي قبل المئتين بسنة، وفي الكواكب الدرية ١/ ٤٩٣: مات سنة ثنتين وتسعين ومئة.

قلت: بدرهمٍ إلاّ طسُّوجًا. وذلك الرجلُ كان يعرفك بالصلاح، فلذلك سامحَك طسُّوجًا[١].

وأيضًا كتب إلىِ المرعشي: من قرأ القرآن واختارَ الدنيا فهو مُستهزِىءٌ به.

وقال: إنّي أخافُ أنَّ ما يظهرَ من حسناتنا يكونُ أضرَّ من سيئاتنا.

أقول: مرادُه أنَّ الحسنةَ إذا لم تكنْ لله فلا تنفعُ؛ بل تضرُّ كالسيئة، بل تكونُ أضرَّ منها، لأنَّ الرياءَ شركٌ خفيٌّ، فيفوحُ من العمل بالرِّياءِ رائحةُ الشركِ، بخلافِ السيئة مع الإسلام؛ فإنَّ صاحبَها يكون معتذرًا إلى الله، خائفًا منه. والله أعلم.

وقال: من يكونُ الدينارُ والدِّرهمُ عنده أعظمَ من أمورِ الآخرة، فكيف يكون راجيًا من الله في دينه ودنياه؟.

وكتب أيضًا إلى المرعشي: أما بعد، فإنّي أُوصيك بتقوى الله، والعملِ بما علّمك الله، والمراقبةِ بحيث لا يراكَ أحدٌ في تلك الحالة إلاّ الله، والتهيُّؤ لأمرٍ لا مدفعَ له عند حلوله، وحينئذٍ لا ينفعُ الندمُ.

وقال الشبلي رحمه الله: سُئل يوسفُ بن أسباط عن التواضع، قال: هو أنَّ الرجلَ كلَّما خرجَ من بيته، والتقى رجلاً اعتقدَ أنَّ ذلك الرجلَ خيرٌ منه.

وقال يوسف رحمه الله: قليلُ الورعِ يُجزي جزاءَ العملِ الكثير، وقليلُ التواضعِ يُجزي جزاءَ الجهاد.

وقال: علامةُ التواضع أن تقبلَ القولَ الحقَّ من كلِّ أحدٍ، وترفُقَ مع كلِّ أحدٍ، وتوقِّرَ من هو أفضلَ منك، وإنْ ترَ منه زللاً بالنسبة إليك تصفحْ عنه، وتكظم الغيظ، وتكون رجّاعًا إلى الله في جميعِ الأحوال والأزمان والأماكن، وتكون مُتكبّرًا على الأغنياء، شاكرًا لله تعالى على أيِّ شيءٍ يصلُ إليك[٢].

---

(١) الطَّسُّوج: ربع دانق، معرب. القاموس.

(٢) في هامش (أ): أي شيء إذا وصل إليك.

وقال: للتوبة عشرةُ مقامات: البعدُ عن الجاهلين، وتركُ الأباطيل، والإعراضُ عن المنكرات، والاشتغالُ بالمستحبّات، والتعجيلُ في الخيرات، وتصحيحُ التوبة، واللزومُ عليها، وردُّ المظالم، واغتنامُ الأوقات، وتصفيةُ الأوقات.

وقال: علامةُ الزهد عشرةٌ: تركُ الموجود ما سوى الحقّ، والإعراضُ عن المقصود، وخدمةُ المعبود، وإيثارُ المولى، وصفاءُ المعنى، والتعزُّزُ بالعزيز، واحترامُ المشفق، وتقليلُ المباح، وطلبُ الأرباح، واستراحةُ القلب.

وقال: من علامة الزهدِ أن يعلمَ العبدُ أنّه لا يقدرُ على الزهد إلاّ بالمنّ[١] مع الله تعالى.

وقال: علامة الورع عشرةٌ: التأخُّرُ عن المُتشابهات، والخروجُ عن الشُّبهات، والمعالجةُ والتفتيشُ[٢]، والاحترازُ عن التشويش، وارتجاءُ الزيادة، والمداومةُ على رضا الرحمن، والتعلّقُ بالأمانات ـ أي بأحكام الشرع من الصفاء ـ والإعراضُ عن مواضع الآفات، وطُرق العاهات، والتحاشي عن المباهاة.

وقال: علامةُ الصبر عشرة: حبسُ النفس، والإحكام والاستحكام في السرّ، والمداومةُ على طلب الأُنس، ونفيُ الجزع، والمحافظةُ على الطاعات، والاستقصاءُ في الواجبات، والصدقُ على الطاعات في المعاملات، وطولُ القيام في المجاهدات، وإصلاحُ الجنايات[٣].

وقال: لا يمحو الشهوةَ من القلب إلاّ خوفٌ ينبعثُ في القلب من اختيارٍ أو رضًا أو شوقٍ يسلب عنه القرار.

---

(١) في (أ): إلا بالأمن مع الله.
(٢) في (أ): والمبالغة والتفتيش.
(٣) كذا هي في الأصل تسع علامات.

وقال: للمراقبةِ علاماتٌ: اختيارُ ما اختارَ الله تعالى، وإجادةُ العزم إلى الله تعالى، والعلمُ بأنَّ الله تعالى هو المُعطي للكمال والنقصان، والاطمئنانُ بالله، والانقطاعُ عمّا سواه.

وقال: للصدق علاماتٌ: موافقةُ القلب واللسان، والقولِ مع الفعل، وتركُ طلبِ المحمدة في الدنيا، والإعراض عن الرئاسة، وإيثارُ الآخرة على الدنيا، وقهرُ النفس.

وقال: للتوكُّلِ عشرُ علامات: الاطمئنانُ بما ضمنَ اللهُ به، واحتمالُ ما يصل من الشريف والدنيّ[(١)]، والتسليمُ بما يكون، وتعلّقُ القلب بما بين الكاف والنون، ورسوخُ القدم في العبودية، والتحاشي عن الفرعونية، وتركُ الاختيار، وقطعُ العلائق، وتركُ الرجاء عن الخلائق، وربطُ القلب بالحقائق، وطلبُ الدقائق[(٢)].

وقال: ينبغي للسالكِ أن يعمل عملَ رجلٍ لا ينجو إلاّ بذلك العمل، وأن يتوكّلَ على الله مثلَ توكُّلِ من يعلمُ أنّه يصلُ إليه ما كتبَ اللهُ له في الأزل، وحكم عليه.

وقال: علامةُ الأنس طولُ الجلوس في الخلوات، والوحشةُ من المخالطات، وإدراكُ لذّة الذكر، ووجدانُ الرّاحةِ في المُجاهدة، والتشبُّثُ بالطاعة.

وقال: علامةُ الحياء: انقباضُ النفس، ورؤيةُ عظمة الله تعالى جلَّ جلاله، ووزنُ الكلام قبل القولِ، والاجتنابُ عمّا يُوجبُ الاعتذار، وتركُ الخوض فيما يوجب الخجلة، وحفظُ اللسان والعين والإذن والبطن والفرج، وتركُ زينة الحياة الدنيا، وتذكّرُ الموت والموتى.

(١) في (أ): الشريف والدون.
(٢) كذا هي في الأصل إحدى عشرة علامة.

وللشوق علامات: محبّةُ الموت وقت الراحة، وكراهةُ الحياة وقتَ الصحة، والأُنسُ بذكر الله، والطربُ وقتَ الفكر.

رحمه اللهُ رحمةً واسعةً، وجعلنا من المُستأنسين بذكره، المشغولين مدَّة الحياةَ بذكره، ورزقنا عيشةً راضيةً مرضيَّةً، وحياةً طيِّبةً هنية، وحشرنا مع أحبَّتنا وآبائنا وأمهاتنا في زمرة أُمَّةِ نبيِّنا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.





(٦٤) أبو يعقوب النهرجوري(١)

ذكر الشيخ أبي يعقوب النَّهرَجوري رحمه الله رحمة واسعة:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، مخصوصًا بالخدمة والأدب، مقبولاً عند الأصحاب الصوفية، وكان ذا حرقةٍ عظيمة، ومُجاهدةٍ شديدة، ومُراقبةٍ كاملة، وله كلماتٌ حميدة.

صحب عمرو بن عثمان المكي، والجُنيد.

وجاور الحرمَ الشريف حرسه الله تعالى، وتُوفِّي هناك سنة ثلاثين وثلاث مئة رحمه الله.

نقل أنه لم يسترحْ ساعةً من العبادة والمجاهدة، ولم يطبْ قلبُه في الدنيا لحظةً، حتى اشتكى في المناجاة إلى الله تعالى، فنُودي في سرِّه: يا [أبا] يعقوب، إنك عبدٌ، والعبدُ لا يستريح.

قال له شخص: أنا أُصلّي، ولا أَجدُ حلاوةَ الصلاة في قلبي. قال: لأنَّك لا تُصلّي من القلب، إذ لو صلّيت بالقلب لوجدتَ حلاوتَها فيها(٢).

قال أبو يعقوب رحمه الله: رأيتُ شخصًا أعورَ في الطواف، يقول: اللهم، إنّي أعوذُ بك منك. فسألته عن حاله، قال: نظرتُ نوبةً إلى جميلٍ، وأَعجبني

---

(١) هو إسحاق بن محمد، وترجمته في: طبقات الصوفية ٣٧٨، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦، الرسالة القشيرية ١٠٢، مناقب الأبرار ٧٢٤، المنتظم ٦/ ٣٢٦، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٤٠٣، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٢، العبر ٢/ ٢٢١، الوافي بالوفيات ٨/ ٤٢٣، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٧، البداية والنهاية ١١/ ٢٠٣، طبقات الأولياء ١٠٥، العقد الثمين ٣/ ٢٩٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٧٥، نفحات الأنس ١٩٥، طبقات الشعراني ١/ ١١١، الكواكب الدرية ٢/ ٥٧، شذرات الذهب ٢/ ٣٢٥.

(٢) في (أ): صليت من القلب لوجدت حلاوتها فيه.

جمالَه، فلطمتني يدٌ من الغيب، وقلعت عيني التي نظرتُ إليه، ثم سمعتُ: نظرةٌ بلطمة، فإن زدتَ زدنا.

وقال: الدنيا بحرٌ، ساحلُهُ الآخرة، وسفينتُهُ التقوى، والخلقُ كلُّهم مسافرون إليها.

وقال: من كان شبعُهُ بالطعام فهو لا يشبعُ أبدًا، ومن استغنى بالمال يكون فقيرًا أبدًا، ومن طلب قضاءَ حوائجه من المخلوق يكون محرومًا أبدًا، ومن استعانَ في أموره بغيرِ الله يبقى مخذولاً أبدًا.

و: لا تزول نعمةٌ شُكرَ اللهُ عليها، ولا تدوم نعمةٌ لا يُشكر اللهُ عليها.

إذا وصلَ العبدُ إلى كمال الحقيقة صارَ البلاءُ عنده نعمةً، والمصيبةُ رجاء.

وقال: أصلُ هذا الشأن قلّةُ الأكلِ، وقلّة النوم، وقلّة الكلام، وتركُ الشهوات.

وقال: إذا صارَ العبدُ فانيًا من نفسه، باقيًا بالحقِّ يُسمّى عبدًا، كما قال الله تعالى في نبيّه ﷺ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وقال: السرورُ في ثلاثة أشياء: الأول: السرورُ بطاعة الله تعالى، والثاني: السرورُ بالقرب إلى الله تعالى، والبعد عن الخلق، والثالث: السرورُ في ذكرِ الله تعالى، ونسيان ما سواه.

وقال: علامةُ السرور في ذكر الله تعالى المواظبةُ على الطاعات، والمُجانبةُ عن الخلق والدنيا.

وقال: أفضلُ الأعمال الممارسةُ في العلم.

و: أعرفُ الخلقِ بالحقِّ أكثرُهم تحيُّرًا فيه.

وقال: لا يصلُ العارفُ إلى الله تعالى إلاّ أن يقطعَ قلبَه عن ثلاثة أشياء: العلم، والعمل والخلوة ـ يعني: لا يرى نفسه في هذه الأحوال شيئًا؛ بل إنّما يرى الله تعالى في جميع الأحوال.

وقال: الجمعُ ما علّمَ اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام من الأسماء، والتفرقةُ ما تفرّقَ من ذلك بين الأنام إلى يوم القيامة.

وقال: أرزاقُ أهلِ التوكّلِ تصلُ إليهم بعلم الله تعالى، وبلا مشقّةٍ منهم في الطلبِ ولا تعبٍ، وغيرُهم طول الحياة في تعبِ الطلب.

وقال: التوكّلُ في الحقيقة من رفع كلفتَهُ ومُؤنته عن الخلق، فلا يشكو إلى أحدٍ ما به من الضرّ، ولا يَشتكي من أحدٍ، ولا يذمُّه إذا منعَهُ عن مقصوده، لأنه لا يرى المنعَ والعطاء إلاّ من الله تعالى.

وقال: التوكّلُ بالحقيقة كان لإبراهيم عليه السلام، حيث قال له جبريل عليه السلام: ألكَ حاجةٌ؟ وذلك حين أُلقي في النار، وهو في الهواء، فقال عليه السلام: أمّا إليكَ فلا.

وقال: لأهلِ التوكّل أوقاتٌ في غلبات، إنّهم إذا عبروا على النارِ في تلك الأوقات ما أحسُّوا بها، وإن أُلقوا فيها ما ضرّتْهم النار، وإن رُميت إليهم السهامُ في تلك الأوقات وجُرحوا لم يتألّموا، ولهم أوقاتٌ إن قرصتهم بقّةٌ تأذّوا منها، وبأدنى شيءٍ يَضطربون في تلك الأوقات.

سئل رحمه الله عن الطريق إلى الله تعالى، قال: التباعدُ عن الجهّال، والمصاحبةُ مع العلماء، والعملُ بالعلم، والمداومةُ على الذِّكر.

وسئل عن التصوف، قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

رحمه اللهُ وحشره في زمرة الأبرار، وجعلنا من المُواظبين على الطاعات، الفائزين بالدرجات، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين(١).

* * *

(١) قوله: (الفائزين بالدرجات. . . . أجمعين) ليست في (أ).

(٦٥) الحكيم الترمذي[١]

ذكر الشيخ محمد بن علي الحكيم الترمذي رحمه الله:

كان رحمه الله، من أهل الاحتشام والاحترام بين المشايخ، حميدَ الخصال، مرضيَّ الفعال، شارحًا لمعضلات الأقاويل، مُعتمَدًا عليه في الأحاديث والأخبار، ثقةً بينهم في المعارف والحقائق.

وله قبولٌ عظيم عند الخلق، وشفقةٌ عظيمة عليهم[٢]، ورياضاتٌ كثيرة، وكراماتٌ عاليةٌ، وكان في فنون العلوم كاملاً، وفي الشريعة والطريقة مُجتهدًا.

وقد اقتدى به جماعةٌ من أهل ترمذ.

وكان عالمًا ربَّانيًا، مجتهدًا غيرَ مقلِّدٍ لأحدٍ من أصحاب المذاهب، مُكاشفًا للأسرار والحكم، حتى سُمّي حكيمَ الأولياء.

صحب أبا تُراب النَّخشبي، وأحمد بن الخضرويه، وابن جلاء رحمهم الله، وتكلّم مع يحيى بن معاذ الرازي.

وله تصانيفُ كثيرةٌ مشهورة[٣].

---

(١) طبقات الصوفية ٢١٧، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٣، الرسالة القشيرية ٨٤، الأنساب للسمعاني ٣/ ٤٢، مناقب الأبرار ٤٦٥، صفة الصفوة ٤/ ١٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠٧، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٠٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٣٩، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٥، طبقات ابن عبد الهادي (ترجمة ٦٣٦)، طبقات الشافعية ٢/ ٢٤٥، طبقات الأولياء ٣٦٢، لسان الميزان ٥/ ٣٠٨، نفحات الأنس ١٧٦، طبقات الشعراني ١/ ٩١، الكواكب الدرية ٢/ ١٣٠، طبقات الحفاظ ٢٨٢، مفتاح السعادة ٢/ ٣٠٩، شذرات الذهب ٢/ ٢٢١، هدية العارفين ٢/ ١٥.

(٢) في (ب): عظيمة عندهم.

(٣) له مؤلفات جمة منها: نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول، ختم الأولياء.

ولم يكن في عهده أحدٌ في ترمذَ يَفهمُ كلامَه، وكان مَهجورًا فيما بينهم لأجل هذا.

وهو في أول أمره قصدَ السفرَ مع صاحبين لأجل تحصيلِ العلم، وكانت والدتُهُ باقيةً، فاغتمّتْ لذلك، لأنها كانتْ عجوزةً ضعيفةً عاجزة، وهو كان قائمًا بخدمتها، وتحصيلِ معاشها، فقالت: يا ولدي، تُفارقني، وأنا كما ترى! فأثَّرَ كلامُها في قلبه، وترك السفرَ، وسافر صاحباه، ثم بعد خمسةِ أشهرٍ كان يومًا جالسًا في بعض المقابر، ويبكي بكاءً عظيمًا، ويتضرَّعُ ويقول: بقيتُ ضائعًا معطَّلاً، وأصحابي ورفقائي في التحصيل، وأنا في الجهل، ويتحسَّرُ ويتأسّف ويتلهّفُ، إذ طلع شيخٌ بهيجٌ نورانيٌّ، وقال: لِمَ تبكي؟ فأخبره حاله، فقال له: احضرْ هنا كلَّ يومٍ، وأنا أُعلِّمُكَ شيئًا من العلم. وهو كان يُواظبُ ذلك المكان، ويتعلّمُ منه إلى ثلاث سنين، ثم تبيَّنَ له أنّه الخَضِرُ عليه السلام، ولم ينلْ هذه الدرجة إلاّ ببركة دعاء والدته.

قال أبو بكر الورّاق: كان الخَضِرُ عليه السلام يحضرُ عنده، ويعرضُ عليه واقعات، وهو أيضًا يعرضُ على الخضر عليه السلام واقعات.

وقال أبو بكر الورّاق: قال لي الشيخُ محمد بن علي رحمه الله: أُريدُ أن أذهبَ إلى مكانٍ. فقبلتُ كلامَه وتبعته، وتماشينا قليلاً، فإذا نحن في فلاةٍ صعبةٍ، ورأينا كرسيًا من ذهبٍ منصوبًا في ظلِّ شجرةٍ خضراء، وعينًا جاريةً من الماء البارد الزُّلال، ورأيتُ شيخًا جالسًا على الكرسيِّ، وعليه لباسٌ فاخرة، فسلّم الشيخُ محمدٌ على ذلك الشيخ، فردَّ عليه الجواب، وقامَ له، وعظَّمَهُ، وأجلسه على الكرسيِّ في جنبه، فما مكثنا ساعةً إلاّ وجاءَ من كلِّ جانبٍ طائفةٌ، فأكلوا، ثم سألَ الشيخُ محمد ذلك الشيخَ مسألةً، وهو شرعَ في الجواب، وأطالَ، وأنا ما فهمتُ قطُّ معنى كلامه، ثم استأذنَ منه، ورجعنا، وقال لي: صرتَ سعيدًا؟ وبعد زمانٍ وصلنا إلى ترمذ، قلت: أخبرني يا شيخ عن ذلك المكان، ومَنْ كان ذلك الشيخ؟ قال: أمّا المكان الذي رأيتَ فتيهُ بني إسرائيل، والشيخَ الذي رأيتَه هو قطبُ العالم الذي عليه مداره بقدرة الله تعالى. قلت

متعجِّبًا: كيف وصلنا ورجعنا في ساعةٍ واحدةٍ؟ قال: يا أبا بكر، مالك والسؤالَ عن كيفية الوصول، بعدما انتفعتَ في هذا السفر.

نقل أنه قال: سعيتُ مع النفس كثيرًا حتى أحملَها على الطاعة، فما قدرتُ عليها، حتى كدتُ أن أقطعَ عنّي رجاءَ النجاة، وقلت: لعلَّ الله تعالى خلقَ نفسي للنار[١]، فإلى متى أُداري وأُربّي مخلوقًا للنار؟ وذهبتُ إلى ساحل جيحون، وأمرتُ شخصًا بأنْ كتّفني وألقاني على الأرضِ، وشدّ رجليَّ أيضًا، وذهب، ثم إنّي تدحرجتُ، حتى ألقيتُ جسدي في جيحون، وقصدي أنّي لعلّي أغرقُ، فأتخلص من تبعة النفس وكيدها، فما أغرقني الماءُ بإذن الله، وانفتحتْ يداي ورجلاي، وقذفني إلى الساحل، فقلت: سبحان الله، نفسي لا تليقُ بالجنة ولا بالنار! وحصل لي يأسٌ منها، ففي الساعة فتحَ اللهُ بابًا في سرِّي حتى وجدتُ ما كنتُ أطلُبُه، وغبتُ عنّي، ثم عشتُ ما عشتُ ببركة تلك الساعة.

نقل عن أبي بكر الورّاق أنه قال: أعطاني الشيخ محمدٌ رحمه الله يومًا كرّاسًا من مصنَّفاته، وأمرني أن أرميه في نهر جيحون، فأخذتُه، وذهبتُ إلى جيحون لأمتثلَ أمرَه، فوقع في قلبي[٢] أن أنظر فيه، فنظرت، فإذا فيه لطائفُ ودقائق ونكات، فلم يُوافقني قلبي في أن ألقيه في النهر، فرجعتُ به، فلمّا وصلتُ إليه سألني، وقلت: ألقيتُهُ في النهر. قال: وما رأيتَ من العلامة؟ قلت: ما رأيتُ شيئًا. فقال: ما ألقيتَهُ في النهر إذن. فأشكلَ عليَّ[٣] شيئان، أحدُهما: أنه لِمَ أمرني بإلقائه في النهر؟ والثاني: طلب العلامة، فأتيت جيحون، ورميتُ الكرّاسَ في الماء، فطلع صندوقٌ من الماء، وانفتح، ووقع الكرّاسُ فيه، وانضمَّ ورجع إلى مكانه، فتعجّبتُ ممّا رأيت، ورجعتُ إلى الشيخ، فقال: ما فعلتَ به؟ قلت: رميتُ به الآن في جيحون، لكنْ أُقسمُ عليك بعزّةِ الله أن

---

(١) في (أ): لعل الله خلق ليعقبني النار.

(٢) في (أ): فوقع في بالي.

(٣) في (أ): فاستشكل عليَّ.

تُخبرني عن سرِّ هذا الأمر[1] فقال: صنَّفتُ شيئًا في علم الصوفية، كان كشفُهُ وتحقيقُهُ في غايةِ الصعوبة على العقول، والحالُ أنَّ أخي الخضرَ عليه السلام طلبَ منّي ذلك الكرَّاسَ، واللهُ تعالى أمرَ حوتًا في النهر ليُوصلَه إليه في ذلك الصندوق. وقال الشيخ محمد: إنّي ألقيتُ جميعَ تصانيفي نوبةً في النهر، فأمسكَهُ الخضرُ، وردَّهُ عليَّ، وأمرني بالاشتغال به.

وقال رحمه الله: ما صنعتُ حرفًا عن تدبُّرٍ، ولا ليُنسبَ إليَّ شيءٌ منه، ولكن كان إذا اشتدَّ عليَّ وقتي، أتسلّى به.

وقال رحمه الله: رأيتُ ربِّي جلَّ وعلا في المنام ألفَ مرَّةٍ وواحدة.

نقل أنّه كان رجل زاهدٌ في بلدة الشيخ محمد بن علي رحمه الله، وهو يُنكرهُ في جميع أحواله، ويعترضُ عليه في أقواله وأفعاله، حتى أنّه يَستنكفُ عن ردِّ جواب سلامه، وكان للشيخ بيتٌ يسكنه، ولم يكن له بابٌ، فاتَّفقَ له أن سافرَ إلى الحجاز، فلمّا رجعَ، رأى كلبةً قد ولدت في بيته، ولم يُردْ أن يُخرجَها منه، فدخل البيتَ وخرج في ليلةٍ ثمانين مرَّةٍ على قصدِ أن تُخرجَ الكلبةُ أولادَها منه باختيارها، وذلك الزاهد المُنكر رأى النبيَّ ﷺ في تلك الليلة، فقال له: يا فلان، تعارضُ مع مَنْ دخلَ البيت وخرج ثمانين مرَّةً رفقًا لكلبةٍ وشفقةً، ولم يقصدْ إيذاءها وإخراجها من بيته؟ فاذهبْ إليه إن كنتَ من أهلِ السعادة، ولازمْهُ واخدمْهُ. فانتبه الزاهدُ، وأتى الشيخَ، وشدَّ نطاقَ خدمتِهِ على خاصرته، وواظبَ جميعَ ما بقي من عمره مجلسَه، وحسنَتْ أحواله.

نقل أنَّ بعضَ الناس سألَ من أهل الشيخ: أنَّه إذا غضبَ عليكم، فأنتم تَعرفون غضبَهُ؟ قالوا: نعم، فإنّه يومَ يَغضبُ يُحسنُ إلينا أكثرَ ما يكون، ويتركُ الأكلَ والشربَ في ذلك اليوم، ويكونُ باكيًا، ويقول: إلهي، ماذا فعلتُ اليومَ حتَّى سلَّطتَهم عليَّ؟ فإنّي تبتُ إليك، ورجعتُ عن ذلك الفعلِ، فأصلحْهم. ونحن أيضًا نتوبُ إلى الله، ونتصالحُ معه.

---

(١) قوله: (عن سرِّ هذا الأمر) ليس في (ب).

نقل أنّه ما رأى الخضِرَ مدّةً بعدما يرآه إلى أن خرجَ وعليه ثيابٌ نظيفة، وقصدَ الجامع، فطلعتْ جاريةٌ على سطحٍ، ومعها طستٌ مملوءٌ من البول والنجاسة، وصبَّتْهُ على الشيخ، وهو لم يغضبْ عليها، وكظمَ الغيظَ، وعبر، فرأى الخضر عليه السلام في ساعته.

نقل أنه اشتُهرَ من أدبه أنّه ما بصقَ قدَّامَ أهله، ولا ألقى النخامةَ، فجاء إليه رجلٌ، وقصد امتحانَهُ في هذا، فالتقى به في المسجد، ومكثَ إلى أن خرجَ منه، فذهب في أثره، فأدركَ الشيخُ ذلك، والتفتَ إلى الرجل، وبزقَ، فتعجَّبَ الرجلُ من ذلك، وقال في نفسه: إنَّ ما سمعتُ في هذا الباب كان كذبًا، والشيخُ أدّبني. فأدركَ الشيخُ هذا أيضًا، وقال: يا ولدي، صحَّ ما سمعتَ، ولكن إذا أردتَ الاطلاعَ على سرٍّ من الأسرار فعليك بالكتمان؛ فإنَّ من يكتمُ سرَّ السلاطين يكبرُ شأنُه.

ونقل أنَّ امرأةً ذاتَ جمالٍ عشقتْهُ، وهو شابٌ حَدَثٌ، وكثيرًا ما دعته، فلم يقبلْها إلى أن سمعتَ أنَّ الشيخَ في بستانٍ، فزيَّنَتْ نفسَها، وقصدتِ البستان، ودخلته، وحين اطَّلعَ الشيخُ عليها، هربَ منها، وهي تسعى خلفه، وتصيحُ وتقول: يا فلان، لِمَ تسعى في هلاكي؟ والشيخُ لم يلتفتْ إليها، وصعدَ حائطًا، وألقى نفسَه منه، وذهب، ولما كبرَ وشابَ تذكَّرَ يومًا ما جرى بينه وبينها، وخطرَ بباله: لو قضيتُ حاجتها، وإنّي كنتُ شابًا ثم تبتُ، ثم قال: كربتُ لذلك كربًا شديدًا، وقلت: ما خطرَ هذا ببالي، وقد كنتُ أربعين سنة، والآن يخطرُ ببالي مثلُ هذا، وأنا ابنُ ثمانين سنةً، ومضى عمري في الرياضة والمجاهدة، وظننتُ أنّي نزلتُ من مقامي، واغتممتُ غمًّا عظيمًا حتى حصل لي مرضٌ، وكنتُ أفتكرُ في سببِ هذا الخاطر، ثم رأيتُ النبيَّ ﷺ بعد ثلاث ليالٍ، وقال لي: لا تحزنْ يا مُحمد، فإنَّ ذلك الخاطرَ لم يكن بسببِ نقصان مرتبتك؛ بل لأنَّه مضى علينا أربعون سنةً أُخرى، وطال العهدُ بيننا وبينك، فما جرى عليك ما كان لأجلِ قصورٍ ونقصانٍ فيك، بل لبعدِ العهدِ، وطولِ المفارقة.

ومن كلماته أنه قال: إنَّ السالكَ بعد رياضاتٍ كثيرة، وآدابٍ ظاهرةٍ

وباطنة، وتهذيبِ الأخلاق، وتصفيةِ الباطن يستنيرُ قلبُه بأنوارِ عطيّات الله تعالى، وينشرحُ صدرُه، وتدخلُ نفسُهُ في فضاءِ عالم التوحيد، ويفرحُ بذلك فرحًا شديدًا، فلا جرمَ أنَّه يختارُ العزلةَ عن الناس، ويشرعُ في الكلامِ، ويشرحُ للناس ما فتح الله له في الطريق، وهم يعزّونه ويُكرمونه ويوقّرونه، وحينئذ تغترُّ نفسُه، ويخرجُ من باطنه مثلُ أسد، ويركبُ عنقه، ويفوتُ عنه حينئذ جميعُ ما أدركه من لذّةِ المُجاهدة من أوّل أمره إلى ذلك اليوم، وتهربُ منه كسمكةٍ هربَتْ من الشبكة، وتغوصُ في بحرٍ ولا يقدرُ بعده على ردّه إليه، فإنَّ النفسَ عند وصولها إلى فضاءِ التوحيد أخبثُ وأمكرُ بأضعافِ ما كانت في الابتداء، لأنَّها في مبادىء حالها مقيَّدةٌ بضيقِ البشرية، مسجونةٌ في سجنها، وهي مبسوطةٌ مُطلقَةٌ في فضاء عالم التوحيد وسعته، فإيَّاكَ إيَّاكَ والأمنَ من مكائدِ النفس وحيلها، وعليك أن تجتهدَ حتى تظهر عليها.

نقل أنه قال: احذروا الشيطان الذي منزلُه فيكم.

ونقل أنَّ آدمَ وحواء عليهما السلام حين التقيا في الأرض، وقُبلت توبتُهما، فغاب آدم عليه السلام يومًا إلى شغلٍ، وجاء إبليس عليه اللعنة إلى حواء عليها السلام بابنٍ له يسمى الخنّاس، وأودعَهُ عند حواء، وقال: عُرض لي شُغلٌ، فيكونُ عندك إلى أن أرجع. فذهب عليه اللعنة، وجاء آدم عليه السلام، وسأل حواء: من هذا؟ قالت: هو ابنُ إبليس عليه اللعنة، تركه عندنا إلى أن يرجع. فلامها آدمُ عليه السلام، واغتاظَ، وأخذَ الخنّاسَ وقتله، وقطّعَهُ قطعةً قطعة، وعلّق كلَّ قطعةٍ منها على غصنٍ من الشجرة، وترك وذهب في شغلٍ، ثم رجع إبليس عليه اللعنة، ودعا إليه ابنه، فالله تعالى جمعَ أعضاءَه كلّها وأحياه، فقام وجاء إلى إبليس عليه اللعنة.

ثم نوبةً أُخرى تركه عند حواء عليها السلام، وقال: لي شغلٌ، يكون عندك حتى أرجع؟ فامتنعتْ حواء عن ذلك، فألحَّ إبليسُ حتى قبلته حواء عليها السلام، وجاء آدم، وقال: من هذا؟ قالت: هو الخنّاس بنُ إبليس عليه اللعنة. فغضبَ آدم عليه السلام، وقتله ثانيًا، وأحرقه، وذَرَّ رمادَهُ نصفَه في الهواء،

ونصفه في الماء، ثم حين غابَ جاء إبليس عليه اللعنة، وقال: أين ابني؟ فأخبرته حواء عليها السلام بالحال، فدعا إبليس إليه ثانيًا، فجمعَ اللهُ تعالى أجزاءَه وسوّاه كما كان، فجاء إلى إبليس.

ثم إنّه تضرَّعَ إليها نوبةً ثالثة ليبقى عندها، واستشفعَ كثيرًا، وأبتْ حواء عن ذلك إلى أن أقسم بالله، ولانَتْ حواء في القبول ـ ونقل أنه عليه اللعنة جاءَ به إليها في النوبةِ الثالثة على صُورةِ غنمةٍ وتركها عندها ـ وذهب، وجاء آدم عليه السلام، وسألها عنه، وغضبَ غضبًا شديدًا، وقال: مالكَ لا تَقبلينَ كلامي، وتَمْتثلينَ أمرَ عدوِّ الله، وتغترّين بكلامه؟ فعمدَ إليه وذبحه، وطبخه، وأكلَ هو نصفَه، وحواءُ نصفَه، ثم جاء إبليس عليه اللعنة، وعلمَ بالحال، ففرحَ به فرحًا عظيمًا، وقال: حصلَ مقصودي، إذ ما كان مُرادي إلاّ أن يكونَ له منزلٌ ومقام في باطنكم. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ـ٥].

وقال الشيخ محمد رحمه الله: مَنْ تبقى فيه من صفات بشريته ذرَّةٌ، فهو كمُكاتَبٍ يبقى عليه من نجومِ الكتابة دِرهمٌ، فإنّه بَعدُ رقيقٌ مثله، والحال أنّه رقيقٌ لأجل دِرهمٍ إلاّ من أنجاه الله تعالى من رقِّ نفسه، وحرَّرَه، فهو مثل مُكَاتَبٍ أدّى جميعَ النُّجوم، وصار عتيقًا، وهو المجذوب الذي أعتقَه الله تعالى، ثم جذبه، وهو الحرُّ الحقيقي، كما قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فأهلُ الاجتباء هم أَهلُ الجذبة، وأهلُ الهداية هم الذين طلبوهُ بالإبانة[1] والرجوع إليه.

وقال: من كان جاهلاً بأوصافِ العبودية، فهو بأوصافِ الرُّبوبية أجهل.

وقال: أتريدُ أن تعرفَ ربَّكَ مع بقاء نفسك؟! ونفسُكَ لاتقدرُ أن تعرفَ نفسها.

(١) في (ب): الذين طلبوا بالإبانة.

وقال: من أقبح خصال المرء الكِبرُ، لأن الكِبرَ لا يصحُّ إلاّ لمن لا يكونُ فيه عيبٌ.

و: الاختيارُ لمن يكونُ علمُه بعيدًا عن الجهل.

وقال رحمه الله: مثةُ ذئبٍ جائعة لا تضرُّ قطيعَ غنمٍ كمضرَّةِ شيطانٍ ساعةً في إنسان، ومئة شيطان لا يوصل الضَّررَ إلى الإنسان مثل نفسه.

وقال: يكفي الإنسانَ عيبًا ونقصًا أنه يُسرُّهُ ما فيه خسرانه.

وقال: إن اللهَ تعالى ضمنَ أرزاقَ العباد لهم، فعلى العباد أن يضمنوا له التوكُّلَ.

وقال: عليكم بمراقبةِ من لا ينقطعُ نظرُهُ عنكم، وشكرِ من لا تَنقطعُ نعمتُهُ عنكم، وعليكم بالتواضع لمن لا يمكنُ الخروجُ عن مُلكه وسلطنته خطوة.

وقال: حقيقةُ محبَّةِ الله تعالى دوامُ الأُنسِ بذكره.

وقال: من يقول: القلبُ غيرُ متناهٍ، فهو مُخطىءٌ في مقاله، كيف وللقلب كمالٌ معلومٌ، يقفُ عند الوصول إليه، ولكنَّ الطريقَ غيرُ مُستتمٍّ ومتناه، كما بيّنّاه في «شرح القلب».

وقال: ما تجلّى الاسمُ الأعظمُ قطُّ إلاّ في عهد النبيِّ ﷺ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يفيضَ على أرواح أوليائه زُلالَ رحمته وكرمه ورضوانه وإحسانه، وأن لا يقطعَ عنَّا إنعامَهُ وألطافه، وأن يَحشرنا في زمرتهم، إنه كريمٌ رحيم، رؤوفٌ حليم، وأن يُصلّي على سيِّدنا محمدٍ وآله الطيبين، وعترتِهِ الطاهرةِ أجمعين.

* * *

(٦٦) أبو بكر الورّاق[١]

ذكر الشيخ أبي بكر محمد بن عمر الوراق رحمه الله:

كان رحمه الله ترمذيًا، وأقام ببلخ، وكان من أكابرِ الزُّهاد والعبّاد، وفي الورعِ والتقوى والتجريد والتفريد كاملاً، وفي المعاملةِ والأدب عديمَ النظير، حتى سمّاه المشايخ: مؤدّب الأولياء.

وصحب: محمد بن علي الحكيم، وأحمدَ بنَ خضرويه، وغيرَهما رحمهم الله.

وله تصانيفُ في الرياضات والآداب.

وكان رحمه الله يمنعُ أصحابَه عن السفر والسياحات، ويقول: مفتاحُ كلِّ بركةٍ الصبرُ في موضع إرادتك إلى أن تصحَّ لك الإرادةُ، فإذا صحّتِ الإرادةُ فقد ظهرَ لك أوائلُ البركة.

أقول: نقل أنه قال: لو قيلِ للطمع: من أبوك؟ قال: الشكُّ في المقدورات. ولو قيل: ما حرفتُك؟ قال: اكتسابُ الذلِّ. ولو قيل: ما غايتُك؟ قال: الحرمان. والله أعلم..

نقل أنه قال: كنتُ دهرًا طويلاً في اشتياقِ الخضِرِ عليه السلام، وأمشي كلَّ يومٍ إلى المقابر، وأقرأُ جزءًا من القرآن في الذهاب والإياب، فيومًا خرجتُ من بابِ المدينة، فاستقبلني شيخٌ نورانيٌّ وسلَّم عليَّ، وقال: تُريد الصُّحبةَ؟ قلت: نعم. فتماشينا إلى المقابر، ورجعنا إلى باب المدينة، ونتكلّمُ في الطريق، فلمّا

---

(١) طبقات الصوفية ٢٢١، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٥، الرسالة القشيرية ٨٤، الأنساب ٣/ ٤٥، مناقب الأبرار ٤٧٠، صفة الصفوة ٤/ ١٦٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٢٤، طبقات الأولياء ٣٧٤، نفحات الأنس ١٨٤، طبقات الشعراني ١/ ٩١، الكواكب الدرية ٢/ ١٢٣.

أرادَ أن يرجعَ قال: أنا الخَضِرُ، وكنتَ في طلبِ صحبتي مدّةً، واليومَ اشتغلتَ بالصُّحبةِ، وتركتَ وردَكَ من قراءةِ القرآن، فإذا كانتِ الصُّحبةُ مع الخَضِرِ هكذا، فكيف مع غيره؟ فعلم أنَّ العزلةَ والوحدةَ والخلوةَ والاشتغالَ بالحقِّ أشرفُ وأفضلُ من الصُّحبة.

نقل أنه رحمه الله كان له ابنٌ، وسلّمه إلى مُعلمٍ يُعلِّمُهُ القرآن، فجاء يومًا قد اصفرَّ وجهُهُ، وهو يرجفُ، فسأله أبوه عن حاله، قال: علّمني الشيخُ المُعلِّمُ اليومَ آيةً وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

أقول: قيل: يصيرُ الطفلُ يوم القيامة شيخًا ذا شيبةٍ إمّا لطولِ ذلك اليوم، أو لكثرةِ الأحزانِ والهموم فيه، وكثرةُ الحُزنِ مِمّا يُشيبُ الإنسان، كما قال ﷺ: «شيَّبتني سورةُ هود»[1] عليه السلام، وذلك لحصولِ الحزن بسبب قراءتها، ومعرفةِ ما فيها من أهوال القيامة وأحوالها، أو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]. والله أعلم.

ثم قال الصبي: فزعَ قلبي من هولِ يوم القيامة، ومات من ذلك، وأبوه رحمه الله كان يبكي على قبره، ويقول: يا ولدي، أنتَ سمعتَ آيةً من كلام الله تعالى وزهقَ روحُك من الخوف، وأبوك قرأَ القرآنَ كلَّه، وختمَ كمْ مرّةً، ولم يؤثِّر فيه!.

نقل أنه رحمه الله كلّما كانَ يفرغُ من أداء الصلاة يَستحيي مثل من يُتَّهمُ بسرقةٍ أو بجريمة كبيرة.

أقول: وذلك لأنّه كان يستحقرُ عبادتَهُ، ويعظِّمُ الله تعالى غايةَ التعظيم، ثم يَستحيي من الله تعالى في أنّه خدمَ حضرته المقدَّسةَ بما لا يليق بكبريائه وعظمته. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير، باب ومن سورة هود، وأبو يعلى ١/١٠٢، وصححه الحاكم في المستدرك ٢/٤٧٦، ووافقه الذهبي.

نقل أنَّ رجلاً زار أبا بكر الوراق رحمه الله، ثم عند الرجوع استوعظَهُ، فسمعوا صوتًا، ولم يَروا شخصًا: وجدنا خيرَ الدُّنيا والآخرة في قلّةِ المالِ، وشرَّ الدنيا والآخرة في كثرةِ المال، والاختلاطِ مع الناس.

نقل أنه قال: خدمتُ ألفًا من المشايخ، فما أفَادني واحدٌ منهم كما أفَادني شيخٌ وصلتُ إليه في سفرِ خراسان، ولازمتُهُ مدَّةً من الزمان، وانفتحَ لي ببركته كثيرٌ من الفتوح، ثم قال عند المُفارقة: هل يكونُ في بلدكم شيطان؟ قلت: نعم. قال: كيف تعملون معه؟ قلتُ: نحاربُهُ ليلاً ونهارًا. قال: سبحان الله، إذًا بقيتم مع العدوِّ في المحاربة والمخالفة، فمتى يكونُ الصُّلحُ والموافقةُ مع الحبيب؟ قلت: علّمنا كيف نُعاملُه. قال: إذا وصلتَ إلى قطيعِ غنمٍ عظيم، وحملَتْ عليك الكلابُ، فلا تنفعُكَ المُحاربةُ لهم والصياحُ عليهم؛ بل إنّما ينفعُكَ الاستغاثةُ بالراعي، وإلفُتُكَ إيّاه، فكلُّهم يُوافقك ولا يُؤذيك أبدًا، فكذلك أنتم إن أردتُمُ الخلاصَ من الشيطان، والنجاةَ من مكره، فاختاروا محبَّةَ الله تعالى بالإخلاص، واهربوا إليه لِيُنجيَكُم من شرِّ الشيطان.

وقال أبو بكر الورّاق رحمه الله: الناسُ على ثلاثةِ أقسام: الأول الأمراء، والثاني العلماء، والثالث الفقراء. فإذا فسدتِ الأمراءُ يَفسُدُ وجودُ معاش الناس واكتسابُهم، وإذا فسدتِ العلماء تفسُدُ أحوالُ الناس في الطاعات، وسلوكِ طريقِ الشريعة، وإذا فسدتِ الفقراءُ يفسدُ الناس في الصلاحِ والمعاملة مع الحقِّ جلَّ جلاله.

أقول: وتحقيقُ ذلك أنَّ الإمارةَ لأجلِ إصلاح الناس[1] في أمورِ مَعاشهم ومكاسبهم بدفع الظلم، ورفعِ الجور، ومنع المتمرّدين، وإفشاء المعدلة، وإظهار الرأفةِ بين الأنام، والمطلوبُ من العلم إصلاحُ الدين، وما ينفعُ في المعاد من معرفةِ النفس، والمبدأ والاستعداد له بالزاد الذي هو العمل الصالح، وتهذيب الأخلاق. والفقر إنّما هو لتقوية ذلك بالرِّياضة والمجاهدة، وكسر

(١) في (أ): الإمارة إنما هي لإصلاح الناس.

النفس وتصفيتها من الكُدورات الجسمانية، فإذا فسدَ كلٌّ من هؤلاء الثلاثة في الجهةِ المطلوبة منه، فلا جرمَ أنَّه تختلُّ أحوالُ المُقتدين بهم، والمُقتفين أثرهم اختلالاً ظاهرًا. والله أعلم.

وقال: إذا غلبَ الهوى أظلمَ القلبُ واسودَّ، وحينئذ يُبغضُ الناسَ، وإذا أبغضهم فهُمْ أيضًا يُبغضونه، وحينئذ تَظهرُ العداوة فيما بينهم، والجورُ وما يتبعه من الصفات الذميمة.

وقال: ما ظهرتْ فتنةٌ من لدن آدمَ عليه السلام إلى الآن بين الناسِ إلاّ بسببِ الاختلاط مع الخلقِ، وما نجا أحدٌ من الفتنِ إلى يومنا إلاّ بالعزلةِ من الخلق.

وقال: من علامةِ الولاية أن يُحدّثَ الوليُّ عن أصول العلم. قيل: وما هي؟ قال: هي علم المبدأ وعلم المقادير، وعلم العهد والميثاق، وعلم الحكمة ليس إلاّ هذا، وهذا علم أكابرِ الأولياء، ولا يقبلُهُ منهم إلاّ من لم يكن لإبليسِ حظٌّ في ولايته.

أقول: أمّا علم المبدأ: فهو ما يتعلّقُ بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ومنه معرفةُ النفس، وتهذيبُ أخلاقها.

وعلم المقادير: ما يبيّنُهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] يعني: لا شيءَ في الوجودِ إلاّ وهو مخلوقٌ لله تعالى، ومع ذلك هو بقدرٍ أي بتقديرٍ سابق، وقضاءٍ لاحق.

وأمّا علمُ العهد والميثاق: فإمّا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وإمّا إشارةٌ إلى أنَّ لكلِّ أمةٍ وطائفةٍ عهدًا وميثاقًا مع نبيِّه عليه السلام، وعلى أيِّ حالٍ فلا بدَّ من الوفاء بالعهدِ الأوّلي الذي جرى بين العبد وربِّه في الأزل، ومن ذلك مُتابعةُ النبيِّ ﷺ في جميع ما جاء به من عندِ الله قولاً واعتقادًا، فعلاً وتركًا.

والحقُّ أنَّ كلاً من العلوم الثلاثة بحرٌ عميقٌ لا ساحلَ له، ولا يخوضُها أحدٌ

إلاّ بتوفيقِ الله تعالى، ثم اجتهادٍ من نفسه. والله أعلم.

سُئل الشيخُ أبو بكر الورّاق: هل يكونُ للوليِّ خوفٌ من سوء الخاتمة؟ قال: نعم، وليس ذلك إلاّ من الخطرات.

وقال: لا يكون يومٌ إلاّ واللهُ يحبُّ أن يكدِّرَ العيشَ على أوليائه.

وقال: يجبُ على العارف أن يكونَ مَشغولاً بذكر الله، بحيث لا يُمكنُ أن يَسألَ عنه، ولكنّ هذا سرٌّ لا يَفهمه البلعميّون[1]. قيل: ومن هم؟ قال: هم طائفةٌ لا يستأهلون فهم الآيات الإلهية.

سئل الشيخ رحمه الله عن التقوى والفتوّة، قال: التقوى أن لا يُمسكَ ذيلَكَ أحدٌ يومَ القيامة، والفتوّةُ أن لا تُمسكَ أنت بذيلِ أحدٍ ذلك اليوم.

أقول: حاصله أن لا تَظلمَ أحدًا، وإنْ ظلمَكَ غيرُك فاصفحْ عنه، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. والله أعلم.

قيل له: من العزيز؟ قال: هو الذي ما أذلّته المعصية.

وقيل: من السيد؟ قال: من لم يجعلْه الشيطانُ أسيرًا.

وقال: من خافَ شيئًا هربَ منه، ومن خافَ الله تعالى هربَ إليه.

قال: أصلُ الإسلام شيئان: الأول مُشاهدةُ النعمة والمِنّة من الله تعالى. والثاني: خوفُ القطيعة.

وقال: من كانت همّتُهُ الدِّينَ، فالله تُعالى يُصلحُ جميعَ أموره الدنيوية، ومن كانت همّتُهُ الدنيا، فاللهُ تعالى يُفسدُ أمورَه الدينية أيضًا بشؤمِ ذلك.

---

(١) البلعميون نسبة إلى بلعام بن باعورا الذي قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف ١٧٥ـ١٧٦: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ انظر خبره في البداية والنهاية ١/ ٣٢٢.

قال: ينبغي للمريد أن يكسرَ رجليه ويقطعَ لسانه. قيل: ومن له طاقةُ ذلك؟ قال: من يكونُ سرُّه ناطقًا، ومسمعُ همّته سامعًا من الله تعالى.

وقال: الحكماء هم تلوُ الأنبياء، وليس بعد النبوّةِ إلاّ الحكمة، وأولُ علامتها الصمتُ، أو التكلّم على قدر الحاجة.

أقول: يؤيِّدُهُ ما رواه أبو هريرة أنّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذي جاره، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليومِ الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت»[(١)]. والله أعلم..

وقال: إنّ الله تعالى يطلبُ من العباد ستّة أشياء: يطلبُ شيئين من القلب: الأول التعظيمُ لأمرِ الله، والثاني الشفقةُ على خلق الله تعالى. وشيئين من اللسان: الأول الإقرارُ بتوحيد الله، والثاني الصدقُ والرِّفقُ مع الخلق. ومن جميع الجسدِ شيئين: الأول الصبرُ في الله تعالى، والثاني الحلمُ[(٢)] مع خلقِ الله تعالى.

وقال: من أحبَّ نفسَه، أحبَّهُ الكبرُ والحسدُ، والهوانُ والمذلّة.

نقل عن الشيخ أبي بكر الورّاق رحمه الله قال: جاورتُ مكّةَ عشرين سنة، ثم في ليلةٍ من الليالي اشتهيتُ اللبنَ، فخرجتُ في طلبه، ووقعَ نظري بغيرِ اختيارٍ على جاريةٍ حسناء عسقلانية، فتبعها قلبي، وقلتُ: يا جارية، ما هذا الحسنُ الذي أذهبَ عنّي قراري؟ فقالت: اسكتْ يا فتى، لو كنتَ عاشقًا لجمالنا، تائهًا في حسننا لم يكنْ في قلبك اشتهاءُ اللبن، فإنَّ دعوى المحبّة واشتهاءَ شيءٍ غير الحبيبِ لا يجتمعان؛ فإنّ العشقَ الحقيقي إذا نزلَ في قلبٍ لا يتركُ الغيرَ فيه. قال الشيخ: علمتُ أنّ هذا كانَ لأجلِ امتحاني، فأدخلتُ أُصبعيَّ في عينيَّ، وقوّرتُهما، وقلعتُهما، وألقيتهما، وقلت: إن عينًا تدلُّني

---

(١) الحديث رواه مسلم (٤٨) في الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار، والموطأ ٢/٩٢٩ في صفة النبيّ ﷺ، باب ما جاء في الطعام والشراب.

(٢) في (ب): وذلك الحلم.

على الشهوة لا تليقُ بالمصاحبة. ثم بعد مُدّةٍ مديدةٍ رأيتُ يوسفَ النبيَّ عليه السلام في المنام، وقلت: يا كريمَ ابن الكريم، أقرَّ اللهُ عينك، فإنك جذبتَ ذيلَكَ عن يد زُليخا. فقال يوسف عليه السلام: يا أبا بكر، أقرَّ اللهُ عينك؛ فإنّك قلعتها لأنَّها نظرتْ إلى الجاريةِ العسقلانية، لئلا تُعيدَ النظرَ إليها. فانتبهتُ وقد ردَّ الله عليَّ عينيَّ، وصارَتْ أضوا ممّا كانت ببركة دعاءِ يوسف عليه السلام.

نقل أنه رحمه الله قال: سمعتُ بعضَ الأكابر يقول: إنَّ الشيطانَ عليه اللعنة لا يُوسوسُ للإنسانِ أوّل مرةٍ في دينه، ولا يدلُّه أولاً على الكفر؛ بل يُرغِّبُه أولاً إلى الحلال، فإذا صارَ حريصًا عليه يَستولي عليه الهوى، ثم يجترىءُ بشؤم الهوى على المعاصي، ثم بعد ذلك يُوسوسُ له في دينه.

وقال الشيخ أبو بكر الورّاق رحمه الله: إنّك تُصاحبُ خمسةً، فإن علمتَ كيف تُصاحبُ نجوت، وإلاّ هلكتَ: اللهَ تعالى، والنفسَ، والشيطانَ، والدنيا، والخلقَ. فأمّا الصُّحبةُ مع الله تعالى فبالموافقةِ في أوامره ونواهيه وأفعاله، ومع النفسِ بالمخالفة، ومع الشيطان بالعداوة، ومع الدنيا بالحذرِ منها، ومع الخلق بالشَّفقةِ عليهم.

وقال: ما لم تنقطعْ عن المخلوق لا تطمعْ في الأُنس مع الله تعالى، وما دامَ قلبُكَ دائرًا في الأفكارِ، فلا تطمعْ في الفكرة والعبرة، وما لم تنظّفْ صدرك عن محبّة الجاهِ والرياسةِ، فلا تطمعْ في الإلهامِ والحكمة.

وقال: اصحبِ العقلاء بالاقتداء بهم، والزهّادِ بحسن المُداراة، والجهّالِ بالصبر معهم.

وقال: أصلُ الإنسان من الماءِ والتراب، فبعضُ الناس يكونُ الماءُ في خلقته غالبًا، فيجب أن يُداري بالرياضة وألاّ يتغيّر عاجلاً، وبعضُهم تكون الترابيةُ غالبةً[1]، فيجوزُ أن يُؤدَّبَ بالشدَّةِ والعنف كالتراب؛ ما لم يُرفَسْ لا يَصلحُ لبناءٍ وعمارةٍ وزراعة.

---

(١) في (أ): وبعضهم تكون ترابيَّةُ غالبًا فيه.

وقال: الفقيرُ مسرورٌ في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فلا يُؤخذُ منه خراجٌ، وأمّا في الآخرة فلا يُحاسب.

وقال: أخرجُ من البيت كلَّ صباح، وأعلمُ من تعشّى بالحرام[١]. قيل: كيف ذلك؟ قال: من يخوضُ في اللغو والغيبة والفحش، أعلمُ أنّه أكلَ الحرام، ومن أراه مَشغولاً بالذِّكرِ والتهليل والاستغفار أعلمُ أنّه أكلَ الحلال.

وقال: اليقينُ نورٌ يتنوَّرُ به العبد في أحواله، ثم يُوصِلُهُ ذلك النورُ إلى درجةِ المُتَّقين.

سُئل عن الزهد، فقال: هو ثلاثةُ أحرفٍ: الزاء[٢]، والهاء، والدال. الزاء إشارة إلى ترك الزينة، والهاء إلى ترك الهوى، والدالُ إلى ترك الدنيا.

وقال: من صحّتْ معرفتُهُ بالله تعالى، تَستولي عليه الهيبةُ والخوف والخشية.

وقال: شكرُ النِّعمةِ مُشاهدةُ المِنّة، ومحافظة الحرمة.

وقال: التوكلُ تخليةُ الوقت، وتصفيته عن كُدورة الحزن والانتظار. يعني: لا يكونُ لك تأسُّفٌ على ما فات، ولا انتظارٌ لما هو آت؛ بل تكون راضيًا بالنقد.

أقول: وهذا معنى قولهم: الصوفيُّ ابنُ الوقت. والله أعلم.

وقال: احترزوا عن الأخلاقِ الذميمة كما تَحترزون عن الحرام.

نقل أنه رحمه الله لما تُوفّي، رآه بعضُ الصالحين في المنامِ مصفرَّ الوجه باكيًا، فقيل له: وما هذا الحال، أخيرٌ أم لا؟ قال: أين الخيرُ؟ وفي المقبرةِ التي أنا مدفونٌ فيها لم يُدفن فيها اثنان، يكون أحدُهما مؤمنًا.

ونقل أنه رآه آخرُ في المنام، وقال: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: الله تعالى

---

(١) في (ب): وأعلم أنّ كلّ من تعشّى بالحلال.

(٢) كذا في الأصلين.

أوْقفني بحضرته، وناولني كتابًا، وأنا شرعتُ أقرؤه، فوصلت إلى موضعٍ منه قد اسودَّ، وما اطَّلعتُ على ما في ذلك الموضع، وبقيتُ متحيِّرًا، فنُوديت: يا فلان، إنه كان في ذلك الموضعِ كتابةُ ذنبٍ من ذنوبك، ونحن قد سترناه عليك في الدنيا، ومحونا اسمه عن كتابك، وعفونا ذلك عنك، وغفرنا لك، وما فضحناك في الدنيا والآخرة.

رحمه اللهُ رحمةً واسعةً، ونسألهُ أن يجعلنا من الفائزين بما يحبُّ ويرضى في البدوِّ والرجعى، ويسترَ علينا عيوبنا، ويغفر لنا ذُنوبنا، ويطهّرَ عن الكدورات البشرية قلوبنا، وأن يُصلّي على سيِّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه أجمعين.

* * *



(٦٧) عبد الله بن منازل[١]

ذكر أبي محمد عبد الله بن مُنازل رحمه الله:

كان رحمه الله وحيدًا في عصره، فريدًا في وقته شيخ الملامتية[٢]، متورِّعًا متوكّلاً، معرضًا عن الدنيا والخلق.

وكان مُريدًا لحمدون القصّار رحمه الله.

وكان عالمًا بالعلم الظاهر والباطن، وكتب كثيرًا من الأحاديث النبوية صلّى اللهُ تعالى على قائلها وسلم، وسمعَ كثيرًا منها، وكان مجرَّدًا نظيفًا في الظاهر والباطن.

توفي في نيسابور سنة ثلاثين وثلاث مئة.

نقل أنَّ أبا علي الثقفي كان يُحدِّثُ الناس، ويتكلّم في الوعظ، فقال عبد الله بن مُنازل: استعدَّ للموت، إذ لا بدَّ منه. فقال له أبو علي: كنْ أنت أيضًا مُستعدًّا له. ففرشَ عبدُ الله ساعدَه، ووضع رأسه عليه، وتُوفّي في ساعته، ووصلَ إلى جوار رحمته تعالى.

نقل أنه قال: من الآفة أنَّا لا ننتفعُ بكلماتنا، فكيف يَنتفعُ بها غيرنا؟!.

نقل أنه سُئل عن مسألة، فأجاب، فقال السائل: أعدْ عليَّ الجواب. قال الشيخ: أنا نادمٌ على ما قلته أولاً، ولم يُعد.

---

(١) طبقات الصوفية ٣٦٦، الرسالة القشيرية ٩٩، مناقب الأبرار ٦٩٢، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٥٠٤، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٧، العبر ٢/ ٢٢٦، مرآة الجنان ٢/ ٣١٠، طبقات الأولياء ٣٤٥، نفحات الأنس ٣٠٥، طبقات الشعراني ١/ ١٠٧، الكواكب الدرية ٢/ ١٥٦، شذرات الذهب ٢/ ٣٣٠.

(٢) تقدم التعريف بها صفحة ٤٠٢.

أقول: وذلك لأنّ السائل ما كان أهلاً لذلك ـ أي لمعرفة تلك المسألة ـ فقد قيل:

فمن منحَ الجهّالَ علمًا أضاعَه[١]

وكان مشغولاً بما هو أهمّ من ذلك، ونفعه أعمّ، وترك الأولى يُعدُّ على الأولياء من الذنوب، كما ورد في الحديث: «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين»[٢]. والله أعلم.

نقل أنه قال: أفضلُ أوقاتك وقتٌ تَسلمُ فيه من هواجس النفس ووساوس الشيطان وخطراتها، ووقت[٣] يسلمُ الناسُ فيه من سوءِ ظنِّك.

وقال: من اشتغلتْ نفسُه بما لا يحتاجُ إليه، فقد ضيَّعَ من أحواله كثيرًا ممّا يَحتاجُ إليه في الولاية.

وقال: كان الإنسان عاشقًا على شقاوته. يعني: لا يَقصدُ في الأغلب إلاّ ما يوجب شقاوته.

وقال: أتعجَّبُ ممّن يتكلّمُ في الحياء. يعني يذكرُ حديثَ الحياء ولا يَستحيي من الله تعالى.

وقال: من رُزقَ المحبّة والفقر، فلو لم يُرزق الخشيةَ فهو مفتون.

وقال: الأدبُ هو الخدمةُ؛ لا الملازمة على الأدب، فإنَّ الخدمةَ مع الأدب أعزُّ من الخدمة بلا أدب.

وقال: نحن نحتاجُ إلى الأدبِ أكثرَ من العلمِ الكثير.

قال: من يكون كبيرَ القدر، عظيمَ الشأن[٤] عند الناس يجب أن تكونُ نفسُه

(١) صدر بيت للإمام الشافعي، ديوانه ١١٢. وعجزه: ومن منع المستوجبين فقد ظلم.

(٢) عدّه بعضهم حديثًا، وليس كذلك، رواه ابن عساكر من قول أبي سعيد الخراز، وعزاه الزركشي في لقطته إلى الجنيد. انظر الحاشية (١) صفحة (١٧٢).

(٣) في (ب): أفضل أوقاتك وقت يسلم الناس.

(٤) في (ب): عزيز الشأن.

حقيرةٌ في نظره، أَلَا ترى أَنَّ الله تعالى قد اتَّخذَ إبراهيم خليلاً عليه السلام، وقال في كتابه الكريم: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وهو يقول ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال: لا ينكشفُ الغيبُ على أحدٍ في الدنيا، ولكن ينكشفُ عند الناسِ فضيحةُ دعواه.

وقال: لا يجتمعُ التسليمُ والدعوى في حالةٍ أبدًا.

وقال: من بقي مَحجوبًا بشيءٍ من علمه لا يرى عيوبَ نفسَه أبدًا.

وقال: لا فضيلة لفقرٍ يكون من الاضطرار[١].

وقال: حقيقةُ الفقرِ هو الانقطاعُ عن الدنيا والآخرة، والاستغناءُ بالحقِّ.

وقال: من اشتغل بالأوقاتِ الماضية بلا فائدة، فقد ضاعَ نقدُ[٢] وقته في الحال.

وقال: كيف ينظرُ ابن آدم إلى ما بين يديه وما خلفه؟ والحال أنه غائب عن مقامه وحاله.

وقال: أنت في الظاهر تدّعي العبودية، وفي السرِّ تدّعي بأوصاف الربوبية.

وقال: عاشَ عيشًا هنيًا من ذاقَ طعمَ العبودية.

وقال: العبوديةُ أن تعملَ لله كلَّ شيءٍ سوى الانتظار.

وقال: العبدُ عبدٌ ما لم يطلبْ لنفسه خادمًا، فإذا طلبه فقد سقط من مقام العبودية وأفلتَ الأدب.

وقال: إن الله تعالى قد ذكرَ أنواعَ العبادة[٣] بقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وختمَ جميعَ

---

(١) في (ب): لفقيرٍ يكون من الاضطراب.

(٢) في (أ): فقد ضاع بعدُ.

(٣) في (أ): ذكر أنواع العباد.

مقاماتِ العبادة[١] بالاستغفار، والسرُّ فيه أنه يجبُ على العبد أن يكونَ ناظرًا في جميع أحواله إلى تقصير نفسه، وأن يكونَ مُستغفرًا عقيبَ أفعاله.

وقال: من رفع ظلَّ نفسه، استراحَ الخلقُ في ظلِّهِ.

وقال: التفويضُ مع الكسب خيرٌ من التفويض والخلوة وترك الكسب.

وقال: إذا صح للعبد نَفَسٌ في جميع عمره بلا شِرْكٍ[٢] ولا رياءٍ، تبقى بركاتُ ذلك النَّفَسِ إلى آخر عمره.

وقال: العارف من لا يتعجَّبُ عن شيءٍ.

أقول: معناه إذا عرفَ اللهَ تعالى، وعلمَ أنّه قادرٌ على جميع المُمكنات، فاعلٌ بالاختيار، عالمٌ لجميع الأشياء لا يبقى له تعجُّبٌ في شيءٍ من الأشياء؛ لأنَّ التعجُّبَ لا يكون إلاّ فيما يخفى سببُهُ بتجاوزِ عن القياس، ويعظمُ لذلك وقوعُه عند الناس، وعند العلم بأنَّ الله تعالى هو الخالقُ المُسبِّبُ لجميعِ الأشياء والأسباب يزولُ التعجُّبُ بلا شكٍّ. والله أعلم.

ونقل عنه أنه قال: لم يُضيِّعْ أحدٌ فريضةً من الفرائض إلاّ ابتلاه الله بتضييع السُّنن، ولم يقبل أحد بتضييع السُّننِ إلاّ يُوشكُ أن يُبتلى بالبدع.

نقل عن أحمد بن الأسود أنه سمع هاتفًا يقول: قل لعبد الله بن المُنازل أن يستعدَّ للموت، فإنّه يموتُ بعد سنةٍ. فذهبَ أحمد إليه، وأخبرَهُ ما سمع، فقال عبد الله: عِدَةٌ بعيدة في مدّةٍ مديدةٍ، ومن أين لي طاقةُ الانتظار إلى سنة؟!.

رحمه اللهُ رحمةً واسعةً، ونسألُ الله تعالى أن يُنوِّرَ قلوبَنا ببركة أوليائه، ويرحمَنا بحُرمة أوليائه وأنبيائه، ولا يحرمنا كريمَ لقائه، وأن يرزقنا مُتابعةَ خيرِ أصفيائه، إنه سميعُ الأصوات، مُجيب الدعوات، قاضي الحاجات، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) في (أ): ذكر أنواع العباد.

(٢) في (أ): بلا شكٍّ.

(٦٨) علي بن سهل الأصفهاني(١)

ذكر الشيخ أبي الحسن علي بن سهل الأصفهاني رحمه الله:

كان قدّس اللهُ سرَّه من كبار المشايخ، مُعتبرًا فيما بينهم، كبيرَ الشأن.

وهو من أقران الجنيد، وللجنيد إليه مكاتباتٌ لطيفة، فيها مُسامراتٌ شريفة.

وقصده عمرو بن عثمان المكّي، فسافر لأجله إلى أصفهان، وعليه ثلاثون ألف درهم دينًا، فقضاه عنه علي بن سهل.

ولقي أبا تُراب النَّخشبي وطبقته رحمهم الله.

نقل أنه قال: المُبادرةُ إلى الطاعات من علامةِ التوفيق، والتقاعدُ ـ أي الامتناعِ ـ عن المُخالفات من علامات حُسن الرعاية، ومراعاةُ الأسرار من علامة التيقّظ، وإظهارُ الدعاوى من رعونات البشرية.

و: من لم يصحَّ له مباديءُ إرادته، لا يسلم في منتهى عواقبه.

وقال: من زعمَ أنّه قريبٌ فهو بعيد، ومن زعم أنه أقربُ فهو أبعد، وذلك كواحدٍ من الصبيان، يُريدُ أن يقبضَ على ضوءِ الشمس، فيقبِضُ أصابعَهُ، وفي ظنّه أنَّه أمسكَ الضوءَ، فإذا بسطَها لا يرى شيئًا.

وقال: مرتبةُ الحضور مع اللهِ فوق مرتبةِ اليقين؛ لأنَّ الحاضرَ كالداخلِ في البيت، والموقنَ كالواقف بالباب، فأين أحدُهما من الآخر؟.

---

(١) طبقات الصوفية ٢٣٣، حلية الأولياء ١٠/ ٤٠٤، ذكر أخبار أصبهان ٢/ ١٤، الرسالة القشيرية ٨٧، مناقب الأبرار ٥٠٤، صفة الصفوة ٤/ ٨٥، المنتظم ٦/ ١٥٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٥٢، نفحات الأنس ١٥٦، طبقات الشعراني ١/ ٩٤، الكواكب الدرية ١/ ٦٨٢، ١١٧/٢.

وقال: العاقلُ يعيشُ على حكم الله، والذاكرُ يعيشُ في رحمة الله تعالى، والعارف في قُرب الله تعالى.

وقال: حرامٌ على من يقرأُ أو يعلم أن يطمئنَّ بغيرِ مقروئه ومعلومه.

وقال: التمستُ الغنى فوجدتُهُ في العلم، وطلبتُ الفخرَ فوجدته في الفقر، وطلبتُ العافيةَ فوجدتها في الزُّهد، وطلبتُ قلّةَ الحساب فوجدتها في الصمت، وطلبتُ الرَّاحةَ فوجدتها في اليأس.

وقال: الناسُ من وقت آدم إلى قيامِ القيامة حَدَّثوا عن القلب، وحُدِّثوا عن القلب، ويُحدِّثون عنه، وأنا أطلبُ شخصًا يصفُ لي حقيقةَ القلب، ويُبيّنُ كيفيته، وما أَجدُ.

وقال: إنّكم تظنُّون أنَّ موتي يكون كموتكم، حتى يسبقَهُ مرضٌ، والناسُ يَعودوني؛ لا بل إنّي أنتظرُ الداعي، فإذا دعاني فإنّي أُجيب.

وكان رحمه الله سائرًا يومًا، إذ قال: لبَّيك لبيك، ووضع رأسَه على الأرض، ووصل إلى جوار رحمة الله تعالى.

ونقل عن الشيخ أبي الحسن المزيّن رحمه الله أنه قال: كنتُ حاضرًا عند عليِّ بنِ سهل رحمه الله حين النزع، فقلت: قلْ: لا إله إلا الله. فتبسَّمَ وقال: هكذا تقول لي! بعزَّةِ الله إنه ليس بيني وبينه إلاّ حجابُ العزّة. فقال هذا وسلّم روحَه، ثم بعد ذلك كان أبو الحسن يُمسكُ على محاسنه، ويقول: واخجلتاه، حجّامٌ مثلي يلقّنُ أولياء الله.

نوّر اللهُ مراقدَهم بأنوار رضوانه وإحسانه، ونسألُهُ أن يمنَّ علينا بالشُّكر على نعمائه وآلائه، ويُصلّي على محمَّدٍ سيّدِ رُسلِهِ وأنبيائه، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وصحبه أجمعين.

* * *

(٦٩) أبو الخير الأقطع(١)

ذكر الشيخ أبي الخير الأقطع المغربي رحمه الله:

كان رحمه الله شرفَ الأقران، كبيرَ الشان، ذا كراماتٍ وفِراسة حادة، وهمّةٍ عالية ورياضاتٍ سامية، حميدَ الخصال، رضيَّ الفعال.

صحب ابن جلاّء رحمه الله.

وكان تستأنسُ به السباع، ويُجالسُه الأَسدُ والثعبان.

وكان مغربيَّ الأصل، مات رحمه الله سنة نيّفٍ وأربعين وثلاث مئة(٢).

نقل أنه قال: كنتُ في جبل لبنانٍ مع جماعة، فجاء إلينا شخصٌ من الملوك، ويُعطي كلاً ممّن كان هناك دينارًا دينارًا، فوصل إليَّ، ومدَّ يده ليناولني دينارًا، فأنا أيضًا مدَدتُ يدي، فوضعَهُ على ظهر كفّي، وأنا رميتُهُ منه إلى حجْرِ بعض الأصحاب.

ولمّا نزلتُ المدينةَ بعده بمدّةٍ، اتفقَ لي أن أخذتُ كرّاسةً من المُصحف بغير وضوءٍ سهوًا، ثم كنتُ أسيرُ في السوق يومًا مع جمعٍ من الأصحاب على صورة المجانين، إذ التقينا بجماعةٍ من اللصوص قد هربوا(٣)، والناسُ يعدون

---

(١) طبقات الصوفية ٣٧٠، حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٧، الرسالة القشيرية ١٠١، الأنساب ٣/ ١٢١، مناقب الأبرار ٧٠٤، صفة الصفوة ٤/ ٢٨٢، المنتظم ٦/ ٣٧٦، معجم البلدان ٢/ ٦٨، اللباب ١/ ٢٣٤، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٦٣، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ٢٥٨، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٢، الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٤٥، طبقات الأولياء ١٩٠، تحفة الأحباب ٢٤٠ وما بعدها، حسن المحاضرة ١/ ٥١٤، نفحات الأنس ٣٠٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٧، الكواكب الدرية ٢/ ٤٤، واسمه عباد بن عبد الله.

(٢) في (أ): سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة.

(٣) في (أ): اللصوص فذهبوا.

خلفهم، فالتقوا بجماعتنا الصوفية، واتَّهموهم بأنَّهم اللصوصُ، وأمسكوهم، فأنا قلت: أنا شيخُهم، وأنا اللصُّ، فاتركوهم وامسكوني. ففعلوا كما قلت، وأذهبوني إلى الوالي، وخلَّصْتُ الصوفيةَ من التهمة، وقطعوا يدي، ثم قالوا: من أنت؟ قلت: أنا فلان. فتأسَّفَ الأميرُ، واحترقَ فؤاده عن فعلته، قلت: لا بأس؛ فإنَّ يدي هذه قد خانت، واستحقَّتِ القطع. قالوا: كيف؟ قلت: مسَّها شيءٌ هي كانت أطهرَ منه، وهو الدينار، وهي مسَّتْ شيئًا هو أطهرُ منها، وهو المصحف.

نقل أنه جاء إلى بيته، وقد قُطعت يده، فصاح أهلُه وعياله لذلك[1]، فقال الشيخ: لا تبكوا ولا تحزنوا، فليس هذا بمصيبةٍ وتعزية، بل هو تهنئةٌ لنا؛ فإنَّ الوصلةَ التي بين قلبي ومحبَّتِهم لو قُطعت، ووضع على قلبي كيُّ الأجنبية، ماذا كنَّا نعمل؟ فنحمدُ الله تعالى ونشكرُهُ على قطعِ اليد مكانَ قطع الوصلة.

ونقل بعضهم: أنَّ الأكَلَةَ وقعتْ في يده، وأشارَ إليه الأطباءُ بقطع تلك اليد، ولم يرضَ بذلك، حتى أنه دخلَ في الصلاة، فقطعوا يدَهُ، وما أحسَّ بالقطع، فلمَّا فرغ من أدائها رأى اليدَ مقطوعةً.

ومن كلامه رحمه الله أنه قال: القلب لا يصفو إلاّ بتصحيحِ النيَّةِ، والجسدُ إلاّ بخدمة الأولياء.

وقال: القلبُ منزلُ الأشياء المتضادَّةِ، فإنْ كان منزلاً للإيمان[2] فعلامتُهُ الشفقةُ على جميع المسلمين، وإعانتهم في أشغالهم التي فيها صلاحُ أحوالهم، وإنْ كان منزلاً للنفاق فعلامتُهُ الحقدُ والغلُّ والغشُّ والحسد.

وقال: الدعوى رعونةٌ لا يطيقُ القلبُ حملها.

وقال: ما بلغَ أحدٌ إلى حالةٍ شريفةٍ إلاّ بملازمة الموافقةِ والمواظبة على الأدب، وأداءِ الفرائض، وصحبةِ الصالحين.

---

(١) كلمة (وعياله) ليست في (ب).
(٢) في(أ): فإن كان منزلاً للصلاح.

نسأل اللهَ تعالى أن يفيضَ علينا وعليه زُلالَ كرمه ورضوانه، ويمنَّ علينا وعليه بلطفِهِ وإحسانه، ويُدرجَنا برحمته في زمرة الصالحين، ويغفرَ لنا خطايانا يومَ الدين، ويحشرَنا مع آبائنا وأمَّهاتنا مع الصادقين والشهداء والصالحين، وصلّى الله على سيِّدنا محمّدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *



(٧٠) أبو حمزة الخراساني[١]

ذكر الشيخ أبي حمزة الخراساني[٢] قدّس اللهُ روحه ونور ضريحه:

كان رحمه الله من جملةِ المشايخ، ومن أكابرِ الطريقة، رفيعَ القدر، عالي الهمّة، وفي الفِراسة عديمَ النظير، وفي التوكُّل مُساميًا إلى الغاية، وفي التجريدِ مُجتهدًا.

وله رياضاتٌ وكرامات كثيرةٌ، ومناقبُ عزيزة، وخلواتٌ جيدة.

لقي الجُنيد، وأبا تُراب النَّخشبي رحمهم الله.

نقل أنه رحمه الله دخل نوبةً في البادية على التوكّلِ، والتزم أن لا يقبلَ من أحدٍ شيئًا، ولا يطلبَ ولا يلتفتَ إلى أحدٍ، وكان معه شيءٌ من الدراهم، فوقع في باله: أنَّ الله الذي رفعَ السماء بلا عمدٍ، قادرٌ أن يحفظَكَ ويُمسكَ معدتَكَ وقوّتَكَ بلا هذه الدراهم. فأخرجها ورماها، فبينا هو يمشيء إذ وقعَ في بئرٍ، قال: فنازعتني نفسي أن أستغيثَ، فقلتُ: لا والله، لا أستغيثُ، فما استممتُ[٣] هذا الخاطرَ إذ مرَّ برأسِ البئر رجلان، قال أحدُهما للآخر: تعالَ

(١) طبقات الصوفية ٢٩٥، ٣٢٦، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٠، تاريخ بغداد ١/ ٣٩٠، الرسالة القشيرية ٩٦، طبقات الحنابلة ١/ ٢٦٨، مناقب الأبرار ٦٢٦، صفة الصفوة ١/ ٢٦، ٢٧، ٢٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢٩٠، مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٣٤٩، و٢٨/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦٥، الوافي بالوفيات ١/ ٣٤٤، طبقات الأولياء ١٥٠، ١٥٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٤٦، نفحات الأنس ١٠٧، طبقات الشعراني ١/ ٩٩، و١٠٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٥٠، ١/ ٦٩٧: (محمد بن إبراهيم)، و ٤/ ١٢٧، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٧٠، وانظر ترجمة أبي حمزة البغدادي التي ستأتي برقم (٧٩)، ففيها أخبار مشتركة مع ترجمتنا هذه.

(٢) في (أ): أبي حمزة الخرماني.

(٣) كذا في الأصلين.

نسدَّ رأسَ هذا البئر؛ لئلا يقعَ فيها شخصٌ. فأتوا بقصبٍ وباريةٍ، وطمُّوا رأسَ البئر، فهممتُ أن أصيحَ، فقلتُ في نفسي: إلى من تستغيث؟ وهو ـ أي الحقُّ ـ أقربُ من كلِّ شيءٍ. وسكنتُ، فبينا أنا في البئر إذ جاءَ شيءٌ، وكشفَ عن رأسِ البئر، وأدلَى رجلَه، فكأنَّهُ يقول: تعلَّقْ بي. في همهمةٍ له كنتُ أعرَفُ ذلك منه، فتعلَّقْتُ برجله، فأخرجني، فإذا هو سَبُعٌ، فمرَّ، وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة، أليس هذا أحسنَ؟ نجّيناك من التلفِ بالتلف[١]، فمشيتُ وأقول[٢]:

نهاني حيائي منك أَنْ أكتمَ الهوى[٣] ... فأَغنيتني بالفهمِ منكَ عن الكشفِ
تلطَّفْتَ في أَمري فأَبديت شاهدي ... إلى غائبي[٤] واللُّطفُ يُدرك باللُّطف
أراكَ وبي من هيبتي منك وحشةٌ ... فتُؤنسني باللُّطفِ منك وبالعَطْفِ
وتُحيي مُحبًّا أنتَ في الحُبِّ حتفُهُ ... وذا عجبٌ كونُ الحياةِ مع الحتفِ

نقل عن الجُنيد رحمه الله أنه قال: رأيتُ إبليسَ عليه اللعنة عُريانًا، وهو ينظرُ من رقبةِ شخصٍ إلى رقبةِ شخصٍ آخر، فقلت له: يا ملعون، ألا تستحيي من أولئك الرجال؟! قال: هم ليس رجالاً، ولكنَّ الرجال هم الذين منهم واحدٌ في الشُّونيزية؛ فإنهم قد أحرقوا كبدي. قال: فأتيتُ الشُّونيزية، فرأيت أبا حمزة في المُراقبة، فرفعَ رأسَه، وقال: كذبَ ذلك الملعون، فإنَّ أولياءَ الله هم أعزُّ من أن يطَّلعَ عليهم إبليس.

نقل أن أبا حمزة كان يكون محرمًا في تمام السنة، ولا يخرج من الإحرام في السنة إلاّ يومًا[٥].

نقل أنه قال: علامةُ الأُنس حصولُ الضجرةِ من المعاشرة مع الخلق.

وقال: الغريبُ من كانَ مُستوحشًا عن أقاربه وأصحابه.

---

(١) في (ب): بالكف من بالتلف. مكررة.

(٢) الأبيات في الرسالة القشيرية ٢٧٢ (التوكل)، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢١، مناقب الأبرار ٦٢٨.

(٣) في (أ) و(ب): نهاني جنوني أن أكتم، والمثبت من مصادر الخبر.

(٤) في (أ) و(ب): إلى غايتي.

(٥) الخبر ليس في (ب).

وقال: من استوحشَ عن نفسه استأنسَ قلبُه مع الله.

وقال: من استشعرَ الموتَ أحبَّ كلَّ شيءٍ يبقى له، ويبغضُ كلَّ شيءٍ يزولُ ويفنى.

قيل: استوصاهُ شخصٌ، فقال: تزوَّدْ كثيرًا، فإنَّ بين يديك سفرًا طويلاً.

توفِّي رحمه الله في نيسابور سنة تسعين ومائتين، ودفن في جنب الشيخ أبي حفص الحداد.

نوّرَ اللهُ مراقدهم بأنوار رضوانه، وجعلنا من الفائزين برحمته ولطفه وإحسانه، بمنّهِ وكرمه وامتنانه، وصلّى الله على سيدنا محمّدٍ وآله وصحبه أجمعين.





(٧١) أحمد بن مسروق[1]

ذكر الشيخ أحمد بن مسروق رحمه الله رحمة واسعة:

كان روّح الله روحه من كبار المشايخ في خراسان، وكان يُصاحبُ القطبَ، سُئل عن القطب، فما صرَّحَ باسمه، ولكن لوّحَ بأنه الجُنيد.

وهو لقي بأربعين من أهل التمكين، واستفادَ منهم.

وكان في العلم الظاهر والباطن كاملاً، وفي المُجاهدة والتقوى راسخًا.

وصحب المُحاسبيَّ، والسريَّ رحمهما الله.

ومات في سنة تسعٍ وتسعين ومئتين رحمه الله.

نقل أنّه جاءَ إليه شيخٌ ذو هيئةٍ حسنة، ويُحدِّثُ بأحاديثَ عجيبةٍ، ويقول: ما سنحَ لكم من الخواطرِ اذكروه لي، لأُفسِّرَه لكم. فقال أحمد بن مسروق: ظننتُ أنّه يهوديٌّ، وخبَّرتُ هذا للجريري أيضًا، فما وافقني فيه، فقلتُ لذلك الشيخ: إنَّك تُريد أن نذكرَ لك كلَّ خاطرٍ يخطرُ ببالنا، والحالُ أنّه يخطرُ ببالي أنَّكَ رجلٌ يهوديٌّ. فأطرقَ ساعةً، ثم رفعَ رأسَه، وصدّقني، وآمن، ثم قال: جرَّبْتُ أهلَ الملل والمذاهب، وعلمتُ أنّهم على الباطل إلاّ المسلمين، فإن الحقَّ ما هم عليه.

---

(١) طبقات الصوفية ٢٣٧، حلية الأولياء ١٠/ ٢١٣، تاريخ بغداد ٥/ ١٠٠، الرسالة القشيرية ٨٦، مناقب الأبرار ٤٩٧، صفة الصفوة ٤/ ١٢٨، المنتظم ٦/ ٩٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٤٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٩٤، ميزان الاعتدال ١/ ١٥٠، العبر ٢/ ١١٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٣١، طبقات الأولياء ٨٩، لسان الميزان ١/ ٢٩٢، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٧، نفحات الأنس ١٣٦، طبقات الشعراني ١/ ٩٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٢٨، شذرات الذهب ٢/ ٢٢٧، هدية العارفين ١/ ٥٥، ٦٥.

ومن كلام أحمد أنه قال: من سُرَّ بغير الحقِّ، فمسرَّتُهُ عين الحزن، ومن لم يستأنسْ بالحقِّ، فأُنسه بغيرِهِ وحشةٌ، ومن كان قلبُهُ مُوافقًا مع الله عصمه اللهُ تعالى في حركات جوارحه.

وقال: من اتَّقى هانَ عليه الإعراضُ عن الدنيا.

وقال: التقيُّ من لا ينظرُ بمؤق العين[1] أيضًا إلى لذّاتِ الدنيا، ولا يتفكّرُ فيها بالقلب[2].

وقال: احترامُ المؤمن احترامٌ لله تعالى، والعبدُ باحترامِ المؤمن يبلغُ درجةَ التقوى.

وقال: النظرُ في الباطل يزيلُ المعرفةَ عن القلب.

وقال: من أدَّبَهُ الله تعالى، لن يَغلبَهُ أحدٌ أبدًا.

وقال: اعلمْ على الدنيا بعلامة الوحشة، لئلا يَستأنسَ بها المُطيعون لله؛ بل يستأنسون بالله.

وقال: ينبغي أن يكونَ الخوفُ غالبًا على الرجاء، فإنَّ اللهَ خلقَ الجنَّةَ والنار، ولا يُمكنُ الوصولُ إلى الجنة إلاّ بعد العبورِ عن النار.

وقال: أخوفُ ما يُخافُ على العارف إنّما هو القربُ إلى الله تعالى.

أقول: معناه أن التنزُّلَ يكون على قدرِ الترقِّي، والشيءُ يتحوَّلُ من وصفٍ إلى نقيضِ ذلك الوصف، ولا شكَّ أنَّ القربَ من الله تعالى هو من أعلى المراتب، فإذا وقعَ منه تنزُّلٌ ينتهي الشخصُ بذلك التنزُّلِ إلى أسفل المراتب وأدناها، وذلك كمن وقعَ من حائطٍ علوُّه مئةُ ذراع، وآخر وقعَ من حائطٍ علوُّه عِشر ذراعٍ مثلاً[3]، ولا خفاءَ في أن ضررَ الأول على أضعافِ الثاني، ويُشير إلى

---

(١) مؤق العين: طرفها مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع منها. وقيل هو المأق، والمؤخر المؤق. معجم متن اللغة (مأق).

(٢) في (ب): ولا يتمكّر فيها بالقلب.

(٣) في (ب): علوه عِشره مثلاً.

هذا المعنى قوله ﷺ: «المُخلصون على خطرٍ عظيم(١)» فثبتَ أنَّ القربَ من الله أخوفُ كلِّ شيءٍ، لأن التنزُّلَ منه ـ والعياذُ بالله ـ يكونُ إلى أدنى ما يُتصوّر. والله أعلم.

وقال: شجرةُ المعرفة إنّما يسقيها ماءُ الفكر، وشجرةُ الغفلة يسقيها ماءُ الجهل، وشجرةُ التوبة يسقيها ماءُ الندامة، وشجرةُ المحبة يسقها ماءُ الموافقة.

وقال: من طمعَ في المعرفة، ولم يترسَّخْ في درجةِ الإنابة، فهو بَعْدُ على بساطِ الجهل، ومن طلبه قبلَ أن يصحَّ له مقامُ التوبة، فهو بَعْدُ في ميدان الغفلة.

وقال: الزاهدُ من لا يتسلَّطُ عليه سوى الله تعالى.

فنسألُ اللهَ تعالى أن يُمطرَ عليه من سحائبِ رأفته أمطارَ اللُّطف والكرم، ويرزقَنا معرفتَهُ، ولا يقطعَ عنّا موهبته، ولا يحرمنا رحمته، وأن يُصلّي على أسوة الخلقِ(٢) محمد وآله وصحبه وعترته الطاهرين أجمعين.



* * *

(١) جاء في كشف الخفا ٢/ ٤٣٣ (٢٧٩٦) قوله:

«الناس كلُّهم مَوْتَى إلاّ العالِمون، والعالِمون كلُّهم هَلْكَىَ إلاّ العاملون، والعاملون كلُّهم غَرْقَى إلاّ المخلصون، والمخلصون على خَطَرٍ عظيم». وبعضهم يَرويه: «هَلْكَىَ في الكل»، وبعضهم يَرويه: «مَوْتَى في الكل».

قال الصغاني: وهذا حديثٌ مفترى ملحون، والصوابُ في الإعراب: (العالمين، والعاملين، والمخلصين) انتهى. وأقول فيه: إن السيوطي نقل في النكت عن أبي حيان أنَّ الإبدال في الاستثناء الموجَب لغةٌ لبعض العرب، وخرّجَ عليها قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٤٩] انتهى، وعليه فالعالمون وما بعده بدلٌ مّما قبله.

(٢) في (أ): على أسعد الخلق.

(٧٢) أبو عبد الله المغربي(١)

ذكر الشيخ [أبي] عبد الله المغربي قدّس الله سرّه: .

كان رحمه الله أستاذَ المشايخ، ومن قُدمائهم وأصفيائهم، وعليه اعتمادُهم.

وله شرفٌ(٢) كبير فيما بينهم، وفي التوكّل والتجريد ظاهرًا وباطنًا ذو أقدامٍ راسخة(٣).

وله كلماتٌ عالية، وعمرُه بلغَ إلى مئةٍ وعشرين سنة، وأحوالُه عجيبة.

نقل أنّه لم يأكلْ شيئًا ممّا يزرعه الآدميون، بل كان يقنعُ بأصول العلق وعروقِ الحشيش.

وكان دائم السفر، ومعه جماعةٌ من الأصحاب، وكان يكون مُحرمًا في أكثر الأوقات حتى إذا خرجَ من الإحرام يحرم عقيبه ثانيًا وهكذا.

ولم يتوسَّخْ ثوبُه قطُّ، ولا احتاجَ في شعور رأسه ولحيته إلى تسريح.

ونقل أنه قال: رأيتُ بالبادية غلامًا غضًّا نضرًا بلا زادٍ ولا راحلة، قلت: يا حرُّ، إلى أين بغيرِ زادٍ ولا راحلة؟ قال: انظرْ إلى جانب اليمين واليسار، هل تراهما خاليين عن رحمةٍ؟ وكذلك سائر الجهات.

---

(١) هو محمد بن إسماعيل المغربي، ترجمته في:
طبقات الصوفية ٢٤٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٥، الرسالة القشيرية ١/ ١٤١، صفة الصفوة ٤/ ٣٣٦، المنتظم ٦/ ١١٣، طبقات الأولياء ٤٠٢، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٨، طبقات الشعراني ١/ ٩٠، طبقات المناوي ١/ ٧١٠، ٤/ ١٥٢، جامع كرامات الأولياء ١/ ١٠١.

(٢) في (أ): وله شوق كثير.

(٣) في (ب): وباطنًا، وأقدام راسخة.

أقول: كأنَّه قصدَ ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وإذا كان كذلك فلا يحتاجُ إلى زادٍ ولا راحلة[١]؛ لأنَّ اللهَ تعالى ليس بغافلٍ عنه طرفةَ عينٍ، ولا أقلّ من ذلك. والله أعلم.

نقل أنه كان له أربعةُ أبناء، فسلَّمَ كلاً إلى مُعلّمٍ يُعلّمه حرفةً، فقالوا له في ذلك؛ بل عيَّروه، فقال: مقصودي أن يتعلَّمَ كلٌّ منهم صنعةً بها وجهُ معاشٍ له، حتى لا يأكلوا أكبادَ الناس بعدي بسببي، بل يأكلون من أكسابهم.

نقل أنه قال: خيرُ الأعمال عمارةُ الأوقاتِ بالمُراقبات.

وقال: من ادَّعى العبوديةَ، وبقي له مُرادٌ فهو من الكذّابين، فعلى هذا لا يصحُّ دعوى العبوديةِ إلاّ ممّن فنيَ وخرج عن جميع المُرادات، وبقيت له مُراداتُ الله تعالى، ويكونُ اسمُه ما سمّاه به ربُّه، ورفعتُه بما يدعو به، وهو يُجيبُ عن مقامِ العبودية، لا يكونُ له في ذاته[٢] اسمٌ ولا رسم.

وقال: أحقرُ الناس فقيرٌ يُداهن الأغنياء، ويتواضعُ مع الأغنياء وللعظماء[٣].

وقال: الفقيرُ الراضي أمينُ الله تعالى في الأرض، وحجّةُ الله على الخلق، واللهُ يرفعُ البلاء عنهم ببركته.

وقال: ما رأيت شيئًا أنصفَ من الدنيا، إن خدمتَها خدمتك، وإن أعرضْتَ عنها تُعرضُ عنك.

نقل أنه رحمه الله تُوفّي بطور سيناء سنة تسعٍ وتسعين ومئتين[٤]. ودفن هناك.

رضي الله عنه وعن جميعِ المشايخ، وحفظنا ووقانا ممّا يضرُّنا في ديننا

---

(١) في (أ): فلا يحتاج إلى شيء، لأن.
(٢) في (أ): يدعو به، وهو في ذاته.
(٣) في (ب): يداهن مع الأغنياء، ويتواضع للعظماء.
(٤) في (أ): وتسعين وثلاث مئة، وفي (ب): وتسعين وثمان مئة، والمثبت من مصادر ترجمته.

ودنيانا، ونسألُه أن يجعلَ بفضله وكرمه أُخرانا خيرًا لنا من أُولانا، وأن يجمعَ بيننا وبين أحبَّتنا في دار النعيم، إنه رؤوف رحيم، غفّار كريم، وصلّى الله على سيِّدنا محمدٍ، وآله[١] الطيبين الطاهرين أجمعين[٢].

* * *

(١) في (أ): وآله أجمعين.

(٢) هنا تنتهي مخطوطة نسخة (أ). وجاء فيها:

وقع الفراغُ من نسخه يوم الأربعاء، في يوم السابع والعشرين من شهر الله المبارك رمضان، وقتَ الضُّحى، في يد أضعفِ العباد وأحقرِهم حاجي محمد بن حاجي عبد الله السلوني[١] لنامراد، المذنب الخاطىء، المحتاج إلى رحمةِ ورضوان الملك الجواد، الذي كان متحيِّرًا في أمره وشغله، ومستحيًا من الله إلى يوم التناد، نسأل الله أن يخلِّصنا من التحيّر، ويرزقَنا الوصولَ إلى المقصود قبل يوم المعاد، بحرمة محمد سيد السادات في سنة ٩٩٥[٢] من الهجرة النبوية، عليه أفضلُ الصلاة والسلام.

اللهم اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا ربَّ العالمين.

نطلب من الذين يطالعون فيه، وينظرون إليه أن يدعون[٣] لمصنِّفِهِ ولكاتبه، ولنُصْرة الإسلام، ولإظهار وإبقاء شريعة محمد المصطفى ﷺ إلى آخر الزمان. آمين يا رب العالمين.

وكان وقت بداية هذه الكتاب أمير الجزيرة محمد بن خان عبد الله وفي آخره أمير عزير[٤].

(١) كذا، ولعلّها: السلوبي.

(٢) في الهامش: في سنة تسع مئة وتسعين وخمسة.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) كتب على الهامش: ليس بصادق في دعواه، من اشتغل بغير مولاه. ليس بصادق في دعواه، من لم يستأنس بمحبّة مولاه. ليس بصادق في دعواه، من لم ينسَ الكلَّ في مشاهدته.

(٧٣) أبو عبد الله التروغبذي(١)

ذكر الشيخ [أبي] عبد الله التُّرُوْغَبْذي رحمه الله:

كان قدّس الله سرّه وحيدًا في عصره، فريدًا في دهره، وهو من أجلّ مشايخ طوس، وكان في الورعِ والتجريد والتقوى كاملاً، وله كراماتٌ ورياضات عالية.

وأدركَ صُحبةَ أبي عثمان الحيري.

وكان ابتداءُ حاله أنّه وقعَ في طوس قحطٌ عظيم، حتى أكلوا الجيفَ، وهو دخلَ بيتَهُ يومًا، ورأى فيه رطلين من الحنطة، فالتهبَ لذلك فؤادُهُ، ووقع في نفسه: أنَّ المُسلمين في ضيقٍ حتى يأكلوا الجيف، ولكَ في البيت هذا القدرُ من الطعام مُدّخرًا! فخرج، وتوجّه إلى الصحراء هائمًا، واشتغلَ بالمجاهدة والرياضة.

نقل أنه كان في منزله مع بعض أصحابه مَشغولاً بالأكل، إذ جاءَ إليه شخصٌ من جانب كشمير ضيفًا، ومعه كلبٌ أسود يجرّهُ بحبلٍ في رقبته، فأمرَ أصحابَه باستقباله، فطلعوا إليه، ولمّا دخل قامَ له الشيخ [أبو] عبد الله إكرامًا للضيف، وأجلسَه في مكانه، فجلسَ وأجلسَ الكلبَ في جنبه، وأكلَ وأطعم الكلب، ثم قامَ وخرجَ، وأصحابُ الشيخ قد أضمروا الإنكارَ عليه، ولمّا غابَ هو عن المجلس أظهروا الاعتراض، وقالوا: يا شيخ، لمَ أمرتنا بالاستقبال له،

---

(١) اسمه محمد بن محمد، وترجمته في: طبقات الصوفية ٤٩٤، المنتظم ٧/ ٢٢، مناقب الأبرار ٨٦٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٣٦، طبقات الأولياء ٢٤٢، نفحات الأنس ٣٨٣، طبقات الشعراني ١/ ١٢٤، الكواكب الدرية ٢/ ١٥٠. والتروغبذي نسبة إلى تروغبذ وهي قرية من قرى طوس.

وأكرمتَه بالقيام له، وعظّمته بأن أجَلستَهُ في مكانك، والكلب معه؟ قال الشيخ: نِعْمَ ما قلتم، ولكن فرقٌ كبيرٌ بيننا وبينه، أما إنّه يجرُّ الكلبَ، والكلبُ يتبعُه، ولكلٍّ منّا كلبٌ نحن نتبعُهُ، فما تقولون بين من يتبعُهُ الكلبُ، ومن هو يتبعُ الكلب؟ نعم، فمن كلبُهُ ظاهرٌ يُمكنُ الاحترازُ عنه، بخلاف كلبنا، فإنّه خفيٌّ، ولا يُمكنُ الاحترازُ عنه.

أقول: ويمكن أيضًا تطهيرُ ما يُنجّسُه كلبُه باستعمال الماء، وما ينجّسُهُ كلبُنا لا يمكن تطهيرُه بالماء الطاهر الظاهر. وكلبُه يقصدُ العدوَّ ويؤذيه، وكلبُنا لا يُؤذي إلاّ الصديق. وكلبه يقنع بأدنى شيءٍ وأخسّه ليتغذّى به، وكلبُنا لا يقنعُ إلاّ بأعزِّ الأشياء لنا. وكلبُه كلّما نهرته ينزجر ويمتنع، وكلبُنا لا يَمتنعُ بالزجر؛ بل كلّما تزجرُهُ يَزدادُ حرصُه في الإفساد. وكلبُه إذا صالحَ معه ينصلحُ، ويتركُ الشرَّ، وكلبُنا إذا صالحنا معه يزدادُ شرُّه وغيُّه. وكلبُه خارجٌ، وكلبُنا داخلٌ. وكلبُه ليس من أتباع الشيطان، وكلبُنا هو من أتباعه. وكلبُه إذا شبعَ يطمئنُّ، وكلبُنا إذا شبعَ يزدادُ قلقُهُ واضطرابُه؛ بل كلبُنا كلّما شبعَ يزدادُ جوعُهُ. وكلبُه إذا صاحبَ الإنسانَ مدّةً يستأنسُ به، وكلبُنا لا يستأنسُ بنا طول عمرنا. والله أعلم.

ومن كلامه ما نقل أنه قال: إنَّ الله تعالى أعطى كلَّ عبدٍ من العباد قدرًا من المعرفة يَقوى على احتمالِ البلاء.

وقال: من ضيّعَ حكمًا من أحكامِ الله تعالى في أيام شبابه يحقرُهُ الله تعالى في شيخوخته، ومن خدمَ واحدًا من رجال الله تعالى مرّةً في عمره، تصلُ إليه بركتُه في جميع عمره، فكيف حال من يخدمهم في جميع أيام عمره؟.

وقال: لا لذّةَ في أُنس الإخوانِ بعضِهم مع بعضٍ مع مرارة وحشةِ الفراق.

وقال: [طوبى] لمن لا يكون له وسيلة إلى الله تعالى إلاّ الله عزّ وجل(١).

---

(١) طبقات الصوفية ٤٩٤، مناقب الأبرار ٨٦٨، وما بين معقوفين مستدرك منهما.

وقال: من تركَ الدنيا لأجلِ الدنيا، فذلك علامةٌ على حبِّه لجميعِ الدنيا.

رحمه الله وأحسنَ إليه، ونسألُهُ أن يغفرَ لنا، ويرحمَنا، ويتوبَ علينا ببركة أوليائه، إنّه غفورٌ رحيم، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله الطيِّبين الطاهرين أجمعين.

* * *



(٧٤) أبو علي الجرجاني[١]

ذكر الشيخ أبي علي الجُرجاني رحمه الله:

كان رحمه الله من كبار المشايخ، ومن فتيان الطريقة، كاملاً في المجاهدة.

وله تصانيفُ مشهورة مقبولةٌ مُعتبرة في علم المعاملة ـ أي السلوك.

وكان من تلاميذ الشيخ محمد بنِ علي الحكيم الترمذي الذي مرَّ ذكره[٢].

نقل من كلامه: إنّ مستقرَ أكثر الخلق ميدانُ الغفلة، واعتمادهم على الخلق، وفي زعمهم أنّهم وصلوا إلى الحقيقة والمكاشفة، واطّلعوا على الأسرار[٣].

وقال: ثلاثة[٤] من عقد أهل التوحيد: الخوفُ، والرجاءُ، والمحبة.

وقال: يزدادُ الخوف من ترك المعصية بسبب رؤية الوعيد، ويزدادُ الرضا في العمل الصالح بسبب شهوة المنّة.

وقال: الخائفُ لا يستريح إلاّ عند طربِهِ بذكرِ المحبوب.

وقال: الخوفُ نارٌ منوّرة، والرجاءُ نورٌ منوّر، والمحبّةُ نورُ الأنوار.

---

(١) هو الحسن بن علي الجوزجاني، أبو علي. ترجمته في:
طبقات الصوفية ٢٤٦، حلية الأولياء ١٠/٣٥٠، مناقب الأبرار ٤٤٩، المختار من مناقب الأخيار ٢/٢٠٢، طبقات الأولياء ٣٣٣، طبقات الشعراني ١/٩٠، الكواكب الدرية ٢/٨٢.

(٢) انظر الصفحة ٦٢١.

(٣) كذا في الأصل، والخبر في طبقات الصوفية ٢٤٨، ومناقب الأبرار ٤٥١ هو: الخلق كلُّهم في ميادين الغفلة يركضون، وعلى الظُّنونِ يعتمدون، وعندهم أنهم في الحقيقة يقلّبون، وعن المُكاشفة ينطقون.

(٤) في الأصل: ثلثي.

وقال: من علامةِ سعادة المرءِ تيسُّرُ أداء الطاعات، وموافقةُ السُّنة، ومحبَّةُ أهلِ الصلاح، وحُسنُ الخُلق مع الإخوان، والقيامُ بأمور المسلمين، ومن علامة الشقاوةِ المُجاهرةُ بالذنوب.

وقال: الوليُّ من صار في حاله، وبمشاهدة الحقِّ باقيًا، واللهُ تبارك وتعالى قد تولّى أعمالَه، ولم يبقَ له اختيارٌ في نفسه، ولا يكون له قرارٌ مع غير الحقِّ.

قال: العارفُ من سلّم جميعَ قلبه إلى الله تعالى.

وقال: حسنُ الظنِّ بالله تعالى غايةُ المعرفة، وسوءُ الظنِّ بالنفس أَصلُ المعرفة.

وقال: من واظبَ على بابٍ لا يكون مآلُه إلاّ الدخول في البيتِ، والوصولِ لصاحب البيت.

وقال: إنّ الله تعالى يطلبُ منك الاستقامةَ، والنفسُ تطلبُ الكرامة، والحالُ أنّك لا تصلُ إلى الكرامة إلاّ بالاستقامة.

قال: البخل ثلاثة أحرف: الباء من البلاء، والخاءُ من الخُسران، واللام من اللوم. فالبخل بلاء وخسرانٌ ولوم على البخيل.

أفاضَ الله عليه شآبيبَ لطفه وإحسانه، ونجّانا من مقام البخل بجوده وكرمه، ولا يحرمنا فوائدَ جودِه ونعمه، إنه برٌّ توّاب كريم وهّاب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(٧٥) محمد بن خفيف الشيرازي[١]

ذكر الشيخ أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي رحمه الله :.

كان رحمه الله شيخَ الشيوخ، وأوحدَ وقته، وفريدَ زمانه، وفي العلوم الشرعية إمامًا مُجتهدًا يُقتدى به، وفي سائر العلوم الظاهرة ذا كمالٍ، وفي علم الطريقة وعلم الباطن كاملاً مَرجوعًا إليه لأهل الطريق.

وكان رحمه الله كبيرَ الشأن ذِا بصيرة، وله في الطريقة مذهبٌ مخصوص، وجماعةٌ من الصوفية مَنسوبون إليه.

وفي كلِّ أربعين يومًا كان يُصنِّفُ تصنيفًا في كشف غوامض الحقائق، وله في علم الظاهر أيضًا تصانيفُ مقبولةٌ مشهورة.

وسلك في الرياضة والمجاهدة طريقًا لا تسعُهُ طاقةُ مثله، وكان له نظرٌ في الدقائق لم يكن لغيره في عهده.

وكان من أولاد الملوك، وسافر على التجريد أسفارًا كثيرة.

صحب رُويمًا، والجريري[٢]، وابن عطاء، وأدرك الجُنيد رحمهم الله تعالى.

---

(١) طبقات الصوفية ٤٦٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٥، الرسالة القشيرية ١١٢، الأنساب ٧/ ٤٥١، تبيين كذب المفتري ١٩٠، مناقب الأبرار ٨١٩، المنتظم، ٧/ ١١٢، معجم البلدان ٣/ ٣٨١، اللباب ٢/ ٢٢٢، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٦٠، طبقات فقهاء الشافعية ١/ ١٥٤، مختصر تاريخ دمشق ٢٢/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٤٢، العبر ٢/ ٣٦٠، دول الإسلام ١/ ١٧٨، الوافي بالوفيات ٣/ ٤٢، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٤٩، طبقات الإسنوي ١/ ٤٧٦، البداية والنهاية ١١/ ٢٩٩، طبقات الأولياء ٢٩٠، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤١، نفحات الأنس ٣٤٥، طبقات الشعراني ١/ ١٢٠، الكواكب الدرية ٢/ ١٤٠، شذرات الذهب ٣/ ٧٦، كشف الظنون ١٤٤٧، هدية العارفين ٢/ ٤٦.

(٢) في (ب): والجرير.

نقل عن أبي عبد الله الصوفي رحمه الله أنه قال: سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول: رُبّما كنتُ أقرأُ في ابتداء أمري في ركعة واحدة القرآن كلَّه، ورُبّما كنت أُصلّي من الغداة إلى العصر ألفَ ركعة، وقد لبس عشرين سنة بلاسًا[١]، وكان له في كل سنة أربع أربعينات[٢]، واليوم الذي مات فيه قد تمَّتْ له أَربعون أربعين مُتواترة، ومات رحمه الله في آخر الأَربعين الأُخر سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة.

نقل أنه رحمه الله كان يفطرُ كلَّ ليلةٍ على سبعِ زبيبات، فناوله خادمه ليلةً ثمانيةً شفقةً عليه، فما أحسَّ الشيخُ رحمه الله بالزائد، فأكلَ الثمانيةَ، فلم يجدْ في تلك الليلة حلاوةَ الطاعة على عادته، فدعا الخادمَ وسأله، فقال: أعطيتُكَ البارحةَ زبيبةً زائدة على عادتك المعهودة. فلامه الشيخُ على فعله، فاعتذرَ الخادم إليه، وقال: لأنّي رأيتُكَ ضعيفًا، وتألَّمَ قلبي عليك، فأردتُ أن تحصل لك قوةٌ ما. قال الشيخ: لم تكنْ إذن ناصحي؛ بل خصمي وعدوّي، إذ لو كنتَ صديقي وناصحي لأعطيتني ستًّا بدل السبع. ثم طرده من عنده، وهجره، ونصب مكانه خادمًا آخر.

نقل أنه عاش طويلاً، وحصل له مدّةَ أربعين سنةً قبولٌ عظيم بين الخواصِّ والعوامِّ، وانفتح عليه أبوابُ الرزق، وما حوى مبلغًا تجب عليه الزكاة.

نقل أنه قال: وصلتُ بغداد في سفري للحج، وما زرت الجُنيد رحمه الله، ثم دخلتُ البادية، ومعي دلوٌ وحبلٌ، فوصلت في اجتيازي إلى بئرٍ، ورأيتُ غزالاً يشربُ الماء من رأس البئر، فلمّا انتهيتُ إليها، ما رأيتُ الماءَ إلاّ غائرًا فيها، فقلتُ: إلهي، ليس لابن الخفيف عندك مقدارُ غزالٍ؟ فإنَّ الماءَ يفورُ له إلى رأسِ البئر، ويغورُ لي! فسمعتُ صوتًا: أمّا الغزالُ فلم يكن له دلوٌ ولا حبل، وأنت فقد اعتمدتَ عليهما. فطاب وقتي، وقد طرحتُ الدَّلوَ والحبل، ومضيتُ. فسمعتُ نوبةً أخرى: يا أبا عبد الله، إنّا جرّبناك في صبرك، فعدْ واشربْ. فعدتُ والماءُ قد ارتفعَ حتى وصلَ إلى رأس البئر، فشربتُ

---

(١) انظر الحاشية (٣) صفحة ٦٠٠.

(٢) أي أربع خلوات، كل خلوة مدتها أربعون يومًا.

وتوضَّأتُ ومضيت، ولم أحتجْ إلى الماء إلى مدينة الرسول ﷺ، ثم لمّا رجعتُ ووصلتُ بغداد، وكان يوم الجمعة، ودخلتُ الجامع، رآني الجُنيد رحمه الله، وقال: لو اصطبرتَ لكنتَ تشربُ الماء من تحت قدميك.

قال: سمعتُ أنَّ شيخًا وشابًا قد اشتغلا بالمُراقبة[١] بمصر، فقصدتُهما، ودخلت مصرَ[٢]، وأتيتهما، فوجدتُهما قاعدَيْنِ مستقبلَيْنِ القبلة. فسلّمتُ عليهما ثلاث مرات، ولم يلتفتوا إليَّ، فقلت: أُقسمُ عليكما بالله أن تردّا عليَّ الجواب. فالشابُّ رفعَ رأسه، وقال: يا بن الخفيف، الدنيا قليلٌ، ولم يبقَ من هذا القليلِ إلاّ القليلُ، وليس نصيبُنا من هذا القليل إلاّ قليل، فعليك يا بن الخفيف في هذا القليل بكسبِ الكثير، ولعلَّكَ فارغٌ، فتلفت إلى السلام علينا. فقال هذا، وأدخل رأسَه في جيبه، واشتغل بالمراقبة كما كان، وقد كنت أنا عطشان جائعًا، فسبتُهما، ومكثتُ إلى أن صلّيتُ الظهر والعصرَ معهما، ثم استوصيتُهما، فقال الشابُّ أيضًا: يا بن الخفيف، نحن أصحابُ المصيبة، فأين لسانُ التكلُّم حتى نوصيك؟ فبقيتُ عندهم ثلاثة أيام، فلا أكلنا ولا طعمنا ولا نمنا، وكنت أفتكر في شيءٍ أُقسم عليهما به، لعلّهما يوصياني بوصيةٍ، فرفع الشابُّ رأسَهُ، وقال: اطلبْ صحبةَ شخصٍ رؤيتُك إيّاه تُذكّرك اللهَ عند رؤيته، ثم تقعُ هيبتُه في قلبك، وبلسان الفعل يُوصيك لا بلسان المقال. فقلت: يا عبد الله، حسبُك هذه الوصية. فرجعت وما صد عنهما[٣] بعدُ.

نقل أنه قال: كنتُ بأرض الروم، فخرجتُ إلى الصحراء يومًا، رأيتُ جماعةً من أهل الروم أتوا براهبٍ صارَ من كثرة الرياضة كالخِلال[٤]، وجمعوا حطبًا، وأحرقوا الراهب حتى صارَ رمادًا، ثم أخذوا رمادَهُ وسقوا المرضى، وكحّلوا به أعينَ العميان، فبرئوا بقدرةِ الله تعالى، وطابت الأعين، وأنا في

---

(١) في الأصل: بالمرافقة، وانظر تتمة الخبر.
(٢) كذا الأصل، والخبر في تهذيب الأسرار ١٠٤، ومناقب الأبرار ٨٢٧: فدخلت صور.
(٣) كذا في الأصل، ولعله: وما سمعت عنهما بعدُ.
(٤) الخِلال: العُود يجعل في لسان الفصيل لئلا يرضع، أو العود مطلقًا.

عجبٍ من ذلك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ تلك الليلة في المنام، فقلت: يا رسول الله، ما تصنعُ في هذه الأرض؟ قال ﷺ: ما حضرتُ هنا إلاّ لأجلك. قلت: يا رسول الله، ما هذه الحالةُ التي رأيتُها في المرضى والعميان، ومعالجتهما برماد الراهب؟ فقال النبيُّ ﷺ: إذا كانتِ الرياضةُ الباطلة تؤثِّرُ على ما رأيتَ، فما ظنُّكَ بالرياضة إن كانت على الصحّةِ والحقِّ.

وقال: رأيتُ النبيَّ ﷺ نوبةً أخرى، وقال: مَنْ سلكَ هذه الطريقةَ بلا معرفةٍ، ثم ترك السلوكَ، فالله تعالى يُعذِّبُه عذابًا لا يُعذِّبُهُ أحدًا من العالمين.

نقل أنه رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ صلّى حتى تورَّمَتْ قدماه، ثم كان يقومُ على رؤوس الأصابع ويُصلّي. ثم إن أبا عبد الله بن الخفيف أرادَ أن يتابع الرّسولَ ﷺ في جميع أفعاله التي يجوزُ المتابعةُ فيها، فقصدَ أن يقومَ قائمًا على رؤوس الأصابع[1]، فصلّى هكذا ركعةً، ولم يقدرْ على ركعةٍ أُخرى، قال: فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام أنّه دخلَ عليَّ من المحراب، وقال: يا بن الخفيف، هذه الصلاةُ مَخصوصةٌ بي، فأنتَ لا تشتغلْ بها.

ونقل أنه في أثناء الليل دعا خادمَهُ وقال: اطلبْ لي في هذه الليلةِ امرأةً أتزوَّجها. فقال الخادم: يا شيخ، ومن أين أطلبُ في ظلامِ الليل، ولكن لي بنتٌ إن ترضَ بها أزوِّجْك إيّاها. فرضي، وتزوّجَ بها في الليل، وبعد سبعة أشهر ولدتْ طفلاً ومات، فقال الشيخ: أخبر بنتَكَ أنّها مُخيَّرةٌ بين الطلاق والبقاء في نكاحي، فإنِ اختارتِ الطلاق أُطلّقُها وإلاّ فلا. قال الخادم: عرّفني يا شيخ سرَّ هذا الأمر، فإنّكَ تزوّجتَ بها بالليل، وما صبرتَ إلى النهار، والآن تقول هذا؟! قال الشيخ: لأنّي رأيتُ في تلك الليلة في المنام كأنَّ القيامةَ قد قامت، ورأيتُ خلقًا كثيرًا قد غرقوا في العرق، وهم حَيارى في هيبة الله تعالى ذلك اليوم، وبينا أنا كذلك إذ رأيتُ طفلاً أمسكَ بيد والده وجوَّزَه على الصراط، فأنا أيضًا أردتُ أن يكونَ لي طفلٌ ويموت، وقد حصلَ المقصود.

ونقل أنه بعد ذلك تزوّجَ بنساءٍ كثيرة، لأنّه كان من أولاد الملوك، ولمّا تابَ

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ٧٥٧.

وكملتْ أحوالُه كانتِ النساءُ ترغبُ فيه، ولا يزال في نكاحه مثنى وثلاث ورباع، حتى نُقل أنّه تزوّجَ بأربع مئة امرأة، وعاشت عنده امرأةٌ إلى أربعين سنة وهي كانت بنت الوزير.

نقل أنَّ بعض الناس سألَ نساء الشيخ عن حاله معهن، فقلن: ليس لنا علمٌ عن أحواله، ولكن سلوا عن بنت الوزير، فسألوا عنها، فقالت: كان الشيخُ يجيءُ إلى نوبتي، وأنا أطبخ له طعمةً لذيذة، وأزيّنُ نفسي، فإذا يدخل عليَّ يجلسُ لحظةً، وينظرُ في الطعام، وينظرُ في وجهي، ثم يستأذنُ منّي ويخرج، وهكذا زمانًا، فأمسكَ بيدي نوبةً ووضعها على بطنه، فوجدتُ من صدره إلى سرّته خمس عشرة عقدة، فقال: هل تعلمين ما هذه العقد؟ قلت: لا. قال: هذه عقدٌ انعقدت في بطني من شدّة التهاب نار الصبر عليكِ وعلى هذا الطعام. فقال هذا وقام، ولم يكن له جراةٌ أكثرَ من هذا معه.

نقل أنه كان له تلميذان، اسمُ أحدِهما أحمدُ الكبير، والآخر أحمد الصغير، وكان نظرُ الشيخ ومحبّتُه إلى الصغيرِ أكثر، والأصحابُ غاروا لأجلِ أنَّ الكبيرَ كان مُلازمًا لمجلس الشيخ مدةً أكثرَ من الصغير، وكانت له رياضاتٌ ومُجاهداتٌ، فعلم الشيخُ بغيرتهم، وأراد امتحانهم، فقال يومًا لأحمد الكبير: احملِ البعير الذي برك على خانقاه، واصعدْ به إلى السطح. فقال: يا شيخ، هل يُمكنُ ذلك مع ثقلِ البعير وضعفي. قال الشيخ: فلا إذن. ثم التفتَ إلى الصغيرِ، وأمره بحمل البعير على كتفِهِ والصعود به إلى السطح، فقام، وشدّ وسطَه بمشدٍّ، وذهبَ إلى البعير، واجتهد في حمله غاية طاقته ووسعه، فقال الشيخ: اتركْ، فإنَّ المقصودَ قد حصل. ثم قال للأصحاب البتّة: أنا أعلمُ أنَّ الإنسانَ لا يقدرُ على حمل البعير، لكنَّ الكبيرَ قد دخلَ من باب الاعتراضِ والإنكار، ولم يقبلِ الأمرَ، والصغيرُ شرعَ في الامتثال، واجتهدَ مقدارَ وسعه، وظاهرُ الحال دليلٌ على باطنه، فعُلم أنَّ التفاوتَ بين إنسانٍ وإنسان كثير.

أقول: ولذلك قيل: بحسب زيادة التفاوت ونقصانه يفضلُ بعضُ الإنسان بعضًا، حتى يُعدَّ ألفٌ بواحد؛ بل يُعدُّ أحدُهم سماءً والآخر أرضًا، قال الشاعر:

الناس أرض بكلِّ أرض وأنتَ من فوقِهم سماءُ[١]

[والله أعلم].

نقل أنّ مسافرًا نزل بالخانقاه، وعلى رأسه شملةٌ سوداء، وعليه خرقةٌ سوداء، فركع ركعتين، واطمأنَّ في مكانه، فالتفتَ الشيخُ إليه، وقال: يا أخي، لِمَ لبستَ الأسودَ على الرأس والجسد؟ قال المسافر: وذلك لأن آلهتي قد ماتَتْ، فلبستُ الأسودَ في عزائها. وكأنه أشار إلى الهوى وميول النفس، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فأمرَ الشيخُ بإخراجه بإهانةٍ وتحقير، ثم أمرَ بردِّه، وهكذا إلى أربعين مرة أخرجوه بالإهانة والتحقير، ثم طلبوه، وهو لم يتغيَّرْ قطُّ، ثم قامَ الشيخُ إليه، وقبَّل بين عينيه، واعتذرَ إليه، وقال: لبسُ الأسود سلم لك. وأعزّه وأكرمه.

نقل أن الصوفيَّيْنِ قصدا زيارة الشيخ من مكانٍ بعيد، فلمّا دخلا مدينة شيراز، قصدا منزل الشيخ، ولم يجداه هنالك، وقيل لهما: إنَّ الشيخَ ذهبَ إلى الملك يومئذٍ عضد الدولة. فحصل لهما إنكارٌ على الشيخ، وتأسُّفٌ على مقاساة الشدائد في المجيء إليه، وندامةٌ عظيمة في قصد زيارته، ولكن اتَّفقا على أن يدخلا في السوقِ لأجلِ إصلاحِ الخرقةِ التي لأحدِهما، ويسافرا من هناك بلا توقُّفٍ، فدخلا السوق، وذهبا إلى خياطٍ، والتمسا منه خياطةَ خرقِ الخرقة، ثم اتَّهمهما الخياطُ بسرقةِ مقراضٍ، وذهب بهما لباب عضدِ الدولة، وأعلمَهُ بما جرى، فعضدُ الدولة أَمَرَ بقطع أيديَهما، فاطَّلعَ الشيخُ محمد بن الخفيف رحمه الله على ذلك، وأشارَ إلى الملك بالتوقُّف، واعتذرَ عنهما إليه بأنهما بريئان عن هذه التهمة، لأن أثر الصلاح والتصوف يلوحُ عليهما، وشفَّعَهُ الملكُ فيهما، وصفحَ عنهما، ثم قالَ لهما الشيخ: إخواني، رحمكم الله، ظنُّكما فيَّ ما كان خطأً، ولكن تَقرُّبي إلى الملك، ومجيئي إليه إنَّما هو لأجلِ

---

(١) البيت للداعي بن محمد العلوي أبو البركات، انظر حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء للعبد لكاني الزوزني، ٢/ ٢٧٧، وهو في ديوان المعاني ١/ ٢٧ من غير عزو.

مثل هذا الشأن. فأمسك الصوفيان بذيله، وتابا علي يده، ولازماه إلى آخر العمر، وهذا دليلٌ على أنَّ من لم يتعلّقْ برجلٍ من الرجال، ولم يتشبَّثْ بأذيال همَّتِهِ، تُقطعُ يدُه؛ بل رأسُه.

نقل أن مسافرًا نزلَ بالشيخ، وكان مريضًا بالإسهال، والشيخُ رحمه الله هو بنفسه تولّى خدمتَهُ، وبالليل ما نامَ، ولا يغفل عنه لحظةً، وكم مرّة يجيء إليه بطاسٍ ليسهل فيه، ويصبُّه في المزبلة، حتى أنه في السحرِ غفلَ عنه لمحةً، فصاحَهُ المسافرُ المريض وقال: لعنكَ الله يا فلان، حيثُ غبتَ عنّي. فقام إليه الشيخُ مُعتذرًا، وطيّبَ خاطرَه، وقرّبَ إليه الطاسَ، فقال بعضُ الأصحاب: يا شيخ، لمَ فعلتَ هكذا؟ وهو تكلّمَ بكلامٍ قبيح، وأنت تصبرُ عليه وتخدمه! قال الشيخ: ماذا قالَ المسافر؟ قالوا: قال: لعنك الله. قال الشيخ: أنا ما سمعتُ إلاّ رحمَكَ الله.

نقل أنه قال: خلقَ اللهُ تعالى العصمةَ والكفاية والجهد، وخلقَ الملائكة، وخيَّرهم بين الثلاثة، فاختاروا العصمة.

أقول: العصمةُ كما قيل مَلَكةٌ في النفس، تمنعُ صاحبَها عن المعصية، والدليلُ على عصمة الملائكة قوله تعالى في حقِّهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وخلق الجنَّ، وخيَّرهم بين الأمور المذكورة، فأرادوا أن يختاروا العصمة، قيل لهم: إنَّ الملائكةَ سبقوكم فيها، فاختاروا الكفاية.

أقول: ولذا لا يتكلّفونَ في تحصيل معيشةٍ، ولا يتعبون، بل اللهُ يرزقُهم ما يشاء حيث يشاء، ثم خلقَ الله الإنسانَ، وخيّرهم، فطلبوا العصمةَ، فقيل: سبقتكم الملائكةُ بها، فطلبوا الكفاية، فقيل: الجنُّ سبقكم بها، فما بقي إلاّ الجهدُ في الاكتساب، فاختاروا ذلك. [والله أعلم].

قال: الصوفي من لبسَ الصوفَ على الصفا، وأذاقَ الهوى طعمَ الجفا، ونبذ الدنيا وراء القفا.

وقال: الانقطاع من الدنيا عينُ الراحة عند الخروج منها.

وقال: الرِّضا على ثلاثة أقسام: الرضا بالله، والرضا في الله، والرضا من الله فيما قضى.

أقول: معناه أن يستدلَّ بكلِّ شيءٍ على وجود صانعه، وصفات ألوهيته، كما قال الشاعر[1]:

ففي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ

[والله أعلم].

وقال: الانبساطُ هو ارتفاعُ الاحتشام، وقلّةُ السؤال.

وقال: التقوى هو التباعدُ عمَّا يُبعدُك عن الله.

وقال: الرياضةُ كسرُ النفس عن الفترةِ في الخدمة.

وقال: القناعةُ أن لا تطلبَ ما ليس في يدك.

وقال: الزهدُ هو الراحةُ بالخروج عن الملك.

وقال: الرجاءُ هو السرور بوجودِ وصله.

وقال: الفقر هو الخروجُ عن الملك وعن جميع الصفات.

وقال: اليقينُ هو التحقُّق بالأسرار بالحكم الغيبية.

قيل له: متى تصحُّ العبودية؟ قال: إذا فوَّضْتَ أمورَك إلى الله تعالى كلَّها، وصبرْتَ على البلاء.

قيل له: ما تقولُ في فقيرٍ صبر على الجوع ثلاثةَ أيامٍ، ثم خرجَ يسألُ الناس؟ قال: إنه كذّاب.

نقل عن أحمدِ الأصغر: أنه دخلَ يومًا من الأيام فقيرٌ، وقال للشيخ أبي عبد الله بن الخفيف رحمه الله: يا شيخ لي وسوسةٌ. فقال الشيخُ: عهدتُ الصوفية أنهم يَسخرون من الشيطان، والآن يسخرُ الشيطانُ منهم.

---

(١) انظر الحاشية (٣) صفحة ٤٧٢.

أقول: ونُقل عن أبي العباس الكرخي رحمه الله أنه قال: سمعتُ أبا عبد الله بن الخفيف رحمه الله يقول: ضعفتُ عن القيام في النوافل، فجعلتُ بدلَ كلِّ ركعةٍ من أورادي ركعتين قاعدًا، لِمَا رُوي في الخبر: «صلاةُ القاعد على النصفِ من صلاة القائم[1]». [والله أعلم].

نقل أنه حين حضرته الوفاةُ وصّى إلى خادم له، وقال: أنا عبدٌ عاصٍ آبقٌ من سيِّدِهِ، فإذا متُّ فاجعلوا غُلاً في عنقي، وسلسلةً في رجلي، واستقبلوني إلى القبلة؛ لعلّ الله تعالى يَعفو عنّي. فأراد الخادمُ بعد وفاة الشيخ أن يمتثلَ بأمره، وينفّذَ وصيته، فسمع هاتفًا يقول: لا تعملْ كذا، تقصدُ أن تُذلَّ من أعززناه.

رحمه اللهُ وأسكنه بحبوحةَ جنّاته، وصَبَّ عليه من زُلالِ كرمه ولطفه وإحسانه، ونتضرَّعُ إليه ونسألُهُ أن ينظرَ إلينا بنظرِ لُطفه وعنايته، ولا يحرمنا عن حفظِهِ وحمايته، ويُثبّتنا على الصراط المستقيم والدرب القويم، وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآله أجمعين.



* * *

(١) حديث رواه مسلم (٧٣٥) في صلاة المسافرين، باب جواز النافلة، والموطأ ١/ ١٣٦ في صلاة الجماعة، باب فضل صلاة القائم، وأبو داود (٩٥٠) في الصلاة، باب في صلاة القاعد، والنسائي ٣/ ٢٢٣، في قيام الليل، باب فضل صلاة القائم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٧٦) أحمد الجَريري(١)

ذكر الشيخ أبي محمد أحمد بن محمد الجَريري قدّس الله سرّه:

كان رحمه الله وحيدَ وقته، وحميدَ زمانه بين أقرانه، واقفًا على دقائق الطريقة، كاملاً في الآداب وأنواع الفنون من العلوم، مُفتيًا في الفقه وإمامًا فيه وفي علم الأصول، أستاذًا في علم الطريقة.

نُقل عن الجُنيد أنه قال لأصحابه: إنَّ أبا محمد الجريري هو خليفتي من بعدي. لأنه كان من أكثر أصحاب الجنيد.

وصحب سهلَ بن عبد الله التُّستري، وأُقعد بعد الجُنيد في مكانه، ومات سنة إحدى عشرة وثلاث مئة.

أقول: ونقل عن أبي عبد الله الشيرازي أنه قال: سمعتُ أحمد بن عطاء الرُّوذباري رحمهم الله يقول: ماتَ الجَريري رحمه الله، فجزتُ إليه بعد سنةٍ، فإذا هو مُستندٌ جالسٌ، وركبتُهُ إلى صدره، وهو مُشيرٌ إلى الله تعالى بأُصبعه. [والله أعلم].

نقل عن الجَريري رحمه الله أنه كان ذا أَدبٍ مع الله تعالى، حتى أنّه لم يَمدَّ رجلَه في الخلوة عشرين سنة، ويقول: حسنُ الأدب مع الله تعالى أَوْلى.

ونقل أنه رحمه الله أقام بمكّة سنةً، فما نامَ، ولا تكلَّمَ، ولا مدَّ رجله. قال

(١) طبقات الصوفية ٢٥٩، حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٧، تاريخ بغداد ٤/ ٤٣٠، الرسالة القشيرية ٨٨، مناقب الأبرار ٥٠٨، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٧، المنتظم ٦/ ١٧٤، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٢٠، الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤٥، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٦٧، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٨، البداية والنهاية ١١/ ١٤٨، طبقات الأولياء ٧١، نفحات الأنس ٢٠٩، طبقات الشعراني ١/ ٩٤، الكواكب الدرية ٢/ ٢٣.

له أبو بكر الكتاني: كيف أطقتَ على ما فعلت؟ قال الجَريري رحمه الله: صدقُ الباطن وافقني حتى حصلتْ لي قوّةٌ في الظاهر.

ونقل أنه قال: اتّفقَ لي أن رأيتُ مرّةً طيرًا أبيضَ، فنهضتُ لاصطياده أربعين سنة فما وجدته. قيل: وكيف كان؟ قال: صلّيتُ الظهرَ يومًا من الأيام، إذ جاءَ إلينا في الخانقاه فقيرٌ حافٍ أشعثُ رثيثُ الحال، فتوضّأَ وصلّى ركعتين، وأدخل رأسَهُ في جيبه، وكان في تلك الليلة دعوةٌ عند الخليفة للصوفية، وجاء رسولٌ من الخليفة يَدعونا إليه، فذهبتُ إلى الفقير، وعرضتُ عليه الحالَ، والتمستُ منه أن يُوافقني في الذهاب، فرفع رأسَه، وقال: ليسَ لي الليلةَ مجالُ صحبة الخليفة، لكن أشتهي عصيدةً، فإنْ حصلتْ لي فيها، وإلاّ فأنتَ في خير. وجرَّ رأسَه في جيب خرقته، قال الجَريري: قلتُ في نفسي: هذا لا يُوافق الفقراءَ، ويَشتهي مُرادَ النفس، فلعلّه قريبُ العهد بالإسلام. فتركتُه، وذهبنا إلى الخليفة، وجرى ما جرى، ثم رجعنا، والفقيرُ بحاله ومُراقبته، فلمّا نمتُ رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، ومعه شيخان، وخلفه خلقٌ كثيرٌ، فسألتُ شخصًا عن الشيخين، فقال: أحدُهما إبراهيم، والآخرُ موسى عليهما السلام، والخلقُ هم جميعُ الأنبياء والمرسلين. فذهبتُ إلى النبيِّ عليه السلام، وسلّمتُ عليه، فلم يلتفتْ إليَّ، وأعرضَ عنّي، فقلت: يا رسولَ الله، ما ذنبي حتى أنّك تُعرضُ عنّي بوجهِك المبارك؟ فقال عليه السلام: لأنَّ وليًا من أوليائنا نزل بك، واشتهى عصيدةً، وطلبَها منك، وأنت بخلتَ بها. قال: فانتبهتُ من النوم باكيًا، فسمعتُ صريرَ الباب، فإذا الفقيرُ قد خرجَ، فتبعته وقلت: يا عزيز، ارجعْ وتوقّفْ لحظةً حتى نصنعَ لك عصيدةً. فالتفتَ إليَّ وقال: أستحيي أن أستشفعَ بجميع الأنبياء والمرسلين وسيِّدِهم محمد عليهم السلام في تحصيل شهوةٍ للنفس. وذهبَ وما رجع.

نقل عن أبي محمد الجَريري رحمه الله أنه قال: كان فقيرٌ في جامع بغداد يكتفي بقميصٍ واحدٍ في الصيف والشتاء، فسُئل عن حاله، فقال: رأيتُ في المنام أنّي دخلتُ الجنّةَ، ورأيتُ فيها جماعةً على مائدةٍ، فقصدتُهم، وأردتُ أن

أجلسَ عندهم، فأمسك مَلَكٌ بيدي، ومنعي عنهم، وقال: لستَ أنت منهم؛ فإنّهم قومٌ لم يكن لهم غيرُ قميصٍ. فانتبهتُ، وألزمت نفسي بأن لا ألبسَ صيفًا وشتاء إلاّ قميصًا.

نقل أن أبا محمد الجَريري رحمه الله كان مَشغولاً بالوعظ، إذ قامَ شابٌّ وقال: يا شيخ، ضاع قلبي عنّي، فادعُ اللهَ لعلّه يردُّه عليَّ. فقال الجريري: ونحن أيضًا في هذه المصيبة.

ونقل أنه قال: أهلُ القرن الأول كانوا يُعاملون بالدِّين، فلمّا انتقلوا، اختلَّ أمرُ الدِّين، وأهلُ القرن الثاني مُعاملتهم بالوفاء، فلمّا ذهبوا قلَّ الوفاء، والقرن الثالث أهلُه عاملوا بالمروءة، فلمّا ارتحلوا ما بقيتِ المروءة، وأهلُ القرن الذين بعدهم عاملوا بالحياء، فذهبَ الحياءُ بذهابهم، والناسُ في زماننا يُعاملون بالهيبة.

وقال: من استولتْ عليه النفسُ صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرّمَ اللهُ على قلبه الفوائد، فلا يستلذُّ بكلام الحقِّ، ولا يستحليه[1] وإن كثرَ تردادُهُ على لسانه، لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال: من لا يلتذُّ بكلام الحقِّ، فلا جرمَ أنّه لا تُستجاب له دعوة.

سئل [عن الصبر والتصبّرِ]، فقال: [التَّصبُّرُ] هو معاينةُ الاضطرار، والصبرُ هو أن لا تفرّقَ بين حالِ النِّعمة والمحنة، وتجدَ اطمئنانَ نفسِك في الحالتين[2].

وقال: الإخلاصُ ثمرة اليقين، والرياءُ ثمرةُ الشكِّ.

وقال: العزلةُ هي الخروجُ عن كلِّ تعبٍ، وكتمانُ السرِّ إن لم يرحم عليك.

وقال: دوامُ الإيمان، ومحافظةُ الدين، وصلاحُ الجسد في ثلاثةٍ: الاكتفاءُ بما رزقَهُ اللهُ تعالى، والاحترازُ عمّا نهى الله تعالى، وتقليل الغذاء.

---

(١) في الأصل: ولا يستحيله.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٨٨ (الصبر)، مناقب الأبرار ٥١٣ وما بين معقوفين مستدرك منهما.

وقال: رؤيةُ الأصول باستعمالِ الفروع، وتصحيحُ الفروع بمعارضة الأصول ـ أي بعرضها على الأصول ـ ولا سبيلَ إلى مُشاهدةِ الأصول إلاّ بتعظيم الفروعِ والوسائط التي عظّمها الله تعالى.

وقال: من أحيا الله تعالى قلبَهُ بأنواره، فلا يُميته أبدًا، ومن أماتَ قلبَه بخذلانه، فلا يُحييه أبدًا.

رحمه الله وأسكنَهُ في أعلى فراديس جنانه، ورزقَ لقلوبنا حياةً طيبة لا نموت بعدها، ومنَّ علينا بمعيشةٍ هنيئة لا نبأسُ معها، إنَّه وليُّ الإجابة، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليمًا.

* * *



(٧٧) إبراهيم القِرْميسيني(١)

ذِكر الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن شيبان القِرْميسيني رحمه الله:

كان رحمه الله شيخًا في وقته، مُشارًا إليه، محمودَ الأوصاف، مقبولَ الطريق.

وله في المُجاهدةِ والرياضة والتقوى والورعِ شأنٌ عظيم، حتى قال عبد الله بن المنازل(٢) : إن إبراهيم بن شيبان حجّةُ الله على الفقراء وأهل الآداب والمعاملات، وكاسرٌ لأعناق المُدّعين.

وكان رحمه الله رفيعَ القدر، عالي الهمَّةِ، وصاحبَ وجدٍ كامل، ومراقبةٍ دائمةٍ، وله أوقاتٌ محفوظة.

نقل أنه قال: لازمتُ الشيخَ أبا عبد الله المغربي رحمه الله أربعين عامًا، وما أكلتُ مأكولَ الخلائق أبدًا، ولم يطلْ شعرُ رأسي ولا أظفاري، ولا توسَّخَتْ خرقتي، ولا بتُّ تحت سقفٍ في هذه المدة.

ونقل أنه قال: كنتُ بالشام، وجاءَ إليّ يومًا شخصٌ بقصعةِ عدسٍ، فأكلتُ ودخلتُ السوق، فرأيتُ في موضعٍ دنانَ خمرٍ، فقال الخمَّارُ: لماذا تنظرُ إلى الخمر؟ قلت: فالآن وجبَ عليّ إراقتُهُ. فشرعتُ في الإراقة، والخمّارُ واقفٌ ينظرُ إليّ، ويظنُّ أنّي إنّما أعملُ بأمرِ السلطان، فلمّا فرغتُ من الإراقة علمَ

---

(١) طبقات الصوفية ٤٠٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦١، الرسالة القشيرية ١٠٦، الأنساب ١٠/ ١١٠، مناقب الأبرار ٧٥١، المنتظم ٦/ ٣٩٠، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢٦٢، مختصر تاريخ دمشق ٤/ ٦٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٩٢، الوافي بالوفيات ٦/ ٢٠، مرآة الجنان ٢/ ٣٢٥، البداية والنهاية ١١/ ٢٣٤، طبقات الأولياء ٢١، نفحات الأنس ٣١٥، طبقات الشعراني ١/ ١١٣، الكواكب الدرية ٢/ ٩، شذرات الذهب ٢/ ٣٤٤. والقرميسيني نسبة إلى قرميسين، مدينة بجبال العراق على ثلاثين فرسخاً من همذان عند الدينور، يقال لها: كرمان شاهان. اللباب.

(٢) الأصل: عبد الله بن المبارك. والمثبت من مصادر الترجمة.

الخمّارُ أنّي فعلتُ ذلك من تلقاء نفسي، فأخذني، وذهب بي إلى ابن طولون، وضربوني مئتي جلدة، وحبسوني، وبقيتُ في السجن مدّةً إلى أن جاءَ الشيخُ أبو عبد الله المغربي، وشفع فيَّ، وأخرجوني من السجن، وأطلقوني، فقال الشيخ: كيف وقعتَ في هذه الواقعة؟ قلت: أكلُ العدس، وضرب المئتين، والسجن. فقال الشيخُ رحمه الله: اذهبْ، فإنّك خلصتَ مجّانًا.

نقل أنه قال: كانتْ نفسي تشتهي لقمةً من اللحم المشويّ ستين سنة إلى أن قويتِ الشهوةُ، وعظمتِ الرغبةُ، وفني الصبر، ويومًا شممتُ رائحةَ الشويِّ، فتضرّعَتِ النفسُ، وطلبتْ، وأمرتني بأن أذهبَ خلف الرائحة، وأُحصّلَ شيئًا من الشواء، فذهبتُ، فإذا إنسانٌ يعاقب بالكيِّ، والرائحةُ إنّما كانت من ذلك الكيِّ، ففزعَتْ نفسي، ورضيَتْ بالحرمان، وقنعت بالسلامة.

نقل أنه قال: كلّما كنتُ أحجُّ البيتَ ـ شرّفه الله تعالى ـ كنتُ أولاً أزورُ روضةَ النبيِّ عليه السلام، وبعد الحجِّ كنتُ أرجعُ إلى المدينة، وأزورُها ثانيًا، وفي كلِّ نوبةٍ أقولُ: السلامُ [عليك] يا رسول الله، وأسمعُ من الروضة الشريفة: عليك السلام يا بن شيبان.

ونقل أنه قال: دخلتُ الحمام يومًا، وشرعتُ أصبُّ الماءَ على جسدي، فإذا أنا بشابٍّ جميلٍ مثلِ البدر من زاوية الحمام، صاح عليَّ، فقال: كم تصبُّ الماء على ظاهرك، فاصببْ نوبةً على باطنك. فقلت: أجنّيٌّ أنتَ أم أنسيٌّ بهذا الجمال؟ قال: لا، بل أنا النقطةُ التي تحت الباء من: بسم الله. قلت: لك هذه المملكة؟ قال: يا إبراهيم، اخرجْ من أنيّتِكَ، فتر مملكةً ما ترى مثلها.

نقل من كلامه قال: علمُ الفناء والبقاء يدورُ على إخلاصِ الوحدانية وصحّةِ العبودية، وما سواهما فيوقعُ الإنسانَ في الغلطِ والزندقة.

وقال: من أرادَ أن يصيرَ حرًّا عن الكون، فليعبدِ اللهَ بالإخلاص، فإنَّ من تحقَّقَ في عبوديةٍ فلا شكَّ أنه يصيرُ حرًّا عمّا سواه.

وقال: من تكلّمَ في الإخلاص وهو غافلٌ عن النفس، فاعلمْ أنَّ الله تعالى سيبتليه بشيءٍ يفضحُهُ بين أقرانه.

وقال: من تركَ خدمةَ المشايخ والتواضعَ لهم، يُبتلى بالدعاوى الكاذبة، ثم يُفتضحُ فيها.

وقال: من أراد أن يتعطّلَ ويتبطّلَ، فليعملْ بالرُّخص.

وقال: السّفْلَةُ من يعصي اللهَ عزَّ وجلَّ ولا يخافه.

وقال: السّفْلَةُ من يمُنُّ بالعطاءِ على من يُعطيه.

وقال: الشرفُ في التواضع، والعزُّ في التقوى، والحريةُ في القناعة.

وقال: متى استقرَّ الخوفُ في القلب، يحترقُ موضعُ الشهوات، ويتركُ الرغبةَ في الدنيا.

وقال: التوكُّلُ سرٌّ بين الله وبين العبد، فالأولى أن لا يَطَّلعَ على هذا السرِّ غيرُ الله.

وقال: للعبدِ المؤمن في الدنيا شيئان ممّا يكونُ لهما في الآخرة في الجنة: الأول: الجلوسُ في المسجد، والثاني: النظرُ في وجوه الإخوان.

وقال له شخصٌ: أوصني. فقال: اذكرِ الله ولا تنسَهُ، وإن لم تقدرْ على هذا فلا تنس الموتَ، واذكرْه دائمًا.

رحمه الله وحشرَهُ مع الأبرار الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

ونسأل الله تعالى أن يَحشرَنا في زمرتهم برحمته ومنّه وكرمه، وأن يُصلّي على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحابته أجمعين.

* * *

(٧٨) أبو بكر الصيدلاني(١)

ذكر الشيخ أبي بكر الصيدلاني رحمه الله:

كان رحمه الله من أجلِّ المشايخ وأعلامهم، ومن أعزِّهم وأولاهم.

وكان صاحبَ جمالٍ وصورةٍ حسنة، لم يكنْ له نظيرٌ في زمانه في الحالِ والورع والمعاملات والتقوى والمشاهدة.

وكان من فارس، وتُوفِّي بنيسابور.

والشبليُّ رحمه الله كان يعزِّزه ويُعظِّمه.

ونقل عن أبي بكر الصيدلاني رحمه الله أنه قال: في جميعِ الدنيا حكمةٌ واحدةٌ، ولكلٍّ من العباد نصيبٌ وحظٌّ منها على قدر حاله وكشفه.

وقال: اجعلوا صحبتَكُم مع الله، فإن لم تقدروا فمع من صُحبتُهُ مع الله.

وقال: العلمُ يقطعُكَ عن الجهل، ثم تجهدُ في أن لا تَنقطعَ عن الله سبحانه وتعالى.

وقال: من حافظَ على الصدق فيما بينه وبين الله، فالصدقُ يشغلُهُ عن الخَلقِ.

وقال: اجعلْ مجالسَتَكَ مع الحقِّ كثيرًا، ومع الخلقِ قليلاً.

وقال: خيرُ الأقوام مَنْ علمَ أنْ لا خيرَ من غير الله تعالى، وأنَّ الطريقَ إلى الله ليس بالكثير، وأنْ يعترفَ بتقصيره في جميع أحواله.

وقال: ينبغي أن تكون حركاتُهُ وسكناته كلُّها لله تعالى، أو اضطراريةً، وإن كان غيرَ ذلك فلا فائدةَ فيه، بل عدمُهُ خيرٌ من وجوده.

وقال: العاقل من يكونُ كلامُه على قدر حاجته، ويدعُ ما فوق ذلك.

---

(١) مناقب الأبرار ٨٣٩، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٥٠٠، نفحات الأنس ٢٧٢.

وقال: علامةُ المريدُ أن يكون له نفرةٌ من غير جنسه، ويكونَ طالبًا لأبناء جنسه.

وقال: لا حياة إلاّ في موتِ النفس، إذ في موتها حياةُ القلب.

وقال: لا يُمكنُ الخروجُ عن النفس إلاّ بالنفس، وذلك الإمكانُ إنّما هو بتوفيق الله عز وجل.

وقال: أعظمُ نعمةٍ إنّما هي الخروجُ عن النفس؛ لأنَّ أعظمَ حجابٍ بينك وبين الله هو النفس.

وقال: الموتُ بابٌ من أبواب الآخرة.

وقال: ليتني أكونُ حكيمًا، ويكون [الخلقُ] جميعًا أعدائي.

وقال: عليك أن لا تغترَّ بالمكر.

استوصاه رجلٌ فقال: الهمةَ الهمةَ، فإنّها مقدمةُ الخير كلِّه، وعليها مدارُ الأشياء كلِّها، وإليها رجوعُ الأشياء.

نقل عن أصحابه أن الشيخ أبا بكر الصيدلاني رحمه الله لمّا تُوفّي فكلّما نُصِبَ على رأس قبره لوحٌ من الحجر مكتوبٌ عليه اسمُه وتاريخه، كان شخصٌ يجيءُ، ويُذهبُهُ، فسألوه عن الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله، فقال: لأنَّ الشيخَ أبا بكر رحمه الله كانَ يُخفي حالَه في حياته، وهو يُحبُّ أن يكونَ مخفيًا في مماته أيضًا، فأنتم تريدون إظهارَه، والله سبحانه وتعالى يريد إخفاءه[1].

رحمه الله برحمته، ورزقنا ببركته مُصاحبةَ الأبرار، ومُجالسةَ الأخيار، ومنَّ علينا بكرمه بمجانبة الأشرار، وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمّدٍ سيِّدِ الأوّلين والآخرين، وقائدِ الغُرِّ المحجّلين محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) كذا الخبر هنا، وفي نفحات الأنس ٢٧٢. أما في مناقب الأبرار ٨٣٩، والمختار من مناقب الأخيار ١/ ٥٠٠ أن الذي كان ينصب اللوح هو أبو بكر الصيدلاني، وصاحب القبر هو أبو بكر الطَّمَسْتاني.

(٧٩) أبو حمزة البغدادي[١]

ذكر الشيخ أبي حمزة البغدادي رحمه الله:

كان رحمه الله من الكبار الأبرار، كاملاً في علم التفسيرِ وروايةِ الحديث، عالمًا بالقراءات، فقيهًا، وكان من أولاد عيسى بن أبان.

وكان الإمامُ أحمدُ بن حنبل رحمه الله يقول له في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي.

وكان شيخُهُ حارثًا المحاسبي.

وأدرك صُحبةَ السريِّ، والحسنِ المسوحي، وصحب النُّوريَّ، وخيرَ النساج، وكثيرًا من المشايخ.

وهو من الذين أمرَ الخليفةُ بقتلهم، وتقدَّمَهُم النُّوريُّ رحمهم الله، وكان ذلك سببًا لخلاصهم[٢].

وكان من أقران الجُنيد رحمه الله، ومات قبلَهُ في سنة تسعٍ وثمانين ومئتين.

وكان يعظُ الناسَ في مسجد الرُّصافة ببغداد، وكان ذا تقريرٍ شاف، وبيانٍ صاف.

---

(١) طبقات الصوفية ٢٩٥، ٣٢٦، حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٠، تاريخ بغداد ١/ ٣٩٠، الرسالة القشيرية ٩١، طبقات الحنابلة ١/ ٢٦٨، مناقب الأبرار ٥٧٥، المنتظم ٥/ ٦٨، صفة الصفوة ١/ ٢٦، ٢٧، ٢٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢٩٠، مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٣٤٩، و٢٨/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦٥، الوافي بالوفيات ١/ ٣٤٤، طبقات الأولياء ١٥٠، ١٥٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٤٦، نفحات الأنس ١٠٨، طبقات الشعراني ١/ ٩٩، ١٠٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٥٠، ٦٩٧، ٤/ ١٢٧، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٧٠. وانظر ترجمة أبي حمزة الخراساني برقم (٧٠)، ففيها أخبار مشتركة مع ترجمتنا هذه.

(٢) انظر الخبر صفحة ٤٦٨. والرجل هناك أبو حمزة الخراساني مما يؤكد تداخل الترجمتين.

نقل أنه دخل يومًا على شيخه حارثِ المحاسبي، وكان للحارثِ ديكٌ أسود، فحين دخل أبو حمزة صاحَ الديك، فقال أبو حمزة: لبّيك. وشهقَ شهقةً، فقام الحارثُ، وأخذ سكّينًا، وقصد أن يقتل أبا حمزة، والأصحابُ شفعوا، ووقفوا[١] بينه وبين الشيخ، فقال الشيخ: أسلمْ يا مطرود. فأسلم، وتركه الشيخُ، فقال الأصحاب: يا شيخ، ما كنّا نعلمُهُ إلاّ من خواصِّ أولياء الله تعالى، ومن الموحّدين، فما هذا التردُّدُ الذي فيه للشيخ؟ فقال الشيخ رحمه الله: لم يكنْ لي تردُّدٌ فيه إلاّ أنه مستغرقٌ في بحر التوحيد، ولكنْ لما يقولُ كلامًا يُشبهُ كلامَ أهلِ الحلول فإنّ ديكًا صاحَ على جاري عادته، لِمَ يقولُ لبّيك، حتى يظنَّ أنّه سمعَ كلامَ الحقِّ على لسان الديك، فإنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن الحلول في شيءٍ، والامتزاجِ بشيءٍ. فتابَ أبو حمزة، ورجع عمّا قال.

نقل عن أبي حمزة رحمه الله أنه قال: رأيتُ اللهَ في المنام، فقال: يا أبا حمزة، لا تتبعِ الوسواس، وذقْ بلاءَ الناس.

ونقل أنه قال: مَنْ عرفَ الطريقَ إلى الله، فيسهل عليه سلوكُهُ، فالطريقُ ما علّمه اللهُ عبدَه بلا واسطة، فإنّ الطريقَ الاستدلالي قد يكون صوابًا، وقد يكونُ خطأً.

وقال: علامةُ الصوفيِّ الصادقِ أن يُظهرَ ذلَّهُ بعد العزِّ، وفقرَه بعد الغنى - أي يعلمُ أنّه فقيرٌ محتاجٌ إلى الله، وإن كان غنيًا ذا مال - وعلامةُ الصوفيِّ الكاذب على عكس هذا - أي يظهر عزّه وغناه، والحالُ أنه ليس كذلك.

وقال: كلّما نزلتْ عليَّ فاقةٌ أقول: هذه هديةٌ من الله، ولا أعلمُ أحدًا أولى بها منّي، فكنت أقبلُها بالرّضا.

نقل أنّه قال: كنتُ يومًا من الأيام على جبلِ لبنان، فالتقيتُ بثلاثة أشخاص على كلٍّ من الاثنين بَلاَس[٢]، وعلى واحدٍ قميصُ فضّةٍ، فقالوا: أنت غريب؟

(١) في الأصل: ووقعوا.

(٢) البَلاَس: ثوب من الشعر غليظ. جمع بُلُس. معرب فارسيٌّ.

قلت: مَنِ اللهُ مولاه فلا يكونُ غريبًا. فلمّا سمعوا منّي هذا الكلام، استأنسوا بي، فقال أحدُهما: أعطوه سَوِيقًا. قلتُ: لا آكلُ السَّوِيقَ إلاّ بالسُّكّر. فأعطوني في الحالِ سَوِيقًا بالسكر، ثم سألتُ عن صاحب قميص الفضَّةِ: ما هذا القميص؟ فقال: شكوتُ إلى الله تعالى من القملِ، وكثرةِ إيذائها، فاللهُ تعالى ألبسني هذا القميص.

ونقل أنه كان ذا كلامٍ فصيحٍ، ووعظٍ شافٍ، فسمعَ يومًا من الأيام هاتفًا يقول: يا أبا حمزة، إنَّ لكَ كلامًا بليغًا، ومنطقًا فصيحًا، ونطقتَ بالخيرِ كثيرًا؛ لكنَّ السكوتَ خيرٌ لك من الكلام.

ونقل أنه ما تكلَّمَ بعده إلى أن تُوفّي إلى رحمة الله تعالى.

وقيل: كان يتكلَّمُ في مجلسه يومَ الجمعة، فتغيَّرَ عليه الحالُ، فسقطَ من كرسيِّهِ، ومات في الجمعة الثانية.

رحمه الله، ورزقنا ببركته حالاً من أحوال الأخيارِ، وجعلنا من الذين يَستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، وصلّى الله على سيِّدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(٨٠) أبو عمرو بن نُجيد[(١)]

ذكر الشيخ أبي عمرو بن نُجيد رحمه الله:

كان رحمه الله من أكابر مشايخ وقته، ومن أعاظمِ أهل التصوف، وله في الورع والمعرفة والرياضة والكرامة شأنٌ عظيم.

وكان من نيسابور، إحدى مدنِ خُراسان.

وأدرك الجُنيد رحمه الله، وهو آخرُ من تُوفّي من تلاميذ أبي عثمان رحمه الله.

وكان ذا نظرٍ دقيق، حتى نقل أنّه كان مع الشيخ أبي القاسم النصرآباذي رحمه الله في صُحبةٍ، فاتّفق هناك سماعٌ، فقال ـ أي شيخ أبي عمرو النصرآباذي ـ: لِمَ هذا السماع؟ فقال النصر آباذي: السماعُ خيرٌ من الغيبةِ والاستماع إليها. فقال أبو عمرو: بلِ الغيبةُ خيرٌ من حركةٍ اختيارية في السماع، يقدرُ الشخصُ على أن لا يفعلَها.

أقول: وذلك لأن الحركةَ الاختيارية في السماع هو التواجدُ، والتواجد هو إظهارُ الوجد ولا وجدَ، وهو حرامٌ عند أرباب القلوب؛ بل أشدُّ حُرمةً من الغيبة كما قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله، لأن الغيبةَ وهو أن تذكرَ في غيبةِ الإنسان ما يكرهُهُ خيانةٌ مع ذلك الإنسان، والتواجدُ خيانةٌ مع الحقِّ جلَّ جلاله. فإن قلتَ: أليستْ حقوقُ الله تعالى مبنيّةً على المُساهلة، وعلى هذا فكيف تكون

---

(١) طبقات الصوفية ٤٥٤، الرسالة القشيرية ١١١، الإكمال ١/١٨٨، الأنساب ٧/١١٢، طبقات الشافعية لابن الصلاح ١/ ٤٣٠، مناقب الأبرار ٨١٢، المنتظم ٧/ ٨٤، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٤١٠، سير أعلام النبلاء ١٦/١٤٦، العبر ٢/٣٣٦، طبقات السبكي ٣/٢٢٢، الوافي بالوفيات ٩/ ٢٣١، البداية والنهاية ١١/٢٨٨، طبقات الأولياء ١٠٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٧، نفحات الأنس ٣٣٢، طبقات الشعراني ١/ ١٢٠، الكواكب الدرية ٢/ ٥٥، شذرات الذهب ٣/ ٥٠، الرسالة المستطرفة ٨٧.

الخيانةُ مع الحقِّ أشدُّ من الخيانة مع الخلق؟ قلت: نعم، ولكن كأنَّ المتواجدَ معتقدٌ أنَّ الله تعالى غيرُ مطّلعٍ على ما في ضميره، حيثُ يُظهر الشوقَ للناس، وحسنَ كمال المحبة له، وليس كذلك، ولا خفاءَ في أنَّ نسبةَ الجهل إلى الله تعالى من أعظمِ الذُّنوبِ؛ بل هي توجب الكفرَ بخلاف الغيبةِ مع اعتقادِ الحرمة. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ رحمه الله أبا عمرو قد عهدَ مع اللهِ تعالى أن لا يسألَ منه إلاّ رضاه، وكانت له بنتٌ، كانت زوجةَ الشيخ [أبي] عبد الرحمن السُّلمي[1] رحمه الله، وعرضَتْ لها عارضةُ إسهالٍ عجزت الأطباءُ عن معالجتها، فقال الشيخُ عبد الرحمن لامرأته: إن علاج دائك عند أبيك لو أذن. قالت: كيف؟ قال: إنَّ لأبيك عهدًا مذ أربعين سنة أن لا يسألَ اللهَ إلاّ رضاه، فإنّه لو نقضَ العهدَ، وسألَ الله تعالى أن يُعافيك لعافاك. قال: فذهبتْ إليه ليلاً في مَحفَّةٍ، فقال لها أبوها متعجّبًا: يا ابنتي، ما جئتِ إلينا مذ عشرين سنة، فأيُّ شيءٍ جاءَ بك الليلة؟ فأخبرتْ له الحال، وقالت: لي أبٌ مثلُكَ، وبعلٌ هو إمامٌ في وقته، وإنّي أُحبُّ الحياةَ لأسمعَ منك ومن بعلي أمورًا تنفعني في ديني، وترغّبني في ذكر الله تعالى، فأتيتُكَ لعلّكَ تسألُ اللهَ تعالى أن يُعافيني ويشفيني. فقال الشيخ أبو عمرو رحمه الله: أمّا نقضُ العهد فلا يجوز، وأما طلبُكِ الحياةَ، فإنّكِ إن لم تموتي اليوم تَموتي بعده البتّةَ، والموتُ للذي يموت خيرٌ من حياته، واعلمي أيضًا أنّي إن أَنقض العهدَ لأجلك كنتِ أنتِ شرَّ الولد، فلا تُوقعيني في المَعصية، واصطبري، لعلَّ اللهَ يشفيك يا ابنتي، ودعيني فظنّي أنَّ أجلي قريبٌ. وقال: إن قدّر اللهُ تعالى موتَكِ قبل موتي، فأنا أحضرُ جنازتَكِ، وأُصلّي عليها. فهي ودَّعَتْهُ وخرجتْ إلى بيتِ زوجها، فما وصلتْ إلى البيتِ إلاّ صحيحةً طيّبةً، وقد زال العارضُ عنها بالكلّية ببركة صدقِ أبيها رحمه الله، حتى عاشت بعد وفاة أبيها أربعين سنة.

---

(١) في طبقات الصوفية ٤٥٤، ومناقب الأبرار ٨١٢ أن أبا عمرو بن نُجيد جدُّ أبي عبد الرحمن السُّلمي.

وله كلمات عالية منها أنه قال: لا يصفو أحدٌ في العبودية إلاّ بعد أن يرى جميعَ أفعاله حزنًا له.

وقال: كلُّ حالٍ ليس نتيجةً للعلم ـ وإن كان عظيمًا ـ فضررُهُ أعظمُ من نفعه.

وقال: من ضيَّعَ فريضةً في وقتها، فقد حرمَ عليه لذّتها.

وقال: آفةُ النفس في رضائها بما هي فيه.

وقال: من يكونُ عزيزًا في نظرِ نفسه، فارتكابُ المعاصي عليه يسير.

وقال: من لم يتهذَّبْ، ولم يتأدَّبْ في نفسه، فلا يهذّبُك لقاؤه ورؤيته، ومن يهذبُك لقاؤه فهو قد تهذَّبَ وتأدَّبَ في نفسه.

وقال: أكثر الدعاوى في الانتهاء أيضًا(١).

وقال: من يكون قادرًا على تركِ الجاه بين الناس، فتركُ الدنيا عليه أسهلُ، والإعراضُ عن الخلق عليه أهونُ.

وقال: من يكون مقوّمًا في نفسه، فلا ينسبُهُ أحدٌ إلى العوج، ومن يكون في نفسِهِ معوجًّا، فلا يقولُ له أحدٌ إنه مقوّمٌ.

وقال: من يكونُ فكرُهُ صوابًا يكونُ نطقُهُ صدقًا، وعملُه بالإخلاص.

وقال: من أراد أن يعرفَ قدرَهُ عند الحقِّ، فلينظر قدرَ الحقِّ عنده وقتَ الخدمةِ له.

وقال: الأنسُ بغير الله وحشةٌ.

وقال: أدنى درجةٍ من درجاتِ التوكُّلِ حسنُ الظنِّ بالله تعالى.

وقال: التصوف هو الصبرُ تحت الأمرِ والنهي.

رحمه الله رحمةً واسعةً، ووفَّقنا ببركته لِمَا يُحبُّ ويرضى في البدوِّ والرُّجعى، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) كذا الأصل، وفي مناقب الأبرار ٨١٤: الدعاوى إنّما تتولّدُ من فساد الابتداء، فمن صحّتْ بدايتُه صحّت نهايته، ومن فسدت بدايتُهُ فإنه يهلك في أحواله وقتًا ما.

(٨١) علي الصائغ الدينوري(١)

ذكر الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن سهل الصائغ الدينوري رحمه الله:

كان رحمه الله من جلّةِ أهلِ التصوف، ووحيدًا في وقته، وهو من كبار المشايخ.

وقال أبو عثمان المغربي روّح اللهُ روحه: ما رأيتُ من المشايخ أنورَ من أبي يعقوب النَّهرجوري، ولا أكبرَ همَّةً من أبي الحسن الصايغ إلاّ ممشاد الدينوري، فإنه كان يُصلّي وفوق رأسه طيرٌ يُظلّه رحمه الله.

أقام رحمه الله بمصر، ومات سنة ثلاثين وثلاث مئة.

سئل ابن الصائغ رحمه الله عن الاستدلال بالشّاهدِ على الغائب، فقال: كيف يستدلُّ بصفاتِ من له مثلٌ ونظيرٌ على صفاتِ من لا مثلَ ولا نظيرَ له.

أقول: مراده أنّه لا تُقاسُ صفات الحقِّ جلَّ وعلا على صفاتنا مثل العلم والقدرة وغيرهما، [فصفاتُنا] محدثةٌ، وصفاتُ الحقِّ تعالى قديمةٌ. وصفاتُنا ناقصةٌ، وصفاته تعالى كاملةٌ. وصفاتُنا لا تخلو عن أضدادها، بخلاف

(١) طبقات الصوفية ٣١٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٣، الرسالة القشيرية ٩٣، صفة الصفوة ٤/ ٧٨، مناقب الأبرار ٦٠٦، المنتظم ٦/ ٣٢٨، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٣٦، و٤/ ٥٦، العبر ٢/ ٢٢٧، طبقات الأولياء ٣٤٩، البداية والنهاية ١١/ ٢٤، حسن المحاضرة ١/ ٥١٣، نفحات الأنس ١٥٦، طبقات الشعراني ١/ ١٠٢، شذرات الذهب ٢/ ٣٣٠، الكواكب الدرية ١/ ٦٨٣، ٢/ ١١٥، ٤/ ١٢٥،

قال النبهاني في كتابة جامع كرامات الأولياء ٢/ ١٥٨ مفرّقًا: والظاهر أن هذا علي بن محمد بن سهل الصائغ الدينوري غير أبي الحسن الدينوري لاختلافهما في تاريخ الوفاة، وإن اتفقا في كثير من الأوصاف.

قال ابن الأثير في المختار ٤/ ٥٦ في ترجمة علي بن سهل: ويقال علي بن محمد بن سهل.

صفاتِ الله تعالى. وصفاتُنا لا تَحصل لنا دفعةً، بل تتزايدُ شيئًا فشيئًا، بخلاف صفات الله تعالى فإنَّها حاصلةٌ له بالفعل. وصفاتنا كَسبيةٌ، وصفاته تعالى أزليةٌ ذاتية، لا مدخل فيها للكسب. [والله أعلم].

سئل ابن الصائغ رحمه الله عن المعرفة، فقال: رؤيةُ المِنَّةِ في جميع الأحوال، والعجزُ عن إقامة أداء الشُّكر على النعم، والبراءةُ عن الاستعانة بغير الله.

وسئل عن صفة المُريد فقال: ما قال الله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] يُريد أنَّ لهم عالمًا غيرُ هذا العالم يقصدونه.

وقال رحمه الله: لأهلِ المحبَةِ في نار اشتياقهم إلى المحبوب تنعُّمٌ وتلذُّذٌ ليس لأهل الجنة في الجنة.

وقال: محبتُكَ لنفسك أن تُهلكَها وتفنيها.

وقال: الأحوال كالبروق، فإذا ثبتَتْ فهو حديثُ النفس، ومداومةُ الطبع، وهذا الكلام حقٌّ لا مِرية فيه، فإنَّ كلَّ عملٍ يكون للنفسِ فيه حظٌّ ومدخلٌ لا يكون صافيًا؛ بل مكدّرٌ بشوائبِ النفس، إذ العمل الصافي ما ليس للنفس فيه حظٌّ.

وقال رحمه الله: التمنّي والأملُ من فساد الطبع.

رحمه الله وشكرَ سعيه، ونوّرَ ضريحَه، وزادَ في جوار الأبرار فتوحَه، ونوّرَ قلوبَنا بأنوار هدايته، ونظر إلينا بأنظارِ عنايته، وجعلنا بلطفِهِ ممّن وقاهم بحفظه وحمايته، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحابته أجمعين.

* * *

(٨٢) محمد بن موسى الواسطي[١]

ذكر الشيخ أبي بكر محمد بن موسى الواسطي رحمه الله:

كان رحمه الله خراسانيَّ الأصل من فرغانة.

صحب الجُنيد والنُّوري رحمهما الله.

وكان أكملَ المشايخ في عهده، وشيخَ الشيوخ في وقته، وكان عالمًا كبيرًا، ولم يُرَ في المشايخ أكبرُ منه همَّةً، وفي الحقائق والمعارف سابقًا على الأصحاب، وفي التجريد والتفريد مُقدَّمًا عليهم، وكان محمودًا في خصاله، مقبولاً عند أرباب القلوب وأصحابِ المكاشفات.

ونقل عنه عباراتٌ غامضة، وإشاراتٌ مشكلة، ومعانٍ بديعة، وكلماتٌ عجيبة، لم يكنْ يحومُ حولها إلاّ واحدٌ بعد واحدٍ من أفراد الأكابر.

وكان في أنواعِ العلوم والفنون كاملاً، وله مجاهداتٌ ورياضات لا تسعُ في وسعِ واحدٍ، وكانَ دائم التوجّه إلى الله تعالى.

أقام بمرو، ومات بها بعد عشرين وثلاث مئة، لكن سكن واسطًا كثيرًا، فلذلك نُسبَ إليه.

نقل أنه قالَ يومًا لأصحابه: إنّ أبا بكر من اليوم الذي بلغ إلى الآن ما عبرَ عليه يومٌ وهو لم يكن صائمًا فيه، ولا ليلةٌ وهو نائمٌ فيها.

ونقل أنه قال: حضرتُ في بستانٍ لأجل مُهمٍّ ديني، فطارت عصفورةٌ من بين يدي، فمددتُ يدي، فأمسكتُها، وهي في يدي إذ جاءَتْ أُخرى تطيرُ فوق

---

(١) طبقات الصوفية ٣٠٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩، الرسالة القشيرية ٩٢، مناقب الأبرار ٥٨٠، المنتظم ٦/ ٢٦٢، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٥٥، الوافي بالوفيات ٥/ ٨٥، طبقات الأولياء ١٤٨، نفحات الأنس ٢٦٠، طبقات الشعراني ١/ ٩٩، الكواكب الدرية ٢/ ١٥٩.

رأسي، وتصيحُ وتتضرَّعُ، فقلت للذي في يدي: هذه إمّا فرخٌ لها، أو رفيقةٌ. فأقلتُها[١]، فإذا هي ميتةٌ، فندمتُ ندامةً عظيمة، وعرضتْ لي في الساعةِ عارضةُ مرضٍ، وبقيتُ في المرض سنةً كاملةً، ثم رأيت النبيَّ عليه السلام في المنام، فاشتكيت إليه، وقلت: يا نبيَّ الله، منذ سنة أُصلّي الصلاةَ قاعدًا، ولا أقدرُ على القيام، وغلبَ عليَّ الضعفُ، وأثّرَ فيَّ المرضُ. فقال عليه السلام: السببُ في ذلك أنه اشتكتْ عصفورةٌ منك إلى الله عزّ وجل، ولا ينفعُكَ الآن الاعتذارُ. وقد كانتْ في بيتنا سنّورةٌ قد ولدت ولدًا، وأنا في المرض مُتّكيءٌ إذ جاءت حيّةٌ وقصدت ولد السنورة، وهي غائبةٌ، وأمسكتِ الولد بفيها، وأرادتِ الخروجَ، فرميت إليها عصًا كانت عندي، فضربتُها، فتركتْ ولدَ السنور وهربت، وأنا في الساعة وجدتُ الخفَّةَ في نفسي، وشرعتُ في الصلاة قائمًا، وطابَ مزاجي، فرأيتُ النبيَّ عليه السلام تلك الليلة في المنام، وقلت: يا رسولَ الله، قد طبتُ، وصلّيت على القيام. قال النبيُّ عليه السلام: نعم، سببُهُ أنّه شكرت منك هرّةٌ.

نقل [أنه] كان جالسًا في بيتٍ، وعنده بعضُ الأصحاب، إذ دخلَ شعاعُ الشمس من الكوّةِ، وظهر فيه الذرّاتُ كما هو المُتعارف، فقال الشيخ للحاضرين: هل يحصلُ لكم تشويشٌ في قلوبكم عن اضطرابِ هذه الذرات وحركاتها؟ قالوا: لا. قال: فينبغي للموحِّدِ أن لا يتشوَّشَ سرُّه في التوحيد، وإن اضطربت ذرّاتُ الكونين، ولا يتفرّقَ خاطرُه.

نقل أنه رأى مجنونًا في المارستان مُقيّدًا بقيدٍ ثقيل، وهو مع ذلك في غايةِ الطَّربِ والنشاط، فقال الشيخ: وما هذا الطَّربُ والسُّرور مع هذا القيد؟ فقال: لأنَّ القيدَ إنَّما هو على الرِّجلين دون القلب.

نقل أنه مرَّ بمقابر اليهود، وقال: هؤلاء قومٌ مَعذورون. فسمعوا منه هذا الكلام، وعلقوا به، وذهبوا به إلى القاضي، والقاضي غَضِب، وأرادَ تعزيرَهُ،

---

(١) كذا في الأصل، ولعلّها: فأفلتُها.

فقال الشيخ للقاضي: إنَّ اليهودَ وسائرَ الكفار ليسوا مَعذورين بالنَّظرِ إلى قضائك؛ ولكنَّهم معذورون بالنَّظرِ إلى قضاء الله تعالى.

أقول: وذلك لأنَّ الكفرَ من الكافر، والعصيانَ من العاصي بقضاءِ الله تعالى وتقديره في الأزل وبإرادته، كما أنَّ إيمانَ المؤمن وطاعةَ المُطيع أيضًا كذلك، لكنَّه راضٍ بالإيمان والطاعة وكلِّ خيرٍ أمرَ بها(١)، ويُثيبُ على فعلها، وغيرُ راضٍ بالكُفر والعصيان وكلِّ شرٍّ نهى عنها، ويُعاقب عليها. [والله أعلم].

نقل أن تلميذًا له قصدَ الجامعَ يوم الجمعة، ولم يغتسلْ للجمعة، فسقطَ في الطريق، وانجرحَ وجهُهُ، فرجع واحتاجَ إلى غسلِ جميعِ الأعضاء، فغسل، ونوى غُسْلَ الجمعة، وذهب إلى المسجد، ثم أخبرَ الشيخَ بما جرى عليه، فقال الشيخ: استبشروا إذا شدَّ عليكم، وإذا خُفِّفَ عليكم فلأجل عدمِ المبالاة بشأنكم.

أقول: ومصداق هذا الكلام قولُه تعالى خطابًا للكفار: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

ولمّا تركَ النبيُّ ﷺ لفظة (إن شاء الله) في الحكايةِ المشهورة، قُطِعَ عنه الوحيُ أربعين يومًا، حتى فرحَ المُشركون، وقالوا: إنَّ ربَّ محمدٍ قد أبغضه وودَّعه وقلاه. ثم عاتبه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾(٢) [الكهف: ٢٣-٢٤] **ثم أنزلَ عليه تسليةً له عليه السلام:**

---

(١) في الأصل: وكل خيرٍ وأمر بها.

(٢) ذكر الطبري في تفسير سورة الكهف ما نصُّه: بعَثت قريشٌ النضر بنَ الحارثِ، وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ إلى أحبارِ يهودَ بالمدينةِ، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمدٍ، وصِفُوا لهم صِفَتَه، وأخبِرُوهم بقولِه؛ فإنهم أهلُ الكتابِ الأولِ، وعندَهم علمُ ما ليس عندَنا من علم الأنبياء. فخرَجا حتى قدما المدينةَ، فسألُوا أحبارَ يهودَ عن رسولِ الله ﷺ، ووصَفُوا لهم أمرَه وبعضَ قولِه، وقالا: إنكم أهلُ التوراةِ، وقد جِئْناكم لتُخْبِرُونا عن صاحبِنا هذا. قال: فقالت لهم أحبارُ يهود: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمُرُكم بهنَّ، فإن أخبرَكم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسَلٌ، وإن لم يَفْعَلْ فالرجلُ مُتقوِّلٌ، فرَوْا فيه رأيكم؛ سَلُوه عن فتيةٍ ذهَبُوا في الدهرِ الأولِ، ما كان من أمرِهم؟ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسَلُوه عن رجلٍ طوَّافٍ بلَغ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، =

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ أبا سعيد بن أبي الخير رحمه الله قصدَ مدينةَ مرو، فحمل معه الحصا للاستنجاء، فقيل له في ذلك، قال: لأنَّه نُقل عن أبي بكر الواسطي رحمه الله أنَّه قال: إنَّ تراب مرو ليس بميتةٍ، بل هو حيٌّ، وأنا أستحيي أن أستنجي بحصا أرضٍ تكون حيَّةً، والحالُ أنَّ أبا بكر الواسطي كان رأسَ الموحِّدين في وقته. انتهى كلام أبي سعيد رحمه الله.

ومن كلمات الشيخ أبي بكر الواسطي رحمه الله قال: لا تنظرْ إلى الخَلْقِ في طريق الحقِّ، ولا إلى الحقِّ في طريق الخلق، فمن كان وجهُهُ إلى نفسه يكون قفاه إلى الدِّينِ، ومن يكون وجهُهُ إلى الدِّين يكون قفاه إلى نفسه.

وقال: كلَّما توجدُ أنانيتُكَ فحظُّ الخلافِ موجودٌ، وإذا غرقْتَ في بحارِ اليأس عن مُرادات النفس فهناك اتَّسعَ ميدانُ الدين.

وقال: الشرعُ هو التوحيد، وعبورُ التوحيد على بحرِ النبوَّةِ.

وقال: يفوحُ من إثباتك لنفسِكَ رائحةُ الشِّرك، والتوحيدُ مُنزَّه عن الشرك.

وقال: الخلقُ كلُّهم غَرقى في بحر الكينونة - أي الوجود - ولا نجاةَ عن هذا البحرِ إلاَّ بالتشبُّثِ بأذيالِ شريعةِ الأنبياء عليهم السلام، فإذا عبرَ الإنسانُ عن

= ما كان نبؤُه؟ وسَلُوه عن الرُّوحِ ما هو؟ فإن أخبرَكم بذلك فإنه نبيٌّ فاتَّبِعُوه، وإن هو لم يُخبِرْكم فهو رجلٌ متقوِّلٌ، فاصنَعُوا في أمرِه ما بَدا لكم. فأقبَلَ النضرُ وعقبةُ حتى قَدِما مكةَ على قريشٍ، فقالا: يا معشرَ قريشٍ، قد جئْناكم بفصلِ ما بينكم وبينَ محمدٍ، قد أمَرَنا أحبارُ يهود أن نسألَه عن أمورٍ. فأخبَرُوهم بها، فجاءُوا رسولَ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا محمدُ، أخبِرْنا. فسألُوه عمَّا أمَرُوهم به، فقال لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «أُخبِرُكم غدًا بما سألْتُم عنه». ولم يَستَثْنِ. فانصَرَفُوا عنه، فمكَث رسولُ اللهِ ﷺ خمسَ عشرةَ ليلةً لا يُحدِثُ اللهُ إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتِيه جبريلُ عليه السلامُ، حتى أرجَفَ أهلُ مكةَ، وقالوا: وعَدنا محمدٌ غدًا، واليومُ خمسَ عشرةَ قد أصبَحنا فيها لا يُخبِرُنا بشيءٍ مما سألْناه عنه. وحتى أحزَن رسولَ اللهِ ﷺ مُكْثُ الوحيِ عنه، وشَقَّ عليه ما يَتكلَّمُ به أهلُ مكةَ. ثم جاءَه جبريلُ عليه السلامُ من اللهِ عزَّ وجلَّ بسورةِ أصحاب الكهفِ.

هذا البحر، وغرقَ في بحر التوحيدِ يُستهلكُ فيه، حتى لا يُرى منه أثرٌ، ولا يُسمَعُ عنه خبرٌ.

وقال: هذه الطائفةُ من المعدومين الموجودين، وغيرهم من الموجودين المعدومين من يكون حيًّا بنفسه فهو ميتٌ، ومن هو حيٌّ بالله فلا يموت أبدًا، وإن ماتَ جسدُهُ[١].

وقال: من يستجري أَنْ يَخطوَ قدمًا في التوحيد، لأنّه قال بعضُ المشايخ: إثباتُ التوحيدِ إفسادٌ للتوحيد.

أقول: وقد مرّ ما ينحلُّ به معنى هذا الكلام، فلا نعيده[٢]. [والله أعلم].

وقال: من أرادَ ـ مع وجودِ الحقِّ جلّ وعلا ـ حظَّ وجودِ نفسه، فقد سجّل على كفرِه، ومن يقرأُ خطبةَ التوحيد ناظرًا إلى وجود نفسه، فهو شاهدٌ على شركه، والنظرُ إلى وجودِ الغيرِ مع وجودِ الحقِّ كفرٌ.

أقول: معناه أنَّ من اعتقدَ في غير الله تعالى أنّه موجودٌ مُستقلٌّ بذاته ووجوده، فهو كافرٌ، لأنَّ الموجودَ المُستقلَّ بذاته ووجوده بحيث لا يحتاجُ إلى غيرِهِ إنّما هو اللهُ الذي لا يحتاجُ إلى الغيرِ في شيءٍ من الأشياء، ولا في وقتٍ من الأوقات؛ بل غيرُه مُحتاجٌ إليه دائمًا.

أقول: من رأى نفسَهُ، لا يرى الحقَّ، ومن رأى الحقَّ، لا يرى نفسَهُ ولا يذكرُها، فتطيرُ روحُه حينئذٍ من السرور إلى ما وراءِ سُتور سُرادقات العدة، ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى يردُّه عن حضرة القدس بالخلافةِ إلى عالم الإنسانية، فلا يَبقى لهذا الشخص عبارةٌ ولا إشارةٌ ولا لسانٌ ولا قلب؛ بل إن قال: علمتُ، فهو جاهلٌ، أو قال: عرفتُ، فهو جاحد، إذ لا محرَّميةَ للعبارةِ مع التوحيد، والعلمُ في هذا الطريق أجنبيٌّ، والتوهُّم والظنُّ لا يخلوان عن غبار الحدث، فإنَّ التوحيدَ في عالم القدس منزَّهٌ عن القيل والقال في وصفه، والعبارة

---

(١) لعله ترجمة قول سابق بن عبد الله البربري الرقي المتوفى سنة ١٣٢هـ:

موت التقي حياة لا انقطاع لها   قد مات قوم وهم في الناس أحياء

(٢) لم يمرّ شيء، ولكن انظر فهرس المصطلحات والألفاظ كلمة (التوحيد).

عنه، والإشارة إليه، والرؤية والمشاهدة له، ومنزَّهٌ عن الصورة والخيال، وعن هذا وذاك، فإنَّ هذه كلَّها ليست خاليةً ولا صافيةً عن لوث البشرية وصفاتها[1]، وساحةُ التوحيد مبرأةُ الله منزّهةٌ عن سمات البشرية، ولوثِ المخلوقية، فإنَّ كونه وحدَه لا شريكَ له يقتضي أن يلمعَ عن سُرادقاتِ الإلهية برقٌ يصنعُ مع البشرية ما صنعت عصا موسى عليه السلام مع سحرِ سحرةِ فرعون عليه اللعنة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]. [والله أعلم].

وقال: إنَّ النورَ الإلهيَّ قد حوى الأشياءَ في كنفه.

وقال: لا تخرجوا إلى فضاءِ صحراء الوجود، وإلاّ تحرقكم نارُ الغيرة الإلهية، فإن يوصلَكم متى تشاء.

أقول: كان هذا الخطابُ[2] من الله إلى الأشياء من الأزل، حين كانتْ موجودةً بالوجود العلمي، مجتمعةً في علم الله تعالى، وحاصلُ هذا الخطاب أنَّ الله تعالى قال لها: تطلبون الوجودَ ولا اختيار لَكُنَّ ولا إرادة؛ بل الاختيارُ والإرادة لي، فإذا أردتُ أن أنزلَكُنَّ إلى العالم الكوني أشرِّفُكنَّ وبالوجود العيني، فحينئذٍ تخرجن إليه واحدًا بعد واحد، أو مع واحد، إذ أكثر من واحدٍ على مقتضى الحكمِ والإرادة القديمة، إذ لو كان لغيري اختيارٌ لأحرقَتْه نارُ الغيرة اللاهوتية، إذ لا اعتبار للناسوتية عند ظهورِ لمعةٍ من الأنوار اللاهوتية والاختيار للممكن الحادث في قبضة قدرة الواجب القديم يفعل الله ما يشاءُ، ويحكمُ ما يريد. [والله أعلم].

وقال: أسرارُ المشايخ روضةُ التوحيدِ لا عينُ التوحيد.

عند ظهورِ كبريائه يستوي وجودُ الخلقِ وعدمُهم، وعند ظهورِ عزَّته يظهرُ افتقارُ الخلق وانكسارُهم.

وقال: يوجدُ في السموات ألسنةٌ ذاكرةٌ لله تعالى بالتهليل والتسبيح، لكن يوجد فيها قلبٌ يُعينُ الذاكرَ على الفكر، فإنَّ ذلك إنما هو في آدم عليه السلام

---

(١) في الأصل: البشرية وصفات.
(٢) في الأصل: هذا خطاب.

وذرِّيته، والقلبُ ما يسدُّ عليك بابَ الشهوة والاختيار، ويكون لك دليلاً.

وقال: الرجلُ من قهرَ المعبودَ الذي هو في قميصه، واجتهدَ في ذلك، ولمرادِ النفس وميولها، لا أن يجتهدَ في لعن الشيطان؛ لأنَّ العبدَ مأمورٌ بالأول لا بالثاني.

وقال: يقول إبليس لابن آدم: صنعوا منك مرآةً [لي]، ومنّي مرآةً لك، فأنا أنظرُ في مرآتك وأبكي على نفسي، وأنت تنظرُ في مرآتي وتضحكُ عليك.

وقال: تعلّموا سلوكَ هذا الطريق من إبليس، فإنه احتملَ اللَّومَ في العالمين، ولم يتركْ ما كان عليه من الضلالة، فأنت لأيِّ شيءٍ لا تجتهدُ فيما أنت عليه من الحقِّ؟.

أقول: وإلى هذا المعنى أشارَ من قال[1]:

ولا تك باللاهي عن اللّهوِ مُعرِضًا ... فلهو الملاهي جدُّ نَفْسٍ مُجدّةِ

يعني: لا تُعرِضْ عن النظر إلى اللهو؛ بل انظرْ إليه نظرَ الاعتبار والاستبصار، واعلمْ أنّه إذا كان في غايةِ الاجتهاد في لهوه وعبثه، فالأَوْلى بك أن تجتهدَ في جدِّك بالجدِّ لا بالهزل.

أقول: إن فرضنا أنَّ أهلَ العارفين يلعنونك إذا سلكتَ هذه الطريقة، وأنت على تقدير لعنهم تتأخَّرُ عنها، وتتركُ السلوك فلا تخطُ على هذا خطوةً في هذا الطريق، فأنت أهلٌ له، إذ لو لم يُساوِ هذا الحديث إلى حديثِ المحبة عندك بلومِ العالمين وذمِّهم إيّاك فلا تشرب منه شربة.

أقول: معناه أن التضجُّرَ من الملامة في طريقِ الهوى لا يَجتمعُ مع دعوى المحبة؛ بل ينبغي أن تكون الملامةُ في هوى الحبيب ـ لاشتمالهما على ذكر

(١) البيت لابن الفارض في تائيته الكبرى (رقم البيت ٦٧٦) وفيه:

ولا تك بالـلاهي عن اللهو جملةً ... فهزل الملاهي جدُّ نفسٍ مجدّةِ

وفي الأصل: ولاتك بالله.

الحبيب ـ لذيذةً مطلوبةً مرغوبةً، وإلاَّ لا يصحُّ دعوى المحبة، كما قال الشاعر[١]:

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لذكرِكِ فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

[والله أعلم].

وقال: لا تطلبْ شيئًا هو في طلبك ـ أي: الجنة ـ ولا تفرَّ عن شيءٍ هو يفرُّ عنك ـ أي جهنم ـ ولكن اجتهدْ حتى تكونَ لله تعالى، فإذا كنتَ له هو أيضًا يكونُ لك، وحينئذٍ ترى الأشياءَ كلَّها متوجِّهةً إليك، خادمةً لك.

وقال: ينبغي أن يكونَ كلُّ جزءٍ من أجزائك محوًا في حقِّ الجزءِ الآخر، إذ الأَنِّيَّةُ شركٌ في هذا الطريق.

وقال رحمه الله: قومٌ يثبتون أنفسهم، وينفون غيرَهم، ثم يُحدِّثون حديثَ الفقر، يظلمون ظُلمًا عظيمًا؛ لأنَّ الفقرَ هو نفيُ نفسِك لا إثبات النَّفسِ ونفي غيرك.

وقال: علامةُ دخولِ المرءِ في صحراءِ الحقيقة أن يرفعَ الحُجُبَ عن عينيه.

وقال: من لا يسمعُ كلامَ القائلِ بالحقِّ تنشف عينُ الحياة التي في صدره، ثم لا تنبعُ منها الحكمة بعدُ أبدًا، نعوذ بالله من ذلك.

وقال: ينبغي أن يكونَ الرجلُ ناطقًا ساكتًا، وساكتًا ناطقًا.

أقول: معناه أنَّ الرجلَ إذا شرعَ في تحصيلِ المعارف، فعليه أن يكونَ ناطقًا بالقلب، ساكتًا باللِّسان أوَّلَ الأمر، والمُرادُ بنطقِ القلب التعلّمُ والفهمُ، والإدراكُ والتفكّر، ثم إذا حصلت له الكمالاتُ المعنوية التي هي عبارةٌ عن العلم والمعرفة، فله أن يتكلّمَ أحيانًا بما علمَ، ويُعلِّمَ غيرَه، ولا شكَّ أنّه عند المُتكلّم باللسان قد يَسكتُ قلبُه عن الحركات الفكرية، ولذا قيل خطابًا عامًّا[٢]: عليك بالتعلُّمِ ثم بالتكلُّم. [والله أعلم].

---

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي انظر شرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٧٣.

(٢) في الأصل: ولذا قيل خطابا عام.

وقال: إن حضرتِ العزّةُ وراء النطق والسكوت، فينبغي أن ينسدَّ عينُ اللسان أولاً لتنفتح عينُ القلب، فإنَّكَ ترى أُلوفًا من الألسنةِ الفصيحةِ الذكّارةِ لله تعالى، القائلةِ لله، مقهورةً في أيدي زبانيةِ جهنم، ولا ترى قلبًا منوَّرًا بنورِ معرفة الله في جهنم.

وقال: فائدةُ المُريد الصادق من سكوت المشايخ أكثر من نطقهم.

وقال: إنَّ الله تعالى أعطى كلاً خلعةً وشرّف تشريفًا مشوبًا بالشرك، كمَنْ يُسقى شربةً ممزوجة بالسُّمِّ، فأعطى واحدًا كرامةً، وآخرَ حكمةً، وآخر معرفةً، فمن أحبَّ التشريف وعشق فقد الطلعة، فأخّر من المقصود.

وقال: المقاماتُ كلُّها من الشرع للذين يسلكون بنور الشرع، فالزهدُ والورعُ والتوكّلُ والتَّسليم والتفويض والإخلاص واليقين كلُّها شرعٌ، والسالكُ يركبُ مركبَ القلب، ويسيرُ في المنازل والمقامات، وكلّما يقطعُ مرحلةً، يُرفعُ عن بابِ الروح حجابٌ، ليقربَ من انبساط الروح، ثم إذا وصلَ إلى مقامِ الروح، وعبر عن مقام القلب، يركبُ مركبَ الروح، ولا مدخلَ حينئذٍ للأفعال والصفات هناك، إذ ليس هناك ورعٌ ولا زهدٌ ولا توكُّلٌ ولا تسليم.

وأقول: إذا لم يكنْ هناك ورعٌ وزهدٌ وتوكُّلٌ وغيرها، فكيف يكونُ أضدادها؟ لأنَّ المُراد بهذه إنما التوحيد، والأشياءُ كلُّها من الصفات والأفعال، بل الذواتُ أيضًا غريقةٌ في بحر التوحيد، بحيث لا يظهرُ منها ذرَّةٌ ولا أخفى وأقلُّ منها، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. [والله أعلم].

وقال: الحديثُ عن علامات الطريق إخبارٌ عن صفات النفس، فإنَّ حقيقةَ هذا الشأن ترى أن يُحدَّثَ عنه، ويُشار إليه.

وقال: من شدَّ على خاصرته نطاقَ الطلب، فكلّما كان طلبُهُ أكثرَ، فهو من المطلوبِ أبعدُ.

أقول: معناه: أنَّ الطلبَ أيضًا حجابٌ بين الطالبِ والمطلوب، وكلّما كثُرَ

الطلبُ ـ وللطالبِ التفاتٌ إلى طلبه ـ كثرَ الحجابُ، وكلّما كثرَ الحجابُ بَعُدَ الطالبُ، بل ينبغي أن لا يكونَ للطالبِ السالك نظرٌ والتفاتٌ إلى شيءٍ سوى المقصود، فإنّه إنِ التفتَ إلى غيرِه ـ ولو إلى ذاتِهِ أو طلبِهِ ـ التفاتةً حُجِبَ عن المطلوب، والحاصلُ أنَّ من لا يغرقُ في بحرِ الترك المطلق، لا يصلُ إلى المطلوب. [والله أعلم].

وقال: غاصتِ الناسُ في بحر العبودية، فلم ينزلْ إلى قعره واحدٌ، ولم يخرجْ عنه أحدٌ، فإذا وصلتَ إلى سرِّ هذا المعنى تصحُّ منك العبودية.

وقيل: طريقُ أهلِ الحقيقة على العدم، فإنْ لم يسلك بالعدم ـ يعني مع نفي وجوده ـ فلا يهتدي، وطريقُ أهلِ الشريعة على الإثبات، فإنَّ نفيَ الوجودِ إلى وجودِ نفسه في الشريعةِ زندقةٌ.

وقال: السعادةُ تعبيةٌ في العدم، والشقاء في الوجود.

أقول: يعني: السعيدُ من اعتقد أن الوجود المقتضى الواجب إنما هو الله عزَّ سُلطانه، وأن وجود نفسه وجودٌ إمكاني فائضٌ عليه من الواجب الوجود الحق، إذ لا مكانَ هو اقتضاء الوجود والاستحقاقية، والممكنُ لا محالة محتاجٌ في وجوده إلى غيره، فظهرَ أنَّ الاعتقادَ أن الممكن له وجودٌ في ذاته من ذاته شقاق محضةٌ مشعرٌ بالشرك، واعتقاد أنَّ المُمكن في ذاته لا يقتضي الوجود، بل هو موصوفٌ بالإمكان العدمي، مُحتاجٌ إلى تحقُّقُه وتكوُّنه إلى موجودٍ قديم حكيم متصفٍ سواء صفات الألوهية سعادةٌ محضةٌ دالَّةٌ على التوحيد، إذ مآلُ هذا التوحيد إلى أن الواجبَ الوجود لذاته هو الله تعالى، ولا شريكَ له في ذاته، وأن في وجوب الوجود الأكوان بأسرِها متكوّنةٌ بإرادته وقدرته، على وفق علمه ومُقتضى حكمته: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]. [والله أعلم].

وقال: طريقُ العدمِ في القهر، وطريقُ الوجود في اللطف، والخلقُ عاشقٌ للوجود متنفِّرٌ عن العدم، فلا جرمَ أنَّهم لا يعلمون العدمَ ولا الوجود.

وقال: للسالك اختيارٌ في أول قدمٍ، وأمّا عند بلوغه المقصدَ، فلا يبقى له اختيارٌ، فحينئذٍ يعلمُ علمَ الحقِّ من جهلِه، ويشاهدُ وجودَهُ في عدمه، وبقاءَه في فنائه، واختياره في اضطراره.

ليستِ الإشارةُ ولا العبارة محرمًا لهذا الحديث، إذ لا تسعُهُ إشارةٌ ولا عبارة، ولا قالٌ ولا حال.

و: إن قصدتَ العرفانَ بالمجاهدة، فلا تعرف أصلاً؛ فإنَّ في بحر الهند والروم مجاهدةٌ، وفي بحر الإسلام مشاهدةٌ، فمن طلبَ المشاهدةَ فلا يجدها أبدًا.

من أراد أن يغسلَ النجاسةَ، فإذا غسلَها به يزولُ لونُ النجاسة في الظاهر، ويبقى ذلك الشيء كما كان.

من كان في الظاهرِ رجلاً، فهو في الباطن أيضًا رجل.

أقول: يعني أن [من] يراعي الأحكامَ الظاهرة بحيث لا يفوتُهُ شيءٌ منها، إذا وصلَ إلى أحكام [باطنة] فيجتهد منها أيضًا بحيث لا يفوته شيءٌ، حاصله أنَّ من تمرَّن في شيءٍ، ولانتْ فيه عريكتُهُ، وانقادتْ سكّتُه، فإذا شرعَ في غيرٍ يجتهدُ فيه أيضًا، إذِ الاجتهادُ صار دأبَهُ وسيرته. [والله أعلم].

وقال: من عرفَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو في الافتقار والانكسار والعجز، فهو خيرٌ لمن عرفه وهو في العُجب والخلق وغيرِهما من الذمائم.

وقال: مِنْ أخسِّ الأخلاقِ معارضةُ القدر. يعني إذا قدّرَ اللهُ شيئًا بريدُ ضدَّه، ولا تكون راضيًا بما قسمَ اللهُ، وتريد أن تقلبه[١] بالتمني والدعاء.

وقال: هذا القومُ أربعةُ أصناف: قسم منهم عرفَ وطلب، ولم يجدْ، ولم يستقرَّ مع الغيرِ إلاّ معه. وآخرُ عرفَ ولم يطلب، لأنَّه أعزُّ من أن ينالَ بالطلب، وأظهرُ من أن يكون للطلب إليه بحال[٢].

(١) في الأصل: وتريد أن تقبله.

(٢) كذا في الأصل.

وقال: إذا كان سرِّي قائمًا بوفاءِ العهد فلا أُبالي بما يظهرُ من الحوادث.

وقال: المعرفةُ على قسمين: معرفةُ الخصوص، ومعرفةُ الإثبات. أمَّا معرفةُ الخصوص فمشتركةٌ بين معرفة الأسماءِ والصِّفاتِ، ودلائلِ التوحيد وعلاماتها، والبرهان والحجب، وأمّا معرفةُ الإثبات فلا طريقَ إليها، وهي تظهرُ من نعت القدم، وإذا ظهرَتْ هذه المعرفةُ تلاشَتْ معرفتُكَ، وصارتِ الأشياء محضًا، وذلك لأنَّ معرفتَكَ حادثةٌ، فعند تجلّي نعتُ القدمِ تنعدمُ وتضمحلُّ وتتلاشى.

وقال: فضلُ الباري عزَّ وجلَّ ليس مُقابلاً لكسبِ العبد، ولا مُكتسبًا به.

وقال: ما ظهر الروحُ من عالم الكون، إذ لو كان ظهورُهُ منه لكانَ للقلبِ إليه سبيلٌ، ولا يسع هذا الكلام كلَّ حوصلة.

أقول: يريدُ قولَه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فإنَّ الروحَ على ما قالَ الله تعالى إنَّما هي من عالمِ الأمر، لا من عالمِ الخلقِ والكون. [والله أعلم].

وقال: دورانُ العوام في صفاتِ العبودية، والخواصُّ مكرمون ببعضِ صفات الربوبية، لتصحَّ لهم المشاهدة.

أقول: ويؤكِّده ما روي عن الزبور: أنَّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام، وقال: يا داود، تخلَّقْ بأخلاف الله تعالى، ومِنْ أخلاقي أنّي الصبورُ. وقد وردَ في بعضِ الأخبار عن النبيِّ عليه السلام: «تخلّقوا بأخلاق الله»[١]. [والله أعلم].

وقال: إذا نزلتْ صفاتُ الربوبية على بعض البشر تمحو[٢] عنه جميعَ الرُّسومِ البشرية، وتخرِّبُها.

---

(١) تقدم، انظر الحاشية (٢) صفحة (٤٧٣).

(٢) الأصل: على بعض البشراء، وتُقرأ: السراء.

أقول: هذا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]. [والله أعلم].

وقال: إنَّ اللهَ جمعَ الخلق كلَّهم في علمه، ثم فرَّقهم في حكمه وقسمته، فالجمعُ في الحقيقة التفريقُ، والتفرقةُ جمعٌ.

أقول: وذلك لأن مآل الجمعِ إلى التفرقة، وأصلُ التفرقة إنّما هو الجمع. [والله أعلم].

وقال: إنّ الأزلَ والأبدَ، والأعوامَ والدهور والأوقات كلَّها كبرقٍ بالنظر إلى نعوت الحقِّ جلَّ جلاله، قال النبيُّ ﷺ: «لي مع اللهِ وقتٌ، لا يسعني فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرُسل[١]».

وقال أيضًا الشيخ أبو بكر رحمه الله: أشرف النسب أن تطلبَ النسبةَ إلى الله بالعبودية.

وقال: أفضلُ الطاعات حفظُ الأوقات.

وقال: من قال أنا، فهو قد نازعَ القدر.

وقال: من يعبدُ اللهَ تعالى لأجلِ الجنة، فهو أَجيرٌ لنفسه، ومن يعبدُهُ له سبحانه، فهو جاهل، لأنَّ الله تعالى غنيٌّ عنه، وعن عبادته، والعبدُ يتوهَّمُ أن يعمل لله.

أقول: ولكن طريق العبدِ في العبادة أن يعتقدَ أنَّ الله تعالى هو المستحقُّ للعبادة، فيعبدُهُ لذلك، لا لأنه تعالى مُحتاجٌ إلى عبادةِ أحدٍ، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا..

وقال: أبعدُ رجالِ الله تعالى منه من لا يذكره كثيرًا[٢]. لأن من عرفَ اللهَ تعالى كلَّ لسانُه.

---

(١) حديث تذكره الصوفية، وهو في «الرسالة القشيرية» بلفظ: لي وقت لا يسعني فيه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل. انظر كشف الخفا ٢/ ٢٤٤ (٢١٥٩).

(٢) في الأصل: من يذكره كثيرًا لا من.

وقال: من تعظيمِ حُرماتِ الله تعالى أن لا ينظرَ إلى الكونَيْنِ، ولا يلتفتَ إلى شيءٍ منها.

وقال: خلقَ اللهُ الرُّوحَ من مصادقة صفتي الجلال والجمال.

وقال: لو ظهرَ روحٌ - وإن كانت لكافرٍ - يُوشكُ أن يسجدَ لها الناسُ، وذلك لغايةِ حُسنها وبهائها ولطافتها.

وقال: الجسدُ كلُّه مُظلمٌ، وسراجه السرُّ، فمن لم يكن هذا السرُّ فهو في الظُّلمة أبدًا.

وقال: أَحوالُ الخلقِ قسمةٌ قسمَها الله تعالى، وحكمةٌ قدّرها الله تعالى، فلا مجالَ للحيلة والحركة فيها.

وقال: إنَّ الله تعالى لا يرضى عن العباد بطاعاتهم، ولا يسخطُ عليهم لأجلِ معاصيهم؛ بل الوليُّ وليٌّ من الأزل، والمسخوطُ مسخوطٌ من الأزل.

وقال: مَنْ علمَ أنّه مخلوقُ الله تعالى، والأشياءُ كلُّها منه وله، فيستغني عن جميعِ ما سوى الله تعالى.

وقال: لا تصحُّ المحبَّةُ للأغراض.

في السرِّ إثراءٌ، وللشواهدِ في القلبِ خطرٌ، بل صحَّةُ المحبَّةِ أن ترى الأشياءَ كلَّها مستغرقةً في مشاهدةِ المحبوب، ويصيرُ المحبُّ فانيًا من المحبوب بالمحبوب.

قال: توجدُ الرحمةُ في جميع الصفات إلاّ في المحبة، إذ ليس فيها رحمةٌ أصلاً، بل يُقتلُ المُحبُّ عمدًا، ولا تُطلبُ دية.

وقال: العبوديةُ أن لا يبقى لك اعتمادٌ على حركتكِ وسكونك، فإذا وصلَ العبدُ إلى هذا المقام، وصلَ إلى حقِّ العبودية.

وقال: التوبةُ المقبولة، ما تكون مقبولةً قبل الذنب.

وقال: الخوفُ والرجاء بترك العبدِ سوءَ الأدب.

وقال: التوبةُ النصوحُ ما لا يبقى معها أثرُ المعصيةِ لا ظاهرًا ولا باطنًا.

وقال: إذا تكبَّرَ أهلُ الزهد على أبناء الدنيا، فيكون مُدَّعيًا في زهده، لأنَّه لو لم يكن في قلبه رونقٌ واعتبارٌ للدنيا، لم يتكبّر على غيرِهِ بسبب إعراضِهِ عنها.

وقال: من يفخرُ بالزُّهد في شيءٍ، ليس له عند اللهِ اعتبارٌ ومحلٌ مقدارَ جناحِ بعوضة.

وقال رحمه الله: الصوفيُّ من لا يُحدّثُ عن الأغنياء، وصار سرُّه منوّرًا بنورِ الفكرة.

وقال: لا تصحُّ معرفةُ العبد ما دام يكون ملتفتًا إلى أنه مشغولٌ بالحقِّ، ومحتاجٌ إليه جلّ جلاله، فإن رؤيةَ الاشتغال ومشاهدةَ الاحتياج أيضًا حجاب.

وقال: لا يصلُ إلى مقامِ الأُنس من ليسَ له وحشةٌ عن الكونَيْنِ.

وقال: انتظارُ العوضِ على الطاعة ليسَ إلاّ من نسيانِ الفضل.

أقول: فإنَّ من نسيَ فضلَ الله، فلا جرمَ أنّه يطلبُ لطاعتِهِ عوضًا من الله تعالى، ومن لا، فلا؛ فإنَّ فضلَ الله عزَّ وجلَّ أعظمُ وأجلُّ من أن يتفضّلَ على أحدٍ لأجلِ عوضٍ، فإنّه الجوادُ على الإطلاق، والجودُ على ما قيل: هو بذلُ ما ينبغي، لا عوضَ ولا غرض. [والله أعلم].

وقال: لا يصحُّ توحيدُ الموحّد إلا بعد أن يصيرَ من فوق سُرادقات العرش إلى منتهى ما تحت الثرى. كلُّ ذرّةٍ من ذرات الكون مرآةٌ له، يُشاهدُ فيها نورَ التوحيد.

وقال: اتّبعوا الرضا ما قدرتُم، ولا تكونوا بحيث يجعلكم الرضا تابعًا له، فتُحرموا حينئذ عن لذّةِ الرؤية.

و: عليكم أن لا تغترُّوا بحلاوة الطاعة والعبادة، فإنها سمٌّ قاتل.

وقال: السرورُ بالكرامات من الغرورِ والجهل، والالتذاذُ بالإفضال نوع من الغفلة.

وقال: لا تكونوا ممّن يقابل إنعامه بالطاعات، وليكنِ العبدُ ابنَ الأجل لا ابنَ العمل.

أقول: يريدُ أنَّ وراء الطاعة إلى العبادة الظاهرةِ أمورًا أخرى لا بدَّ منها كالمحبّة، والاشتياق، والوجد، والاستغراق في التوحيد، والفناء عند الشهود إلى غير ذلك، وليكنِ العبدُ مُنتظرًا كلَّ ساعةٍ لأجله لا لعمله؛ فإنَّ الانتظار للعمل إنَّما هو من رجاءِ البقاء، ورجاءُ البقاء يُورثُ نسيان الموت، ويصيرُ سببًا لطول الأمل، وينشأ منه مُهلكاتٌ كثيرة، نجّانا الله تعالى بكرمه عنها. [والله أعلم].

وقال: العملُ بحركات القلب أكثرُ وأفضل منه بحركات الجوارح.

وقال: لا أقول هذا لأن تتركَ العملَ بالجوارح؛ بل مقصودي أن لا تقتصرَ عليه، بل تعمل بالجوارح، وتجهدُ مع ذلك في أعمال القلب أيضًا[1].

وقال: من ذكرَ القسمةَ، وما جُعِلَ له في الأزل، يَصير فارغًا عن السؤال والدُّعاء.

وقال: إذا قال العبدُ في أول صلاته: الله أكبر، فمعناه أن الله تعالى أكبرُ وأَجلُّ من أن ينال بمثل هذا الفعل، إذ الانقطاع منه والاتصال إلى رحمته ليس بسببِ الحركاتِ، بل بالقضاءِ السابق في الأزل، لكنَّ هذه الحركات علامةٌ وأمارةٌ لا علّةٌ على ذلك القضاء[2].

وقال: المسلمون على ثلاث طبقات: الأول: قومٌ منَّ الله تعالى عليهم بأنوارِ الهداية فعصمَهم بها عن الكفر والشرك. والثانية: منَّ عليهم بأنوار العناية فعصمَهم بها عن الصغائر والكبائر. والثالثة: قوم منَّ عليهم بالكفاية فعصمهم بها عن الخواطرِ الفاسدة، وعن حركاتِ أهل الغفلة.

وقال: احتقارُ الفقر، وسرعةُ الغضب، وحبُّ الجاه دليلٌ على رؤية النفس، وخلعٌ للعبودية، ومعارضةٌ مع الحقِّ جلَّ كبرياؤه.

---

(١) في الهامش كُتب: وأن ينقطع عنه أحد بترك هذا الفعل.
(٢) في الهامش كُتب: عبادة لا علامة وإن علت.

وقال: مَن عرفَ اللهَ تعالى غابَ عن نفسه، وخاض في لُجَّةِ بحر الشوق، وذاب فيه.

وقال: أعلى مقاماتِ الخوف أن يخافَ العبدُ عن الابتلاء بالمقتِ والإعراض عنه.

وقال: تظهرُ حقيقةُ الخوف وقتَ الموت.

وقال: علامةُ الصادق أن يكونَ بالجسد مع الإخوان، وبالقلبِ مع الله تعالى وحده.

وقال: ينبغي للسالكِ أن لا تكونَ له خصومةٌ مع أحدٍ، ولا لأحدٍ معه، وذلك لقوّةِ المعرفة.

وقال: الفزعُ الأكبرُ حين يُنادي مُنادٍ: «يا أهل الجنة، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النارِ خلودٌ ولا موت[(١)]» ثم يُقال لهم ـ أي أهل النار ـ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقال: اختيارك بما جرى في الأزل خيرٌ من المعارضة في الحال.

وقال: خصلةٌ تتمُّ بها محاسنُ الخصال[(٢)] الحميدة كلّها، وبتركها توجدُ الرذائلُ كلُّها هي الفراسة.

وقال: الفراسةُ نورٌ يلمعُ في القلوب، وتحصل به المعرفةُ المكنية في الأسرار، حتى يُبصر بها الأشياء بإرادةِ الله تعالى إيّاه، ثم هو يُخبر بما رأى عن ضميرِ الخلق.

وقال: كانت لهذا القومِ إشاراتٌ، ثم حركاتٌ، فما بقي الآن سوى الحسراتُ ـ أي على ما فاتَ عنهم من تلك الإشارات.

---

(١) حديث رواه البخاري (٤٧٣٠) في التفسير، باب: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾، ومسلم (٢٨٤٩) في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والترمذي (٢٥٦١) في الجنة، باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار.

(٢) الأصل: المحاسن الخصال.

وقال: ظهرَ اليومَ قومٌ سمُّوا سوءَ الأدب إخلاصًا، وتركَ الحياءِ انبساطًا، ودناءةَ الهمَّةِ جلادةً، فكلُّ هؤلاء انحرفوا عن الطريق، ويسلكون مذمومَ السبيل، فالمعيشةُ في مشاهدتهم مرّةٌ ونقصانٌ للروح، فإن تكلّموا فبالغضب، وإن خاطبوا فبالكِبْر، ونفسُهم تخبرُ عن ضمائرهم، وحرصهم على الأكل، يُنادى على ما في أسرارِهم: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال: ابتُلينا بزمانٍ ليس فيه آدابُ الإسلام، ولا أخلاقُ الجاهلية، ولا أحلام المروءات.

وقال: أخذوا زقًا وملؤوه من الكلاب وشيءٍ من الملك، وسلّموه إليَّ، وأنا أجتهدُ طولَ عمري في دفع هذه الكلاب عن أن يقع في الناس.

سئل الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: هل عبرَ أحدٌ عن مقام النبيِّ عليه السلام؟ قال: [ما] وصلَ أحدٌ إلى مقامه عليه السلام، فمن ادّعى أنّه وصلَ إلى مقامه فهو زنديقٌ، فكيف من ادّعى أنّه عبَرَ، فإنَّ نهايةَ درجاتِ الأولياء بدايةُ درجاتِ الأنبياء عليهم السلام.

أقول: قيل: ونهايةُ درجات الأنبياء عليهم السلام بدايةُ درجاتِ المرسلين، ونهايةُ درجات المُرسلين بدايةُ درجات أُولي العزم، ونهاية درجات أولي العزم من الرسل بدايةُ درجاتِ نبيِّنا محمد عليهم السلام. [والله أعلم].

نقل: أن جماعةً من أصحابه استوصوه، فقال: حافظوا على إرادة الله فيكم.

واستوصاه آخر، فقال: واظبْ على رعايةِ أوقاتك وأنفاسك.

رحمه الله، ورضي عنه، وأمطرَ عليه من سحائب اللُّطفِ زُلالَ الكرم والرُّضوان، وجعلنا في رحمته ولطفه وكرمه ببركةِ هذا الشيخ وطاعاته وعباداته وحالاته من الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون، وحشرنا مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآله الطيبين وعترته الطاهرين أجمعين.

* * *

(٨٣) أبو علي الثقفي(١)

ذكر الشيخ أبي علي الثقفي رحمه الله:

كان قدّسَ اللهُ سرَّه إمامَ وقته، وعديمَ النظير في زمانه.

وصحب أبا حفص الحداد، وحمدون القصّار رحمهم الله.

والتصوف في نيسابور منه اشتهر.

ومات رحمه الله سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة(٢).

وكان رحمه الله كاملاً في العلوم الشرعية، ماهرًا في كلِّ الفنون، وتركَ كلَّها واشتغلَ بالتصوف، ودخل بين الصوفية.

وكان [له] بيانٌ عجيب، وخُلقٌ عظيم، حتى نقلُ أنَّ جارًا له كان يلعبُ بالحمام، وحماماتُهُ كانت تقعُ على حائط الشيخ، وذلك الرجلُ يَرمي إليها بالحصيات، ويصيحُ ويُعيّطُ ويُشوّشُ الشيخ وأصحابَهُ، وهم في غايةِ المشقّة منه، إلى أن رمى بحصاةٍ وقعتْ على جبهةِ الشيخ وكسرتها، ففرحَ الأصحابُ وقالوا: الآن يبعثُ الشيخُ إلى الحاكم(٣) ويعرّفُهُ الحالَ، ويؤدّبُ الحاكمُ هذا الرجل، ونستريحُ من إيذائه، وهم في هذا الفكر أنَّ الشيخَ رفعَ رأسهَ، وأمرَ

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب، وترجمته في:
طبقات الصوفية ٣٦١، الرسالة القشيرية ١٠٠، الأنساب ٣/ ١٣٥، مناقب الأبرار ٦٨٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٨٠، الوافي بالوفيات ٤/ ٧٥، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٠، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٩٢، طبقات الإسنوي ١/ ٣٢٥، طبقات الأولياء ٢٩٨، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٧، نفحات الأنس ٢٩٨، طبقات الشعراني ١/ ١٠٧، الكواكب الدرية ٢/ ١٥٣، شذرات الذهب ٢/ ٣١٥.

(٢) في الأصل: ثمان وعشرين وثمان مئة.

(٣) في الأصل: إلى الحكام.

بعضَ التلامذة أن يمشي إلى البستان، ويأتي بعودٍ طويل، فلمّا جاءَهُ به التلميذُ، أخذه وبعثَهُ إلى ذلك الجار، ووصّاه بأن يُهيّجَ الحمام بَعْدُ بذلك العود؛ لئلا يتأذّى آخرُ من الحصيات التي كان يرميها، ولمّا اطّلعَ الرجلُ على الحال، وعرفَ غايةَ حلمِ الشيخ رحمه الله وتواضعه له، تابَ عن فعله، وتركَ اللعبَ بالحمام، وما كانتْ إلاّ ببركة حلم الشيخ.

نقل أنه قال: التقيتُ يومًا بثلاثة رجالٍ وامرأة قد حملوا جنازةً، فأنا دخلت تحتها، وحملتُ الطرفَ الذي حملته المرأةُ، وذهبنا بها إلى المقابر، وصلّيتُ عليها، ودفنّاه، ثم سألتُهم عن الميت، وعن حقارته، قالوا: إنّه كان مخنّثًا، واستنكفتِ الناسُ عن حمل جنازته. فترحّمْتُ عليه، ورجعنا، ورأيتُ تلك الليلة في المنام رجلاً منوَّرَ الوجه مثلَ البدر، وعليه لباسٌ فاخرة، جاء إليَّ مُبتسمًا مسرورًا، فقلتُ: من أنت؟ قال: المخنَّثُ الذي صلّيتَ عليه أمس، دفنتني وعاونْتَ في حمل جنازتي، فرحمني اللهُ وغفرَ لي بسبب تحقيرِ الناس إيّاي.

ومن كلامه ما نقل أنه قال: لو أنَّ رجلاً جمعَ العلومَ كلَّها، وصحبَ طوائف الناس لا يبلغُ مبلغَ الرجال إلاّ بالرياضة من شيخٍ أو إمامٍ أو مُؤدّبٍ ناصح، ومن لم يأخذْ أدبَهُ من أستاذٍ يريه عيوبَ أعماله، ورعوناتِ نفسه لا يجوزُ الاقتداء به في تصحيحِ المعاملات.

وقال: يأتي على هذه الأمةِ زمانٌ لا تَطيبُ المعيشةُ لمؤمنٍ إلاّ بعد استناده إلى مُنافقٍ.

وقال: أفٍّ من الاشتغالِ بالدنيا إذا أقبلَتْ، وأفٍّ من حسرتها إذا أدبرت.

و: العاقلُ من لا يركنُ ببلاءِ شيءٍ[١] إذا أقبلَ كان شُغلاً، وإذا أدبرَ كان حسرةً.

---

(١) كذا في الأصل، وفي طبقات الصوفية ٣٦٤: لا يركن إلى شيء.

وقال: لا تطمعُ في قوامِ رجلٍ ما قوموه[١].

وقال: مَنْ صحبَ الأكابرَ ولا يراعي ذمتهم يُحرمُ عن فوائدِهِم وعن بركاتِ أنظارهم، ولا يظهرُ عليه شيءٌ من أنوارهم.

وقال: الفرعُ الصحيحُ لا يتفرَّعُ إلاّ على الأصلِ الصحيح.

وقال: من أرادَ أن تصحَّ أفعالُهُ، ويثبتَ هو على جادَّةِ السُّنةِ، فعليه بالإخلاص أولاً، فإنَّ الأعمالَ الظاهرة لا تصحُّ إلاّ بتصحيح الإخلاص في الباطن.

وقال: لا تعملوا لله عملاً إلاّ عملاً صحيحًا، ولا تجعلوا له تعالى العملَ الصَّحيحَ إلاّ إذا كان خالصًا، ولا تقدّموا الخالصَ[٢] إلاّ إذا كان مُوافقًا للسنة.

وقال: ينبغي أن لا يكونَ الرجلُ غافلاً عن أربعِ خصالٍ: الأولى: صدقُ القول. الثانية: صدقُ العلم. الثالثة: صدقُ المودَّة. الرابعةُ: صدق الأمانة.

وقال: العملُ حياةُ القلب، ونورُ العين من ظُلمة الجهل.

وقال: ويلٌ لمن باعَ الأشياءَ كلَّها بلا شيءٍ، واشترى اللاشيءَ بالأشياء.

أقول: يريدُ بالأشياء نعيمَ الآخرة، وباللاشيء نعيمَ الدنيا، وذلك ظاهر، والله أعلم.

رحمه الله، وحشرهُ مع الأبرار، وحشرنا في زمرتهم، إنه غفورٌ رحيم، حكيمٌ كريم، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) في طبقات الصوفية ٣٦٤: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تأديب من لا يتأدب.

(٢) وتقرأ: ولا تقوّموا الخالص.

(٨٤) جعفر الخُلْدي(١)

ذكر الشيخ جعفر الخُلْدي رحمه الله :

كان رحمه الله عالمَ زمانه، كاملاً في علم الطريقة، وكان من كبراءِ أصحاب الجُنيد وقدمائهم، وفي أنواع العلوم مُتبحّرًا، وفي معرفة الحقائق متعيّنًا، وله كلمات عالية.

نقل أنه رحمه الله حجّ ستين حجّةً، وكان له تلميذٌ اسمُه حمزة العلوي، ففي بعض الليالي قصدَ أن يتوجَّهَ إلى بيته، وكان له أهلٌ وعيال، وأشار إليه الشيخُ بالوقوف وعدم الرواح، ولكن أراد أهلُهُ أن يُعلّقوا طيرًا في التنور، ويطبخوا طعامًا لأطفالهم، فقال حمزةُ في نفسه: إن بتُّ الليلةَ عند الشيخ فلا بدَّ وأن أُصلّي معه الصُبح، ثم أبقى عنده إلى صلاة الضُّحى، والأطفالُ يتأذّون بالانتظار، فتعلَّلَ بشيءٍ، ورجع إلى منزله، فلمّا أُخرجَ الطيرُ من التنور، ووُضعَ بين يديه دخلَ من الباب كلبٌ وأخذَ الطيرَ عند غفلة الحاضرين، وهرب، فأتوا

(١) هو جعفر بن محمد بن نصير الخوّاص، ترجمته في: طبقات الصوفية ٤٣٤، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨١، تاريخ بغداد ٧/ ٢٢٦، الرسالة القشيرية ١٠٨، الأنساب ٥/ ١٦١، صفة الصفوة ٢/ ٤٦٨، المنتظم ٦/ ٣٩١، مناقب الأبرار ٧٨٧، معجم البلدان ٢/ ٣٨٢ (الخُلْد)، اللباب ١/ ٤٥٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٤٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٥٨، مرآة الجنان ٢/ ٣٤٢، الوافي بالوفيات ١١/ ١٤٢، البداية والنهاية ١١/ ٢٣٤، طبقات الأولياء ١٧٠، غاية النهاية ١/ ١٩٧، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٢٢، نفحات الأنس ٣٢٧، طبقات الشعراني ١/ ١١٨، الكواكب الدرية ٢/ ٦٥، شذرات الذهب ٢/ ٣٧٨.

قيل له الخُلدي ـ ولم يسكن محلّة الخُلْد في بغداد ـ لأنه كان يومًا عند الجُنيد، فسئل الجُنيد عن مسألةٍ، فقال الجنيد: أجبْهم. فأجابهم، فقال: يا خُلدي من أين لك هذه الأجوبة. فبقي عليه.

وفي الأصل: أبو علي الفارمذي، وهو خطأ. انظر الحاشية (١) صفحة (٢٩).

بالجَواذب التي تحت الطير، فتعلّقَ ذيلُ الخادمة بشيءٍ، وانقلبَ الطعامُ على الأرض، وانصبَّ، فلمّا أصبحَ دخلَ على الشيخ، فحين وقعَ بصرُ الشيخ عليه، قال له: يا حمزة، من لم يحفظْ قلوبَ المشايخ يُسلّط عليه كلبٌ يؤذيه.

نقل عن أبي علي الفارَمَذي[١] رحمه الله أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، ما التصوُّف؟ فقال ﷺ: هو تركُ الدَّعوى، وإخفاءُ المعنى.

وسئل أبو علي عن التصوف، فقال: التصوُّفُ طرحُ النفس في العبودية، والانخلاعُ عن البشرية، والنظرُ إلى الله تعالى بالكلّية[٢].

وسئل عن تلوين الفقراء، فقال: تلوينُهم ـ أي انتقالهم[٣] من حالٍ إلى حال ـ لأجل زيادتهم وتكميلِ أحوالهم، لأنَّ من ليس له تلوينٌ ليس له زيادةٌ.

وقال: إذا رأيتَ فقيرًا يأكلُ كثيرًا فاعلمْ أنّه لا يخلو عن أحوالٍ ثلاثة: إما أنّه قد مضى عليه وقتٌ لم يكنْ فيه كما ينبغي، أو يأتي عليه وقتٌ لا يكونُ فيه كما ينبغي ـ أي كان فيه خلل ـ أو يكون فيه خللٌ وكثرة لأجلِ ذلك أو لأنّه لا موافقةَ له في حاله.

سُئل عن التوكل، فقال: التوكُّلُ هو أن يكونَ القلبُ على حالةٍ واحدة في الفقر والغنى؛ بل يكون له طربٌ مع الفقر، لا يكونُ مثلُه مع الغنى، فحقيقةُ التوكُّلِ هو الاستقامةُ مع الله في الحالين.

وقال: خيرُ حالات الدنيا والآخرة في صبرِ ساعةٍ.

وقال: الفتوّةُ هي تحقيرُ النفس، وتعظيمُ أهل الإسلام.

وقال: العقلُ ما يُبعدك عن مواردِ الهلكات.

وقال: كنْ لله عبدًا خالصًا ليحفظَكَ عن الأغيار.

---

(١) في (أ) و(ب): وسئل أبو علي عن التصوف. والقول منسوب لأبي تراب النخشبي عن التوكل، انظر الرسالة القشيرية ٢٦٣ ومناقب الأبرار ٣١٥.

(٢) كذا الأصل، ولم أجد هذا القول في المصادر التي بين يدي، ولعلّ نسبته إليه خطأ.

(٣) الأصل: إلى انتقالهم.

وقال: سعيُ الأحرار إنَّما هو للإخوان لا لأنفسهم.

وقال: كن شريفَ الهمَّةِ لا دنيَّها، فإنَّ الوصولَ إلى مقامِ الرجال إنَّما هو بشرفِ الهمَّةِ لا بالمجاهدة.

وقال: إنَّ العبدَ لا يجدُ لذَّةَ المعاملة مع لذَّةِ النفس؛ لأنَّ أهلَ الحقائق قطعوا العلائقَ التي كانت تقطعهم عن الحقِّ تبارك وتعالى.

وقال: مَنْ لا يجتهدُ في المعرفة لا تُقبلُ منه الخدمة.

نقل أنه كان له فصٌّ وقعَ في دجلة وضاع، ثم وجده بين كتبه[١].

وقال أبو نصر السراج رحمه الله: إنّ أبا عليٍّ رحمه الله كان يَدعو بهذا الدعاء: يا جامع الناس ليومٍ لا ريب فيه اجمعْ عليَّ حالي.

مات ببغداد، ودُفن بالشُّونيزية في قرب السَّريِّ والجُنيد رحمهم الله تعالى ونوّر قلوبنا بأنوارِ الهداية واليقين، وصلّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.



* * *

(١) في طبقات الصوفية ٤٣٧: كنْ للهِ عبدًا خالصًا، تكن عن الأغيار حرًّا.
جاء في تاريخ بغداد ٨/ ١٤٨ (طبعة دار الغرب الإسلامي؛ تحقيق الدكتور بشار عواد معروف).

قال جعفر الخُلْدِي: ودَّعت في بعض حجاتي المُزَيِّن الكبير الصُّوفي، فقلت: زوِّدني شيئًا. فقال: إنْ ضاع منك شيءٌ، أو أردتَ أن يجمعَ اللهُ بينك وبينَ إنسانٍ، فقل: يا جامعَ الناس ليومٍ لا رَيْب فيه إنَّ الله لا يُخلف الميعاد، اجمع بيني وبين كذا وكذا، فإنَّ الله يجمع بينك وبينَ ذلك الشيء، أو ذلك الإنسان. فجئتُ إلى الكتَّاني الكبير الصُّوفي فودَّعته، وقلت: زوِّدني شيئًا. فأعطاني فَصًّا عليه نَقْشٌ كأنه طلسم، وقال: إذا اغتَمَمْتَ فانظرْ إلى هذا؛ فإنه يزول غَمُّك. قال: فانصرفتُ، فما دعوتُ الله بتلك الدَّعوة في شيءٍ إلاّ استُجيب، ولا رأيتُ الفَصَّ وقد اغتممتُ إلاّ زال غَمِّي، فأنا ذات يوم قد توجَّهتُ أعبر إلى الجانب الشرقي من بغداد حتى هاجت ريحٌ عظيمةٌ وأنا في السُّمَيْرِيَّة، والفَصُّ في جيبي، أخرجته لأنظر إليه، فلا أدري كيف ذهب منّي، في الماء، أو السفينة، أو ثيابي؟ فاغتممتُ لذهابه غمًّا عظيمًا، فدعوتُ بالدَّعوة وعَبَرْتُ، فما زلتُ أدعو الله بها يومي وليلتها ومن غدٍ وأيامًا، فلمّا كان بعد ذلك أخرجتُ صُندوقًا فيه ثيابي لأغيِّرَ منها شيئًا، ففرغتُ الصُّندوق، فإذ بالفَصِّ في أسفل الصُّندوق، فأخذتُه وحمدتُ الله على رجوعه.

(٨٥) أبو علي الرُّوذْباري[١]

ذكر الشيخ أبي علي أحمد بن محمد الرُّوذْباري رحمه الله:

كان رحمه الله من الكاملين من أهل الطريقة والفتوة، وكان أظرفَ المشايخ وأعلمَهم بالطريقة والحقيقة، وفي المعاملة والرياضة والكرامة والفِراسة كبيرَ الشأن.

بغداديُّ الأصل، وأقام بمصر، ومات سنة اثنين[٢] وعشرين وثلاث مئة.

صحب الجُنيد، والنُّوري، وابن الجلاّء رحمهم الله.

وأهلُ بغداد كانوا مُتواضعين، خاضعين له.

والجُنيد رحمه الله كان قابلاً[٣] بكماله وفضله.

نقل أنَّ فتًى من أصحابه أرادَ أن يُسافرَ، فاستشار الشيخ أبا علي في المُسافرة، فقال له الشيخ: نحن قومٌ لا يكون اجتماعُهم بالوعد، ولا مُسافرتهم ومفارقتهم بالمشورة.

---

(١) طبقات الصوفية ٣٥٤، حلية الأولياء ١٠/٣٥٦، تاريخ بغداد ١/٣٢٩، الرسالة القشيرية ٩٩، مناقب الأبرار ٦٧٦، الأنساب ٦/ ١٨٠، صفة الصفوة ٢/ ٤٥٤، المنتظم ٦/ ٢٧٢، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٦٩، اللباب ١/ ٤١، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٥، العبر ٢/ ١٩٥، دول الإسلام ١/ ١٩٨، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٤٨، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٧٦، مرآة الجنان ٢/ ٢٨٦، البداية والنهاية ١١/ ١٨٠، طبقات الأولياء ٥٠، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٠ (محمد بن أحمد)، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٧، (محمد بن أحمد) نفحات الأنس ٢٩٥، طبقات الشعراني ١/ ١٠٦، الكواكب الدرية ٢/ ١٨، شذرات الذهب ٢/ ٢٩٦.

(٢) كذا.

(٣) كذا الأصل، ولعلّها: قائلاً بكماله.

أقول: مرادُه أنَّ هذا القومِ مُنقادون لقضاءِ الله وقدره، مُفوّضون أمورَهم في جميع أحوالهم إلى الله تعالى، متوكّلون عليه، فإن اجتمعوا فبتقديره، والوعدُ والمشاورة إنَّما هو من ضعف الاعتقاد، ولهذا قيل: من عرف سرَّ القدر استراح. [والله أعلم].

نقل عنه أنه قال: جاء إلينا وقتًا فقيرٌ، وجاء أجلُه، فمات، قال: أدخلناه في القبر، نزلتُ قبرَه، وكشفتُ عن وجهه، وأردتُ أن أضعَهُ على التراب، لعلَّ اللهَ يرحمُهُ لذلَّتِهِ وغُربته، ففتح العينَ وقال: لم تُذلّني بعد أن أعزَّني اللهُ تعالى؟ قلت: يا سيدي، كلامٌ بعد الموت؟! قال: نعم، إنّي حيٌّ، والمحبُّونَ لله تعالى كلُّهم أحياءٌ، وأنا أُعينك غدًا يا رُوذباري.

نقل أنه قال: كنتُ في أيام الشباب مُبتلًى بالوسواس في الطهارة، حتى أنَّ يومًا دخلتُ البحرَ بكرةً، وبقيتُ إلى طلوعِ الشمس فيه متعوبًا جسدي وقلبي، فقلت: إلهي، العافيةَ. فسمعتُ هاتفًا يقول من البحر: العافيةُ في العلم.

نقل أنّه سُئل عن التصوف، فقال: التصوُّفُ لبس الصوف على الصفا، وإذاقةُ النفس ألمَ الجفا، وطرحُ الدنيا على القفا، وسلوكُ طريق المصطفى ﷺ.

وقال: الصوفيُّ من لا يتألَّمُ من الجوع خمسة أيام.

وقال: التصوُّفُ هو العكوفُ على بابِ الحبيب، والتوسُّدُ بالتُّرابِ، وإن ردَّ الحبيب.

وقال: التصوف عصا الأحرار.

وقال: الخوفُ والرجاءُ كجناحَيْنِ، فإن قُطعا امتنعَ الطيرُ عن الطيران، وإن نقصَ أحدُهما انتقصَ الانتفاعُ بالآخر أيضًا[١]، فلذلك إن لم يبقَ الخوفُ والرجاء قَرُبَ الشخصُ من الشِّرك.

---

(١) الأصل: انتقص الانتفاع أيضًا بالآخر أيضًا.

وقال: حقيقةُ الخوف أن لا يكونَ لك مع اللهِ خوفٌ من غيره.

وقال: أن تسلمَ إيّاك[1] بكلّيّتك إلى المحبوب، ولا يبقى لك منه شيءٌ.

وقال: أنفعُ اليقين يقينٌ عظَّمَ اللهَ تعالى في نظرك، وحقَّرَ ما دونه، ويُقرِّب في قلبك الخوف والرجاء.

وقال: الجمعُ سرُّ التوحيد، والتفرقةُ لسانه.

وقال: كيف تحضرُهُ الأشياءُ وهي فانيةٌ بذواتها لديه تعالى شأنه؟! وكيف تغيبُ عنه، وظهورها عنه تعالى؟ سبحان من لا يحضرُهُ الأشياء، ولا يغيب عنها.

أقول: حاصلُ هذا الكلام أنَّ الأشياءَ ليستْ مستقلّةً في ذواتها ووجوداتها؛ بل إن وجدتْ في الأعيان فبإيجادِهِ تعالى، وإن فنيت فأيضًا بإعدام الله. [والله أعلم].

وقال: إن الله تعالى يحبُّ أربابَ الهمم، ولذلك هم يحبُّونه.

وقال: لو زال عنّا نظرةً، لفنيت العبوديةُ عنّا ـ يعني: لا يبقى لنا وجودٌ، والحالُ أن العبوديةَ متفرّعةٌ على الوجود.

وقال: كما أنَّ الله تعالى أَوجبَ على الأنبياء إظهارَ المعجزات والبراهين، كذلك فرضَ على الأولياء إخفاءَ الأحوال والمقامات، لئلا يطَّلعَ عليها الأغيارُ ولا يراها.

وقال: إذا خلا القلبُ عن اليمين واليسار، وخلتِ النفسُ أيضًا عنه، ظهرت من القلبِ الحكمةُ، ومن النفس الخدمةُ، ومن الروح المُكاشفة.

أقول: يُحتملُ أن يكونَ المُرادُ من اليمين الآخرةَ، ومن اليسار الدنيا، أو من اليمين الجنةَ ومن اليسار النار. يعني إذا توجَّهُ العبدُ في جميع حالاته إلى الله تعالى، وقطع التفاتَهُ عمّا سواه صارتْ نفسُه منشأ الخدمة، وقلبُه مصدرَ الحِكم، وروُحُه موردَ المكاشفات. [والله أعلم].

---

(١) كذا الأصل، ولعلّها: الخوف أن تسلم، أو: الرجاء أن تسلم.

سُئل عن السماع، قال: أنا راضٍ بالخلاص عنه رأسًا برأس ـ أي عن السماع.

أقول: يُشير إلى أنَّ السماعَ ضررٌ بلا منفعة. [والله أعلم].

وقيل له: ماذا في رجلٍ يَسمعُ صوتَ آلات الملاهي، ويقولُ: وصلتُ إلى درجةٍ لا يُؤثّر فيَّ خلافُ الحال؟ فقال: صدقَ أنه وصلَ، ولكن إلى سقر.

قيل: ما تقولُ في الحسد؟ فقال: ما وصلتُ إلى هذا المقام، ولا كنتُ فيه، فليس لهذا السؤال عندي جوابٌ، ولكن قيل: الحاسدُ جاحدٌ، لأنّه لا يرضى بقضاءِ الواحد.

نقل أنه قال: الآفةُ في ثلاث خصال: سقمُ الطبيعة، وسقمُ ملازمة العادة، وسقمُ فساد الصحبة.

أقول: معناه من اتَّبعَ مُقتضى الطبيعة، ولازمَ العادة، ولم يجتنبْ عن صحبةٍ لا فائدةَ لها في الدِّين، فهو فاسدٌ في نفسه. [والله أعلم].

ثم قيل له: ما سقمُ الطبيعة؟ فقال: هو أكلُ الحرام. [قيل]: وما سقم ملازمة العادة؟ . [فقال: النظرُ والاستماع إلى الحرام والغيبة. فقيل له: فما فساد الصحبة؟ فقال: كلَّما هاج في النفس شهوةٌ تبعها][1].

قال: العبدُ لا يخلو عن أحوالٍ أربعة: إما نعمةٍ موجبةٍ للشُّكر، أو منَّةٍ مُوجبةٍ للذكر، أو محنةٍ مُوجبةٍ للصَّبر، أو زلّةٍ موجبة للاستغفار.

وقال: لكلِّ شيءٍ واعظٌ، [و] واعظُ القلب الحياء، وأفضلُ كِنٍّ للمؤمن الحياء.

وسُئل عن الوجد في السماع، فقال: هو مُكاشفةُ الأحرار بمشاهدةِ المحبوب.

(١) ما بين معقوفين مستدرك من الرسالة القشيرية ١٨١ (المجاهدة)، ومناقب الأبرار ٦٨١.

وقال أيضًا: طريقٌ بين الصفة والموصوف، فمن نظرَ إلى الصفةِ حُجب، ومن نظر إلى الموصوف ظفر.

وقال: القبضُ أولُ أسباب الفناء، والبسطُ أوّلُ أسبابِ البقاء.

وقال رحمه الله: المُريدُ من لا يطلبُ لنفسه شيئًا سوى ما أراد الله تعالى له، والرجلُ من لا يطلبُ شيئًا من الكونَيْنِ سوى الله تعالى.

وقال: أضيقُ السجن معاشرةُ الأضداد.

أقول: ونقل أنه سُئل عن التصوف، فقال: هذا مذهبٌ كلُّه جدٌّ، فلا تخلطوه بشيءٍ من الهزل.

وقال أيضًا: من الاغترار أن تُسيءَ فيُحسنُ إليك، فتترك الإنابةَ في التوبة توهُّمًا منك أنك تُسامح [عن] الهفوات. [والله أعلم].

نقل أنه رحمه الله عند وفاته كان قد وضعَ رأسَه في حِجْر أختٍ له، ففتح عينَهُ، وقال: أبوابُ السَّماء مفتوحةٌ، والجنة مُزيَّنةٌ، والحورُ معروضةٌ عليَّ، والملائكةُ تُنادي: يا أبا علي، نحن نُوصلُكَ إلى مقامِ ما خطرَ ببالك، والحورُ ينثرنَ عليك، ويُظهرنَ الاشتياقَ إليك. قال: والحالُ أنَّ قلبي يقول: بحقِّكَ يا ربِّ، لا أنظرُ إلى غيرِك؛ فإني قد انتظرتُ عمرًا طويلاً، وأستفكرُ دهرًا كثيرًا، والآن لا طاقةَ لي أن أرجع عنك يالله.

رزقه اللهُ عيشَ السعداء في جوار الأولياء، ونسأله بلطفه وكرمه ومنّهِ وإحسانه أن لا يحرمنا عن صُحبة أوليائه في دار القرار، وعن مُتابعة خيرِ أنبيائه في هذه الدار، إنه وليٌّ كريم، رؤوف رحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين آمين.

* * *

(٨٦) علي الحُصْري[(١)]

ذكر الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم الحُصْري رحمة الله عليه:

كان رحمه الله شيخَ العراق، ولسانَ القوم في وقته، وكان عجيبَ الحال، وصاحبَ عبارات عالية.

وكان بصريًا سكن ببغداد.

وصحب الشِّبلي، وكان مُعتبرًا في عهده.

مات ببغداد سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة.

نقل أنَّ طائفةً من المُفسدين سعوا في حقِّه عند الخليفة، وقالوا: قد اجتمعَ عليه قومٌ يسمعون الغناء، ويرقصون ويطربون. فصادفَهُ الخليفةُ يومًا، وهو في الصحراء، فقال له: ما مذهبُك يا حُصَيري؟ قال: أوّلُ الأمر كنتُ على مذهب أبي حنيفة، ثم انتقلت إلى مذهبِ الشافعيِّ، والآن أنا مشغولٌ بشيءٍ لا أذكرُ مذهبًا. قال الخليفة: وما هو؟ قال الحُصْري: التصوف، ألاَّ يطمئنَّ الصُّوفيُّ في الدارَيْنِ بشيءٍ سوى الله تعالى، ولا يستريحَ بما سوى الله تعالى، ويفوِّضُ أمورَه كلَّها إليه، وهو بفضله يتولاّها. قال الخليفة: وبعد ذلك؟ قال الحُصْري: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] فقال الخليفةُ لأصحابه: لا تشوِّشوا على هذا القوم، فإنّهم كبارُ الأمة.

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨٩، تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٠، الرسالة القشيرية ١١٧، الأنساب ٤/ ١٥٢، مناقب الأبرار ٨٥٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢٠، طبقات الأولياء ٢١٣، البداية والنهاية ١١/ ٢٩٨، نفحات الأنس ٣٤٠، طبقات الشعراني ١/ ١٢٣، الكواكب الدرية ٢/ ١١٣.

نقل عن أحمد بن نصر أنّه بعد أن حجَّ ستين حجَّةً، وكان يُحرِمُ[1] من خراسان، اتّفقَ له أن حدَّثَ في الحرم الشريف حديثًا كأنه كان مطعونًا، وكان هناك يومئذٍ مئتان وثمانون من المشايخ، فكلُّهم اتفقوا على منعِهِ وزجره، وطردوه من الحرم الشريف، فخرج أبو الحسن الحُصْري تلك الساعة من بيته ببغداد، وأشار إلى شخصٍ من الخدَّام بأنَّ أحمدَ بن نصر إذا جاء إلى بغداد، وأرادَ الحضورَ إليه، أن يمنعَهُ من الدخول عليه، والحالُ أنَّ أحمدَ بن نصر كان من أصدقاء الشيخ، ويزورُهُ كلَّ سنةٍ في سفره للحجِّ، ثم بعد مدّةٍ جاء أحمد بن نصر إلى باب الحُصْري رحمه الله، وأرادَ الدخول، منعَ ذلك الخادمُ، وقال: لا طريقَ لك إليه. قال: لِمَ؟ قال الخادم: لأنَّ الشيخَ من البيت في اليوم الفلاني، في الساعة الفلانية أمرني بهذا المنع. فعلِمَ أحمدُ أنّه كان من اليوم الذي طردوه من الحرم، وفي تلك الساعة، فخرج أحمدُ على وجهه، وأُغمي عليه، وبقي على تلك الحالة أيامًا، ثم طلعَ الشيخُ الحُصْري يومًا، وقال: يا أحمد، ما جرى عليك ما جرى إلاّ لأجلِ إساءتك الأدبَ في الحرم الشريف، وحصلَ لك سقوطٌ عن نظر المشايخ، وليس لك إلاّ تدبيرٌ، الآن تمشي إلى بعضِ نواحي الروم بين الكفّار، وترعى الخنازير سنةً، وبالليل تدخلُ مكانًا خرابًا، وتُصلّي إلى الصبح، وإيّاكَ وأن تنامَ لحظةً، لعلَّ الله تعالى يُميلُ إليك قلوبَ عباده الصالحين. فقبلَ أحمدُ بن نصر كلامَ الحُصري رحمهم الله، وتوجَّهَ إلى الروم، وغيّرَ زِيَّهُ ولباسه، ولبسَ ثياب المذلَّة، واشتغلَ سنةً يَرعى الخنازير، وكان يأوي بالليل إلى خربةٍ، ويشتغلُ بالعبادة، ثم بعد تمام السنة رجعَ إلى بغداد، وجاء إلى باب الشيخ الحُصْري رحمه الله، فقال له الخادم الذي منعَهُ أولاً عن الدخول: استعجلْ؛ فإنَّ الشيخَ اليومَ طلعَ من البيت سبعَ مرات، ولم يكن طلوعُهُ إلاّ انتظارًا لقدومك، واستقبالاً لك. فلمّا سمعَ الشيخُ صوته عرفه، وخرجَ إليه عاجلاً، واحتضنَهُ ورحَّبَهُ، وفرح به، وقال: يا أحمد، أنت ولدي، وقرّةُ عيني. فأحمدُ من غاية سروره توجَّه إلى مكة، وقطعَ البادية

(١) في الأصل: وكا يحرم.

حتى وصلَ إليها، فاستقبلَهُ المشايخُ، وأعزُّوه، وأكرموه، وكلٌّ منهم قال له: ولداه، وقرّةَ عيناه. ولم يصدرْ منه ذنبٌ سوى أنه حدّثَ في الحرم حديثًا مطعونًا، ونسبوا إليه سُوءَ الأدب. والمنكرون نهوه عن ذلك وأدّبوه كما سمعتَ، والآن نرى الجهلة المتيسّرين يرى أهلُ العلم يذكرون المنكرات في الأسواق ولا ينكرُ عليهم أحد(١).

أقول: اليومَ ترى طائفةً مزوّرين(٢) يسعون في إفسادِ الدِّين، ومخالفةِ الشريعة لسيد المرسلين لأجل أغراضِهم الدُّنيوية، وهم يَحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا، فسحقًا لهم وجدعًا، إذ لا يخافون لومةَ لائم، ولا يفزعون الأخذ بالجرائم، أعاذنا الله تعالى عن مَكائدِ النفس، ومَصائد الشيطان، فإنّه المُستعانُ، وعليه التُّكلان. [والله أعلم].

نقل أن أبا الحسن الحُصْري رحمه الله قال: كنتُ وقت السحرِ في مناجاةِ مع الله تعالى، فقلت: إلهي، ليتني أعلمُ، هل أنت راضٍ منّي أم ساخطٌ؟ فإنّي راضٍ منك. فسمعتُ هاتفًا يقول: يا كذّابُ، لو كنتَ أنت منّا راضيًا لما طلبتَ رضاءنا.

ونقل أنه قال رحمه الله: لا يتكلّمُ الحُصْري بالقوافي، ولكن لي أورادٌ من أيام الشباب، لو تركتُ منها ركعةً لعوتِبتُ عليها، وعُوقبت على تركها.

وقال: أصولُ التوحيد خمسةُ أشياء: رفعُ الحدث، وثباتُ القدم، والمهاجرةُ عن الوطن، ، والمفارقةُ عن الإخوان، ونسيانُ ما تعلم وما لا تعلم.

أقول: المرادُ برفع الحدث هو: الطهارةُ عن الحدثِ الأكبر والأصغر، والمرادُ بالحدث الأكبرِ هنا هو الشِّرك، وبالحَدَثِ الأصغر سائر الذنوب والمعاصي. أو المُرادُ بهما: الاغترارُ بزخارف الدنيا، ومُتابعة النفس في

---

(١) كذا في الأصل، ولعلّ الصواب: والآن يَرى أهل العلم الجهلة يذكرون المنكرات في الأسواق، ولا ينكر عليهم أحد.

(٢) كذا الأصل: وتقرأ: طائفة مغرورين.

ميولها. والمراد بثبات القدم هو: الصبرُ على ذلك. والمُراد بنسيان ما تعلم وما لا تعلم: تركُ ما يتعلّق به القلم[١] ويحيطُ به، سواءً كان في الاستقبال أو في الحال، وتحققت[٢] الأصول تشرقُ شمسُ التوحيد من أُفق الغيب، ويستنيرُ بها قلبُ العارف، ويزداد بالمعرفة إيمانًا وعلمًا وإيقانًا، وهناك يصلُ ألمُ المريض إلى الطبيب، والمحبُّ إلى المحبوب، رزقنا الله تعالى. [والله أعلم].

وقال: إنَّ الله تعالى خلقَ آدم بلا واسطةِ الغير، وأسجدَ له الملائكةَ، ثم أمره بأمرٍ ـ يعني نهاه عن أكل الشجرة ـ فما انتهى، وخالف النهي، فلمّا كان أول الجرعة دُرْدِيًا[٣] فما ظنُّكَ بآخرها. يعني: إنْ خُلّي الإنسانُ مع طبعه فلا يصدرُ عنها إلاّ العناد والمخالفة، وإن لوحظَ بعين العنايةِ، فلا يظهرُ منه إلاّ المحبةُ والموافقة.

وقال: من لم يضربْ بسيف الإنكار رأسَ ماله اسم ورسم[٤].

و: [إن] لم تجعلْ ساحةَ قلبك عن كلِّ مقولٍ ومعلومٍ خاليةً، لا تظهرُ ينابيعُ الحكمة عن قعر قلبك.

وقال: من ادّعى في شيءٍ من الحقيقة، كذّبته شواهدُ كشفِ البراهين.

وقال: القعودُ مع التدبُّرِ والتفكُّر في حالِ المشاهدة ساعةً خيرٌ من ألف حجّةٍ مقبولة.

وقال: القعودُ على هذه الصفة خيرٌ من ألفِ سفر.

وقال: سألتُ بعضَهم عن الزهد، فقال: تركُ ما أنتَ فيه لِمَا أنت له.

وسُئل الحُصْري رحمه الله عن الطائفةِ الملاماتية[٥] ـ وهم الذي تركوا زينةَ

---

(١) كذا الأصل، ولعلّها: يتعلّق به القلب.
(٢) كذا الأصل، ولعلّها: وبتحقيق الأصول.
(٣) الدُّرْدِيُّ: ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان والزيوت. اللسان.
(٤) كذا، ولعلها: رأسه ما له اسم ولا رسم.
(٥) تقدم التعريف بها صفحة (٤٠٢) الحاشية (٣).

الظاهر ـ فشهق شهقة، وقال: لو كان في دُورنا نبيٌّ لكان منهم.

وقال: ما أعملُ بسماعٍ مُنقطع، بل السماعُ هو أن لا ينقطعَ سماعٌ عن سماعٍ.

أقولُ: المرادُ بالسماع المُتَّصلِ الذي لا ينقطع هو السماعُ بسمعِ الباطن، المُستمدُّ من الفيض الرحماني الدائم الثابت أزلاً وأبدًا، وبالمَسموع الواردات والإلهامات.... التي لا.... لها[1] ولا نهاية، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] لا يسمعُ الظاهر الذي هو آلةٌ جسمانية وهي عصبةٌ مغروسةٌ في مقعر السماع على هيئة نسيجِ العنكبوت، تُدركُ الأصواتَ عند وصول الهواء المتموّجِ المتكيّفِ بكيفية ذرِّ الصوت، شرط تطلّع أو قرع عينيه لها، لأنَّ هذا السمعَ يتغيّرُ بتغيّرِ الآلة، وينقطعُ عند طروءِ الآفة لها، بخلاف الأول. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الصوفيُّ من إذا فنيَ عن شيءٍ ـ أي تركه بقلبه ـ لا يرجعُ إليه أبدًا، وإذا توجَّه إلى الله تعالى فلا يرتدُّ عنه، ولا يُعرضُ عنه أبدًا، ولا تُؤثِّرُ فيه حادثةٌ من الحوادث أبدًا.

وقال رحمه الله: الصوفيُّ من لا يجد مَوجودًا بعد عدمه، ولا معدومًا بعد وجوده.

أقول: وهذا الكلامُ قريبٌ من الأول، ومعنى قوله: من لا يجد موجودًا بعد عدمه، أنه إذا تركَ شيئًا، وانعدمَ عنه، يبقى في هذا الانعدام، ولا يرجعُ إلى الحالةِ الموجودة أولاً، ثم بعد الانعدام إذا توجَّه إلى الله تعالى، وحصلَ له وجودُ هذا التوجّه، فلا يرجعُ إلى الحالةِ المعدومة أولاً، وهذا معنى قوله: ولا معدومًا بعد وجوده. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الصوفيُّ وجده وجوده، وصفاتُه حجابه.

---

(١) كلمتان لم أتبينهما.

أقول: معناه أنَّ العارفَ إذا نظرَ إلى وجودِ الحقِّ وجدَ وجوده فانيًا عنده؛ بل وجودَ جميع الكائنات، وقالوا: إذا فنيَ فحينئذٍ يَصيرُ موجودًا بالاستمدادِ من وجودِ الحقِّ، وإلاّ فليسَ بموجودٍ. يعني: إذا نظرَ إلى وجوده يَجده معدومًا في حدِّ ذاته، وإذا نظرَ إلى صفاتِ نفسه يَصيرُ محجوبًا بصفاته عن الحقِّ جلَّ جلاله، ولذا قيل: بقاءُ العارف في فنائه، وفناؤه في بقائه، ووجودُه في عدمه، وعدمه في وجودِهِ، قال الشاعر:

فوجدي له وجْدٌ بوجدِ وجودِهِ ووجـدُ وجـودِ العـاشقيـن لَهيـبُ

[والله أعلم]..

وقال رحمه الله: التصوُّفُ صفاءُ القلبِ عن المخالفات.

وقال: ما دامَ الكونُ موجودًا فالتفرقةُ موجودة، فإذا غابَ الكونُ ظهرَ الحقُّ، وهو حقيقة الجمع.

أقول: يعني: ما دام العارفُ له نظرٌ والتفات إلى الدنيا، لا يتجلّى له الحقُّ، ولكن إذا عبرَ عن هذا المقام، ولم يَبقَ للدنيا وجودٌ واعتبارٌ من نظره، فحينئذٍ يتجلّى له الحقُّ على قدرِ تجرُّده، فكلّما كانَ تجرُّدُهُ أقوى، كان التجلّي أقوى له، وكلّما كانَ أضعفَ [كان التجلّي أضعفَ له]، وهذا يُسمّى الجمع، والأول التفريق. [والله أعلم]..

نسألُ الله تعالى أن يفيضَ عليه سلسالَ رحمته، وزُلال مغفرته ورضوانه، وأن يشرحَ ببركته صدورَنا بنور الإيمان، ويُجنِّبنا عن الزيغِ والضلالة والغواية، ومتابعة النفس الأمارة والشيطان، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(٨٧) إبراهيم بن شهريار(١)

ذكر الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن شهريار رحمه الله الكازروني:

كان رحمه الله وحيدًا في زمانه، فريدًا في وقته وأوانه، وله نَفَسٌ مؤثِّرٌ، وكلامٌ مقبولٌ، وصدقٌ وإخلاصٌ وورع كامل، وكان في الطريقة ذا نظرٍ حادٍّ، وفي الفراسة ذا اعتبارٍ.

وكان جدُّه مجوسيًا، وعلى المَجوسية خرج من الدُّنيا؛ ولكنْ أبوه وهو شهريار قد أسلم، وولادةُ الشيخ رحمه الله كانت بكازرون(٢)، وله هناكَ زاويةٌ معمورةٌ، وأوقافٌ كثيرة، وله إلى اليوم شهرةٌ في الدنيا، وأعلامٌ باسمه المبارك تُدارُ في أطراف العالم.

نقل أنَّ أربعةَ آلاف من اليهود والمجوس أَسلموا على يده.

وكان رحمه الله يقول: ما أَلْبسُهُ، لا أَلْبَسُ إلاّ لله.

وقال رحمه الله: كم من الناسِ يدعون الله تعالى، ويسألونه خمسين سنةً، وليس لهم حاصلٌ من ذلك ولا ثواب؛ لأنَّ نيَّتَهم ليستْ صافيةً خالصةً تابعةً لسنة رسول الله ﷺ.

نقل أن رجلاً من الأجناد كان يحبُّ أن يَقْبَلَ منه شيئًا، وهو ما كان يقبلُهُ، حتَّى أنَّه أرسلَ إلى الشيخِ رسولاً، وقال: إذا أعتقتُ عددًا من العبيد، وجعلتُ الثَّوابَ لك؟ فقال الشيخ: إعتاقُ الرقيق هيِّنٌ؛ ولكنَّ الرجلَ من يجعلُ الحرَّ عبدًا بالرفق والإحسان.

---

(١) كشف المحجوب ٣٨٨، سيرة عبد الله بن خفيف ٢٥٩، شدّ الإزار ٤٩، نفحات الأنس ٣٦٩.

(٢) كازرون: مدينة بفارس، بين البحر وشيراز. معجم البلدان.

نقل أن الشيخ رحمه الله كان يتكلّمُ للناس، ويعظُهم، وكان هناك شخصٌ من أهل العلم، فخطر بباله: أنّي أكثرُ منه علمًا، والحالُ أنّي لا أجدُ مقدارَ القوتِ إلاّ بمشقَّةٍ عظيمة، وهذا الشيخُ ليس كثيرَ رسوخٍ في العلم، وله هذا القبولُ والجاه، وبيده أموالٌ كثيرة. فلمّا خطرَ هذا بباله نظر الشيخُ في الساعة إلى قنديلٍ معلّقٍ في المسجد، وقال: وقعت معارضةٌ بين الماء والدهن اللذين في القنديل، فقال الماء للدهن: أنا أفخرُ منك وأشرفُ، وأعزُّ وأفضلُ، وأنتَ تصدَّرتَ عليَّ واستقررتَ فوقي، وما هذا إلاّ على خلافِ العادة. فأجابه الدهن وقال: لأنَّكَ لا تدري ما جرى عليَّ من المشقَّة في الزرعِ والحصد والدّياسِ، ثم العرضِ على النار، ثم الدقِّ بحجرِ المعصرة، ثم العصرِ، ومع هذا كلِّه فإنّي أحَرقُ نفسي، وأنوّرُ المسجدَ للحاضرين، فلذلك حصلَ لي تَفوّقٌ عليك، وأنت لا تلحقني لا في الأوّلِ ولا في الآخر.

أقول: قال بعض الظُّرفاء في هذا المعنى:

يرى النَّاسُ دُهنًا في القواريرِ صافيًا ... ولم يدرِ ما يجري على رأس سمسم

[والله أعلم].

فلمّا تمَّ المجلسُ، قامَ الرجلُ وذهب إلى الشيخ، وحكى له الحال، وشرع يُقبِّلُ يديه ورجليه، ويعتذرُ إليه.

نقل أنه قال: عجبتُ من رجلٍ يكونُ له قميصٌ أبيضُ نقيٌّ، ثم يُسلّمه إلى الصبّاغ، ويُعطيه الأجرةَ ليصبغه بالسواد. وكان الفقيه أبو الحسن حاضرًا، فخطر بباله أنَّ الشيخَ يقول كذا، والحالُ أنّ له طيلسانًا مصبوغًا بالنيل، فالتفت إليه الشيخ في الحال، وقال: صِبْغُ طيلساني بنيلٍ جيءَ به لي من كرمان، من وجهٍ حلال.

أقول: كان مُرادُ الشيخِ قدس الله سرَّهُ من القميص إنّما هو: القلبُ الخالي في مبدأ فطرته عن الكُدورات. والمراد بالصبّاغ إنما هو: النفس الأمّارة. وبالسواد الصِّفات الذميمة لها، فإذا سلّم الشخصُ قلبَه إلى النفس ـ يعني جعله

تابعًا لها ـ فالنفسُ تؤثِّرُ فيه تأثيرًا ظاهرًا، وتجعلُه مورد الخبائث. إلى أن سوّد صفحته البيضاء يُريد به ما ورد في الحديث: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على فطرة الإسلام، فأبواه يمجّسانه أو يهوّدانه أو ينصّرانه»[1]. أو المرادُ بالقميص الأبيض: النفسُ الخالية أيضًا في أوّل أمرها عن الذمائم والمدائح أيضًا، ولها استعدادُ اكتساب كلٍّ منهما. والمُراد بالصبّاغ الشيطانُ المُضلُّ المغويُّ. وبالصبغ متابعتُهُ وموافقته التي بها يحصل سوادُ الوجه في الآخرة، نعوذُ بالله من غضبه وسخطه. [والله أعلم].

قال رحمه الله: ثلاثٌ من الطوائف لا فلاحَ لهم: البخيل، والملول، والكسلان.

أقول: يعني الملول من العمل، وهو الذي يَعمل لا عن طيبِ القلب. والكسلان أيضًا في العمل وهو الذي يتركُ العمل رأسًا لكسالته. [والله أعلم].

وقال: قدّمْ أخاكَ في شرعٍ تُريدُه لنفسك، يقدّمْك اللهُ تعالى إلى الجنّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ـ ١١] أو إلى قبض رحمة.

وارداتُ العلم والمعرفة والحكمة من عنده تبارك وتعالى.

وقال: لا ذنبَ أعظمُ من تحقير العبدِ المؤمن.

أقول: وذلك لأنَّ الله تعالى أثبتَ له العزّةَ، وجعلَهُ تلوًا في العزّة لرسوله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فيكونُ تحقيرُه متضمّنًا لتكذيبِ الله تعالى، وذلك كفرٌ، والكفرُ من أعظمِ

(١) روى البخاري في صحيحه (١٣٥٩) في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، والموطأ (٥٢) الجنائز، باب جامع الجنائز، والترمذي (٢١٣٩) في القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، وأبو داود (٤٧١٤) في السنة، باب ذراري المشركين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، وينصّرانه، ويشرّكانه».

الذنوب، ولا شكَّ أنَّ تحقيرَ المؤمن لكونِهِ مؤمنًا. أي لأجل إيمانه. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: التصوفُ أمرٌ صعبٌ، وشغلٌ شديد، يقتضي الفقرَ والجوعَ والعري، وتحمّلَ الجفا عن كلِّ أحدٍ والحقارة، فإن كان لك احتمالُ هذه الأشياء فادخلْ في باب الفقر، وإلاّ فأنت وشأنك.

وقال: يا ضعيفُ، خفْ من القويِّ.

وقال: قال الشيخ: إخلاصُ ساعةٍ سببٌ لنجاةِ الأبد، ولكنّه عزيز ـ أي قليل.

وقال لأصحابه: اجتنبوا عن الاغترارِ بتقرّبِ الناس إليكم، وتقبيلِ الناس أيديَكم؛ فإنّكم لا تعلمون أيَّ آفةٍ فيه.

ونقل أنه كان يقول للمسافرين: إذا وصلتُمْ في سفركم إلى مكانٍ حصلَ لكم فيه ضررٌ فارجعوا عنه، لأنَّ إيصالَ الضرر والمكروه إشارةٌ إلى أن الرجوع خير.

ونقل أنّه رحمه الله تعالى لمّا حضرته الوفاةُ وصّى أن يكتبوا أَسامي الأشخاصِ الذين أَسلموا على يديه، والذين تابوا على يده في صحيفةٍ، وكذلك أسماء الذين زاروه والتمسوا منه الدعاء، ويدفنونها معه؛ ليكون ذلك حجةً له عند ربّه، ففعلوه كما أمر.

نسألَهُ أن يجعلَه من الفائزين بمرضاته، ويسكنَهُ في فراديس جنّاته، ولا يحرمنا بفضله العميم عن إنعاماته وإحساناته، وأن يحشرنا في زمرة نبيِّه محمّدٍ عليه السلام وآله.

* * *

(٨٨) أبو العباس السياري[1]

ذكر الشيخ أبي العباس السياري رحمه الله رحمةً واسعة:

كان اسمه قاسم، وكان من أئمة زمانه، وعالمًا بعلوم الشرع، عارفًا بالحقائق والمعارف.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، وتأدّبَ في صحبتهم.

وهو أوّل من تكلَّمَ بكلام الصوفية[2]، وكان فقيهًا محدِّثًا.

صحبَ الشيخَ أبا بكر الواسطي رحمه الله، وانتمى إليه في علوم هذه الطائفة.

مات سنة ثنتين وأربعين وثلاث مئة.

وكان ابتداءُ حاله على ما نُقل أنَّه كان من بيتِ العلم والرئاسة، ولم يكنْ في مرو أحدٌ مثله في الجاه والقبول، وورث عن أبيه مالاً كثيرًا، فأنفقه في سبيل الله.

ووقعتْ بيده شعرتان من شُعور النبيِّ ﷺ، وحصلَ له ما حصلَ ببركة الشعرتَيْنِ حتى تاب.

---

(١) واسمه القاسم بن القاسم بن مهدي، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٤٤٠، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٠، الرسالة القشيرية ١٠٩، الإكمال ٤/ ٥٠٩، الأنساب ٧/ ٢١٢، مناقب الأبرار ٧٩٨، المنتظم ٦/ ٣٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢١٤، اللباب ٢/ ١٦٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٠٠، طبقات الأولياء ٣٦٦، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠٩، نفحات الأنس ٢١٨، طبقات الشعراني ١/ ١١٩، الكواكب الدرية ٢/ ٥١، شذرات الذهب ٤/ ٢٢٩.

(٢) أول من تكلم بكلام الصوفية من أهل مرو. طبقات الصوفية ٤٤٠.

ووصل إلى أبي بكر الواسطي رحمه الله، وترقّى، وصار إمامَ عهده، وشيخًا للصوفية، وانتسبَ إليه طائفةٌ منهم يُسمّون السيارية.

ورياضتُه ومجاهدته كانت خارجةً عن طرق الأمثال، حتى نُقل أنَّ رجلاً من أصحابه كان يومًا من الأيام يغمزُ برجله، فقال: لا تغمزْ رِجلاً لم تَخْطُ خطوةً في معصية الله تعالى قطُّ.

نقل أنه أتى حانوتَ بقالٍ ليشتري جوزًا، فقال البقال لغلامه: نقِّ له الأجود. قال الشيخ: لتكن وصيّتُكَ هذا لجميعِ الناس؟ فقال البقال: بل هذا مخصوصٌ بك لأجل فضلِك. فترك الشيخ ورجع، وقال: إنّي لا أبيعُ فضائلي بمقدار التفاوت بين الجوزات.

نقل عنه أنه قال: قال بعضُ الحكماء حين سُئل عن وجه معاشه: إنه من خزانة من يُضيّقُ المعاشَ على من يُريد بلا توسُّط علّةٍ، ويوسّعُ لمن يُريد أيضًا بلا علّة.

قال: ظلمةُ الطَّمعِ تمنعُ عن نور المشاهدة.

وقال: لا يستقيم الإيمان لأحدٍ إلاّ بعد أن يتحقَّقَ له الصبرُ على الذُّلّ مثل الصبرِ على العزِّ.

قال: من حفظَ قلبَه مع الله بالصدق، فإنَّ الله تعالى يُجري الحكمةَ على لسانه.

وقال: الخطرةُ للأنبياء، والوسوسةُ للأولياء، والفكرُ للعوام، والعزمُ للمشاق.

أقول: قد ظهرَ من هذا الكلام أنَّ العزمَ على الشيءِ أقوى من الفكر له، وهو أقوى من الوسوسة، وهي من الخطرة، وذلك لأنَّ الخطرةَ ما يخطر بالبال على سبيل الندرة، ثم يزول سريعًا، فإذا قويَتْ تُسمّى وسوسةً، وهكذا إلى الآخرة، وعلم أنَّ الأنبياء عليهم السلام ما كانوا مَعصومين عن الخطرات، وإن كانوا مَعصومين عن الثلاثة الباقية، أما الأول فللدلالة على أنهم على البشر، وأمّا

الثاني فللدلالة على امتيازهم عن البشر بصفاتٍ مخصوصة بهم، والمُراد بالخطرة وأخواتها ما يتعلّقُ بالدنيا، لا مُطلق الخواطر بالبال. [والله أعلم].

قال: إذا نظرَ اللهُ تعالى عبدًا من العباد بالرضا أبعده في الساعةِ عن كلِّ مكروهٍ، وإن نظرَ ـ والعياذ بالله ـ بالسخط، يُظهرُ فيه حالةً يتوحَّشُ ويتنفَّرُ منه كلُّ من رآه ويهرب.

وقال: التوحيد أن لا يخطرَ بالبال ما دون الحقِّ جلَّ جلاله ـ يعني هو أن يغلبَ التوحيد بحيث ما يخطرُ، ينغطسُ في بحر التوحيد.

وقال: ما التذَّ عاقلٌ بمشاهدة الحقِّ قطُّ، لأن مشاهدةَ الحقِّ فناءٌ ليس فيه لذة.

أقول: في إيراد لفظ العاقل هنا فائدةٌ غريبة، وهي أن العارفَ ما دام عاقلاً فهو بمقام العقل ليس له التذاذٌ بمشاهدة الحقِّ كما قال، وأمّا إذا عبرَ عن مقام العقل، وغرقَ في لجّة بحر الجنة فله التذاذاتٌ لا نهايةَ لها في المشاهدة، بلِ العاقلُ مقيّدٌ بعقله، قلّما يصلُ إلى هذا المقام، رزقنا الله تعالى الوصولَ إليه بفضله وكرمه. [والله أعلم].

قيل له: ما مُرادُك؟ قال: ما يعطيني الله تعالى، لأنّه ما من شيءٍ يُعطى الفقير إلاّ ويصيب مَمرّه ويصادف محلّه.

أقول: ولأنَّ ما يعطي الله تعالى فهو مُرادٌ لله، وما هو مُرادٌ له تعالى فهو مرادي، إذ الفقير من لا يكون له مراده، إنّما هو مُرادُ الحقِّ جلّ جلاله. [والله أعلم].

سئل عن رياضة المُريد، قال: هي بالصبر على المأمورات، والاجتناب عن المناهي، والموافقة على صحبة الصالحين.

وقال: العطاء على قسمين: كرامة واستدراج.

أقول: أما الكرامة فللأنبياء والأولياء وسائر المؤمنين، والاستدراجُ للكفار،

قال الله تعالى في حقِّهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. [والله أعلم].

وقال: لو صحَّتِ الصلاةُ بغير القرآن لصحَّتْ بهذا البيت:

أتمنى على الزمانِ مُحالاً ... أن ترى مُقلتايَ طلعة حُرٍّ

أقول: يشيرُ إلى قلّة الأحرار جدًّا، والحرية كما قال الإمامُ أبو القاسم[١] رحمه الله: هي أن لا يكونُ العبدُ تحت رقِّ المخلوقات، ولا يجري عليه سُلطانُ المكوّنات، وعلامةُ صحَّته أن يتساوى عنده الأخطار والأعراض[٢]، ولذا قيل[٣]: من كان في الدنيا حرًّا فهو في الآخرة حرٌّ، جعلنا الله منهم برحمته. [والله أعلم].

نقل أنّه لمّا حضرته الوفاةُ وصّى أصحابَه بأن يضعوا في فمه الشَّعرتَيْنِ اللتين هما من شُعور النبيِّ ﷺ، كانتا عنده، ففعلوا كما أمر.

ومات بمرو، ومرقدُه هناك ظاهرٌ يزورهُ الناس، ويلتمسون من الله ببركته حوائجَهم، والله يقضيها، وذلك مُجرَّبٌ.

اللهم انظرْ إلينا ببركته نظرَ الرحمة، وعافنا ربَّنا من كلِّ بليةٍ ومحنةٍ ونقمةٍ، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله أجمعين.

* * *

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٨ (الحرية).

(٢) في الرسالة القشيرية: وعلامة صحته سقوطُ التميز عن قلبه بين الأشياء، فيتساوى عنده أخطار الأعراض.

(٣) القول لأبي علي الدقاق. الرسالة القشيرية ٣٢٨.

(٨٩) سعيد المغربي[١]

ذكر الشيخ أبي عثمان سعيد بن سلاّم المغربي رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من أكابرِ أربابِ الطريقة، وأصحابِ الرياضة، وفي الذكر والفكر آيةٌ، وله في أنواع العلوم حظٌّ وافرٌ، وفي التصوّف تصانيفُ.

وأدرك كثيرًا من المشايخ الكبارِ، وصحب النَّهرجوري، وأبا الحسن بن الصباغ، وكذلك ابن الكاتب، وحبيبَ المغربي، وأبا عمرو الزَّجاجي رحمهم الله.

مات بنيسابور سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاث مئة، وأوصى أن يُصلّي عليه الإمام أبو بكر بن فُورك[٢] رحمه الله.

قيل: وكان إمامًا في الحرم الشريف مدّةً، ولم يكن مثلَه من أقرانه أحدٌ في علوِّ الحال وصحّة الفِراسة والحكمة، وقوةِ الهيبة والسياسة، وعاش مئةً وثلاثين سنة.

نقل أنه قال: نظرتُ في عمري، وتأمَّلتُ فيه، رأيتُ أنّه لم يبق فيَّ من أحوالِ أيام الشباب سوى الأملُ.

---

(١) طبقات الصوفية ٤٧٩، تاريخ بغداد ٩/ ١١٢، الرسالة القشيرية ١١٥، المنتظم ٧/ ١٢٢، مناقب الأبرار ٨٤٤، اللباب ٣/ ٣٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٥٢٢، العبر ٢/ ٣٦٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٠، مرآة الجنان ٢/ ٤٠١، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٢٥، البداية والنهاية ١١/ ٣٠٢، طبقات الأولياء ٢٣٧، العقد الثمين ٤/ ٥٦٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٤، نفحات الأنس ١٣٢، طبقات الشعراني ١/ ١٢٢، الكواكب الدرية ٢/ ٩٩، شذرات الذهب ٣/ ٨١، هدية العارفين ١/ ٣٨٩، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٨١.

(٢) تقدم التعريف به صفحة (١٤) الحاشية (٣).

أقول: يُشير إلى أن الجدَّ والاجتهاد إنّما يكونُ في الشباب، قال النبي ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك...» الحديث[1]. [والله أعلم].

نقل أنه رحمه الله اعتزلَ عن الناس في ابتداء حاله عشرين سنةً، وكان يدورُ في الجبال والمفاوز البعيدة عن العمران، بحيثُ لم يسمعْ في تلك المدّةِ صوتَ الإنسان قطّ حتى أذابتِ المشقّةُ والرياضة بنية جسده، وتضيّقتْ عيناه حتى بقيت كلٌّ منهما مقدارَ ثقبة مسلّةٍ، وتغيّرت صورته الشريفة عن وضع صُور الآدميين، ثم بعد تمام عشرين سنة أمرَهُ الله تعالى بطريقَ الإلهام أن يخالطَ الناسَ ويُصاحبَهم، فقال: المصلحةُ أن أمشي أولاً إلى مكّة الشريفة، وأزورَ الكعبةَ، وأصاحبَ المُجاورين هناك، ثم بعد ذلك أُلاقي مَنْ قدَّرَ اللهُ تعالى. فتوجّه إليها، ولمّا قرب من مكّةَ خطرَ ببال المشايخ المقيمن بها: أنَّ أبا عثمان جاءَ، فاستقبلوه، ووجدوه متغيِّرَ الحال، متبدّلَ الصورة، فقالوا: يا أبا عثمان، قد عشتَ عشرين سنة، وما خالطت إنسيًا، ولم يبق فيك من الإنسانية إلاّ رمقٌ، والناسُ عجزوا في شأنك، فأخبر لنا لماذا تهتَ، ولِمَا رجعتَ، وما وجدتَ، وما رأيتَ؟ فقال: عجزتُ في حالٍ، فدخلتُ البادية، وانقطعتُ عن الخلق عسى أن أقطعَ الأصل، فما وصلَتْ يدي إلاّ إلى الفرع، فناداني مُنادٍ: يا أبا عثمان، دُرْ حولَ الفرع، وكن في مقام الشكر، أمّا قطعُ الأصل فليسَ إليك، والحالُ أنّ الصحو الحقيقي ليس إلاّ فيه، فالآن رجعتُ كما كنتُ فيه. فقال المشايخ: حرامٌ على أحدٍ بعدك من أهلِ الاعتبار أن يعبرَ عن الصحو والسكر.

أقول والعلمُ عند الله: يُمكن أن يُقالَ: المُرادُ بقطع الأصل قطعُ عرقِ ما سوى الله تعالى عن روضة القلب، وقلعه عنه، ولا شكَّ أنَّ هذا كما ينبغي لا يدخلُ تحت قدرةِ العبدِ واختياره؛ بل القادرُ عليه إنّما هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فلا جرم أنّه نهى عنه، وأمره بالتفويضِ إليه تعالى.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس، وهو في المصنف لابن أبي شيبة ٧/ ٧٧، والحلية لأبي نعيم ٤/ ١٤٨، وشعب الإيمان ٧/ ٢٦٣ عن عمرو بن ميمون.

وأمّا الفرعُ الذي أمرَه بالدوران حوله والاشتغال به، فالمرادُ به امتثالُ المأمورات، والانتهاءُ عن المنهيات، وسائر الصفات الحميدة، والأخلاق الجميلة، كتهديد النفس وتصفيتها عن الكُدورات الجسمانية، وإن كان ذلك أيضًا بتوفيقِ الله تعالى وهدايته؛ لكنّه ممّا يدخلُ تحت قدرة العبد واختياره في الجملة، وإلاّ يكون التّكليفُ به تكليفًا بالمحال، واللهُ أعلم بحقيقة الحال. [والله أعلم].

نقل أنه قال: كنتُ في ابتداء الحال من غلباتِ الشوق بحالةٍ كان الإلقاءُ من السماء على الأرض أحبَّ إليَّ من وضعِ الطعام في الفم، ومن الاشتغال بالطهارة لأداء صلاةِ الفريضة، وذلك لأنّي كنتُ أمرأً غائبًا[١] عن الذكر مدّةَ الاشتغال بالطعام والطهارة، والغيبةُ عن الذكر كانَتْ أشقَّ عليَّ من كلِّ مشقَّةٍ وشدَّةٍ، وكان يعبرُ عليَّ في حالةِ الذكر أمورٌ هي بالنسبة إلى غيري كرامات، وكانت عليَّ أشدَّ من ارتكابِ كبيرةٍ، وكنتُ أريدُ ألاّ يأخذني نومٌ أبدًا لئلا أدعَ الذكرَ حالةَ النوم، فصنعتُ حيلةً لأدفعَ بها النوم، فطلبتُ صخرةً ملساء قدرَ ما يسعُ موضعُ قدمين، وهي على شفيرِ وادٍ عميق، فكنتُ أقعدُ عليها بالليل، ويهربُ النومُ مخافةَ أن أنحدرَ منها، وأقعَ في أسفل الوادي.

نقل أنه قال: بتُّ مع أبي الفوارس ليلةَ العيد، وهو نائمٌ وأنا يقظان، فعبرَ على قلبي: أن لو كان لي شيءٌ من السَّمْنِ لصنعتُ للإخوان طعامًا، فقال أبو الفوارس وثلاث مرات، وهو في النوم: اطرحِ السمنَ الذي بيدك. فلمّا استيقظَ سألتُهُ عن مقاله، قال: إنّي رأيتُ في المنام أنّي كنتُ في موضعٍ عالٍ مع جماعةٍ، وكان في علمنا أنّا نرى الله تعالى في تلك الحالة، وامتلأتِ القلوبُ، ورأيتُك هنالك، وبيدك السَّمنُ، فقلتُ: اطرحِ السمن من يدك.

نقل عن أبي عمرو الزَّجّاجي أنه قال: لازمتُ الشيخَ أبا عثمان رحمه الله حتى كدتُ لا أصبر عنه لحظةً، فرأيتُ في المنام قائلاً يقول: كم تتأخّرونَ عنّا

---

(١) في الأصل: كنت أميرًا غائبًا.

بأبي عثمان! وكم تشتغلون عنّا بأبي عثمان! فحضرتُ اليومَ الثاني حدّثت، وكنّا في تدبيرِ أن نخبرَ هذا الشيخ، إذ دخلَ علينا الشيخُ بالعجلة حافيًا، وقال: يا جماعةَ الأصحاب، لما سمعتم ما سمعتم، وحدّثتم به، فأعرضوا عن أبي عثمان، ولا تشوّشوه بعد اليوم.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: كنتُ عند الشيخ أبي عثمان رحمهما الله، وكان رجلٌ ينزح الماءَ من البئر بالدُّولاب، ونحن نسمعُ من الدولاب صوتًا، فقال أبو عثمان: يا أبا عبد الرحمن، أتدري ما يقولُ الدولاب؟ قلت: لا. قال: يقول الله، الله[١].

ثم قال: من يدّعي السماعَ، ولا سماع له من أصواتِ الأطيار[٢]، أو صرير الباب، أو هبوب الريح فهو كاذبٌ في دعواه.

وقال الشيخ أبو عثمان رضي الله عنه: إذا استقرَّ العبدُ في مقام الذكر فإنّه يصيرُ كبحر تخرجُ منه أنهارٌ وسواقٍ، وتجري إلى الأطراف والجوانب، وذلك بحكم الله تعالى ومقتضى حكمته، ولا يكون فيه حكمٌ لغيرِ الله تعالى، وحينئذٍ فهو يرى الكون كلَّه بنور الذكر، ولا يخفى عليه شيءٌ من عالم المُلْكِ والملكوت، والسموات والأرضين، حتى إذا تحرَّكَتْ نملةٌ في حجرتها، فإنه يراها، وحينئذٍ تتمُّ حقيقةُ التوحيد، وتحصلُ له من الذِّكر حلاوةٌ ولذَّةٌ إلى أن يتمنّى الموتَ والفناء، لأنّه لا يبقى له طاقةُ ذوقِ تلك اللذّة.

ونقل الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله أن الشيخ أبا عثمان رحمه الله لم تكن له طاقةُ لذّةِ الذكر، وطاقتُهُ كانت تفنى أحيانًا، فكان يرمي نفسه من الخلوة إلى الخارج ويهربُ.

ونقل عن الشيخ أبي عثمان رحمه الله أنه قال: من استأنسَ بالمعرفة وذكرِ الله تعالى فلا يزولُ أُنسه بالموت، بل يزدادُ بأضعافِ ما كان في حياته،

(١) الرسالة القشيرية ٤٨٠ (السماع).

(٢) في الرسالة القشيرية: من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور.

وتزدادُ راحته، وذلك لارتفاعِ الأشياء المشوّشة، وبقاءِ المحبّة الصِّرفة.

وقال رحمه الله: الدليلُ إلى الجنابِ الأعظمِ الأرفع شيئان: النبوّة والحديث. أمّا النبوّة فقد ارتفعتْ وخُتمتْ على خاتم النبوة عليه السلام، وأمّا الحديثُ فباقٍ.

و: طريقُ المجاهدة الذكر، ثُمَّ إن حصلَ الوصالُ العزيزُ الدائم الذي لا ثمنَ له بهذا العمر القليلِ الزائلِ الفاني فرخيصٌ جدًا.

أفلا يكونُ من الخذلان والشقاوة صرفُ هذا العمر فما يحصل به الفراق الأبدي؟!.

وقال: من اختار الخلوة على الصحبة[(١)]، فينبغي أن يتركَ أولاً كلَّ ذكرٍ، ويخلّي قلبَه عن الأذكار كلِّها إلاّ عن ذكرِ الحقِّ جلَّ جلاله، ويتركَ الإرادات كلَّها إلاّ عن رضا الحقِّ، فإنْ لم يكن مُتّصفًا بهذه الصفات فالخلوةُ هلاكٌ له، وبلاءٌ عظيم.

وقال: ما وصلَ أحدٌ إلى مقامات الخواص إلاّ بعد رعايةِ الأدب والرياضة، فإنْ بقي عليه شيءٌ منها فالوصولُ مُحال.

وقال رحمه الله: العاصي خيرٌ من المُدّعي، لأن العاصي في طلب التوبة دائمًا، والمدّعي مُبتلىً بحالِ دعواه دائمًا.

وقال رحمه الله: من اختارَ صُحبةَ الأغنياء على صُحبة الفقراء، ابتلاه اللهُ تعالى بموت القلب، نعوذ بالله منه.

وقال: لا يُفلحُ أبدًا من مدَّ يدَهُ إلى طعام الأغنياء بالشَّرَهِ ـ أي بشدّة الشهوة ـ ولا عذرَ في هذا إلاّ للمضطر.

وقال: يضيعُ حالُ من يشتغلُ بأحوال غيره.

وقال رحمه الله: مثلُ مجاهدة المرء في تصفية القلبِ كمثلِ من أُمِرَ بقلعِ

---

(١) في الأصل: على الصحة، انظر الرسالة القشيرية ١٨٤ (باب الخلوة والعزلة).

شجرةٍ صغيرة، ولا يقدُر على قلعها، فيصبرُ إلى أن تحصل له القوةُ والقدرة عليه، ولا يعلمُ أنّه كلّما يمرُّ عليه ساعةٌ فإنه يزدادُ ضعفُه، وتتقوّى الشجرةُ، وتتزيّنُ وتزدادُ قُوّتُها وغلظتها، ويصعب عليه قلعُها، ثم يندمُ على ما فات، ولا ينفعُهُ الندمُ.

نقل أنه رحمه الله سمع أنَّ فلانًا يُريد أن يسافر، فقال: يجبُ عليه أن يسافرَ من الهوى والشهوة وجميع مُراداته، لا عن وطنِهِ؛ فإنَّ السفرَ من الوطنِ غربةٌ، والغربةُ ذلّةٌ، والمؤمنُ عزيزٌ[1] لا ينبغي أن يجعلَ نفسَه ذليلاً.

نقل أنه رحمه الله سُئل عن الخَلْق، فقال: عالمٌ يَجري عليها أحكامُ القدرة.

وقال: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوبَ العارفين ذاتَ وجهين: وجهٌ إلى عالم الملكوت، وآخرُ إلى عالم الشهادةِ، والطوارىء والحظوظُ التي تردُ على قلبِ العارف إنّما هي تردُ على الوجه الذي هو مقابلٌ لعالم الملك والشهادة، فحينئذ يتنوّرُ هذا الوجه أيضًا، فتنكشفُ عليه الأسرار، ويصيرُ خبيرًا بما في ثمانية عشر ألف عالم، وانعكاسُ أنوارِ الحقائق من ذلك الوجه إلى هذا الوجه يُسمّى معرفة.

أقول: قيل: الموجودُ على قسمين: قسمٌ يُدركُ بالحسِّ الظاهر كالسماء والأرض والإنسان وغيره، ويُسمّى هذا بعالم الشهادة والملك والخلق، وقسمٌ لا يُدركُ إلاّ بالعقل، ويُسمّى بعالم الغيبِ والملكوت والأمر، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[2] [الأعراف: ٥٤] وبقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وبقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ رحمه الله أبا عثمان سُئل عن سبب انقطاع أهل الطريق من السلوك، قال: لظهور الخلل في نوافلهم وفرائضهم.

---

(١) في الأصل: والمؤمن العزيز.

(٢) في الأصل: ألا له الملك والأمر.

وسئل عن أحسن الصحبة، قال: ما أوسعت على أخيك ما تُريدُ وسعَتَهُ عليك، ولا تَطمع فيما له، وتحتمل الجفاء عنه، وتنصفُ له، ولا تطلبُ الإنصافَ منه، وتكون له تابعًا لا بالعكس، وتعظّمُ ما يصلُ منه إليك من الخير، وتحقّرُ ما يصلُ منك إليه.

وقال: أوصلُ شيءٍ يُلازمه الإنسانُ محاسبةُ نفسه، والمراقبةُ، والمحافظة على العلم في جميع الأحوال والأعمال.

وقال: الاعتكافُ حفظُ الجوارح تحت الأمر والنهي.

وقال: لا يعلمُ أحدٌ شيئًا إلاّ بعد أن يعلمَ ضدّه، ولهذا لا يصحُّ الإخلاصُ إلاّ بعد معرفة الرياءِ وأسبابه.

وقال: من يركبُ مركبَ الرجاء فإنه ييئسُ بالكليّة، ويتعطّلُ عن العمل، وكذلك من ركبَ مركبَ الخوف، يَصير آيسًا، ولكن تارةً هذا وتارةً ذلك، ليكون العبدُ بينهما سالمًا.

وقال: العبوديةُ اتّباعُ الأمر على شاهدة الأمر.

وقال: الشكرُ هو إدراكُ العجز عن كمالِ شكر النعمة.

وقال: التصوّفُ هو قطعُ العلائق، ورفضُ الخلائق، والاتّصالُ بالحقائق.

أقول: الخلائقُ جمع خليقة، وهي ما يعني المخلوق، وعلى هذا يكونُ المرادُ تركَ المخلوقات كلِّها، والتوجُّه إلى الله تعالى، وهو بمعنى الطبيعة، قال الشاعر:

قسمَ الخلائقَ بيننا خلاَّقُها[1]

قال في «الصحاح»: المُرادُ الطبائع، أي: قسم الطبائع بيننا خالقُها. وعلى

(١) عجز بيت، نسبه الجوهري في الصحاح ١٤٧١/٤(خلق) إلى لبيد، وروايته فيه: بيننا علاَّمها. وصدره:

فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنّما

هذا المُرادِ تركُ العادات التي هي مقتضى الطبيعة، وكلا المعنيين حسنٌ، موافقٌ للمقصود. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الشوقُ محبَّةُ الموتِ في حال الراحة.

وقال: العهد حالُ المُريدين لأهل الحقائق.

وقال: من له تصديقُ الأولياء، فهو من الأولياء.

أقول: وذلك لأنَّ من صدَّقهم فلا جرمَ أنّه يحبُّهم، ومن أحبَّهم فهو منهم، قال النبيُّ ﷺ: «المرء مع من أحب»[1]. و«من أحبَّ قومًا فهو منهم»[2]. والله أعلم.

قال: كنْ مشهورًا، ولا تكن مفتونًا.

أقول: معناه أن الشهرةَ ليست آفةً على الإطلاق، بل إذا صارَ الإنسانُ مفتونًا بسببها، فعلى هذا الآفة المُهلكة هي الافتتان والاغترار، لا الشهرة وحدها، ولكن لمّا كانتِ الشهرةُ مع الافتتان غالبًا، وقلَّما يكون الإنسانُ مَشهورًا غيرَ مفتونٍ في نفسه، قال علي رضي الله عنه: الشهرة آفة وكلٌّ يتولاّها. والله أعلم.

نقل أنّه لما حضرتْ وفاةُ الشيخ رحمه الله أبي عثمان، أحضروا له طبيبًا، فقال الشيخ: أما مثلي ومثلُ هذا الطبيب كمثل يوسف عليه السلام مع إخوته، فإنَّ الله تعالى قدّرَ له في الأزل تقديرًا، وهم غافلون عنه، وشرعوا يدبّرون فيه تدبيرًا. ثم أوصى أن يُصلّي عليه الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله.

وقال الإمام أبو بكر رحمه الله: كنت عند أبي عثمان المغربي رحمه الله حين قَرُبَ أجلُه، وشخص مُغنٌّ اسمُهُ علي القوّال الصغير، يقول شيئًا، فلمّا

---

(١) قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» تقدم تخريجه. انظر صفحة ٥٠١.

(٢) لم أجده بلفظه، وإنما هو: «من أحبَّ قومًا حَشرهُ الله في زمرتهم» رواه الحاكم في المستدرك ٣/١٨، والطبراني في الكبير ٣/١٩ عن أبي قرصافة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٨١: وفيه من لم أعرفه.

تغيَّرَ عليه الحال(١)، أشرنا على عليٍّ بالسكوت، ففتح أبو عثمان عينه، وقال: لِمَ لا تَقولُ شيئًا؟ فقلت لبعض الحاضرين: سلوه: على ما يسمعُ المُستمعُ؟ فإنّي خشيتُ أن أسألَ. فسألوه، فقال: إنّما يسمعُ من حيثُ يسمع. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

ونسأل الله تعالى أن يفيضَ عليه وعلينا من بركاته، ومن بحرِ كرمه الموّاج زلالَ لطفِهِ وإحسانه ورضوانه، ولا يحرمنا بمنّهِ العميم عن عفوه ومغفرته وامتنانه، إنه رؤوفٌ رحيم، كريم لطيف، وأن يُصلّي على عبده ورسولِهِ وحبيبه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *



(١) في الأصل: فلم يُغيِّر عليه الحال. والمثبت من الرسالة القشيرية، صفحة ١١٥.

(٩٠) إبراهيم النصراباذي(١)

ذكر الشيخ أبي القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي نوّرَ الله مرقدَهُ، وعطّر مشهدَه:

كان رحمه الله عليَّ الحالِ والمرتبة، شريفَ المقدارِ، عظيمَ الاعتبار لدى الأصحاب، وحيدًا في زمانه، مُشارًا إليه في أنواع العلوم؛ ولا سيما في الحديث.

وكان له في الطريقة نظرٌ دقيق، وتأمُّلٌ عظيم.

وكان رحمه الله ذا شرفٍ عظيمٍ، واحتراقٍ أليم.

وكان رحمه الله أستاذًا وشيخًا في خراسان بعد الشبلي، وكان تلميذًا للشبلي، وأدركَ الرُّوذباري، والمرتعش، وغيرَهما من المشايخ رحمهم الله.

ولم يكن في المتأخِّرين أحدٌ بتحقيقه.

وكان رحمه الله في الورعِ والمجاهدة والتقوى عديمَ النظير في وقته.

وكان من نيسابور، جاورَ بمكّة حرسها الله تعالى سنة ستٍّ وستين، ومات بها سنة سبع وستين وثلاث مئة(٢).

نقل أنه رحمه الله أتى يومًا إلى يهوديٍّ، وطلب منه نصف دانق، فمنعه

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨٤، تاريخ بغداد ٦/ ١٦٩، الرسالة القشيرية ١١٦، الأنساب ١٢/ ٨٩، مناقب الأبرار ٨٥١، المنتظم ٧/ ٨٩، المختار في مناقب الأخيار ١/ ٢٧٣، اللباب ٣/ ٣١٠، مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٠٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٣، دول الإسلام ١/ ٢٢٧، العبر ٢/ ٢٤٣، الوافي بالوفيات ٦/ ١١٧، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٧، طبقات الأولياء ٢٦، العقد الثمين ٣/ ٢٣٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٩، نفحات الأنس ٣٣٧، طبقات الشعراني ١/ ١٢٢، الكواكب الدرية ٢/ ١٣، شذرات الذهب ٣/ ٥٨.

(٢) في الأصل: سبع وستين وثمان مئة.

اليهوديُّ وما أعطى، ثم رجع وطلب، فاليهودي نهره، ثم طلب ثالثًا فزجره، وهكذا إلى أربعين مرة، وفي كلِّ مرَّةٍ يسبُّهُ اليهوديُّ، ويقول في وجهه الخنا والمكروه، وهو ما كان يتأذّى ويتألّم من كلامه، وإن كان يُؤذيه كلَّ يومٍ بنوعٍ من الإيذاء، ولمّا رآه اليهوديُّ أنّه لا يتغيَّرُ ولا يرجعُ عن السؤال، قال له متعجّبًا من حاله: من أنت! فإنَّك لأجل نصفِ الدانق تحتمل جفاءً عظيمًا. فقال له النصراباذي: الفقيرُ إنْ تغيَّرَ من حاله لا يكونُ فقيرًا، ولا يسلم منه دعوى الفقراء، قد تحمل عليه مثلَ الجبل في الثقل، فإذا لم يكن له طاقةُ حمل له، فكيف يحملُ مثلَ الجبل؟ فأثّر كلامُه في اليهودي، وأسلمَ من ساعته ببركة حلم الشيخ.

نقل أنّه حجَّ أربعين حجّةً على التوكُّل، ثم رأى يومًا من الأيام كلبًا ضعيفًا جائعًا بمكّة شرّفها الله تعالى، ولم يكن له شيءٌ يشتري به طعامًا ويُطعمُ الكلب، فنادى وقال: من يشتري أربعين حجّةً برغيف؟ فجاء رجلٌ وأعطاه رغيفًا، وأشهد جماعةً على الحال، والشيخُ تسلّمَ الرغيفَ، وأطعمَ الكلب، فخرج من بعض زوايا المسجد رجلٌ عارفٌ سالكٌ ولكمَ النصراباذي لكمةً، وقال: يا أحمقُ، في ظنِّكَ أنك صنعتَ شيئًا حيث بعتَ أربعين حجّةً برغيفٍ؟ أما سمعتَ أنَّ أباك آدم عليه السلام باع الجنات الثمانية بحبَّتين من الحنطة؟ فقعد النصراباذيُّ في زاويةٍ، وأدخلَ رأسَه في جيبه من الخجالة.

نقل أنّه كان على جبلِ الرحمة في الحجاز، فعرضَتْ له عارضةُ الحُمّى، وكان حَرًّا عظيمًا، وكان هناك شخصٌ من العجم، قد خدمَ الشيخ في بلاد العجم، فجاء إلى الشيخِ، فرآه في كربِ الحُمّى وكربِ حرارة الشمس، فقال: هل تشتهي شيئًا؟ قال الشيخ: نعم، شربةً من الماء البارد. قال الرَّجلُ: تحيَّرتُ في كلامه، إذ علمتُ أنَّه لا يُوجد هناك ماءٌ بارد، ولكنْ رجعْتُ من عنده، وبيدي إناءٌ، إذ رأيتُ قطعةَ غيمٍ قدر تُرسٍ قد ظهرتْ وأمطرتْ على مثلِ الثلج، فجمعتُهُ، وجعلتُهُ في الإناء، وأتيتُ به إلى الشيخ، وعلمتُ أنّه من كرامات الشيخ رحمه الله، قال الشيخ: من أين هذا، في هذا المكان؟ ذكرتُ له صورةَ

الحال، فكأنّه قد خطرَ بباله أنّه من كراماته، فخاطب نفسه وقال: إما برودةُ الماء، وإمّا حرُّ النار، فانظرْ أيُّهما أحبُّ إليك؟ ثم قال للرجل: انصرفْ. ولم يشربْ من الماء، فذهب الرجلُ بالماء.

وقال النصراباذي: كنتُ بالبادية متوجِّهًا إلى مكّة، فحصل لي ضعفٌ عظيم، حتى أيستُ من الحياة، وكان بالنهار، فوقع نظري على جرمِ القمر في تلك الحالة، فرأيت مكتوبًا عليه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فقويَ قلبي، وزالَ عنّي الضعفُ بتوفيق الله عزَّ وجل.

وقال: زرتُ قبرَ موسى عليه السلام، فسمعتُ عن ذرات وجوده: ﴿أَرِنِيٓ﴾ ﴿أَرِنِيٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقال: كنتُ متوجِّهًا إلى مكّة نوبةً، فرأيتُ في الطريق رجلاً ساقطًا على الأرض، يضطربُ ويلبطُ، أردتُ أن أقرأَ الفاتحة، وأسألَ الله تعالى له الصِّحةَ، فسمعت صوتًا من ورائي: دع ذا الكلب؛ فإنّه عدوٌّ للصدِّيق ـ يعني أبا بكر رضي الله عنه.

ونقل أنه رحمه الله كان مشغولاً بالوعظ، فدخل عليه فتىً ربّابيٌّ، واستمعَ على كلامه، وسمع منه كلامًا، وأثّر في فؤاده كالسهم في الهدف، فخرجَ من المجلس، وجاء إلى والدته متغيِّرَ اللَّون، وهو يرجفُ خوفًا، فظنّتْ والدتُهُ أنه متَّجعٌ، فسألته عن حاله، فقال: قد عبّرَ الحالُ عن السؤال؛ ولكن أدخلُ هذا البيت، وبعد مضيِّ ساعةٍ قولي للحمّالين ليحملوني إلى المقبرة، وأعطي قميصي للغسّال، وقِبائي للحفّار، واغرزي المِضرابَ الذي كنتُ أضربُ به الربابَ في عيني، فلمّا أتمَّ الوصيةَ، دخلَ البيت، ومات في ساعته رحمه الله.

ونقل عن النصراباذي كلماتٌ عالية منها ما قال: نسبةٌ بين العبد وآدم عليه السلام بالنبوة، وبينه [وبين] الحقِّ بالمخلوقية، فمن انتسبَ إلى آدمَ عليه السلام وقعَ في ميادين الشهوةِ، ومواضعِ الآفات؛ لأنَّ النسب إلى آدم عليه السلام إنّما هي في الإنسانية والطبيعة، ولا اعتبار لنسبة الطبيعة، ومن انتسبَ إلى الحقِّ

انسرحَ في مقاماتِ الكشفِ والبرهان، والعصمةِ والولاية، فالنسبة الأولى تذكر للبشرية، والثانية تحقيقُ العبودية، ولا يحرم التغيّر حول هذه النسبة، ومن اتَّصفَتْ بها فيليقُ بأن ينادي: يا عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون[١].

وقال رحمه الله: من صحَّتْ نسبتُهُ إلى الحقِّ عزَّ وعلا، فلا يؤثِّرُ فيه الطبعُ والشيطان.

وقال: المضطرُّ من لا قدرةَ له على أن يذكر الله تعالى، فإن من [له] آلةٌ يذكر الله بها فليس بمضطرٍّ.

وقال: ما ضلَّ أحدٌ في هذا الطريق إلاّ بسبب فساده في ابتدائه، فإنَّ فسادَ الابتداء يسري في فساد الانتهاء.

وقال: من رغب في العطاء فهو ذليلٌ، ومن رغبَ في المُعطي فهو عزيز.

قال: الصلوات إلى طلبِ الصفح والعفو من التقصيرات أقربُ منها إلى طلبِ الثواب والجزاء.

وقال: الموافقةُ أمرٌ محمودٌ، ومع الله أحمد[٢].

وقال: من صحَّتْ له مع الله تعالى الموافقةُ لحظةً، فلا يقدرُ على المخالفة في حالٍ أبدًا.

وقال: إنَّ الله تعالى سمّى أصحاب الكهف ﴿فِتْيَةٌ﴾ [الكهف:١٣]، لأنهم آمنوا بلا واسطة.

وقال: إن الله غيورٌ، ومن غيرته أنَّه لا طريقَ إليه إلاّ به.

وقال: بمتابعة السنة توجدُ المعرفة، وبأداء الفرائض القربةُ، وبالمواظبة على النوافل المحبة.

---

(١) انظر طبقات الصوفية ٤٨٦ فالخبر فيه.

(٢) في الأصل: ومع الله أحد. وفي مناقب الأبرار ٨٥٢: موافقة الأمر حسن، وموافقة الآمر أحسن.

وقال: من فاته أدبُ النفس فمتى يكون له الوصول إلى أدب القلب؟ ومن فاته أدبُ القلب فكيفَ يصلُ إلى أدب السرّ؟ ومن فاته أدبُ السرّ فلا يصلُ إلى أدب الروح، ومن فاته أدب الروح فلا وصولَ له إلى مقام القربة، بل لا يُمكنه الوقوفُ على بساط القربة إلاّ بعد التأدُّب بفنون الآداب كلِّها، ويكون أمينًا في السرّ والعلانية.

قيل للنصراباذي: إنّ بعضَ الناس يُجالسُ النساء، ويقولُ: أنا معصومٌ في رؤيتهن! فقال رحمه الله: ما دامتِ الأرواحُ في الأشباح، فإنَّ الأمرَ والنَّهي باقيان، والتحليلُ والتحريمُ يكفيان، ولا يجترىء على الشُّبهات إلاّ من أعرضَ المحرمات[1].

وقال رحمه الله: أصلُ التصوّفِ ملازمةُ الكتاب والسُّنة، وتركُ البدع والأهواء، وتعظيمُ حرمات المشايخ، ورؤيةُ أعذار الخلق، والمداومةُ على الأوراد، وتركُ ارتكاب الرُّخص والتأويلات.

قيل: هل لك ما كان للمشايخ؟ قال: ليس لأبي نصراباذي، ولكنَّ الحزن العظيم على التخلف عنهم والحبس على الحرمان.

قيل: وما كرامتك؟ قال: لا أعرفُ لي كرامة إلاّ [أنّي] أعرفُ أنَّ الله تعالى هيَّجني من قرية نصراباذ[2] إلى نيسابور، وأحالني على الشبلي، حتى أنّه صارَ الأمرُ إلى أنَّ ناسًا كثيرًا وصلوا إلى مقام الولاية بسببي، وما كنت أنا في اليقين.

قيل له، وهو على المنبر يُحدِّثُ: ما الحرمة؟ قال: أن أنزلَ من المنبر، وأَدَعَ الكلام، فإنّي لستُ أهلاً له.

قيل له: ما التقوى؟ قال: هو الاجتنابُ عمّا سوى الله تعالى.

قيل له: ليسَ لك من المحبّة شيءٌ! قال: صدقتم، غير أنّي أَحترقُ منها.

---

(١) كذا الأصل، وفي طبقات الصوفية ٤٨٧، والمناقب ٨٥٢: والتحليل والتحريم مخاطب بهما، ولن يجترىء على الشبهات إلا من يتعرّضُ للمحرمات.

(٢) الأصل: من قرية نصراباذي.

وقال: أهلُ المحبَّةِ قيامٌ مع الله على قدمٍ، لو تقدَّموا خطوةً تفرَّقوا، ولو تأخَّروا خطوةً لحُجبوا.

قال: من شكر على النعمة استحقَّ المزيد، ومن شكر النعمة تزادُ معرفتُهُ ومحبته.

وقال: ما يجدُه القلبُ تظهرُ به بركاتُه على الجسد، وما تجدُهُ الرُّوحُ من الفيض تظهر به بركاتُه على القلب.

وقال: سجنُ العارف جسده، فإذا خرجَ منه وقعَ في الراحة، ثم إلى أينما يُريد يتوجَّه.

قال: درتُ في الدنيا كثيرًا، فما وجدتُ هذا الحديث في موضعٍ، ولا في دفترٍ إلاّ في ذُلِّ النفس.

وقال رحمه الله: الخلقُ كلُّهم في مقام الشوق، وليس لهم مقامُ الاشتياق.

أقول: معناه ما نُقل عن الأستاذ أبي عليّ الدقاق رحمه الله أنه كان يُفرِّقُ بين الشوق والاشتياق، بأنَّ الشوقَ يسكنُ عند اللقاء، والاشتياقُ لا يسكنُ ولا يزولُ باللقاء، وإذ أنشدوا بهذا المعنى قول الشاعر[1]:

ما يرجعُ الطَّرفُ عنه [حين] رؤيته حتى يعودَ إليهِ الطَّرفُ مشتاقا

[والله أعلم].

وقال النصراباذي رحمه الله: المروءةُ غصنٌ وفرعٌ من الفتوة، وهي الإعراضُ عن الدنيا وما فيها.

وقال رحمه الله: الرجاءُ يدلُّ على الطاعة، والخوفُ يُنهي عن المعصية، والمراقبةُ تهدي إلى طريق الحقِّ.

وقال: صانوا دماءَ الزاهدين، وأراقوا دماء العارفين.

---

(١) البيت ينسب لإبراهيم بن العباس الصولي، ولأبي نواس بلفظ:

ما يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

نقل عن الأستاذ إسحاق الزاهد رحمه الله أنّه كان يذكرُ الموتَ كثيرًا، وكان من زهّادِ خراسان، وكان الشيخ النصراباذي يقولُ له: كم تذكرُ الموت! لِمَ لا تذكرُ حديثَ الشوق والمحبة؟ والأستاذُ ما كان يَنتهي عنه، وكان يذكرُ الموتَ كما كان، إلى أن حضرَ النصراباذي رحمه الله وفاتُهُ، وكان شخصٌ من نيسابور عنده، فأوصاه أن يقول للأستاذ الزاهد: إنك صادقٌ فيما كنتَ تقول، فإنَّ الموتَ صعبٌ.

ثم رُئي بعد الموت في المنامِ، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: إنّ الله تعالى ما عاتبني مثلَ عتاب الجبابرة؛ ولكن ناداني: يا أبا القاسم، هل بعد الوصالِ انفصال؟ قلت: لا، يا ذا الجلال، فلا جرمَ لمّا دُفنتُ في اللحد، وصلتُ إلى الأحد.

هذا تمامُ ما نُقل عنه، برّدَ اللهُ مضجعَه، ووسّع مهجعه، وأنارَ قلوبَنا ببركته، وطهّرَ نفوسَنا بحرمته، وحشرنا مع الأبرار الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله الطيبين وعترته الطاهرين.

* * *

(٩١) أبو العباس النهاوندي(١)

ذكر الشيخ أبي العباس النهاوندي رحمه الله:

كان رحمه الله أوحدَ زمانه، وفريدَ عهده، وله في التمكين قدمٌ راسخ، وفي الورع والمعرفة شأنٌ عظيم.

ونقل عنه أنه قال: أخذني في الابتداء همٌّ هذا الحديث ـ أي حديث المحبة ـ فاشتغلتُ بالمراقبة، وبقيت اثنتي عشرة سنة ما كنتُ أُخرجُ رأسي من جيبي إلاّ للصلاة، ففتح على قلبي باب.

ونقل عنه أنّه جرى على لسانه أنَّ الخلقَ يتمنّون أن يكونَ الحقُّ لهم ساعةً، وأنا أتمنَّى أن يدعني ساعةً، لأنّي أحترقُ من الحياءِ؛ إذ مَنْ أنا حتى أكون في هذه المرتبة؟.

ونقل أنّه جاءَ إليه فقيرٌ، والتمسَ منه دعاءً، فقال: اللهم موّته.

أقول: يشيرُ إلى أنَّ الدُّعاءَ لو كان مقبولاً، لكان مقبولاً في التمويت أيضًا، وإذ لم يكن، فلم يكن، وهذا غايةُ التواضع والاعتراف بالعجز. [والله أعلم].

ونقل أنه كان يخيط الكمَّ، ويبيع كلاً بدرهمين لا أزيد ولا أنقص، ثم كان يُعطي دِرهمًا منهما لأول شخصٍ يأتي إليه إلاّ الصلحاء(٢)، ويشتري بالدِّرهم الآخر الخبزَ ويأكُلُه مع الفقراء في الخانقاه، ثم بعده يشتغلُ بكمٍّ آخرَ.

نقل أنّه كان له صديقٌ جاءَ في بعض الأيام إلى الشيخ، وقال: عليَّ زكاةٌ، ماذا تقولُ فيمن أصرفُها؟ قال الشيخ: اصرفْها فيمن يقبلُهُ قلبُك. فشرع يدورُ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن الفضل، وترجمته في: حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٠ مجمل فصيحي ٢/ ٥٤ (وذكر أنه توفي سنة ٣٣١هـ)، نفحات الأنس ٢٢٠.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّها: من الصلحاء.

على الناس حتى صادفَ رجلاً أعمىً جالسًا على الطريق يتكدّى، فأخرجَ شيئًا من الذهب، وأعطاه، واعتقادُهُ أنّه من المستحقِّين، ثم اتّفقَ له أن رآه في اليوم الثاني في ذلك الموضع مع أعمىً آخرَ [يقول]: أمس أعطاني منّا تاجرٌ شيئًا من الذهب، وأنا دخلتُ حانوتَ الخمّار بالليل، وصرفتُهُ في الخمر. فانزعجَ الرجلُ في هذا الكلام، وجاء إلى الشيخ يحدّثه، فلمّا رآه الشيخُ، أعطاه دِرهمًا من كسبه قبل أن يُحدّثَهُ، وقال: أعطه أول شخصٍ تصادفُهُ. فأخذه ورجعَ، فالتقى علويًا، فناوله الدِّرهم، فأخذه العلويُّ وسار، وذهب الرجلُ وراءه مفتِّشًا عن أحواله، فرآه دخلَ في خَرَبِةٍ، وأخذ عجلةً ميتةً، ورماها إلى الخارج، فقال له التاجر، وأقسم عليه: أن أخبر عن حقيقة هذا الأمر. فقال العلوي: غلبَ عليَّ وعلى أهلي وعيالي الجوعُ إلى حدٍّ فني معه الصبرُ والطاقة لأنّا ما ذقنا الطعامَ، ولا شممنا رائحته منذ سبعةِ أيام، وكان يصعبُ عليَّ ذلُّ السؤال، فوجدتُ هذه الجيفة في هذه الخربة، أردتُ أن أذهبَ بها إلى عيالي بحكم الاضطرار، إذ لم يكن للعيال صبرٌ فوق ذلك، وكنتُ أقول: إلهي، أنت تعلمُ ذُلّي وحالي وفقري وفاقتي واضطراري، وأستحيي أن أسألَ الناسَ، فحين أَعطيتني الدِّرهمَ استغنيت به اليوم، فرميتُ الجيفةَ، عسى أن يأخذَها أجوعُ منّي، فالآن أمشي لأشتري به قوتًا للعيال. قال الرجلُ: فتعجَّبتُ من الحال، ورجعتُ إلى الشيخ، فقال: لا حاجةَ لي إلى حديثك عن الحال، ولكن لمّا كانت معاملتُكَ مع الظلمة، فلا جرمَ أنّه صارت صدقتُكَ مصروفةً على يد الأعمى في الخمر، ودرهمي قد كسبتُهُ من الوجه الحلال، فلذا صارَ نصيبًا للعلويِّ المستحقِّ، وأصاب محلَّه.

نقل أنه سمعَ نصرانيٌّ من الروم أنَّ في المسلمين ناسًا أصحابَ فِراسة وكرامةٍ، فخرجَ من الروم على قصد الامتحان، ولبس مرقعةً، وأخذ عصاةً على صورة المتصوّفة، ودخل خانقاه الشيخ أبي العباس القصاب[1] رحمه الله، فقال له الشيخ: أنتَ رجلٌ أجنبيٌّ، فماذا تعملُ في مكان أهل العرفان؟ فرجع

(١) الأصل: أبي العباس رحمه الله القصاب.

النصرانيُّ وتوجَّه إلى أبي العباس النهاوندي، ونزلَ إليه في الخانقاه، لكنَّ الشيخَ رحمه الله لم يتعرَّضْ له، وهو وقفَ هناك، وكان يتوضَّأ معهم، ويأتي بصورةِ الصلاة، وهكذا إلى أربعة أشهر، ثم أرادَ يومًا أن يسافرَ، فأخذَ متاعَهُ وقصدَ الخروجَ، فطلبه الشيخُ، وقال: يا فلان، ليس من الفتوّة أن يزورنا أجنبيٌّ، ويسافر، وأنت أجنبيٌّ باقٍ على أَجنبيَّتِكَ مستمرٌّ لها. فشرحَ اللهُ تعالى بنورِ الهداية صدرَهُ، فأسلمَ في الحال، وقطعَ زنَّارَ الشرك، وأقام هناك إلى وفاة الشيخ، وبعد وفاته، أُقيم مقامه.

رحمهم الله رحمةَ الأبرار، وحشرَهم وإيَّانا في زمرة السعداء الأخيار، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله الطيبين أجمعين.

* * *



(٩٢) أبو سعيد بن أبي الخير(١)

ذكر الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير نوّر الله تربته:

كان رحمه الله في عهده سلطانَ المشايخ والأكابر، وما وصل إليه أحدٌ من المشايخ إلاّ اعترفَ بفضله، ولم يُنقلْ من أحدٍ منهم مقدارُ رياضاته وكراماته، وكان عالمًا بأنواعِ العلوم، كاملاً فيها.

نقل أنه حفظَ في أول الأمرِ ثلاثين ألف بيتٍ تقريبًا من شعر العرب، وفي علم التفسير والحديث والفقه، وفي علم الطريقة كان ذا حظٍّ وافرٍ، وفي معرفةِ عُيوبِ النفس، ومُخالفة الهوى في أقصى الغاية، وفي الفقر والغنى تحمّل الذلِّ، له شأنٌ عظيم، وفي التلطُّفِ والمُداراة آية، ولذا قيل: أينما يُذكرُ الشيخُ أبو سعيد رحمه الله، تَطيبُ أوقاتُ السامعين.

ونقل أنّه ما قال مدّةَ حياته (أنا)، و(نحن) قطُّ.

ونقل أنّ أباه كان عطّارًا، واسمه أبو الخير، وكان بين أبيه وبين السُّلطان محمود الغازي رحمه الله معرفةٌ وصداقة إلى أن بنى بيتًا مُزوَّقًا، وصوَّرَ الحيطانَ والسُّقُفَ بصُورة السلطان وأجناده، وصورة النيل، وكان الشيخُ أبو سعيد رحمه الله طفلاً، فالتمسَ من أبيه أن يَبني له أيضًا بيتًا، فبنى له بيتًا، فدخل فيه أبو سعيد رحمه الله، وكتبَ على جميع حيطانه لفظةَ الجلالة ـ أي لفظة (الله) ـ

(١) الأنساب ١١/ ٥٨٠ (الميهني)، اللباب ٣/ ٢٨٥، طبقات السبكي ٥/ ٣٠٦ (فضل الله بن أحمد بن محمد)، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٢٢، طبقات الأولياء ٢٧٢ (فضل الله بن أحمد بن علي)، النجوم الزاهرة ٥/ ٤٦، كشف المحجوب ٣٦٢، ٣٧٧، ٤٧٣، ٥٦١، ٥٩١، نفحات الأنس ٤٢٩، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٤٥، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٥، وانظر كتاب: «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد» لابن منور، ترجمه من الفارسية إلى العربية: د. إسعاد عبد الهادي.

فقال له أبوه: لماذا كتبتَ (الله) على الحيطان؟ فقال أبو سعيد رحمه الله لأبيه: أنت صوَّرتَ حيطانَ بيتك بصورة سلطانك، وأنا نقشتُ حيطان بيتي باسمِ سلطاني. فلمّا سمعَ أبوه كلامَه، ندمَ على ما فعلَ، وشرعَ بمحو الصور عن الحيطان، فمحاها، وأحبَّ أبا سعيد أقوى ممّا كان يُحبّه(١).

نقل عن أبي سعيد رحمه الله أنه قال في أيام الصِّبا: إذ كنتُ مشغولاً بتعلّم القرآن، فذهبَ بي أبي يومًا من أيام الجمعة إلى الجامع، فالتقانا في الطريقِ الشيخُ أبو القاسم بن بشر، وكان من كبار مشايخ العصر، فقال لأبي: كنتُ أرى العَرصةَ خاليًا عن مستحقِّ الولاية؛ ولكنْ لمّا رأيتُ ابنك أبا سعيد اطمأنَّ قلبي، لأنّي رأيتُ فيه بالفِراسة سيصيبُ منه النفع إلى كثيرٍ من أهل العلمْ. قال هذا، وأشارَ إلى أبي أن يُذهبني إليه بعد الصلاة، فلمّا قضينا الصلاةَ، ذهبنا إليه، ودخلنا عليه، وسلّمنا على طريق العادة، فردَّ الجوابَ، وقال لأبي: ارفعْ أبا سعيد ـ [وأشار](٢) إلى طاقةٍ عاليةٍ كانت في صومعته ـ فإنَّ هناك قرصًا لينزلَهُ. فأنزلتُ القرصَ، فإذا هو من الشعير، وحارٌّ بَعْدُ بحيث حرارتُهُ تؤثّرُ في يدي، فأخبرتُه، ودمعت عيناه، وكسره نصفين، وناولني النِّصفَ، وأكلَ هو النصف، وما أعطى أبي منه شيئًا، فقال أبي: يا شيخ، لِمَ ما أطعمتني من هذا القرص شيئًا لأتبرّكَ به؟ فقال الشيخ أبو القاسم رحمه الله: إنّي من ثلاثين سنة قد وضعتُ هذا في الطاقة، ووعدني بعضُ الأولياء أنَّ هذا القرص إذا حَمِيَ في يدِ أحدٍ، فيسلمُ له حديثُ الولاية. فقال: لك البشارةُ يا أبا الخير، فإنّ ذلك الشخصَ إنّما هو ابنك. ثم قال: يا أبا سعيد، إن كانتْ همَّتُكَ مع الله طرفةَ عَينٍ، فذلك خيرٌ لك ممّا طلعَتْ عليه الشمس. وقال أبو سعيد: قال الشيخ أبو القاسم: يا ولدي، يجب أن تذكرَ الله تعالى؟ قلتُ: نعم. فقال: قل هذا الشعرَ في الخلوة كثيرًا.

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢، ٣٣.

(٢) ما بين معقوفين لإيضاح الكلام.

من بي تو دمي قرار نتوانم كرد إحسان ترا شمار نتوانم كرد
يك شُكْر تو أز هزار نتوانم كرد گر بر تن من زبان شود هر موئي

معناه: أنا لا أقدرُ على القرار بعدكم، بل قراري واستقراري بكم، ولا أطيقُ على إحصاء إحسانِكم، وذلك لتجاوزه عن حدِّ الإحصاء، فإن صارَتْ كلُّ شعرةٍ على جسدي لسانًا، فلا أقدر أن أذكرَ من كلِّ ألفٍ شكرٍ واحدًا.

قال: فلازمتُ على إنشاء هذا الشعر وتكرارِه في الخلوة ليلاً ونهارًا حتى انفتحَ عليَّ طريقُ الحقِّ في الصِّبا[١].

قال: رجعتُ يومًا من الكتّاب إلى البيت، فوصلتُ في الطريق إلى رجلٍ أعمى، فدعاني إليه، وقال: ماذا تقرأ؟ قلتُ: الكتابَ الفلاني. فقال: قال شيخ المشايخ: حقيقةُ العلم ما كشفَ على السرائر. والحال أنّي ما علمتُ معنى (الحقيقة) ولا معنى (الكشف) إلاّ بعد ستين سنة[٢].

نقل أنه رحمه الله ارتحل إلى مرو، ولازم مجلسَ الشيخ عبد الله الحصري[٣] رحمه الله خمسَ سنين، واشتغل بالتحصيل، وبعد وفاة الحصري رحمه الله اشتغل على الإمام القفّال[٤] رحمه الله خمس سنين، بحيث كان ليلاً ونهارًا مشغولاً بالتحصيل والتكرار، ثم جاء يومًا إلى المجلس وقد احمرَّتْ عيناه، فاتّهمه بعضُ الحاضرين بشيءٍ، فوكلَ عليه الإمامُ شخصًا ليتفحّصَ عن حاله، فرآه ذلك الرجل بالليل أنّه علّقَ جسدَهُ منكوسًا في بئرٍ، واشتغل بالذكر حتى سالتِ الدمُ من عنقه، فذكر له الإمامُ في ذلك شيئًا من حاله، فلمّا علم أنّهم اطّلعوا عليه، ارتحل من مرو إلى سرخس، وتعلّق بالشيخ أبي علي الزاهد رحمه الله، واشتغل عليه، وكان يقرأُ في يوم درس ثلاثةَ أيام، ويشتغل الأيام الثلاثة بالعبادة.

---

(١) أسرار التوحيد ٣٤، ٣٥.
(٢) أسرار التوحيد ٣٦.
(٣) في أسرار التوحيد ٤٠: أبو عبد الله الخضري.
(٤) في الأصل: الإمام البقال، والمثبت من أسرار التوحيد ٤٠.

قال رحمه الله: بينا أنا أمشي يومًا، التقيتُ بلقمان السرخسي قاعدًا على الرماد، ويرفع الفروة الخَلقة التي له، وفي حواليه الزبلُ والنجاسة، وكان رحمه الله من عقلاء المجانين، فلمّا وقعَ عليَّ نظرُهُ رمى إليَّ قطعةً من النجاسة، ثم قال: يا أبا سعيد، أُخيطك على الفروة؟ قلت: نعم. فضربَ تضريبات، وقال: هذه باسمك[١]. ثم انتهضَ من مكانه، وأخذ بيدي، وتماشينا، فانتهينا إلى الشيخ أبي الفضل [بن] الحسن، وكان وحيدَ عصره رحمه الله، فقال: يا أبا سعيد، ليس طريقَك. فلقمان رحمه الله سلّمني إليه، وقال: خذْ، فإنّه منكم لأنه ـ أي الشيخ أبا الفضل ـ من العقلاء.

قال أبو سعيد رحمه الله: فتعلقت بالشيخ أبي الفضل رحمه الله، فقال الشيخ أبو الفضل: يا أبا سعيد، اعلمْ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام على كثرتهم بُعثوا لأجلِ مقصودٍ واحدٍ وهو أن يُعلّموا الخلقَ أن يقولوا: (الله)، فمن كان له سمع يقول: (الله) حتى استغرق فيها، وظهرت الكلمةُ على قلبه، فاستغنى عن اللسان. قال أبو سعيد رحمه الله: فاصطادني هذا الكلام، حتى سلب عنّي النوم والقرار، ثم حضرتُ اليوم الثاني مجلس أبي علي صادفته يفسّرُ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فظهرَ في قلبي شيءٌ، وأخذني منّي، وتغيَّر عليَّ حالي، فأدرك أبو علي تغيّري[٢]، وقال: أين كنت البارحة؟ قلتُ: عند الشيخ أبي الفضل، ثم رجعتُ إليه والهًا متحيّرًا في هذه الكلمة، فلمّا رأى الشيخُ أبو الفضل قال: يا أبا سعيد، قد سكرت ولا تدري الخلفَ عن القدّام. قلت: وكيفَ أعملُ يا شيخ؟ قال: ادخل، واقعد، واذكر هذه الكلمة. فأمرني الشيخُ أن أرجعَ إلى مكان مَيْهَنَة، وهي قريةٌ من قرى خراسان[٣]، وآثرتُ الخلوةَ سبعَ

---

(١) في أسرار التوحيد ٤١: وكان الشيخ قد وقف بحيث وقع ظلُّه على ثوب لقمان، وعندما خاط الرقعة، قال لي: يا أبا سعيد، لقد خطك مع هذه الرقعة على هذا الثوب.

(٢) الأصل: أبو علي بغيرتي.

(٣) مَيْهَنَة: قرية من قرى خابران، وهي ناحية بين أبيورد وسرخس. معجم البلدان، وقد ضبطها السمعاني في الأنساب بكسر الميم. وفي الأصل: مهينة. وكذا سترد في كل ترجمته محرفة.

سنين، وسدّيتُ أذني، ولا أزالُ أقول: (الله) (الله) فكلّما تغيّرني غفلةٌ، كان يظهرُ عليَّ شخصٌ أسود من المحراب، وبيده حربةٌ في غاية المهابة، ويصيحُ عليَّ ويقول: (الله) (الله) إلى أن سمعتُ من جميع ذرّاتِ وجودي أنّها تقول: (الله)، (الله)(١).

نقل أنه كان رحمه الله له قميصٌ في تلك المدة، وكلّما كان ينقطعُ كان يرقّعه، حتى ثقل وصارَ وزنه فوق عشرة أرطال، وكان صائمًا، ويفطرُ على كُسيرةِ خبزٍ يابس، وكان لا ينام ليلاً ولا نهارًا، ويغتسلُ كلَّ صلاةٍ، ثم كان يدخلُ بعضَ الصحارى، ويُصبح شهرًا، ويُفطرُ على الحشيش، وأبوه يمشي في طلبه، ويردُّه إلى البيت(٢).

قال أبوه: كنتُ أقفلُ الباب، وأنتظره لينام، فحين كان يتّكىء كنتُ أنام، وعند استيقاظي في جُنح الليل، ما كنتُ أجدُهُ في مكانه، ولا في البيت، البابُ مقفولٌ كما كان، لكن يجيءُ في السحر، ويدخل البيتَ، وينزل في زاويةٍ، فتبعتُهُ في بعض الليالي إلى أن دخلَ مسجدًا خرابًا، وأغلقَ البابَ من الداخل، وكان فيه بئرٌ، فأخذ حبلاً، وشدَّ أحدَ طرفيه على عودٍ، ووضع العودَ على رأس البئر عرضًا، وشدَّ الطرفَ الآخر على رجليه، ودلّى نفسَه في البئر معكوسًا، وشرعَ يقرأُ القرآن إلى أن ختمه، وأنا على الباب، أنظرُ من الشقِّ، ثم خرج، وأنا رجعتُ إلى البيت، ودخلت الفراش على العادة، فجاء أبو سعيد كما كان، وهكذا كان يفعلُ ليلاً على ليلٍ(٣).

نقل أنه رحمه الله كان يخدمُ الفقراءَ، ويكنسُ المبارز، ويتكدّى، ويصرفُ على الفقراء والمساكين كلُّ ذلك لأجلِ كسرِ النفس، وإذا يظهرُ له إشكالٌ كان يَمشي مُعلّقًا بين الهواء والأرض إلى سرخس، ويعرضه على الشيخ

---

(١) أسرار التوحيد ٤٣.

(٢) أسرار التوحيد ٤٥.

(٣) أسرار التوحيد ٤٨.

أبي الفضل، ثم أرسلَهُ [إلى] الشيخِ أبي عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله حتى ألبسَهُ الخرقةَ، ثم رجع إلى الشيخ أبي الفضل، فأشار إليه الشيخُ أبو الفضل رحمه الله بأن يرجع إلى قرية مَيْهَنَة، ويرشدَ الخلقَ، ثم ضاع رحمه الله بعد هذا سبعَ سنين في صحراء خاوران[١]، ولم يأكل في هذه المدة إلا ورق شجيرات الطَّرْفاء[٢] وزهرها، وتُخالطه السباع والوحوش، وكان رحمه الله كالسكران، لا يُؤثِّرُ فيه الحرُّ ولا البرد ولا هو يبالي بهما، ثم إنه همَّ بالرجوع إلى مَيْهَنَة وإرشاد الخلق، فامتثلَ أمرَ الإلهام، وسكن مَيْهَنَة، وترقّى شأنُهُ، واشتهر أمرُهُ وحصلَ له قبولٌ إلى أن اشتروا قشرة البطيخِ التي رماها الشيخ رحمه الله بعشرين دينارًا، قال: ثم بعد هذا القبول هبَّتْ ريحُ الغيرة من وراء أستار العظمة والكبرياء، فعكستْ حالي، وشوّشتْ بالي، وزادتْ حزني وبلبالي، فردّني من قلبي منهم، وشرع يذلّني من كان يعزّني، ويُحقّرني من كان يُكرمني، حتى شهدوا عليَّ بالكفر والجنون، وإلى [أيِّ] أرضٍ أدخلُها كانوا يقولون: هذا المشؤوم منحوس، كاد لا ينبتُ النبات، ولا يثمرُ الشجر من شؤمه، إلى أن دخلتُ يومًا في مسجدٍ، فجاءت جماعة من النساء، وصببنَ نجاسةً على رأسي، فسمعت قائلاً يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ [فصلت: ٥٣] قال: الحاصل أنه حين كنتُ مقبولاً لم تكن حينئذٍ واقعةٌ في الدنيا مثلاً إلاّ كانت تنحلُّ بيدي، ولما صرت منبوذًا ما كانتْ عجوزةٌ في بيتها [ترمي] رمادًا إلاّ كانتْ تُريدُ أن تصبَّ على رأسي، وأنا في الحالتين مُطمئنٌ ناظرٌ إلى الحقِّ جلَّ جلاله، معتمدٌ على كرمه، ثم وقعَ في قلبي أن أتوجَّه إلى الشيخ أبي العباس القصاب؛ فإنّه كان من بقيّة المشايخ، والشيخُ أبو الفضل رحمه الله ما كان باقيًا، فقصدتُهُ وأنا في قبضٍ عظيم، فوصلتُ في الطريق إلى شيخٍ فانٍ يزرع، فلمّا رآني قال: يا أبا سعيد، لو ملأ الله تعالى العالمَ من الأرزن، ثم يخلق طيرًا، ويأمره بأن يلتقطَ في كلِّ ألفِ سنةٍ أرزنةً واحدة، ويخلق شخصًا، ويضعُ في صدره هذه الخرقة، ويقول له:

---

(١) خاوران قرية في نواحي خلاط (قصبة أرمينية الوسطى).

(٢) الطَّرْفاء: شجر للتزيين. متن اللغة.

ما لم يُتمَّ هذا الطيرُ الأرزن كلَّه لا وصولَ لك إلى المقصود، وأنت في جميع هذه المدة تبقى في هذا الأحزان، لهانَ الأمرُ، وطاب الشأن[١]. قال أبو سعيد: ارتفعَ عنّي القبضُ، وانحلّتِ العقدةُ، ثم وصلت إلى الشيخ أبي العباس القصاب بآمل، ومكثتُ عنده مدّةً، وأعطاني أبو العباس رحمه الله مخزنًا في مقابلة بيته، وكان أبو العباس في صومعته مَشغولاً بالليل والنهار بالعبادة، وأنا في مخزني مشغولٌ بالمجاهدة، وكنت أُراعي البابَ وقتَ دخول الشيخ أبي العباس وخروجه، فاتّفقَ للشيخ أبي العباس أن افتصدَ وانحلَّ الشدُّ بالليل، وانفتحَ الفصدُ، وتلّوث ثوبُهُ بالدم، فخرج الشيخُ في وسط الليل حتى قصدَ غسل الدم، وكنتُ مُراقبًا له، فأسرعتُ إليه، وغسلتُ الدَّم من يده، وشددتُ موضع الجراحةِ بخرقةٍ نظيفة، وخلعَ الثوب الذي كان عليه، ولبس خريقتي، وأنا بالليلِ غسلتُ خرقتَهُ ونشَّفْتُها، وجئتُ بها إلى الشيخ، فأشار إليَّ بأن ألبسَها، فأخذها بيده وألبسني، فلمّا أصبحنا رأى الأصحابُ خرقةَ الشيخ عليَّ، وخرقتي على الشيخ، فتعجَّبوا في هذا الشأن، فقال الشيخ: لا تتعجَّبوا، فإنَّ البارحة نُثرَتْ عليَّ إنعاماتٌ، وجميعُها صار نصيبًا لهذا الفتى المَيْهني ـ أي المنسوب إلى مَيْهَنَة ـ ثم أشارَ إليَّ بالرُّجوع، وقال: سيُنصبُ هذا العلمُ على بابك. فرجعت بحكمة إشارة الشيخ بفتوحٍ كثيرة، ولمّا وصلتُ إلى مَيْهَنَة تُوفّي الشيخُ أبو العباس رحمه الله[٢].

نقل أن أبا سعيد رحمه الله كان في غايةِ المُجاهدة والرياضة إلى أربعين سنة حتى أنه تأهَّلَ ـ أي تزوّج ـ وولد له ابنٌ سماه أبا طاهر، وهو في حالة عجيبة من الرياضة والاجتهاد.

نقل أنه قال: جاوز الاجتهادُ حدَّه، ولم يكن مقصودي يحصلُ، ولا الحجاب كما ينبغي يرتفعُ، حتى دخلتُ ليلاً في الخانقاه، وأم أبي طاهر

---

(١) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٥٧: وستظلُّ تكابد ما أنت عليه من ألم ووجد، فإنَّ هذا الأمر سرعان ما ينتهي. .

(٢) أسرار التوحيد ٥٠ـ٦٨.

معي، فأمرتها بأن تشدَّ رجلي، ففعلتْ، وعلّقتني منكوسًا، وخرجَتْ من الخانقاه، وأغلقتِ الباب، وأنا شرعتُ أقرأُ القرآن، والدمُ بدلَ الدمع أخذ يجري على وجهي، وكادتِ العينُ تنقلع، قلت: نفسي، لا أُريد العين، بل إذا حصلَ المقصودُ، فأفديه بألف عين، ثم جرى الدمُ من عيني على خدّي حتى وصلَ إلى الأرض، وأنا انتهيتُ في القراءة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فما رأيتُ إلاّ أن انفتحت أبوابُ المراد، ووضعوا نقدَ المقصود في حجري، فصحت: أمَّ أبي طاهر، فأتت لترى[١].

وقال رحمه الله: طلعتُ جبلاً نوبةً، وجلستُ على صخرةٍ في شفير وادٍ عميق، ما كان أحدٌ يستجري أن ينظرَ من العلوّ إلى السفل، وألزمتُ نفسي بأن أقرأَ القرآنَ من أوّله إلى آخره على تلك الصخرة، وخوَّفتُها من النوم مخافةَ الوقوع، ثم في ﴿السجدة﴾ غلبني النومُ، فإنَّ الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، فما وجدتني إلاّ واقعًا من الصخرة بين السماء والأرض، فاستغثت اللهَ تعالى، فأغاثني وردّني إلى الصخرة قبل أن أنزلَ إلى الأرض[٢].

نقل أنه قال رحمه الله: إنّي أوجبت على نفسي ثمانية عشر شيئًا في ابتداء الحال، ودفعتُ عنّي ثمانية عشر ألف عالم: الأول: الصومُ على الدوام، والثاني: الاجتنابُ عن المعاصي والمناهي والآثام، والثالث: الذِّكرُ، في الليالي والأيام، والرابع: السهرُ الدائم والناس نيام، والخامس: أن لا أتّكيءَ على الأرض ولا أنام إلاّ قاعدًا إن غلبني النوم، وأن لا أجلسَ إلاّ مستقبلَ القبلة، ولا أنظرَ إلى أمردَ، ولا أنظرَ في الصلاة إلى المحراب، ولا أسألَ عن أحدٍ شيئًا، وأكونَ قانعًا في مقام التسليم، وأواظبَ على الجلوس في المسجد، وأن أختمَ القرآنَ في كلِّ يومٍ وليلة، وأكونَ أعمَى أصمَّ أخرس، سمّوني مجنونًا واحتملته، وما بلغني عن النبيِّ عليه السلام من العبادة والطاعة سعيت في أن

(١) انظر أسرار التوحيد ٥٢.
(٢) أسرار التوحيد ٤٦.

عملته حتى بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ صلّى وهو قائمٌ على رؤوس الأصابع[١]، فتابعته، وصلّيت أربع مئة ركعة وأنا قائمٌ على رؤوس الأصابع، وما نُقل من عبادة الملائكة تابعتُهم فيه، حتى أتيتُ بجميع أنواع عباداتهم حتى عبدتُ الله تعالى وأنا منكوسٌ، وختمتُ القرآنَ وأنا منكوس.

نقل أنه رحمه الله نزلَ يومًا تحت شجرِ الخِلاف[٢]، ونصب له خيمةً، وجاريةٌ تركية تغمزُ رجليه، والجلابُ في القدح موضوعٌ عند رأسه، والحال أن تلميذًا من تلاميذه كان واقفًا في الشمس، وعليه فروةٌ، وعرقَ عرقًا شديدًا، وضعف ضعفًا قويًا، فخطر بباله: أنَّ هذا عبدٌ، وهو في غاية الذلِّ والاضطراب، فصاح عليه الشيخ وقال: يا فتى هذه الشجرة التي تراها ختمتُ القرآنَ تحتها سبعين مرة، وأنا معلَّقٌ عليها منكوسًا.

نقل أن فتىً من أولاد الأكابر جاء إلى الشيخ ولازمه، وقد ورث من أبيه مالاً كثيرًا سلّمه إلى الشيخ رحمه الله، والشيخُ أنفقه إلى الفقراء في يومه، لأنَّ الشيخ رحمه الله ما كان يتركُ شيئًا للغد، وأمره بالصوم والذكر، وقيامِ الليل على الدوام، وأمره بخدمة المبرزِ سنةً، ثم أمره بخدمة الفقراءِ سنةً أُخرى، ثم أمره بالسؤال والدَّورانِ على الأبواب سنةً أُخرى، والناس كانوا يملؤون زنبيله لغاية اعتقادهم فيه، ثم بعد ذلك أشارَ الشيخُ إلى الأصحاب بأن لا يلتفتوا إليه، فشرعوا يطردونه ويجفونه ويتباعدون عنه، والناسُ أيضًا في هذه السنة ما كانوا يُعطونه شيئًا، والشيخُ في هذه المدة كان معه طيبًا، ثم أخذَ الشيخُ أيضًا في جفائه والغلظةِ عليه، وكان يزجرُهُ بين الملأ، ويقول معه بالخشونة إلى أن اتَّفَق أنه صام ثلاثة أيام مُتواترةً، ولم يأكل شيئًا، ودار على الأبواب، وما أعطاه أحد زبيبًا، وفي الليلة الرابعة كان في الخانقاه عند الشيخ دعوةٌ، وطبخوا طعمةً

---

(١) جاء في أسرار التوحيد ٥٢: سمعت أن المصطفى ﷺ جُرح في قدمه في غزوة أحد، فلم يستطع الوقوف عليها، فكان يُصلّي واقفًا على أطراف أصابعه وقد تقدمت هيئة هذه الصلاة صفحة: ١٩١، ٢٠٤، ٦٦٤.

(٢) الخلاف: شجر الصفصاف.

لذيذة، والشيخ قد وصّى المطبخَ والأصحاب أن لا يُطعموه شيئًا، ولا يدعوه بينهم، فجاء ذلك الفتى من السؤال، وما كان معه قليلٌ ولا كثير، كان جائعًا من ثلاثة أيام ولياليهن، فدخلَ المطبخَ، ولم يُطعمه الطَّباخُ شيئًا، وأخرجَهُ منه، وحين قدَّموا الطعامَ إلى الأصحاب والجماعةِ دخلَ بينهم، ما تركوه أن يجلسَ معهم، ولا أطعموه شيئًا، ولا نظر إليه واحدٌ من الشيخ والجماعة، وهو واقفٌ ينظرُ إليهم، فبعد الطعام نظرَ إليه الشيخُ وقال: يا فلان، تصدُّ عنّا وتشوّشُ علينا، ولا تستحي، من أنت؟ من أين أنت؟ ثم أشار إلى بعض الحاضرين، وقال: اطردوا هذا المشؤوم من هذا المجلس، وإن دخلَ في الخانقاه بعد اليوم نفعلُ به شيئًا لم يُفعل بأحد. فقام شخصٌ، وهيَّجه من مكانه، وأخرجه من المجلس، وطرده من الخانقاه، وأغلق الباب، فخرج الفتى في غايةِ الجوع والعجزِ والمذلّة، والدمعُ يجري على صفحتي خدّيه، ولم يبق له أملٌ ولا رجاء من المخلوقين، ولا مالٌ ولا منصبٌ ولا جاه، وسمعَ من الشيخ والجماعة ما سمعَ، فدخل في مسجدٍ خراب، بقلبٍ جريح، وعينٍ قريح، ودمع مسفوح، ووضع خدَّه على التراب، وتضرَّعَ إلى الله تعالى، وتوجّه إليه، وقال: إلهي، تعلم حالي ومذلّتي، وفقري وفاقتي، وضراعتي وحاجتي، وتنظرُ إليَّ، وتعلمُ أنَّ عبادَك كيف طردوني، وليس لي أحدٌ سواك أتضرَّعُ إليه، وأعرضُ حاجتي إليه، وليس لي مالٌ ولا عزٌّ، بل أنا عبدُك في سوءِ الحال وغايةِ البلبال، وأنت قادرٌ حكيم، تعزُّ من تشاء، وتذلُّ من تشاء، وتُعطي من تشاء، وتمنعُ من تشاء، بيدك الخير إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير. وكان يبكي ويتضرَّعُ إلى [أن] ندّى أرضَ المسجد من دموعه، فاللهُ تبارك وتعالى نظرَ إليه نظرَ الرحمة، وفتح على قلبه أبوابًا إلى مقصوده، وأعطاه ما كان يتمنّى، والشيخ أبو سعيد رحمه الله جالسٌ بين الأصحاب في الخانقاه، فقام والجماعة معه، ومعهم جمعٌ، وذهب إلى داخل ذلك المسجد، فأبصر الفتى واضعًا خدَّه على التراب باكيًا متضرّعًا، فرفع رأسَه، ورأى الشيخ والجماعةَ معه، فقال: يا شيخ، لمَ تشوّشني؟ فقال الشيخ: يا فلان، تريدُ أن تأكلَ المائدة وحدك؟ فقال: يا شيخ، كيف كان قلبُك الشريف

يوافقُكَ في جفائي وإيذائي؟ قال الشيخ: إنّك كنت مُنقطعًا عن الخلق والأصحاب كلِّهم، وبقيتَ مُعتمدًا عليَّ، وأنا قدرت لك حجابًا بينك وبين الخلق، وما كان بقي لك حجابٌ سوى أبي سعيد، فلا جرمَ أنّي فعلتُ معك ما فعلتُ ليرتفعَ هذا الحجاب أيضًا، والحالُ أنه ارتفعَ، ووصلتَ إلى المقصود، ونحن جئنا إليك نُهنيكَ، بارك اللهُ لك في وصلك إلى مقصودك، وجعله لك مُباركًا، فقم معنا، رزقنا الله عيشة السعداء.

نقل عن الحسن المؤدب[1] الذي هو من خواصّ خدّام الشيخ أبي سعيد رحمه الله أنه قال: كنت بنيسابور تاجرًا، فسمعتُ صيت الشيخ، فذهبتُ إليه، فلمّا رفع عليَّ نظره قال: تعال تعال، فإنَّ لي معك أشغالاً. والحالُ أنّي لم أعرفْ مقصودَهُ، ولا فهمتُ قصده، وكنتُ مُنكرًا للصوفية، ثم إن الشيخ رحمه الله في آخرِ الصحبة طلب لفقيرٍ ثوبًا، فوقع في خاطري أن أعطيه عمامتي، ثم قلت في نفسي: إنّها أُهديت إلي من مدينة آمل، وقيمتُها عشرةُ دنانير، فلأجل هذا أمسكتُ، ثم نوبةً أخرى حدّثَ الشيخُ مثلَ الأول، فوقع أيضًا في قلبي أن أسمح بالعمامة، ثم ندمتُ، وهكذا ثالثًا ورابعًا، فقال شخصٌ من الحاضرين وكان قاعدًا في جنبي: يا شيخ، هل اللهُ تعالى يكلّمُ أحدًا؟ فقال: نعم، قد كلّم هذا الرجل الذي في جنبك في عمامة طبرية، وهو يقول: ما أجدُ في نفسي أن أسمح بها، لأنَّ قيمتَها عشرةُ دنانير، وأُهديت لي من آمل.

أقول: المرادُ من كلام الله تعالى في هذا المقام إنَّما هو الإلهامُ. يعني ألهمَ الله تعالى في قلبه ليجودَ بالعمامة، وهو يمتنع لما يلقي الشيطان في نفسه ما يلقي. [والله أعلم].

قال الحسن رحمه: فلمّا سمعتُ من الشيخ هذا الكلام وقعتْ عليَّ رجفةٌ، وأعطيتُ العمامة، وزال الإنكار من قلبي، وأتيت بمالي كلِّه إلى الشيخ، وهو

(١) في الأصل: الحسن المؤذن، والمثبت من أسرار التوحيد ٨٣، وانظر الفهرس ٤٥٤.

أنفقَهُ على المساكين، وأنا واظبتُ مجلسَه، ولازمتُ صحبته، وصرتُ من تلاميذه(١).

نقل عن شيخٍ من الصلحاء أنه قال: كنتُ في أيام الشباب مشغولاً بالتجارة، وكنتُ في قافلةٍ متوجِّهًا إلى مدينة مرو، وأنا سبقتُ القافلة ليلاً، وغلبني النومُ، فنمتُ، ولمّا انتبهتُ ما رأيت من الأصحاب أثرًا، وكان الأرض مرملاً، لا يوجدُ فيها علامةٌ، فعدوتُ من الجوانب، ولا اهتديتُ إلى الطريق، فضعتُ بالبادية، وزال عقلي، ودُهشتُ، ثم أفقتُ واخترت جانبًا، ومشيتُ حتى غلبني الجوع والعطش، وأثّرَ الضعفُ في جميع أعضائي، وكان في غاية الحرِّ، فصبرتُ إلى الليل، وسعيت في المشي جميعَ الليل، فلمّا أصبحتُ رأيتُ صحراءَ ما كان فيها إلا الشوكُ والعوسج، وما رأيت أثرًا لعمارةٍ، بل كانت مفازةً بعيدةً عن العمران، لا فيها ماءٌ ولا خضرة، وأثّر فيَّ الضعفُ والجوع والعطش، فوطّنتُ على الهلاك، وسقطتُ على الأرض، ثم قمتُ وجهدتُ حتى طلعتُ تلاً، ونظرتُ من الجوانبِ، ما رأيت من العمارة أثرًا، ولكنّي أحسستُ من البعيد سوادًا، فمشيت إليه، فإذا هو مرجٌ، ففرحت وقلت: لعلَّ فيه ماءً، إذِ المرجُ قلّما يخلو عن الماء. فسعيتُ إليه بمشقّةٍ عظيمة، فوجدتُ هناك عينًا، فشربتُ منه، وتوضّأتُ وصلّيت، ثم أكلتُ شيئًا من الحشيش، وأقمتُ هناك يومًا وليلةً، ففزعتُ من السباع، فأويت إلى تلٍّ من الرمل بقرب المرج، وحفرتُ فيه حفرةً، ونزلت فيها، وغطّيتُ رأسَها بالحشيش، وأنا أنظرُ منها إلى الجوانب لعلّي أرى أحدًا، فرأيت بعد الزوال شخصًا طويلَ القامة أبيضَ اللون، واسعَ العينين، وله لحيةٌ طويلة، وعليه مرقعةٌ، وبيده عصا وإبريقٌ، وعلى كتفه سجّادةٌ، وعلى رأسه قبعٌ على صورة الصوفية، والنورُ يلوحُ من وجهه، وذهب إلى العين، وبسطَ السجّادة، وتوضّأ وصلّى، ورجع، وأنا ندمتُ في حال أن ما ذهبتُ إليه، ولا حدّثته، ولا سلّمت عليه، ولا زلتُ ألومُ

---

(١) أسرار التوحيد ٨٣ وما بعدها.

نفسي إلى أن حان وقتُ العصر، فإذا أنا أراه جائيًا إلى العين، وقد حصلتْ لي جرأةٌ، فقمت إليه، وتشبّثتُ بأذياله، وقلت: يا شيخ، أنا رجلٌ تاجرٌ من مدينة نيسابور، وقد تخلّفتُ من القافلة لنومٍ غلبني، وكم يومٍ أنا ضائعٌ في هذه البادية! وهو مطرقٌ رأسَه، ثم قامَ وأمسك بيدي، وتماشينا خطواتٍ، فرأيت أسدًا عظيمًا طلعَ من البادية، وجاء إليه وخدمه، وتبصبصَ عنده، ووقفَ، فوضع فاه على أذنه، وقال معه شيئًا، ثم أركبني عليه، ووضعَ شعورَ رقبته بيدي، وأمرني بإمساكها، والاستمساكِ عليه، وقال: أينما يقفُ الأسد انزلْ. وأمرني بإغماض العين، ففعلتُ كما أمرَ، وسار إلى ساعةٍ ثم وقفَ، فنزلتُ، ورجع الأسد، فمشيتُ ساعةً، فرأيت القافلةَ نازلةً، ففرحت فرحًا شديدًا، وذهبت معهم إلى بُخارى، ثم رجعتُ إلى نيسابور، ولازمت دكّاني، ومضى عليَّ سنون، ثم اتّفقَ أن كنتُ عابرًا، فرأيتُ جماعةً مجتمعةً، وسألت عنهم، فقالوا: إن الشيخ أبا سعيد جاءَ، ويعظُ الناس. فدخلتُ بين الجماعة، ونظرت إليه، فإذا هو الرجلُ الذي صادفتُهُ عند مضيعي في البادية، وأركبني على الأسد، وأنا في هذا التعجّبِ، فنظر إلي وقال: يا فلان، أما سمعتَ أن ما يُروى في البوادي لا يُذكرُ في العمران. فشهقتُ شهقةً، وغاب عنّي عقلي، فما استفقتُ إلاّ وقد تمَّ المجلسُ، وعندي شخصٌ من الفقراء يمسحُ وجهي، فذهب بي إليه، وأنا تمرّغتُ بين يديه، وقبّلْتُ رجليه، وهو راعاني، وعهدتُ بكتمان هذا السرِّ ما عاش الشيخ رحمه الله[١].

نقل أنه كانت بنيسابور امرأةٌ جليلةٌ عابدة زاهدة[٢]، وهي من أهل بيت الأكابر، وكانت مدةَ أربعين سنة ملازمةً لبيتها بحيث ما طلعت منه قطُّ، ولا خطَتْ خطوةً خارجَ البيت، ولها خادمةٌ تقضي حوائج لها، وتدخل عليها إلى أن جاء الشيخ [فقالت لمربيتها يومًا: انهضي واذهبي إلى مجلس الشيخ][٣]

(١) انظر أسرار التوحيد ٨٤ وما بعدها.

(٢) اسمها ايشني نيلي: أسرار التوحيد ٩٥.

(٣) ما بين معقوفين مستدرك في أسرار التوحيد ٩٥.

واستمعي كلامه، واحفظي منه شيئًا، ثم خبّريني به، فحضرتِ الخادمةُ، وحفظتْ من كلامه بيتًا[١]، وحضرتْ به، فقالت المرأة للخادمة: اغسلي فاكِ؛ إذ ليس هذا كلامَ العلماءِ ولا الزهاد. وأنكرتِ الشيخَ، والحالُ أنّها كانت تُركّبُ البرود[٢]، وتُداوي به العيون الهائجة، فاتّفقَ لها أن رأتْ في تلك الليلة منامًا هائلاً، فهاجتْ عيناها، وحصل لهما وجعٌ عظيم، فداوت عينها ببرودٍ، فلم ينفع، فاضطرَّتْ إلى أن عُرضت على الأطباء، وما أفادها شيئًا، والوجعُ كان يزداد لحظةً فلحظة، وهي كانت تصيحُ وتستغيثُ، فرأتْ في المنام نوبةً أخرى أنَّ قائلاً يقول لها: إنْ أردتِ شفاءَ عينيك، فاطلبي رضا الشيخ أبي سعيد. فأصبحت، وأخذت ألف درهم في كيس [وأعطته] للخادمةِ، وأمرتها بأن تذهبَ به إلى الشيخ بعد الرجوع من المجلس، ولا تحدّث شيئًا، وحين فرغَ من الكلام، ورجع إلى منزلِهِ جاءَ إليه فقيرٌ بخبزٍ يابسٍ وخلال، وهكذا كان كلّ يومٍ، فيأكلُ شيئًا من الخبز، فينظّفُ الأسنان بالخلال، فجاءتْ إليه الخادمةُ بالدراهم، ووضعت بين يديه، وما تكلّمتْ، وأرادتِ الرجوعَ، أعطاها الشيخ الخلال، وقال: قولي للعابدة أن تحرّكَ هذا الخلالَ في الماء، ثم تصبُّ الماءَ في عينها، فتطيب حينئذٍ عينُها الناظرةُ الظاهرة، وإن زالتْ عن ظلمة إنكارِ هذه الطائفة تطيبُ بإذن الله تعالى عينُها الباطنة أيضًا. فجاءتِ الخادمةُ إليها بالرسالة وفعلتْ ما وصّى الشيخُ، فطابت عينُها بإذن الله تعالى في الساعة، ثم في اليوم الثاني حوتْ جميعَ ما كانت لها من الحلي والنقد والجنس[٣] وأرسلتْه إلى

---

(١) ليس بيتًا؛ إنما هي رباعية نصُّها كما في أسرار التوحيد ٩٥:

عنـدي حبَّـةٌ ونصـفٌ وهـو قـدرٌ ضئيـل
وقد اشتريتُ قدحَيْنِ من النبيذ وهو قدرٌ ضئيل
لم تبقَ على عُودِنا نغمةٌ مُنخفضةٌ ولا عالية
فـإلـى متـى تقـولُ: إنَّ الفقـرَ غـمٌ وهـم

(٢) أسرار التوحيد: تصنع للناس مرهمًا للعين.

(٣) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٩٦: من الذهب والجواهر والملابس.

الشيخ، وهي بعزلةٍ لم تخرجْ من البيت أربعين سنة، ولا لبستِ الخفَّ في هذه المدّة، خرجتْ من البيت، وحضرتْ مجلسَ الشيخ، وتابت ورجعتْ عمّا أتتْ عليه من الإنكار، ثم سيَّرها الشيخُ إلى المربية أم [أبي] الطاهر، لتُلبسها الخِرقةَ، وصارت من الصوفية، ودامت على ذلك ما عاشت.

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله قبل أن يجيء إلى نيسابور رأى في المنام ثلاثين من أصحاب الأستاذ أبي القاسم القشيري والأستاذ أيضًا رحمهم الله تعالى، أنَّ الشمس تنزل من جبلٍ هناك إلى المدينة، وفي اليوم الثاني وقع الخبر أن الشيخ أبا سعيد ينزلُ من هذا الجبل، ويُريدُ الدخول في نيسابور، فأشار الأستاذ إلى الأصحاب أن يزوره، فقال أبو القاسم الثعلبي(١) وهو من كبارِ أصحاب الأستاذ: يا أستاذ لا يمكن خلاف الشمس، ثم الذين رأوا المنامَ كلُّهم زاروا الشيخ أبا سعيد رحمه الله، والأستاذ ما زاره، وجعل له اعتبار. فقال على المنبر يومًا: الفرق بيني وبين أبي سعيد أنَّه يُحبُّ اللهَ، واللهُ يحبُّ أبا القاسم، فهو كذّرةٍ، وأبو القاسم كجبل. ثم وصل هذا الكلام إلى أبي سعيد رحمه الله، فهو أيضًا قال على المنبر: إنَّ الأستاذ قد شرّفنا، وقال كذا، ونحن نقول إنه صادقٌ، هو جبلٌ والذرة أيضًا هو، وأمّا أنا فلستُ بشيءٍ. ثم وصل هذا الكلام إلى الأستاذ، فزاد الإنكار، وقال هو على المنبر: من يمشي إلى مجلس أبي سعيد فهو مهجور أو مطرود. فرأى في ليلته النبيَّ عليه السلام في المنام كأنَّه يمشي، وهو يقول: يا رسولَ الله، إلى أين؟ ويقول النبيُّ عليه السلام: إلى مجلس أبي سعيد رحمه الله، ومن لم يمشِ إلى مجلسه فهو مهجورٌ أو مطرود. فانتبه الأستاذ من النوم مرعوبًا متحيِّرًا، فقام وأراد أن يتوضّأ ويتوجَّهَ إلى مجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وهو في أثناء الوضوءِ، فقال للجارية: انفضي الغُبارَ عن اللجام والسرج. ثم أتمَّ الوضوءَ، وركب قاصدًا لمجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فرأى في الطريق كلابًا مجتمعةً، ولهم عيطاتٌ وأصواتٌ،

(١) اسمه في أسرار التوحيد: أبو القاسم الروهباهي. انظر الفهرس صفحة ٤٥١.

فسأل الأستاذ رحمه الله، قيل: جاء كلبٌ غريب في هذه المحلّة، واجتمعتْ كلابُها عليه، وتؤذيه وتدفعُه من مكانها. فاتّعظَ الأستاذ عنها، وقال: تركتُ السباعية وإيذاءِ الغريب، وها أنا أمشي إليه وأزوره. وتعجّب الخلقُ فيه، وكما دخل على الشيخ أبي سعيد رحمه الله وأبصرَ حشمتَهُ وحرمتَه وعزّتَه، فدار بباله أنّه لا يتأخّر عنه بالفضل والمعاملة، فمن أين له هذا الاعتبار والمقدار؟ فعلمه أبو سعيد رحمه الله بنور الولاية وقال: يا أستاذ، كان ينبغي لك أن تفتكرَ هذا حين قلتَ للجارية: انفضي عن اللِّجامِ والسرج الغبارَ، ولو نفضْتَ الغبارَ عن القلبِ لكان خيرًا. فطاب للأستاذ قلبُهُ ووقته من هذا الكلام، ولما نزلَ الأستاذ استقبله الشيخُ، واحتضن الأستاذ، وتعانقا، وارتفع الغبارُ من البَيْنِ، وزال الإنكارُ عن قلب الأستاذ، وحصل بينهما أشياءُ كثيرة، ثم قال الأستاذ على المنبر: من لم يتشرَّفْ بمجلس الشيخ أبي سعيد فهو مهجورٌ أو مطرود. وكان يقول: أقولُ الآن على ضدِّ ما قلت، وأقولُ جزاه الله تعالى خيرًا على معرفته وإنصافه[١].

نقل عن الأستاذ أبي القاسم رحمه الله أنّه لم يكن مُعتقدًا للسماع، وكان في بعض الأيام عابرًا إذ وصلَ إلى بابِ خانقاه الشيخ، وسمعَ صوت المغنيِّ عن مجلس الشيخ، فخطر ببال الأستاذ: أن الإكثار والمبالغة في السماع قادحٌ في العدالة، ومبطلٌ للشهادة، وعبر، ثم الشيخُ رحمه الله علم بالولاية ما خطرَ بباله، وذلك بإلهام الله تعالى وتقدّس، فأرسل إليه شخصًا في الحال، وقال له: قل للأستاذ: متى رأيتنا في محكمة القاضي نشهد لأحدٍ أو على أحد؟[٢].

نقل أن الأستاذ رحمه الله ولدَ له ولدٌ بالليل، ولم يُسمّه أحدٌ، فلمّا أصبحوا جاء شخصٌ إلى باب الأستاذ، وفتح الأبواب، وقال الأستاذ: ليس هذا إلاّ أبا سعيد. وكان إيّاه، فدخل وسلّم، وقال: أُخبرتُ بأن وُلِدَ لكم ولدٌ، ولم يكن

---

(١) أسرار التوحيد ٩٧، وانظر ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) أسرار التوحيد ٩٨.

لي إلاّ اسمي، فجئتُ أهنّيك بولادته، وآثرتُهُ باسمي. فسمّوه أبا سعيد، والأستاذ صنع دعواتٍ ثلاثة أيامٍ شكرًا على هذه النعمة، وأطعمَ الفقراء أطعمةً كثيرة، وكان الولد صاحبَ حالٍ وهو في المهد، وذلك من بركة الشيخ أبي سعيد رحمه الله(١).

نقل عن الأستاذ أبي القاسم والشيخ أبا سعيد رحمهما الله اجتمعا ليلاً في بستان، وكان للأستاذ رحىً، جاء إليه الطَّحانُ، وكان يُحاسبُه في الدخل والخرج، ومضى على هذا من الليل بعضُه، وطال حديثُهما في ذلك، ثم في اليوم الثاني كانوا مجتمعين قعودًا، إذ دخلَ شخصٌ وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] قال الشيخ أبو سعيد رحمه الله: هذا كلامُ الله حقٌّ لا مريةَ فيه، ولكن اقرأه على هذا الذي كان البارحةَ يُحاسبُ حاصل الرحى. ثم توجّه الشيخُ إلى الأستاذ، وقال: يا أستاذ، وتسمع هذه الآية، فإنّ الله تعالى يدعُ الرَّحى معك، ويقول: الكلُّ لي، ولا شيءَ لك فيها. قال الأستاذ: نعم، ولكن الرحى إنما هي في اليدِ لا في القلب. قال الشيخ رحمه الله: ينبغي أن تكون اليدُ أيضًا خاليةً مثل القلب(٢).

ثم نقل أن الأستاذ رحمه الله لمّا حضرتْهُ الوفاةُ، ووقعَ في النزع، كان يبكي ويقول: نعمَ ما قال الرجل المَيْهَنيُّ ـ أي أبو سعيد ـ كان ينبغي أن تكون الآن يدي مثلَ قلبي.

نقل عن الأستاذ رحمه الله أنه خلعَ الخرقةَ عن فقيرٍ، وآذاه، ونفاه عن المدينة بسبب أنه عشق ابنًا لبعضِ أقارب الأستاذ، فسمع الشيخُ أبو سعيد هذا الحال، وصنعَ دعوةً، ودعا الأستاذ وجمعًا كثيرًا من الأصحاب، وأمرَ بطبخ أطعمةٍ كثيرة، ولوزينج بالسكر(٣)، وكان أبو طاهر ابن الشيخ ذا جمالٍ وحُسْنٍ وبهاء، وفقيرٌ من المُلازمين كان يعشقُهُ، ويحترقُ في محبّته، والشيخُ كان خبيرًا

---

(١) أسرار التوحيد ٩٩.

(٢) انظر أسرار التوحيد ٢٣٩، ٣١٧.

(٣) اللوزينج: حلواء شبه القطائف، تؤدم بدهن اللوز. معرب. متن اللغة.

بالحال، ولكن كان يُخفيها إلى ذلك اليوم، ثم أمر ابنه أبا طاهر بأن يأخذ صحنًا من اللوزينج، ويمشي إلى الفقير في المجلس، ويلقّمه باللوزينج، ويأكل هو معه، ففعل الصبيُّ ما أمرَهُ أبوه، والفقير استحيا عن الشيخ وابنِهِ وعن الحاضرين، ومزّقَ خرقتَهُ، وشهق، وخرجَ من المجلس، فأشار الشيخُ إلى ابنه أن يتبعَهُ أينما يتوجَّه، ويخدمَهُ، وإن كان توجّهه إلى الكعبة شرّفها الله تعالى، فأخذ عصًا وإبريقًا، وتبعه، فالتفتَ الفقيرُ، فأبصر أبا طاهر قد لحقه، وقال: أنا رفيقُكَ في هذا السفر. فرجعَ الفقيرُ إلى الشيخ، وتضرّعَ إليه، وطلبَ منه أن لا يرافقَهُ ابنُهُ، وكان يتمرَّغُ على التراب، ثم منعَ الشيخُ رحمه الله ابنَه عن مرافقته، وسافر الفقيرُ، وقصدَ مكّةَ شرّفها الله تعالى، ثم قال الأستاذ: إذا أمكنَ هجرُ فقيرٍ، ودفعُهُ باللوزينج والسكر [أ]فلا يكون أهونَ وأحسنَ من إيذائه وتفضيحه؟ ثم قال: إنّما عملتُ هذا لأجل إرشادِك، وإلاّ مذ أربع سنين(١) كنتُ أعلمُ حالَ الفقير وأسكت. فالأستاذُ ندمَ على ما فعلَ، واستغفرَ الله تعالى، وقال: الحمدُ لله على أن يتعلّم منك كلّ يومٍ تصوّفًا آخر(٢).

نقل أن فقيهًا مُنكرًا للشيخ كان حاضرًا في مجلسه، فسأله، وقال: يا شيخ، تصحُّ الصلاة مع دم البراغيث، أم لا؟ فقال الشيخ: يا عالم، إنّ دمَ البراغيث إنّما هو هذا. أشار إلى ذلك الفقيه المنكر، فأسفرَ من الجمال والجلال والأنس والمحبة(٣).

نقل أنَّ بنت الأستاذ أبي القاسم كانت زوجةً للشيخ الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله، فطلبَتْ من زوجها أن تحضرَ مجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وتسمعَ كلامَه، فأذنَ لها، وحضرتْ، وجلستْ على سطحٍ بين الناس، وعليها إزارٌ خَلَق لئلا يعرفَها، والشيخُ شرعَ في الكلام، وفي أثناء الكلام نقلَ كلامًا عن

---

(١) في الأصل: مذ أربعين سنين.

(٢) أسرار التوحيد ١٠٤ وما بعدها.

(٣) أسرار التوحيد٢٥١.

الأستاذ أبي علي الدقاق، وقال: هنا بعضٌ من أبعاضه[١] حاضرٌ يسمعُ كلامي، ويعلمُ مقالي. فدهشتِ المرأةُ، وزال عقلُها، وسقطت من طرف السطح، فقال الشيخ: إلهي، ردَّها إلى مكانها. فبقيت معلّقةً في الهواء، فدلّتِ النساء أيديهن، وأمسكنَها، وجررنَها إلى السطح، وذلك ما كانَ إلاّ ببركةِ الشيخ، ودعاء أبي سعيد رحمه الله[٢].

نقل أنه كان بمدينة نيسابور إمامٌ كبير اسمه أبي الحسن التوني[٣]، وكان مُنكرًا للشيخ أبي سعيد، حتى كان يلعنُهُ، و[عند] ما كان الشيخ أبو سعيد في نيسابور، ما جاء الإمام أبو الحسن إلى خانقاهه، فأشار الشيخُ أبو سعيد رحمه الله يومًا إلى خادمه أن يُسرجَ بالفرس، وأراد أن يزورَ الإمام أبا الحسن، وجماعةٌ من الأصحاب يُنكرون عليه، ويقولون: كيف يزورُ شخصًا هو منكرٌ له ويلعنُهُ؟! ثم الشيخُ ومعه جماعةٌ من الأصحاب، ولكنْ[٤] سيَّرَ الشيخُ شخصًا إلى الإمام أبي الحسن ليخبرَهُ بإتيانِ الشيخ لئلا يكونَ على الغفلة، فلمّا أخبره الرجلُ شرعَ الإمام أبو الحسن بسبِّ الشيخ وبلعنه، وقال: لماذا يجيءُ إلينا؟ والمناسبُ لحاله أن يمشيَ إلى الدير؛ فإنّه موضعُه ومكانه. فرجع الرسولُ، وأوصل الخبر إلى الشيخ، وكان يوم الأحد اتفاقًا، وكان هناك ديرٌ للنصارى،

---

(١) كذا الأصل: ولعلّها: هنا بضع من أبضاعه.

(٢) أسرار التوحيد ١٠٢، ١٠٣.

(٣) في أسرار التوحيد ١١٦: أبي الحسين.

(٤) كذا الأصل، وفي أسرار التوحيد ١١٦ بعد قوله: ومعه جماعة من الأصحاب:

وفي الطريق خرج رافضيٌّ من منزله، ورأى الشيخ مع الصوفية، فأخذ يلعنُهُ، وأراد الصوفية أن يسيئوا إليه، فقال الشيخ: هوّنوا عليكم؛ فربّما رحمه الله بسبب هذه اللعنة. فقال الجميع: كيف يرحم الله شخصًا يلعنُ مثلك؟ فقال الشيخ: معاذ الله، إنه لا يلعنني؛ وإنما يظنُّ أنني على باطل، وهو على حقٍّ، فهو يلعنُ ذلك الباطل من أجل الله. وكان الرجل واقفًا يسمع كلام الشيخ، فسقط في الحال على أقدام الشيخ، وقال له: أيُّها الشيخ، لقد تبتُ، وأنت على حق وأنا على باطل، فاعرضِ عليَّ الإسلام لأسلم من جديد. فقال الشيخ للمريدين: أرأيتم أيَّ أثرٍ يكون للعنة تلعَنُونها من أجل الله! وعندما اقتربوا أرسل الشيخ شخصًا...

واجتمعت جماعةٌ منهم فيه، فقبلَ الشيخ أبو سعيد كلامَ الإمام، وقال: يجبُ علينا امتثالُ أمر المشايخ وموافقتهم، وثنى عنانَ الفرس نحو الدير، وذهب إليه، ودخله، فتعجّب النصارى عن هذه الحركة، واجتمعوا عليه، ثم نظرَ الشيخُ رحمه الله إلى الحائط، فأبصر صورةَ عيسى عليه السلام ومريمَ عليها السلام منقوشةً عليه، فقال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ثم قال للصورتين: إن كان دينُ محمَّدٍ عليه السلام حقًا، فاسجدا لله. فوقعتِ الصورتان على الأرض مُستقبلتَيْنِ للقبلة، فتحيَّرتِ النصارى، وقطع أربعون منهم الزَّنانيرَ، وآمنوا بالله على يد الشيخ، وتابوا، ثم التفت إلى الأصحاب وقال: من يقبلُ كلامَ المشايخ يؤولُ إلى مثل ما رأيتم، إذ لم يكن هذا الأمر إلاّ ببركة إشارةِ ذلك الشيخ. قال هذا الكلام، ورجع إلى الخانقاه ومعه الجماعةُ الذين آمنوا، ثم وصلَ الخبرُ إلى الإمام أبي الحسن رحمه الله من أوّلِهِ إلى آخره، فحصلَ للإمامِ حالةٌ، وأشار إلى الخادم ليحضرَ محفَّةً، فجلس عليها وذلك لضعفه من الهرم، وذهب إلى الشيخ أبي سعيد زائرًا له، وحين وصلَ إلى باب الخانقاه خرجَ من المحفَّة، وتوجّه إلى الشيخ مضطجعًا على الجنبِ إكرامًا واحترامًا للشيخ، والشيخُ أيضًا أكرمَهُ وأعزّه، وتاب الإمامُ عن يد الشيخ، ورجعَ عن الإنكار، وصار مريدًا للشيخ، وطابَ وقتُهُ، وحَسُنَ حالُه، وما ذاك إلاّ ببركة حلم الشيخ أبي سعيد نوّر الله مرقده[١].

ونقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان له مُريدٌ جبليٌّ غليظُ الطبع، وكان له صولٌ[٢] كثيرُ المسامير، عند دخوله في الخانقاه وخروجه يُطقطقُ ويشوّشُ على الصوفية، وهم كانوا يتأذّون منه، حتى أنَّ الشيخ طلبَهُ نوبةً، وأمره بالرَّواحِ إلى وادٍ في جبل عرفة، وذكر له علامةً، وقال في الموضع الفلاني من الوادي صخرةٌ كبيرةٌ، وينبعُ من تحتها ماءٌ، فإذا وصلتَ إليها توضَّأ أولاً، وصلِّ على الصخرة ركعتين أو أكثر، ثم توقَّفْ ساعةً، فيأتي إليك شخصٌ من أصدقائي،

---

(١) أسرار التوحيد ١١٦ وما بعدها.

(٢) الصول جمعه أصوال: بابوج، ضرب من الأحذية. تكملة المعاجم العربية.

فسلِّم عليه منّي. ففرحَ الرجل، وقال: أرسلني الشيخُ إلى وليٍّ من أولياء الله تعالى. فلمّا وصلَ إلى ذلك الموضع سمعَ طقطقةً وصوتًا هائلاً من جانب الجبل، نظرَ، فإذا ثعبانٌ عظيمة سوداء، ما رأى مثلَها قطُّ أحدٌ تنزلُ من الجبل، فرعبَ رعبًا عظيمًا، واسترخَتْ مفاصيلُه، وضعفت أعضاؤه، وزال عقله، ووقع على الصخرة مغمًى عليه من الخوف، فلمّا أفاقَ أبصرَ الثعبان قد وضعت رأسَها عند رأسه، فقام بأيِّ حال كان، وقال: إنَّ الشيخَ يُقرئك السلام. فتمرَّغتِ الثعبانُ، وجرى الدمع من عينيها، ثم رجعتْ إلى مكانها، والفقيرُ أيضًا رجع خائفًا متغيّرًا لونه، رخوةً أعضاؤه، ولمّا شرعَ في الرجوع، سمع مساميرَ متاعِهِ، وتشوَّشَ منه، فقعدَ ونزع المساميرَ كلَّها، ثم جاء إلى الشيخ هيّنًا ليّنًا، وقال الأصحاب: وصل إلى شخصٍ قد هذَّبَهُ في ساعةٍ مقدارَ ما كان يحصل له في عُمُرٍ. ثم هو أخبرَ الشيخَ والجماعةَ ما رأى، وتعجّبَ الأصحابُ عن هذا التدبير، ثم سألوا الشيخَ حالَ الثعبان، فقال رحمه الله: صاحبتني سبعَ سنين، وحصلتْ بيننا فتوحٌ كثيرة(١).

نقل أن الشيخ رحمه الله كان له تلميذٌ آخرُ غليظُ الطبع، سيِّء الأدب، ولم يكن يتأدَّبُ بالتأديب والتعلّم، فأرسله الشيخُ نوبةً إلى جماعةٍ من الأتراك في شُغلٍ، فذهب إليهم، وكان يُحدّثهم بالعنف والقهر كما كان، فانغاظوا منه، وضربوه ضربًا قويًا حتّى لان، وصار مُتواضعًا مسكينًا، فرجع على هذه الحالة إلى الشيخ، فلمّا رآه الشيخُ، تبسَّم، وقال: لم يكن له علاجٌ إلاّ هذا، وهذا يسمى عصا الطريقة.

نقل أنَّ القاضي الصاعد الذي كان قاضيًا بنيسابور، كان مُنكرًا للشيخ، ثم سمعَ أنَّ الشيخ قال: نحن ما نأكلُ إلاّ الحلال، وإن امتلأ العالمُ من الحرام مثلاً. فأراد القاضي أن يمتحنَهُ، فأمر أهلَه بأن يَشوا خروفَيْنِ، أحدَهما من الحلال الخالص، والآخر من الحرام المحض، وهو ذهب إلى الشيخ،

---

(١) أسرار التوحيد ١٢٢ وما بعدها.

ووصّاهم أن يُرسلوهما إليه، فجاء جماعةٌ من خدم القاضي بالخروفين المشويّيْنِ قاصدين لصحبة الشيخ والقاضي، إذِ استقبلهم جماعةٌ من الأتراك الأجلاف، وأخذوا منهم الخروفين بالقوة، وقطعوا وأكلوا، والحالُ أنَّ المأخوذَ لم يكن إلاّ الحرام منهما، وأوصلوا الآخر إلى مجلسِ الشيخ، ووضعوه بين يديه، ونظر القاضي، فإذا هو الحلالُ لأنَّه قد أعلمَهُما ليعرفَ الحلالَ من الحرام، فنظر في الخدم نظرَ الغضبان، فقال الشيخ: يا قاضي، لا تشوّشْ بالك، فإنَّ الكلاب قد أكلوا الجيفةَ، والحلالُ بقي لمن لا يأكل إلاّ الحلال(١).

ونقل أنَّ بعضَ الأيام غار اللحم في الخانقاه الشيخ حتى أنَّهم ما أكلوا اللحم مذ شهرٍ، إذ لم يكن لهم ثمنُ اللحم في تلك المدة، فاتَّفقَ أن جاءَ لزيارة الشيخ فتىً من أصحاب الثروة، فقال له الشيخ أن يُعطي دينارًا للخدّام أن يذهبَ إلى الموضع الفلاني، والسوقِ الفلاني، ويشتري لحم الضأن الذي ذبحه القصَّابُ الفلاني، ويفرّقه على الكلاب، فذهب الخادمُ، وامتثلَ أمرَ الشيخ، ورجع، قال الخادم: ولكن أنكرتُ في نفسي على الشيخ؛ لأنَّ الجماعةَ ما أكلوا اللحم في شهرٍ أو أكثر، واللحمُ اللطيف الضائن يُطعمه للكلاب! والقصّابُ لما رأى هذا الحالَ جاء إلى الشيخ يتضرّعُ ويبكي، ثم تاب على يده ورجع، قال الخادم: قلتُ للشيخ: بيِّنْ لي هذا السرَّ الغريب، إذ لم يبق إليَّ اصطبارٌ. قال الشيخ: هذا القصاب يربّي ويداري هذا الضأن من أربعةِ أشهر، ويسمّنُه، فاتفق أن جاءتِ البارحةَ [جائحةٌ أماتت الضأنَ] وكان سمينًا(٢)، فلم يوافقْهُ قلبُه في أن يرميه في المزابل، وأنا ما جوّزتُ أن يأكله المسلمون، فسمع الفتى هذا الكلام، وذهب إلى السوقِ، واشترى لي غنمًا آخر، وجاء بها إلى الشيخ، وشكر الله تعالى(٣).

---

(١) أسرار التوحيد ١٢٦.

(٢) كذا الأصل، وما بين معقوفين للتوضيح.

(٣) أسرار التوحيد ١٣٣، ١٣٤.

نقل أن الشيخَ أبا سعيد أرسلَ خادمَهُ إلى والي المدينة، وطلب منه شيئًا يكفي الجماعة يومًا، والوالي كان مُنكرَ الشيخ، ومع ذلك كان ظالمًا، ولمّا وصلَ إليه الخادم كان يضرب رجلاً ضربًا عنيفًا، وأخذَ منه كيسًا من الدراهم بالقوة والتعدّي، والخادمُ أدّى الرسالةَ إليه، وهو أطالَ لسانه في حقِّهِ، ثم رمى ذلك الكيسَ إليه، وقال: قل لشيخك: إنّما أخذتُهُ عن هذا الرجل بالظُّلم والضرب بالعصا. فأخذه الخادمُ، وجاء به إلى الشيخ، فأمره الشيخ بأن يُنفقَهُ على الجماعة ـ يعني يُهيِّئ به طعامًا ـ فالخادم اشتغلَ بتحصيل ما أمرَ به الشيخُ، وطبخ طعامًا، وقدّمَهُ إلى الشيخ وأصحابِهِ، فالشيخُ شرعَ في الأكلِ بطيبةِ القلب، والأصحابُ وافقوه بالكرامة والإنكار، لأنَّ ثمنَ الطعام كان مأخوذًا عن مُسلمٍ بالظلم، وخفي عليهم سرُّ ذلك.

ثم إن الشيخَ رحمه الله في اليوم الثاني كان مشغولاً بالوعظ، إذ جاءَ الرجلُ الذي أُخذ الكيسُ منه بالغصب، وتضرّعَ عند الشيخ، وبكى، وقال: إنّي تبتُ وندمتُ على ما صدرَ منّي من الخيانة، فلا جرم أنّي حملتُ ما جرى عليَّ من الضرب والإيذاء، فأرجو من ألطافك أن تجعلني في حلٍّ. فقال الشيخ: قلْ مع الجماعة الذين أنكروا عليَّ. فقال الرجل: إنّ أبي وصّاني أن أوصلَ إلى الشيخ الدّراهم التي في ذلك الكيس بعينه، وقال: هي وصيةٌ للشيخ وجماعته، والطمعُ غلبني، وتوانيت في ذلك، وخالفتُ وصيةَ الوالد، ثم إن الوالي قد اتّهمني بأمرٍ لم يصدرْ عنّي، وضربني وآذاني، وأخذ منّي ذلك الكيسَ، وكنتُ حاضرًا، إذ سلّم الدراهم بعينها إلى خادم الشيخ، ووصل الحقُّ لمستحقِّه، فقال للجماعة: ما قلتُ لكم لا يصلُ إلينا إلاّ شيءٌ يكون حلالاً!؟

ثم نقل أن الشيخ لم يطلع عن خلوته خمسة عشر يومًا، ثم طلعَ، فسألوه عن ذلك، [فقال]: عاتبني النبيُّ ﷺ، وقال: يا أبا سعيد، وإن كان نظرُكَ صحيحًا في الأمور، ولكن لا تعبرْ عن الظاهر؛ فإنَّ من يسمعَ أنّك تقبلُ المالَ المأخوذ ظُلمًا، وتقبلُه من الوالي المشهورِ بالعدوان يتّهمُكَ ويُفسد فيك عقائد المسلمين، وهذا يضُرُّهم في الواقع، ولا يضرُّك، ولكن لا تفتحْ عليك بابَ

التُّهمة، ولا تفتح بابًا أنا أغلقتُهُ بيدي. قال: كنتُ أعتذرُ إليه عليه السلام في هذه الأيام حتى قَبِلَ معذرتي، وارتفع الغبار[1].

نقل أن تاجرًا أرسلَ إلى الشيخ حملاً من العود، وألفَ دينار، فأشار الشيخ رحمه الله إلى الخادم بأن يشعلَ العود في التنُّورِ، وصرف الألفَ على دعوةٍ، وكان في المدينة مُحتسبًا لا يُبالي عن أحدٍ، فسمع، ودخل على الشيخ في الغضبِ، ورأى شموعًا مشعولةً بالنهار، فقال: ما هذا الإسراف؟ فقال الشيخ رحمه الله: صرفُ ألفِ دينار وأكثر في سبيل الله تعالى ليس بإسرافٍ، وصرفُ دِرهمٍ؛ بل أقل على النَّفسِ إسراف.

أقول: نقل أن شخصًا من المُعارضين للإمام المطَّلبي الشافعي رحمه الله قال له في أثناء المناظرة: لا خيرَ في السرف. فأجابه الشافعي رحمه الله وقال: لا إسرافَ في الخير. [والله أعلم].

ثم قال المحتسب: وما تقول في هذا الشموع، أليستْ من الإسراف؟ قال: لا، إذ ما يكون لله ليس بإسراف، وأَمَرَ بإطفائه. فقام المحتسبُ بنفسه وشرعَ في إطفائها، فكلَّما كان يُطفِىءُ شمعًا يشتعلُ الآخر، حتى عجزَ في أمره، ووقعتِ النارُ آخرَ الأمر في سباله[2] ولحيته، واحترقت، والشموعُ بعد مشعولةٌ مضيئةٌ، فندم المحتسب وتاب، ورجع.

ثم جاء إليه مُحتسبٌ آخر، وأنكر عليه، فقال الشيخ: هذا الذي تبصرُ شيءٌ قليلٌ لا يليق به أن يذكرَه أحدٌ، لأن الله تعالى سمّى متاعَ الدُّنيا كلَّه قليلاً، حيثُ قال عزَّ من قائلٍ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وهذا أقلُّ من ذلك القليل[3].

أقول: نقل أنَّ شخصًا من أصحابِ القلوب قال لمتكبِّرٍ: إنَّ الأرض بما فيها وعليها من الجبالِ والأشجار والنبات، والمعادن والحيوان وغيرها بالنسبة إلى سماءِ الدنيا كذرَّةٍ، والسماءُ الدُّنيا بالنسبة إلى السماء الثانية هكذا، والثانية إلى

---

(١) أسرار التوحيد ١٣٥، ١٣٦.

(٢) السَّبَلَة: طرف الشارب من الشعر.

(٣) انظر أسرار التوحيد ١٢١.

الثالثة كذلك، وهكذا إلى الكرسيِّ والعرش، ثم قال: فانظرْ إلى وجودك، وإنَّك ماذا تكون من هذه الذرة؟ وما نسبتُكَ إلى هذه الذرة، وهل لك مقدارٌ أو اعتبار في هذه الذرَّة؟ أفلا يُناسب على هذا أن لا يضحك عليك، وتعرف قدرَك، ولا تغفل عن قيمتك. [والله أعلم].

نقل عن خادم الشيخ أنه قال: اجتمعَ علينا دينٌ كثير، ولم يكن لنا شيءٌ نوفِّي به الدَّين، فجاء شخصٌ إلى الشيخ بمئة دينار، قال الخادم: فدعاني الشيخُ، وناولني المئة، وأمرني بأن أمشي إلى المسجد الفلاني، وهناك شيخٌ هرمٌ أسلِّمُ ذلك إليه، فمشيت إلى المسجد، وصادفت فيه رجلاً هرمًا طنبوريًا، ومعه طُنْبُور[1]، وهو نائمٌ، والطنبور تحت رأسه، فنبَّهْتُهُ، وأعطيتُهُ الدنانير، فأخذها وبكى، وجاء معي إلى الشيخ، وقال: أهلي أخرجوني من البيت، ولا يُطعموني، والناسُ أعرضوا عنّي، وتلاميذي تركوني، وكلُّ ذلك لأجل التُّهم، فدخلتُ ذلك المسجد، وقلت: إلهي، أهلي وعيالي أعرضوا عنّي، وتلاميذي أعرضوا عنّي، والناسُ لا يلتفتون إليَّ، ولا يَدعونني إليهم في مجالسهم، وأنا زرتك الليلة في بيتك، ولك أغنّي، لعلك تُطعمني، وهكذا إلى السحر كنتُ أضربُ الطنبور وأغنّي وأبكي، حتى أخذني النوم، فانتبهتُ، ووصل إليَّ هذه الدراهم. وتاب على يد الشيخ، وطاب حالُه، ثم قال الشيخ رحمه الله: يا فلان، إنَّ اللهَ تعالى لم يتركْكَ ضائعًا، وأنت على ما كنت، والآن أيضًا لا يتركك ضائعًا، فتوجَّهْ إليه، واعرضْ عليه حوائجَكَ، واصرفْ عليك الآن هذه الدراهم، ثم هو يقال لا ينساك، ثم قال للخادم: لم يُغبنْ أحدٌ مع الله على أيِّ حالٍ يكون[2].

نقل أنَّ فقيرًا كان له كرمٌ، فدعا الشيخَ إليه، والشيخُ بعدَ الامتناعِ أجابَهُ، وتبعه مع أصحابه، وأكلوا ما كان فيه من العنب، إذ كان قليلاً، وصوفيٌّ من

---

(١) الطُّنْبُور: من آلات الطرب ذوات الأوتار. فارسي معرب دبنه برّه. معجم متن اللغة

(٢) أسرار التوحيد ١٣٠، ١٣١.

الأصحاب قطفَ عناقيدَ ولفَّها في خُريقةٍ له، إرادةَ أن يذهبَ بها إلى بيته، ولبسها هناك، ثم لمّا اطّلعَ الشيخُ من البستان اعتذر إلى الفقير، وقال: أعطاكَ الخيرَ والبركة. قال الفقير: يا شيخ، كيف يُعطي البركةَ ولم يَبقَ من العنب شيءٌ؟! قال الشيخ: نعم، بقي شيءٌ يكفيك. فرجع الفقيرُ إلى الكرم، ودار فيه، فلم يجدْ شيئًا، فحزن ولم يرجعْ إلى الكرمِ إلاّ في الربيع، لأنّه ذهبَ إليه للعمارة والإصلاح، فصادف الحديقةَ وفيها العناقيدُ ما تغيَّرتْ قطُّ، كأنّها قُطفت ذلك اليوم، وهي طريَّةٌ لطيفةٌ عليها الغبارُ الذي يكون على العنب، فأخذَها وأهداها السلطانَ، فأعجبته، وملأ الطبقَ من الدراهم والدنانير، وردَّها على الفقير، ففرح وعلمَ أنّه ما كان إلاّ ببركة دعاء الشيخ وكراماته، فأخذها، وجاء إلى الشيخ بعشرةِ دنانير، واعتذر إليه.

نقل أنه كان في زمان الشيخ أبي سعيد رجلٌ مرتاضٌ، كثير الرياضة والخلوة، وكان منكرًا للشيخ وحالاته، وما كان يُؤكلُ في مجلسه من أنواعِ الأطعمة اللذيذة الشهية، فجاء إلى الشيخ، وقال: أُريد أن أختلي معك أربعينَ يومًا وليلةً ـ كما هو المتعارف بينهم ـ فقال الشيخ رحمه الله: يكونُ مباركًا. وذلك الرجلُ كان يأكلُ قليلاً على عادة أصحابِ الأربعين، والشيخُ ما أكلَ في تلك الأيام، ولا ذاقَ قطُّ، والخادمُ كان يقدّمُ الأطعمةَ في اليوم والليلة إلى الفقراء، والرجلُ ينظر إليها، والشيخُ فارغُ [البال] منها، وكان رحمه الله يسمع من غير ضعفٍ في أعضائه، والرجلُ صار ضعيفًا جدًا، والشيخُ كان يسمنُ، فندمَ الرجلُ، ولا ينفعه الندمُ، ولمّا تمّتْ مدةُ أربعين، قال الشيخ رحمه الله: هذه الأربعون كانتْ على وفق اختيارك ورضائك، ولكن أرجو منك أن تقعدَ معي أربعين يومًا أُخرى على ما أَختارُه. قال الرجل: كيف هذا؟ قال الشيخ رحمه الله: تأكلُ كلَّ يومٍ طعامًا كثيرًا، ولا تدخل المبرزَ قطُّ إلى تمام المدة. فقبل الرجلُ، والشيخ كان يأكلُ أنواعًا من الأطعمة، وما كانَ يحتاجُ إلى الدخول في المبرز، والرجلُ في اليوم الأول احتاجَ، حتى انفتل على نفسه، وما أطاقَ، فأذنَ له الشيخُ ليدخلَ المبرز، وهو على تلك الحالة استمرَّ إلى تمام

أربعين، فلمّا تمّتِ المدةُ علمَ الرجلُ أنَّ الأكلَ وتركَهُ سواءٌ عند الشيخ، فتابَ، وصار مُريدًا له(١).

نقل أن ناسًا كثيرًا من اليهود والنصارى والمجوس أسلموا على يد الشيخ في نيسابور وأئمة نيسابور كلٌّ منهم كانَ يحبُّ أن يسلمَ كافرٌ على يده، وما كان يتَّفقُ، ولا سيما أبا محمد الجويني فإنّه كان حَريصًا في ذلك، وكان له وكيلٌ يهوديٌّ، وكان يدعوه إلى الإسلام كثيرًا، وما كان يقبل إلى أن قال أبو محمد: إنِ اتّفق إسلامُك فأنا أتكفَّلُ بوجه معاشك مدَّةَ ما بقي من عمرك. ولم يقبل، فقال له يومًا آخر: إن آمنتَ أعطيتك الثُّلثَ من مالي. فما نفعه، وقال: معاذ الله أبيع ديني بعرضٍ. ثم قال: أُعطيكَ نصفَ مالي. فلم يُجبْهُ اليهوديُّ، فيئسَ منه أبو محمد إلى أن اتّفقَ له أن حضرَ يومًا مجلسَ الوعظ للشيخ أبي سعيد رحمه الله، وجاء إليه ذلك اليهودي في شُغلٍ، ودخل المسجدَ، وأراد أن يستمعَ على كلام الشيخ ماذا يقول، ووقفَ في قفا ساريةٍ، وفي ظنّه أن الشيخ لا يعرفُهُ، لأنَّه ما رآه، وكان هناك خلقٌ كثير، فاختفى بينهم، فلمّا شرعَ الشيخُ في الكلام توجَّه إلى تلك السارية، وقال: يا يهوديُّ المختفي خلفَ السارية، إلى متى تبقى في الدِّين الباطل؟ فاخرجْ من قفا. فكلّما أراد واحتال اليهوديُّ في إخفائه، فلم يقدر، فقام وجاء إلى الشيخ وقال بالعجمي:

مَنْ كبرْ بودمْ هَنُوزْ مسلمانگشْتَم   بَدْ عَهْد بودَم كَفُور مسلمًا گشْتَم

معناه: أنه يقول:

كنتُ إلى الآن كافرًا فأسلمتُ، وكنت على عهدٍ رديٍّ وحالةٍ قبيحةٍ، فصفتَ حالي.

ولمّا تحقَّقَ إسلامُه، أمره الشيخُ أن يذهبَ إلى الإمام أبي محمد الجُويني رحمه الله، ويتعلَّمَ منه أركانَ الإسلام، وقال: قل له: أما علمتَ أنَّ الأمورَ موقوفةٌ على أوقاتها، فإذا جاء الوقتُ فلم يبقَ الاحتياجُ إلى ثُلثِ المال، ولا إلى

(١) أسرار التوحيد ١٤٩، ١٥٠.

نصفه. وسمع الإمامُ أبو محمد هذا الكلام، وطابَ وقتُهُ، وقام إلى الشيخ، واعتقدَهُ، وزال عن قلبه إلاّ محبة الشيخ[١].

نقل أن مُحتسبًا جاء إلى الشيخ، وقال: لِمَ تُسرفُ في الطعام والشراب؟ وحدّثَ غليظًا، فدعاه الشيخ إليه، وقال له: انحنِ فانحنى، وبقي مُنحنيًا سالمًا إلى أن ماتَ.

نقل أن ابنَ الشيخ كان في السماع بمحضر الشيخ، وطاب وقتُهُ فيه، وقال: لبيك. وأحرمَ من ساعته بالحجِّ، وقصد السفرَ، ووافقه الشيخُ أيضًا في ذلك السفر، وخرجَ من المدينة، ولكن كان يقولُ في الطريق: إنَّ ذلك العزيزَ كيف يحملُ وحده تلك المصيبةَ؟! وأصحابُهُ لم يكونوا مُطّلعين على مقصوده إلى أن وصلوا إلى خرقان، فرح الشيخ أبو الحسن الخَرَقاني رحمه الله بمجيئهم، وكان له ابن سمّاه أحمد، وكان له نظرٌ إليه، واتّفق أن كانت ليلة قدوم الشيخ أبي سعيد رحمه الله ليلةَ الزفاف له، فإذا بعض الأعداء للشيخِ أبي الحسن رحمه الله قصدَ ابنه في تلك الليلة، وقتلَ ابنه في تلك الليلة، وقتله وقطعَ رأسَه، ووضعَهُ على باب صومعة أبيه أبي الحسن، فغسّلَه أبوه وكفّنه، وكان منتظرًا لقدوم الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فلحقوا، وصلّوا عليه، وعلمَ أصحابُ الشيخ أبي سعيد رحمه الله أنَّ مُرادَه من كلامه الذي يقوله في الطريق كان الشيخ أبا الحسن، ويقول: كان ينبغي لهذه الجراحة مثلُ هذا المرهم، وينبغي لقدوم مثل هذا الشيخ الأجل فيصبح مثل ابني[٢].

نقل أنَّ فقيرًا من العراق جاء إلى الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فصادفَهُ في الطريق، فرافقه، وسار في ركابه، ثم سأل عن الشيخ: [ما] حقُّ الشيخ على المُريد، و[ما] حقُّ المُريد على الشيخ؟، فما أجابه الشيخُ عن سؤاله، وقال: بل الأولى لك أن تستريح الساعة إلى غَزْنين[٣]، وتحضر إلى فلان، ويُسمّي

(١) أسرار التوحيد ١٥٥ وما بعدها.

(٢) أسرار التوحيد ١٦٠ وما بعدها وانظر الخبر صفحة ٥٨٢، و٦٠٧.

(٣) غَزْنين: وهو الصحيح في اسم غزنة. وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان (في=

شخصًا، وتقول له: أرسلْ لأجل دينٍ على الفقراء بنا مئة دينار، ولأجل الخانقاه رطلَيْنِ من العود. فسار الفقير في الحال إلى جانب غَزْنين، ووصلَ إليها بعد المشقة، وأوصل رسالةَ الشيخ إلى ذلك الرجل، وأخذ الدنانيرَ والعود، ورجع، فوصل إلى هراة، فرأى فيها صبيًا وأحبَّه، وذكر سرَّه لرجلٍ، رحل خبرُهُ إلى الصبيّ، ورضي الصبيُّ بأن يأخذَ منه دينارين، ويبيت عنده القصة[١]، جاءَ إليه الصبيُّ كما وعد، وأكلوا شيئًا، واختلى به الفقيرُ، وأرادَ أن يعملَ معه الفعلَ القبيح، وقصده، فرأى الشيخَ أنه ظهرَ من جانب البيت، وصاح عليه وقال: لا تعملْ هذه الخصلة، ولا تفعلْ هذه الفعلة. فشهق الفقير من هيبتِهِ، وزال عقلُه، وسقطَ على الأرض مغمًى عليه، فحين رجعَ إليه عقلُه، توجَّه إلى الشيخ، وسار حتى وصلَ إليه مَرعوبًا مذعورًا، فلمّا وقعَ عليه نظرُ الشيخ، قال: يا فلان، اعلمْ أن حقَّ الشيخ على التلميذ أن يقبلَ إشارةَ شيخه، ويمتثلَ أمرَهُ، ويسيرَ بإشارته إلى غزنين، وحقُّ التلميذ على الشيخ أن ينبِّهَهُ إذا وقعَ له خطأً، ويمنعَهُ عن ذلك. فتمرَّغَ الفقيرُ بين يدي الشيخ، وتاب إلى الله تعالى، ورجعَ عمّا وقع[٢].

ونقل أنَّ سالكًا قصدَ أن يُتلمذَ شيخًا يُرسلُه إلى الحقّ، فتردَّدَ بين الأستاذ أبي القاسم، وبين الشيخ أبي سعيد رحمهما الله، وما كان يتبيَّنُ له الصوابُ، حتى رأى ليلاً في المنام أنَّ الشيخَ أبا سعيد كان على جبلٍ، فخطا منه خطوةً، ووضع قدمَهُ على جبلٍ آخرَ بعيدٍ من الأول، وبينهما فراسخُ، ثم منه إلى جبلٍ

= أفغانستان)، وهي الحدُّ بين خراسان والهند، فيها خيرات واسعة، إلا أن البرد فيها شديد جدًا، وما زالت آهلة بأهل الدين، ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهي منزل بني محمود بن سُبُكتكين. معجم البلدان. وما زالت مأوى المجاهدين حفظهم الله ورعاهم.

(١) كذا الأصل، وفي أسرار التوحيد ١٨٩: ولمّا وصل إلى مدينة هراة، ذهب مع درويشٍ هرويٍّ إلى الحمام، وكان في الحمام غلامٌ جميل، فتطلّع إليه ذلك الدرويش، وأخبر الهروي بالأمر، فقال الهروي: يلزمنا شيءٌ لنحضره إلى المنزل ونختلي به، فأعطاه الدرويش دينارين، ورتب الهروي الأمر، وأحضر الغلام.

(٢) أسرار التوحيد ١٨٨ وما بعدها

آخرَ، وأرادَ الرجلُ أن يتبعَهُ، وما أطاقَ، وهو في ذلك إذ غابَ الشيخُ عن نظره، فنظرَ الرجلُ إلى الجانب الذي هو فيه، رأى الأستاذَ يمشي في شارع، وخلفَه خلقٌ كثير، فانتبه، وعلمَ أنّه لا يقدرُ على سلوك طريقة الشيخ، وعلم أنّه يقدرُ على متابعة الأستاذ لأنه كان هيّنًا، فذهب لمّا أصبحَ إلى الأستاذ، واقتدى به.

ونقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان نوبةً في غلبات الشوق والوجد، فأراد مُغنّيًا، ولم يوجد، فألحَّ على الأصحاب، وأعطى رداءه على شخصٍ من أصحابه، وأمرَهُ أن يدورَ على مغنٍّ أينما يكون، ومن يكون، ويجعل الرداء على رقبته، ويجيء به إليه، فدار الرجل، وما وجدَ إلاّ مُغنّيًا سكران، وشدَّ الرداء على رقبته، وجاءَ به إلى الشيخ، فأنشدَ بيتًا طابَ له وقتُهُ، وقال ودار في المجلسِ، وانحلَّ به إشكالُهُ، فخلعَ مرقعتَهُ وألبسه المغنّي، وأمره بالرجوع إلى بيته، فذهبَ ونام، ولمّا أصبحَ انتبهَ، ورأى عليه مرقعَ الشيخ رحمه الله، وعلى كتفه رداءه، فاستحى منهما، وقال: لا يُمكنني مع هذين أن أسلكَ طريقَ الأجانب. فذهبَ إلى الشيخ، وتابَ على يده، وصارَ مُريدًا له، وحَسُنَ حالُه ببركته، روّح الله روحه[1].

نقل أن صوفيًا من أصحاب الشيخ رحمه الله ضربَ كلبًا بالعصا، فكسرَ رجلَه، فتألّمَ الكلبُ، وجاء على تلك الحالةِ إلى الشيخ، وتمرّغَ على التراب كأنّه يشتكي من ذلك الصوفيّ، فأمر الشيخُ بإحضاره، ووبّخَهُ [على] ذلك وذمَّه، فقال الصوفيُّ معتذرًا: إنَّ الكلبَ كان مُضطجعًا على الطريق، وضيّقَهُ على المارّين، فكلّما أشرتُ إليه بأن يقومَ من الطريق، فما قامَ، فضربته بعصًا لا على قصدِ الكسر، فانكسرتْ رجلُه. والكلبُ ما كان يسكت، فقال الشيخ: هل تعلمون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: يقول: إنّي رأيتُ عليه ثيابَ أهل الصلاح وزِيّهم، وقلتُ: إنه لا يُؤذيني، ويُعاملني معاملةَ الصُّلحاء، فاغتررتُ به، وما قمتُ من الطريق اعتمادًا عليه، ثم ما علمتُ أنّه كان سَبُعًا من الجنِّ في

---

(١) أسرار التوحيد ٢٦٢.

صورة الإنسان، وهيئة الصلحاء، ولا بدَّ له من تأديبٍ، وزجرةُ تأديبه أن تُخلعَ منه خرقةُ الصُّوفية؛ لئلا يغترَّ به غيري، ويعلمَ الخلقُ أنَّه من الأشرار لا من الأخيار، فندم الصوفيُّ على ما فعلَ، وتابَ واستغفر، وندمَ عمَّا فعل، والشيخُ رحمه الله طيّبَ خاطرَ الكلب، وطابَ وقتُ الكلبِ والحاضرين جميعًا.

نقل أن صديقًا للشيخ رحمه الله قد وصَّاه بأنَّه إذا جاءَ إليه شخصٌ من الصُّلحاء يُرسلُه إليه ليخدمَهُ وينالَ بذلك ثوابًا، فاتَّفقَ أن تلميذين من تلاميذِ الشيخ دخلا مسجدًا، فأبصرا فيه رجلاً كلّما كان يتحرَّكُ يستضيءُ المسجدُ من حركته، فتعجَّبا من ذلك، وقالا: ظننَّا أنَّه ليس على وجه الأرض أحدٌ مثلَ أبي سعيد. فرجعا إلى الخانقاه، وأخبرا الشيخَ بما أبصرا من حال الرجل، فإذا الرجلُ دخلَ عليهم، فقال الشيخ: هذا طلبةُ ذلك الصديق. وأرسلَهُ إليه، فسُرَّ به ذلك الشخص، وقدّم إليه في الحال طعامًا، فرفع الرجل لقمةً، ووقف زمانًا، وكان يُحرّكُ شفتيه بكلامٍ خفيٍّ، ثم وضعها في فيه، ثم رفعَ لقمةً أُخرى، وتوقف كثيرًا، وقال أيضًا كلامًا ما سمعَهُ الحاضرون، فلم يَصبرْ صاحبُ الطعام، وألحَّ عليه ليأكله، وقال: إنّه حلالٌ لا شُبهةَ فيه. فما أكلَ تلك اللقمة؛ بل وضعها على الأرض، فتحيَّرَ صاحبُ البيت، وجاء إلى الشيخ، فسألَ منه هذا الحال، ثم لمّا اتَّفقَ الحضورُ، سأله عمّا جرى، فقال: رفعتُ اللُّقمةُ أولاً، وقلت: إلهي، أَحسنْ إلى هذا الرجل، وبعزَّتكَ لا آكل هذه اللقمةَ إلاّ بعدَ أن توسّعَ عليه الرزقَ في الدنيا، حتى كشف الله تعالى أنه استجابَ دُعائي، هذا في حقِّه، ثم أخذتُ اللقمةَ الثانية وقلت: إلهي، ما آكل هذه اللقمة إلاّ بعد أن أعلمَ أنَّك قد خفَّفْتَ عليه الحساب، وثقّلتْ له ميزانَ الحسنات، وعفوتَ عنه، ونجّيته من عذابِ النار. فجاء إليَّ خطابٌ من ربِّ العالمين على طريقة الإلهام: أنّه استجابَ دعائي هذا أيضًا في حقِّه، ثم رفعتُ الثالثة، وقلت: إلهي أطلبُ منك أن ترزقَهُ المعرفةَ والولايةَ، فلم يصبرْ صاحبُ الطعام، وشوّشني بالإلحاح والمبالغة، حتى تشوَّشْتُ وتركت، ولعلّه لم يكن أهلاً لهذه المرتبة السنية والمنقبة العلية.

نقل عن خادم الشيخ أنه قال: كان بنيسابور رجلٌ مُنعمٌ ذو ثروةٍ، فدعاني وقال: أنا من أصدقاء الشيخ، ومن المحبّين له بالإخلاص، فأرجو منك أنه إذا حصلَ لكم حاجةٌ أن تطلبوه منّي، وأنا أخدمُ بالقلب والروح، فأخبر الخادمُ الشيخ، وهو لم يُنكرْ عليه، حتّى أنَّ يومًا من الأيام ذهب الخادمِ إلى ذلك الصديق سبعَ مرّاتٍ، وهو كان يقضي الحوائجَ بطيبِ القلب وحُسْنِ الخلق، ثم وقتَ الغروب أمرَهُ الشيخُ بأن يطلب منه العودَ وماءَ الورد، فذهب إليه الخادمُ، وقال: أستحيي منك، وذكر له الحال، فقال الرجل: أنا مُنقادٌ لأمر الشيخ، ومملوكٌ له، وأُعطي ما سأل، وقال: إذا تستحيي أن تجيءَ إليَّ لأجلِ هذه المحقرات، فأنا من الغدِ أصرفُ ألفَ دينارٍ إن شاء الله تعالى، وأبني خانًا وحمامًا، وأُسلّمهما إليك لتأخذَ الحاصلَ، وتصرف في حوائج الخانقاه، وإذا عُرضتْ حاجةٌ عظيمة، فاعرضْها عليَّ. قال الخادم: ففرحتُ بهذا الوعد، وقلتُ: تخلصُ بتوفيقِ الله تعالى من المذلّةِ والفاقة، وجئتُ إلى الشيخ، فنظرَ إليَّ نظرَ الغضبان، إذ كشفَ اللهُ له ما جرى، وقال: اخرجْ وطهّرْ باطنك من لوثِ محبّةِ الدنيا حتى أدعك بين الصوفية، وإلاّ فلا. قال الخادم: فخرجتُ، ثم جئتُ إلى الباب حافيًا مكشوفَ الرأس باكيًا مُستغفرًا، ثم دخلتُ، ولم يحدّثْني الشيخُ تلك الليلة، ثم اليوم الثاني صعدَ الشيخُ المنبر، وأخذَ في الوعظِ، ولم ينظرْ إلى ذلك الصديق قطُّ، والحالُ أنّه كان ينظرُ إليه في أثناء الوعظ أحيانًا، فلمّا فرغَ جاء إليه الصديقُ، وتمرّغَ بين يديه، وقال: وما ذنبي الذي أوحشَ منّي الشيخ؟ قال الشيخ: لأنّكَ أردتَ أن تنزلني إلى أسفلِ السافلين لأجلِ ألف دينار. قال الصديق: وبماذا يطيبُ خاطرُك الشريف؟ قال الشيخ: بأن تسلّمَ ذلك الألفَ إلى الخادم؛ ليطبخَ الهريسةَ، وسائرَ الأطعمة، ويُطعمَ أهلَ المدينة. فقبل الصديق بالرأسِ والعين، وسلّم ألفَ دينارٍ إلى الخادم، فطابَ خاطرُ الشيخ، وأنفقَ الخادمُ [الألف] كلّه في الطعام، وأضافَ أهلَ المدينة، قال الخادم: قال الشيخ: في الليلةِ كم مرّة لا يستريحُ فؤادي، لعلّ شيئًا بقي من الطعام. فدرتُ في زوايا الخانقاه، وتفحّصْتُ، فإذا رغيفٌ كان

باقيًا في طيِّ السُّفرةِ، فأطعمتُهُ كلبًا، ثم طابَ خاطرُ الشيخ، ونامَ بعضَ الليل، نوّرَ الله مرقده[١].

نقل أنّه لما كثرتْ تلاميذُهُ، واعتقدَهُ الناسُ، اتّفقَ أهلُ نيسابور: من القاضي، وكان خطيبًا أيضًا، ومن مقدّمِ المدينة، وسائرِ الرؤساء وأصحابِ الجاه[٢]، وكتبوا رسالةً إلى سلطان محمود، وأدرجوا فيها أنّه قد جاءَ إلى نيسابور رجلٌ يصعدُ المنبر، ويعظُ الناس، ويُنشدُ الأبيات على المنبر، وجماعةٌ من الشبان اجتمعوا عليه، فيستمعون ويرقصون، ويأكلون لحمَ الطير وسائرَ الأطعمة، ويُشعلون الشموعَ والعود، ويدّعون أنّهم زهادٌ، وافتتنتِ الناسُ والعوام فيهم، وأرسلوا الرسالة إلى السُّلطان، وهو ردَّ عليهم الجوابَ، وأمرهم بالتفحّص والبحث عن حاله، والحكم فيه على مقتضى الشرع، ووصلَ إلى المُنكرين توقيعُ السلطان يوم الخميس، فاتّفقوا على أنّهم غدًا بعد صلاة الجمعة يَجتمعون ويحكمون فيهم ما يقتضي الشرع، وانتشرَ الخبرُ في المدينة، فتحزّنتِ الصوفيةُ، وما كانوا يجترئون ليخبروا الشيخ بصورةِ الحال، وهو رحمه الله كان خبيرًا بما جرى، فسأل عن الخادم بعد العصر، وقال: كم الصُّوفية الملازمون لصحبتنا؟ قال الخادم: هم مئةٌ وعشرون، والمسافرون هم ثمانون. فأمرَه أن يُهيِّئ لهم طعامًا للغداء بحيث يكونُ لكلِّ واحدٍ رأسٌ مطبوخٌ ملطّخٌ بالمسك، ولكلِّ واحدٍ رطلٌ من الحلواء بالسُّكّر، وماءُ الورد برطلِ الخليفة، ويكون عودٌ في المجامرِ، وماء الورد في القماقم، ثم يقدّم إليهم في الجامع حتى يراه المنكرون بأبصارهم، ويعلمون أنَّ الله تعالى كيف أعزَّ عباده، وأطعمهم وسقاهم مع فقرِهم وفاقتهم.

قال الخادمُ: دخلتُ المطبخَ، فوجدت فيه رطلاً من الخبز، وما كنتُ أعرفُ

---

(١) أسرار التوحيد ١٢٧، وانظر صفحة ١٢٠ منه أيضًا.

(٢) في أسرار التوحيد ٨٩: وكان زعيم الكرامية في نيسابور الأستاذ أبو إسحاق الكرّامي، ورئيس أصحاب الرأي والرافضة القاضي صاعد، وكان لهما أتباع كثيرون، وكانا ينكران الشيخ إنكارًا شديدًا، وقد اجتمع هؤلاء وكتبوا عريضةً شهد عليها أصحاب الرأي.

أحدًا أتهجَّم عليه لطلب درهم، والحالُ أنَّ الناسَ قد تشوَّشوا فينا بسبب هذا الخبر، فخرجتُ من الخانقاه، وقد كادتِ الشمسُ أن تغربَ، وأنا متحيِّرٌ في شأني، فإذا التقاني شخصٌ، وسألني عن حالي؛ لأنه عرف في وجهي أنّي متردِّدٌ مُتحيِّرٌ مغمومٌ، فذكرت له الحال، فقال عبِّرْ يدكَ في كمّي، وخذْ ما تريد. قال الخادم: فأخذتُ حفنةً من الدراهم، وهيّأتُ جميعَ ما أمرني الشيخُ، فما انتقصَ شيءٌ من الدراهم، ولا فضلَ، وقدّمتُ إلى الجماعة الصوفية كذا وكذا من الغذاء كما أمرَ الشيخُ، وقعدوا حولَ السفرةِ في الجامع، وأكلوا، واشتهر في المدينةِ أنَّ الشيخَ صنعَ اليوم كذا، وأطعمَ الصوفية كذا وكذا. قال المُنكرون: لا تعجيلَ لنا فيهم، خلّوهم يملؤوا أجوافَهم، فإنَّ اليومَ آخرُ عهدهم بالدنيا. ثم بعد الفراغِ من الأكل، أمرَ الشيخُ الخادمَ ليبسطَ سجادةَ الشيخ، والصوفيةُ قريبًا من المحراب، وصلّى الشيخُ في قفا الإمام الخطيب، ولمّا سلّم الخطيب، سلَّمَ الشيخُ، وصلّى السُّنة، وقامَ ليخرجَ من المسجد، فنظرَ إليه الخطيب، وأرادَ أن يقول شيئًا، فنظرَ إليه الشيخُ شزرًا، فأطرقَ الخطيبُ، وخرجَ الشيخُ وجماعتُهُ من الجامع، ودخلوا الخانقاه، ثم بعد العصرِ أشارَ الشيخُ إلى الخادم: أن يَمشي إلى السوق، ويشتري خمسةً من الكعك والزبيب المنقّى، ويذهبَ إلى مقدَّم المدينة، ويقولَ له: إنَّ الشيخَ يقول: أفطرِ الليلةَ على هذا الكعك والزبيب. فذهبَ الخادم، وأوصلَ الهديةَ، وأدّى الرسالة، فزال اللونُ من وجهه، وعضّ أصبعه، وأرسل شخصًا إلى الخطيب، وقال: أمّا أنا فرجعتُ عمّا كان بيننا من إيذاءِ الشيخ وجماعته، لأنّي نويتُ الصومَ من الليل، ولم يطّلعْ على صومي سوى الله تعالى، ثم كنت عابرًا في السوق، ورأيتُ الكعكَ والزبيب المُنقّى، وكان في خاطري أن أشتري منهما، وأُفطرَ عليهما، والحالُ أنّي نسيتُ ذلك، وحين دخلتُ البيتَ، أرسلَهُ الشيخُ إليَّ، وأمرني بالإفطار عليهما، فمن تكونُ كرامتُهُ وفراسته مثلَ هذا، فنحن لا نقدرُ عليه ألبتَّةَ. وذهب رسولُ المقدَّمِ إلى الخطيب، وحدَّثه الحديثَ، فقال الخطيب: كنتُ أُرسلُ الساعةَ إلى المقدَّمِ بأنّي رجعتُ عن هذا التدبير؛ لأنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله

نظرَ إليَّ شزرًا بعد الصلاة، وكادتْ مرارتي أن تنشقَّ من الخوف والرعب، ورأيتني عنده كعصفورٍ في مخلب بازيٍّ، وما بقي لي مُخاصمةٌ ولا مُنازعةٌ معه. ثم أرسل المقدَّمُ إلى الشيخ: إنَّ القاضي الصاعد يتبعُهُ ثلاثون ألفًا من أهل نيسابور، ولي من التبع عشرون ألفًا، وللسلطان محمود رحمه الله عسكرٌ عظيم، وسبع مئة فيل، وأنت غلبتَ الجميعَ وكسرتَهم بخمسة أرطال من الكعك والزبيب، وبنظرٍ إلى القاضي ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] [الكافرون: ٦].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان عابرًا في بعض السكك، فأبصر جماعةً من الكنَّاسين ينقلون النجاسةَ من مبرزٍ، ويكنسونه، وظهرت هناك رائحةٌ كريهةٌ، فوقف وقال لأصحابه: هل تدرون ما تقولُ هذه النجاسةُ بلسان الحال؟ قالوا: لا. قال تقول: ما أنا إلاّ الأطعمةُ والفواكه التي كان لي طعمٌ حسنٌ، ورائحةٌ طيِّبةٌ، وكان للناسِ ميلٌ عظيمٌ إليَّ حتى أنَّهم يتخاصمون ويتقاتلون لأجلي، ثم تحوّل الحالُ إلى إن بتُّ معكم ليلةً، وصاحبْتُكم فيها، فاكتسبتُ من الخساسة والحقارةِ والطعمِ والرائحة ما لا يخفى، ثم خلصتُ منكم، وسأصيرُ ترابًا، ولكن كيف يكون حالُكم وأنتم تصاحبون أنفسَكم ولا تفارقونها سبعين سنةً أو أقلَّ أو أكثر؟ فأنتم آخرَ الأمرِ لا تخرجون منكم إلاّ شيئًا عجيبًا[2].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رأى جماعة من الظَّلمةِ قد أقعدوا رجلاً في الشتاء في الماء البارد، ويضربونه قويًا، والرجل يقول: يا ربِّ يا ربِّ. فذهب الشيخُ إليهم، ليتشفَّع فيه، ثم رجع، ولم يتكلّمْ شيئًا، فسأله بعضُ الأصحاب، وقال: لِمَ رجعتَ قبل أن تشفع؟ قال: لأنّي نوديتُ في سرّي[3]: يا أبا سعيد، لا تشفعْ في هذا الرجل؛ فإنَّه ما ذكرَ الله تعالى في عُمره قطُّ إلاّ في هذا اليوم، وهذا أيضًا بالعصا، فدعهم يضربوه، لأنَّ هذا جزاءٌ لمن لم يذكرِ الله تعالى في الراحة، ويذكره في الشدة.

---

(١) أسرار التوحيد ٨٩ـ ٩٥.

(٢) أسرار التوحد ٣٠٠.

(٣) الأصل: لأني نويت في سرّي.

نقل أنه سمعَ أنَّ فلانًا من الفقراء انزوى في زاويةٍ مدَّةً مديدةً، وصار جسمه من الرياضة كالخلال، فأرسلَ إليه: أنَّ المناسبَ لحالك أن تلفَّ جميعَ ما عملتَ في لقمةٍ، وتُطعمها فقيرًا وتخلص.

أقول: يُشير إلى أنَّه كان مُعجبًا في نفسه بسبب رياضته ومجاهدته، فأمره بتركِ العجب، فإنه من أشدِّ المُهلكات للسالك، لأنه حجابٌ عظيمٌ بينه وبين الحقِّ، وهو لا يصلُ إلى المقصود الأعظم إلاّ برفع الحُجُبِ كلِّها. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ رحمه الله كان في صحبةٍ بالنهار، وكان هناك جماعةٌ من أهل الغناء، ولم يحصل لأحدٍ من الصوفية ذوقٌ، ولا هاجَ فيهم شوقٌ، مع أنَّ المُغنِّين اجتهدوا كثيرًا، ثم إنَّ الشيخ رحمه الله دعا إليه الخادمَ، وأمره أن يجعلَ عصًا على صورة امرأةٍ بإزارٍ، ويضعها على طرف السطح، بحيثُ يَراها الجماعةُ، ولا يعلمون حقيقتَها، ففعلَ الخادمُ، وبعد ذلك شرعَ المُغنّون في الغناء، والصوفيةُ في السماع، وحصلَ لهم شوقٌ وذوقٌ، ووجدوا حالاً فوق الوصف، حتى صاحوا ومزَّقوا الخرقَ، فلمّا قضوا من السماع أوطارَهم، وعرفَ الشيخُ أحوالَهم وأفكارهم، أمرَ الخادمَ بأن يكشفَ سرَّ تلك[1] الهيئة، ليعرفَ الحاضرون من أنَّ هيجانَ أشواقِهم لأيِّ شيءٍ كان.

أقول: يُشير أولاً إلى أنَّهم تَواجدوا - أي أظهروا الوجد - وتواجدُهم أيضًا ما كان إلاّ لتوهُّمهم أن تلك الصورة امرأةٌ، وتخيَّلوا صورةً مُستملحةً جليلةً، فلها صاحوا واضطربوا، وأنهم لا حظَّ لهم من مقامِ الوجد الحقيقي، والشوق التحقيقي، ومقصودُهُ رحمه الله تَنبيهُهم على خطئهم، وردُّهم عنه إلى الصواب، وفي هذا إشارةٌ أخرى إلى أنَّ المُحبِّين للدنيا، المُشتغلين بعمارتها، الذين يصرفون أعمارَهم النفيسةَ في طلبها وحبِّها سيُكشفُ لهم عن محبوبهم، ليطَّلعوا على قباحته، فيعلموا أنَّهم خسروا فيه خسرانًا مهينًا، وضلُّوا ضلالاً بعيدًا،

(١) الأصل: بأن يكشف للشيخ سر تلك.

أعاذنا الله بتوفيقه ورحمته ولطفه عن هذه الفتن. [والله أعلم].

نقل أنّه اتفق جماعةٌ، واجتمعوا بين الشيخ أبي سعيد والإمام أبي محمد الجُويني رحمهما الله تعالى في الحمام، فقال الشيخُ لأبي محمد: لِمَ طابَ الحمام؟ قال أبو محمد: لأنه ينظّفُ الإنسان، ويزيلُ عنه الأوساخ. قال الشيخ: أريدُ أحسنَ من هذا. قال أبو محمد: لأنه يَدخُلُه مثلُ جنابك الكريم، ويستريحُ فيه. قال الشيخ: أحسنَ من هذا أُريد. قال أبو محمد: فالشيخُ أعلم. قال الشيخ: إنّما طابَ الحمام لأنَّه اصطلحَ الضدّان، واتَّفقَ المُخالفان ـ يعني الماء والنار ـ فتعجّب أبو محمد من هذا المعنى اللطيف، ثم قال الشيخ أيضًا: لأنَّ من يدخلُه يتركُ جميعَ المال والملك، والمنصبَ والجاه، ولا يكون معه سوى سطلٍ وإزارٍ، وهما أيضًا على طريقِ العارية غالبًا[١].

أقول كأنه رحمه الله يُشير إلى مقامِ التجريد الذي هو أَصلٌ عظيم في السلوك، إذ لا يصلُ السالكُ إلى القصدِ إلاّ إذا ترك جميع ما سوى المقصود، ولا شكَّ أنَّ الحمامَ نموذجٌ لهذا المقام. [والله أعلم].

نقل أنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله رأى قصّابًا ذبحَ غنمةً، وهي تضطرب وتَلْبَطُ وتتأوّه من التألُّمِ، فرقَّ لها قلبُه، ولم يأكل بعد ذلك اللحمَ.

نقل [أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله قال]: إذا رأيت الشيخ ساكنًا فلا تتبعه بالسكون والاطمئنان والتمكّن إلى أن يقعَ بينه وبين غيره شيءٌ ذا جاه ومنصب، فإن بقي على ما كان عليه فيظهر، وإلاّ فيظهر ما كان مخفيًا فيه من الشرّ والأضرار، أما إذا رأيتَ ميتَ الكلامِ ليس عنها منازعةٌ ولا مُخاصمة، فإذا رميت جيفة بينها تراها متنازعة متخاصمة بعضها مع بعض.

أقول: وقلّما يخلو الإنسانُ عن الشرّ، وإن كان بحقّه بالتكلّف والتصنّع، فإذا صار ذا منصبٍ وجاه يمدُّ رجلَهَ ويده، ويخرجُ إلى فعل ما كان فيه بالقوة،

---

(١) أسرار التوحيد ٢٤٩، ٢٥٠.

ويشيرُ إلى هذا مَنْ قالَ وأجادَ المقالَ[١] :

الظُّلمُ من شيمِ النُّفوسِ فإنْ تجدْ ذا عفَّــةٍ فلعلّــةٍ لا يَظلــمُ

[والله أعلم].

نقل أنّ رجلاً سمعَ أوصاف الشيخ ومناقبَهُ، فقصدَهُ، وجاء إليه من بعيدٍ، فلمّا حضرَ عنده رآه يأكل الحلاوة والسكر، ففسدَ فيه اعتقادُهُ، وتشوَّش ظنُّه، فعلم الشيخُ، وقال: تعالَ يا فلان، ولا تنظرْ إلى التنعّمِ الظاهر، وانظرْ إلى تواضعِ الباطن ورياضته ومجاهدته.

نقل أنه وصل إلى ضيعةٍ من أعمال نيسابور، وسأل اسمها، فقالوا: باب الحبيب. فقال: لا يجوزُ تركُ الحبيب، ونزلَ فيها، وبنى هناك موضعًا[٢].

نقل أنه أمرَ بتهيئةِ دعوة، ولمّا بسطوا السفرةَ، ووضعوا الأواني، اتَّفقَ الأصحابُ كلُّهم على ألاّ يحضروا، والشيخُ ينتظرهم، فقامَ ويدور حول السفرة، ويقول: إلهي، إن لم تدخلْ أحدًا في الجنة، فمن أين يكونُ لنعيم الجنة رونق؟ بل يكونُ أقلَّ رونقًا من سفرة أبي سعيد.

نقل أنه رحمه الله صعدَ المنبر لأجل الوعظ، وازدحم الخلق في المسجد حتّى ضاقَ، ولم يسعْ كلَّهم، فقام شخصٌ وقال: رحم الله امرأً يتقدّمُ من مكانه خطوةً. فقال الشيخ: ما قالَ الأنبياءُ والأولياءُ فقد ذكرَهُ هذه الرجل في كلمةٍ، وما بقي لنا كلامٌ، ونزلَ، ولم يتكلّم[٣].

نقل أنه رحمه الله يومًا من الأيام كان يجيءُ ويذهبُ، والأصحابُ يقومون كلّما يجيءُ ويذهب، فأشارَ إليهم بأن لا يقوموا، إذ كثرَ المجيءُ والذهاب، فبعضُهم كان يقومُ، وبعضُهم امتثلَ أمره، ولا يقوم، ثم الذين كانوا يقومون كلّما يجيءُ ويذهبُ صارَ كلٌّ منهم مقتدىً، والذين لم يقوموا بقوا في مرتبتهم،

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي، انظر شرح الديوان ٤/ ٢٥٣.

(٢) أسرار التوحيد ٢٢٢.

(٣) أسرار التوحيد ٢٢٩.

ولم يترقّوا، وذلك لأنّه منعهم عن القيامِ له تواضعًا منه، والذين قاموا له تواضعوا له، والذين لم يقوموا لم يتواضعوا، فظهر الفرق.

نقل أنَّ الشيخ رحمه الله كان راكبًا على فرس على جواد، وعليه ثيابٌ فاخرةٌ، فجاء إليه فقيرٌ ينظر إلى فرسِهِ وأثوابه، وتعجَّبَ من حشمته، فاطّلع عليه الشيخ بنور الولاية ـ أي بإلهام الله تعالى ـ فنزلَ من الفرس، وخلعَ الثيابَ، وكساها ذلك الفقير، وأركبه على الفرس، ورمى الغاشيةَ على كتفه، ومشى في ركابِ الفقير، فخجلَ الفقيرُ عمّا فعله، ورمى نفسَهُ عن الفرس، فقال الشيخ: اعلمْ أن المشيَ والركوب عندي سواء، ولذا يسلمُ لي الرُّكوبُ على الفرس، غير تفاوت بينه وبين غيره من المراكب وبين المشي.

أقول: قد لوّح الشيخُ رحمه الله في هذا الكلام إلى أنَّ العارف إذا وصلَ إلى مقام التمكّن بحيث لا يغترُّ بزينة الدنيا وزخارفها، وهي لا تصيرُ حجابًا بينه وبين الله، وذلك لرسوخِهِ في المعرفة والمحبّة والتوجّه إليه تعالى، فلا حرجَ عليه حينئذٍ، إذا كان له من الدنيا شيءٌ، إذِ الدنيا كلُّها والآخرةُ أيضًا بنعيمها لا تحجبُهُ عن الله، وأمّا من لم يكن راسخًا متمكّنًا؛ بل هو معتمدٌ بعد، ولم يبلغِ المرتبةَ المذكورة، فأدنى شيءٍ ممّا سوى المقصود الأصليّ يصيرُ حجابًا، وكلّما يُكثرُ الالتفاتَ إلى الدنيا وزخارفِها يشتدُّ التعلّق بكثف الحجاب، ولذا يحتاجُ السالك في تلطيفِ الحجاب ورفعه إلى مجاهدةٍ كثيرةٍ، ورياضةٍ راضية، وأمّا الذين تركوا الدنيا رأسًا أولاً وآخرًا، وأعرضوا عنها، فلعدمِ الأمن من شرورها، والشيخُ أبو سعيد رحمه الله له طورٌ خاصٌّ بين المشايين المشايخ، مع اتفاقِ المُعتقد والمُنكر على ولايتِهِ وكراماتِهِ ومجاهداته وعباراته حتى لم يكنْ له نظيرٌ من الأولياء في المجاهدة إلاّ نادرًا، وإنه رحمه الله لم يدَّخرْ شيئًا للغد، ولم يملك ملكًا ولا عقارًا؛ بل كان تاركًا، جالسًا على باب التوكُّل، واللهُ تبارك وتعالى قد أفاضَ عليه إحسانَه، وأسبغَ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وذلك لم يكن قادحًا في ولايته، ولا مُفسدًا لمقام توكُّلِهِ. [والله أعلم].

نقل أنّه لمّا اشتهرت أحوالُه بين الناس، وانتشرَ صيته في الأطراف، أرسل

إليه شيخٌ من المشايخ واحدًا من تلاميذه ليتفحَّصَ عن أحواله، ويمتحنه، ثم يخبرُ شيخَه بما يظهرُ عنده، فجاء، وصادفه راكبًا على حمارٍ، وخلقٌ كثيرٌ خلفه وقدّامه، فسلّم عليهم، وأخذ شوكةً ووضعها بالخفية تحت ذنب حمارِهِ، فجعلَ الحمار يرفسُ كما هو العادةُ، وضربَ الشيخَ على الأرض، فقامَ وركبَ، ثم فعلَ ذلك الرجلُ مثلَ ما فعل، والحمارُ كذلك ألقاه، ثم قام الشيخُ، وفعلَ الرجلُ ثالثًا مثلَ فعله، ووقع الشيخ من الحمار نوبةً ثالثةً، فدعا الشيخُ ذلك الرجلَ، وقال له: امشِ إلى شيخك، وقل ضربتني على محلِّ الامتحان ثلاث مرات، ولكن هل رأيتَ منّي غبارًا حيث يكونُ أصلُ هذا الشأن. فتمرَّغَ الرجلُ عنده، وتاب، وندم على ما فعل(١).

نقل أن جماعةً من الأكابر كانوا قعودًا في موضعٍ، ويذكرون كراماتِ الشيخ رحمه الله، فقال واحدٌ منهم لمُريدٍ له: امشِ إليه، وأبصرْ كيف تراه. فذهبَ المُريد، وهو على المنبر، فقال له: مرحبًا، قد جئتَ لتبصرَني وتتفحّصَ عن حالي، فها أنا، فانظرْ إليَّ. فصعدَ الرجلُ المنبر، وقبَّلَ يدَ الشيخ، وتاب، ورجع.

نقل أنه كان للشيخ مُريدٌ، وكان تاجرًا ذا مالٍ وثروة، وقد أنفقَ على أصحاب الشيخ مالاً كثيرًا، وما انفتحَ إلى قلبِهِ بابٌ من المعرفة، ثم إنَّ الشيخ يوم الجمعة قصدَ الرَّواحَ إلى الجامع، ونَعلُهُ كان منخرقًا، واحتاجَ إلى طَسُّوجٍ(٢) وحبة لأجل التشفيع، ولم يكن له، فأعطى ذلك الرجلُ هذا القدرَ، وتشفّعوا عليه الشيخ، ولما أدخلَ الشيخُ رحمه الله رجلَهُ في النعل، انفتحَ للرجلِ بابٌ من العرفان والشهود، فوقعَ الرجلُ مغشيًّا عليه ثلاثةَ أيام ولياليها، ثم بعد الإفاقةِ سأل عن الشيخ، وقال: كم قد صرفتُ، ولم أشمَّ رائحةً من المقصود؟ قال الشيخ رحمه الله: لأنّك أنفقتَ لأجلِ غرضك، فما أصابَ

---

(١) أسرار التوحيد ١٩٢، ١٩٣.

(٢) الطَّسُّوج: ربع دانق. معرب. القاموس.

الموقعَ، وصرفتَ هذا القليلَ المحقَّرَ لأجلِ غرضٍ غيرك، فلذا وقعَ موقعَ القبول، وحصلَ لك إلى المقصودِ وصول، وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ يجب أن يَسعى في مقصودِ غيرِهِ ليحصلَ مقصودُهُ، وأمّا إذا كان سعيُهُ محصورًا في تحصيلِ مقاصدِهِ، فربَّما يحصلُ، وكثيرًا لا يحصل. ثم قالَ: سعيُكَ لك شؤمٌ، ولغيرك مباركٌ.

وقال: إذا رأيتَ الفقيرَ مُشتغلاً لتحصيل مُراداته، فدعْهُ واهربْ منه؛ فإنّه فتنةٌ في نفسه، وبلاءٌ على الخلق.

وقال: لكلٍّ من الخلائق مرادٌ، ومرادي أن لا يكونَ لي مُرادٌ.

وقال: فضلُ العارفِ على غيره: أنَّ حديثَ غيرِهِ مع العارف، وحديث العارفِ مع الله تبارك وتعالى.

قال: قال الشيخ: إن الله تعالى يطردُ المحبَّةَ، ويجذبُهُ، ويرميه على الجنبِ، ثم من جنبٍ إلى جنب حتى يسكِّنَهُ، فإذا سكنَ يفنيه، بحيث لا يبقى منه رسمٌ ولا أثرٌ، ثم يتجلّى بالنورِ الباقي لذلك التُّراب.

وقال: يلمعُ وقتَ النزع برقٌ من الهيبة، تنمحي فيه جميعُ معارفِ العارفين، وعلومِ العلماء، وتصوف[1] أهلِ الصفاء، وبلاغةِ البلغاء، وطاعةِ المُطيعين، وولاية الأولياء، والصلاةِ والصوم، والعشقِ والمحبة، والتوكّلِ والتسليم، والصدقِ والإخلاص، والإيمانِ والإسلام، والذَّاتِ والصفات، ولم يبقَ منها أثرٌ، كأنَّها لم تكن، فإنْ كان له ذرةٌ من الفناء، فيصيرُ له مركبًا، وهو بذلك المركبِ يقطعُ الطريقَ، ويصلُ إلى صفاته.

وقال: يمكنُ رؤيةُ الله تعالى، ولا يمكن رؤية الفقير، لأنَّ الله تعالى موجودٌ باقٍ أزلاً وأبدًا، وأمّا الفقيرُ فلا وجودَ له، فلا يُرى.

وقال: لا حديثَ أفضل ممَّا نقول، ولكن لو سكتنا لكان خيرًا.

---

(١) في الأصل: والتصوف.

وقال: يقول الناس: أوقاتُه طيبةٌ؛ ولكن إن حملوا ما حملناه، لفرّوا وانهزموا.

وقال: إذا سألوا عنكم يوم القيامة: من أنتم؟ فلا تقولوا: نحن من الصوفية، أو من العارفين، فإنّه دعوى، ويطلبونَ منكم شاهدًا على دعواكم، وحينئذٍ يشتدُّ الأمرُ، ولكن قولوا: نحن ضعفاء مساكين، ولنا مخاديم، وإنّا لهم تبعٌ، فاسألونا عنهم، ثم فاسعوا أن تُدخلوا أنفسَكم في زمرة رجلٍ وإن لم تقدروا أن تكونوا من زمرةِ رجلٍ، فحرّكوا رأسًا إذا سمعتم من أحدٍ حديثَهُ؛ لتقولوا يومًا: نحنَ من الذين يحرّكون رأسهم عند استماعِ حديث الحبيب؛ لعلّكم تنجون بهذا المقدار[١].

نقل أنه قال: من رآني في ابتداءِ حالي صار صدّيقًا، ومن رآني في الانتهاء صار زنديقًا.

أقول: معناه أنَّ أفعالَه وحركاته وسكناته وأقوالَه في الابتداء كانتْ على وفق عقولهم، فلا جرمَ أنّه من كانَ يراه ويتبعه في أحواله يصيرُ صدّيقًا، وأمّا لمّا ترقّى، وجاوز عمّا كان عليه في الابتداء، ما كانوا يفهمون عباراته، ولا يُدركون حقيقةَ أحواله وأفعاله، لأنّها كانت فوقَ إدراكِ عقولهم، فلذلك كانوا يُنكرونه، وينسبونه إلى ما لا يليق، ويتزندقون بذلك، ويكفيك ناهيًا هذا السرّ حكاية موسى والخضر عليهما السلام، وما جرى بينهما، ولولا أنَّ الخضرَ عليه السلام كان يُؤَوِّلُ لموسى عليه السلام ما رأى منه من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامة الجدار كما نطقَ به القرآن الكريم، لأنكره موسى عليه السلام، وبقي على إنكاره، لكن زالَ إنكارُه بتأويل الخضر عليه السلام، والحالُ أنَّ موسى عليه السلام كان مأمورًا، وأمّا أبو سعيد فلم يكنْ مأمورًا لأحد، مأمورًا بمتابعته وتصديقه، وإن ذكر تأويلاً لكلِّ ما كان مُنكرًا عند الناس في ظواهرِ عقولهم لصدَّقه قليلٌ، وأنكرهَ كثيرٌ، فزال الإشكال والارتياب. [والله أعلم].

---

(١) اسرار التوحيد ٣٨٧، وبقية الخبر صفحة ٣٤٣.

نقل أنّه قال: ماتَ الذين كانوا يعبدون الله تعالى، وأنا أيضًا متُّ معهم.

وقال شخصٌ من الصلحاء: رأيتُ الشيخَ في المنام، وأظنُّ أنّه كان بعد موته، فقلت: يا شيخ، كيف أفعلُ لأخلص عن النفس؟ فقال: لا تعملْ شيئًا لهذا؛ لأن الله تعالى إن قدّرَ لك هذا ـ أي الخلاص من النفس ـ يُوفِّقُكَ لعملٍ يصيرُ سببًا لخلاصك عنها، وإن لم يقدّر ذلك، فلا ينتقصُ ذلك ولا يزداد، فعلم أن الله تعالى إذا قدّرَ شيئًا لشخصٍ يُلهمه الطلبَ والتحصيل، فبالحقيقة أنه يطلب، ثم يدلُّكَ ويُرشدك على الطلب، فهو الطالبُ، وهو المطلوب[١].

نقل أنّه وجع له ضرسٌ من أضراسه، حتى ما نامَ ليلةً إلى الصباح، فسُئل عنه، قال: لأنّي طالعت في كرّاسةٍ من كتابٍ، فأدّبني، وقيل: أتنكحُ المطلّقة؟ فتبتُ عن ذلك، وعرفتُ الحال[٢].

أقول: معناه قد ترك جميعَ ما سوى الله وطلّقه، حتى الكتابَ والمطالعة فيه، فإذا رجعَ إلى كتابٍ وطالعَ في شيءٍ، فكأنه أرادَ نكاحَ المُطلّقة، وذلك لا يجوزُ بلا تحليلٍ عند استيفاء الطلقات الثلاث. [والله أعلم].

نقل أنّه رحمه الله كان يَضربُ والدته، فقالت الوالدة: يا بني، لِمَ تضربني؟ قال: لتعرفي قدري، وتَشكري إذا لم أضربك.

أقول: في نقله تلك الحكاية إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يبتلي خالصَ عباده المُطيعين المحبّين له بأنواع من البليات والمصائب، ليشكروا الله عند زوالها، ويوفّوا قدرَ نعمة العافية، لأنّ المتناولَ[٣] بعد التعبِ أعزُّ من الحاصلِ بلا طلب، وكأنَّ الحكمةَ في ابتلاء الله تعالى عباده إنّما هي هذا. [والله أعلم].

نقل أنّ شخصًا قال لصوفيٍّ شيئًا، فغضب الصوفيُّ، فقال الرجل: إذا لم تطقِ الحمل، فاخلع عنك ثياب الحمّالين. فأعجب الشيخَ، وقال للقائل: أعدْ

(١) أسرار التوحيد ٣١١.
(٢) أسرار التوحيد ٦٢، ٦٣.
(٣) في الأصل: لأن المشتاقة بعد التعب.

كلامَك. فأعاده، فنظر الشيخُ إلى أصحابه، وقال: اسمعوا ما يقول![١].

نقل أنّه قيل في مجلس الشيخ: إن فلانًا يُصلّي بالنهار، ويسرق بالليل. قال الشيخ: فلا عجب أن يترك السرقةَ ببركة صلاة النهار[٢].

نقل أنه وقع حريقٌ في سوق المَيْهَنَة واحترق، فقال الشيخ رحمه الله: الشكرُ لله على أنه لم تحترق المَيْهَنَة بتمامها، فإنّي نوبةً لبستُ السراويلَ من القيام، وأنَّ الحريق إنما كان بشؤمِ أني تركتُ السُّنَّة مَرّة، وذلك لأن لبس السراويل من القعود سُنَّةٌ.

نقل أن أبا القاسم الثعلبي رحمه الله جاء إلى المَيْهَنَة من نيسابور حافيًا لغلبةِ اشتياقِ الشيخ عليه، فاستقبله الشيخُ، والتمسَ منه أن يمسحَ الغبارَ من قدميه بمحاسنه، فامتنعَ الشيخُ أبو القاسم، فأقسمَ عليه الشيخ أبو سعيد وألحَّ حتى لم يقدرْ أبو القاسم على الامتناع، ورضي بأنْ يمسحَ أبو سعيد الغبارَ من قدميه بمحاسنه، فمسحَ، وقال: إذا أُغبِرَتْ قدمٌ في سبيل الله، فينبغي أن لا تُمسحَ إلاّ بمحاسن أبي سعيد.

نقل أنَّ شخصًا من الفقراء رأى تبنةً على محاسن الشيخ أبي سعيد، وهو في المسجد، فشالها منها، ورمى في المسجد، فقال الشيخ: أما خفتَ من زاول إيمانك، فإن الوجهَ أعزُّ الأعضاء في الإنسان، وقد أمرَ الله تعالى بوضعِهِ على ترابِ المسجد حيث قال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩] وأنت ترمي التبنة فيه[٣].

نقل أنَّ الشيخَ كان في الحمام، فجاء إليه دلاّلٌ، وشرع يدلكُهُ ويُزيلُ الأوساخَ عن جسده، فجمعَ الوسخَ على عضده، [و] هو دأبُ الدلاّكين، ثم سأل عن الشيخ، وقال: ما الفتوة؟ قال الشيخ رحمه الله: الفتوة هي أن لا تجيء

(١) أسرار التوحيد ٢١٥، ٢١٦.
(٢) أسرار التوحيد ٣١١.
(٣) أسرار التوحيد ٣١٦.

الوسخ بالنظر. وكان في عهد الشيخ كثيرٌ من المشايخ رحمه الله، فسمعوا هذا الكلام، واستحسنوه، واتفقوا أنّه لم يقلْ أحدٌ في شرحِ الفتوّة أحسن من هذا[١].

نقل أنّه كان صوفيٌّ كامل، فأرسله جماعةُ الصوفية إلى الماء ليجيءَ لهم بالماء ليشربوه، فتعوَّقَ الصوفيُّ في المجيء، وأخذتْ جماعةُ الصوفية يذمُّونَه ويلومونه، وكلٌّ يقولُ شيئًا، فقال الشيخ: سبحان الله، الماءُ الذي لكم ما جاءَ بعدُ، فهو كيف يستقي لكم؟ فاصبروا، ولا تأكلوا لحمه حتى يجيء لكم بالماء[٢].

نقل أنّه كان بالمَيْهَنَة قاضٍ مُنكرٌ للشيخ ولا يزول، كان يُؤذيه، والشيخُ يحتملُ منه، وهو كان متحيّرًا في تحمّله، إلى أن استشهدَ بشهودِ الزور على أن المسكنَ الذي يسكنُهُ الشيخُ له، وفي يد الشيخ بالغصب، وأراد إزعاجَ الشيخ منه، فصدّقه الشيخ، وجمع أمتعتَهُ ليخرجَ منه، وكتب إلى القاضي هذا البيت العجمي:

آن تو ترا وآن ما نيز ترا جوز بهر دو ترا، خصومت آن بهر جيست؟

معناه: الذي لك فهو لك، والذي هو لنا فهو أيضًا لك، فإذا كان كلاهُما لك فلأيِّ شيءٍ هذه الخصومة؟

فلمّا وصلَ الكتابُ إلى القاضي، واطّلعَ على ما فيه، زالَ عنه القبضُ، وجاء إلى الشيخ وتاب.

نقل أنّه جاء ثلاثةُ رجالٍ إلى الشيخ، فالشيخُ أعزَّ واحدًا منهم، وأجلسَهُ على مسنده، وطلب الحلواء بالسكر، ويضعُهُ بيده في فيه، حتى إنَّ التلاميذَ من غاية إعزاز الشيخِ وكرامته له عرفوا أنه الخضر عليه السلام، وأمّا الآخران فأمرَ الشيخُ

---

(١) أسرار التوحيد ٣٠٣، وفيه: سألَ الشيخَ: ما المروءة؟ فأجاب الشيخ: ألا تحضر قذارة الرجل أمام وجهه. . .

(٢) أسرار التوحيد ٢٢٦_٢٢٧.

الخادمَ، فأنزلهما في منزلٍ ويكرمهما ويطعمهما إلى أن أرادا الرجوع، فأشارَ الشيخُ إلى أن هيّئوا لهما أسباب السفر، وزوّدوهما، وهو خرجَ معهما للتوديع، ثم حين الفراق قال لهما خفيةً: أنا أنغبن فيكما لأجلِ الخبز والملح، ثم أنتم تعلمون. والحالُ أنّهما كانا كافرين، فأسلما في الساعة، ورجعا مع الشيخ، وصارا تلميذين له.

نقل أنّ أبا سعيد رحمه الله بعدَ العبادة كان يقول: اللّهُمَّ، خلّص أبا سعيد عن أبي سعيد.

أقول: معناه أنّه يُريدُ ويسألُ من الله عزّ سلطانه أن يجعلَهُ غريقًا في بحر التوحيد، فانيًا في بقائه، بحيث لا يبقى له أثرٌ، ولا يُسمع له خبرٌ، وهذا نهايةُ درجات الصدّيقين والأولياء، وغايةُ مراتب الأصفياء، لأنّهم لا يجتهدون ولا يُجاهدون إلاّ للوصولِ إلى هذا المقام، والبلوغِ إلى هذا المرام، إذ ليس وراءَ عبّادان قرية[1]، وأمّا هذا المقام فلا نهاية له، ولا أمدَ، لأنَّ التوحيدَ لا نهاية له، ولا يلزم له التحديد والتناهي، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرًا. [والله أعلم].

نقل عنه أنَّه قال: المعرفةُ أن يصلَ العبدُ إلى مقامٍ، ويتّصفَ بصفةٍ لا يَحجبُهُ شيءٌ عن الحقّ حتى إذا تأمَّلَ في باطن الأشياء يراها فانيةً، وإذا تأمّلَ في صفات فعله سنين لا يهتدي إلى صفاتِ ذاته كالرماد، فإنَّه من صفاتِ فعل النار، ولا يهتدي من لا يعرف النار ـ من عرف الرماد ـ إلى معرفة صفات النارِ من الإحراق والإضاءة وغيرهما، ولذا قالوا: لا يُعرفُ اللهُ تعالى إلاّ به. يعني إذا جاءتك المعرفةُ منه تعالى فإنَّك تعرفُهُ حينئذٍ، باقيًا بلا كيفٍ في صفاته، لأنَّ المعرفةَ تنعدمُ عند تخيل الكيف.

---

(١) عبادان: موضع تحت البصرة، قرب البحر الملح، وقد ذكر المثل في مجمع الأمثال ٢/٢٥٧.

وقال: تحيَّرَ قومٌ في هذا المقام إلى مقامِ المعرفة بلا كيف، ثم قنعوا بهذا التحيُّرِ؛ بل يسألون الزيادة فيه.

أقول: وهذا كما نُقل عن بعضِهم أنَّه كان يقولُ في بعض دُعائه: اللّهُمَّ، زدني تحيرًا فيك(١). [والله أعلم].

قال: وهؤلاء لا يعلمون أنَّ القناعةَ بالتحيُّرِ أيضًا صارت لهم حجابًا، فلو كانت لهم بصيرةٌ لطلبوا الخلاص عن التحيُّرِ ليصلوا إلى بحر الحياة.

أقول: حاصلُ هذا الكلام أن التعلّقَ بشيءٍ من الأشياء حتّى بالتحيّرِ فيه مانعٌ عن الوصولِ إليه معرفةً؛ بل لا بدَّ من رفع السترة، وإزالةِ العلائق حتّى تطلعَ شمسُ المعرفة من أفق العناية، ويضيءُ عالمُ قلبِ العارف إضاءةً بلا زوال، إذ هذه الشمس تُنير بلا أُفولٍ، فظهرَ أنَّ مرادَه عدمُ التعلّق والتقيّد بمقامِ التحيُّر، وإلاّ فلا شكَّ أن التحيُّرَ في معرفة الحقِّ بقال: لا يزولُ أصلاً؛ بل يزدادُ بازديادِ المعرفة على خلافِ سائرِ المعارف، فافهم [فإنه] دقيقٌ جدًا، ولا يُدركُه إلاّ ذو طبعٍ سليمٍ، وإدراكٍ مستقيم. [والله أعلم].

قال: كلّما يوجدُ العارفُ والمعرفة يكون بالحقِّ من الحقِّ، وهذا مقامُ التجريد لا التوحيد، لأنَّه في مقامِ التوحيد لا يُوجدُ العارفُ ولا المعرفة، إذ مع توهّم وجودِ العارف والمعرفة لا يكونُ التوحيدُ توحيدًا؛ بل عند إشراقِ نورِ التوحيد تضمحلُّ جميعُ الأشياء ووجوداتها، كما أنَّ عند طلوع الشمسِ تتلاشى أنوارُ الكواكبِ، وهذا سرٌّ لا ينكشفُ إلاّ لذوي البصائر الذين أذابوا نفوسهم في ترقية المجاهدة، ثم صفّوها عن الكدورات البشرية، وخلّصوها عن الرذائل الجسمانية، ثم حلّوها بالمعارف اليقينية، واللّوامع الشُّهودية، والأنوارِ الكشفية، والأسرار الذوقية، وقليل ما هم، فطُوبى لهم وحُسنُ مآب، فليتني كنتُ في ممشاهم غبارًا من التراب.

---

(١) هو إشارة لقول ابن الفارض:

زدني بفرطِ الحبّ فيك تحيُّرًا وارحم حشًا بلظى هواك تسعَّرا

قال رحمه الله: ثم إذا عجزَ العبدُ عن الإدراك، كان ذلك من الجهلِ، والجهلُ في هذا المقام إيمانٌ، وإيمانُ هذه الطائفة كلِّهم يكونُ هكذا، فينكشفُ على العارف أولاً معرفةُ وجود الحقِّ، ثم يستولي عليه العجزُ عن الإدراك.

وقال: معنى ما قيل: (مَنْ عرفَ اللهَ كلَّ لسانُهُ) أنه إذا أُميتَ العارفُ عن الحياة التي تُحيي هذه الخلائق، ثم أحيا الحياة، ماتَ الخلقُ عنها، فحينئذٍ يتحقَّقُ عنده موتُ الخلق، فيخرسُ لسانُه في التوحيد عن التكلّم مع الموتى[1].

أقول: المُراد من حياةٍ يحيا بها الخلقُ هي الحياة الحاصلة من الغذاء والشراب الظاهرة، والموتُ عن هذه الحياة هو تقليلُ الغذاء والشراب المُسمّى عندهم بالرياضة في الظاهر، ثم قطعُ الغذاء والشراب المُسمّى عندهم بالرياضة في الظاهر، ثم قطعُ النظرِ والالتفات عن مُشتهيات الطبيعة، وقطع عرق الهوى عن أرض القلب بالكلّية المُسمّى بالرياضة الباطنة، وإلى موتٍ أدهى وأمرُّ من الرياضتَيْنِ. والمُرادُ بالحياة التي مات عنها الخلائقُ هي انكشافُ الأمور الغيبية بالإلهامات الواردة من البدء الفيّاضِ الذي لا يعتريه ملالٌ في الإفاضة، ولا يعرضه نقصانٌ في الإلهام، ثم تجلّي لوحُ القلب وانتعاشه بعد تصفيته عن صور الأغيار العينية بالصور والأنوار العلية، ثم استعداده لأن يصيرَ محلاً للتجلّيات الصفاتية، ومظهرًا للصفات اللاهوتية، بعد الانخلاعِ عن النُّعوتِ الناسوتية، والانقلاع عن الأوصافِ البشرية، فيا لها قصة في شرحها طول. [والله أعلم].

وقال: لا وجدانَ بدون الطلب، ولا طلبَ إلاّ بالعطاءِ والهداية.

وقال: قاعدةُ العبودية على نفي الوجود، إذ يثبتُ الحجابُ ما ثبتَ للعبدِ ذرَّةٌ من صفاته، والثبوت صفةٌ للحقِّ جلَّ جلالُه، وعمَّ نواله.

---

(١) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٣٤٦: معنى من عرف الله كلَّ لسانه: يعني كلَّ لسانه عن خصومة الخلق، فإن رسول الله ﷺ كان أعرف الخلق ولم يكلَّ لسانُهُ.

وقال رحمه الله: السلاطينُ لا يبيعون مماليكَم وأرقاءَهم، فاسعوا في أن تَصيروا عبيدًا له جلّ وعلا.

قيل له: هل يسقطُ العبدُ بالعصيان عن العبودية؟ قال: إذا كان عبدًا فلا يسقطُ بدليلِ أنَّ أبانا آدم عليه السلام لمّا كان عبدًا لم يسقطْ بالعصيان عن مقامِ العبودية، بخلافِ إبليس عليه اللعنة فإنّه لمّا لم يكن عبدًا، سقطَ عن العبوديةَ بعصيانٍ واحدٍ.

قال: إذا وصلَ العارفُ إلى مقامٍ يظنُّ أنّه لا يجدُهُ، فحينئذٍ يجده.

وقال: الجحيمُ نظرُكَ إلى وجودك، والجنّةُ انتفاؤك عن وجودك.

وقال: ليستِ الأرضُ ولا السماءُ ولا العرشُ ولا الكرسيُّ حجابًا بين العبدِ والربِّ؛ بل الحاجب إنما هو عجبُهُ وأنانيتُهُ، فإذا رفعهما، وصلَ إلى مقصوده.

وقال: النفسُ هي منشأُ كلِّ وحشةٍ، فإن لم تقتلْها فهي تقتلُكَ، وإن لم تقهرْها، فهي تقهرك.

وقال رحمه الله: التلوّنُ والتنوّر، والحرقةُ والاضطرابُ كلُّها من صفات النفس، فإذا ظهرَ نورٌ من أنوارِ الحقيقة فلا يبقى تلوُّنٌ ولا حرقةٌ، ولا اضطرابٌ ولا زلزلةٌ، إذ ليس مع الله وحشةٌ، ولا مع النفس راحة.

وقال: إنك لا تبقى معه بلا حملٍ وتكلّفٍ، فإن حملتَ حملَ الحقِّ تصلُ إلى نقل الحقيقة، وتستريحُ غدًا، وإن لم تحمل ذلك، فتحمل على رقبتِكَ باطلاً حتى [لا] تستريحَ في الدنيا، ولا في الآخرة.

وقال: لا يزاد في الرزق؛ فإنه بالعطاء لا بالجدِّ.

قال: جرُّ الجبل بشعرةٍ أسهلُ من الخروج عن النفس.

وقال: من عاملَ مع الحقِّ بالصدقِ يُكتب له بالتوقيعِ الولاية.

وقال: إذا وصلَ العبدُ إلى مقام التجريدِ ـ وهو تركُ جميعِ ما سوى الله تعالى ـ يسهلُ عليه ضبط مُلك سليمان عليه السلام ومملكته، ويصيرُ كلُّه معلومًا له، وإن لم يصلْ إليه، فلا يقدرُ على أن يجمعَ فضلةَ أردانه.

وقال: من يقدرُ أن يُجالسَ كلَّ أحدٍ، ويسمعَ عن كلِّ [أحدٍ]، ويُواكلَ كلَّ أحدٍ، ويستريحَ مع كلِّ أحدٍ فلا تطمعْ منه خيرًا، فإنه سلَّم نفسَهُ إلى الشيطان.

أقول: وذلك لأن من يقدر على هذه الأشياء المذكورة فالبتة يكونُ موافقًا معَ كلِّ أحدٍ في مقتضى دينِهِ ومذهبِهِ واعتقادِه وأخلاقه وأفعالِهِ، وإلاّ فلا يمكن بينهما الملاءَمة والمُصاحبة، ولذا قيل:

وشبهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه(١)

وإذا كانَ المرءُ موافقًا مع كلِّ أحدٍ، فلا جرمَ أن يكون مُنافقًا مع الحقِّ، ويلزمه حينئذٍ متابعةُ الشيطانِ، والانقيادُ له، أعاذنا الله تعالى عن ذلك. [والله أعلم].

قال رحمه الله: إن الفتوّةَ والشجاعةَ، واللطافةَ في الطبع، والظرافةَ في الأخلاق أزهارٌ تُزهرُ في بستان الجذبة، والصلاةَ والصومَ، والجوعَ والسهر، والتصدّق إنّما تنبتُ في بستان الجدِّ والجهاد.

وقال: يَصلُ من الحقِّ جلَّ جلاله شيءٌ، ويصلُ منك إليه تعالى شيءٌ، فإذا كنتَ راضيًا بالأول، ومُخلصًا في الثاني، فلا شكَّ أنت سعيدٌ في الدارَيْنِ.

وقال: إذا لم يبقَ بين الحقِّ والعبدِ حجابٌ، يجيءُ الهوى ويصيرُ حجابًا، فإذا أردتَ رفعَ الحجاب بالكلّية، فلا بدَّ من رفعِ الهوى، حتى لا ترى في ثمانية عشر ألف عام غيرَ الله - أي موجودًا حقيقيًا.

وقال: إنَّ الله تعالى لا يبالي أن يجعل مئةَ ألفٍ من أصحاب النفس فداءً لصاحب قلب.

أقول هو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. **[والله أعلم].**

وقال: لو علمَ العبدُ كرمَ الله تعالى كما هو، وعرفَهُ تعالى حقَّ معرفتِهِ، لمات من الفرح.

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ١٢١.

وقال: إنَّ الله تعالى يقولُ لعبدِهِ يوم القيامة: أيْ عبدي، ما أَعطيتُكَ الدنيا لا لأجلِ عزّتها وحقارتك، بل لأنّها لم تكن لها همَّةٌ واعتبار، وما كانت لائقةً؛ بل أعطيناها لمن كان بعيدًا عنّا، فصار بسببها أبعدَ. أيْ عبدي، أنت أعزُّ عليَّ من أن ألوّثَكَ بمثل الدنيا، فطبْ قلبًا، فاليومَ يومك، ولك ما تُريدُ وزيادةٌ. رزقنا اللهُ الوصولَ إلى هذا المقام ببركةِ عبادِهِ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

وقال رحمه الله: إنَّ جماعةً يدقُّون هذا الباب على اعتقادِ أنَّ فيه شيئًا، فلو لم يكنْ كما اعتقدوا لما دقُّوا، ولو لم يجدوا، لم يطلبوا.

وقال رحمه الله تعالى: إنَّ السعادةَ تحت رأسك، فاجعلْ رأسَكَ تحت قدمك، تصلْ إلى كنزِ السعادة.

وقال رحمه الله: لا يحسنُ خطيبانِ على منبرٍ، فيقول الله: أنا، فأنت لا تقلْ أنا، وهو كائنٌ ثابتٌ أزلاً وأبدًا، فأنتَ لا تكنْ.

وقال رحمه الله: كنْ مع الزاهدِ زاهدًا، ومع الصوفيِّ صوفيًا، ومع العارف كيف تشاء.

اجهدْ ليسعَكَ قلبُ وليٍّ، فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى ينظرُ في قلبِ الوليِّ سبعين مرَّة فوق ثلاث مئة وستين، فإنَّ هذا خيرُ المؤمنين كلِّهم، ولا يختصُّ بالولي بخلاف الأولى، وإذا كنتَ في قلبه، فتسري إليك بركةُ نظرِ الله، وتصير سعيدًا[1].

وقال رحمه الله: السلامةُ في التسليم، والبلاءُ في التدبير.

وقال رحمه الله: تأديبُ الأحمق كسقي الحنظل، فكلَّما تسقيه تزدادُ مرارتُهُ، ولا يكون حلوًا أبدًا، فإنَّ الله تعالى خلقَهُ مرًّا، وجبلَهُ على المرارة، فكيف يصيرُ حلوًا أوحامضًا أو طعمًا آخر؟ فكذلك الأحمقُ لا ينفعُهُ تأديبُ المؤدّب[2].

---

(١) انظر أسرار التوحيد ٣٣٢.

(٢) أسرار التوحيد ٢٧٧.

وقال: العاقلُ من [إذا] عرضَ له شغل يتركُ سائر اشتغاله، ويتدبّر في ذلك الشغلِ بالبصيرة ليظهر له الصواب، وعند ظهورِهِ يتركُ غيره، كمن ضاعَ له دينارٌ، فإنه يجمعُ الترابَ ويغربلُه إلى أن يجدَ، فإذا وجده يأخذُ الدينارَ، ويتركُ التراب.

وقال رحمه الله: لا طريقَ أقربُ إلى الله تعالى من الفقر والافتقار، حتى إذا توجَّه إليه الحَجَرُ بالفقر والانكسار، والعجز والافتقار، يتفجَّرُ منه العيونُ؛ بل الأنهار.

وقال رحمه الله: ألفُ صديقٍ قليلٌ، وعدوٌّ واحدٌ كثير.

أقول: كأنّه يُريدُ بالعدو الشيطان، أو من يدلُّ على الشرِّ كالصاحب السوء والنفس، فإنَّ إفسادَ كلٍّ من هؤلاء أكثرُ وأضرُّ من أن يدفعه إصلاحُ ألفِ صديقٍ أو أكثر. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: أيُّ حالةٍ خاليةٍ عن مجاهدةٍ أو علمٍ فضرُّها أكثرُ من نفعها، ومن لم يكنْ له شيخٌ، فلا فائدةَ فيه.

وقال رحمه الله: يجبُ على المرءِ أن يشتغلَ طولَ عمره، ويرفعَ ما يشغلُهُ عن الحقِّ، ويوصلَ نفعًا إلى فقيرٍ، فإن سلكَ على هذا وصل إلى المقصود، وإلاّ يبقى حيرانَ لا إلى الدِّين ولا إلى الدنيا.

وقال رحمه الله: تنعُّمُ أهلِ الدنيا بالدنيا، وتنعُّمُ أهل الآخرة بالأحزانِ والمصائب(١).

و: الحزنُ حصنٌ وحمايةٌ من الحقِّ يُعيذُه من البلاء.

وقال: مَنْ نظرَ إلى الخلقِ بعين الخلق طالتْ خصومتُهُ، ومن نظرَ إليهم من جهة الحقِّ خلص.

---

(١) الأصل: أهل الآخرة في الدنيا بالأحزان. وانظر أسرار التوحيد ٣٢٧.

وقال: أيُّ قلبٍ لا سرَّ فيه من الحقِّ، ولا مناجاةَ له مع الحقِّ، ولا سماعَ له لكلامِ، ليسَ فيه إخلاص.

وقال رحمه الله: من كانتْ حياتُهُ بالنفس، فيموتُ بالموت، ومن كانت حياتُهُ بالصدق والإخلاص فلا يموتُ أبدًا؛ بل إنما يُنقلُ من دارٍ إلى دار[١].

وقال: ليس بفقيرٍ من يكون فقيرًا.

أقول: يعني: الفقيرُ الكاملُ من فوَّضَ جميعَ أموره إلى الله تعالى، ويشتغلُ بما أُمِرَ، ولا تُعرض عليه حاجةٌ، ولا تُسألُ منه مسألة؛ بل يعلمُ أن علمَ الله تعالى بحاجاته يكفيه عن السؤال، وأيضًا ما قُدِّرَ له فيصلُ إليه، سألَ أو لم يسأل، وما لا، فلا؛ وإن سأل ألف سنة. فمعنى قوله: (الفقير من ليس بفقير) على ما ذكرنا أنَّ الفقيرَ من لا يكون محتاجًا ـ أي إلى عرضِ الحاجة ـ لأنَّ الفقير هو بمعنى الاحتياج، فالأول أفعالاً والثاني. وأمّا قوله عليه السلام: «الدعاءُ مخُّ العبادة»[٢] فإشارةٌ إلى مقامِ العوامِ بقرينة (العبادة) فإنّها في عرفهم تُطلقُ أيضًا على عبادة العوام، فالعبوديةُ للخواصِّ، والعبودة للأخصِّ، فالدعاءُ للعوامِ، والتلميح والتفويض للخواص. والله أعلم.

وقال رحمه الله: من أرادَ السلوك إلى الله، فليكن عبورُه على أهل الفقراء.

أقول: أمّا أهلُ الفقر الظاهر من ذوي الحاجات، فبالترحّمِ والشفقة عليهم، والإحسان لله إليهم، وأما أهل الفقر الباطن، فبالاستعانة منهم، والسلوك بإرشادهم. [والله أعلم].

وقال: من سلكَ وحيدًا ـ أي بلا مرشدٍ ـ فهو كضائع في فلاةٍ، فلا يدري أين يتوجَّهُ.

وقال: لا يمكنُ ربطُ هذا الحديث ـ أي حديث العشق ـ على أحدٍ بحبل، ولا خياطته بالإبرة، بل لا بدَّ من الافتقار الدائم، والانكسارِ الذي لا يزول.

---

(١) انظر الحاشية (٣) صفحة ٥٥٧.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٨) في الدعوات، باب رقم (٢)، عن أنس بن مالك، وإسناده ضعيف، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال: إنَّما يتعبُ الإنسانُ، لأنَّه يطلبُ الشيءَ قبل وقته.

وقال: اطلبوا منه الثباتَ لا الكرامة، فإنَّه يصيرُ بالكرامة معجبًا.

وقال: لا تسلك هذا الطريق وأنت خائفٌ من عدم الوصول؛ فإنَّ المنازلَ تُقطعُ بالشطارة، وإذا قلتَ: (الله) فدعْ غيرَهُ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال: إذا وجدتم للفقير دينارًا أو درهمًا أو حبَّةً مشدودةً في خرقة، فاحموا عليه في النار، واكووا به جبهته وجنبَهُ تفضيحًا له.

وقال: ما يشغلُكَ من الله فهو شوم، والاشتغال به مذموم.

وقال: من ظنَّ أنَّه وصلَ بغيرِ الجهد فأخطأ، ومن ظنَّ أنَّه وصل بالجهدِ فأخطأ. وقد مرَّ شرح هذا الكلام[1].



وقال: لا طريق إلى الله للبطَّال.

وقال: كم من إنسانٍ يربِّي نفسه ويترك الجسدَ.

أقول: هذا كمن يشتغلُ بالرياضة والمجاهدة لا على طريقهما ولا بالإخلاص، بل لغرضٍ دنيويٍّ، فإنه يربي رذائلَ نفسه، ويهزلُ جسده. [والله أعلم].

وقال: هم كانوا يعملون بالقلب، ونحن نعملُ باليد.

وقال: جوهرُكَ طيرٌ مقفّص في قفصِ الإنسانية، يطير من هذا القفص على ذاك، ومن ذاك على ذاك، فافتحْ بابَ القفص، وخلّصْه عن هذا القيد والطيران.

أقول: إن الجوهر الناسوتية، وهو النفس الناطقة كطيرٍ مقفّص في هذا القلب، وهو يطيرُ - أي يتحرّكُ في طريق الفكر - من عالم الملك إلى المحسوسات، والملكوت إلى المغيّبات، وفي كلٍّ من العالمين أجناسٌ

---

(١) انظر الصفحة ٤٦٤، و٥٤٧.

وأنواع، وأصنافٌ وأشخاص، فيتحرَّكُ من جهة الفكر من جنسٍ إلى آخر، وكذلك من صنفٍ إلى آخر. قال أبو علي بن سينا[١]:

هبطَتْ إليكَ من المحلِّ الأَرْفَعِ ورقـاءُ ذات تعـزُّزٍ وتمنُّـعِ

وهذه الحركةُ الفكرية مخصوصةٌ بالإنسان، لا توجدُ في غيره من الملائكة والجنِّ، ولهذا تتفاوتُ مراتبُهم بتفاوت أفكارهم، ولهم ترقياتٌ بحسبها، بخلاف الملائكة والجنِّ، إذ لا ترقِّي لهما؛ بل هما على حالةٍ واحدةٍ، من أول عمرهما إلى آخره على ما قيل. [والله أعلم].

وقال: ليس في هذا الطريق التفاتٌ إلى العاقبة والسلامة، والخلق والرفيقِ والصديق، والجنّة والنار، والقريب والأهل والعيال؛ بل إلى النفسِ، ولا يجوزُ أن يكونَ التوجُّهُ إلاّ إلى الله تعالى.

وقال: لا يوجدُ الحقُّ في العمران.

أقول: كأنه قصدَ معنى قولِ النبيِّ ﷺ، عن الله تعالى أنه قال جلَّ من قائل: «أنا عند المُنكسرة قلوبهم»[٢] الذين انكسرتْ قلوبُهم تَقطّعًا عن اللذّات النفسانية، ومنعها عن الشهوات الزائلة، والحظوظ الفانية، وتصفيتها عن الكدورات الجسمانية، فتجدها خاليةً عمّا سوى الله تعالى بأسرها كالديارِ البلاقع، والمواضعِ الخربة التي لا عمّالَ فيها، فلا يَسكنُها قاطنٌ، ولا يُقيمُ بها متوطّنٌ، ولأنَّ السلطانَ جلالُ الله وجماله، إذا أرادَ أن يتجلّى على قلب العارف العبد، يغسلُ ما فيه من الأغيارِ، ولا يتركُ فيه شيئًا من الغبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧] ولا يبقى له التفاتٌ إلى أين ومتى، ثم يتجلّى له على مبلغ حالِهِ، وقدرِ قابليّته، وصفاءِ طويّته. رزقنا الله تعالى الترقّي إلى هذه

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/ ١٦٠.

(٢) تقدم تخريجه صفحة ٢٠٤ الحاشية (٤).

الذروة ببركة عبادةِ الأولياء، وبحرمةِ نبيّه فضل الرُّسل والأنبياء، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً تنفعنا، وتجازيهم بها يوم الجزاءَ، والله أعلم بحقيقة الأشياء.

وقال رحمه الله: إنّ الله تعالى منزَّهٌ مقدّسٌ عن كلِّ ما يخطرُ بالبال، لأنَّ ما يخطرُ به فهو مخلوقٌ حادثٌ، والله تعالى مُتعالٍ عنه.

وقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إذا تفضَّلَ على أحدٍ من عباده، يوردُ على باطنِه شيئًا يَجذبُهُ عمّا سوى الحقِّ جلَّ جلاله، ويقطعُهُ عن غيره، ثم يرفعُ قدرَهُ، ويحلّيه بالأنوار والحلي والعلوم والمعارف القدسية، ثم يُجلسُهُ على منصَّةِ القُرب، ويجلّيه على خلقه كما يريد ويشاء، يفعل الله ما يريد ويحكم ما يشاء، فيصيرُ في قبضة تصرفاته كالتبع، وإليه الإشارةُ بقوله عليه السلام: «المؤمنون هيّنون ليّنون»(١).

وقال: ينبغي أن يحصلَ للعبدِ تعلّقٌ إلى الحبيب الحقيقي، ويسلبه منه ـ أي من نفسه ـ حتى يدورَ في العالم بحرقةِ أحشائه، جاريةً دموعُهُ، رثيثًا حالُهُ، كثيرًا بلبالُهُ، منوَّرًا بالُهُ.

وقال: إذا ذكرتَ الله تعالى فمتْ عن جميع أغياره، فإنك قبلَ أن تموتَ عنها لا تَحُمْ، ولا تَدُرْ حول هذا الحديث، فإنَّ الذكرَ لله تعالى كثير، ولكنَّ الطالبَ قليل.

أقول: يُمكنُ أن يُقال: الطالبُ أيضًا كثير، وأما الواصلوان قليلٌ، ولك أنْ تقولَ: الواصلُ أيضًا كثير، وأمّا الرجوعُ بعد الوصول فقليل جدًا، فكم سفينةٍ انكسرتْ في هذا البحر فغرقت، ولم يصل إلى الساحل منها عودٌ؛ بل خبر! ولذا قيل: من صارَ خبيرًا لا يُرى منه أثرٌ، ولا يُسمعُ عنه خبر. ومثل هذا كمثل الفراشة، فإنَّها قبلَ الوصول إلى النارِ لا خبرةَ لها عنها، وعند الوصول ليس لها سوى الاحتراق والانعدام، فمن أين لها الشعورُ والإدراك؟ والحالُ أنْ لا وجودَ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٨٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٧٢، ٢٧٣، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٧٩.

لها حينئذٍ، واعلمْ أن هذا يدلُّكَ على أنّه لا يُمكنُ الإخبارُ عن معرفةِ ذات الله تعالى، وإن ذهبَ إلى جوازها طائفةٌ من المتكلّمين، وذلك لأنَّ من لم يصل إليها معرفته، فلا يدري، ومن وصلَ إليها معرفته فلا يبقى، وهذه سرٌّ خفيٌّ على كثيرٍ من العقول، فعليك بالتأمُّلِ والقبول. [والله أعلم].

وقال: لا يمكنُك الوصولُ إلى المعرفة وأنتَ لك، وتحبُّ نفسَك؛ بل لا بدَّ من تحمّلِ ذلَّ النفس، والسعي في تحقيرها وتجويعها، وتحمّلِ الأذى من الناس؛ لتضمحلَّ أنيّتُكَ، وتنعدمَ وتستريح في سوق طلبِ نقد[1] المعرفة، رزقنا اللهُ تعالى شمّةً منها بنورِ قدسه، إنه كريم.

قال: لا تجوزُ الغفلةُ عمّن لا يغفل عنك لحظةً، فالغفلةُ عن الله تعالى من أعظمِ المصائب، وأصعب المنكرات.

وقال: أقربُ الطريق إلى الله تعالى تطهيرُ النفس، والخروجُ من الأنّية كما تخرجُ الحيّةُ من جلدها.

وقال رحمه الله: الفقرُ هو الغنى بالله.

وقال: التصوّفُ بالتلقين، كالبناء بالسِّرْقين[2].

أقول: مُرادُهُ أن التصوّفَ يجب أن يكونَ بالفعلِ لا بالقول. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الذكر نسيانُ ما سوى المذكور.

وقال رحمه الله: الإسلامُ هو الانقيادُ للحكم الأزلي.

وقال: الصدق وديعةُ الله تعالى بين الخلق، ولا نصيبَ فيه للنفس، لأنّه طريقٌ إلى الله، وقد حكم بأنه لا طريقَ لصاحب النفس إليه تعالى[3].

وقال: التصوُّفُ عزٌّ في ذلٍّ، وغنىً في فقرٍ، وحريةٌ في عبودية، وحياةٌ في

---

(١) في الأصل: سوق الطلب نقد.

(٢) السِّرْقين: السرجين: الزبل. معرب. معجم متن اللغة، والخبر في أسرار التوحيد ٣٣٦.

(٣) أسرار التوحيد ٣٢٦.

موت، وحلوٌ في مرٍّ، فمن دخلَ في هذا الطريق ولم يسلك ـ كما ذكرنا ـ تزدادُ حيرتُهُ كلَّ ساعةٍ(١).

وقال: المروءةُ احتمالُ زَلَلِ الإخوان.

وقال رحمه الله: لو تكلّمَ في بيان ماهية التصوف سبعُ مئة من المشايخ؛ التعريفُ الأحسنُ الأتمُّ ما قيل: هو استعمالُ الوقت فيما هو أولى به(٢).

وقال: لا يصل الفقيرُ إلى الله تعالى إلاّ بها، ولا طريق لأحدٍ إليه تعالى بالاستقلال منه.

وقال: الرجالُ صبروا في كلِّ ما يلقاهم من البليّات، حتى انهزم الصبرُ عنهم.

أقول: ونعمَ ما أنشدوا:

وليس الفتى من ضاق عن صدره الصبر(٣)

قال: ثم صاحوا خلف الصبر وقالوا: أين نهرب؟ قف لترى الصبر، ولكن لا وصولَ إلى هذا المقام إلا بسنين كثيرةٍ، وأقلُّها أربعون سنة.

قال: ونحن نقول هذا الكلام بالسماع، والتجربة تحصل بالسماع أيضًا.

وقال الشيخ لشابٍّ: كيف تعمل إن وقعتِ السماءُ على الأرض؟ قال: ما أدري. قال الشيخ رحمه الله: أنا أجرُّ رأسي في جيب فنائي ولا أتنفّس؛ إذ ما أنا بشيء، ولا أُبالي من هذا الوقوع.

وقال رحمه الله: لا تحدّثوا هذا الحديث إلاّ مع من شمَّ رائحته، واجتنبوا عليه أهلَ النفس.

وقال: لا يليقُ بهذ الحديث إلاّ ذو همَّةٍ عالية، إذِ الخسيسُ متعلّقٌ بشيءٍ دنيٍّ حقير؛ بل لا يليق به إلاّ من لا يكون للدنيا والآخرة وما بينهما عنده مقدار،

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٦.

(٢) أسرار التوحيد ٣٣٨.

(٣) تقدم البيت صفحة ٥٤٨.

حتى إن قيلَ له: احرقِ الكلَّ، فيسرع في الإحراقِ في الساعة، ويضرم النارَ[١] في جميع ما سوى الحقِّ عزَّ وعلا، ويحرقُ ما دونه ليبقى الحقُّ وحده.

وقال رحمه الله: لو عرف الخلقُ أنَّهم عن أيِّ شيء يتخلّفون لصارَ لهم عزاءً يجتمعُ عليهم الناس للتعزية، ولكن لا يعلمون؛ لاختفاء ذلك عليهم.

وقال رحمه الله: قد ضلَّ أكثرُ الناس، وأعرضوا عن الحقِّ، ونظرُهُم إنَّما إليهم أنفسهم، وصار الخلقُ عبادَ المخلوق، فواحدٌ يعبد إنسانًا، وآخر صنعةً، وآخر جاهًا، وآخر مكسبًا، وآخرُ هذه الدنيا، وآخرُ الآخرة، فأين من يعبدُ الله؟ لو علمنا أحدًا يعبدُ الله تعالى لذهبنا إليه مشيًا على الرأس، أو سبحًا على الوجه، ونلصقُ الوجهَ بتراب قدمه، فإن الأمراء غلّظوا رقابهم، والرؤساء رفعوا رؤوسهم، والعلماء صاروا مُعجبين بعلومهم وإدراكاتهم، واغترُّوا بطيالسهم، والزهادُ لا يتسعون في الدنيا، والعُبّاد لا يتكلّمون مع أحدٍ، والعارفون لا يعرفون أحدًا، وكلٌّ يقول أنا، وهذا عيبٌ عظيم، وشينٌ قبيحٌ فيهم، وهم غفولٌ عنه.

قيل في مجلسه: إنَّ فلانًا قد تابَ، ثم نقضَ التوبةَ. فقال رحمه الله: لو [لم] ينقضْهُ [الله] التوبةَ لما نقضها البتَّة[٢].

وقيل: ما التصوف قال رحمه الله: هو أن تحطَّ ما في رأسك، وتعطي ما في يدك.

قالوا: إذ نقومُ إلى الصلاة فأين نضعُ أيدينا؟ قال: على القلب، ووجّهوا القلبَ إلى الله تعالى[٣].

قيل له: متى ينجو العبدُ عن شرِّ رئاسته؟ قال: إذا أنجاه اللهُ، فإن ذلك بفضلِ الله تعالى لا بجهده.

---

(١) في الأصل: ويضرب النار.

(٢) أسرار التوحيد ٣٢٠، وما بين معقوفين مستدرك منه.

(٣) أسرار التوحيد ٣٢٣.

قيل له: كم الطرقُ إلى الله تعالى؟ فقال: بعدد كلِّ ذرّةٍ طريقٌ إلى الله تعالى، لكن ليس طريقٌ أجملَ وأحسنَ وأقربَ من إيصالِ راحةٍ إلى قلب مسلمٍ أو مسلمة. قال: ونحن سلكنا في هذا الطريق[1].

نقل أن فقيرًا قال له: يا شيخ، أين أطلبُ اللهَ تعالى؟ فقال: أين طلبتَ وجدت ما وجدت، فإنْ خطوتَ خطوةً بالصدق في طريق الطلب، ففي أيِّ شيء تنظرُ ترى الله تعالى فيه[2].

أقول: أي رؤيةً قلبية، وهي العلمُ والمعرفة، لا من شيءٍ إلاّ وفيه دلالةٌ على وجود الله تعالى ووحدانيته، وصفات الألوهية؛ ولكنَّ الضعفَ ليس إلاّ في الرائي وفي آلة الرؤية. [والله أعلم].

قيل له: ما الحكمة في أن الله تعالى أخفى بعض أوليائه وأظهر بعضًا؟ قال رحمه الله: أما الذي أحبَّه الحقُّ فيُخفيه، وأمّا الذي هو أحبَّ الحقَّ فيُظهرُه[3].

أقول: أمّا الأول: فلأنه تعالى غيورٌ لا يُريد أن يعرفَ أحدٌ محبوبه، ولا ينتقضُ هذا بالنبيِّ محمد عليه الصلاة والسلام، لأنّه بعثَهُ رحمةً للعالمين، فلأجل هذا أظهرَهُ ونشرَ ذكرَهُ في السموات والأرضين، وأشهرَ أمرَهُ في العالمين جميعًا.

وأمّا الثاني: فللدلالة على المحبّةِ له تعالى، ليكون ذلك تخجيلاً لمن غفل عنه، واشتغل بالدنيا الدنية، وحجةً له عليهم، وزجرًا وتغليظًا لئلا يكونَ للمحجوبين حجّةٌ على الله، ويقولون: لو لم يكن طريقٌ إلى محبّتك، إذ لم يكن سبيلٌ إلى معرفتك، لأنَّ المعرفةَ سابقةٌ على المحبة، لأنه تعالى يبكّتهم بكثرة المحبّين حينئذ. [والله أعلم].

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) أسرار التوحيد ٣٢٧.

(٣) أسرار التوحيد ٣٢٧.

قيل له: من الصوفي؟ قال رحمه الله: الصوفيُّ هو الذي ما فعل من الأفعال الظاهرة والباطنة المخفية يكون مرضيًا عنده[١].

وقال رحمه الله: معنى ما ورد عن النبيِّ عليه السلام: «تفكرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»[٢] يعني: تفكّرُ العبدِ في فنائه ساعةً، خيرٌ من تفكُّره في وجوده سنة[٣].

أقول: وذلك لأنَّ معرفةَ فنائه غير الحقّ يُفيدُ اعتقادَ التوحيد، ومعرفةُ وجود غير الحقِّ وإثباتُ الوجود لغيره يُوجب الإثنينية، ولا شكَّ أنَّ التوحيدَ خيرٌ من الإثنية، نعم يردُ على هذا التوجيه أنَّ التفكّر في الوجود سببٌ للاستدلال على وجود الصانع، بخلاف التفكّر في الانتفاء، إذ هو من الإعدام والعدم، لا يدلُّ على وجودِ الصانع لما تقرّرَ أنَّ العدمَ لا صانع له، ولكن يدفع ذلك بأنَّ الكلامَ في الانتفاء حال كونِ المتفكّر موجودُ الوجود ظلّيّ زائل، محتوش بعدمَيْنِ عدمٌ سابقٌ، وعدمٌ لاحق، فعلى هذا لا يفوت الاستدلال المذكور. [والله أعلم].

قيل له: ما العشق؟ فقال: العشقُ شبكةُ الحقِّ.

نقل أن جماعةً من الفسقة اشتغلوا بالفسقِ، وشربِ الخمر قريبًا من خانقاه الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وعلَتْ أصواتُهم، وتعارضت صياحُهم مع ما كان من المزامير وسائر آلات الملاهي، وحصل لذلك تشوّشٌ عظيمٌ في الشيخ وأصحابه، ولم يكن يتكلّمُ فيهم، حتى أنَّ أصحابَه بعدما انعدم اصطبارُهم،

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٧.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٤٢٣، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في كتابه «العظمة» من حديث أبي هريرة، بلفظ «ستين سنة» بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ١٤٤، ورواه الديلمي في مسند الفردوس ٢/ ٧٠، (٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ: «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جدًا، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ: ... خير من قيام ليلة اهـ. قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣١٠: ذكره الفاكهاني بلفظ: «فكر ساعة». وقال إنه من كلام سري السقطي.

(٣) أسرار التوحيد ٣٤٥.

قالوا للشيخ: ما هذا السكوت؟ فقال: سبحان الله، إنهم استغرقوا في الباطل إلى حدٍّ ليس لهم عنكم خبرٌ، ولا يُبالون بكم، فلمَ لا تستغرقون أنتم في الحقِّ حتى لا تسمعوا أباطيلهم؟ ثم اشتغل بنهي المنكر[١].

أقول: هذا يدلُّ على أنَّ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر إنَّما يجبُ على من يخالطُ الناس ويُعاشرهم، ويطَّلعُ على بعض أفعالهم، وهذا لا يُمكن إلاّ لمن يكون في مقامِ الصحو، وأمّا من يكون مُستغرقًا في بحرِ المحبّةِ سكرانَ من شرابِ المودَّةِ، أو مضمحلاً عند إشراق نور الجمالِ وبروقِ الجلال، فلا تبقى له مُخالطةٌ مع الناس، ولا معاشرةٌ معهم، فمن أين له الاشتغالُ بالأمر والنهي، بل ليس له نظرٌ إلى ما سوى المحبوب، أو ليس له النظرُ أيضًا، وأمّا مقام النبوّةِ، فلمّا كان مقامُ النبوّة لتكميل الناقصين المستعدّين لقبول الفيضِ المكمّلِ لهم، ولذا صار النبيُّ عليه السلام كاملاً في نفسِه، مُكمِّلاً لغيره، وكان له جهتان: جهةُ التجرُّد للاستفاضة من المبدأ الفياض، وجهة التعلّق لإفاضة بعض ما أُفيض عليه على ما دونه بقدر قابلياتهم، فلو كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام دائمَ الاستغراق، مستمرَّ السُّكر لتعطَّلَ المقصودُ من إرساله، وقد ظهرَ ممّا ذكرنا أنَّ النبوةَ أشرفُ من الولاية، لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة السلام ينبغي أن يكونَ كاملاً في نفسه، مُكمِّلاً لغيره، وأمّا الوليُّ غيرُ النبيِّ، فيجبُ أن يكونَ واصلاً إلى ما قُدِّرَ له من مراتبِ الكمال، ولكنْ لا يلزم تكميلِ الغير، ولذا نهايةُ الولايةِ بداية النبوة[٢]. [والله أعلم].

نقل أن أبا طاهر ابن الشيخ رحمهما الله تعالى لم يكنْ له هوسٌ إلى الكتّاب في زمان الصِّبا، فقال له الشيخُ في بعض الأيام: مَنْ يخبرني بقدوم الأضياف المسافرين فله عليَّ ما يُريد. فكان أبو طاهر يومًا على السطح، إذ رأى جماعةً من المُسافرين قادمين، فأتى الشيخَ، وأخبره بقدومهم، فقال الشيخ: ما تُريد؟ قال أبو طاهر: إرادتي أن لا أَمشي إلى الكتّاب غدًا. قال الشيخ: لا تمشي.

(١) أسرار التوحيد ٢٤٨.
(٢) انظر الحاشية (٢) صفحة ٨.

فقال أبو طاهر: ولا في هذا الأسبوع. قال الشيخ: ولا في هذا الأسبوع. فقال أبو طاهر: ولا في هذا الشهر. قال الشيخ: ولا في هذا الشهر. قال أبو طاهر: ولا أمشي إلى الكتّاب أبدًا. فقال الشيخ رحمه الله: لا تمشي إلى الكتّاب أبدًا، ولكن احفظْ سورةَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١] لتقرأها من طرف اللسان، فطاب أبو طاهر قلبًا، وحفظ سورة ﴿إنَّا فتحنا﴾ ثم توفّي الشيخُ رحمه الله بعد مدّةٍ، ومضى على موته زمانٌ كثيرةٌ.

فاتفق أن اجتمعَ على أبي طاهر دَينٌ كثير، فقصدَ نظامَ الملك(١) في مدينة أصفهان، وذهب إليه، ونظامُ الملك كان مُعتقدًا للشيخ أبي سعيد رحمه الله غايةَ الاعتقاد، فأعزَّ أبا طاهر، وأكرمه على ما يكون من الإعزاز والإكرام، والحالُ أنّه كان عنده حينئذٍ علويٌّ جاء إليه قاصدًا من غَزْنين، وكان مُنكرًا للصوفية، فشرعَ يذمُّ نظامَ الملك(٢)، ويلومُهُ في محبّته لهم، وإنفاقه عليهم، وقال: لِمَ تصرفُ أموالَك على طائفةٍ لا يعلمون أركانَ الوضوء وشرائط الصلاة، ولا خبر لهم عن العلوم الشرعية؟ فقال نظام الملك: لا تقلْ هكذا، فإنهم خيرُ الطوائف، لا يزالون مشغولين بالعبادات والطاعات، وأثنى عليهم ومدحهم، وأظهر فيهم اعتقادَهُ، فقال العلويُّ: أشرفُ الصوفية اليومَ في ديارنا إنّما هو أبو طاهر بالاتفاق، حتى أنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله قال في حقّه: إنه القطبُ، وهو غير قارئٍ للقرآن. فأنكر عليه نظامُ الملك، وقال: بل هو قارئٌ، والحال أنَّ العلويَّ كان يعلمُ أنه غيرُ قارئٍ، ونظامُ الملك لم يكن خبيرًا بذلك، فاتفقا على أن يطلبوه ويمتحنوه بقراءةِ القرآن، فلمّا حضرَ أشارَ

---

(١) هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي أبو علي، الملقب بقوام الدين نظام الملك (٤٠٨-٤٨٥) وزير عالي الهمة، تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير، وكان من حسنات الدهر، قال ابن عقيل: كانت أيامه دولة أهل العلم. اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند.

(٢) في الأصل: غزنين، وكان منكرًا الصوفية، فشرع يذم، وكان منكرًا الصوفية ويذم نظام الملك.

نظامُ الملك إلى العلويِّ ليختارَ سورةً من القرآن، ليقرأها أبو طاهر، وهو لم يدرِ أنّهم لماذا طلبوه، فاختار العلوي سورةَ ﴿إنا فتحنا﴾ فتنبَّهَ أبو طاهر بأنّه امتحانٌ في قراءة ﴿إنا فتحنا﴾ وقرأها من الأول إلى الآخر، وكان يبكي في أثناء القراءة ويتضرّعُ، فلمّا أتمَّ القراءة انفعل العلويُّ، وخجل وانكسر في نفسه، وقام من الانفعال، وخرج من المجلس، وفرح نظامُ الملك، ثم سأل أبا طاهر عن بُكائه، فقال أبو طاهر: اعلمْ أيُّها الملك، أنّي غيرُ قارئٍ، وقصَّ له القصّةَ، وحكى له ما جرى في حفظِهِ لسورة ﴿إنا فتحنا﴾ من أوّله إلى آخره، وقال: كيف تقول لشخصٍ ألهمه اللهُ تعالى قبل سبعين سنةً بأنَّ شخصًا من المُنكرين، يطعنون في ولده، ويعترض عليه بأنّه لا يُحسن قراءةَ القرآن من اللِّسان، واحتاطَ له في ذلك اليوم، وأمره بحفظِ السورة لدفعِ اعتراضِ المُعاندين، فازدادَ اعتقادُ نظامِ الملك في الصوفية، ولا سيّما في أبي سعيد وأولاده وأتباعه[1].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله حين كان مَشغولاً بالرياضة والمجاهدة، كان يغيبُ عن أهله شهرًا أو شهرين، ولم يكن أحدٌ يطّلعُ على أحواله، وكان ابنُهُ أبو طاهر صبيًّا، وكان يحبُّ الشيخَ محبّةً قوية، بحيث لم يكنْ يصبرُ عنه، فعند غيبة الشيخ كان يضربُ ويتقلقل، ويدورُ عليه، فوجدهَ نوبةً في خانٍ خراب، قد دخل مَخزنًا، وأغلق عليه الباب، فدقَّ الباب، ففتح الشيخُ، وأبصره غرقًا في العرق، إذ كان في أيام الصيف، وقال له: لِمَ أتيتَ؟ قال أبو طاهر: لأني ما أطيق. فقال الشيخ: إذن تكون معي في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة. وأخذه في حجره، وطيّبَ قلبَه، ثم لمّا مات أبو طاهر رحمه الله بعد وفاة أبيه، وأراد أهلُه أن يدفنوه في بعض مقابر المسلمين بعيدًا عن الشيخ، وهو غافلٌ عن وعده الذي جرى بينه وبين أبي طاهر في طفولته، وحملوا جنازته، أنزل الله تعالى مطرًا عظيمًا، ومنعهم عن الذهاب بها إلى المدفن، فتوقّفوا إلى أن يسكنَ المطر، وكان يزدادُ كلَّ ساعةٍ، ودامَ إلى ثلاثة أيام، فكلّما

---

(١) أسرار التوحيد ٤١٦.

كان المطرُ يقلُّ، وأرادوا أن يحملوا الجنازة أيضًا، يعودُ المطرُ ويؤذيهم، فتذكَّرَ واحدٌ من خواصِّ المُريدين ما قاله الشيخ: إنه يكون معه في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، وأخبرهم بالقصَّة، فكلٌّ من سمع هذا المقال من الشيخِ تذكَّرَهُ، وأجمعوا على أن يدفنوه في جوار الشيخِ في القبة التي بنوها عليه، وعلموا أنَّ إنزالَ المطرِ ما كان إلاّ لأجلِ كرامة الشيخ، وتصديقِ وعده، فأمروا بحفر قبرٍ في القبة، في جنب قبر الشيخ، فانفتحت ثلمةٌ في قبر الشيخ رحمه الله، ونظر إليه الحفار، ولا جرَّ شيئًا لا يعلمه إلاّ الله تعالى، فسدّ الثّلمةَ بمدرةٍ، فصاح، وغاب عنه عقله، حتى حملوه إلى بيته على الأكتاف، ولم يتكلّمَ إلى أربعين، ولا فتح عينيه إلى أن ماتَ بعد الأربعين. ونُقل أنَّهم لما دفنوا أبا طاهر، انقطعَ المطر، وطاب الدنيا(١).

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله لما دنَتْ وفاتُهُ، جمع الأصحاب وودَّعهم، وقال: عشتُ ألف شهر، والألفُ عددٌ كامل، ولا بدَّ من النقصان. ثم إنَّ جماعةً من الجنِّ قد استأنسوا بنا وبكلماتنا، بعضُهم يسكنون نيسابور وبعضهم بقريتنا(٢) هذه، فإن سمعتم صياحًا وبكاءً ومن دون أن تروا شخصًا، فاعلموا أنهم حضروا، والدمعُ كان يجري على خديه، ثم وصّاهم بوصيتهم، ثم نزل من يَطقِهِ(٣)، وركب فرسًا، ودارَ في جميع المواضع التي عبدَ اللهَ تعالى فيها، وودّعها باكيًا، ثم رجع إلى البيت، وصحّ بعض الأيام، ثم توفّي إلى رحمة الله، فسمعوا صوتَ البكاء وصياحًا كثيرةً ونياحةً، ولم يروا شخصًا، حتى أن أهل المَيْهَنَة كلّهم سمعوا ذلك، فعلموا أنَّهم الجنّ الذين أخبرهم الشيخ، ثم لمّا حملوا جنازةَ الشيخ توقَّفتْ في الهواء بين وقتِ طلوع الشمس إلى الضُّحى، فعلموا أن الجنَّ أوقفوها، ويمنعون عن الذهاب بها، فصبروا إلى أن قَضوا وطرَهُم، ثم ذهبوا بها إلى المدفن، ودفنوها. رحمه الله.

---

(١) أسرار التوحيد ٤١٩، ٤٢٠.

(٢) كذا في الأصل، وتقرأ: وبعضهم نفوسنا.

(٣) اليطق: كيس محشو بالتبن أو غيره، يستخدم بصفة فراش. موسوعة العامية السورية.

ونقل أنه كان للشيخ فرسٌ جموح، ما كان يلينُ لأحدٍ، ولا يخفض ظهرَهُ إلاّ للشيخ رحمه الله، فقطع المقود، وكان يدورها[١] تاركًا الأكل والشرب، والدموعُ تجري من عينيه هكذا إلى سبعةِ أيام حتى ضعف، وأشرفَ على الموت، فذبحوه وطبخوا لحمه، وأكله الفقراءُ تبرُّكًا به[٢].

ونقل أنَّ الشيخ رحمه الله لمّا توفّي أرسلَ الأستاذ أبو القاسم الثعلبي، وقال: إن تحرسني مثلَ ما كان يحرسُنا الشيخُ أبو سعيد[٣] رحمه الله، فإنّي أُلازمُكَ وأواظبُ مجلسَكَ، وإلاّ فلا. فسئل عن ذلك، قال: كان يوم عاشوراء أعطاني الشيخ رحمه الله طبقًا من الحلواء، وخمسةَ أرطال خبزٍ، وركوةَ ماء، وأمرني أن أحملَها وأُوصلها إلى عجوزةٍ فقيرة في نيسابور، فحملتُ الخبزَ على كتفي، وأخذتُ الطبقَ بإحدى يدي، والركوةَ بالأخرى، ولم يكن عليَّ قميصٌ، بل كنتُ مؤتزرًا بإزار، فوصلتُ في الطريق إلى موضع كان وحلاً شديدًا، فارتخى شدُّ الإزار، ولم يبق مجالُ الرجوع، ولا كان هناك موضعٌ على الأرض أضعُ ما كان بيدي، فتحيَّرتُ في شأني، إذ كنتُ بين ازدحام الناس، وأفزعُ من انكشاف العورة، فرأيت يدينِ بلا أن أرى شخصًا، وشدَّتا عقدَ الإزار، فمضيتُ وأوصلتُ الهديةَ ورجعت، فلمّا رآني الشيخ قال: لِمَ لا تحتاطُ في شدِّ الإزار؛ لئلا تحتاج إلى أن أجيءَ إليك في السوق لعقدِ إزارك؟ فسمع الأستاذ هذا الكلام، فذهب إلى أبي القاسم، واعتذرَ مما قال[٤].

نقل أن رجلاً من الصوفية رأى الشيخَ رحمه الله في المنام، وقال: كنتَ تحبُّ السماعَ، والآن كيفَ تعملُ بلا سماع؟ فقال الشيخ بالفارسية:

آن الجهوري موصلي وصوت أرغنون آواز آن نگـار مـرا بـي نِيـاز كَـرْدْ

---

(١) أي كان يدور في القرية.

(٢) أسرار التوحيد ٤١١.

(٣) كذا في الأصل، والمستفاد من كتاب أسرار التوحيد ٤١٣ هو: أرسل الأستاذ أبو القاسم إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري ـ الذي طلبَ منه أن يعود إليه تلميذًا ـ وقال له: إن تحرسنا.

(٤) أسرار التوحيد ٤١٢، ٤١٥.

أقول: معناه: إنَّ حديثَ ذاك الحبيبِ قد أغناني عن ألحان الموصلي وصوت الأرغنون[١]. [والله أعلم].

نقل عن الشيخ عليٍّ السنجاري رحمه الله أنه قال: رأيتُ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله في المنام قاعدًا على سريرٍ، قلتُ: يا شيخ، ما فعلَ اللهُ بك؟ فضحك وحرَّكَ رأسه ثلاث مرات، وقال هذا البيت العجمي:

گوي درميد آن فكند وخصم را جوكان نيستمي بُرد زين سُوَيَدْ به آن سُوَيَد مراد خوش‌گوي

أقول: معناه أنّه رمى الأكرة في الميدان، وانكسرت بجسم جاجوفته، فتدفع الأكرة من هو رآني ذاك على مراده، وكأنه يريد بالجاجوفة الاختيار، أي ليس لي اختيار، وأنا في قبضة تصرفه يتصرف فيَّ كيفَ يُريد. [والله أعلم].

نقل أن الأستاذ أبا القاسم ذهب إلى المَيْهَنَة لأجل زيارة الشيخ، وقال وهو من أهل نيسابور: نحن من أهل العلم وما أنصفنا معه، وقد ندمتُ ورجعت عمّا قلتُ فيه، أو فعلت معه.

ونقل أن الشيخَ رحمه الله أبا سهل[٢] الصعلوكي ـ وهو أحدُ الأئمة الشافعية رحمه الله ـ أنه قال: رأيتُ الشيخ أبا سعيد رحمه الله في المنام، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: كان الأمرُ أسهلَ ممّا ظننّا.

ورآه فقيرٌ في المنام بعد مدّةٍ من وفاته، فقال له الشيخ: أنتم تأكلون خبزَ الفقراء، ولا تعملون بأعمالهم[٣].

أسألُ اللهَ الكريم الوهاب، الحكيمَ التوّاب، الحليمَ الرحمنِ الرحيم، ذا الملك الباذخ، والسلطان الشامخ، الذي له العزَّةُ والقدرةُ، والكبرياء والجبروتُ، والخلقُ والأمرُ، والغيب والشهادة، والملكُ والملكوت أن يفيضَ

---

(١) أسرار التوحيد ٤٣٠.

(٢) الأصل: أبي سهل.

(٣) أسرار التوحيد ٤٢١، وفيه: كلوا خبز الدراويش ولا تعملوا عملهم.

على روح الشيخ أبي سعيد وعلى أرواح جميع الأولياء والصالحين، والشهداءِ والصدّيقين شآبيبَ لُطفه وإحسانه، وسجالَ رحمته ورضوانه، ويرزقنا ببركتهم شمّةً من محبته، ونبذةً من معرفته، ويذيقنا بقربهم إليه حلاوةً في طاعته، ولذّةَ المُشاهدة إلى وجه الكريم، بعد أن ينقلنا من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة، ويجنّبنا من مُتابعة الهوى، وموافقةِ النفس والشيطان، وحسبنا اللهُ ونعم الوكيل، والحمدُ لله وحده، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله أجمعين.

* * *



[خاتمة الكتاب]

تمَّ الكتاب بعون الله تعالى وحُسْنِ توفيقه، على يد العبد الفقير إلى الله الغنيِّ الجليل محمود بن المرحوم الشيخ إسماعيل بن المرحوم الشيخ إبراهيم رحمهم الله رحمة واسعة في شهر ذي الحجة الحرام، من شهور سنة تسعٍ وستين وثمان مئة والمرجو من الذين إذا قرؤوا هذا الكتاب من كرمهم أنْ يذكروا الداعي الكاتب وأجدادَه وآبائه من الدعاء وإلى . . . .[1].

وسعى من بالخير يومًا قد دعاه

* * *



(١) كلمة مطموسة لم أتبيَّنها.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ملحق (١)

بتراجم رجال

مثبتة في المطبوع الفارسي

ترجمها الأستاذ

يوسف الهادي

أبو أزهر البغدادي

١٩٤٧ - ....

(٩٣) محمد بن الفضل[١]

ذكر محمد بن الفضل قدّس اللهُ روحه العزيز:

المتمكّنُ بالكرامات والحقائق، المتعيّن بالإشارات والدقائق؛ المقبول لدى الطوائف، المخصوص باللطائف؛ في فردوس العشق والعقل، أبو عبد الله محمد بن الفضل رحمة الله عليه.

كان من كبار مشايخ خراسان، والممدوح من الجميع، ولم يكن له مثيلٌ في الرياضات وتحمُّل المشاق، وكان بلا نظيرٍ في الفتوّةِ والمروءة.

وهو من مُريدي أحمد بن خضرويه، وكان قد رأى الترمذي.

وكان أبو عثمان الحيري يودُّهُ كثيرًا حتى أنه كتب إليه مرّةً رسالةً يسأله فيها عن علامة الشقاوة، فأجاب: ثلاث علامات: إحداها أن يرزقه اللهُ العلمَ ويحرمه العمل؛ ثانيها أن يمنحَهُ العلمَ ويحرمه الإخلاص؛ وثالثها أن يرزقه صحبة الصالحين ويحرمه إظهار الاحترام لهم.

قال أبو عثمان الحيري: محمد بن الفضل ينقد الرجال[٢].

---

(١) هو محمد بن الفضل البلخي أبو عبد الله، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٢١٢، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢، الرسالة القشيرية ٧٨، صفة الصفوة ٤/ ١٦٥، المنتظم ٦/ ٢٣٩، مناقب الأبرار ١٢١، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٢٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٢٣، العبر ٢/ ١٧٦، مرآة الجنان ٢/ ٢٧٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١١/ ١٦٧، طبقات الأولياء ٣٠٠، نفحات الأنس ١٧٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣١، طبقات الشعراني ١/ ٢٨٨، الكواكب الدرية ٢/ ١٤٩، شذرات الذهب ٢/ ٢٨٢.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٥٦) بين ترجمتي أبي محمد المرتعش وأبي الحسن البوشنجي.

(٢) في الرسالة القشيرية ٧٨: محمد بن الفضل سِمْسَار الرجال.

وقال أبو عثمان الحيري على جلالة قدره: لو أن لي قوةً لذهبتُ لأجلس في كنف محمد بن الفضل ليصفو سرّي برؤيته.

وقد رأى الكثير من الجفاء من أهل بلخ، حتى أخرجوه منها، فدعا عليهم بقوله: يا ربّ، اسلبهم الصدق.

وروي أنه سئل: بماذا تحصلُ سلامة الصدور؟ فقال: بالوقوف على الحقِّ اليقين[١]، وهي حياةٌ يمنحُ بعدها علم اليقين، ليطالع عينَ اليقين بعلم اليقين، لينال السلامة. وما لم تكن عينُ اليقين لم يكن علم اليقين. فما لم يرَ أحدٌ الكعبةَ لم يكن ليتيقَّنها أبدًا. إذن فقد عُلِمَ أن علمَ اليقين يُصبح مُمكنًا بعد عين اليقين، فذلك هو العلم الذي كان قبل عين اليقين، وإنَّما يتحقَّقُ ذلك بالهمَّةِ، وإنَّما جاء الاجتهادُ من أنّه يُصيبُ مرّةً ويُخطىء أُخرى. ولمّا ظهرَ علمُ اليقين أمكن به مطالعة أسرار وحقائق علم اليقين، ومثاله هو أن شخصًا سقط في بئرٍ، وظلَّ حتى كبر فيها، وفجأةً أُخرج منها، فيتحيَّرَ في الشمس، ويظلُّ مدَّةً ساكنًا حتى يعتادَ رؤيتها. فإلى أن يتحقَّقَ علمُهُ بالشمس يستطيع بذلك العلم مطالعة أسرار الشمس.

وقال: عجبتُ لمن يذهب بهواه إلى بيته تعالى ويزوره، ترى لماذا لا يدوسُ على هواه حتى يبلغه ويراه عزّ وجلّ؟

وقال: إنَّ الصُّوفي هو من يكون صافيًا من جميع البلايا، وغائبًا عن جميع العطايا.

وقال: الراحةُ في الإخلاص من أماني النفس[٢].

وقال: إنَّ المُريدَ إذا نظر إلى الدنيا من زاوية الخاطر، فلا تُشغلنَّ بالَكَ في أمره، فقد أصبح مدبرَ الطريقة.

وقال: الإسلام يُفارقُ الإنسان لأربعةِ أمورٍ: أحدها أن لا يعمل بما يعلم،

---

(١) انظر صفحة ٥٥٠.

(٢) في الرسالة القشيرية ٧٨: الراحةُ في السّجن من أماني النفس. اهـ. والسجن هو الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن».

وثانيها أن يعمل بما لا يعلم، وثالثها أن لا يبحث عمّا لا يعلم، ورابعها أن يمنع الناسَ من التعلّم.

وقال: العلم ثلاثةُ أحرفٍ: عينٌ ولام وميم، فالعين علم، واللام عمل، والميم مخلصُ الحقِّ في العمل والعلم.

وقال: أكبرُ أهلِ المعرفة أكثرُهم اجتهادًا في أداء الشريعة، وأشدُّهم رغبةً في حفظِ السنة والمداومة.

وقال: المحبّةُ إيثارٌ، وهي أربعة معانٍ: الأول دوام الذكر في القلب والسرور بذلك. الثاني الأنس الشديدُ بذكر الحقِّ. الثالث قطع الانشغال، والانقطاع عن كلِّ قاطعٍ. الرابع تفضيلُ الحقِّ على الذات وعلى كلِّ ما سواه، كما قال الحقُّ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ..﴾ الآية [التوبة: ٢٤]. وإنّ صفة مُحبّي الحقِّ هي أنَّ محبَّتهم كانت تعني الإيثار. وعقب ذلك تذهب معاملتهم إلى أربعة منازل: أولاها المحبة، وثانيها الهيبة، وثالثها الحياء، ورابعها التعظيم.

وقال: إيثارُ الزاهدين يكونُ في وقت انعدام الحاجة، وإيثار الفُتيان يكون وقت الحاجة[١].

وقال: الزهد في الدنيا هو في الترك، فإن لم تستطع فبالإيثار، وإن لم تستطع فستعيش ذليلاً.

* * *

(١) الرسالة القشيرية ٢٠٣ (الزهد): إيثار الزاهدين عند الاستغناء، وإيثار الفتيان عن الحاجة.

(٩٤) أبو الحسن البُوشَنْجي[١]

ذكر أبي الحسن البُوشَنْجي قدَّسَ الله روحه العزيز:

الصادقُ في العمل، ومن نشأ على الإخلاص، المُوحِّدُ الذائبُ في التوحيد، الشيخ أبو الحسن البوشنجي رحمة الله عليه.

كان من فتيان خراسان، وأكثر أهل زمانه هيبةً، وأكثرهم علمًا في علم الطريقة، وكان له قدمٌ راسخة في التجريد.

وقد رأى أبا عثمان، وابن عطاء، والجريري، وأبا عمرو.

وترك بوشنج لسنواتٍ عاش خلالها في العراق. ولما عاد اتُّهِمَ بالزندقة، فذهب من هناك إلى نيسابور، وأمضى فيها عمرًا حتى ذاع صيتُهُ إلى الحدِّ الذي أضاع معه قرويٌّ يومًا حمارَهُ، فسأل: من الأتقى في نيسابور؟ فقيل له: أبو الحسن البُوشَنْجي. فذهب إليه، وأمسك بتلابيبه صارخًا: أنت أخذتَ حماري. فدهش وقال: أيُّها الرجل، لقد أخطأت، فأنا لم أركَ قبل الآن. فقال: لا، أنت أخذت حماري. فتحيَّرَ البوشنجي، ورفع يديه إلى السماء وقال: إلهي، اعتقني منه. وفي الحال نادى أحدُهم: اتركه، لقد وجدنا

---

(١) هو علي بن أحمد بن سهل البوشنجي أبو الحسن:

طبقات الصوفية ٤٥٨، حلية الأولياء ١٠/٣٧٩، الرسالة القشيرية ١١١، المنتظم ٦/٣٩١، مناقب الأبرار ٨١٦، المختار من مناقب الأخيار ٤/٢٤، مختصر تاريخ دمشق ١٧/١٧٨، طبقات الشافعية للسبكي ٣/٣٤٤، طبقات الأولياء ٢٥٢، النجوم الزاهرة ٣/٣٢٠، نفحات الأنس ٣٢٩، طبقات الشعراني ١/١٢٠، الكواكب الدرية ٢/٣١، و٤/٤٥٤.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٥٧) بين ترجمتي محمد بن الفضل ومحمد بن علي الترمذي.

حمارك. ثم إن القروي قال: أيها الشيخ، أنا علمت أنك لم ترَ الحمار، لكنني لم أجد لنفسي مكانةً لدى الحضرة الإلهية، فقلت لعلَّكَ تدعو فيتحقَّق مرادي.

ورُوي أنه كان مارًّا في الطريق يومًا، فظهر تركيٌّ فجأة، وضرب الشيخ على قفاه وذهب، فلامه الناس على فعلته، وقالوا: إنَّ هذا هو الشيخ أبو الحسن، وهو رجلٌ جليل القدر. فندم التركيُّ، وعاد إلى الشيخ مُعتذرًا منه. فقال الشيخ: ليطمئنَّ خاطرُك، فنحن لم نرَ ذلك منك. فغادر التركي، ولم يرتكب سيئةً بعدها.

ورُوي أنه كان في المتوضَّأ، فخطر بباله أنّه ينبغي أن يُعطي هذا الثوبَ للفقير الفلاني، فنادى الخادمَ وقال: اخلع ثوبي هذا، وأعطه للفقير الفلاني. فقال الخادم: أيها الشيخ، اصبرْ حتى تخرجَ. فقال: أخشى أن يقطعَ الشيطانُ الطريقَ عليَّ، فتبرد حرارةُ هذه الفكرة في قلبي.

ورُوي أن أحدَهم سأله: كيف حالُكَ؟ فقال: لقد تسوَّسَتْ أسناني لكثرةِ ما أكلت من نعمة الحقِّ تعالى، وتعب لساني من كثرة الشكوى.

وقد سُئل: ما المروءة؟ فقال: كفُّ اليد عمّا حُرِّم عليك، لتتحقَّق المروءة التي كأنك فعلتها مع الكرام الكاتبين.

وسُئل: ما التصوف؟ فقال: التصوف اسمٌ وحقيقة ظهرت، وقبل هذا كان حقيقةً بلا اسم.

وسُئل عن التصوف، فقال: قصرُ الأمل، والمداومةُ على العمل.

وسئل عن الفتوة، فقال: مراعاة الإحسان، والدوام على الموافقة، وعدم رؤية ظاهر نفسك بشيءٍ يتعارضُ وباطنك.

وقال: التوحيد هو أن تعلمَ أنَّه لا يُشبه أيَّ ذات.

وقال: الإخلاص هو ما لا يستطيع الكرامُ الكاتبون كتابتَهُ، ولا يستطيع الشيطان تضييعه، ولا يتمكَّنُ الإنسانُ من الاطلاع عليه.

وقال: إنَّ أوّلَ الإيمان مُتَّصلٌ بآخره.

وسُئل: ما الإيمان والتوكُّل؟ قال: أن تأكلَ الخبزَ ممَّا يليك، وأن تأكلَ اليسيرَ براحةِ بالٍ، وتعلم أنَّ ما هو لَكَ لن يفوتك.

وقال: من تواضع رفعَهُ الله، وكلُّ من تكبَّرَ أذلَّهُ الله.

وروي أن أحدًا طلب إليه أن يدعو له، فقال: عصمكَ الله من فتنتك.

وقيل: إنَّ فقيرًا كان يذهب إلى قبر البوشنجي، ويطلب الدنيا من الله تعالى. وفي ليلةٍ رأى أبا الحسن في المنام يقول له: أيُّها الفقير، حين تأتي إلى قبري لا تطلبْ نعمةَ الدنيا؛ فإنْ كنتَ تريدها فاذهبْ إلى مقابر مشايخ الدنيا، وعندما تأتي إليَّ اطلبْ قطعَ رجائك من الكون.

* * *



(٩٥) الحسين بن منصور الحلاَّج(١)

ذكر الحسين بن منصور الحلاَّج قدّس الله روحه العزيز:

قتيل الله في سبيل الله، أسدُ غابةِ التحقيق، الشجاعُ المقدام الصدّيق، الغارقُ في البحر الموّاج، الحسين بن منصور الحلاّج، رحمة الله عليه.

كان أمرُهُ عجبًا، وكانت الوقائع الغريبة الخاصَّة به في غاية اللَّوعة والشوق، وكان لشدَّةِ اللهب والفراق سكران لا يقرُّ له قرار.

وكان ثائرَ عصره، والعاشقَ الصادق والطاهر.

وكان عظيم الجدِّ والاجتهاد، ذا رياضات وكرامات عجيبة.

وكان عالي الهمَّةِ رفيعَ القدرِ.

---

(١) طبقات الصوفية ٣٠٧، تجارب الأمم ١/ ٧٦ حوادث سنة (٣٠٩)، الفهرست ٣٦٩ (الفن الخامس من المقالة الخامسة)، تاريخ بغداد ٨/ ١١٢، الأنساب ٤/ ٢٧٨، المنتظم ٦/ ١٦٠، مناقب الأبرار ٦٩٦، الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢١٦، وفيات الأعيان ٢/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣، العبر ٢/ ١٣٨، ميزان الاعتدال ١/ ٥٤٨، دول الإسلام ١/ ١٨٧، الوافي بالوفيات ١٣/ ٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٥٣، البداية والنهاية ١١/ ١٣٢، طبقات الأولياء ١٨٧، لسان الميزان ٢/ ٣١٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٢، ٢٠٢، ٢٠٣، نفحات الأنس ٢٢٥، طبقات الشعراني ١/ ١٠٧، الكواكب الدرية ٢/ ٦٨، شذرات الذهب ٢/ ٢٥٣، وانظر تراث الحلاج (أخباره ديوانه طواسينه) إعداد وتحقيق د. عبد الإله نبهان، ود. عبد اللطيف الراوي. دار الذاكرة. حمص ١٩٩٦.

واختلف في سبب نسبته، فقيل: لأنه حلج قطن الدكان، وقيل: كان يتكلّم على أسرار الناس، وما في قلوبهم ويخبر عنها، فسُمّي بذلك حلاجَ الأسرار، وقيل: بل إن أباه كان حلاجًا فنُسب إليه. انظر الأنساب ٤/ ٢٧٩، والمختار ٢/ ٢١٦.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٧٢) بين ترجمتي أبي محمد الجريري وإبراهيم الخواص. وانظر صفحة (٨٦٥).

وله تصانيفُ كثيرةٌ بألفاظ مُزينةٍ بحقائقَ وأسرارٍ ومعاني الحبِّ الكامل(١).

وكان له من الفصاحة والبلاغة ما لم يكن لدى سواه، ويتمتَّعُ بدقَّةِ النظر والفِراسة ممّا لا يوجد عند أحدٍ آنذاك.

وكان أغلب المشايخ الكبار لا يعبؤون بنهجه، وقالوا: إنّه لا قدمَ له في التصوف، سوى أبي عبد الله بن خفيف، والشبلي، وأبي القاسم القُشيري، وجمعِ المتأخّرين إلاّ ما شاء الله الذين قبلوه.

وكان أبو سعيد بن أبي الخير قدّسَ الله روحَه العزيز، والشيخ أبو القاسم الجرجاني، والشيخ أبو علي الفارمذي، والإمام يوسف الهمذاني رحمة الله عليهم أجمعين يسيرون على خطاه، بينما يتوقَّفُ آخرون في نهجه.

وقد قال الأستاذ أبو القاسم القُشيري بحقِّه: إنْ كان مقبولاً فلن يُرفض بردِّ الخلق، وإنْ كان مرفوضًا فلن يُقبلَ بقبول الخلق.

ونسبه آخرون إلى السحر، ونسبه بعضُ أصحاب الظاهر إلى الكفر، بينما قال البعض: إنه من أصحاب الحلول، وقال البعضُ الآخر: إنَّه كان يعتقد الاتحاد. ولكن كلُّ من اعتقد ـ ولو قليلاً ـ بالتوحيد فلن يكونَ بمقدوره إطلاقًا أن يتخيَّلَ الحلولَ والاتحاد. وكلُّ من زعم ذلك فإنَّ سريرته مجرَّدةٌ من التوحيد. وشرحُ ذلك يطول ممّا لا مُتَّسعَ لذكره في هذا الكتاب.

وكان جمعٌ من الزنادقة في بغداد دعوا أنفسَهم حلاَّجيِّين، سواءً بقولهم بوهم الحلول أم بغلط الاتحاد، وانتسبوا إليه، ولم يفهموا كلامه، وافتخروا بذلك القتل والحرق تقليدًا صرفًا، حين حدث في بلخ لاثنين ما حدث للحسين الحلاج؛ لكنَّ التقليدَ في هذه الواقعة ليس شرطًا. وإنّي لأعجب ممّن يرضى بأن يخرجَ من شجرة (أنا الله) لماذا لا يرضى بشجرةٍ نابتةٍ في «لا» التي تصدر عن حسين (أنا الحقُّ). والحسين في وسط (لا). وكما قال الحقُّ تعالى عن

(١) أورد ابن النديم في الفهرست ٢٤٢ـ ٢٤٣ جملة من أسماء كتبه، كما ذكر صاحب هدية العارفين ١/ ٣٠٤ جملة من أسماء تآليفه أيضًا.

لسان عمر: «إن الحقَّ لينطق على لسان عمر»[١]، وهنا لا وجود للحلول ولا للاتحاد.

يقول البعضُ: إنَّ الحُسينَ بن منصور هو حلاَّجٌ آخر، والحسين بن منصور ملحدٌ آخر، كان أستاذًا لمحمد بن زكريا الرازي، ورفيقًا لأبي سعيد القرمطي. وكان الحسينُ ذاك ساحرًا، أمّا الحسين بن منصور فقد كان من قرية البيضاء بفارس[٢]، وتربّى في واسط.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الحسين بن منصور عالمٌ رباني.

وقال الشبلي: أنا والحلاج شيءٌ واحدٌ؛ لكنّني اتُّهمت بالجنون فنجوت، والحسين قتله عقلُهُ.

فلو طعنت بهذين العظيمين لما قلت ذلك بحقّه، ولدينا شاهدان كاملان مداومان على الرياضة والعبادة.

وإنّما صدر هذا الكلام عنه في بيان المعرفة والتوحيد، وكان في زيِّ أهلِ الصلاح، ومُتمسِّكًا بالشرع والسنة، لكنَّ بعضَ المشايخ هجروه ليس بسبب مذهبه ودينه؛ بل لأنَّ عدم رضا المشايخ عن سُكره أدّى إلى ذلك.

وعندما كان في أول أمره مُستترًا أصبح في خدمة الشيخ سهل بن عبد الله، وظلَّ مُلازمًا له لسنتين، ثم توجَّهَ إلى بغداد، وكانت أول رحلةٍ له، وهو في الثامنة عشرة من عمره، ثم ذهب إلى البصرة، وانضمَّ إلى عمرو بن عثمان، وظلَّ بصحبته ثمانية عشر شهرًا، ثم إنَّ يعقوب الأقطع زوّجه ابنته، وبعد ذلك غضب عمرو بن عثمان منه، فعاد إلى بغداد لدى الجنيد الذي دعاه إلى السكوت والخلوة، فصبر في ملازمته مدّةً، ثم غادر إلى الحجاز، ومكث فيها

---

(١) أخرج أحمد في المسند ٢/ ٩٥، وفي فضائل الصحابة (٣١٣)، والترمذي (٣٦٨٢)، وأبو داود (٢٩٦١ـ ٢٩٦٢) عن ابن عمر أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه».

(٢) هي مدينة بيضاء فارس أكبر مدينة في كورة اصطخر بفارس، وإنّما سُمّيت البيضاء لأن لها قلعةً تبين من بُعد، ويُرى بياضُها. انظر معجم البلدان.

سنةً، ثم عاد إلى بغداد، وذهب إلى الجُنيد مع جماعةٍ من المتصوفة، وطُرح عليه مسائل، فلم يُجبْ عليها، وقال: لقد استعجلتَ بجعل رأس الخشبة أحمرَ. فقال: إنّني في اليوم الذي سأجعل فيه أعلى الخشبة أحمر ستلبس أنت فيه لباس أهل الظاهر.

وعندما أصدر الأئمةُ يومًا فتوى بوجوب قتله، كان الجُنيد في لباس التصوف، ولم يكن ممّن يكتب الفتاوى، وكان الخليفة قد قال بضرورة وجود توقيع الجنيد. فلبس الجُنيد عِمامته ودرّاعته، وذهب إلى المدرسة، وكتب جواب الفتوى: نحن نحكم بالظاهر. أي أنّه بحسب الظاهر يستحقُّ القتل، والفتوى على الظاهر، أمّا الباطن فيعلمه الله.

ولمّا لم يجدِ الحسين من الجُنيد جوابًا للمسائل غادر واستتر من غير إذن، ومكث هناك سنةً، حظي فيها بقبول عددٍ كبير، ولم يُقم وزنًا لكلام أيٍّ من أهل عصره إلى الحدِّ الذي حسدوه، وكتب عمرو بن عثمان في أمره رسائل إلى خوزستان، وقبّحَ أحواله في أعين أهل تلك الديار، وجعلهم يتحاملون عليه، فخلع لباس المتصوفة، ولبس القَباء[1]، وانهمك بمصاحبة أبناء الدنيا؛ لكنَّ ذلك لم يغيّرْ منه شيئًا.

ثم إنّه اختفى لخمس سنواتٍ، قضى شطرًا منها في خراسان وما وراء النهر، والشطر الآخر في سجستان، ثم عاد إلى الأهواز، وتحدّثَ إلى أهلها، وحظي بقبول الخاصِّ والعام، وكان يتحدَّثُ عن أسرار الخلق، حتى سُمّي بحلاَّج الأسرار.

ثم لبس المرقعة، وحزم أمره، وكان معه في تلك الرحلة كثيرٌ ممّن يلبسون الخرقة. ولمّا وصل إلى مكة نسبه يعقوب النهرجوري إلى السحر، ومن هناك عاد إلى البصرة، ومنها إلى الأهواز، ثم ارتأى أن يذهب إلى بلاد الشرك ليدعو الخلقَ إلى الله، فذهب إلى الهند، ثم إلى ما وراء النهر، وبعدها انتقل إلى

(١) القَباء: من الثياب، سمي به لاجتماع أطرافه، يُمدُّ ويقصر ويذكّر، قيل إنه عربي، وقيل إنه فارسي، وهو في الغالب من ملابس العجم. متن اللغة (قبي).

الصين، ودعا الخلقَ إلى الله، وألّف لهم تصانيف، وحين عاد كتبوا إليه الرسائل من أقصى العالم.

وقد دعاه أهل الهند بأبي المُغيث، وأهلُ الصين بأبي المعين، وأهل خراسان بأبي المهر، وأهلُ فارس بأبي عبد الله، وأهل خوزستان بحلاّج الأسرار، وأهل بغداد بالمُصطلم، وفي البصرة بالمخبّر.

ثم كثرت الأقاويل بشأنه، وبعدها توجّه إلى مكّة، وجاور في الحرم لسنتين، وحين عاد تغيَّرت أحوالُه إلى حالٍ آخر، فكان يدعو الناس إلى معانٍ لا يُدركُها أحدٌ، حتى قيل: إنّه طُرد من خمسين مدينة، ومرّ عليه دهرٌ لا أعجب منه.

ودُعي بالحلاّج لأنه مرّ يومًا بكدس قطن، فأشار بيده، فانفصلتِ البذورُ على الفور عن ألياف القطن، فتحيَّر الناس.

وروي أنّه كان يُصلّي في اليوم والليلة أربع مئة ركعة، ويرى ذلك لزامًا عليه. وقد قيل له: لماذا تعذّبُ نفسَك إلى هذا الحدّ؟ فأجاب: لا الراحةُ تؤثّر في حال الأصحاب ولا العذاب، فالأصدقاءُ صفتُهم الفناء، لا العذابُ بمؤثرٍ فيهم ولا الراحة.

وروي أنه قال عندما كان في الخمسين: لم أتَّخذْ مذهبًا حتى الآن؛ لكنّني اخترتُ من كلِّ مذهبٍ ما هو أشقّ على النفس، واليوم وقد بلغت الخمسين فقد صلّيتُ، ولكلِّ صلاةٍ اغتسلتُ.

وقيل: إنّه في بدء رياضاته كان له دَلَقٌ[1] لم يخلعْهُ عشرين عامًا، فخلعوه عنه في أحد الأيام عنوةً. وكان فيه كثيرٌ من الهوام، وُزنَتْ إحداها فكانت نصفَ دانق[2].

---

(١) الدَّلَق: ثوب متسع الأكمام طويلها، مفتوح فوق كتفيه بغير تفريج، سابل على القدمين. ويحسن أن يطلق على ما يُسمُّونه الروب، وهو لباس المحامين والقضاة. متن اللغة.

(٢) الدَّانق: بفتح النون وكسرها من الأوزان، هو سدس الدرهم. اللسان.

وروي أنَّ أحدًا اقترب، فرأى عقربًا تدور حوله، فأراد قتلها، فقال الحلاج: اتركها، إنها منذ اثنتي عشرة سنة نديمتي وتدور حولي.

وروي أن رشيد خرد السمرقندي كان متوجِّهًا إلى مكّة، وفي الطريق كان يُقيم المجالس، فروى أنَّ الحلاجَ توجَّه إلى البادية مع أربع مئة متصوف، وبعد مضي عدّة أيام لم يجدوا شيئًا، فقالوا للحسين: آتِنا شواءً. فقال: اجلسوا. ثم مدّ يده خلفه، وجاء بالشواء، فكان يُعطي لكلِّ واحدٍ منهم شواءً مع رغيفين من الخبز إلى أن أعطى أربع مئة حصة شواءً مع ثمان مئة رغيف، وبعدها قالوا: آتنا رُطبًا. فوقف وقال: هزّوني. فهزّوه، وتساقط منه الرُّطبُ، فأكلوا حتى شبعوا، وفي الطريق كانوا كلَّما لمسوا نبتةَ شوكٍ أعطت رطبًا.

وقيل: إنَّ الجمعَ طلبوا إليه في البادية أن يأتيهم بتينٍ، فمدَّ يده في الهواء، ووضع بين أيديهم طبقًا من التين الطازج.

وطلبوا مرّةً حلوى، فوضع بين أيديهم طبقًا من الحلوى بسكّرٍ ساخن، فقالوا له: إنَّ هذه حلوى باب الطاق(١) ببغداد. فقال: إن بغداد والبادية عندنا واحد.

وقيل: إنّه كان معه في البادية أربعةُ آلاف شخصٍ حتى الكعبة.

وفي سنةٍ أُخرى وقف قدّام الكعبة عاريًا في الشمس المحرقة حتى سالَ الدُّهنُ من أعضائه على ذلك الحجر، وتشقّق جلدُهُ، ولم يتحرّك.

وكان يُوضع إلى جواره كلَّ يومٍ رغيفُ خبزٍ وجرّةُ ماء، فكان يُفطر بحافات الرغيف، ويضع الباقي على جرّةِ الماء.

وقيل: إنَّ عقربًا كانت قد عَشَّشَتْ في إزاره.

قال في عرفات: يا دليلَ المتحيّرين. وحين رأى أن الجميع لبُّوا، وضعَ هو أيضًا رأسَهُ على تلِّ رملٍ، وظلَّ يُراقب إلى أن عاد الجميع، فتنهّدَ وقال: أيُّها

(١) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد بالجانب الغربي. معجم البلدان.

الملك، أيُّها العزيز، أعلم أنك منزَّهٌ، وأُنزِّهُك من كلِّ تسبيح المُسبِّحين، ومن كلِّ تهليل المهلِّلين، ومن كلِّ ظنون أصحابِ الظنون. إلهي، أنت تعلمُ أنّني عاجزٌ عن مواضع الشكر، فاشكرْ ذاتك بدلاً منّي، فذلك هو الشكرُ لا سواه.

ورُوي أنّه قال يومًا لإبراهيم الخوّاص في البادية: في أيِّ شأنٍ أنت؟ فأجاب: في مقام التوكُّل، أفعلُ التوكّل. فقال: أمضيتَ كلَّ العمر في عمارةِ بطنك، فمتى تفنى في التوحيد؟ أي أنَّ أصلَ التوكّلِ هو في عدم الأكل، وقد كنتَ طوال حياتك في توكّلِ ملءِ البطن، فمتى سيكونُ الفناء في التوحيد؟

وسُئل: هل لدى العارف وقت؟ فقال: لا، لأنَّ الوقت صفةُ صاحب الوقت، وكلُّ من استقرَّ على صفته لم يكن عارفًا. والمعنى هو: لي مع الله وقتٌ.

وسُئل: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: خطوتان وتصل، ترجعُ خطوةً عن الدنيا، وتُقدّمُ خطوةً إلى الآخرة، وعندها تصلُ إلى المولى.

وسُئل عن الفقر، فقال: الفقير من استغنى عمّا سوى الله، وتوجَّهَ إلى الله.

وقال: المعرفةُ هي رؤية الأشياء، وهلاكُ كلِّ شيءٍ في المعنى.

وقال: عندما يبلغ العبدُ مقامَ المعرفة يرسلُ الغيبُ إليه وحيًا، ويصبحُ سرُّهُ مُبهمًا بحيث لا يخطر له خاطرٌ سوى خاطر الحقِّ.

وقال: الخُلُقُ العظيم هو أن لا يؤثِّرَ جفاءُ الخلق فيك بعد أن تكونَ قد عرفتَ الحقَّ.

وقال: التوكّلُ أن يعرف في المدينة شخصًا أولى منه بالطعام، فلا يأكل.

وقال: الإخلاص تصفيةُ العملِ من شوائب الكدر.

وقال: اللسان الناطق مهلكةُ القلوب الصامتة.

وقال: الكلامُ مرهونٌ بالعلل.

وقال: الأفعال في الشرك، والحقُّ خالٍ من ذلك ومستغنٍ عنه، قال الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وقال: بصائرُ المبصرين، ومعارفُ العارفين، ونور العلماء الربّانيين، وطريق السابقين الناجين، والأزلُ والأبدُ وما بينهما من الحُدوث، ولكن كيف يَعرفُ ذلك إلاّ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال: في عالم الرضا أفاعٍ تُدعى اليقين، أعمالُ ثمانية عشر ألف عالم في أفواهها كحبّةِ رملٍ في صحراء.

وقال: نحن نطلبُ بلاءها في كلِّ سنةٍ كسلطانٍ يُواصل تمسُّكه بملكه.

وقال: خاطرُ الحقِّ هو أن لا يتمكّنَ شيءٌ من معارضته.

وقال: المريد في ظلِّ توبته، والمُرادُ في ظلِّ العصمة.

وقال: المُريد هو من يسبقُ اجتهادُه ما يُكشف له، والمراد مكشوفاته تسبق الاجتهاد.

وقال: وقتُ الرجلِ هو صدفُ بحرِ صدره، وغدًا ستُضرب هذه الأصداف بالأرض في عَرصات القيامة.

وقال: الدنيا بالتخلّي عن زهد النفس، والآخرةُ بالتخلّي عن زهد القلب، وتركُ الحديث عن الذات هو زهدُ الروح.

ورُوي أنه سُئل عن الصبر، فقال: هو أن تُقطَّعَ الأيدي والأرجل، ويُعلّقَ على خشبة الصلب. والعجيب أنَّ كلَّ ذلك فُعل به.

ورُوي أنّه قال للشّبلي يومًا: يا أبا بكر، دعني فقد نويت أمرًا عظيمًا أدّى إلى أن يكونَ القتلُ بانتظاري.

وعندما تحيّرَ الخلقُ في أمره، ظهر عددٌ لا حصر له من المعارضين، وعددٌ لا يُحصى من المؤيّدين، ورأوا منه الأعمال العجيبة، وتطاولوا عليه، ووشوا به لدى الخليفة، واتّفقوا جميعًا على قتله، لأنّه كان يقول: أنا الحقُّ. فقالوا: قل هو الحقُّ. قال: هو من تقولون إنه ضاع، ولكن الحسينُ هو الذي ضاع، والبحرُ المحيط لا يضيعُ ولا ينقصُ. فسُئل الجنيد: هل لهذا الكلام الذي يقوله الحسين بنُ منصور تأويل؟ قال: دعوهم يقتلونه، فليس يوم التأويل.

ثم خرجت عليه جماعةٌ من أهل العلم، وفنَّدَتْ آراءه لدى المقتدر[١]، وغيّروا رأي علي بن عيسى[٢] الذي كان وزيرًا فيه، فأمر الخليفة بسجنه، فسُجن سنةً كاملة، لكن الناس يذهبون إليه ويسألونه مسائل، فمُنع الناس بعدها من المجيء إليه، فلم يزرْهُ أحدٌ لخمسة أشهرٍ إلاّ مرةً زاره فيها ابن عطاء، ومرةً أبو عبد الله بن خفيف، ومرةً أرسلَ ابنُ عطاء شخصًا يقول له: أيها الشيخ، اعتذر عمّا قلته لتنجو. فقال الحلاج: قل لمن قال ذلك أن يعتذر. وحين سمعَ ابنُ عطاء ذلك بكى، وقال: نحن عدّةُ نُسخٍ من الحسين بن منصور.

وقِيل: إنَّه في الليلة الأولى التي حُبس فيها جاؤوا إلى السجن فلم يجدوه، وفتّشوا جميع أرجاء السجن، فلم يجدوا أحدًا. وفي الليلة الثانية لم يجدوه لا هو ولا السجن. وفي الليلة الثالثة رأوه في السجن، فقالوا له: أين كنت في الليلة الأولى؟ وأين كان السجن وأنت في الليلة الثانية، بينما ظهر كلاكما اليوم؟ فقال: في الليلة الأولى كنت في الحضرة، فلم أكن فيه، وفي الليلة الثانية كانت الحضرة الإلهية، لذا غبتُ أنا والسجن، وفي الليلة الثالثة تمّ إرسالي لحفظ الشريعة، فتعالوا ونفّذوا مهمتكم.

وقيل: إنَّه كان يُصلّي وهو في السجن ألفَ ركعةٍ في اليوم والليلة. فقيل له: أنت تقول أنا الحقُّ، فلمن تُصلّي؟ فقال: أنا أعرف قدر نفسي.

---

(١) هو جعفر بن أحمد بن طلحة أبو الفضل المقتدر بالله ابن المعتضد ابن الموفق، الخليفة العباسي (٢٨٢ـ ٣٢٠هـ) بويع بالخلافة سنة (٢٩٥) فاستصغره الناس، فخلعوه سنة (٢٩٦هـ) ونصبوا عبد الله بن المعتز، ثم قتلوا ابن المعتز، وأعيد المقتدر بعد يومين، فطالت أيامه، وكثرت فيها الفتن، وعصاه كبار دولته، حتى خادمه مؤنس أخرجه من دار الخلافة مع أمّه وأولاده وجواريه سنة ٣١٧هـ، ثم أُعيد، وعاد للخلافة ثانية، وقد قتله جنده سنة ٣٢٠هـ، وكان ضعيفًا مبذرًا، استولى على الملك في عهد خدمه ونساؤه وخاصته.

وفي أيامه قوي أمر القرامطة حتى قلع أبو طاهر الحجر الأسود، وقتل الخلق الكثير.

وجاء في الأصل: وفنّدت آراؤه لدى المعتصم.

(٢) علي بن عيسى بن داود الجراح (٢٤٤ـ ٣٣٤هـ) وزر للخليفة المقتدر العباسي، والقاهر، أحدُ العلماء الرؤساء من أهل بغداد، أصلح أحوال الوزارة وأحسن الإدارة، وحمدت سيرته.

وقيل: إنّه كان معه في السجن ثلاث مئة سجين، وحين جنَّ عليه الليلُ قال: أيُّها السُّجناء، سأخلّصكم. قالوا: لماذا لا تُخلّصُ نفسك؟ فقال: أنا في قيد الله، وأقدِّر السلامة، فلو أردتُ لفتحتُ كلَّ القيود بإشارة واحدة. ثم أشار بأصبعه، فتحطّمت جميعُ القيود، فقالوا: أين سنذهب، وباب السجن مُغلق؟ فأشار بيده، فحدثت فجواتٌ في الجدار، فقال: ليذهبْ كلٌّ منكم لحال سبيله. فقيل له: ألا تأتي أنت؟ قال: إنَّ لي معه سرًّا لا يمكن البوح به إلاّ على مِنصَّة القتل. وفي اليومِ الثاني سئل: أين السُّجناء؟ فقال: أطلقتُ سراحهم. فقيل: لِمَ لَمْ تذهب أنت؟ فقال: إنَّ الحقَّ عاتبٌ عليَّ فلم أذهب. فبلغ هذا الخبرُ الخليفة، فقال: سيخلق الحلاج فتنةً، فاقتلوه أو اجلدوه ليرجع عن كلامه هذا. فضرب ثلاثة مئة جلدة، ومع كلِّ جلدةٍ كان يأتي نداءٌ بلسانٍ عربيٍّ فصيح: لا تخف يا بن منصور.

يقول الشيخ عبد الجليل الصفّار: كان إيماني بذلك الجلاّد أكثرَ من إيماني بالحسين بن منصور، لأن ذلك الرجل كان له من القوّة ما يجعله يسمع ذلك النداء الصريح، ولا ترتجف يدُه، ويُواصل الجلد.

وفي مرةٍ أُخرى أُخذ الحسين ليُصلبَ، فاجتمع مئةُ ألف إنسان حوله، وكان هو يُدير طرفَه فيهم ويقول: حقٌّ، حقٌّ، أنا الحقُّ.

ورُوي أنَّ متصوّفًا سأله وهو في تلك الحالة: ما العشق؟ فقال: اليوم تراه، وغدًا، وبعد غد. فصُلب في ذلك اليوم، وأُحرقَ في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث ذُرِّي رماده. أي أن العشق هو ذلك.

فطلب إليه خادمه، وهو في تلك الحال وصيةً، فقال: اشغل النفسَ بشيءٍ يمكن فعله، وإلاّ شغلتك هي بشيءٍ لا يُمكن فعله[1]، وفي هذه الحال فإنَّ الخلوةَ بالنفس هي عملُ الأولياء.

وقال ابنه: أوصني. فقال: إذا انهمك الناسُ في الأعمال، فاشغلْ نفسَك

(١) في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥٠: هي نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

بشيءٍ ذرةٌ منه أفضلُ من أعمال الجنّ والإنس بأسرها، وليس ذلك سوى علم الحقيقة.

وحين كان يمشي في الطريق كان يتبخترُ كالعيّارين مع ثلاثة عشر قيدًا ثقيلاً، فقيل: لمَ هذا التبختر؟ فقال: لأنّني ذاهبٌ إلى المذبح. وكان يصرخ قائلاً[1]:

نَديمي غيرُ مَنسوبٍ ... إلى شيءٍ من الحيفِ
سقاني مثلما يَشر ... بُ فعلَ الضَّيفِ بالضيفِ
فلمَّا دارتِ الكأسُ ... دعا بالنِّطعِ والسَّيفِ
كذا من يشربُ الرَّاحَ ... مع التِّنيِّنِ بالصيفِ[2]

فلمّا أُخذ إلى المنصَّة في باب الطاق توجَّه نحو القبلة، ووضع قدمه على السلم، فسُئل: ما الحال؟ قال: معراجُ الرجال على رؤوس المشانق. وكان مُؤتزرًا بمئزرٍ، وعلى كتفيه طيلسان، فأخرج يديه، وهو متوجّهٌ نحو القبلة، فناجى ربّه قائلاً: إنَّ ما تعلمه أنت لا يعلمه أحد.

ثم اعتلى المنصَّة، فسأله مُريدوه: ما قولُك فينا نحن المريدين وفي هؤلاء الخصومِ ممّن سيرجمونك بالحجارة؟ فقال: لهؤلاء ثوابان، ولكم واحد، ذلك أنكم تُحسنون الظنَّ بي لا أكثر، وهؤلاء يَنطلقون بقوة التوحيد إلى صلابة الشريعة، وكان التوحيدُ في الشرع أصلاً، وحسنُ الظنِّ فرعًا.

يُروى أنه عندما كان شابًا نظر إلى امرأةٍ، فقالت للخادم: كلُّ من ينظر هكذا يُغمض عينيه هكذا.

وقد وقف الشِّبلي قبالته ونادى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ [الحجر: ٧٠].

---

(١) انظر الديوان ١٤٩، والأبيات من الأشعار التي نُسبت إليه، وهي للحسين بن الضحاك الخليع. انظر الأغاني ٧/ ١٢٤ (ط دار صادر، تحقيق الدكتور إحسان عباس).

(٢) التنين ضرب من الحيات السوداء العظيمة، وهو لقب إبراهيم بن مهدي الأمير العباسي، لقّب به لسواد لونه وسمنه.

وقال: ما التصوّف يا حلاّج؟ فأجاب: أقلّه ما تراه. فقال: وما أكثره؟ قال: لا سبيل لك إلى ذلك.

وقد رماه كلٌّ واحدٍ بحجرٍ إلاّ الشّبليُّ فإنّه رماه بطينةٍ إظهارًا لموافقته لهم. فتأوّه الحسينُ بن منصور، فسئل: لم تتأوّهْ من كلِّ هذه الأحجار، فما معنى أن تتأوَّهَ من طينةٍ؟ فقال: لأن هؤلاء لا يعلمون؛ فهم معذورون، وإنّما يصعبُ عليَّ تحمّل ذلك منه لأنه يعلم أنه لا ينبغي له أن يرجمني.

ثم إنّهم قطعوا يدُه، فضحك، فسئل: لماذا تضحك؟ قال: إنَّ قطعَ يدِ إنسانٍ مُقيّدٍ أمرٌ سهل؛ والرجل هو الذي يقطعُ يدَ الصفات التي ترفع تاج الهمّة عن مفرق العرش.

ثم قطعوا رجليه، فتبسّم، وقال: لقد كنتُ أُسافرُ بهاتين القدمين سفرًا على التراب، ولي قدمٌ أُخرى تُسافر اليوم في كلا العالمَيْنِ، فإن استطعتم فاقطعوا تلك القدم.

ثم مسح بيديه المقطوعتين الداميتين وجهَهُ حتى لطخ ساعديه ووجهه بالدماء. فسئل: لماذا فعلت هذا؟ أجاب: لقد نزف منّي دمٌ كثير، وأعلم أن وجهي أصفر، وقد تتصوّرون أنَّ صفرةَ وجهي هي من الخوف، فلطّخته بالدم لأكونَ في عيونكم أحمرَ الوجه، فحُمرة الرجال هي دماؤهم. فسُئل: إذا كنتَ قد جعلتَ وجهك أحمر بالدم، فلماذا لطّختَ ساعدك؟ فقال: أنا أتوضأ. فسُئل: أيَّ وضوء؟ أجاب: ركعتان في العشق لا يصحُّ وضوؤهما إلاّ بالدم.

ثم اقتلعوا عينيه، فارتفع صراخ الناس، فكان البعضُ يبكي، والبعض يقذف بالحجارة.

ثم أرادوا قطع لسانه، فقال: اصبروا حتى أتحدَّثَ بحديثٍ. فتوجَّه نحو السماء وقال: إلهي، لا تحرمهم من هذا العذاب الذي يذيقونني إيّاه لأجلك، ولا تحرم دولتَهم من ذلك، الحمد لله أنهم قطعوا يديّ ورجليّ في سبيلك، ولو فصلوا رأسي عن جسدي فهم بمشاهدة جلالك سيفعلون ذلك مرّةً أخرى فوق المنصّة.

ثم قطعوا أذنه وأنفه ورجموه، فجاءت عجوز تحمل جرّةً، وحين رأت الحسين قالت: ارجموه بشدّةٍ؛ فما لهذا الحلاّج المصلوب وكلام الله؟

وكان آخرُ كلام الحسين هو: حسبُ الواحد إفرادُ الواحد، وتلا هذه الآية: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨].

ثم قطعوا لسانه، وكان الوقتُ عند صلاة العشاء حين قطعوا رأسه. وقد تبسَّمَ خلال قطعه وأسلم الروح، فضجَّ الناس.

وأخذ الحسين كلام القضاء إلى نهاية ميدان الرضا، وكان ينطلقُ من كلِّ عضوٍ من أعضاء بدنه نداء: أنا الحقُّ.

وفي اليوم التالي قيل إنَّ الفتنة ستكونُ أكبرَ ممّا كانت عليه أيام حياته، ثم إنّهم أحرقوا أعضاءه، فكان ينطلقُ من الرمادِ نداءُ: أنا الحقُّ.

كما أنّ كلَّ قطرةِ دمٍ كانت تُراق حين قتله كانت تكتب (الله)، فتحيّروا في أمره، فألقوه في دجلة، وفي الماء أيضًا كان يقول: أنا الحق.

وكان الحسين قد أوصى: عندما يُلقى رمادُ بدني في دجلة سيُخشى على بغداد من الغرق، فخذوا خرقتي إلى الماء، وإلاّ فسيحلُّ الدمارُ ببغداد. فلمّا رأى الخادم ذلك أخذَ خرقةَ الشيخ إلى شاطىء دجلة إلى ان استقرَّ الماءُ، وانطفأ الرماد، فجمعوه ودفنوه، ولم يكن لأحدٍ من أهل الطريقة هذه الفتوح.

قال أحد المشايخ: يا أهل الطريق اعتبروا، إن كانوا فعلوا هذا بالحسين بن منصور الحلاّج فماذا سيفعلون بمن يدّعي ذلك؟

قال عباس الطوسي: سيُؤتى بالحلاج في عرصات القيامة، وهو مُقَيَّدٌ بالسلاسل، ذلك أنه إذا كان حرًّا فسيجعل الفوضى تحلُّ بالقيامة بأسرها.

وقال أحد المشايخ: قضيت ليلةً حتى الصباح تحت تلك المنصَّة، وكنتُ أُصلّي، وحين طلع الصباح نادى هاتف: أطلعناه على سرٍّ من أسرارنا فأفشى سرَّنا، فهذا جزاءُ من يُفشي سرَّ الملوك.

ورُوي أن الشّبليّ قال: ذهبتُ إلى قبره تلك الليلة، وصلّيت حتى الصباح، وناجيتُ الله عند السحر، وقلت: إلهي، كان هذا عبدَكَ، ومؤمنًا وعارفًا وموحّدًا، فلماذا أنزلتَ به هذا البلاء؟ فغلبني النوم، فرأيتُ أنَّ القيامة قامت، وجاء نداءٌ من الحقِّ: فعلتُ هذا لأنه أفشى سرَّنا للغير.

وروي عن الشّبلي قوله: رأيتُ الحسين في المنام، فقلت: ماذا فعل الله تعالى بأولئك القوم؟ فقال: رحم الفريقين، فمن أشفق عليّ فقد عرفني، ومن عاداني لم يعرفني، فعاداني لأجل الحقِّ، فرحم الاثنين؛ لأن كليهما كان معذورًا.

ورآه آخر واقفًا في القيامة بيده كأسٌ، وليس على جسده رأس، فقال ما هذا؟ فأجاب: إنّه يُعطي الكؤوس لمقطوعي الرؤوس.

ورُوي أنه عندما عُلِّق على المنصَّة جاءه إبليس وقال: لقد قلتَ مرةً (أنا)[١]، ومرّةً قلتُ أنا ذلك، فنزلتْ عليك من تلك الرحمةُ، وعليَّ من هذه اللعنة. فقال الحلاج: أنت أخذت (أناك) لنفسك، وأنا أبعدتها عن نفسي، فنزلت عليَّ الرحمة، وأنت ليس كما رأيتَ وسمعت لتعرف أن عمل (أنا) ليس حسنًا، وإنّ إبعاد (الأنا) عن النفس في غاية الحسن[٢].

* * *

(١) جاء قوله: ﴿أنا خير منه﴾ في الآية (١٢) من سورة الأعراف، والآية (٧٦) من سورة ص.

(٢) اعلم أن أهل القبلة كلهم لم يجمعوا على مسلم بأنه سعيدٌ ناجٍ، ولم يجمعوا على مسلم بأنه شقيٌّ هالك، فهذا الصدِّيق فرد الأمة قد علمتَ تفرّقهم فيه، وكذلك عمر، وكذلك عثمان، وكذلك علي. فما بالك بالحلاّج، ولا أجد أفضل من كلمة حقٍّ قالها مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ٣٥١/١٤: ويُمكن أن يكون تزندق في وقتٍ، ومرق وادّعى الألهية، وعمل السحر والمخاريق الباطلة مدّة، ثمّ لمّا نزل به البلاء، ورأى الموتَ الأحمرَ أسلم ورجع إلى الحق، والله أعلم بسرّه. فانظر إلى قوله: (ويُمكن)، ثم انظر إلى قوله: (أسلم ورجع إلى الحقّ).

(٩٦) أبو الفضل بن الحسن(١)

ذكر الشيخ أبي الفضل بن الحسن:

حاملُ الأمانة، عاملُ الديانة؛ العزيزُ بلا زلل، الخطيرُ بلا خلل؛ المُحترق بحبِّ الوطن، الشيخ أبو الفضل بن الحسن رحمة الله عليه.

كان فريدَ الزمان، وبلغ في التقوى والمحبَّةِ والمعنى والفتوة درجةً عالية، وفاق الحدَّ في الكرامة والفِراسة.

وكان ممّن يُشار إليهم بالبنان في المعارف والحقائق، وكان من أهل سرخس.

وكان الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير مُريدًا له.

ورُوي أنَّ الشيخ أبا سعيد متى ما كان مقبوضًا قال: أسرجوا حصاني لنذهب إلى الحجِّ. فيأتي إلى قبره، ويَطوفُ حتّى يرتفعَ عنه القبضُ.

وقيل: إنَّ أيًا من مُريدي الشيخ أبي سعيد ممّن كان يفكّرُ بحجِّ التطوّع، كان يُرسله إلى قبر الشيخ أبي الفضل، ويقول: زرْ ذلك القبر، وطفْ حولَه سبعَ مرّاتٍ يحصل مرامُكَ.

ورُوي أنَّ شخصًا سأل الشيخ أبا سعيد قدّس الله سرّه: من أين أتيت بكلِّ هذا الملك؟ فقال: كنتُ أذهب إلى ضفَّةِ غديرِ ماءٍ، وكان الشيخ أبو الفضل يذهبُ إلى الجانب الآخر، فوقعت عينُهُ عليَّ، ومن هناك جاء كلُّ هذا الملك.

---

(١) هو محمد بن الحسن السرخسي، ترجمته في: أسرار التوحيد «انظر الفهرس»، كشف المحجوب ٣٨٠، ٤١٨، ٤٦١، نفحات الأنس ٤٠٩.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٩٦) وهي بين ترجمتي أبي سعيد بن أبي الخير والإمام محمد الباقر.

ورُوي عن الشيخ الخرامي[١] أنّه قال: كنتُ طفلاً، فتسلّقتُ شجرةَ توتٍ، وضربتُ أغصانها وأوراقها، فمرَّ الشيخ أبو الفضل ولم يرني، وعلمتُ أنّه غائبٌ عن نفسه، وكان حاضرًا بالحقّ بدل ذلك، وبحكم الانبساط رفعَ رأسه، وقال: إلهي، مرَّ أكثرُ من عامٍ ولم تُعطني دانقًا حتى أحلقَ رأسي، أهذا فعلُكَ مع المُحبّين؟ وفي الحال رأيتُ جميعَ أغصان الأشجار وأوراقها صارت ذهبًا. فقال: عجبٌ، أما أقدرُ أن أتكلّمَ معكَ كلامًا؟

تُرى لو قلتُ كلامًا في حالِ السُّكْرِ لماذا تربطُ بعيرًا بقطارنا[٢]

روي أنّه كانَ في سرخس شابٌّ ولهان لا يُؤدّي الصلاة، فسألوه: لماذا لا تُصلّي؟ قال: وأين الماء؟ فأمسكوا بيده، وأخذوه إلى بئرٍ، وأعطوه الدلو، فظلَّ في يده ثلاثة عشر يومًا بلياليها. فقال الشيخ أبو الفضل: يجبُ وضعه في البيت؛ لأنَّه بعيدٌ من الشرع.

وروي أنَّ الشيخَ لقمان السرخسي رأى في يد أبي الفضل جزءًا من كتاب، فقال: ما تُريدُ من هذا الجزء؟ فقال: عمّا تبحث عنه أنت في تركه. قال: فمن أين هذا الخلاف؟ قال: إنَّ الخلاف في نظرك أن تسألَ منّي ما تريد فيه، قم اخرجْ من السُّكر إلى الصحو حتى يذهبَ الخلافُ؛ لتعلم عمّا نبحثُ أنا وأنت.

ورُوي أنَّ أحدَهم جاء إلى الشيخ أبي الفضل وقال: رأيتُكَ في المنام ميتًا موضوعًا في تابوتٍ، ومحمولاً على الأكتاف. فقال الشيخ: اسكت، فلقد رأيتَ منامَ نفسِك؛ فهؤلاء لا يموتون أبدًا: ألا إنَّ من عاش بالله لا يموت أبدًا.

ورُوي عن الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير أنّه قال: ذهبتُ إلى سرخس،

---

(١) كذا في المطبوع الفارسي، وهو في كشف المحجوب صفحة ٤٦١: الحزامي.

(٢) قطار الإبل هو المجموعة منها التي تسير في إثر بعضها. (المترجم).

أقول: وكأنه يقول: لقد طلبت شيئًا في حال سكري، فإذا بك ـ يا ربُّ ـ تضيف إلى قطار نعمائك لي النعمة التي طلبتها.

فقلت للشيخ أبي الفضل: أتمنّى أن أسمعَ من فمك تفسيرَ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقال: انتظر حتى سدولَ الظلام، فالليلُ ستّارُ السرّ. وحين جنّ عليهم الليل، قال: كنْ قارئًا لأكون مذكّرًا. قال: فتلوتُ قولَه تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾، ففسَّرَها سبع مئة تفسير لم يكن فيها تكرارٌ، ولم يُشبهْ أحدُها الآخر إلى أن طلع الصبح، فقال: ذهب الليل، ونحن لم نتكلّمْ بعدُ عن الحزن والسرور، ولم ينتهِ حديثُنا. فسألته: ما هو السرّ؟ فقال: أنتَ. قلتُ: وما سرُّ السرّ؟ قال: أنت أيضًا.

روي أنّه قيل للشيخ: إنَّ المطر لا يهطل، فادعُ لكي يهطلَ. وفي تلك الليلة أمطرت السماءُ بَرَدًا كبارًا، فسئل في اليوم التالي: ماذا فعلتَ؟ فأجاب: أكلتُ عويثة(١). أي أنني قطب، وحين أبردُ يبردُ العالم الذي يدور حولي.

ورُوي أنّه طلب إليه: ادعُ لهذا السلطان؛ لعلَّهُ يُصبحُ أفضلَ لتزول المظالم. فأطرق هنيهةً وقال: دعكم من هذا، فأنتم تَرونه الآن بينكم، وتتذكّرون الماضي، وتتحدّثون عن المستقبل، فكونوا أهلَ زمانكم.

وقال: حقيقةُ العبودية أمران: حسنُ الافتقار إلى الله، وهو من أُصول العبودية، وحسنُ الاقتداء برسول الله، وهو أن تكونَ النفسُ فيه لا راحة لها.

ورُوي أنّه لما دنتْ وفاتُهُ قيل له: أندفنُكَ في المقبرة الفلانية؛ فهي مقبرة المشايخ والعظام؟ فقال: اللهَ اللهَ، ومن أكون لتدفنوني إلى جوارِ قومٍ كهؤلاء! ادفنوني فوق ذلك التلّ حيث دُفن المقامرون والفسّاق، فهم إلى رحمة الله أقرب، وأغلب الماء يُعطى للعطاشى. فرحمة الله عليه.

* * *

(١) في لسان العرب (عَوَثَ): العويثة: قرص يُعالج من البقلة الحمقاء بزيت (المترجم).

(٩٧) الإمام الباقر (١)

ذكر الإمام محمد الباقر عليه الرحمة:

حجَّةُ أهل المعاملة، برهانُ أرباب المُشاهدة، الإمام من ذرية النبي ﷺ، المُنتجبُ من أحفاد عليٍّ، صاحبُ الباطن والظاهر، أبو جعفر محمد الباقر رضي الله عنه.

لمّا كانت هذه الطائفة قد بدأت من جعفر الصادق، وهو من أبناء المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإنَّ ختامَها أيضًا هو بهم.

قيل: إنَّ كنيته كانت أبا عبد الله، ولُقِّب بالباقر، وكان مختصًّا بدقائق العلوم ولطائف الإشارات.

وله كراماتٌ مشهورة بالآيات الباهرة، والبراهين الزاهرة.

ورُوي أنّه قال في تفسير قوله تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: إنّ ما يمنعك من النظر إلى الحقّ هو الطاغوت، فانظرْ إلى أيّ

---

(١) هو الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وترجمته في:

طبقات ابن سعد ٥/ ٣٢٠، تاريخ خليفة ٣٤٩، طبقات خليفة ٢٥٥، التاريخ الكبير ١/ ١٨٣، المعارف ٢١٥، الجرح والتعديل ٨/ ٢٦، الثقات لابن حبان ٥/ ٣٤٨، حلية الأولياء ٣/ ١٨٠، طبقات الفقهاء ٦٤، صفة الصفوة ٢/ ١٠٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠٩، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٨٧، مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٧٧، تهذيب الكمال ٢٦/ ١٣٦، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠١، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٧، تاريخ الإسلام ٤/ ٢٩٩، العبر ١/ ١٤٢، الوافي بالوفيات ٤/ ١٠٢، البداية والنهاية ٩/ ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥٠، طبقات الشعراني ١/ ٣٢، طبقات الحفاظ ٤٩، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٤٤٠، شذرات الذهب ١/ ١٤٩.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٩٧) وهي آخر التراجم فيه، وقبلها ترجمة أبي الفضل بن الحسن.

محجوبٍ تخلّفتَ عنه بذلك الحجاب، وبادر إلى ترك ذلك الحجاب لتبلغ الكشفَ الأبدي، وينكشفَ المحجوبُ، ولا ينبغي لممنوعٍ أن يكون وسيلةً للقرب.

رُوي أنَّ أحدَ خواصِّه سُئل: كيف يقضي الإمامُ الليلَ؟ فقال: عندما ينقضي شطرٌ من الليل، ويفرُغُ من الأوراد يقول بصوتٍ عالٍ: إلهي وسيدي، حلَّ الليل، وانتهت ولايةُ تصرُّف الملوك، وظهرتِ النجوم، ونامتِ الخلائق، وسكنتْ أصواتُ الناس، وأضمروا رغباتهم، وغلّقوا الأبواب، ووضعوا عليها الحرّاس، ومن كان لهم لديه حاجة تركوه. فيا إلهي، أنت حيٌّ قيّوم مُطَّلع، لا تأخذك سنةٌ ولا نوم، ومن لا يعرفُكَ بهذه الصفة لا يقرُّ بأيَّةِ نعمة. وأنت الربُّ الذي لا يردُّ السائلين إذا ما دعاه أحدٌ من المؤمنين. إلهي، حين أذكرُ الموتَ والقبر والحساب كيف أطلبُ من الدنيا منفعةً من بعدك؟ لأنّني أعرفُكَ وأبحث عنك، لأنّني أطلبُ منك الراحةَ عند الموت السهل، والحياةَ في حال الحساب بلا عقاب.

فكان يقول هذا ويبكي إلى أن سأله واحدٌ يومًا: يا سيدي، ما أكثر ما تكرِّرُ ذلك!؟ فأجابه: يا صاحبي، لقد فقد يعقوبُ يوسفًا واحدًا فبكى حتى ابيضَّتْ عيناه، وأنا فقدتُ عشرة من أجدادي - أي الحسين وآله - في كربلاء، فإنّ أقلَّ ما يُمكن هو أن أبيّض عينيّ لفراقهم.

وإن هذه المناجاة هي باللغة العربية، وفي غاية الفصاحة، لكنّنا آثرنا إيرادَ معانيها باللغة الفارسية بغيةَ عدمِ الإطالة والتكرار. وقد أوردناها في خاتمة الكتاب تبرُّكًا.

قال هذا وأسلم الروح للحقّ، رضي الله عنه وعن أسلافه، وحشرنا مع أجداده ومعه. آمين يارب العالمين، وصلّى الله على خيرِ خلقه وآله أجمعين، ونجّنا برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

* * *

ملحق (٢)

ـ رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي

ـ الحسين بن منصور الحلاج (*)

(*) رأيتُ أن أضيف لهذا الكتاب هاتين الترجمتين ـ اللتين تقدمتا ـ مترجمتين عن كتاب «التذكرة» لغير مترجم الأصل من مصدرين بعيدين إتماماً للفائدة، وتسهيلاً للدراسة والمقارنة والبحث .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رابعة العدوية[1]

إنّها ذاتُ الخدر الخاص، المستورةُ بستر الإخلاص، المُتَّقدةُ بنارالعشق والاشتياق، المتحرّقةُ إلى القُرب والاحترام، الفانيةُ في الوصال، المقبولةُ عند الرجال، كأنَّها مريم ثانية، صافيةٌ صفية، إنَّها رابعة العدوية ـ رحمة الله عليها.

فإنْ سألني أحدٌ: لِمَ ذكرتَها في صفّ الرجال؟ لقلتُ لهم: قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكم. . .» الحديث.

فالعبرة لا بالصورة، بل بالنية كما قال عليه السلام: «يُحشرُ الناس على نيّاتهم». فإذا كنّا نأخذُ عن عائشة الصدّيقة رضي الله عنها ثُلثَ الدين، فمن الجائز أن تتلقّى فائدةً دينية من إحدى خادماتها.

إنَّ المرأةَ التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال، لا يُمكن أن تُسمّى امرأةً.

ولقد قال عباسة الطوسي: إذا دُعينا يوم القيامة: (يا رجال)، فأوّلُ متقدّم في صف الرجال سيكون مريمَ عليها السلام.

وكان الحسنُ إذا لم يرها في المجلس حاضرةً ترك المجلس ـ ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال في القداسة) أنه حيث يوجد الصوفية فلا تفريقَ بينهم في وحدة الوجود (الإلهي)، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود (أنا أو أنت)؟ وإذن كيف يكون ثمّتَ امرأة ورجل؟

كذلك قال أبو علي الفارمذي رضي الله عنه: إنَّ النبوةَ عينُ العزّةِ والرِّفعة؛ فليس فيها سموٌ وانحطاط. ولا ريب في أنَّ الولايةَ من هذا النوع.

---

(١) نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «شهيدة العشق الإلهي» صفحة ١٤٢، عن ترجمة المستشرق الفرنسي أ. بافيه دي كورتي. وانظر ترجمتها صفحة (٩٤).

لقد كانت رابعة فريدةً في معاملتها، وفي معرفتها.

وكانت معتبرةً في جملة كبار عصرها، وكانت حجّةً قاطعةً عند معاصريها.

وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكنْ في بيت أهلها شيءٌ، لأنَّ أباها كان فقيراً، فلم يكن عنده قطرةٌ من سمنٍ حتى يَدهنوا موضع خلاصها، ولم يكن ثمة نورٌ ولا خِرَقٌ للفِّ الوليد، وكان له ثلاث بنات فسميت (رابعة) لأنَّها رابعتُهن. فقالت له امرأته: اذهبْ للجيران وأتِ بقطرةٍ من الزيت حتى يضيءَ القنديل. ولكنه كان قد عاهد نفسه على ألاَّ يطلبَ من الناس شيئاً، لأنه لو طلبَ شيئاً ما أعطوه، مع هذا ذهب إلى الجارةِ وطرق الباب، ثم عادَ إلى زوجه وقال: إنَّه لم يُفتح له. فبكتْ.

وفي ذلك الوقت أطرقَ على ركبتيه ونام، فرأى النبيَّ عليه السلام في منامه، وقال له الرسول: لا عليكَ، لأنَّ هذه البنتَ التي وُلِدت هي سيدةٌ؛ إنَّ سبعين ألفاً من أُمتي ليرجون شفاعتها. وقال له: اذهب غداً لعيسى [بن] زاذان أميرِ البصرة، واكتب له ورقةً، وقل له: إنَّكَ تُصلِّي مئةَ صلاة، وفي ليلةِ الجمعة أربع مئة، ولكن في يوم الجمعة الأخيرِ نسيتني، فادفعْ كفارةً أربع مئة دينار حلال لهذا الشخص. فلمّا أفاقَ والد رابعة من نومه كتب الرسالة، وأرسلها عن طريق الحاجبِ إلى الأمير، فلمّا قرأها الأميرُ قال: أعطوا ألفي دينار للدراويش، وأربع مئة للشيخ، وقولوا له أن يأتي إليّ لأراه؛ كلاّ؛ بل لا أرى من الموافق أن يأتي إليّ، بلى سأذهب إليه أنا، وأحنِّي لحيتي على أعتابه وأمسحها بها، وأطلب من الله كلَّ ما تريده، وأشتري من فاخر الثياب وكلَّ شيء تريده (الفتاة).

فلمّا كبرتْ، وتُوفِّيت أمُّها وأبوها حدث في البصرة قحطٌ، وتفرَّقت أخواتها. فلمّا خرجتْ رابعة تهيم على وجهها رآها ظالمٌ وباعها بستة دراهم، ومن اشتراها أثقلَ عليها العمل، وذاتَ يوم جاء رجلٌ غريب، فهربَتْ وسارت في طريقها، ثم ارتمتْ على التراب، وقالت: يا ربي، أنا غريبةٌ ويتيمة وأسيرة،

وقد صرتُ عبدةً، لكنَّ غمّي الكبير هو أن أعرفَ أراضٍ عنّي أنت أم غيرَ راضٍ؟ فسمعتْ صوتاً يقول لها: لا تحزني، لأنه في يوم الحساب المقرّبون في السماء ينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه.

وبعد أن سمعتْ هذا الصوت ذهبتْ إلى بيت سيدها، وصارتْ تصومُ وتخدم كلَّ يومٍ سيدها، وتُصلّي لربّها، ساهرةً على قدميها، وذات ليلةٍ استيقظ سيدها من النوم، ونظر من خوخةٍ في الباب، فرأى رابعةَ ساجدةً وهي تقول: إلهي، أنت تعرفُ أنَّ قلبي يتمنّى طاعتك، ونور عيني في خدمة عتبتك، ولو كان الأمرُ بيدي لما توقَّفتُ ساعةً عن خدمتك، لكنَّك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق. وبينما كانت لا تزالُ تُصلّي، شاهدَ قنديلاً فوق رأسها مُعلّقاً بدون سلسلة، وكان النورُ يملأ البيت كلَّه، فلمّا رأى سيدُها هذا النورَ العجيبَ فزِعَ ونهض، ثم عادَ إلى مكانه، وظلَّ يفكّر حتى طلعَ النهار. هنالك دعا رابعة وحدّثها بلطفٍ وأطلق سراحها قائلاً: يا رابعة، لقد أعتقتُك حُرَّةً، فإذا شئت بقيت هنا، وسنكون جميعاً في خدمتك؛ وإذا لم تشائي اذهبي أنّى شئت. فودّعته رابعة، وارتحلت، وانقطعت للتقوى والعبادة.

ويُقال: إنَّ رابعة كانت تُصلّي كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعة.

وكانت تتردَّدُ على الحسن البصري.

وفي روايةٍ أُخرى: أنها كانت تضربُ على الناي.

وقال قومٌ: إنّها عملت مطربةً مدةً ما، ثم تابتْ وابتنتْ لنفسها خلوةً انقطعت فيها للعبادة.

وذات يومٍ ارتحلت إلى الكعبة، وكان لها حمارٌ حمَّلته متاعَها. فنفقَ الحمار، فقال مَنْ بالقافلة: سنحملُ متاعَكَ على دوابنا. فقالت رابعة: ما كان اعتمادي عليكم حينما أتيت، بل ثقتي بالله تعالى، فارحلوا إذن. فلمّا ارتحلتِ القافلة دعت رابعة الله قائلة: إلهي، أكذا يفعلُ الملوكُ بعبيدهم الضعفاء العاجزين؟ لقد دعوتني إلى زيارة بيتك، وها أنت ذا تدع حماري ينفُقُ في الصحراء، وتتركني في الخلاء وحيدةً. فما كادت تنطِقُ بهذه الكلمات حتى

نهض الحمار مليئاً بالحياة، فوضعت عليه متاعها، واستمرَّتْ في طريقها ولحقت بالقافلة.

ويقال: إنها كانت في طريقها إلى الكعبة ذات يومٍ، فبقيتْ وحدها في الصحراء، وقالت: إلهي، إن قلبي مضطربٌ وسط هذه الدهشة، أنا لبنةٌ والكعبة حجر، وما أُريده هو أن أشاهدَ وجهَكَ. فناداها حينئذٍ صوتٌ من عند الله تعالى يقول: يا رابعة، أَتعملين وحدك ما يقتضي ذمَّ الدنيا كلها؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا، لم نُلقِ إلاّ ذرةً من نورنا على جبلٍ، فخرَّ صَعِقاً.

ويُروى مرةً أُخرى: أنه لما كانت رابعة بسبيل الحجِّ، رأتَ الكعبةَ قادمةً نحوها عبر الصحراء. فقالت رابعة: لا أُريد الكعبة، بل ربَّ الكعبة، أمَّا الكعبة فماذا أفعل بها؟ ولم تشأ أن تنظرَ إليها.

وكان إبراهيمُ بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة، لأنَّه كان في كلِّ خطوةٍ يُصلّي ركعتين، وكان يقول: غيري يسلك هذه الطريق على قدميه، أمَّا أنا فأسلُكُها على رأسي. وبعد أربعين سنة بلغها، فلم يجدْها في مكانها، فقال نائحاً: وا أسفاه، أصرتُ أعمًى حتى لا أرى الكعبة؟ فسمع صوتاً يقول: يا إبراهيم، لستَ أعمى، لكنَّ الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة. فتأثَّر إبراهيم، ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها، وأبصر رابعة تتقدَّمُ مُستندةً إلى عصًا: أي رابعة ـ هكذا قال لها ـ ما أجلَّ عملك! وما الضجة التي تُحدثينها في الدنيا! الكلُّ يقولون: ذهبتِ الكعبةُ للقاء رابعة. فأجابته رابعة: يا إبراهيم، وأيَّةُ ضجَّةٍ تُحدثُها أنت في الدنيا بأن أَمضيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان، لأنَّ الكلَّ يقولون: إبراهيم يتوقَّفُ كلَّ خطوةٍ ليُصلّي ركعتين. فقال إبراهيم: نعم، قد أمضيت أربعين سنةً في اختراق هذه الصحراء. فأجابت رابعة: يا إبراهيم، أنت جئتَ بالصلاة، وأنا جئت بالفقر. وبكت طويلاً، وبعد أن زارت الكعبة عادتْ إلى البصرة.

وفي وثبةٍ من قلبها صاحت: إلهي، وعدت بجزاءين لشيئين: القيامِ

بالحج، والصبرِ على الشدائد، فإذا لم يكن حجّي صحيحاً عندك، فما أكبرها مصيبة عندي! لكن ما جزاء هذه المصيبة؟

وفي السنة التالية قالت: إذا كانت الكعبةُ قد أقبلت إليّ في العام الفائت، أنا التي سأقبلُ عليها هذا العام.

وروى الشيخ أبو علي الفارمذي أنه لما جاء موسم الحجّ، توجّهت رابعةُ ناحيةَ الصحراء، وتقلّبتْ على أضالعها حتى بلغتِ الكعبة في سبعة أعوام، فلمّا بلغتها سمعتْ صوتاً يقول لها: ماذا تُريدين يا رابعة؟ إذا كنتِ تُريدينني فسأتجلّى لكِ بكلِّ جلالي، فتذوبين توًّا كما يذوب الماء. فأجابت: إلهي، ليس لي من الطاقة ما يُبلّغني هذه المرتبة، ولستُ أطلبُ إلاّ ذرّةً من الفقر الروحي. فقال الصوتُ: أيْ رابعة، إنَّ الفقرَ عاطفةُ خوفٍ من غضبنا، جعلناها في طريق الأولياء، لكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلاّ قيد الشعرة فقد يحدثُ أن يفسدَ أمرُهم في الحال، وينحُو عن الغاية، أمّا أنت، فلا تزالين في داخل السبعين حِجاباً ومقاماً، فطالما لم تخرجي من تحتها، وتضعي قدمَك في طريقنا، لن تقدري على الحديثِ عن الفقر. فقال صوتٌ: يا رابعة، انظري إلى الأعلى. فلمّا نظرت إلى الأعلى، رأتْ بحراً من الدم مُعلّقاً في الهواء، وصاح لها صوتٌ: يا رابعة، إنَّ هذا البحرَ من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبُّونا وسعوا إلينا، ومنذ المقام الأول قُضي عليهم إلى حدٍّ أنّه لم يبق من أشخاصهم أثرٌ في هذا العالم أو في الآخرة. فقالت رابعة: إلهي، دعني أرى مثلاً على درجةِ السعادة التي يصلُ إليها هؤلاء العشّاق. فما أتمَّتْ هذه العبارة حتى أتاها الحيضُ، وصارت غيرَ طاهرة، وفي نفسِ الوقت ناداها صوتٌ يقول: إنَّ المرتبةَ الأولى التي يبلغها العشاق يُمثّلها تماماً إنسانٌ تقلّبَ على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللّبن، ولمّا اقتربَ من هذا الجدار أُغلقَ الطريقُ على نفسه نتيجةَ عائقٍ نشأ عن شخصه. فلمّا يئستْ رابعة قالت: إلهي، لا تدعني كي أبقى في بيتي، ولا تُريد أن تقبلني في بيتك؛ فإمّا أن تدعني أُقيم هادئةً في بيتي بالبصرة، أو اسمحْ لي أن أدخل الكعبةَ، وهي منزلك، لقد فتّشتُ

عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة؛ دعني إذن أذهبُ؛ فلستُ جديرةً بدخول بيتك. ثم عادتْ إلى البصرة؛ وأقامت في خلوتها، وانقطعت بكامل نفسها للعبادة.

ويُروى: أن عالِمَيْنِ ذهبا لزيارة رابعة؛ وكانا جائعين، فقدَّمتْ لهما رغيفين كانا عندها، وفي تلك اللحظة جاء شيخٌ يَسألُها على الباب، فقدَّمتْ إليه الرغيفين. فدهش العالمان، وجلسا يتأمَّلان ما جرى، فشاهدا خادمةً تحملُ مفرشاً من الخبز، وضعته أمام رابعة، وقالت: إنَّ سيدتي في خدمتك. فلمّا عدَّتْ رابعةُ الأرغفة وجدتها ثمانية عشر، فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش، وقالت: خذيها واذهبي، لقد أخطأتِ العدد. فقالت الخادمة: كلاَّ لم أخطئْ. فقالت رابعة: كلاَّ، بل ثمَّت خطأ. فأخذتِ الخادمة المفرشَ، وذهبت إلى سيدتها، وروت لها كلَّ ما حدث، فوضعتِ السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وأرسلتها. فأحصتْ رابعةُ عددَها، فوجدته عشرين، وضعتها أمام ضيوفها من العلماء، فلمّا فرغا من الطعام سألاها السرَّ فيما حدث. فأجابت رابعة: لمّا وصلتم عرفتُ أنّكم جائعون، فقلت لنفسي: ليس عندي إلاّ القليل، وفي تلك اللحظة جاء السائلُ الذي أعطيته الرغيفين، ثم دعوتُ هذه الدعوة: إلهي، لقد قلت: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وأنا من أجلك أعطيت رغيفين، فأعطني عشرةً من كلِّ واحدٍ. فلمّا جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً، قلت لنفسي: إمّا أن يكون أحدُ الناس قد أخذ منها اثنين، وإمّا ألاَّ تكون لنا. ورددتها، فلمّا أعادتها بزيادة رغيفين، فهمتُ أنَّ هذه لنا.

وذات ليلة كانت رابعة تتهجَّدُ، فدخلت قصبةٌ في عينها دون أن تشعر بها، لأنَّ عشقها لله كان متأصِّلاً في أعماق قلبها.

ويحكي كذلك: أنَّ لصًّا دخل بيت رابعة، وسرقَ خِمارها، ولكنَّه لم يجدْ مخرجاً، لكن لم يكدْ يدع الخمارَ في مكانه حتى وجد المخرج، فأخذ الخمارَ من جديد، لكنَّ السبيل أُغلقَ عليه، وفعل هذا سبع مرات، يأخذ الخمار

ولا يجدُ المخرج إلاّ إذا أعاده إلى مكانه، هنالك ناداه صوتٌ يقول: يا لص، لا جدوى في محاولاتك، فمنذ عهدٍ طويلٍ ورابعة قد وكلَتْ إلينا السهرَ عليها، ولا نسمحُ بدخول إبليس في خلوتها، وأنت أيُّها اللص، تُريد أن تسرق خمارها؟ ألاَ فلتعلم أيُّها الشقيُّ أنه حينما يكون أحدُ أحبابنا غارقاً في النوم، هناك صديقٌ يسهرُ على أمره.

كما يُروى: أنَّ خادمةَ رابعة كانت تُهيِّئ طعاماً بالزيت لسيدتها، فلم يكن عندها بصلٌ، فقالت لها: سأسأل جارتنا وأعود. فقالت رابعة: منذ أربعين سنة وقد عاهدتُ اللهَ على ألاَّ أسألَ أحداً شيئاً غيره، فإذا لم يكن ثمت بصل فلا ضيرَ. وفي الحال تبدّى طائرٌ يحملُ بصلاً قشّره وقطّعه قطعاً وألقى به في المقلاة، فلم تأكل رابعة من هذا الطعام، واكتفت بالخبز، ثم قالت: يجب على المرء ألاَّ يغترَّ بحيل الشيطان.

ويُروى أيضاً: أنَّ رابعة صعدت جبلاً، فأقبلت حولها كلُّ الغزلان الموجودة؛ وبقيت آمنةً كلَّ الأمان، وفجأة جاء الحسنُ البصري، ففرَّتْ كلُّ الغزلان، فقال لها: يا رابعة، لماذا فرّت كلُّ الغزلان منّي، ولم تفرَّ منك أنت؟ فسألته: ماذا أكلتَ اليوم يا حسن؟ قال: أكلتُ طعاماً طُهي بقطعة زيتٍ. فقالت رابعة: يا مَنْ تأكلُ من دهنها، كيف تُريدُ ألاَّ تفرَّ منك؟

ويُحكى: أنَّ الحسن البصري رأى رابعة جالسةً على شاطئ الفرات، فألقى على الماءِ سجادته، ووقف عليها، وقال: يا رابعة، تعالي نُصلّي ركعتين على الماء. فقالت: سيدي، أهي أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة؟ أظهر لنا شيئاً لا يستطيعُ جمهورُ الناس أن يفعلوه. قالت هذا وألقتْ سجّادتها في الهواء، وصعدت عليها وصاحت: تعالَ يا حسن، نحن هنا في مكانٍ آمنٍ وأبعدَ عن عيون الناس. وقالت تعزيةً للحسن: سيدي، ما فعلتَ أنتَ يستطيعُ السمك أن يفعله، وما فعلتُ أنا يستطيعُ الذُّباب أن يفعله، المهمُّ أن نبلغَ درجةً أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما.

ويُروى أنَّ الحسن البصري قال: بقيتُ ليلةً ويومًا عند رابعة نتحدَّثُ عن

الطريق الروحي، وأسرارِ الحقّ بحرارةٍ بلغت حدًّا نسينا معه أنني رجلٌ وأنها امرأة، فلمّا انتهينا من هذه المناقشة، شعرتُ بأنني لم أكن إلاّ فقيراً، بينما هي غنيةٌ بالإخلاص.

ومرة أُخرى ذهب الحسن البصري وبعضُ أصحابه إلى رابعة، وكان الوقت ليلاً، فاحتاجوا إلى مصباحٍ، فلم يجدوا، هنالك وضعت رابعةُ أطرافَ أصابعها في فمها، ثم أخرجتها، فظلّ يشعُّ منها حتى مطلع الفجر نورٌ كأنه نور مصباح. فإن سأل أحدٌ كيف حدثت هذه الكرامة، فأخبره أنَّ النورَ كان يشعُّ من يد موسى. فإذا قيل لك؛ إنَّ موسى عليه السلام كان نبيًّا، وإن رابعة لم تكن نبيةً، فأجب: إنَّ من ينفِّذُ الأوامرَ التي أتى بها الأنبياء يشاركُ في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ فإذا كان للأنبياء معجزاتٌ، فإنَّ للأولياء كرامات. وهذه حقيقةٌ يؤيِّدُها حديثُ الرسول عليه السلام حين قال: «من ردَّ دانقاً ـ وهو سدس الدرهم ـ من الحرام، فقد نال درجة النبوة[1]»، أو «الرؤيا الصادقة جزءٌ من النبوة».

ويُحكى أنَّ رابعة أرسلت إلى الحسن البصري ثلاثة أشياء: قطعةَ شمع، وإبرةً، وشعرةً، وأمرتِ الرسول أن يقول له: يا حسن، اشتعلْ كالشمع، وأَضيء للناس؛ وابدأ بأن تكون مُتجرِّداً، ثم اعمل؛ فإن فعلت هذين، صِرْ نحيلاً كالشعرة إذا أردت ألاّ يذهبَ جهدُك سدًى.

وسألها الحسن البصري: هل تتزوَّجين؟ فأجابته: الزواج ضروريٌّ لمن له الخيار؛ أمّا أنا فلا خيارَ لي في نفسي؛ إني لربّي، وفي ظلِّ أوامره، ولا قيمة لشخصي. فقال الحسن: فكيف بلغت هذه الدرجةَ؟ قالت: بفنائي بالكلّية. فقال الحسن: أنت تعرفين لماذا؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا. ثم أضاف: أي رابعة، أخبريني بشيءٍ مما أُلهمتِه. فأجابت رابعة: ذهبتُ اليوم إلى السوق ومعي حزمتان من الحبال، بعتُها بمثقالين من الذهب حتى أحصل على طعامٍ،

(١) بنصه العربي في الأصل.

وأخذت إحدى القطعتين في كلتا اليدين مخافة أنّي لو أمسكتُ بهما معاً لجعلاني أضلّ الطريق القويم.

وقال لها الحسن أيضاً: لو كنتُ في الجنة بعيداً قدر نَفَسٍ من وجه الله لبكيت إلى حدٍّ يُثير شفقةَ الآخرين عليَّ. فقالت رابعة: حسناً؛ لكنّ من يهمل في هذه الدنيا، أو يُسبّح بحمد الله لحظةً وهو ينوح ويبكى، فإنَّ هذا آيةٌ على أنه في الآخرة سيكون على الحال التي وصفتها.

وسئلت: لماذا لا تتزوّجين؟ فأجابت: هناك ثلاثةُ أشياء تسبّبُ الهمّ عندي؛ فإذا كان من يُخلّصني منها تزوّجت. قيل: وما هي؟ فأجابت: أولها: هل إذا أنا مُتُّ أأستطيع أن أتقدّم بإيماني طاهراً؟ والثاني: إذا ما كنتُ سأُعطى كتابي بيميني يوم القيامة؟ والثالث: إذا جاء يومُ البعث وأُخذ أصحابُ الميمنة إلى الجنة، وأصحابُ المشأمة إلى السعير، فمن أي الفريقين سأكون؟ فقالوا جميعاً: لسنا نعرف شيئاً عمّا سألته. فقالت: إذا كان الأمر كذلك، وأنا في قلقٍ من هذه الأمور، فكيف أحتاجُ إلى الزوج وأتفرّغ له؟

وسُئلت: من أين أتيت؟ فقالت: من العالم الآخر. فقيل: وإلى أين تذهبين؟ قالت: إلى العالم الآخر. قيل: وماذا تفعلين في هذه الدنيا؟ قالت: أعبث بها: قيل: وكيف تعبثين بها؟ قالت: آكل من خُبزها، وأعملُ عمل الآخرة.

وسئلت أيضاً: إنك بارعةٌ في الكلام، أفلا تصلحين لحراسة رباط؟ فقالت: إني حارسةُ رباطٍ فعلاً، لأنّي لا أدع شيئاً يخرجُ ممّا في داخلي، ولا أدع شيئاً يدخلُ ممّا هو خارج.

وسُئلت: أي رابعة، أتحبّين الله تعالى؟ قالت: أوه، نعم أحبُه حقًّا. قيل: وهل تكرهين الشيطان؟ قالت: إنَّ حبّي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان.

ويُروى: أن رابعة رأت الرسول عليه السلام في المَنام، وهو يُسلّم عليها

ويقول: يا رابعة، أتحبّينني؟ فقالت: يا رسول الله، وهل ثمت من لا يحبُّك؟! لكن حُبّي لله تعالى قد ملأ قلبي إلى حدٍّ لم يجعل هناك مكاناً لمحبّة غيره أو كراهيته.

وسُئلت رابعة: أترين من تَعبدينه؟ فأجابت: لو كنتُ لا أراه لما عبدته.

ويُروى: أنها كانت دائمةَ البُكاء، فسُئلت: لماذا كل هذا البكاء؟ فأجابت: أخشى أن ينادي صوتٌ في اللحظة الأخيرة ويقول: إن رابعة ليست جديرة بالمثول في حضرتنا.

وأُلقِيَ عليها هذا السؤال: أإذا تاب أحدٌ من عباد الله أتقبلُ توبته؟ فقالت: إذا لم يتفضّل عليه اللهُ بالتوبة، فكيف يتوب؟ وإذا تاب عليه، فلا شكَّ في أنه سيتقبَّل توبته.

وقالت أيضاً: ليس من المُستطاع أن تُميّزَ بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله، ولا أن تصل إليه باللسان، فلتجعل قلبك مُستيقظاً، فإذا استيقظ رأيتَ بعيونه الطريقَ، وكان في وسعك بلوغ المقام.

وقالت أيضاً: إنَّ ثمرة العلم الروحي هو أن تصرفَ وجهك عن المخلوق كيما تُوجّهه إلى الله الخالق وحده، لأنَّ المعرفة هي معرفةُ الله.

ويُحكى: أن رابعة رأتْ رجلاً عصبَ رأسه، فسألته: لماذا عصبت رأسك؟ فأجاب: لأنه يؤلمني. فقالت رابعة: ما عُمرك؟ قال: ثلاثون عاماً. قالت: وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنتَ في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً؟ قال: كنت في الغالب سليمًا. قالت: ولمّا كنتَ سليماً، هل عصبْتَ رأسَك يومًا علامة نعمة، حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألمِ يومٍ، وتعصب رأسك هكذا؟

ويُحكى: أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف في بيتٍ مُنعزل لا تفارقه. فقالت لها خادمتها: سيدتي، غادري هذا البيت، وتعالي تأمّلي آثار قدرة الله تعالى. فأجابتها: بل، ادخلي أنت وتعالي تأمّلي القدرةَ في نفسها، وأضافت: إنَّ مهمتي أنا هي أن أتأمّلَ القدرة.

ويُحكى: أن رابعة صامت سبعَ ليالٍ وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً، ولا تنام الليل، مُنقطعةً إلى الصلاة، وفي الليلة الثامنة قالتْ لها نفسُها الأمّارة بالسوء، وهي تنوح: يا رابعة، إلى متى تُعذّبينني هكذا دونما هوادة؟ وخلال هذا الحديث النفسي سُمعَ صوتُ قرعٍ على الباب، ففتحت رابعة، فكان رجلٌ أحضرَ لها طعاماً في كأسٍ. فأخذته رابعة، ووضعته في البيت؛ فلمّا تركته لإشعال المصباح أتى قطٌّ وأكلَ كلَّ ما في الكأس. فلمّا عادت رابعة، ورأت ما حدث قالت: سأبحث عن ماءٍ أُفطرُ به. فلمّا ذهبت للحصول على ماءٍ انطفأ المصباح. فعادت ورفعت الجرةَ للشرب، لكنّها سقطت من يديها وانكسرت. فزفرت رابعةُ زفرةً كاد البيتُ أن يحترق منها، وصرخت: إلهي، ماذا أردتَ بهذه المسكينة؟ فسمعتْ صوتاً يقول: يا رابعة، إذا شئت أعطيناكِ الدنيا بأسرها؛ لكن يجب من أجل هذا أن ننزعَ الحبَّ الذي في قلبك لنا، لأنَّ حبَّنا وحبَّ الدنيا لا يجتمعان معاً. فقالت رابعة: لمّا سمعتُ أني أُخاطَب على هذا النحو، نزعتُ من قلبي كلَّ تعلّقٍ بأمور الدنيا، وصرفتُ نظري عن كلِّ الدنيويات، وها أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلِّ فيها دون أن أقول: هذه الصلاة لعلّها تكون آخر صلواتي، ولم أملَّ من تكرار هذا القول: إلهي، أغرقني في حبِّك حتى لا يشغلني شيءٌ عنك.

ويُحكى: أنَّ رابعة كانت تنوح باستمرار، فسُئلت: لماذا تنوحين، وما من ألمٍ تشكين منه؟ فأجابت: وا أسفاه، إنَّ العلّة التي أشكو منها من نوعٍ لا يستطيع طبيبٌ أن يشفيه؛ ودواؤها الوحيد هو رؤية الله، وما يُعينني على احتمال هذه العلّة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر.

ويُحكى: أنه أتى إلى رابعة كثيرٌ من الصالحين، فسألتْ أحدَهم: وأنت، لماذا تعبدُ الله تعالى؟ فأجاب: لأنّي أخاف النار. وقال آخر: وأنا أعبده خوفاً من النار، وطمعاً في الجنة. فقالت رابعة: ما أسوأَ العبد الذي يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار! وأضافت: فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار، أفلا تعبدُ الله تعالى؟ فسألوها: وأنت، لماذا تعبدين الله؟ فأجابت: أعبده لذاته؛ أفلا يكفيني نعمةٌ منه أنه يأمرني بعبادته؟!

ويُروى كذلك: أنَّ جماعةً من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة؛ فلمّا رأوها عليها أسمالٌ ممزّقة، قالوا: أي رابعة، كثيرٌ من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة. فأجابت: إنّي أخجلُ من أن أسألَ الناسَ شيئاً من متاع هذه الدنيا؛ لأن شؤون الدنيا ليست ملك أحد، وما هي إلاّ عارية في يد من هي في يده. فقالوا: هذه امرأةٌ نبيلة العواطف. ثم سألوها: إن الله تعالى قد توّجَ رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومَنْطَقَهُمْ بها؛ ولكن هذه المقامات لم تظفرْ بها امرأة، فكيف بلغتِ هذه المرتبة؟ فأجابت: ما قلتموه صحيح، لكنَّ الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأةٍ، ولم تصر امرأةٌ فاسقةً لامرأة أخرى.

ويُروى: أن رابعة مرضت، فلمّا سُئلت: ماذا أصابها؟ أجابت: في هذه الليلة عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة، فأصابني الله بهذه المحنة حتى يُرغمني على الاحترام.

وروى الحسنُ البصري قال: ذهبتُ يومًا إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها، فرأيتُ تاجراً يبكي، فسألته: ما يُبكيك؟ فأجاب: أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب، وأخشى ألاّ تقبله، فاذهب أنت، واطلب منها أن تقبلَهُ لعلّها تفعل. فدخلتُ على رابعة ـ هكذا قال الحسن ـ ولم أكد أُخبرها بهذا الذي قاله التاجر حتى نظرتْ إليَّ بمؤخَّرِ عينها، وقالت: إنّك أيُّها الحسن تعرف تماماً أنَّ الله تعالى يُعطي الطعام لمن لا يركعون له، فكيف لا يُعطيه من يغلي قلبه حبًّا لجلاله، هو يرزق من يسبُّه، أفلا يرزقُ من يحبُّه[1]؟ وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كلِّ مخلوق، والآن، فكيف أقبلُ المال من إنسانٍ، ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام؟! ثم قالت: ذات يومٍ وضع في المصباح زيتٌ من بيت السلطان، ورفوت ثوبي الممزّق على ضوءِ هذا المصباح، فظلَّ قلبي طوالَ أيام مغموراً بالظلمة، ولم يُضئ إلاّ حينما شققت الثوبَ الذي رفوته، فاعتذرْ لهذا التاجرِ، ودعه يذهب.

(١) في الأصل بالعربية.

وذات مرة جاء تاجرٌ غنيٌّ لزيارة رابعة، فرأى بيتها وهو يتداعى، فأعطاها ألف درهم من الذهب، وأهداها بيتاً جيداً. فذهبت رابعةُ إلى البيت، ولم تكد تستقرُّ فيه حتى استغرقت في تأمّل الصور التي فيه؛ فقالت في الحال، وهي تُعيد إلى التاجر الألف درهم من الذهب: أخشى أن يتعلّقَ قلبي بهذا البيت، فلا يعودُ في استطاعتي أن أشغلَ نفسي بعمل الآخرة، إنَّ كلَّ رغبتي في أن أفرغ لعبادة الله تعالى.

ويُحكى: أن عبد الواحد بن زيد، وسفيان الثوري ذهبا يومًا لزيارة رابعة، فلمّا أبصراها أخذهما الإجلالُ لها، فأُرتجَ عليهما، وأخيراً قال سفيان: أي رابعة، ادعي الله حتى يُخففَ آلامك. فسألته: يا سفيان الثوري، من بعث إليّ بهذه الآلام؟ فأجاب: إنه الله تعالى. فقالت: إذا كانت مشيئة الله أن يمتحنني بهذه المحنة، فكيف أتوجّهُ إليه مُتجاهلةً إرادته؟

وقال لها سفيان أيضاً: أي رابعة، ماذا يودُّ قلبك؟ فأجابت: يا سفيان، وأنت الرجل العليم، كيف تنطق بهذه العبارات؟ إنَّ الله تعالى يعلمُ أنَّ قلبي يُريد منذ اثنتي عشرة سنة بلحاً ناضجاً، وهو ليس بنادرٍ في البصرة، ومع هذا فقد بقيتُ حتى اليوم لا آكل منه، لستُ إلاّ عبدةً، وليس لي أن أتصرَّفَ وفق أهواء قلبي، لأنّي إذا أردتُ ولم يُرد هو لكان هذا منّي جحوداً. فقال سفيان: لكن، لستُ بقادرٍ على أن أحدّثك في شؤونك؛ لكن حدّثيني أنت عن شؤوني. فقالت رابعة: لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنتَ رجلاً لا غبارَ عليك. قال سفيان: فصرختُ باكياً: إلهي، ليتك ترضى عنّي. فقالت رابعة: ألا تخجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عني دون أن تفعل شيئاً لرضاه؟

ويُروى: أنَّ مالك بن دينار قال: ذهبتُ إلى رابعة، فوجدتها تشرب من جرَّةٍ مكسورةٍ، وقد فرشتْ على الأرض حصيرةً عتيقة، ومخدَّتُها من اللبن. فقلتُ وقلبي يغلي: يا رابعة، لي أصدقاء أغنياء؛ فإن سمحْتِ لي سألتهم أن يُعطوني شيئاً من أجلك. فأجابت: لقد أسأتَ القولَ يا مالك؛ إنّ الله تعالى هو الذي

يرزقني ويرزقهم، أفمن يَرزقُ الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنها كلَّ الرضا.

ويُحكى: أنَّ مالك بن دينار، والحسنَ البصري، وشقيقَ البلخي ذهبوا لزيارة رابعة، فتحدّثوا عن الإخلاص، فقال الحسن: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يصبر على ضربِ مولاه. فقالت رابعة: هذا غُرورٌ. وقال شقيقُ البلخي: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يشكرْ على ضرب مولاه. فقالت رابعة: هناك ما هو خيرٌ من هذا. فقال مالك بن دينار: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يتلذَّذْ بضرب مولاه. فصاحت رابعة: هنالك أفضل من هذا. فقالوا لها: تكلّمي أنت إذن. فقالت رابعة: ليس بصادقٍ في دعواه من لم ينسَ الضربَ في مشاهدة مولاه، مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف.

وكان أحدُ علماء البصرة يزور رابعة، فأنشأ يتحدَّثُ عن شرور هذه الدنيا، فقالت رابعة: آه، لا بدَّ أنك تحبُّ هذه الدنيا، فإنَّ من أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره، فمن يريد أن يشتري ثيابًا يتحدَّث عنها كثيراً، فلو أنَّك تجرّدت تماماً عن هذه الدنيا، فماذا يهمك من خيراتها أو شرورها؟

ويُروى: أنَّ الحسن البصري قال: عند صلاة الظهر ذهبتُ إلى رابعة؛ وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم، فلمّا بدأنا الحديث عن المعرفة، قالت: لا حديثَ خير من هذا؛ والأفضلُ أن أستمرَّ فيه على أن أطهي اللحم. ولم تنفخ في النار تحت القدر، فلمّا فرغنا من صلاة العشاء، أحضرتْ رابعةُ ماءً وخبزاً جافاً، ثم أفرغت ما في القدر، فوجد أنَّ اللحمَ الذي كان فيه قد طُهي بقدرة الله، فأكلنا من هذا، وكان له طعمٌ لم نتذوق مثله قط.

وقال سفيان الثوري: كنت عند رابعة ذات ليلةٍ، فصلَّتْ حتى أشرق الفجر، وصلّيت أنا كذلك، وفي الصباح قالت: يجب أن نصومَ اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة.

ويُروى: أنها كانت تقول وهي لهيفة القلب: إلهي، إن بعثتَ بي يوم البعث

إلى النار لأذعت سرًّا يُبعدُ النار عنّي بألف سنة.

وكانت تقول: إلهي، كلّ ما قدّرته لي من خيرٍ في هذه الدنيا أعطه لأعدائك؛ وكلّ ما قدّرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك، لأني لا أسعى إلاّ إليك أنت وحدك.

وكانت تقول: إلهي، إذا كنتُ أعبدك خوفَ النار فأحرقني بنارها، أو طمعاً في الجنة فحرّمها عليّ، وإذا كنتُ لا أعبدك إلاّ من أجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك.

ويُروى: أن رابعة قالت: إلهي، إذا بعثت بي إلى النار يومَ البعث فسأصرخ نائحة: ربّي، يا من أحبُّه كلّ هذا الحب! أهكذا تعامل من يحبونك؟ فسمعت صوتاً يقول: يا رابعة، لا تظنّي بنا ظنَّ السوء، لأننا سنُعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تستطيعي أن تحدّثينا عن أسرارنا.

ويُروى: أن رابعة قالت ذات ليلةٍ: إلهي، حينما أُصلي، اصْرِفْ عن قلبي كلّ وساوس الشيطان، أو بمنّك وكرمك تقبّلِ الصلوات التي تخالطها تلك الوساوس.

وحينما حضرتها الوفاة جلسَ حولها نفرٌ كبيرٌ من الصالحين، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا، ودعوا الطريق مفتوحةً لرسل الله تعالى. فنهضوا جميعاً وخرجوا، فلمّا أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهي تقول الشهادة، فلمّا تلفّظتِ النَّفَسَ الأخير، تجمّع أولئك الصالحون، وغسّلوها، وصلّوا عليها صلاة الموتى، ودفنوها في مقرّها الأخير.

ورُئيت رابعةُ في المنام، فسُئلت: بماذا أجبتِ منكر ونكير؟ فقالت: أتاني منكرٌ ونكير، فسألاني: مَنْ ربّك؟ فأجبت: أيُّها الملكان، اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى: أنت تأمرُ بسؤالي، أنا المرأة العجوزُ، بين هذا العدد من عبيدك، أنا التي لم أعرفْ غيرك! أفنسيتُكَ مرّةً حتى تبعثَ إليّ بمنكرٍ ونكير يسألانني؟

وقد زار محمد بن أسلم الطوسي، ونعمى الطرطوسي قبرَ رابعة، فقالا: يا رابعة، لقد افتخرْتِ بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة، فأين أنتِ الآن؟ فصاح صوتٌ من قبرها يقول: حبذا ما حدثَ ليْ! ما فعلتُ هو ما كان عليّ أن أفعلَهُ، والطريقُ الذي اكتشفته هو السبيلُ السويُّ. والله وحده أعلم.

* * *



الحسين بن منصور الحلّاج[١]

في مناقب أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج البغدادي:

وفي «النفحات»: [الحسين بن منصور الحلاج] البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ كان من الطبقة الثانية[٢].

كان الحسين الحلاج في بحر الأذواق سبّاحاً، وفي عرصة الأشواق سيّاحاً، وقد بلغ في الرياضة غايتَهُ، وفي الكرامة نهايتَهُ، وله تصنيفات كثيرة في الحقائق والمعارف.

وكان في أول رياضته لبسَ خرقةً ولم يخلعْها عن بدنه عشرين سنة، فيومًا خلعوها، فوجدوا قملةً بين القمال وزنُها نصف دانق.

وهو تلميذ عمرو بن عثمان المكي رحمه الله تعالى.

وكان سبب هلاكه بدعاءِ أستاذه عمرو المكي، فإنه ألف كتاباً في علمي التوحيد والتصوف، وأخفى مسوّدته، فسرق الحلاج بعضَ أجزائه، وأراها الناس، فلمّا طلبه ولم يجده قال: اللهم، اقطعْ يدَ من أخذه ولسانه، وافد به الخشبة. أي المصلب، كما ذكرنا في منقبة عمرو بن عثمان.

رُوي: أنه جاء رجلٌ عند الحلاج، فرأى عقربًا يدبُّ بين يديه، فأراد أن يقتله، قال الحلاج: دعه؛ فإنه كان نديمًا لنا اثنتي عشرة سنة.

(١) جاء هذا الفصل في كتاب عطار نامه تأليف الدكتور أحمد ناجي القيسي صفحة ٤٥٨ نقلاً من المخطوط رقم (٤٨٨٥) مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد، الورقة (١٤٦و) وما بعدها. دونما ذكرٍ لمن ترجمه، أو سنة الترجمة، وانظر ترجمته في الملحق (١) صفحة (٨٢٧).

(٢) جاء في حاشية كتاب عطارنامه: في «نفحات الأنس» إنه من الطبقة الثالثة ص ٢٢٥. هذه الجملة فقط منقولة من «النفحات»، وما يبقى مترجم بتلخيص عن تذكرة الأولياء، والترجمة ضعيفة الأسلوب وإنما آثرنا نشرها هنا ليستفاد منها.

قال رشيد السمرقندي: خرجتُ للحجِّ، وصادفت الحسين الحلاج في البادية ومعه أربع مئة من مُريديه، فذهبت معهم أياماً، فلم يبق لهم شيءٌ من الزاد، فقال أصحابه: نشتهي مشويَّ رأس الشاة. فقال لهم: اقعدوا. فقعدوا، فناول يده إلى ورائه، فأتى بطبقٍ فيه لكلِّ واحدٍ منهم رأسٌ مشوي مع رغيفين، يعني أحضر لهم أربع مئة رأس، وثمان مئة رغيف يتناول كلٌّ واحد منهم، فأكلوا وشبعوا، ثم بعد أيامٍ قالوا: نشتهي رطبًا. فقام وقال: حرّكوني تحريكَ النخل. فأمسكوه، وحرّكوه، فتساقط منه رطبٌ جنيٌّ، فأكلوا وشبعوا، فبعد أيام قالوا: نشتهي تينًا. فمدَّ يده إلى الهواء، فأنزل طبقًا مملوءاً بالتين الرطب، فأكلوا وشبعوا. قال: هكذا وقع أمثاله في البادية مراراً.

روي أنه قيل له: فما الصبر؟ قال: الصبر ما لو قُطِعَ يدُ الرجل ورجله ولسانه أن لا يئنَّ. ومن العجب أنه قُطع جميع جوارحه ولم يئنَّ.

روي: أنه كان يُصلّي كلَّ يومٍ وليلة أربع مئة صلاة بغسلٍ جديد في كلِّ صلاة، فقيل: ما سببُ إتعاب نفسِك بمثل هذه المشقة؟ قال: لا مشقَّةَ للعاشق في طاعة المعشوق؛ بل هي استراحة.

قال في «التذكرة»: أكثر المشايخ أبوا عن قبول حسين بن منصور، وقالوا: ليس له قدمٌ في التصوف إلاّ أنَّ أبا عبد الله بن خفيف، والشبلي، وأبا سعيد بن أبي الخير، وأبا القاسم الرماني، وأبا علي فارمذي، والإمام أبا يوسف الهمذاني رحمهم الله تعالى، وجملةَ المتأخّرين قبلوه، واعتقدوه بحسن الاعتقاد، وتوقّف بعضُهم في شأن كماله.

قال أبو القاسم التُّستري: إنه إن كان مقبولاً عند الله تعالى فلا عيبَ فيه بردِّ الخلق، وإن [كان] مَردوداً عنده فلا اعتبار لقبولِ الخلق إياه.

وبعضُهم نسبوه إلى السحر، ونسبه بعضُ أصحاب الظواهر إلى الكفر، وبعضهم إلى الإلحاد.

وقال بعضهم: إنه كان من أصحاب الحلول.

و[قال] بعضهم: إنه كان من أصحاب الاتحاد.

والحقّ أنَّ من شمَّ روائح التوحيد لا يليق به حالُ الحلول والاتحاد.

قال في الأصل: هركه اين سخن گويد خود سرشده از توحيد خبر ندارد شرح دادن اين طولي دارد واين كتاب جاي اين نيست[(١)].

قيل: إن في بغداد جماعةً من الزنادقة يقال لهم الحلاّجيون، وهم بغلط الإلحاد، ينسبون أنفسهم إلى الحسين الحلاج، ولم يفهموا كلامه، ويفتخرون بكونه في ذلك الباب. ومن العجب أنّهم يسمعون كلامَ الله من الشجرة بأني أنا الله لا إله إلا هو، ويقولون: قال الله تعالى كذا، ولا يَنسبونه إلى الشجرة، وأنهم يسمعون من شجرة وجود ابن منصور: أنا الحق، ويقولون: قال ابن منصور كذا، ولا يقولون إنَّ الله قال كذا بلسان الحلاج، كما رُوي أنَّ الله تعالى تكلَّمَ بلسان عمر رضي الله عنه، ولا حلول ولا اتحاد فيه.

قيل: سبب توصيف الحسين بالحلاج أنّه كان يمرُّ على حانوتِ القطان، فنظر إلى غرارةِ القطن، فطار القطنُ إلى فوق كالمحلوج، فتعجّب الناس، ولهذا قالوا: حسين الحلاج.

قال بعضهم: إنَّ الحسين بن منصور الحلاج الصادق المحقَّ غيرُ الحسين بن منصور الحلاج الكاذب الملحد، وهو كان أستاذ محمد بن زكريا، ورفيقَ أبي سعيد القرمطي، وهو ساحرٌ، وحسين بن منصور المحقُّ من بيضاء فارس.

وهو من قال أبو عبد الله بن خفيف في حقِّه: إنه عالم رباني.

وقال الشبلي: أنا والحلاج كنّا في سمتٍ واحد، لكن نسبوني بالجنون، فلذلك نجوت، فلكون حسين عاقلاً أهلكوه.

وههنا بعض تفصيل تركناه هربًا عن الإطناب.

---

(١) قال في الأصل: كلُّ من قال هذا الكلام فإنه لا يفقه شيئاً من التوحيد؛ وإن شرح ذلك يطول مما لا مجال له في هذا الكتاب.

فلمّا شاع من الحسين كلمةُ (أنا الحق)، قيل لجنيد: هل لكلام الحسين تأويل؟ قال: لا تأويلَ له سوى القتل.

ثم إنَّ العلماء اجتمعوا عند الخليفة المقتدر بالله بن المعتضد بالله، وقالوا: ما قاله يُوجب الحدَّ، فإن لم يرجعْ فالقتلُ.

وكان وزيرُه عليُّ بنُ موسى أرسل الحسين إلى السجن، ومكث فيه سنةً وخمسة أشهر، أرسل ابن العطاء إليه: فليرجع بما قال حتى تخلص له. كتب له الحسين: فليقل ابن العطاء بهذا النصح لمن يُكلّمني به. فلمّا سمعه ابن العطاء بكى، وتعجَّب من صلابته، وقال: ما مثل الحسين في بذل نفسه.

روي أنه لمّا سُجن جاء أحبّاؤه ليلاً، فلم يجدوه في السجن، ثم جاؤوا في الليلة الثانية، فلم يجدوا السجن أيضا، ثم جاؤوا في الليلة الثالثة فوجدوهما، فقالوا: يا أستاذنا، ما الحكمة لم نجدْك في الليلة الأولى، ولا السجن في الثانية، ووجدناكما في الثالثة؟ قال: كنتُ ذهبتُ في الليلة الأولى عند الحقِّ، وجاء الحقُّ عندنا في الليلة الثانية، ولذا لم تروا السجن، فالليلة تجرَّدْتُ لرعاية الشرع.

رُوي: أن جنيداً قال للحلاج: إنك تحمّرُ شجرة المصلب يومًا. فقال الحلاج: نعم، إنّي أُحمّر الشجرة بالدم، وأنت في ذلك اليوم تخلع خرقة الصوفية، وتتردّى برداء العلماء الظاهرة. ثم لمّا كتبَ العلماء الفتوى بقتل الحسين، خرجَ جُنيدٌ من الخانقاه، ودخل المدرسة، ولبسَ رداءَ العلماء، وقال: نحن نحكم بالظاهر في قتله، واللهُ يعلم باطنه.

ورُوي: أنه لمّا ألقوه في السجن، وكان فيه ثلاث مئة رجل، قال لهم الحلاج ليلةً: يا أهل السجن، أتريدون أن أُخلّصكم؟ قالوا: لو تملكُ لتخلّص نفسك أولى. فقال: أنا لا أُريد خلاصي؛ لأنّي في حبس الله تعالى، فلو أردتم أن أُحلَّ قيدَ أيديكم وأرجلكم ليرفع بإشارة. قالوا: فافعلْ إن كنتَ من الصادقين. فأشار بأصبعه، فرفعِ قيودهم، فقالوا: سلمنا من القيد؛ لكنَّ البابَ

مسدودٌ، فكيف الخلاص والخروج؟ فأشار إلى الحائط، فانصدعَ، فخرجوا، فقالوا: ألم تكنْ معنا؟ قال: لا إجازة لخروجي. فلمّا انفجرَ الفجر أتى السجّان، وتفقَّدَ السجن، فرآه خاليا غير الحلاج، فقال له: أين رفقاؤك؟ قال: قد أعتقتهم. فقال له: لِمَ لم تفرَّ أنت؟ قال: إنَّ الله تعالى معي، دخلتُ بإذنه، ولا أخرج إلا بإذنه.

فبلغ الخبرُ إلى الخليفة، فقال: إنّي أخاف أن يبعثَ الفتنة، فأحضروه. فأتوا به عند الخليفة، فضربه ثلاث مئة سوط، فلمّا وقع عليه السوطُ سمع الجلادُ منه: لا تخف يابن منصور. قال عبد الجليل الصفّار رحمه الله تعالى: إنَّ حُسنَ اعتقاد الجلاّد أزيدُ من الحلاج، حيث كان يسمعُ الكلامَ من العصا لم يخفْ، ولم يُسقطِ العصا من يده، ولم يرتعش لصلابته وقوّته في الدين وأمر الشرع.

ثم رفعوه، فقام وقال: الحقُّ أنا الحق. فقيّدوه بثلاثة عشر قيداً ثقيلاً، ثم أرسله الخليفة إلى السياسة والمصلب بفتوى العلماء، فاجتمع أهل بغداد كلّهم عليه، وكان الحلاّج يَتبختر في مشيه في العرصة كما يتبخترُ المُبارز المقاتلُ في الصفَّيْنِ. قيل له: هل هذا محلُّ التبختر، وقد حافوا عليك؟ قال: لا حيفَ عليَّ لأن اليوم يومُ وصولِ العاشق إلى معشوقه، وهو يومُ التبختر، ثم صاح وأنشد:

نديمي غيرُ مَنسوبٍ ... إلى شيءٍ من الحيفِ
سقاني مثلما يشر ... ب سقي الضَّيفِ للضيفِ
فلمّا دارتِ الكأسُ ... دعا بالنِّطعِ والسيفِ
كذا من يشربُ الرّاحَ ... مع التنين في الصيف

فقال الرجل: يا بن منصور، ما العشق؟ قال: ترى صاحبَهُ اليوم وغداً وبعد غدٍ.

ثم لمّا انتهى المساميرُ والصلب في باب الطاق، قبّل السُّلَّمَ، وقال: ذلك معراج التصوف. وتهيّأ الناس أن يرجموه بالحجر، فقال بعضُ مُريديه:

يا أستاذنا، ما تقول لنا؟ إن المنكرين يرمونك بالحجر. قال الحلاج: فإنَّ لهم أجرَيْنِ ولكم أجرٌ واحد. قالوا: بيّنْ لنا كيفية الحال؟ قال: لأنَّ رميهم ينشأُ من توحيدهم وصلابتهم في الشريعة، وأنتم لا تراعون أمر الشرع بحسن ظنّكم إيّاي، وهو فرع التوحيد، فالعملُ بالأصل أقوى.

فقال الشبلي رحمه الله تعالى: ما التصوف يا حلاج؟ قال: فأدنى مقامه تراه عليَّ في الساعة. فقال الشبلي: فما أعلى مقامه؟ قال: لا سبيل لك في معرفته.

ثم لمّا صعد على المصلب رماه الناس بالحجر، فوافقهم الشبليُّ، ورماه بالورد، فتأوّه الحلاج، قيل له: تأذّيتَ بورد الشبلي، ولم تتأذَّ بأحجارِ الناس! قال: وردُ العارف أشدُّ من بلية ذباب الأجانب.

ثم قطعوا يدي الحسين الحلاج، فتبسَّمَ أيضا. قيل له: هل هذا محل الضحك؟ قال: فإنَّ المقطوعَ يدُ الصورة، ويدُ القدرة باقية، فإن تقدروا فاقطعوها، وهي يد الصفات. ثم قطعوا رجليه، فتبسّم أيضا، فقال: رِجْلُ الصورة تطأُ على التراب، فلي رجلان أقطع بهما منازل الكونين في خطوة، وأطأ على العرش في الثانية. ثم مسحَ دمَ يديه بوجهه وبساعديه إلى مرفقيه، قالوا: ما تفعل به؟ قال: أتوضَّأُ به، فوضوء صلاة يكون بدم العاشق. ثم أرادوا قطع لسانه، فالناس بعضُهم يبكي، وبعضهم يفرح ويرمي، فقال: أمهلوني. فتوجَّه إلى السماء، وقال: إلهي، إن هؤلاء الجماعة قد أتعبوا أنفسهم فيَّ برمي الحجارة عليَّ، فاعفُ عنهم، واغفرْ لهم بتعبهم، ولا تجعلْهم مَحرومين من أجور الإطاعة في أمر الشرع.

وكانت امراةٌ تمرُّ عليه، فرأت سياستَهُ، وقالت: عجّلوا، وشدّدوا في الرمي والقطع على هذا الملحد الذي يدَّعي الاتحادَ بالحق.

فكان آخر قوله هذه الآية ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] ثم قطعوا لسانه، فلمّا كان كلُّ عضوٍ منه مقطوعًا، قال بدنُهُ: أنا الحق. ثم قطعوا رأسه وقت المغرب، فكلّما وقع

قطرةٌ من دمه، يرسم شكلَ (أنا الحق) في موقعه، فكثر صوتُ (أنا الحق) ممّا وقع من الدماء في موقعها، ومن كلِّ الأعضاء المقطوعة. فقالوا: إنّ فتنة موته كانت أفتنَ من فتنة حياته. فجعلوا كلَّ واحدٍ من الرأس والبدن قطعةً قطعة صغاراً، فلمّا أصبحوا سمعوا صوت (أنا الحق) من دقائق القطاع، فجمعوا القطاع بكرة وأحرقوها، وكان صعد صوتُ (أنا الحق) من كلِّ ذرات الرماد.

ثم في اليوم الثالث ذرّوا الرماد بالريح، فوقع شيءٌ من غباره في الدجلة، فعلا الماء وطغى، فكاد يُغرقُ بغدادَ وأهلها، وكان للحلاج خادمٌ خافق، وكان أوصى قبل موته وقال: لو كان الناس إذا جعلوني كذا وكذا، وطغى الماء ألقِ خرقتي في الدجلة، وإلاّ هلك الناس، وخربت بغداد. ثم إنَّ الخادمَ ألقى خرقته كما أمر، فسكن الماء وتنزّلَ، ونجا الناس. ثم دفنوا بقية رماده تحت الأرض.

قال أبو عباس بن عطاء: رأيتُ أنَّ ابن منصور يُؤتى يوم القيامة مُقيّداً بالزناجير، ولو أتى عاريًا عن القيد لضربَ أهلُ العرصات بعضهم بعضاً.

قال الشبلي: لما دُفن رمادُه قمتُ عليه بالصلاة والمناجاة، فقلت في نفسي: فيا عجبًا إنَّ عارفاً من عرفاء عباد الله ابتُلي بهذا البلاء؟! فجاء الخطاب في سمعي: إنّا ابتلينا الحلاج لإفشاء سرّي إلى الغير.

قال واحدٌ من المشايخ: ولمّا ساسوا ابن منصور قمتُ ليلةً، فسمعتُ صوتًا وقت السحر، قال: قد أطلعنا ابنَ المنصور على سرٍّ من أسرارنا، فأفشى سرَّنا، فهذا جزاءُ من أفشى سرَّ الملوك.

رُوي: أنهَ لمّا أُحضر الحلاج محلَّ السياسة، جاء إبليس، فقال: يا بن منصور، كنتُ قلتُ: (أنا) مرّةً، وقلتَ أنت (أنا الحق) مراراً كثيرةً، فكنتُ أنا ملعونًا مَطرودًا من روح الله، وكنتَ مقبولاً عند الله، فما الحكمة؟ فأجاب الحلاج وقال: أردتَ أنتَ بقولك (أنا) خالصًا بوجود نفسك، وأنا قلتُ (أنا) عند فقدان وجودي وفنائه. قال إبليس: صدقت، ومضى سبيله[1].

(١) إلى هنا تنتهي الترجمة.

فيوم وقع السياسة على الحلاج في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة لسنة تسع وثلاث مئة .

كذا في مناقب الأولياء رحمهم الله رحمةً واسعةً، ونفعنا بهمَمِهم وشفاعتهم في الدنيا والآخرة .

* * *



فهرس الفهارس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الآيات القرآنية الشريفة

الفاتحة

البقرة

آل عمران

العنكبوت

لقمان

الأحزاب

فاطر

يس

الصافات

ص

الزمر

غافر

فصلت

الشورى

الدخان

الجاثية

محمد

الفتح

الحجرات

ق

الذاريات

النجم

القمر

الواقعة

الحديد

التغابن

المنافقون

الطلاق

التحريم



الملك

المزمل

الإنسان

النازعات

البروج

الفجر

* * *

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ـ أ ـ

- ك -

- ل -

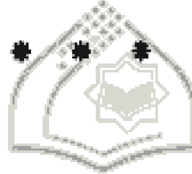
- م -

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -



فهرس الأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ ش ـ

* * *

فهرس الأقوام والأمم والقبائل والجماعات والمذاهب

* * *

فهرس الكتب

* * *

فهرس الأماكن والبلدان والأنهار

* * *



فهرس الأيام والوقائع

* * *



فهرس الأمثال

* * *



فهرس الحيوان

* * *

فهرس الأوائل

* * *

فهرس الأواخر

* * *



فهرس الأشعار

الشطر الأول	القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
ـ وليس لي في سواك حظٌّ	فاختبرني	مجزوء البسيط	ـ	١	٥٠٠
ـ نون الهوان من الهوى مسروقة	هوانِ	الكامل	ـ	١	٤٣٦
ـ إنما يعرف ذا الفضل	ذووه	أبو العتاهية	١	٤٨	

ـ ي ـ

الشطر الأول	القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
ـ وإن شئت أركان الشريعة فاستمع	واعيا	الطويل	ـ	٢	٢٣٩

* * *



فهرس أنصاف الأبيات

* * *



فهرس المصطلحات والرموز والأشياء

ـ ب ـ

ـ ت ـ

* * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس مصادر التحقيق

- أبو العتاهية (أشعاره وأخباره) تحقيق الدكتور شكري فيصل. جامعة دمشق ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.
- إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن (الطبقات الصغرى): عبد الرؤوف المناوي. تحقيق محمد أديب الجادر. دار صادر ١٩٩٩.
- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- أخبار الحلاج: ماسينيون وكراوس. مطبعة المثنى. بغداد ١٩٣٦ م.
- أخبار القضاة: وكيع. عالم الكتب. بيروت.
- أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد: ابن أبي سعيد بن أبي الخير. ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل. الدار المصرية للتأليف.
- الأعلام قاموس تراجم: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين ١٩٨٠ م.
- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: ابن ماكولا. باعتناء عبد الرحمن يحيى المعلمي اليماني. الناشر محمد أمين دمج.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: علي بن يوسف القفطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.
- الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني. لفيف من الأساتذة. الناشر محمد أمين دمج ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا بن محمد أمين. مكتبة المثنى. بغداد.
- البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي. مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النهضة الرياض ١٩٦٦ م.
- بستان العارفين: محيي الدين بن شرف النووي. باعتناء محمد الحجاز. دار الوعي حلب.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى الضبي. دار الكاتب العربي ١٩٦٧ م.
- بلدان الخلافة الشرقية: كي لسترنج. مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.
- التاريخ: يحيى بن معين. تحقيق د. أحمد محمد نور سيف. جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٩ـ١٩٧٩.

- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان. أشرف على الترجمة د. محمود فهمي حجازي. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ م.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مكتبة القدسي ١٣٦٧ هـ.
- تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م.
- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي. دار الغرب الإسلامي. تحقيق بشار معروف.
- تاريخ خليفة: خليفة بن خياط. تحقيق أكرم ضياء العمري. مؤسسة الرسالة ودار القلم ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- تاريخ داريا: عبد الجبار الخولاني. باعتناء سعيد الأفغاني. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م.
- التاريخ الصغير: محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق محمود إبراهيم زايد. دار المعرفة بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.
- التاريخ الكبير: إسماعيل بن إبراهيم البخاري. المكتبة الإسلامية تركيا.
- تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن بن عساكر. أجزاء متفرقة. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه: ابن حجر العسقلاني. تحقيق علي محمد البجاوي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: علي بن الحسن بن عساكر. دار الفكر ١٣٩٩ هـ.
- تجارب الأمم: أحمد بن محمد مسكوية. شركة التمدن الصناعية بمصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م.
- تحفة الأحوذي: المباركفوري. دار الكتب العلمية.
- التدوين في أخبار قزوين: عبد الكريم الرافعي. تحقيق عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية ١٩٨٧م.
- تذكرة الأولياء: ترجمة: د. منال اليمني عبد العزيز. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م.
- تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.

ـ تراث الحلاج. إعداد وتحقيق د. عبد الإله نبهان، ود. عبد اللطيف الراوي. دار الذاكرة. حمص ١٩٩٦.

ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك: القاضي عياض. تحقيق: أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة.

ـ تزيين الأسواق: المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢.

ـ التصوف وفريد الدين العطار. تأليف: د. عبد الوهاب عزام. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م.

ـ التعرف لمذهب أهل التصوف. تصحيح. اربري. مكتبة الخانجي ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م.

ـ تفسير القرطبي: طبعة دار الشعب. القاهرة ١٣٧٢هـ.

ـ تكملة إكمال الكمال: محمد بن علي ابن الصابوني. تحقيق د. مصطفى جواد. مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

ـ التكملة لكتاب الصلة: محمد بن عبد الله ابن الأبار. باعتناء السيد عزت العطار الحسيني. مكتب نشر الثقافة الإسلامية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م.

ـ التكملة لوفيات النقلة: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. تحقيق بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

ـ تلخيص المتشابه في الرسم: أحمد بن علي الخطيب البغدادي. تحقيق سكينة الشهابي. دار طلاس ١٩٨٥ م.

ـ تهذيب الأسماء واللغات: محيي الدين بن شرف النووي. إدارة الطباعة المنيرية.

ـ تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدرآباد الدكن ١٣٢٧ هـ. الهند.

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال: أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

ـ توضيح المشتبه: ابن ناصر الدين الدمشقي. تحقيق محمد نعيم العرقسوسي. مؤسسة الرسالة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م.

ـ الثقات: محمد بن حبان البستي. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م. الهند.

ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد ابن الأثير، ج (١ـ١١) تحقيق عبد القادر الأرنؤوط. مكتبة الحلواني والملاح ودار البيان ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م. ج (١٢ـ١٥) بإشراف عبد القادر الأرنؤوط. دار ابن الأثير ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م.

- جامع كرامات الأولياء: يوسف بن إسماعيل النبهاني. دار الكتب العربية الكبرى بمصر.
- الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م الهند.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر القرشي. تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو. مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية. تحقيق محمد خالد الخرسة. دار البيروتي.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي. مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني. مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء للعبد لكاني الزوزني. تحقيق محمد جبار المعيبد.
- حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري. تحقيق: إبراهيم صالح. دار البشائر ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال: جلال الدين السيوطي. اعتناء عبد الهادي منصور. دار البيروتي ٢٠٠٥.
- دائرة المعارف الإسلامية. دار الفكر.
- دول الإسلام: محمد بن أحمد الذهبي. مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن ١٣٣٧ هـ.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: إبراهيم ابن فرحون. مطبعة عباس ابن شقرون. مصر ١٣٥١هـ.
- ديوان أبي العتاهية= أبو العتاهية.
- ديوان الأعشى - شرح د. يوسف شكري فرحات. دار الجيل.
- ديوان الحلاج: جمع الدكتور سعدي الضناوي - دار صادر. ١٩٩٨. وانظر تراث الحلاج.
- ديوان ديك الجن. جمع وتحقيق مظهر الحجي. منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٧م.
- ديوان ابن الرومي. تحقيق د. حسين نصار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٣م. ط٢.
- ديوان زهير بن أبي سلمى. دار الكتب المصرية ١٩٤٤م.
- ديوان الشافعي - جمع وتحقيق سليمان البوطي. دار إقرأ ٢٠٠٣.
- ديوان الصبابة: ابن أبي حجلة (على هامش تزيين الأسواق) المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢هـ.
- ديوان ابن الفارض. دار صادر.
- ديوان مجنون ليلى. جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج. مكتبة مصر.

ـ ديوان محمود الوراق. جمع وتحقيق د. وليد قصاب.

ـ ديوان المعاني: لأبي هلال العسكري، مكتبة القدسي ١٣٥٢.

ـ ذكر أخبار أصبهان: أبو نعيم الأصبهاني. ليدن ١٩٣٤ م.

ـ ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات: أبو عبد الرحمن السلمي. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية.

ـ الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي. دار المعرفة بيروت.

ـ الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف. دار الكتب الحديثة بمصر.

ـ الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة: محمد بن جعفر الكتاني. مطبعة دار الفكر ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م.

ـ رشحات عين الحياة: علي الهروي. مصورة دار صادر.

ـ روض الرياحين في حكايا الصالحين: عبد الله بن أسعد اليافعي. باعتناء: محمد أديب الجادر وعدنان عبد ربه، ومأمون الصاغرجي. دار البشائر ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م.

ـ الزهد: عبد الله بن المبارك.

ـ زيارات الشام: ابن الحوراني. المكتبة العلمية في دمشق.

ـ سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر.

ـ سنن أبي داود. تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد. دار الحديث حمص ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م.

ـ سنن الترمذي: تحقيق أحمد محمد شاكر وأساتذة. دار إحياء التراث العربي.

ـ سنن النسائي. اعتناء عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م.

ـ سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

ـ سيرة ابن الخفيف الشيرازي: أبو الحسن الديلمي تصحيح ا. شيمل ـ طاري. أنقرة ١٩٥٥م.

ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد مخلوف. دار الكتاب العربي.

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن العماد. دار المسيرة بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

ـ شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

ـ شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية. تأليف عبد الرحمن بدوي. مكتبة النهضة بمصر.
ـ الصحاح؛ الجوهري. تحقق أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين ط٣ في ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
ـ صحيح البخاري= فتح الباري.
ـ صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م.
ـ صفة الصفوة: ابن الجوزي. تحقيق محمود فاخوري. دار المعرفة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.
ـ الضعفاء الكبير: محمد بن عمرو العقيلي. تحقيق د. عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.
ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي مصورة دار الجيل بيروت.
ـ طبقات الأولياء: عمر بن علي بن الملقن. تحقيق نور الدين شريبة. مكتبة الخانجي ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.
ـ طبقات الحنابلة: محمد بن أبي يعلى. باعتناء محمد حامد الفقي. مطبعة السنة المحمدية ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.
ـ طبقات خليفة: خليفة بن خياط. تحقيق أكرم ضياء العمري. مؤسسة الرسالة.
ـ طبقات الشافعية: أبو بكر بن هداية الله الحسيني. تحقيق عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٣ م.
ـ طبقات الشافعية: عبد الرحيم الإسنوي. تحقيق عبد الله الجبوري. رئاسة ديوان الأوقاف العراق ١٣٩٠ هـ.
ـ طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي. تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي.
ـ الطبقات الصغرى للمناوي= إرغام أولياء الشيطان.
ـ طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمي. تحقيق نور الدين شريبة. الناشر جماعة الأزهر للنشر والتأليف ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م.
ـ طبقات علماء الحديث: ابن عبد الهادي. تحقيق أكرم البوشي، وإبراهيم الزيبق. مؤسسة الرسالة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.
ـ طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي. تحقيق إحسان عباس. دار الرائد العربي ١٩٧٠ م.
ـ طبقات الفقهاء الشافعية: ابن الصلاح. تحقيق محيي الدين علي نجيب. دار البشائر الإسلامية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م.
ـ الطبقات الكبرى: ابن سعد. دار صادر بيروت.

- الطبقات الكبرى: ابن سعد (القسم المتمم) تحقيق زياد محمد منصور. مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م.
- الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار): عبد الوهاب الشعراني. دار الفكر.
- الطبقات الكبرى للمناوي= الكواكب الدرية.
- طبقات المحدثين بأصبهان: أبو الشيخ الأنصاري. تحقيق عبد الغفور البلوشي. مؤسسة الرسالة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي. ليدن ١٣٨٩ هـ.
- طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة وهبة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.
- العبر في خبر من غبر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق د. صلاح الدين المنجد. دائرة المطبوعات والنشر في الكويت ١٩٦٠ م.
- العبر (نص مستدرك): الذهبي. محمد رياض مراد. مجمع اللغة العربية دمشق.
- عطار نامه، أو كتاب فريد الدين العطار النيسابوري وكتابه منطق الطير. تأليف أحمد ناجي القيسي. مكتبة المثنى ببغداد ١٣٨٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- العظمة: ابن حبان. تحقيق رضاء الله المباركفوري. دار العاصمة. الرياض ١٤٠٨ هـ.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: محمد بن أحمد الحسني الفاسي. تحقيق محمد حامد الفقي. مؤسسة الرسالة. ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين العيني. تحقيق د. عبد الرزاق الطنطاوي القرموط. الزهراء للأعلام العربي. القاهرة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.
- عيون الأخبار: ابن قتيبة. مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.
- غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن الجزري. باعتناء برجستراسر. مكتبة الخانجي ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م.
- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: ابن عرب شاه. المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٥ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر دمشق.
- الفردوس بمأثور الخطاب: شيرويه بن شهردار الديلمي. تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م بيروت.
- فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل. تحقيق وصي الله بن محمد عباس. جامعة أم القرى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

ـ الفهرست: محمد بن إسحاق ابن النديم. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
ـ فوات الوفيات: محمد شاكر الكتبي. تحقيق إحسان عباس. دار صادر.
ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية: محمد عبد الحي اللكنوي. باعتناء محمد بدر الدين النعساني. مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ.
ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي. المكتبة التجارية مصر.
ـ قاموس الفارسية. تأليف عبد النعيم حسنين. دار الكتاب العربي.
ـ الكامل في التاريخ: علي بن محمد ابن الأثير. دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.
ـ الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني. تحقيق د. سهيل زكار. دار الفكر بدمشق ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م.
ـ كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان البستي. تحقيق محمود إبراهيم زايد. دار الوعي بحلب ١٣٩٦ هـ.
ـ الكشاف: الزمخشري. مصورة دار الفكر.
ـ كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني. مكتبة القدسي ١٣٥١ هـ.
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة. مكتبة المثنى بغداد.
ـ كشف المحجوب: الهجويري. دراسة وترجمة دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
ـ الكنى والأسماء: مسلم بن الحجاج القشيري. نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة الظاهرية. دار الفكر ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.
ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي. باعتناء بكري حياني، وصفوة السقا. مؤسسة الرسالة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.
ـ الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (الطبقات الكبرى): عبد الرؤوف المناوي. تحقيق محمد أديب الجادر. دار صادر ١٩٩٩.
ـ اللباب في تهذيب الأنساب: علي بن محمد ابن الأثير. مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٧ هـ.
ـ لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن الهند ١٣٣١ هـ.
ـ متن اللغة: أحمد رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م.
ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير. تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة. مكتبة نهضة مصر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م.

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي. مكتبة القدسي ١٣٥٢ هـ مصر.

ـ مُجمل فصيحي: فصيح أحمد الخوافي. تحقيق محمود فرّخ. مشهد ١٩٦١ م.

ـ المختار من مناقب الأخيار: ابن الأثير. تحقيق مأمون صاغرجي، عدنان عبد ربه، محمد أديب الجادر. مركز زايد للتراث والتاريخ ٢٠٠٣.

ـ مختصر تاريخ دمشق: ابن منظور. تحقيق لفيف من الأساتذة. دار الفكر ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد الله بن أسعد اليافعي. مطبعة دائرة المعارف النظامية. حيدرآباد الدكن ١٣٣٧ هـ.

ـ المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم. مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن ١٣٣٤ هـ.

ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: محب الدين بن النجار البغدادي. تحقيق محمد مولود خلف. مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م.

ـ مسند ابن الجعد: تحقيق عامر أحمد حيدر. مؤسسة نادر. بيروت ١٤١٠ ـ ١٩٩٠.

ـ مسند أبي حنيفة: تحقيق نظر محمد الفاريابي. مكتبة الكوثر. الرياض ١٤١٥ هـ.

ـ مسند أبي داود الطيالسي. دار المعرفة بيروت.

ـ مسند أبي يعلى الموصلي: أحمد بن علي بن المثنى. تحقيق حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م دمشق.

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل. المكتب الإسلامي، ودار صادر بيروت.

ـ مسند الشافعي. دار الكتب العلمية.

ـ مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حبان البستي. باعتناء فلايشهمر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م.

ـ المشتبه: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق علي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢ م.

ـ المصنف لابن أبي شيبة. تحقيق كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد ١٤٠٩هـ.

ـ المصنوع: علي باسلطان القاري. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. مكتبة الرشد ١٤٠٤.

ـ العظمة: عبد الله بن محمد الأصبهاني. تحقيق رضا الله المباركفوري. دار العاصمة. الرياض ١٤٠٨.

ـ المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق ثروة عكاشة. مطبعة دار الكتب بمصر ١٩٦٠ م.

ـ معاهد التنصيص: العباسي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مصورة عالم الكتب ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٧ م.

- معجم الأدباء: ياقوت الحموي. تحقيق د. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي.
- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق د. محمود الطحان. مكتبة المعارف الرياض ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي. دار صادر، ودار بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م.
- معجم الشيوخ: ابن عساكر. تحقيق د. وفاء تقي الدين. دار البشائر ١٤٢١ ـ ٢٠٠٠.
- المعجم الصغير: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق كمال يوسف الحوت. مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م.
- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق حمدي عبد الحميد السلفي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. العراق.
- معجم متن اللغة= متن اللغة.
- المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل: ابن عساكر. تحقيق سكينة الشهابي. دار الفكر.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: عمر رضا كحالة. المكتبة العربية بدمشق ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م.
- معرفة الرجال: يحيى بن معين. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥.
- معرفة القراء الكبار: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق بشار معروف وصالح عباس وشعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.
- المغني في الضعفاء: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق نور الدين عتر. دار المعارف حلب ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة: طاش كبري زاده. مطبعة دائرة المعارف النظامية حيدرآباد الدكن.
- المفضليات: تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف مصر.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: محمد بن عبد الرحمن السخاوي. صححه عبد الله محمد الصديق. مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.
- الملامتية وأهل التصوف وأهل الفتوة: تأليف د. أبو العلا عفيفي. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م.
- منازل السائرين: عبد الله الأنصاري الهروي. المعهد العلمي الفرنسي. ١٩٦٢. تحقيق س. دي لوجييه دي بوركي الدومنكي.

- مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار: ابن خميس. تحقيق محمد أديب الجادر. مركز زايد للتراث والتاريخ ٢٠٠٥.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن علي الجوزي. مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد الدكن ١٣٥٧ هـ.
- منطق الطير: فريد الدين العطار. دراسة وترجمة د. بديع محمد جمعة. دار الأندلس ١٩٧٩م.
- موسوعة العامية السورية: تأليف ياسين عبد الرحيم. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠٠٣.
- موسوعة فقه سفيان الثوري. تأليف محمد رواس قلعة جي. دار النفائس. ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.
- الموطأ: الإمام مالك بن أنس. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: الذهبي. تحقيق علي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م.
- نزهة الألباب في الألقاب: ابن حجر العسقلاني. تحقيق عبد العزيز السديدي. مكتبة الرشد ١٩٨٩.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي مصورة عن طبعة دار الكتب.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري. تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.
- نوادر الأصول في أحاديث الرسول: الحكيم الترمذي. تحقيق عبد الرحمن عميرة. دار الجيل. ١٩٩٢.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل باشا بن محمد أمين. مكتبة المثنى بغداد.
- الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي. النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمان ١٩٣١ م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر.

* * *

فهرس الموضوعات